Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الترجمة الكاملة
(١)

وصف مصر

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

المصريون المحدثون

NC
916.2
جبر
و
/1

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اهداءات ١٩٩٣
صندوق التنمية الثقافية
ج.م.ع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١

وصف مصر

الترجمة الكاملة

وصف مصر

المصريون المحدثون

تأليف

علماء الحملة الفرنسية

ترجمة

زهير الشايب

١٩٩٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميع الحقوق محفوظة للمترجم

الطبعة الثالثة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

لقد مضى على صدور هذا الكتاب فى طبعته الأولى من الترجمة العربية أكثر من خمسة عشر عاماً ، لاقى خلالها – ولايزال – الاهتمام المتزايد من القارئين والمتخصصين . ولعل السبب وراء هذا الاهتمام يتضح لنا مما ذكره فورييه فى مقدمة الطبعة الفرنسية ، حيث يقول : " لم يسبق لأى بلد آخر أن خضع لأبحاث بمثل هذا الشمول وهذا التنوع ، وفضلاً عن ذلك فليست هناك بلاد أخرى جديرة بأن تكون موضوعاً لأبحاث كهذه ، فمعرفة مصر أمر يهم فى الحقيقة كل الأمم المتحضرة ".

وإذا كان لعلماء الحملة الفضل والتقدير لتأليف هذا الصرح الفريد ، فقد أتاح المترجم الفرصة لأناس كثيرين – لاسيما المصريين – كي يعرفوا قدر هذا الوطن العظيم ، الشامخ على مر العصور.

واعترافاً بفضل وأثر هذه الترجمة ، نال والدى – رحمه الله – التقدير من عدة جهات معنية ، كان من أبرزها حصوله على جائزة الدولة التشجيعية ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٧٩.

وكلما زاد الاهتمام بالكتاب كلما تضاعفت المسئولية ، ومن ثم لم تتوان والدتى – بعد رحيل أبى – أن توقف جل شأنها لهذا العمل ، كي يلقى من الرعاية ما يستحقها ، ويظل موفوراً للقارئين . ولقد بذلت والدتى من الجهد – فى سبيل ذلك – ما ينوء بأولى العزم من الرجال ، ومزيداً من الحرص على هذا العمل آثرت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- مع أنها مثقلة بحملها - أن تنشر هذه الموسوعة على نفقتنا الخاصة ، وما ذلك على الناشرين بيسير.

وكانت هذه الطبعة التى نقدمها بين يدى أعزائنا القراء والدارسين هى أحد ثمرات هذا الجهد المضنى الذى تبذله والدتى طوال سنين ، وقد سعينا جاهدين أن تتخلص من عيوب الطبعات السابقة وتخرج فى شكل أفضل .

والله خير معين ،،

أكتوبر ١٩٩٢

منى زهير الشايب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــــــــــدمة

يسعدنى أن أقدم هذه الطبعة الثانية من المجلد الأول من الترجمة العربية الكاملة لكتاب وصف مصر، وهو المشروع الذى بدأ يرى النور لأول مرة منذ نحو ثلاث سنوات بصدور هذا المجلد فى طبعته الأولى.

وأرجو مع صدور الطبعة الثانية أن يكون قد بدأ يتخذ شكله النهائى إخراجا ومادة.

وقد وجدت من اللائق أن ألحق بهذا المجلد دراستين، لم يسبق نشرهما فى الطبعة الأولى : وتتناول الدراسة الأولى البنية الفيزيقية لسكان مصر، وهى من وضع البارون لارى أحد كبار أطباء الجيش الفرنسى. أما الدراسة الثانية فهى عبارة عن مقدمة مطولة للطبعة الثانية لموسوعة وصف مصر التى تعرف باسم طبعة بانكوك، والتى صدرت بموجب مرسوم ملكى صادر من لويس الثامن عشر، أوردت ترجمة له فى صدر هذه المقدمة التى أعدها فورييه سكرتير المجمع العلمى المصرى؛ وهى نفس المقدمة التى نجدها فى المجلد الخاص بشرح اللوحات ، فى طبعته الأولى الفرنسية . وقد ترتب على ذلك تغيير اسم هذا المجلد الأول من الطبعة العربية إلى اسمه الحالى «المصريون المحدثون » حيث إن الاسم الثانى أكثر تطابقا - مع محتويات هذا المجلد - من الاسم الأول الذى أصبح واحدة من دراسات هذا المجلد الحالى.

وقد اقتضى الأمر تقسيم المجلد فى كتابين:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأول: ويشتمل على دراسة شابرول التى كانت تشكل وحدها كل المجلد فى طبعته الأولى.

والثانى: ويشتمل على الدراستين اللتين رأيت إضافتهما إلى المجلد فى طبعتنا هذه.

ولابد فى هذه المقدمة السريعة أن أشيد بدور مكتبة الخانجى فى إنجاز هذا العمل، وتيسير السبيل له ، مما أتاح صدور ثلاثة مجلدات منه من الثانى إلى الرابع فى عام واحد، الأمر الذى أعطى لمجهودنا دفعة هائلة، وسيتوج ذلك بإذن الله بإصدار لوحات وصف مصر الشهيرة، وقد بدأت المكتبة تعد عدتها لذلك. وقد استقر الرأى على صدور هذه اللوحات مرفقة بالنصوص، بحيث ترافق اللوحات النص العربى الذى يتناولها ، ويتفق هذا المنهج فى النشر مع المنهج الذى اتبع عند نشر النص نفسه . فتحية لكل من الحاج نجيب الخانجى، والأستاذين: محمد الخانجى، ونبيل خليل؛ لما لهم من فضل على هذا العمل. كما سيظل العمل مدينا على الدوام للدكتور عبد العزيز الدسوقى، ولكل العاملين بمجلة الثقافة .

ولو أننى وفيت كل إنسان حقه لما اتسعت الصفحات لإسداء الشكر لكل ذوى الفضل، وهم كثيرون بحيث لا أجدنى مبالغا ولا مجاملا إن قلت إن وصف العمل بأنه جهد فردى أمر يجافى الحقيقة، وكما أن عملا كهذا هو مقدم أصلا للناس فإنه قد قام أيضا بهم.

وفقنا الله جميعا لما فيه خير مصر الحبيبة وكل وطننا العربى..

يناير ١٩٧٩.

المترجم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتاب الأول

دراسة في عادات وتقاليد

سكان مصر المحدثين

تأليف

ج. دى شابرول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقديم

على الرغم من أن وراء هذه المبادرة لترجمة «كتاب وصف مصر» - ككل مبادرة فردية - دوافعها وأسبابها وظروفها الخاصة؛ فإنها ينبغى أن توضع ضمن إطار أوسع وأشمل من تلك الدوافع والأسباب الخاصة، لتربط بذلك الاهتمام الكبير الذى بدأ المفكرون المصريون يولونه لتاريخهم الحديث والمعاصر بعد صدمة يونية ١٩٦٧.

فمنذ تلك الصدمة الهائلة، بدأت الكتب- مؤلفة ومترجمة - تصدر تباعا تتحدث عن تاريخ مصر ودور مصر.. وهكذا لم يعد التاريخ - وتاريخ مصر بالذات - مجرد دراسات أكاديمية لا يتولاها إلا المختصون، وإنما أصبح ثقافة أصيلة لكل مثقف وطنى تشغله أمور بلاده.

ومنذ ذلك الوقت بُدأ بتشكيل ذلك الإطار الثقافى الواسع الذى أشير إليه. ويسعدنى أن أضع اليوم فى داخل هذا الإطار كتابنا هذا الذى يشكل دراسة كاملة من ذلك السفر الضخم، الذى لايفوق شهرته إلا طول إهمالنا له: كتاب «وصف مصر» أو مجموعة الملاحظات والأبحاث التى أجريت فى مصر أثناء حملة الجيش الفرنسى، وهذا هو عنوان ذلك السفر الضخم كاملا.

وقد طبع هذا السفر الذى أسمى بحق انسكلوبيديا مصرية مرتين:

الأولى: وقد استغرق العمل فيها من ١٨٠٩ إلى ١٨٢٢.

وقد ظهر المجلد الأول منها عام ١٨٠٩، وكتب على غلافه وكذلك على غلاف المجلد الثانى أنه قد طبع بأمر صاحب الجلالة الامبراطور نابليون الأكبر، لكن بقية المجلدات التسعة قد ظهرت بعد سقوط نابليون، لذا كتب على غلافها بأنها قد طبعت بأمر من الحكومة.

أما هذه المجلدات التسعة فموزعة على النحو الآتي:

مجلدان : لدراسة التاريخ الطبيعي لمصر، ويشتملان على دراسات عن طيور ونبات وحيوانات وأسماك وحشرات ... مصر.

أربعة مجلدات: لدراسة العصور القديمة، اثنان منها للدراسات، واثنان آخران لوصف آثار العصور القديمة.

ثلاثة مجلدات:لدراسة الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر التي تبدأ تقريبا منذ الفتح الإسلامي حتى مجيء الحملة الفرنسية، لكنها عمليا تعالج أحوال مصر في العصر العثماني حتى مجيء هذه الحملة.

وتشتمل هذه المجلدات على دراسات عن مختلف نواحي الحياة في مصر كما شاهدها علماء الحملة ومهندسوها . وبعض هذه الدراسات طويلة، بحيث يمكن نشرها مستقلة في كتاب، شأن الدراسة التي ننشرها اليوم، وبعضها متوسط الطول، وبعضها مجرد ملاحظات لاتستغرق أربع أوخمس صفحات.

ولقد ركزت عملي على مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة، واتبعت بشأن الدراسات والمذكرات القصيرة منهج تجميعها بشكل متكامل إلى بعضها البعض:فقد جمعت -على سبيل المثال- تلك الدراسات المتناثرة في المجلدات الثلاثة عن أحوال العربان والجماعات والرحل في مصر إلى بعضها البعض، لتشكل في مجموعها كتابا كاملا أرجو أن أتمكن من نشره قريبا ... وهكذا الحال في دراسات أخرى تتناول موضوعات مختلفة.

أما الطبعة الثانية فقد صدرت في ستة وعشرين مجلدا ، بالإضافة إلى أحد عشر مجلدا للوحات، وأطلس جغرافي . ومجلدات اللوحات هي نفس المجلدات التي صدرت مع الطبعة الأولى، وبيانها كما يلي :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خمسة مجلدات للوحات العصور القديمة ، ومجلدان فى ثلاثة أجزاء للتاريخ الطبيعى، ومجلدان للحالة الحديثة لمصر، بالإضافة إلى مجلد واحد يشتمل على مقدمة لفورييه مع شرح للوحات، ثم الأطلس الجغرافى ويشتمل على خرائط مفصلة لمدن وأقاليم مصر.

وجدير بالذكر أن محتويات المجلدات الستة والعشرين هى نفسها محتويات المجلدات التسعة فى الطبعة الأولى، فالطبعة الثانية - كما هو واضح- قد وُزِّعت على مجلدات أصغر حجما من الأولى. والاختلافات بين الطبعتين طفيفة يمكن إجمالها فيما يلى:

١- كانت الطبعة الأولى مهداة إلى «الامبراطور نابليون» أما الثانية فهى مقدمة إلى «صاحب الجلالة الملك».

٢- بدأت الطبعة الأولى بمجلدات الدولة الحديثة الثلاثة، أما الطبعة الثانية فبدأت بوصف آثار العصور القديمة.

٣- تشتمل الطبعة الثانية على مقدمة تقع فى حوالى ١٨٠ صفحة من حجم هذه الطبعة من وضع فورييه، ونجد هذه المقدمة نفسها فى المجلد الأول من اللوحات.

٤- تشتمل الطبعة الثانية على دراسة لم ترد فى الطبعة الأولى، وتتناول هذه الدراسة جامع أحمد بن طولون وحياة منشئه.

وقد بدأ العمل فى هذه الطبعة من عام ١٨٢١ وانتهى فى عام ١٨٢٩.

***

والكتاب الذى بين يدينا اليوم هو دراسة كاملة من دراسات المجلد الثانى من مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة.

ومؤلف هذه الدراسة هو : جلبير جوزيف جاسبار كونت دى شابرول

Gilbert Geoseph Gaspard Comte de Chabrol

ويشار إليه باسم: شابرول دى فولفيك Chabrol de Volvic

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ولد فى ريوم Riom سنة ١٧٧٣ ومات ١٨٤٣ (وهذا يعنى أنه عندما قدم إلى مصر كان يبلغ الخامسة والعشرين من العمر) وكان مهندسا للطرق والكبارى، وعين بعد عودته من مصر مأمورا لمدينة مونتينو Montenott سنة ١٨٠٦، وأنشأ بها طريق الكورنيش. وفى عام ١٨١٢ قابله نابليون بشكل عابر ، وكان شابرول يقضى إجازته فى باريس، ودار بينهما حديث ، فأعجب به نابليون وعينه مأموراً للسين، فأدار باريس كما ينبغى أن تدار مدينة كبرى وعاصمة لامبراطورية كبرى، وقد نجح فى ذلك نجاحا كبيرا حتى أن لويس الثامن عشر قد اضطر لاستبقائه فى وظيفته الحساسة، على الرغم من أنه قد عين من قبل نابليون.

وتدين له باريس بكثير من الأعمال الرائعة ذات النفع العام.

ولعل هذا التعريف الموجز بمؤلف هذه الدراسة سيكون سببا قويا لأمرين:

الأول : ماسوف نبديه من إعجاب حق بقدرة هذا المؤلف الشاب على الرصد والتأمل والفهم والإحاطة فى مجال أبسط ما يقال فيه أنه ليس مجال تخصصه.

الثانى : التماس العذر له فى بعض الأمور التى التبس عليه فهمها، بل وفى بعض الأخطاء التى وقع فيها، وبخاصة فى مجال المعتقدات والشرائع.

ولقد آثرت هنا أن أقدم ترجمة كاملة أمينة نصا وروحا لكل ما ذكره المؤلف خاصا بنا وبمعتقداتنا، وسوف يلاحظ القارئ أننى قد آثرت عدم التدخل إلا فى أضيق نطاق ممكن لاعتبارت لا بأس من طرح بعضها:

١- أننا هنا بصدد أثر علمى هام ينبغى أن يحظى بالاحترام.

٢- أنه ليس كل ما يقال عنا صحيحا على إطلاقه، وإن كان ينبغى علينا فى كل الأحوال ألا نخشى أية فكرة صحيحة.

٣- أنه قد آن الأوان لنواجه بشجاعة مايقال عنا، فتجاهل ذلك أو الصمت عنه ليس هو الوسيلة المثلى، فذلك الموقف لن يعنى إلا تسليمنا ولو بشكل سلبى بصحته، ومعرفة ما يقال عنا هى أفضل وسيلة لمواجهته بل ودحضه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤- أن الأقوياء لا يخافون معرفة ما يقال بشأنهم، ولا أظن أحدا يجادل فى قوة عقيدتنا.

وأننى فيما فعلت إنما كنت أصدر عن تقديس كبير للإسلام ولنبيه الكريم، كما أننى واثق أننى فيما التزمت به من أمانة فى النقل كنت أقرب ما يمكن إلى روح الإسلام الذى ينهض أول ما ينهض على الإقناع العقلى ، والذى كانت أول آية فى كتابه الكريم تدعو إلى القراءة والفهم ، والذى لا يستوى - بنص آياته - الذين يعلمون والذين لايعلمون.

بل إن المؤلف لم يكن دقيقا كذلك فى حديثه عن بعض الطقوس المسيحية، وقد آثرت أن أترك كل شئ على حاله: ذلك أنه لا القارئ المسلم ولا القارئ المسيحى سوف يلجأن لكتاب وصف مصر لدراسة الشرائع والعبادات. فلهذه وتلك، عند هذا وذاك ، المصدر الذى يعرفانه جيدا..

وبرغم كل شئ فإن واجب الأمانة يقتضى أن أعترف بما يأتى:

١- أننى قد حذفت من الجزء الخاص بالأقباط نصف جملة وجدت أن اللياقة تقتضى حذفها.

٢- أننى حذفت هامشا كاملا أثار - عند نشره بمجلة الثقافة - ردود فعل لم أكن أتوقعها، ولا يتجاوز هذا الهامش أربعة سطور.

٣- أننى جذفت آخر عبارة فى الكتاب (حوالى سطر ونصف) إذ وجدت من الأفضل ألا تترك هذه الجملة طعما مريرا فى حلق القارئ ، بعد صحبة ممتعة مع مؤلف حاول جهده أن ينصفنا طيلة مؤلفه.

وأننى إذ أستميح القراء عذرا فيما فعلت أود أن يشاركنى الجميع عندما يقفون أثناء القراءة على بعض أخطاء المؤلف، وخلطه فى أحيان كثيرة بين بعض الطقوس الدخيلة بل وبعض الممارسات الشاذة، والعقائد والعبادات بشكلها الأنقى،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أود أن يشاركونى فى التماس العذر للرجل، وأن نحاول بروح الإنصاف المعهودة فينا أن نحسب له محاولة فهمنا وإنصافنا، أكثر مما نحسب عليه ما وقع فيه من أخطاء أو سوء فهم أو تسرع فى الحكم، ذلك أن عديدا من أحكامه بدت فى شكل أفكار مسبقة لا تنهض على أساس حقيقى، كما لا ينبغى لنا أن نتناسى كونه عضوا فى حملة غازية، وأنه مخالف لنا فى عقائده، بل وأن كثيرا من فكره إنما هو ترديد لأفكار كانت شائعة فى القرن التاسع عشر ، تربى هو - كأوربى وفرنسى بالذات - فى كنفها.

ويدفعنى الواجب فى النهاية أن أقدم خالص تقديرى وشكرى لشيخ المؤرخين الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذى كان لتشجيعه أكبر الأثر فى دفعى للتصدى لهذا العمل الكبير، كما أوجه خالص تحياتى وعرفانى للأستاذ رينيه خورى مدرس اللغة الفرنسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية والمشرف على مكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. وهو عالم فاضل وباحث مدقق ولايفوق علمه القدير إلا أدبه الجم ، فقد كان له فضل كبير على إنجاز هذا العمل ، وفى نفس الوقت فإنى أشكر أخى الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن أستاذ التاريخ الحديث بكلية البنات الإسلامية، لما قدمه لى من عون، كما لابد أن أشير إلى أن مؤلفه الهام «الريف المصرى فى القرن الثامن عشر» كان معينا لى على تحقيق كثير من المسميات وإيضاح كثير من المعلومات.

ولن يفوتنى أن أوجه شكرى للأخ الدكتور عبد العزيز دسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة وكذلك الأديب الفنان الأستاذ ثروت أباظة رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون لما قاما به نحوى من تشجيع حين أفردا صفحات مجلتيهما لنشر أجزاء كبيرة من وصف مصر، مما أحيا الاهتمام بالكتاب فى وقت كاد الكتاب أن يصبح فيه نسيا منسيا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما أنى حين أقدم شكرى للسيدة زوجتى فإننى لا أفعل ذلك من قبيل اللياقة وإنما هو عرفان حقيقى بما قدمته لى من عون كبير برغم ظروفها الصعبة كإخصائية اجتماعية وربة بيت وأم . كما لابد أن أوجه شكرى لعشرات من الأصدقاء أولونى قدرا كبيرا من التشجيع مما كان له فى نفسى أثر جميل.

وفى النهاية أستميح القارئ عذرا إن وجد بالعمل بعض الثغرات، وإنه لواجدها، وليكن حسبى من هذا العمل أن أنجو فقط من اللوم ، وأن أكون قد قدمت على قدر طاقتى خدمة لوطنى مصر، ولمواطنى المصريين.

فبراير ١٩٧٦

زهير الشايب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

لمحة عامة عن الطقس وعن السكان

وعن تقاليد وعادات المصريين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١

عن المناخ

كانت الآثار المادية لمصر القديمة موضوعا لدراسات عدة وجدت لنفسها مكانا في أجزاء من هذا الكتاب (*)، وقد آلينا على أنفسنا هنا أن نقدم لوحة مختصرة لتقاليد سكان مصر الحديثة. وسوف يحملنا ما قد نجده من ملامح التشابه مع العادات القديمة على القيام ببعض المقارنات، وذلك أمر يستحق منا بالفعل اهتماما كبيرا خاصة ونحن بصدد الحديث عن بلد تمتلئ مخيلته بالذكريات، ويخطو فيها الفيلسوف فى أثر المؤرخ، لذلك فإنه من المناسب أن ندرس الأسباب المختلفة التى تؤثر على الطقس وفعل هذا الطقس على الكائنات الحية: وهكذا سوف يكون السكان موضوعا لدراستنا فى نفس الوقت الذى تشكل فيه آثار الماضى القديم موضوعا لأبحاث عميقة لعلماء الآثار.

تقع مصر فى واحد من أكثر المواقع أهمية فى الكرة الأرضية. وحيث إنها تقع على أحد طرفى أفريقيا فهى تربط هذه القارة بآسيا،كما أن موانيها الواقعة على البحر المتوسط تجعلها - وبشكل ما - تلامس أوربا. وهى تقع بين خط العرض ٢٤:١° وخط العرض ٣١:٣٧° شمال خط الاستواء، أما عن خطوط الطول فهى تقع بين خطى ٢٧° و٣٢°-وذلك إلى الشرق من باريس.

ويكفى هذا الموقع فى حد ذاته لكى نضع مصر ضمن المناطق شديدة الحرارة، لولا أن ثمة بعض عوامل تساعد على التقليل من ارتفاع درجة

(*) وصف مصر .(المترجم) .

الحرارة.فترمومتر ريومور يقف بدرجة الحرارة فى المنازل الرطبة ، وأيضا فى مصر السفلى خلال شهرى يولية وأغسطس عند ٢٤° أو٢٥°، بينما تصل فى شمال مصر العليا وفى الظل ، إلى ٣٤°، لكنها ترتفع فى المناطق الرملية لتصل إلى ٥٤° (١) .ولا يحدث ذلك بسبب القرب من المنطقة الاستوائية فقط كما لاحظ فولنى Volney-وهى منطقة لابد أن نتوقع أن جوها شديد الحرارة - بل وأيضا بسبب التربة نفسها . و هى فى العادة ترتفع قليلا فوق مستوى سطح البحر، ومغطاة فى جزء منها برمال متحركة . وهذه الرمال تركز أشعة الشمس- التى تكون شبه عمودية فى فصل الصيف - ثم تعكسها، لتسقط من فوق جبال قليلة الارتفاع، عارية من أية خضرة، على سهول قاحلة ليس فيها مايمكنه أن يحد من لهيبها، فى منطقة قريبة من المنطقة الحارة . من هنا ينتج هذا الجفاف الشديد للمناخ ، وتلك الندرة فى الأمطار التى يمكنها أن تلطف الجو.

وبرغم ذلك، فهذا الجفاف لايشمل بدرجة متساوية كل أنحاء مصر، فالمطر يسقط كثيرا فى الأقاليم المجاورة للبحر المتوسط ، وكذا فى الصحراوات الواقعة بين وادى النيل والبحر الأحمر، وتشهد بعض الأخوار المحفورة فى أماكن عدة من الهضبة الأفريقية بأن هذه الأمطارتكون فى بعض الأحيان بالغة القوة لحد تصبح معه سيولا. لكن ثمة أمرا يعد واحدا من الملامح المميزة للطقس فى مصر، وهو كذلك عام فى كل المنطقة، ألا وهو تكون الندى بوفرة شديدة، ولعل له بعض التأثير على خصوبة التربة وبخاصة فى الفترة التى يكون فيها مستوى النيل أدنى من مستوى الأرض. ومن أولى خصائص هذا الندى ترطيب وتنقية الهواء والمساهمة فى خفض درجة الحرارة مما يؤدى فى أيام القيظ إلى وجود فروق هائلة بين درجة الحرارة بالنهار ودرجتها بالليل، يمكن أن تبلغ ٢٠درجة، ويستمر ذلك لمدة سبع أوثمانى ساعات ، وهذا بعض مايسبب كثرة انتشار أمراض العيون على ضفاف النيل كما سنوضح ذلك فى نهاية هذا الفصل.

---

(١) وبخاصة فى فيلة وأسوان وكوم أمبو.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتكاد الأمطار لاتسقط مطلقا فى المنطقة الوسطى من مصر. وتشكل مياه الفيضان ، وكذلك الندى الذى يتكون فى الليل والذى تتباين وفرته تبعا لاتجاه هبوب الرياح، العوامل الخصبة الوحيدة للأرض. ويعود جفاف الجو الشديد إلى حرارة التربة الملتهبة وإلى اتجاه الرياح الذى يتحكم فيه شكل الوادى . وتتكون السحب بفعل أبخرة البحار التى تحد مصر من الشمال ومن الشرق، وتدفعها تيارات الهواء، وهى تيارات قوية، لكنها ما إن تقترب من الجبال التى تحصر وادى النيل من الشرق ومن الغرب حتى يصبح أثرها أقل قوة، لذا يسقط هناك المطر فى بعض الأحيان.

نزل الجيش الفرنسى أرض مصر فى وقت القيظ الشديد، وهى فترة تسود فيها على الدوام تقريبا رياح الشمال والشمال الغربى، ويبدأ فيها النيل فى استقبال موجات الفيضان الأولى. لقد جاء الجيش فى شهر يولية حيث كانت الريح التى تندفع بشدة تُظلم الجو بدوامات من الرمل الناعم الدقيق، ويستطيع سكان المدن بالكاد أن يحتموا من هذه الدوامات داخل بيوتهم. وفى هذا الجو تصبح الأسفار شاقة وشبه مستحيلة، لكن هذه الدوامات تقلل من وطأة الحر الذى يقل الإحساس به لدرجة كبيرة فى الأسكندرية عنه فى داخل البلاد، كما أن هذه الدوامات تعمل على طرد السحب المتراكمة نحو النوبة والحبشة ، تلك السحب التى تصب أمطارها فجأة فى المناطق الجبلية والمغطاة بالغابات. وهكذا فإن هذه الرياح العاصفة غير المستحبة تساهم على نحو ما فى ازدهار مصر حيث تجعل الفيضانات أكثر وفرة.

ويبدأ النيل فى الامتلاء فى نحو نهاية شهر يونية وبداية يولية، ولايخضع حجم مياه الفيضان لقواعد محددة. وفى السنوات العادية يصل ارتفاع النيل فى القاهرة إلى ٨ أمتار(١٤-١٥ ذراعا حسب مقياس جزيرة الروضة) ويصل أحيانا لاكثر من ذلك، ولكى يكون الفيضان وفيرا ينبغى أن يصل ارتفاع النيل إلى ١٦-١٧ ذراعا، عندئذ يبدو وادى مصر- أى أراضيها المزروعة - فى شكل بحيرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واسعة، وتبدو القرى المقامة على تلال صناعية كما لو كانت جزرا صغيرة متناثرة فوق سطح محيط ، وليس ثمة ماهو أروع من هذا المشهد. وعليك حتى تحظى بالاستمتاع به على نحو طيب أن تصعد إلى قمة الهرم الأكبر فى الجيزة، كما يمكنك أن تحيط بجزء من هذه اللوحة الرائعة من أعلى القلعة فى القاهرة. ولاتستطيع الأراضى المزروعة والتى تقع على مسافة بعيدة من شواطىء النهر أن تتمتع بفوائد الفيضان، لكنها تحصل على ما يرويها عن طريق الترع أو بواسطة ماكينات بسيطة الصنع (السواقى).

وثمة خاصية أخرى نجدها فى تربة مصر، هى اختلاطها بمواد مالحة تطفح كل صباح على سطحها، وبلا جدال فإن هذا الملح الذى يوجد بوفرة فى كل مكان يساهم فى تنشيط العامل المخصب لطمى النيل.

وفصل الأمطار فى مصر هو الشتاء، وهى تهطل بكثرة فى الأسكندرية ورشيد وعلى كل الشاطىء ، لكنها لاتستمر طويلا، ويُشاهَد عند المقطم المطل على القاهرة أغوار وحفرات لابد أنها كانت مجارى لسيول قديمة.

٢

عن السكان وطبقاتهم المختلفة

كان تقدير تعداد سكان مصر على الدوام عرضة لأخطاء خطيرة، وقد وقع أغلب المؤرخين المحدثين والقدامى فى مبالغات كبيرة يمكن لأى توصيف بسيط للأماكن أن يدحضها . وإلى جانب الخدمات التى قدمتها الحملة الفرنسية للعلوم والفنون والآثار فى مصر ، فإنها قد حثت كذلك على استخدام الإحصاء فى الأبحاث والدراسات التى تتخذ موضوعا لها أحد الأمور الهامة، وهكذا أمكن التوصل ليس فقط إلى تحديد مساحة الأراضى المنزرعة والقابلة للزراعة بطريقة أقرب إلى الموضوعية، بل وكذلك إلى عدد القرى والكفور التى تغطى وادى النيل،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما أمكن بالمثل تقدير تعداد السكان في مصر، وكذا تعداد سكان مدنها الهامة. وبخلاف ماجمعته أثناء وجودى فى مصر من معلومات فقد استعرت هنا بعض التفاصيل من الدراسة التي كتبها جومار Jomard عن تعداد السكان فى مصر الحديثة مقارنا بتعداد السكان فى مصر القديمة. وحيث إن جومار قد أقام حساباته على معطيات أكثر دقة عن تلك التى جمعت حتى الآن، وحيث إنه أبان عدد الموتى وخصوبة السيدات ومقدار الضرائب واستهلاك الحبوب بالإضافة إلى أمور أخرى هامة ذات طابع اقتصادى وسياسى،فإنه قد توصل بذلك إلى نتائج نعتبرها قريبة من الحقيقة.

وبعد أن قام جومار بالتحقق من تعداد سكان المدن الهامة فى مصر والثابت فى وثائق أصلية مثل سجلات الضرائب العقارية المسوكة بأيدى الإداريين الأقباط، وبعد مراجعة بيانات الوفيات التى جمعها المسيو دى جينت Desginettes أثناء ثلاث سنوات هى عمر حملتنا، وكذلك إحصاءات المواليد التى جمعها المهندسون الفرنسيون، فإنه -أى جومار- قد استخلص نتيجة شبه مؤكدة عن تعداد الشعب فى مجموعه. وسوف اكتفى هنا بإيراد فقرة من ملخصه تضم نتيجتين متقاربتين وصل إليهما عن طريقين مختلفين : «إن تحديد المساحة الحقيقية للأرض المزروعة ثم حصر عدد السكان فى جزء محدد من مساحة البلاد يؤدى – بعد تعميم هذه النسبة وإضافة الناتج الإجمالى إلى عدد سكان القاهرة – إلى نتيجة شبه مؤكدة، وهى أن تعداد سكان مصر يبلغ ٢,٤٤٢,٢٠٠ نسمة، أما الطريقة الثانية فقد بينت أن عدد قرى مصر يبلغ ٣,٦٠٠ قرية ، وأن متوسط سكانها هو٥٣٤ شخصاً لكل قرية ، أى أن تعداد سكان القرى يبلغ ٤٠٠ر١٠٢ر٢ نسمة، وبإضافة سكان المدن إلى ذلك الرقم فإن تعداد مصر يبلغ ١٠٠ر٤٦٧ر٢نسمة».

وحسب ما سبق فقد تحدد تعداد سكان مصر بحوالى ٥ر٢ مليون من السكان، ولايدخل ضمن ذلك مطلقا عدد العربان الذين يعمرون الصحراوات والذين لايمكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إخضاعهم لتعداد دقيق، لكن مسيو جوبير Jaubert من جهة أخرى يقدر عدد الفرسان العربان حسب الإحصاء الذى قام به بـ ٢٧٫٠٠٠ فارس، فإذا ما أضفنا إليهم نفس العدد لأشخاص راجلين وعدداً يتناسب مع ذلك من السيدات والأطفال فإن مجموع تعداد أبناء قبائل العربان سوف يرتفع إلى ١٣٠٫٠٠٠ نفس.

ولكى نقدم للقارىء فكرة عن مختلف طبقات السكان فى واحدة من مدن مصر، فسوف نضع تحت ناظره جدولا عن سكان القاهرة ، ولقد سهلت علينا إقامة الجيش الفرنسى فى هذه المدينة القيام بأبحاثنا بشكل طيب لحد نستطيع معه أن نغبط أنفسنا بأننا - شخصيا - قد حصلنا فى هذا الخصوص على معلومات شديدة القرب من الحقيقة.

كانت القاهرة فى عام ١٧٩٨ تضم مابين ٢٥٠-٢٦٠ ألفا من الأشخاص بما فى ذلك المماليك والتجار الأجانب، وقد قدر تعدادها بحسب إحصاء تم قبل مجىء الحملة الفرنسية بـ ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة، ويمكن تقسيم هذا العدد على هذا النحو:

- المماليك بما فيهم جنود الأوجاقات ، وعلى وجه العموم كل الفرق العسكرية المكونة من رقيق تم تحريرهم بعد ذلك مثل المماليك : ١٢٫٠٠٠
- الملاك : ٦٫٠٠٠
- التجار الذين تمتد معاملاتهم إلى خارج البلاد : ٤٫٠٠٠

ويتضمن هذا العدد التجار الأجانب الذين لايستقرون فى القاهرة إلا لوقت محدد مثل أولئك الذين يمتلكون محلات فى خان الخليلى والذين لايستقر معظمهم فيها، وكذلك التجار القادمين من أزمير والقسطنطينية وبغداد وحلب وجدة ينبع...الخ، وهم يصلون إلى القاهرة مع البضائع التى يبيعونها ، ويرحلون بعد ثلاثة أو أربعة شهور محملين ببضائع أخرى عند العودة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– حرفيون مستقرون، سواء كانوا أسطوات أو عمالاً عاديين ٢٥,٠٠٠

– صغار تجار القطاعي الذين يبيعون المأكولات والزيت والأرز والخضروات ومواد أخرى ٥,٠٠٠

ولايمتلك هؤلاء على الإطلاق أى رأسمال، فهم يبيعون فى النهار ما يحصلون عليه فى الليل استدانة من تجار الجملة، ويدفعون من نتاج مبيعاتهم كل أسبوع. ونادراً ما يكون هذا التاجر ميسورا، بل إن حالته كثيرا ماتتدهور يوما بعد يوم حتى ينتهى به الأمر أن يهجر هذه المهنة ليحترف عملا آخر.

– القهوجية : أى أصحاب تلك المحلات التى يقصدها الناس من مختلف الحرف ليتناولوا القهوة والشربات ويدخنوا ويستمعوا إلى الموسيقيين والرواة : ٢,٠٠٠

وهؤلاء الناس يشترون كل يوم ما يرونه ضروريا لاستهلاك اليوم.

ويستلزم هذا النوع من الصناعة رأس مال قليل ، إذ تكفى ٥٠ بوطاقة[١] (خردة) لإنشاء مقهى جميل ، ولدفع إيجار المحل الذى يشغله ، ولتجهيز الأثاثات والآنية اللازمة[٢] .

– خدم ذكور : قواس، سايس، سقّاء، فرّاش : ٣٠,٠٠٠

– عمال، حمالون، عمال يومية ١٥,٠٠٠

---

(١) تساوى البوطاقة ٩٠ بارة، ووقت إقامتنا فى مصر، كانت البارة تساوى تقريبا ٤ سنتيمات وكانت تساوى من قبل ٧,٥ سنتيمات، وقد تناقصت قيمتها الآن كثيرا.

(٢) يوجد فى تركيا كما يوجد فى مصر عدد هائل من مثل هذه المحلات، ويتكون أثاثها من مقعد طويل بلا مساند، مستدير أو مستطيل بحسب شكل المحل، وتوضع على هذه المقاعد حصر (حصيرة) ويقعد الاتراك على هذه المقاعد ليدخنوا الغليون وليتفكروا ويشربوا القهوة بلا سكر. وأماكن التجمع هذه تسمى بالتركية كافيناى ، ويديرها عادة رؤساء الكولوك: أى البريد الحربى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- إجمالى الذكور البالغين	:	٩٩,٠٠٠
- ويمكن أن يصل عدد النساء البالغات إلى	:	١٢٦,٠٠٠
- كما يمكن أن يصل عدد الاطفال من الجنسين إلى	:	٧٥,٠٠٠
وبذا يبلغ إجمالى عدد سكان القاهرة	:	٣٠٠,٠٠٠

ومن بين الـ ٩٩,٠٠٠ شخص من الذكور يمكن أن نحصى على الأقل ٢٦,٠٠٠ شخص ليست لهم بحكم سنهم زوجات[1]. وليس ثمة أسرة ميسورة ولو قليلا إلا وتمتلك على الأقل بعض العبيد السود، ويستطيع الأوربيون المقيمون فى مصر أن يشتروا هم أيضا عبيدا ليعملوا فى خدمتهم، وهذا أمر غير مسموح به فى بقية ولايات الباب العالى.

وفى أثناء حكم على بك، كان عدد دواب النقل فى القاهرة مثل الحمير والبغال يصل إلى ٢٢,٠٠٠، لكن عدد البغال اليوم ضئيل لحد كبير، ويمكن أن يبلغ عدد الحمير المستخدمة فى التنقل داخل المدينة أو ضواحيها، ولنقل الفاكهة وأعشاب المراعى بلا أدنى مبالغة حوالى ٣٠,٠٠٠ حمار. ولا يعرف المصريون عامة استخدام العربات لنقل بضائعهم، وهذا ما يضاعف لحد كبير من عدد الحيوانات التى تقوم بهذا الدور. ويُستخدم الجمل للمسافات الطويلة. وحيث إن الحمار لايتطلب قدرا كبيرا من العناية مثلما يتطلب الحصان فإنه يستخدم كدابة لغالبية السكان. وكان ممنوعا على الأوربيين لوقت طويل أن يستخدموا دابة أخرى غير الحمار، بل كان عليهم إذا ما قابلوا أثناء جولتهم مملوكا بسيطا أن ينزلوا أمامه

(١) توصل المسيو جومار– بعد حساب أسسه على النسبة القائمة بين عدد الموتى وعدد المولودين وكذلك تعداد الأحياء – إلى تقدير عدد سكان القاهرة بـ ٢٦٣,٧٠٠ نسمة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الأرض دليلا على الاحترام، كذلك كان الأمر بخصوص اليهود والأروام وبقية الرعايا الأخرى. ويبلغ عدد سكان القاهرة القديمة من ١٠ - ١١ ألف نسمة من بينهم ٦٠٠ من المسيحيين المنشقين.

وقد حان الآن الوقت لكى نتحدث عن الديانات التى تقتسم سكان مصر. وفيما يلى لمحة عامة عن ذلك.

٣

عن الأديان المختلفة

تجتمع فى مصر على وجه التقريب كل عبادات ومذاهب الدين الإسلامى(*) ويمكن أن نقسمها إلى مايلى:

١- أتباع المذهب الحنفى، ويعتنق بلاط القسطنطينية هذا المذهب، لذا تحتم أن يكون قاضى العسكر حنفيا على الدوام، ولكن ذلك ليس بالأمر الحتمى بالنسبة لقضاة الأقاليم. وكانت حكومة مصر السابقة (على مجئ الحملة) تتبع بالمثل المذهب الحنفى.

٢- أتباع المذهب الشافعى: وهذا المذهب هو أكثر المذاهب انتشارا فى القاهرة، وهو مذهب المشايخ والعامة.

٣- أتباع المذهب المالكى.

٤- أتباع المذهب الحنبلى: واتباع هذا المذهب نادرون لحد كبير.

وسوف يندهش القارئ - الذى تعود على الدوام أن يقرأ فى كتب التاريخ عن المعارك الدامية التى تتبع حركات الانشقاق الدينية - حين يعرف أن كل هذه المذاهب متسامحة غاية التسامح فيما بينها، فليس ثمة أى عداء أو تنافس، وليس

(*) من الواضح أن المؤلف لم يكن ملما إلا بالمذاهب الاسلامية السنية فقط (المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثمة أى اضطهاد من جانب أقواها، كما لايفكر أحدها على الإطلاق فى الحصول على أنصار له من أبناء المذاهب الأخرى، وهذا مايدل على الاعتدال الشديد، بل إن أتباع المذهب الحنفى يتميزون عن اتباع بقية المذاهب بأنهم أكثر تسامحا.

ويمكن أن نعد الطوائف الآتية بين المسيحيين:

الأقباط

١- طائفة كاثوليكية وتتبع البابا.

٢- طائفة من الهراطقة وتخضع لبطريرك. ويتبع هؤلاء آراء أوتيخوس ونسطريوس، ولكن مع اختلافات كبيرة. وهم ينكرون الطبيعة المزدوجة للمسيح.

الأروام

١- الكاثوليك ويخضعون للبابا.

٢- المنشقون ويخضعون لـ ٤ بطاركة: واحد فى القسطنطينية، وآخر فى القاهرة، وثالث فى دمشق، والرابع فى القدس.

الأرمن

١- الكاثوليك ويخضعون للبابا.

٢- المنشقون ويتبعون أحد البطاركة.

المارونيون

وهم كاثوليك ويخضعون للبطريرك فى لبنان.

وليس فى مصر لا كالفانيون ولا لوثريون.

وينقسم اليهود فى مصر أيضا إلى طائفتين أهمهما طائفة القرائين. وهما متسامحتان فيما بينهما. أما بقية طوائف هذه الديانة والتى تحدث عنها نيبور Niebuhr فى كتابه Voyage de L'arabie فمجهولة تماما فى مصر وفى كل وادى النيل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤

عن الأقباط بشكل خاص(*)

لعل أكثر الطوائف إثارة للإهتمام من بين كل سكان مصر هى طائفة الأقباط بلا جدال، ذلك أنهم يعتبرون أنفسهم أحفادا للمصريين القدماء، كما يرون فى لغتهم وفى المسارات التى سلكتها الأحداث التاريخية مايرجح كفة مثل هذا الادعاء. ومما لاجدال فيه أن لهم ملمحا فيزيقيا شديد القرب من ملمح الافريقيين لحد يكفى لكى يحملنا على أن ننسب لهم أصلا يعود إلى الدولة القديمة، ولعل بمقدورنا أن نفترض أن جنسهم قد استطاع أن يظل نقيا، بعيدا عن أى اختلاط بالأغريق، اذ ليس بينهما أى ملمح من تشابه . فعندما استولى الاسكندر على مصر واستقر فيها الإغريق بشكل دائم تحت حكم البطالمة فلابد أن كان ثمة جنسان متميزان، ومنذ ذلك الوقت أصبح المصريون، الذين عرفوا باسم الأقباط، يشكلون طائفة منعزلة بالرغم من الغزوات المتتابعة من الرومان والعرب والعثمانيين، ومازال هذه الطائفة منعزلة تماما حتى اليوم عن بقية الأجناس التى تشكل الآن الجزء الأعظم من سكان مصر.

(*) من نافلة القول أن نذكر بأننا هنا بصدد أثر علمى يقتضى الواجب نقله بأمانة نصا وروحا، ومع ذلك فجدير بالذكر أن الصورة القائمة هنا هى نموذج لحالة كل المصريين باختلاف طوائفهم فى ذلك العهد، حيث كان كل أبناء مصر يعانون وإن اختلفت الحجج والادعاءات بحسب مقتضى الحال، وبرغم ذلك فإن الصورة هنا تختلف فى كلياتها ، بل يصل الاختلاف أحيانا لحد التناقض مع ما جاء فى دراسات أخرى بوصف مصر، نذكر منها -على سبيل المثال- ماجاء بدراسة دى بوا-ايميه فى وصف مدينة منوف، وما جاء بدراسة لانكريه عن نظام الضرائب على الأراضى الزراعية، وكذلك ماجاء بدراسة جيرار عن الزراعة والتجارة والصناعة . كما أن بعض ماجاء فى هذا الفصل لايمكن التسليم بصحته بحال من الأحوال، بل لايمكن تصور طرحه على الإطلاق، فليس هناك ما هو أيسر من دحضه. (المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منذ الأيام الأولى للمسيحية، أرسل بطرس الرسول إلى المصريين القديس مرقص كى يبشرهم بالإنجيل، فجذبت فصاحته وحماسته على الفور العقول ، وأصبح له جمهور من الأتباع. وهكذا تأسست كنيسة الأسكندرية التى أصبحت ذائعة الصيت في الشرق. ولكن - بعد ذلك - تغلبت آراء أوتيخوس ونسطريوس، وظلت هذه البذور الأولى للانشقاق تعمل عملها حتى اليوم.

وللأقباط منشآت دينية بالغة الروعة كما نرى فى كثير من الكنائس والأديرة الخربة، كما أنهم أنشأوا فى مصر العليا على وجه الخصوص كنائس رائعة. ويبدو الصعيد بمثابة مهد لهم، فقد كانت أعدادهم هناك على الدوام كبيرة ومايزال الأمر كذلك حتى اليوم، ولكنهم بعد كثير من التقلبات والأزمات السياسية لقوا مصير سكان مصر الآخرين، ذلك أن ديانتهم بعد أن فقدت جزءاً من سطوتها التى أكدتها سيطرة الأباطرة الرومان فقدت كذلك جزءا من عظمتها وازدهارها ، وبرغم ذلك فقد ظل لهم مايقرب من مائة دير، من بينها خمسة أديرة خاصة بالنساء: اثنان منها فى القاهرة، واثنان فى مصر القديمة، وآخر فى مكان منعزل بالقرب من منفلوط، وهذا الدير الأخير مثال لحالة بالغة الندرة والشذوذ بشكل غير مستحب، فهو ينقسم إلى قسمين منفصلين: واحد للرجال وآخر للنساء، يضمهما معا سور واحد دون أن يكون ثمة - رغم ذلك- أى اتصال بينهما .

ولا يلعب الأقباط فى مصر إلا دورا ضئيلا، ومهارة شعبهم هى مصدر حياتهم، فقد استطاعوا -تحت حكم الأتراك- أن يحتفظوا بجزء من العمل الإدارى لم يخرج مطلقا عن أيديهم منذ العصور البالغة القدم، وهو مسك سجلات الضرائب والدخول والملكيات، أى أنهم - باختصار- الملمون بمساحة مصر. وهم يتهمون بأنهم لم يكونوا -على الدوام فى عملهم هذا- على درجة كافية من الأمانة والنزاهة.

وهم يقومون بعمليات تقسيم التركات العقارية، وهم كتبة مصر الحقيقيون،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما أنهم أيضا مساحوها، وقد انهمك عامتهم فى ممارسة فنون الصناعة.

وتعيش الأديرة بفعل الهبات، وعن طريق دخول متواضعة تأتى من بعض الملكيات الضئيلة التى احتفظوا بحق استغلالها. كما أنهم يقومون بمساعدة فقرائهم عن طريق جمع تبرعات عامة، ويقوم بجمع هذه التبرعات مفتشون يختارهم البطريرك على الدوام من أبناء العائلات الكبيرة. ورهبانهم بسطاء فى ملابسهم وطعامهم، كما أن الرزق - أى الدخول - الممنوحة لهم لا تكفيهم إلا مع الحرمان الشديد، لذا فهم لايأكلون فى اليوم سوى مرة واحدة، ويتكون طعامهم من الخضر وقليل من السمك، ولايسمح لهم بأكل اللحوم إلا فى أيام الأعياد. وملابسهم عبارة عن رداء كتانى طويل، والراهبات لسن بأحسن من هؤلاء لبسا.

وهكذا أمكن للأقباط أن يتماسكوا فى شكل أمة متحدة داخل بلد منهزم، ويعطى مجتمعهم الصغير لمصر - بفضل بعض الأنظمة المقتبسة من القيم الإنجيلية - مظهرا من مظاهر الاتحاد والوفاق والألفة، وهو أمر نادر فى تلك البلاد التى نكبت بالطغيان والاستبداد.

وبرغم هذا فإن الأقباط لايخلون من العيوب، وهذه العيوب إنما هى نتيجة حتمية لتلك الحالة من الإذلال التى انتهوا إليها تحت حكم الأتراك، فحيث إنهم كانوا على الدوام مضطرين للاستكانة وللتظاهر بخلاف مايبطنون فقد أصبحت الغالبية منهم تتصف بصفات الجشع وبأخلاق الأجُراء المرتزقين. وهذه بالتأكيد هى مسيرة كل الشعوب المقهورة على مدار التاريخ، فالتقاعس هو النتيجة الطبيعية للعبودية والاذلال (١).

---

(١) ممايبين إلى أى حد كان الأقباط يحتقرون من قبل المسلمين أن عمامتهم ينبغى أن تكون من لون واحد، مما يؤدى إلى التعرف عليهم من بعد، ويمكن أن يقال، إلى تعريضهم لزراية العامة، ولايسمح لهم مطلقا بأن تكون لهم عمامة تماثل عمامة المسلمين، فهى عبارة عن شريط ضيق يلف حول طربوش يغطى الجبهة. ومع ذلك فإن الأقباط عندما يتوجهون إلى الأقاليم لتحصيل الضرائب فإنهم لاتنالهم إهانات من قبل المسلمين، وليس هذا بفعل الاعتياد الطويل، بقدر مايعود إلى وجود قوة من الجنود معهم لحمايتهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومع ذلك فقد بقيت لهم على الأقل حرية العبادة، ذلك أن محمدا الذى كان سياسياً محنكاً قد ترك للشعوب التى خضعت لسيطرته حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، كما ترك لهم الحق فى أن يسيروا أمورهم بموجب قوانينهم الخاصة، ولكن داخل أطار سيطرة النظم الإسلامية، وقد سار على نهجه القويم الخلفاء من بعده، ولعل الديانة الإسلامية تدين بنجاحها السريع لهذا الاعتدال الحكيم أكثر مما تدين لقوة السلاح. ومهما يكن الأمر فإن الأقباط -وعموما كل مسيحيى الشرق- قد لعبوا دورا فى سياسة بلادهم ، بل إن المماليك أنفسهم لم يكن بمقدورهم أن ينهوا امتيازا كهذا تدعمه مبادئ دينهم أكثر مما تدعمه العادة وفعل الزمن (*) .

وتتخذ أمة الأقباط – كرئيس أعلى لها وكزعيم دينى ودنيوى – حبرا هو الشخصية الأولى فى الكنيسة ويلقب بالبطريرك، ولاتُعرف لسلطته حدود إلا ماتفرضه العادات المستقرة وإرادة حكام البلاد. وهو يفصل فى كل الخلافات التى تقع بين كل رعيته ، لكن حكمه فى ذلك ليس نهائيا ، إذ يمكن للأطراف المتنازعة – باتفاق فيما بينها– أن ترفع الأمر إلى القاضى، الذى يقر عادة حكم البطريرك. أما الجنح والجرائم فتعامل بطريقة أخرى، فالبطريرك لايفصل إلا فى الجرائم الصغيرة التى لاتتطلب إلا عقابا إصلاحيا ، فعندما يتهم قبطى – على سبيل المثال – بالسرقة من أحد المسلمين، فإن المسلم يرفع شكواه إلى البطريرك. أما إذا كان المسلم -على عكس ذلك – هو السارق فإن القبطى يرفع شكايته أمام القاضى أو يطلب العدالة من حاكم المدينة نفسه، ويقوم الطرف القبطى بنفسه بتقدير حقوقه أمام المحاكم.

أما حوادث القتل والجرائم الكبرى، فليست من اختصاص محكمة البطريرك، لكن من اختصاص الضباط المكلفين – من قبل شرطة المدن – بمطاردة ومعاقبة كبار المذنبين. وفى بعض الأحيان يتمكن المذنب من التملص من العقاب عن طريق

(*) لعل القارئ قد لاحظ هذا التناقض فيما يذكره المؤلف هنا وما سبق أن ذكره فى بداية هذه الفقرة .(المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دفع مبلغ من النقود لمن يمسكون بسيف العدالة ، ويحدث هذا أيضا بالنسبة للمسلمين.

ويختار البطريرك – على الدوام – من بين رهبان دير سان أنطوان ، ويتم ذلك بالانتخاب، وعندما يراد اختيار خليفة له فإن المطارنة وكبار القساوسة ينضمون إلى كبار رجالات الأمة القبطية.

وتتكون الجمعية العمومية من ٤٠ –٥٠ شخصا ، ثم يشرعون فى عملية الانتخاب، ويعين الراهب الذى يحصل على أكبر عدد من الأصوات فى منصب البطريرك.

ويشكل المطارنة الصف الثانى من هيرارشية الكنيسة القبطية، وليس لهؤلاء الأساقفة من دخل إلا ما يحصلون عليه من هبات من أقاليمهم . ويبلغ إيراد كنيسة العاصمة حوالى ١٠,٠٠٠ بوطاقة (خردة) وهو إيراد بعض المنشآت الخيرية المخصصة لها ، وهذا الدخل البسيط هو أساس دخل البطريرك، لكنه يستطيع على الدوام أن يعثر على الوسائل التى يزيد بها مخصصاته الشرفية، وهى دخول عرضية (غير ثابتة) لكنها تصل فى بعض الأحيان إلى رقم كبير للغاية. والاسكندرية هى مقر البطريركية ، لكن البطريرك يقيم فى القاهرة حتى يكون فى وضع يمكنه من رعاية مصالح شعبه ، والدفاع عن حقوقه أمام السلطة المسلمة.

ويتمتع رجال الدين من الدرجة الأقل أيضا بأهمية كبيرة، لكنهم جهلة وفقراء، وتسمح لهم قوانين كنيستهم بالزواج الذى ينبغى أن يسبق رسامتهم. ولايسمح لهم بالزواج طيلة حياتهم إلا مرة واحدة. وعندما يموت أحد القسس الأقباط يتجمع كبار رعاياه ، كى يحددوا لمطران الولاية رجل الدين الذى يبدو لهم أكثر جدارة بولاية المتوفى ، ويعين المطران على الفور القسيس الذى وقع عليه اختيارهم. وكل الكنائس مملوكة لهيئة رجال الدين ، ويصرف عليها من الهبات والتبرعات.

ويثق القبطى ثقة عمياء فى قساوسة طائفته، ولهؤلاء القسس تأثير كبير على

النفوس. وبمقدورهم – بقليل من الحيلة – أن يسيئوا استغلال ذلك التقديس الذى يحيطهم الناس به ، ليعودوا بالنفع على أنفسهم. لكنهم فى غالب الأحيان جهلة مثل بقية أبناء الشعب، وليس ثمة بينهم إلا عدد ضئيل للغاية قد وصلوا إلى درجة من العلم يستطيعون معها أن يقرأوا كتب الطقوس الدينية ، وهى الكتب الوحيدة التى ماتزال تستخدم اللغة القبطية حتى اليوم[1].

وبالرغم من هذا التقدير العميق لرجال الدين ، فإن القبطى لايسمح لزوجته أن تسفر عن وجهها أمامهم (ونحن هنا نتحدث فقط عن الطبقة الميسورة منهم) ، بل إن البطريرك لايمكنه أن يرى سيدة سافرة إلا إذا كان زوجها هو الذى سمح بذلك وعن طيب خاطر.

ولهؤلاء الأقباط أيام للصوم وأيام للأعياد الدينية ، هى – على وجه التقريب – نفس أوقاتنا. ويتمثل الاختلاف الوحيد فى طول المدة أو قصرها ، وكذلك فى طريقة أدائها. وعدد مناسبات صيامهم أربع مناسبات فى العام ، وهى تسبق أيام الذكرى ذات القدسية الكبرى لديانتنا، والصيام السابق على عيد الفصح (القيامة) هو أطولها جميعا ، وهو كذلك أشدها مشقة ، ويبلغ طوله ٥٠ يوما. ولا يمكن للمسيحى طيلة هذه المدة أن يتناول سوى وجبتين فى اليوم، ويمتنع تماما عن تناول اللحوم والأسماك وكل ماله روح على وجه العموم. وتأمر الكنيسة بأن يمتنع الناس عن إدخال أى شئ إلى أفواههم حتى ولوكان دخان النارجيلة قبل الظهيرة ، وهى موعد الوجبة الأولى . ويستمر الصيام السابق على عيد الميلاد ٤٣ يوما ، ويبلغ صيام العذراء ١٥يوما ، ويتراوح صيام الرسل بين ١٥ –٤٥ يوما ، حسب المسافة الموجودة بين عيد الميلاد والصوم الكبير. وهم طيلة أيام الإمساك (الصوم) لايتناولون سوى وجبتين : واحدة عند الظهر والأخرى فى المساء ، ولايمكن تناول

---

(١) يمكن القول بأن اللغة القبطية كانت هى اللغة العامية للمصريين القدماء ، وأن رموزها ليست سوى الحروف اليونانية مضافا إليها بعض الحروف لاستيعاب الأصوات التى ليس لها شبيه فى اللغة اليونانية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السمك أو البيض أو الألبان دون الحصول على إذن من المطارنة ، وفى بعض الأحيان لابد من اللجوء مباشرة إلى البطريرك ، وبخصوص مدة الصيام وصرامته، فإن ثمة تشابها كبيرا مع الكنيسة اليونانية فى الشرق، وفضلا عن ذلك فهناك عدد كبير من الروابط بين الطائفتين. وليس هذا مما يبعث على الدهشة، فأصل الكنيستين واحد ، كما أنهما يتبعان - على وجه التقريب - نفس المبادئ .

ويمارس الأقباط كذلك الاعتراف، وهم يشتركون فى هذا الطقس الدينى مع المسيحيين عموما، لكن ثمة عادة خاصة بهم تبدو مناقضة تماما أو على الأقل غريبة عن مذهب المسيح ، تلك عادة الختان للجنسين[1]. وبالرغم من أن هذه العملية ليست - فيما يبدو - إلزامية بالنسبة لكل الأقباط، فإنهم مع ذلك يخضعون لها إما بفعل الاعتياد وإما بفعل الأفكار المسبقة. وتصر الأمهات على ضرورة ختان أطفالهن ، إذ يتصورن أن أبناءهن لن يكونوا صالحين للإنجاب مالم يمروا بهذا الأمر المؤلم .

وفى الصعيد يختتن كل الأقباط، لكن عدداً كبيراً منهم فى القاهرة يرفض ذلك ، أما بالنسبة لختان الأطفال الصغار فهى عادة شائعة فى كل مكان ، تتم دون وساطة القسيس، ويختتن الجنسان فى سن السابعة أو الثامنة. وينتهى يوم هذه العملية عادة بعيد عائلى . لكن ينبغى أن يسبق العماد عملية الختان ، ويتلقى الأطفال سر القربان المقدس فى فترات تختلف بحسب الجنس، فهو يتم بالنسبة للذكور بعد ٤٠ يوما من ولادتهم ، وبالنسبة للإناث بعد ٨٠ يوما .

ويسارع الأقباط بتزويج أبنائهم ما أن يروا أنهم قد بلغوا سن البلوغ ، ولذلك يتم تزويج الفتيات فى سن الثانية عشرة ، بينما يتزوج الأولاد فى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. ولاينبغى أن ندهش لمثل هذه الزيجات التى تتم هكذا قبل الأوان ، فى منطقة كهذه يعمل فيها الطقس على سرعة نمو الجسم ، كما يعمل على إثارة الشهوات منذ سن مبكرة .

---

(١) يبدو أن هذه العادة قد انتقلت إليهم عن قدماء المصريين الذين كانوا يمارسون هذه العادة. انظر هيرودت : الكتاب الثانى. فقرة ١٠٤ . ترجمة لارشيه Larchet .

ويرسل الأقباط أولادهم إلى مدارس صغيرة، حيث يتعلمون القراءة والكتابة إلى جانب المبادئ الأولى للدين. ويتمتع بهذه الميزة كل الأطفال الذكور بلا تمييز، لكن الفتيات لايستطعن الذهاب إلى المدرسة إلا بموافقة أمهاتهن اللاتى يعترضن على ذلك فى بعض الأحيان . ولم نشاهد فى القاهرة فتاة واحدة تتردد على المدرسة ، وعلى العكس من ذلك فى الصعيد ، حيث يذهبن إلى المدارس هناك مثل الأولاد ، ولاينقطعن عن الذهاب إلى المدرسة حتى فى سن الثامنة أو التاسعة ، وهو السن الذى يبدأن فيه فى التشكل ولايُعَدن أطفالا.

لقد أطلنا بعض الشئ ، لكننا رأينا من واجبنا أن نبدأ أولا بالوقوف على بعض التفاصيل حول الأقباط ، لأن معرفتنا بهذه الأمة لاتزال شديدة الضآلة. وسوف نعود إلى الموضوع نفسه فى فصل آخر ، وسوف نحاول أن نقدم فكرة كاملة عن عادات وتقاليد ونظم ومؤسسات وحرف هذه الأمة التى ظلت شبه منسية حتى يومنا هذا من بقية المذاهب المسيحية.

٥

عن العربان على وجه الخصوص

تتكون الكتلة الكبرى من الشعب المصرى من عرب استقروا وارتبطوا بشكل أساسى بالأرض، ولاتختلف عاداتهم فى شئ عن عادات من نعنيهم باسم المصريين. لكن العربان الرحل ينقسمون إلى قبائل رحّالة ، تنقل خيامها من صحراء لأخرى، ولايخضع أبناؤها إلا لمشايخهم، ويتجاهلون سلطة الباشا والبكوات. ويستحق العربان منا اهتماما خاصا ، إذ إن لهم عادات مختلفة، وسوف نرسم سريعا تلك الملامح التى تميزهم، لأن هذه اللوحة سوف تساهم فى تكوين فكرة عن المؤثرات التى تؤثر فى سكان مصر على وجه العموم.

يبلغ عدد العربان الرحل حسب إحصاء قريب ٤٠ ألفا. ويمكن لنا - بالقيام بعملية نسبة - أن نحصل على العدد التقريبى لكل هؤلاء العربان ونسائهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأطفالهم... الخ. وهم يشغلون الصحراوات المحيطة بمصر من كلا الجانبين ، ويقترب عدد منهم – فى بعض الأحيان – من ضفاف النهر ، ليزرعوا أراضى يستأجرونها من حكومة الإقليم . ويمكن اعتبارهم جميعا من أتباع عقيدة محمد ، بل إنهم يتسمّوْن باسم المسلمين ، ومع ذلك فإن مبادئهم الدينية تبدو شديدة التباين كما يرى بعض الأوربيين الذين زاروهم . ومن المؤكد أن عقائد هذه الشعوب، وكذلك التقاليد الراسخة التى احتفظوا بها عن أصولهم ، وكذلك أخبارهم التاريخية – لابد أن تحظى باهتمام خاص من قبل الرحالة ، إذ يمكن لمثل هذه الأمور أن تساهم فى توضيح نقاط كثيرة غامضة فى التاريخ الحديث. لكن مثل هذه الدراسات – على وجه العموم – قد أهملت لحد يفوق التصور ، على الرغم من أن العربان الرعاة قد نقلوا – من جيل لجيل – تاريخ آلاف من الوقائع التاريخية المجهولة ، التى من السهل أن تهتك لنا هذا النقاب الصفيق الذى تغلفهم به خرافاتهم وأساطيرهم. وباختصار، ولانمل من تكرار ذلك، ينبغى على كلٍ من المؤرخ ورجل الآثار أن يحصل على معرفة عميقة عن عادات العربان وتقاليدهم.

وفيما يلى أسماء القبائل التى تقتسم فيما بينها صحراوات مصر الشاسعة ، وكذا أسماء الأقاليم التى تفضل هذه القبائل أن تستشرف حدودها:

ولاية المنصورة

١– قبيلة درنة: وهى قبيلة قوية وكبيرة العدد، لكن عوامل الضعف قد دبت فيها نتيجة للحرب الأخيرة التى شنها عليها حاكم الولاية . وقد تبعثرت حاليا هذه القبيلة.

٢– قبيلة البوارشة : وهى تسكن القرى وتحترف الزراعة.

٣– قبيلة حسن طوبار : وتشغل قرى عديدة بمنطقة المنزلة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولاية البحيرة

طبقة أولى : الهنادى (*). طبقة ثانية : أولاد على

وتقيم هاتان القبيلتان فى خيام، وهما أقوى قبائل مصر وأكثرها شراسة، وعلى الرغم مما بينهما من خصومات وما يفرق بينهما من عداوات بفعل من أحقاد وضغائن دينية ، فإنهما يقتسمان فيما بينهما السيطرة على الولاية . وتتبع واحدة منهما أفكار شيخ يسمى : سعد، أما الأخرى فتعتقد فى قداسة شيخ يسمى: حرام. ومن هنا تولد هذا النوع من الكراهية والنفور الذى استمر لأزمنة طويلة ، لكن أحدا لم يستطع أن يعثر على أصل لهذين المذهبين أو مؤسسيهما، بل لقد حدث أن انقسمت مصر بأكملها بفعل هذا الخلاف نفسه، الذى أدى إلى قيام العداوات والضغائن بين الفريقين ، وأخذ كل فريق يدين الفريق الآخر، ويتوعده بعقوبات الدار الآخرة، حتى وضعت حكومة على بك الشهير حدا لهذه العداوات المتعصبة، وعملت حكمة وحزم هذا الرجل - غير العادى الذى لم يكن ينقصه إلا نوع مختلف من التربية ، وكذلك أن يلعب دوره على مسرح من الأحداث أكبر اتساعا لكى يدهش العالم - على تذكير المصريين بمشاعر الاعتدال والتسامح التى اشتطوا فى البعد عنها . ومنذ ذلك الوقت، فإن الناس يكادون يكونون قد نسوا كلا من سعد وحرام، لكن اسمى هذين الزعيمين الروحيين قد ظلا يثيران الشقاق بين الشعوب الطليقة فى الصحراوات.

ولم تكن سوريا لتبعد عن روح التعصب هذه. فهكذا خلقت فى كل هذه البلاد أحزاب أعمتها مثل هذه الأمور من الدجل والضلالات، وبذلك أصبحت ديانتهم الخاطئة، التى يسيئون هم أنفسهم فهمها، سببا للأحقاد والضغائن والعواطف الجامحة، مما أدى بشعوب بأكملها إلى التطرف الأرعن، باسم ديانة يعملون هم أنفسهم على الإساءة إليها.

(*) وردت فى الأصل باسم نميادى Namiady ولعله خطأ مطبعى.(المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتقوم القبيلتان اللتان تحدثنا عنهما للتو، بفرض ضرائب على سكان ولاية البحيرة ، تعادل تلك الضرائب التى تفرضها السلطات الحاكمة ، وبسبب نقص وسائل القمع التى فى حوزة السلطات الحاكمة ، فقد ظل مثل هذا الطغيان البغيض سادرا .

ولاية الشرقية

طبقة أولى	طبقة ثانية
بلى	جميلة
رفاعات	بنى أيوب
سمدانى	جميلات
أولاد على	
الحيوان	

وهذه القبائل كلها من العربان الرحل، وهم لايعرفون الزراعة ولا التجارة، وحيث إنهم قطاع طرق بالسليقة، فقد أصبحوا قتلة بفعل الطمع والجشع . ولاتفرض عليهم الحكومة أية ضرائب أو إتاوات ، لكنهم يكتفون بأن يرسلوا كل عام إلى شيخ القاهرة هدية تتكون من الخيول والجمال، وبذلك يحصلون على حماية هذا الضابط، بل يمكن القول على تفويض منه بالانغماس - دونما اعتراض من جانبه - فى جرائمهم المعتادة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القبائل المتوطنة

طبقة أولى		طبقة ثانية
القصاصين		أولاد زهيرة
السماكين	بالصوالحية	متولى
الصوالحة		البوارشة
عايد		وروزة
الزملى		
أولاد موسى		
لكام		

وهؤلاء يسكنون القرى ويفلحون الأرض ، ومع ذلك فإن لديهم فى نفس الوقت – شأنهم شأن الأولين – ميلا لا يقاوم يدفعهم للقيام بأعمال السلب ، إذ تراهم فى معظم الأحيان يتركون محراثهم ليمسكوا ببنادقهم ويسلبوا أمتعة المسافرين.

ولاية قليوب

طبقة أولى	طبقة ثانية
الصوالحة وجهينة	العيايدة
الحويطات	طرابين

وهم يقيمون فى الخيام ، ويروعون سكان ضواحى القاهرة بغاراتهم التى يقومون بها للسلب والنهب. وهم يشاركون الفلاحين فى زراعة الأرض، ولكن دائما وبلا جدال على حساب هؤلاء الأخيرين(١).

---

(١) لمزيد من التفاصيل ، راجع دراسات دى بوا ايميه وجومار. وكذلك الجدول الذى وضعه اميديه جوبير Amèdèe Jaubert . وسوف نعود فى الفصل الثالث إلى هذا الموضوع بالتفصيل.

(ونجد جدول جوبير الخاص بالقبائل العربية التى تقيم مابين مصر وفلسطين فى المجلد الثانى من الترجمة العربية). (المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦

عن المماليك، وعن الأجانب الذين استوطنوا مصر

عندما نتأمل قوة المماليك وتقدمهم الذى ظلوا يحتفظون به على الدوام على قوات الباب العالى ، فسوف نجد – بما لايدع مجالا للشك – أن قوتهم العسكرية الرائعة تلك لاتعود إلى تعدادهم ، بقدر ما تعود إلى قدراتهم وكفاءاتهم . فتعدادهم ليس شيئا بالمرة ، إذ لايكاد يصل مجموع عددهم – سواء الذين حرروا منهم أو الذين مازالوا أرقاء – إلى ثمانية أو تسعة آلاف رجل : وبرغم ذلك فقد توصلوا بفضل جرأتهم وشجاعتهم ومزاجهم العسكرى الذى تنميه نشأتهم العسكرية، وكذلك بسبب من الذكريات الرائعة والطموح الذى لايعرف لنفسه حدا، توصلوا إلى قيادة شعب كبير مع تقييده بسلاسل من خوف، وسحقه تحت وطأة اسمهم :المماليك، وهو الذى يمكن أن يقال بأنه أصبح مثيرا للرعب بسبب كثرة ماأحرز من انتصارات .

ومن الممكن أن ننسب قلة عدد المماليك إلى عادتهم فى الزواج من نساء أجنبيات مثلهم ، وفضلا عن ذلك فإن طقس مصر يحول دون تكاثر الأجانب عموما، حتى عندما يتزوج هؤلاء من مصريات ، فالأطفال – فى الحالة الأولى – يموتون وهم لما يبلغوا من العمر بضع سنوات . وحيث كان المماليك – هكذا – محرومين من فرص التكاثر الطبيعى ، فقد بات عليهم أن يلجأوا إلى هؤلاء الذين ينحدرون من نفس أصولهم ، فكانوا يشترون الرقيق الشبان ويقومون بتدريبهم عسكريا ثم يعتقونهم بعد ذلك . وكان هؤلاء الرقيق إما شراكسة وإما قوقازيين، وكانوا يحملون أولا إلى القسطنطينية ، ثم يرسلون من هناك إلى كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية حيث يشتريهم الأغنياء . وتنتسب زوجات المماليك إلى نفس هذين الإقليمين، ويصلن إلى تركيا بنفس الطريقة .

وفى بعض الأحيان، وقبل مجئ الحملة الفرنسية، كان يحدث أن يتزوج أحد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المماليك – بعد أن يدركه اليأس من الوصول إلى الصفوف الأولى من رجالات الدولة – من زوجة مصرية ، وعندئذ يكون له الحظ فى إنجاب الأطفال ، لكن ذريته تتميز مع ذلك بالضعف.

ويمكن لنا أن ندرج العبيد السود من الجنسين الذين كانوا يجلبون من أعماق أفريقيا ضمن الشعوب الأجنبية التى استوطنت مصر. ففى كل عام كانت أسواق القاهرة تمتلئ بهؤلاء التعساء ، وكان عدد النساء بينهم يتجاوز عدد الرجال . وهذه التجارة المرذولة هى واحدة من المهن الرائجة فى هذا الإقليم . ومن أسواق القاهرة، تذهب أفواج العبيد إلى المدن الكبرى فى آسيا ، مثل: أزمير والقسطنطينية وحلفا..الخ، ويبقى عدد كبير منهم فى نفس الوقت فى القاهرة،حيث يستخدمون فى مختلف الأعمال . ويميل المصريون إلى تفضيل النساء الزنجيات، ويشترى الرجل على هواه وحسب قدرته اثنتين أو ثلاثا وحتى ستا منهن.

وكما سبق أن قلنا فإن للمسيحيين فى مصر الحق فى امتلاك العبيد ، بالرغم من أنهم لايتمتعون بهذا الحق فى بقية الولايات التركية ، ومع ذلك فإن هذا الحق محدد بشروط معينة ؛ فمن المحظور عليهم أن يمتلكوا عبيدا من الذكور ، إذ هم – فى هذا الصدد – لايستطيعون على الأكثر إلا شراء أطفال صغار يتخلصون منهم عندما يكبرون . ومع ذلك فقد كان يسمح لهم باقتناء أى عدد من النساء الإماء يستطيعون الحصول عليه ، لذا كان لدى كل أسرة واحدة أو اثنتين على الأقل للقيام بأعمال البيت.

أما العثمانيون المقيمون فى مصر فكانوا قليلى العدد ، وكانت ذريتهم تنقرض شأنهم فى ذلك شأن المماليك، ولنفس الأسباب. ويوجد بالمثل عديد من العائلات السورية التى استقرت فى مصر بغرض التجارة، ولكنها ليست بذات وزن كبير فى أجناس هذا الشعب.

وتشغل قبائل النوبيين أو البرابرة مناطق عديدة فى صعيد مصر وبعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجزر المجاورة لشلال أسوان، وهى قبائل فقيرة وتتكون من بعض العائلات.

وفى ختام المطاف نذكر الأفرنج أو المسيحيين الأجانب. وهؤلاء لايستقرون إلا فى مناطق التجارة الكبرى ، مثل : الأسكندرية ، رشيد ، دمياط ، القاهرة . وأهمية هذه الطائفة تعود إلى ماتقوم به من عمليات تجارية أكثر مما تعود إلى تعدادها.

تلك - على وجه التقريب - لوحة بالغة الإيجاز لمختلف العناصر والأجناس التى تقطن مصر، وقد اكتفينا هنا بمجرد ذكرها ، لكننا سنعود إليها فيما بعد ، وعندئذ سنتحدث عنها بتفصيل أكبر.

٧

عن العادات والتقاليد بشكل عام

يوجد فى مصر - شأنها فى ذلك شأن بقية بلدان الشرق - خليط مضطرب من العادات والتقاليد ، تعود إلى أصول متنوعة ، وتنتج عن أسباب كثيرة . وهل كان يمكن للأمر أن يكون على نحو آخر فى بلد يمكن القول بأن كافة الأمم قد اختلطت فيه ؟ فالعادات إذن تتنوع بنفس الطريقة التى تشكلت بها فئات السكان بمختلف أديانهم وأصولهم . فنحن نجد فى المدن - مع شئ من الاختلاف - نفس عادات الشعوب الشرقية ، ولقد كان هذا الاختلاف أمرا ضروريا بسبب طبيعة التربة وتأثير الطقس. أما فى الريف وفى الصحراوات فسوف نتعرف على رجل العصور الأولى ببساطة أذواقه ، هذا إذا لم تكن العصور المنصرمة قد تكفلت بإتلاف فطرته.

تتحدث كل فئات هذا الشعب لغة مشتركة هى اللغة العربية ، وقد تمثل الأقباط كذلك هذه اللغة . وإذا كان بعض العثمانلى قد احتفظوا بلغتهم الأم فقد كان ذلك يحدث فيما بينهم ، وفى علاقاتهم مع ضباط الباشا الذين يحكمون مصر باسم السلطان . وقد نسيت اللغة اليونانية تماما ،أو قل إنها قد انكمشت فى دائرة صغيرة من تجار هذا الشعب (اليونانى) الذين يقيمون فى القاهرة أو الأسكندرية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولايمكنك أن تكشف ما يعتمل فى نفس المصريين عن طريق ملامحهم . فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجى فى كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه ، إذ يحتفظون فى ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر ، سواء حين تأكلهم الهموم أو يعضهم الندم أو كانوا فى نشوة من سعادة عارمة ، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد أو يغلون فى داخلهم من الغضب أو يتحرقون للانتقام . فليس ثمة مطلقا فعل منعكس : أحمرار فى الوجه أو شحوب مفاجئ ، يستطيع أن يشى بصراع تلك العواطف العديدة التى تهزهم . ويمكننا أن نلتمس أسبابا عديدة لهذا الجمود المذهل فى الملامح ، قد لايكون الطقس بعيدا عن هذه الحالة . فحيث يبدو الطقس على الدوام بنفس الشكل، فإنه ينقل إلى النفوس – على نحو ما – ثباته الدائم ، ومع ذلك فإن الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد فى شكل التربية ، وفى الاعتقاد فى القضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس ، كما تعود فى النهاية إلى تعودهم أن يكونوا على الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد . ففى كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين – والشرقيين عموما – نوعا من الحيلة لمواجهة هذا العسف، فعندما يعاقب الإنسان على حركة أو بسبب نظرة أو أحيانا لمجرد الاشتباه، كما لو أنه ارتكب جريمة، فإنه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة على الاستيعاب والتمثل بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات عادية . لذا فلا ينبغى علينا أن نبحث عن مصدر آخر لأسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للألم الذى يميز الشرقيين على وجه العموم: فالشكاوى والصيحات أمور لا فائدة منها أمام إرادة الطغاة . ويعرف المصرى كيف يمشى وقد أغضبه الألم، وكيف يموت تحت عصا القواس دون أن يقول كلمة، فهذه إرادة الله، والله أكبر، والله غفور... وتلك فقط هى الكلمات التى تأتى على لسانه عندما يبلغه نبأ نجاح لم يكن يأمله ، وهى نفسها التى تفلت منه عندما يبلغه نبأ كارثة كبرى ألمت به.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمرا بالغ التناقض مع تقاليدنا ، حتى لنظنهم فى البداية بلهاء أو معتوهين، فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم، كل ذلك يشى بعدم اكتراث مذهل . فأنت تراهم ممددين لجزء طويل من النهار على أرائكهم أو على حصرهم ، حسب درجة ثرائهم ، حتى تظن أن ليس ثمة فى هذه الدنيا مايشغلهم إلا أن يملأوا ويفرغوا على التوالى غلايينهم الطويلة، وتبدو مخيلتهم وكأنما قد تخدرت مثل أجسامهم لحد تخال معه – وهم فى حالة التنويم الروحى تلك – أن سماعهم لحكم بالموت صادر عليهم لن يكون بمقدوره أن يثير مجرد دهشتهم . وبرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية على ملامحهم يكمن خيال ملتهب ، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية . فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم على العكس – وحيث يمكنهم بذلك تركيزها – أكثر حدة ، كما أنها تعطى لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم فى بعض الأحيان قادرين على الإتيان بأفعال بالغة الجرأة ، وفضلا على ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقدة... إن ملكة الانتباه ، والقدرة على التذكر ، تذهب إلى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين تخالهم غارقين فى بلادة مطلقة .

وتتوافق أحاسيس هذا الشعب مع بقية عاداته ، فالمرء منهم يستمتع فى الحمام مثلا بملذات عجيبة ، إذ لابد أن تقوم واحدة من الخادمات على الدوام بتدليك قدمه إما باليد ، وإما بقطعة من الطوب الأملس ، كما أنه يمضى وقتا طويلا فى تهذيب لحيته . وهذه عادة قديمة جدا فى الشرق ، حيث لا تدلك القدم باليد إلا فى المجتمعات الحميمة من الأهل والأصدقاء ، ذلك أن الآداب العامة لا يمكن أن تسمح بهذا الفعل الشهوانى على الملأ . أما عن حك الأقدام بقطعة ملساء من الطوب فهى لا تمارس إلا عند الخروج من الحمام . وكلا الأمرين يعدان فى وقت معا ضربا من الأمور الحسية والشهوانية ، وكذلك عملا من أعمال النظافة.

وقد تبدو ملذات من هذا النوع بالغة التفاهة فى نظر الأوربى ، لكنها تكفى

لتوفير جو من الرخاوة لذلك المصرى خالى البال ، فهو يتمتع بها وسط العطور وسحب الدخان والأبخرة المعطرة ، ويستطيع أن يوفرها لنفسه على الدوام ما دام الأمر يرتهن بمشيئته . فإذا ما أضفنا إلى ذلك المشهد مسرات ومباهج الحريم والموسيقى والغناء ، وكذلك حبه قول أو سماع الحكايات، ذلك الأمر الذى يستغرق جزءا كبيرا من سهرتهم، لتكونت لدينا فكرة شبه كاملة عن مباهج الحياة عند المصريين وعن ملذاتهم .

إن كل شىء فى هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوربيين . وهذا الاختلاف بلا جدال من صنع الطقس ، ومن صنع الأنظمة المدنية ، والمعتقدات الدينية كذلك . كما أن غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة ، فى الوقت الذى تتكفل فيه الحرارة الشديدة بتقليل نشاط القدرات الجسمية . ولنا أن نتساءل ، لماذا يكلف الفلاح نفسه كبير عناء – فى بلد كهذا ليست الملكية فيه سوى ضرب من الأوهام – كى يحسن من زراعاته ، إذا كانت جهوده تلك لن تؤدى بالضرورة إلا إلى إثراء مستغليه ، وإلى انتزاع مغارم جديدة منه ؟ إن المصرى يعرف حقيقة وضعه ، ويُسيّر – نتيجة لذلك – أموره ، ويأتى الخوف مضيفاً أثره إلى فعل الطقس ، ليضعف من مقدرة جسمه ، بنفس القدر الذى تقيم به المعتقدات الدينية عقبة – لا يمكن اجتيازها – تحول دون تقدم وتطوير أرضه . وهكذا يظل الغنى ينتهب اللذات ، بينما يظل الفقير يروى بحبات عرقه أرضا خصبة معطاء ، لكنه لايستطيع أن يحصل منها إلا على ما يقيم أوده.

ومن جهة أخرى يمكن القول بأن كل فروع الصناعة بلا استثناء فريسة للاستبداد . وفى نفس الوقت فإن التجارة مزدهرة ، وليس ذلك لأنها تلقى تشجيعا من الحكومة ، ولكن لأن موقع مصر وثراء منتجاتها يهيئان للتجارة معينا لا ينضب. وهذه الحرفة هى المجال الوحيد الذى يمكن أن يعد المصرى بمستقبل زاهر ، فهى تقوده إلى الثروة فى بعض الأحيان ، وهى – فى هذا الصدد – الحسنة الوحيدة التى بقيت لهم، حيث إن صفتهم كمواطنين قد أغلقت أمامهم طرق المجد والمراكز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكبرى فى وطنهم . انظروا إذن ، إلى أى حد تضاءل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة ؟. إن الكوارث التى تنال منهم اليوم سوف تظل تثقل عليهم ، طالما ظلت هذه العصا الغليظة لمستغليهم غير الجديرين تدور عليهم، ولسوف يظل المصرى عبدا، بائسا ، سلبيا، خاملا ، تدور به دوامات الشك دون أن يفكر فى وضعه المحزن . وربما تكون بلادته تلك هبة من القدر ، إذ بفضلها لن يعذبه على الإطلاق ذلك الإحساس بالآلام والمخاطر التى تهدده بلا انقطاع.

وبرغم ذلك ، فإن للطبقات الشعبية تقاليد أقل تخنثا، فذلك الرجل البائس الذى يتوقف بقاؤه على قيد الحياة على عمله اليومى الدءوب ، نشيط بالضرورة لحد لا يمكن معه أن ينال منه التعب . ويتحمل الفلاح النيران التى تصبها عليه السماء الملتهبة لكى يبذر الأرض التى تمده بضرورات أسرته . وسوف يدهش الأوربى الذى سبق له أن رأى الأثرياء المصريين ممددين على أرائكهم فى رخاوة ، بل يمكن القول بأنهم يخشون من أن ينال منهم التعب لو أنهم أتوا بإشارة إلى خدمهم، سوف يدهش عندما يرى السايس أو خادم الاسطبل - أثناء تدريبات المماليك العسكرية - وهو يجرى أمام حصان سيده ، ويتابع كل حركاته لساعات طوال ، دون أن تبدو عليه أقل أمارات التبرم أو الضجر، فى الوقت الذى تلقى الشمس الملتهبة على جسمه العارى شواظى من رصاص . ويؤخذ هؤلاء الخدم من طبقة الفلاحين عادة .

وعندما يمتدح أحد الأوربيين لأحد سكان القاهرة مباهج التريض وجمال الأمكنة المخصصة لذلك فى أوربا ، فإن القاهرى يجد صعوبة كبيرة فى أن يتفهم كيف يمكن أن تكون هذه الممارسة المتعبة واحدة من مباهج الأثرياء . فالقاهرى عدو لكل حركة ، وهو يزحف بصعوبة من منزله إلى دكانه ، لذا فهو يذهب إلى هناك فى معظم الأحيان على ظهر الحصان أو الحمار . وكل شىء مجهول فى مصر إلا الحدائق ، فلكل المنازل التى تتمتع بمظهر حسن - إلى حد ما - قطعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الأرض صغيرة ، تزرع بالأشجار والخضروات ، لكن الأشجار تزرع بلا أدنى تنسيق ، كما أنها تزرع لمجرد الزينة . وفي بعض الأحيان يذهب رب البيت إلى هناك ليستنشق الهواء تحت ظلها ، لكنه هنا أيضا يتمدد فوق سجاجيد ومخدات ، كما أنه لا يتنزه في طرقات حديقته ولا بين أدغال أشجار البرتقال ، كما ادعى ذلك عديد من الرحالة ، إذ ليس لهذه الحدائق طرقات ، كما أن أدغال البرتقال ليست منسقة بطريقة تحبذ النزهات . وباختصار فإن المصريين يزرعون هذه القطعة من الأرض بجوار منازلهم ؛ كي يحصلوا طيلة العام على أنواع متعددة من المزروعات ، وليس لكي يستمتعوا بمشهد الربيع الدائم .

ويتمتع الفلاحون عادة بصحة جيدة ، وملامحهم بشوشة، بحيث تتناقض مع ذلك الهوان الذى قُدّر عليهم على الدوام أن يقاسوا منه . وهم عجاف أشداء ، وهم يستطيعون تحمل كافة المتاعب، فتراهم نائمين وقت الظهيرة فوق أرض ملتهبة ، وينامون على هذا النحو ساعات متوالية، معرضين للهب الشمس، وهو أمر يكفى لقتل الرجل الأوربى، لكن تلك هى قوة الاعتياد التى يتوافق الفلاح معها على الدوام . وهم لا يكادون يحسون بالعرق ، إذ لا تمتلك هذه الطبقة إلا قُوّتها الجسدية، ولعلها وفيما عدا هذه الميزه أتعس طبقات مصر.

ولا يتمتع الأغنياء وسكان المدن بمثل هذه البنية القوية ، إذ يبدو عليهم منذ أعوامهم الأولى الضعف والتهدل ، فالأطفال من الجنسين شديدو النحول لحد كبير، وعندما تتقدم بهم السن فإنهم يحتفظون بهيئتهم التى كانوا عليها وهم صغار ، حتى ليظنهم المرء رجالا ممروضين ، وسوف نتحدث فى مكان آخر عن الأمراض الخطيرة التى تهددهم ، لكننا هنا سوف نكتفى بالحديث عن آلام الأسنان التى يبدو أن الإفراط فى الأكل هو السبب فى حدوثها ، إذ يتعرض الأغنياء من المصريين كثيرا لهذه الآلام ، حتى أنه من النادر أن نرى واحدا منهم سليم الفم بالرغم من كافة الاحتياطات التى يتخذونها ليحتفظوا بأسنانهم سليمة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهم ينظفونها مرتين فى اليوم بنوع من مياه صابونية ، ولا يفوتهم أن يكرروا نفس الشىء بعد تناول أقل طعام .

ويبدو أن سوء بعض ما يتناولون من أطعمة هو السبب فى هذه الآلام ، حيث إن الفلاحين لايصابون مطلقا بأمراض الأسنان تلك . ومع ذلك فيستحيل علينا - على سبيل المثال - أن نتفق مع جان فيلد Jean Wiled على أن أسنان المصريين تالفة ، لأنهم يمصون بكثرة قصب السكر . فلو كان الأمر كذلك لكان سكان الريف أول من يهاجمهم هذا المرض ، كما أننا لا نستطيع كذلك أن ننسب هذه الأمراض بشكل مطلق إلى عادة شرب المشروبات الساخنة ، وبشكل أساسى : القهوة . ذلك أن آلام الأسنان كما لاحظ نيبور Niebuhr بحق فى كتاب Descrip- tion de L,Arabie قديمة جدا فى مصر ، وهى تسبق بوقت طويل اكتشاف البن، إذ يشير هيرودت - عندما يتحدث عن الأطباء - إلى فئة منهم مهمتها أساسا علاج الفم.

ويتميز المصريون باحترامهم لكبار السن، كما أن حب الأبناء هو أيضا واحد من فضائلهم الأساسية، وينظر الشبان لآبائهم بنوع من التقديس الدينى ، ولايجرؤون أن يدخنوا أمامهم على الإطلاق ، ولايسمحون لأنفسهم بتلك الميزة إلا بعد زواجهم ، وهنا فقط يعتبرون أنفسهم رجالا ، ومع ذلك يظل آباؤهم على الدوام أولى أمرهم، وموضع حبهم وعاطفتهم. وفى بلاد كهذه تدين بوجودها للنيل فإن كل شئ يرتبط بهذا النهر، ومازال توجد حتى اليوم عادات كانت تحدث فى الأزمنة الماضية، فالمسلمون - على سبيل المثال - ينتظرون أولى بشائر الفيضان والاحتفالات التى يقوم بها الناس فى هذه المناسبة ، لكى يحتفلوا بأعراسهم ، ويستمر ذلك حتى حلول شهر رمضان، ومن النادر أن يتزوجوا قبل أو بعد هذه الفترة التى يبدو أن العادة هى التى حددتها .

وقد فرض محمد الوضوء لمرات عديدة فى اليوم، وأصبح هذا التقليد واحدا من الفرائض الأساسية لتلك الديانة التى أسسها هذا المشرع. ونحن لانستطيع أن نلومه فى هذا الخصوص ، حيث إن الوضوء فى كل البلدان الحارة ضرورى للنظافة ، بل إنه ضرورى للصحة . ويغسل المسلمون كل جسمهم كلما استطاعوا ، أو يكتفون بغسل أجزاء منه ، ومن هذه الأجزاء أعضاؤهم التناسلية ، ويستخدمون فى هذه العملية يدهم اليسرى ، أما اليمنى فتبقى لأمور أكثر نبلا . فهى التى توزع الطعام ، وتحيى أو تقدم للكبار أمارات الاحترام أو الخضوع بوضعها فوق الرأس.

والمساجد عبارة عن تجمعات شيطانية ، إذ يتجمع هناك أناس ينهمكون فى أمور تتعارض تماما مع قداسة المكان ، بل هم يندمجون أحيانا فى اهتمامات مجافية للذوق ، فهناك ترى خليطا من المتعبدين يؤدون الصلاة، وبؤساء يتفلّون ويقتلون ما بملابسهم وأجسامهم من قمل وبراغيث ، وعاطلين نائمين ، وحرفيين منهمكين فى ممارسة أعمالهم . وينظر لتلك الأمور بتسامح كبير، وليست مصر هى البلد الإسلامى الوحيد التى تُغتفر فيها – بحكم العادة – تلك العادات السيئة.

ويقدس المسلمون هناك عديدا من الأولياء الموتى، وهم لايعظمونهم إلا لكى ينالوا منهم الصحة لأنفسهم أو الخصوبة لزوجاتهم العقيمات، ويرون فى أوليائهم كذلك القدرة على إبطال مفعول الحسد والسحر المؤذى، ذلك أن الجهل والتعصب يحملانهم على أن ينسبوا لمجرد نظرة سريعة من العين ، الكثير من التأثير الضار على صحة المرء ، بل على حياتهم كلها. وجدير بالذكر أن اليهود – وهم ليسوا أقل تعصبا ولاتطيرا من العرب – يقدسون أحبارهم لنفس الغرض . وبخلاف ذلك ، يلجأ العامة لوسائل أخرى كثيرة – سنتحدث عنها فيما بعد – لكى يبعدوا العين «الردية» كما يقولون.

ويقوم المصريون بممارسة أخرى مضحكة ، تعود إلى ضعف نظامهم الروحى،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيحرص المسلم منهم بعد أن يقص شعر رأسه أو لحيته على ألا يرمى بها فى الهواء، بل يطويها بعناية داخل ورقة ، ثم يضعها بحرص فى أحد الشقوق . ويتبع الشعب كله على وجه التقريب هذه العادة العجيبة.

وقد قام الجيش الفرنسى – بعد احتلال هذه البلاد – بإنشاء مستشفيات فى كل المدن الكبرى ، وكان بعض المسلمين يترددون على هذه المستشفيات للقيام بمهمة دفن الموتى . وقد لاحظنا أنهم يضعون جثث المسيحيين بطريقة عكسية تماما لتلك التى يضعون بها جثث المسلمين . وسألناهم ذات يوم عن السبب فى هذا التمييز ، فأجابونا بجدية تامة : « إننا نحن أتباع محمد الذين ينبغى لأرواحنا أن تصعد إلى السماء ، لذا فنحن نرقد جثث المسلمين على ظهورها ، أما أرواح الكفار فينبغى – على العكس من ذلك – أن تهبط ، إلى الأرض لذا فنحن نرقد جثثهم على بطونها، حتى نسهل من مهمة أرواحها ونقصر عليها المسافة » .

وللمماليك عادات ترجع إلى مزاجهم وتربيتهم ، فهم لايُشاهَدون مطلقا بدون سلاح، بل إنهم لايتوجهون إلى حفلة طعام دون أن يرتدوا كافة سلاحهم، ذلك أن الخيانات المستمرة فيما بينهم تفرض مثل هذا الحرص ، إذ كانت الموائد والاحتفالات الكبرى على الدوام هى المناسبة والوسيلة لتنفيذ عمليات الاغتيال أو الانتقام ، إنهم يتمسكون إذن بمناصبهم باحتياطهم ضد هذه المكائد . ومن جهة أخرى، فإن عادة أن يكون المرء مسلحا هى عادة شائعة بين الشرقيين، بل هى عندهم أمر من أمور الجاه والعز، ويشكل السلاح على نحو ما جزءا من ملابسهم ، وسوف يكون الأمر فى غير تمامه لو أن الحزام لم يكن مليئا بالطبنجات الفخيمة والخناجر الجميلة . وتتفق هذه الأداة القاتلة مع نوع الحياة التى يحيونها ، ومع ميولهم الجموح.

والمصريون بشكل طبيعى نحيلو الجسم ، وذوو أمزجة سوداوية ، ولانجد من بينهم رجالا ضخام الجسم وأقوياء إلا عند الأقباط أو المسيحيين الشرقيين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأكثر الناس حياء بين المصريين هم الأقباط، ولا يمكن للمرء أن يتصور إلى أى حد بلغ جبنهم وتخاذلهم، ومن السهل تفسير ذلك، فحالة العبودية التى انتهوا اليها منذ قرون كثيرة هى السبب الحقيقى لذلك .

وإذا كان صحيحا أن مصر القديمة هى التى أوحت للشاعر أروفيوس بالأفكار الأولى لهارمونيته الموسيقية ، فإن مصر الحديثة قد فشلت فى هذا المجال ، كمافشلت فى أمور أخرى . فالموسيقى فى هذا البلد ليست سوى نوع من الأنغام الغليظة والرفيعة ، تفرغ ضوضاءها المنفرة والمنافية للذوق السليم فى الآذان فتكاد تجرحها . ومع ذلك فإن لهذه الموسيقى المليئة بالعيوب – كما نرى – قدرة عجيبة على إدخال السعادة إلى الجنس اللطيف فى مصر، الذى يحتقر فى نفس الوقت وبشكل كبير موسيقانا الأوربية . وقد شاهدنا امرأة يغمى عليها من فرط الانتشاء وهى تستمع لصوت أجش لأحد المطربين العرب ، بينما كنا نحن الأجانب نعده صوتا عاجزا يبعث على التقزز . وهم يصحبون أغانيهم بآلة موسيقية أو آلتين حادتين ليس بينهما تناسق [1] . ومغنيات مصر المفضلات هن العوالم (عالمة) . وهن يشكلن واحدة من مباهج وملذات المصريين . ومع ذلك فإن صوت هؤلاء العوالم منفر وغير مقبول ، وينبغى أن تكون مصريا حتى تجد فى صوتهن بعض الطرب . وتنتسب هؤلاء السيدات عادة إلى الطبقات الشعبية ، وهن مشهورات بكونهن شاعرات مرتجلات .

---

(١) ينبغى أن نلاحظ أن الموسيقى العربية – بعيدا عن التونات وأنصاف التونات الموجودة فى سلمنا الكروماتيكى – تتمتع هى أيضا بأرباع التون . وهذه النغمة هى التى تأخذها أذن الأوربى كنغمات خاطئة . ولكن عندما تدرس الأغنية العربية بشكل أفضل فسوف نرى على الفور أن أرباع التونات هذه تشكل جزءا من السلم الموسيقى .انظر فى هذا الخصوص دراسة المسيو فيوتوVilloteau حول موسيقى المصريين المحدثين . وصف مصر، الدولة الحديثة، جـ ١، ص ٦٠٧ وما بعدها .
(الجزء الثامن من الترجمة العربية . المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الأشياء التى تلفت نظر الأوربى أكثر من غيرها عند عبوره شوارع القاهرة أن يرى بعض الشبان تغطى أجسامهم الهلاهيل والأتربة ، لكنهم يتجادلون فيما بينهم بكثير من الجدية والأهمية . وليس أكثر مثاراً للدهشة من أن ترى بعضا من العامة يتشاجرون، فهم يتبادلون السباب والصيحات العنيفة ، ويهدد بعضهم البعض ، بل يصل الأمر لحد أن يتلامسوا بالعصى ثم يتفرقون دون أن يصل بهم الأمر لأبعد من ذلك ، ومن النادر أن تصل مشاجراتهم لنتائج أكثر خطورة .

ونلاحظ فى المصانع المهارة التى يستخدم بها العمال إبهام قدمهم لإنجاز أعمالهم ، ولاتستطيع أيديهم بكثير من الجهد أن تجارى أقدامهم فى تنفيذ نفس الحركات بمثل هذه الدقة والسرعة.

ويمكن لنا أن نذكر تحت بند المهارة ، مهارة الحلاقين المصريين ، فلعلهم أبرع زملاء مهنتهم فى العالم كله ، ومع ذلك فأساليبهم تبعث على الضيق حين لايكون المرء متعودا عليها . وهم يتفوقون على وجه الخصوص فى حلاقة شعر الرأس بالموسى .

ويتمتع الشرقيون الذين يعملون بتجارة الفضة عامة بشهرة سيئة بخصوص أمانتهم واستقامتهم ، لكن هذا الاتهام ظالم ، ذلك أن الوزانين العموميين والصرافين والعاملين فى تبديل العملات مشهود لهم فى مصر - على العكس من ذلك - بالنزاهة والاستقامة ، ولعلنا لانجد مثالا واحدا على أن رجلا واحدا من العاملين فى هذه المهن قد اتهم بإساءة استغلال هذه المهام الدقيقة التى نيطت بهم. ويحوز الصرافون سمعة طيبة جدا فى مجال التجارة . ومع ذلك فمن الصحيح أن لديهم وسائل مشروعة كثيرة يصلون بواسطتها إلى تكوين ثروة كبيرة دونما حاجة منهم إلى الغش . وهم يستطيعون أن يتركوا عملهم هذا فى بضع سنوات ، أو يستمرون فيه حسب مزاجهم ، ذلك أن هذا الوقت القصير يكفى عادة لكى يجعل منهم أناسا بالغى الثراء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨

عن الأمراض الرئيسية

فى ظل وجود حرارة متساوية الدرجة - على وجه التقريب - طيلة العام، وفى ظل سماء صافية تغسل الموجودات والأشياء كل صباح بما تكونه من الطل والندى ، فإن مصر لا تتعرض إلا لعدد قليل من الأمراض، ومع ذلك فهذه الأمراض على قلتها قاتلة فى معظمها لحد يثير الفزع . ومما لاجدال فيه أن نضع على رأس قائمة هذه الأمراض : الطاعون، هذا الوباء ، الكارثة ، الذى استطاع - بسبب النشاط الذى لم يمكن إدراكه حتى الآن للجسيمات الحاملة له - أن يفلت إلى اليوم من بحوث علم الطب . ويندلع الطاعون فى مصر على فترات تتقارب أو تتباعد، ويمكن القول بأنه نادرا ما ينقطع فى القاهرة والأسكندرية بصفة خاصة . فبعد أن ينكمش المرض بفعل الحرارة الشديدة أو برودة الشتاء القارسة ، فإنه يعود ليتولد من جديد ، وتعود إليه قواه المُهْلكة ، فى الفصل الذى تميل الحرارة فيه إلى الاعتدال . وفى بعض الأحيان يكون المرض طارئا وعارضا، وعندئذ يكون قليل الخطورة ، ويختفى فجأة بعد مدة قصيرة ، ليعاود الظهور من جديد بعد بضعة أشهر. ويبدو تواكل المسلمين وعدم حيطتهم وسذاجتهم الروحية ، باعتبارها الأسباب الرئيسية لبقاء هذه الكوارث . فهؤلاء فى الواقع، يتصورون - متمثلين بما ورد فى بعض نصوص القرآن - أن ليس ثمة ما يحدث دون إرادة من الخالق ، وأن ليس ثمة ما يمكنه أن يرد قضاءه ومشيئته التى لا محيص عنها ، لذا ينظرون إلى الاحتياطات التى تم اللجوء إليها لمنع انتشار الطاعون كأمور لا جدوى منها ، إذ إنهم لن يصابوا مطلقا بأذى إذا كان مقدرا لهم أن يعيشوا ، كما أن شيئا لا يمكن له أن يحميهم إذا ما كانت مشيئة الله قد أرادت لهم أن يموتوا .

ويتذكر سكان القاهرة بفزع نوبة الطاعون التى حلت أيام على بك ، وتلك التى حلت أيام إسماعيل بك ، ولقد أدت النوبة الأخيرة على وجه الخصوص - وهى التى

اندلعت فى ربيع ١٧٩١ - إلى حدوث فظائع كبرى ، فقد كانت تحصد الألوف فى كل يوم، وكان إسماعيل بك وكبار المماليك من بيته من أوائل ضحاياها . وقد كلفت هذه النوبة مدينة القاهرة ثلث سكانها .

ولسنا هنا بصدد الدخول فى تفاصيل حول مرض الطاعون، فلسوف تذهب بنا الظنون مذاهب شتى حول تحديد أسبابه ، دون أن نتمكن بطريقة كافية من أن نحدد طبيعة العوامل المتسببة فى حدوثه . ذلك أننا لا نريد أن نضاعف من حجم عدد الافتراضات التى قدمت والتى سوف تقدم فى هذا الخصوص ، فالطاعون ينتقل بفعل الاحتكاك والتلامس ، فإذا ما استطاع المرء أن ينعزل تماما وأن يمتنع عن ملامسة جسم مريض أو استنشاق هواء تنفسه ، فبإمكانه أن يتأكد أنه سوف يفلت منه . ويعتقدون هناك فى الشرق أن المرض يمكن أن ينتقل أيضا عن طريق حاسة الشم، وأن الزهور تتشرب بسهولة الأبخرة العفنة الناقلة للطاعون (١) .

وبرغم أن الدوسنتاريا أقل بشاعة من الطاعون بكثير ، فإن آثارها فى مصر ليست أقل تدميرا ، وذلك بسبب أطعمة المصريين الرديئة ، وبسبب استعداد أجسامهم وبنيتهم الضعيفة ، ويسبّب لهم هذا المرض دمارا مروعا، وهو يهاجم أطفالهم على وجه الخصوص ، ويحصدهم بطريقة تبعث على الرعب .

وفى نفس الوقت فقد قدر على المصريين المحاطين بالصحراوات من كل جانب، حيث تنتشر رمالها الناعمة والحادة بفعل الريح ، وحيث يتعرضون هناك لتقلبات مفاجئة فى درجات الحرارة ولرخات الطل المتزايدة - قدر عليهم أن

---

(١) أظهر السيدان ديجينت ولارى des Genettes & Larry كبيرا أطباء الجيش أثناء مدة الحملة، شجاعة تعلو على كل مديح حتى يتعرفا على العوامل المسببة لهذا المرض ، و قد أمكنهما أن يجمعا - مخاطرين بذلك بحياتهما - عددا كبيرا من الملاحظات القيمة عن أساليب العلاج الواجب اتباعها . ويتذكر كل رجال الجيش الذين لا يزالون على قيد الحياة - بكل الأسى - تضحيتهما الكريمة. انظر مؤلفاتهما وانظر كذلك مقالة السيد الدكتور سافارسى Savaresy عن الطاعون الذى ضمها إلى مذكراته، وكذلك مقالة المسيو أساليني Assalini .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتعرضوا لأمراض العيون منذ زمان ضارب فى القدم . وهذا ما يؤكده هيرودت حين يشير - من بين الأطباء - إلى أولئك الذين يعملون منهم فى علاج أمراض العيون . وليس الرمد اليوم منتشرا بأقل مما كان عليه فى الماضى ، بل لعل انتشاره قد ازداد بسبب إهمال الشعب وعدم حيطته ، إذ ينام الناس فى الهواء الطلق ، مما يساعد الرطوبة و برودة الجو على تكوين التقيحات ، التى تسبق علل العيون أو فقدان البصر.

ولم يكن بمقدور جنودنا أن يفلتوا من هذا المرض ، وقد ظنوه فى البداية معديا . ولم يكن التجار الأجانب ليفلتوا بدورهم منه ، حتى ليبدو وكأن المرض يفضل سكنى عيونهم ، ومع ذلك فهو لا يستثنى المواطنين، فمن بين كل خمسة أشخاص ، ثمة واحد يضع عصابة على عينيه .

أما الجدرى الذى كان بشعا فى بلادنا منذ زمن طويل ، فإنه يواصل تدميره فى الشرق حيث يهيئ له التعصب والخرافات - كما فى حالة الطاعون - عمرا طويلا[1] . وهو مرض بشع فى مصر ، ويظهر هناك بشكل مفزع ، وبدرجة أشد خطورة مما كان يحدث فى أوربا . ونادرا ما يفلت الأطفال فى سن مبكرة من مخاطره وخبثه ، وإذا ما كان بعض البالغين أو الرجال الناضجين يشفون منه فإنه يترك على كل أجسامهم ندوبا عميقة . وهو ينتشر فى فترة معينة من العام شأنه فى ذلك شأن الطاعون[2] ، لكن ما يجعله أبلغ ضررا منه فى أى مكان آخر ، أن الأمراض التناسلية لا تشفى هناك بشكل جذرى ، لذا ينتقل ميكروبها البالغ النشاط من جيل لجيل ، ويصيب الشعب كله وينتقل إلى دم الأطفال مع لبن الرضاعة . وعندما يأتى الجدرى بعد ذلك ليهاجم هذه الكائنات الضعيفة التى أتلفت فيها بالفعل منابع الحياة نفسها، فلابد أن نستنتج بسهولة أنه سيكون من

---

(١) يعتقد كثير من الأطباء أن مرض الجدرى قد نشأ أصلا فى مصر .

(٢) انظر ما كتبه المسيو جومار Jomard فى دراسته عن المقارنة بين سكان مصر الحديثة وسكانها القدامى .

الصعب على هؤلاء الأطفال الضعاف أن يقاوموا شدة هذا المرض ، لذا كانت هذه النسبة الكبيرة من الوفيات بين الأطفال فى القاهرة وبقية المدن .

ومن الأمراض الشائعة فى مصر كذلك الفتاق والدمامل . وكان يمكن أن تصبح هذه الأمراض أكثر انتشارا لو لم تكن تلك الحيطة الحكيمة من جانب الفلاحين ، إذ يضغطون أسفل البطن بواسطة حزام جلدى عريض . وتهاجم هذه الأمراض العارضة الحيوان كما تهاجم الإنسان . لكن الإنسان لا يلقى لها فى البداية الاهتمام الكافى ، ومن ثم يزيد المرض خطورة ، ويصبح فى شكل تقيحات تستعصى على الشفاء ، ولما يكن المريض قد شرع بعد فى العلاج . وهكذا شأن القوم مع الأمراض الأخرى ، فالرقى والأدعيات الدينية هى العلاج الناجح لكل الأمراض عند عامة الشعب . أما عيادات الطب الشعبى التى أنشئت فى المدن فهى تغتال حياة من يسلم إليها نفسه طائعا مختارا من الأغنياء ، وفى الوقت نفسه فإن الخرافة تعمل من تلقاء نفسها كعلاج ناجع غريب لهذا البلد ، الذى تُسيّر أموره المعتقدات المسبقة والجهل والتعصب .

وتشكل كل الظروف التى رصدناها فى الأجزاء : ١، ٣، ٨ العناصر التى عملت على تشكيل أو تعديل تقاليد المصريين وعاداتهم، ويعود بعض هذه الظروف إلى كل العصور ، حيث إنها ترتبط بالطقس وبالبنية الطبيعية لمصر ، أما بعضها الآخر فهو ثمرة الديانة المسيطرة ، والأنظمة المستقرة ، والقوانين التى تحكم البلاد بمقتضاها . وينبغى علينا كى نُكَوِّن فكرة دقيقة عن بقية الأسباب التى تؤثر - بطريقة مباشرة أو غير مباشرة - على تقاليد الإقليم ، أن ننفذ إلى كل الوقائع، وهذا ما سوف نفعله فى الفصول القادمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

عن الإنسان المصرى فى سنوات عمره الأولى
الطفولة والتربية - الفنون والعلوم
والآداب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١

عن خصوبة المرأة ونظام الرضاعة

قد لا يكون خارجا عن موضوعنا - قبل أن نتحدث عن خصوبة النساء في مصر - أن نخوض في بعض التفاصيل حول حياة المرأة المنزلية ، وحول المكانة التي تشغلها في المجتمع . فملاحظات من هذا النوع ترتبط بالموضوع بشكل أساسي . وإذا كانت المرأة لا تُحْدث عند الشعوب الشرقية إلا تأثيرا بالغ الضآلة على الرجل ، بالمقارنة بما يحدث عندنا في أوربا ، فإن الأطفال في سني عمرهم الأولى برغم ذلك يخضعون لتأثيرها ، ولا يمكن أن يكون أمر كهذا - بالنسبة للدارس الواعي - إلا واحدا من العوامل التي تؤثر في تقاليد الأمم ، إذ لا يمكن أن يكون مثل هذا الأمر خاليا من التأثير، حتى وإن عُدّ من قبيل الأسباب غير المباشرة .

وتقيم الطبقة والثروة بين نساء مصر اختلافات وفروقا أكبر بكثير من تلك التي تحدث عند شعوب الغرب ، لكن هذه الفروق لا تتضح في مجال التربية التي يتلقينها في طفولتهن - وهي تكاد تكون معدومة بالنسبة لجنسهن كله - بقدر ما تتضح في مجال العادات التي تنتشر في أوساطهن كنساء ، وفيما تحاط به السيدات من علية القوم من احتفال وامتياز . ومن هذه الناحية ، يمكن لنا القول بأنه لا توجد في مصر إلا طبقتان من السيدات : طبقة ترفل في الثراء ، ويؤدي الغنى إلى رخاوة نسائها ؛ فيقضين حياتهن بأكملها داخل مباهج ومسرات الحريم، وطبقة أخرى قدرت على نسائها حياة نشيطة مليئة بالعمل . ولكي يتضح لك الفرق ، فما عليك إلا أن تنظر إلى واحدة من زوجات البكوات ، وأن تدرس أذواقها وسلوكها ومباهجها وملذاتها واهتماماتها اليومية ، فهذا كفيل بأن يقدم لك فكرة كاملة عن كل السيدات الثريات . ثم عليك بعد ذلك أن تنفذ إلى ما تحت سقف واحد من الحرفيين ، أو إلى داخل كوخ أحد الفلاحين ، وسوف ترى أن الظروف المتشابهة التي تحياها كل هؤلاء النسوة هي التي تحدد لهن ملابسهن ...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا يمكنك أن ترى كل مباهج الرخاوة وترفها فى جانب ، وفى جانب آخر سوف ترى كل خشونة العمل ومقتضياته .

وبرغم ذلك كله فثمة ذلك الذوق الفطرى عند كل النساء الذى يبدو وكأنه يعمل على التقريب بينهن فى مختلف ظروفهن، ذلك أن هذا الذوق يتعلق بالمرأة كامرأة بعيدا عن الطبقة التى تنتمى إليها، ويمكن القول بأن هذه هى نقطة الالتقاء الوحيدة التى تربط بين النساء على اختلاف طبقاتهن ، ونعنى بذلك حب التأنق والتزين بالحلى . فكثير من السيدات فى مصر يلبسن من تلك الحلى ما يفوق كل ثروة أزواجهن، وليس من النادر أن نرى هناك زوجة لحرفى بسيط تتزين بمجوهرات ثمينة ، لو أن أتيح لواحدة من ثريات النساء فى أوربا أن ترتديها لأدركتها كل أمارات الزهو والخيلاء، ومع ذلك فقد تكون زوجة هذا الحرفى ممن يعانين فى الحصول على قوت يومها . وهذا الكلف من ناحية السيدات المصريات بهذا النوع من الزينة يرتبط بطريقة إحساس هؤلاء السيدات بكرامتهن ، حتى أن أبسط تاجر لا بد أن يوفره لزوجته إرضاء لها ، ويؤدى ذلك فى النهاية وبدرجة لم تكن متوقعة إلى تضييق ممارسة تعدد الزوجات ، لذا يكتفى المسلم المتواضع الثراء بزوجة واحدة أو اثنتين ، ولن يكون بمقدوره أن يزيد عن ذلك وإلا سوف يصعب عليه أن يساوى بينهن . وهكذا ، فقد وضع خيلاء النساء وغرورهن حدودا لإفراط الرجال وشهواتهم .

ولقد سبق أن تحدثنا عن حياة سيدات الحريم، وكيف أنها فارغة ورتيبة، وكيف أن الواحدة منهن تقضى يومها راقدة فوق فراشها أو مُقْعية على وسائد رخوة ، تحيط بها جمهرة من الإماء شديدات الانتباه ، لحد يتنبأن معه بما قد يجول فى إرادتها حتى يوفرن عليها حركة الإشارة من أصبعها، لذا فإن مثل هذه السيدة تكتسب فى وقت قصير سمنة غير مستحبة، لكن الأتراك يعتبرون هذه السمنة واحدة من أهم شروط الجمال . ومع ذلك فلعل هذا الميل منهم يعود إلى أن كل النساء هناك فى العادة سمينات ، وهذا طبيعى بالنسبة لنساء يتلقين هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النوع من النشأة المرفهة . وفضلا عن ذلك فلون بشرة هؤلاء السيدات ناصع البياض، وعيون غالبيتهن آية فى الجمال ، وملامحهن على وجه العموم متناسقة . لكن جمود ملامحهن قد جعل وجوههن خالية من كل تعبير، كما أن سكونهن يشى برخاوتهن ، وعقلهن فضلا عن ذلك خال من أية معرفة . ونساء هذه الطبقة يلجأن إلى وسائل – تبدو لنا بالغة الغرابة – كى يضفين رونقا على جمالهن و يقاومن آثار الزمن وفعل الطبيعة ؛ فحيث إنهن يرون فى كثافة الحواجب أمرا شائها فإنهن يستخدمن الموسى لكى يصبح هذا الحاجب الكث مجرد خيط رفيع فوق الجفون . وهن يعرفن كذلك المساحيق الأوربية فى التزين . وتلجأ الشابات المسيحيات ، وكذا الروميات اللائى يطمحن أن يحصلن قبل الأوان على كل جاذبية المراهقة – إلى وضع ضمادات من لباب الخبز الساخن بين النهدين ، وتحدث هذه العملية بالفعل أثرها . ولكن فلأن الثديين قد نضجا بسرعة وقبل الأوان فإنهما فى نفس الوقت يفقدان من مرونتهما ؛ ولعلنا نستطيع أن نجد فى ممارسة هذه الطريقة الغريبة سر السرعة التى يذبل بها جمال المرأة الشرقية . وهكذا فنساء مصر كما رأينا لسن أقل من مثيلاتهن الأوربيات غيرة على سطوة جمالهن ، وذلك بالرغم من أنه ليس أمامهن من فرص لاستعراض جمالهن هذا إلا أمام أزواجهن أو أترابهن ، فهذا النوع من الانتصار يرضى كرامتهن بشدة .

وفى الطبقة الدنيا يتغير كل شئ ، فالنساء مهمومات بأمور البيت ، أما مباهج البطالة فلم تخلق لهن . فهاهن فى الحقول يقتسمن مع أزواجهن العمل ، أو يساهمن على الأقل فى جعل العمل على أزواجهن أقل مشقة، لذا تراهن يتمتعن بكل الخصائص الجسدية التى تنتج عن مثل هذا العمل المنتظم ، فأجسامهن قوية، عارية من الشحوم ، وحركاتهن سهلة ، وخطوهن ميسور ، فى حين أن خطوات السيدات الميسورات ثقيلة متعثرة . وعلى الرغم من بساطة ملابسهن فإن لديهن الرغبة فى أن يتميزن وسط رفيقاتهن ، وذلك بالتزين ببعض الحلى المتواضعة ؛ فيحطن أصابعهن بخواتم عريضة كما يفعل السايس ، ويزين خصلات شعرهن ببعض قطع من النقود .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقـيم فى القـاهـرة وبولاق عـديد من الأسـر من أصل سـورى، ونسـاء هذه الأسرات فى العادة جميلات وقامتهن مديدة وعيونهن سوداء واسعة بها شئ من الإغراء، لكن أنفهن الأقنى والطويل بعض الشئ ربما يعطى لشكلهن ملمحا من شموخ واضح، ومع ذلك فهن يبدون بهذا المظهر المتعجرف فى مواجهة السيدات التركيات اللاتى يماثلنهن فى الزى والعادات .

وثمة عادة شائعة بين النساء - مسلمات ومسيحيات - وهى أن يُسوّدن حافة جفونهن بالكحل ويُحمّرن أظافرهن بالحناء ، ويلاحظ المرء كيف يمكن لهذا اللون القاتم أن يضفى شيئا من الغلظة على الوجه ، لكننا برغم ذلك لا نستطيع أن نصدر حكما قاطعا فى هذا الصدد إلا إذا رأيناهن عن قرب ، وفى ظروف حميمة وليس فى ظروف طارئة تأتى لتجعل مثل هذا الفضول ممكن التحقق . ذلك أن النساء فى كل الظروف لا يخرجن مطلقا سافرات الوجوه، بل يغطين وجوههن بالبرقع ، وهو غطاء مكون من قطعة من الموسلين ، توضع فوق الأنف والوجه ، وتضايق التنفس ، ولا بد أنه يسبب لهن الكثير من الضيق ، وزيادة على ذلك ، تغطى جبهة المتزوجات منهن بعصابة من قماش أسود ، تترك بين البرقع والجبهة فراغا ضيقا تستطيع العين أن ترى من خلاله ، أما أولئك اللائى لم يتزوجن بعد فيحملن على جباههن عصابة بيضاء ، أما لون البرقع فهو نفس اللون بالنسبة لهؤلاء ولأولئك .

ولا يدخل الرجال مطلقا - فيما عدا بعض الأهل الأقربين - إلى مسكن السيدات ، ونادرا ما يأكل الزوج معهن ، ويخصص لهن الجزء العلوى من المنزل ، وهذه عادة شائعة عند الأتراك وعند كل الأمم الإسلامية .

وعندما كان يتاح لأحد الأجانب - قبل قدوم الحملة الفرنسية - شرف أن يمثل فى حضرة زوجة أحد البكوات ، أو زوجة إحدى الشخصيات الكبيرة ، فإن هذه الزوجة لم تكن لتستقبله فى حجرتها ، بل فى حجرة طواشيها أول ، لكنها لا تظهر لناظره . وتأمر بتقديم القهوة والشربات إلى ضيفها . وتظل تتحادث مع هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغريب عن طريق طواشيها دون أن تخرج مطلقا من خدرها . وهكذا لم يستطع الرحالة - السابقون على الغزو - أن يتعرفوا على أحوال سيدات الطبقة المسيطرة ، وذهبت أدراج الرياح كل توسلاتهم اللحوح . فلم يكن عظماء مصر ليسمحوا لأحد بأن يتطلع إلى جمال زوجاتهم ؛ ومع ذلك فقد كانوا يستطيعون أن يوفقوا على الدوام بين واجبات ومقتضيات اللياقة وبين تقاليد بلادهم . وتتزوج النساء - كما سبق لنا القول - فى سن الثانية عشرة ، ومن النادر أن تبقى واحدة منهن بلا زواج حتى سن السابعة عشرة، بل يحدث أن يدعى أنهن قد نضجن فى سن العاشرة أو الحادية عشرة . ومع ذلك فلعل هذا الأمر أقل انتشارا ، رغم أن ثمة أمثلة عديدة فى هذا المجال لا تدع مجالا للشك فيما نقول ، فقد حدث أن تزوجت شابات قد نضجن قبل الأوان وهن بعد فى سن التاسعة أو العاشرة ، إلا أن مشورة السيدات لازمة فى هذه الحالة ، ولم يكن زواج مثل هذا ليتم إلا بعد أن تعلن النسوة أن الزوجة الشابة قد بلغت مرحلة النضوج .

ويمكن للزوجة المصرية أن تصبح أما فى سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك فى العادة فى سن الرابعة عشرة ، وتظل فى سنواتها المقبلة تقدم الأدلة على خصوبتها المذهلة ، ومن الممكن لها أن تصبح أما مرة كل تسعة أشهر ، ولكننا نستطيع القول - لكى نقدم نسبة دقيقة - بأن كل مصرية تتزوج تنجب طفلا كل ثلاثة أعوام . ويقيم ذلك التقدير نوعا من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتى يمرضن ، أو أولئك اللاتى يتميزن بخصوبة قليلة ، أو اللاتى تجعلهن بعض الأسباب الخاصة عاجزات عن الإنجاب . والعقم التام شديد الندرة فى هذه البلاد، بل إنه يعد بمثابة عار للمرأة ، لذا تلجأ السيدة العقيم إلى كل الوسائل التى تفرضها معتقدات النساء وخرافاتهن لكى تستطيع الإنجاب . ويقوم الدجالون والمحتالون من أهل البلاد أو من الغرباء باستغلال هذا النوع من النساء ، فيقدمون إليهن - بأثمان كبيرة - أشياء يقال إنها لا تخيب مطلقا ، لكن الطبيعة والطقس يعملان عملهما فيساعدان بذلك هذه الأشياء - الوهم - التى يمكن القول بأنها عديمة الجدوى على الدوام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكن السيدات فى نفس الوقت لا يبقين خصيبات لسن متأخرة كما يحدث فى أوربا، فما أن يقتربن من سن الثلاثين حتى تؤدى نوبات الحمل المتكررة إلى جعل الولادة عسيرة ، مما قد يكلف الطفل - الذى كن سيتباهين به - حياته . وسن الخامسة والثلاثين هى السن الطبيعية التى يتوقف عندها معظم السيدات عن الإنجاب ، ويظل بعضهن يتمتعن بنعمة أن يكن أمهات حتى سن الأربعين ، لكن تلك حالة شاذة ونادرة الحدوث . ومن غير المألوف أن ترى سيدة تنجب بعد هذه السن، وتكون هذه فترة مزعجة بالنسبة للسيدات المصريات، إذ يشعرن فى هذا الوقت ببعض الاضطرابات والتقلبات التى تؤذى صحتهن، لكن السيدة التى تفلت من هذه الأزمة يمتد بها العمر فى بعض الأحيان لسن متقدمة جدا .

وتتم الولادة عن طريق القابلات، وهى على الدوام حوادث سعيدة بسبب تلك الحياة الرخوة الهادئة التى تحياها المصريات . وعندما لا تستطيع امرأة - بعد أن تكون قد استنفدت كل الوسائل التى يتيحها لها طب الركة العاجز - أن تتمتع بسعادتها فى أن تكون أما ، أو أن تحتفظ بالأبناء الذين أتت بهم إلى هذاالعالم، فإن التبنى يعوضها عن ذلك الحرمان الذى فرضته عليها الطبيعة، ولا يمكن لك أن تسمع مطلقا من يقول بأن تلك السيدة عقيم أو أن ذلك الرجل عاجز . ويقوم الموت بحصد أطفال العائلات الأجنبية على وجه الخصوص، فالمماليك واليونانيون الآسيويون والعثمانيون والأوربيون وكافة أبناء الأجناس التى لا تنتمى لهذا الوطن يموتون فى العادة دون ذرية تخلفهم ، وذلك إذا ما تناسلوا فيما بينهم . أما عندما يتزوجون من سيدات هذا البلد فإن بمقدورهم أن يتمتعوا عندئذ بمباهج الأبوة ، دون أن يستطيعوا مع ذلك أن يتطلعوا إلى أن ينالوا نعمة أن يتركوا بعدهم ذرية كبيرة العدد .

ولا يصبح للمرأة المصرية من شاغل - وقد أصبحت أما - إلا أن تعنى بطفلها، فتضع فيه كل اهتمامها وتركزحوله عواطفها ، ولا تستطيع أقوى الشدائد أن تدفعها لكى تتخلص من هذا العبء الذى تظل فخورة به طيلة تسعة أشهر، بل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن طفلها المرتقب ينسيها آلام الوضع، فهذاالكائن الضعيف والعزيز هو تعويض لها عن آلامها الطويلة . وكم هو جميل بالنسبة لها أن تقوم بواجبات الطبيعة ! إنها لن تسلم مطلقا هذا الطفل - الذى يدين لها بوجوده - لعناية سيدة أخرى غريبة عنه ، فهى شديدة الفهم لملاطفاته الأولى، وهى كذلك تطعمه من لبنها ، ولا تخشى مطلقا ما يعدها به هذا المولود الجديد من متاعب، فلقد قررت أن تتحمل ذلك بسرور ، ولسوف تتحمل فى شجاعة أية مخاطر كبرى قد تتهددها . لكنها لا يمكن أن تسمح له مطلقا بأن يخلع على أخرى ببساطة ذلك الاسم الذى يصنع لهاسعادتها ومجدها، اسم "الأم" الذى تغار عليه وتفخر به ، لذلك لا تعرف فى مصر هذه الأمراض التى تثير أحزان الأمهات الشابات اللاتى يمتنعن عن إرضاع أطفالهن . أما عمليات سكب لبن صدر الأم وغيرها من الأمور التى تضعف صحة الأمهات فسوءات لا يعرفها الشرق ؛ فكل امرأة هناك هى مرضعة أسرتها ، أما إذا ما شاءت الطبيعة ألا تهيئ الكمية الكافية من اللبن لإرضاع مولودها الجديد فإنها ستطلب معونة سيدة أخرى ، لكن هذه المرضعة لن تعد مطلقا غريبة عن الأسرة ، إذ يمكن القول بأن صفتها كمرضعة سوف تنسبها إلى هذه الأسرة ، وسوف تمنحها حقوقا أبدية فى عواطف الأبوين وفى عواطف الرضع . وهكذا يبدو أن العناية الإلهية تقيم نوعامن التعويض بين المزايا التى توزعها على الشعوب ، فهذا هو المصرى الذى ليست له نفس مباهجنا وملذاتنا أو نفس ميزاتنا الجسدية أو الروحية التى تبعده عن أسرته، يعرف أكثر منا معنى العواطف الطبيعية، فأطفاله هم كل شئ فى حياته ، وهم مصدر كل سروره وفخره وآماله ، ولربما كانت أحاسيسه أكثر تبلدا وأقل تنوعا، لكنها أكثر نفاذا وأكثر حقيقة . وهو يدين بذلك إلى براءة عاداته وكذا إلى بساطة تقاليده ، لقد وجدها كامنة فى نفسه وفى ثنايا أسرته ، فليس ثمة من المرارة والندم العائلى ما يسمم مباهجه .

وتولى النساء المسلمات أطفالهن اهتمامات دقيقة ، كثيرا ما تأتى بعكس المرجو منها بالنسبة لهؤلاء الأطفال ؛ فهن يسرفن فى تغطيتهم بالملابس الثقيلة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويؤذين معدتهم بأطعمة غير صحية . فيسرفن - على سبيل المثال - فى تقديم السكريات والفاكهة من كل نوع لهم ، وتكون النتيجة أن يهلك عدد كبير من هؤلاء الأطفال فى سن مبكرة ، ويأتى الجدرى ليساهم فى الارتفاع بنسبة الوفيات بينهم كما سبق لنا القول . ففى القاهرة - على وجه الخصوص - يتسبب الجدرى فى حدوث أضرار هائلة، إذ يهاجم الأطفال من الجنسين ولما تكن أعمارهم قد تجاوزت السنتين أو الثلاث، ولا يمكن لمثل هذه الأجسام الضعيفة التى أتلفت الأطعمة الضارة بنيتها أن تقاوم بسهولة عنف المرض . وهكذا يمكن القول بأن هذا الشعب يدين بوجوده لخصوبة نسائه ، بينما يصعب على الأجناس الأخرى أن تستمر على قيد الحياة فى هذه البلاد، وسوف نقدم الدليل على ذلك فى الجدول الآتى عن حالة أهم الأسر المملوكية :

إسماعيل بك : لم يترك إلا بنتا واحدة .

إبراهيم بك : له طفلان على قيد الحياة .

قاضى أغا : أنجب أحد عشر طفلا، بقى منهم أربعة على قيد الحياة .

مراد بك، أيوب بك الصغير وأيوب بك الكبير، الألفى بك، محمد بك المنفوخ، عثمان بك تباس ، عثمان بك الشرقاوى ، عثمان بك الأشقر ، عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرديسى ، عثمان بك الطمبورجى ، حسن بك الجداوى ، صالح بك، إبراهيم بك الوالى ، محمد بك العبدولى ... كل هؤلاء بلا أطفال .

محروق بك بن إبراهيم بك : له طفلة واحدة على قيد الحياة .

على بك الكخيا : له طفلة واحدة على قيد الحياة ، وكذلك سليمان بك .

أحمد بك الكرارجى :لم ينجب أطفالا على الإطلاق ، ونفس الشئ بالنسبة لعثمان بك حسن ، وكذلك سليم بك أبو دياب ، وقاسم بك .

حسن الكاشف الشركسى : لم يخلف سوى طفل أعمى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محمد أغا : أنجب اثنين وعشرين طفلا لم يبق منهم على قيد الحياة سوى طفل واحد ضعيف البنية.

ومن هذا نرى كيف كان عدد أطفال المماليك الذين يبقون على قيد الحياة ضئيلا ، ويمكننا من جهة أخرى أن نعد أسرا أجنبية أخرى كثيرة لم تكن بأسعد حظا من ذلك ، وهذا دليل على أن الوطنيين وحدهم فى مصر هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التناسل ، ويبدو أن طبيعة المناخ تلفظ بعناد بذور الأجناس الغريبة.

وقد خصص محمد نصا عن الواجبات التى ينبغى على الأمهات القيام بها تجاه أطفالهن. يقول المشرع العربى :

«والوالدات يُرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لاتكلف نفس إلا وسعها لاتضار والدة بولدها ولامولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلاجناح عليكم إذا سلمتم ماآتيتم بالمعروف» * لكن السماح البادى فى هذا النص يظل بالنسبة للزوجات المصريات غير مطروق ؛ إذ إن لهن صالحا مزدوجا فى أن يقمن بأنفسهن بالعناية التى يتطلبها أطفالهن ، فهن مدفوعات لذلك بدافع من الحب الأموى أولا ، وهن مدفوعات لذلك ثانيا بفعل احتياجهن لأن يجدن لأنفسهن اهتمامات وأعمالا تقطع الرتابة المعتادة فى حياتهن . ويتفق ذلك مع كثير من أساليبهن فى السلوك، فهؤلاء السيدات اللائى تخلو رؤوسهن من أية معرفة واللاتى لايعرفن عادة اللجوء إلى الكتب لملء فراغهن ، يتمسكن- بفرحة طاغية - بأية وسيلة يمكن لها أن تزجى بعض هذا الفراغ. من هنا فإن ممارسة واجبات الأمومة الشاقة بالنسبة لهن نوع من دفع الملل، وإذا ماحدث أن حملن ثانية أثناء الرضاعة - وهذا أمر مألوف -

(*) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٣٣ . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإنهن يستمررن فى إرضاع الطفل حتى الشهر السابع أو الثامن من الحمل حيث يكون اللبن قد تناقص، وعندئذ يتخذن لطفلهن مرضعة.

ويتصرف البدو بطريقة جد مختلفة، إذ لاتقوم الأمهات عندهم برضاعة أطفالهن ، حيث يرفض الآباء ذلك بحجة أنهن يسرفن فى تدليل الأطفال، لذا يعهدون بالأمر إلى مرضعات.

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن العناية الفائقة التى توليها النساء المصريات المقيمات فى المدن لأطفالهن منذ نعومة أظفارهم ، وهى عناية تضر على الدوام بصحة أطفالهن، ولكن زوجات الفلاحين- على العكس من ذلك - يكتفين بلف أطفالهن بقطعة من قماش خفيف ، ويحملنهم معهن ، ويسمحن لهم بالزحف شبه عراة على الأرض . وينتج عن هذه النشأ ة أن يتعلم أطفال الفلاحين المشى فى سن مبكرة، كما أنهم يكتسبون قواهم بسرعة ، وفجأة بعد قليل يصبحون نافعين لآبائهم . وعادة ارتداء السروال الشائعة فى أوربا مجهولة تماما فى مصر ، وكذا فى كل بلدان الشرق ؛ لذلك فنادرا مانرى رجالا متصنعين يجدون حرجا من الاستجابة لقضاء ضرورات الجسم.

والأب فى مصر هو الذى يقوم بتسمية طفله، ويقوم - لهذا الغرض - بجمع أصدقائه وأقاربه فى اليوم السابع للولادة . وعادة ما يختار لطفله اسم جده إذا كان المولود ذكرا ، أما إذا كان بنتا فليس ثمة قاعدة لاختيار اسمها ، ويختار لها عادة اسم زهرة أو اسم شىء من الأشياء الثمينة الموجودة فى الطبيعة.

٢

الختان

بالرغم من أن الختان عادة إسلامية ، فإن المذاهب الإسلامية تنظر إليه بشكل مختلف ، فأتباع المذهب الشافعي يرونه واجبا دينيا لا محيص عنه ، أما أتباع المذهب الحنفي فيرون أن الختان ليس سوى فعل يثاب المرء عليه. ويعترفون بأن بإمكان المرء أن يكون مسلما حسن الإسلام بدون ختان ، ومع ذلك فمادام ينبغى على المسلم أن يأخذ به فليس ثمة من الأسباب ما يكفل له أن يرفضه .

وليس ثمة سن محددة لإجراء عملية الختان هذه ، فيكفى أن يختتن الأطفال الذكور قبل البلوغ ، إذ عليهم فى هذه السن أن يؤدوا الصلاة ، وهم لايستطيعون أن يحصلوا على الطهارة التى يتطلبها محمد كشرط لهذه الشعيرة الدينية ما لم تكن غرلتهم قد قطعت .

وعندما يريد أحد الآباء أن يقوم بختان ولده ، فإنه يقوده إلى المسجد ، وهناك يصلى الإمام على الشاب الصغير الذى يخرج بعد ذلك من المسجد ليجد جمعا من الأهل والأصدقاء ، وبصحبة هؤلاء فى جولات طويلة على ضجة الآلات الموسيقية ومع كثير من الأبهة حتى منزل والده . وعندما يكون هذا الطفل ابنا لأسرة ثرية أو ذات نفوذ فإنه يمتطى حصانا جميلا مزركشا فى بذخ ، وعندما يعود إلى منزله ، تقدم وليمة يدعى إليها كل الأهل والأصدقاء . وعند نهاية الوجبة يقوم الحلاق بقطع الغرلة بالموسى ويوقف تدفق الدم بواسطة دواء قابض ، وعندئذ يسارع كل المدعوين بتقديم الهدايا « للمطاهر » ، ولاتحضر النساء هذا الحفل ، وعند الطبقات الدنيا فقط تقوم النسوة بمصاحبة الطفل إلى المساجد ويعدن به . أما الفتيات فلا يخضعن لعملية الختان هذه ، ومع ذلك فإن الفلاحين والعربان يقومون بقطع بظر الفتيات . ويعيب الاتراك وسكان المدن هذا السلوك مادام طول العضو لايتطلب مثل هذا البتر، وهى حالة نادرة جدا .

وكمـا سبق لنا القول فإن الأقبـاط يمـارسـون الختـان ، ويخضـع له أطفـالهم الذكور فى سن الثامنة أو التاسعة ، أمـا الفتيات ففى نفس السن تقريبا . وقد سبق أن أوضحنا أن هذه العادة قديمة فى مصر ونضيف إلى ذلك أن اليهود الذين نشأوا بين المصريين قد نقلوا هذه العادة إلى فلسطين ، وهذا التشابه لافت للنظر ويستحق الاهتمام كما نرى ، وقد سبقنا زملاؤنا إلى المطالبة بذلك ، ونحن نكرر ذلك هنا حيث إن هذا هو المكان الطبيعى لمثل هذا المطلب.

ويعتبر الختان عند المسلمين بمثابة الخطوة الأولى فى الحياة ، إذ يمكن القول بأن الطفل كان يحيا حتى ذلك الوقت بجسمه فقط ، ولكنه بعد هذه السن سوف يبدأ حياته الأخلاقية والروحية . فهو يؤمر عندئذ بأداء الصلاة ، ويلقن العلوم والفنون بعد أن يكون قد سبق له التردد على المدرسة ، لكن المدرسين لم يكونوا قد فرضوا شيئا بعد على عقله الصغير . فالختان إذن هو بمثابة نهاية لمرحلة الطفولة بالنسبة للمصرى بكل نزقها وطيشها ، ويمكن القول بأنه بهذه العملية يولد مرة أخرى ، لكنه فى هذه المرة يولد رجلاً .

٣
التعليم الأوّلىّ

فى القرآن – ذلك التشريع الدينى والاجتماعى فى الوقت نفسه – قام محمد بتحديد السن التى ينبغى أن يكون الطفل قد بلغها ، لكى يبدأ تعليمه الروحى والأخلاقى ، فقال :

« رب ابنك لسبع، واضربه لسبع، وآخه لسبع » (*) .

ومع ذلك، فحيث إن الأطباء يدعون أن ملكات الطفل العقلية تتشكل منذ سن الرابعة أو الخامسة، فإن الذى يهمه تعليم طفله، يحرص على أن يبدأ طفله تعليمه

(*) هكذا فى النص والمعروف أن هذا مضمون حديث نبوى شريف وليس آية قرآنية .(المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحيانا فى هذه السن ، فيجعله يتردد على المدارس حتى يتعود على الأقل على شكل الحروف ، ولكى يدركها دون مشقة كبيرة . ويلتزم الآباء بأن يعطوا لأبنائهم نوع التعليم الذى يتناسب مع درجة ثرائهم ، أو يلزمونهم حسب الحال بتعلم حرفة. وتعلم القراءة والكتابة يسبق كل شئ ، لكن ذلك ليس إلزاميا ولا حتى عاما ، حيث إن العدد الأكبر من الفلاحين وأبناء الطبقات الشعبية لا يعرفون القراءة والكتابة، ويمكننا أن نقدر عدد الذين يعرفون ذلك فى القاهرة بثلث عدد سكانها الذكور، بل ويمكننا أن نهبط بهذا العدد إلى الربع فقط .

ومن النادر أن نرى مصريا يتحمل بنفسه مشقة تعليم طفله، فمن الطبيعى أن يتجنب الناس التصدى لعمل بمثل هذه المشقة، لذا فهم يرسلون أبناءهم إلى المدارس مدعين بأنهم – إذا ما تولوا أمر تعليمهم بأنفسهم – لن يقوموا بهذه المهمة بالحزم اللازم . ويرسل الأغنياء أطفالهم بصحبة أحد الخدم، أما الفقراء فيصحبونهم، أو يتولى مساعد المدرس تجميع هؤلاء الأطفال ليصحبهم جميعا . وتقوم الأمهات بإرسال وجبات إلى أطفالهن الدارسين ، ويقتسم هؤلاء الأطفال طعامهم مع زملائهم المعوزين، وهذه العادة تنبع من معتقدات حقه شائعة عند كل المسلمين . فبهذه الطريقة يتعلم الناس منذ طفولتهم كيف يصبحون خيرين ، وكيف تنمو مع نموهم هذه الميول الخيرة التى تحض عليها مبادئ الدين . من هنا تأتى هذه المساواة المطلقة التى تسود بينهم ، فهم لا يعرفون ذلك التمايز الذى يعود إلى الأصل والمنشأ، بل إن الثروة نفسها ليس لها فى هذا الصدد إلا ميزة طفيفة . ولكن أيتعين علينا إذن أن نتلمس وجود مثل هذه الأفكار الخيرة وسط هذا الخليط من النظم الهمجية ؟ ولماذا تفرض العناية الإلهية حواجز على حكمة البشر؟

ولا يرسل الكبار أبناءهم أبدا إلى المدارس العامة ، أما الفتيات فلا يتعلمن حتى مجرد القراءة، وإذا حدث أن كان بعضهن يمتلكن هذه القدرة فلا بد أن هذا بالغ الندرة ، ولا بد أنهن قد تعلمنه فى معقل الحريم، ويكون مدرسوهن فى هذه الحالة رجالا فى سن متقدمة ومحرومين من نعمة البصر، ولايستطيع مثل هؤلاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المدرسين أن يعلموهن أكثر من حفظ بعض آيات من القرآن . وعند هذا الحد تقريبا توقف التربية الأخلاقية للنساء فى مصر .

وليس ثمة ما هو أكثر ضجيجا من مدرسة عامة فى مصر، حيث يتعلم الأطفال كتابة الحروف الهجائية والكلمات، فى نفس الوقت الذى يتدربون فيه على نطقها . وهم عادة لا يتعلمون إلا قراءة وكتابة وحفظ أجزاء من القرآن، وفى هذا الحد البسيط ينحصر تعليمهم الأوَّلى . ويردد التلاميذ بصوت عال – وهم متجمعون داخل نفس الفناء – الدروس التى سبق لهم أن تلقوها ، من هنا يمكننا أن نُكَوِّن فكرة عن الضجيج الذى يُسْمع فى الفصل ، وعلى هذا فينبغى أن يكون المدرس متعودا على هذا الضجيج حتى يمكن له أن يتحمله . و بالإضافة إلى تلك العادة الشائعة لدى كل الأطفال – عادة أن يغنوا وهم يستذكرون دروسهم أو أثناء قراءتهم – فإن أطفال مصر معتادون على تحريك الجزء الأعلى من جسمهم بشكل مستمر أثناء ذلك . وهذه الحركة الدائمة، بالإضافة إلى الأصوات غير المتنازعة تجعل من المدرسة العربية مشهدا فريدا بالغ الغرابة بالنسبة للمُشَاهد الأوربى . ويُعَاقَب الأطفال الذين يُخِلّون بواجباتهم المدرسية أو بعلاقتهم بمعلميهم بقسوة، ويتمثل العقاب العادى فى عدد غير محدود من الضربات بالجريدة – وهى فرع من شجرة نخيل – على باطن القدمين .

وعندما يُحْرِز الأطفال تقدما فى الكتابة والقراءة ، يبدأون التعلم بطريقة الإملاء، ولا يكلف المعلمون أنفسهم مطلقا عناء تعليم أطفالهم لا الصلاة ولا القوانين التى فرضها النبى ، ومع ذلك فإن القرآن هو الكتاب الوحيد فى مراحل الدراسة الأولى . ويلتزم الآباء بتعليم أبنائهم قواعد الشريعة، فعندما يقترب الابن من سن البلوغ يبدأ الأب دروسه الأولى ، ولا يستطيع الطفل أن يشارك فى صلاة الجماعة إلا بعد الختان ، وقد سبق أن أوضحنا فى أى سن يتم ذلك .

وعلينا الآن أن نتحدث عن المدارس الأولية وعن نشأتها ، ومن الأمور اللافتة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للنظر أن المدارس العمومية لا تدين بوجودها إلا لأعمال البر ، وهذه المدارس كبيرة العدد فى أية مدينة تحظى بدرجة ما من الأهمية . ويقوم الرجل الثرى عادة بتخصيص جزء من الميراث الذى سيتركه لأولاده لإنشاء مدرسة عمومية والصرف عليها . انظر إذن كيف يقوم كرم وتضحية الخاصة – اللذين لا جدال فيهما – بسد ثغرات الإهمال الإجرامى من جانب الحكومة ؟ ولولا حسنات هؤلاء الأغنياء لكانت مصر و تركيا معا محرومتين تماما من معرفة المبادئ الأولية للتعليم . وفى معظم الأحيان يكون المبلغ المخصص للعناية بالمدارس وفيرا ، لحد يسمح بالصرف على طعام وكساء وتعليم الأطفال الفقراء مهما كان عددهم .

ويدفع الآباء محدودو الثراء أتعابا ضئيلة للمدارس ، تتراوح ما بين ٣ – ٢٠ مدينى فى الأسبوع . والمدارس العمومية كثيرة جداً فى القاهرة وفى المدن الرئيسية ، ولكن من النادر أن نرى مدرسة واحدة فى الريف . وعلى الآباء الذين يريدون هناك أن يعلموا أبناءهم أن يرسلوهم إلى إمام المسجد .

وللمسيحيين أيضا مدارسهم . وهى تعيش – شأنها فى ذلك شأن الأديرة – على الإعانات والعطايا الخيرية ، ويعيش المدرسون من الأتعاب المتواضعة التى يُحَصلونها من تلاميذهم ، وما أن يبدأ الأطفال فى معرفة القراءة حتى توضع بين أيديهم مزامير داود .

وإدارة المدرسة، بل يمكن القول ملكيتها ، من حق نجل مؤسسها أو أحد ورثته، وبإمكان هذا الوريث أن يبيعها ، أو أن يتنازل عنها لصالح آخر . ومع ذلك فينبغى أن يكون المدرس الموكل إليه أمر التدريس قادرا على القيام بمهام وظيفته وأن يكون حافظا للقرآن، وإذا ما رأى القاضى أنه أقل كفاءة مما يقتضيه العمل فإنه يستطيع أن يرغم القائم على أمر إدارة المدرسة أن يختار مدرسا آخر أكفأ ، ولكن مهنة التدريس لا تحظى بالعناية الكافية، ومكانتها بالغة الضعف . وإذا ما كان المدرس كفئا لحد أمكنه أن يجذب عددا كبيرا من التلاميذ فله عندئذ أن يأمل فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعض النفع ، وإلا فعليه أن يعيش خامل الذكر ، وفى حالٍ تَقْرُب من العوز ، وليس له أن ينتظر نفعا .

وللقاضى حق التفتيش على المدارس الابتدائية، وعندما يتبين هذا الموظف الكبير أن المبالغ المخصصة للعناية بهذه المنشآت وتلاميذها قد صرفت فى غير أغراضها، فإن له الحق فى أن يرغم القائمين على إدارتها على الامتثال لرغبة مؤسسها .

٤

العلوم والفنون

عندما يرغب الشبان – بعد انتهاء دراستهم الأولية – فى مواصلة دروسهم ، فإنهم يطلعون لفترة فى تلك الكتب التى لها صلة بدراستهم المقبلة، ثم يتوجهون إلى الأزهر للاستماع إلى دروس وشروح المشايخ . والجامع الأزهر – على نحو ما– هو الجامعة الوحيدة فى مصر ، وهيئة التدريس به تضم من٤٠ – ٥٠ مدرسا ، من بينهم خمسة أو ستة ذائعو الصيت .

وقلما يُدَرّس هناك سوى القرآن وتقاليد السلف الأول، والعقائد والشريعة والصلاة والحج وبقية الشعائر الدينية التى فرضها محمد . ولكل مذهب أساتذته الكلاسيكيون الذين لا يختلفون مطلقا فيما بينهم حول المبادئ الأساسية للعقيدة الإسلامية .

كان النبى العربى يدرك أن القوانين تكتسب قوة دافعة جديدة إذا ما تأسست على العقيدة الدينية نفسها . لذا فقد كان بعيد النظر حين ربط بين الأنظمة والمؤسسات وبين الدين ، وحين جعل من الواجبات التى تفرضها الحياة الاجتماعية على الناس فروضا يؤديها الإنسان تجاه ربه ، وبذلك أدمج فى تشريع واحد كلا من المبادئ الدينية والقوانين المدنية .. ويحرص المدرسون تماما على عدم الفصل بين الأمرين فى دروسهم . وهم يشرحون فى إسهاب كل ماجاء فى أجزاء القرآن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع الاهتمام بتوضيح المعانى الحقيقية للكلمات، وكذلك يدرسون القواعد أو النحو ، أى تلك اللغة التى كان يتحدثها العلماء الأوائل . ويقوم أهم الأساتذة فى الأزهر بتدريس المنطق والمعانى أو البيان، وهم يعرفون البيان بأنه فن التعبير عن أفكار كثيرة فى أقل عدد من الكلمات ، وكذا فن استخدام كلمات كثيرة للتعبير عن أفكار قليلة ، أى فن توسيع الفكرة أو تركيزهاحسب مقتضى حال السامع .

وكان محمود – والى مصر وابن هارون الرشيد – قد جلب إلى مصر مؤلفات الفلاسفة الإغريق ، وأمر بترجمتها إلى العربية ، لكن هذه الترجمات لم تعد موجودة بمصر ، ولا يعرف الآن فى المدارس إلا مجرد أسماء هؤلاء الفلاسفة وبعض مقتطفات من مؤلفاتهم .

وينقسم المدرسون والطلاب إلى ست حجرات (أروقة) أو فروع كبيرة : السوريون ، البربر ، الإغريق ، سكان الريف ، الصعايدة ، العميان ، ويخصص الرواق السابع لبعض طلاب الأقاليم .

وتقدم الحكومة كل عام حوالى ٥,٦٠٠ أردب من الحبوب ، يوزعها شيخ الأزهر أو وكيله بين هذه الفروع ، وليس لغالبية القادمين من القرى وسيلة أخرى للعيش إلا ذلك الخبز الذى يحصلون عليه من شيخ رواقهم .

وليس ثمة من نفوذ لوظائف التدريس، ولا ينشغل مدرسو الأزهر بالأمور العامة إلا لكى يحوزوا لأنفسهم شهرة ورواد عديدين ، ولكى يأخذوا نصيبا من تبرعات المسلمين المتحمسين . فيحصلون بذلك على دخل بسيط يخصص لهم ، بالإضافة إلى بعض الهدايا، وإلى ما يحصلون عليه فى مقابل الفتاوى التى يصدرونها فى الأمور المدنية والجنائية التى تعرض عليهم لإبداء الرأى ، لأنهم فى نفس الوقت رجال قضاء .

والطلاب ليسوا ببساطة مجرد مستمعين سلبيين ، فبإمكانهم إيقاف المدرس عند نقطة لم يتفهموا معانيها، وأن يعارضوا رأيه برأى شيخ آخر ، فيقيموا بذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نوعا من الجدل حتى يستخلصوا الحقيقة بشكل أفضل ، ومن جهة أخرى فإن الشيخ بدوره يسأل طلابه لكي يعرف ما إن كانوا قد فهموا وتقدموا .

وعندما ينتهي شاب من تحصيل دروسه ، ويأنس في نفسه الكفاءة والعلم اللذين يؤهلانه كي يشغل وظيفة في الجامع الكبير، فإنه يطلب إلى شيوخه شهادات بكفاءته، ويتقدم إلى شيخ الأزهر ليحصل منه على إذن القيام بالتدريس هناك بدوره ، ويدعو الشاب إلى الدرس الأول الذي سيلقيه كل أصدقائه وكل العلماء[1]، فيستمعون في البداية اليه ، وبعد ذلك يسأله العلماء ويجادلونه ويعارضون آراءه ويحاولون إحراجه ، فإذا ما أمكنه أن يجيب على كل الأسئلة ويرد على كل الاعتراضات تأكدت شهرته ، ويهرع إلى دروسه الطلاب والسامعون . وعلى العكس

---

(١) آن الأوان أن نبين هنا المعنى الذي يقصده العرب من مختلف هذه المسميات : عالم، شيخ ، إمام .. الخ . العلماء هم أساتذة الشريعة الضليعون في ذلك . وكل مسلم لديه علم يبلغه ويتخذ من ذلك حرفة له يسمى عالما .

أما الشيوخ فهم المدرسون ورجال الدين . وشيخ الجامع الأزهر هو في نفس الوقت رئيس هيئة التدريس فيه ، ويعين عن طريق قيام المدرسين القدامى باختياره ، وهم يراعون أن يختاروا رجلا ناضجا مشهودا له بالعلم ويحظى برضاء الحكومة . والمرشح الذي يفوز بأكبر عدد من الأصوات يُقدَّم أولا إلى الشيخ البكري – وهو زعيم أحفاد محمد – فيخلع عليه جبة ، ويعينه في وظيفته الجديدة ، ثم يقدم بعد ذلك إلى شيخ البلد وإلى الباشا اللذين يخلعان عليه جبة كذلك . وليس هناك راتب مخصص لهذه الوظيفة ، لكنه منصب بالغ الجاه والشرف ، ويعطي صاحبه حق الإشراف على كل المدرسين . فإذا ما جرؤ أحدهم على الإعلان عن مبادئ مناقضة لآراء محمد، فإن بمقدور شيخ الأزهر أن ينحيه عن العمل بالتدريس في الجامع الكبير، لكن الاحترام الذي يكنه العلماء تقليديا لكل ماتعلموه نادرا ما يعرضهم لمثل هذا الموقف. أما المفتي فهو الشخص الذي يصدر الفتوى – أي الرأي القانوني – حول الأمور التي تعرض عليه، ولكل مذهب مفت ، ومفتي الجامع الأزهر هو رئيس كل المفتين ، ويمكنه أن يناقض فتواهم . و هذه الفتاوى ليست في الواقع سوى آراء استشارية ، يحق للقاضي أن يأخذ بها أو ينحيهاجانبا ، حسب قوة الحجج التي تأسست عليها ، وحسب مكانة المفتي الذي أصدرها . وعندما يموت مفتي أحد المذاهب يتجمع علماء المذاهب الأخرى ليعينواخلفا له ، ولكل مدينة من مدن مصر الرئيسية مفتيها الخاص بها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من ذلك إذا ما تردد أو ارتبك ، ولم يستطع أن يفوز بقدر كبير من الثقة ، لكنهم مع ذلك يحفظون عليه كرامته ويتحاشون إهانته . لكنه يكون بذلك قد قدم عن نفسه فكرة سيئة ، بحيث لا يستطيع أن يأمل فى المستقبل إلا فى نجاح متواضع .

ومن المستطاع ممارسة التعليم فى مسجد آخر بخلاف الجامع الأزهر ، ويكفى الطالب فى هذه الحالة الحصول على موافقة شيخ الأزهر الذى يحدد له المكان الذى ينبغى أن يدرس فيه .

وعندما يتقدم عديد من المرشحين للحصول على مقعد فى الجامع الكبير ، وعندما لم يكن ثمة إلا مقعد واحد شاغر ، فمن حق شيخ الأزهر أن يعطيه للشخص الذى يراه صالحا ، فهذا المركز ليس عرضة للتنافس . ومن ناحية أخرى فليس للمدرس من لقب آخر سوى الشيخ أو المعلم ، وليس ثمة أى تمييز طبقى أو تفضيل مسبق بينهم . فعمق معرفتهم، وسنهم ، وفضائلهم هى التى تحدد أوضاعهم . ويحمل الشبان تقديرا كبيرا لأولئك الذين علّموهم وشكلوهم ، فيصغون إليهم باحترام ، ويتلقون آراءهم بل وتأنيبهم أحيانا بكثيرمن الإذعان .

ويهمل المصريون المحدثون العلوم المقننة بعكس أسلافهم ، فالرياضيات لا تكاد تكون معروفة عندهم، ويكتفى الفلكى هناك بتسجيل بعض الملاحظات عن طريق آلات ضخمة ، وعلى تحرير التقويم السنوى . وفى نفس الوقت فعدد من لديه مثل هذه المعارف ضئيل ، وليس ثمة فلكى شهير فى هذه الآونة إلا شيخ واحد، هو واضع التقويم الحالى وله بعض التلاميذ .

ولن نتحدث هنا لا عن النحت ولا عن الرسم، فهما - فى مصر - لا يستحقان منا أدنى اهتمام، لكن العمارة أكثر تطورا ، ومقارنة المنازل الحديثة بالمنازل القديمة توضح تقدما محسوسا فى أساليب البنائين أحرزوه منذ عدة سنوات، فالتوزيعات تتم بشكل جيد تسمح بمرور الهواء والمحافظة على رطوبة المبنى ، لكن الذوق والأناقة فى حكم النادر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويمكننا أن نعيب على المصريين المحدثين نفس ما يعيبه الإغريق على أحفادهم ؛ فهم يتلفون كل شئ ولا يصلحون شيئا ، وهم يحيون فى حالة من عدم الانتظام والتباين ، لكن هذه العيوب لا تصدمهم مطلقا . ولقد تعلموا من العمال الفرنسيين فن صناعة الأحذية وأدوات المائدة الفضية والمجوهرات والمهاميز، لكنهم لا يلقون بالا لا لجمال الشكل ولا لتناسقه . وتطريزهم جيد ، لكنهم يبرعون على وجه الخصوص فى الفخار، وكثير من الزهريات التى يصيغونها تحتفظ بالشكل القديم، ويستخدمون فى المصانع والورش وسائل بالغة البساطة والاقتصاد ، سوف نتحدث عنها فى الفصل الأخير من هذا المؤلف .

٥

الأدب والشعر

معرفة أوربا بالأدب العربى معرفة بالغة الضآلة لدرجة لا تسمح بتكوين فكرة دقيقة عن ذلك العدد الكبير من الكتاب المشهورين الذين برعوا فى مختلف ضروب المعرفة . وباستثناء بعض العلماء المتخصصين فى الشرقيات (المستشرقون) الذين ندين لجهوداتهم بمعرفتنا لعديد من مؤلفات هذه الشعوب ، فإن عدد الأشخاص الدين هم فى حالة تسمح لهم بالحكم على التراث الفكرى العربى ضئيل للغاية، ومع ذلك فإن العرب قد أثروا الشعر على الدوام، وهو الفن الذى برعوا فيه ، أما النحو والبلاغة فقد قاموا فى دراستهما بأبحاث عميقة (١) كما هو الحال فى علوم الفقه والأخلاق، أما مؤلفاتهم فى الطب والتاريخ والجغرافيا فتحظى اليوم بشهرة هى جديرة بها (٢) . ولا ينبغى لنا أن ندهش من أن الشعراء العرب قد أحرزوا هذا

(١) يمكنك الرجوع فى هذا الصدد إلى المؤلفات العديدة المكتوبة باللغة العربية والتى تمتلك المكتبة الملكية منها مجموعة ثمينة ، وسوف تتبين أن العرب كانوا مشغولين على وجه الخصوص بنظرية اللغة ، وأن القواعد أصبحت عندهم علما يتطلب دراسة متخصصة.

(٢) أولئك الذين حازوا أكبر قدر من الشهرة فى أوربا من العلماء العرب، وهم: الحريرى، الجوهرى، الفيروزبادى، ابن سينا الذى يعرف باسم Avicenne ، المكين المعروف باسم Elmacin ، ابن خلدون، ابن الفارض، المتنبى ، ومن علماء الجغرافيا . ابن حوقل ، أبو الفداء ، المقريزى ، الإدريسى .. الخ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القدر من النجاح والتفوق ، فثراء اللغة العربية ودقتها وجمالها يؤدى إلى تفوقها على كافة اللغات الشرقية، ولكن فحيث إن مجال دراستنا هنا لا يسمح لنا بأن نتوسع كثيرا فى دراسة الأدب فسوف نكتفى بدراسة اللغة من حيث علاقاتها بتقاليد وعادات المصريين.

يتناول هذه اللغة ، فى مختلف البلدان التى تستخدم فيها ، بعض الاختلافات البسيطة ، سواء فى تركيباتها الدارجة أو فى نطق بعض الحروف الهجائية، ويعدل سكان القاهرة – المشهود لهم بأنهم يتحدثون العربية بكثير من الرقة – من نطق كثير من الحروف الساكنة ، ليجعلوها مخالفة للشكل الذى تلفظ به فى سوريا والجزيرة العربية . ويتمثل هذا الاختلاف على وجه الخصوص فى الحروف : ح ، ق ، ج . فحرف الـ "ج" يلفظ فى كل مكان كما تلفظ الـ" g " اللاتينية فى كلمة genou ، لكنها تلفظ فى مصر كما تلفظ الـ" g " الفرنسية فى كلمات gain, guerre, garcon . أما حرف الـ "ق" التى تماثل عندنا الـ " k " الحلقية فلا نكاد نراها تلفظ على لسان المصريين ، ولانكاد نحن نحس باستخدامهم لها إلا عن طريق نوع من التوقيف أو من الهوة الناتجة عن تتابع حرفى علة يشكل كل منهما مقطعا صوتيا مستقلا: أولهما هو المقطع الصوتى السابق على الـ "ق" ، وثانيهما هو المقطع الذى تشكل الـ "ق" جزءا منه ، أما سكان الصعيد فيلفظونها بنفس الطريقة التى يلفظها البربر ، أى كما نلفظ نحن حرف الـ "g " فى كلمة gain (١) .

سبق لنا أن قلنا بأن العرب قد برعوا على الدوام فى الشعر، ولا يزال الأمر كذلك حتى اليوم عند كل طبقات المجتمع ، إذ نجد رجال الطبقات الشعبية فى مصر ، بل وحتى الأطفال ، لديهم حساسية فائقة لهارمونية الإيقاع ، ولتكرار نفس الحروف الساكنة (السجع) .

---

(١) بهذا يكون علينا أن نواجه ثلاث طرق لنطق هذا الحرف فى كلمة واحدة ، فكلمة بقرة على سبيل المثال يلفظها السوريون : بقرة ، ويلفظها سكان مصر السفلى : بأرة ، أما سكان الصعيد والبربر فيلفظونها : بجرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولعمال المدن أغنيات خاصة تساعدهم على إنجاز أعمالهم، ومن خاصية هذه الأغنيات ضبط حركات العمال والتقليل من مشقة المجهود الذى يبذلونه . ومع ذلك فسوف نخطئ لو أننا تصورنا أن هذه الأغنيات الشعبية تراعى تلك القواعد الصارمة التى تحكم الشعر العربى [1] . ومن بين تلك التكوينات البالغة الجمال فى اللغة العربية نشير إلى الموال ، وهى الأغنية المفضلة لدى الجنس اللطيف فى مصر، والذى يقارب الـ Romance عندنا . والموال إما قصيرا وإما طويلا ، وموضوعاته على الدوام هى مباهج الحب ، والشكوى من الحبيب الذى خان أو الذى هجر ، وتصوير جمال المحبوب ، ورسالة حب بين عاشقين ولواعج الغياب .. وعندما يغنى هذا الشعر بنغمة خفيفة متهدجة مثيرة للعاطفة فالأمر يستدعى نوعا من المد والاسترسال ، لذا فمثل هذه الأغنيات ، من أجمل مباهج ومسرات الحريم ، وما أن يؤلف موال جديد حتى تتكفل العوالم والآلاتية على الفور بإذاعته ، ليستقر بين النساء المصريات اللاتى يتسابقن على حفظه والتغنى به .

---

(١) تخضع موازين الشعر لقواعد بالغة التعقيد إذا ما قارناها بتلك التى تحكم كل أنواع الشعر المعروف، إذ هى لا تحتم فقط نفس القافية والإيقاع وانقسام البيت إلى شطرين مثل الشعر الفرنسى، بل هى تحتم كذلك عددا من التفعيلات بشكل يماثل العروض اللاتينى على وجه التقريب .

ويوجد فى اللغة العربية ١٦ نمطا أو مقياسا . ويحمل كل واحد من هذه المقاييس اسم بحر، تصريفاته مأخوذة – شأنها شأن كل الصيغ النحوية الأخرى – من الفعل العربى : فعل، وعلينا أن نقيس الأبيات التى نؤلفها على هذه التصريفات . والشطر يسمى : مصراعاً ، وكل مصراعين يشكلان بيتا، ويقطع البيت إلى أجزاء . ونقدم هنا تصريفات الـ ١٦ بحرا للشعر العربى مع بيان الأسماء الخاصة التى تطلق عليها. و بعضها أكثر انتشارا من غيره كما أنها تختلف فيما بينها من ناحية شدة أو قلة السرعة .

١– بحر الطويل : فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن مرتين .

٢– بحر المديد : فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن . مرتين .

٣– بحر البسيط : مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن . مرتين .

٤– بحر الوافر : مفاعلتن (ست مرات) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويضم الموال فقرة واحدة تتكون من خمسة أبيات أو أربعة فى حالات كثيرة . وتتراوح أوزان هذه البيوت مابين ٨ - ١٢ مقطعا، أو ١٤ مقطعا فى بعض الأحيان، وينبغى أن يكون لكل أبيات الموال نفس الوزن ونفس القافية ، فيما عدا البيت الرابع فى الموال الذى يتكون من خمسة أبيات .

٥- بحر الكامل : متفاعلن (ست مرات) .

٦- بحر الهزج : مفاعلين (ست مرات) .

٧- بحر الرجز : مستفعلن (ست مرات) .

٨- بحر الرمل : فاعلاتن (ست مرات) .

٩- بحر السريع . مستفعلن مستفعلن مفعولات (مرتين) .

١٠- بحر المنسرح (أو المسترسل) : مستفعلن مفعولات مستفعلن (مرتين) .

١١- بحر الخفيف : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن (مرتين) .

١٢- بحر المضارع : ويسمى هكذا بسبب تشابه أوزانه مع بحر المنسرح : مفاعلين فاعلاتن مفاعلين (مرتين) .

١٣- بحر المقتضب : مفعولات مستفعلن مستفعلن (مرتين) .

١٤- بحر المجتث : مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن .

ويرى النقاد أن هذا البحر قد يسمى هكذا إما لأن الشعراء لا يستخدمونه إلا مع حذف فاعلاتن الأخيرة من كل مصراع ، وإما لأنه بعد اختصاره على هذا النحو يبدو كما لو كان مشتقا من بحر الخفيف إذا ما حذفنا فاعلاتن الأولى من كل من مصراعيه . ونفس الشئ بالنسبة لبحر المقتضب، فاسمه هذا يعود إلى أن كل واحد من مصراعيه عادة يفقد مستفعلن الأخيرة فيه ، فيبدو عندئذ وكأنه من بحر المنسرح بعد أن شطرنا مستفعلن الأولى فى مصراعيه .

١٥- بحرالمتقارب، ويسمى هكذا بسبب تقاربه واختصار الزواحف التى تكونه . فعولن (٨ مرات) .

١٦- بحر المتدارك ، أى الذى يلى البحور الأخرى ، ويسمى هكذا لأنه البحر الأخير فى النظام الذى أخذ به العرب : فاعلن (٨ مرات) .

ولا يحظى البحر الأخير بقبول معظم النحويين الذين لا يعترفون إلا بـ ١٥ بحراً .

تلك هى البحور الـ ١٦ التى تنظم الشعر العربى . وإذا كانت هذه الأنماط المبدئية قد طبقت بصرامة فى البداية ، فإن كل واحد من هذه البحور البدائية قد تناوله عدد كبير من التعديلات ، كان ينظر إليها فى البداية كنوع من الإستثناءات الشعرية ، لكن كثرة اللجوء إليها قد أدى إلى تثبيتها، حتى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويكاد يكون هذا البيت قبل الأخير بلا قافية، ونادرا مايكون بحره هو نفس بحور البيوت الأخرى للموال، فإذا ما حدث أحيانا وكانت له نفس القافية فإن ذلك لا يتم إلا فى حالة الموال الذى يتكون من أربعة أبيات .

ويحدث أحيانا أن تستخدم نفس الكلمة كقافية فى كل أبيات الموال ، لكن ينبغى أن يكون لها معنى مختلف فى كل واحد من هذه الأبيات ، ولدينا عند بعض شعرائنا أمثلة لهذه القوافى ذات الجناس الواحد والمعنى المختلف ، ونكتفى بأن

أصبح عدد هذه الاستثناءات الشعرية ، المباحة يماثل عدد البحور المنتظمة ، بل لقد شغلت مكان عدة بحور لم يستعمل قياسها الأول على الإطلاق فى كامل تمامه .

وتسمى كلمات التعريف الثمانى التى تشكل مختلف البحور ، وهى : فاعلاتن ، فاعلن ، مفاعيلن ، فعولن ، مفعولات ، متفاعلن ، مفاعلتن ، مستفعلن ، تسمى هذه الكلمات أجزاء البحر ، والمفرد جزء .

كما يشار إلى المجموعات المختلفة من الحروف والحركات التى يتكون منها كل جزء باسم أسباب (حبال) وأوتاد ، وعندما يوجد حرفان أولهما متحرك والثانى ساكن مثل : هل ، لا ، قم ، فإنهما يشكلان سبباً خفيفاً ، أما إذا كان الحرفان متحركين ، وينقسمان نتيجة لذلك إلى مقطعين صوتيين مثل : هو ، لك ، فإنهما يشكلان سبباً ثقيلاً . والأوتاد الأركان هى أيضاً من نوعين : وتد مجموع ، وهو مجموعة تتكون من حرفين متحركين بعدهما حرف ساكن ، مثل : لَهَا ، لَقَدْ . ووتد مفروق ، وهو عبارة عن مجموعة مكونة من حرف ساكن يقع بين حرفين متحركين مثل : قلت ، صار . والجزء الأخير من المصراع الأول يشار إليه باسم عروض ، بينما يشار إلى الجزء الأخير من البيت باسم : ضرب ويسمى حشواً كل الأجزاء الأخرى من البحر . ويطلق اسم صدر على الجزء الأول من البيت ، وابتداء على الجزء الأول من المصراع الثانى . إذن فكلمة حشو تشير إلى أجزاء البيت التى ليست لا العروض ولا الضرب ولا الصدر ولا الإبتداء.

وتبعاً للتعديلات المختلفة التى أباحها العرب وأدخلوها على القياس وسموها باسم زحاف أو علل ، يمكننا أن نعد بالنسبة للبحور الستة عشر ٣٦ عروضاً و ٦٧ ضرباً مختلفة .

ويعنى علم العروض بمعرفة هذه الأنماط الأولية والتفريق بينها ، ولكى نعرض الأمر كما ينبغى فإن ذلك يستلزم مؤلفاً كاملاً ، لكن حدود هذا الهامش البسيط لا تسمح لنا بقول المزيد .

(هذا الهامش عن الشعر العربى قدمه لنا السيد عجوب) = (وهو چوزيف عجوب وكان مترجماً للحملة ووضع أول قاموس فرنسى – عربى) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نورد هنا هذين البيتين للشاعر بوالو :

Prends-moi le bon parti : Laisse-Là tous tes livres.

Cent francs au dernier Cinq.Combien Font-ils ?Vingt livres? (*)

ومن المعروف أن اللغة العربية تضم عددا كبيرا من مثل هذه الترادفات فى المعنى ، ولكن حيث إن الموال أبعد من أن يخضع لصرامة القواعد التى تحكم الشعر العربى الفصيح، فإن الشعراء لا يُكَلِّفون أنفسهم عناء تحمل هذه الصرامة، فيستخدمون نفس الكلمة المأخوذة على نفس المعنى، عدة مرات كقافية . ويُنْظَر لهذا الاستثناء الشعرى باعتباره كسرا لقواعد الشعر .

وفيما يلى مثال لموال من خمسة أبيات :

الأهيف اللى تمناه القليب ودعاه

فى موقف الذل خلا العاشقين ودعاه

كمن قلت للعين كفى عن هواه ودعاه

كمن له قلب قاسى لم رحم عاشق

ولا يخاف من أنينه فى الدجى ودعاه

والأبيات الآتية مثال على موال مكون من أربعة أبيات :

يا غربتى فى بلاد الناس ذلتنى

يا كلمة الندل شالتنى وحطتنى

يا دمعتى نزلت على خدى حرقتنى

يا حصرتى راحت رفاقى وخلتنى

(*) فى البيت الأول كلمة livres تعنى : كتب وفى الثانى تعنى جنيهات .

وفيما يلى ترجمة لأبيات موال ألف خصيصا لامتداح مقياس جزيرة الروضة كما قدمها لنا السيد عجوب :

«اعجبوا لجمال المقياس، وبالفن الذى بنى به . لا يوجد فى أيامنا هذه ما يمكنه أن يضارع هذا البناء، ولا تستطيع القرون الآتية أن تقدم شيئا يماثله . لقد بناه مهندس نبيه ذكى، شديد العلم ، وأظهر فيه كل روعة فنه، وسوف يُضَيّع أمهر الفنانين وقتهم سدى لو حاولوا تقليد جماله . إنه مقياس مفيد، كان مفيدا وسيظل مفيدا على مدار السنين . طوله ٢١ ذراعا، وعندما تبلغ المياه الذراع الـ ١٦ تغرق مياه الفيضان أرض الريف» (*) .

(*) اكتفيت بالترجمة لعدم امكان الوصول إلى النص الأصلى . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

عن الإنسان المصرى فى طور الرجولة

العادات المدنية والأسرية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١
عن الزواج

الزواج في مصر هو عقد اتفاق خاص لا يحتاج إلى تصديق ديني أو قانوني ؛ إذ يتمثل فقط في الإرادة التي يعبر عنها الطرفان المتعاقدان ، وتكفي موافقتهما المتبادلة ليكون هذا الزواج مشروعا . وتعطي المرأة موافقتها بنفسها أو من خلال وكيل ، وعندئذ يتقدم الشخص الذي يمثلها إلى الزوج المقبل ليتسلم المهر، ويقول له في حضور شاهدين : زوجتك ، ويجيب الآخر : قبلت . ويتم الزواج هكذا بدون أية إجراءات رسمية أخرى .

ولا تقدم الزوجة الجديدة مهرا (دوطة) لزوجها ، وفي بعض الأحيان تتلقى هي هدية من والدها ، ولكن هذه الهدية تطوع منه وليس من حقها أن تفرضها عليه، ويحدث في أحيان أخرى ألا يكون للزوجة من مهر إلا ما يقدمه الزوج، فالشريعة تحتم على الزوج تقديم مهر لزوجته . وتختلف قيمته باختلاف المذاهب ، فيحتم أحدها ألا يقل المهر عن عشرة دراهم ، أي حوالي ١٨٠ بارة ، ويكتفي مذهب آخر بمجرد أن يكون ثمة مهر حتى ولو كان المهر لا يتجاوز دبلة من الحديد . ومع ذلك فلا يفوت أهالي الزوجة أن يقدموا إليها هدايا تتناسب مع ثروتهم تتمثل في مجوهرات وملابس، لكنها لا تعطي مطلقا عقارات زراعية . وفي حالة ما إذا لم يتم تحديد المهر قبل اليوم المحدد للزواج – وهذا شئ نادر الحدوث – فإنه يحدد طبقا لمهر أم العروس أو واحدة من أقرب قريباتها . والمهر الذي يقدَّم للزوجات عن طريق أزواجهن عماد أساسي من عمد الزواج، وهو حق مطلق لهن ، وسوف تتضح لنا فيما بعد أهميته .

ويحرص الكبار وأفراد الطبقة الثرية على أن يتخذوا شهودا على زواجهم من بين رجال الشرع الذين يكتبون عقد الزواج ويودعونه عند الكاتب العمومي . أما الفلاحون فيكتفون بتسجيل زيجاتهم عند قاضي الولاية، أما سكان المدن فيهملون كل أشكال الرسميات وتتم الزيجات بينهم دون اتفاقات مكتوبة .

ولا يستطيع المسلم أن يتزوج لا ابنته ولا أخته ولا بنت أخيه أو بنت أخته ولا بنت زوجته ولا أخته فى الرضاعة بل ولا أخت زوجته إلا إذا كانت زوجته قد ماتت أو كان قد أنفصل عنها . وبخلاف ذلك يسمح له بالزواج من بقية درجات القربى الأخرى .

ولا يعترض الدين على ارتباط المسلم بزوجة من ديانة أخرى : مسيحية أو يهودية ، وقد سمح محمد بهذه الزيجات لأنه يعترف بموسى والمسيح نبيين ورسولين من عند الله ، لكنه لم يسمح مطلقا باتخاذ زوجات من عقائد أخرى خلاف ذلك، بل ليس ثمة سوى أمثلة محدودة لمسلمين قد استفادوا من هذا التفويض من جانب الشرع . وينشأ الأطفال الذين يولدون من زيجات كهذه على دين محمد ، ولا ترث الزوجة فى هذه الحالة عن زوجها ما لم تكن ثمة وصية، ويمكن للزوج أن يقدم لها جزءا من ثروته كهبة اختيارية .

وتزويج الأبناء قبل سن البلوغ حق مطلق يتمتع به أرباب العائلات ، بل إن موافقة الأبناء أنفسهم لا ضرورة لها ، وليس بإمكانهم أن يفكوا – عن طريق الطلاق – وثاقا عقد على هذا النحو . ولكن إذا كان الأبناء بالغين فإن موافقتهم لا غنى عنها، لكنهم يقرون اختيار أهاليهم فى معظم الأحيان ، ذلك أن الجنسين على الدوام – حيث لا وسيلة للاتصال بينهما – لن يستطيعا إقامة زواج على أساس من الاختيار أو العاطفة المتبادلة ، وفى نفس الوقت فليس مسموحا لزوج أن يقرب زوجته إلا بعد بلوغها السن الذى حددته الطبيعة للبلوغ حيث تصبح قادرة على الإنجاب ، فَيُبْقِى الأب ابنته لديه حتى تبلغ سن الخامسة عشرة ، لكن حقوقه هذه تتوقف عند بلوغها هذه السن ، ويحظى الأب بالتقدير عادة إذا ما اعترض على إتمام زواج لم يحن بعد أوانه . وينبغى أن نلاحظ أن والد الزوج لا يقيم اعتراضات من هذا النحو إذا ما وافق والد الزوجة على أن تذهب على الفور إلى أحضان زوجها ، ولاتقيم أسرة الزوج أية عقبات تحول دون اتصال الزوجين ، ولكن يندر أن نجد فى أوساط الطبقة الدنيا زيجات تتم قبل الوقت المناسب .

ويحدث كثيرا ألا يكون الزوج الشاب قد رأى من قبل المرأة التى تزوجها ، ولم تكن لديه بالتالى فكرة عن جمالها وكفاءتها إلا عن طريق واحدة من قريباته أو صديقات أسرته ، لذلك فإن الليلة الأولى للزفاف لا يكون لها فى بعض الأحيان من نتيجة إلا القطيعة التامة لتذهب الزوجة غاضبة إلى بيت أبيها . ومع ذلك، فإنه إذا ما ألح رجل فى أن يرى تلك التى يعرضون عليه الزواج منها فإن الشريعة تبيح أن تكشف الفتاة عن وجهها ويديها أمامه ، ولا يمكن أن يتم هذا إلا فى حضور أهلها، وفى الفترة التى قارب الزواج فيها مرحلة التمام . وعلى الرغم من هذا فنادرا ما يلح أحدهم فى ذلك مطلقا حيث إن العادات المتبعة تعارضه . ومن بين الأسباب التى تؤدى إلى زواج مبتسر كهذا خوف الآباء من استسلام أبنائهم إلى ملاذ مهلكة للصحة تحت ضغوط من شهواتهم .

ويمكن للمسلم أن يتزوج من أربع زوجات شرعيات ، بالإضافة لأى عدد من الإماء يستطيع إطعامه ، ومع ذلك فحيث إن عليه – كما سبق القول – أن يوفر لهن جميعا حياة طيبة ، بالإضافة إلى ما ينشده المرء من سعادة وهناء عائلى ، فإن المسلمين من كافة الطبقات يحرصون على ألا يفيدوا من هذه الرخصة التى أباحتها الشريعة إلا باعتدال بالغ . وليس لكبار الشخصيات فى العادة إلا زوجة شرعية واحدة ، وقد تدفع أحدهم الرغبة فى إنجاب الأطفال أو فى الحصول على مصاهرة ممتازة إلى الحصول على زوجة ثانية . وعلى الشخص المتزوج من أكثر من زوجة أن ينام فى مسكن كل واحدة من زوجاته بالتبادل ، أما إذا تصرف بطريقة مخالفة فسوف يلام على سلوكه علنا ، فتفضيل زوجة على الأخريات ينظر إليه كأمر ظالم ، لا يسمح به لأنفسهم أولئك الحريصون على هنائهم العائلى والذين تسيرهم مشاعرهم الرقيقة . وعندما لا تكون الزوجات فى حالة وفاق فيما بينهن – وهذا هو الأمر الشائع – فإن الزوج ملزم بتخصيص منزل لأية واحدة منهن تطلب ذلك ، ولا يستطيع الرجل أن ينجح فى الاحتفاظ بعدة زوجات فى منزل واحد إلا بقوة الإرادة وبالصبر والكرم ، أو بطريق العنف والاستبداد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتعدد الزوجات أكثر شيوعا بين الطبقات الشعبية . وهم يسيئون كذلك استغلال سهولة إيقاع الطلاق بزوجاتهم ، حيث إن الأمر لن يكلفهم إلا مهرا بالغ الضآلة، وحيث إنهم – بسبب تلك الغلظة فى طباعهم – ينظرون للمرأة كمخلوق ناقص غير جدير بالاحترام .

ويتم الاحتفال الذى نصح به محمد لإعلان حدث بهذه الأهمية فى منزل والد الزوجة، لكن الوقت لم يكن قد حان بعد كى يستطيع الزوج أن يرى زوجته ، إلا إذا كان الاثنان قد بلغا سن الرشد . وتنقضى الأيام التى تسبق الارتباط فى أفراح عند الأسرتين ، فيُدعى الرجال إلى منزل والد الزوج ، وتدعى النساء إلى منزل والد الزوجة . وتقضى الزوجة يوما فى الحمام ، وتذهب إلى هناك فى صحبة قريباتها وصديقاتها ، يغطيها تماما قناع كبير ، ويزين رأسها تاج ، وتسير تحت هودج تسبقه عالمة وفرقة من الموسيقيين . وتجعل أصوات الآلات الموسيقية وأغنيات العرس وصيحات الفرح التى تطلقها السيدات (الزغاريد) اللائى يشكلن الموكب – كل ذلك يجعل من ذلك الموكب مسيرة صاخبة مليئة بالحيوية . وعندما يصل الموكب فى نهاية المطاف إلى الحمام ، فإن العروس تستعرض على صاحباتها حليها ، فتملأ المباخر بالبخور الطيبة الرائحة ، وتراق العطور الغالية بسخاء وبذخ ، وتكشف صاحبات العروس عن أجمل زينتهن ، وينقضى اليوم فى مرح بهيج وتقدم الإماء أو خادمات الحمام القهوة والشربات والفطائر والحلوى ، ثم يعود موكب العروس إلى بيت أبيها بنفس الطريقة التى ذهبت بها الحمام [1] .

(١) حيث إن فخامة وأبهة حفلات الزفاف تختلفان تبعا لدرجة ثراء الزوج فقد اكتفينا فى المتن بأن نقدم فكرة عامة ، لكننا فى هذا الهامش سوف ندخل فى بعض التفاصيل الدقيقة ، حتى لانهمل شيئا يمكنه أن يحدد خاصية عادات مختلف الطبقات الإسلامية فى مصر .

فى أثناء التوجه إلى الحمام تتحجب كل السيدات فى الموكب وكذا العروس، وتحمل العروس فى بعض الأحيان على رأسها وعاء مغطى بشال من الكشمير يتدلى من كل الجهات ، ويغطى الوجه تماما ، ويكون الشال مزدانا بالكثير من المجوهرات والأحجار الكريمة التى استعارتها الزوجة إن لم تكن تملكها

==

ولا يفوت الزوج بدوره أن يذهب إلى الحمام العام ، وهذه عادة يتبعها الأثرياء على الدوام حتى عندما يكون لديهم فى منازلهم حماماتهم الخاصة . وهو يقوم بإبلاغ رغبته فى ذلك إلى أسطى الحمام عشية اليوم الذى يرغب أن يذهب فيه إلى

هى نفسها . وحتى يكون الشال أكثر بريقا فإنه يغطى من الأمام بورقة طويلة من الذهب . وبرغم أن الشال يتدلى حتى القدمين تقريبا فإننا نستطيع أن نلمح – من خلال الفتحات التى يكشف عنها – ملابس الزوجة البالغة البذخ والمطرزة بخيوط الفضة والذهب . وترتدى الزوجة خفين من جلد الماعز الأصفر ونعلا مطرزا ، وهى لا تكشف مطلقا عن يديها . ويسمح شكل ملابسها بأن نكون فكرة عن قامتها ودرجة سمنتها . وهى تسير تحت هودج تغطيه ناموسية من الكريشة المصبوغة باللونين الأخضر والأحمر ، ويحمله الأصدقاء أو الأقارب من أركانه الأربعة . وعندما يحتفل أحد المماليك بزواجه على هذا النحو فإن المماليك هم الذين يحملون أركان الهودج . ويسير مع العروس تحت الهودج اثنتان من خيرة صديقاتها مزينتان بأغلى الحلى وتسير خلفها أمها ، ويتقدم المسيرة رجال يحملون الدفوف ، وبعدهم خادم يسير أمام الهودج حاملا على رأسه طبقا من الفضة أو النحاس المحلى بالذهب ، مغطى بقطعة من الحرير المطرز . ويحتوى هذا الوعاء على زوج من الأحذية الخشبية (القبقاب) المزدان بشريط من الفضة، ويحتوى كذلك على مشط من العاج محلى بالفضة كذلك ، وقمعين صنوبين من السكر الناصع البياض ، وشمعتين بيضاويتين ، ومنديلين من الموسلين المطرز بالفضة ، وأخيرا على رطلين (الرطل = ١٨٠ درهم ويساوى تقريبا نصف كيلو جرام ونصف الجرام ١٠٠ رطل = ٥٥كيلو جرام) من البن أحدهما مغلف بشكل مختلف عن الآخر ، ويضم الموكب فتيات ومدعوات يصل عددهن إلى ٢٠، ٣٠، أو ٦٠ سيدة .

ويلاحظ فى حفلات زفاف الطبقة الدنيا وجود نفس العادات مع تعديلات طفيفة . فبدلا من المجوهرات والأحجار الكريمة التى تزين الشال الذى يتدلى حول العروس، يرصع الشال بكمية كبيرة من النقود الفضية ، ويحمل رجال من العامة أطراف الهودج ، الذى يسبقه بعض العبيد يرتدون ملابس على نمط القسطنطينية ، وموسيقيون يركبون الحمير ، ويقوم رجل يسير بالقرب من العروس برشها من آن لآخر بماء العطر ، بينما تقفل المسيرة جمهرة من النساء ينشدن الأغانى التى تنشد عادة فى مناسبات العرس .

وخارج مدينة الأسكندرية شاهدنا عروسا بدوية كانوا يتجولون بها ، وكانت تركب فوق جمل ، وتصحبها الماشية والأثاثات وكل الأشياء التى تلقتها كمهر ، وكان الموكب بطيئا ، بل كان أحيانا يتوقف

=

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هناك ، فيسارع العمال بتجهيز الحمام بطريقة لائقة . ويزينونه بالورود فى حالة السيدات ، أما فى حالة الرجال فيكتفى بإحراق البخور فيه ، وفى نفس الوقت يكون العريس قد دعا ١٥ – ٢٠ من أصدقائه ليصحبوه ، وبعد أن يدخلوا صالة الحمام لا يقبل دخول أشخاص آخرين . وهم فى الغالب يحضرون معهم بياضاتهم وأغطيتهم وفوطهم ، كما يجلبون معهم عازفين للترفيه عنهم . ويأتى مدير الحمام نفسه لاستقبال الجميع ، ويقود العريس إلى الحمام ، وينسحب ليأتى بعد قليل حاملا الغليون ، وعندما ينتهى العريس من حمامه يقوده مدير الحمام مرة أخرى إلى الحجرة الأولى . وفى اليوم الأول الذى يمضيه هؤلاء فى الحمام لا يأكلون شيئا، ويحصل مدير الحمام من العريس على ٦٠٠ – ١٠٠٠، وأحيانا ألفين من البارات حسب درجة ثرائه .

ويؤدى الأثرياء حفلة الحمام هذه مرتين .

وأخيرا يحل اليوم الكبير حيث ينبغى أن تذهب الزوجة إلى بيت زوجها ، ويأتى الأب أو واحد من أصدقائه ليأخذها من بيتها . ويسير خلفها موكب لا يقل روعة عن موكبها إلى الحمام، وتسير العروس تحت هودج ، وتغطى طيلة الطريق بقناع لا يكشف شيئا ، ويسير أمامها العبيد حاملين مجوهراتها وملابسها فى سلال مزدانة، لكنها لا تتوجه مباشرة إلى منزل زوجها، بل تقوم بجولة طويلة زيادة فى

=

وقفات قصيرة . وكان البدو يطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم ، كما كانوا يعزفون الموسيقى بينما يواصل النساء غناءهن بلا انقطاع .

وجدير بالذكر أن هذه الاحتفالات التى تتم خارج البيت والتى عرضنا للتو تفاصيلها لا يمارسها البكوات وكبار الشخصيات بالقاهرة، ذلك أن احتفالات العرس عند هؤلاء تتم داخل البيوت . كما أن المشايخ وبقية المسلمين الذين حصلوا على قدر كبير من التعليم قد هجروا بالمثل عادة تقديم الدليل على بكارة زوجاتهم للأقارب والأصدقاء باعتبار ذلك شيئا يخدش الحشمة .

أما عامة الشعب والأقباط فإنهم وحدهم الذين ما يزالون يمارسون هذا السلوك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأبهة . وعندما تصل إلى بيت الزوجية ، يحتفل بقدومها بإقامة وجبة باذخة فى مسكن النساء ، ولا يكون الزوج من بين المدعوين ، إذ هو يتوجه فى المساء إلى المسجد للصلاة ، يصحبه أقاربه وأصدقاؤه وتسبقه جوقة من الموسيقيين، وعند عودته إلى بيته تقدم القهوة والشربات ، ثم يدخل حجرة العروس وتنسحب بقية السيدات فيما عدا القابلة والبلانة ، ويقترب الزوج من زوجته المغطاة بنقابها ويسمى باسم الله ، إله محمد، بينما قلبه يدق خوفا وأملا ، وعندئذ تنسحب بدورهما السيدتان الغريبتان . وعندما تصبح الزوجة بمفردها مع زوجها فإنها تقدم له العسل والفطائر ومأكولات أخرى على هذه الشاكلة ، رمزا معبرا عن العاطفة والمودة التى هى حق لكل منهما على الآخر ، والتى هى الضمان الأكثر وثوقا لكفالة حياة عائلية هانئة .

وتتلقى الزوجة ثلثى مهرها عند دخولها إلى منزل الزوجية ، ويكون هذا المبلغ ملكا خاصا بها ، وهى تستطيع أن تتصرف فيه على النحو الذى يعجبها، ولا يمكن للزوج أن يحاسبها عليه مطلقا ، بل ليس له مجرد الحق فى مناقشتها فى أمره .

ويحسن بنا هنا أن نلاحظ أننا سوف نكون قد أخطأنا على نحو كبير إذا ما اعتقدنا أن المسلمات - برغم خضوعهن لنفوذ أزواجهن - يمكن أن يعاملن باستبداد وطغيان من قبل أزواجهن ، فإن وضعهن على العكس من ذلك طيب لحد كبير، كما أنهن فى نفس الوقت الذى تقضى فيه التقاليد والقوانين عليهن بنوع من الانسحاب والتقوقع الدائم - يتوصلن لامتلاك نفوذ لا شك فيه على عقول أزواجهن ، كما أن هؤلاء لا يستطيعون مطلقا أن يسيئوا معاملتهن بل ولا حتى أن ينهروهن بحدة ، إذ للزوجة فى هذه الحالة أو تلك أن تطلب الانفصال وتعود إلى بيت أبيها .

ويتكفل الأهل بتعليم الزوجة واجباتها وحقوقها الزوجية، ولا يتدخل الأزواج مطلقا فى الأمر، ويتم ذلك عادة قبل الزواج . وهكذا تعمل عادات وأصول اللياقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على التخفيف لحد ما من تزمت تلك الولاية المستبدة التى تعطيها الشريعة للرجال على زوجاتهم . ومع ذلك فالنساء سعيدات بقدرهن ، ولايمكن لهن أن يتصورن - مجرد تصور - كيف يمكن أن تكون نساء الغرب فى حالة أكثر امتيازا مما هن عليه.

٢

الانفصال والطلاق

جعلت الشريعة الإسلامية من الطلاق أمرا بالغ السهولة ، إذ يكفى أن يقول الرجل لزوجته : "أنت طالق" حتى يكون الطلاق قد وقع ، دون أن يكون القاضى فى حاجة لأن يتدخل فى الأمر أو أن يقف على دوافع هذا الطلاق . وهنا تتسلم الزوجة الباقى من مهرها ، وتحمل معها مجوهراتها وبقية متعلقاتها ، وتنسحب من بيت الزوجية . وقد حدد محمد الأمر على النحو التالى فى القرآن : "للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر " . "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء " . "الطلاق مرتان" . "ولا يحل لكم أن تأخذوا مما أتيتموهن شيئا" "فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ".* "وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولاتنسوا الفضل بينكم"** . وحسب أوامر المشرع هذه ، فإن الزوج إذا ما طلق زوجته فى اليوم الأول لزواجهما دون أن يباشرها - وهذا أمر يحدث فى بعض الأحيان - فلا ينبغى عليه أن يدفع لها إلا نصف مهرها ، أما إذا ماحدث لزوج طلق زوجته أن استعادها مرة أخرى ، وكرر الزواج والانفصال ليبلغ عدد مرات ذلك ثلاثا مع نفس

(*) البقرة . ٢٢٦ - ٢٣٠ . (المترجم) .

(**) البقرة ٢٣٧ . (المترجم) .

المرأة ، فإنه لا يستطيع أن يتخذ منها بعد ذلك زوجة شرعية ، إلا إذا مرت قبل ذلك بأحضان رجل آخر . وقد يبدو هذا التشدد من جانب المشرع للوهلة الأولى همجيا أو باعثا على الضحك ، ومع ذلك فإننا نجد فيه فكرة عميقة ومعرفة عظيمة بنفوس البشر ، فبوضع الزوج هكذا عرضة لنوازع الغيرة - وهى عاطفة بالغة العنف عند الشرقيين- سوف يكون عليه أن يتروى ولايستجيب ببساطة لأبسط مشاعر الغضب ، فيقرر هكذا ببساطة وبمثل هذه السرعة الفائقة طلاقا ظالما فى معظم الأحيان، سوف يتحمل هو قبل غيره عواقبه القاسية إذا ماعاد به الندم والعاطفة ذات يوم إلى مشاعر أرق. ولهذا السبب فقد حدث أكثر من مرة أن قام الزوج المطلق - وهو يتحسر على جمال وفضائل زوجته فى الوقت الذى يريد فيه أن يذعن لأحكام الشرع - بدعوة أحد أصدقائه إلى اتخاذ طليقته هو زوجة له، ويتفق مع هذا الصديق على أن يقوم بتطليقها دون أن يقربها فى فترة هذا الزواج القصير المدى ، ومع ذلك فينبغى أن يظل هذا الاتفاق سرا على الناس جميعا بخلاف الأطراف الثلاثة المعنية . ويتحتم على وجه الخصوص أن يكون ثمة ثقة تامة فى الزوجة ، لأنها هى التى سوف تلعب الدور الرئيسى فى هذا التواطؤ الغريب. ومع ذلك فقد حدث فى بعض الأحيان أن نسى مثل هذا الصديق - بعد أن أخذه جمال عروسه تلك - نفسه لدرجة يخون معها مابينه وبين صديقه الغيور من ثقة وصداقة ، بل ويحتفظ بتلك الزوجة التى كان عليه فقط أن يتظاهر بالزواج منها.

وحيث إن محمدا قد تنبأ بأن الطلاق يمكن أن يقع بسبب تافه كمجرد نفور طارئ ، فقد نصح الزوج المُطَلِّق - حتى يتجنب بقدر الإمكان مثل هذه المأساة العائلية - بأن يبقيها فى بيته مدة ثلاثة أشهر ، على أمل أن يؤدى إعمال الفكر أو تؤدى بعض المجاملات المتبادلة إلى إعادة الود بينهما قبل انقضاء هذه المهلة ، وبرغم الحكمة البادية فى مثل هذا الأمر فإنه نادرا ما يحدث ، إذ من المعتاد فى القاهرة أن تخرج المرأة من بيت زوجها بمجرد أن يتم طلاقها منه. ويمكن للمطلقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن تتزوج بعد مضى ثلاثة أشهر من انفصالها ، أى بعد أن تأتيها عادة النساء الشهرية ثلاث مرات ، ويعتبر إعلانها هى للأمر كافيا . فإذا ماحدث ووجدت نفسها حاملا فى هذه الفترة فإن الأب المطلق لايمكنه أن يطلب طفله إلى حضانته إلا بعد أن يبلغ من العمر سبع سنوات بالنسبة للذكور، أما بالنسبة للإناث فإنه لايستطيع أن يطلبها إلى حضانته إلا بعد أن تصل إلى سن البلوغ ، وفى نفس الوقت، فإنه - الأب المطلق - ملزم بأن يدفع مصاريف رعاية وإطعام وتعليم الوليد مهما كان جنسه.

وقد يحدث أن تنتقل الأم إلى بيت زوج جديد، وفى هذه الحالة تعهد بوليدها إلى رعاية جدته أو واحدة من أقرب قريباتها فتاة كانت أو أرملة ، ولايمكن للأب أن يسترد طفله إلا فى حالة ما إذا لم يكن لزوجته أسرة ، ونادرا مايحدث ذلك(١).

والزنا هو أخطر اتهام يمكن أن يوجهه زوج إلى زوجته ، لكن المشرع جعل هذا الاتهام عسيرا على الإثبات لدرجة لايمكن معها أن نذكر إلا عددا بالغ الضآلة من السيدات أُدِنّ أو عوقبن على مثل هذه التهمة . ومع ذلك فإذا ما أقسم شخص ما خمس مرات أمام القاضى أن زوجته قد خانته ، ثم أقسمت هى خمس مرات على عكس ذلك ، فإن القاضى يحكم بطلاقهما ، ويصبح انفصالهما أبديا . ولسنا

---

(١) نضيف إلى هذا العرض لقواعد الطلاق أن الرجل إذا ماطلق زوجته قبل أن يختلى بها فإنه ليس ملزما نحوها إلا بنصف المهر ، ولكن لو حدثت خلوة بينهما ولو مرة واحدة فهو ملزم قبلها بدفع المهر كله ، وتحمل البنت أو المرأة المطلقة معها إلى بيت أبيها كل ماخرج منه بالإضافة إلى حقوقها هى من قِبَلِ طليقها ، وهى عبارة عن الثلث الأخير من المهر، وهى تتسلمه عند خروجها من بيت زوجها ، ويكون ذلك دليلا على القطيعة . وكما سبق القول فليس ثمة إجراءات قضائية أو عقود مكتوبة للتصديق على الزواج أو لتسجيل الطلاق ، ونمتنع هنا عن الإدلاء بآرائنا حول غرابة وشذوذ هذه العادات كما قد يراها من تختلف أنظمتهم عن هذه النظم ، ومع ذلك فقد يكون المشرع العربى قد استهدف من وراء تلك التشريعات أن يتفادى مضار أكبر خطورة ، فلكل الشعوب طباع خاصة بها كالأجواء التى يعيشون فيها ، وعلى أولئك الذين يريدون الحكم على أنظمة وعادات الآخرين أن يراعوا هذه الحقيقة التى لا مفر منها ، وأن يقرروا نتيجة لذلك. وهذا هو العذر الوحيد الذى يمكن التماسه لمحمد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بحاجة للقول بأن أبناء الطبقة العليا أو حتى الطبقات البسيطة يتفادون على الدوام الفضيحة التى تنجم عن حكم كهذا، إذ لايعرض نفسه وعرضه لمثل هذه المهانة إلا ضعاف النفوس وقليلو الحياء ، لكى يشبعوا شهوة الانتقام والرغبة فى التشهير التى تستبد بهم .

ولا يمكن للمرأة بمطلق حريتها أن تغادر بيت الزوجية . وإذا ما نشأ نفور أو كراهية أو كان هو يهملها أو يسئ معاملتها ، فإنها تستطيع أن تحمله عن طريق عروض سخية تقدمها له أن يقبل الانفصال بينهما ، فإذا مارفض وظل سادرا فى أساليبه السيئة فإنها تتوجه إلى القاضى ، ويفحص الأخير شكواها، ويحكم بالطلاق إذا ما اقتنع بالأسباب التى قدمتها له ، وفى هذه الحالة لاتفقد المرأة أى حق من حقوقها، وتحتفظ بكل مهرها وكل امتيازاتها، أما إذا قبل الزوج الطلاق الذى عرضته عليه زوجته فلا يمكنه أن يردها إلى عصمته إلا بعد أن يعقد عليها عقد زواج جديد.

وكنتيجة حتمية ، فلابد أن يكون الطلاق فى بلاد ليس للمرأة فيها – فى غالب الأحيان – حق اختيار زوجها، أكثر انتشارا منه فى البلاد التى تتم فيها الزيجات نتيجة لعواطف وميول متبادلة، كما أنه أكثر شيوعا من جهة أخرى بسبب السهولة التى منحتها القوانين للأزواج، وهذا مايحدث فى تركيا ومصر. وبالرغم من الحقوق التى رتبها محمد للنساء قبل أزواجهن ، وبالرغم مما فرضه على الأزواج بضرورة إبقاء زوجاتهم فى البيت ثلاثة أشهر بعد الانفصال الأول ، فإن الطلاق بالغ الشيوع . ومع ذلك فلابد أن نقر بأن ليس ثمة ما يشين امرأة مطلقة ، فهى تستطيع العثور على زوج آخر بسهولة . لكن حياة الناس تتأثر على الدوام من مثل هذه الحرية المعيبة ، وإن كان الأمر المؤكد – نقول هذا باسم الحقيقة – أن التقدم الحضارى قد جعل مثل هذا الفعل المعيب أقل انتشارا بين الطبقة العليا فى المجتمع ، بل يكاد ينظر إليه كأمر ماس بالشرف . وسعيدة هى تلك الأمم التى يمكن للعقل والأخلاق عندها أن تنتزع السوءات من جذورها ، وبخاصة عند هؤلاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذين يعانون من جموح عواطفهم وشهواتهم : وتلك هى طباع المصريين . ونحن فى وضع يسمح لنا بتكوين هذا الرأى عنهم ، بعد تلك الفترة التى أقمناها فى وطنهم ، ولعله ليس ببعيد ذلك اليوم الذى ستبذل فيه الجهود لإعادتهم إلى حظيرة العلوم والفنون ومختلف مناحى الحضارة ، بل ويمكننا أن نتجاسر بالقول بأن جهودا كهذه لن تلقى أية صعوبة، فالنجاح فى هذا الأمر يتجاوز بكثير مرحلة الأمل .

ولابد قبل أن ننهى هذا الفصل أن نتحدث عن بعض الاعتبارات العامة حول حياة ودور النساء فى مصر ، وحول الطريقة التى تمضى عليها حياتهن، فهذا الجنس الذى كان موضوعا لاهتمامنا وعنايتنا ، هو أبعد ما يكون - كما سبق أن لاحظنا - عن أن يحصل على نفس الامتيازات التى يحصل عليها المسلمون الرجال، فالمرأة - وقد انعزلت عن المجتمع - محكوم عليها بالعدم المطلق وبالعار، ويضعها المسلمون فى عداد الكائنات التى لا تحظى بقدر كاف من الذكاء ونعمة العقل . ويعود هذا التهوين من شأن المرأة إلى الخليفة عمر ، وذلك حين منعهن من الإسهام فى ممارسة الواجبات الدينية ، فلقد صك بذلك أمرا لا راد له بالحط من شأن النساء، وإن كان محمد نفسه ليس بعيداً عن مشاركته فى ذلك ، فنهجه الدينى مجحف بالجنس اللطيف ، ويمكنك بلا جدال أن تهدم الدعائم التى تنهض عليها جنته الموعودة ، فما عليك لكى تفعل ذلك إلا أن تستبعد منها أولئك النسوة الفانيات. ولكن، أو لم يكن بمقدوره أن يعثر على وسيلة أكثر إنصافا كى يربط أحلامه الرائعة بالعقل والعمل ؟ .

وحيث إن الرجال يضعون النساء فى مرتبة أدنى منهم ، فإنهم يكنون نحوهن نوعا من الاستخفاف والاحتقار ، تتعرض معه النساء على الدوام لإهاناتهم بل ولضروب من قسوتهم الرهيبة . لكن إساءة معاملتهن تلك - كما سبق لنا القول - لا تأتى من جانب الزوج ، بل تتعرض النسوة لذلك من جانب أهلهن قبل الزواج ، ثم يتعرضن لنفس المخاطر بمجرد أن يصبحن مطلقات ، وليس بمقدورهن أن يؤمن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنفسهن ضد هذا العسف إلا فى حماية زوج . ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن اللوم ينصب بصفة خاصة على الطبقات الدنيا من سكان المدن ، وعلى أولئك الذين تكاد لم تمسهم الحضارة فى الريف . أما الرجل التركى ، أو ذلك الرجل الذى ينتمى إلى أعيان المصريين فإنه ينظر إلى ضرب زوجته باعتباره عملاً إجراميا ، يمثل ما هو باعث على العار . لكن هذه النظرة الإنسانية والعاقلة ليست للأسف هى الشائعة ، ولا يدعمها القانون بسطوته . وسوف تجعلنا الحكاية التى سنقصها هنا نقف على رأى المسلمين فى النساء ، ومن الممكن أن نقص آلاف الأمثلة ، لكننا نكتفى هنا بتلك الحكاية التى كنا نحن بأنفسنا طرفا فيها .

كنا فى قرية الرحمانية ، عندما لجأت امرأة وعديد من الرجال إلى منزل واحد من زملائنا ، وركعت وركع الجميع على ركبهم طالبين العدل أو بالأحرى الانتقام ، حيث يفضل الشرقيون استخدام تلك الكلمة الأخيرة، وكانت المرأة ملطخة بالدم . هدأ زميلنا من روعها ، واكتشف أنها مضروبة فوق رأسها ، وأراد أن يخلع النقاب الذى يغطى وجهها ، لكنها قاومت، فكرر المحاولة وانتزع النقاب ، لكن البائسة – التى كانت تتمسك وهى فى آلامها تلك ، بالواجبات التى تفرضها على جنسها عادات وتقاليد بلادها – غطت وجهها بيديها . واحتراما من زميلنا لمعتقدات كهذه فقد قص الشعر المحيط بالجرح وضمده بنفسه ، حيث لم يكن ثمة طبيب، وربط الضمادة بقطعة من قميص مزقه لهذا الغرض ، وعندما شاهده بعض المسلمين والأقباط يقوم بهذا العمل، أظهروا بالغ دهشتهم علنا ، بل وعبروا عن استنكارهم لقيام رجل يشغل منصبا عاما مثله بالانحدار لدرجة يضمد معها كائنا حقيرا ، وتلك رؤيتهم للمرأة . وعندما صدمته همجيتهم تلك أراد أن يطردهم ، لكنهم ظلوا يقولون له إنه بذلك يسئ إلى كرامته .

ويضيف زميلنا : توجهت على الفور إلى حاكم الولاية وعرضت عليه الأمر، فخولنى كامل السلطة فى عقاب المذنب الذى كنت قد أمرت بإلقاء القبض عليه . وعندما عدت إلى منزلى وجدت هذا الرجل .

– أهو أنت أيها الهمجى الذى عامل هذه المسكينة بهذه الوحشية ؟

فأجابنى ضاحكا :

– ماذا ؟ أتظنها وحشية أن تضرب امرأة ؟

– وذلك الدم الذى أسلته ؟

فأجاب – لا يمحو دم الرجل إلا الدم، لكن ليس هذا هو الأمر بالنسبة للنساء.

واستفزنى الهدوء الذى يصطنعه فى ردوده ، فقلت له :

– نحن قضاتك ، وتلك القسوة التى أبديتها جريمة كبرى فى نظرنا وسنعاقبك.

– وهل ستعاقبوننى لو أننى جرحت بقرة ؟

– بلا جدال ، إذا لم تكن ملكا لك .

– إذن فاستمعوا لأسبابى، وسوف ترون أنه كان على أن أسلك هذا السلوك . لقد انتزع المماليك منى حقلى لكى يعطوه لابن عمى . ثم جاء الفرنسيون ليصلحوا من مظالم المماليك : أفلا يحق لى إذن أن استرد أملاكى السابقة ؟ لكن ابن عمى وأخته وابنه اعترضوا على ذلك فضربتهم، وسأظل أضربهم حتى يعيدوا إلى أرضى . إننى لا أطالب إلا بما هو حق لى ، بل إننى ألجأ لهذا الغرض إلى عدالة القوانين الفرنسية .

– حسن، ما دمت تتحدث عن القوانين الفرنسية، فاعرف إذن أنها تعاقب السفاحين ، والذين يسمحون لأنفسهم بارتكاب أعمال العنف ضد الآخرين .

واستدعيت إلى بيتى أعيان وشيوخ القرية:

– ماهو العقاب الذى توقعونه على الذين يضربون أو يجرحون عامدين أحد الرجال ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأجابوا في وقت واحد :

– عصا في مقابل كل عصا ، وليس ثمة أكثر من ذلك . أما العقوبات التي نعاقب بها عموما فهي : الغرامات، الضرب بالعصا، الموت .

– يكفي، والرجل الذي ماثل أمامنا الآن قد جرح هذه البائسة، وهو يطلب أن يعامل حسب القوانين الفرنسية . فليعلم إذن أن الإنسان حسب هذه القوانين لا يستطيع أن يحصل على حقوقه بنفسه، وأن للمرأة نفس الحقوق التي للرجل، وأن دمها ليس أقل قيمة من دمه . ونتيجة لذلك فسوف يضرب على الفور ٢٥ عصا .

– ٢٥ عصا ؟ (صاحوا جميعا بلهجة تنم عن دهشة شديدة) ليس هذا عدلا، فهذا أقصى ما كنا سنوقعه عليه من عقاب لو أنه قتلها .

– نعم ٢٥ عصا ولتنفذ أوامري على الفور، وإذا ماتت المرأة سنتخذ إجراءات أخرى .

وعندما حان وقت تطبيق العقاب لم يشأ أي منهم أن يتحمل مسئولية تنفيذه ، فأرسلت في استدعاء القواس ، لكنه مارس واجبه برخاوة وحرص، حتى أن خادما ملطيا – كان يشاركني الشعور بالغضب – انتزع منه العصا ، وأكمل هو العقاب بالقسوة التي يقتضيها الحال .

وهذه الحكاية تصور – دون حاجة منا إلى تعليق – تقاليد الطبقة الدنيا من الشعب، وتعطي فكرة دقيقة عن رأي أبنائها في النساء في مصر، ويكاد الأمر يكون على هذا النحو في كل بلدان الشرق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣

الطعام

القناعة فضيلة مصرية، وإذا كنا نجد أثرياء المدن الكبرى يتصفون بالشراهة ويصنعون أطعمة بسيطة الإعداد ليتناولوها بكميات كبيرة جدا (ويوجه هذا اللوم إلى المماليك بصفة خاصة) ، فإن الطبقة العاملة وكذلك الفلاحين شديدو القناعة بشكل لافت للنظر، فهم لا يتناولون من الطعام إلا ما يكفى كى يقيم أودهم ، وفضلا عن ذلك فغذاؤهم هذا بالغ السوء والفقر ، لدرجة أن المرء لا يكاد يتصور كيف يمكن أن يكفيهم هذا الطعام ، وكيف يمكنهم والحالة هذه أن يقوموا بأعمالهم الشاقة .

ويحب المصريون قبل كل شئ لحم الضأن، ولكن الطبقات الشعبية لا يمكنها أن تستمتع بمثل هذا الترف إلا أيام المناسبات الهامة ، أما بقية العام فهى تعيش على الخضروات الطازجة والسمك المملح ودرنات النباتات وبقول من نوع الحمص والفول والترمس .. وتباع الأطعمة الأخيرة مطبوخة ، وتشكل بالإضافة إلى بعض الفاكهة الغذاء الرئيسى لسكان المدن .

وبالرغم من أن تربة مصر تنتج القمح بكميات وفيرة ، وأن لبذور القمح هنا خاصية ممتازة ، وأن سعرها أقل بكثير من سعرها فى أوربا - فإن القمح لا يشكل الغذاء الأساسى لغالبية السكان ، كما يحدث فى كل مكان . إذ يترك الفلاح وصغار الناس - بدافع فطرى بل ربما يكون الأمر بدافع اقتصادى - للأغنياء عادة أكل الخبز الذى ينظرون اليه كأمر من أمور الترف ، ليتغذوا هم بوجه خاص على الخضروات التى تزرع فى كل الفصول ، فيأكلون بدلاً من الخبز - على سبيل المثال : درنات القلقاس ، جذور الجزر ، ثمار البامية ، والباذنجان ، والخيار، والشمام والبطيخ ، والعبد اللاوى (العجور) ، وأنواعاً أخرى من الشمام تزرع بمصر ، وأوراق الخبازى ، والملوخية ، والحلبة ، وهذه النباتات مرطبة ومخاطية،

وبالإضافة إلى ذلك يأكلون حبوب الذرة ، والذرة العويجة ، والترمس ، والحمص . كما يتغذون بثمار النخل (البلح) ، والسمك المملح ، واللبن الرائب ، والجبن ، والعسل الأسود . وكما سبق أن قلنا فإن اللحم أبعد من أن يكون طعاماً يومياً لتلك الطبقات.

وربما جاز لنا أن نجد فى كسل المصريين الفطرى وفى ندرة الوقود فى بلادهم ، بعض أسباب هذا الصيام المستمر الذى حكموا به على أنفسهم حتى يتخلصوا من حيرة المطبخ ، ولعلها هى نفس الأسباب التى دفعتهم إلى تفضيل استخدام الأطعمة التى يمكن أن تؤكل نيئة وبلا إعداد ، أو تلك التى يمكن طهيها بكميات كبيرة على يد أناس يحترفون ذلك كمهنة لهم . وفضلا عن ذلك ، فلو أننا قارنا طريقتهم فى الغذاء هذه وتلك التى كانت لدى قدماء المصريين لوجدنا تماثلا كبيرا ، سواء فى المأكولات أو فى بساطة إعدادها [1] .

---

(١) يقول هيرودت عن غذاء المصريين بينما هو يتحدث عن بعض عاداتهم .

«أما عن الطعام ، فقد تفتق ذهنهم عن وسائل دوية للحصول عليه بسهولة ، فعندما يكون فيضان النيل فى أوجه ويصبح الريف أشبه بالبحر ، تظهر فى المياه كميات هائلة من الزنابق يسميها المصريون البشنين (اللوتس) ، فيقومون بجمعها وتجفيفها فى الشمس ، ثم يأخذون بذورها التى تشبه بذور الخشخاش ويصحنونها ليصنعوا منها الخبز الذى يقومون بإنضاجه على النار ، كما يأكلون كذلك جذور هذا النبات ومذاقها طيب لذيذ ، وهى مستديرة وفى حجم التفاحة . وثمة نوع آخر من الزنابق تشبه الورود وتنمو بكثرة أيضاً فى مياه النيل ، ويقوم المصريون بجمع ثمارها التى توجد بها كمية من حبوب حسنة المذاق وفى حجم نواة الزيتون ، وهى تؤكل خضراء أو جافة . أما البردى فهو محصول سنوى، وعندما يؤخذ من المستنقعات يقطع الجزء العلوى منه ويستخدم استخدامات عدة ، أما جزؤه السفلى وما يتبقى من النبات – ويبلغ طوله حوالى ذراع – فإنه يؤكل نيئا ، أما الذين يريدون له مذاقا أفضل فيقومون بتحميره فى فرن ملتهب ، وبعض المصريين لا يعيش إلا على السمك ، وهم ينزعون أحشاءه ويجففونه فى الشمس ويأكلونه بعد ذلك . (هيرودت ، الكتاب الثانى، الفقرة ٦، ص ٧١ ترجمة : لارشيه) . ويضيف المؤرخ فى مكان آخر من كتابه: « يصنع المصريون خبزهم من الشعير ، ويعيشون =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأثناء حرارة الصيف الشديد يأكل الناس بشغف : البنجر والخيار والبصل المنقوع فى الخل ، وهذا النوع من الطعام رخيص الثمن ، وينادى عليه الباعة فى الشوارع ، ويعرضونه فى الميادين حيث يتجمع العامة أيام الأعياد ، وفى هذا الفصل أيضا يأكل الناس أوراق الحلبة . ويصنع المصرى لنفسه وجبة شهية ، مكونة من : الخس والخيار والبطيخ أو الشمام ، دون أن يقوم بتمليح الصنفين الأولين . وهو يأكل السلاطة بشهية عظيمة ، ولا يكلف نفسه عناء تزويدها بالزيت أو الخل ، ويأكل - كحلوى - كيزان الذرة المشوية قليلا فى الفرن ، والتى قطعت قبل أن تبلغ مرحلة النضوج .

وعندما تنقضى مواسم الفاكهة والخضروات ، يصبح الطهاة الذين يقومون بطهو كميات كبيرة من الفول والحمص ... الخ المصدر الوحيد لطعام الطبقة الدنيا من الشعب . ولعل هذه المناسبة هى التى ينبغى أن نقول فيها كلمة عن طريقتهم فى طهو هذه الأطعمة، وهى طريقة اقتصادية للغاية وبالغة البساطة . فطهاة الشعب - إن كان يصح أن نسميهم بهذا الاسم - لديهم قدور من الفخار كبيرة

=

على السمك النيئ المجفف فى الشمس والمتبل فى ماء مالح ، ويأكلون كذلك السمان والبط وبعض الطيور الصغيرة، وهم يأكلون هذه الأصناف نيئة بعد تمليحها» .

ويتحدث ديودور الصقلى فى نفس الموضوع فيقول

«يقال إن المصريين فى بادئ أمرهم كانوا يعيشون على الأعشاب ، فكانوا يأكلون الكرنب وجذور النباتات التى يعثرون عليها فى المستنقعات دون أساس للمفاضلة بينها إلا المذاق ، وكانوا يأكلون على وجه الخصوص العشب المسمى المرجية agrostis ، ومذاقه طيب للغاية ، وكان غذاء كافيا للإنسان . ومن المؤكد أنه كان مفيدا على وجه الخصوص لقطعانهم ، فقد كان يؤدى إلى تسمينها بشكل واضح ، ولا يزال المصريون حتى اليوم - عرفانا بما أداه هذا النبات من فائدة لآبائهم - يحملون هذا النبات فى أيديهم وهم ذاهبون إلى المعابد لتأدية الصلاة لآلهتهم . والطعام الثانى للمصريين هو السمك ، ويهيئ لهم النهر كميات هائلة منه ، وتظل كميات كبيرة منه على سطح الأرض بعد انحسار المياه، كما أنهم يأكلون كذلك لحم ماشيتهم ، ويستخدمون جلودها فى صنع ملابسهم ، وقد تعلموا مؤخرا أكل الفاكهة وأهمها البشنين (اللوتس) الذى يستخدمونه فى صنع الخبز .

الحجم ، يقومون بملئها حتى ثلاثة أرباعها بالبقول المغمورة بالمياه ، وتسمى هذه : "قدرة الطبخ" بلغة أهل البلاد ، وبعد أن تملأ القدرة بهذه الطريقة يغلق حلقها تماما بالليمون النيلى وطين الطفل ، ثم تدفن فى رماد الحمامات العامة الملتهب ، وتترك هكذا لمدة ٥-٦ساعات ، وبعد ذلك يصبح الطعام مطهوا تماما وصالحا للبيع، ويشتريه الجمهور بكميات قليلة مع قليل من الملح ، ويزين أحيانا بالخس وقليل من التوابل . ويساوى الطبق من هذا الطعام - إذا كان مزودا بالتوابل : فلفل أسود ، فلفل أخضر ، زنجبيل - بارة واحدة ، أما إذا لم يكن مزودا بالتوابل فلا يزيد ثمنه عن ٦ أجداد[1]. أما أولئك الذى يبغون توفيرا أكبر فيمكنهم أن يكتفوا بكميات من الترمس . ويطهى الترمس بنفس الطريقة السابقة ، ولكى يفقد الترمس مرارته فإنه يستنبت قبل إعداده ، ثم يغسل وذلك بوضعه فى سلال تدلى وسط النيل ، وعندما يتم كل ذلك يطهى الترمس . ولا تساوى كمية كبيرة من هذه الخضار أكثر من ٢-٣ أجداد ، وفضلا عن ذلك ، فهذه الكمية - مع قناعة المصريين الشديدة - تكفى وجبة لرجل .

والبلح الطازج أو المجفف هو أيضا ذو نفع كبير للطبقات الشعبية ، وبخاصة سكان الريف . ويكاد لا يكون للبدو من طعام سواه . وفى الصعيد، توجد قرى بأكملها لا تعيش إلا على البلح وحده لمدة تزيد على عشرة أشهر فى العام ، وتؤكل هذه الفاكهة فى حالات مختلفة من النضوج ، وتستهلك منها القاهرة والمدن الأخر كميات كبيرة ، ويأتى جزء كبير من البلح الذى يأكله سكان الدلتا من الصعيد، وهو يصل إلى هناك طازجا أو مجففا ، ويصل النوع الأخير إما بكامل هيئته ، وإما منزوع النوى فى هيئة كتلة مضغوطة (عجوة) ، وهذا ما يجعله قابلا لأن يبقى فترة طويلة دون أن يتلف . وعندما تقطع منه قطعة فإنها تشبه اللحم المفروم الذى يسميه الجزار فى باريس Fromage de cochon . والبلح المجفف سواء كان

(١) الجديد عملة من النحاس ، والبارة تساوى ١٢ جديدا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بكامل هيئته أو معدا بالشكل الذى بيناه للتو غالى الثمن ، لأنه ينقل من مكان بعيد، وبسبب غلو سعره فإن الطبقات الدنيا لا تستطيع التزود به ، لذا فهى تكتفى بالبلح الطازج الذى يجمع فى مناطق مجاورة ، ولهذا فهو يؤكل قبل أن يصل إلى تمام نضجه .

وتزود التجارة مصر بأنواع عديدة من الفواكه المجففة ، مثل : العنب والمشمش والخوخ والفستق واللوز، ويزرع فى البلاد التين والزيتون ، أما عنب كورنيثة المجفف فهو يدخل كثيرا فى إعداد وجبات الأثرياء .

وبخلاف بائعى البقول المطهوة ، يشاهد فى القاهرة وفى المدن الكبيرة أعداد من الشوائين الذين يبيعون السمك المقلى ، واللحم المفروم المعد على هيئة كرات صغيرة مشوية ومغلفة بأوراق العنب ،أو فى حجم العصفور ، موضوعة فى أسياخ صغيرة من الخشب .

وينظر الفلاحون إلى شحوم الحيوانات باعتبارها الطعام الأمثل ، لكن فقرهم لا يسمح لهم بالحصول على ما يشبع حاجتهم منها على الدوام ، ويستهلك الأقباط كميات كبيرة من زيت الزيتون ، ويدخلونه فى كل شئ حتى أنهم يرشون به خبزهم، وهذه العادة السيئة سبب لكثير من الأمراض التى تصيبهم هم بشكل خاص ، لكن المصريين على وجه العموم يأكلون بنهم بذور الخشخاش ، وبذوراً أخرى يستحلبونها ، ومشروباتهم هى الشربات وسائل آخر يدخل فى تركيبته الأفيون بشكل رئيسى، ويلجأ الأثرياء لهذا المشروب الأخير للسكر، لكن الفقراء فى غالب الأحيان لا يشربون إلا الماء القراح وأنواعا من الشربات الردئ . وتحرم الشريعة الإسلامية الخمور كما يعرف الناس جميعا حتى تمنع السكر، ويراعى المسلمون المتمسكون بدينهم ذلك، أما الكبار والتجار والجنود فيرتكبون هذه المعصية فى الخفاء .

ويصنع المصريون عديدا من المشروبات الروحية ، وأحسنها وأجودها هو

المشروب المصنوع من العنب المجفف ، أما ما يستخرج من التين والجميز والبلح وثمار التين الشوكى فهى أدنى قيمة . ويفرط الأقباط فى تناول هذه الخمور[1] فيشربون منها زجاجات بأكملها ، وهو ما يؤدى بهم إلى الإصابة بالدمامل . أما الذين يشربون من مياه النيل طيلة العام دون مراعاة للفصول ودون القيام بتنقيتها ، فإنهم يتعرضون لمبادئ حمى تهدم بنيتهم بشكل غير محسوس .ذلك أن مياه النيل يصيبها العطب كل عام قرب نهاية أبريل . أما البيرة فهى مجهولة تماما فى مصر اليوم بالرغم ، من أن هيرودوت قد تحدث عنها كمشروب عند قدماء المصريين[2] .

٤

الملبس

لا تتأثر ملابس المصريين على الإطلاق بأهواء الموضة وتقلباتها ، مثلما يحدث عندنا . فشكلها ثابت لا يتغير أبدا ، والألوان الزاهية هى أكثر الألوان التى تحظى بالقبول ، والاتساع ميزة واضحة فى ملابس المصريين ، وهم يشتركون فى هذا مع كل الشرقيين ، حيث لا تستطيع هذه الشعوب تحمل الملابس الضيقة مطلقا : "فاللباس" والقميص والبنيش والجبة والقفطان .. تفصل كلها على نفس الوتيرة .

---

(١) يستهلك المسيحيون فى سوريا والأقباط فى مصر المشروبات الروحية المستخلصة من العنب المجفف بكميات كبيرة ، ويشرب منه الأخيرون على وجه الخصوص زجاجات بأكملها بعد عشائهم ، وكنت قد اتهمت من نقل إلىّ ذلك بالمبالغة ، ولكنه قدم لى الأدلة على صحة ذلك . ومع ذلك فقد ظللت على دهشتى من أن مثل هذا الإفراط فى الشراب لا يؤدى إلى قتل الشارب ، أو حتى على الأقل إلى بلوغه ذروة السكر .

(٢) هيرودت ، المرجع السابق ، ص ٧٧ . ويصنع المسيحيون كميات قليلة من الخمور فى الفيوم ، ولكنهم لا يعرفون كيف يصنعونها بشكل طيب ، ولم تكن الخمر مجهولة لقدماء المصريين كما تصور البعض حسب نص لهيرودت ترجم على نحو غير دقيق ، فقد رأينا فى آثارهم رسوما لحصاد العنب وصنع الخمر والآنية التى كانت تقدم فيها . انظر دراسة المسيو كوستاز Costaz عن وصف مغارات مدينة طيبة . وقد حاول الفرنسيون صنع الخمر فى القاهرة ، ولكن الحروب أوقفت تجاربهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الطريف أن نذكر هنا ما كان يقوله الرجل المصرى عندما يرى أحدنا يمر أمامه وهو يرتدى بنطلونا مصنوعاً حسب الموضة ، أحضره معه من فرنسا – وهو لذلك بالغ الضيق – : "ماذا ! هل الأقمشة قليلة جدا لديكم حتى تصنعوه بهذا الشكل ؟ " .

ولكى نتعرف جيدا على الملابس المصرية، سنقدم فيما يلى بيانا مفصلا لمختلف أجزاء هذه الملابس ، وسنبدأ بملابس الرجال .

اللباس : سروال الصيف ، وهو عادة من التيل .

الشرشير : سروال الشتاء ، وهو من الجوخ .

السروال : سروال المملوك ، ولونه أحمر ، ويصنع من حرير وارد من البندقية .

القميص : وذراعاه غير مشقوقين، ويتدلى حتى العقبين ، ويلبس فوق السروال ، وأكمامه واسعة وبالغة الطول .

اليلك : صديرى خاص بالمملوك ، وهو واسع وقصير، وأكمامه طويلة جدا وبالغة الاتساع .

القفطان : رداء مفتوح من الأمام بكمين كبيرين جدا ، ويلبس فوق الصديرى.

الجبة : رداء مفتوح هو الآخر ، وتلبس فوق القفطان ، وأكمامها ليست قصيرة بالمقارنة بأكمام القفطان ، ويضاف إليها الفراء فى الشتاء .

البنيش : روب واسع جدا ، وأكمامه بالغة الطول تتجاوز طول الذراع واليد ، وهى مشقوقة عند أطرافها .

الحزام : وهو من الموسلين أو الصوف أو الحرير ، ويلبس فوق القفطان .

الطربوش : وهو من اللباد ، ويغطى الرأس حتى الأذنين .

الشال : وهو قطعة طويلة من الموسلين أو من قماش صوفى ، ويلف حول الطربوش عدة مرات . ويصنع شال الأثرياء من الكشمير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصديرى : وهو صغير وبدون أكمام .

العمة : ويطلق الاسم على غطاء الرأس بجزئيه (الطربوش + الشال) .

القاووق : غطاء الرأس عند الأتراك والبكوات ، وهو مستدير الشكل شديد الارتفاع ، وأكثر اتساعا عند القمة عنه عند القاعدة ، ويغطى جزؤه الأسفل بشال ملفوف حوله بعناية بالغة .

الطرحة : قطعة قماش من الموسلين أو جزء من الشال ، يتدلى خلف الرأس بعد أن يلف عدة مرات حول الطربوش ، ويستقر على الكتفين ، وله تأثير جميل وتطرز حوافه أحيانا بالذهب .

ولا يقل الحذاء تعقيدا عن بقية أجزاء الملابس ، وهو يتكون من : المست وهو من جلد الماعز يغطى كل القدم ، ثم البابوش والصرمة وهما أيضا من جلد الماعز ، وتوضع فيها القدم مغطاة بالمست . وعند الدخول إلى مسكن مفروش بالسجاجيد يخلع البابوش والصرمة ، حسبما يقضى الذوق . وينتعل الناس - عند ركوب الخيل أو حتى عند القيام بجولات فى شوارع المدينة - الخف ، وهو من جلد السختيان الأحمر أو الأصفر ، وهذا مشترك بين الرجال والنساء .

ويحب الرجال أن يحملوا فى حزامهم خناجر ثمينة محلاة بالأحجار الكريمة ، وتتجلى أبهة المماليك فى فخامة طبنجاتهم . ويهوى الأثرياء اقتناء الغلايين الرائعة. وتحب كل الطبقات بلا استثناء أن تغطى أصابعها البنصر بالخواتم التى تتفاوت قيمتها حسب الطبقة والثراء ؛ وهذه الخواتم تجملها فصوص الأحجار الكريمة ، وهى من الفضة بالنسبة للرجال ، ومن الذهب بالنسبة للنساء .

ومن نافلة القول أن نلفت انتباه القارئ إلى أن الزى الكامل الذى بينا تفاصيل كل أجزائه إنما هو زى الكبار والأثرياء . أما الطبقات الشعبية فلا تكلف نفسها كل هذا العناء ، فخزينة ملابسهم لا تحتوى على أكثر من ثلاث أو أربع قطع من الملابس ، لا تتغير إلا عندما تصبح مهلهلة الأطراف ، فالفلاحون رجالا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونساء يذهبون إلى حقولهم شبه عارين ، أما عمال الطبقات الدنيا وكذلك جمهرة سكان المدن فيسترون أجسامهم بالكاد ببعض الهلاهيل [1] .

---

(١) يذكر أحد زملائنا أن المصريين من كل الطبقات يميلون إلى الأبهة فى ملابسهم ، وقد شغفت بتحرى هذه الملاحظة مع واحد من خدمنا . كانت خزانة ملابسه لا تكاد تساوى نصف فرنك عندما دخل فى خدمتنا، ويكفى ذلك لندرك أن خادمنا هذا كان شبه عار . وكان الأجر الذى يحصل عليه منا معقولا لحد كبير، كما أنه كان يحصل على بعض المنافع من أثمان المشتروات التى كنت أكلفه بها ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يحصل فى الخفاء على هدايا وإتاوات ممن يترددون على فى العمل . وقد أدى ذلك كله إلى ثرائه شيئا فشيئا ، حتى أنه فى خلال سنة واحدة – وقد بدأ يدخل فى طور الرجولة – لم يعد ذلك الشبح الذى كانه فى البداية ، فقد نما لحد أننى تعرفت عليه بصعوبة . وقد بدأ بأن اشترى لنفسه ما يلى :

١ – قميص من التيل الأزرق له كمان طويلان ، وهو يعتبر فى الصيف الرداء الوحيد عند السكان .

٢ – طربوش جديد وله شال من القطن .

٣ – مركوب أحمر اللون .

٤ – حزام من الصوف .

٥ – سروال من التيل .

٦ – خاتم، والخاتم يعطى أهمية للابسه .

٧ – ملاية ، وهى قطعة من نسيج قطنى من اللونين الأبيض والأزرق ، طولها ٨ أقدام وعرضها ٤ أقدام ، وتستخدم فى شكل بالطو .

٨ – دفية ، وهى قميص كبير من البوركان الأسود ، ويستخدمها كبار شخصيات القرية .

٩ – صديرى من القطن .

١٠ – جبة ، وهى نوع من الروب دى شامبر من الحرير أو القطن .

١١ – قفطان من الجوخ على شكل روب قصير .

١٢ – بنيش وهو روب كبير من الجوخ .

ولم يعد ينقصه سوى شال من الكشمير ومعطف ليصبح شبيها بكبار القوم فى بلده .

وكان فى البداية يسير على قدميه ، ثم أخذ يقضى مشاويره على ظهر حمار ، ثم على ظهر حصان خاص به . وكان نشيطا فى البداية ، وعندما أصبح ميسورا جعل هناك من يعاونه ، ثم لجأ إلى خادم يخدمه كنت أدفع له أجره أيضا، وفى النهاية أتخذ الخادم الأول هذا لنفسه خادما خاصا . وإنى لمتأكد أننى – عندما تركنا مصر – كنت على وشك أن أرى الخادم الجديد يتخذ لنفسه بدوره خادما له .

وعلى منوال بقية المسلمين ، يحلق المصرى رأسه بالموسى ، ولا يترك فوق جمجمته إلا خصلة من الشعر . هذه العادة تسبب العديد من الأمراض ، وتؤدى بصفة خاصة إلى إصابة العيون بالالتهابات والرمد ، إذ لا يمكن لأحدهم أن يخلع العمامة الثقيلة التى تغطى رأسه دون أن يتعرض للإصابة بالبرد ، وهى الإصابة التى تؤدى إلى تكدس الأورام الصديدية فى العيون . ولتجنب ذلك تغطى الرأس بأغطية دفيئة جدا ، مما يجعل هذا الجزء من الجسم أكثر حساسية لأقل برودة . ومع ذلك فربما كانت طريقة الشرقيين هذه فى حلاقة الرأس هى التى تقيهم الإصابة بآلام الرأس من حيث إنها تسهل حدوث العرق ، إذ نادرا ما تصيبهم هذه الآلام . وينبغى أن نقول كذلك إن المصريين لايسيرون برؤوسهم عارية مطلقا مثلما نفعل نحن فى أوربا .

ويستدل على ثراء المرأة المصرية من زينتها ، إذ على الرغم من أنها لا تستطيع أن تتألق بزينتها وحليها إلا أمام زوجها وأمها وأخواتها وصديقاتها ، فهى ليست أقل ميلا للأبهة ولا أقل استعدادا للتألق . وهى تغطى جسدها بأغلى الملابس التى تنثر فوقها - ببذخ وبدون أى اختيار أو تناسق - حليها ومجوهراتها ، وكل ما لديها من أحجار كريمة . وهى تحلى جيدها بالعقود التى يمكن أن نسميها سلاسل من ذهب ، وتتدلى هذه السلاسل حتى أسفل الصدر ، ويتدلى من هذه السلاسل عادة صندوقان صغيران : يضم أحدهما آية قرآنية ، ويضم الآخر بعضا من العطور . وتحلى السيدة من الطبقة العليا الجزء الأدنى من ذراعيها بأساور من ذهب ، يتراوح عرضها بين ٤-٥ بوصات ، ويتفاوت مقدار سمكها ، وترتدى فى قدميها أساور مماثلة ، ولكن تلك ليست عادة عامة ، وأصابعها مثقلة بالخواتم التى ترصعها الأحجار الكريمة . ومع ذلك فعندما تنزل إلى الشارع فإنها تقبر كل مظاهر الثراء هذه تحت البرقع والسبلة ، وهى قميص كبير من التافتاز يغطى كل ملابسها ، وينزل حتى عقبيها . وتتزين النساء على هذا النحو عند ذهابهن إلى الحمام ، أو عند قيامهن بزيارة ، أو عندما يستقبلن فى بيوتهن قريباتهن وصديقاتهن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحيث إننا قدمنا بيانا بملابس الرجال، فإن من المناسب أن نقدم هنا الملابس التى تضمها خزينة النساء ، وهى كما يلى :

اللباس : كالسون أو كيلوت صيفى [1] من الكتان أو القطن .

الشنتيان : لباس الشتاء .

الدكة : حزام يربط به السروال حول البطن .

القميص :

اليلك : روب يرتدى فوق القميص، وهو مفتوح من الأمام ، وأكمامه طويلة وضيقة.

الفستان : روب يحل محل اليلك ، وهو غير مفتوح . وقد اعتادت السيدات الأوربيات المقيمات فى مصر على ارتدائه تقليدا لسيدات القسطنطينية اللاتى يرتدينه فى بعض الأحيان .

الجبة : روب يرتدى فوق الفستان ، وأكمامه قصيرة جدا ، ويضاف إليه الفراء فى الشتاء ، ويطلق عليه عندئذ اسم : وش فروة .

الحزام : وهو فى الصيف من الموسلين أو الحرير، وفى الشتاء من الصوف أو الكشمير . وعندما يعقد من الخلف يتدلى على هيئة مثلث .

الطاقية : غطاء يغطى الرأس مباشرة ، ويستبدل دائما .

الطربوش : غطاء رأس يرتدى فوق الطاقية .

القمطة : قطعة من الموسلين تلف عدة مرات حول الطربوش ، وهى جزءان، والجزء الذى يدور حول الرأس نفسه أحمر اللون أو من لون آخر زاه جدا ، ويشكل الغطاء كله حول الرأس شريطا اسطوانيا بارزا يرصع باللآلئ والأحجار الكريمة .

---

(١) من المعروف أن النساء الشرقيات قد اكتسبن عادة لبس السراويل، وليس هناك فرق فى هذه الناحية بين المسيحيات أو اليهوديات أو المسلمات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الربطة : وتطلق على غطاء الرأس فى مجموعه .

العقدة : عقد من اللؤلؤ .

الشواطة : مسبحة من اللؤلؤ ، يربط كل طرف من طرفيها بأحد جانبى الربطة .

الضفاير : خصلات من الحرير تزيد من طول خصلات الشعر .

البرق : قطع ذهبية صغيرة تربط بالضفاير ، ويتدلى من طرف قطع البرق هذه قطع نقدية صغيرة (سكين) Sequins .

السبلة : قميص واسع من التفتاز ، يغطى كل الملابس ، ويتدلى حتى يلامس الأرض ، وترتديه النساء عند خروجهن وعند ذهابهن إلى الحمام أو للزيارة ، ولا يخلعنه إلا إذا ألحت عليهن من هن فى زيارتها ، وخاصة إذا كانت الأخيرة تنتمى إلى الطبقة العليا .

البرقع : قناع الوجه ابتداء من أسفل الأنف ، ويتصل بالربطة من فوق الجبهة من الجانبين . وهو من قماش الموسلين أو الكتان الأبيض الناعم ، ويتدلى حتى الركبتين ، ولا غنى عنه لسيدة تريد أن تخرج خارج بيتها .

الحبرة : قطعة كبيرة من قماش التفتاز الأسود ، توضع فوق الرأس ، وتغطى بها الربطة والملابس واليدين، وتخلعها المرأة عند دخولها أحد البيوت .

التزيرة : وهى مجموع السبلة والبرقع والحبرة .

الخلخال : سوار فى القدم .

ولا تختلف أحذية النساء عن أحذية الرجال التى سبق أن تحدثنا عنها إلا فيما يختص بالأحذية الخشبية التى تستخدمها النساء داخل البيوت ، وتسمى هذه الأحذية : القبقاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونساء الطبقات الشعبية أبعد ما يكن عن الاقتراب من هذه الأبهة فى ملابسهن، فهن لا يرتدين – فى القاهرة أو الريف – إلا سروالاً من فوقه قميص أزرق اللون واسع جدا ، أكمامه طويلة و واسعة تنزل حتى الردفين . وهن فى نفس الوقت محجبات ، وتضفر شعورهن على طريقة سيدات الطبقة الراقية ، لكنهن يعلقن فى أطراف هذه الضفائر أجراسا صغيرة ، أو أشياء أخرى يتخذنها كزينة، وتتدلى بطول الظهر . وتضع الفتيات فى بعض الأحيان أجراسا صغيرة فى أقدامهن ، ويحلى غطاء رأس الأطفال بصف من القطع الفضية أو قطع من النقود تحيط بالرأس(١). لكن شيئا من هذه الأبهة لا يظهر للعين خارج البيوت ، فكل شئ يختفى تحت الملابس حتى بداية الوجه ، ولا يرى من النساء عادة إلا عيونهن ، بل يختفى جزء من هذه العيون ، ويمكن القول إن الأطفال يدثرون هكذا حتى يتفادوا نظرات الحسد التى ترمقهم بها العيون الحاسدة ، التى يعتبرها المصريون المتطيرون بالغة الأذى . وتتدلى من آذان نساء العامة أقراط ، وتتدلى الأقراط أحيانا من الأنوف ، لكن هذه الحالة نادرة . وتحيط النساء أذرعهن وأقدامهن كذلك بأطواق من المعدن ، كما يرسمن فوق شفاههن وذقونهن وصدورهن رسوما للزينة زرقاء أو سوداء (الوشم) ، وهى رسوم تماثل تلك التى ترى المسيحيات أثناء فترة الحج يرسمنها فوق أذرعهن دلالة على التقوى والولاء .

وتنظر السيدات من الطبقة الميسورة – شأنهن فى ذلك شأن نساء الطبقات الفقيرة – إلى مختلف التشويهات التى تحدثنا عنها فيما سبق، باعتبارها نوعا من الجاذبية ، أو على الأقل نوعا من التزين ، وبخاصة عادة التقليل من سمك

---

(١) أخبرنا أحد أبناء طرابلس أن المسلمين يحيطون رءوس أطفالهم بنقود ذهبية عليها كتعويذ بعض آيات من القرآن ، ولهذا السبب فهم يحتفظون – وما يزالون – بكثير من قطع النقود الكوفية . وهذا ما يسهل على الأوربيين الراغبين فى اقتناء دنانير أو عملات تعود لعصر الخلفاء أن يعثروا فى حليات الفتيات المسلمات على بغيتهم . وفضلا عن ذلك فلا تستخدم النقود الكوفية إلا كزينة ، ولولا هذه العادة لكانت قد انقرضت منذ وقت طويل .

الحواجب ، كما يعنين أيضا بصبغ اليدين والقدمين بالأصفر ، والأظافر بالأحمر ، وذلك باستعمال الحناء . وهذه العادة أكثر انتشارا بين الطبقات الشعبية ، وهى ترتبط أساسا بالتقاليد ، وبحالة التحفظ التى ينبغى أن تكون عليها النساء أمام الرجال، فالغرض من هذه العادة منع العين الفضولية من استجلاء درجة بياض الجسم عن طريق النظر إلى بشرة اليد إذا ظلت فى لونها الطبيعى .

٥

التقاليد والعادات المختلفة

ترتبط تقاليد المصريين بأنظمتهم، لذا يمكن القول بأن هذه التقاليد إنما هى وليدة هذه النظم . ومما لا جدال فيه أن معظم قوانينهم تقوم على معرفة دقيقة بالمناخ وأنها تبدو متمثلة تماما لطبائع الناس ، وكذلك للموقع الجغرافى للبلاد . ويمكن القول كذلك بأن المشرع العربى قد حسب مدى سرعة ونجاح انتشار مذهبه السياسى والدينى الجديد – وذلك بقياسه لعقول وأذواق مواطنيه – فتجنب تلك المعركة الخطرة على الدوام ، التى يدخلها المجددون ضد عواطف وأهواء أولئك الذين يريدون إصلاحهم ، لذا فقد أعلى من شأن أتباعه فى نظر أنفسهم بفعل ديانة أسسها بشكل ماهر ، واستطاع أن يتوصل إلى أن يبرهن على عظمتها لأناس جهلاء سذج . فلقد احترم تقاليدهم العائلية ، وكان متسامحا مع هفواتهم ونقاط ضعفهم ، وعندما شاء أن يقدم مكافأة لأولئك الذين يتمثلون مبادئه السهلة ، تملق عواطفهم الجموح حين وعدهم بأنهم سيكونون خير أمم الأرض ، وعندما رأى نفسه واثقا من أن مذهبه يتدعم بَشّرَهم بمباهج سماوية مثالية . ولقد توج النجاح آماله ، وحصل محمد على نفس النجاح الذى حازه ليكورج (*) دون أن يؤسس

(*) lycurgu مُشَرِّع أسبارطة ، عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . وجدير بالذكر أننا نقدم هنا ترجمة للأصل نصا وروحا ، وإن كانت لنا تحفظات هامة على كثير مما ورد فى هذه الفقرة . ومع ذلك فقد آن لنا أن نلم بكل ما يقال عنا ، فليس كل ما يقال صحيحا على إطلاقه ، بالإضافة إلى أن هذه الأفكار قد تجاوزها حتى الفكر الأوربى نفسه اليوم . (المترجم) .

أنظمته الفكرية على قوة من الأخلاق ، أو على إنارة السبيل أمام أمته . ولسوف تظل عقيدته هذه فى أوج فاعليتها فى الشرق ، طالما ظلت شعوب هذا الشرق بعيدة عن مدارج التقدم والحضارة الحديثة ، وفضلا عن ذلك فإنه ليبدو أن طبيعة عقلية الشرقيين تؤمن لمثل هذه العقيدة بطول البقاء .

إذن فليس المجتمع هو الذى ينظم التقاليد فى مصر ، كما أن «الموضة» لا تغير من هذا المجتمع بحسب أهوائها وتقلباتها ، فكل شئ فيه يستند إلى النظام الروحى والدينى ، ويظل - مثله - فى حالة من الثبات لا تقبل التغيير . فكل ما كتبه الرحالة القدماء الموثوق بهم عن العرب ما يزال على حاله حتى اليوم ، ولو أنهم عادوا إلى الحياة اليوم ليخوضوا فى نفس الأمر لوجدوا أنه لا ينبغى عليهم أن يغيروا اليوم شيئا مما قالوه فى ذلك الماضى البعيد، وإلى أن يحين ذلك الوقت الذى تتفجر فيه ثورة يبدو أنها ما تزال شديدة البعد، فلسوف تظل عادات الشرقيين الأسرية هى هى . وعلى كلٍ فسوف نكتفى بأن نقدم هنا لمحة سريعة عن حياة المصريين الخاصة ، فعن طريق مثل هذا الفحص فقط يستطيع المراقب أن يُكَوِّن حكمه ، بل إن المراقب لا يمكنه أن يعرف مدى عمق الروح القومية الحقيقية لشعب ما إلا إذا فحصه باهتمام من هذا المنظور .

إن المجتمع الذى تستعبد فيه نساؤه لا يقدم مطلقا هذا المزيج من الرقة واللياقة اللتين تميزان الأمم الأوربية على وجه الخصوص، وحيث إننا لا نكاد نحس بأثر للنساء على العادات الاجتماعية فى مصر ، فمن الممكن أن نتفهم بسهولة لماذا تتميز التقاليد فى مصر بوجه عام بهذه الغلظة الهمجية ، التى هى بالتأكيد غلظة تقاليد العرب الغزاة . وتلك فى الواقع هى الملحوظة التى تتضح لأول وهلة ، فرياضة الشعب وألعابه ومسراته ذات طابع خليع، متهور ووحشى فى وقت معا، وسوف يكون الأمر بالتأكيد على نحو مخالف لو كان للنساء نصيب فى صنع هذه التقاليد ، فالاعتبارات التى ستولى لهن - من حيث جنسهن - سوف تؤدى غريزيا إلى تولد مشاعر اللياقة ، وعندئذ سوف تكون الأمة هى الصانعة لشكل مجتمعها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتتوزع حياة المصرى من أبناء الطبقة الميسورة ما بين الصلاة والحمام والملذات الحسية والكسل وتدخين الغليون وشرب القهوة . وقد يجوز لنا أن نقول بأن الشعب كله يقضى جل وقته فى التدخين . ولا يستخدم الأغنياء إلا تبغ اللاذقية(١) ، الذى تستهلك منه كميات كبيرة فى مصر ، أما الفقراء فيقنعون بالتبغ المحلى الذى لا يمتاز بنفس المذاق اللذيذ الذى لتبغ اللاذقية ، لكن سعره مناسب . وتشرب القهوة فى فناجين جد قصيرة وبدون سكر، وهناك بعض من الناس يشرب ما يزيد على العشرين فنجانا من القهوة فى اليوم الواحد .

ويُكَوِّن أبناء الطبقة الشعبية من خلاصة نوع من القنب - الذى يسمونه الحشيش - مستحضرا مخدرا ، يتعاطونه بلذة شديدة ، ويؤدى هذا المستحضر إلى السُكْر ، أو بالأحرى إلى إحداث نوع من الخدر ، وفى هذه الحالة من الخدر الجسمانى والروحى يحصل البؤساء على هدنة من آلامهم ومضايقاتهم . أما الأغنياء فيبحثون عن هذا الخدر عن طريق خلاصة أو عصارة الخشخاش المطبوخ. ومن خاصية هذا المشروب أنه يسبب نوعا من الأسى العميق ، ويصبح الجسم والعقل بعد تناوله أكثر تهالكا عما كاناه من قبل .

ومسكن الحريم مكان له حرمته ، والأزواج وحدهم هم الذين يستطيعون التردد عليه بحرية ، ولا يمكن لأبواب هذا المكان المحرم أن تفتح مطلقا لرجل آخر بخلاف الطبيب أو الكاتب ، أى ذلك النوع من موظفى السكرتارية الذى تستخدمهم عادة نساء الطبقة العليا . ولا يستدعى الأطباء إلا فى الحالات العاجلة والملحة ، وفضلا عن ذلك فليس بإمكانهم أن يروا مريضاتهم إلا فى حضرة الإماء أو الأغوات (٢) ، بل إن النساء - حتى فى هذه الحالة - لا يخلعن نقابهن . أما الكاتب ، فلا يسمح له مطلقا بالدخول إلى الحجرة التى تشغلها سيدته ، فيبقى فى الحجرة المجاورة ،

(١) اللاذقية هى لادوسيا Ladociè القديمة ، وقد بناها سيلوكيس Sèleucus ، وسماها على اسم أمه ، وتقع على الساحل السورى ، ويزرع التبغ على التلال المحيطة بها .

(٢) بدأ البكوات (المماليك) يقتنون الأغوات فى الفترة الأخيرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويفتح باب اتصال بين الحجرتين ، ويكتب هو حسب الأوامر التى تملى عليه . وفى كثير من البيوت يكون للكاتب حجرة تقع أسفل مسكن الحريم، وتملى عليه المباشرة (الوكيلة)- وهى سيدة تعمل فى خدمة ربة البيت ولكنها ليست من الإماء - أوامر سيدة البيت .

وتراعى هذه التقاليد بشدة عند كل الأسر المتميزة ، والتى تتباهى بنسبها العالى، بل إن السؤال عن حال السيدات يعتبر أمرا معيبا مهما كان الدافع الذى يمليه . فالرجل على سبيل المثال لا يسمح لنفسه بأن يسأل رجلا آخر عن أخبار زوجته ، ما لم تكن ثمة روابط حميمة بينهما ، بل إنه فى هذه الحالة أيضا يستخدم تعبيرا يصلح لمثل هذه المناسبات ، مثل : كيف حال العائلة ؟ أو كيف حال (الناس اللى فوق) ؟ . وكذلك لا تسمح آداب اللياقة بإدخال العوالم فى بيوت العائلات المتمسكة بالأصول والتقاليد ، إذ لا يمكن لهؤلاء العوالم أن يدخلن مثل هذه البيوت إلا أيام الاحتفالات والمناسبات الكبرى ، ولا يكون ثمة من شكوى إلا أن فى أغانيهن أو رقصاتهن شيئا من الخلاعة لا يليق . أما رقص الغوازى الذى يرى فى شوارع القاهرة ، فمثل هؤلاء الغيورين على التقاليد يستبعدونه بغلظة .

ومع ذلك فينبغى القول بأنه ليست كل العائلات على هذه الدرجة من التعنت، بل إن هناك الكثيرين ممن تسمح تقاليدهم المتراخية لزوجاتهم بأن يحكن المكائد الغرامية فى داخل الحريم نفسه ، أو فى خارجه بمعونة من إمائهن ، فيتظاهرن على سبيل المثال بأنهن ذاهبات إلى الحمام أو للقيام بزيارة ، ويذهبن بدلا من ذلك إلى لقاء غرامى. ولا بد أن نستنتج أن البطالة التى يحيون فيها وكذا حرارة الطقس الملتهبة هى التى تهيج شهواتهن ، وتحملهن - بلا انقطاع - على الاستجابة لملذات الحواس ، فما أن تلهب خيالهن رغبات أو احتياجات جديدة حتى يطرقن كل وسيلة لاشباعها، ولكن الذى يضع حدا لذلك كله هو خوف المرأة من أن يطلقها زوجها ، بل وأن تلقى الموت على يديه .

ويشكل السقاءون نوعا من رسل الغرام ، ويلعبون دورا رئيسياً فى مكائد الحب . ولسيدات الطبقة الراقية عبيد من نفس جنسهن (اماء) يعهد إليهن بالعناية بأمورهن ، وعلى رأس هؤلاء جميعا الخازنة ، وهى التى تعنى بالمجوهرات والنقود وخزينة الملابس ، وهى أول من تفوز بالعتق . ويليها فى الترتيب والأهمية - من حيث الوظائف - تلك التى تأمر بإعداد القهوة والشربات : أى تلك المكلفة برعاية واجبات الضيافة ، ويليها تلك الأمة المكلفة بالتفتيش على المطبخ ، ولها السطوة على كل الإماء . وتتفاوت درجة تقسيم هذه الأعمال بحسب طبقة وثروة ربة البيت، بل إن بعض هذه الأعمال توكل إلى عائلات حرة مثل أعمال المباشرة أو الوكالة . ولا يحق للسيدات أن يستخدمن خدما إلا من نفس جنسهن أو من الأغوات، وثمة شيوخ عميان يأتون لتعليم العبيد الصلاة . ويشغل الأغا (الطواشى) حجرة فى الطابق الأرضى ، وبإمكانه أن يدخل فى حرية إلى جناح الحريم ، وهو يقوم بنقل أوامر رب البيت إلى ربة البيت، ويمكن القول بأنه يستخدم كحلقة اتصال بين الاثنين .

ونادرا ما تخرج المصريات إلى خارج بيوتهن، وإذا حدث ذلك فإنهن يفضلن ساعة قدوم الليل لقضاء مشاويرهن الصغيرة . أما عند سفرهن فيوضعن داخل هودج : عرضه قدمان وعمقه ثلاثة أقدام ، وتعلوه قبة صغيرة على هيئة قوس، ويحمل الجمل اثنين من هذه الهوادج بعد شدهما إلى جنبيه . كذلك لا تتجول السيدات فى حدائق بيوتهن ، وهى حدائق تنقصها الممرات ، ويمضين أياما بأكملها على أرائكهن ، ويتسلى بعضهن بغزل حرير أو قطن الهند، وتقوم من يستطعن التطريز منهن بتطريز المناديل التى تستخدم كغطاء للرأس ، أو الشيلان (الشال) التى يصنع منها حزام أزواجهن بكشكشات صغيرة .

ومن السهل التعرف على الإماء ، حيث إن شعرهن يرتفع فوق رءوسهن، وفستانهن مقفول ، وتغطى رؤوسهن وأكتافهن - بدلا من القناع الكبير أو الطرحة - قطعة من قماش التيل أو القطن ، كما يغطين بها وجوههن فى حضرة الرجال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومع ذلك فإن نساء الطبقات الشعبية لا يستشعرن مثل هذه المضايقات ، إذ يُقدَّر عليهن على الدوام الانهماك فى أعمال خارج بيوتهن ، لكنهن طيلة الوقت متحجبات بالبرقع ، وبخاصة إذا ما لمحن رجلا ، وأكثر ما يشغلهن هو إحضار طعام أزواجهن ، والذهاب لجلب المياه فى جرار يحملنها على رأسهن بمهارة [١] . وفى نفس الوقت فأكثر الفلاحات لا يعرفن الحياكة ، لذا يتركن ملابسهن الخفيفة – التى تغطيهن – وقد تدلت مزقها ، إما لأنهن لا يستطعن رتقها ، وإما لأنهن لا يجدن ضرورة فى تكليف أنفسهن هذا العناء ، ويجدن سعادة فائقة فى ألا يعملن شيئا ، ثم فى أن يقعين على حصيرة أو حتى على الرمال . وهذه البلادة التى نلاحظها فى كل بلدان الشرق ، ينبغى أن تجد لنفسها فى مصر بالذات بعض العذر ، إذ إن حرارة الجو المرتفعة تحتم الاسترخاء . وتحب المصريات عموما تدخين الغليون ، لكن هذا المزاج نادر الشيوع عند نساء الطبقة الراقية ، وهؤلاء لا يدخن مطلقا فى حضرة أزواجهن ولا يحصلن على مثل هذه المتعة إلا خفية .

وكما سبق لنا القول ، فإن الحمام هو أحد المتع الرئيسية عند المصريين من كلا الجنسين على قدم المساواة ، وللسيدات من الطبقة الميسورة حمامات فى بيوتهن ، يعتنين بتزويدها على الدوام بالمياه الساخنة والبخار ، ويتبادلن فيما بينهن الزيارات إلى حمام كل منهن كما لو كانت زيارات إلى مكان بهيج . وهناك يستعرضن مجوهراتهن ، وأجمل ملابسهن وكل أبهتهن ، ويستخدمن ببذخ صارخ ماء الورد والعطور، ويقضين يومهن هناك يتناولن القهوة والفطائر ، وينغمسن فى كل أنواع التسلية والترفيه [٢].

---

(١) عندما لا يكون حجم هذه الجرار كبيرا فإنهن يحملنها على أكفهن ، ويتكئن بمرفقهن على الجنب ، ويرفعن اليد الأخرى إلى أعلى . وتتفق هذه الطريقة تماما مع طريقة المصريات القدامى ، ويكفى للاقتناع بذلك أن نلقى نظرة على الرسوم المنقولة عن تلك الرسوم الموجودة فى كهوف كثيرة فى صعيد مصر .

(٢) عندما تقوم سيدة بزيارة أخرى تكن لها بعض الود أو الصداقة ، فإنها تدعوها لأخذ حمام وكذا النوم عندها، وينتج عن ذلك أن تستمر الزيارة أحيانا لعدة أيام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتراعى السيدات فيما بينهن – شأنهن فى ذلك شأن الرجال – وبكل الاهتمام والتدقيق هذه الطقوس والاعتبارات التى لهن بحكم الطبقة والثروة . والصمت والاحترام ملازمان العظمة . وإذا ما كان ثمة سيدتان قد نشأتا معا وعاشتا معا فى مودة منذ طفولتهما ، ثم تزوجت إحداهما من ثرى (١) ، أو ذى مكانة مرموقة – فإن لهجة الحديث بينهما تتغير على الفور . وللرجال احتفال خاص بمراعاة واجبات الذوق واللياقة فيما بينهم ، وبأن يقدموا من تلقاء أنفسهم دلائل الاحترام والتقدير ، فالأدنى يقبل يد الأعلى ، بل ويقبل أحيانا طرف ردائه إذا كان ثمة فارق كبير بينهما ، أو يكتفى أحيانا برفع اليد اليمنى إلى الصدر لتأكيد ندية الصداقة التى بينهما، أما عندما توضع اليد على الرأس فإنها تعبير بالخضوع من المرءوس إلى رؤسائه الكبار .

لكن احترام الأبناء لآبائهم وأمهاتهم يذهب لأبعد من ذلك ، فهم لا يخرجون من كنف الحريم قبل سن البلوغ ، ويخضع الذكور منهم لهذه القاعدة ، ومع ذلك فهم لا يسكنون نفس الحجرة التى تقيم فيها الأم ، ويأتون كل صباح لتقبيل يدها ، ويظلون للحظات واقفين أمامها وأذرعهم معقودة على صدورهم ، ثم ينزلون بعد ذلك إلى والدهم ويقدمون له نفس أمارات الاحترام ، ومع ذلك فالأب لا يقبل وجودهم على مائدته إلا إذا كان ذلك فى يوم يعد من أعياد الأسرة ، وهو – كذلك – لا يسرف فى تدليلهم ، ويحتفظ معهم باستمرار باللياقة الواجبة. وهذه عادة عامة عند كل الطبقات ، وتستطيع الطبقة الدنيا وحدها أن تخرق هذه القاعدة. وليست المرأة أكثر احتراما من جانب زوجها ، فمن النادر أن تدعى للطعام معه ، وتظل سيدات الطبقات الشعبية واقفات بينما يتناول الأزواج الطعام ، ولا يجلسن لتناول طعامهن إلا إذا فرغ من ذلك الأزواج .

---

(١) هذه الطريقة لدى الشرقيين فى قياس لهجتهم وحركاتهم بحسب الثروة والجاه ، تلاحظ على وجه الخصوص عند المماليك ، فهؤلاء الرجال الذين كانوا – كلهم على وجه التقريب – أبناء لرعاة أو لفلاحين ، يحرصون على الحصول على قدر من الثروة والتكريم يتناسب مع طبقتهم الجديدة التى أمكنهم الارتفاع إليها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويخصص اليوم السابع لمولد الطفل لأفراح كبرى تجرى داخل الأسرة ، وفى هذا اليوم تأتى كل السيدات اللاتى كن من قبل إماء عند أم المولود لزيارتها ، فتستقبلهن المباشرة فى أول حجرة ، وتأمر بتقديم القهوة والشربات لهن ، وبعد ربع ساعة تقبل ربة البيت التى كانت قد انسحبت عند قدومهن إلى حجرة أخرى ، عندئذ يهرع نحوها الجميع حتى يحظين بنوال شرف السماح لهن بتقبيل يدها ، ثم تجلس السيدة وتظل معتوقاتها واقفات أمامها ، وبعد ما يقرب من نصف ساعة من الحفل تنسحب السيدة ، وتعطى لمباشرتها الأمر فى أن تُبقى من معتوقاتها أولئك اللاتى تريد هى الاحتفاظ بهن ، وتخرج الأخريات على الفور .

وعندما يصعد زوج إلى حجرة زوجته فإنه يعلن ذلك مسبقا عن طريق أحد الطواشى أو واحد من العبيد ، لكنه لا يظهر مطلقا إذا كان بالحريم غريبات .. وتراعى الزوجة أن تبعد عن ناظره الإماء اللاتى يمكن لجمالهن أن يغويه ، ومع ذلك، فإنه إذا ما لمح واحدة منهن ونالت إعجابه وأبدى الرغبة فى أن يبقى وحده معها ، فإن زوجته تبدى الكثير من التلطف لحد تنسحب معه من الحجرة . ولكى تحتفظ زوجات البكوات بالسطوة التى لهن على أزواجهن فإنهن يقدمن لهم على الدوام تضحيات من هذا النوع ، بل ويذهبن إلى حد تقديم الإماء الجميلات كهدايا لأزواجهن ، ويزينهن بالمجوهرات والملابس الفاخرة . وكانت زوجة مراد بك تقدم له مثل هذه الرعاية . لكن هؤلاء المحظيات اللائى يقمن بإمتاع الزوج مسايرة لرغبات سيدتهن يحتفظن لها على الدوام بأمارات الاحترام والتبجيل ، ويحرصن على الدوام على مراعاة مصالحها .

ولم يكن من النادر – وخاصة فى الأزمنة الأخيرة – أن ترى أرملة واحد من البكوات أو الكشاف تتزوج واحدا من مماليك زوجها ، وفى هذه الحالة يظل هذا المملوك يحتفظ لها بأكبر قدر من التقدير والرعاية، مهما كانت المكانة التى سيصل اليها فيما بعد . وإذا ما كانت هذه الزوجة مدققة فى مثل هذه الأمور ، فإنه لا يجرؤ أن يسمح لنفسه بالتصرف بحرية مع الإماء ، ولكنه فى نفس الوقت يجاهد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كى يخفى عنها مغامراته التى يمكن له أن يمارسها خارج نطاق الحريم . ويحكى أن إبراهيم بك - الذى كان من قبل مملوكا لمحمد بك ، ثم تزوج من أرملته بعد وفاته - قد ضبطته زوجته هذه ذات يوم مع واحدة من إمائها ، فقامت - وقد طعنت فى كرامتها - بضربه بقسوة وهى تصب عليه شتائمها ، لكن الخوف من مثل ذلك لم يستطع أن يكبح جماح شهوات هذا البك . ويقال إن زوجته تلك -الغيور والمتجبرة فى وقت واحد - كانت تأمر بإغراق أو دس السم لأى واحدة من إمائها تشك هى فى أن لها علاقة بزوجها.

وفى مصر ، لا ينام الرجال بجوار زوجاتهم ، وهذه عادة عامة عند كل الطبقات . وللأغنياء حجرات مستقلة ، أما الفقراء فيختارون الركنين المتقابلين من حجرتهم التى هى عبارة عن خص أو كوخ فقير . ويوضع الفراش وسط حجرة كبيرة ، وهو بالنسبة للرجل الميسور سجادة مبسوطة على ألواح خشبية ، وتحيط بالسجادة أربع مخدات فخمة ، اثنتان منها على اليمين واثنتان على اليسار ، ليحصر بذلك الفراغ الذى ينبغى أن يشغله الفرد ، ويوضع أعلى ذلك غطاء أو ناموسية من الحرير أو الموسلين [1] . وقد شاهدنا بعضا منها مطرزا بالذهب والفضة . ولايكلف الفقراء أنفسهم مثل هذا العناء ، فهم يتمددون على حصيرة مصنوعة من سعف النخل ، وينامون بكامل ملابسهم .

وقلما يغير الناس - من كلتا الطبقتين - من ملابسهم الداخلية أثناء النوم، ويساهم ذلك فى وجود الحشرات الضارة بملابسهم كالقمل والبراغيث، كما يؤدى إلى تكاثرها .

ويلجأ الناس لعادة بالغة الغرابة لإيقاظ الشخص النائم ، فلا يتم ذلك بإحداث صوت أو هزة حتى ينهض من نومه ، لكن واحدة من الإماء تأتى محدثة بعض

---

(١) لا غنى عن الناموسية فى مصر حيث تمتلئ الحجرات بحشرات الفراش . وبدون هذا الاحتياط لا يكاد المرء يستطيع النوم، أما أبناء الطبقات الشعبية فإنهم وحدهم - بحكم التعود الطويل - الذين يستطيعون تحمل إزعاج هذه الحشرات .

الصخب ، وتدغدغ له بيدها باطن قدمه ، وبذا تنتزعه هذه الدغدغة برفق من نومه . وهذا الاحتياط الناعم يشى برخاوة من يلجأون إليه ، فهو دليل على الحياة المخنثة التى يحياها هؤلاء ، وهو احتياط يمكن القول بأنه لم يكن بمقدور أهالى سيباريس(*) القدامى أن يخترعوا أمرا يفوقه رقة ودقة .

وفى ختام فصلنا هذا نقدم جدولا مقارنا بين المواقيت الفرنسية والمواقيت التى تقابلها عند المسلمين، ويحتاج هذا الجدول إلى شرح تمهيدى :

يقسم المسلمون فترة اليوم ابتداء من غروب الشمس، ويحسبون ٢٤ ساعة فى المسافة التى تفصل بين الغروبين، ولكن بعد أن يصل العدد إلى رقم ١٢ يعودون ثانية مثلنا للعدد ١ ، ٢ ، ٣ ... الخ . فإذا حسبنا مثلا أن الغروب قد تم فى الساعة ١٢، فإنه تأتى بعد ذلك الساعة الواحدة ثم الساعة الثانية، وهكذا .. الخ .

وعند معرفة الوقت الفرنسى، فإن من الممكن تحديد الساعة عند المسلمين وذلك بعد إضافة العدد ٥ . و على هذا فإذا كانت الساعة لدينا فى فرنسا الرابعة صباحا فإنها تكون عند الأتراك التاسعة . وعندما تكون عندنا: ٥، ٦، ٧، فهى عند الأتراك: ١٠، ١١، ١٢. وعندما تكون لدينا: ٨، ٩، ١٠، فهى لدى الأتراك ليست: ١٣، ١٤، ١٥، وإنما: ١، ٢، ٣ .

وهكذا فإنه يمكننا أن نتبنى كقاعدة عامة المبدئين التاليين :

١ - بإضافة ٥ إلى رقم الساعة الفرنسية فإن حاصل الرقمين يوضح لنا الساعة عند المسلمين إذا لم يكن الحاصل يتجاوز الرقم ١٢ .

٢ - أما إذا ما تجاوز الحاصل الرقم ١٢ فإن الزائد يؤخذ منفصلا ليكون هو الوقت عند المسلمين . فإذا ما افترضنا أن الساعة هى الثالثة عند الفرنسيين فبإضافة ٥ تصبح الساعة الثامنة لدى المسلمين ، أما إذا افترضنا أنها ٩ لدى الفرنسيين فإننا نجد أننا بإضافة ٥ سنحصل على رقم ١٤ وهو ما تجاوز ١٢ ،

(*) (ب) سيباريس مدينة اغريقية قديمة اشتهرت بالثراء والترف .(المترجم) .

وبطرح ١٢ منه يتبقى لدينا ٢ ، ويكون هذا الرقم هو الوقت عند المسلمين .

ونظرة سريعة إلى الجدول التالى تبين لنا مثل ذلك الارتباط فى كل ساعات الليل والنهار .

جدول ارتباط التوقيت

الساعة في فرنسا	الساعة عند المسلمين	الساعة في فرنسا	الساعة عند المسلمين
منتصف الليل	٥ ليلا	الواحدة بعد الظهر	٦ نهارا
الواحدة صباحا	٦ «	الثانية «	٧ «
الثانية «	٧ «	الثالثة «	٨ «
الثالثة «	٨ «	الرابعة «	٩ «
الرابعة «	٩ «	الخامسة «	١٠ «
الخامسة «	١٠ «	السادسة «	١١ «
السادسة «	١١ صباحا	السابعة «	١٢ المغرب
السابعة «	١٢ «	الثامنة «	١ ليلا
الثامنة «	١ نهارا	التاسعة «	٢ «
التاسعة «	٢ «	العاشرة «	٣ «
العاشرة «	٣ «	الحادية عشرة «	٤ «
الحادية عشرة «	٤ «	منتصف الليل «	٥ « وهكذا
الظهر	٥ «	———	———

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦

الطباع

المصرى خجول بطبعه ، وهو يتفادى الخطر بقدر ما يستطيع . لكنه - ما أن يجد نفسه وسط المخاطر بالرغم من حيطته - يبدى همة ما كنت تظن فى البداية أنها لديه ، وليس ثمة ما يساوى رباطة جأشه وفى نفس الوقت تواكله . ولقد واتتنا الفرصة لتسجيل هذه الملاحظة عدة مرات أثناء حملتنا ، وهذا مايبرهن على ماسبق أن قلناه من أن إصلاح مساوئ نظام الحكم سوف يؤدى- بسهولة فائقة - إلى أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التى فقدها ، بل التى لا يظنها هو نفسه كامنة فيه . كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة ، وعظمة الروح التى خنقتها إلى حين تلك الأنظمة الشيطانية التى يرزح تحت نيرها ، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة على تدمير أخلاقيات الأفراد (١) بشكل محزن . ومن هنا ، ذلك الشح الوضيع الذى يلاحظ عند أبناء الطبقة الدنيا من المجتمع ، وذلك الرياء الذى نجده لدى كل أفراد المجتمع . فحيث إن المصرى يلقى الهوان فى طاعة الكبار- الذين يعرفون تماما معنى تلك السلطة التى فى حوزتهم والتى لاحدود لها ، والذين يتحكم فيهم خيلاؤهم الشرس - فإنه (أى المصرى) يحمل بين جوانحه روحا منكسرة تشى عن نفسها فى كل حركاته وإيماءاته ، فيتذلل ويتحسس كلماته مع كل من يخشى قوتهم ونفوذهم . وعندما يتاح له أن يُدْرج فى مصاف الأثرياء ، فإنه يعمل على إشعار البؤساء الذين يأتمرون بأمره بوطأة استعلائه وتحكمه ، وتلك نتيجة طبيعية للتربية التى تلقاها ، وللأمثلة التى رآها فى حياته ، والتى آن أوان أن يحتذى بها .

---

(١) لا نقصد بحديثنا هذا النظم الإسلامية ، ولكننا نقصد تلك القواعد والقوانين الهمجية والاستبدادية للبكوات المماليك ، والتى شوهت لحد كبير أشكال ونظم الإدارة التى وضعها سليم وسليمان الثانى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولايستحى الفلاح أو الحرفى- مهما كانت مهنته - من أن يستجدى ، حيث لايهمهم كثيرا ماسوف يقال عنهم وعن حالهم ، بل إنهم يفعلون كل مافى وسعهم ليظهروا أمام الناس بمظهر البؤس والعوز بقدر الإمكان . وفى المساء حين يترك العامل الورشة التى يعمل بها ، فإنه يلح فى الحصول على أجره عن ذلك اليوم ، ويظل يعذبك حتى تدفع له . وقد يكون هذا الإلحاح القلق تعبيرا عن حاجة حقيقية عند البعض ، لكنه عند البعض الآخر مجرد تعبير عن تخوف العامل من ألا يحصل على ثمرة عمله وجهده ، وفضلا عن ذلك فإن الكثيرين منهم لايبدون مثل هذا التلهف فى الحصول على أجورهم إلا لكى يقدموا للقائمين على شئون الأجور والمال ،الدليل على عوزهم ، وبهذه الطريقة يتفادون تلك المظالم والمغارم التى تهدد على الدوام أولئك الذين يبدو عليهم أنهم يعيشون فى بحبوحة من العيش.

وعندما تعطى للمصرى مالا ، نقدا أو عينا ، فإنه يحرص على الدوام أن يحرك إبهام يده اليمنى قائلا : "كمان واحد" . ويذكرنا هذا بخصلة كانت للشيخ مربك (وربما موسيا أو مصبع) شيخ إحدى قبائل بدو الأفراد ؛ فقد جاء ذات يوم يشكو إلى حاكم ولاية البحيرة من أن بدو بنى عون شنوا عليه الحرب ، وأنه يحتاج إلى دعم لصدهم ، وطلب لذلك فصيلة من خمسين رجلا ، ووعده القائد بالاستجابة لذلك ، ثم بدأت المحادثة تخوض فى أمور عامة . وعندما آن له أن يمضى فقد عاد يذكر القائد من جديد بالدعم الذى وعده به ، وسأله عما ستكون عليه هذه المعونة ، فأجابه القائد بأنها ستكون عبارة عن خمسين جنديا ومدفع ، فهتف الشيخ فى حدة : خمسين جنديا؟ فقط خمسين ؟ زودها واحدا ، اجعلهم واحدا وخمسين ، واحدا وخمسين . وفى أثناء ذلك كان يحرك إبهام يده اليمنى بطريقة استجداء مضحكة ، حتى أننا لم نتمالك أنفسنا من الضحك ، ومع ذلك فقد استوجب الأمر أن نرضيه بأن نجعل الفصيلة تتكون من واحد وخمسين رجلا بدلا من خمسين.

ومن الصعب أن نوفق بين عادة حب المال لدى المصريين وبين خمولهم وبلادتهم التى يمكن القول بأنها قاعدة لطباع المصريين ، بل بين ذلك وبين سلوك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحذر والاحتراس الذى يسيطر على أبناء البلاد. فلم نسمع على الإطلاق أية شكوى من سرقات المنازل ، أو قل إن هذه حالة نادرة تماما ، بل إننا سوف ندهش أكثر من ذلك إذا ما علمنا أن البيوت والمحلات التى تضم بضائع غالية لايقفل معظمها إلا بضبات (ضبة) من الخشب غير جيدة الصنع . وباستثناء العربان والبدو ، يتميز المصريون بالاستقامة التى تعود فى جانب كبير منها إلى قسوة العقوبات التى توقع على اللصوص ، فكثيرا ماتبقى بالات البضائع الغالية الثمن لأيام عدة على الرصيف أو فى الطرق العامة فى حراسة ذمة الأهلين ، ولم نسمع أن مالكا قد شكا من نتائج مثل هذه الثقة .

ذات يوم قام أحد الدلالين الأتراك لنا بعملية تجارية عادت عليه بربح قدره ٨٠ فرنكا ، وبعد فترة من الوقت ذهبنا لنحدثه فى أمر صفقة أخرى لاتقل عن الأولى عطاء بالنسبة له ، وكان جالسا على المقهى يدخن غليونه بعظمة ، وبصعوبة شديدة أصاخ السمع للعروض التى قدمت له ، ولأننا ألححنا فى الطلب فقد أجاب: لا أحتاج شيئا ، اذهبوا إلى فلان فهو بائس فقير وسيفعل لكم ماتطلبونه منى ومثلى تماما.. لقد ذكرنا هذه الواقعة ذات الدلالة لكى نقدم مثالا على ذلك التناقض الذى يسيطر دائما، والذى يقوم بين الطباع وبين السلوك . ومع ذلك فليس ثمة ماهو أكثر كرما ولاأكثر عظمة من ذلك ، بل ولا أكثر حكمة مما يتضح فى هذا السلوك . ألست على حق إذن حين آمل بأنه سيكون فى الإمكان أن ندخل عند أمثال هؤلاء القوم أفكارا أكثر عدالة إذا ماأشعّت عليهم أضواء الحضارة الأوربية[١]. ولست أمل على الإطلاق من تكرار مثل هذه الحقيقة التى لاجدال فى صحتها.

(١) ولكن على الرغم من هذا المثال الطيب فإن الشعب فى مجموعه لا يتصف بالكرم ، وذلك ناتج عن الحاجة أكثر منه عن الطبع ، ذلك أن الكرم يفترض الميسرة ، وإذا ما ظهر المصرى بذلك فسوف يتعرض لمظالم الحكام وانتهاباتهم.

أهكذا ينبغى أن يقتل الخوف والطغيان أجمل الفضائل ؟ ومما يدل على أن المصريين أسخياء بطبعهم بل مجبولون على فعل الخير ، أن أولئك الذين استطاعوا منهم - بفضل مكانتهم ونفوذهم وثروتهم - ألا تنالهم مظالم وانتهابات حكام الطغاة ، يعيشون فى بيوتهم فى أبهة وترف ويقومون عدة مرات فى العام بتوزيع الهبات والعطاءات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧

عن الماشية والخيول وكافة دواب الحمل

لايمكن للمصريين أن يكون لديهم ذلك العدد من القطعان الكبيرة من الحيوانات التى لدينا ، والسبب فى ذلك بالغ الوضوح ، فالمراعى عندهم ليست بمثل وفرتها عندنا. فإذا ما استثنينا مصر السفلى وشطآن وادى النيل بعرض ١ -٣ فراسخ ، فسوف نجد أن أراضى مصر قاحلة تماما ، بحيث يستحيل إطعام الماشية. ومع ذلك فسكان الريف يمتلكون جميعا بعض الأبقار والجاموس وبعض الماعز وبخاصة فى الدلتا ، لكن الجمال والخيول والحمير توجد بأعداد أكبر ، لأن مهمة إطعام هذه الحيوانات أقل صعوبة ، إذ لايقدم للخيول سوى التبن (قش مدروس تحت النورج الذى يقوم بدرس القمح والشعير) والبرسيم. ويطعمون فى الربيع بالشعير الغير كامل النضج ؛ وهو يزرع لهذا الغرض ، ولاينبغى أن يترك فى الأرض حتى يبلغ مرحلة النضوج ، ويقوم زراع الشعير بتشكيل حزم صغيرة منه ، يبيعونها فى المدن :كل حزمة بواقع ١ ، ٢ مدينى. أما المماليك وغيرهم من الأثرياء الذين يحرصون أن تكون خيولهم قوية جميلة المنظر، فيطعمونها بالشعير الحب[1].

ولاتلقى الجمال مثل هذه العناية الكبيرة إذ لايقدم لها سوى القش والفول المطحون بالرحى ، وبالإضافة لذلك فإن الجمال تقرض أوراق وبراعم الأشواك التى تنمو على حواف الترع وشواطىء النهر ، وتقدم لها فى الربيع أوراق الأشجار ، وهو طعام مفضل لديها ، وعندما تصبح حرارة الصيف ملتهبة يجمع الفلاحون أوراق الأشجار ليستخدموها شتاء فى إطعام الثيران والماعز.

---

(١) يطعم العربان خيولهم بأشياء قليلة جدا. وهذه الخيول نحيلة وقوية وتتحمل المشاق والحرمان لدرجة أكبر من الخيول الجميلة المنظر ، وهى لا تشرب سوى مرة واحدة فى اليوم ، ويردد العرب دائما هذه الحكمة : يابخت الخيل عند الغز ، يابخت العرب مع الخيل. وذلك تعبير عن أن العربى يحصل على منافع كبيرة من حصانه بأقل التكاليف ، فى الوقت الذى يحصل فيه حصان المملوك من سيده - على نحو ما - على أكبر النفع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحمار هو دابة الركوب المعتادة لأبناء الشعب ، وقد تعود الفرنسيون على تلك الدابة بسهولة . وفي الحقيقة فإن الحمار في مصر ، لا يتميز بهذا البطء ولا بالمظهر الدنيء اللذين لنظيره في أوربا ؛ فسرعته مناسبة ، وخطوه جميل ، ويخب بسرعة طيبة ، وهوشديد التحمل . وقد رأينا في الصحراء حميرا صغيرة الجسم ، لكنها تحمل فوق ظهرانيها مايقارب من نصف حمولة الجمل ، ومع ذلك فإن الحمار يقاوم التعب بأحسن مما تستطيع الجمال .

وتوجد في القاهرة أنواع عديدة من هذا الحيوان ، والنوع الكبير منه جميل الشكل ، ويستحق بالفعل الإطراء الذي امتدحه به بوفون Buffon . ويبلغ علوه من ٣ - ٣ ١/٢ أقدام دون أن ندخل في ذلك ارتفاع الرأس ، ورقبته عريضة قصيرة، ورأسه مرتفع جميل ، وقامة جسمه متناسقة ، وله ملمح نبيل ، وعيناه مليئتان بالحيوية . إنه حيوان قوي ، جميل الخطو ، ويناسب الفرسان لكنه غالي الثمن ، ويفضل في معظم الأحيان على الحصان ، إذ يباع بحوالي ٦٠ - ٧٠ قرشا أسبانيا . ومن نافلة القول أن نؤكد أن هذا النوع جميل جدا ، ويستحق بالفعل تلهف الناس على استئجاره للسير به في شوارع المدينة ، وهو مملوك لأفراد يستطيعون شراءه.

أما ذلك النوع من الحمير التي يقودها المكاريون فهي أصغر بكثير، لكنها بالمثل بالغة الجودة ، ويدفع في الجولة التي تمتد من أول القاهرة إلى آخرها حوالي ٩ - ١٠ بارات . ويكلف إيجار الحمار ليوم بأكمله ٣٠ - ٤٠ بارة ، وكان السعر أقل من ذلك بكثير قبل مجيئنا إلى مصر. وسبب ارتفاع السعر بالغ الوضوح ، فمع مجيء الفرنسيين تضاعف عدد الجولات في شوارع المدينة . ويتبع المكاري حماره جريا على الأقدام ، ويحمل في يده قضيبا صغيرا من الحديد تتدلى منه الجلاجل ، وصخب هذه الأجراس الصغيرة تجعل الحمار يخب ، فإذا لم يجر بالسرعة المطلوبة ينخسه المكاري بهذا القضيب ، فهو مدبب من أحد طرفيه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويوجد فى القاهرة عدد كبير من البغال يستخدمها رجال الدين وكبار التجار، وثمنها هى الأخرى مرتفع . وقبل مجىء الفرنسيين إلى القاهرة لم يكن يحق لأحد سوى المماليك أن يمتطى ظهور الخيل(١). وكان من عادة المماليك أن يعدوا بخيولهم عدوا أو يسيروا بها على مهل ، ولوحظ أنهم لايسيرون بخيولهم هذه وهى تقفز . وكانوا يدربون هذه الخيول بأن يندفعوا الواحد ضدّ الآخر ، وأن يتلامسوا بفعل الاقتراب ، ثم يتجاوز الواحد منهما الآخر ، ثم يناوشان بعضهما البعض بالسيف . وكانت إحدى تدريباتهم المفضلة أن يوقفوا حصانهم فجأة وهو فى أقصى سرعته ، وكانت هذه الحركات المفاجئة والعنيفة والصعبة تعرض الحصان لانحراف خطر مما يحطم له ساقيه. لذلك فإن أغلب الخيول التى تدربت على هذا النمط المملوكى كانت تعانى من هذا العيب ، فقد كانت سيقانها ضعيفة لحد كبير، وقد لاحظنا أكثر من ذلك أن معظمها يعانى من بعض التصلب والتعثر فى حركاتها، وذلك ناتج بلا جدال عن القيود التى وضعت فى أقدامها لأوقات طويلة.

ومن النادر أن نرى فى مصر حصانا خصيا ، فهم يركبون الخيل فى سن الثالثة ، وعندما يتجاوز عمر الخيول العاشرة يكف استخدامها ، وثمة خيول مصرية بالغة الجمال ، لكنها معَ ذلك ليست من نوع واحد . وخيول الصعيد أكثرها جدارة ، فساقها – شأنها فى ذلك شأن كافة الخيول العربية – دقيقة رفيعة ، وعينها يقظة ، ورأسها مستقيمة ، أما كفلها فإنه أقل بدانة مما لخيولنا الرعوية ، وحركاتها أنيقة ، وخطوها مناسب ، خاصة إذا لم تكن قد أتلفتها طريقة المماليك فى التدريب ، ومع ذلك فربما لم يكن فيها جميعا نفس مافى خيولنا الحربية من نبل وعزم . ولن يجد الفرنسيون مثيلا لهذه الخيول المصرية فى قفزها وليونتها ، لكنها أقل من خيولنا احتفاظا بقوتها ، كما أنها أقل منها احتمالا للمشاق ، ويقال

---

(١) يؤكد بعضهم أن المسيو روزتى Rosetti قنصل النمسا قد أراد ذات يوم أن يتمتع بهذا الحق، لكن الناس أنزلوه من فوق ظهر الحصان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنها بالغة الخفة وأنها تتفوق على خيولنا فى سرعتها ، ولكنى شاهدت فرسا فرنسيا تسبق حصانا عربيا قويا بمسافة كبيرة (١) .

والخيل فى مجموعها ليست فى مثل عنف خيولنا ، فالأمر يمضى غاية فى الهدوء فى حظائر الخيول ، ومن السهل أن نضعها بالقرب من الفرس دون أن تضطرب الأمور.

وفى أثناء إقامتنا فى مصر كان سعر الحصان يبلغ ١٢ -٢٠ لويس ، وينبغى أن نلاحظ أن المماليك كانوا قد رفعوا سعره فى هذه الفترة.

ولايركب العربان مطلقا إلا الفرس ، ويعلقون أهمية كبيرة على الاحتفاظ بأنسابها الطيبة نقية بعيدا عن أى اختلاط ، بل ولديهم خبراء فى علم أجناسها ، والفرس من السلالة المسماة "كويت" هى أكثرها امتيازا ، وهى ذات قيمة كبيرة ، ويبلغ ثمنها من ٥ -٦ آلاف فرنك ، وقد رأينا منها اثنتين أوثلاث رائعة الجمال.

وللخيول العربية صغيرة الحجم والتى قد لاتلفت الانتباه بأناقة شكلها ، ميزات تعوضها عن مظهرها المتواضع هذا ، إذ هى فى العادة أكبر سرعة من الخيول الأخرى ، كما أنها أكبر منها بكثير مقاومة للتعب .

٨
تقاليد عربان البحيرة

يمكننا أن نحصى فى ولاية البحيرة - الواقعة ما بين الأسكندرية والقاهرة

(١) تتطلب الخيول فى مصر عناية فائقة ، فبعد أقل جولة تقوم بها ينبغى أن يقوم أحد الخدم بجعلها تمشى حتى يجف عرقها ، وبدون هذا الاحتياط يمكن أن تموت على الفور ، وهى فى العادة جفولة ، وتتعرض كثيرا لمرض الرئتين . ويستخدم الشرقيون ركابا للسرج ، عرضه كبير ، ويستخدمونه فى نفس الوقت كمهماز ، وتكفى ضربة قوية لهتك فخذ الحصان ، ولجامها قوى وجاف ، والطريقة التى يستخدم بها هناك تؤدى سريعا إلى هتك أفواه الخيول ، لكن لا يمكن إيقافها بعد ذلك - إذا ما أخذت تعدو - إلا عن طريق هذا اللجام.

والفرع الأيسر للنيل – سبع قبائل أساسية من العربان ، استقر عديد منها هناك منذ زمان بعيد.

وأكبر هذه القبائل عددا قبيلتا الهنادى والجوابى ، ويمكن أن يبلغ تعداد الأولى ٣٠٫٠٠٠ شخص رجالا ونساء ، بينما تكون الثانية على نحو ما أمة صغيرة من الرعاة ، يحكمها شيخ كبير ورث المشيخة عن أجداده. وحيث إن عائلته هى أقوى عائلات القبيلة فإنه يمارس سلطته المطلقة بحق الوراثة ، حيث لاتوجد هناك أية قوانين وضعية . وتنقسم القبيلة إلى ثلاث طبقات ، تنقسم كل منها بدورها إلى عائلات ، أما مكان الإقامة فواحد بالنسبة للجميع ، ولكل واحد قطيعه من حول خيمته ، وهذه القطعان تتكون من جمال وماشية صغيرة ، ويمكن للعربى المتواضع الثراء أن يمتلك ٤ أو ٥ أو ٦ من إناث الجمال واثنين من ذكورها ، بخلاف الماشية الصغيرة التى يمتلك منها عددا كبيرا .

وتُغَيّر القبائل أماكنها فى فترات منتظمة إلى حد ما ، ويحدد مناطق تجوالها الأمل فى العثور على المراعى اللازمة لإمداد قطعانها بالغذاء ، ولهذا تذهب الجوابى كل عام من مريوط إلى الصعيد ، وهكذا فإنهم يمرون بوادى بحيرات النطرون ، ويحملون معهم كميات من الملح ، ويحصلون فى مقابل ذلك على ثمن تحدده العادة . وفى نفس الوقت يذهب هؤلاء العربان أنفسهم إلى الواحات ، لشراء البلح الطازج أو المجفف ، ليبيعوه بعد ذلك لصغار التجار فى مصر .

وتقاليد هؤلاء العربان بسيطة ورعوية ، وتنأى بهم عن القيام بالسطو والنهب ، إذ لايمكن أن يوجه مثل هذا الاتهام إلا لعدد جد ضئيل من أمتهم الصغيرة تلك ، ولا يحدث بينهم إلا قدر ضئيل من السرقات التى يلقى مرتكبوها عقابا رادعا من الشيوخ .

وفى أثناء جولاتهم تلك ، والتى تتم ببطء شديد ، يمشى الأقوياء من الرجال صغار السن على أقدامهم ، بينما يركب الشيوخ والأطفال على ظهور الجمال ، وتسهر النسوة على شئون النقل مع أزواجهن ، وهن لا يغطين وجوههن إلا أمام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأغراب ، وتبتدئ الجمال المسيرة تليها قطعان العائلات المختلفة ، وهذه القطعان منفصلة فيما بينها . ويبلغ تعداد حيوانات القطيع ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٥٠٠ وأكثر.

وملابس أفراد هذه القبيلة هي نفس ملابس بقية العربان ، فالرجال يرتدون قميصا خشنا ومعطفا من الصوف الأبيض أو الغامق ، ويلفونه فوق رؤوسهم ليتقوا حرارة الشمس ، كما يستخدمونه غطاء في الليل ، وللشيوخ معطف من الصوف الأبيض ، لكنه أكثر نعومة . ولا ترتدى النساء إلا جلبابا خفيفا وتزين خصلات شعرهن بزينات متعددة.

ويرى قليل من الخيل لدى الجوابى حيث لا يتجاوز عدد فرسانها الأربعين ، بينما يبلغ تعداد فرسان الهنادى أكثر من ثمانمائة.

وأبناء قبيلة الجوابى شديدو التدين ، وهم يتبعون الديانة الإسلامية بشكلها الأنقى . ولا تعرف عائلاتها الكبيرة عادة التدخين ، فهذه العادة لم تدخل القبيلة مطلقا ، وهم يمتنعون عنها إما احتراما لعاداتهم القديمة وإما بدافع دينى غامض، بحيث لم نجد فى هذه الأمة الصغيرة إلا عجوزا واحدا يهوى تدخين التبغ ، وينتسب هذا الشيخ إلى عائلة قديمة، ويقابل فعله هذا الذى يتعارض مع العادات المتبعة بتسامح اعتبارا لسنه . ولا تدفع الجوابى ضرائب مطلقا ، ويكتفون بأن يرسلوا كل عام إلى قائمقام دمنهور هدية تتألف من بعض الجمال .

وتعيش الجوابى فى قناعة شديدة ، وهى عادة شائعة – كما رأينا– عند كل العربان ، ويكتفى المرء هناك بوجبتين : واحدة عند الظهر ، والأخرى عند غروب الشمس ، وتتكون الوجبة من اثنتين أو ثلاث بلحات مع شئ من الخبز مغموس بالزبد الذائب على النار . ويكاد المرء لا يتصور كيف يمكن لأجسام تغذت على هذا النحو ، أن تتحمل تلك المشاق التى لم نسمع عنها ، وتحت سماء ملتهبة لهذا الحد. ولايكاد يبلغ إجمالى كمية الطعام التى يتناولها المرء فى اليوم ٦ أو ٧ أوقيات ، وبرغم ذلك فالعربان بوجه عام حسنو الصحة ، وإذا ما استثنينا أمراض العيون –

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهى الأمراض المتوطنة – فإنهم أقل من غيرهم عرضة للأمراض من كافة شعوب أوربا(١) . وفضلا عن ذلك فهم لا يتناولون المشروبات الروحية ، ويكتفون بشرب ألبان النوق والماء القراح . وتصنع آنية الشرب التى يستخدمونها من الخشب ، أما تلك الآنية الطينية المعروفة باسم القلة فليست شائعة عندهم . وشرب القهوة يعد واحدا من المتع التى نادرا مايسمحون بها لأنفسهم ، وليس بينهم من يعتاد عليها سوى الشيوخ ، ولا يقدم هذا المشروب فى الخيمات الأخرى إلا عند الترحيب بزائر غريب .

والجوابى مضيافون بالغو الكرم ، ويمنحون حمايتهم لكل الناس بلا تميز ، بل إنهم يدخلون فى حماهم حتى المجرمين المطاردين ، ويقيم الغريب فى خيمة مضيفه الذى يبذل كل جهده لكى يكرم وفادته ، وتغطى النساء وجوههن أمامه دلالة على الاحترام. وتتجلى مودة العربان وكرمهم خاصة فى الوجبات التى تقدم للمسافرين الذين يلجأون إليهم طلبا للضيافة ، فهذه باذخة بالنسبة لظروف المضيفين ، وتتكون من : الأرز والخبز والبصل المشوى وخروف مسلوق يقدم فى طبق كبير انتزعت منه فقط بعض أجزاء لتحميرها ، وتقدم هى الأخرى على المائدة، وزيادة فى إكرام الضيوف يحرص المضيف على أن يختار لهم بنفسه أحسن قطع اللحم . وقد يدهش المرء من عواطف وأحاسيس هؤلاء الناس الذين هم بالكاد فى أول أطوار الحضارة ، ومن إخلاصهم وحماستهم حين يتحدثون عن مباهج حياتهم تلك .

ويتكون أثاث الخيمة من سجادة خشنة ، وبعض الأوانى الخشبية أو الفخارية، وأسلحة من أنواع مختلفة ، وأحيانا بعض أدوات من الحبال وأثاث من نوع خاص . وليس فى خيمة شيخ القبيلة ما هو أكثر من ذلك ، وربما يكون الشئ

---

(١) انظر: Volney, Etat politique de la Syrie, P. 361 et s.
وكل ما قاله هذا المؤلف عن بدو سوريا ينطبق على بدو مصر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوحيد الذى يميزها عن بقية الخيام هو فخامة السجادة المفروشة فيها ، والتى ليس فيها برغم ذلك شئ غير عادى ، وقد يصل ثمنها إلى٣٠ – ٤٠ قرشا أسبانيا.

ويقوم العربان بجولات طويلة للغاية فى الصحراء ، ويتوغلون فيها أحيانا لمدة تبلغ العشرين يوما وأكثر . ويجعلهم تعودهم الطويل يتعرفون على السهول الرملية، فهم يعرفون الأماكن التى توجد بها المياه . وليس ثمة من صحراء مهما كانت قاحلة لا تحتوى على مصادر للمياه ، أو على الأقل لا تحتوى على آبار للمياه الصالحة للشرب ، ولو كانت مالحة بعض الشئ . وفضلا عن ذلك فهم يحملون على جمالهم الماء والمؤن الضرورية ، ويحتفظ المسافر بالماء فى آنية كبيرة من الجلد يغلقها بسدادة خشبية ويعطرها بالمستكة.

أما البدو الذين يعيشون على السلب – والذين سنتحدث عنهم بعد قليل – فإنهم يجمعون كل ماسلبوه ليقتسموه فيما بينهم حسب قواعد متفق عليها ، حتى يتجنبوا الاقتتال فيما بينهم ، ونادرة هى الحالات التى يستوجب فيها أن تعود الخيل أو الأمتعة المسلوبة على واحد دون الآخر ، ونادرا كذلك ما يفوتهم أن يخصصوا جزءا من هذه الأسلاب لشيخ القبيلة حتى ولو كان غائبا.

والنساء عند هذه الشعوب الجوابة لسن عاطلات ، بل يصنعن قماش الخيام ، وينسجن بأنفسهن السجاجيد لتأثيث هذه الخيام ، وهن يستطعن صباغة هذه السجاجيد بألوان زاهية ومتنوعة ، وتكاد هذه الألوان تكون أكثر ثباتا من ألوان أجمل سجاجيد الأناضول . وعندما يذهب بعض العربان إلى المدن ، فإنهم يأخذون على عاتقهم القيام بالأعمال التجارية الخاصة بالقبيلة ، كما يحضرون الأصباغ اللازمة لعمل النساء.

ومن حق العربى أن يتخذ لنفسه عدة زوجات ، ولكنه نادرا مايستعمل هذا الحق ، فلكل عربى زوجة واحدة ، ويشترى الأغنياء منهم إماء زنجيات وعبيدا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سودا فى بعض الأحيان . وتسمح لهم الشريعة بالطلاق شأن بقية المسلمين ، لكن عادة الطلاق ليست منتشرة بينهم بنفس درجة انتشارها عند سكان المدن المصرية، بل إن من يطلق زوجته منهم يجر على نفسه نوعا من الاحتقار ، ويعرض نفسه للرفض العام . وقد شوهدت بنت أحد الشيوخ الكبار وهى ترفض أن تعيش مع أبيها لأنه طلق أمها ، كما لم يستطع ابنه الشاب الذى كان يدير شئون عائلته بذكاء كبير أن يمنع نفسه من أن ينظر لهذا السلوك من جانب أبيه باحتقار شديد.

ويدفع لنساء هذه القبيلة مهر ، كما يسمح لهن بامتلاك القطعان .

والحرية هى كنز العربان الثمين ، فهم ينفرون من أى نوع من الخضوع ، وهم يفضلون أن يقدر عليهم البقاء فى عزلتهم الواسعة تلك فى الصحراء عن أن يتحملوا خضوعا من أى نوع . ولا يريد الجوابى أن يرتبطوا بشكل مطلق بزراعة الأراضى ، إما لأنهم يخشون إبدال طبائعهم ، وإما لأنهم ينفرون غريزيا من الزراعة ، وإما تمسكا منهم بعاداتهم القديمة . وفى بعض الأحيان يبذرون قطعة من الأرض روتها الأمطار ، ومع ذلك فإن توقع حصولهم على محصول وفير فى العام التالى لا يغريهم مطلقا على البقاء ، بل إنهم يكتفون بما حصلوا ويحملون خيامهم إلى مكان آخر.

ونحن نرى من هذه التفاصيل كيف أننا - هنا فى أوربا - سوف نكون مجحفين تجاه العرب، لو أننا نظرنا إليهم كأناس همج ليس لديهم شفقة ولا رحمة، فلقد ترددنا عليهم كثيرا ، وكنا شهودا على مودتهم وفطرتهم البسيطة وفضائلهم الرعوية ، وإذا كان ثمة من بينهم قبائل تستحق لوم الأوربيين فنحن لا نستطيع أن نعمم هذا اللوم دون أن نحكم على أنفسنا بالجور وعدم الإنصاف ، فتقاليد الجوابى وكذا تقاليد عدد كبير من قبائل أخرى لا نستطيع أن نتناولها بالحديث هنا ، ليست بأقل جدارة - بأن تُتَّخذ نموذجا يحتذى - من تقاليد أية أمة متحضرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتوجد على مشارف ولاية البحيرة - بخلاف قبيلتى الهنادى والجوابى- القبائل الآتية:

١- قبيلة الأفراد ، ويمكن القول بأنها ليست سوى فرع من الهنادى ، وتتكون من حوالى ٣٠٠ فارس .

٢- قبيلة الجويلى ، وتضم أكثر من ٤٠٠ فارس .

٣- قبيلة بنى عون ، وتبلغ قوتها ٣٥٠ رجلا يركبون الخيل .

٤- قبيلة أولاد على ، وتبلغ قوتها ٣٠٠ رجل يركبون الخيل .

والقبائل الثلاث الأخيرة متحالفة فيما بينها ، وهى فى حالة حرب مستمرة مع القبائل الأولى . وهذه القبائل المختلفة قد اقتسمت على نحو ما السلطة المطلقة على الولاية ، ونشروا مساعدتهم وحمايتهم على بعض القرى ضد عشائر أخرى من البدو فى مقابل إتاوة سنوية . وعندما ترفض واحدة من هذه القرى أن تدفع المبلغ المتفق عليه أو إذا لم تستطع ذلك ، فإن الحماة المدعين يُغَيّرون من أدوارهم ، وينتظرون حتى يصل الفلاحون ومعهم ماشيتهم إلى الحقول ، وعندئذ تنشق عنهم الأرض فجأة ، وينتزعون كل ما يستطيعون ، ولا يردون ماسلبوه إلا إذا حصلوا على ضعف الإتاوة التى سبق الاتفاق عليها ، ويتم هذا الصلح بالاتفاق بين الطرفين . لكن الغرم يقع على الدوام على الفلاحين الذين لا يمكنهم أن يعرضوا أنفسهم لمثل هذا الابتزاز البشع دون دوافع قوية . أما إذا ما اتفق الفلاحون فيما بينهم ، فإن القبيلة الحامية تقوم بحصارهم حتى يدفعوا الإتاوة مع المغارم التى يحلو للأقوى أن يفرضها . ولكن إذا ما حدث - صدفة - أن حملت القرية السلاح لتدفع المعتدين بالقوة ، فالويل للفلاح الذى يقتل بدويا أو حتى يحدث فيه جرحا ولو بسيطا ، والويل لأسرته ولذريته ، فالدم لايعوضه إلا الدم ، ولسوف ينتقم الجريح وأهله أو حلفاؤه لعاره الآن أو فى المستقبل.. وعند موت أحد البدو يعهد إلى ابنه أو إلى أقربائه الأقربين بمهمة الثأر ، وهذا فرض مقدس ، ذلك أن قانون الدم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عند البدو هو أهم القوانين التى تطبق عندهم . وقد حدث مرات كثيرة أن طلب ثأر واحد من الأهل أو الأجداد ، بعد أن كانت قد انقضت فترة كبيرة من الزمن منذ موته. وعندما تسنح فرصة الانتقام فإن المتضرر أو من يتصرف باسمه لايفوته أن يمسك بها ، وعندئذ لايُعرف لغضبه حدود ، ومع ذلك فيمكن شراء الدم بجعل مالى، لكن مثل هذا الاتفاق ينبغى أن يُصَدّق عليه كل أفراد العائلة وإلا اعتبر كأن لم يكن. وبخصوص الجرح البسيط يمكن الاكتفاء بمبلغ يتفاوت قدره بحسب الجرح ، ويدفع هذا المبلغ نقدا أو عينا . أما بخصوص الموت فيفضل الانتقام ، ولسوف تجلل أسرة المتوفى نفسها بالعار الشديد إذا هى قبلت فى مقابل دم القاتل فدية مهما كبرت ، تاركة بذلك روح قتيلها هائمة[1].

ونقدم هنا أمثلة على تطبيق قانون الدم ، كيما نبين كيف أن العرب قساة فى هذه النقطة .

ذات يوم تقابل اثنان من الأعراب : أحدهما من الأفراد والآخر من الهنادى بالقرب من بسنتاوای ، وهى قرية تقع على بعد ١٢ فرسخا جنوب شرق الأسكندرية . وكان الأفرادى يقود تسعة أو عشرة ثيران تملكها هذه القرية ، فسأله الهنادى :

– هل صحيح أنكم فى سلم مع الفرنسيين ؟

– صحيح .

– أليس من الأحسن أن تتحالفوا معنا بدلا من أن تتحالفوا معهم ؟

– ماذا تريد؟ هكذا أراد شيخنا مربك.

فقال الهنادى :

(١) يدخل Volney فى بعض التفاصيل المتصلة بهذه العادة الهمجية ، لكننا نكتفى بأن نحيل قراءنا إلى مؤلفه: Etat politique de la Syrie .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– وهذه الثيران ، هل تقودها إلى معسكر الفرنسيين ؟

– لا ..

– لكنى أمنعك من ذلك وسآخذها منك .

– لا تقدر على ذلك ..

وهنا هوجم البدوى المتحالف معنا ، وبعد معركة خفيفة ، خدش أثناءها الهنادى خدشا بسيطا فى يده ، فصاح: «يا ربى : أتقاتلنى بدلا من أن تقاتل الفرنسيين ؟ » .

فأجابه الآخر فخورا بما أحرزه من كسب :

– لا عليك إلا أن تنشد السلام. ابتعد.

– السلام ! سأصنعه بإرادتى ، ولكن (وأشار إلى يده) .. الدم !

– حسن ، لا عليك ، اطلب ما تريد.

– أعطنى ثورا من الثيران التى تقودها فينتهى الأمر.

وانتهت المعركة بالفعل بهذه الطريقة . ومع ذلك دفعت القرية الأجر المقدر لحارس ثيرانهم هذا ، بالرغم من أن الثيران قد نقصت واحدا بسبب غلطة منه هو.

ويعرف الفلاحون معرفة تامة ذلك الطبع الحقود الذى للبدوى ، حتى أنهم يتحاشون أن يجرحوه ، أو أن يقتلوه مهما كان حجم الضرر الذى وقع منه عليهم .

ذات يوم لمح أحد البدو – بينما هو يمر على حصانه فى سوق دمنهور – بقرة أعجبته ، فألقى على عنقها حبلا به عقدة متحركة وجذبها إليه وسار بها ، وبعد أن أفاق الفلاحون من دهشتهم جروا خلف السارق ، وأدركوه فى اللحظة التى كان فيها على وشك أن يجتاز ومعه غنيمته ترعة مليئة بالمياه ، فأوقفوه ، وبعد أن استعادوا منه بقرتهم ذبحوا حصانه أمام عينيه ، ثم أرقدوه هو نفسه على بطنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وضربوه بالعصا ٢٥ ضربة ، وبعد ذلك أنهضوه وأطلقوا سراحه. ووصلت فى هذه اللحظة إلى المكان داورية فرنسية قد أرسلت فى أثر البدوى ، ودهش القائد وسريته الصغيرة من أن الفلاحين قد قتلوا الحصان ولم يقتلوا اللص ، وسألوا عن سبب هذا الأمر العجيب ، وعندئذ أجاب أكبر الفلاحين سنا - عن طريق مترجم - بأنهم قتلوا الحصان عقابا للبدوى ، وبأنهم استبقوا البدوى حتى لا يعرضوا أنفسهم لحق لا يمكنهم الإفلات منه ، وهو حق تعويض الدم .

وإذا كانت الشراسة والعناد اللذان يبدوان فى طباع البدو الحقود ، يكفيان لتقديم فكرة سيئة عن أخلاقيات هؤلاء القوم ، فإن من الصعب أن يكون حكمنا عليهم بأفضل من ذلك إذا ما نظرنا إلى أخلاقياتهم بمعيار الصفات الحميدة والفطرة السليمة . ولقد قدموا لنا أثناء مدة الحملة أكثر من دليل على ما يمكن للمرء أن ينتظره وأن يخشاه منهم ، لكننا نكتفى هنا بأن نروى الحكاية التالية لأنها تقدم لنا أمرا من أكثر أمورهم غرابة .

بعد عدة أيام من عملية ١٤ فلوريال (x) التى هزم فيها ٤٠٠من الفرنسيين وردوا خمسة وعشرين ألفا من البدو والمغاربة والفلاحين المتمردين ، جاءنا الشيخ مريك شيخ الأفراد لزيارتنا ، وسألناه أين كان وقت الأحداث ، فأجاب ببساطة «كنت على بعد ١/٢ فرسخ من ميدان المعركة مع كل أبناء القبيلة على خيولنا ومسلحين » - آه ! ، وماذا كنتم فاعلين بسلاحكم ؟ - «كنا سنبث الاضطراب فى صفوفكم بإعمال السيف فيكم ، وإكمال هزيمتكم لو دارت الدائرة عليكم» . وقد أدهشتنا هذه الإجابة لكنا تمالكنا أنفسنا وسألناه : ولكن ، ألسنا فى سلم معكم ؟

(x) الشهر الثامن من التقويم الرسمى لفرنسا ، ابتداء من ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ ، وقسمت بمقتضاه السنة إلى ١٢ شهرا ، بواقع ٣٠ يوما للشهر. أما الأيام الخمسة الباقية من السنة فقد عرفت بأيام الشعب وجعلت كلها أعيادا ، ويعرف اليوم السادس - فى السنوات الكبيسة- بيوم الثورة ، وقد قسمت الشهور إلى ثلاث عشريات ، وجعل اليوم العاشر من كل منها يوم عطلة. والأشهر الاثنى عشر هى: فنديميير ، بروميير ، فريمير ، نيفوز ، بليفوز ، فنتوز ، جرمينال ، فلوريال ، بريريال ، مسيدور ، ترميدور ، فريكتيدور. (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- هذا صحيح ، لكن لا ينبغى أن يدهشكم سلوكنا ، فطريقة البدو دائما هى الانقضاض على الضعيف - ولكن نحن ؟ نحن الذين صادقناكم ! - هذا صحيح ، لكن الصداقة بيننا لاتستمر إلا طالما أنتم أقوياء . ولقد أتيح لمبدأ الشيخ مريك هذا أن يطبق بتمامه بعد عام كامل ، فقد كان البدو قبل معركة هليوبوليس على استعداد للعمل لصالح العثمانيين ، بل إن قبائل عدة كانت قد انحازت بالفعل إلى صفوفهم ، ولكن ما أن تقهقر الجيش العثمانى حتى انقض هؤلاء الحلفاء الخطرون عليه ، ونهبوا مؤنه وأبادوا عددا كبيرا من جنوده ، حتى كادوا أن يأسروا الصدر الأعظم نفسه[1].

وعندما ذبح البدو والفلاحون المتحالفون معهم ، الحامية الفرنسية فى المنصورة وكانت تقدر بـ١٢٠ رجلا ، أتاح الحظ لجنديين من التابعين للواء الثالث أن ينجوا بحياتهما ، واصطحبهما البدو أسيرين ، وكان هذان البائسان بالإضافة إلى ثالث أمكنه الهرب هم كل من بقى من أفراد الحامية على قيد الحياة بعد الكارثة التى حلت . وبرغم كل شئ فنحن مدينون لهما بالمعلومات التى سنقدمها هنا- برغم النقص البادى فيها- حول مختلف عادات هؤلاء البدو.

كان معسكر القبيلة يقع على بعد ثلاثة فراسخ من المنصورة ، وقد أشاع الأسيران فى البداية أكبر قدر من الدهشة بين سيدات وأطفال إحدى القرى ، حيث توقف الذين كانوا يقتادونهما ليحصلوا لهما على بعض الطعام. وعندما وصل الأسيران إلى خيمة العربان ، أبلغا بأن ليس ثمة ماينبغى أن يخشياه على حياتهما. وبرغم ذلك ، فإن قيام هؤلاء الهمج بذبح أسير فرنسى آخر وفى برود تام

---

(١) ونحكى كذلك الحكاية التالية وهى إن كانت لا تضيف شيئا إلى ماذكرنا فإن لها جانبا فكاهيا لحد ما . فى أثناء معركة دارت بين البدو الحامين لدمنهور مع بدو آخرين حماة لقرية سرنباى ، ذهب الأولون للاستيلاء على ماشية القرية الأخيرة ، ورد الآخرون على الشر بالشر فانتهبوا دمنهور ، وبرغم قصر مدة المعركة فإنها قد تركت البلدتين بلا ماشية على الإطلاق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أمامهما ، لم يوح لهما بكثير من الثقة فى مثل هذه الوعود . ولم يفرض على الأسيرين القيام بأى عمل ، بل لقد قضيت لهما بعض طلباتهما .

وقد لاحظ الأسيران أن طعام القبيلة شديد البساطة ، فكمية من العدس وبعض البقلاوة تقدم فى طبق يشبه المقلاة ، أوبعض الحب المجروش المغلى وعليه شيء من الزبد يكفى وجبة لرجل ، وفضلا عن ذلك فهذه الأصناف تقدم بكمية قليلة للغاية . وقد تبين للأسيرين أن أهم شخص فى القبيلة - برغم مكانته وثروته ، وهو يرتدى قماشا من الحرير ، ويتمدد على حشية ، ويغير باستمرار من ملابسه - لم تكن تقدم له أية طقوس تدل على الاحترام ، كما أنه يأكل مع الجميع دون تمييز ، وكان هذا الرجل يتناول القهوة مع عدد صغير من أبناء القبيلة . كما شاهد الأسيران عددا كبيرا من العربان يدخنون الغليون ، وكانت ملابس هؤلاء لاتختلف فى شئ عن ملابس البدو الآخرين الذين سبق أن تحدثنا عنهم.

وفى أثناء الفترة التى أقامها الأسيران فى معسكر هؤلاء العربان ،لاحظا أن هؤلاء يغيرون من أماكنهم باستمرار ، ولكن دون أن يبتعدوا كثيرا عن المكان الذى تركوه ، وكانوا يهدفون بتنقلهم هذا الحصول على المراعى اللازمة لقطعانهم الكثيرة.

كانت القبيلة فى مجموعها تمتلك حوالى المائة من الخيول ، ومثلها من الجمال، وأعدادا هائلة من الغنم والماعز والماشية كبيرة الحجم ، تلك كانت كل ثروتها . وكانت نفس الخيمة - حسب أقوال الأسيرين - تضم الأسرة بأكملها بلا تمييز بين سن أوجنس ، فكان الأب والأم والأطفال يقضون النهار والليل معا ، دون أن يكون ثمة فاصل بين هذا أو ذاك من أفراد الأسرة . ولم تكن النساء متحجبات ، وكن يلبسن فى آذانهن أقراطا من المعدن وأساور . وكان أزواجهن يعاملونهن برقة ، وعندما كن يلمحن الفرسان عائدين من تجوالهم ، كانت كل واحدة من أولئك اللاتى يشارك أزواجهن فى هذا التجوال تهرع للقائه ، وتبدى له أكبر أمارات الابتهاج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والفرحة إذا كان يحمل معه أسلابا ، أما إذا كان قد عاد خالى الوفاض فإنها تلقاه فى صمت. وكانت الأسلاب توزع بين أولئك الذين شاركوا فى الغارة .

وكانت النساء والرجال – وبخاصة الرجال – يؤدون صلوات عديدة ، ودين القبيلة هو نفس دين محمد ، ولكن مع شئ من الخلط برغم أنه لم يكن بمقدور الأسيرين أن يلاحظا ذلك.

ويبدو أن النساء أكبر عددا من الرجال ، وهن يشتغلن فى عمل قماش الخيام. والأطفال كثيرو العدد ، وترضعهم أمهاتهم حتى سن السنتين أو ثلاث سنوات ، ويظلون عراة تماما حتى سن السادسة أو الثامنة ، وفى هذه السن ترتدى البنت قطعة من القماش – أو قميصا – حول خصرها . والرقص هو اللعبة المفضلة عند هؤلاء الأطفال ، وهو عبارة عن القفز بشكل دائرى مع تحريك الخصرين وكل منتصف الجسم بطريقة خليعة . وهم يرقصون معا بينما يقومون فى نفس الوقت بالغناء .

وهؤلاء العربان ، وبخاصة نساؤهم ، كثيرو الكلام ، وتدور بين النساء مشاحنات عديدة تنتهى على الدوام بالصلح بينهن بعد جلبة وصيحات كثيرة . واحترام المسنين هو أحد الفضائل الأساسية لهذه القبيلة ، ويشعر الأولاد نحو والديهم بتقديس كبير . وأمراض العيون هى على وجه التقريب المرض الوحيد الذى يصيب هؤلاء العربان ، فلم نر من بينهم لامقعدا ولا كسيحا ، والأدوية التى يستخدمونها بالغة البساطة . وهم يجبرون الأطراف المكسورة بربطات منفرة وخشنة. وهم يعمرون حتى يبلغوا سن الشيخوخة الطاعنة ، ونادرا ما يعانون من الأمراض التى تهاجمنا مع تقدم السن .

ولنا أن نشعر بالأسف ، لأن الأسيرين لم يستطيعا ملاحظة الاحتفالات الجنائزية للقبيلة ، وكذا بعض العادات الأخرى المثيرة للفضول . هذا كل ما أمكنهما أن يخبرانا به ، ونضيف إليه هنا بعض الأمور التى تتصل بالعربان بوجه عام ، حتى نفرغ مما ينبغى أن نقوله بشأن هذه الشعوب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد لوحظ أن عربان الصحراء الغربية – وبخاصة فى ضواحى الأسكندرية – كانوا أحسن تسليحا ، وأكثر شراسة من عربان الصحراء الشرقية . ويعود هذا الاختلاف بشكل أكيد إلى السهولة التى يجدها عربان الغرب فى التزود بالأسلحة والذخائر من الأسكندرية ، كما أن فرصتهم فى التزود بالسلاح أكبر ، حيث إن الإتاوة التى يحصلونها من الحجاج الذين ينزلون من البحر إلى الأسكندرية أكبر بكثير من تلك الإتاوة التى يحصلها العربان الآخرون ، ذلك لأنهم هم أول من ينبغى أن يدفع لهم . وفضلا عن ذلك فإن مايؤدى إلى جعلهم أكثر انعزالا عن غيرهم من العربان هو أن ولاية البحيرة لاتجذب انتباه الحكومة بشكل كاف ، إذ إنها أقل خصوبة وبالتالى أقل إنتاجا من باقى الولايات .

وينقسم العربان فيما بينهم – من حيث طريقة السكنى – إلى عربان يقيمون فى خيام وعربان يقيمون فى منازل ، وقد يبدو هذا القول من قبيل تحصيل الحاصل ، لكننا هنا نلفت النظر إلى أنه ثمة من بين البدو – حتى هؤلاء الذين يتميزون بالشراسة وحب الحرب – مزارعون طيبون بؤساء يقيمون فى قرى فقيرة، ويزرعون على التخوم بعض مساحات من الأرض القابلة للزراعة . وتسكن بقية القبيلة فى الخيام ، حيث تناسب هذه الطريقة بشكل أفضل تقاليدهم العسكرية ، وحيث إنها كذلك تسهل غاراتهم ، وتسمح لهم بأن يغيروا مكانهم بحرية حتى يعثروا على المراعى الضرورية لإطعام قطعانهم .

ويشكل العربان المرابطون طبقة أخرى من العربان الطلقاء ، وهم يعيشون على زراعة بعض الأراضى المهجورة ، وعلى تجارة الماشية . وهم فى أوقات الحصاد ، يساعدون الفلاحين فى أعمالهم فى مقابل أجر ، كما أنهم يقومون أيضا بنقل البضائع ، ويؤجرون جمالهم للفلاحين ومتعهدى المواكب ، ويجلبون إلى المدن منتجات كثيرة من داخل البلاد. ويسمى هؤلاء بالعربان المسالمين ، وهم بالتأكيد يستحقون هذه التسمية ، إذ ليس ثمة ماهو أبسط ولا أكثر براءة وفطرة من طريقتهم فى الحياة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقطن مناطق من ولايتى الشرقية وقليوب أعداد كبيرة من قبائل البدو ، وبعض هذه القبائل رُحَّل ، وبعضها يمكن القول بأنه متوطن . ولاتختلف تقاليدهم فى شىء عن تقاليد الآخرين ، لذا فلن ندخل بشأنهم فى تفاصيل تعد من قبيل الحشو . وقد قدمنا فى الفصل الأول أسماء القبائل ومقدار القوة الحربية لكل منها .

٩

الحمامات العامة

يمكن أن نحصى أكثر من مائة حمام بالقاهرة ، يواظب السكان على الذهاب إليها - وبخاصة فى الشتاء - حتى يتسقوا مع أحكام شريعتهم . إذ يسمح الصيف للطبقة الدنيا منهم بالتطهر والاغتسال فى النهر حيث تكون مياهه شبه فاترة ، أما الشتاء ببرده فإنه يحرمهم من هذه الوسيلة الاقتصادية . وهنا يتوجه إلى الحمامات - حوالى مرة كل أسبوع - أولئك القادرون منهم ، ليحصلوا بمصاريف زهيدة على متعة يطمح إليها الفقراء والأغنياء معا .

أما رجال الطبقة الممتازة ، أو بالأحرى أولئك الذين يحوزون ثروة كبيرة - حيث إن السلطة فى مصر أكثر منها فى البلدان الأخرى ترتبط بدرجة الثراء - فإنهم يمتلكون فى بيوتهم حمامات خاصة . وبرغم ذلك فإن هذا لايمنعهم من أن يلتقوا بين الحين والحين فى الحمامات العامة ، ليروحوا عن أنفسهم فيما بينهم . كما يذهب إلى الحمامات العامة كبار رجال السلطة ، ولنفس الغرض ، وفى هذه الحالة ، يخطر مدير الحمام فيكف عن استقبال أى وافد ، ويقوم باستدعاء فرقة موسيقية وإعداد وجبة شهية ، ويظل هؤلاء هناك يروحون عن أنفسهم حتى حلول المساء . ويحصل مدير الحمام دوما على ما يكفيه لحد الرضا من كرم هؤلاء السادة الكبار ، إذ يدفعون له عند خروجهم فى مقابل كل بارة يحصل عليها من أبناء الطبقات الشعبية قطعة من الذهب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويذهب إلى هناك أيضا ، المماليك الذين لم يصلوا بعد لمرتبة الحكم ، ويقودهم إلى هناك الخزنة دار ، وتقدم لهم فى بعض الأحيان وجبة حافلة ، ويروحون كذلك عن أنفسهم.

ويوجد بكل حمام مغطس ملئ بمياه شديدة السخونة ، وبعد أن ينتهى المرء من استحمامه يغطس فيه للحظات . وطريقة الاستحمام التى تتبع هناك تختلف عن طريقتنا نحن فى ذلك ، فبعد أن يدخل المرء ، يستقبله الخدم فى الحجرة الأولى حيث يودع ملابسه ، ويعقد حول جسمه فوطة بسيطة ، ثم يقاد إلى ممر يشعر وهو سائر فيه بوهج الحرارة يشتد شيئا فشيئا لتصبح قوية عند اقترابه من الحجرة الثانية ، وهناك يجد نفسه وسط سحابة من بخار ساخن معطر يخترق مسام كل جسمه ، ويرقد على قطعة من قماش صوفى ، فيقترب منه على الفور خادم يلبس فى يده قفازا ، أو يمسك بفوطة من صوف ناعم . وعندما يتأكد أن البخار قد اخترق كل المسام بشكل كاف ، وأحدث بالأطراف نوعا من الليونة ، يبدأ بأن يطقطق كل مفاصل الوافد ، وتكاد هذه العملية لاتسبب سوى ألم خفيف تعوضه تلك الليونة التى تحدثها بعد ذلك فى حركة الجسم ، ويستطيع الأوربيون الذين لم يعتادوا مثل هذه العملية ويخشون نتائجها ، أن يرفضوها بمطلق حريتهم.

وبعد ذلك يدلك الخادم الجسم بالقفاز أو قطعة الصوف التى بيده ، ويكون التدليك قويا لحد يظن معه المرء أن جلده سينفصل عن جسمه . ويتوالى سقوط خيوط سوداء ، إذ يتخلص الجسم من كل الوساخات التى كانت عالقة به ، بل إن المسام نفسها تتخلص من أقل شئ يمكن أن يسدها . وفى أثناء هذه العملية يكون النزيل الصبور غارقا فى عرقه ، ثم يقتاد بعد ذلك إلى حجرة مجاورة ليبقى وحده، ويغتسل بمياه تأتى من عينى مياه : إحداهما ساخنة ومياه الأخرى باردة ، ثم يرتدى قميصا ليعود فى النهاية إلى الحجرة الأولى ، حيث يقدم له الخادم وهو جالس على أريكته النارجيلة وفنجاناً من القهوة . وعندما يحين خروجه تكون ملابسه قد تعطرت بدخان خشب الصبر ، وترش رأسه وكل جسمه برغاوى صابون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معطر ، أما النساء فيستخدمن فى نهاية حمامهن عجينة تنزع كل الشعر الزائد من جسمهن(١).

ويقوم مدير الحمام بتعطير الحجرات وإعداد ماء الورد ، ويحصل عادة مقابل كل هذه الخدمات على مايكفيه إذا كان رواده من الأثرياء . ونادرا مايكون مكان الاستحمام واحدا بالنسبة للجنسين ، إذ ينقسم المبنى إلى قسمين لكل منهما مدخل مستقل . وفى الحالة الأولى يخصص لكل من الجنسين موعد خاص. وتذهب النساء عادة إلى الحمام فى وقت متأخر ، وما أن يدخلن حتى تعلق قطعة قماش مطرزة أو سجادة لتنبه الجمهور إلى حضورهن . ومنذ ذلك الوقت لايمكن لأى رجل أن يدخل ، ويستبدل بكافة الخدم الذكور على الفور وبدون استثناء خادمات ، وإذا دخل رجل برعونة إلى حمام وقت وجود النساء فسوف تحدث ضجة شديدة ، ولايمكن له إلا أن يدفع ثمن رعونته.

ومن جهة أخرى ، فعلى الرغم من أن عادات الشرق وتلك القسوة التى يبديها المشرع ضد النساء ، تنهض على الشك وعدم الثقة فى المرأة ، فإن هذه القسوة تخف حدتها شيئا ما عن طريق الحرية التى منحت للنساء فى التجمع بالحمامات ، فهذا التجمع هو على نحو ما عيد تستخدم فيه النساء كل زينتهن وأناقتهن ، حيث لا أمل لهن فى جذب انتباه الرجال وسماع العبارات التى تطرى جمالهن - ذلك الأمل الجميل لجنسهن كله - مادمن لايظهرن فى محفل عام دون أن يكون رأسهن ووجههن بل وجزء من نصفهن الأعلى مغطى بالطرحة . ومع ذلك فهذه البهجة التى تحملهن على التباهى والتفاخر بفخامة ملابسهن وروعة زينتهن هى واحدة من الانتصارات التى ترضى غرور كبريائهن ، فما أن يدخلن الحمام حتى يسارعن بإسقاط تلك الأقنعة المزعجة ، ليستعرضن تحت نظر رفيقاتهن بريق حليهن ، وغاية كل منهن بل ومطمحها أن تخسف بجانب جمالها جمال الأخريات ، بعدد

---

(١) ينبغى على المرأة المسلمة ألا تستبقى سوى شعر الحاجبين والرموش ، وهى عادة شبه دينية توجب عليهن التخلص من بقية شعر الجسم .

قطع النقود الذهبية المدلاة من خصلات شعرها ، وبروعة الماسات والحلى التى تتزين بها ، وبالفساتين الغالية التى ترتديها. ومع ذلك فهذا الإشباع البسيط للكرامة والكبرياء الأنثوى تحرزه أية واحدة منهن بعدد قطع النقود الذهبية المدلاة من خصلات شعرها ، وبتلك الروعة التى تكفى لكى تقتل من الغيظ اثنتين أو ثلاثا من منافساتها ، فأمام من سوف تتباهى بتفوقها ذلك [1] ؟

ولاتختلف الخدمة التى تحصل عليها المرأة ولاطريقة استحمامها عما قلناه بخصوص الرجال ، فيما عدا أن قطعة الصوف التى يدلك بها الجسم تكون أكثر نعومة لحد طيب ، وأنهن يستهلكن قدرا كبيرا من الصابون . وتسرف سيدات الطبقة الراقية فى استهلاك العطور وماء الورد ، وهو ترف لاتقدر عليه الأخريات حتى فى أيام العرس والأفراح[2] .

(١) لا يسمح للرجال كما سبق القول بدخول الحمامات التى بها نساء ، والرجال الوحيدون الذين يتمتعون بهذه الميزة هم الموسيقيون ، ويختارون من بين العميان المسنين ، ويمكن القول إنهم يعطون المرأة تلك الفرصة الفريدة للاستماع إلى أصوات الذكور.

(٢) يمكن أن يكلف إيجار الحمام بدون أثاثات من أى نوع متعهده فى اليوم الواحد من ٦٠ إلى ١٨٠ بارة حسب موقع وجمال وفخامة المبنى ، ويلزم ١٠٠ بوطاقة لأكثر الحمامات تواضعا . ولتأثيث حمام بشكل لائق ، أى ليكون فى مستوى معظم حمامات المدينة ، فإن ٢٠٠ – ٣٠٠ بوطاقة تعتبر مبلغا كافيا . وتبلغ مصاريف الحمام المعد جيدا من ٨٠٠ – ١٠٠٠ بوطاقة ، وتتكلف صيانة الأثاث فى اليوم الواحد ١٠ – ٤٠ مدينى ، ويتكلف إطعام الحيوانات المستخدمة ٢٠ مدينى (ويدخل ثمن شراء هذه الحيوانات ضمن المبلغ المقدر للتأثيث) ، وتجفيف الحمام ودفع أجور العاملين به يلزم مبلغ ١٢٠ – ١٨٠ مدينى يوميا ، يحصل منها الحارس وحده على ٣٠ بارة. ولا يحصل خدم الحجرة الأولى على دخل ثابت ، فهم لا يتلقون أجرا إلا ما يحصلونه من هبات الرواد ، أما القائمون بالخدمة فى الداخل فيحصلون على ثلثى أو نصف أو ثلث ما يدفعه الرواد ، ويبلغ عدد خدم الحمام الواحد ١٢-١٣ خادما.

وفى منشأة من هذا النوع يبلغ عدد الوافدين ٥٠ –٦٠ شخصا فى اليوم الواحد ، وأحيانا يزيد العدد عن ذلك ويدفع عن الحمام الكامل كحد أقصى ٢٠ – ٣٠ بارة ، ويحصل العامة على حمامهم بسعر أقل ، فلا يدفعون أكثر من ٨– ١٠ أو ١٥ بارة على الأكثر. ومما يعوض المتعهد عن ذلك زيارات الكبار ، فهم يدفعون بسخاء كما سبق القول . ويمكن أن نعمم ما قلناه على كل الحمامات فى مصر ، إذ هى لا تختلف إلا من حيث درجة فخامة المبنى ، لكن طقوس الحمام وتكاليفه تكاد تكون هى هى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٠

المقاهى

تضم مدينة القاهرة حوالى ١٢٠٠ مقهى بخلاف مقاهى مصر القديمة وبولاق، حيث تضم مصر القديمة ٥٠ مقهى ، أما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المائة. وليست لهذه المبانى أية علاقة بالمبانى التى تحمل نفس الاسم فى فرنسا إلا من حيث استهلاك البن ، على الرغم من أن هذا المشروب يُعَد ويُشْرب بطريقة مختلفة . فليس فى هذه المبانى أثاثات على الإطلاق ، وليس ثمة مرايا أو ديكورات داخلية أو خارجية ، فقط ثمة منصات (دكة) خشبية تشكل نوعا من المقاعد الدائرية بطول جدران المبنى ، وكذلك بعض الحصر من سعف النخيل ، أو أبسطة خشنة الذوق فى المقاهى الأكثر فخامة ، بالإضافة إلى بنك خشبى عادى بالغ البساطة ، تلك فقط هى أثاثات المقهى المصرية . وهناك يضطجع المترددون على الحصر التى تغطى تلك المنصات الخشبية ، وتقدم القهوة مغلية فى فناجين يبلغ حجمها ثلث حجم مانستخدمه نحن من فناجين ، ولا تشرب القهوة إلا ملتهبة ، لكنهم يرشفونها، وتلك عادة شائعة فى الشرق تتطلب نوعا من التعود . وتوضع الفناجين فى صحون صغيرة من النحاس ، تشبه الآنية المصنوعة من الخزف والتى نعرفها باسم : ظرف البيض ، ويسميها العرب باسم: ظرف . أما الفناجين فهى أحيانا من البورسلين وتستورد من ألمانيا ، أو هى فى الغالب من الخزف وتزينها عدة نقوش ، وهى تستورد كذلك من ألمانيا . ويكاد يكون استخدام السكر فى صنع القهوة غير معروف ، وعندما وصل الفرنسيون إلى مصر ظل الأهلون لفترة طويلة يسخرون من تعودهم على وضع السكر فى البن. وفى نفس الوقت ، يحتفظ مدير كل مقهى بعدد كبير من النارجيلات ، مبسمها من العظم أو من الرخام أو الألبستر (الرخام الشفاف) بدلامن الكهرمان الأصفر ، ويعدها للزبائن الذين يطلبونها ، وينبغى على كل مرتاد أن يحمل معه تبغه ، بل إن المعتادين على التدخين نادرا مايسيرون دون غلايينهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتخضع مقاهى القاهرة للإشراف المباشر لرئيس يشترى لنفسه حق التزامها ، وتدفع له كل المقاهى رسما صغيرا من بداية السنة التركية «الهجرية» (أول المحرم) ، ويبلغ هذا الرسم ١٠ -٤٠ مدينى ، وتعفى من دفعه المقاهى الفقيرة . ويستطيع كل من يريد أن يبنى مقهى أن يفعل ذلك بمطلق حريته ، لكنه لا يستطيع مباشرة العمل فيها قبل الحصول على تفويض من المشرف على الحرفة ، إذ هو على نحو ما مكلف عادة بالإدارة الداخلية والإشراف على هذه المنشآت ، كما أنه ملزم بتقديم مرتكبى المخالفات من أبناء هذه الحرفة إلى العدالة . وتوكل مهمة الإشراف هذه عادة إلى أغا الانكشارية (الكخيا المتولى) الذى يدفع حق هذا الالتزام إلى السلطة.

ويتردد على المقهى الفخم مابين مائتين إلى مائتين وخمسين فردا فى اليوم الواحد ، ويتناول الفرد عادة فنجانين إلى ثلاثة فناجين من القهوة فى مقابل بارة ونصف للفنجان ، وثمة أناس - فقراء مع ذلك - يبلغ استهلاكهم فى اليوم الواحد عشرين فنجانا ، لكن الاستهلاك المعتاد يبلغ من ٦ - ٧ فناجين ، ويكسب مدير المقهى كثيرا إذا كان زبائنه من الأثرياء.

وثمة كثير من المقاهى يباع فيها الأفيون ، وهو نوع من المعجون المخلوط بالأعشاب ، وتتخذ الطبقة الدنيا من الشعب من هذه العقاقير وسيلة للسكر والانتشاء ، ويعتاد عليه ثلثا عدد الحرفيين ، وكذا الأمر بالنسبة للفئات الأخرى من السكان . وهم يسكرون داخل بيوتهم بالرغم من أن الدين يحرم ذلك . ويعتقل البوليس و يعاقب السكارى الذين يكون هذيانهم بالغ الصخب، وفيما عدا ذلك لايضايقهم أحد ، ويكونون بمثابة تسلية بهيجة للناس بسبب هذيانهم وحركاتهم المجنونة[١].

---

(١) لا يشبه السكر الناتج عن الأفيون ذلك السكر الذى تحدثه الخمور ، فعندما تتخدر حواس رجل ما بفعل الأفيون فإنه يبدو فى حالة شديدة من البهجة ، ويضحك بصوت عال ، ويكون هذيانه عادة =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويوجد في كل مقهى عدد من الرواة والمنشدين ، يحكون أويغنون حكاية صحيحة أو وهمية عن شخصية خارقة ورد اسمها في النصوص الدينية أو التاريخ الإسلامي ، ويكون الإلقاء عادة حيا مليئا بالقوة والحيوية ، كما أن الأغنيات تمتلىء بعبق الشعر ووهجه ، وتكون نغمة الحكي مرتفعة أما نغمة الحوار فمتوسطة ، ويتوقف الراوى في معظم الأحيان ليسأل مستمعيه ما إن كانوا يشكون في صحة حكاية ، أو ما إن كانت حكايته (في مجملها) جميلة أو خيرة . ويزيد منشدو المقاهي هؤلاء حكاياتهم حيوية عن طريق حركات بالغة التعبير ، ويصحبونها أو يسبقونها بموسيقى غريبة تصدر عن آلة موسيقية وترية . وهي مصنوعة من الجلد ، ويحك العازف بقوسه الشعرات المشدودة بالآلة والتي تستخدم كأوتار ، فتصدر نغمات خشنة صماء . ويدفع مدير المقهى في بعض الأحيان لهؤلاء المنشدين ، لكنهم في العادة لايحصلون من أجر إلا ما يدفعه الجمهور عن طيب خاطر . وتاريخ الأسكندرية وجنكيز خان هو الموضوع الذي يستوحي منه هؤلاء المنشدون العرب مادة أغنياتهم ، ويضيفون إلى ذلك ألوف الحكايات الرائعة ، بالإضافة إلى قصص المعارك البطولية التي يغترفونها من أحداث بلادهم.

ويستدعي المماليك من الطبقة الحاكمة والمشهود لهم بالشجاعة هؤلاء المنشدين إلى منازلهم ، ويكافئونهم بسخاء.

وفي المقاهي الفخمة تسمع أحيانا ألحاناً من تلك الألحان الشائعة في مصر ، يؤديها بعض الفنانين الذين يحصلون على أجورهم من أصحاب المقاهي ومَنْ

=

مرحا . وفي بعض الأحيان يغرق في أحلامه السعيدة ، وفي أحيان أخرى يُشْرك معه الناس في أحلامه وسعادته ، وقد يتخيل نفسه سلطانا أو شيخ بلد ، كما قد يظن نفسه أحيانا ممتطيا صهوة حصان ، ويطلب من الآخرين أن يعاونوه على وضع قدمه على الأرض.

وإذا ما عارضه أحد فإنه لا يغضب مطلقا ، وإنما يصبح جبانا يفزعه أقل صوت . ونراه ينتقل من أشد حالات الابتهاج والمرح إلى أشد حالات اليأس والحزن، فيبكي ويعول ويسقط في غيبوبة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتطوع من الزبائن . وفى هذه الحالة يستمع الرواد فى صمت ، بحيث لاتسمع صيحة ولاضجة ، ويبدو الفنان وهو يؤدى أغنية غارقا فى حلم عميق ، وهذا واحد من الملامح المميزة للطبع الشرقى. وفى بعض الأحيان يتنافس شخصان أو عدد أكبر على دور شطرنج ، ويخيل إليك وأنت تشاهدهم مندمجين فى اللعب أنهم بُكْمٌ قد حرموا من نعمة الكلام ، ويتطلع المتفرجون دون أن ينبسوا بكلمة أويهمسوا بفكرة ، ويمضى الأمر فى شكل تمثيل صامت (بانتوميم) إلا إذا جاء إلى المقهى مخمور أو فاقد وعيه ليعكر صفو هذا الهدوء ، وليدخل على اللاعبين ومشاهديهم البهجة بأفانين هَذَيانه(١).

١١

الرياضة والألعاب

تتفق ألعاب الشرقيين مع حدة طباعهم ، ونستطيع أن نتعرف فيها على ذوق شعب مولع بالتفكير ، يعجبه أن يتأمل حتى وهو يمارس ضروب اللهو التى يهواها: فالطاولة والضامة والشطرنج هى الألعاب التى يفضلها المصريون ، وهى كذلك الألعاب التى ينغمس فيها أبناء الطبقات الراقية على وجه الخصوص ، والتى يفضلها الشعب بصفة عامة على بقية اللعبات . وتتمتع الشطرنج بشكل خاص

---

(١) قدمنا فى فقرة سابقة فكرة تقريبية عن المصاريف اللازمة لإدارة وتأثيث حمام عام ، ونفعل الآن نفس الشئ بالنسبة للمقهى ، علما بأننا قلنا كلمة موجزة عنها فى الفصل الأول . يبلغ ثمن أثاثات أجمل مقهى بالقاهرة عندما لا يكون قد سبق استعماله ٤٠ بوطاقة ، بينما لا يتجاوز ثمن أثاث المقهى المتواضعة ١٠ – ١٢ . وهو عبارة عن : ٧ – ٨ حصر ، ١٥ كنكة قهوة ، ١٥ فنجانا من الخزف ، عدد من الفناجين الصغيرة والظروف النحاسية التى يوضع فوقها الفنجان ، تلك هى كل الآنية التى ينبغى شراؤها ، ويلزم زيادة على ذلك ٢٥ – ٣٠ بارة يوميا ثمنا للخشب ، ورطلين من البن يبلغ ثمن الرطل ٤٠ بارة ، ونفقة خادمين ومدير المقهى . وهذا كله شئ بالغ الضآلة ، لذا فإن حالة القهوجى بائسة جدا فى مصر . وقد رأينا مقهى بكامل أثاثها تؤجر فى اليوم الواحد بمبلغ ٧ – ١٥ بارة ، ويتعهد المستأجر بصيانة الأثاث .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بتفضيل الجميع ، والناس هناك شديدو الولع بهذه اللعبة ، وليس من النادر أن ترى لاعبين متنافسين يقضيان فى الدور الواحد أياما بأكملها. ورقعة الشطرنج شأنها شأن الدمى شديدة البساطة ، ولايعود ذلك إلى أن المسلمين ينفرون من الصور والرسوم فحسب ، بل لأن صناعهم فى نفس الوقت ليسوا شديدى المهارة ، كما أنهم لايحصلون فى مقابلها على أجر يتناسب مع ما يبذلونه فى صنعها من جهد إذا ماعنوا بتجويد عملهم(١). ورقع الشطرنج والضامة المصنوعة من الخشب الثمين لايستخدمها إلا الأثرياء وكبار القوم ، أما أبناء الطبقة الشعبية فيستخدمون قطعة قماش خيطت فوقها مربعات من قماش الجوخ من ألوان مختلفة ، وتستخدم قطعة القماش هذه كرقعة للعب ثم كعلبة توضع فيها الدمى بعد انتهاء اللعب.

وثمة ألعاب مهارة أخرى تتطلب شيئا من التأمل ، وتنتشر هناك لعبة المنقلة ، ويلعبها اثنان ، مع كل منهما لوحان حفرت فيهما ستة ثقوب ، ويضع اللاعبان فى كل ثقب من هذه الثقوب ست قطع من الحجارة أو مثلها من الزلط . ثم هناك تلك اللعبة التى يطلق عليها العرب اسم طاب ، والتى تحدث عنها كثيرا العلامة Th.Hyde ؛ وهى بدورها منتشرة بين الشرقيين . وتلعب بواسطة دمى مختلفة الألوان ، عددها فى سوريا ٢١ وفى مصر ١٩ أو ١٧ ، لكن عددها على الدوام فردى ، وتوضع فى الصف الخارجى عند بدء الدور، وقد شاهدنا هذه اللعبة عند بعض المارونيين فى القاهرة . كان ثمة رقعة بها أربعة صفوف ، فى كل صف ٢١ مربعا ، ويمسك كل لاعب بأربع من العصى الصغيرة والمسطحة : سوداء من جانب وبيضاء من الجانب الآخر. وعندما تتم اللعبة فى الهواء الطلق تلقى هذه العصى على سكين مغروسة فى الأرض ، وعلى مسلة مرشوقة فى كنبة عندما يلعبها

---

(١) ومع ذلك فقد رأينا فى مصر رقع شطرنج بالغة الفخامة ، ومصنوعة بشكل جيد لحد لا يمكن أن تصنع مثيلاتها فى أوربا بسهولة . وهى مصنوعة من العاج وخشب الأكاسيا ، وكل ما فيها منفذ بشكل بديع ، ورسوماتها بالغة الجمال حتى ليندهش المرء كيف لا يلقى مثل هذا الفن ما يستحقه من رعاية ، ولا يملك مثل هذه الرقع الجميلة إلا الأثرياء وكبار القوم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاجران داخل متجرهما . وعند بدء اللعب يختار أحدهما اللعب عن اليمين ، ويختار الآخر اللعب عن اليسار ، بهدف أن تتقابل الدمى . وعندما يحصل الأول على طاب أوثلاثة أبيض وواحد أسود[1] يحرك قطعة من قطعه الموجودة بالمربع الأول من صفه إلى المربع الأول من الصف الثانى من جهته ، فإذا لم يحصل على طاب يحل الدور على الثانى ، وهكذا حتى يحصل أحدهما على طاب . ولايمكن تحريك أية قطعة من الصف الخارجى لأول مرة إلا بعد حصول صاحبها على طاب . وهذا بيان بالنوبات الأخرى :دق اثنين :أى اثنان أبيض واثنان أسود ، وفى هذه المرة تحرك القطعة التى سبق تحريكها فى الطاب الأول لمربعين ، دق ثلاثة أى ثلاثة أسود وواحد أبيض ، وفى هذه المرة يمكن تحريك الدمية لثلاث مربعات ، أربعة أسود وبعدها تتحرك الدمية أربعة مربعات ، ستة أو أربعة أبيض وتكسب ستة مربعات، واللاعب الذى يحصل على طاب أربعة أو ستة يستمر فى اللعب ويحرك دماه ، واللاعب الذى يدفع دماه كلها فى الصف الثانى يتدرج بها فى الصف الثالث ، وهكذا بالتبادل بين هذا وذاك حتى يتخلص أحدهما من دماه.

ويلعب الأتراك والعرب أيضا لعبة بالزوج والفرد. وقد شاهدنا فى القاهرة بعض المسيحيين من أهل البلاد يثبتون على الأرض قطعة من الفضة ، ويحاولون لمسها بكرة صغيرة ، وثمة قاعدة تنظم الحالات التى تتقابل فيها كرات اللاعبين ، لكنا للأسف قد أهملنا تدوين القواعد التى تنظم هذه الألعاب ، ولعل الكثير من قرائنا سوف يغفرون لنا عن طيب خاطر هذا التقصير من جانبنا.

وركوب الخيل هو الرياضة المفضلة عند العثمانيين وكبار الأتراك، وهم فى هذه اللعبة ينمون بالدرجة الأولى مهارتهم الحربية ، إذ يتجمع كبار الشخصيات فى القاهرة مرتين فى الأسبوع فى ميدان واسع يسمى المصطبة ، ويصحبون معهم أعدادا كبيرة من العبيد والخدم ، وكلهم يركبون الخيل مثل سادتهم ، ويتدربون

(١) يقول Th.Hyde: ثلاثة أسود وواحد أبيض ، إذن فأحدنا قد فهم الأمر على نحو خاطئ ، أو لعل قواعد اللعبة هى التى تتغير تبعا للبلاد التى تنتشر فيها.

على الجريد . وينقسمون إلى فريقين ، يحمل كل منهما على الآخر بأقصى سرعة، وكل واحد مسلح بعصا من الجريد طولها أربعة أقدام ومتوسطة السمك ، ويقذف بها منافسه أفقيا وبقوة شديدة . وثمة فرسان يبدون فى تدريبهم هذا من القوة والحيوية حدا يمكن معه لقذيفتهم تلك أن تكسر - فيما لو أصابت - عظام غريمه ، والمهارة هنا هى أن يتفادى الغريم عصا غريمه أو أن يتلقاها باليد ، وقد عرفت واحدا من الكبار انكسرت ساقه فى شبابه بهذه الطريقة. أما أولئك الذين يفضلون التدريب على إطلاق النار فيضعون أصيصا (بردك) فوق كومة من الرمال ، ويصوبون عليها بالبنادق وهم يجرون فوق خيولهم بأقصى سرعة. وهم يستخدمون فى هذا التدريب السهام بالرغم من أنه لا تنقصهم البنادق ، ولا يلجأ الرماة لتلك الوسيلة إلا لإجادة التصويب ، ذلك أن الهواء الذى يجذبهم بشدة عندما يجرون بأقصى سرعتهم سوف يمنع وصول الشرارة إلى الرصاصة فلا تنطلق ، بينما لا يوجد مثل هذا العيب عند التدريب بالسهام. ويتسلى السادة أيضا بجذب الأقواس، وتشاهد فى الميادين عمد صغيرة ، نصبت تكريما لأولئك الذين أظهروا فى التدريب قدرة خارقة للعادة . وعندما يبلغ ارتفاع النيل حدا معينا يتنزه الكبار فى قواربهم الفخمة ، ويمارسون التجديف فى بركة الفيل والأزبكية، وهناك يطلقون بنادق الرش ، ويصحبون معهم موسيقيين ليسروا عنهم أثناء نزهاتهم النيلية.

ويتدرب عامة الناس أيضا ، وهم فى هذا يقلدون الكبار ، فيفعلون على نطاق ضيق ما يفعله هؤلاء على نطاق واسع ، فقد شاهدنا على سبيل المثال خدم الشخصيات الكبيرة فى القاهرة يتدربون على قذف عصا طولها ٥ -٦ أقدام فى اتجاه أفقى ، وهم بهذا يهيئون أنفسهم لتدريب الجريد الذى سبق أن تحدثنا عنه ، وكانوا يمارسون تدريبهم وهم يجرون على أقدامهم حتى يكونوا أكثر مهارة عندما يحين وقت الرمى من فوق ظهر الحصان. ويتبارز أهالى المدن وكذا الفلاحون بعصا كبيرة مع مراعاة قواعد معينة ، وقد جرت العادة أن يقوم المتبارز فى بداية اللعب بحركات معينة ، هى بالتأكيد نوع من التحية ، يحاول بعدها كل من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتبارزين أن يضرب غريمه فى رأسه ، وهو العضو الوحيد فى الجسم الذى ينبغى استهدافه. وتتجلى المهارة فى تفادى الضربة ، وهذه المبارزة تشبه فن لاعبى العصا المشهورين فى نورماندیا وبريتاني. وثمة مصارعون مصريون يمسكون بعصا فى يدهم اليمنى وحشية صغيرة فى يدهم اليسرى ، ويوجهون الضربات إلى الذراعين فقط ، ويسمى هذا التدريب «لعب الكب» . وقد شاهدنا كذلك فى شوارع القاهرة مصارعين لا يرتدون من الملابس سوى سروال بالغ الضيق وكل جسمهم مدهون بالزيت ، ويتماسك هؤلاء المتصارعون ، ويحاولون أن يطرحوا بعضهم البعض أرضا ، لكن حركاتهم تنقصها القوة والحيوية والمهارة. وبعد دقائق طويلة يحدثون فيها بضع حركات - نسميها تجاوزا مجهودات - يدع أحد المتصارعين نفسه ليسقط ، وتنتهى بذلك المصارعة. وأمثال هؤلاء المصارعين لا يمكن لهم أن يتجاسروا على عرض مهارتهم تلك فى فارس ، حيث يبرع المصارعون هناك فى مثل هذه التدريبات الجسدية ، لكنهم يلفتون النظر فى مصر، وبرغم كل شئ ، فليس ثمة فى بقية ولايات السلطان من هم أكثر من هؤلاء مهارة.

١٢

الأعياد الدينية ، المبادئ الرئيسية للعقيدة الإسلامية

ترتبط أعياد المسلمين بمناسبات دينية . وفى مصر ، يحرص الناس على الاحتفال بعيد لا يتصل بالمعتقدات الدينية ، هو عيد فتح الخليج فى القاهرة ، أو عيد وفاء النيل ، وهو عيد وطنى ، يعود إلى أزمنة ضاربة فى القدم . أما بقية الأعياد فتتوالى بالترتيب التالى:

شهر محرم : عودة المحمل من مكة .

شرحه (كذا) : عيد مولد النبى .

الشهور التى تلى ذلك : احتفالات متوالية بمولد الأولياء .

آخر أيـــــام شعبان : ليلة أول رمضان ، ويعلن فى هذا العيد بدء الصيام

لمدة شهر قمرى له نفس الاسم (رمضان).

آخر أيام رمضان : عيد كبير يستمر ثلاثة أيام.

٢٧ شوال : سفر المحمل.

١٠ ذو الحجة : العيد الكبير ، ويتفق مع وصول الحجاج إلى مكة .

ويتصدر احتفال عيد الخليج الباشا ، وكبار شخصيات الحكومة ، مثل :شيخ البلد والقاضى والدفتردار أو مستشار الحكومة وكخيا الجاويشية ، وفرقة الانكشارية والكشاف وكل كبار الشخصيات . وعند الصباح يصل الباشا مع أهل بيته أى مع ضباطه ورجاله ، ويصل البكوات مع مماليكهم ، ويصحبهم جمهور كبير من الموسيقيين ويحتلون جزءا من الميدان ، وتغطى القوارب سطح الترعة . وتمتاز قوارب السيدات بفخامتها وبهوادجها التى تغلق عليهن بدافع الغيرة ، ويخلع الباشا جبة على كل من الأغا وبقية كبار الضباط ، ثم يعطى الإشارة ، وعندئذ يقوم عمال معدون لهذا الغرض برمى تمثال أو عمود طينى فى النيل وسط ضجيج الهتافات والآلات الموسيقية ، ثم يقطع السد ، وتتدفق مياه النيل على الفور فى شوارع المدينة لتصبح أشبه بالبحيرات ، وقبل أن ينسحب الباشا يلقى فى النهر بقبضة من العملات الذهبية والفضية ، يتسابق إلى الفوز بها غواصون مهرة ، وينقضى ما يتبقى من النهار فى أفراح ومسرات تستمر حتى الليلة التالية. ولهذا الاستبشار والابتهاج العام ما يبرره ، حيث إن الفيضان هو ضمان الازدهار للجميع ، فعندما يحل الفيضان يبدأ الناس يأملون فى محصول وفير ، بل يمكن القول بأنهم قد بدأوا يحلمون بما يعدهم به من منافع [١] .

وفى أيام العيد يقوم الممثلون المهرجون الذين يعرفون باسم البهلوانات بإمتاع

---

(١) تسمى الدمية التى تلقى فى النيل عروسة أى الزوجة الجديدة. ويعتقد أن هذه العادة تعود إلى ديانة قدماء المصريين الذين كانوا يخصصون فيما يقال عذراء شابة ليلقوا بها فى النهر ، حسبما يقول كثير من مؤرخى مصر القديمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجماهير بحركاتهم ودعاباتهم . ويمكن القول بأن ضروب اللهو لهذا الشعب تتجلى فى العروض الهزلية بل والمرتجلة إلى حد ما ، والتى يعرضها فى الشوارع مهرجون متجولون ، كما أنها تتجلى فى القفزات التى يعرضها بعض الحواة المهرة إلى حد ما فى فنهم. وقد شاهدنا فى شوارع القاهرة عدة مرات رجالا يلعبون العرائس ، ويلقى هذا العرض الصغير إقبالا كبيرا ، والمسرح الذى يستخدم لذلك الغرض بالغ البساطة وبالغ الصغر ، ويستطيع شخص واحد بمفرده أن يحمله بسهولة . ويقف الممثل فى المربع الخشبى الذى يمده بطريقة تمكنه من رؤية خشبة العرض والمتفرجون من خلال فتحات صنعت لهذا الغرض دون أن يراه أحد ، ويمرر دماه عن طريق فتحات أخرى ، ليجعلها تؤدى الحركات التى يريدها عن طريق خيوط يحركها على هواه ، وحيث إنه ليس من المناسب أن تصدر هذه الدمى أصواتا تماثل قوة صوته هو ، فإنه يجعل صوته الطبيعى حادا ، ويتم ذلك بواسطة أداة صغيرة يضعها فى فمه ، ويجعله بالغ الرقة ومصحوبا بأنغام الناى وقت الحوار الذى يديره على ألسنة هذه الدمى الصغيرة ، ويمضى الأمر على مايرام إذا لم تكن التمثيلية معيبة . وتبدأ الدمى عادة بتهنئة بعضها البعض ثم يتشاجرن بعد ذلك ، وتنتهى تلك التمثيلية الهزلية عادة بالشجار ، وفى الواقع فإن عددا كبيرا من المشاهدين يهوى هذا النوع من ضروب الترفيه ، ويضطر البهلوان لأن يجاريهم فى ذلك.

وقد رأينا واحدا من الحواة يجوب شوارع القاهرة ومعه صنبور متقطع ، أى تسيل المياه منه ثم تنقطع فجأة لتسيل لبعض لحظات . ويطلب الحاوى من صنبوره – حسب حالته الميكانيكية التى يعرفها جيدا – أن يتدفق بالمياه أو أن يتوقف ، لكن الناس تنطلى عليهم الخدعة ، ويصفقون لتلك المهارة المزعومة ويكافئونه بإعطائه قطع النقود . ويلقى آخر بحفنة من التراب فى إناء ملئ بالماء ، ثم يسترد التراب جافا من الإناء .

ويمسك ثالث بكأس له قاعان يغلقهما غطاءان ، وبعد أن يتحدث إلى جمهوره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طويلا وبعد كثير من المداعبات والتهريج ، ينفخ فى قوقعة كبيرة ، ثم يرفع غطاء أحد القاعين ليظهر بيضة ، ثم يواصل مداعباته وهزلياته ، ثم يكشف عن القاع الآخر للكأس ليظهر كتكوتان يظنهما الجمهور بديلا عن البيضة التى رأوها فى البداية . ويلقى مشعوذ رابع بقفل مغلق فى وجه طفل فينفتح القفل ، ويمسك بخد الطفل من الداخل والخارج . وهؤلاء المشعوذون يرفهون عن الشعب ، ويدفع لهم جمهورهم مبالغ شديدة التواضع ، وهم لا يطلبون من جمهورهم الدفع مقدما ، وعندما تنتهى اللعبة يدفع من يشاء على قدر ما يشاء.

وفى شهر رمضان ، وهو نفس الوقت الذى يحتفل فيه الاتراك (المسلمون) بالصوم ، يسرى أهالى القاهرة كثيرا عن أنفسهم وبخاصة فى الليل. وينام الأغنياء نهارا حيث لا يسمح الدين بالأكل طالما لا تزال الشمس فى الأفق ، ويتناولون طعامهم عند قدوم الليل . ومع ذلك فإنه يرى بالميادين أثناء النهار - وبخاصة فى ميدان الرميلة ، عند سفح القلعة - جمهور من الحواة يشبهون أولئك الذين تحدثنا عنهم .

ويشاهد فى مصر كذلك أشخاص ، ليست لهم من مهنة أو وسيلة لكسب العيش إلا عرض القرود والحيوانات التى تمتاز بالذكاء ، ودفعها لتقديم ألعاب لتسلية العامة. وثمة آخرون أكثر حيلة ، يعرضون الثعابين ويجعلونها ترقص على نغمات تعزف على آلة ما (١) ، وقد يبدو هذا الأمر بالغ الغرابة لمن لا يعرف حب الزواحف بشكل عام للموسيقى ، فهى ترفع رأسها والجزء الأمامى من جسمها عند سماع صوت المزمار ، وهذه الحركات هى التى تشكل رقصة الثعابين . ومن السهل كذلك دفع القرود للرقص ، فهى من نوع فى اليمن ، ويجلبها العربان من هناك حيث هى أكثر وداعة من بقية أصناف القرود ، ويقومون بتربيتها .

---

(١) كتبنا فى مكان آخر من هذا المؤلف فقرة عن سحرة الأفاعى المحدثين ، وهم امتداد للسحرة القدماء ، وانظر كذلك نبذة عن مدينة رشيد ، تأليف جولوا ، ص ٣٥٤ . (المجلد الثالث من الطبعة العربية - المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولابد فى النهاية من كلمة عن الممثلين وعن بعض العروض التمثيلية فى مصر ، ونحن لا يخالجنا الشك فى وجود ممثلين حقيقيين فى مصر ، مع وجود تمثيليات تتبع كافة قواعد التمثيليات . وقد شاهدنا فرقة من الممثلين الهزليين فى القاهرة تتألف من مسلمين ويهود ومسيحيين ، ويدل مظهرهم على أنهم لا يصادفون حظهم فى هذه البلاد . وهم يستخدمون فناء بيتهم كمسرح ، وثمة ساتر يحجب خلفه ملابسهم . ويذهب لمشاهدة هذه الفرقة كثير من الأوربيين الذين أقاموا فى مصر منذ عدة سنوات دون أن يشاهدوا أية عروض مسرحية ، كما تستدعى هذه الفرقة إلى بيوت التجار الإيطاليين ، وتقدم عرضها فى حجرة أعدت لهذا الغرض . ومع ذلك فلم نجد فى هذا العرض ما يرضينا : لا الموسيقى ، ولا أداء الممثلين ، بالإضافة إلى أننا لا نعرف من العربية ما يكفى لكى نفهمهم جيدا ، كما أننا وجدنا أن ليس ثمة ما يدعو لعناء أن يترجم لنا معنى التمثيلية ، فقد كان كل شئ رديئا وعاريا من الذوق ، كما كان الأداء متكلفا . وكان الأمر يدور حول امرأة عربية ، تستدرج المسافرين إلى خيمتها لتسرقهم وتسئ معاملتهم ثم تطلق سراحهم ، وعندما كانت المرأة قد تمكنت من سرقة كثيرين وتهيأت لتفعل الشئ نفسه مع آخرين ... عبر أحد التجار – من النظارة ، بصوت عال – عن القرف الذى يسببه له العرض ، وحتى لا يبدو الآخرون أقل رهافة حس منه فقد سارعوا بإيقاف العرض ، بينما لم يكن الممثلون قد وصلوا بعد إلى نصف التمثيلية .

كان ينبغى أن نتكلم هنا كذلك عن العوالم اللائى سبق لنا أن تحدثنا عنهن ، ولكن حيث إن هؤلاء النسوة كثيرات فى القاهرة ، وحيث إنهن يشكلن على نحو ما طائفة حرفية ، فسوف نتحدث عنهن فى الفصل المخصص للحرف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

الإنسان المصرى فى طور الشيخوخة - الموت والجنازات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١

عن احترام الشيخوخة

قد لا يكون من المناسب أن نبحث عن ممارسة الفضائل الطبيعية عند الشعوب المتحضرة ، حيث تتوافق الأنانية والمصالح - وهما أبناء الحضارة الشرعيين - مع أضواء المعرفة ، إذا صح القول . ذلك أن أفق المعارف عند الشعوب كلما اتسع كلما ابتعدت هذه الشعوب عن حياة الطبيعة ، ولا ينبغى أن نمضى بهذه الفكرة لحد أبعد من ذلك . ومع أننا لا ننتوى هنا أن نعقد مقارنة متعسفة ، فإنه ينبغى علينا القول بأن الشرقيين وإن كانوا قد أهملوا تعلم العلوم والآداب ، فقد استطاعوا على الأقل أن يحتفظوا ببعض آثار من العادات والفضائل البدائية . وإلا ، فهل ثمة عند أمم الشرق ما يستوجب المديح أكثر من ذلك الاحترام العميق الذى يكنونه نحو الشيخوخة ؟ . ويتميز المصرى على وجه الخصوص بهذا الشعور النبيل ، ولقد حض عليه محمد فى تعاليمه لحد وجد من الضرورى أن يجعل من ذلك مبدأ دينيا ومدنيا فى وقت معا ، وحتى اليوم ، فإن شيئا لم يستطع أن ينال من قوة هذا المطلب الذى حتمه المشرع ، كما أن الوضع الحالى للتقاليد سوف يهيئ لهذا الأمر فرصة لبقاء أطول . وفى مقابل ذلك ، فإن المفكر يستطيع أن ينعى على الشعوب الأوربية - التى تطورت صناعاتها ومعارفها لحد مذهل - هذه اللامبالاة الشديدة نحو الشيخوخة ، ففى الوقت الذى تعمل فى مجتمعاتهم قوانين تنطق بالحكمة ، وتشهد بالعبقرية والإحساس العظيم لواضعيها ، وكذا بتلك الدرجة الكبيرة من التحضر التى وصل إليها أولئك الذين شرعت من أجلهم هذه القوانين - فإن المرء ليدهش حقا عندما لا يجد فى مجموعة القوانين هذه فصلا مخصصا للواجبات التى ينبغى مراعاتها نحو كبار السن . ونستعير هنا ، حول هذا الموضوع ، بعض الأفكار التى وردت على لسان مؤلف كتاب "رسائل عن مصر" : Lettres sur l'Egypte ، الذى انتقدنا بمرارة وأحيانا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بتحامل صارخ ، وترسم أقواله بدقة ذلك الفرق الكائن بين أفكار وعادات شعوب الشرق ، وبين مثيلاتها عند شعوب الغرب بخصوص الشيخوخة :

«إن الشيخوخة عند كل الشعوب المتحضرة ، حيث يعيش الإنسان وسط عائلته فترة أقل ، لا تلقى من الاحترام نفس ما تلقاه فى مصر ، بل إنها تكاد تكون فى معظم الأحيان نقيصة ، حيث ينبغى على الملتحى ذى الشعيرات البيضاء أن يصمت أمام غرور الشباب ومباهاته ، وأن يلعب دور طفل حتى يمكن تحمله فى داخل نطاق العائلة . فما أن يحس الإنسان عندنا بأن سنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، وبأن مباهج حياته تتضاءل ، حتى يرى نفسه وقد أصبح عبئا ثقيلا على أولئك الذين يدينون بوجودهم له ، وعندما يصبح فى حاجة إلى المواساة والسلوى يرى نفسه وقد أنكر عليه حق الرعاية ، وأغلقت دونه القلوب ، عندئذ تزحف إلى جسمه برودة قاتلة ، وترتجف من برودة الوحدة روحه ، دون أن يجد من حب زوجه وحنانها ما يبعث بالدفء إليه ، فى مثل هذه الأمم يموت العجوز - وهو الذى كان من قبل والدا عطوفا - قبل وقت طويل من نزوله إلى ظلمات القبر » .

«فلنخلع إذن النقاب عن وضع ليس عاما لحسن الحظ ، فتلك المشاهد المؤثرة التى كنت أراها كل يوم فى هذا البلد (مصر) قد اضطرتنى أن أقدم لكم هذا النقيض المقابل ، فهنا (فى مصر) ، يبتسم العجوز الذى تلامس لحيته صدره وهو يلقى الاحترام ، يبتسم - برغم وطأة وضعف هذه الشيخوخة - لأحفاده وهم يأتون لمداعبته ، وينشرح صدره وهو يرى أربعة أجيال تهرع نحوه لتقدم إليه ما تفرضه عليها الشفقة الحنون ، فيتذوق بذلك بهجة الحياة حتى آخر لحظة من لحظات عمره[١] .

وفى واقع الأمر فإن الأوربيين لا يمكنهم أن يرضوا عن أنفسهم بثقة وإعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذى يبلغ مرتبة التقديس ، والذى توليه الأمم الإسلامية

---

(١) Savary, Lettres sur l'Egypte .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكبــار الســن ، فــهــؤلاء النـاس الذين نطلق عليــهم ذلك النعت المقــزز المرعب : المتوحشـون والبرابرة ، يقدمون لنا فى هذا الخصوص مثالا يجدر بالاحتذاء ، على أجمل الفضـائل ، فى حين أنهـا قل أن تنال اهتـمـامنا مع أنـهـا تسـتـحق كل إجلال . أما هنا فى مصر فكم يعرف الشيوخ ما سوف يلقون من محبة الشباب وعواطفهم ! لذا فإنهم هناك لا يلجأون لتلك الحيل التى لا جدوى منها ، لتفادى ما تعده لهم الأيام - حيث هم شيوخ - من إهانات ، بل على العكس من ذلك ، فهم يتباهون بخطوط السن التى تغضن وجوههم ، ولحيتهم البيضاء سببٌ للاحترام المهيب ، وملابسهم تتسق مع كرامة ووقار عمرهم ، وكل شئ فيهم يفصح عن المهابة والأهمية . فإذا تكلموا أنصت الجميع لما يقولون فى احترام شديد ، وليست أقوالهم بالأقوال الباطلة التافهة ، ولا هم يستشعرون مطلقا تلك المرارة التى تقطر بها عادة سنوات العجز والشيخوخة . إنهم يتركون الحياة بلا ألم ، بل إنهم لا يكادون يشعرون بذلك على الإطلاق . فبقدر ما يزيد قربهم من تلك النهاية المحتومة بقدر ما تتضاعف عناية ذويهم بهم ، فلا يعانون من الألم الذى تسببه رؤية أبناء عاقين يتشوفون لساعتهم الأخيرة حتى يقتسموا «أسلاب» تركاتهم ، فمثل هذا النهم البشع لا تعرفه مطلقا أمم الشرق . ومهما كان هؤلاء الأولاد فاسدين فإنهم على الدوام يجدون الدموع التى يذرفونها بغزارة على مقبرة أبيهم ، بل إنهم ليقبلون عن طيب خاطر القيام بأية تضحيات مهما عظمت ، لو كان فى ذلك ما يمد أياما ثمينة فى عمر آبائهم . ولهذا السبب ، فجريمة قتل الوالدين ، تلك الجريمة البشعة التى يثير مجرد اسمها الهلع فى القلوب ، والتى لم يقرر بشأنها المشرعون القدامى أى جزاء ، كما لو كان من المستحيل عليهم أن يتخيلوا أن تقدم كائنات وهبها الله نعمة العقل على ارتكابها مطلقا (١) ، مثل هذه الجريمة البشعة ، لم تعرفها مصر ، بل كل الولايات التركية ، على الإطلاق .

---

(١) نذكر فى هذا الصدد أن سولون قد أهمل سن قانون بخصوص قتل الوالدين ، إذ كان ينظر لهذه الجريمة باعتبارها أمرا مستحيلا . انظر : Plutarque.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والشيخ العجوز هو الحكم الطبيعى الذى يفصل فى المنازعات الصغيرة التى تنشأ بين أفراد أسرته ، وما يقضى به حكم تلتزم به كافة الأطراف بلا تردد ، كما لو أنها حكمة مقدسة تلك التى جاءت على لسانه .

ويترجم العرب كلمة Vieillard (مسن - عجوز) بكلمة : شيخ ، وهو لقب شرف يوحى بمعنى التشريف والسيادة (١) ، فالمشايخ هم الذين يحكمون القبائل، ويمارسون على النفوس سطوة تماثل سلطة الحكام ، والكلمة الأولى فى كل العائلات المصرية للأكبر سنا ، وهو الذى يتقدم الاحتفالات العامة ، وله مركز الصدارة فى المجالس ، ويقف الناس جميعا عند قدومه ، وتوجه إليه على الدوام علامات الاحترام والتقدير ، وأمامه يتحفظ الشباب وينضبط وهو الجموح بطبعه ، وينصت بشغف إلى ما يقصونه من حكايات ، ويجد فى أحاديثهم ما يرضيه ، بل إننا نكاد نصل لحد الاعتقاد بأن هذا التواصل الحر غير المتظاهر بالخبرة ، يساهم أكثر من أى شئ آخر فى إضفاء الوقار على طباع الرجل الشرقى منذ نعومة أظفاره ، وهو الوقار الذى لا يتكون عند أبناء الشعوب الأخرى إلا فى سن متأخرة ، وبفعل تقدم العمر .

وفضلا عن ذلك فإن الشرق - الذى نتفق على أنه مهد الحضارات - كان مسرحا للتقاليد الأبوية القديمة ، ففى هذه المنطقة من العالم تستمر التقاليد وقتا أطول من غيرها ، حتى أننا ما زلنا نجدهم يعيشون بكل بساطتهم التى كانت لهم وهم يعيشون تحت الخيام ، وثمة تقاليد عديدة تعود إلى عصور قديمة للغاية ، لكنها ما تزال مستمرة داخل العائلات ، وعندما استولى العرب على آسيا نشروا فيها مع معتقداتهم الدينية تلك العادات الاجتماعية التى لآبائهم . وحيث إن احترام الشيخوخة بالغ القدم بالفعل فى مصر كما تشهد بذلك نصوص عديدة من الكتابات المقدسة ، فإن هذا التقليد قد ازداد صرامة بفعل سطوة التقاليد العربية،

(١) بل إن كلمة Seigneur «سيد - شريف» تشتق من الكلمة اللاتينية Senior، وهى تساوى كلمة شيخ . وفى كل العصور نجد أن فكرة الشيخوخة تحمل معها فكرة الاحترام والسيطرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حيث الصولجان معقود للسلطة الأبوية التى يبدو أن طبيعة الحياة نفسها تهيئه لها، وهو نفس ما كان يحدث فى مصر القديمة عندما كانت ما تزال مزدهرة (١) . أما السبب الذى ظلت بفضله هذه الفضيلة الحميدة بعيدة عن أى تغيير ، فهو أن الشعوب التى تمارسها لا تعانى من ذلك الفساد الروحى والأخلاقى الذى تعانى منه عادة المجتمعات الكبيرة ، وتجد سعادتها فى المباهج الطبيعية ، ونادرا ما تبحث عن هذه المباهج بعيدا عن وقائع حياتها الداخلية . ولأن أبناء هذه الشعوب كذلك سعداء فى جهالتهم حيث هم محرومون من المميزات التى تهيئها المدنية عادة ، فإنهم كذلك بعيدون عن المساوئ التى تجرها المدنية معها . وإذا كانت أوربا هى وطن الفنون ومسرح ملذات الشباب ومغامراته ، فإن الشرق – ومصر بوجه خاص – هو على نحو ما ، جنة الشيوخ .

٢

الجنازات

يكنُّ المصريون المحدثون – شأنهم فى ذلك شأن أسلافهم القدامى – احتراما خاصا للموت ، وتصحب الجنازات باحتفال كبير ، وإن كان الأمر يتم بشكل مغاير لما كان يحدث فى الماضى ، إذ لم تعد تحفظ أجسام الموتى ، لكنها – على الأقل– تودع فى احترام كبير فى القبر ، مثواها الأخير. ويبدى أهل المتوفى وأصدقاؤه أمارات على حزنهم ، ويجهز الموتى بشئ من الأبهة ، كما أن احترام المقابر واحد من المبادئ الإسلامية التى لا يمكن خرقها (٢) .

---

(١) لم يكن يتفق مع المصريين من الإغريق بخصوص احترام الصغار لكبار السن إلا أهالى لاسيديمونيا ، فإذا ما قابل شاب عجوزا فإنه يدع العجوز يسبقه ، وإذا ما قدم إلى مكان به بعض الشبان فإنهم ينهضون . انظر هيرودت جـ ٢ ، الفقرة ٨ ، ترجمة Larcnet طبعة ١٧٨٦

(٢) يقسم المصريون عادة بقبر آبائهم ، ومن الشائع هناك أن تسمعهم يقولون : بتربة الوالد ، بتربة أمى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وليس ثمة ما يستطيع أن يصور ألم أسرة حرمها الموت من عضو عزيز منها . ففى الأيام الأولى بعد الموت ، يكون يأس مرعب ، ثم يأخذ شيئا فشيئا ملمحا أقل جزعا . وتستسلم السيدات تلقائيا لأحزانهن الشديدة ، فيملأن الجو بالعويل ، ويتركن البيت الذى اختطف منه الموت واحدا من الأهل أو الابن أو الزوج ، ليعلن للجيران وللمارة - عن طريق صرخاتهن المدوية ، المثيرة للحزن الشديد - بأنهن قد أصبن بخسارة لا تعوض . ويهرع الناس نحو المرأة المكلومة ، ويحاولون تهدئة اضطرابها ، بينما هى فى أحزانها وجزعها تنزع شعرها وتضرب بقوة صدرها ، فيصحبونها إلى المنزل الذى حل به الموت ويدخلون معها . وتتجمع كثيرات حول الميت : تحرك بعضهن ساقيه أو ذراعيه ، وتضع أخريات أيديهن فوق قلبه ليتأكدن أنه ليست هناك علامة أو نبضة تدل على الحياة ، وبعد ذلك يذهبن لإبلاغ شيخ الجامع الذى يعد على الفور بعض النائحات المأجورات (الندابات) . وهؤلاء النسوة مدربات على الإجهاش بالبكاء والعويل ، وعلى إلقاء المراثى المؤثرة ، وعلى إطلاق صيحات لها إيقاع حزين ، ويستدعين فى رثائهن أهل المتوفى وأصدقاءه ، وينشدن أناشيد تقال فى هذه المناسبات بنغمة بكائية ، وقد يكون ما يقال كلمات عادية شائعة ، مما يؤدى لحدوث مفارقة بين ما يقال وبين النغمة التى يلفظ بها . وإذا كان المتوفى ثريا ، تقيم الندابات وسط عائلته فترة طويلة ، أما إذا كان غير ذلك فإنهن يرحلن بعد عدة أيام ، بل وفى بعض الأحيان ينصرفن مباشرة بعد إتمام الدفن .

والرجال عادة أكثر ثباتا فى هذه الظروف المؤسية ، فألمهم صامت ، يمارسون خلاله تعذيبا للنفس تكاد تظنهم يستعذبونه ، ومهما كانت المرارة التى تفعم قلوبهم ، فهم يجاهدون أن يكتموه ، ويساهم جمود ملامحهم بالإضافة إلى إيمانهم العميق بالقضاء والقدر ، فى جعل هذه المرارة رازحة ، ومع ذلك فهم يهجرون لعدة أيام مجتمع أصدقائهم ، فليست أحزانهم برغم وقارها أقل حدة . وهناك عادة أن يقوم الناس من أعضاء الأسرة المكلومة - فى بعض الأحيان -

بصبغ أيديهم بالنيلة ، كما يمتنعون عن الاغتسال المعتاد طالما ظلت الصباغة فى أيديهم ، كما لا تكف النساء عن البكاء إلا إذا اختفت هذه الصبغة تماما .

ويتم الدفن بعد فترة قصيرة من إسلام المتوفى للروح ، إذ ينقل إلى المقابر فى ظرف ٥-٦ساعات من موته ، إلا إذا كان ثمة دوافع تبعث على الشك فى أننا بصدد حالة استغراق فى النوم نتيجة لفقدان شديد للوعى . فهذه العادة – عادة الدفن السريع – التى تنقصها الحيطة تتسبب فى بعض الحالات فى حدوث جرائم غير مقصودة ، فمن الممكن لنا أن نفترض فى بلد كهذا لايزال فيه الدواء شبه مجهول ، أنهم قد يعتبرون موتا حقيقيا ما هو ليس بأكثر من غيبوبة حدثت بسبب هبوط فى بعض وظائف الجسم ، ولهذا فمن الممكن أن تقع بعض المساوئ نتيجة لهذه العجلة الشديدة فى إجراءات الدفن . فما أن يموت أحدهم حتى يرسل فى إحضار الرجال أو النساء ، حسب الجنس ، الذين يحترفون غسل الموتى ، ويقوم هؤلاء بإخطار بيت المال ، ويطلبون الإذن بالانتقال إلى البيت الذى به الجثة، ويسجونها على طاولة وينظفونها بعناية فائقة ، ويغطون فى حضرة أقرب الأهل الأعضاء الجنسية للمتوفى ، ويلفونه بعد ذلك بقماش أبيض غير مخيط . وإذا كان الميت واحدا من العامة فإنه يكفن بأحسن ملابسه حالا ، لكن المسلمين المتنورين يدينون هذه العادة باعتبارها عادة سخيفة ومضحكة . وتوضع الجثة فى تابوت عمومى لا غطاء له ، ويغطى بقماش مطرز ، وتكون رأس الجثة دائما إلى الأمام ، كما يحرصون على وضع عمامة فوقها إذا كان الميت رجلا ، أو زهورا إذا كانت الجثة لامرأة .

وبعد هذه التجهيزات تبدأ الجنازة مسيرتها نحو المسجد ، ويفضل فى ذلك الجامع الأزهر باعتباره أقدس مساجد القاهرة ، ويتقدم الجنازة عدد من العميان بيدهم عصى ، ويسيرون فى ثلاثة صفوف من ستة أشخاص وهم متشابكو الأيدى، وينشدون بنغمة وقورة ومهيبة صيغة العقيدة الإسلامية : "لا اله إلا الله ، محمد رسول الله" ، ويكررون ذلك حتى القبر . ويلى هؤلاء مباشرة خدم المتوفى ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهم يرتدون ملابس قاتمة ، وبعد هؤلاء تأتى الندابات مرتديات ثيابا زرقاء طويلة وحجابا أبيض ، ليسبقن مباشرة الجثة المحمولة على أكتاف رجال أربعة ، والموضوعة داخل التابوت ، وخلف النعش تسير العائلة يصحبها عادة شيخ الجامع ، وفى النهاية ، يختتم الجنازة أناس من العامة ، وتسير الجنازة فى سرعة وتناسق .

ويوضع الجثمان للحظة فى المسجد ، ويؤدى الابن الصلاة على أبيه أو يؤديها خلف واحد من رجال الشرع ، وعند الخروج من المسجد ينسحب جزء من الموكب ، ويصحب المشايخ الجثمان حتى مكان المقبرة ، ويتبع هؤلاء عادة بعض أطفال المدارس ، ويحصل رجال المسجد على أجرهم عند المقبرة نفسها ، وتلك عادة عامة .

وبعد الوصول إلى المقبرة ، يؤخذ الجثمان من النعش ، وينزل رجل فى الحفرة ليأخذ الجثمان ويودعه القبر بحيث تكون رأسه متجهة إلى الشرق ، وبعد ذلك يلقى أقرب أهل الميت بيده قليلا من التراب على الجثمان ، ويغطيها الحفارون على الفور . وبعد ذلك يجلس الأغراب الذين صاحبوا الجنازة ويأكلون حول الحفرة ، ويعود الأهل مع الندابات ليقمن عندهم لأيام عدة مما يسبب مضايقات للجيران[(١)] .

---

(١) فى مصر عادات كثيرة تشترك فيهامع كل ولايات الدولة العثمانية ، لكن ثمة عادات خاصة بمصر وحدها ، قد يكون من الطريف أن نعرض لها . ومن هذه العادات الخاصة بمصر بكاء الندابات أثناء الجنازة ، ولا يحدث هذا عادة فى القسطنطينية ولا فى سوريا، بل يمكن القول بأنهن غير معروفات فى القسطنطينية أصلا . وفى مصر تظل زوجات المتوفى يطلقن الصرخات تسعة أيام متوالية ، ويستقبلن صديقاتهن اللاتى يأتين للبكاء معهن أو يتظاهرن بالبكاء . ومع ذلك فالمسلمون من الطبقات العليا وكذا العلماء ينظرون إلى هذا العويل باعتباره مخالفا لدين محمد ، ذلك أن الميت لم يفارق هذا العالم – فى رأيهم – إلا للذهاب إلى مكان أسعد (الجنة) ، لكن الدموع ينظر إليها بتسامح لأنها تصدر عن عاطفة محمودة . وعندما يموت رجال ميسورون يتمتعون باحترام كبير ، لا تحدث أية دلالة على القنوط أو اليأس ، بل يحدث العكس أحيانا فتنطلق زغاريد الفرح .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا تدفن النعوش مطلقا ، فالجثمان - كما سبق القول - يودع فى الحفرة التى أعدها الحفارون - الذين أرسلهم الشيخ لهذا الغرض - فى مقابر الأسرة التى بنيت من قبل . وهى فى المقام الأول عبارة عن قبر من الحجارة تصف تحتها الأجساد بجوار بعضها البعض، وطالما لم يبل لحم الجثة فلا ينبغى إزعاج الميت ، ولكن عندما يبلى ما يغطى العظام فإن العظام تجمع فى لحد واحد ، وينظر إلى الاحتفاظ بأى جزء من الجثة باعتباره جريمة ، إذ ينبغى أن تدفن الجثة بأكملها . وعندما يموت أحد بعد قدوم الليل يتحتم انتظار شروق الشمس ليتم نقله إلى المقبرة ، ويعتبر المسلمون أن من مبادئ دينهم ألا يدفن الميت إلا والشمس فى الأفق ، بل ويعلقون على مراعاة أو خرق هذه العادة أهمية كبيرة ، حيث لها صلة بالسعادة أو الشقاء فى دار الخلود . ويقوم الأغنياء بدفع نفقات مقابر الفقراء ، ومقابر هؤلاء فى الواقع بسيطة ، لكن أهليهم وزوجاتهم يزينونها بزرع الورود بدافع من العاطفة .

وتوجد مقابر المسيحيين فى القاهرة بمصر القديمة ، ولا يسمح لهم بالدفن فى مكان آخر . وللأرمن مدفن خاص بهم ، وهذه الطائفة من المسيحيين ليست كبيرة العدد ، إذ لا يكاد يبلغ تعدادها ٤٠٠ - ٥٠٠ شخص مستقرين بالمدينة .

ويتمسك بعض المسيحيين فى مصر القديمة بعادة قديمة ، هى أن تكون لهم مقابر صغيرة فى بيوتهم يحتفظون فيها ببقايا جثث ذويهم . وربما لا تكون هذه العادة سوى أثر من ديانة قدماء المصريين ، لكنها محرمة بشدة فى القاهرة ، إما بدافع صحى وإما بسبب عدم التسامح من جانب المسلمين . ويلاحظ هذا الميل نحو المقابر المنزلية بين كبار الأقباط بوجه خاص ، لذا فقد شيدوا بيوتا لهم فى حى منعزل فى مصر القديمة ؛ ليقيموا هناك مدافن لذويهم . ويتوجهون إلى هناك من القاهرة حيث يقيمون على فترات من العام ، كما يحتفلون هناك بالأعياد الكبرى لطائفتهم مع الأهل والأصدقاء ، ولا يوجد فى أى مكان آخر أثر لهذه العادة القديمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى نفس الوقت ، فإن الندابات وكذا الإشارات الخارجية الدالة على الحزن عند موت واحد من الأهل ، جزء أساسى بالدرجة الأولى من الطقوس الجنائزية القبطية ، بل إنهم يذهبون فى إشارات الحزن تلك لأبعد مما يذهب المسلمون ، فهم يملأون الضواحى المجاورة بصيحاتهم التى تعقبها على الفور صيحات الندابات ، ويستمر هذا العويل أحيانا عدة أسابيع . بل يمكننا الافتراض بأن الأقباط هم الذين نقلوا هذه العادات إلى المسلمين ، حيث من الثابت أن المسلمين فى الأجزاء الأخرى من آسيا لا يراعون هذه العادات على الإطلاق ، وثمة نص لهيرودت ننقله هنا ، يؤكد بالمثل أن البكاء - مصطنعا كان أو صحيحا - الذى يستسلم له الناس عند نعى قريب ، له أصل فى مصر بالغ القدم . يقول المؤرخ الإغريقى : «عندما يموت رجل هام يغطى كل نساء منزله رءوسهن بل ووجوههن بالطين ، ويتركن الميت فى المنزل ، ويحزمن وسط جسمهن ، ويكشفن عن صدورهن، ويعبرن المدينة وهن يدققن على صدورهن ، وتصحبهن فى ذلك قريباتهن [1] » . ألسنا نجد فى هذه العادات التى تمارسها هاتان الأمتان (المسلمون والمسيحيون) تماثلا كبيرا مع تلك التى نقلها هيرودت الموجز على الدوام والذى يبدو لنا عند قراءة نصه أنه قد تحدث بتفصيل أكبر مما يفعل عادة ؟ إن هؤلاء الأهل المكلومين فى الماضى قد تركوا مكانهم بلا جدال لندابات اليوم . ويقدم لنا بقية وصفه نفس التطابق مع اختلافات طفيفة للغاية [2] .

---

(١) هيرودت : جـ ٢ ، الفقرة ٨٥ ، ترجمة Larchet طبعة ١٧٨٦ .

(٢) يقدم لنا ديودور الصقلى نفس التفاصيل فيقول : «ما أن يموت أحد الناس حتى يسارع أهله وأصدقاؤه فيغطون رأسهم بالطين ، ويسيرون فى الشوارع يبكون حتى يتم دفن الجثمان» . ولكن ثمة شيئا عند ديودور أكثر تحديدا عندما يتحدث عن حداد المصريين عند موت أحد الملوك : «عند موت الملك تدخل مصر كلها فى حداد ، فيمزق الناس ملابسهم وتغلق المعابد أبوابها وتعلق الأضحيات وتوقف الأعياد والاحتفالات لمدة ٧٢ يوما . ويقوم عدد من الرجال والنساء يبلغ ٢٠٠ - ٣٠٠ شخص ، رؤوسهم مغطاة بالطين وصدورهم محزمة برباط ، بالانتحاب والرثاء على صوت الموسيقى مرتين فى اليوم » . انظر ديودور ، الكتاب الأول ، الفصل الثانى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما يشعر رجل ما بدنو أجله فإنه ينظم شئونه ، وإذا ما كان حذرا فإنه يجمع عددا صغيرا من أصدقائه ليشركهم فى رغباته الأخيرة . وتحتم الشريعة قبل توزيع التركة أن تجنب أولا المبالغ اللازمة لتسديد الديون ، وكذا الهبات الخيرية التى يكون المتوفى قد التزم بها . وللأبناء الشرعيين حق الإرث ، أما غير الشرعيين فلا يحق لهم الإرث دون نص صريح من الموصى . وهذه الترتيبات خاصة بالذكور وحدهم ، أما البنات والزوجات فليس لهن حق الإرث فى الملكيات العقارية . وسوف نتحدث بتفصيل أكبر عن هذه القوانين الجائرة فى الفصل القادم من مؤلفنا (الفصل الخامس) والخاص بالأنظمة والمؤسسات .

ويمكن للأرملة أن تتزوج مرة أخرى بعد مضى أربعة أشهر وعشرة أيام على وفاة زوجها إذا لم تكن حاملا ، وفى الحالة الأخيرة يمكنها أن تتزوج بعد الوضع . وللأبناء أيضا حق الزواج بعد موت والدهم ، لكن اللياقة تحتم انقضاء فترة بين حدث محزن لهذا الحد وبين فعل يتطلب على الدوام مظاهر الخفة والفرح ، وفى ذلك تناقض واضح ، ولذا فإن من يستبيح لنفسه أن يعقب جنازة أى من والديه بحفل زفافه يغطى نفسه بوصمة لا تغتفر لدى الرأى العام .

٣

المقابر

يبدى المصريون المحدثون اليوم عناية بمقابرهم – تماثل عناية أسلافهم فى الماضى – جعلتهم يقيمون منشآت أقل ضخامة حقيقة مما أسسه القدماء ، لكنها على روعة غير عادية إذا ما وضعنا فى الاعتبار حالة المصريين فى الوقت الحاضر . لقد حدثت ثورة تامة فى التقاليد والديانات والعادات الاجتماعية ، ومع ذلك فقد ظلت ضفاف النيل كما كانت فى الماضى ، هى المكان الذى تحترم فيه أكثر من غيره أجداث الموتى ، فليست هناك كما يحدث فى البلدان الأخرى تلك الأحواش الفقيرة والمتهدمة التى تضم مقابر أولئك الذين انطفأت شمعة حياتهم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا يحدث فيها – كما يحدث فى أماكن أخرى – أن يطأ المرء بقدميه وهو يسير فى أرض قاحلة أو يجوس خلال الأعشاب البرية عظاما بشرية مبعثرة كيفما اتفق . نعم ليس ثمة مثل هذه الأعمال المجوجة والناتجة عن الإهمال واللامبالاة ، والتى تكشف عن مدى ما تلقاه أرواح الموتى من إهانة وازدراء على يد الأحياء . فكل شئ هنا – فى هذا الصدد – يختلف ، فثمة أشجار باسقة تظلل المقابر ، أو ثمة على الأقل ورود زرعتها بين القبور عاطفة محبة ، تحول مثل هذا المكان المقبض إلى نوع من الحدائق العامة ، وثمة مقاعد وفراغات بين المقابر ترسم نوعا من الشوارع الصغيرة ، نرى على امتدادها آثار عمل الإنسان .

يالروعة بناء المقابر ! ويالروعة النقوش التى تغطيها .. إن المرء ليؤخذ بهذه الروعة الورعة لحد أن يتذكر ما كان يحدث فى الأزمنة الخوالى : «تتجلى عناية القدماء بمقابرهم فى تلك الأموال الطائلة التى ينفقونها عليها ، وفى إقامة الأهرامات والنحت فى الجبال واستخدام نقوش ورسوم بالغة البذخ .. وباختصار فى تلك الروعة المدهشة » . وما يزال نفس هذا الميل موجودا حتى اليوم ، وينفق المصريون فى هذا المجال من المال أكثر مما ينفقون على ملابسهم ومساكنهم . هنا يتجلى معنى ما قاله ديودور الصقلى عن أسلافهم من أنهم يعتبرون بيوتهم مجرد نزل عابرة لا ينبغى التوقف عندها طويلا ، لذا فعنايتهم بها قليلة ، هذا فى الوقت الذى يعتبرون فيه المقابر بمثابة دار للخلود ، فيشيدونها بكل الفن والمهارة ، وهو أمر كانوا ضليعين فيه . لقد تغيرت ديانتهم بشكل كامل ، ومع ذلك فقد ظلت العادة كما كانت فى الماضى : فبجوار كل مدينة كبيرة توجد مدينة صغيرة للموتى ، حيث يكون لكل أسرة ميسورة لحد ما مدفن خاص بها ، وحيث تزين كل المقابر بالنقوش والرسوم الجميلة (١) .

ويختار المصريون المحدثون لمقابرهم – شأنهم فى ذلك شأن المصريين القدماء – المناطق المرتفعة فوق مستوى النهر ، حتى لا تصل مياه النهر إليها

(١) انظر وصف مدينة طيبة فى دراسة المسيو جومار عن المدافن الأرضية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فتهدمها ، ومن جهة أخرى فإن الأراضى القابلة للزراعة فى الوادى غالية الثمن ، وضرورية للأحياء لدرجة لا يمكن معها أن يجعلوا منها مأواهم الأبدى ، وعلى هذا فينبغى أن يكون المكان الذى يستخدم كمقبرة قاحلا أجرد لا يبنى أو يزرع فيه . والأرض التى خصصت للناس لتكون مقرهم الأخير ينبغى أن توقف عليهم ، وألا تقلق هناك أجسادهم بأن يسمح للفلاح أن يغرس فيها سلاح محراثه . وإذا امتلأت مقبرة ما فلن ينازع أحد عظام الموتى فى مكان خصص لها ، فلا تخلى المقبرة من العظام ليخلو المكان لموتى جدد .. هناك فى هذه المقابر يرقد الفقير مستريحا تحت المكان الحجرى الذى خصص له ، أما الغنى فإن ما دفعه لشراء تلك المساحة الضيقة التى يشغلها قبره لن يضيع هباء . وهكذا ، فما أن تغطى المقابر مساحة الأرض التى خصصت للمدافن حتى تسمح الحكومة بأرض جديدة لنفس الغرض ، وتهجر الأولى ، ومع ذلك يظل ينظر إليها الناس باحترام وورع ، ويصبح من أعمال الخير - لوقت طويل من هذا الهجر - أن يضع الناس الورود فوق رخام المقابر .

ويقع المدفن ، أو مدينة المقابر ، فى مدخل المدن عادة ، وخارج نطاقها ، ويستطيع كل إنسان أن يدخلها بلا عائق ، إذ ليس ثمة حائط أو سور يعوق الاقتراب منها . ويا لها من مفاجأة بالنسبة للأجنبى - الذى لم يكن قد رأى حتى هذه اللحظة إلا الأكواخ التى يسكنها الأحياء فى الريف - عندما يرى هذه المقابر الباذخة ! فثمة غابة من العواميد والنصب التذكارية والأضرحة . . تغطى مساحة شاسعة : وقد يظن المرء فى البداية أنه أمام مدينة بديعة هجرها عشية الأمس سكانها ، وعندما يرى شوارع المدفن فقد يظن أنه فى سهل مزروع بالمقابر ، وفى كل مكان ستتجلى فنون العمارة التى تتضاءل إلى جوارها - وبخاصة الأضرحة الكبيرة - عمارة المساجد وقصور الكبار .

وتصنع الأعمدة وشواهد القبور من الرخام الأبيض ، أما أساس المقابر فمن الحجارة ، وتصنع القبة من الخشب وتغطيها طبقات من الجبس أو الجير شديد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البياض . ونقوش المقابر ذات ذوق شرقى ، وهى عبارة عن زخارف تحوى زهورا من مختلف الأنواع نُفذت بعناية ، وتغطيها رقائق ذهبية مما يعطيها مشهدا بديعا. أما أولئك الذين لم يحوزوا إلا ثروة متواضعة فيكتفون بالكتابة على مقابر أهليهم بالأسود ، لكن الكتابة التى ينفذها الأغنياء على مقابرهم ذهبية اللون . وتتكون المقابر العادية من حجر فوق اللحد ، يرتفع من أحد جانبيه عمود يحمل عمامة ، وينتهى جانبه الآخر بقطعة حجر مسطحة ، تنتهى بشكل مدبب ، وقد شذبت جوانبها لتأخذ شكل مسلة ، وتنقش عليها النقوش ، وهى فى بعض الأحيان نقش لشجرة سرو أو لورود منفذ بعناية شديدة . وتتكون مقابر السيدات من حجرين مسطحين ، ينهض أحدهما عند الرأس والآخر عند القدم ، وهما مليئان بالرسوم والنقوش ، وينتهى كل منهما بشكل مسلة لكنها لاتحمل عمامة . وتصنع هذه الحجارة من الجرانيت ، أو من الحجارة الجبلية ، وفى هذه الحالة لاتكون مزدانة بأية نقوش. وفى بعض الأحيان تغطى المقبرة كتلة صماء من الحجر ، وهذا أمر كاف عند الأتقياء الورعين ، فكل إنسان يبذل ما يستطيع لتكريم ذكرى ذويه . وفى آسيا حيث الأراضى خصبة والأمطار غزيرة يزرع الأتراك فى المدافن أشجار السرو ، ويشبه المدفن عندئذ غابة واسعة ، إذ ترتفع هذه الأشجار إلى علو شاهق. ومهما بلغ عمر الشجرة فلا يسمح بقطعها ، فقطع هذه الأشجار جريمة لا يغفرها القانون .

ويوم الجمعة بوجه خاص هو اليوم المحدد لزيارة المقابر ، وتذهب الأسرة إلى هناك بأكملها ، فتصحب الأمهات أطفالهن ، ويتجمع هناك الأصدقاء ويجلسون حول مقبرة الفقيد ، ويتربعون على الحصر ليتناولوا بعض مايحملون من هبات ، ويتحدثون بمرارة عن الخسارة التى حدثت ، وعن فضائل الفقيد وكفاءاته ومميزاته. وهم يذهبون إلى مدينة الموتى هذه عند شروق الشمس ، ويمضون فترة الصباح كلها فى الصلوات والدعوات الدينية . وفى هذه الأيام المهيبة يبلغ الزحام درجة تبدو معها المقابر وكأنما تقطنها جماهير غفيرة ، ويمكن أن نتخيل أحجبة

النساء وهى ترفرف ، وملابس الرجال الزاهية بكل الألوان الفاقعة والمتنوعة ، وفخامة مبانى المقابر التى تغطى السهل ، فنتذكر على الفور تلك الأساطير القديمة التى ولدت على نفس هذه الضفاف . . إذ تبدو هذه الأماكن وكأنها مقر لأشباح محظوظة ، يخيل للمرء أنها تهيم على وجوهها وهى تخطو خطوها البطىء وسط مساكن الموت هذه . أمامجموعاتهم تلك المنتشرة هنا وهناك تحت أشجار الأكاسيا والجميز ، فتبدو وكأنها تقدم لعيون المسافر لوحة من جنة الدار الآخرة تكملها وتجسدها مخيلته .

وتمتلك العائلات الغنية – كما سبق القول – مقابر رائعة الجمال ، ويعتبر بعضها فى الواقع مساجد صغيرة ، وهى محاطة بسور ، ويدفن فيها عبيد الأسرة وخدمها ، ويدفن السادة تحت القبة ، ثم تجمع عظامهم بعد ذلك فى قبر واحد . أما المقابر الأخرى فهى أكثر بساطة ، وتتكون من أساس من الحجارة تعلوه أربعة عواميد ، تحمل أقبية وسقيفة إما على شكل قبة أوعلى هيئة هرم ، وتوضع الأجساد عند الأساس ، أما المقبرة فتظل خالية وتبنى تحت القبة التى تحدثنا عنها .

وفى معظم الأحيان ثمة مربع محفور وسط المستطيل الذى يغطى المقبرة ، ويملؤه الناس بالتراب لتزرع فيه الزهور بدافع المحبة والاعتزاز والتبجيل .

أماالعامة الذين لايقدرون حتى أن يثبتوا مجرد حجر عادى علامة على المكان الذى يرقد فيه أعزاؤهم ، فإنهم يكتفون برفع مستوى الأرض حول حفراتهم ، ويزرعون فيها بالمثل ورودا يأتون كل أسبوع لريها .

ومدافن المصريين تحظى بتقديسهم ، وهم يحرصون على أن يبعدوا عنها كل ما يمكنه أن ينال من قداستها . وتحاط مدينة القاهرة بأحواش مقابر سبق أن تحدثنا عن فخامتها ، لكن ينبغى أيضا أن ننوه بمدينة الموتى فى سيوط (أسيوط) فى صعيد مصر ، فهى تقع عند سفح جبل على حافة واد يانع الخضرة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويخترقها طريق واسع للغاية يفضى إلى الصحراء . ويحيط بكل مقبرة جدار أبيض، تعلوه رسوم زاهية اللون، وتظلله النخيل وأشجار الأكاسيا والجميز . وتعمل عاطفة الأحياء نحو ذويهم هناك على مضاعفة عدد هذه الأشجار والعناية بها .

وهكذا فإن المصريين الذين تربط بينهم على الدوام المودة وصلات الدم ، يقدمون بعد موت أحبائهم علامات مؤثرة على ذلك الحزن العميق الذى انتابهم بفقد هؤلاء . فهم – مثل أسلافهم – يحسون بقوة بمباهج المشاعر الأسرية ، وتصدمهم بشكل مؤثر تلك الضربات التى تحرمهم من مخلوقات عزيزة عليهم ، خسارتها لاتعوض . وهكذا أيضا نراهم بعد أن يكونوا قد تذوقوا سعادة أن تشملهم المحبة أثناء حياتهم ، يتمتعون بعد أن يتركوا العالم الأرضى ، بسعادة أن يخيم على ذويهم الأسف على فراقهم .

٤

الحداد والندابات

لدينا فى أوربا وقت محدد للحداد الكبير ، أما الحداد الصغير فيلى ذلك . لكن هذه الممارسات مجهولة فى الشرق ، فهناك يعبرون عن الحزن والأسى بطريقة أخرى ، كما أن للألم هناك لغة غير تلك التى لدينا . فخلال عدد من الأيام حددها العرف ، تظل المرأة تبكى وفاة أقاربها سواء داخل بيتها أو فى المسجد أو على القبر ، وثمة وقت من أوقات النهار مخصص لهذا الواجب الحزين . وينفذ هذا الواجب بدقة تستعصى على الفهم . صحيح أننا نلاحظ فى بعض الأحيان نوعا من التكلف فى هذه الممارسات الخارجية ، إذ ليس من النادر على سبيل المثال أن نرى النسوة يعبرن الشارع – وهن فى طريقهن إلى المسجد أو إلى المقابر – دون أن يبدين أية دلالة على الحزن ، ثم ينهضن من هناك بعد أن يكن قد أطلقن صرخات الحزن المؤثرة لمدة تقرب من ساعة ، ويرحلن دون أن تحتفظ ملامحهن بأقل أثر لانفعالهن ، وبرغم ذلك فإن هذه المظاهر صادقة وحقيقية عند العدد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأكبر من هؤلاء النسوة ، ولكى تقتنع بذلك ، فيكفيك أن ترى كما رأينا بائسات يهزهن الخوف من فقد أحد أقاربهن ، يحادثن أنفسهن ويُعَبّرن بصوت خفيض وبطريقة تثير الشفقة عن القلق الذى يأكلهن .وكثيرا ماسمعنا نسوة ينطقن – أثناء سيرهن فى الشوارع – بالدعوات الحارة كى يبعد الله المصيبة التى تهدد أسرتهن، ولايقطع حديثهن إلا العبرات التى تمزق صدورهن ، ويعبرن عن مشاعرهن تلك بلا حرج وبلهجة صادقة ، ويدعين الله أن يطيل عمر من يعانى من الخطر على حساب عمرهن، يقلن ذلك بحرارة لدرجة يكون من الظلم معها أن تشك فى إخلاصهن .فإذا كان الخوف من الخطر يعذبهن بمثل هذه الطريقة المؤلمة أفلا ينبغى أن تفترسهن الأحزان إذا ما تحققت مخاوفهن ؟ وكثيرا ما رأينا سيدة فقدت طفلها العزيز وهى تندفع إلى خارج بيتها نائحة باكية ، لتجوب الشوارع وتلقى بصرخاتها المنتحبة تنادى طفلها بصوت يمزق القلب :يا والاد.. ياوالاد! (ياولد.. ياولد) .

والسيدات وحدهن فى مصر يقمن محافل البكاء بعد موت أقاربهن ، أما الرجال فعليهم كما سبق القول أن يظهروا قدرا أكبر من ضبط النفس ، فإذا تألموا فإن ألمهم مركز ، بل إنهم يطلبون من النساء – إذا ما ذهبن إلى بعيد فى التعبير عن بؤسهن (١)–أن يعتدلن ويتحلين بالصبر . وفى الدموع والأحزان يتجلى حداد مصر ، ولا يفرض الدين زيا محددا للحداد ، ومع ذلك فإن الناس يرتدون ملابس قاتمة علامة على الحداد ، لكن أبناء الطبقات العليا لايخضعون لهذه العادة ، فما أن يدفن شخص منهم وتؤدى عليه الصلوات حتى لايعود ثمة أى حداد دينى ملزم ، ويكتفون بقضاء عدة أيام فى استقبال المعزين . ويدعى إلى وجبة جنائزية كل أصدقاء المتوفى ، وتخصص هذه الوجبة لذكراه التى تكون موضوعا للحديث ، ويأخذ كل مدعو فى تعديد مناقبه .

---

(١) ليست النساء المسلمات وحدهن كما سبق القول هن اللاتى يبكين موتاهن ، فربما تتفوق عليهن المسيحيات فى هذا الخصوص . وهذه العادة عامة فى مصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما النادبات اللاتى يتبعن مراسيم الدفن فهن نساء من الشعب ، مدربات منذ زمن طويل على العويل وتصنع صرخات اليأس ، وليس ثمة مسلم متنور إلا ويدين هذه العادة الكاذبة ، ومع ذلك فقد لاحظنا أنها لاتصدم الرأى العام . وتلجأ زوجة الواحد من الكبار ، عندما تخشى أنها لن تستطيع أن تسكب وحدها على المرحوم قدرا كافيا من الدمع ، أو ربما عندما تجد أن مهمة الانتحاب لمدة طويلة بلا انقطاع تفوق طاقتها - تلجأ إلى استدعاء النادبات اللاتى يقمن فى الحجرة من البيت التى كان الجثمان مسجى فيها ، وهناك يقمن بتأبين الميت ولكن بطريقة شديدة النحيب . وتبدأ إحداهن بإطراء فضائل المتوفى ، وما أن تلفظ أول كلمة حتى تطلق الأخريات فى صوت واحد صيحات مفزعة ، كما لو كان ذلك للتعبير عن حجم الخسارة التى أصابت العائلة . وتشرب النادبات من إبريق موضوع على موقد فى نفس الحجرة وعقب كل نوبة تأبين ، قدحا من القهوة . ومع ذلك فليس فى صرخاتهن مايمس قلب الأجنبى ، فهن يعولن أكثر مما يبكين بعاطفة ، وأغلب هؤلاء التعيسات لايسكبن دموعا ، ويقتصر عملهن على الإتيان ببعض الحركات وأن يرثين بنوع من الإيقاع الحزين . ولايسمح النقاب الذى يغطى وجههن ، والذى بدونه لايمكن لهن أن يتجاسرن على الظهور أمام الناس - لايسمح للمرء أن يكشف كذب بكائهن .

وعلى الرغم من الاحتقار الذى يبديه المسلمون المتنورون لهذه الاحتفالات الجنائزية والتى تشبه مسرحية هزلية أكثر مما هى تعبير حقيقى عن الألم ، فإن من المحتمل أن تظل هذه العادة لوقت طويل فى كامل قوتها ، إذ من الصعب أن تقتلع معتقدات من جذورها بعد أن امتد بها العمر وتجسدت فى هذه العادة الضاربة فى القدم ، وإنه لأمر أكثر مشقة عند شعب روتينى ، يبدو كما لو كان يرى - على نحو ما - فى حذوه حذو أسلافه أمرا له قداسة الأديان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

النظم والمؤسسات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١
رجال الشريعة والقضاء

بعد أن انتهينا من الحديث عن التقاليد الأسرية والعادات الاجتماعية للمصريين المحدثين ، وبعد أن تعقبناهم فى مختلف أطوار حياتهم من المهد إلى اللحد ، فسوف نهتم الآن بأنظمتهم ومؤسساتهم المدنية والدينية ، ولعل هذا هو أهم فصل فى مؤلفنا ، إذ كان من المستحيل على الرحالة الذين جاءوا إلى مصر قبل هزيمتها على يد الفرنسيين أن يحصلوا فى هذا الصدد على أفكار ومعلومات موضوعية ، فقد كان ثمة عقبات كبيرة تحول دون أبحاث بهذه الدقة ، كما أن مثل هذه الأبحاث كانت تثير الهلع كما كانت تثير ريبة وشكوك الحكومات المستبدة ، التى كانت تتولى شئون البلاد . لقد كان الأمر يتطلب وجود ودعم جيش منتصر مسيطر ، وعلاقات يومية ومباشرة مع السكان من كافة الطبقات ، حتى يمكن دراسة قوانين مصر ونظامها المالى والإدارى . وقد سبق أن قدمت دراسة «استيف» Estéve لوحة كاملة عن الدخل العام ، وتوزيع واستخدام الضرائب ومختلف أنواع الملكية ، أى أنها قدمت باختصار لوحة عن كافة أقسام الحكومة التى كان عملها الإشراف على مالية الدولة .

ولقد كانت المهام التى أوكلت إلى الأستاذ استيف هى التى مكنته من أن يرى بعينيه كل شىء ، وأن يسبر فى ثنايا ذلك غور تلك الإدارة البطيئة والمعقدة . علينا إذن فى فصلنا هذا أن نهتم بالدرجة الأولى بالنظم والمؤسسات التى لايدخل فى نطاقها الموضوع الذى عالجه زميلنا ، وأن نبدأ بالقوانين المدنية التى يخضع لها المصريون فى الوقت الحاضر . ولكن من الأمور الملحة قبل أن نمضى فى تمحيص هذه القوانين أن نتعرف على الأشخاص الذين كانوا أعضاء فى هذه المؤسسات أو قائمين على أمر هذه النظم . وحيث إن الشريعة الإسلامية وكتابها «القرآن الكريم» هما القاعدة الرئيسية التى تنهض عليها القوانين المدنية ، فإن رجال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدين قد أصبحوا فى نفس الوقت رجال القانون . وهؤلاء ينقسمون إلى عدة طوائف ، ومهامهم بالغة التنوع : فبعضهم تقتصر مهمته على العناية بالمساجد ، ومن هؤلاء الإمام ، وهذا النوع من الرجال ليسوا بالأغنياء ولابذوى المكانة ، فبإمكان كل مسلم ملم بالقراءة والكتابة وإقامة الصلاة أن يكون إماما لمسجد . وهو ليس من رجال الدين المتخصصين ولا يرتدى زيا خاصا ، وهذا النوع من العمل وراثى فى العائلات ، ومن الممكن التنازل عن هذه الوظيفة لآخر مقابل جعل من المال .

والقاضى هو الذى يفحص الأئمة ، ويمكنه أن يقبلهم أو يرفضهم حسبما يتراءى له عن المرشح ، وهل هو فى مستوى الوظيفة أو ليس فى مستواها وليس ثمة هيرارشية (هرمية) بين الأئمة ، فهم أئمة المساجد وليس أكثر من ذلك . وللباب العالى عليهم وعلى كل العلماء نوع من السطوة الروحية ، ولكن إذا حدث أن كان ببعض فرماناته مايتعارض مع بعض ماجاء فى القرآن فإنهم لا يلزمون أنفسهم بطاعتها عن اعتقاد ، إذ لا ينبغى عليهم أن يطيعوا إلا الله ورسوله .

ويشكل الأشراف فى مصر طبقة منعزلة ، وهم يتمتعون بنفوذ كبير ، وسبب مكانتهم تلك هو اللقب الذى يحملونه ، فشريف معناه متميز ، وهذه الصفة لاتخلع إلا على أحفاد محمد من ابنته فاطمة ، ويحق لهم وحدهم لبس العمامة الخضراء . ويقول بعض العلماء : ويل لمن يدعى لنفسه الشرف دون أن يكون كذلك، وويل لمن يهجر الأشراف . ونحن نجد أشرافا من مختلف الطبقات ، وثمة أشراف لاتعرف ماهى مهنتهم بالضبط ، بل وثمة منهم من يمارسون أعمالا مرذولة . وينقل النساء هذا اللقب لاولادهن من الجنسين ، وحيث إن من حقهن أن يتزوجن بلا تمييز ، أى سواء من شريف أومن مسلم ليس من الأشراف ، فبإمكاننا أن نستنتج كيف يمكن أن يتضاعف عدد أفراد هذه الطائفة .

ويختار الباب العالى واحدا من أبرز هؤلاء الأشراف ، ليعينه نقيبا للأشراف ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهى وظيفة محترمة ، ويقيم من يتولاها فى القاهرة . ويأتى هذا النقيب عادة من القسطنطينية مع القاضى ، ويدفع فى مقابل وظيفته تلك حوالى أربعين ألف مدينى ، ويحصل على دخل عديد من القرى الصغيرة هى بمثابة إقطاع لوظيفته . ولايعهد لشخص ما بهذا المنصب إلا لمدة عام ، يثبت فى نهايته النقيب أو يستبدل به غيره حسب مشيئة السلطان .

ويحاكم كل الأشراف أمام نقيبهم على ما يأتون من أخطاء بسيطة ، لكن ليس من سلطته أن يحكم على واحد منهم بالموت ، فالقاضى وحده هو الذى يختص بمحاكمتهم فى الأمور المدنية والجنائية مثلهم مثل بقية المسلمين . وعندما يحكم على واحد منهم بالإعدام يتولى النقيب تنفيذ الحكم . وللأشراف سجن خاص بهم ، ويستخدم جزء من دخول القرى الموقوفة على النقيب لإطعام المساجين من الأشراف[(١)] .

وليس ثمة بلد يتمتع فيه الأشراف بامتياز أكبر مما يتمتعون به فى مكة ، إذ لهم الحظوة على سائر المسلمين فى كل الاحتفالات الدينية ، ولهم بخلاف ذلك امتيازات كثيرة ، ومع ذلك فشريف مكة ليس سوى أمير زمنى ، وليست له أية قداسة دينية ، بل إن الصلاة لاتقام مطلقا باسمه ، بل تقام الصلاة على الدوام فى الحرم المكى باسم السلطان .

ولقد سبق لنا أن تحدثنا عن العلماء ، وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاث طبقات كبرى : رجال الدين ، علماء الشريعة ، القضاة . والأولون هم الأئمة ، والآخرون هم رجال الإفتاء ، وهم بمثابة محامين استشاريين يبدون آراءهم فى كافة الأمور ، أما الفئة الثالثة فهم قضاة العدل . ويمنح القضاة من الدرجة الأولى لقب مولاى ، ومعناه

---

(١) يوجد كذلك اختلاف فى طريقة إعدام الأشراف ، إذ لا يمكن أن تفصل رءوسهم عن أبدانهم ، ويرسل النقيب إلى السجن من يقوم بخنق المحكوم عليه بالإعدام ، ولا تعلق أجسادهم كذلك بعد تنفيذ الحكم ، بل تدفن على الفور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سيد أوشريف . أما شيخ الإسلام - أو مفتى االقسطنطينية - والوزير الأكبر (الصدر الأعظم) فهما أهم شخصيتين بعد السلطان فى كل الامبراطورية ، وهما يمثلان السلطان : الأول فى الشئون الروحية ، والثانى فى الأمور الزمنية . وليس من حق السلطان أن يعدم المفتى بنفس الطريقة التى يُعْدَم بها المذنبون العاديون ، وعندما يدان شخص ما وهو يتقلد هذا المنصب الخطير بجريمة كبيرة فإنه يلقى عقابا خاصا ، ربما كان أكبر بكثير من ذلك العقاب الذى يوقع على المجرمين العاديين .

وتعرض على المفتى المسائل العويصة التى قد تظهر عند تطبيق بعض أحكام الشريعة ، ويتوجه إليه للحصول على حكم منه باعتباره رجل الشريعة المكلف بإبداء الرأى فى العقوبات التى تطبق فى بعض الجنايات . وهذا الحكم الذى يصدره عن هذه الأمور الجنائية ، أو فى غيرها من المسائل المدنية ، مثل حقوق أطراف النزاع فى قضية ما - يسمى فتوى ، وهى تماثل منطوقا شرعيا تحدد مسار حكم القاضى . ويحرر هؤلاء فتواهم كتابة ، ولكن عندما يطلب إلى المفتى إيضاحات حول نقطة غامضة فى القانون فإنه يستدعى كبار العلماء ليناقش الحالة معهم ، ومن النادر أن يلجأ قاض ضليع فى الفقه إلى طلب رأى المفتى بل وأكثر من ذلك أن يلتزم بقراراته . ولكن عندما لايكون القاضى ضليعا فى الفقه كما يحدث فى معظم الأحوال ، فإنه يلجأ على الدوام لطلب رأى المفتى قبل أن ينطق بالحكم .

ولكل من المذاهب الإسلامية الأربعة - التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول - مفت خاص بها فى القاهرة ، لكن هذه الوظائف لاتمنح ، بل هى لقب أو جدارة تنال بالسمعة . أما فى المدن الأخرى والتى تحظى ببعض الأهمية فإن المفتى يقوم بإرسال قاض يمثله فيها ، ولايمارس هذا «المولى» وظيفته إلا لفترة قصيرة من الزمن ، وأمثاله فى تركيا يغيرون كل شهر ، ويدفعون ثمنا لوظائفهم مبلغا يتفاوت بحسب ثراء المدينة التى سيمارسون فيها عملهم ، والمولى بعد الحاكم هو السلطة الأولى فى المدينة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثمة فى مصر نظام للنساك المسلمين ، وينتشر إلى حد ما فى الولايات التركية الأخرى ، ويسمى المنتسبون إليه دراويش . وهم يعيشون فى جماعة ، ويرحلون من خلوة إلى أخرى ، وليس محرما عليهم أن يتزوجوا ، لكن لايمكن قبول زوجاتهم معهم فى الخلوة ، وعلى هؤلاء أن يقمن فى مساكن خاصة . ولكل جماعة من الدراويش دخول ، تأتيها من هبات موصى بها ومن منشآت أوقفها عليهم الخيرون من المسلمين . ولكل طريقة رؤساؤها ، ولكل خلوة رئيس يسمى شيخا ، وفضلا عن ذلك فإن هؤلاء الدراويش يتمتعون باحترام عام ، ولكنهم يتهمون بالتفلسف ، وهذا اتهام خطير عند شعب جاهل يتشبث بأخطائه بحكم التعود الطويل . فالشرقيون يسمون فلاسفة كل العقول التى لايسهل عليها أن تتقبل بسهولة الكثير من الأفكار والآراء ، وبخاصة تلك العقول التى ليست على استعداد للاعتقاد فى معجزات النبى . ومع ذلك فمن الصعب أن نقبل اتهاما كهذا يوجه إلى الدراويش ، فهم ليسوا متنورين للحد الذى يتعمقون معه فى موضوعات جادة ، بل يبدو أن مثل هذه الموضوعات لاتثير اهتمامهم . ومهما يكن الأمر فإنه يظن بكثير منهم الهرطقة وعدم الورع ، ويقول خصومهم بأنهم يجعلون من إيمانهم بالله نهاية المطاف لعقيدتهم ، فلا يلتزمون بعد ذلك بإقامة الصلاة أو الامتثال للفروض ، وبأنهم لايخضعون إلا من حيث الشكل ، وبأن كل مايتظاهرون به فارغ لاقصد منه سوى الرياء . وثمة طوائف دينية أخرى كثيرة من المسلمين ، ولكن حيث إن بعض هؤلاء من النساك العاكفين وبعضهم الآخر حجاج جوابون ، فسوف يكون من الصعب علينا أن نقدم تفاصيل موضوعية عنهم ، ولكننا نكتفى هنا بأن نتحدث بعض الشئ عن الأولياء ، وهم بالنسبة للمصريين موضع تقديس خاص .

ليس ثمة شعب لم يخلط بمعتقداته وممارساته الدينية صورا من صور الامتثال المضحك ، فلقد صور المصريون فى عصورهم القديمة الآلهة فى أشكال بالغة الغرابة والوحشية ، وقدس الإغريق آلهتهم الذين أظهروهم فى شكل النهمين بالملذات الخليعة والمنفرة ، أما الرومان فقد كان لديهم عرافوهم الباحثون عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شكل المستقبل بفحص أمعاء وجروح الأضحيات . وكم من مرة استسلم الشيوخ العظام لأول جمهورية عرفها التاريخ لشهية الدجاجات المقدسة ، أو لنتيجة استجلاء جروح الأضحيات حتى يقرروا مصير الوطن . أما عبادة الكهنة الغاليين فهى أكثر الأمور المفزعة التى يقدمها لنا التاريخ ، ومع ذلك فقد ظلت لوقت طويل عزيزة على الغاليين . وهكذا - وكأن هذا قدر لا يمكن الإفلات منه ، إذ يبدو أنه لصيق بكل أنظمة البشر - كرس المحدثون ، شأنهم شأن القدامى ، أخطاء ومعتقدات بعيدة عن العقل ، ربما لم يعد من الممكن اغتفارها مع هذا المدى الذى بلغه عقل الإنسان عما كان عليه فى تلك الأزمان الضاربة فى القدم . وفى هذا الصدد لا يقل المصريون المحدثون غرابة عن أسلافهم ، وإن كانوا أقل منهم عبقرية ومهارة ، فهم يقومون بعبادة أمور يمجها العقل ، مثل الأضرحة والأولياء ، حيث يعتقد الناس هناك أن الله قد كلف أولياء بخدمتهم ، وهيأهم للأمر بطريقة شاملة أصبحوا معها لا يبالون - أى الأولياء - بكل ما هو أرضى ، بل إنهم جميعا قد فقدوا الشعور بأحاسيسهم الدنيوية ، وهكذا يلقى البلهاء فى حياتهم الاحترام والإكبار باعتبارهم أولياء وقديسين . وثمة بعض من هؤلاء يتمتعون بقدر ضئيل من المواهب الروحية والخلقية ، لكن هؤلاء ينسحبون إلى الأماكن المعزولة ليعيشوا كنساك زاهدين ، وينهمكون فى الصلوات والتأمل . وثمة أولياء من كلا الجنسين ، ويرى هؤلاء على الدوام وهم يسيرون عراة كما ولدتهم أمهاتهم ، لكن التقديس أو قل هو العمى العام يكون بالنسبة لهم بمثابة الرداء (١) . ويدفن هؤلاء الأشخاص بعد موتهم فى احتفال كبير ، وتصبح مقابرهم بالنسبة للناس أماكن ملأى بالمعجزات . وفى الأرياف ، وكذا فى الأحياء البعيدة عن وسط المدن ، يوجد الكثير من هذه الأضرحة التى تدين بوجودها لهبات المسلمين المتحمسين . وهى

(١) يروى عن كثير من الأولياء أنهم لم يكونوا على الدوام بمنأى عن ملذات الحس ، ويقال إن القداسة التى يتدثرون بها قد سهلت لهم على الدوام وسائل إشباع كل ملذاتهم دون أن تمس قداستهم ، حيث إنهم لم يخدشوا الحياء العام أو يخرجوا على مقتضيات اللياقة .

على شكل قباب صغيرة تتفاوت درجة فخامتها ، وثمة رجال مكلفون بالحفاظ عليها والقيام بوظيفة الإمام فى هذه المساجد - المقبرة ، لكن هذا العمل على الدوام ليس مجزيا . وكثيرا ما نقابل فى الشوارع رجالا تغطيهم الهلاهيل ، يتموج شعرهم المتهدل ويمسكون بيدهم عصا . هؤلاء هم شيوخ مقابر الأولياء ، جاءوا يتكففون الناس .

وفى بعض الأحيان يلعب بعض المخاتلين دور الولى حتى ينعموا بالترحيب والاحترام ، وبخاصة كرم الضيافة ، ولكن بعد وقت - يطول أو يقصر - يتوصل الناس إلى اكتشاف الخدعة ، ويكون الهجر والاحتقار هو نصيب هؤلاء الأولياء المزيفين .

٢

الأعياد الدينية ، المبادئ الرئيسية للعقيدة الإسلامية

سبق لنا أن تحدثنا عن أعياد المصريين أثناء حديثنا عن الاحتفالات وضروب اللهو عند الشعب المصرى ، وعلى الرغم من أن أعياد المصريين كلها تعود إلى أصل دينى ، فليس ثمة سوى عيدين من هذه الأعياد يمكن اعتبارهما بحق أعيادا مقدسة ، وهذان العيدان هما : عيد رمضان (عيد الفطر) ، وعيد أضحية إبراهيم (عيد الأضحى) . ويبلغ طول العيد الأول ثلاثة أيام ، وفى هذا العيد يشكر المسلمون ربهم لأنه قد مكنهم من أن يمضوا فترة الصيام على خير . أما العيد الثانى ، العيد الكبير ، فيتم الاحتفال به فى العاشر من ذى الحجة ، وهو آخر شهور السنة ، ويستمر أربعة أيام بالنسبة لعامة الشعب ، لكن الأثرياء وكبار الشخصيات يحتفلون به لأسبوع كامل ، ويتفق حلول هذا العيد مع وصول الحجاج إلى مكة ، حيث يذبحون على الجبل أضحياتهم . وفى يوم العيد تذبح كل أسرة مسلمة فى كل أنحاء مصر حملا أو أى حيوان آخر بحسب إمكانياتها ، أما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأغنياء فيذبحون ذبائح عدة بحيث تخصص لكل فرد من الأسرة ذبيحة على الأقل ، لكن الفقراء يكتفون بأضحية واحدة .

ومما هو جدير بالذكر أن الأعياد الدينية التى قررها محمد لا تشبه فى شئ أعياد المسيحيين ، إذ هى ليست أياما للراحة ، فهى لا تفترق عن بقية الأيام إلا فى الصلوات الإضافية والأدعيات التى تتلى فى كل مسجد ، وبخلاف ذلك فإن المحلات تظل مفتوحة ويستطيع العمال أن يقوموا بأعمالهم المعتادة ، لكن الناس يفضلون أن يرفهوا عن أنفسهم ، فيرتدون أجمل ملابسهم ، وتغص الشوارع بأناس انغمسوا فى المرح .

وذكرى مولد النبى هى الأخرى مناسبة لمباهج كبرى للعامة ، فتمتلئ الميادين بالمهرجين والحواة والعوالم وباعة الحلوى ، ومع ذلك فلا ينظر لهذه المناسبة باعتبارها عيدا إجباريا، إذ يمكن الاحتفال أو عدم الاحتفال به ، والعادة وحدها هى التى أقرته . وعند حلول المساء يسارع الناس بإضاءة الأنوار ، ويستمر اللهو حتى وقت متأخر من الليل .

وثمة عادة خاصة بمصر لا تشاركها فيها فيما يبدو بقية الدول الإسلامية ، تلك هى عادة إقامة الأعياد للأولياء ، حيث لكل قرية ولكل حى من مدن مصر الكبرى ولى يحتفل الشعب بيوم مولده ، وبرغم ذلك فلا تقام أية صلوات إضافية فى المساجد . وعلى الرغم من الدافع الدينى لهذه الأعياد فإن رجال الشريعة لا يشاركون فيها على الإطلاق ، ويتركون شئون الاحتفال للسكان من كافة الطبقات ، وهؤلاء نهمون على الدوام بالبهجة وضروب اللهو (١) .

ومع ذلك فشهر رمضان هو أهم الأوقات التى ينغمس فيها المصريون فى

---

(١) يفضل المصريون الاحتفال بأعيادهم ومسراتهم فى الليل ، وهذه فى الغالب عادة كل الشعوب التى تعيش فى جو حار ، فالليل فى المناطق المدارية فى الواقع هو الوقت الذى تنشط فيه أجسامهم وملكاتهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسرات ومختلف ضروب اللهو ، فهو فى مجموعه شهر صيام وشهر مهرجانات . وقد يبدو من الغريب أن يختاروا مثل هذا الوقت للقيام بممارسات متناقضة : التوبة وتطهير النفس من ناحية ، والملذات من الناحية الأخرى . ولكن ، فلعل المشرع قد أراد بذلك أن يخفف من وطأة تلك التوبة المهلكة ، فعمل على أن تصحبها أوقات تخصص للمسرات (كذا!) ، إذ يستطيع الناس بشكل أفضل أن يتحملوا من ضروب الحرمان تلك التى تعقبها المسرات والملذات .

ولن يكون بمقدورنا أن نكون فكرة تامة عن شهر رمضان ، شهر صيام المسلمين ، إذا اتخذنا من صيام المسيحيين طرفا للمقارنة ، فلقد منح محمد نفسه كامل الحرية فى تقديره لنمط الرجل الفاضل الذى ينشده والذى سيحوز مباهج العالم الآخر ، لدرجة أنه قرر نظاما بهذه القسوة مع أتباعه فى هذا الصيام السنوى . فالصوم يستمر لشهر قمرى كامل ، ويأتى فى أوقات غير محددة ، إذ يأتى أحيانا فى الصيف وأحيانا فى الشتاء ، لكن الشريعة تظل فى كلا الفصلين على قسوتها ، فينبغى على المرء أن يحرم نفسه من كل طعام ابتداء من شروق الشمس حتى غروبها ، ولا يستطيع خلال هذه المدة لا أن يشرب ولا أن يدخن ، ومن السهل أن نتخيل قسوة مثل هذا الصيام ، إذا ما تصورنا كيف يكون العطش فى منطقة مدارية كمصر ، وهو أشد أشكال الحرمان استعصاء على التحمل ، وفى الوقت نفسه يكون على العامة الذين لا يستطيعون الاستغناء عن عملهم اليومى الذى يتكسبون منه عيشهم ، الانتظار حتى نهاية اليوم ليرووا غلتهم ، ويرى المرء فى فترة هذا الصوم حمالين يسيرون – كما فى الأيام العادية – وهم يحملون أحمالا ضخمة ، أو يعملون بطريقة شاقة أطول وقت من النهار ، دون أن يرطب حلقهم الجاف قطرة من ماء ، ودون أن يتناولوا وجبتهم الصغيرة المعهودة لتنشيط قواهم التى هدها العرق والتعب . ولكن ما أن يأتى المساء حتى يتغير المشهد ، إنهم لم يعودوا نفس الرجال ، فالليل بطوله ينقضى فى الولائم وضروب اللهو والفجور . فى النهار يفعل كل امرئ قدر طاقته كى ينهى أعماله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسرعة ليخصص بضع ساعات للنوم ، فترى الفلاح راقدا تحت النخلة بعد أن أنهى فى فترة الصباح عمله ، وترى التاجر يرقد على بنك دكانه ، والعامة ممددين فى الشوارع بجوار جدران مساكنهم ، وكذلك الغنى راقد بالمثل ، نعسان ينتظر على أريكته الفاخرة الفترة التى تسبق غروب الشمس . وأخيرا تأتى تلك الساعة التى طال انتظارها! فينهضون على عجل ، ويهرع كل امرئ للحصول على مكان مرتفع ، وتتجمع النساء فى شرفات منازلهن ليرين حركة اختفاء الشمس . وتبدأ الشمس تشحب رويدا رويدا ، ويتآكل قرصها ليختفى وراء الأفق، وتنمحى - والناس فى مشقة الانتظار - أشعتها ، حتى أن العامة وسكان القصور والقابعات فى معاقل الحريم- كل هؤلاء يحيون بصوت جماعى تلك النهاية التى تلكأت طويلا طويلا ، وتعلن الأغنيات البهيجة حلول وقت المسرات ووقت الطعام ، وتدوى من كل المساجد أصوات المؤذنين الجادة تنادى الناس للصلاة ، وتحدث همهمة واضطراب عام ، فيتفرق الناس على الفور ، وتنفض الجماعات ويتبعثر المتجمعون إما إلى المقاهى وإما إلى البيوت أوالمساجد أوالميادين العامة . ويأكل كل امرئ بشراهة ، ويقيم الأثرياء مآدب باذخة ، ويقدمون للفقراء فضلات موائدهم . ويقدم الطعام للجميع - بلا تمييز - لكل الحاضرين ، وهذه العادة الحميدة بلاشك ، تطبق فى كل ولايات السلطان .

ويعقب الطعام الاحتفالات والألعاب ، وتسيطر الخلاعة الجامحة على كل ضروب اللهو فى ليالى الفسق هذه ، وتظل المساجد مضاءة حتى بزوغ النهار ، ويقضى أفاضل الناس ليلهم فى حديث نافع ، لكن الجمهور يذهب إلى المقاهى حيث الرواة والمنشدون يقصون - بحماسة ملتهبة - مغامرات عجيبة تخلب الألباب بطريقة فريدة . ويهرع البعض إلى الحمامات : فهناك على وجه الخصوص تزدهر الملذات ، وتتم لقاءات الغرام ، والعاملون بالحمامات - المعتادون على هذا النوع من الأمور - هم على الدوام عصب هذه المغامرات العاطفية . وهكذا ينتقم الجنس من سجانه وطغاته ، ولكن ينبغى أن تحاط مثل هذه المغامرات بأكبر قدر من السرية ، وإلا فإن غضب الزوج المطعون فى كرامته لن يعرف لنفسه حدودا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويمكن القول أن الميادين العامة هى الأماكن التى تعرض فيها أكبر م
الفسق مدعاة للخجل . فهناك يقدم بعض الحواة والمشعوذين مشاهد شـ
تنتهى بلوحات بالغة الانحطاط والفظاظة ، تشكل فسادا مدهشا للتقا
والممثلون الرئيسيون فى هذه اللوحات هم على الدوام شيخ وطفل . وبرغم
فلو أننا حكمنا على تقاليد الأمة بأكملها عن طريق الميل الذى يبديه أبناء ا
عادة نحو هذه العروض ، لكونا بالتأكيد فكرة خاطئة وظالمة ، فمثل هذه الع
الماجنة لا تجذب إلا السوقة والرعاع ، ومثل هؤلاء الناس فى كل مكان ، ت
لرؤية مشاهد الغلمة والفسق بكل عريها ، لكن ما يدعو إلى الأسف حقا ،
تسمح السلطات بمثل هذه العروض .

بل إن مباهج رمضان تصل إلى معاقل الحريم ، ففى رمضان يـ
للسيدات باستدعاء العوالم وبعض الموسيقيين ، ويجلس الزوج باسترخاء ولا
على أريكته ، ومبسم غليونه فى فمه ، وإلى جانبه أحب زوجاته إلى قلبه ، ليـ
بمتعة شديدة إلى أغنيات العوالم وصوت الموسيقى ، ويحيط الزوجين
العبيد ، واقفين من حولهما أو جالسين القرفصاء على حصيرة . ولابد أن
المرء إعجابه بذلك التمثيل الصامت (بانتوميم) للعالمة الشابة وهى تصور فى
وشهوانية ، الصراع بين الفسق وبين العفة . ويحيط بقامتها الرشيقة
معقود برخاوة ، يبدو كأنه الحاجز الوحيد الذى يصد عنها هجمات الحب .
لتعقده من جديد - برخاوة أيضا - كلما بدا أنه قد بدأ يستجيب بفعل قوة لا
وهى ترقص على نغمات الآلات ، لكن الحزام تزعزعه حركات الراقصة فينة
جديد رويدا رويدا . عندئذ تتنبه العفة فجأة بعد أن نومتها الشهوة ، فـ
الراقصة الحزام من جديد ، وبنفس الرخاوة ، ويتخذ الرقص مظهرا أكثر
ووقارا . لكن ذلك يخلى مكانه مرة أخرى لحيوية الإحساسات والشهوة التى
العالمة فريسة لها .. وتتجدد نفس الظروف وتضعف العقدة الرهيفة التى تحوا
الحب ، وتعقدها الراقصة من جديد ، لكن الحب ينتصر ولا يعود أحد يعـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على انتصاره ، وتستجيب العالمة فى النهاية لعواطفها ، فتبطئ من حركاتها وتبدو غارقة فى هيام لذيذ ، ويصفق الحاضرون لها بحماسة وإعجاب . ويحدث تمثيلها الشهوانى الصامت أثرا يفوق الوصف على مشاهديها ، وبخاصة على الزوجة ، فتخرج عن طورها - كما شاهدنا ذلك عدة مرات - متأثرة بتلك الرقصة الشهوانية ، فتصل صوتها بصوت المغنين وتقلد حركات العالمة .

لن نمضى طويلا فى وصف تقاليد المسلمين أثناء شهر رمضان ، فقد حان الوقت لأن نعود إلى موضوعات أكثر جدية . لنلق نظرة سريعة على الدين بشكل عام ، حيث إن من الصحيح أن للدين فى مصر بصفة خاصة - وأكثر من كل البلدان الأخرى - تأثيرا على كل النظم المدنية والعادات الاجتماعية .

ينبغى على المسلم أن يعتقد بوحدانية الله (١) فى رسالة محمد ، مع الإيمان بكل ما جاء فى القرآن باعتباره كلاما مقدسا (٢) ، وأن يؤدى الصلوات الخمس مع أداء الوضوء الذى لا غنى عنه لممارسة هذه الصلوات ، وأن يحرص على صيام رمضان ، وأن يؤدى للفقراء جزءا من دخوله هو حق لهؤلاء الفقراء (٣) ، وأن يحج إلى مكة مرة واحدة فى العمر .

ويعترف المسلمون - شأنهم شأن المسيحيين - بقدرة الله وعدالته ومعرفته بالغيب ، لكنهم يعتقدون أكثر من المسيحيين بالقضاء والقدر ، وإن كانوا يختلفون فى درجة تمثل هذه الفكرة . ويقودهم هذا الاعتقاد إلى استسلام لاحدود له يميزهم عن سائر الشعوب ، ويعتقدون فى نفس الوقت أن الأفعال الإنسانية وأحداث العالم محددة بنظام ثابت ، حتى أنه ليس بمقدور المرء أن يتفادى ما

---

(١) ينبغى الاعتقاد بصورة مطلقة فى وحدانية الله ، فعلى المسلم الحق أن يؤمن بأن الله أحد وبأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

(٢) يعتقد المسلمون أن الله أنزل القرآن على محمد عن طريق الملاك جبريل آية آية على مدار ٢٣ عاما .

(٣) من أهم الصدقات الإجبارية التى على المسلم تقديمها ، صدقة عيد الفطر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سيكون ضارا به حتى ولو كان مرضا معديا [1] . ويفسر استسلامهم الطبيعى على الدوام بأنه خضوع أعمى لمشيئة القدر .

ويرى المسلمون أنه لا يمكن تمثل الله على أية صورة ، كما يرون أنه لا ينبغى التعمق فى البحث فى ذات الله ، ولكن ينبغى فقط البحث فى صفاته . ويرى بعضهم أن الروح منبثة فى كل خلايا الجسم ، وأنها تجرى مع الدم فى العروق ، ويرى آخرون أنها مثل الشمس تتوزع أشعتها على كل أجزاء الجسم ، وقد قال محمد عن الروح أنها من أمر الله . وعلى العموم فإن المسائل الميتافيزيقية التى مزقت مدارسنا المسيحية طويلا ، لا يميل إليها علماء المسلمين إلا قليلا ، فمعتقداتهم أفكار مسبقة ، وهم لا يسعون لتفسير ذكاء العقل الإنسانى، وينظرون إلى موسى وإلى المسيح باعتبارهما من الأنبياء . فالمسيح هو روح الله جاء عن طريق نفخة من جبريل فى العذراء ، وبعدما قام برسالته على الأرض صعد إلى السماء حيث الذات العليا ، وحيث يعيش الآن ، وأن الكفرة الخاطئين فى تواطئهم الإجرامى لم يقتلوا أو يعذبوا إلا شبيها له .

ويتفق العلماء على أن اليهود والمسيحيين الذين عاشوا قبل رسالة محمد كانوا مؤمنين بحق ، ولكن حيث إن هذه الرسالة الأخيرة قد جاءت لتغير وتصلح من كل الشرائع التى جاء بها الأنبياء السابقون ، فإن أتباع موسى الحاليين وكذا أتباع عيسى كفار وغير مؤمنين .

ويرى المسلمون أن العالم مخلوق ، وأن الله وحده هو الأزلى ، ولا يعود زمن الخلق إلا إلى ألف عام وبضعة قرون ، والفترة التى ينبغى أن يحياها العالم غير مؤكدة ، وينصح محمد أتباعه ألا يحاولوا مطلقا البحث فيها . وقد خلق الله الخلق فى ستة أيام : فخلق الأرض فى يوم السبت ، وشكل الجبال فى اليوم التالى ،

---

(١) يختلف المسلمون حول هذه النقطة ، فيذهب الأحناف والأتراك عموما إلى أن الإجراءات الصحية تعتبر مظهرا مبينا لقدرة الله ، لكن بقية المذاهب أقل تعنتا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى اليوم الثالث خلق الأشجار والنبات ، وفى الرابع خلق الآلام والفتن الاجتماعية (وهو يوم سئ الطالع) ، وفى اليوم الخامس خلق الظلمات والنور ، وفى السادس خلق الحيوانات . وظهر آدم فى اليوم السابع لأول مرة على ظهر الأرض ، وكان قد تشكل منذ أربعين يوما .

ويؤمن المسلمون أيضا بهذا الاعتقاد الباعث على الأمل والمواساة ، وهو : الإيمان بخلود الروح ، وهذه الفكرة هى بمثابة المحور لكل معتقداتهم . وعند الموت تصعد روح المسلم الحق إلى الجنة ، وهى خضراء على الدوام ، لتنتظر يوم الحساب الأكبر والأخير ، أما روح المسئ فتبقى أسيرة فى المناطق المعتمة والآسنة . ولكن عندما تقوم الساعة ، وتحل ساعة الحساب ، فإن العالم سوف ينقلب رأسا على عقب ، وتتشكل الأرض من جديد ، وتفتح فى النهاية أبواب الجنة وأبواب النار ، ويتفحص الله محاطا بكل رسله أعمال البشر . وتعود الأرواح إلى الأجساد التى ستنهض من تلقاء نفسها بكل حيويتها ، وعندئذ يدخل العادلون فى جنة النعيم لكى لايخرجوا منها ، أما الآخرون فيذهبون ليكفروا عن جرائمهم . ولكن ليس ثمة عذاب أبدى إلا لمن لم يصدقوا برسالة وكلمة محمد [1] .

---

(١) السعادة التى وعد بها محمد أتباعه حسية خالصة ، وهى عبارة عن ملذات شهوانية أبدية . ويقول المسلمون إن كل إنسان يوم البعث سيكون فى قوة وقامة الإنسان الأول ، التى لم تكن تقل - تبعا لأقوالهم - عن خمسين قدما ، وسوف تكون النساء على درجة من الجمال تشعل معها قلوب الرجال بعاطفة تتجدد على الدوام ، ويستطيع الرجل إشباعها إلى مالا نهاية دون نفور أو ملل . أما النساء فلن يحملن مطلقا ، لأن هذه الملذات ستكون على نحو ما ملذات علوية ، ولن يترتب عليها شئ من نقائص الطبيعة البشرية . وسيحتفظ العقل وكل الأطراف بكل حيويتها ، كما أن الذين سيعمرون هذه الجنان سيتمتعون بسعادة لا تحول وبكل مباهج الوجود وملذات الحس ، إذ إن أجسامهم ستظل على قوتها للأبد . ويشيع الاعتقاد فى أوربا أن محمدا قد استبعد النساء من جنته [*] ، وهذا خطأ ، فقد قال مؤلف كلاسيكى . « إن ما قيل عن الرجال بخصوص الجنة هو نفسه ما قيل عن النساء » . وحيث إنهن خاضعات لنفس الفروض الدينية مثل الرجال فينبغى أن يتمتعن بنفس المكافأة .
=

وليس ثمة طريق للحصول على مكافأة الحياة الآخرة إلا الطهارة والصلوات ، ويستطيع المسلم أن يؤدى صلاته فى أى مكان ، فيبسط على الأرض سجادة أو حصيرة أو حتى شال عمامته ، ويستدير بوجهه جهة مكة . وصلاته قصيرة لكنها حية ، وإذا لم يكن ثمة ما يمنعه من الذهاب إلى المسجد فينبغى أن يؤدى صلواته هناك ، فهذا أفضل . أجل إن الله - حقا - فى كل مكان ، لكن من الأفضل أن نعبده فى بيته .

وفى داخل كل مسجد ، ثمة حوض كبير ملئ بالمياه ، هناك يغسل المسلمون الأجزاء المستورة من جسمهم (الاستنجاء) ويطهرون أيضا لحيتهم وذراعيهم حتى المرفقين . وعندما يجوبون صحراوات لا ماء فيها ، فإنهم لا يعفون من أداء نوع من الوضوء ، يحل فيه الرمل الناعم أو التراب الطاهر محل الماء الذى ينقصهم (التيمم) .

=

فالصلوات الخمس وصيام رمضان والحج إلى مكة ، كل هذه فروض إلزامية على الجنسين . لكن النساء لا يستطعن لا أداء الصلاة ولا صيام رمضان أثناء فترات الدورة الشهرية ، لأنهن فى هذه الفترة لا يتمتعن بالطهارة الواجبة للعبادة . ويؤكد الكثيرون أن النساء كان بمقدورهن أن يتوجهن إلى المساجد فى أيام النبى ، لكن الخليفة عمر عندما لاحظ ما يسببه وجودهن من سرحان عند الرجال وما يمكن أن ينتج عن ذلك من فضائح ، أمرهن بأن يؤدين الصلاة فى بيوتهن .

(*) وهذا ما نجده عند منتسكيو حين يقول . « وحيث إن النساء من طبيعة دون طبيعتنا وحيث إن أنبياءنا قد قالوا إنهن لن يدخلن الجنة ... Lettres Persanes, Lettre XVII

بل إن فولنى Volney نفسه - برغم تبحره فى دراساته الشرقية - قد ذهب إلى ذلك حيث يقول فى كتابه : Voyage en Egypte et en Syrie, t. II, p . 323.

« إن محمدا برغم شدة ولعه بالنساء لم يمنحهن شرف معاملتهن كجزء من الجنس البشرى ، فهو لم يشر إليهن لا بخصوص الفرائض الدينية ولا بخصوص مكافآت العالم الآخر . لكن هذا الزعم لم تكذبه كل مؤلفات رجال الدين الإسلامى فحسب ، بل إن القرآن نفسه ليس فيه ما يؤكد صحة هذا الزعم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والهدف من صيام رمضان بلا شك إرغام المسلمين على أن يولوا اهتماما أكبر إلى واجباتهم الدينية ، حيث إن عليهم فى هذا الوقت أن يحرموا أنفسهم من جزء كبير من الملذات الحسية ، فأرواحهم التى تحررت طيلة النهار من الهموم التى تشغلها عادة ، يمكنها أن تنغمس بحماسة أكبر فى التأمل والصلاة . وهم لا يأكلون إلا فى الليل كما قلنا ، والليل هو كذلك الوقت الوحيد الذى يسمح لهم فيه أن يقربوا زوجاتهم . ومن جهة أخرى فقسوة الصيام لا تمتد لأبعد من ضروب الحرمان هذه ، إذ باستطاعتهم أن يأكلوا كل شئ كما يحدث طيلة العام . ورمضان هو زمن الصوم الإجبارى الوحيد ، والمسافر الذى يقوم برحلته أثناء الصوم ألا يصوم ، لكنه ملزم بأن يعوض بعد ذلك الأيام التى سيفوته أن يصومها .

والحج إلى مكة واجب إلزامى ، ينبغى على كل مسلم حق القيام به ، ومع ذلك فحيث ليست هناك سن محددة لأداء الحج ، وحيث إنه ليس ملزما بذلك إلا عند المقدرة ، فكل مسلم يؤجل هذه الرحلة ، وقد ينتهى به الأمر بأن يعفى نفسه نهائيا من الحج . ومن هنا يحدث أن كثيرا من المسلمين يموتون دون أدائهم للحج .

ويحرم محمد على أتباعه - وهو الذى يحتم عليهم الطهارة الخارجية فوق كل شئ - الاتصال بزوجاتهم أثناء الدورة الشهرية التى تتعرض لها النساء ، وكذلك أثناء الأربعين يوما التى تعقب الولادة ، لكنهم يستطيعون الاتصال بنسائهم أثناء الرضاعة . ويخول للمرأة التى تحمل أثناء الرضاعة أن تواصل إرضاع طفلها أثناء الأشهر الأولى من الحمل ، على الرغم من أن الأطباء يرون أن لبن الأم فى تلك الظروف لا يكون صحيا .

وتسمح الشريعة الإسلامية بأكل لحوم الحيوانات المجترة ، لكنها تحرم من بين كل الحيوانات ذات الظلفين أكل لحم الخنزير ، ولا يحرم أكل الخيول إلا أتباع المذهب الحنفى ، وينبغى على المرء أن يغسل الإناء الذى شرب منه الكلب سبع مرات قبل أن يستطيع استخدامه من جديد . وتختلف المذاهب حول علة هذا المبدأ ، فيرى البعض أن الكلب دنس بطبعه ، ويرى آخرون أن الدنس فيه فقط هو أنفه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفمه ، ويرى فريق ثالث أن محمدا لم يقدم هذا النصح إلا خشية أن يكون الكلب قد تناول طعاما أو شرابا غير طاهر . ونحن ندخل في كل هذه التفاصيل ، كي نعطي فكرة عن نوع عقلية المذاهب المختلفة ، فهي لا تختلف مطلقا إلا حول مثل هذه الأمور الواهية .

وينظر إلى الدم باعتباره غير طاهر ، لذا لا يمكن تناول لحم حيوان نفق بشكل طبيعي ، أو قام البعض بخنقه ، فلا بد أن يذبح وأن تسيل دماؤه . ويخضع لهذه القاعدة أيضا الصيد الذي يقتله طلق ناري ، لذا يسارع المسلمون بقطع رقاب الطيور والأرانب أو الحيوانات الأخرى التي يصيبونها بطلقاتهم ، والسمك وحده لا يتطلب مثل هذا الأمر (١) .

وقد لاحظنا أن ثمة تماثلا كبيرا بين تعاليم المشرع العربي ومحرمات موسى ، ومن الواضح أن محمدا قد استعار عن المشرع اليهودي إجراء صحيا أراد أن يجعله غير قابل للنقض من قبل الناس . صحيح أن لحم الخنزير له آثار بالغة الضرر على بنية من يتعودون عليه في البلدان شديدة الحرارة مثل أفريقيا وآسيا ، بل إن هناك من يؤكد أن الجذام ليس له من سبب إلا التعود على أكل لحوم الخنزير، وليس لمحمد من هدف في إلزام أتباعه بالوضوء وطهارة الجسم سوى ضمان صحة أتباعه ، والقرآن مليء بالمبادئ الحكيمة حول طريقة الحياة ، وكلها تهدف بوضوح لنفس الغاية . وختاما نقول إن المسلمين ينفذون بدقة كل ما فرض عليهم ، ونادرون أولئك الذين يسمحون لأنفسهم من بينهم بالخروج على أوامر النبي . ومع ذلك فلسوف تكون سعادتهم أكبر لو أدركوا المغزى الفلسفي العميق لبعض هذه الأوامر والمعتقدات ، تلك التي تبدو طيعة ومواتية وهي تحدث أثرها المطلوب في أجسامهم .

---

(١) ليست النباتات ولا الحيوانات دنسة ، ومع ذلك يمتنع المسلمون عن أكل لحوم الفرائس لسبب يعود إلى نفور طبيعي أكثر مما يعود إلى دافع ديني . ويرى المذهبان الشافعي والحنفي تحريم استخدام الزواحف كغذاء ، لكن المالكيين يستثنون من ذلك الثعابين إذا ذبحت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣

الحكومة

كانت حكومة الإقليم تتكون قبل مجئ الجيش الفرنسي من : الباشا ، ورؤساء الأوجاقات السبعة ، و٢٤ بك . وكان البك الأول يتولى وظيفة شيخ البلد ، وكان يحكم القاهرة ومصر ، أما المنصب الثاني فهو منصب أمير الحج ، وذلك على الرغم من أن هذين المنصبين – حسب دراسة عن نظام البلاد الإداري – يمكنهما أن يجتمعا في منصب واحد . وأمير الحج موكل بحراسة المحمل ، ولايعني لقبه شيئا آخر سوى أمير الحج أو أمير الحجاج . والشخصية الثالثة في الحكومة هو الدفتردار أو المستشار . وبعد هذه المناصب العليا يأتي البكوات حكام الأقاليم ، وتتحدد درجتهم بحسب أهمية ولاياتهم ، وعلى هذا كان حاكم جرجا يعد أول هؤلاء البكوات ، وكان يحمل لقب باشا بذيلين (*) ، أما البكوات الآخرون فأقل امتيازا .

وكانت كل السلطة التنفيذية مركزة في يد شيخ البلد ، وهو في الواقع حاكم مطلق ، إلا إذا جاءت ظروف غير عادية لترغمه على اقتسام السلطة . وهكذا كان

(*) يذكر الصديق الأستاذ رينيه خوري في إحدى دراساته المخطوطة – وهو باحث مدقق – أنه كانت هناك درجات لرتبة الباشا هي كما يلي :-

١- باشا بذيل : وهذه الدرجة تعادل رتبة الفريق .

٢- باشا بذيلين . وهي تعادل ما كان يسمى برتبة الميرميدان .

٣- باشا بثلاثة ذيول . وهي تعادل ما يسمى برتبة المشير .

ولم يكن يحمل الرتبة الأخيرة في كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية إلا ثلاثة فقط ، هم : الصدر الأعظم ، قبطان باشا ، والي مصر .

وعند مرور موكب أي باشا كانت تسبقه حربة مرفوعة، مثبت بها عدد الذيول التي تحدد درجته ، كما كانت توضع أمام بيوتهم فوانيس مذهبة أو فضية تنتهي رؤوسها بريشة واحدة أو اثنتين أوثلاث بيضاء أو بنية اللون ، ويتفق عدد هذه الريشات مع درجة الباشا ساكن البيت . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمر وقت نزول الجيش الفرنسى أرض مصر ، فقد كان مراد بك – وهوالذى كان أميرا للحج وشيخا للبلد والذى لم يكن يحتفظ مع ذلك إلا بجزء من اختصاصات هذين المنصبين – يحكم ثنائية مع إبراهيم بك شيخ البلد الأصلى ، وكان يتحتم أن يوقع شيخ البلد كل الأوامر المتصلة بالإجراءات الاستثنائية والضرائب الإجبارية الباهظة على الولايات والمدن حتى تصبح سارية المفعول . وهكذا يمكن القول بأنه قد ركزت فى يده على الدوام قوة وسلطة الحكومة .

وكان حق تحصيل الضريبة المخصصة لمكة من اختصاص أمير الحج . لكن هذه الضريبة أصبحت شيئاً مخالفاً لما كانت عليه فى فترات سابقة ، حيث ظلت تنكمش شيئا فشيئا – بفعل سطو البكوات الآخرين – حتى لم تعد حصيلتها تبلغ إلا مقداراً ضئيلا .

وكان شاغل هذين المنصبين بدرجة باشا بذيلين ، وكذلك كان حاكم ولاية الشرقية ، وإسلام باشى الذى كان مكلفا بالسير أمام المحمل عندما يعود إلى القاهرة ، لكى يمد المسافرين بالمؤن والجمال والخيول والبغال .. الخ ، التى قد يكونون بحاجة إليها بعد سفر بهذا الطول . وفى البداية لم يشأ سليم الذى قسم وظائف الدولة على هذا النحو ، وحدد كذلك اختصاصاتها – أن يتم اختيار هؤلاء الموظفين الكبار من بين المماليك أو السناجق ولا من أبناء البلاد لأسباب أقوى ، إذ كان العثمانلى على الدوام يكنون نوعا من الاحتقار للعرب ، وكان هؤلاء بدورهم برغم ريائهم للعثمانلى وخداعهم لهم يكنون لهم نفس الاحتقار . ويعود تعيين الـ٢٤سنجقا كذلك إلى عهد سليم . وقد خول هذا الأمير لـ٢١منهم بأن يكون لكل منهم فرقة من الموسيقيين ، تتألف من : ٦طبلات ، ٦نقارات (دفوف) ، ٦مزمار ، نفيرين ، وصنجة واحدة . وكانوا يحصلون على عطاء يصل إلى ١,٠٠٠ أردب من القمح فى العام . أما البكوات الثلاثة الآخرون فلم يكن لهم الحق لا فى الفرقة الموسيقية ولا فى العطاء السنوى . وكان يختار من هيئة الـ٢١ هؤلاء حكام ولايات : الشرقية ، المنصورة ، البحيرة ، المنوفية ، أطفيح ، الجيزة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البهنساوية ، الفيوم . وكان بك جرجا يحكم البلاد التى تمتد من المنيا حتى آخر حدود الصعيد . وكان الدفتردار أيضا يخرج من بينهم .

وكانت الوظائف المشار إليها سنوية ، وفى نهاية العام ينتقل شاغلو هذه الوظائف إلى مراكز أخرى ، أو يصبحون أفرادا عاديين ، كما أن بإمكانهم أن يثبتوا ، وهذا ما كان يحدث عادة وخاصة فى السنوات الأخيرة . أما الباشا فكان يتغير على الدوام حسبما يتراءى للباب العالى أو بنصيحة من المماليك . وفضلا عن ذلك ، فقلما كانت تسمح الشقاقات والنزاعات المستمرة التى تهز مصر لأصحاب المناصب البقاء فى مناصبهم تلك ، فقد كانت العصب المتشاحنة على الدوام يقلب بعضها البعض ، وتتبادل السيطرة والمناصب ، وذلك هو ماقدمته حكومات المماليك منذ حوالى نصف قرن .

وكانت للبكوات الثلاثة الأخيرين فى سلسلة الـ ٢٤سنجقا مهام ثانوية . فكان أحدهم كخيا أو وكيلاً للباشا ، وكان الثانى شركة - بك ، وهو يقتسم منصبه مع زميل له ، ولم يكن أى منهما يتمتع بسلطة من أى نوع ، أما المنصب الثالث فكان يشغله كذلك اثنان من البكوات ، وكان أحدهما يحكم البلدة المسماة بقران فى ضواحى الجيزة ، أما الآخر فكان يحكم المنطقة المجاورة للمنصورة .

وقد نظم سليم سبعة أوجاقات أو سبع فرق عسكرية : أولها فرقة (أوجاق) الانكشارية (ومعناها الفرقة الجديدة) ، ويشكل العزبان الأوجاق الثانى ، والمتفرقة الأوجاق الثالث ، والجاويشية الرابع ، والجامولیان الخامس ، والتافكجيان السادس ، وأخيرا يأتى أوجاق الشراكسة . وكان للأوجاقات الأربعة الأولى نظم خاصة بكل منهم ، أما الثلاثة الأخرى فتخضع لقانون عام .

وكانت حراسة القلعة موزعة بين الباشا وأوجاقى الانكشارية والعزبان ، وكان الباشا يحتل بابين من الأبواب الأربعة الموجودة فى القلعة : أحدهما يؤدى إلى الجبل والثانى إلى قراميدان . أما الباب الثالث فيسمى باب الانكشارية ، ويسمى

الباب الأخير باب العزبان . وكان يحرس باب الانكشارية كخيا (متولى) ، وكان تحت إمرته ٦ جاويشية و٥٠ أوده باشى . وكان لكل من هؤلاء الضباط مسكن بالقرب من الباب ، ولهم أربعة رؤساء يختارون من بينهم هم الذين يصبحون جاويشية ، وكان الأوده باشى أو رئيس الحجرة لا يركب إلا الحمار. وكان للجاويش الدلامة السوداء ، وخفان أحمران ، وقاووق أو عمامة من القطيفة السوداء .

والدلامة ليست إلا جلبابا واسعا من الجوخ الأسود . وعندما يصبح هذا الشخص سراجا للأغا ، يضيف إلى قاووقه قطعة من الموسلين الأبيض .

لكن هذه الفرق العسكرية قد دبت فيها اليوم عوامل الوهن ، فالمماليك وحدهم هم الذين يصنعون القانون ، وجنودهم هم الذين يحتلون الميادين الهامة ، ويديرون شئون الفرق الأخرى . ولم نتناول فى حديثنا عن الوظائف الهامة للحكومة اختصاصات القاضى ، ذلك أن اختصاصات القاضى ذات طابع مدنى صرف . وهو يعين من قبل الباب العالى مثل الباشا ، ويختار القاضى قضاة الأقاليم ، وهو يختارهم جميعا من أهالي البلاد ، ومن خريجى الأزهر ، حيث درسوا الشريعة وكيفية تطبيق القانون . ويفضل خريج الأزهر هذه الوظيفة على كل الوظائف الأخرى ، لأنها تقود بسرعة نحو الثروة ، وتحظى باحترام الناس .

وقد حدد السلطان سليم القلعة كمقر إقامة للباشا ، ولا يجوز له أن يختار مقرا آخر .

وكان هو الذى يخلع الخلعة على من وقع عليهم الاختيار لشغل المناصب ، ويتلقى هدية من كل من يعينهم [1] . ولكن بعد أن استعاد المماليك سطوتهم تغير كل شئ ، ولم يعد الباشا فى السلطة إلا مجرد ظل يعانى من كل نزوات المماليك ،

---

(١) كانت الخلعة عند الأتراك – كما هو معروف – تقدم إلى المحتفى بهم فى حفل تنصيبهم ، وهى عبارة عن قفطان وجبة ، ولم يكن يقدم فى المناسبات الثانوية سوى القفطان ، وهو معطف مفتوح من قماش متين ، بطانته بيضاء بورود صفراء . وقد جرت العادة أن تزدان الجبة بفراء ثمين ، وأحيانا كان يكتفى بتزيين حوافها ، وكانت الجبات التى يخلعها السلطان غالية الثمن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بل يمكن القول بأنه كان واقعا تحت رحمتهم ، وهذا هو الحال الذى كانت عليه مصر عندما دخلتها قواتنا .

قلنا إن أميرالحج أو أميرالمحمل كان موكلا بوجه خاص بقيادة الحجاج إلى مكة، وبتأمين طريق العودة لهم . وحيث إن سفر المحمل كان حدثا هاما بالنسبة لمدينة القاهرة بل لمصر كلها، فسندخل فى بعض التفاصيل عن الحفلات التى كانت تتم بهذه المناسبة .

عندما يقترب الموعد المحدد لسفر المحمل يتجمع فى القاهرة كل المسلمين القادمين من أفريقيا، والذين يريدون الانضمام إلى المحمل، ويصل آخرون من القسطنطينية، ومن روميلى، ومن الأناضول، عن طريق البحر، حتى يختصروا جزءا من المسافة التى كان يجب عليهم سلوكها إذا ما اتبعوا الطريق المعتاد . ويعسكر هؤلاء الحجاج خارج المدينة، ويكون عددهم فى بعض الأحيان كبيرا جدا، إذ يخرج من مصر وحدها ما بين ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ حاج . وحيث إن هؤلاء الحجاج مضطرون لاجتياز مناطق شاسعة، تكاد تكون كلها صحراوية، ومبتلاة بعشائر العربان الذين ليست لهم من حرفة سوى السلب والنهب، فإنهم مرغمون على التزود بالسلاح والذخيرة، وتهيئ لهم حكومة مصر فوق ذلك ركبا قوامه ٥٠٠ فارس تحت إمرة أمير الحج، يضيف إليهم هذا القائد بيته العسكرى (مماليكه) وبعض جنود من البرابرة، بالإضافة إلى الرجال العاملين فى خدمة كبار الشخصيات الموجودة بالمحمل . ومن حق أمير الحج أن يرث كل حاج يموت فى الطريق، وليس من حق أحد أن يطالب بشئ من مثل هذه التركات . وتستغرق رحلة الذهاب أربعين يوما، ومثلها فى رحلة العودة، وبذا تمتد فترة المحمل إلى حوالى ثلاثة أشهر . وتبدأ مسيرة المحمل فى السابع والعشرين من شوال، لكن الصعوبة التى نجمت عن فرض إتاوة أصبحت تؤدى - منذ عدة سنوات - إلى تعطيل السفر حتى ٢ أو ٣ من الشهر التالى . ويختار كل حاج أن يركب نوع الدابة التى تروقه، وهم يفضلون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على وجه الخصوص البغال والحمير؛ لأن هذه الحيوانات أكثر من الحصان تحملا للتعب وضروب الحرمان .

وقبل الرحيل بعدة أيام ، تعرض الكسوة أو السجادة المخصصة لتزيين الكعبة فى موكب كبير . وهذاالموكب عيد شعبى كبير، فيذهب كل سكان القاهرة فى جماهير غفيرة إلى الميدان الكبير الذى تطل عليه القلعة والذى يسمى قراميدان، وهناك يسلم الباشا - يحيط به عدد كبير من البكوات مع بيوتهم[1]، ورجال الأوجاقات والأغا وكبار موظفى الحكومة - يسلم السجادة المقدسة إلى يدى أمير الحج بعظمة وخيلاء، وتحرر حجة بهذه الوديعة، وبعد ذلك يكون من واجب كل أئمة المساجد وكل المتدينين بالمدينة أن يصحبوا السجادة، فتحمل على جمل وتمر من باب النصر، ويمضى الموكب إلى معسكر الحجاج، وتوضع السجادة فى صندوق مغطى بأقمشة فاخرة مطرزة تطريزا فاخرا . ومنذ هذه اللحظة يقيم البك أمير الحج وسط المعسكر، ويضرب كل المسافرين تجارا كانوا أو حجاجا خيامهم حول خيمته، ويكون من حق أى منهم أن يشرع فى السفر، لذلك ينتهز كثير من التجار هذه الفرصة الفريدة لكى ينقلوا بضائعهم دون أن يدفعوا رسوم الدخول أو الخروج، فيحملون على ظهور الجمال صبغة النيلة والأصواف وبضائع ثمينة أخرى وكثيرا من الأموال، ويجلبون معهم عند العودة شيلان (شال) الكشمير والموسلين والأقمشة الفاخرة والبن[2] .

(١) يقصد بالبيت عند الحديث عن أحد البكوات كل رجاله ومماليكه .

(٢) من نافلة القول أن تلفت الأنظار إلى أن للحج إلى مكة الذى فرضه محمد أغراضا سياسية أكثر منها دينية، إذ كان يأمل عن طريق الحج أن تزدهر التجارة فى شبه الجزيرة العربية، لتصبح واحدة من أهم أسواق التجارة فى العالم.

وقد تحقق هدفه ولو كان جزئيا، إذ يمكن القول بأن الدافع وراء سفر نصف الحجاج على الأقل ليس سوى مصالحهم التجارية . ويلاحظ مؤلف كتاب : Tableau de l'empire ottoman - ونحن نقره على ذلك - أن « محمدا قد حدد لعيد الأضحى وقت قدوم الربيع حتى يجعل السفر على الحجاج أقل مشقة ، ولكى يسهل فى نفس الوقت نقل وبيع البضائع ، ذلك أن الحج ليس له مبدئيا سوى قصد سياسى يتخفى تحت ستار الدين والغرض الرئيسى منه هو التجارة وإقامة أسواق هائلة ». ولقد تفهم =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويكون وصول الجمل المقدس [1] إشارة ببدء الرحيل، ويقود هذا الجمل إلى المعسكر جمهور غفير . وعندئذ تطوى كل الخيام، ويتوغل المسافرون فى الصحراء، وبعد أقل من ساعة لا يعود الميدان الواسع الذى كان الحجاج يشغلونه سوى مكان موحش . ويسير أمير الحج فى المقدمة، وتصطف فرق الحراسة على جانبى الموكب، وكذلك عند مؤخرته، ويظلون على هذه الحال حتى وصول الركب إلى مقصده .

ولا نستطيع أن نوفى فخامة هذا الحفل ما يليق بها من وصف، على الرغم من أنها فى الأزمنة الأخيرة قد فقدت الكثير من روعتها التى كانت لها . فقد كان على مراد بك فى معظم الأحيان – وهو الموكل إليه منصب أمير الحج – أن يقاتل العربان فى الصحراء، بعد أن أصبحوا أكثر سطوة بسبب ضعف أسلافه. ولو كان مجرد تأمين طريق المحمل والتجارة التى كانت تحظى برعايته كفيلا بإعادة ازدهارها السابق، لربما كان بمقدور هذا الرجل المقدام أن يفعل ذلك، لكن حوادث السلب، والانتهابات، بالإضافة إلى الحالة المتدهورة للحكومة ... كل ذلك لم يكن يوفر ما يكفى من الأمان للسكان أنفسهم، وهم الذين لم يعد بإمكانهم القيام بأعمال كهذه، أصبحت تعد ضربا من المضاربات غير مأمونة العواقب .

= المسلمون جيدا أهداف المشرع ، بحيث جعلوا من هذه الرحلة أمرا مفيدا فى العلاقات التجارية. ويصعب علينا أن نكون فكرة صحيحة عن الثروات التى تكدست فى مكة، أو تلك التى فى الكعبة وقت الأضحيات. وتتم هناك عمليات تجارية كبرى ، وتكون حركة البيع والشراء والتبادل خلال خمسة عشر يوما عظيمة ، لحد أن الذين يشهدونها لايستطيعون تقدير قيمتها ولو بشكل تقريبى .

(١) يعود ظهور الجمل المقدس فى مواكب الحج بل ووجود هذا الجمل نفسه، إلى خرافات المسلمين وبساطة مفاهيمهم . إذ هم يدعون أن محمدا فى رحلاته قد حمل عرشه (!) على ظهر جمل ، وقد تناسل هذا الجمل بعد ذلك . وقد حرص السلطان على أن يتملك اثنين من هذه الجمال التى تعد مطية النبى المفضلة، ولكن حيث إن من الخطر أن تتعرض هذه الجمال لمتاعب الحج، فإنه يلجأ إلى جمال أخرى يقال إن لها نفس الأصل وتربى فى دمشق وفى القاهرة . وهذه الجمال أقل تكلفة، وتقوم بالرحلة إلى المدينة المقدسة . وتخليدا لذكرى أن محمدا كان يقوم بأسفاره على الدوام من مكة إلى جبل عرفات على جمله فإن الحجاج يحرصون دائما أن يصحبوا جمل القاهرة المقدس، وكذا جمل دمشق المقدس، فى كل الأسفار التى ينبغى عليهم القيام بها فى اليومين اللذين يسبقان ذبح الأضحيات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤

القضاء

يرتبط القضاة الموكلة إليهم مهمة إقامة العدالة فى مصر بالهيئة القضائية الإسلامية التى مقرها القسطنطينية، ومن بين امتيازات الباب العالى حق اختيار القضاة من الدرجة الأولى، كما أنه قد احتفظ لنفسه بحق تعيين باشا. ولكن إذا كانت سلطة الباب العالى فى تعيين الباشا ليست سوى وهم، وإذا كان نفوذ ممثله قد تضاءل لحد العدم شبه التام، فإن الأمر لم يكن كذلك بخصوص إدارة القضاء، إذ لم يكن فى هذا الأمر ما يتعارض مع رغبات المماليك، أو ما يضعف من نفوذهم السياسى، لذا فقد قبلوا عن طيب خاطر أن يرسل إليهم السلطان رجالا موكلين بتلك المهمة الصعبة : مهمة تطبيق الشريعة ، بل إنها لمشقة وفرها هو عليهم. وعلى هذا فإنه لم يحدث مطلقا أن عارض المماليك سلطات القسطنطينية القضائية فى حق تعيين رؤساء المحاكم بمصر، بل إنهم باستقبالهم لهؤلاء القضاة الذين لن يؤثروا مطلقا على نفوذهم السياسى، كانوا يهيئون لأنفسهم مزية لا تكلفهم شيئا على الإطلاق، تلك هى مزية تقديم الدليل على الولاء للسلطان.

ويشكل القضاء فى تركيا على نحو ما طائفة مهنية، لها رؤساؤها الخاضعون للإشراف المباشر للمفتى الأكبر [1]، وكل مناصب هذه الهيئة قابلة للتغيير،

---

(١) المفتى والصدر الأعظم هما أكبر شخصيات الدولة بعد السلطان، وتتكون الهيئة القضائية من علماء كبار. وفى عهد السلاطين الأول كان العلماء ينقسمون إلى ثلاث درجات : الأئمة (إمام) وهم الموكلون بالعبادات ، المفتى أى فقيه الشريعة ، ثم القضاة : فقهاء العدل . وهؤلاء الأخيرون هم أكثر الجميع امتيازا، وقد منح مراد الأول أكبر القضاة لقب قاضى العسكر، وأنشأ محمد الثانى منصب قاضى عسكر ثان، وأعلى عليهما سليمان الأول مفتى العاصمة، وهو الآن شيخ هيئة العلماء، ويحمل لقب شيخ الإسلام. و صدارة المفتى مقصورة على قضاة العاصمة، ويشكل قاضى عسكر الأناضول المحكمة الثانية فى الامبراطورية، ويحكم باسمه فى كل القضايا المتصلة بالمواريث فى كل أقاليم آسيا، وهذه واحدة من المهام الأساسية لوظيفته. ويدفع له كل شهر مبلغ يتفاوت قدره من رؤساء قرى ومقاطعات ولايته . وقد أصبحت وظيفة القاضى قابلة للتغيير كل عام عند نهاية القرن الأخير، وكان من النادر أن يشغل الشخص نفسه الوظيفة الواحدة مرتين إلا إذا اتخذت ترتيبات معينة مع خلفه، وكانت وظيفة الصدر الرومى – وهى التى تعلو كثيرا على مركز قاضى عسكر الأناضول – هى وحدها التى تستثنى من هذه القاعدة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـغييرات فيها بالغة الشيوع، ويمكن لنفس الشخص أن يصبح – بالتناوب – ىلا وظيفة أعلى أو أدنى من تلك التى كان يشغلها. ويقوم أحد كبار أعضاء هذه رة القضائية بتعيين كل قضاة مصر، وعددهم ٣٦ قاضيا بما فيهم قاضى ـكر المكلف بإدارة شئون القضاء فى القاهرة، والذى يعتبر القاضى الأول فى يم. وعلى الرغم من صدارته على كل القضاة الآخرين بسبب علو منصبه وكبر ، وما له من اعتبار، فإن القضاة الآخرين لم يكونوا تابعين له، إذ كانوا يتبعون ـطنطينية مباشرة. ومعظم هؤلاء القضاة يجهلون لغة البلاد، وكان قاضى ـكر على الدوام يستعين بمترجمين، كانوا يقرأون النصوص ويترجمونها كما ،لهم، كما كانوا يحصلون إتاوات شتى .

وقلما كانت مدة ممارسة أى من هذه الوظائف تتجاوز السنتين، بل كثيرا ما يخرج القاضى من وظيفته بعد عام واحد . وكان كل واحد من هؤلاء القضاة ى عند رحيله من القسطنطينية قرارا يحدد الولاية التى سيدير شئون القضاء ، كما يحدد المدة التى سيقضيها فى وظيفته، وإذا لم يتلق القاضى بعد هذا ر أمرا بتثبيته فإنه يوقف مباشرة أعماله القضائية . وقد جرت العادة فى هذه ل أن يترك مقره المعتاد كشئ انتقالى إلى أن يتم تثبيته أو وصول بديل له . هذه الفترة يتولى رجل الشرع العمل نيابة عن القاضى، ويستلزم هذا الأمر رسم إلى القاضى المساعد بالمحكمة. وكان قاضى العسكر عادة لا يبقى فى ، إلا لعام واحد، ثم يمضى بعد ذلك إلى وظائف أخرى، وعندما يصل القاضى يد من القسطنطينية، فإنه فى غالب الأحيان يبيع الوظائف التى كانت فى ته إلى سلفه ، ولسنا نعرف مقدار الثمن الذى يمكن أن يبلغه هذاالنوع من خيص، ولا المبلغ الذى يفرضه صاحب الوظيفة حتى يتنازل عنها، وكانت هذه نقات تتم بالتراضى بين الطرفين، وبهذه الوسيلة كان القاضى يظل فى عمله بلغ أربع أو خمس سنوات .

وإذا ما لاحظ الباشا المقيم فى القاهرة بعد انقضاء عمل القاضى أن مساعد هذا القاضى ليس جديرا بأن يخلفه فى عمله، فإن بإمكانه أن يكلف الإمام الخاص به بهذا العمل الهام، وبهذه الطريقة اختار إبراهيم بك منذ عدة سنوات – عندما كان فى منصب قائم مقام – الشيخ العريشى لكى يقوم بصفة انتقالية بمهام القاضى، بسبب غيبة إمام الباشا .

وكان نفوذ قاضى القاهرة يمتد إلى مصر القديمة وبولاق، أما الجيزة فكانت لها محكمة خاصة بها، وكان القاضى يعين ممثلين عنه فى دوائر القاهرة المختلفة: ٩ فى المدينة، واحدا فى بولاق، وآخر فى مصر القديمة، وكان هؤلاء القضاة المرؤوسون، الذين لهم بدورهم مساعدون، يفصلون فى القضايا باسم القاضى. وعندما كان يتغير قاضى العسكر، كان هؤلاء القضاة يشترون من خلفه حق التثبيت فى وظائفهم. وكان من المتبع فى البداية حسب الأنظمة السائدة أن يفصل فى كل القضايا المقدمة إلى دائرة ما، ثم حدثت فى الآونة الأخيرة مجموعة من التجديدات فى هذا النوع من فروع الإدارة كما فى بقية فروعها، وترفع القضايا الكبرى عادة إلى محكمة القاضى، الذى يكلف أحد ممثليه بالانتقال إلى مكان الجناية، والبدء فى التحقيق .

ويتسلم القاضى عند دخوله الوظيفة فرمانا من الباب العالى يعهد إليه بوظيفة قاض، ويخول له أن يختار العدد الذى يراه مناسبا من المساعدين، ومع ذلك فقد كان هذا العدد محددا بفعل العادة التى لها فى الولاية الإسلامية قوة القانون .

والحكم فى أية قضية لا نقض له (1) ، ومع ذلك فقد وضع الدين شروطا مقيدة تنفى عن هذا الإجراء التشريعى صفة الإطلاق. فعندما تكون القضية خطيرة أو عندما تحظى باهتمام الشخصيات الكبيرة ، فإن القاضى يستضئ بنصائح رجال

---

(١) نقرأ فى مجموعة فتاوى المفتى بهجت عبد الله أفندى أن كل قضية تحمل إلى القضاء وتفحص ويفصل فيها لا تحمل إلى القضاء مرة أخرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشرع، ويستطيع الأطراف أن يحصلوا مقدما على نوع القرار الذى يصدره المفتى. ويلجأ القضاة عادة إلى هؤلاء المفتين، ولرأيهم سلطة معترف بها، ويصدر المفتى على الدوام فتواه أو رأيه القاطع، وإذا كان حكم القاضى قد صدر فهو عندئذ بمثابة قضاء من عند الله، ومع ذلك فإذا حدث أن أجمع مفتو المذاهب المختلفة على نقض قرارات القاضى، فإن القاضى يعترف بخطئه ويسحب حكمه الأول

والقوانين التى يحكم بمقتضاها كلها مكتوبة، وتستخلص أصولها من القرآن، وتفسيرات هذا الكتاب السياسى والدينى هى ثمرة عمل جمهور كبير من المفسرين، نميز من بينها كتب أئمة المذاهب السنية الأربعة، وهذه المذاهب هى : الحنفى، المالكى، الشافعى، الحنبلى . وكل علماء مصر تقريبا يتبعون المذهب الثالث، ومع ذلك فإن القضاء فى مصر – ومنذ ثلاثة قرون – يتم وفقا لأحكام المذهب الحنفى السائد فى القسطنطينية .

أما مهام قاضى العسكر المختلفة فهى :

١ – الفصل فى القضايا .

٢ – اختيار أئمة المساجد .

٣ – إدارة الأوقاف الخيرية .

٤ – تقسيم التركات .

٥ – تحصيل الرسوم المقررة على بيع ونقل الملكيات .

ومصاريف القضاء – كقاعدة عامة – تحصل من موضوع النزاع، أو من الشخص الذى يحكم لصالحه ، ويعتبر المسلمون أن فرض مصاريف على الشخص الذى لم يحكم لصالحه عمل متناقض وبالغ القسوة. ويفصل فى القضايا عادة على الفور، ومع ذلك فثمة قضايا يستغرق فحصها عدة أيام، بل يصل الأمر أحيانا إلى شهرين أو ثلاثة شهور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى كل قضية نميز أربعة أطراف : القاضى، المدعى، المدعى عليه، موضوع النزاع . ولا يفصل فى أية قضية ، أو تحدث أية إدانة عن الأخطاء ، فى غيبة واحد من هذه الأطراف. وعندما يرفض المدعى عليه الحضور فإنه يستدعى بالقوة، وعندما لا يستطيع أحد الأطراف أن ينتقل إلى المكان الذى تنظر فيه القضية، يقوم القاضى بتعيين شخص مشهود له بالاستقامة والنزاهة ليمثله. وكل طرف يدافع عادة عن موقفه، ويمكنه أن يعهد بذلك إلى رجل شريعة أو إلى صديق. ولا يتلقى الشهود مطلقا أجرا على شهادتهم، ويمكن دعوتهم إلى القسم، لكنهم ليسوا ملزمين بذلك، لكن المذهب المالكى وحده هو الذى يحتم ضرورة القسم .

ولم تكن مصاريف القضاء قبل مجئ الحملة منظمة، وكان قاضى العسكر أو ممثلوه يحصلون حوالى ٢/١ ٢ ٪ من قيمة الأشياء موضوع النزاع، لكنهم فى العادة كانوا يفرضون رسما أكبر، وكان ذلك أمرا بالغ السهولة لدرجة أنهم كانوا يحددون حسبما يتراءى لهم رسوم القضايا . ومن هنا كانت مصاريف الدعوى تصل فى بعض الأحيان إلى ٨ ٪ أو ١٠ ٪ بما فى ذلك أجور الكتبة والمترجم . وقد وضع الفرنسيون حدا لهذه الانتهابات البربرية كما سبق أن قلنا، ومع ذلك، فإذا كان رافع الدعوى شخصية كبيرة فإن القاضى لا يستطيع أن يفرض رسما أكبر من ٢/١ ٢ ٪ . وفى نفس الوقت لم يكن القاضى يتقاضى شيئا من الفقراء، ونادرا ما كان ينقض ما يعلنه مسلم أمامه من أنه فقير . ومن المبادئ التى تشيع بين القضاة أن الفقير طرف له قداسته .

هكذا وضع العرف والأخلاق حدودا لجشع القضاة، بل لقد لوحظ أن قاضى العسكر – وهو رجل ذو طباع حادة وله سطوته واحترامه – كان يكتفى بما يقدم له دون أن يفرض بنفسه شيئا، حتى يحتفظ بتقدير الكبار وحب العامة . ومنذ أن تغلبت سطوة البكوات فى مصر، اعتاد القضاة ألا يطلبوا رسوما من أولئك الذين يخلع عليهم البكوات حمايتهم (١) .

(١) يحدث عادة ألا تسمح طبيعة الشئ المتنازع عليه بتحصيل رسوم، مثال ذلك عندما تكون الشكوى مقدمة عن أشخاص وليس عن ممتلكات ، لكن أمورا من هذا النوع تنتهى عادة عند الشرقيين بأن تقوم بثمن ، وهكذا أصبح القاضى يحصل رسومه فى مثل هذه القضايا بفرض نوع من الغرامات النقدية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت الأحكام التى يصدرها ممثلو القاضى ، بالرغم من كونها مختومة بخاتمه ، تخضع فى حالات كثيرة لنوع من النقض، وخاصة فيما يختص بالإجراءات التى تتخذ ضد المتنازعين المتخالفين، أو فيما يختص بالأحكام التى تحدد التعويضات التى يلتزم بها الأزواج ، ويمكن لقضايا من هذا النوع أن تحمل من محكمة لأخرى، وهكذا حتى يأخذ القاضى علما ويصدر فيها حكمه النهائى .

سبق أن قلنا إن قاضى العسكر يشترى وظيفته من القسطنطينية، ويدفع التزامها إلى رئيس قضاة الأناضول وإلى شيخ الإسلام. ولم نستطع أن نستدل على مقدار ما يدفعه للأول، لكن الثانى كان يتلقى منه عشرة آلاف مدينى فى الشهر [1] . ولتعويض كل ذلك كان قاضى العسكر يفرض على ممثليه إتاوة لا تتجاوز فى بعض الأحيان ٩٠٠ مدينى فى الشهر، ويستطيع هؤلاء القضاة المرؤوسون أن يحصلوا فى مقابل ذلك ثروة طيبة فى وقت قصير . وثمة كثيرون منهم يفصلون فى قضايا كثيرة للغاية، لكنهم لا يدفعون أكثر مما هو مقرر، ومن الصحيح أنه لا يسمح لهم بالفصل فى كل هذه القضايا، لكنهم يرفعون رسوم التقاضى إلى ٨ - ١٠ ٪ ، لذا يسهل عليهم على الدوام أن يكونوا ثروات ضخمة فى وقت قصير .

رأينا من قبل أن وظائف القضاة الـ ٣٦ كانت تباع فى القسطنطينية لرجال

---

(١) يشغل وظائف القضاة الستة والثلاثين فى مصر، قضاة من الدرجة الرابعة، وهم ينقسمون إلى ست درجات، وقد جعل سليم الأول من حق بعض هؤلاء أن يستمروا فى مناصبهم . وهؤلاء القضاة هم مساعدون أو نواب، ويشكلون الدرجة الخامسة فى السلم القضائى، وليس من الضرورى أن يكون منصب هؤلاء قابلا للتغيير. وهم يشترون وظائفهم من القاضى فى شكل التزام أو فى شكل مخالف، لذا كانوا يستمرون فى مراكزهم لأية فترة حسب أهواء رؤسائهم . وعندما كانت تنقضى مدة القاضى، كان هؤلاء النواب الذين يرون من صالحهم الاستمرار فى مناصبهم يسارعون بتقديم ولائهم للقاضى الجديد، ونادرا ما كان يرفض واحدا منهم إلا إذا كان ثمة ضده شكاوى من نوع خطير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مشهود لهم بالاستقامة، وكانت النتيجة الطبيعية لنظام من هذا النوع أن كل قضاة مصر كانوا غرباء على البلاد التى عليهم أن يمارسوا فيها وظائف على مثل هذه الدرجة من الخطورة. وبالرغم من أن أحدا من المواطنين لا يستطيع فى ظل السيطرة العثمانية أن يرنوا إلى وظيفة قاض، فقد رأينا فى السنوات الأخيرة كثيرا من المحاكم يرأسها مصريون، حيث لم يكن الأجانب الذين يصلون إلى مصر ومعهم فرمان تعيينهم فى وظيفة قاض، يلزمون أنفسهم على الدوام بالعمل فى سلك القضاء، بل كانوا يبيعون وظيفتهم، إما إلى سلفهم كما سبق لنا القول، وإما إلى رجل آخر من رجال الشرع يستطيع أن يدفع الثمن. وسعر هذه الوظائف غير معروف لنا على وجه التحديد، ومع ذلك فيبدو أنه لم يكن يجاوز ٤٠ ألف مدينى فى العام لوظيفة تدر دخلا متوسطا .

وفى أثناء احتلال القاهرة من قبل الفرنسيين، أغلقت لبعض الوقت كثير من المحاكم الخاصة فى المدينة، وتوقفت العلاقات المدنية الصرف بين السكان، وحيث إن المصرى بطبعه شكاك وخجول فى نفس الوقت، فقد كتم المصريون شكوكهم، وبدأوا وكأنهم قد انهمكوا فى أعمالهم مراعين نفس الدرجة من الأمن التى كانت سائدة فى الماضى . ولم نعرف – نحن الفرنسيين – إلا بعد وقت طويل حقيقة التأثير الذى أحدثه فى النفوس مثل هذا الإجراء الشاذ، لكن الاعتدال الذى سيطر بعد الغزو قد طمأن بشكل (لاشعورى) من روع هذا الشعب، وهو الذى ما يزال يتذكر فظائع حسن باشا أثناء حملة ١٧٨٦ .

وعندما بدأت الإدارة الفرنسية تحظى بنوع من الاستقرار، أى بعد الاحتلال بعام، افتتحت كل الغرف القضائية التى كانت قد أغلقت بصفة مؤقتة فى البداية، وأعطى القائد العام للجيش أوامره فى هذا الخصوص بعد اطلاع على تقرير قدم إليه، وكلف قوميسير الحكومة لدى ديوان القاهرة بالتأكد من تنفيذ ذلك. وعندئذ نظمت رسوم التقاضى ، وتحددت بنسبة ٢ ٪ من قيمة الشئ موضوع النزاع، وتوزع حصيلة هذا الرسم بين القاضى والكتبة. ولم تحدث أية تعديلات أخرى فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إدارة القضاء، وسارت الأمور على نفس نظامها في الماضي، وبدأت ثقة الناس التي كانت قد تزعزعت لحين تعود منذ الآن، ومنذ هذه اللحظة بدأ المنتصرون يجنون ثمار انتصارهم .

ومع ذلك فإن نظام التعيين في الوظائف القضائية لم يعد هو نفسه ما كان في الماضي، واتخذت لذلك الإجراءات اللازمة. فثبت كل رجال القضاء الذين كانوا قائمين بالعمل في مناصبهم، وعزل قاضي العسكر الذي كان من أنصار أمير الحج، وخلفه في منصبه الشيخ العريشي، وهو الذي ظل في هذا المنصب حتى نهاية الاحتلال .

وإذا ما تأملنا لحظة نمط الأنظمة القضائية العثمانية وطريقة اختيار رجال القضاء، فإننا سنجد في هذه الوقائع نفسها منبع المساوئ التي كان ينبغي أن تنجم عن هذه الوقائع بالضرورة . وفي الواقع، فإن رجال القضاء الغرباء، بجهلهم لغة البلاد التي ذهبوا إليها ليرسموا قدر وكرامة ونمط حياة مواطنيها، لم تكن تحركهم أية عواطف من تلك التي تفرض نزاهة القضاء، كما أن اعتبارات المواطنة واعتبارات القربى التي لها على الدوام تأثير كبير على القلوب لم يكن لها على الإطلاق وجود عندهم، وحيث إنهم قدموا قبضات من الذهب حتى يتولوا أمر محكمة ما، فمن الطبيعي ألا يكون سيف العدالة الذي يضعه القانون في يدهم سوى أداة للإثراء . فكانوا يستخدمونه وسيلة لتعويض الأموال التي أنفقوها، بل ولتكوين ثرواتهم الخاصة، ووجهت الوسائل الكبرى التي في حوزتهم نحو نفس الغرض، غرض تكديس الأموال، لذلك فإنهم لم يدعوا أية فرصة تفلت دون أن يستغلوها لتنمية ثرواتهم . أما أولئك الذين يخفف حب العدل والإنسانية عندهم من جموح ذلك التعطش إلى المال، فقد كانوا أكثر ميلا للعدالة، بينما لم يكن يكبح جماح الآخرين إلا الخوف من تدهور سمعتهم . وفضلا عن ذلك فإن العادة التي سادت في مصر، عادة بيع أو تأجير وظائف بمثل هذه الدرجة من الخطورة من شخص لآخر، هي واحدة من تلك المساوئ الشيطانية التي لا يمكن لأية حكومة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عاقلة أن تتساهل فيها، إذ هى نوع من الفوضى أو الخيانة لا يسمح بقيامها إلا البرابرة .

ولنعد إلى ممارسة الوظائف القضائية: يحوز حكم القاضى فى معظم الأحوال قبول كل الناس المتنورين، وقد يكون من الظلم أن نوجه إلى رجال القضاء هؤلاء، ذلك الاتهام القاسى بالمحاباة أو الفساد، وهو الاتهام الذى يوجهه كثيرون إلى القضاة المسلمين عامة، إذ لا يمكن لقاض أن يتجاسر ويصدر حكما قليل التطابق مع روح الشرع، أو منحازا بشكل ما لمصالح الطرف الذى يريد أن يعمل لصالحه، إلا فى حالة واحدة، هى تلك الحالة التى تكون نصوص القانون فيها غامضة، وتحتمل التفسير على وجوه عدة مختلفة أو متعارضة. لكن المساوئ تنجم بشكل أكبر عن ذلك التقدير العشوائى والجائر لتقدير رسوم التقاضى، ويتهامس الناس حول تحصيل هذه الرسوم بشكل غير معتاد. وفى القاهرة تنهض الصفات الشخصية لقاضى العسكر، وكذا الرقابة التى يمارسها العلماء، بل وحكومة المماليك - بحماية الشعب على نحو ما ضد جشع القضاة والكتبة، لكن الأمر لا يسير على هذا النحو فى الأقاليم، حيث يستطيع القاضى هناك أن يستوثق من صداقة وحماية البك حاكم الإقليم عن طريق تقديم الهدايا أو أية وسيلة أخرى، وبذلك يكون حرا من كافة القيود وهو يقوم بتقدير رسم يفوق بكثير ذلك الرسم القانونى. ومع ذلك فمن الصحيح أيضا أنه حتى فى هذه الظروف، كان القضاة يستطيعون كبح جماح جشعهم. وكانوا فى بعض الأحيان يتظاهرون بفرض رسوم لصالح كتابهم ومرؤوسيهم، على الرغم من أن هؤلاء لم يكونوا يحصلون مطلقا إلا على قدر ضئيل من هذه الرسوم، وكان هؤلاء يلجأون فى معظم الأحيان إلى وسائل مشابهة .

سبق لنا القول بأن أحكام القاضى تصدر بلا نقض، وأن الدين يعالج جزئيا تلك المساوئ الناتجة عن مثل هذا التفويض الواسع الممنوح للقاضى بفعل العادة، حيث العادة فى مصر كما فى كل أجزاء الامبراطورية العثمانية هى كل شئ، بل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يمكن القول بأنها هى التى تصنع القانون . لذا فإن العادة التى يعتادها أمير أو رجل قضاء أو حتى ضابط صغير وهو يتعامل مع من هم دونه، تصبح إلزامية لكل من يقومون بنفس هذه الأعمال . وتبرهن مثل هذه المساوئ على ضرورة إرساء النظام القضائى على أسس ثابتة ومستقرة ، وهذه الحاجة التى تتضح أهميتها يوما بعد يوم لا تجد الاستجابة الواعية من جانب الحكام، أو قل إنها بالأحرى تقع تحت رحمة روتين غير قابل للهزيمة، لحد يفضل معه الحكام أن يتحملوا مساوئه تلك عن أن يبتعدوا عنها .

وتنهض العدالة فى مصر على أساس المذهب الحنفى، ولا يمكن أن يحدث الأمر على نحو آخر، حيث إن كل رجال القضاء الذين ترسلهم القسطنطينية يتبعون هذا المذهب، وهو نفس مذهب السلطان نفسه ، وكذا شريف مكة . وقد بدأ هذا الأمر منذ بداية القرن السادس عشر، ومن المحتم أن يكون سليم غازى مصر هو الذى وضع أساس ذلك، حيث إنه هو الذى أقام حكومته على نفس الأسس التى تنهض عليها اليوم . ومع ذلك فحيث إن المذهب الشافعى هو السائد فى مصر، وحيث إن كل شيوخ الأزهر يتبعون هذا المذهب فربما كان من الأفضل الامتثال لأحكام هذا المذهب، وتلك مسألة تتطلب دراسة عميقة أولى بها أولئك الذين يعنيهم الأمر .

وطيلة فترة الاحتلال الفرنسى لم تحصل أية رسوم عن التعيين فى الوظائف القضائية، ويبرر ذلك تواضع الدخول التى يمكن تحصيلها من مثل هذا الأمر.إن من الممكن إلغاء هذه المساومة على وظائف بهذه الخطورة دونما تأثير كبير على خزانة الدولة، ومن المعروف أن هذه المساوئ لم تكن تحدث مطلقا فى عهود الخلفاء، وإنما بدأت مع بداية الحكم المملوكى، ثم دعمتها العادة، ودعمها كذلك وبدرجة أكبر، ذلك النموذج التركى الذى تسوده مثل هذه العادات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥

عن الحقوق المدنية

الملكية

لا شك أن النظام الذى يساهم فى ربط المواطنين بمسقط رأسهم، هو واحد من أهم النظم الوطنية، ونحن هنا نتحدث عن نظام الملكية. هذا الحق الطبيعى الذى كرسه كل المشرعين ، ولا يخرقه أو ينكره سوى البرابرة . لكن طغاة مصر، عندما ألقوا تحت أقدامهم بكل مبدأ حكيم وعادل، لم يحترموا هذا الامتياز المقدس، الذى هو فى جملته أساس لضمان السعادة الاجتماعية . فثمة كثير من المزارعين الأحرار على ضفاف النيل قد أصبحوا مجرد فلاحين أجراء، أو عبيدا مطحونين تحت وطأة تلك الضرائب الباهظة، يفلحون هناك – وفى حلوقهم غصة – أراضى خصبة، لكنهم لا يستطيعون أن يجنوا لها ثمارا . فهذا الوادى الخصيب فى الفيوم، وتلك السهول الخصبة فى الدلتا، التى كانت غزيرة الإنتاج تحت حكم الفراعنة والبطالمة بل وتحت السيطرة العثمانية، لا تنتج الآن بالكاد ربع ما كانت تنتجه فى الماضى . ومن السهل أن نلتمس أسباب ذلك التغيير المحزن، لكننا لا ينبغى أن نبحث عن التفسير عند الطبيعة أو عند تقلبات الطقس مهما كانت عنيفة، فالنهر على الدوام هو نفس النهر، وفيضانه السنوى – شأنه شأن الماضى – يأتى كل عام ليروى الوادى . فقط اختفى الأمل، فما عاد يلهب حماسة الفلاح ولا عاد يستثير همته، إذ هو يعلم الآن أن ثمة أجنبيا بغيضا هو الذى سيحصل على ثمن عرقه هو . نعم، ماذا سيعود على الفلاح لو أنه عمل على إنماء محصولات جديدة، ما دامت لن تعود عليه ولا على أولاده خيراتها ؟ إنه يبذر البذور وهو حانق، ويجنى محصوله وهو خائف، ويعمل جهده ليخفى عن نظرات طغاته الجشعين قدرا ضئيلا من الحبوب ، يمكنه أن يحصل به على بعض احتياجات أسرته العديدة . فالفلاح فى هذه البلاد البائسة ليس بمالك للأرض، وليس بمقدوره أن يكون ذلك ، إنه ليس

بصاحب للأرض، ولكنه قن لها منذ ولادته، يعمل لحساب تلك العصبة التى قهرت وطنه واستذلته، إنه رقيق الدولة فى اسبارطة القديمة، وعبد المستعمرات الأمريكية التعس ! .

يرتبط توزيع الأرض فى مصر بعدد قراها، إذ تمتلك كل قرية مساحة من الأراضى القابلة للزراعة تتفاوت مساحتها. وتنقسم أراضى كل قرية إلى ٢٤جزءا. ويبلغ عدد القرى فى كل الوادى ما بين ٢٥٠٠ – ٣٠٠٠ قرية كبيرة أو صغيرة : منها ٤٠٠ من أسوان إلى المنيا ، ٥٠٠ من المنيا إلى القاهرة بما فى ذلك الفيوم، ٦٦٠ فى الدلتا، ١٠٠٠ فى بقية المناطق(١) .

وهناك بعض الأفراد يتسمون باسم الملتزمين (ملتزم)، وهؤلاء هم الذين يمتلكون أراضى هذه القرى امتلاكا فعليا، ويعنى الفلاحون باقتسام هذه الأرض بينهم وبين هؤلاء الملتزمين، ولكن انظر إلى أى حد تضاءلت حقوق الفلاحين، وإلى أى حد وصلت سطوة الآخرين ! .

إن مالك عدد معين من القراريط يحصل من الفلاح الذى يفلحها ضريبة ثابتة كانت قيمتها فى الماضى محدودة، وتسجل هذه الضريبة باسم المال الحر. وبخلاف ضريبة المال الحر التى تلزم القوانين الفلاح بها، قام الملتزمون بتحميل الفلاح بعدد هائل من الضرائب والإتاوات لم تكن موجودة قط من قبل، أو كان ينظر إلى بعضها فى البداية على أنه – على الأكثر – مجرد هدايا، لكنها بمرور الزمن أصبحت ضرائب إجبارية واجبة الدفع، ومسجلة، وتحصل بقسوة بالغة . وتسمى حصيلة كل هذه الرسوم التى ينظر إليها السكان باعتبارها نتيجة لقهر وطنهم : "البرانى"، وتحمل هذه الضرائب أحيانا اسم : "مضاف" ، كما لو كان للإشارة إلى

---

(١) لعل التقدير الأخير مبالغ فيه، ولعل تقدير عدد قرى الدلتا أقل من الواقع . لمزيد من التفاصيل انظر دراسة جاكوتان Jacotin عن مساحة أرض مصر، وكذلك دراسة جومار Jomard عن المقارنة بين سكان مصر فى الزمن القديم وسكانها الحاليين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنها مستقلة عن بقية الضرائب، وأنها أضيفت أو زيدت على الضرائب المشروعة . ويحصل الملتزم مجموع هذه الضرائب : المال الحر والبرانى، ومن هذه الحصيلة يدفع الميرى، وهو الضريبة الثابتة والمقررة بموجب قانون إدارى قديم (١) ، وهو يحصل باسم السلطان بواسطة الموظف الذى يمثله. ويتحمل المصريون هذه الضريبة أكثر مما يتحملون الضرائب الأخرى، إذ هى فى نظرهم اعتراف بسيادة السلطان ، ولأن لها طابعا مشروعا .

ويشكل ما يتبقى من المال الحر بعد سداد الميرى ما يسمى بالفايظ (الفائض)، ويكون بالإضافة إلى البرانى مجموع ما يحصل عليه الملتزم من فوائد. لكن عليه فى نفس الوقت أن يدفع - خصما من هذه الفوائد- مصاريف إدارية كبيرة، وفاء لمسئوليات تقع على عاتقه، ليس من بينها أية مبالغ مخصصة للفلاح، لا تعويضا عن فلاحته للأرض، ولا كمقابل لمجهوده أيام الحصاد .

ويورث الفلاح لأبنائه حق زراعة الأرض التى فى حوزته، وعلى هؤلاء أولا أن يدفعوا للملتزم نوعا من رسوم التقلد، وينظر لهذا الرسم باعتباره هدية أكدتها العادة، ومع ذلك فنادرا ما يسددها الفلاحون بالرغم من أن للملتزم حق تحصيلها. وتبلغ هذه الضريبة ثلاثة أمثال عائد الأرض المنزرعة، ويمكن للملتزم حسب تساهله أن يتنازل عن جزء منها أو يتنازل عنها كلية إذا كانت الأرض ضعيفة، ولكن إذا رفض الفلاح المورث أن يسدد هذه الضريبة بالرغم من أوامر وتنبيهات المالك الملتزم، فإن الأخير يستطيع أن يرغمه على ذلك بمنعه من استغلال الأرض التى كانت فى حوزة أبيه. فانظر إذن بأية طريقة وبأى ثمن يستطيع الفلاح المصرى أن يورث أبناءه إرثه التعس .

ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن الفلاح لا يستطيع أن يبيع الأرض التى يزرعها، حيث إن ملكيتها الحقيقية ليست فى يده، ومع ذلك فقد كان له الحق

---

(١) يدفع الميرى عينا أو نقدا، ويدفع جزء منه فى الصعيد عينا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى أن يؤجرها لبعض الوقت، ويظل يحتفظ لنفسه بحق الرجوع إليها. وعندما يكون الفلاح معسرا غير قادر على سداد ما عليه، فإن الملتزم يستدعيه أمام القاضى، ويثبت عن طريق شهود أنه لا يستطيع تحصيل شئ منه، أى من الفلاح، وعندئذ يعزل المسكين من الأرض، ويصبح لسيده الحق فى إحلال فلاح آخر محله. ويرشح الفلاح الجديد عادة عن طريق شيخ أول القرية، ويقبل الملتزم هذا الاختيار، لكن ذلك لا يعنى أن الفلاح القديم قد انتزع من أرضه بغير عودة، فيكفى أن يستطيع دفع الأقساط المتراكمة عليه لكى يحصل من جديد على أرضه. ومن جهة أخرى فإذا حدث أن وقع ضرر بين وبالغ القسوة على الفلاح على يد الملتزم، فإن بمقدور الفلاح أن يهجر حقله ، و فى هذه الحالة يقوم شيخ الفلاحين والملتزم بإحلال فلاح آخر محله .

ولا ينبغى أن ننسى أنه ليست للقوانين الوضيعة – لا فى هذا المجال ولا فى أى مجال آخر بمصر – لا الدقة ولا الفاعلية التى للمؤسسات والأنظمة الأوربية. ويمكن القول بأنه ليست للقانون – المكتوب على ضفاف النيل – إلا أهمية ثانوية، بينما يرسم العرف أوامر وأحكام رجال القضاء، كما أنه هو الذى يبرر تلك الابتزازات الإجرامية للرجال القادرين من كل الطبقات . ونتيجة لهذه السوءة البربرية فإن الفلاحين يعيشون فى شكل عبودية أكبر بكثير مما ينبغى، فأقدارهم تحت رحمة نزوات الملتزم الذى يستطيع – حسبما يتراءى له – أن يودى بهم إلى حالة من البؤس المفزع، أو أن يهيئ لهم عيشا رغدا . إن هذه الأوضاع الشيطانية فى مجموعها ليست أقل سوءا من بقية الأمور التى تستوجب نظاما تشريعيا جديدا فى مصر (١) .

---

(١) يمكن القول بأن الأراضى – فى المنطقة المحيطة بحلب – مقسمة بين السلطان الذى يحصل الميرى من الملاك، والمالك الذى يقدر لنفسه دخلا سنويا عينا ونقدا، والمزارع الذى يحتفظ لنفسه بجزء من ثمرات جهده . وثمة سكان من القسطنطينية يمتلكون أراضى فى هذه المنطقة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وللملتزم الحق أن يبيع التزامه، وعندما يحدث ذلك يقوم الملتزم الجديد بدفع الميرى بدلا منه . وبخلاف الأرض التى يزرعها الفلاحون فى القرية ، ثمة جزء من أرض هذه القرية لا يخضع لنفس النظام، حيث يمكن القول بأن هذه القطعة مقسمة بين الملاك (الملتزمين) بنسبة عـدد القراريط التى يملكونها من أرض القرية ، وتسمى هذه الأرض : الوسية [1] . ولا يقوم الفلاحون بزراعة هذه الأرض بنفس الطريقة التى تنظم زراعتهم للأراضى الأخرى، بل إن الملتزم يستخدم فيها من يشاء بالشروط التى تتراءى له . ومع ذلك فعندما يبيع التزامه فى أرض الفلاحين فإنه يبيع كذلك الجزء الذى فى حوزته والمقابل لتلك فى أرض الوسية ، إذ لا يمكن أن تنفصل هاتان الملكيتان .

ويرث أبناء الملتزم الالتزام عن والدهم، لكنهم لا يخلفونه إلا بعد موافقة الباشا. وفى هذه الحالة يحصل هذا الضابط - باعتباره ممثلا للسلطان- على جعل يصل إلى ثلاثة أمثال قيمة الفايظ السنوى غير مشتمل على البرانى، ويؤكد الباشوات هذه الضريبة بأن يدفعوا إلى بلاد القسطنطينية جزءا من عائد عقودهم هذه . ويعدل الباشوات فى معظم الحالات من المبلغ المفروض كضريبة إرث، ويمارسون فى هذا الخصوص نحو الملتزمين ما يمارسه هؤلاء نحو الفلاحين فى نفس الظروف، وينظرالمصريون إلى ضرائب الإرث هذه باعتبارها استردادا للأرض، وهكذا يصبح أبناء الملتزم أصحاب حق فى الحصول على ممتلكات أبيهم بعد دفع الضريبة المفروضة .

وفيما مضى كانت مصر مملوكة لجمهرة من كبار الملاك، لكن المماليك تخلصوا من هؤلاء حتى يقتسموا فيما بينهم أسلابهم . وقد نتج عن هذا السلب أن أصبح أعضاء الحكومات المملوكية، يمتلكون كل أرض مصر على وجه التقريب، فكانوا

---

(١) لا توجد وسية فى الصعيد ابتداء من المنيا .

(وقد بين الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم فى كتابه الريف المصرى فى القرن الثامن عشر أن هذا خطأ وقع فيه علماء الحملة الفرنسية) . (المترجم) .

يمتلكون على الأقل ثلثى الأراضى القابلة للزراعة. ولا يمنع هذا من أن هناك بعض الأفراد كانوا يحوزون بعض الأملاك الهامة، نذكر من بين هؤلاء الشيخ همام الذى كان حائزا على أراضى عدد كبير من قرى الصعيد .

وبرغم كل ذلك فسوف نقع فى خطأ بين إذا ما استنتجنا مما تقدم أنه ليست لدى المصريين فكرة صحيحة عن الملكية الحقة، إنهم يعرفون معنى هذه الملكية الحقة بلا ريب، ولكن كيف يمكنهم أن يتمتعوا بها، بينما كل شئ هناك يعترض سبيل سعادتهم ؟. فالعادات وطغيان الحكومات وجشع الملتزمين، كل ذلك عقبات لا يمكن التغلب عليها . لا مفر من إصلاح تام ، بل يمكن القول بأنه لا بد من توزيع جديد للأرض . ولو كان الفرنسيون قد استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم فى البلاد، فليس من شك فى أنهم كانوا سيصلحون من مساوئ هذا النظام . وإذا ما حدث ووجد أبناء ريف مصر أنفسهم يعيشون فى ظل حماية القوانين فإنهم سيحصلون فى وقت معا على الأمل والهمة، وعندئذ فكم من الثروات سوف تغل هذه الأرض الخصبة المعطاء، التى استحقت ذات يوم اسم : مزرعة روما [1] .

(١) لكى نقدم فكرة تقريبية عن بؤس الفلاحين فسوف نعتمد على شهادة المعلم يعقوب، المباشر القبطى الذى أكد لنا أن عشرة فدادين من الأرض فى الصعيد تنتج خمسين أردبا من القمح من بذور خمسة أرادب، كما أكد لنا بالمثل أن الأقساط التى يدفعها الفلاحون للملتزم عينا لا تقل مطلقا عن ٢-٥ ، ٣ أردب من الحبوب عن الفدان، فإذا قمنا بخصم مصاريف الحرث والبذر، نجد أنه لا يتبقى شئ على وجه التقريب لهؤلاء الفلاحين التعساء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦

عن الرق وعن العتق

تحتفظ الشعوب الشرقية بتلك العادة القديمة، عادة استخدام العبيد، ونحن لن نمسك فى هذا الخصوص عن إبداء أى رأى مهما بدا قاسيا . ومهما كانت انتقاداتنا وملاماتنا مشروعة فإنها تقع جميعها على أوربا، كما أن كل واحدة من هذه الانتقادات والملامات ليست سوى نقد حر لتلك التجارة المخزية التى تسامحت فيها أوربا حتى اليوم . فمستعمرات العالم الجديد، وجزر البحر الأفريقى - مسارح همجية الشعوب المتحضرة - تقدم أكثر مشاهد العبودية بشاعة، بل وربما أكبرها إهدارا للحقوق المقدسة للإنسان . إذ ينبغى أن نعترف هنا - وهذا أمر مخز للحضارة والمدنية - أن قدر العبيد فى مصر كما فى كل بلاد الشرق، أقل حافزا على الشكوى من قدرهم هناك فى أمريكا، حيث يروون بعرقهم ودمائهم حقول سوق لا رحمة فيه. أما رقيق مصر - على العكس من ذلك - فيمكن القول بأنهم يقبلون فى العائلات كأفراد فيها، وليس ثمة ما يقومون به من عمل سوى خدمة المنزل، كما أن حالتهم ليست على الدوام بائسة، بل إن الرق عندما يكون السيد واحدا من البكوات، يكون فى معظم الأحوال بمثابة الخطوة الأولى نحو الثروة أو نحو السلطة.

وفى مصر نوعان من الرقيق : السود من وسط أفريقيا ويأتون إلى مصر وإلى المدن الكبرى عن طريق قوافل، والبيض ويأتون من أقاليم آسيا المجاورة للبحر الأسود . وثمة فرق هائل بين ثمن هؤلاء وثمن أولئك ، فقلما يبلغ ثمن الأسود : ٤٠ - ٨٠ قرشا أسبانيا، بينما يعتبرالناس أن من الطبيعى أن يدفعوا فى شراء شاب شركسى ٦٠٠-٨٠٠ سكين Sequin ، وهو عملة ذهبية إيطالية تقدر القطعة منها بـ١٢٠بارة ، أى حوالى ٣٠٠٠ فرنك . وقد كان ثمن الألفى بك ألف سكين ، ومن هنا جاء اسمه : الألفى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويعتبرالعبد جزءا مكملا لثروة سيده الذى يستطيع أن يبيعه أو يبادل به أو يعتقه، وذلك حسبما يتراءى له، وليس للعبد أن يمتلك شيئا خاصا به، فكل ما يمكن أن يحصل عليه يكون من حق سيده، ولا يتمتع العبد بأى حق مدنى، ويعتمد فى كل أموره على إرادة سيده . ومع ذلك فإذا قام الأخير - باللجوء إلى العنف أو لأية وسيلة أخرى - بفعل مخالف للقوانين أو الطبيعة ، فإن العبد يستطيع أن يشكوه أمام القاضى الذى يرغم سيده - حسب الحالة المعروضة عليه - على بيعه للآخرين . ومع ذلك فنادرا ما يتهم العبد سيده بالطغيان، فكل ما يفرض عليه من واجبات يتعلق فقط بالخدمات المنزلية، فهو يعنى بمنزل سيده، ويخدم على المائدة، أو يقوم بأية أعمال أخرى تتصل بشخص سيده، لكنه بعيد عن الزراعة وعن كل الأعمال الشاقة . ولعل أشق عمل يكلف به العبيد، هو أن يعهد إليهم سادتهم بالعناية بخيولهم، وهم عامة يعاملون بلطف تام، ونادرا ما لا ينتهى بهم الأمر إلى العتق خلال بضعة سنوات أو عند موت سيدهم .

ويمكن القول بأن العبد الأبيض يعتبر عضوا من أعضاء الأسرة، وعندما يرضى تاجر عن عبده فإنه يشركه فى تجارته ، ويزوجه من ابنته ، ويهيئ له حياة طيبة. أما أولئك الرقيق الذين يكونون فى خدمة البكوات الكشاف أو كبار ضباط حكومة المماليك فإن حظهم أكثر بريقا، فحيث إن سادتهم أنفسهم قد بدأوا حياتهم عبيدا، فإنهم بدورهم يولون عبيدهم جل عنايتهم، ويهيئون لهم نوعا من التدريب العسكرى ليشكلوا فيما بعد جيش المماليك . وتتجلى قوة كل بك فى عدد رجاله وفى شجاعتهم، لذا فهو يعنى بتقدمهم وثروتهم كما لو كانوا أبناءه ، وفضلا عن ذلك فقد كان المماليك يدعمون حزبهم عن طريق نفوذ رجالهم، وهو النفوذ الذى هيأته لرجالهم هذه المناصب التى ولوهم - هم أنفسهم - فيها .

لكن الشجاعة والمميزات الشخصية لعبد ما - ليست على الدوام هى الأسباب الوحيدة التى تحدو بشريف مملوك، أن يهيئ لعبده هذا التقدم السريع، ويؤكد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البعض أن الجمال والصفات الجسمانية تلعب دورا كبيرا فى أقدار هؤلاء العبيد. ويشكل هؤلاء الرجال ذوو الأصل الغامض، والذين نجهل بلاد معظمهم، طائفة النبلاء الحقيقيين برغم كل ما قيل، فهم وحدهم يحوزون المناصب، و يعمرون بيوت وعائلات سادتهم، التى كانت ستخبو فيها بدونهم أضواء الحياة منذ الجيل الثانى. ومن نافلة القول أن نذكر أن الإماء البيضاوات القادمات من نفس بلدان هؤلاء البكوات والكشاف والمماليك الآخرين، يتمتعن هن أيضا باعتبار خاص، ذلك أنهن - عادة - يصبحن زوجات هؤلاء أو إماءهم المفضلات .

وبالرغم من الامتيازات التى أتيحت للعبيد المماليك من وجودهم بالقرب من البكوات، فإن من الواجب أن نلفت النظر إلى أن العرف قد وضع حدا لتقدمهم. ويمكن القول بأن المماليك ومع أنهم كانوا يعدون جزءا من أسرة سيدهم، لم يكونوا ليتمتعوا بأى حق مدنى فى ميراثهم، إذ إن العلاقة التى نشأت بينهم لم تكن تساوى علاقة التبنى . فليس للعبد - حتى إذا أعتق - أى حق فى تركة سيده التى توزع على أبنائه الشرعيين . صحيح أن بمقدور السيد أن يخصص جزءا من ثروته لصالح العبد، لكن هذه الهبة لم تكن لتبلغ مطلقا أكثر من ثلث الثروة، حتى ولو لم يكن للمتوفى أى أبناء . وعلى العكس من ذلك فإذا مات المعتوق دون ذرية، فإن ثروته كلها تؤول إلى سيده القديم .

وتباع الإماء من كلا اللونين بثمن أغلى من ثمن العبيد الذكور، وإذا ما نشأت علاقة بين السيد وبين واحدة من إمائه وأصبحت هذه أما، فإنه لا يستطيع أن يبيعها، إذ تصبح فى حكم الزوجة الحرة حتى يموت سيدها. وعندما تموت هى يصبح ابنها شرعيا ويرث شأنه شأن أبناء الزوجة الحرة، ولكن إذا أراد السيد أن يتخذ من إحدى إمائه زوجة شرعية فعليه أولا أن يعتقها .

ويمكن للمسلم أن يعاشر إحدى إمائه ، دون أن تخرج - من أجل ذلك - من خدمته، فهو يحتفظ لنفسه عليها بكل حقوق الملكية، فيستطيع أن يستردها وأن

يجعلها تقوم بخدمته ، بل وأن يبيعها من جديد ، ولكنه فقط لايستطيع أكثر من معاشرتها . وثمة أمثلة على زواج من هذا النوع ، وإن كان المعتاد أن يقوم الزوج بعتق تلك التى يختارها زوجة له .

ويدرك العبد أنه مملوك كلية لسيده، وهو يقف أمامه ويداه مضمومتان إلى صدره، وعيناه مثبتتان على عينيه ليدرس أقل رغبات سيده، حتى ينفذها قبل أن يعبر سيده عنها . وحالته فى نظر نفسه طبيعية ، وهو لا يستشعر مطلقا لا الرغبة ولا الحاجة فى قطع قيوده، بل إن المعتوق نفسه يظل يحتفظ لسيده القديم بالاحترام والولاء مما يصعب على أى رجل حر قبوله ، لكن العرفان هو الذى يفسره . وقد رفع على بك الشهير بـ (الكبير) كثيرا من مماليكه إلى مراتب البكوات والكشاف، ومع ذلك فقد كانوا - عندما يأتون لزيارته - يظلون واقفين فى مظهر خانع، ولايجلسون مطلقا أمامه إلا إذا دعاهم لذلك ، كما كانوا يحرصون على ألا يجلسوا على نفس الأريكة التى يجلس عليها سيدهم القديم . ويلاحظ نفس التحفظ والمراعاة من جانب المعتوقات نحو السيدات اللاتى كن مملوكات لهن .

ومن المألوف لدى الشرقيين أن يروا العبيد المعتوقين يصلون إلى ذروة المجد، ولايمكن أن يحقر الرجل مطلقا من قبل الرأى العام لأنه كان من قبل عبدا ، ودائما مايسعى الناس لصداقته ومودته. وهكذا فإن الأمر الذى يعد عند الشعوب الأخرى شيئاً جديرا بالتحقير، يصبح هنا وكأنه أمرمرغوب، بل ثمة من يؤكد أن نقيب الأشراف فى مكة قد زوج ابنته من معتوق .

سبق لنا أن قلنا إن الرجل الحر الذى يريد أن يتزوج من أمته عليه أن يعتقها، ونفس الأمر بخصوص أولاده، فإنه لابد أن يسمح لابنه بالارتباط بإحدى إمائه (أى إماء الأب) وإلا فلن يتمتع الأطفال الذين يأتون عن طريق هذا الاتصال بأى حق مدنى، بل سيظلون عبيدا حتى موت أمهم إلا إذا اعترف الأب بهم، الأمر الذى يعنى عتق الأم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصيغة العتق بالغة السهولة، فهى عبارة عن كلمة من السيد تقال فى أى مكان، فى المنزل أو الشارع أو أى مكان آخر. ولكن إذا خشى العبد من تقلب مزاج سيده فإنه يطلب تحرير وثيقة بالعتق تبرهن على صحة عتقه، ونادرا مايرفض طلب كهذا. وليس لحق السيد على عبده من حد إلا الحق الطبيعى، وعلى سبيل المثال، فإن الأمة التى من واجبها الاستجابة لكل رغبات سيدها تستطيع أن ترفض أى فعل يهين طبيعتها. وعندما يرتكب عبد ما جريمة قتل فإنه يمثل أمام القاضى مع سيده، ويقدم كلاهما للمحاكمة، وإن كان لأسرة القتيل أن تعفو أو تكتفى بتعويض نقدى . وقد سبق لنا القول بأن المعتوق لايرث عن سيده القديم، ومع ذلك فإن سيده إذا ما مات دون ذرية فإن السلطان والقاضى - وهما الورثة فى هذه الحال ، فالأول يرث ثروة المتوفى والثانى يرث وظائفه - يعطيان كل شىء أو جزءا منه إلى معتوقه ، وليس هذا حقا مقررا له، ولكن العرف هو الذى جعل منه نوعا من الإلزام. وفيما مضى ، عندما كان التبنى شائعا، لم يكن الأمر يصل لهذا الحد، ويمكن الآن للرجل أن يتنبى عبده، أو هو على الأقل يستطيع ذلك، على نفس النحو الذى كان يتم فى الماضى.

والعتق هو مكافأة على إخلاص وحماسة وتضحية العبيد، وهذا الفعل شائع لحد أنك لاتستطيع أن ترى إلا عددا بالغ الضآلة من الرقيق وهم يموتون فى ظل حالة الرق، فجميع العبيد رجالا ونساء، بيضا وملونين ، يعتقون على قدم المساواة. وثمة طواشيون عند المماليك، وكان عددهم عند مراد بك يبلغ العشرين، ولكن لم تجر العادة مطلقا فى القاهرة على اللجوء لخدمات هؤلاء التعساء. ويدين الدين هذه العادة ، ولايمارسهابخلاف المماليك إلا عدد بالغ الضآلة من السكان ، فتدمير معين الحياة عند رجل جريمة كبرى فى نظر المسلمين ذوى الحمية الدينية. ويمكن للطواشى أن يعتق شأنه شأن أى عبد، وهو مايحدث فى معظم الأحوال، ولا يحتقر الطواشى إلا إذا كان الاحتقار من نصيب سيده، ولا تجلب عليه حالته كطواشى أى تحقير خاص، بل كان يرى طواشيو الرجل القوى يحصلون لأنفسهم على شىء من التقدير الذى يحظى به سيدهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد موت أحد الأثرياء يقتسم الورثة تركته، ويدخل العبيد ضمن هذه التركة شأنهم شأن بقية أجزائها ، ولايستثنى من هؤلاء إلا من أعتقهم سيدهم عند موته، أو أولئك الذين كان سيدهم قد وعدهم بذلك من قبل، وفى هذه الحالة فإن الأمة التى صارت أما بفعل سيدها تأخذ كل حقوق الزوجة الحرة، وهو الأمر الذى لم تكن قد تمتعت به حتى هذه اللحظة .

- ٧ -

الوصاية، التركة، الشهود

عندما يموت رجل تاركا أبناء صغار السن، فإن جدهم لأبيهم يصبح هو الوصى الشرعى عليهم، أما إذا لم يكن هذا الجد على قيد الحياة فإن القاضى يختار بمعرفته وصيا على هؤلاء اليتامى ، لكن الوصى ليس له حق التصرف فى ثروة القصر. وتخصم نفقات هؤلاء وكذا مصاريف تعليمهم من ثروتهم، وإذا ما أراد الوصى بدافع من العاطفة أن يستثمر أموالهم، فإنه يقوم بذلك مخاطرة من جانبه يتحمل هو كامل مسؤليتها، وهو ملزم على الدوام بأن يقدم إلى القاضى حساب المبالغ التى فى يديه .

أما التربية فهى مستقلة عن الثروة، حيث يعهد بها إلى الأم حتى سن السابعة بالنسبة للأولاد، وحتى سن الزواج بالنسبة للبنات، ولايفوت الوصى أن يعلم الأولاد القراءة والكتابة ، وأن يهيئهم لنوع من الحياة حسب درجة ثرائهم . ولايحق إلا للأب أو الجد أن يعقد زواجا لأبناء دون سن البلوغ، أما الأقارب الآخرون فغيرمخولين فى ذلك. وعندما يبلغ الأولاد سن الرشد ، فإنهم يستطيعون أن يرفضوا الامتثال للقرار الذى اتخذه الأب أو الجد. وقد سبق لنا أن قلنا إن سن البلوغ للولد محدد بخمسة عشر عاما، وفى هذه الحالة يقدم الوصى الحساب إلى القاضى عن ثروات هذا الولد الذى سيصبح الآن قيما على نفسه، ومع ذلك فينبغى - حسب المذهب الحنفى - أن يُعَيَّن على هذا الولد وصى حتى يبلغ سن الخامسة والعشرين، لكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القضاة لا يمتثلون لهذا الرأى. ويمكن للابن عند بلوغه سن البلوغ أن يترك منزل الأب ، ولا تعود أسرته ملزمة بإطعامه .

وللابن – فى التركات – ضعف حق البنت، فعندما يكون لرجل بنتان وولد واحد على سبيل المثال ، فإن الزوجة تأخذ لنفسها ٣/٢٤ من التركة ، ويأخذ الابن ١٠/٢٤ و١/٢ (الجزء، أى ٥ . ١٠) وكل من البنتين ٥/٢٤ و١/٤ (الجزء، أى ٢٥ . ٥). وعندما يكون للمتوفى وريث ذكر، فإنه لا يكون لأخوة المتوفى أو أخواته حق فى الميراث .

وأنصبة الأخوة الذكور متساوية فيما بينهم، واذا لم يكن ثمة ذرية فلا يؤول لزوجة المتوفى إلا ١/٤ تركته ، ويؤول الباقى لأبيه . ولا يحق لأخواته إرثه إلا إذا كان الأب متوفيا. أما إذا ترك المتوفى ابنة فإن نصيب الزوجة على الدوام ٣/٢٤، والبنت فى هذه الحالة ١٢/٢٤، وإذا كان له أكثر من ابنة واحدة فإنهن يقتسمن ٢/٣ ثروة والدهن . وعندما تموت الزوجة يحصل الزوج من ميراثها على ضعف ما كانت ستحصل عليه هى فى الحالة المماثلة .

وقبل الشروع فى تقسيم التركات تجنب مصاريف الجنازة ثم ديون المتوفى، ثم يتم الوفاء بشروط الوصية التى تركها المتوفى ، بحيث لا تتجاوز الهبات بأى حال ١/٣ صافى التركة . أما إذا لم يخلف وريثا فمن حقه أن يهب كل شئ لأحد أصدقائه، وينبغى أن نستنتج أنه فى بلد تتشعب فيه العلاقات الأسرية لهذا الحد، فإن حالة كهذه تبدو بالغة الندرة .

وليس للأبناء الطبيعيين (غير الشرعيين) أى حق فى الميراث، حتى ولو كان الأب قد تزوج من أمهم، إذا لم يكن هو قد اعترف ببنوتهم. ولكن فى هذه الحالة –حالة الاعتراف – يصبح حتى أبناء الأمة أبناء شرعيين، ويستطيعون الإرث كما بينا من قبل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونعتقد حتى تكتمل دراستنا عن المواريث، أن من الواجب أن نقدم هنا من القرآن النصوص التى تتصل بالمواريث لنرى كيف عبر محمد عن كل الحالات المحتملة : «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً . ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم» (*) .

ويمكن لرب الأسرة أن يخصص ٣/١ تركته لصالح من يريد، ولا تعارض القوانين فى ذلك، وتتأكد هذه الهبة كتابة أو عن طريق شهود، بل إن الكتابة تفترض وجود شاهدين. وإذا أنكر الأبناء أن والدهم قد خصص المبلغ المطلوب كهبة، فإنهم يرغمون على القسم، وينبغى أن نلاحظ أن الشريعة تحتم القسم على من ينكر .

وحيث إنه لا يسمح مطلقا بأن يوهب ما هو أكثر من ثلث ما يمكن أن يتركه المرء، فإن ثمة وسيلة للتملص من هذا التشريع لإعطاء كل الثروة كهبة، ولا يحدث هذا إلا عندما يموت رجل دون ذرية . إذ يمكن فى هذه الحالة أن يوقف تركته على أحد المساجد، مع تخصيص حق الانتفاع للشخص أو الأشخاص الذين يفضلهم،

(*) القرآن الكريم، الآيتان (١١، ١٢) من سورة النساء . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بل حتى لذريتهم ومماليكهم، ولا يمكن أن يوصى بشئ للعبد حيث لا أهلية له حتى يمتلك، إذ إن قميصه نفسه ليس ملكا له .

ويمكن القول بأن الشهادة لازمة في كل الأمور الهامة، وإذا ما حدث - على سبيل المثال - أن وقع إيصال من جانب المدين وشاهدين، ثم مات هذان الشاهدان، فإن للمدين الحق في أن يرفض السداد، لكن هذا لا يحدث في الواقع إلا إذا كان الدين كبيرا . وإليكم كيف يفصل في الأمر : يستدعى المدين ودائنه إلى القضاء، وعليهما أن يقسما، ولكن إذا افترضنا أن المدين قد يقسم اليمين باطلا فإن الآخر (الدائن) لا يقسم، لأن القسم دائما على من ينكر . ويفترض القانون أن الكتابة يمكن أن تزيف أكثر مما يفترض أنه يمكن للمسلم أن يحنث في قسمه .

ولا تقبل شهادة المسيحيين أو أى رجل ليس دينه الإسلام أمام المحاكم الإسلامية ضد المسلمين، لذا لا يستدعي الكفار مطلقا عند الفصل في الأمور المدنية أو الجنائية عند الأتراك، ومع ذلك فيمكن لقائد الشرطة أن يستعلم من كافر عن أمور تدخل في اختصاصه. وثمة أمر آخر يبعث على الدهشة ، فعندما يدعى - على سبيل المثال - شخص أن ثمة شخصا آخر قد طلب منه مائة خردة، وشهد على صحة هذا الدين اثنان، فإن هذه المائة خردة تستوجب الدفع ، حتى ولو لم يكن قد تم الدين في واقع الأمر، ولكن إذا ما عاد هذان الشاهدان - بعد أن غلبهما الندم - ليعلنا أمام القاضى أنهما قد حنثا في قسمهما، فإن القاضى يلزمهما أنفسهما بدفع هذه المائة خردة إلى الشخص الذى دفعها ظلما، ويحتفظ المدعى النهاب بالمبلغ الذى حصل عليه ، ولا يلزمه القاضى بأى التزام، ذلك أن هذا المبلغ غير المستحق قد جاء فقط من جانب الشاهدين سيئى الذمة، ولذا يقع العقاب عليهما وحدهما، أما إذا لم يرجع في شهادته سوى شاهد واحد، فإنه يقوم بدفع نصف المبلغ المستلب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويمكن لرجل ما فى غيبة الشهود أن ينكر دينا مؤكدا، فالشهود وحدهم هم الذين يبرهنون على صحة الدين، ويعفيه القانون لذلك من سداد هذا الدين، وإذا ما ظهر شهود على هذا الدين، فإن المدين يلزم بالدفع ، ويكون الحكم فى هذه المرة بمثابة إيقاف للحكم الأول . وفى الحالة التى يطالب فيها شخص ما بدين لا ينكره المدين ، وإنما يدعى أنه قد قام بتسديده، فإن القاضى يطلب من الطرفين أن يقسما، ولكن إذا أنكر الدائن أنه حصل دينه مهما كانت حقيقة ما حدث، فإن المدين يلزم بالسداد مرة أخرى، لأن القانون - كما سبق أن قلنا - يقف فى صف الشخص الذى ينكر إذا ما أقسم على ذلك .

- ٨ -

عن الدين، وعن الاقتراض بالربا

تعتبر شريعة محمد أن الربا جريمة، وقد حرم هذا المشرع الربا لأنه يطمح إلى أن يعتبر كل أتباعه أنفسهم أخوة ، وأن يتعاونوا فيما بينهم، ومع ذلك، فحيث إن إغراء الكسب أقوى من الخوف من رقابة الدين، فإن المسلمين قد استطاعوا على نحو ما أن يتحايلوا على هذا المبدأ الذى لا يستطيع أن يتبعه شعب من المضاربين والتجار . وإليكم كيف أن محمدا يجعل من وسيلة التعاقد إلزاما شرعيا: «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أولا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا يضار كاتب ولا شهيد (*) »«وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته (**) » . وتبعا لذلك فإن المسلم الذى يقترض مبلغا من المال، أوالذى يعقد دينا ما، عليه أن يحرر ورقة إلى دائنه فى حضور شاهدين، ولا يستطيع أن يعفى نفسه من هذا الإجراء، إلا إذا كان الدائن يوليه ثقة كبيرة لدرجة يكتفى معها بكلمة منه . ولا تكفى الكتابة وحدها بدون حضور الشهود لإدانة رجل خرب الذمة، يستطيع أن يحلف أمام القاضى بأنه غير مدين بالمبلغ المطلوب، وهكذا فمن المهم لتفادى مثل هذا النوع من الإنكار التأكد من الشهود، ويكفى الشاهدان وحدهما فى غيبة الكتابة لتأكيد الدين على المدين، وقد سبق أن تعرضنا لذلك من قبل .

ويلزم الشاب البالغ بدفع الدين الذى حرره على نفسه، وتنظر الشريعة لذلك باعتباره أمرا مشروعا، حيث إنها تعتبر أن الشاب يتصرف عندئذ، وهو على دراية تامة بالأمور .

ويسمح القانون بالإرغام الجسدى لسداد الدين، فالمدين ملزم ببيع كافة ما يمتلك، فيما عدا الملابس التى يرتديها، إذا أرغمه الدائن على ذلك . وعندما يشك الدائن أن المدين قد أخفى فى بيت أحد أصدقائه نقودا أو أشياء ليفلت بها من الدائن، فإنه يساق إلى السجن، ويظل هناك حتى يثبت بشهادة شاهدين مشهود لهما بالنزاهة أنه لا يمتلك فى الواقع شيئا، عندئذ يأمر القاضى بإطلاق سراحه حتى يستطيع أن يحصل عن طريق عمله على ما يستطيع به سداد دينه . وما أن يجنى المدين بعض المال، وما أن يبرهن الدائن على ذلك أمام القاضى، حتى يتعرض المدين لإرغام جديد، ولكن لا يسمح للدائن مطلقا باستخدام القوة من جانبه ضد مدينه، ولا أن يفتشه دون تخويل صريح من المحكمة .

(*) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢٨٢ . (المترجم) .

(**) القرآن الكريم، سوة البقرة الآية ٢٨٣ . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويخضع الفلاح المزارع لكل صرامة القانون، فيمكن إرغامه على بيع كل شئ، حتى ثيرانه ومحراثه، ولكن حيث إن المشرع يطلب من الدائن قدرا أكبرمن الاعتدال نحو مدينه، فإن المدين يتمكن على الدوام تقريبا من الحصول على مهلة للوفاء بالتزاماته، أو يرتب ذلك مع الدائن بطريق ودى .

والشخص الذى يودع لديه مبلغ من المال أو أى شئ آخر أيا كان، لا يعد مسئولا إذا ما برهن أمام القاضى بشهادة شاهدين، أن الوديعة قد سلبت منه عن طريق قوة قاهرة، وفى هذه الحالة نفسها فإن قسمه وحده يكفى - إذا لم يكن ثمة شهود - لتحرره من كل التزام .

ومع ذلك فإن المسلمين فى مصر يبدون الكثير من النزاهة والأمانة فى معاملاتهم، فيصرفون شئون تجارتهم بذمة طيبة ، حتى عندما تكون تجارتهم هذه مع تجار من ديانة أخرى . ويفضل الأوربيون التعامل معهم أكثر مما يفضلون التعامل مع المسيحيين، سواء كانوا من أهل البلاد أو كانوا من السوريين، الذين هم أبعد ما يكونون عن التباهى بنفس الطيبة، والذين يتحتم على المرء أن يتخذ أكبر قدر من الحيطة عند التعامل معهم . ولا نستطيع أن نعطى صورة عن نزاهة المسلمين فى مصر عامة ، أفضل من أن نذكر على سبيل المثال أمانة أناس الطبقات الدنيا ، فنقل الأموال والمجوهرات الثمينة يتم عادة عن طريق قوارب تسبح فوق النيل، ومن النادر أن تتخذ احتياطات للتأكد من أمانة البحارة ، ولم نكد نسمع مطلقا أن أحدا منهم قد أساء استخدام الثقة التى وضعت فيه .

وللتحايل على الإجراءات القانونية التى تحرم الربا، يمكننا أن نتصور ما يلى:

يقترض رجل مبلغا من النقود يريد أن يستغلها، فيعتبر الدائن نفسه شريكا له فى المشروع . وعندئذ يحصل على نصيب شرعى من الربح الذى يدره هذا المشروع، ويسمح القانون أحيانا أن يقدم المقترض إلى الشخص الذى يقترض منه هدية سنوية أو شهرية طيلة المدة التى يحتفظ خلالها بالمبلغ، ويمكنه أن يحصل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على هديته هذه بقسم منه ، ونحن نرى أن هذا الإجراء يساوى الربا بشكل تام، بل إنه يفوقه فى أنه غير محصور داخل نفس الحدود .

والشخص الذى يستغل مبلغا من المال، أو الذى يحصل على إيجار منزل ، أو على دخل من ملكية أيا كانت، يلتزم بأن يقدم كل عام للفقراء ١/٤٠ من ربح رأس المال، وللحاكم الحق فى أن يرغمه على ذلك. أما كل الممتلكات التى تستخدم فى الاستعمال الشخصى كالبيت الذى يقيم فيه المرء أو الأرض التى يطعم أسرته من نتاجها ... الخ ، فهى لا تخضع لهذا النوع من الضرائب . ويمكن القول بأن هذه الضرائب ليست إلا أمرا يعود إلى ضمير المرء، ولا تفرض المحاكم ضرورة دفعها، لذا فإن المسلمين ذوى الحمية الدينية، هم وحدهم تقريبا الذين يؤدونها .

قلنا إن الدائن يرتب أموره مع مدينه، ونتيجة لذلك فنادرة هى حالات الإفلاس بالتدليس فى مصر، لكن حوادث المصادرة معروفة وشائعة، وكثيرا ما توضع الأختام على المحلات التجارية ، وبيوت أولئك الذين تريد الحكومة أن تصادر ممتلكاتهم . وتوضع هذه الأختام بطريقتين : إما بواسطة مسمار يضعه موظفو القضاء فى قفل الباب، وعندئذ لا يستطيع أحد أن يخالف هذا المنع دون أن يعرض نفسه لقطع يده ، وإما بوضع قليل من الطين على القفل مع ترك علامة ما . وعند مرورنا فى الرميلة مع فرقة عسكرية من فرقتنا مررنا بمحل يحتوى على كمية هائلة من القمح ، ومختوم بعلامة الطين، وكان من المستحيل علينا وقتها أن نترك حامية فى المدينة، حيث إننا كنا لانزال نحارب المماليك . وحيث إن هذا القمح قد آل إلينا ، بينما نحن لم نصبح بعد فى وضع يجعل الآخرين يحترمون قوتنا، فقد كان من المحتمل أن يقوم العامة - بدافع من الرغبة فى السلب، أكثر منه بفعل الحقد الذى كانوا يكنونه لنا ، وكأمر طبيعى فى الأيام الأولى لقدومنا - باقتحام هذا المحل وسلبه، ومع ذلك فإن شيئا من ذلك لم يحدث، فعندما عدنا إلى المدينة من جديد - أى بعد حوالى شهر - وجدنا المخزن سليما لم تمسسه يد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٩

عن الزنا وعن الاغتصاب

يبدو أن نبى الإسلام كان ينظر إلى الزنا باعتباره أمرا يبعث على اضطراب الأسرة، وأنه ينبغى لذلك ألا ينتشر أمره لابين العامة ولا أمام المحاكم. صحيح أنه أمر بأن يرجم أى متزوج يدان بهذه الجريمة، ولكنه أرغم الرجل الذى ينتهك عرضة، والذى يريد اتهام زوجته بمثل هذه التهمة، أرغمه على الصمت حين حتم عليه إحضار أربعة شهود عيان، وجلد من لايستطيع تقديم الدليل على هذا الاتهام ٤٠٠(*)جلدة. وقد حانت الفرصة ذات مرة لكى يقوم هو نفسه بتطبيق هذا المبدأ، حين جاءه ذات يوم رجل فاجأ زوجته وهى ترتكب جريمة الزنا ليطلب إليه تطبيق العقاب على زوجته الآثمة، فسأله محمد إن كان له على ذلك أربعة شهود، فأجاب الزوج الذى أهين فى شرفه بالنفى. عندئذ قال له محمد إنه سيعاقبه بتهمة القذف فى حق زوجته.

ولم يرد إلا ذكر امرأة واحدة رجمت لأنها اتهمت بالزنا، وقد تم ذلك لأنها هى نفسها التى اعترفت بجريمتها . وعند تنفيذ حكم من هذا النوع فعلى الحاكم أو الوالى الذى يمثله أن يلقى بأول حجر.

وتقضى الشريعة بجلد العزب الذى يتهم بالزنا مائة جلدة، ويجلد العبد الذى يدان بنفس الجريمة والذى يعيش فى كنف سيده خمسين جلدة فقط.

ويدان الزوج الذى يفاجىء زوجته وهى تزنى ثم قتلها، بالقتل ، ويلقى عقاب الموت، فليس له فى هذه الحالة إلا أن يطلقها أو أن يلجأ إلى القاضى . وعندما لايتوافر له الشهود فإنه يقسم أربع مرات بأنه صادق فى اتهامه، وفى القسم الخامس يدعو على نفسه باللعنة إن كان كاذبا . وعندما لاترد المرأة بشئ على هذا

(*) ومن المعلوم أن يجلد ثمانين جلدة . كما ورد فى سورة النور آية ٤ . (المترجم) .

الاتهام ، فإنها تدان بسبب صمتها ، وعقابها فى هذه الحالة عبارة عن جلدها مائة جلدة وحبسها بقية عمرها، أما إذا برهنت على براءتها بنفس طريقة القسم، فإن القاضى يطلق سراحها. ويكون انفصالها عن زوجها أمرا لامحيص عنه ولا رجعة فيه[1] .

وقد يحدث أن يجد رجل ماعبده فى أحضان زوجته، ومع ذلك فلن يكون له إلا حق عقابه أو بيعه ، أما إذا قتله أو حرمه من أعضائه التناسلية فإنه سيكون قد ارتكب جريمة كبرى . لكن مثل هذه الأفعال العنيفة ستبقى دون شك بغير عقاب ، فى بلد تسيطر فيه العادة والعواطف الجامحة أكثرمما يسيطر القانون، وفضلا عن ذلك فسيكون من السهل على فرد ما أن يخفى جريمة قتل يمكن أن يقترفها داخل منزله، أو يستطيع على الأقل أن يجعل هذه الجريمة تمضى باعتبار أن الموت قد حدث بشكل طبيعى.

ويعاقب على الاغتصاب بمائة جلدة ويلزم لاثباته أربعة شهود.

وبالرغم من أن البغاء جريمة، فإن الشريعة لم تفرض عقابا زمنيا على هؤلاء اللاتى يمارسنه. أما الاضطراب الذى تحدثه النسوة اللاتى يعشن هذه العيشة الدنسة ، فهو من اختصاص الشرطة. وعدد هؤلاء التعيسات فى القاهرة وكذا فى كثير من مدن مصر كبير جدا، والمقيمات منهن بالقاهرة يدفعن ضريبة للوالى. ولم يفرض محمد على الرجال الذين يتصلون بالبغايا عقوبات زمنية، لكنه أنذرهم بعذاب النار بعد الموت .

---

(١) يقول القرآن عن الزوجة التى تتهم بالزنا : «واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا». النساء، آية ١٥.

ويقول عن الأمة المتزوجة التى تزنى :« فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » .النساء، آية ٢٥. (المترجم) .

والفتاة التى تحترف البغاء ثم تصبح أما تفقد فجأة احترام العامة ، ومع ذلك فهى لاتحتقر لدرجة لاتجد معها لنفسها بعد ذلك زوجا. والشخص الذى يتزوجها يقوم بفعل خير فى نظر الله، لأنه ينتشلها من الضياع الذى ستنتهى إليه لامحالة، لكن الرجل الحساس والذى يحرص على تقدير أصدقائه يتفادى ارتباط كهذا، غير أن أمثال هذا الرجل قليلون.

١٠

عن السرقة والقتل ، وعن القصاص

يعاقب على السرقة بقسوة، وبرغم ذلك فلا يعاقب المذنب مطلقا بالموت، إلا إذا كانت السرقة قد اقترنت بالقتل. والشخص الذى يدان بالسرقة مع استخدام العنف داخل محل تجارى أو داخل بيت أو داخل نطاق ما، تقطع يده ، ولكنه إذا ارتكب هذه السرقة من شخص أو من معروضات ، وباختصار إذا سرق خارج مكان مسور، فإن القانون يحكم فقط بضربة بالعصا وبإعادة المسروقات. إذن فاقتحام المسكن وانتهاك حرمته هى التى تشكل خطورة فى هذه الجريمة . ولا تصادر حرية المذنب فى كل الحالات ، ويتركه القضاء لحال سبيله بعد تنفيذ الحكم عليه.

وليس ثمة عقوبات أخرى للخادم أو العبد الذى يسرق سيده، وكذلك لاينظر للشخص الذى يسرق مسجدا باعتباره أكبر جرما من الشخص الذى ارتكب السرقة فى أى مكان آخر.

ولاتضيف العودة إلى السرقة شيئا إلى الجريمة، فالمجرم يلقى فى جريمته الثانية نفس العقاب الذى تلقاه على جريمته الأولى ، إذا ما تمت السرقة فى ظروف مشابهة. فإذا كان قد فقد يده اليمنى تقطع له اليسرى، ويلزم وجود شاهدى عيان لإثبات السرقة، ولاتقبل شهادة النساء مطلقا. وعندما لايستطيع المدعى أن يحضر شهودا، فإن القاضى يلزم المدعى عليه بأداء اليمين ، فإذا رفض يدان، أما إذا أقسم فيعفى عنه.

وإذا تخلص اللص من الأشياء المسروقة ولم يستطع أن يردها، فإنه لايودع السجن من أجل ذلك ، وإنما يدخل ضمن طائفة المدينين المعسرين ، ويمنحه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القانون نفس التساهل . ويحكم على من يقوم بإخفاء المسروقات بإعادة الأشياء التى تسلمها إلى صاحبها، لكن الشرطة تستطيع عقابه بطريقة أخرى . فإذا كانت هذه المسروقات قد بيعت وتعرف عليها صاحبها وأثبت أنها تخصه فى الواقع، فإنه يستعيدها دون أن يكون ملزما بتعويض مشتريها .

وكانت حوادث السرقة منتشرة قبل مجئ الفرنسيين، و كان عدد كبير منها يرتكب داخل البيوت بالرغم من بشاعة العقاب ، و لكن ما أن أصبح على رأس السلطة موظفون فرنسيون حتى أصبحت هذه الجرائم نادرة تماما .

ولاشك أن أكبر وأبشع الجرائم التى على المجتمع أن يقمعها و أن يعاقب عليها، هى جرائم القتل . ويتفق محمد فى الرأى حول هذه النقطة مع كل المشرعين القدامى والمحدثين ، وحكم على القاتل بالموت . لكنه مع ذلك يتميز عن أسلافه ، إذ هو أكثر منهم حنكة فى ذلك الفن الصعب، فن سياسة الأمم، ويتجلى ذلك فى تلك النصوص التى جاء بها حول هذه الجريمة، ليخفف من وقعها ، وليغير من أثرها . فقد أباح لأهل القتيل أن يكتفوا بتعويض مالى ، و ذلك عندما ترك لهم الخيار بين هذا الإجراء ، و بين إنزال القصاص بالمذنب ، فنحن من جهة نقرأ فى الجزء الأول (*) من القرآن : "يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم " . ومن جهة أخرى نقرأ فى الجزئين الثالث والرابع (**) : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهله إلاّ أن يصّدّقوا ، فإن كان من قوم عدوٍّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله» . وفى الجزء الخامس (***) : «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا» .

(*) صحتها فى الجزء الثانى، الآية ١٧٨ البقرة . (المترجم)

(**) صحتها فى الجزء الخامس، الآية ٩٢ النساء .(المترجم)

(***) صحتها فى الجزء السادس ، الآية ٣٢ المائدة .(المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتبعا لهذه النصوص المختلفة فإننا نرى أن محمدا مع اعترافه بضخامة الجريمة، ومع تشريعه بعقابها، يميل نحو التخفيف ويحبذ التسامح . ومع ذلك فإن مشاعر اللياقة هذه من جانب المشرع، ليست بذات سطوة كبيرة على عقل وروح الشرقيين، فهذه الشعوب تفضل الانتقام أكثر مما تحبذ هذا التعويض البسيط[1] فليس المال هو الذى يرضيهم ، وإنما يرضيهم رأس القاتل، لذلك فحوادث القتل نادرة فى بلادهم . وينظر إليه رجال الدين باعتباره تعديا على الله ، وعلى أهل البيت ، وعلى الحكومة ، ولكن إذا عفا الورثة بقبول مبلغ على سبيل التعويض، فإن الله بدوره سيعفو لأنه غفور رحيم، وستعفو الحكومة أيضا لأنها لا يمكن أن تكون أكثر تشددا من الطرف الذى يهمه الأمر . من هنا يأتى قانون حق الدم (الدية) ، وهو نوع من الإتاوة يفرض على القاتل فى مقابل رأسه، وينظر إليه كإرث حقيقى. وينتج عن ذلك أن كل من لهم الحق فى إرث القتيل يمكن لهم أن يوقفوا تنفيذ القصاص فى قاتله، وإذا كانت زوجة القتيل حاملا فإنهم ينتظرون إلى اليوم الذى يستطيع فيه الوليد أن يعقل ليفصل فى مصير القاتل .

ويكفى أن يطالب أحد الورثة – مهما كان نصيبه فى الإرث ضئيلا – بحق الدم، لكى لا ينفذ حكم القصاص ، حتى ولو كان الآخرون قد أجمعوا على عقابه .

---

(١) الانتقام هو العاطفة المسيطرة على المصريين . وبينما كنا فى قرية شنديا (مركز إيتاى البارود) كان بعضنا يتنزه ذات يوم مع القائد فى حديقة منزله، عندما جاء شاب يبلغ من العمر ١٤ أو ١٥ سنة ليرتمى تحت قدمى القائد راجيا مستعطفا ويداه مضمومتان إلى صدره وهو يصيح فيه : الانتقام ! فأنهضه القائد وسأله عن سبب صراخه فقال : كان والدى شيخا لشُشت الأنعام فذبحه شيخ البلد الحالى منذ أربع سنوات ليتولى منصبه، وإنى أطلب منك الانتقام لذلك «فأجاب القائد وقد أخذه ثبات الشاب وحزمه : «هل لديك شهود؟» فصاح الشاب :«أما شهودى فهؤلاء هم ! » وفى اللحظة أخرج من صدره قميصا مصبوغا بالدم بعث منظره بالفزع إلى قلوبنا : «هذا قميص أبى وقد اخترقته الطلقات التى تلقاها وهو مغطى بدمائه، إننى أحمله فوق قلبى وسيظل فى مكانه هذا حتى أنتقم له» .

وتوصلنا إلى تهدئة هذا الابن البائس واعدين إياه بأننا سندرس الأمر وتركنا وهو نصف راض لأنه كان يظن قبل مجيئه أنه يرى بعينه يوم الانتقام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا كان أحد الورثة غائبا فإن القاضى يؤجل تنفيذ القصاص، وإذا كان القاتل معروفا ومن السهل العثور عليه، يطلق سراحه، أما إذا كان يخشى من هروبه فإنه يسجن أو على الأقل يفرض عليه أن يقدم كفيلا. ويتحاشى القانون على الدوام وبقدر الإمكان إصدار حكم بالموت، ولكن إذا لم يرد أهل القتيل قبول أى تعويض، فإن القاضى يصدر فى النهاية ذلك الحكم على القاتل ويسلمه للأسرة ، ويسأل ما إن كان أحد من أفرادها يريد تنفيذ الحكم بنفسه . فإذا لم يتقدم أحد، وإذا لم ترشح الأسرة جلادا من عندها، يكلف الوالى الأغا بتطبيق العقوبة .

وتستطيع الأسرة أن تتقدم بعفوها فى أى وقت حتى وقت التنفيذ، وحيث إن الحكم لم يصدر إلا برجائها هى ، فهى حرة فى أن تعفو عن القاتل فى الوقت الذى يتراءى لها . ويبرهن كل هذا بوضوح على أن القانون لا ينظر إلى القتل باعتباره جريمة اجتماعية بقدر ما ينظر إليه باعتباره جريمة فى حق الأسرة، حيث إن القاتل لا يطارد إلا بطلب من أهل القتيل . بل إن الأغا نفسه – وهو يمارس واجباته – لا يستطيع أن يأمر بموت رجل مهما كانت جريمته دون موافقة الحاكم، وينبغى لكى يسمح لنفسه بالتصرف على نحو مخالف، أن يكون المذنب متشردا وليس له أهل ولا نفوذ . وهكذا لم تكن اختصاصات الشرطة فى الأزمان الأخيرة تصل لحد الإعدام، إلا إذا كان الأمر يمس رجالا مجهولين لا أهمية لهم .

ولا يصدر القاضى مطلقا حكما بالإعدام على قاتل إلا إذا قدمت البراهين التامة على الواقعة، وإلا إذا عرفت الظروف كلها وسمعت شهادة الشهود. ويلزم وجود شاهدين على الأقل يشهدان بأنهما رأيا ارتكاب الجريمة، ولا تقبل شهادة واحد بمفرده مهما كان مركزه أو نفوذه، ولا يمكن للنساء أن يشهدن فى قضايا الإجرام ، ولا يلقى بال لشهادتهن إلا فى الأمور المدنية .

وتعتبر شهادة اثنين من دين مخالف ضد مسلم صالحة ومقبولة . وفى الحالة التى لاتكفى فيها الأدلة لإدانة المتهم، فإنه يستطيع بتقديم مبلغ من المال لعائلة القتيل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن يمحو عن نفسه هذه الوصمة التى يلطخه بهاعادة مثل هذا الاتهام الخطير.

ويعاقب على قتل المرأة بنفس الطريقة التى يعاقب بها على قتل الرجل، ولايضع المذهب الحنفى أية تفرقة كذلك بالنسبة لقتل العبد.

وإذا ما قتل غريب ولم يطلب أحد ثمنا لدمه فإن وارثه – أى الحاكم – يرفع القضية الجنائية عن طريق ممثليه. كما يلاحق السيد الذى يقتل عبده كذلك باسم الحاكم، الحافظ لحقوق المجتمع حسب رأى المذهب الحنفى، أما المذاهب الأخرى فترى أن السيد قد عوقب بما فيه الكفاية بفقده عبده .

وموت الفلاح المدين تحت ضربات عصا المالك، يعرض الأخير لنتائج العمل الإجرامى، ولكن النفوذ وسطوة الثروة الكبيرة أو سطوة أصدقاء لهم نفوذ، تجعله فى معظم الأحوال فوق القانون .

وإذا كانت الشريعة لم تقرر إلا عقابا بسيطا للمسلم الذى يقتل كافرا، فإن الحكومة – وهى يعنيها أن تحمى كل الناس بما فيهم الأجانب شأنهم فى ذلك شأن رعاياها أنفسهم – تحكم بالإعدام على قاتل المسيحى أو اليهودى. وفى عام ١٧٧٠ أو ١٧٧٢ اغتيل أحد الفرنسيين بيد قواس أحد الكشاف ، فأمر أغا الانكشارية بقطع رأس القواس ونفى الكاشف .

وإعدام القاتل لا يحقر من شأن أولاده، فالجريمة عند المصريين وعند كل المسلمين شخصية، بينما تبدو مصادرة الثروات باعتبارها شيئا بشعا وظالما لورثته، لكن هذا الإجراء كان يحدث فى بعض الأحيان أثناء حكم البكوات، وكان ذلك إحدى السوءات التى أدخلوها مع ما أدخلوه من سوءات .

وتحكم الشريعة بالقصاص على الشخص الذى يجرح قرينه «النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص» (*) .

(*) القرآن الكريم، الآية ٤٥،المائدة . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والشخص الذى يدان بارتكاب هذا الفعل العنيف، يستطيع أن يفتفر فعلته بأن يدفع إلى المجروح نصف المبلغ الذى كان سيضطر لدفعه لو أنه قتله .

ولايمكن أن يحكم بالموت على من قتل خطأ، ولكنه يدين لأسرة القتيل بثمن حق الدم، باعتباره قد حرمها من أحد أفرادها .

وحسبما يرى العلماء فإن الشريعة فوق الحاكم، لذا فإنه لا حق لأحد فى أن يحكم على إنسان مثله بالقتل، إلا إذا كان القاضى هو الذى أصدر هذا الحكم. وفى عهد السلاطين الأول، كان لأهالى الشخص الذى أمر رئيس الشرطة بقتله، الحق فى استدعاء هذا الضابط أمام القاضى ليطلبوا القصاص منه، بل إن السلطان نفسه لايستطيع أن يحكم بالموت كما يتراءى له على مذنب فاجأه هو بنفسه وهو يرتكب جريمته. فقد رأى الغورى سلطان مصر بعينيه واحدا يرتكب جريمة زنا، فجمع القاضى والمذنبين ، وأمر الأول بأن يقتل الأخيرين ، فأجابه القاضى : «أعرف أنك شاهدت هذين اللذين تتهمهما، وكان فى يدك السيف لكى تضرب عنقهما ، لكننى ليس لى الحق فى أن أدينهما بلا أدلة، أحضر لى إذن شهودا حقيقيين أفحص لك القضية » . ويقدم لنا التاريخ مثالا آخر أكثر دلالة على سطوة الشريعة على كبار الأمراء فى أزمنة الإسلام الأولى، فقد استدعى الخليفة هارون الرشيد فى قضية ، وعندما حضر إلى المحكمة استقبله القاضى جالسا ، وفحص القضية وأنهاها بشكل ودى ، ثم نهض القاضى- الذى لم ينهض عند حضور الأمير إذ كان من المحتمل أن يكون مذنبا - بعد الحكم، وصحبه إلى حصانه وساعده على الركوب.

ومع ذلك فتحت الادعاء بأن الصالح العام يحتم على الدوام اتخاذ إجراءات عاجلة، فقد كان الوالى أو رئيس الشرطة الليلية يقطع رأس الشخص الذى يجده متلبسا بارتكاب جريمته ، دون بحث أو تحريات قضائية، ولم يحدث مطلقا منذ أن استقر الأتراك بمصر أن تجاسرت أسرة رجل مات بهذه الطريقة أن تتقدم بشكوى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى القاضى، فسيف الوالى صريح وخارج القانون كما يقول العامة . ولكن سلطة رؤساء السلطة - كما سبق أن نوهنا - قد أصبحت فى الآونة الأخيرة أقل استبدادا، فلم يعد رجال الشرطة يقتلون أى شخص إلا إذا حصلوا مقدما على تفويض بذلك من شيخ البلد .

وليس ثمة مأوى له حرمته لقاتل، فهو يلاحق فى كل مكان حتى فى المساجد وحجرات الحريم، ومع ذلك فإن الرجل الكريم الذى يخفيه من غضب الأسرة المكلومة يمتدح بأنه قد قام بفعل خير سوف تكافئه عليه السماء ذات يوم، خاصة إذا لم يكن قد آوى القاتل إلا لكى يلتمس من ملاحقيه توضيح العقاب الذى يطلبونه، أما إذا أصر أهل القتيل على طلب رأس القاتل فإن حاميه يضطر لتسليمه طواعية، وإلا يرغم على ذلك بقوة السلطة.

وحوادث القتل نادرة للغاية فى المدن الكبرى وبخاصة فى القاهرة، وربما لايعود الأمر إلى قوة القانون بقدر مايعود إلى الطابع الخجول للسكان، وإلى يقظة لشرطة المتحفزة على الدوام ، والتى تنقض كالصاعقة . ولكن فى الأقاليم حيث لاتوجد شرطة عمومية، و حيث ترين البلادة والخمول والجهل على الفلاحين وقبائل عربان التى تعمر الريف، فإن حوادث القتل أكثر انتشارا .

وقد دخلت فى عهد محمد بك عادة همجية سببت عددا لايحصى من الجرائم، ففى موسم البرسيم كان سياس (جمع سايس) المماليك يذهبون إلى حقول البرسيم لرعاية الماشية وجمع الكلأ ، وقد تسببت هذه الانتهابات فى كثير من حوادث القتل، وكثرت الشكوى من ذلك لدرجة أن الحكومة تساهلت فى الأمر حتى توفر على نفسها مشقة قمع هذه الأمور الجامحة. وحتى لايعود الأمر يسبب لها من الضيق ماهى فى غنى عنه ، خولت الفلاحين على نحو ما قتل السياس النهابين، كما خولت هؤلاء كذلك حق الدفاع عن حياتهم، شريطة ألا يستخدم أى طرف من الاثنين الأسلحة النارية، ولم يكن القاتل من أى من الطرفين يلقى أى نوع من العقاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

عن التجارة والصناعة والزراعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١

تجارة مصر منذ العصور القديمة حتى اليوم

كانت مصر على الدوام مركزاً لتجارة هامة، وهى تدين بذلك لموقعها الجغرافى بقدر ماتدين به كذلك لكثرة وتنوع منتجاتها الزراعية، فهى تقع على بحرين، ويمكن القول بأنها تشكل نقطة التقاء بين ثلاث قارات كبرى من العالم القديم، وعلى هذا فقد كانت سوقا كبيرا لمختلف الأمم، حيث سهلت لها سبلَ الاتصال الملاحةُ فى نهرالنيل وفى ترعه وفروعه التى لايحصيها عد . لذلك يخبرنا الكتاب المقدس بنبأ أولئك التجار الإسماعيليين الذين جذبتهم التجارة إلى مصر، فساروا إليها ومعهم أشهر أبناء يعقوب الذى اشتروه. ويبرهن هذا النص الهام - بالإضافة إلى الحكاية التى تليه ، وبطريقة لاتقبل الجدل - على أن بلاد الفراعنة كانت منذ الأزمنه البعيدة مزدهرة ازدهارا كبيرا بفضل التجارة والصناعة. ومع ذلك فإن الخرافات والروحانيات قد وضعت لذلك حدودا، إذ اتخذت شعوب مصر- حسبمايقول هيرودت ومؤرخون آخرون جديرون بالثقة - من البحر عدوا، ونظروا للأسفار التى تتم عن طريقه باعتبارها أفعالا تدنس مقدساتهم. ومن الممكن تفسير هذه الفكرة العجيبة بنفور المصريين الطبيعى من بقية الأمم ، أو بالرجوع إلى البحث فى أنساب آلهتهم . لكن بحثا من هذا النوع سوف ينأى بنا كثيرا عن موضوعنا . ويكفى هنا أن نقول بأن مصر إذا كانت قد ظلت - برغم هذا التحريم - تحتفظ بأهميتها فى مجال التجارة، فإن هذه التجارة تدين برواجها لخصوبة أرض مصر، ولاحتياجات الشعوب المجاورة التى كانت تجد فى مصر، ليس فقط كل ماتحتاج إليه من مواد غذائية، بل كانت تجد كذلك مختلف المنتجات التى تساهم فى إضفاء طابع الفخامة على مدنها الكبرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولعل أول تجارة شهيرة يذكرها التاريخ هى تجارة الفينيقيين مع المصريين، وتجارة المصريين مع الأحباش والجزيرة العربية فى موانى البحر الأحمر. وكان الفرس والهنود يجلبون إلى الجزيرة العربية أقطانهم وعطورهم وأحجارهم الكريمة وبضائع أخرى، وكانوا يحملون معهم عند عودتهم المنتجات الصناعية الفينيقية المصرية. وفضلا عن ذلك كانت توجد فى هذه الفترة وسائل للتبادل التجارى، لم تنتقل تقاليدها إلينا على الإطلاق. أما بخصوص اليونانيين ، فعلى الرغم من أنهم يدينون بأصلهم جزئيا إلى المستعمرات المصرية، فإنهم لم يبدأوا إلا جد متأخرين فى ممارسة علاقاتهم التجارية مع مصر. وقد سمح لهم فى عصر أمازيس بأن يتخذوا من نكراتيس(*)مستودعا لتجارتهم، وهو امتياز لم يكونوا قد حظوا به حتى ذلك الوقت. وقبل هذه الفترة، كانت المستعمرات اليونانية فى آسيا تستطيع الاتصال بمصر ، وبخاصة منذ الدعم الذى قدمه الأيونيون والكاريون Cariens لأبسماتيك على منافسيه، لكن العلاقات بين مصر واليونان لم تصبح طليقة من القيود إلا فى عهد أمازيس .

ومن بين كل الشعوب كان أبناء قرطاجة – بعد الفينيقيين – هم الشعب الذى أثرى ثراء كبيرا عن طريق التجارة، بل ويتفق مؤرخو الأزمنة القديمة على وضعهم فى الصف الأول . وكانت الأساطيل التجارية لهذه الجمهورية القوية تجوب كل أنحاء البحر المتوسط وموانى أسبانيا والشواطىء الغربية من أفريقيا.

ويقول العلامة Huet فى زمن فتوحات الإسكندر: «كانت سفن القرطاجيين والفينيقيين – التى كانت فى ذلك الوقت تحت سيطرة الفرس – تغطى البحار من الهند والحبشة حتى المحيط الغربى» . لكن تخريب مدينة Tyr (حاليا:صور) وانتصارات البطل المقدونى وتأسيس مدينة الأسكندرية قد أحدث ثورة كبيرة فى مسار التجارة البحرية . فقد أصبحت هذه المدينة الجديدة المقر الرئيسى لتجارة الهند فى عصر (فيلالفوس بطليموس الثانى)، وصارت فى ذلك الوقت من أغنى

(*) حاليا : كوم جعيف (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دول العالم، فكانت هى التى تمون كل موانى البحر الأبيض، إذ كانت اليونان وايطاليا وآسيا وأفريقيا تأتى إلى أسواق الأسكندرية للحصول على تموينها . وقد بنى بطليموس الثانى مدينة بيرنيس على البحر الأحمر، وقد سهل ذلك نقل البضائع التى كانت تصل إلى مصر من الهند، فكانت تفرغ فى بيرنيس ، ومن هناك تنقلها القوافل إلى قفط Coptos على النيل، ومن هناك تنزل إلى النهرحتى المكان الذى تبدأ منه ترعة الأسكندرية . وقد اهتم هذا الحاكم كذلك بإنشاء محطات مريحة فى الصحراء للقوافل ، مما جعل هذا السفر الطويل أقل مشقة مما يبدو لأعيننا الآن، ولم يهجر طريق بيرنيس إلا فى أواخر عهد البطالمة .

وكانت كورنثة – فى اليونان – مزدهرة فى الوقت الذى كانت الأسكندرية فيه فى قمة مجدها تحت حكم البطالمة، وقد استطاع أهالى كورنثة الذين أثروا من عملياتهم التجارية، أن يجعلوا من مدينتهم السوق الرئيسية فى الغرب . لكن الوقت لم يطل بها حتى عانت من الآثار البغيضة لغيرة روما، فسلب منها القنصل موميوس Mummius (*) مجدها التجارى بنفس الطريقة التى تدهورت بها مدينة صور فى الماضى بفعل إنشاء الأسكندرية، ففى هذه الفترة أصبحت جزيرة ديلوس Délos (**) – التى كانت لاتعرف حتى ذلك الوقت إلا بمعبدها وآلهتها – المركز الرئيسى لتجارة البحر الأبيض .

وفى العام الـ ٧٢٥ من تأسيس روما تضاءلت مصر لتصبح مجرد إقليم رومانى، ومنذ ذلك الوقت استغل الرومان – وكانوا قد أصبحوا سادة مطلقين للبحار– تجارة الهند لحسابهم، ومع ذلك فلم تكن أساطيلهم تبحر إلى ما وراء الهند حسب شهادة مؤرخى ذلك العصر . وكان اليهود والرومان – كما يذكر بلين Pline– يرحلون من الأسكندرية فى منتصف الصيف، أى فى الأيام الأولى لفيضان النيل

(*) قنصل الرومان عام ١٠٦ قبل الميلاد، وقد استولى على كورنثه وأخضع اليونان . (المترجم) .

(**) من جزر الأرخبيل .(المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بلا شك، وكانوا يصلون إلى بيرنيس بعد ٢٤ يوما، ويستغرقون ٧٠ يوما ليصلوا إلى الهند، ولم يكن يلزمهم أقل من عام فى رحلة الذهاب والعودة . واستمرت هذه الحال حتى الغزو العربى أى منذ أغسطس حتى قسطنطين، ذلك لأن إنشاء القسطنطينية على يد هذا الحاكم قد أضر كثيرا بازدهار تجارة مصر، وفيما بعد، عندما عمل الخليفة عمر على إنشاء البصرة على نهر الفرات، وأصبحت تجارة الهند وقفا على هذه المدينة الجديدة، ويمكن القول بأن التجارة قد أصبحت محصورة بحدود الخليج الفارسى. لكن مصر لم تكن قد فقدت بعد ازدهارها القديم: إذ كانت القاهرة التى بناها بعد ذلك الخليفة الفاطمى المعز لدين الله عام ٩٨٤ قد أصبحت مدينة هامة . وفى القرن الثانى عشر استردت الأسكندرية جزءا من امتيازها ، وأصبحت تنهال عليها بضائع الهند من كل جانب، لكن اكتشاف البرتغاليين لطريق يؤدى إلى الهند عن طريق المحيط الأطلسى ورأس الرجاء الصالح، كان هو القشة الأخيرة التى قصمت ظهر مصر، ويمكن القول بأن ذلك قد قلص مكانتها التجارية لدرجة لم تعد تنشغل معها إلا بتجارتها المحلية. وقد تأثر بذلك وبنفس القدر أهالى البندقية وجنوة الذين كانوا قد أثروا لفترة طويلة عن طريق تجارتهم مع القسطنطينية والبحر الأسود وآسيا الصغرى، ثم أضيروا بسبب النتائج التى أدت إليها فى آسيا الاكتشافات البحرية البرتغالية. فقد كان تجار البندقية وحدهم – على وجه التقريب – هم الذين يستحوذون على كل تجارة مصر ، حيث كانوا يأتون إلى الأسكندرية للحصول على كل المواد الغذائية اللازمة لأوروبا، ويحملون إلى مصر أخشاب البناء والمعادن والأصواف والسلاح والزجاج ..الخ . وفى القرن الرابع عشر، عندما استطاع أهالى فلورنسا الارتفاع بمستوى صناعة الحرير والزجاج لحد كبير، فإنهم توسعوا فى علاقاتهم ومبادلاتهم، فكانوايأتون إلى الأسكندرية ويقتسمون التجارة مع أهالى البندقية، وقد كان هؤلاء من قبل لايلقون أية منافسة، وأنشأ أهالى فلورنسا البنوك، واحتلوا مركزا بارزا بين الأمم التجارية فى ذلك العصر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه هى كل عصور التجارة المصرية ، منذ العصور الضارية فى القدم حتى العصور القريبة من عصرنا . فلنر الآن ماذا أصبحت عليه التجارة تحت الإدارة المخزية للمماليك، وتحت تأثير العثمانيين، وهو لايقل عن تأثير المماليك دمارا .

مما لاجدال فيه أنه لو كانت حالة التجارة لبلد ما تعتمد على الحكومة التى تحكمه ، لكانت مصر قد أوقفت منذ زمان طويل كل أنوا ع التبادل مع الشعوب المجاورة . ومع ذلك فقد كان ثمة تجارة شأنها شأن كل فروع الأعمال التى يحترفها شعب من الشعوب، لقد كان هذا الضرب من ضروب النشاط يسير نفسه بنفسه، لأن كل إنسان يشعر بحاجته إليه. إن من الممكن إعاقتها ولكن يستحيل القضاء كلية على أثرها النافع، وهذا هو ما حدث تحت استبداد المماليك، فكانت المبادلات التجارية تتم على الدوام . وبالرغم من أن عدد البيوتات الأوربية التى استقرت فى القاهرة أو الأسكندرية قد أصبح ضئيلا، فإنه كان ما يزال كافيا للقيام بنشاط كبير فى مجال المعاملات التجارية بين مصر وأوربا . وبخلاف هذه التجارة كان ثمة تجارة أخرى- لاتقل أهمية – بين مصر والقسطنطينية، تلك هى تجارة الرقيق الأبيض من كلا الجنسين ، والذين يبدلون بعبيد سود قادمين من أعماق أفريقيا . وكانت القوافل تجلب إلى مصر من سوريا وفلسطين المواد الغذائية والبضائع المختلفة، لتحمل معها بضائع أخرى عند عودتها .

ولكن أهم فرع من فروع التجارة المصرية كان هو استيراد وتصدير البن القادم من الجزيرة العربية، فكانت السفن تقوم برحلة سنوية من السويس، لتتجه إلى جدة، لتحمل من هناك البن الذى كان عرب اليمن قد جلبوه إليها ، كما كانت تحمل الأقمشة والتوابل والبخور القادمة من الهند ، إما عن طريق الإنجليز من البنغال وسورات ومدراس ، وإما بواسطة الهنود أنفسهم. وكانت السفن المصرية تبحر من السويس فى الفصل الذى تهب فيه رياح الشمال ، وكان يلزمها ١٧-٢٠ يوما للوصول إلى جدة . ولم تكن ترفع شراعها إلا أثناء النهار، وكانت تلقى مراسيها فى الليل ، وكانت تحرص على التزام الشاطئ ، ونادرا ما كانت تتوغل فى عرض البحر، وكانت رحلة العودة تستغرق شهرين .

وكانت القوافل القادمة من دارفور وسنار، وكذلك القادمة من بلاد النوبة، تجلب إلى مصر بخلاف العبيد السود من كلا الجنسين، أصنافا عديدة من المواد الثمينة ، مثل : تراب الذهب والعاج والمسك والأبنوس والعنبر وريش النعام والصمغ من مختلف الأنواع . ويفترض مايبه Maillet أن مصر تحصل من فرنسا وايطاليا فى العام الواحد على ٤٠٠ - ٥٠٠ ألف قرش، وأنها تحصل من أعماق أفريقيا على ١٠٠٠-١٢٠٠ قنطار من تراب الذهب، وعلى أكثر من مليون ريال فرنسى (écus) من القسطنطينية وآسيا، ثمنا لأقمشتها وبنها وأرزها ومختلف الأنواع من البقول .

وتشتمل تجارة التصدير المصرية أساساً على : الأرز والبن وجلود الماعز والأقمشة والقطن والسكر والقمح والعقاقير الطبية والخضروات الجافة . وكانت الحنة - وهى نبات يستخدم فى صبغ الأظافر والأقدام والأيدى باللون الأحمر البرتقالى - مرغوبة بكثرة فى كل البلاد، لأنه كان من عادة المسلمات بصفة عامة استخدامها .

وكان جزء من مالية مصر يذهب إلى تركيا لتسديد الجزية التى يدفعها الباشا للسلطان، مع ما يرسل من هدايا كان يقدمها للوزراء والمقربين من السلطان، حتى يثبت فى مكانه . وكان جزء كبير من مال مصر كذلك يختفى عن طريق أبنائها الذين يخشون على الدوام من السلب، وقد انتهت هذه العادة المحزنة - وهى شائعة عند كل الشرقيين - بتسرب كثير من الأموال إلى خارج مصر، وبهذه الطريقة ضاعت على مصر مبالغ طائلة، وإلى الأبد .

وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوربا لصالح مصر بشكل كبير، إذ لم تكن مصر تدفع أموالا على الإطلاق، وكان المقابل يتم دائما فى صورة بضائع، بينما كانت أوربا مضطرة فى معظم الأحيان إلى دفع الأموال . وكانت فرنسا ترسل الأصواف وصبغة النيلة والأسلحة ومختلف المواد اللازمة لصناعة الحدايد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والنحاس ، أما البندقية فكانت تصدر لمصر العملات الذهبية الإيطالية (سكين Séquins) والخرز والمرايا، أما ألمانيا فكانت ترسل البورسلين والأواني الزجاجية والمواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس .

وكانت مصر ترسل في مقابل ذلك : السنامكي ، والصمغ، وكثيرا من المنسوجات القطنية الخشنة، وغزل القطن، والسكر الخام ، والبن إلى مرسيليا. وكانت ترسل إلى البندقية : كميات كبيرة من البن ، والعقاقير الطبية. وكانت ترسل إلى ألمانيا: العاج ، والأبنوس ، والصمغ .

وكان من المفيد في السنوات الأخيرة إرسال النقود إلى مصر، لأن قيمتها الإسمية كانت في ارتفاع، ويرجع السبب في ذلك إلى ندرة النقود، وإلى أن قيمة العملات الوطنية كانت في تدهور مستمر. أما البضائع الضرورية كالأصواف ونحوها، فكان يفضل الحصول في مقابلها على بضائع، حيث كان سعر هذه الأصواف قد ارتفع .

أما تجارة الهند وجدة، فكانت – على العكس من ذلك – مكلفة لمصر، لأنها لم تكن تصدر في مقابلها إلى هناك إلا أصوافا رديئة، ولأن تجارة البن كانت تقتضي منها أن تدفع ٤/٥ ثمنه نقدا . أما تجارة قوافل أفريقيا فلم تكن تتطلب قطعة واحدة من النقد، وكانت هذه القوافل تجلب – كما سبق القول – العبيد ، والصمغ ، وسن الفيل ، وريش النعام ، وتراب الذهب. وتحصل في مقابل ذلك على : الأصواف الفاخرة ، والمجوهرات ، والأسلحة النارية المصنوعة في أوربا .

ولكي نعطي للقارئ فكرة موضوعية عن تجارة مصر، نضع تحت يده جداول مختلفة ، نوضح فيها بالتفصيل كل مواد الاستيراد والتصدير التي تغذي هذه التجارة، وتعود هذه الأرقام إلى عام ١٧٧٥ .

تفاصيل البضائع المستوردة

من : لندن ، مارسيليا، ليفورنيو ، البندقية ، تريستا ، القسطنطينية ، وأزمير ، ومدن تركية أخرى - إلى القاهرة للاستهلاك السنوى بمصر عام ١٧٧٥

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
جوخ إنجليزى سوبر فاين (فاخر)	طرد	٥٠	قطعة ذهبية	٢ – ٢ ١/٤	٩٠	ذراع مقاس القسطنطينية
« فرنسى « «	«	٥٠	«	١ – ١ ١/٤	٩٠	«
« هولندى « « «	«	٢٠	«	٢ – ٢ ١/٢	٩٠	«
« فرنسى خشن وعريض	«	٢٥٠	ديوانى	٧٥ – ٩٠	٩٠	«
« إنجليزى « «	«	٢٥٠	«	٦٠ – ٧٥	٩٠	«
« فرنسى عريض	«	١٥٠	«	٥٥ – ٧٠	٩٠	«
« منقوش للأرائك والمخدات	«	١٠	«	٦٠ – ٩٠	٩٠	«
أقمشة صوف إنجليزى	«	٢٠٠	«	٣٢ – ٣٥	٨٥	«
فلفل	«	٣٠٠	–	٣٠ – ٣٥	٦٠	قنطار ١٠٠ رطل
زهرة القرنفل	«	١٠	ديوانى	١٦٠ – ١٨٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
الحشيشة المغربية	بالة	١٠	«	٤٦٠٠ – ٤٧٠٠	٩٠	قنطار ١١٠ رطل
ورق بثلاث هلالات وارد فرنسا أو جنيف	«	١٫٠٠٠	–	١٧ – ١٣	٦٠	بالة ٢٤ رزمة
صوف فاخر من انجلترا يسمى باشماوت	«	٥٠	قطعة ذهبية	٢ – ٢ ٣/٤	٩٠	وزنة القسطنطينية
« من لندن موديل فرنساوى	«	١٥٠	ديوانى	٧٥ – ٩٠	٨٥	«
« ألمانى	«	٦٠	قطعة ذهبية	٢ – ٣	٩٠	«
ورد الشمس ومشروبات روحية أخرى وارد ألمانيا والبندقية	«	١٫٠٠٠	ديوانى	٤٣ – ٤٨	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
نحاس مستعمل	«	١٠٠	«	٢٥ – ٢٨	٩٠	«
ورق تبغ وارد سالونيكا وقولة	«	٥٫٠٠٠	فندقلى	٦ – ١٢	١٤٦	أقة
أقمشة قطنية وارد بورصة	«	٢٠٠	ديوانى	٢٤٠ – ٣٦٠	٨٥	القطعة
مناديل من الموسلين	«	١٠	«	٦٠ – ١٠٠	٩٠	الواحدة
سجاجيد متنوعة من القطيفة وسجاجيد سادة	«	٥٠	قرش	١٧ – ٥٠	٤٠	«
قطيفة منتقاة مطعمة بالذهب أو الفضة أوسادة	«	١٫٠٠٠	بوطاقة	٣ – ١٢	٩٠	الزوج
أقمشة قطنية وحريرية من دمشق وحلب	«	١٠٠	ديوانى	٤٥٠ – ٥٠٠	٩٠	القطعة
صابون سورى درجة ١	«	١٫٠٠٠	«	٣٠ – ٣٢	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
« نقى من كريت	«	٢٫٠٠٠	بوطاقة	١٠ – ١٢	٩٠	قنطار ١٢٠ أقة
تبغ سورى	«	٤٫٠٠٠	فندقلى	١٥ – ١٦	١٤٦	قنطار ٤٠ أقة
تين مجفف من ستانخيو ورودوس	«	١٫٠٠٠	ديوانى	٥ – ٧	٩٠	أقة دراهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
حرير خام من بورصة	بالة	١٠٠	بوطاقة ألمانية	٥ – ٦	٩٠	أقة دراهم
» » » زاجورة	»	٢٠	»	٥ – ٦	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
» أبيض وأصفر من قبرص	»	٥٠٠	»	٥ – ١٤	٩٠	أقة ٤٥٤ درهم
» » » » بيروت	»	٥٠٠	»	٤ – ٤١/٢	٩٠	رطل ٢٢٩,٥ درهم
» » » » طرابلس	»	٥٠٠	»	–	—	—
قطن من عكا أو من قبرص وسالونيكا	»	٦٠٠	قرشا	٤٥ – ٦٠	٣٠	قنطار ١٠٠ رطل
تبغ ورق من هنجاريا	»	٣٠٠	فندقلى	١٠ – ١٢	١٤٦	أقة ٤٠٠ درهم
ورق رفيع بثلاث هلالات	»	١٠٠٠	مدينى	٩٠ – ١٠٠	٩٠	الرزمة
ورق خشن	»	٥٠٠	»	٦٠ – ٧٥	—	»
» أصناف أخرى	»	٢٠٠	»	٥٠ – ٦٥	—	»
» من ألمانيا	»	١٠٠	»	٨٠ – ١٠٠	٩٠	»
حديد من ألمانيا	الطرد	٥٠٠	–	١٠ – ١٢	٧٣	قنطار ٢٣٣,٥ رطل
زفت من ستانجيو ورودس	صندوق	٢٠٠٠	–	–	—	—
زنجينا	الطن	١٠	ديوانى	١٢٠٠–١٢٥٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل
حبوب المسابح والعقود – عادى	»	٢٠٠	–	١٠ – ١٢	٦٠	» ١٢٠ »
» » »	»	١٠٠	قطعة ذهبية	١٠ – ١٢	٦٠	» بالأرطال
» » » وارد هولندا وألمانيا	»	١٠	»	١٨ – ٢١	٦٠	—
أوراق معدنية رقيقة	»	١٠٠	ديوانى	٥٥ – ٦٠	٩٠	الباكو
لوندة فرنسية	»	٦٠	زرمحبوب	١٠ – ١١	١٢٠	قنطار ١١٠ رطل
علب كبيرة	»	١٠	ديوانى	٤٠٠ – ٤٥٠	٩٠	لكل مائة
زيت من كريت	البرميل	١٠٠٠	»	٢٢ – ٢٤	٩٠	أقة بالدراهم
كسرولات فاخرة	الطن	١٠	مدينى	٧٥ – ٨٠	٩٠	»
أسلاك حديدية متنوعة	ط صغير	١٠	بالذهب	٢٦ – ٣٦	٩٠	القنطار ١٥٠ رطل
» نحاس أصفر متنوعة	»	٥	فندقلى	١٨ – ٢٠	١٤٦	» بالأرطال
» نحاسية	»	٢	»	١٦ – ١٨	١٤٦	» »
زئبق	»	٥٠	مدينى	٦٠٠٠–٦٤٠٠	٨٥	» ١٢٠ رطل
سلال من مختلف الأنواع	صندوق	٦	ديوانى	٥٠ – ٦٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
أقراط – سكاكين من أحجام مختلفة – علب للنشوق – زهور صناعية	»	٥٠	–	–	—	السعر حسب الصنف
حبات مسبحة بيضاوية ألوان مختلفة نمرة ٢، نمرة ٣		١٠	ديوانى	٩ – ١١	٩٠	المسبحة
حبات مسبحة بيضاوية نمرة ٤		١٠	»	٤ – ٥	٩٠	»
حبات مسبحة بيضاوية زرقاء وخضراء		١٠	»	١٩٠ – ٢٠٠	٩٠	بالألف
حبات مسبحة بيضاوية منقطة	»	٥	»	٨٠ – ٩٠	٩٠	»

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
حبات مسبحة بيضاوية ألوان مختلفة	صندوق	٥	ديوانى	٩ – ١١	٩٠	بالمسبحة
« « من العقيق الصناعى	«	١٠	«	١٩٠ – ٢٠٠	٩٠	بالمسبحة ١٢ – ١٤٠ح
« « « الياقوت نمرة ٢، نمرة ٣	«	١٠	«	١٠ –١٢	٩٠	« « «
أوراق فضية رقيقة	«	١٠٠	–	٢٤ – ٢٦	٦٠	بالصندوق
رقائق نحاسية	«	١٠	قطع ذهبية	٩٠ – ٩٥	٩٠	الباكو ٥ حزمات
مبارد نمرة ١، نمرة ٢	«	٥	ديوانى	١٢ – ١٤	٩٠	بالباكو
سيوف عريضة ذات حدين	«	١٠	«	٨٠ – ٨٥	٩٠	لكل
مواسير بنادق	«	١٠	«	٩٠ – ١٠٠	٩٠	«
نحاس جديد مصنع	«	٢٠٠	«	٦٠ – ٦٥	٩٠	أقة بالدراهم
كلور الزئبق	«	١٠	«	٣٦٠ – ٣٨٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
معدن مضروب إلى رقائق خفيفة	«	١٠	«	٢٠٠ – ٢٢٠	٩٠	بالباكو
شيلان من قماش الأنجورا	«	٣٠٠	نقد ألمانى	١٧ – ١٨	٩٠	بالقطعة
كركم فى علب صغيرة	«	٢٠	ديوانى	٤٣ – ٥٠	٩٠	الأقة ١١٠ درهم
« غير معبأ	«	١٠	«	٨٠ – ٩٠	٩٠	« بالدراهم
أحذية بدون كعوب (بابوش) وارد القسطنطينية وأزمير	«	١٠٠	«	٦٠ – ٨٠	٩٠	الزوج
مستكة وارد خيوس	«	٤٠٠	مدينى	١١٥ –١٢٠	٩٠	الأقة ٤٠٠ درهم
صلب عادى	«	١٠٠٠	«	٣٠٠ – ٣٤٠	٩٠	القنطار ١٠٥ رطل
« صنف أجود	«	٥٠٠	«	٣٠٠ – ٣٤٠	٩٠	قنطار بالأرطال
أكسيد الرصاص وارد فينسيا	«	٥٠٠	«	٨ – ٩	٦٠	الصندوق
كبريتات الزئبق	«	٢٠	«	٨٤٠٠–٨٦٠٠	٩٠	القنطار ١٠٢ رطل
سكاكين ذات مقابض وارد سوريا	«	٠	–	–	–	السعر حسب الصنف
سكاكين بدون مقابض	«	١٠	مدينى	٤٠ – ٤٣	٩٠	الحزمة
مقصات ضخمة	«	٥	«	١٣ – ١٩	٩٠	الدستة
أمواس ممتازة وعادية وارد ألمانيا	«	١٠	«	٢٠ – ٢٥	٩٠	–
أكواب زجاجية ومرايا متنوعة وارد فينيسيا	«	٥٠	ريال ألمانى	٣ – ٥٠	–	كل حسب حجمه
مرايا وارد ألمانيا	«	٢٠	«	٦ – ٤٠	–	« «
أكواب زجاجية ومرايا وارد بوهيميا	«	١٠	–	–	–	السعر حسب الصنف
مشروبات روحية وارد أسبانيا	«	٥٠	مدينى	٢٤ – ٣٠	٩٠	الصندوق
زجاج مرايا بدون إطار	«	٢٠٠	فندقلى	٦ ١/٢–٨	١٤٦	«
رصاص على شكل سبائك	«	٢٠٠٠	ديوانى	٤٧٠ – ٤٩٠	٩٠	القنطار ١٤٠ رطل
زرنيخ أصفر وأبيض	«	٢٠٠	«	٥٠٠ – ٥٦٠	٩٠	« ١٢٥ «
أكسيد النحاس على شكل قطع	«	٢٠	«	٧٠ – ٧٥	٩٠	الأقة ٤٠٠ درهم
إبر نمرة ١. ٢. ٣. ٤	...	١٠٠٠٠	«	٣٥٠ – ٣٨٠	٩٠	بالألف
دبابيس	–	١٠٠٠٠	«	٣٠٠ – ٣٥٠	٩٠	«
سنارات أنواع مختلفة	–	١٠٠٠٠	«	٢٠ – ٣٠	–	«
رقائق نحاسية وأسياخ حديد	–	٢٠	مدينى	٢٢٠٠–٢٣٠٠	٩٠	القنطار ١٥٠ رطل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
ألواح زجاجية من البندقية سادة ومنقوش	–	–	–	–	–	–
الصنوبر (للصباغة باللون الأحمر)	صناديق	١٠	ديوانى	٨٤٠٠ – ٨٦٠٠	٩٠	قنطار ١٢٠ رطل
حلوى من فرنسا وجنيف	العلبة	٢٠٠	»	٨ – ٣٠	٩٠	العلبة
تبي مخفف من أزمير	»	٨٠٠٠	»	٨ – ١٢	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
قطران (زفت) من ستانخوس ورودس	القربة	٥٠٠	–	–	–	–
صبغة النيلة	البرميل	١٠٠	قطعة ذهبية	١٠ – ١٦	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
جوزة الطيب	»	١٠	ديوانى	١٦٠ – ١٧٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
قصدير باللفة	»	٣٠٠	»	١٢٠٠ – ١٣٠٠	٩٠	قنطار ١٠٢ رطل
عقاقير لعلاج العيون	»	٢٠٠	»	٤٧٠ – ٤٩٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل برميل
جيلامين لتنظيف الأسنان	»	٢٠٠	»	١٤٠٠ – ١٤٦٠	٩٠	» ١٠٢ » »
ألواح قصدير	»	١٠٠	–	٣٦ – ٤٠	٦٠	البرميل ٤٥٠ لوح
أكسيد الرصاص الأحمر	»	٢٠	ديوانى	٥٢٠ – ٥٤٠	٩٠	قنطار ١٣٠ رطل
سكر من لشبونة	»	٤٠	قطعة ذهبية	١٠ – ١٣	٩٠	» ١١٠ »
شبة من انجلترا	»	١٠٠	ديوانى	١٠٠٠ – ١٠٥٠	٩٠	» ١٥٠ »
كبريتات	»	٥٠	»	١٦٥ – ١٧٥	٩٠	» ١٥٠ »
مسامير كبيرة الحجم	»	١٠٠	قطعة ذهبية	١٩ – ٢٤	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
آنية حديدية	»	٢٠	مدينى	٢٢ – ٢٥	٩٠	» » »
» نحاسية	»	١٠	»	٧٠ – ٧٥	٩٠	» دراهم
زيت من المغرب وتونس	الجرة	٤٠٠٠	ديوانى	٢٤ – ٢٨	٩٠	» ٤٠٠ درهم
صابون رخو من المغرب	»	٥٠٠	»	٢٢ – ٢٤	٩٠	» دراهم
تبغ مدقوق	»	١٠٠	مدينى	٥٠ – ٦٠	٩٠	» »
مزاول	الواحدة	٢٠	قطعة ذهبية	٣٠ – ٤٠٠	–	الواحدة
بندول	»	٥٠	»	١٥ – ١٠٠	–	»
أقمشة من البندقية أرجوانية اللون تسمى ساى	القطع	٢٠٠	»	٣ ١/٤ – ٣ ٣/٤	٩٠	ذراع القسطنطينية
أقمشة أرجوانية اللون	»	٥٠	»	٤ ١/٢ – ٥	٩٠	»
» تسمى بدوانيل نصف فاخرة	»	٢٠٠	»	٢ – ٢ ١/٢	٩٠	»
أقمشة حريرية وكتانية سادة للقمصان	»	١٠٠٠	نقود ألمانية	٥ – ٧	٩٠	القطعة
أقمشة قطنية خشنة من القسطنطينية	القطع	١٠٠٠	ديوانى	٨٠٠ – ٨٥٠	٩٠	»
فلانيلة منقوشة من ألمانيا	»	٥٠٠	مدينى	٣٠ – ٣٥	٩٠	ذراع القسطنطينية
جوخ خشن وارد ألمانيا	»	٢٠٠	»	٥٨٠	–	–
مناديل متنوعة وارد ألمانيا	»	١٠٠	ريال ألمانى	٨ – ١٠	٩٠	القطعة
» كتانية » »	»	١٠٠	»	٢ ٣/٤ – ٣	٩٠	»
قماش أبيض سادة ومنقوش	»	١٠٠٠	–	–	–	حسب الصنف
» مشمع سادة ومنقوش	»	١٠٠٠	ريال ألمانى	٨ – ٦	٩٠	القطعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
ساعات ذهبية وفضية	الدستة	٢٠	قطعة ذهبية	٢٠ – ٢٠٠	–	الواحدة
عقيق صناعى	»	٢٠٠٠	ديوانى	٢٤ – ٣٠	٩٠	–
مناديل أنواع مختلفة	»	٢٠٠	مدينى	٥٨٠ – ٦٠٠	٩٠	الدستة
ورق مذهب	الرزمة	١٠٠	ديوانى	٢٩٠ – ٣٢٠	٩٠	الرزمة
» »	»	١٠٠	»	٤٩٠ – ٥٢٠	٩٠	»
» مفضض	»	١٠٠	»	٨٠ – ١٠٠	٩٠	»
ساتان من فلورنسا درجة أولى وثانية	الذراع	١٠٠٠	»	٩٥ – ١٠٠	٨٥	ذراع القسطنطينية
ساتان من فرنسا درجة أولى وثانية سادة ومنقوش	»	٥٠٠	»	١٠٠ – ١٢٠	٨٥	»
أقمشة مذهبة ومفضضة من فرنسا وفلورنسا	»	٦٠٠٠	قطعة ذهبية	٣ – ١٠	٨٥	»
ساتان عريض وسميك	»	١٠٠٠	ديوانى	٦٠ – ١٠٠	٨٥	»
» خفيف وغير عريض	»	١٥٠٠	»	٤٥ – ٦٠	٨٥	»
» عريض ومتين من ألمانيا	»	٥٠٠	»	١٢٠ – ١٥٠	٨٥	»
» تفتاز أسود وأبيض من البندقية	»	٤٠٠	»	٩٥ – ١٠٠	٨٥	»
ساتان من فرنسا نمرة ١ ونمرة ٢	»	٥٠٠	»	١٠٠ – ١٢٠	٨٥	»
قطيفة مضلعة وسادة	»	٢٠٠	قطعة ذهبية	١ ١/٢ – ٢	٨٥	»
ساتان مضلع وسادة	»	٦٠٠٠	مدينى	٦٠ – ٨٥	٨٥	»
ساتان مذهب ومفضض	»	٤٠٠٠	»	١٥٠ – ٣٦٠	٨٥	»
أقمشة مذهبة ومفضضة من البندقية	»	٢٠٠٠	ريال ألمانى	٣ – ١٢	٩٠	»
أقمشة متجانسة من دمشق	»	٢٠٠٠	مدينى	١٠٠ – ١٦٠	٩٠	»
كبريت عمود	القنطار	٢٠٠٠	ديوانى	٢٠٠ – ٢٥٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل
عنبر أبيض نمرة ١	الأقه	١٠٠٠	»	٥٥٠ – ٦٥٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
مرجان وارد فرنسا وراجوزة وليفورنيو	الرطل	٢٠٠٠	»	٧٢٠ – ٣٤٠٠	٩٠	رطل ١٥١ درهم
عنبر أصفر نمرة ١	الأقة	٤٠٠٠	»	١٨٠٠ – ٢٠٠٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
شرائط من القصب أو الحرير مذهبة ومفضضة	المثقال	٦٠٠٠	»	٣٠ – ٣٥	٨٥	ذراع القسطنطينية
رقائق ذهب وفضة	»	٢٠٠٠	»	٢٨ – ٣٢	٨٥	مثقال
خيوط ذهب وفضة	»	٥٠٠٠	»	٢٥ – ٣٠	٨٥	»
شرائط قصب وحرير ذهبية وفضية من كل الأنواع	»	٣٠٠٠	مدينى	٣٠ – ٣٥	٩٠	»
حديد من السويد ومسكوفيا	قضبان	٦٠٠٠	–	٨ – ٩	٧٣	قنطار ١/٣ ٢٣٣ رطل
فرنامبوك (خشب الطلاء)	الكتلة	٢٠٠٠	ديوانى	٨٥٨ – ١٠٠٠	٩٠	» ١٢٥ رطل
خمور من كل الأنواع من أسبانيا وفرنسا وتوسكانيا	–	–	–	–	–	الثمن حسب الصنف
بنادق صيد وطبنجات إنجليزى أحجام صغيرة	–	–	قطعة ذهبية	١٠ – ٥٠	–	–

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
ألواح خشبية للمبانى من كل نوع	–	٦	–	–	–	الثمن حسب الحجم
أخشاب من روسيا والبحر الأسود وقردوغلى	الحمولة	١٠	–	–	–	« « «
فستق من سوريا بكميات صغيرة	–	–	ديوانى	٣٠ – ٤٠	٩٠	أقة بالدراهم
راتنج (صمغ صنوبر) من سالونيكا بكميات صغيرة	–	–	–	–	–	–
أقمشة تيلية للقلاع مستوردة من روسيا وبكمية صغيرة من تريستا	–	–	–	–	–	–
أنواع نحاسية ونحاس بكميات صغيرة وارد تريستا	–	–	–	–	–	–
أقمشة دمشقية مختلفة الأنواع	–	–	–	–	–	–

مجوهرات القسطنطينية مجهزة أو غير مجهزة

الماس، زمرد، لآلئ من كل الأصناف .

١٠٠٠ قيراط من الألماس الأحمر من حلب ، ويفقد القيراط من ١٠ – ٣٠ خردة حسب الصنف، تفقد اللآلئ من ٢ – ٨ خردة فى المثقال الواحد ، أما اللآلئ الكبرى فحسب النوع .

الجلود : جلد الجبة ، وتأتى من روسيا ، وتشمل جلود الذئب الأبيض والأصفر والسمور ، وتساوى الواحدة من ١٠ – ٢٠٠ خردة .

الخمور: من قبرص وجزر أخرى من الأرخبيل.

موازين البضائع المختلفة بشكل عام فى القاهرة

الأقة فى القاهرة = ٤٠٠ درهم ، وهى تساوى أقة القسطنطينية إلا بخصوص الحرير الوارد من بورصة Bursa وراجوزة وقبرص ، حيث تساوى الأقة ٤٠٤درهم.

الرطل = ١٤٤ درهم .

رطل الحرير السورى = ١/٢ ٢٢٩ درهم .

وعند وزن مختلف الأنواع يخصم الوزان العيار العديل (وزن الوعاء) عن كل الطرود والبراميل ... الخ .

ومع ذلك فإنه يوجد على الدوام فضلات أكبر مما يفترض فى الواقع، حيث يصل القنطار إلى ١٠٢، ١٠٥، ١١٠، ١٣٠ رطلا من كل ١٠٠ . وينبغى أن نلاحظ أن هناك بضائع يبلغ القنطار فيها بعد خصم العيار العديل إلى ١٥٠ أو ١٣٣،٣/١ بدلا من ١٠٠ .

١٠٠ رطل فى القاهرة تساوى بالضبط ١٠٠ لبرة فى لندن .

و = ١/٢ ١١٢ لبرة (Livra) فى مارسيليا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

و = ١٣٠ لبرة (Livra) فى ليفورنيو، = ١٥٠ لبرة صغيرة فى البندقية، و١٠٠ لبرة كبيرة فى البندقية أيضا ، وفى تريستا نفس الشئ .

١٠٠ فوندى فى تريستا أو البندقية = ٢/١ ١١٧ لبرة كبيرة فى البندقية، و١٨٥ لبرة كبيرة فى تريستا .

١٠٠ رطل فى القاهرة = ٣٦ أقة فى القسطنطينية وأزمير .

النقود التى يفضل استخدامها فى عمليات الشراء

قطعة ذات ٧٣ مدينى أو ديوانى

قطعة ذات ٧٠ مدينى أو ديوانى

قطعة ذات ٦٠ مدينى أو ديوانى

قطعة ذات ٣٢ مدينى أو ديوانى

قطعة ذات ٦٠ مدينى أو ديوانى

الفندقلى ويساوى ١٤٦ ديوانى .

المجوهرات الذهبية والفضية

١ قيراط = ٤ حبات

١ درهم = ١٦ قيراطاً

١ مثقال = ٢٤ قيراطاً

١ أوقية = ١/٢ ٨ دراهم

١٠٠ قيراط بنغالى = ١١٢ درهماً .

وتباع المجوهرات المجهزة دون وزن ، وتباع الأحجار الكريمة بالقيراط دون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خصم العيار العديل ، وتباع اللآلئ بدون خيط وبدون خصم العيار العديل ، أما إذا كانت ملضومة فتوزن ١٠٥ فى مقابل ١٠٠ ، ويوزن المرجان مع أحبال حريرية صغيرة ، والعيار العديل هو ١٥١ درهماً مقابل ١٤٤ ، ويباع بالرطل أو الدرهم .

١٠٠ درهم من وزن القسطنطينية من المجوهرات الذهبية أو الفضية =١٣٣درهماً فى القاهرة ، أما جواهر البندقية التى تزن فى أوربا ١٨ قيراطاً فيجب أن تعطى فى القاهرة ٢/١ ١٨قيراطاً، وهذا الفرق يساوى مقدار ربع حبة.

١٠٠ قيراط بوزن البندقية لا بد أن تساوى فى القاهرة ١٠٢ قيراط .

والقطعة الذهبية من المجر تزن نفس وزنها الأصلى، أما الدينار الذهبى الأسبانى (دوبلون) فيزن فى القاهرة ٩دراهم، ويزن الفندقلى ١٨قيراطاً، ويزن الواحد من الزر محبوب ٢/١ ١٣قيراطاً ، وتزن قطعة الخردة ٩ دراهم .

أما المقاييس المستخدمة فى القاهرة بالنسبة للأقمشة فهى ذراع القسطنطينية ، أما ذراع القاهرة فهو أقصر، ويستخدمه التجار لبيع القطاعى .

قيمة العملات الأجنبية التى تصل القاهرة عن طريق التجارة

السكين Séquin البندقى = ٢ خردة و ١٣ – ١٨ مدينى حسب المنطقة، القطعة الألمانية = ٢ قطعة ذهبية و٥ – ١٠ مدينى، ويبلغ سعر الدوبلون الأسبانى والسكين البربرى والمراكشى والجزائرى والتونسى والطرابلسى ١٣٠ – ١٤٠ مدينى، أما الدولار الأسبانى ذو العمودين أو القرشين فيساوى ١ خردة (بوطاقة) و٣ – ١٥ مدينى ، ويستخدم بخاصة فى الفكة . وهذا بخلاف كميات كبيرة من أنواع أخرى من النقود ومن تراب الذهب والسبائك التى تجلبها القوافل . وتراب الذهب عادة رخيص الثمن، لكنه منذ فترة قصيرة بدأ يستخدم بكميات كبيرة فى صنع قطع النقود الصغيرة فى القاهرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقاييس الأجنبية مقارنة بمقاييس القاهرة

الذراع الإنجليزى ١ ١/٤ من ذراع القسطنطينية ، وهو المقياس المستخدم فى القاهرة .

ذراع مرسيليا = ١ ٣/٤ من ذراع القسطنطينية، ذراع البندقية = ذراع القسطنطينية بالنسبة للأقمشة الصوفية، أما بالنسبة للأقمشة الحريرية فإن ١٠٠ ذراع بندقى = ٩٣ من ذراع القسطنطينية ، و١٠٠ ذراع تريستى = ١٠٤ ٣/٤ من ذراع القسطنطينية .

البضائع التي تصدرها مصر

إلى: لندن ، ومارسيليا، وليفورنيو، والبندقية ، وتريستا ، والقسطنطينية، وأزمير، وسالونيكا ، وبلاد أخرى فى تركيا .

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	العملة التى تباع بها	السعر	ديوانى	الأوزان والمقاييس
بن وارد اليمن	بالة	٣٠٠٠٠	دولارتوسكانى	٢٣ – ٢٨	٨٥	قنطار ١٠٥ رطل
خشب السنط	–	–	«	٢٠ – ٢٠	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
خشب السنط وخشب زغرتا	–	–	«	٢٨ – ٣٢	٦٠	قنطار ١٠٠ رطل
جوز القئ	–	–	«	١٩ – ٢١	٦٠	«
المر بأنواع مختلفة	–	–	«	٤٣ – ٣٤٦	٦٠	«
مر فقط	–	–	«	٧٨ – ٨٢	٦٠	«
الحلتيت (صمغ لتسكين التقلصات)	–	–	«	٢٨ – ٣٣	٦٠	«
جذور الزعفران	–	–	«	٢٨ – ٣١	٦٠	«
قرفة	–	–	«	٢٨ – ٣٣	٦٠	«
قرفة شرقية	–	–	«	١٨ – ٢٢	٦٠	«
كتان مغزول	–	٣٠٠	«	٤٠ – ٤٥	–	بالة ٢٠٠٠٠ كيس
فلفل طويل	–	–	ديوانى	٧٥ – ٨٥	٩٠	أقة بالدراهم
جلود ثيران بأحجام مختلفة	–	٤٠٠٠	مدينى	٢٢٠ – ٣٠٠	–	للجلد الواحد
« « « «	–	٦٠٠٠	«	١١٠ – ١٣٠	–	«
جلود بقر	–	٣٠٠٠	«	٩٥ – ١١٠	–	«
قماش خشن أزرق يسمى مذون	بالقطع	٤٠٠٠	«	٩٠ – ١٠٠	–	للقطعة
قماش خشن أبيض	«	٤٠٠٠	«	٦٥ – ٨٠	–	«
لآلئ	–	–	ديوانى	١٥٠٠ – ١٦٥٠	٩٠	
صمغ عربى من سنار	–	–	دولارتوسكانى	١٦ – ٧٣	٧٣	قنطار ١٣٣ ١/٢ رطل
صمغ عربى من جدة	–	–	فندقلى	٥ – ٦ ١/٢	١٤٦	«
« « «	–	–	دولارتوسكانى	١٣ – ١٥	٨٥	قنطار بالرطل
« «	–	–	«	١٠ – ١٣	٨٥	«
غاز الأهليلج (للأفران الطبية)	–	–	قطع ذهبية	١١ – ١٣	٦٠	–
بخور	–	–	«	١٣ – ١٨	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
بخور من مختلف الأنواع		–	«	٨ – ١٠	٦٠	قنطار
سن الفيل	القنطار	–	«	٦٠ – ٦٥	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
زهور الزعفران قطفة أولى وثانية	«					
زراعة الصعيد	«	٢٠٠٠٠	«	١٨ – ٢٢	٦٠	قنطار رطل
تمرحنه		٢٠٠٠	«	١٩ – ٢٢	٦٠	قنطار
ملح النشادر إنتاج الجيزة نمرة ١	«	٢٠٠٠	دولارتوسكانى	٥٠ – ٥٥	٨٥	٧٢ أقة أو ٢٠٠ رطل
ملح النشادر إنتاج المنصورة						
ورشيد نمرة ١		٨٠٠٠	«	٤٠ – ٤٨	٨٥	« «

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	العملة التى تباع بها	السعر	ديوانى	الأوزان والمقاييس
البلح	قنطار	٣٠٠٠	دولارتوسكانى	٢ ١/٢ - ٤	٨٥	قنطار ١٢٠ رطل
السلمكة	»	١٠٠٠٠	القطع الذهبية	٣٠	٦٠	» ١١٠ »
الجراب	»	٢٠٠٠	»	٣٥	٦٠	قنطار بالرطل
بودرة السلمكة	»	٢٠٠٠	»	٥	٦٠	»
قطن مغزول	»	٦٠٠٠	زرمحبوب	١٠ - ١٤	١٢٠	»
الفتنة	»	٣٠٠٠	دولارتوسكانى	٣ ١/٢ - ٤	٨٥	قنطار ١٥٠ رطل
صوف بعبله	»	٤٥٠٠	–	–	–	–
كتان أصناف متعددة	»	٣٠٠٠٠	–	–	–	–
لونده هندى من الهند	–	–	ديوانى	١٩٠-٢١٠	٩٠	أقة بالدراهم
كركم	–	–	»	١٨-٢٢	٩٠	»
حبهان كبير	–	–	»	١٤٠-١٦٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
حبهان صغير	–	–	»	٣٥-٤٥	–	أقة بالدراهم
دم التنين	–	–	مدينى	١٠٠-١١٥	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
دم التنين ناعم وارد الهند	–	–	»	١٢٠-١٣٠	٩٠	»
شمع جديد	قنطار	٢٠٠٠	»	٥٠-٦٠	٩٠	»
أفيون نمرة ١، ٢	–	–	»	٣٦٠-٤٠٠	٩٠	»
حنة للصباغة بالأحمر	زكيبة	٨٠٠٠	»	١٤٠-٥١٠	٨٥	الزكيبة ٣٥ أقة
حنة للصباغة بالأصفر	»	٨٠٠٠	»	١١٠-١٢٠	٨٥	»
حب اليسر	–	–	فندقلى	١٩-٢١	١٤٦	–
أرز دمياطى	الأردب	٣٠٠٠٠	بالقطع الذهبية	٣٨-٤٠	٣٠	الأردب ٢٢٥ أقة
أرز رشيدى	»	٢٥٠٠٠	»	٢٣-٢٥	٣٣	الأردب ١٥٣ أقة
كميات كبيرة من الأقمشة الكتانية والقطنية من الصعيد وإمبابة ورشيد ودمياط	–	–	–	–	–	–

العملات المتداولة فى القاهرة

يستخدم المدينى والديوانى فى الفكة، أما الزر محبوب فيساوى ١٢٠ مدينى، ويساوى القرش ٤٠ - ٦٠ مدينى .

وثمة عملة أخرى من راجوزة تقيم بـ ٦٠ مدينى ، وهى عملة مطلوبة فى آسيا، وترسل منها كميات كبيرة إلى سوريا حيث تلقى إقبالا كبيرا .

أما الـ بوطاقة أو الخردة فإن سعر استبدالها العادى يبلغ فى رشيد والأسكندرية ودمياط ٨٦ مدينى، ويصل فى القاهرة إلى ٨٥ مدينى ، وبسبب ندرتها ارتفع سعرها الآن إلى ٩٢ مدينى . أما فى تجارة المواد الغذائية الغالية فهى تساوى ٨٥، ٩٠، ٩٢ مدينى . أما الدولارات التوسكانية التى تعرف باسم البوطاقة فتتداول بسعر ٨٠، ٨٢ مدينى ، وهى تساوى قطعة الخردة، وتفضل فى آسيا .

وتصل قيمة فندقلى القسطنطينية ١٦٠ مدينى ، ولكنه نادر .

ويتفاوت مقدار الرسوم المفروضة على البضائع المستوردة من أوربا وآسيا بحسب أثمانها، فهى تبلغ ٨٪ على المجوهرات ، وبالنسبة لصبغة النيلة وبضائع أخرى ثمينة ٩٪، الجوخ والورق ... الخ ١٣٪، الرصاص وبضائع أخرى رخيصة القيمة ١٥ - ١٦٪ ، البضائع الواردة من تركيا ٢٠٪ . أما بالنسبة للرسوم الجمركية فتتراوح بين ٨ - ١٥٪ ، أما الأخشاب وورق التبغ والصابون والفواكه فتدفع رسومها نقدا .

أما البضائع المصدرة من مصر إلى أوربا. فتبلغ الرسوم المفروضة عليها من ١٥ - ٢٠٪ ، وينبغى على هذه البضائع أن تدفع رسوما إلى القناصل وإلى أشخاص آخرين حتى تحصل على تصريح بالخروج . وكان تصدير البن والأرز والحبوب ممنوعا فى معظم الأحيان . وتحصل البضائع المصدرة إلى تركيا على بعض التسهيلات حسب الظروف. وكانت حسابات البن والأرز والصمغ العربى وارد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنار والبخور والفتنة وملح النشادر الجيد وأخشاب السنط الممتازة وبضائع أخرى – كانت تسوى نقدا، وفى بعض الأحيان كانت تقايض ببضائع أخرى، ويمكن شراء البضائع الأخرى عن طريق المقايضة مع تقدير سعرها بحسب سعر السوق.

وتختلف تجارة مصر اختلافا بينا عن تجارة أوربا، بسبب الاضطرابات الكبيرة التى تتعرض لها الحكومات، وبسبب أحداث أخرى تتعرض لها التجارة، فتنخفض حركتها بشدة أثناء بعض هذه الأحداث، أو تزدهر خلال أحداث أخرى، لذلك ينبغى أن يكون التاجر يقظا ، وعليه على الدوام اقتناص الفرص المواتية .

وشهر رمضان هو الشهر الملائم لبيع المنسوجات الصوفية والحريرية، ففى هذا الوقت يشترى العامة وكذا أبناء الطبقة العليا ملابس جديدة لأنفسهم ولزوجاتهم وخدمهم .

وتجلب سفن وقوافل جدة البن والبخور والصمغ وبضائع أخرى من الهند والجزيرة العربية والحبشة، وعندما تعود إلى جدة، تحمل معها النيلة والرصاص والحديد والحلى الزجاجية وبضائع أخرى تستورد من البندقية، خاصة باليمن والحبشة والهند .

وكانت بضائع الهند تأتى دوما مع محمل الحج، وهذا ما يعفيها من دفع الرسوم فى القاهرة، إذ كان للمحمل امتياز عدم دفع أية رسوم على الإطلاق .

وكانت قوافل النوبة تجلب الصمغ العربى من سنار، وسن الفيل وبضائع أخرى من هذا البلد أيضا، وتأخذ عند عودتها الجوخ الفرنسى المسمى لوندران والجوخ الإنجليزى والورق والقرنفل والمرجان .. الخ وأنواعا مختلفة من خزف المحلة وطنطا الذى تقوم عليه تجارة كبيرة . وتجلب هذه القوافل أيضا كمية كبيرة من تراب الذهب ، الذى يباع عادة بـ ٢٠٠ – ٢٠٨ بوطاقة لكل ١٣٥ درهم، ولكن منذ عهد محمد بك استخدم تراب الذهب بكميات كبيرة فى ضرب النقود ، مما جعل سعر هذه الوزنة يرتفع إلى ٢١٢ – ٢١٦ حسب الجودة .

وشهرا يوليو وأغسطس هما وقت الزعفران والحناء والبلح، أما سبتمبر وأكتوبر فهما شهرا الأرز والكتان، وديسمبر ويناير للسنامكى والفتنة، وفى هذه الفترة ينبغى على المرء أن يختزن بضائع جيدة سيبيعها بربح مضمون ومجز لحد كبير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسوف يكون الأمر مجحفا بالنسبة للذين يرسلون بضائعهم من أوربا لوتعجلوا بيعها فى الحال، ذلك أن التجار المصريين المتفهمين للأمور سيبخسون هذه البضائع حقها، كما أنهم سيحاولون – فى نفس الوقت – أن يبيعوا بأغلى سعر يستطيعون الوصول إليه ، تلك البضائع التى يراد إرسالها فى مقابل البضائع التى اشتروها بهذه الطريقة .

ولقد كانت هذه عادة الفرنسيين فيما مضى، ولكنهم عندما تبينوا العاقبة السيئة لذلك ، أنشأوا لأنفسهم محلات واتخذوا لهم وكلاء ، ووصلت بذلك تجارتهم لدرجة مزدهرة، لحد أنهم استطاعوا أن يكتسحوا – على وجه التقريب – كل الأجناس الأخرى .

٢

عن حالة الصناعة

لا يمكن لملكات شعب من الشعوب – ذهنية كانت أم روحية – أن تنمو، وأن يجنى هو بالتالى ثمرات ذلك، إلا فى ظل أنظمة ترعاها، وينطبق هذا القول نفسه على الصناعة، وإلا فإنها ستظل راكدة حيث لا اختراع ولا تحسن . وهكذا، فإن الحرف والمنتجات الصناعية فى وادى النيل تشى بحضارة لا تزال فى طور الطفولة، أو تشى بالأحرى بتقاعس العمال وأصحاب الأعمال، فليس ثمة شئ دقيق، أو معتنى به يخرج من المصانع المصرية إذا ما استثنينا التطريز، فالمنسوجات القطنية والصوفية و بقية الأشياء ذات الاستعمال الطويل، تظهر بشكل خشن وغير دقيق، لحد سوف يذهلنا إذا نحن لم نلق بالا لتلك الظروف التى يحياها الشعب الذى أنتجها. فلقد ظل المصريون المحدثون – برغم كل العناصر التى كان يمكنها أن تؤدى للنماء والازدهار – متخلفين، لأن سطوة الطغيان قد حصرت عقولهم، بل يمكن القول بأنها شلت قدرتهم على التفكير . وليست مصر هى الدولة الوحيدة فى كل دول الشرق التى تحيا فى مثل هذه الحالة المحزنة ، بل إننا نرى – للأسف الشديد، فى كل مكان من الشرق – نفس التدهور ، ونفس الجمود، ونفس النتائج .

ومع ذلك، وبالرغم من تلك الحياة المنحطة التى قدر على المصريين أن يحيوها فى ظل حكومة المماليك، فإنه لم يفتهم حتى الآن أن يستغلوا شيئا من المصادر الهائلة التى تهيئها منتجات أرضهم للصناعة ، فصناعة الأقمشة الخشنة من القطن والكتان، تتيح فرص العمل لألوف الأيدى . وتقوم المحلة الكبيرة – وهى مدينة يبلغ تعدادها حوالى ثمانية آلاف نفس – بصنع أقمشة حريرية وشيلان من الحرير تعرف باسم شيت وحرير، وبعض المنسوجات القطنية الخشنة، ونوع من التفتاز الأسود تستخدمه زوجات البكوات كنقاب يتخفين به . ويعمل فى هذه المصانع ٨٠٠–١٫٠٠٠ عامل من كلا الجنسين، ومن مختلف الأعمار.

وتصنع سمنود – وهى مدينة لايبلغ تعدادها بالكاد ٢٫٠٠٠ – ٣٫٠٠٠ نسمة – بعض المنسوجات الشعبية من الكتان . وتصنع منوف كثيرا من هذه المنسوجات نفسها ، كما تصنع أجمل حصر البلاد . أما مدينة طنطا الشهيرة بأسواقها وبضريح السيد البدوى، فتصنع كثيرا من المنسوجات الكتانية لكنها منسوجات بالغة الدقة والإتقان ، وتعرف باسم قماش (١) .

وبخلاف هذه المنسوجات – بالإضافة إلى التطريز الذى يبرع فيه المصريون كما سبق القول – يصنع المصريون كذلك كثيرا من الآنية الفخارية الشعبية، والقلل(وهى آنية مرطبة) ، والآنية الزجاجية وهى خشنة ، كما يصنعون السجاجيد، وأحجار النارجلية من الطين المحروق، ويصدر إلى كل دول الشرق، ويصنعون فى نفس الوقت أجواخا شعبية، ونوعا من اللباد المخلوط بالصوف، يستخدم فى صناعة الخيام. أما كل التركيبات التى لها صلة بالكيمياء مثل صناعة ملح النوشادر وتقطير الخمور والعطور، فهى صناعات ماتزال بعد فى طور الأمنيات، أما أجهزتهم فهى منفرة بقدر ماهى عاجزة، وكثيرا مايستخدمون البوص المثقوب بدلا من الأنابيب الزجاجية، أما الآلات المائية التى يستخدمونها للرى، ففيها شىء من الدقة، والميكانيكا عندهم ماهرة فى بعض الأحيان، وهى تستطيع – لولا

---

(١) هذه الكلمة باللغة العربية تعنى كافة أنواع المنسوجات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معوقات الروتين – اختراع ماكينات تستطيع أن تعطى نفس النتائج فى وقت أقل وباستخدام عدد أقل من الرجال. وباختصار، فنحن نلاحظ فى كافة ضروب الأعمال بساطة كبيرة سواء فى الأدوات أو فى التنفيذ. ويستخدم العمال أقدامهم بنفس المهارة التى يستخدمون بها أيديهم، وهذا مما يزيد فى سرعة إنجاز العمل، وهذه العادة شائعة عند النجارين والنحاسين والنساجين وصناع القياطين ، وعند كل الحرفيين عموما . ومن الطريف أن نلفت النظر برغم ذلك، إلى أن أقدامهم عارية ، وتغطى فقط بأحذية واسعة للغاية يتركونها عند دخول الورشة، وتعمل الغالبية منهم وهم جالسون، وهذا مما يسهل استخدام أقدامهم .

ويستخدم الخراطون قوسا يحركونه بيد ، بينما هم باليد الأخرى يشكلون الآلة القاطعة على الشىء الذى يريدون تشكيله، وهم يديرون هذه الآلة بإبهام القدم اليمنى التى يستخدمونها بالمثل كنقطة ارتكاز، وبهذه الطريقة يصنعون أجزاء وقضبانا حديدية وشبكات تستخدم فى صنع أشكال أكبر.

وليس ثمة شىء غير عادى فى إعدادهم للجبس، فقد ينبغى أن نلاحظ أننا فى بلاد نصف بربرية كهذه، كنا نتوقع أن يكون الناس فى هذا المجال – شأنهم فى ذلك مثل شأنهم فى بقية المجالات – أكثر تخلفا ، وأقل حذقا ، فى الوسائل التى يستخدمونها لسحق هذه المادة ، عما نحن عليه. فالإنسان عندنا فى أوربا هو الذى يتحمل عبء هذا العمل الشاق، برغم أنه من المؤكد أن سحق الجبس يضر بصحة العمال الذين يقومون به، لكن المصريين استطاعوا تفادى هذا الخطر،إذ يقومون بسحق الجبس المحروق بواسطة طاحونة يحركها حصان . وهذه الأداة بالغة البساطة لكنها فعالة ، وهى مخروطية الشكل وذات ثقل هائل .

ويلزم الكثير بالنسبة للطواحين المخصصة لطحن القمح ، حتى تصبح فى دقة وفاعلية طاحونات أوربا ، فرحاها صغيرة لايزيد قطرها عن ٢ – ٢/١ ٢ قدم، وطحنها غير ناعم ، ولاتقوم بفصل الردة عن الدقيق، لذا فيكاد يكون مستحيلا أن تأكل فى مصر خبزا يماثل خبز باريس أو بروفانس فى جماله وخفته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويستخدم البيطاريون أداة خاصة لقطع حافر الخيل، وهذه الأداة التى لاتشبه فى شىء تلك التى نستخدمها فى أوربا لنفس الغرض، تعمل كذلك بشكل مخالف، وتتطلب طريقة فى العمل تتعارض مع طريقتنا .

وحرفة الحدادة قليلة الانتشار فى هذه البلاد، حيث إن الفحم نفسه نادر، وهم لايستخدمون عادة إلا أقفالا خشبية صنعت بعناية. وعدد الصاغة وتجار المجوهرات قليل، وهم لايصنعون إلا حليا متواضعة. ومن السهل أن نلاحظ أن المصرى الحديث يستطيع – بفضل الاستعداد الطبيعى للعمل، وبفضل المهارة والذكاء اللذين زودته بهما الطبيعة – أن يرتفع إلى مصاف الشهرة التى تمتع بها أسلافه، لولا تلك العقبات التى لايحلو للتعصب والطغيان إلا أن يكدساها فى طريقه.

وعما قليل سنتحدث عن الفلاح، وستكون الزراعة موضوعا لفقرة مستقلة، أما بخصوص الحرف الأخرى التى لم نتعرض لها مطلقا فى هذا الفصل، فقد وصفت فى شرح لوحات الحرف والفنون Explication des planches d'arts et métiers فى دراسات خاصة مثل معامل التفريخ، صناعة ملح النوشادر.. الخ . ونحن نحيل القارئ إليها، وسيجدها مشروحة بكل تفاصيلها .

طريقة صنع جلد السختيان الأحمر (الفاسى) فى القاهرة

لصناعة جلد السختيان (الجلد الفاسى أو المراكشى) لاتستخدم إلا جلود الماعز، ولكى يتم ذلك يبسط العامل على السطح الداخلى لهذه الجلود، طبقة من معجون الجير، ويتركه هكذا لمدة أربعة أيام، ثم يضع الجلود بعد ذلك فى ماء الجير، حيث تبقى لمدة عشرة أيام ، فى الصيف أو ١٥ يوما فى الشتاء، وبعد هذه التجهيزات ينزع الشعر، وتجرد الجلود بسكين مقوسة لها مقبضان، وتسمى داس، ثم توضع الجلود فى حوض، وعلى كل جلد منها طبقة من زبل الحمام، وتبقى على هذه الحال لمدة ٢٤ساعة، ثم تغسل بعد ذلك بعناية فائقة مع دوسها بالأقدام، ومع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تغيير ماء الحوض عدة مرات، وعندما تنظف جيدا توضع فى حوض آخر مملوء بمياه مخلوطة بالردة، وتترك هناك حتى تختمر، وعندئذ تسحب وتغسل من جديد بالمياه العذبة، لتوضع مرة أخرى فى ماء العسل المخلوط بالردة لمدة خمسة أيام فى الصيف أوعشرة فى الشتاء، وعند سحبها تكون منتفخة تماما، ثم تبسط ويرش فوقها الملح، وبعد دوسها بالأقدام حتى تعود إلى سمكها الطبيعى، تجرد من جديد وبخاصة من سطحها وقد كان أقل نعومة من سطحها الآخر فى العملية الأولى، ثم تبسط الجلود واحدا فوق الآخر على حصيرة نظيفة بعد أن ترش الجلود مرة أخرى بالملح، وتنتقل بعد أن تجهز بهذه الطريقة إلى يد الصباغ .

ويغمرها الصباغ فى دن من الخشب صب فيه السائل الملون، ثم ينتشلها ويغمرها عدة مرات فى هذه الصبغة ، ثم يعلقها لتتساقط منها نقاط الصبغة، ويكررنفس العملية حتى تأخذ الجلود اللون الأحمر، وعندما تحصل على درجة اللون المناسبة ، يعلقونها لتتساقط منها نقاط الصبغة من جديد، ثم تغمس فى دن به ماء بارد وحبوب القرض المصحون، وتبقى الجلود لمدة يوم كامل فى هذا الدن شتاء، ثم يجرد بعد ذلك سطحها الداخلى لثالث مرة، ثم يغمس الجلد مرة أخرى فى نفس الدن ثلاث أو أربع مرات، ولاتتطلب هذه العملية الأخيرة إلا يوما واحدا فى الصيف، وأخيرا، وبعد أن يمر الجلد بكل هذه العمليات ، يغسل بالماء العذب وهو لايزال رطبا، ويدهن السطح الداخلى بزيت الكتان، ويلقى فى الهواء الطلق حتى يجف تماما، ثم يُلَمَّع بين اسطوانتين من الخشب .

أما عن الصباغة فإليكم كيف يعدونها، وبأية عناصر يكونونها: توضع حوالى عشر قرب من الماء فى دن من النحاس ، وينقع فيها على البارد لمدة ليلة كاملة كمية معينة من عشب القرض الذى يجمع فى ضواحى الأسكندرية، وبعد ذلك تسخن المياه حتى تبلغ درجة الغليان، فيسحب العشب ليوضع فى الدن حفنة من قشر الرمان وأوقيتان من الشبة ، ثم ٥٠٠ درهم من مسحوق دودة القرمز، وبعد ذلك يغمس الصباغ جلدا فى الدن ليتأكد من سلامة الخلطة، فإذا لم تثبت المادة الملونة بشكل جيد يضيف مرة أخرى أوقية من الشبة أو أكثر أو أقل ، فإذا كانت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخلطة فاتحة أكثر ممابنبغى تزود كمية مسحوق الدودة القرمزية قليلا، وعند استعمال الصبغة ينبغى أن تكون حرارة السائل معتدلة لدرجة تتحملها اليد .

والجلد الذى يستخدم فى صنع نعال الأحذية هو عادة من جلد الجاموس، ويصل هذا الجلد عادة إلى المدبغة وهو مملح، ويوضع فى أحواض مليئة بماء الجير، ويمكث هناك لمدة حوالى عشرة أيام، وبعد ذلك ينزع شعره ويوضع من جديد لمدة يومين أو ثلاثة أيام، ويجرده العامل بسكين ذات مقبضين، ويغسله بالماء العذب عدة مرات، وبعد ذلك يضعه فى أحواض حجرية مع نوع من الحب المصحون، ويبدو أن هذه الحبوب هى والجير المجففان الوحيدان اللذان يستخدمان، وتبقى الجلود لمدة ١٥ يوما فى الحوض الأخير، ثم تسحب لتغسل بعناية ، ثم ترش ببذر الكتان، وبعد أن يمر الجلد بهذه العملية وبعد أن يجف يباع لصناع الأحذية .

ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن أحذية المصريين ليست لها نفس المتانة التى لأحذيتنا، فهى مجرد«شباشب» أو أخفاف من السختيان متعدد الألوان، أما نعول جلد الجاموس فهى تسمح بتسرب الماء على الدوام كما لو كانت من الأسفنج ، لكن هذا العيب الذى ينظر إليه فى أوربا - حيث الأمطار تهطل على الدوام - على أنه عيب خطير، ليس كذلك فى مصر، فالأرض جافة باستمرار . وحيث إن جلد الجاموس مرن بطبعه فإنه يناسب الأرض المنبسطة الرملية والخالية من الأحجار، وتختلف أحذية شعوب الشرق قليلا عن أحذية المصريين .

وقد وصل فن الصباغة إلى أرقى درجة عند قدماء المصريين بالنسبة لتنوعها وبريقها، وبخاصة فى طول مدة ثبات الألوان، لكن الصباغة فى مصر اليوم شأنها شأن الصباغة فى كل مكان، ولم يحتفظ الذين يمارسونها هناك اليوم إلا بالقليل النادر من فن أسلافهم، فهم يكتفون بغمس المنسوجات أو غزل القطن الذى يراد صباغته فى المادة الملونة وهى تغلى، كما أن ورشهم غاية فى البساطة، كما أن الألوان التى يستخدمونها تعد بشكل مجاف للذوق . وأكثر المواد الصابغة استعمالا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هى النيلة، وهم يصبغون كذلك بالألوان: الأحمر، والأصفر، والأخضر، ويستخدمون على وجه الخصوص ألوانا يستخرجونها من الحبوب والحشائش .

٣

عن الزراعة، وعن الفلاحين

كانت الزراعة هى السبب الرئيسى فى ازدهار مصر، وهى تشكل حتى اليوم العنصر الأساسى لتجارتها وصناعتها، ولولا تلك المصادر الهائلة التى يستمدها المصريون من خصوبة تربتهم لكانوا أبأس شعوب الدنيا، خصوصا فى ظل حكومة قاهرة مثل حكومة المماليك . ومع ذلك فينبغى أن تلقى الزراعة كما سبق القول العناية التى تليق بها لكى تصبح زراعة بمعنى الكلمة، فينبغى الاستفادة من كل الأراضى التى يمكن استصلاحها . إن هذا الإهمال المحزن لهو النتيجة الطبيعية لهذا اللون من العبودية الذى تضاءل فى ظله قدر المصريين ، وسوف نرى عما قليل بشاعة ظروفهم، وسنستنتج بسهولة أن مثل هذا السلوك المجافى لأصول الحكم والسياسة من جانب الملاك والسلطات الحاكمة ، لا يمكن أن تكون له نتائج أخرى.

ولا تنتج الأراضى المخصصة لزراعة القمح عادة إلا محصولا واحدا، وباستطاعتها أن تعطى محصولين، فهناك فى جزيرة الفنتين على سبيل المثال تحصد الأرض ثلاث مرات فى العام بانتظام، وتنتج الأرض مثل الكمية المبذورة ١٤ مرة، ويلزم لبذر الفدان ١/٢ أردب من الحبوب.

ويكفى ثمن الأردب الواحد لسداد مصاريف الزراعة والحصاد، ويبقى بعد ذلك خمسة أرادب هى بمثابة عائد الفدان الواحد. أما فى فرنسا فإن فدان القمح ينتج من خمسة إلى ثمانية أرادب ، ومن جهة أخرى فإن أحدا لا يجهل أن كمية كبيرة من البذور التى تبذر فى الأراضى الفرنسية لا تنبت مطلقا، فالحكم هنا إذن فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صالح خصوبة أرض مصر، حيث يحصل الفلاح هناك – وبدون أن يكلف نفسه ذلك القدر من العناء الذى يتكلفه فلاحنا كل عام – على هذه النتيجة المزدهرة . وينبغى أن نضيف كذلك أن غلة الأرض تقل أو تزيد حسب طبيعة المحصول، إذ تنتج الذرة على سبيل المثال ٢٠ مرة من مثل الكمية المبذورة.

ولا يمكن أن نحصى فى مصر أكثر من ١٠٠٠ فرسخ من الأرض المزروعة، ويوجد فى الفرسخ المربع حوالى ٣,٣٣٠ فدان ، وهكذا فإن فرسخا واحدا من الأرض المزروعة قمحا يغل أكثر من ١٦,٠٠٠ أردب من القمح كعائد صاف، وإذا افترضنا أن الأردب يساوى ثمانية فرنكات فإن العائد يبلغ ١٣٣,٠٠٠ فرنك . ويمكن مضاعفة العائد إذا ما استبدلنا بزراعة القمح مزروعات أخرى أكثر ربحا، مثل السكر والنيلة ، فالمحصول الأول يعطى عائدا أكبر من القمح ١٥ مرة و لكنه يتطلب رأس مال أكبر بكثير، وبمقارنة الربح فى الحالين نجد أن ربح السكر أقل نسبيا من ربح القمح، أى أن ربح الأموال المستغلة فى زراعة السكر أقل بكثير من ربح نفس المبلغ إذا ما استغل فى زراعة القمح، والفائدة الوحيدة التى تحسب لصالح السكر، بل التعويض الوحيد الذى يمكن أن تقدمه هذه الزراعة هو أن محصول السكر يحتاج لمساحة صغيرة من الأرض، بينما يحتاج القمح إلى مساحة كبيرة .

وقد يكون من السهل كذلك زيادة مساحة الأرض القابلة للزراعة، ولكن برغم أن ذلك أمر ميسور فإننا لا نظن أن مصر فى قبضة ملاكها الحاليين ستدر أكثر من ١٥٠ ميلون فرنك، وينبغى أن نخصم من هذا المبلغ ٤٠ مليونا كمصاريف بذر وحصاد، فيصل صافى الربح إلى ١١٠ مليون فقط . ونحن على يقين من أن الصناعة الأوروبية كلها قد تتوصل بصعوبة بالغة إلى إنتاج ثلاثة أمثال بل حتى ضعف هذا الإنتاج الذى تدره أرض مصر . ولكن فى نفس الوقت فعلى مصر أن تفعل الكثير، إذا ما افترضنا أنها ستكون قادرة على ذلك ذات يوم، لكى تقترب من ثروة فرنسا الزراعية، بالرغم من خصوبة أرض مصر الهائلة، حيث إن الضريبة على الأراضى وحدها فى فرنسا تصل لأكثر من ٣٠٠ مليون فرنك.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمنشآت الخيرية التى يقرها الباشا ممثل السلطان تعفى من دفع الميرى، بينما تخضع كل الملكيات العقارية لهذه الضريبة التى سبق أن تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل السابق.

ويبذر الكتان والقمح فى نوفمبر بمجرد أن تنحسر مياه الفيضان، ويتم البذر مبكرا عن ذلك فى الصعيد، حيث تكون مياه الفيضان على جانبى النهر أقل كثافة، ويزرع القطن فى نهاية شهر مارس وبداية شهر أبريل، ويحصد فى يولية وأغسطس، أما المحصولات الأخرى فتنضج بعد خمسة أشهر.

ويستخدم المصريون المحدثون، وعلى منوال أسلافهم، الرى فى زراعة الأراضى، ولكن هذه الطريقة الماهرة التى مضى بها الأقدمون إلى أعلى درجة من الرقى، قد فقدت الكثير عند استخدام المحدثين لها. وفضلا عن ذلك فالمحراث تقريبا هو نفس المحراث الذى وجدناه مرسوما فى الكهوف، أو على الأقل ثمة تشابه كبير بينه وبين المحراث الذى يستخدمه المزارعون فى مصر اليوم، وهو بالغ البساطة، حيث إن الأراضى فى كل مكان لا تبدى إلا مقاومة ضعيفة. ويلاحظ أيضا ذلك التشابه الكبير بين الطرق القديمة والطرق الحديثة فى درس القمح، ومع ذلك فإنهم يستخدمون اليوم عددا أقل من الأبقار فى درس القمح، وهى تقوم بفصل الحب فى الوقت الذى تجر فيه النورج .

ومن المفيد بعد أن تحدثنا عن الأرض وعن زراعتها أن نقول شيئا عن هؤلاء الذين يفلحونها، وهؤلاء هم الفلاحون البؤساء الذين تكرر اسمهم كثيرا على صفحات هذا المؤلف، وهم لا يشبهون فى شىء فلاحى أو مزارعى البلدان الأخرى، ولم يول الرحالة الذين عبروا مصر خلال القرن الأخير أى اهتمام بهذه الطبقة العاملة المضطهدة، ، وسوف تكون التفاصيل التى نقدمها هنا جديدة على أكبر عدد من القراء .

والفلاح المصرى هو أكثر الناس حياء، وطبيعته الخوافة هى بلا جدال نتيجة

طبيعية لحالة القهر التى حصره فى داخلها سيدان لا سبيل إلى قهرهما: إذ إن متاعبه من ملاحقة البكوات والضباط لا تنتهى إلا لتبدأ مع العربان. فعندما يحصل هؤلاء على كفايتهم، يتعرض الفلاح لانتهابات وابتزازات جديدة من جانب البكوات والكشاف، تأتى لتسلبه ما قد يكون قد تبقى له، وهكذا يظل الفلاح المسكين بلا أى دعم أو سند، فريسة لنزوات كل هؤلاء الناس من راكبى الخيل، والمسلحين على الدوام بسلاح الحرب ، ولو كانوا فى نزهة صغيرة. ويقدم الفلاح لهؤلاء الكثير من الأبقار والخراف ومكاييل الحبوب التى يجنيها، ثم يذهب ويئن من وطأة الجوع مع زوجته وأولاده، ومع ذلك فإن تعقل الفلاح واعتداله يسمحان له بتدبير ما هو لازم لمعيشته ومعيشة أسرته، وهو يستغل وقته، ويتلقى كأجر عددا متفقا عليه من مكاييل الذرة والحبوب. وفى كل مساء يجهز لنفسه خبزه ، وهو يطحن الحبوب بواسطة رحى ، وينضج الخبز على رماد ساخن، لأنه لا يمتلك فرنا على الإطلاق. ولكى يحصل على البلح والبصل والزبد والبيض واللبن ، فإنه يستبدل ذلك مع فلاح آخر ببعض القمح والفول اللذين يتلقاهما من المالك. وهو قانع بهذا النمط من الحياة ، حيث إن الشقاء الذى اعتاده جعله يعيش فى طور الفطرة، وهو يتناسى الماشية التى يسرقها منه البدو، كما ينسى الإتاوات المتزايدة التى يفرضها عليه طغاته. وعندما يدر العمل عائدا كبيرا ويحصل بالتالى على أجر أفضل يستطيع أن يوفر منه شيئا، فإنه يشترى من جديد حمارا وبعض الخراف وأدوات زراعية ويعود إلى مسكنه الأول، ويرد الشيخ إليه الأراضى التى كان يفلحها من قبل.

وملابس الفلاحين عبارة عن قميص بسيط ، وهذا الملبس مشقوق من الرقبة حتى أسفل البطن، وليست له أكمام، وينزل حتى الركبتين، ويثبت بالجسم بواسطة حزام من الجلد، وهو من القطن ولونه أزرق، وبخلاف ذلك يغطون رأسهم بغطاء من اللباد الأحمر يسمى طربوشا . أما الفلاح الميسور بعض الشىء، فيغطى رأسه بعمامة تتكون من شال من قماش قطنى مخطط يلف حول الطربوش، وما عدا ذلك فإن أذرع الفلاحين وسيقانهم وأقدامهم عارية تماما، بل إن كثيرين منهم لايمتلكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى القميص الذى تحدثنا عنه. ويكتفى هؤلاء بأن يثبتوا بحزامهم قطعة من القماش تلف حول وسطهم، ويرتدى الأغنياء منهم طربوشا وسروالا ومعطفا أسود اللون من الصوف فوق القميص، ويطلق على هذا المعطف اسم: بشت.

وعندما نعرف بؤس وهوان وتدهور حال الفلاحين، فإننا نستطيع أن نكوّن فكرة عما ستكون عليه ملامح وجوههم. فهل يمكن أن يكون لأناس كهؤلاء حُكِم عليهم بهذا التحقير وتلك العبودية، وبأن يظلوا على الدوام لعبة فى أيدى عدد كبير من السادة - هل يمكن أن يكون لهم نظرة صريحة جريئة، ووجه صاف بشوش، ولقاء حر مفتوح ؟. إن مظهر هؤلاء البؤساء ليعلن عن حيرتهم، والخوف يقرأ فى عيونهم، وهم يمشون بقلق، ورؤوسهم محنية إلى الأمام، وإذا ما ظن الفلاح عند لقائه شخصا ما، أن هذا الشخص يحوز ولو قدرا ضئيلا من الجاه أو الثروة، فإنه يقترب منه ويده مبسوطة ، كما لو كان ليستجدى حماية أو يطلب إحسانا .

يا له من تناقض يبعث على الإثارة بين وضعهم الذليل والمستجدى، وبين ملامح الخشونة والجد التى ترتسم على وجوههم التى تعطى لها لحيتهم الطويلة قدرا كبيرا من النبل! وشكلهم فى عمومه جميل، وتتميز جباههم - برغم أن جزءا منها تغطيه العمامة - بالاتساع، ولوجنات خدودهم نتوء شديد الوضوح، وخط الأنف واضح بشدة ، أما الذقن فممشوقة، ويبدو الأمر وكأن ثمة رجالا قد منحتهم الطبيعة هذا الملمح الوقور، لكن عليهم أن يعانوا من كل عوامل القهر والجبن والإذلال. فكل ما فيهم يشهد ببؤس حالهم، فلست تراهم إلا باسطى الأيدى مكررين عبارة : فضة، فضة - أى أعطنى بارة ، بارة واحدة. وقد لا يدرك الغريب - الذى لا يعرف عادات البلاد - أن هؤلاء الذين يتسولون بهذا الإلحاح، يدفعون إيجار أراض عديدة يفلحونها، وأنهم يمتلكون ماشية وحميرا وخيولا، وأنهم يعولون عائلة كبيرة العدد، عن طريق زراعتهم الفاكهة والخضار، التى يعرفون كيف يعودون منها بالنفع عليهم وعلى أسرتهم وقت الحصاد.

وهكذا فسوف نقع فى خطأ بين إذا ما حكمنا على الحالة الحقيقية للفلاح استنادا إلى مظهره الخارجى، فهو لا يلجأ لهذا التسول المظهرى إلا ليخدع مضطهديه، فمن المهم بالنسبة له أن يظنه الناس بلا مورد رزق وبلا وسيلة للعيش، ذلك أنه يرتجف على الدوام خوفا من أن يرى نفسه وقد انتزع منه القليل الذى يملكه، لهذا فإنه يشهد العالم كله على فقره وعوزه، ويرتدى من الملابس ما ينسجم مع الانطباع الذى يريد أن يحدثه فى مشاهده، فهو داخل قميصه هذا عار كما ولدته أمه، ويقبل بنهم على أى طعام يقدم له، ويجمع قطع المدينى التى يحصل عليها بعناية فائقة فى طرف منديله، ويقاسى الأمرين حتى لا ينفق قطعة واحدة من نقوده إلا عند الضرورة الملحة، وباختصار فإنه لا يفوته شىء مطلقا يمكن أن يساهم فى إقناع الناس ببؤسه الشديد.

وعندما لا يكون الفلاح فى حقله، فإنه يجلس القرفصاء أمام منزله. وحول كل القرى المصرية تشاهد آلاف الأكوام الطينية الناتجة عن الخرائب والهدم، وهذه الأطلال كثيرة فى هذه البلدان ، أكثر منها فى أى مكان آخر بسبب رداءة بناء الأكواخ، وكذلك رداءة الخامات المستخدمة فى ذلك، فهى على الدوام من الطين أو من الطوب النيئ . وعندما يكون الفلاح بلا عمل، فإنه يصعد هذه الأكوام ، ويظل جالسا أكبر فترة من النهار، ويدخن الغليون، وينظر إلى الخلاء . وفى بعض الأحيان يقوم بغزل القطن أو الكتان ، بينما تعجن زوجته روث الماشية، لتشكل منها نوعا من الأقراص ، تجففها بلصقها على جدران كوخها ، وبهذه القاذورات يحصل الفلاح على وقوده ، وينضج خبزه وطعامه.

وقد يظن المرء وهو يلاحظ بلادة وخمول هؤلاء البؤساء الذين يعيشون وسط خطوب لا تنتهى، أنهم شبه محرومين من موهبة الفكر، ولكن، لعل من الأصوب أن نقول بأنه يبدو أن العناية الإلهية، بينما هى تهيئ للإنسان ملكاته الروحية والذهنية التى تنسجم مع الظروف التى وضعته فيها ، فإنها قد شاءت أن تقرن البلادة بالفقر، كما لو كان بغرض أن تخفى عنه الشقاء الذى قدر عليه أن يحيا فيه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤

عن الحرف

ينقسم العمال فى مصرحسب حرفهم ، وليس ثمة قواعد لاحتراف الحرف، فالأب الذى يريد أن يعلم ولده حرفة يسلمه لمحل أو عند معلم، ويحمل الصبى معه وجبات ليمضى اليوم ثم يعود فى المساء إلى بيت والده. وبمجرد أن يتعلم فإنه يحصل على أجر يزيد بزيادة مهارته.

وتنقسم الحرف المختلفة إلى طوائف لها رؤساء، ويشرف على معظمها وكيل الانكشارية (الكخيا المتولى) وهو رئيس الشرطة فى القاهرة، وتخضع بعض هذه الطوائف لإشراف أغا العزبان والمحتسب، وللأخير حق الإشراف الخاص على المواد الغذائية. وثمة حرف لا ترتبط بأى من هؤلاء الرؤساء، وتشكل طوائف هامشية، مثل : الراقصات والراقصين على سبيل المثال ، وعازفى المزامير ، وباعة الحدايد ، وعموما كل تجار الخردة.

ويرأس شيخ الحمامات ٢٤ شيخا من مختلف المهن ، مثل: صناع الخيام ، والجمالين ، ولاعبى العصا ، والمغنين ، ومنشدى الشوارع ، والحمارين . وهو يحكم فى الخلافات الصغيرة التى تنشأ بين هذه الطبقة من الناس فى موضوع حرفتهم، ويتوجه الناس إليه عند طلب عدد كبير من دواب النقل لغرض ما، ويحصل من أتباعه عددا من الضرائب الصغيرة، بعضها ثابت وبعضها طارئ. ولكى يحصل على هذا الامتياز فإنه يلزم بدفع إتاوات ثابتة لمختلف ضباط الأوجاقات، نقدا أو فى شكل أشياء تدخل فى تشكيل أثاث البيوت. ولا ينبغى أن ننسى أن هذه الرسوم التى يحصلها الملتزمون أو مساعدوهم، إنما هى فى الغالب رسوم استبدادية، مثل كل ما يحدث تبعا للعادات الإسلامية . ولكن شيخ الطائفة بالرغم من اتساع سلطته فى زيادة الضرائب التى يفرضها، يلتزم مع ذلك بحدود الاعتدال حتى لا يفقد الاحترام العام، فيفقد بالتالى عمله وأمله فى أن يشغل وظائف أخرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا لم يكن لدى الصناع ما يشكون منه من شيخهم، وإذا رغبوا فى الاحتفاظ به، فإن الكخيا المتولى لا يستطيع فى نهاية العام أن يبدله، كما أنه ليس فى مقدور هذا الأخير زيادة مبلغ الالتزام الذى يحدد بشكل لا يقبل التغيير. وعندما لا يكون الصناع راضين عن شيخهم، يضطر الكخيا لتعيين شيخ آخر، ويطلب إلى الطائفة أن تحدد له شخصا بعينه، ويتم ذلك بطريق النداء ، وبدون أية صيغة أخرى ، وبدون اللجوء إلى طريقة الاقتراع ، على الرغم من معرفة الأتراك لهذه الطريقة. وعندما يريد الكخيا أن يرغم الصناع على اختيار شيخ معين، يجتمع كل مديرى الحمامات ليعترضوا على هذا العنف غير المشروع.

وفى الفصل الأول من مؤلفنا هذا قدرنا عدد عمال اليومية بـ ١٥ ألفا فى مدينة القاهرة، ويمكن تقسيم هذه الكتلة من الناس إلى ثلاث طبقات: الأولى: وهى أكثرهم بؤسا وتضم ١٠ آلاف شخص، وهؤلاء يستخدمون فى أعمال ثانوية ، ولا يحصلون إلا على أجر بالغ التواضع يفى بالكاد لمعيشتهم، وهم يرتدون قميصا بسيطا أزرق اللون من الصوف ، ويحزم بحبل عند وسط الجسم، وتغطى رؤوسهم بلبدة بيضاء، أما مسكنهم فعبارة عن كوخ يكلفهم إيجاره الشهرى ١٠ بارات، وكل أثاثهم عبارة عن مزقة من الحصير ينامون عليها مع زوجاتهم وأولادهم، ويمكن للعامل من هذه الطبقة أن يكسب حوالى ١٥ بارة فى اليوم، وتشتغل زوجته (إذ ليست له إلا زوجة واحدة) بأعمال أخرى أقل كسبا، تدر عليها على الأكثر ٤-٥ بارات، ولا يأكل هؤلاء البؤساء اللحم على الإطلاق، وهم يشترون الخبز وشيئا من الحبوب المطبوخة والبيض. وينفق الرجل بعض نقوده فى المقهى، ويدخن تبغا بالغ الرداءة، ويخدر نفسه بأكل القنب الأخضر المعد، فقد أصبح الخدر بالنسبة له شبه ضرورى. وترتدى المرأة كذلك قميصا أزرق اللون، ويسير الأطفال عراة أو تغطيهم بعض الهلاهيل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتضم الطبقة الثانية حوالى ٣ آلاف عامل يومية، ظروفهم ليست أقل من ظروف الأولين مدعاة للشكوى، برغم أنهم ليسوا على نفس الدرجة من البؤس ، وأجرهم ليس أكبر من أجر الأولين مع أنهم يعتبرون نوعا من وكلاء الأعمال، لكنهم يحصلون على بعض المكاسب البسيطة لا يحصل عليها الأولون، ومسكنهم أكثر راحة وأحسن تأثيثا ، ويتكون رداؤهم الطويل من قميصين أو ثلاثة يرتدونها فى بعض الأحيان الواحد فوق الآخر ، وبخلاف ذلك فإن طريقتهم فى الحياة هى نفس طريقة الأولين.

ويمكننا أن نضع فى صفوف الطبقة الثالثة ٢,٠٠٠ من العمال، وهم فى حالة أكثر يسرا من الأولين بقليل، ويعمل هؤلاء كرؤساء ورش، ويسكنون فى مبنى كبير به دهاليز عديدة تؤدى إلى مساكنهم، وهذه المبانى تشبه الأديرة، ويقطن كل عامل فى حجرة، ويعد طعامه فى مسكنه، وزوجته هى التى تقوم بهذا العمل، ويدفع ٣٠ مدينى كإيجار شهرى، ويمتلك حصيرة خشنة من ألياف الكتان، وبعض المخدات التى لها غطاء ردئ ، بالإضافة إلى إناء للطبخ أو إناءين، مع آنية أخرى رخيصة الثمن . لكن ما يميزهم على وجه الخصوص أنهم يرتدون ملابس أكثر وأفخم : شال من الموسلين أوالصوف حول طربوش ليشكل عمامة، وملابسهم الداخلية من التيل، ويمتلك الواحد منهم دفية زيادة على الجلباب الطويل، وهذه الدفية عبارة عن معطف من الصوف الأسود، كما يرتدى ملاية ، وهى قطعة طويلة من قماش قطنى بها مربعات بيضاء وزرقاء، وكل هذه الأشياء التى يعنى بتجديدها عندما تبلى يمكن أن تكلف العامل من ٩ - ٢٠ بوطاقة (خردة)، ومع ذلك فأجر هؤلاء العمال ليس أكبر بكثير من أجر الأولين، لكن ما يجعلهم يعيشون فى بحبوحة أكثر، هو أنهم يعملون طيلة العام باعتبارهم أكثر شهرة وأكثر دراية . وترتدى زوجاتهم قميصا أسود للزينة ، وقميصين أو ثلاثة لبقية الأيام . وهن يعملن فى غسل ونسج القطن ، ويعود عليهن هذا العمل بأجر متواضع .

ويبلغ عدد الخدم العاملين بالقاهرة - كما سبق أن قلنا فى الفقرة الخاصة بسكان هذه المدينة فى الفصل الأول - ثلاثة آلاف، ويمكن أن ننظر إليهم باعتبارهم يشكلون ثلاث طبقات متمايزة فيما بينها ، بسبب طبيعة أعمالهم ، وهم : السياس (السايس)، الفراشون (الفراش)، القواسون (القواس) .

وينام السايس بالقرب من الخيول التى يوكل إليه أمر العناية بها ، ويكاد السايس لا يتقاضى أجرا، إذ لا يعطى إلا ١ - ٢ بارة فى اليوم، وكمية من الخبز تبلغ ٢/١ ١رطل، لكنه يحصل على عدد لايحصى من المكاسب الصغيرة المحظورة، ويحصل فى معظم الأحيان على هدايا بمناسبة الأعياد (عيدية) ، وباختصار فهو يعيش فى بحبوحة . ومعظم هؤلاء الخدم لا يتزوجون، وهم نظفاء، وملابسهم حسنة، ويتميزون بمهارتهم فى معاملة الجياد، وهم متكبرون وقحون بطبعهم، وعنيدون، لكنهم لا ينساقون لغضبهم إلا فيما بينهم، وهم يبدون الكثير من الخضوع نحو أسيادهم .

ويمكن أن نشبه الفراش بالـ Valet de chambre عندنا، فهو الذى يعنى بالأثاث، وهو الذى يسهر على نظافة البيوت وعلى الإضاءة، وهو يقيم عند سيده ، ولا يترك مسكنه إلا عند زواجه ، ولكى يحصل على هذه المرتبة فإنه ينتظر حتى يصبح رئيسا للفراشين، وهو على الدوام حسن الملبس. وهذه الطبقة هى التى تساهم فى إعداد ملذات سادتهم المنحطة، وهم يندفعون فى القيام بهذه الخدمات لأبعد مما كان السادة يرغبون، وأجرهم ليس محددا، وإنما يتوقف على مشيئة السادة .

وعندما يصبح هؤلاء الخدم رؤساء، يصبح لهم منزل ، وأحيانا منزلان قليلا الاتساع ، تقيم فى كل واحد منهما زوجة، وأثاثهم فاخر لحد ما، وتمتلك زوجاتهم بعض الحلى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويسير الشرقيون من ذوى المكانة أمامهم خدما ، يسبقونهم سائرين على الأقدام ، وحاملين عصا لإبعاد الجمهور، وليهيئوا لسادتهم مكانا . ويسمى الخادم من هذا النوع : القواس، وهم ينقلون سيدهم فى داخل المدينة وإلى القرى المجاورة، ويختار لهذا العمل فلاحون ورجال من أبناء الريف ، لأن مظهرهم وقامتهم أكثر مهابة من مظهر وقامة سكان المدن . ولا يدفع للقواس أجر، ولا يحصل هو إلا على الخبز، لكنه يعوض هذا الغرم إلى حد كبير، على حساب الذين يحمل إليهم أوامر أو رسائل من طرف سيده ، وبخاصة إذا ما كان لسيده نفوذ كبير . وليس ثمة أى نوع من المغارم أو الإتاوات إلا ويحصلها لحسابه . والقواس عند الكبار هو الذى يقوم لحسابهم بارتكاب أحداث السلب والانتقام، وهو الذى يهوى بعصاه على من يريد سيده أن يعاقبه أو يهينه ، كما أنه الذى ينزل الشخص الذى يخضع لهذه الإهانة من فوق ظهر حصانه . وكل هؤلاء الخدم على وجه التقريب متزوجون ، وترتدى زوجاتهم مثلما ترتدى زوجة حرفى ميسور، وملابسهم على الدوام من قماش خشن من الصوف الأسود، وهم يرتدون شالا من الصوف أو ملاية تتدلى على كتفهم، ويغطون رؤوسهم بلبدة بيضاء، ثم بطربوش أحمر، وهم يحرصون على أن يضعوا بينهما كثيرا من الورق وقطعا من أقمشة رديئة لتمتص ضربات العصا التى تنهال عليهم عادة من ساداتهم، ويسمى رئيس هذه الطائفة من الخدم : مقدم، ويفرض هؤلاء الرؤساء عددا كبيرا من الإتاوات ويفتنون بسرعة.

أما السقاءون فهم على نحو ما رسل الحريم، وينتهى بهم الأمر بأن يكونوا ثروات كبيرة، والنساء هن اللائى يخترنهم ويتبادلنهم فيما بينهن . ويتمتع هؤلاء الخدم عامة بحظ أوفر من الآخرين، ويوليهم أرباب البيوت أكبر قدر من الرعاية، وتبسط النساء عليهم حمايتهن، ويحرصن على راحتهم. ويمكن أن يكون لهذا التكريم أسباب عديدة، فالنساء - وهن بطبعهن رقيقات وشفوقات - لا يمكن أن يسلكن هذا المسلك إلا ربما بدافع من شفقة حميدة، وربما بسبب من تصنع الدافع الإنسانى، ومع ذلك فيحتمل أن تكون ثمة نواحى ضعف خفية هى التى تحدو بهن إلى إكرام رجال يكن لهم قدرا من العاطفة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفيما عدا ذلك، فإن الخدم فى مصر يلقون معاملة طيبة على وجه العموم ، وإذا ما نحينا بعض المحن البسيطة، وبعض العقوبات التى قد تكون قاسية بعض الشئ فى بعض الأحيان، والتى يوقعها عليهم السادة بسبب تقلب أهوائهم، أو بسبب نفاد صبرهم، فليس ثمة فى حياة هؤلاء الخدم ما يمكنهم أن يشكوا منه، فالسادة يولونهم الكثير من العطف، بل ويرى السادة فى معظم الأحيان يتخذون جانب خدمهم بحماسة فريدة، سواء كانوا مخطئين أو كانوا على صواب، وسواء كان الأمر بدافع من العطف عليهم أو بدافع من كبريائهم وكرامتهم هم . وتذكر كثير من الأمثلة على بكوات تشاجروا بغضب فيما بينهم بسبب مشاحنات خدمهم .

وطابع هؤلاء الخدم عادة سئ مرذول، والذين يتوصلون منهم إلى الحصول على نوع من الثراء يصبحون وقحين متعاظمين، وهم وشاة غدارون ومخاتلون ماكرون، وويل لمن لا حماية لهم أو جاه حين يتعاملون معهم ! إنهم أكثر غلظة وقسوة من المماليك الذين يخدمونهم. والفراش والسايس والمقدم والسقاء مرتبطون بسادتهم، وهم راضون عن حظوظهم ولا يكادون يغيرون سيدهم . وهؤلاء السادة يعاملون خدمهم برقة فى غالب الأحيان كما سبق القول، وهم يعنون بأبناء هؤلاء الذين يولدون فى كنفهم، لأن المصريين جميعا مولعون بالغلمان ويتبادلونهم فيما بينهم. وتستقبل هذه الهدايا بسرور بالغ، فلماذا إذن والأمر كذلك، لا تكون بقية الأمور متسقة مع هذه الميول الطبيعية، والملذات البريئة الظاهرة ؟.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملاحق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١

نبذة عن الحفل الذى يقام عند مولد الأطفال

سنقدم هنا مذكرة طبعت بالفعل فى القاهرة، وتعطى فكرة دقيقة عن العادات التى تتم عند مولد الأطفال الذكور . ويعجب المرء من أن الأب لا يدخل مطلقا وبأية طريقة ضمن إطار هذا الحفل الشيق .

فى اليوم السابع لمولد الطفل تجمع الوالدة صديقاتها ، وتمضى اليوم كله فى لهو معهن .

وتنقضى الفترة بين الوجبتين فى غناء ورقص تقوم بهما العوالم ، وبعد الغداء يتم حفل تعميد الطفل الجديد، ويطلق على هذا الحفل اسم : السبوع. وهو عبارة عن نزهة فى كل حجرات مسكن الحريم، وتمشى واحدة من الخادمات الرئيسيات على رأس الاحتفال حاملة صينية من النحاس ، وضع فوقها وبشكل دائرى عدد من الشموع يعادل عدد النساء اللاتى يشاركن فى هذا الاحتفال، وهذه الشموع مضاءة وألوانها متعددة. وتسير بعدها القابلة الموكلة بالطفل وعلى جانبيها خادمتان، تحمل صغراهما موقدا من النحاس الأصفر، وتحمل الأخرى طبقا يحتوى على حبوب شعير وقمح وعدس وفول وأرز وملح بحرى وبخور ، أى سبعة أصناف بعدد الأيام التى انقضت منذ مولد الطفل .

وتمشى الأم بعد ذلك تحيط بها العوالم وأقرب صديقاتها إليها، وتشكل الزوجات الأخريات آخر مجموعة فى الموكب . وفى أثناء السير تعزف موسيقى صاخبة للغاية، وفى كل مرة يدخل فيها الموكب حجرة من حجرات الحريم، تأخذ القابلة حفنة من الحبوب والبخور بيمناها وترمى بجزء منه فى الحجرة، ويرد عليها بزغاريد طويلة جدا، ويصبح إيقاع الموسيقى أسرع وأكثر صخبا، وتحاول النساء السير فوق الحب المنتشر فى كل مكان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعند العودة إلى حجرة الحريم الرئيسية، توضع صينية الشموع على كرسى بدون مسند، موضوع وسط الحجرة، وتأتى كل واحدة من المشتركات لتضع قبضة من البارات، وترتمى الفتيات الصغيرات والخادمات على الشموع ليتنازعن عليها . وبعد ذلك تحمل القابلة الصينية، وتحصى دخلها من النقود التى تجدها فيها، والتى ألقيت هناك من أجلها .

وينتهى الحفل بزيارة للطفل، وتزين رأسه بقطع من النقود الذهبية التى تقدم له كهدية، أو توضع فى مناديل غالية تحت رأسه .

٢

جهل المصريين والنوبيين بخصوص رسم الصور الإنسانية

سبق أن تحدثنا عن قلة معرفة المصريين المحدثين بكل ما يتصل بالفنون الجميلة، ولكن يتبقى علينا أن نقول كلمة عن أى حد يبلغ عمق هذا الجهل فى موضوع الرسم والتصوير نتيجة للمعتقدات التى تصاحب الدين الإسلامى، إذ سوف يوضح ذلك كثير من الأحداث التى وقعت أمام أعيننا، أكثر مما توضحه الأفكار أو الآراء التى يمكن أن نقدمها .

كان الأستاذ ريجو Rigo الرسام وعضو المجمع العلمى المصرى، قد بدأ سلسلة من الدراسات حول ملامح السكان . وقد كان وصول قافلة النوبة إلى القاهرة عام ١٧٩٩ فرصة طيبة بالنسبة له، ينبغى الإمساك بها، وكان قائد القافلة عبد الكريم على وجه الخصوص يلفت النظر بقوة الملامح النوبية المرتسمة على وجهه . ونجح الأستاذ ريجو فى أن يجذبه إليه بإغراء النقود . وبعد مفاوضات طويلة - كثيرا ما انقطعت - جاء عبد الكريم إلى المرسم فى حراسة ١٠ - ١٢ شخصا من مواطنيه، مع كل الاحتياطات التى يمكن أن يقوم بها رجل مقتنع بأنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مستدرج إلى كمين . ومع ذلك فلقد أمكن طمأنته فى النهاية وإقناعه بصرف حراسه، وبدأ الأستاذ ريجو فى عمل صورة له بالحجم الطبيعى، وبدا النوبى فى أول الأمر مسرورا بالخطوط الأولية فى الرسم، وكان يشير بأصبعه إلى أجزاء الرسم، وإلى الأجزاء التى تقابلها فى وجهه وهويقول: طيب . طيب . ولكن عندما بدأ الفنان يضع الألوان على الصورة، كان التأثير مختلفا تماما، فلم يكد عبد الكريم يلقى عليها نظرة حتى تراجع وهو يصرخ صرخات مرعبة ، وكان من المستحيل تهدئته، وما أن فتح باب المرسم، حتى أطلق لساقيه العنان، وصاح فى الشارع بأنه قادم من بيت نزعوا فيه رأسه ونصف جسده .

وبعد ذلك بعدة أيام ، جاء ريجو إلى المرسم بنوبى آخر، يعمل بوابا لأحد بيوت المعهد، فلم يكن أقل من مواطنه شعورا بالرعب عند رؤيته للرسوم، وجرى يقص على كل جيرانه، بأنه شاهد عند رجل فرنسى عددا هائلا من الرؤس والأطراف المقطوعة، فسخر إخوانه منه، وتجمع عشرة منهم ليتأكدوا من صحة الواقعة، ولكن لم يكن ثمة واحد من بينهم لم يتملكه الفزع عند دخول المرسم، ولم يشأ واحد منهم أن يبقى فى المرسم لحظة واحدة .

وقد رسم الأستاذ ريجو سيدة من نفس هذه البلاد جاءت إلى القاهرة مع عبد الكريم ، وكان على الرسام أن يرغمها حتى تقتنع بأن تدع نفسها تُرْسَم، وما أن انتهى الفنان من رسم الرأس والذراعين حتى قالت له : «لماذا تأخذ رأسى؟ ولماذا تنزع عنى ذراعى ؟» . وبدا أنها مقتنعة بأن كل أجزاء جسمها التى انتقلت صورتها إلى اللوحة، سوف تذبل .

ويعتقد المسيحيون من أهل البلاد أن كل الرسوم تمثل قديسين، وكان يوجد فى هذا المرسم لوحة لفرنسى، كان الأقباط يخرون أمامها ساجدين عند دخولهم المرسم، كما كانوا يقبلونها فى خشوع شديد [١] .

---

(١) انظر : Le Courrier d'Egypte, an 25

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣

فن الأفاعى أو سحرة الثعابين

أعتقد أن علينا - قبل أن ننهى هذا المؤلف - أن نتحدث عن هؤلاء الرجال غير العاديين ، الذين يحترفون اكتشاف الثعابين وتطهير المنازل منها . وعلى الرغم مما هو واضح فى عملهم هذا من دجل وشعوذة، وعلى الرغم من أننا نقر مقدما أن قليلا من القراء فقط هم الذين سيولون الثقة بهذه المعجزات المزعومة، فإنه مما لا مندوحة لنا عنه أن ندخل فى تفاصيل حول هذا الموضوع . ونحن نعترف - دون أن يعنى ذلك بساطة مفاهيمنا، أو أننا من بين أولئك الذين يسهل إقناعهم - بأننا كنا بأنفسنا شهودا على بعض الوقائع بالغة الغرابة ، لدرجة أننا لا نستطيع أن ندخل فن الأفاعى ضمن إطار الأمور المتوهمة والخيالية، بل إن واحدا مثل بروسبير ألبان Prospére Alpin ذلك الطبيب ذائع الصيت - ولا يمكن أن نصفه بأنه واحد ممن يعتقدون فى الخرافات - قد نقل إلينا أنه رأى رجالا يتعاملون دون أن يصيبهم أدنى أذى، مع الزواحف السامة والعقارب .

وقبله عرف سترابون Strabon الحواة الذين كان المصريون القدماء ينظرون إليهم، على اعتبار أن لديهم موهبة سحر الثعابين، وكل ما نقله إلينا المؤلف بخصوص هؤلاء الحواة يتجدد هذه الأيام .

أثناء وجود الجيش الفرنسى فى مصر، أراد عديد من الأطباء المهرة أن يتأكدوا بأنفسهم من حقيقة تلك الثقة التى يوليها الرحالة لهؤلاء السحرة . وكان من السهل عليهم فى البداية أن يعترفوا بشعوذة البعض، على الأقل فيما يتعلق بتلك الممارسات الغريبة التى يستغلون بها بساطة مفهوم جمهور جاهل أبشع استغلال. فلكى يدخل هؤلاء المشعوذون شخصا ما فى رفقتهم، ولكى يجعلوه فى مأمن من لدغات الثعابين، فإنهم يقومون بصب بعض الماء فى إناء، ثم يضيفون إليه الزيت والسكر، ويحاولون عمل مزيج من هذا الخليط، وبعد تلاوة بعض الأدعيات يبصقون

فى الإناء، ويأمرونه بشرب هذه الجرعة المنفرة، وبعد ذلك يعلقون فى أذنيه ثعبانين كبيرين من أسنانهما، ويظل الثعبانان متدليين هكذا لمدة ربع ساعة، وبعد انتهاء العملية، يخرج هذا «المأذون» من كيسه ثمن الخدمة الجليلة التى أسديت إليه، وينسحب، وهو شديد الاقتناع بأن ليس عليه أن يخشى بعد اليوم من لدغات الثعابين .

ولعل هذا الاقتناع الذى حصل عليه هذا «المأذون» ، والذى جعل منه المشعوذون اقتناعا تاما بمثل هذه العملية الشائعة، هو الفائدة الوحيدة التى جناها هذا الرجل، إذ إننا فى الواقع نستطيع بسهولة أن نتجاسر على الأشياء التى تقل خشيتنا لها، وهذه الثعابين تشبه نوعا من الحيوانات لا يصبح ضارا، إلا عندما تظن أن من يقترب منها - بسبب اضطرابه غير الواثق وتردده - يريد إيذاءها . إننا مضطرون للتفكير على هذا النحو، على الأقل حتى يمكننا أن نفسر النتائج الغريبة لهذا التلقين الغريب لهؤلاء السحرة، إذ كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يحملوا فى ملابسهم، بل وعلى صدورهم، زواحف من كل نوع يلتقطونها بالصدفة، دون أن تقع لهم أحداث مؤلمة ؟ كيف يمكنهم أن يضعوا - دون أن يصيبهم أدنى أذى - عقارب حية تحت عمامتهم الحمراء التى تغطى رءوسهم الحليقة ؟ . لقد ظننا فى البداية أنهم كانوا ينزعون أسنان الثعابين أو فكى العقارب، لكن واحدا من زملائنا مر بتجربة تثبت العكس . فقد أراد ذات يوم أن يتأكد من الحقيقة، ونقل شكوكه هذه إلى واحد من هؤلاء الرفاعية، فما كان من الأخير إلا أن تناول أصبعه على الفور، ودسها فى فم الثعبان الذى يمسك به بين أصابعه، وأخذ زميلنا بفعل المفاجأة، وشعر بأسنان الثعبان الدقيقة والناعمة للغاية . صحيح أن كل هذا يمكن تفسيره، إذا ما تبنينا رأى بوكوك Pocoke : فهذا العالم الرحالة كان يزعم أن ليس ثمة ثعابين سامة فى مصر . ولكن هل تأكدت صحة مثل هذا الزعم ؟ وهل الأفعى العادية، أو الأفعى ذات القرون، وهى المعروفة بخطورتها فى أوربا، تكون أقل خطورة منها فى أفريقيا ؟ وهكذا فلا يمكن أن يكون زعمه صحيحا، وفضلا عن ذلك، فقد حدثت تحت ناظرنا أمور برهنت على عكس هذا الرأى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبقى علينا أن نتحدث عن فن استدعاء الثعبان من شقه، وهو أمر أكثر مثارا للدهشة، بل إنه يشبه المعجزة . وقد واتتنا هذه الفرصة لنرى هذا المشهد الفريد لأول مرة فى طهطا بالصعيد عند آباء الدعوة . كان ثمة رجل يمر بالشارع وثمة سلة تتدلى من ذراعه، ويعلن بصوت عال أنه يطهر البيوت من الثعابين التى يمكن أن تحتويها ، وأردنا أن نضع نداء الرجل موضع الاختبار، فى الدير نفسه، بالرغم من تعليمات رجال الدين، الذين يُعلّمون تلاميذهم ألا يكونوا على استعداد مطلقا لتقبل مثل هذه الأفكار . ومع ذلك فقد كان ثمة واحد من الآباء أقل تشددا من إخوانه، وحبذ فكرتنا، واستدعى الرجل الذى نحن بصدد الحديث عنه إلى فناء صغير من أفنية الدير ، وكانت سلته تحتوى على ثعابين كبيرة ومن أنواع مختلفة، قال إنه أخرجها من البيوت المجاورة التى دعى إليها . وسألناه ما ان كان ثمة زواحف بالدير، وما ان كان بمقدوره أن يخرجها، عندئذ شكل قسمات وجهه، وجهد لكى يضفى على وجهه مسحة من الغموض، وجال ببصره فى كل الأماكن المحيطة به، وكانت كل إشاراته توحى بالجدية والخطورة، وكان يتخذ هيئة الرجل الملهم، ثم أوقف بصره فى النهاية على حجرة معتمة للغاية وهو يتشمم الهواء، كما لو كان بإمكانه أن يستدل على وجود الثعابين عن طريق الشم، ثم أجاب بأنه لا توجد زواحف إلا فى هذه الحجرة . وفتح باب الحجرة وتقدم بخطى بطيئة ، حاملا فى يده عصى صغيرة ، وكان يغمغم بكلمات بنغمة خاصة وبصوت خفيض، ولم يفهم رجال الدين من كلماته إلا كلمة : السلام عليكم، وبعد هذا النوع من «التعزيم» الذى استغرق خمس دقائق على الأكثر، وضع إحدى قدميه فى الحجرة، وبصق على الأرض، وانحنى، ثم نهض على الفور، وقدم إلينا ثعبانا يبلغ طوله أربعة أقدام، وكان يمسك به من ذيله، ويسنده بعصاه . ولم يكن هذا كل شئ ، فقد قام بهذه الطقوس مرتين وأحضر ثعبانين آخرين من حجم صغير، وضعهما مع الثعبان الكبير فى السلة . وصرفنا الرجل، ودفعنا له ثمن المشهد الذى قدمه لنا . ونحن نعترف – برغم قلة ميلنا إلى تصديق ما حدث – بأن الخداع كان كاملا، وأننا منذ

ذلك الوقت، أصبحنا أكثر ميلا للاعتقاد فى وجود السحرة الذين عقدوا صلات مع الشيطان، حسب أفكار الأقباط الدينية .

ولعل من الممكن الاعتقاد بأن هذه العملية ليست سوى حيلة من حيل السحرة أو الحواة - وهو ما اعتقده كثيرون - لكننا كنا قد اتخذنا كل الاحتياطات الممكنة، التى لا يمكن معها خداعنا، بل ويمكننا أن نؤكد بأن الحاوى لايخبئ مطلقا ثعابين فى ملابسه . وفضلا عن ذلك فقد أرغم البعض منا - كى نبدد كل شك - هؤلاء الرجال على أن يتجردوا من ملابسهم، ومع ذلك فقد حازوا نفس النجاح فى عملهم، ونستطيع أن نقدم على ذلك الكثير من الأدلة، لدرجة لايمكن معها أن نتهم بعدم الكفاءة . لكن ذلك يعنى أن نتوقف طويلا حول هذا الأمر، ومع ذلك، فلكى نفسر بطريقة صحيحة وموضوعية وقائع خارجة عن المألوف مثل تلك الوقائع، فنحن نعتقد أن بالإمكان الافتراض بأن الحواة المصريين لديهم القدرة على أن يعطوا لأصواتهم نغمة قادرة على جذب الثعابين، بنفس الطريقة التى يستطيع بها الصياد أن ينغم صوته لكى يخدع فريسته التى يجذبها إلى شباكه . ويؤكد الأستاذ دى لاسبيد de Lacépède فى كتابه Histoire naturelle أن الثعابين عامة، تفرز رائحة قوية، وأن بعض الناس يفرزون بالمثل رائحة مسكية . ويذكر واقعة تؤيد ما ذهب إليه، يمكن أن نستنتج منها أن الرائحة تخدم الرفاعية عند اكتشاف الزواحف، بنفس القدر الذى يخدمهم صوتهم .

ويبدو أن هؤلاء الناس قد عرفوا تأثير اللعاب على هذه الحيوانات الخطرة، وكل العمليات التى يتبعونها توضح ذلك بجلاء، وتتفق كثيرا مع رأى جاليان Galien الذى يدعى أن اللعاب سام بالنسبة للعقارب والثعابين ، وقد شاهدنا كثيرا من العلامات التى تدعم ما ذهب إليه هذا الطبيب العالم . فالواحد من هؤلاء الحواة، يعرض أمام الناس ثعبانا ضخما، ويظل يهيجه حتى يوشك الحيوان أن يعضه، وعندئذ يبصق فى فمه فيتوقف غضب الثعبان على الفور، بل يظل بلا حراك تقريبا . وهذه التجارب التى تتكرر مرات كثيرة، وبنفس النجاح، لا تسمح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مطلقا بإثارة الشك حول مفعول اللعاب، إن لم يكن كسم للثعبان، فعلى الأقل كمخدر، وقد اتبع بعض أطباء الجيش نفس هذه الطرق مع العقارب، فحصلوا على نفس النتائج .

وأشهر الثعابين المصرية على الإطلاق هو بلا جدال ثعبان الصعيد، الذى يعرف باسم الشيخ هريدى . وقد تحدث كل من نوردن Norden وبروس Bruce وسافارى Savary عن هذا الثعبان الشهير، الذى رفعته سذاجة العامة واحتيال المشايخ المسلمين إلى مرتبة ولى من الدرجة الثانية. ويمكن أن نرجع هذا التقديس غير المألوف، إلى أزمنة ضاربة فى القدم، حيث كانت شعوب مصر - كمايقول هيرودت واليان Elien - تولى للثعبان بشكل خاص، قدرا كبيرا من التقديس، فكانوا يتخذون منه رمزا للخصوبة . وقدتحدث دوبوى Dupuis عن تلك العبادات العالمية التى اتخذت الثعبان موضوعا لها ، وعن الدور الذى لعبته الثعابين فى كل الرموز العالمية التى أدت إلى نشأة العبادات المختلفة . لكن ما سوف يدهش عددا كبيرا من القراء بلا جدال ، هو أن يظل الثعبان هريدى، يلقى فى مصر، وتحت سيادة المبادئ الإسلامية، نفس المكانة التى كانت له فى الماضى عند عبدة إيزيس وأوزوريس، رمز الخصوبة، وأنه لا يختلف فى شئ ، لا فى الشكل ولا فى الطبيعة، عما وصفه اليان . وقد أخطأ هيرودت عندما خلط بين هذا الثعبان ، وبين الحية ذات القرون . وتأتى النساء العقيمات لزيارة الأماكن التى كانت مخصصة له، لكى يحصلن بفعل القرابين والأضحيات على نهاية لعقمهن ، كما تذهب إليه الفتيات ليسررن إليه برغباتهن فى أن يصبحن عما قريب زوجات وأمهات . وسوف نلزم الصمت عن كل الخدع المقززة للمشرفين على مزار هذا الثعبان - الإله، وكذلك عن المشاهد الشهوانية، التى هى نتيجة طبيعية لعبادة غريبة، بعيدة عن العقل لهذه الدرجة، ويكفينا أن نقول بأن النساء بعد أن يذبحن أضحية عند باب المزار، يصعدن عند دخول الليل إلى قمة سلم يبلغ عدد سلماته ١٠ - ١٢سلمة، وما أن يحل الظلام، حتى ينزلقن بطريقة غامضة إلى داخل المزار ليقضين بقية الليل مع

شيخ . ومن نافلة القول، أن نذكر أن هؤلاء السيدات ينجحن فى معظم الأحيان فى تحقيق الهدف الذى قمن بهذه الزيارة من أجله .

ويحكى عن أصل اسم الشيخ هريدى ، أن شيخا بهذا الاسم كان معروفا بفضائله، قد ظهر من جديد – بعد موته – فى صورة ثعبان. وهذه الخرافة التى يجد شيوخ البلاد مصلحتهم فى نشرها وتدعيمها، أصبحت طعما يسهل بلعه، وتلك هى نشأة كل الخرافات [1] .

---

(١) فى نهاية هذا المؤلف علينا أن نبدى عرفاننا إلى الأستاذ فوربيه Fourier السكرتير الدائم للمعهد العلمى المصرى، للمجاملة التى أبداها نحونا، عندما أمدنا بمذكراته عن مصر، والتى كانت مصدرا لكثير من أدق الأفكار . وكان مركز القومسيير الفرنسى عند ديوان القاهرة – وهو المنصب الذى كان يشغله أثناء الحملة – قد جعله على صلة يومية بكبار المشايخ ورجال الشريعة ، وأكثر أهل البلاد تنورا ونفوذا . كما أن المخطوطات التى تركها المرحوم الأستاذ جلوتييه Gloutier – عضو المعهد المصرى ، قسم الاقتصاد السياسى – لم تكن بأقل نفعا لنا، فقد استطاع جلوتييه – بوصفه مديرا للمالية – أن يحصل على كل المعلومات الدقيقة . كما لا ينبغى أن نلزم الصمت إزاء الأفضال التى ندين بها للأستاذ جومار Jomard ، عضو المعهد، بخصوص كل المعلومات القيمة التى قدمها لنا، وللعناية الخاصة التى أبداها بمراجعته هذا المؤلف .

كما أننى فى النهاية، أتقدم بخالص شكرى، إلى السادة : بارسيفال جرانميزون Parseval Granmaison ، و روييه Rouyer ، وبوديه Boudet ، ودالماس Dalmas ، الذين زودونى – بالمثل – بالمعلومات الهامة التى جمعوها فى ظروف مواتية .

كما أن الرحالة المدقق نيبور Niebuhr ، قد قدم ملاحظة بالغة الإثارة عن الرياضة والألعاب عند المصريين، وعن ملابسهم، وعندما حانت لنا فرصة مراجعة دقة هذه الملاحظات، أخذنا عنه الكثير وأدخلناه فى دراستنا هذه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتاب الثاني

دراسات تكميلية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مذكرة مقدمة من المسيو بانكوك
إلى سيمون وزير الداخلية بخصوص إعادة
طبع كتاب «وصف مصر» (*)

كانت مصر موضوعا لعدد ضخم من المؤلفات، كما وصفت من قبل مرات كثيرة، لكن أحدا لم يتمكن، حتى وقت قريب، من الحصول على معرفة تامة ودقيقة عن هذه المنطقة من العالم . كان ذلك فى الحقيقة يتطلب حدثا غير عادى، وظروفا مواتية لا يستطيع أن يهيئها إلا جيش منتصر، حتى تتهيأ الوسائل اللازمة لدراسة مصر بالعناية التى تليق بها . لقد كانت هذه البلاد، التى زارها أشهر فلاسفة الزمن القديم ، هى النبع الذى اغترف منه الإغريق، بل الرومان كذلك، مبادئ القوانين والعلوم والفنون، ولم يك مسموحا للأجانب فى عهد الإغريق والرومان أن يتوغلوا فى هذه البلاد حتى يبلغوا معابدها، ولم تعد هذه المنشآت فيما بعد- بعد أن حاق بها الإهمال بفعل الثورات الدينية والسياسية المتوالية - أكثر منالا بالنسبة للرحالة الأوربيين منذ أن استقرت الديانة المحمدية هناك.

أما أن توصف وترسم الصروح القديمة التى يمكن القول بأنها كانت تغطى أرض مصر، وأن تجمع وتفحص كل منتجاتها الطبيعية، وأن توضع خرائط دقيقة ومفصلة عن هذه البلاد، وأن تجمع الشظايا القديمة (من آثارها)، وأن تدرس الأرض والطقس والجغرافية الطبيعية، وأخيرا أن يلم الناس بكل ما يتصل بتاريخ المجتمع، وتاريخ العلوم والفنون - فلقد كانت تلك هى غاية هذه المهمة التى تطلبت إسهام عدد كبير من الدارسين، كانت تحركهم جميعا نفس الغايات. وهذا العمل الذى ننشر منه اليوم طبعته الثانية ، هو الثمرة المشتركة لجهودهم.

(*) نشرت هذه المذكرة بدون أى عنوان .(المترجم) .

وما أن عاد إلى أرض الوطن هؤلاء العلماء والرياضيون والفلكيون والمهندسون وعلماء الطبيعة والمستشرقون ورجال الأدب، والمعماريون والرسامون، بعد أن تعرضوا – خلال مايقرب من أربع سنوات – لكل أخطار هذه الحملة العسكرية الخالدة، وهم السادة :برتوليه Berthollet، مونج Monge، كونتيه Conté ، كوستاز Costaz، ديليل Delile، ديچينيت Desgenettes، ديفلييه Devilliers، فورييه Fourier، چيرار Girard، جولوا Jollois ، لانكريه Lancret، جومار [١] Jomard، أندريوسى Andréossy، بلزاك Balzac، بليتست Belleteste، بيرتر Bertre، بوديه Boudet، كريستى Caristie ، كاست Castex ، سيسيل Cécile ، دى شابرول de Chabrol. ، كورابوف Coraboeuf ، دى كورانسيه de Corancez، كورديه Cordier ، كوتل Coutelle، دى لابورت de laporte، ديكوتيل Descotils، دى بوا ايميه Dubois-Aymé ، دوشانوى Duchanoy ، دوترتر Dutertre ، فافييه Favier ، فاى Faye ، فيف Fève، جراتيان لوبير Gratien - Lepère، جيوفروى Geoffroy، جاكوتان Jacotin، جوبير Jaubert، لارى Larrey ، ليسيسن Lecesne، لوجنتى Legentil ، لنوار Lenoir، لوبير الأكبر Lepèr ainé ، لوبير المهندس المعمارى Lepère architecte ، مالو Malus، مارسيل Marcel ، مارتان Martin، نورى Norry، نويه Nouet، بروتان Protain، رافينو Raffeneau، ريج Raige، ريدوتيه Redouté، روييه Rouyer ، سان جينى Saint-Genis، صامويل برنارد Samuel Bernard، سافينى Savigny، فيار Viard، فيوتو Villoteau، فانسان Vincent – ما أن عاد هؤلاء إلى أرض الوطن حتى أنفقوا سبعة عشر عاما فى إعداد وتصنيف المواد التى كانت قد تجمعت لديهم .. وإننا لنأسف لأننا لم نتمكن من أن نذكر هنا أسماء كل أولئك الذين سقطوا ضحية لحبهم للتضحية أو سقطوا بفعل الحرب أو الطقس.

(١) كل هؤلاء أعضاء فى اللجنة التنفيذية التى كان يرأسها المسيو برتوليه والتى يتولى سكرتاريتها جولوا، أما المسيو جومار قوميسيير الحكومة، فقد تولى إدارة وتنسيق العمل منذ وفاة المسيو لانكريه . وقد توفى عشرة من الباقين منذ عودتهم (من مصر حتى الآن) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد حشدت فرنسا كل جهودها لفتح هذه البلاد، ولقد وظفت كذلك كل جهود الفنون من أجل وصفها، ولقد أكب عدد كبير من الخطاطين والرسامين ورجال الطباعة المهرة والميكانيكيين، وما يقرب من أربعمائة من الحفارين .. عملوا جميعا بمثابرة تدعو للإعجاب فى إقامة هذا الصرح (وصف مصر) ، الذى يجمع ما بين مجد فرنسا الحديثة وكل ذكريات مصر القديمة . إن هذا العمل المخصص لوصف الكثير من روائع المنجزات العملاقة، هو نفسه إنجاز عملاق فى مجالات الآداب والفنون والعلوم، ولقد تجاوز هذا الإنجاز العظيم الحدود المألوفة حتى الآن بالنسبة للمجموعات المحفورة (اللوحات) . فقد كان يلزم الورق قوالبُ وأشكالٌ (فورمات) لم يسبق استعمالها، بل لقد تطلب الأمر أن نعثر لها حتى على اسم جديد . إن مصانع أوربا لم تصنع حتى اليوم أوراقا بهذا الحجم أو على هذه الدرجة من الجمال، بل لقد اصطنعت وسائل جيدة لتطوير فن النحت أسرعت بتقدمه، كما أثرى فن الطباعة بطرق مستحدثة طورته .

وفى النهاية، وبعد الكثير من العناء والمثابرة، وبعد مجهودات من كل نوع شغلت أو نالت عناية أكثر من ألفى شخص كل عام فى فرنسا، وبعد أن أسهمت العديد من الفنون الهامة بالكثير، وبعد أن نفذت – بعناية ومثابرة – خطة لم يتناولها أى تغيير، بعد ذلك كله أتمت لجنة مصر Commission d'Egypte هذا المؤلف الضخم، الذى لا يمكن أن نجد ما يضارعه فى حوليات العلوم .

لقد كان بوسعنا أن نطلق عليه اسم «موسوعة مصر»، فهو يعرف بها تاريخا ومنشآت ومنتجات، وليس ثمة بلد يحوز وصفا بهذه الدرجة من التمام والكمال فى كل مناطقه، وليس هناك من سبيل فى أن نأمل أن تتوفر على الإطلاق مثل هذه الظروف المتآلفة والإرادة القادرة على إنتاج سلسلة مماثلة من الإنجازات ، أو أن تقيم مثل هذا الصرح. إن فرنسا لتستحق – دون جدال – أن تكون موضوعا لوصف يتم بنفس هذا النسق .

ولقد أثار هذا العمل إعجاب كل أوربا، لكن هذا الإعجاب كان بالأحرى ناتجا عن عواطف ود ارتبطت به، أكثر منه ناتجا عن معرفة حقيقية بمحتوياته. فلقد ظل شأنه شأن آلهة مصر، حبيسا داخل محراب الفنون، ولقد كان هذا العمل جديرا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالأمة التى أنجبت المقاتلين والعلماء والفنانين الذين ندين لهم بهذا العمل، كما كان جديرا بالحكومة التى أمرت بإتمامه، لكنه مع ذلك ظل شبه مجهول من الفرنسيين أنفسهم . وكم تمنى الرسامون والمعماريون والعلماء ورجال الأدب أن يستمتعوا بهذا العمل الذى لا يمكن لأية إمكانيات فردية أن تحصل عليه، لكن الطلب يشتد عليه، وكان ينبغى له أن يحمل منذ زمن طويل إلى الأجنبى أمارات لا حصر لها على المجد الذى حازه الفرنسيون .

وحين نغض الطرف عن المبالغ الضخمة التى أنفقت على وضع هذا السفر، ونقتصر على حساب المصاريف الجديدة التى تتطلبها إعادة طبع تسعمائة لوحة، إلى جانب النصوص التى تكون هذا السفر، وإذا ما نشرناه فى شكل أجزاء صغيرة، مقدمين بذلك تسهيلات طيبة للكثيرين من ذوى القدرة المحدودة، فلا بد أن نكون على ثقة من إمكانية انتشار هذا المؤلف ورواجه فى كل أوربا .

كانت تلك هى الدوافع التى عرضها المسيو س . ل . ف بانكوك C.L.F Panckoucke على صاحب السعادة وزير الداخلية الكونت سيميون Siméon .

ونرفق فيما يلى إجابته، وكذلك الأمر الملكى الذى أجاز نشر هذه الطبعة الثانية .

سيدى ..

لقد وضعت تحت تصرف الملك اقتراحاتكم المتعلقة بإعادة طبع المؤلف الكبير الذى وضع عن مصر، وقد وقفت فى صف هذه الاقتراحات، وقد شاء جلالته أن يوافق عليها، وأرسل لكم هذه النسخة من المرسوم الصادر فى هذا الخصوص، وعليكم أن تتخذوا فيما يخصكم كل إجراءات التنفيذ .

إنها لمهمة نبيلة، ولست أشك فى أنكم ستقومون بها، بطريقة تحقق الثقة التى وضعت فيكم .

سيميون

(توقيع)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرسوم ملكى

لويس ، بحمد الله، ملك فرنسا ونافار

إلى كل من سيطلع على هذه الأوراق :

حول تقرير وزيرنا سكرتير الدولة للشئون الداخلية، ومستشار دولتنا المختص،

أمرنا ونأمر بما يلى :

مادة أولى : يقبل الاقتراح المقدم من المسيو س . ل . ف . بانكوك بإعادة طبع «وصف مصر» ، والمرفوع إلينا من قبل وزير داخليتنا، ويلحق هذا الاقتراح بهذا المرسوم .

مادة ثانية : بالنسبة للحصيلة التى ستعود على الحكومة من عائد هذا العمل : توزع حصة (يحددها وزير الداخلية) على الذين ساهموا فى الطبعة الكبيرة والتى تمت على نفقة الخزينة، ويخصص الباقى لتشجيع العلوم والفنون الجميلة وبخاصة فن الحفر .

مادة ثالثة : يكلف وزيرنا سكرتير الدولة للشئون الداخلية بتنفيذ هذا المرسوم.

صدر بقصر التويليرى فى ٢٣ يونية من عام الشكر ١٨٢٠ العام السادس والعشرين من عهدنا .

لويس

(توقيع)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراسة الأولى :

دراسات موجزة حول
البنية الجسدية للمصريين
البـــــــارون لارى

العنوان الأصلى للدراسة: «دراسة موجزة حول البنية الجسدية للمصريين ولمختلف الأجناس التى تقطن مصر، وتليها بعض أفكار حول تحنيط المومياوات» ، تأليف المسيو البارون لارى، دكتوراه فى الجراحة من باريس .. ودكتوراه الطب من جامعة بينا ، وعضو المجمع العلمى المصرى، وعضو العديد من الأكاديميات، والجراح الأول فى حرس صاحب الجلالة الامبراطور الملك، والمفتش العام بمصلحة صحة الجيوش، وأحد القادة الحاصلين على وسام الشرف والفارس من طبقة التاج الحديدى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان من الضرورى، فيما بدا لى، حتى أستطيع أن أميز الملامح الجسدية للمصريين الحقيقيين، عن ملامح بقية سكان مصر ، أن أبدأ بفحص مختلف هؤلاء السكان، فى صلاتهم الأساسية . ولكى أسترشد فى فحصى هذا بشئ من المنهج، فسوف أميز هؤلاء السكان، كما فعل رحالة فرنسى من قبل، فى أربع طبقات (أو أجناس) تشتمل على : المماليك، الأتراك أو التركمان، العرب، وأخيرا الأقباط .

لقد استقر المماليك فى مصر، وهم حكامها اليوم، عند حوالى القرن العاشر، وتنحدر سلالة هؤلاء من جبل القوقاز، وقد وصلوا إلى هذه البلاد بعد جولات قاموا بها فى سوريا . ويمكن لنا تمييز هؤلاء، الذين أشار إليهم مقاتلونا الصليبيون بالاسم الذى لا يزالون يحملونه حتى اليوم، عن بقية السكان الآخرين فى مصر بميزاتهم الجسمية وبطابعهم العسكرى العدوانى ، وهم جميعا ذوو قامة مديدة وبنية شديدة ، وتقاطيع خلقتهم جميلة متناسقة، ويتمتعون بوجه بيضوى ، وجمجمة ضخمة، وجبهة عريضة، وعيون واسعة نجلاء، وأنف مستقيم، أو أقنى بعض الشئ، وفم متوسط، وذقن ناتئة على نحو خفيف : أما شعرهم وجفونهم ورموشهم فسمراء داكنة أو كستنائية اللون، كما أن بشرتهم بيضاء فى غير لمعان. ولنسائهم – وهن قادمات من نفس البلاد – نفس الملامح، مع تغيرات كبيرة، ونجد من بينهن نسوة بارعات الجمال .

وتلفت رؤوس المسنين من هؤلاء الشرقيين النظر، إذ يضفى نتوؤها عليها روعة، يزيد منها جمال ملامح الوجه، وبياض لحيتهم الأخاذ، والتى يتركونها تنمو حتى تلامس أسفل الصدر : ويعد مراد بك النموذج الأمثل لهذه البنية الجسدية الجميلة. أما طبع هؤلاء المماليك ففخور، جسور فى غير غلظة، وهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يشتهرون بالكرم، وحسن وفادة الضيف. ولا يتزوج الواحد منهم إلا إذا بلغ مرتبة عالية، وفى النهاية، فإنهم جميعا متمرسون على فنون القتال. واعتقد من جانبى أن الناس محقون حين ينظرون إلى هؤلاء باعتبارهم الفرسان الأول فى العالم .

ويتكون الجنس التالى (من سكان مصر) من الأتراك أو التركمان، القادمين من تركيا أو من بلاد التركستان، وتقترب بنية هؤلاء من بنية الجورجيين أو الشراكسة المماليك الذين كنت أتحدث للتو عنهم، وإن كان لون بشرتهم يميل إلى سمرة برنزية ، كما أن وجههم أكثر تسطحيا، وجمجمتهم محدبة على نحو أكبر، وهى كذلك أكثر كروية، وعيونهم أكثر صفرا، ونظراتهم غامضة معتمة، وحاجبهم أسود حالك سواده، كما أن لحيتهم بالمثل سوداء . وطابع هؤلاء الترك أو التركمان أقل حيوية ، مع شئ من غلظة . ورجال هذا الجنس كثيرون بعض الشئ فى القاهرة، وهم يأتمرون بأوامر الباشا مباشرة.

وتتكون الطبقة (الجنس) الثالثة من العرب، وهؤلاء يمكن لنا أن نقسمهم إلى ثلاثة فروع مختلفة : فرع العرب الشرقيين القادمين من حواف البحر الأحمر أو من الجزيرة العربية، والعرب الغربيين أو الأفارقة، وينتمى هؤلاء فى الأصل إلى موريتانيا أو سواحل أفريقيا، ثم أخيرا العربان البدو أو الـScénites القادمين من الصحراوات .

وللأفراد من الفرع الأول - وهم الذين تحوروا إلى الأبد فى طبقة الفلاحين والصناع أو الحرفيين فى كل مصر السفلى - قامة فوق المتوسطة بقليل، وهم متينو البنية، جميلو الخلقة على نحو كاف، وبشرتهم جافة داكنة ، تكاد تكون سوداء ، ولهم وجه نحاسى بيضوى ، وجبهة عريضة ومحدودبة ، وجفنان متباعدان أسودان، وعيون لها نفس اللون صغيرة ولامعة وغائرة، وأنف مستقيم متوسط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحجم ، وفم مخروط فى شئ من الحسن ، وأسنان منتظمة حسنة القطع ، بيضاء كالعاج. ونلحظ عند نسائهم اختلافات طيبة، ويعجب المرء فيهن – بصفة خاصة – محيط أطرافهن الرشيقة ، والتناسب المنتظم لأيديهن وأقدامهن، كما يعجب بما فى مشيتهن ووقفتهن من اعتداد .

ويشارك العرب الأفريقيون سابقيهم فى مجمل شكل البنية الجسدية ، وكذلك فى لون العيون وحيويتها، لكن صلتهم بأبناء ساحل أفريقيا تتضح فى شكل الأنف والفك والشفاه، ويتماثل طبع هؤلاء مع طبع الأجناس الأخرى من العرب . وينتشر هذا النوع من العرب فى مصر العليا، وهم هناك يزرعون الأرض ويمارسون الحرف كالأولين .

وعادة ما ينقسم البدو أو العربان الرعاة إلى قبائل متناثرة على مشارف الأرض الخصيبة عند مداخل الصحراوات . وهم يقيمون تحت خيام يحملونها من مكان لآخر حسب الحاجة ، ولهم بعض صلات شبه بالآخرين ، وإن كانت عيونهم أقل بريقا فى العادة ، كما أن ملامح الوجه أقل وضوحا، وهيئتهم أكثر جمالا ، فى حين أن قامتهم أقل حجما، وهم أكثر خفة وأشد نحولا، ومع ذلك فهم أشداء متينو البنية، ذوو روح متوثبة، وطبع فخور. لكنهم حذرون جفولون، كما أنهم نفعيون كتومون هائمون يضربون على غير هدى، وفضلا عن ذلك فسرعان ما يصبح الواحد منهم فارسا ماهرا، تمتدح مهارته فى استخدام السهام والحراب . وتقاليد وعادات هؤلاء العرب هى هى على وجه التقريب ، وهم يربون قطعان الضأن والجمال والخيول من صنف ثمين للغاية .

أما الطبقة الرابعة من سكان مصر، والتى كانت الموضوع الرئيسى لأبحاثى، فتتكون من الأقباط الذين يوجدون بأعداد كبيرة فى القاهرة ومصر العليا . وهؤلاء – دون شك – هم أنسال المصريين الحقيقيين والقدماء ، ولقد احتفظوا من هؤلاء بخلقتهم الجسدية ، ولهجتهم (كذا) وتقاليدهم وعاداتهم ، ويبدو أن أصولهم قد

عاشت فى عصور بالغة القدم . وقد كانوا يقطنون مصر العليا من قبل عصر منيانوس بزمان طويل ، ويؤكد هيرودت أن المصريين من سلالة الأحباش والأثيوبيين ، ويتفق كل المؤرخين فى هذه النقطة مع هيرودت، وتدعونى الأبحاث التى قمت بها فى هذا المجال إلى تبنى هذا الرأى .

وتضرب بشرة الأقباط إلى الصفرة وإلى العتمة مثل الأحباش، ووجههم ممتلئ فى غير انتفاخ، وعيونهم جميلة ، لوزية الشكل، ذات نظرات ذابلة واهنة، أما الوجنات فناتئة ، ويكاد يكون الأنف مستقيما ، مستديرا عند قمته، لكن المنخارين واسعان ، والفم متوسط، والشفاه غليظة ، والأسنان بيضاء منتظمة ، وإن تكن ناتئة بعض الشئ، ولحيتهم وشعر رأسهم أسود جعد، وللنسوة نفس الملامح مع الاختلافات تأتى لصالحهن . ويبرهن كل ذلك – وهوعكس ما رآه فولنى Volney– على أن هؤلاء القوم لا ينحدرون مطلقا من جنس الزنوج فى أواسط أفريقيا، إذ ليس ثمة أى نوع من التشابه بين هؤلاء الأخيرين وبين الأقباط. وفى الواقع فإن الزنوج الأفريقيين أسنانا أكبر حجما وأكثر بروزا، كما أن تجويفهم الصدرى أكثر اتساعا وأكثر تحديدا، وشفاههم المدلاة أكثر غلظة، كما أن خدودهم أصغر، وعيونهم كابية على نحو أكبر، كما أنها أكثر استدارة، ولشعرهم شكل الزغب أو الصوف . أما الحبشى فعلى العكس من ذلك عيناه واسعتان، ونظرته مريحة، وزاوية صدره تنحنى نحوه، ووجنتاه أكثر نتوءا، وتشكل خدوده مع الزوايا المحددة القائمة والفم مثلثا أكثر انتظاما ، والشفاه غليظة حقا لكنها غير مدلاه مثلما عند الزنوج، وكما سبق لى القول فإن الأسنان جميلة وأقل نتوءا، أما تجويف الصدر فأقل اتساعا ، وفى النهاية فإن بشرة الأحباش نحاسية اللون .

وكل هذه الملامح تلاحظ مع فروق لا تكاد تحس بها لدى الأقباط، أو المصريين الحقيقيين، ونجد نفس هذه الملامح مرة أخرى فى رؤوس التماثيل القديمة وبخاصة تماثيل أبى الهول . ولكى أتحقق من هذه الظواهر قمت بتجميع عدد محدود من الجماجم من مقابر عديدة للأقباط ، كان لا مفر من إزالتها لمقتضيات المصلحة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العامة، ثم قارنتها بغيرها من جماجم الأجناس الأخرى، التى جمعت منها بالأل مجموعات كبيرة (١)، وبخاصة جماجم لأحباش وأثيوبيين حصلت عليها بنفس الطريقة، وقد اقتنعت بأن هذين النوعين من الجماجم يمثلان نفس الخلقة على وجه التقريب .

ولقد مكنتنى الزيارة التى قمت بها إلى أهرام سقارة من وضع سمح لى بأن أنقب عن عدد كبير لحد كاف من المومياوات ، قدمت لى جماجمها نفس الملامح التى قدمتها الجماجم الأولى، مثل نتوءات الوجنات ، وأقواسها ، والشكل ... للفتحات الأنفية ، والبروز القليل لأقواس الصدر.

وتبدو مختلف الموازنات التى انتهيت من إقامتها، وكذا العلاقات التى ... على الدوام، والتى لا تزال موجودة حتى اليوم، بين الأحباش وبين الأقباط، والتوافق بين تقاليد وعادات هؤلاء وأولئك، بل ودياناتهم، كل ذلك يبدو كافيا ... يبرهن على أن المصريين إنما ينحدرون حقيقة من الأحباش والأثيوبيين. وزيادة على ذلك، فمن الطبيعى أن نتخيل أن الأثيوبيين قد اتبعوا مجرى النيل منذ الأزمنة الأولى ، وأنهم كانوا يتوقفون أولا بأول فى البلاد التى يخصبها هذا النهر، ... هذه الإقامة كانت على التوالى، وهكذا فقد انتشر هذا الشعب بالتتابع من الفانتين إلى طيبة إلى ممفيس إلى هليوبوليس، أما المدن الأخرى شمال هذه المدن ، ... تتكون إلا بعد ذلك بوقت طويل .

وقد لاحظت كذلك ثلاثة أنواع من المومياوات، تنتمى - فيما بدا لى - إلى ثلاث طبقات من المواطنين ، بل ربما إلى ثلاثة أجيال مختلفة . فمومياوات مصر العليا فى العادة أكثر جمالا، وتلقى عناية أكبر من مومياوات مصر السفلى ، ...

---

(١) حيث أتى الطاعون على الأشخاص الذين تركتهم بمنزلى فى القاهرة أثناء سفرنا إلى الأسكندرية، وحيث غادر الجيش هذه المدينة ليعود رأسا إلى فرنسا ، فإننى لم أستطع إنقاذ هذه المجموعات كما لم أتمكن من إنقاذ أبحاثى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المومياوات التى أضعها فى الصف الأول فمتماسكة متينة، مطلية بالقار، ومحنطة بنفس المادة، وتحاط بأشرطة من قماش الكتان، مشكلة عددا من ضمادات الجراحة والتشريح مساويا لعدد أجزاء جسم الإنسان . وهى مغلفة بغلاف كرتونى، تنتثر عليه الكتابات الهيروغليفية .

ويضم كل هذه الأجزاء صندوق من خشب الجميز، رسمت على غطائه صورة الشخص (المتوفى) .

وكما قال هيرودت ، فيبدو أنه بعد أن كانت تفرغ التجاويف الثلاثة الرئيسية للجسم، كانت هذه التجاويف تملأ بالقار، كذلك كانت تحقن به الأطراف ، وكل الأجزاء الخارجية . وحين تكون هذه المادة فى كامل انصهارها فإنها تنفذ داخل هذه الأجزاء بعمق ، لحد تتشربها معه عظام هذه الأجساد ، حتى أنها استطاعت - ولا تزال تستطيع - البقاء بالمثل لوقت أطول، ما دامت توجد فى طقس تندر فيه الأمطار، وحيث تظل الأماكن التى أودعت بها شديدة الجفاف، محرومة من التهوية. وبعد انتزاع أغلفة المومياوات، نجدنا نتعرف أولا على جنس صاحب المومياء وملامحه الرئيسية ، ونجد أن وجه وأيدى وأقدام بعضها مغطاة بأوراق من الذهب ثبتت فوقها بشكل فنى حاذق، وتحت ذراعى أو فى داخل جسم هذه المومياوات وجدنا هذه الكتابات النادرة التى عرفت باسم البرديات ، والتى لا تزال حروفها مجهولة بالنسبة لنا حتى اليوم . وتحمل كل واحدة من هذه المومياوات، بالإضافة إلى ذلك، كل شواهد الحرفة أو المهنة التى كان يمارسها صاحبها فى حياته، وتحفظ آنيته معه فى التابوت . ويخصص هذا النوع من التحنيط لكبار المواطنين فى الدولة، وكان يتطلب استعدادات طويلة وشاقة، كما كان يتطلب توفير الكثير من العناصر المقومة ، مما كانت تجعله ولا بد بالغ التكلفة .

وكانت الطبقة الثانية من المومياوات أقل جمالا وأقل تماما، وكانت ضماداتها من قماش أقل نعومة، ومثبتة بدرجة أقل من الفن، ولم تكن لهذه المومياوات أغلفة

كرتونية . أما التابوت المصنوع من خشب الجميز، والذى كان يحويها، فكان مصنوعا بشئ من الخشونة، كما لم يكن مزدانا بالرسوم شأنه شأن النوع الأول .

وكان أفراد الطبقة الثالثة يحنطون بمصاريف أقل، وتختلف أساليب تحنيط هؤلاء لغير ما حد، وقد أعدت كل المومياوات من هذه الطبقة بالحقن بمواد ملحية، تتفاوت درجة قابليتها للذوبان، وكانت توضع داخل تجاويف الجسم ، مثل محلول النطرون أو الملح البحرى . وبعد أن كانت تملح الأجساد جيدا على هذا النحو، كانت تترك لتجف فى الشمس، أو كانت تعرض لتأثيرالنار حتى تبلغ درجة اليبوسة التامة، ثم توضع بعد ذلك فى صناديق من خشب الجميز ، خرطت بشكل خشن .

وكانت كل هذه العمليات تتم دون جدال تحت إشراف رجال متبحرين فى علم التشريح .

* * *

لكى تكتمل هذه المذكرة الموجزة، سوف نضيف إليها ملخصا مركزا حول الطريقة التى حفظنا بواسطتها فى أوربا أجساد بعض مقاتلينا الذين ماتوا فى ميدان الشرف .

إذا كان الشخص (الحالة) الذى ينبغى أن يحنط جسمه قد مات نتيجة مرض مزمن، مع هزال، شريطة ألا يشك مطلقا فى وجود ترسبات قيحية فى الأحشاء، وألا يكون التحلل أو التعفن قد بدأ، وأن يكون الجسم سليما من الظاهر، فإن من الممكن حفظ الأحشاء فى تجاويفها الخاصة (بالجسم) فيما عدا المخ الذى ينبغى على الدوام إخراجه .

وفى هذه الحالة نبدأ بغسل كل أجزاء الجسم بالمياه النقية والطازجة، ونمرر بالأمعاء الغليظة غسولا من نفس السائل ، ونمتص بحقنة خالية الأشياء الذائبة التى لن يكون بالإمكان خروجها إما بسبب ثقلها الخاص، وإما بسبب الضغط الذى نمارسه أسفل البطن، كذلك فإننا نمتص المواد التى تحويها المعدة بنفس الوسيلة،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد يكفى أن نعد مسبارا بلعوميا عند شجاح (مشعب) الحقنة التى ندخلها إلى هذه الأجزاء الداخلية عن طريق الفم أو عن طريق فتحة نحدثها فى البلعوم من الجهة اليسرى للرقبة . وبعد ذلك نملأ المعدة والأحشاء بمادة قارية توضع منصهرة، وتغلق الفتحات، ثم نفعل نفس الشئ عند حقن العروق. ومن أجل ذلك تمزق شريحة من الجزء الداخلى والجانبى على يسار الصدر ، تجاه أخمص الأورطى، ويقطع واحد أو اثنان من الغضاريف التى تغطيه، ويوضع بداخل هذا الشريان ثجاجٌ ذو صنبور، ندفع عن طريقه حقنا دقيقا ملونا بالأحمر، لملء الأوعية الشعرية لكل النظام الغشائى، وبعد ذلك مباشرة وبنفس الطريقة، نقوم بحقن ثان، وبدفعة أكبر، لكى نملأ الشرايين والعروق التى ترفد عنها ، ثم بحقن ثالث بالنسبة للأوردة، وينبغى أن يمرر هذا الحقن عن طريق أحد أوردة الفخذ، ثم تترك الجثة لتبرد ولتتخثر مادة الحقن . ولكى تخلى الجمجمة يثبت بها تاج واسع بواسطة مثقب للعظام عند زاوية اتحاد الدرز (*) السهمى بالدرز القذالى (أى درز القفا)، بعد أن نكون قد صنعنا حزا طوليا بالجلد دون مساس بالشعر، الذى نعنى بالاحتفاظ به، شأنه فى ذلك شأن زغب وشعر بقية الجسم . وعندما تتم هذه الفتحة، نقوم بقطع التحامات وطوايا الأم الجافية (**) بواسطة مبضع طويل وضيق، ذى قاطعين ، وتنزع مزق هذا العرق بواسطة خطاف متثلم (غير حاد ولا قاطع) ، ثم نخرج كل كتلة المخ والمخيخ بنفس هذه الأداة . وعن طريق حقنات بالماء البارد، نذيب على وجه السرعة كل ما تبقى من المادة المخية، وبعد ذلك تضم حداف فتحة الأغشية مع بعض نقاط الدرز .

أما إذا كان الشخص (الحالة) سمينا فى كثير أو قليل، وإذا كان قد مات بمرض عفن أوخبيث، وخلال فصل حار، فقد يكون من المستحيل حماية الأحشاء

(*) الدرز هو خياطة حافتى الجرح، وهو كذلك خط الالتحام أو الانفصال . (المترجم) .

(**) الأم الجافية هى الغشاء المغلف للدماغ والحبل الشوكى . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من التعفن . وفى هذه الحالة، نستخرجها بواسطة حز هلالى، يتم فى الجنب الأيمن عند المنطقة القطنية (الحقوية)، وتفصل أولا الأمعاء والمعدة والكبد والطحال والكليتان، ثم يقطع الحجاب الحاجز بشكل دائرى ، ثم المنصف (*) والقصبة الهوائية والبلعوم عند دخوله إلى الصدر، وبعد ذلك تنزع الرئتان والقلب دون إتلاف العضو الأخير، الذى ينبغى أن يجهز بشكل منفصل وأن يحفظ بعناية. ولا بد أن يجفف هذان التجويفان بالأسفنج، ثم نضع كمية معينة من موريات الزئبق المشبع بالأوكسجين المحولة إلى مسحوق، على المناطق اللحمية من جدرانهما، وبعد ذلك يملأ هذان التجويفان بالوبر المغسول والمجفف، ثم يعاد شكل البطن إلى حالته الطبيعية، وتثبت حافتا الحز عن طريق خياطة ذات نقاط حددت سلفا . وبعد إعداد الجسم على هذا النحو، يغمس فى كمية كافية من محلول موريات الزئبق المشبع بالأوكسجين على أقوى درجة من التركيز يمكن الحصول عليها . وتترك الجثة مغمورة داخل هذا السائل لمدة تسعين أو مائة يوم، وبعد أن تتشبع جيدا بهذا المحلول، توضع فوق غربال، وتتعرض لتأثير متزايد لفرن تصدر عنه حرارة ، ومقام فى مكان جاف ومعرض للهواء . وبمجرد أن تجف هذه الأجزاء تدريجيا، يثبت من جديد الشكل الطبيعى لملامح الوجه ، وكذلك الوضع الطبيعى للأطراف ، وتأخذ الهيئة المناسبة، وتثبت عينان من الميناء بين بؤبؤ العين التى سحبت إلى الداخل وبين الجفون، ويعطى للشعر صبغة تتناسب مع لونه الطبيعى إذا ما وجدنا ذلك ضروريا ، ثم نمر على كل الجسم ببرنيق (طلاء لامع) ، خفيف اللون ، كى يعطى حيوية لصبغة الجلد، وكى يحفظ له مظهرا من الطزاجة، وأخيرا يوضع الجسد داخل صندوق زجاجى ليعرض على الجمهور، أو يدفن داخل تابوت .

وهكذا نستطيع أن نخلد لآلاف السنين، أجساد الأبطال أو رجال الدولة العظماء .

(*) المنصف هو الحيز الذى يشتمل على القلب وكل ما فى الصدر عدا الرئتين (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراسة الثانية

مصر .. والحملة الفرنسية

مقـــــــدمة تاريخيـــــــة

بقلم المسيو فوريــــــه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تشغل مصر – بموقعها بين أفريقيا وأسيا، وباتصالها الميسور بأوربا – قلب العالم القديم، لكن هذه البلاد اليوم لاتقدم سوى ذكريات مجيدة، فهى وطن الفنون، وهى التى ما فتئت تحتفظ لهذه الفنون بصروح لا تحصى ، ولا تزال قائمة حتى اليوم أهم معابدها، وكذا القصور التى سكنها ملوكها، على الرغم من أن أحدث هذه الصروح قد شيد قبل حرب طروادة. ولقد ذهب إلى مصر كل من هوميروس وليكورج ، ودرس فيها سولون وفيثاغورث وأفلاطون العلوم والدين والقانون، وأسس الاسكندر هناك مدينة بالغة الثراء حظيت لوقت طويل بالسيطرة على عالم التجارة، وشاهدت بومبى وقيصر ومارك انطونيو وأغسطس يقررون فيما بينهم قدر روما وأقدار العالم بأسره. ومن خاصية هذه البلاد أنها تسترعى الانتباه بكل المبادئ الباهرة والمتألقة التى تنظم أقدار الأمم.

لم تنشأ فى الغرب أو فى آسيا أية قوة كبرى لم ترن ببصرها نحو مصر، أو لم تنظر إليها باعتبارها – على نحو ما – إقطاعية طبيعية بالنسبة لها، كما أن كل الأحداث الكبرى التى كان لها تأثيرها على تقاليد وتجارة وسياسة الامبراطوريات قد صحبت معها الحروب إلى ضفاف النيل، ويمكننا أن نلاحظ أن الفرس والمقدونيين والرومان والعرب والعثمانيين قد استقروا بمصر بمجرد أن تفوقوا على الشعوب التى كانت معاصرة لهم.

وفيما مضى، أوصى الدين إلى ملوكنا بالرغبة فى الاستيلاء على مصر. وقد بذل العديد من الأمراء الصليبيين، وكذلك البابا انوسان الثالث Innocent (*) وهو

(*) تولى البابوية من ١١٩٨ إلى ١٢١٦، وقد خاض صراعا ضد فيليب اغسطس ، واتخذ المبادرة فى قيام الحرب الصليبية الرابعة ، كما حارب مذهب الـ Cotharés الذى انتشر فى جنوب فرنسا حتى قضى عليه عام ١٢٠٩. (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرجل الذى حكمت مواهبه كل أوربا، كل جهودهم لتحقيق هذا المشروع. وقد جدد هذا المشروع واحد من الوزراء الذين يعرفون أكثر من غيرهم المصالح المختلفة للدول المسيحية، هو الكاردينال هيمنيس Himenès (*)، وتحالف لهذا الغرض مع كل من فرديناند الكاثوليكي، وايمانويل، وهنرى السابع، وهم الذين تميزت جهودهم بالحكمة وذيوع الصيت . أما ليبنتز Leibnitz الشهير، والذى لم يخلق إلا من أجل المهام الكبرى فقد شغله هذا المشروع لزمان طويل، وقد وجه إلى لويس الرابع عشر مؤلفا ضافيا، ظل مخطوطا، عرض فيه المكاسب التى تتحقق من وراء هذا الغزو (**).

وقد كتب بوسويه Boussuet فى نفس الفترة عن التاريخ الطبيعى، وبعد أن أعاد إلى الأذهان عظمة مصر، وروعة الأنظمة والمؤسسات التى نشأت بها، أضاف هذه العبارة اللافتة للنظر : «والآن، حيث يقتحم اسم الملك أشد مناطق العالم غموضا، وحيث يبسط هذا الحاكم إلى نفس المدى البعيد تلك الأبحاث التى أمر بإجرائها عن المؤلفات الرائعة التى تدور حول طبيعة الفن، ألن يكون أمرا جديرا بهذا الفضول النبيل أن نكتشف ضروب الجمال التى يضمها الصعيد فى صحراواته، وأن نثرى فن العمارة عندنا بما سبق أن أنجزته فى هذا المضمار مصر؟» . ولقد تحققت أمنية هذا الرجل اللامع خلال فترة من حرب خالدة، أصبحت مصر على الفور مسرحا لها .

(*) كاردينال أسبانى ولد عام ١٤٣٦ ومات ١٥١٧ ، وكان رجل دولة كبير، لكنه أسال الكثير من الدماء . (المترجم) .

(**) هكذا يفصح السيد المؤلف عن روحه ونواياه منذ البداية، ولابد أن نضع هذا فى اعتبارنا على الدوام ونحن نقرأ باهتمام هذه المقدمة بوصف مصر . فما يقوله الآن يفسر الكثير من آرائه الغريبة، ويبرر الكثير من التناقضات الصارخة التى وقع فيها وبخاصة عندما يتحدث عن العرب والإسلام، و التى تبلغ أحيانا حد الاستهانة بالعقول، ولدرجة تثير من السخرية والإشفاق أكثر مما تثير من جدل جاد لا تستحقه فى الواقع، فى الوقت الذى تظل فيه تفسر لنا الكثير من النوايا، مما لايزال موجودا ربما حتى اليوم . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الناس – ولابد– يتذكرون ذلك الانطباع الذى أحدثه فى أوربا هذا الخبر المدهش عن قيام حملة فرنسية تتجه إلى الشرق، فلقد أُعِدّ هذا المشروع الذى أنعم فيه الفرنسيون النظر طويلا وفى صمت، بكثير من العناية والسرية ، حتى أن يقظة أعدائنا التى لاتغفو قد خدعت، لقد عرف هؤلاء فى وقت واحد تقريبا أنه قد ووفق على هذا المشروع، وأنه قد أعد ونفذ. ولقد بررته ضرورة تأمين تجارتنا من المظالم التى لم يكن يكف البكوات (المماليك) عن ممارستها ضدها، ولقد خامرنا الأمل فى تصالح يتم مع البلاط العثمانى ، عندما نقدم له – نتيجة لحملتنا هذه نفسها – زيادة فى الدخل وتعاظما فى النفوذ . ومهما تكن الصعوبات التى بدت فى هذه المفاوضات، فقد كان من الممكن أن نأمل فى مخرج سار ، مادام نجاحنا هناك كان مواتيا للغاية للصالح المشترك للدولتين الحليفتين (تركيا وفرنسا) . وفى الواقع فإن معاونة قوة أوربية (فرنسا) عندما تستقر فى مصر، كانت تعاونا على تغيير الحالة فى مصر بطريقة شبه فجائية (*).

إن هذه البلاد التى نقلت معارفها إلى كثير من الأمم، هى اليوم غارقة فى الهمجية، وبقدر ما تنال هذه البلاد اهتمامنا المتزايد – بفضل موقعها الجغرافى، وبفضل خصوبة أرضها البالغة – بقدر ماتكون ماسّة بالنسبة لها المكاسب التى تحققها لها القوانين والفنون . وحين كانت تذود عنها فيما مضى قوى عسكرية عديدة، تتكون من محاربيها الخاصين بها، كانت مصر منيعة مهيبة من الأمم المجاورة، لكنها فقدت منذ زمان طويل – مع فقدها لأنظمتها ومؤسساتها – استقلالها ومعارفها، بل إنها لم تعد بقادرة على أن تذكر بعظمتها الأولى. ولقد ظلت على الدوام منذ هذه الفترة خاضعة لقوة أجنبية، وأخذت كل الثورات التى هزت أوربا وآسيا تزودها بسادة جدد، وتنتقل بشعبها إلى أقصى درجات المذلة والشقاء.

(*) يقصد أن فرنسا لو أنها كانت قد استقرت فى مصر لعاونت على دعم سلطة الباب العالى هناك ، لأنها كانت ستحطم نفوذ المماليك وتضع حدا لخروجهم على السلطان . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت مصر، فى عهد ملوكها الأول، تطيع وتستجيب لمبادئ وأخلاقيات ثابتة لا تحول، وكان ثمة حكومة مثابرة تسهر على رعاية القوانين والعادات والتقاليد، كان كل شئ يوحى بالحرص على المستقبل ويدعو إلى الشروع فى أعمال يكتب لها الخلود، وهذه هى اليوم تئن تحت أشد السلطات استبدادا فى العالم، بل وأكثر القوى الموجودة على ظهر الأرض انعداما للبصيرة، كما لو كان قد قدر على هذه البلاد أن تمر بأشد الأحوال التى عرفها المجتمع الإنسانى تناقضا، لقد نقلت الحضارة إلى كولشيد القديمة(*) إذا لم يكن تاريخ العصور القديمة يخدعنا، لكن نفس هذه المنطقة تبعث إليها اليوم بحكام بشعين نسوا عائلاتهم وأوطانهم، ويلفظون ذرياتهم، ويعيشون وسط عبيد (مماليك) جاحدين متمردين لايمكن لهم احتواؤهم، وحيث إنهم عارون عن الحيطة وعن نور المعرفة، فلن يقدر لهم مطلقا أن يعرفوا كيف يثبتون سلطتهم وكيف يسارعون إلى التمتع بها، فهم يقمعون كل صناعة، ويهملون أويخربون الترع والمنشآت العامة، وها هى الرمال تغزو الأراضى الصالحة للزراعة، كما أن القرى تعيش تحت وطأة تهديد عصابات السلب القادمة من الصحراوات. لقد حكم على الإنسان فى ريف مصر أن يقوم بعمل جاحد لا يمكن أن يجنى منه– هو – ثماره، كما أن الإنسان فى كل مكان من أرض مصر، إنما هو فريسة للظلم والمهانة والمجاعة والأمراض المعدية.

وقد يكون من المستطاع إصلاح حال الشعب، لو أن سلطة حكامه أصبحت ثابتة ووراثية، لكن السياسة العثمانية تتفادى مثل هذا الإصلاح، إذ هى تثير فى هؤلاء الأجانب عداوات وخصومات تضعف من قدرتهم هم، وتجعلهم شتى متفرقين، لا يحوزون الوسائل التى تجعلهم يلحون فى الحصول على استقلال تام: كما أنها فى نفس الوقت تقف ضد القوة العسكرية الطموح، التى للباشوات. ووسط هذه القلاقل تظل غائبة على الدوام سلطة الحاكم (السلطان) ، أو أنها لا

(*) مدينة تقع إلى جنوب القوقاز ، ذهب إليها أبطال أرجوس للحصول على جزات من الذهب . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تثبت وجودها إلا فى شق صفوف مغتصبى حكم مصر، فلا هى قادرة على تأمين إرسال الضرائب، ولا على حماية الشعوب، ولا على ضمان تنفيذ المعاهدات التى تبرمها مع القوى المتحالفة معها . وهذه الظروف الأخيرة بوجه خاص هى التى جعلت هذه الحملة الخالدة من قبل الفرنسيين أمرا لابد منه، ومع ذلك، فإن ذلك الذى قاد هذه الحملة لم يقصر أغراضه فقط على عقاب الذين أعاقوا تجارتنا، بل إنه أعطى لمشروع هذا الغزو سموا وعظمة جديدتين، كما طبعه بطابع عبقريته الخاصة. لقد قدر منذ البداية ما سيكون لهذا الحدث بالضرورة من سطوة على علاقات أوربا مع الشرق ومع أواسط أفريقيا، وعلى الملاحة فى البحر المتوسط ، بل وكذلك على أقدار آسيا . ولقد اتخذت الحملة لنفسها هدفا، هو تأديب المماليك والحد من طغيانهم، والتوسع فى مشروعات الرى والزراعة، وأن تحقق اتصالا دائما بين البحر الأبيض والخليج العربى (البحر الأحمر)، وأن تقيم مؤسسات تجارية وأن تقدم إلى الشرق المثال النافع الذى للصناعة الأوربية، وأخيرا أن تجعل ظروف وحياة السكان أحسن حالا، وأن تمدهم بكل المزايا التى أنتجتها حضارة متطورة .

ولم يكن من المستطاع بلوغ هذه الغاية دون تطبيق مستمر ودائم للعلوم والفنون. وقرر قائد هذه الحملة الفرنسية – سعيا وراء تحقيق ذلك – أن ينشئ فى مصر مؤسسة تسعى إلى نهوض وتقدم كل المعارف النافعة، وحدد – وهو لايزال بعد فى عاصمة فرنسا – كل أولئك الذين ينبغى عليهم الإسهام فى تحقيق أغراضه، ودعم – عن طريق ما أبداه من أمارات الرعاية والترحيب – هذا الحلف غير المعتاد بين الأسلحة وبين العلم . وقد عهد بإنشاء هذه المؤسسة الجديدة إلى عضوين شهيرين(*) من الأكاديمية السابقة للعلوم، وكانا منذ وقت طويل قد شرفا وخدما وطنهما باكتشافاتهما المدوية، كما كانت أعمالهما وعبقريتهما قد ساهمت فى إعطاء الأمة الفرنسية تفوقا مجيدا فى علوم الهندسة والطبيعيات.

(*) يشير المؤلف إلى العالمين : مونج وبرتوليه. (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد أخذت أكاديمية القاهرة (أى المجمع العلمى) على عاتقها - مثلها مثل أكاديميات أوربا - أن تستزرع العلوم والفنون وأن تطورها وأن تبحث فى كل تطبيقاتها النافعة، وكان عليها بصفة أساسية أن تسعى للتعرف على احتياجات ومصالح مصر وكذا الوسائل الكفيلة بالحصول عليها، لذلك فقد كان من الضرورى بالنسبة لها أن تتفحص بكثير من العناية تلك البلاد التى ستصبح خاضعة لإدارة جديدة: تلك كانت الدوافع التى حملت على القيام بالأبحاث التى ننشر اليوم نتائجها.

ومع ذلك فقد كان الحرص على الفنون الجميلة والأدب يقتضى منا كذلك وصفا مخلصا وتاما للصروح التى تزدان بها، منذ قرون، ضفاف وادى النيل، تلك التى تجعل من هذه البلاد أغنى متاحف الدنيا . ولقد قام علماؤنا بأخذ مقاسات كل أجزاء هذه المنشآت بدقة صارمة، وألحقوا بالتصميمات المعمارية خرائط للأماكن التى كانت تقوم عليها المدن القديمة، كما قدموا فى رسوم خاصة النقوش الدينية والفلكية والتاريخية التى تزين جدران هذه الصروح، وبالإضافة إلى الدراسات والرسوم التى من شأنها أن تعرفنا بالحالة القديمة لمصر، فلقد جُمع أولئك الذين كان عليهم أن يقدموا لوحة عن حالتها الراهنة ، وأنشئ عدد كبير من الخرائط الجغرافية التى تحدد - بطريقة دقيقة ومفصلة - مواقع السواحل والموانى، ومواقع المدن الحالية والمدن القديمة والقرى والكفور، وكذلك مواقع النقاط الهامة الأخرى، ومجرى النيل ابتداء من شلال أسوان حتى البحر المتوسط، وقد تأسس هذا العمل على ملاحظات فلكية . وأخيرا فقد أكب العلماء على فحص كل المنتجات الطبيعية أو على الأقل، على فحص الظواهر بالغة الأهمية ، أو غير المعروفة لنا من الحيوان والنبات والمعادن.

وقد ضمت نتائج هذه الأبحاث المختلفة حول التاريخ الطبيعى وجغرافية مصر، وحول عصورها القديمة ، وحالتها الراهنة، فى مؤلف واحد، إذن فلقد كان الهدف من هذه الموسوعة - التى سيعمل سخاء حكومة فرنسا على إمتاع أوربا بها - هو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن تقدم معرفة دقيقة ومتعمقة عن مصر، فتتضح بذلك العناصر الحقيقية التى تنهض عليها دراسة طبيعية وأدبية وسياسية لواحدة من أهم مناطق المعمورة وأكثرها جذبا للانتباه.

لقد تمتعت مصر - خلال سلسلة طويلة من القرون - بحكومات قوية ومتنورة، وكانت كل القوانين والعادات العامة والتقاليد الأسرية والأخلاقية تسهم كلها فى نفس الغاية، إذ إنها تأسست على معرفة بتقاليد الإنسان، وعلى مبادئ راسخة للنظام والعدالة، نقشت فى كل القلوب.

أما الدين، الذى كان متوحدا مع دراسة الظواهر الطبيعية، فقد كان عقليا وطبيعيا فى وقت معا، وفى حين كان يكشف لبعض العقول الحكيمة عن المبادئ المجردة للأخلاق، فقد كان يقدم هذه المبادئ إلى الجميع فى أشكالها المحسوسة، لقد كان ينظم الأحداث والأفكار، ويحتوى الناس فى حزم، ويعير المؤسسات المدنية دعما من سلطة مستقرة.

كانت الحكومة ملكية، وتنهض على قوانين عريقة ومقدسة، ولقد حول القوم الأمثلة التى تقدمها المبادئ بالغة الحكمة إلى عادات لا سبيل إلى تغييرها.

وكان المصريون يقدسون بصفة خاصة فضيلة العرفان باعتبارها منبع كل الفضائل العامة والخاصة، وباعتبارها كذلك أكثر الميول الطبيعية عدالة ونفعا، وكانوا يجاهدون فى تخليد ذكرى أجدادهم عن طريق إقامة صروح رائعة تقاوم الفناء، أما الروح الأسرية فقد مضت إلى أبعد حد، ويمكن القول بأنها قد جعلت من كل الأجيال أجيالا معاصرة. وكانت تتقى مخاطر البطالة والفراغ عن طريق إقامة الاحتفالات والأعياد، وكذلك عن طريق القيام بأعمال ضخام تستهدف الصالح العام. وكانت الزراعة مزدهرة، كما كانت الفنون المتطورة تحبذ جهود الصناعة، وكان العدد الأكبر من الناس يراعون - بدافع دينى - مبادئ الصحة العامة، التى اهتدوا إليها بفعل خبرة طويلة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما عبقرية الفنون الجميلة فقد خطت خطوات أوسع من ذلك بكثير، لكنها كانت تخضع لقواعد ثابتة، وكان للعمارة طابعها الوقور والمتسامى، كما كان الشعر والتاريخ والموسيقى والنحت والفلك، يطبع الخوفَ من الآلهة فى النفوس، ويوحى بالورع والإعجاب. وكان يحتفظ داخل المعابد بتماثيل الملوك وكبار القوم، كما كان يحتفظ هناك بالحوليات العامة واستقراءات السماء، وكان ينقش فوق هذه المنشآت المشهد المتتابع لدورات النجوم. ولازالت هذه النقوش باقية حتى اليوم، وسوف تستخدم - هذه - عند دراسة تاريخ مصر فى الاستدلال على الفترات التى لازالت مجهولة حتى اليوم، من هذا التاريخ.

وكان يسكن آسيا - فى نفس ذلك الوقت - أمم قوية، مضت أمجادها القديمة إلى زوايا النسيان، وكان العقل البشرى قد ارتقى لحد توصل معه إلى الاعتقاد فى وحدانية الله، وإلى مبادئ الأخلاق السامية، وكان يراقب سماء الكلدانيين رهبان تكونوا فى مدرسة المصريين، وكانت الحقائق الأساسية للهندسة والفلك قد اكتشفت، وأوشك الناس أن يعرفوا النظام الحقيقى للكون، كما كانوا قد أقاموا خرائط جغرافية، وتعهدوا قياس حجم الكوكب، كما كانت المدن الموسرة تزدان بما أنتجته عبقرية الفنون الطبيعية التى كانت تتخذ من المعادن والألوان وكل المواد الطبيعية خامات لها . وكانت هناك علاقات بين مختلف شعوب الشرق، وبخاصة بين شعوب الهند وفارس ومصر، وكان موضوع هذه العلاقات هو الدين، والعلوم، والحكومة، والتجارة.

وفى ذلك الوقت كانت تنقص أوربا - وهى اليوم بالغة الرقى - القوانين والتقاليدالراسخة، وعندما كانت أضواء الفنون قد بدأت تنتشر فى الغرب كانت المدن الأترورية(*) قد تأسست، وقدمت المستعمرات المصرية والفينيقية إلى الإغريق فكرة مؤسسات وأنظمة جديدة ، وحصلت العمارة والنحت على مبادئهما وأنماطهما

(*) نسبة إلى أتروريا التى كانت تقع قديما غرب ايطاليا. (المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من طيبة وممفيس ، ثم قامت بعد ذلك بقفزات تثير الإعجاب . وتشكل الدين من مبادئ غامضة ومختلطة فى نفس الوقت بالثيولوجيا المصرية، وبعد أن قام خيال المؤرخين والشعراء بتجميل هذه الألغاز المقدسة، لم يعد بمقدور المرء أن يكتشف فيها معنى واحدا يعز على الفهم. وفى اليونان احتفى الشعر - معلم البشرية الأول - بالفضائل والأبطال والآلهة ، وجلبت عبقرية هوميروس الشهرة إلى ايونيا، فبرقت بوميض خالد، وأصبحت معلما للحكام والشعوب.

لقد جاء الوقت الذى لم يعد ينبغى على مصر فيه أن تقاوم الأمم المنافسة التى تزايدت قوتها سريعا، وبدأت مصر تقاسى من ولوج العادات الأجنبية إليها، كما بدأت تعدل عن المبادئ الأساسية السائدة فى المملكة . فمنذ وقت طويل وأخطار الخرافة تحيط بالدين وبالعلوم، وأصبح الفرس - وهم أكثر عددا وأكثر مهارة فى فن الحرب، والذين تمرسوا بثورات عسكرية كبيرة - سادة لهذه البلاد قبل العصر المسيحى بنحو ستة قرون، ونهبت المدن الرئيسية، وتركت نهبا للنيران، وسقطت أسر الملوك فى السبى، وخربت أو بعثرت الحوليات وصروح الأدب، وعبثا يحاول المصريون أن يتخلصوا من سيطرة بشعة، لكن مجهوداتهم الطويلة هذه قد زادتهم شقاء على شقاء.

وفى نفس هذا الوقت، كانت روما تبذر بذور عظمتها، وتتهيأ للسيطرة على العالم، كانت قد استعارت دينها وتقاليدها من الاتروريين والإغريق ، وقد دافع الأخيرون دفاعا مجيدا عن استقلالهم ضد جيوش لا تعد ولاتحصى، وكانت لهم عندئذ صلات عديدة مع مصر، وزار العديد من فلاسفتهم هذه البلاد، وإن لم يغترفوا منها إلا تعليما منقوصا، لأن الدين والقوانين والعلوم قد خربت ربما بشكل تام.

ومنذ هذا الغزو الأخير، ظلت مصر تعانى على الدوام من السيطرة الأجنبية، فدانت على التوالى لملوك الفرس، والبطالمة، وللخلفاء الأول لأغسطس، ثم لأباطرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيـزنطة، وللخلفـاء (المسلمـين) الأول ، ثم لخلفـاء القـاهرة ، ولسـلاطين المـاليك ، وللسـلاطين العثمـانيـين. وهكذا نجـد تاريخ مـصـر، بدءا من الفـرس حـتى الحملة الفرنسية ينقسم إلى ثماني فترات، طول كل واحدة منها يبلغ نحو ثلاثة قرون.

وبعد أن استطاعت اليونان الحرة أن تصد محاولات الفرس، قـاد الاسكندر بعض محاربيه لفتح آسيا، وتعهد الاسكندر - وهو الذى لم تكن مـواهبه السياسية أقل شـهـرة من نجـاحـاته العـسكرية - أن يقـدم امـتـيـازات للأمم البـعـيـدة (فى امبراطوريته المترامية) ، وأن يؤسس مدنا حتى أقاصى العالم. ويمكننا القول بأنه قد اكتشف المحيط الهندى، وأدرك مـا للملاحـة والتجارة من أهمية، كـمـا اخـتـار الأسكندرية لتكون مركزا للاتصالات التى أراد لها أن تقوم بين الشعوب.

وبعد موت هذا الرجل العظيم، ظلت مصر خاضعة للمقدونيين، وظلت موانيها تستقبل أثمن منتجات الجزيرة العربية والهند ، كمـا امتدت بعلاقتها إلى أعمـاق أفريقيـا، وأمنت - عن طريق تجارة بالغة الاتسـاع - ثراء باذخا لملوكها، وجاءت المتاحف اليونانية لتزين العاصمة الجديدة، وظهرت الفنون من جديد فى وطنها القديم، وإن كانت تعد على نحو ما علما جديدا، ذلك أنه لم يعد باقيا من المذهب المصرى (فى الفن) إلا ذكرى باهتة، ومع ذلك فقد بقيت الحفلات والأضحيات، كما ظل استخدام اللغة ساريا، وإن كان استخداما ناقصا. لكن الجهل والخرافات المنفرة كانت قـد حطت من ذوق الفلسفـة المصرية، وبالكاد يعثر المرء منهـا على بعض آثار منسـيـة فـى سـراديب المعـابد، لقـد انقطعت إلى الأبد سلسلة العلوم والتاريخ.

ولم يكن بمقدور مـصـر أن تفلت من المرامى الطموح لروما، وهكذا عانى آخر سلالة البطالمة من نفس القدر المشترك الذى كتب على كثير من الملوك ، ولقد أديرت هذه البلاد بحكمـة ، وقفزت إلى الأمـام قـفـزات مـوفـقـة كل من الزراعـة والملاحـة والصناعة. كـان كل شئ يسـاهم فى دعم مكانة هـذا الإقليم الجـديد (من أقـاليم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمبراطورية الرومانية) ، خصوبة أرضها، وتجارة الهند ، وبقايا الازدهار القديم، والعلاقات مع الجزيرة العربية والحبشة، وظل الناس ينظرون إلى الأسكندرية لوقت طويل باعتبارها العاصمة الثانية للإمبراطورية.

ومن بين كل فنون الإغريق، كانت العمارة هى أكثر الفنون ملاءمة لسادة العالم (الجدد)، ولقد استثمرها الرومان فى الأغراض المتصلة بالصالح العام، وكذلك لتخليد ذكرى انتصاراتهم، ولكى يضاعفوا فى أنظار الأمم من الشهادات (المحسوسة) الدائمة التى تذكر بالقوة التى أخضعتهم. أما المسرح المصرى فقد سما بأفكارهم، وحملهم على أن يتعهدوا منشآت أكثر رحابة، وحين استوحوا هذه الطرز القديمة، فقد حرصوا على أن يجمعوا إلى نبل التصميمات ورحابتها، تلك الرقة التى كانت تميز الأعمال الإغريقية .

وكان لإلغاء الوثنية أثره الهائل فى مصر، فحرمت الأضحيات، وهجرت المعابد أو حطمت، وأوشك أن يمحو خليط الروحانيات والأساطير الوافدة ذكرى المبدأ المقدس ، فلم تبق منه سوى ظلال باهتة ، جاهدت سلطة الأباطرة فى محوها مع كل عناصر الديانة القديمة. ومنذ أصبح هذا البلد إقليما رومانيا، أخذ يفقد عددا هائلا من المنشآت المنحوتة، فنقلت إلى أوربا تماثيل وأحجار منقوشة، ومسلات ثمينة نحتت من حجر واحد كانت تنتسب إلى مدن طيبة وممفيس والأسكندرية، وارتفعت فى ميادين روما والقسطنطينية مسلات كان الفراعنة فيما مضى قد أقاموها تمجيدا لآلهتهم . وأعمال كهذه فريدة وغير قابلة للتقليد، لجديرة حقا بأن تزين عواصم العالم.

ثم انتقلت مصر، التى لم يعرف الأباطرة الروم لا أن يسوسوها ولا أن

(*) استخدمت كلمة رومى ورومية ترجمة لكلمة Romain, Romaine عندما يتناول السياق الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ترجمة لنفس الكلمة رومانى ورومانية عندما يتناول السياق الإمبراطورية الرومانية بشكلها القديم . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يدافعوا عنها، إلى سيطرة المسلمين. قبل ذلك كانت السلطة الرومية (*) قد أخذت تلفظ أنفاسها فى كل مكان، وهكذا كانت قد تهيأت بالفعل تلك الأسباب التى عجلت بالضرورة بانتهاء هذه الإمبراطورية، وهكذا أمكن لبعض من القبائل العربية نصف المتحضرة أن تستولى على أجمل أقاليم الشرق .

ومع ذلك فإن الانتصارات السريعة للمسلمين الأول لا ينبغى لها أن تقارن مطلقا بالحملات العسكرية والسياسية لروما، كما أنها تختلف عن الغزوات المتبادلة بين الأمم الشمالية. إن الرومان لم ينتصروا فقط بفعل قوة السلاح، إذ هم يدينون بجزء كبير من نجاحاتهم لمبادئ فى الحكم كانوا يتبعونها بثبات جدير بالإعجاب، إنهم لم يكتفوا بإخضاع الشعوب، فقد يمنحونهم الإدارة العامة، كما كانوا يجعلون هذه الشعوب - على نحو ما - تنسى أصولها بفعل التغيير المتتابع للدين والعادات واللغة والقوانين . أما البرابرة الذين دمروا أوربا، تاركين أوطانهم الثلجية سعيا وراء أجواء أكثر لطفا، ومدن ثرية زاهرة، فقد تعاقبوا دون نظام، وبدون غرض آخر سوى سلب المغلوبين، وحيث لم يكن لدى هؤلاء على الإطلاق مؤسسات راسخة، فإنهم لم يحتفظوا إلا ببعض عاداتهم وأنماط سلوكهم، وانتهى بهم الأمر أن تمثلوا الثقافة والتقاليد والفنون التى وجدوها مستقرة فى مناطق إقامتهم الجديدة . وعلى العكس من ذلك كانت للعرب عادات وأفكار أكثر رسوخا، وكانت معهم رواسب مشوشة مختلطة وخرافية من ديانات الشرق القديمة، وحيث إنهم كانوا على اقتناع تام بأن ما يعرفونه هو الصحيح والنافع، فقد لفظوا فى البداية عادات وفنون الشعوب المغلوبة . ولم تكن لدى محمد لا النية فى تأسيس امبراطورية ، ولا المرامى السياسية التى نسبها إليه كتاب كثيرون (*) ، ولأنه لم يحدس مطلقا تلك الانتصارات الهائلة التى سيحوزها خلفاؤه فإنه لم يترك لهم أى شكل أو أى مذهب للحكم (كذا!) ، وكان شاغله فى كل جهاده أن تتصدر قبيلته(!)

(*) بدءا من هنا نجد الكاتب يعبر بوضوح عن أفكار لا تستحق النقاش مطلقا، فهى ليست سوى أصداء للروح التى تقف وراءها ، والتى بدرت منه فى بداية مقاله ، والتى لفتنا إليها النظر فى حينها. (المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأن يعلى من شأنها فوق شأن القبائل المنافسة لها (!!)، وحين أكسبته نجاحاته الأولى شجاعة ، فقد بدأ يثرى رجاله بسلب القرى المجاورة. لم تكن له مطلقا معرفة الأمم المتحضرة، وكان ينظر إليها باعتبارها أمما من المشركين أو الملحدين ، ولقد ربط بين مواطنيه عن طريق تذكيرهم بمعتقدات كانت مقدسة فيما مضى، ثم مضى من الحماسة إلى الغواية (*) ، ومع ذلك فقد استخدم كتابه (القرآن!) ، وهو يضم عددا من المبادئ النافعة ، وعددا أكبر بكثير من أفكار تستعصى على الفهم (كذا!) وعارية من أى معنى (!!) وتفتقد إلى الترابط فيما بينها (!) ، استخدمه قاعدة يتجمع حولها أتباعه ، ومنحهم بذلك اسما، وهدفا وصالحا مشتركا .

وحيث لم تعد تدعم السلطة الرومانية لا بأس القوة ولا حكمة المستشارين ولا فضائل الجنود ولا ثبات العادات أو ثبات السياسة والدين، فقد كان من الميسور أن تغزو كل أقاليمها عشائر شبه متوحشة، أبيدت منذ قرون عديدة عند حدود الامبراطورية . وجاء العرب الذين يمكن أن نطلق عليهم اسم Les Scythes (**) القادمين من الجنوب ، جاءوا للإسهام فى اقتسام هذه الغنيمة الواسعة، ولقد فعل هؤلاء الرجال الجهلاء، وإن كانوا مقاتلين أولى بأس، ومتمرسين على مواجهة الصعاب، والذين هم كذلك فقراء نهمون للسلب، فعلوا ما كان يمكن أن يفعله الجرمان لو كانوا فى نفس موضعهم ، بل وربما على نحو أسرع من ذلك (***).

(*) هذه ترجمة مخففة للفظ المستعمل، ولم نجد من اللائق تقديم الترجمة الصحيحة للفظ ، ووا ضح للقارئ مدى جهل الكاتب بالإسلام ومدى تحامله كذلك أيضا عن غير معرفة عميقة أو حتى كافية . (المترجم).

(**) من الشعوب البربرية القديمة ، وكانوا فى معظمهم رعاة قدموا من شمال أوربا وآسيا . (المترجم).

(***) يشير المؤلف هنا إلى ثلاثة من الشعوب الجرمانية هى على الترتيب : الغوط Goths ، وقد احتل فريق منهم جنوب شرق أوربا أما الجزء الذى بقى منهم فى غرب أوربا فقد غزوا الإمبراطورية الرومانية عام ٤١٠، ثم الـ Gépides وكانوا مستقرين فى دلماشيا حيث استأصلهم اللومبارديون فى القرن السادس، ثم اللومبارديون Lombards ، وكانوا يقيمون فيما بين الألب ونهر الأودر، ثم غزوا ايطاليا فى القرن السادس وأسسوا فيها دولة قوية انتصر آخر ملوكها Didier على شرلمان عام ١٧٧٤. (المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يكن أقل من ذلك سهولة على هؤلاء العرب، أن يتوغلوا فى بلدان آسيا الأخرى، ذلك أن الفرس – الذين زعزعتهم انشقاقاتهم الخاصة، وحروبهم الخارجية – لم يعد بمقدورهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد أشد أعدائهم ضعفا (*) . ومع ذلك فإن هذا الكتاب المقدس نفسه (القرآن)، على مر الزمن، هو الذى سيحد من ازدهار عبقريتهم(!) ، فى حين كان هو السبب الأول فى اتحادهم ومن ثم نجاحهم. ولو أن كان لدى العرب – مثلما كان لشعوب أوربا – تلك الميزة التى لاتقدر بثمن، ميزة الحصول على ديانة محبذة للفنون وللمعارف النافعة(كذا!) لكانوا قد أثروا وطوروا كل فروع الفلسفة . فلقد ظهروا فى البداية حاذقين مهذبين، وقفزوا قفزات واسعة فى مجالات الشعر والعمارة والطب والهندسة والطبيعيات والفلك، ولقد حفظوا ونقلوا إلينا عددا كبيرا من المؤلفات الخالدة ، كان من شأنها أن تجلب أضواء المعرفة إلى أوربا، لكن الديانة الإسلامية لا تهيئ مطلقا مثل هذا التطور الروحى والعقلى(!!) . وهكذا أصبح محتما على العرب إما أن ينكصوا عن ديانتهم ، وإما أن يعودوا إلى جهالة أجدادهم (كذا وبكل وضوح !) ، فهم يجهلون بشكل خاص فن الحكم، وكل مايستخدم فى تأسيس ودعم الامبراطوريات، فحتى البربر الذين اتحدوا معهم وعانوا من سوء استخدامهم للسلطة لم يستطيعوا بعد اعتناقهم الإسلام إلا أن يزدروا هم أيضا الفنون والعلوم والصناعة وكل اختراعات الغرب(!) .

لقد قدمت مصر المسيحية نفسها بنفسها ، بعد أن كانت قد مزقتها الانشقاقات الدينية لوقت طويل، لتدخل تحت سطوة الخلفاء الأول، واقتسمت بذلك نفس المصير الذى جرى على كل الولايات الإسلامية . هكذا تخلص الأقباط من

(*) سوف يظل المؤلف يقدم من المغالطات التاريخية ما يستخف حقا بالعقول، فالنصر الذى أحرزه العرب، ثم المسلمون بعد ذلك أيام الحروب الصليبية، يعود إلى سلبيات فى صفوف الخصم وليس إلى إيجابيات فيهم، ولكن حتى هذه الفكرة المغلوطة نفسها لاتلبث أن تقع فى تناقضات من صنع المؤلف . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الروم حين استدعوا الغازى، لكنهم سقطوا بعد ذلك فى الهوان والإذلال، وتناقصت أعدادهم إلى حد كبير. ولقد حدث فى بداية هذا التطور أن دمرت حماسة المسلمين القدر الضئيل من الثروات الأدبية الذى كان لايزال باقيا بالأسكندرية، فالكتب التى كان البطالمة قد جمعوها فى هذه المدينة أوجلبوها من كتب ملوك برجام Bergame(*) كانت قد هلكت فى الجزء الأكبر منها أثناء حملات قيصر وخلفائه، كما أن ضروب العنف من كل صنف والتى كانت تتجدد طيلة ستة قرون، وسط حروب مستمرة أو اضطرابات يفضى إليها الجدل الثيوقراطى، كان كل ذلك قد أتى على مستودعات معارف العصور القديمة، ومستودعات أخطائهاكذلك(**) .

ولقد استشعرت مصر أثر الأسباب التى تقسم امبراطورية العرب منذ نشأتها، فلم تتردد مطلقا فى أن تصبح ولاية مستقلة. وأسس الخلفاء المسمون بالفاطميين عاصمة لهم فى مدينة القاهرة ، التى كانوا قد بنوها وزينوها ببعض المنشآت العامة، لكن دولتهم قد دالت على يد صلاح الدين الشهير الذى كانت أعماله الباهرة بمثابة نذير لأوربا، والذى حكم مصر وسوريا لمدة طويلة. وقد تسبب هذا التطور فى حدوث حركات تمرد وفى انتقامات، وتلته تغييرات هائلة فى الممارسات الدينية وفى نظام الحكم، لكن قيام دولة المماليك وضع نهاية لهذه الأسرة الحاكمة (الأيوبيين) . فمنذ وقت طويل كان الخلفاء والحكام يعهدون بمهمة الدفاع عن دولهم ، وبمهمة حماية أشخاصهم إلى رجال وجنود أغراب، تنتمى أصولهم إلى غرب آسيا ، ولقد أساء رؤساء هذه الفرق العسكرية - الذين دفعوا بلا روية لاحتلال المراكز العليا فى الدولة، وتحت تعلات مختلفة - استخدام سلطة سادتهم، وأصبحوا (فى النهاية) مستقلين . إن أحداثا من هذا النوع هى التى أصبحت أحد الملامح المميزة لتاريخ الشعوب الآسيوية، كما أن التمرد الذى أودى بحياة آخر

(*) مدينة فى آسيا الصغرى ، وكانت بها مكتبة شهيرة . (المترجم) .

(**) بينا فى الجزء الثالث من الترجمة العربية، فى الدراسة الخاصة بمدينة الأسكندرية كيف أن الكثير من الأوربيين أنفسهم لايقرون فكرة حرق العرب لمكتبة الأسكندرية . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خلفاء صلاح الدين كان له دويه في أوربا . فقد كان الأمراء الصليبيون شهودا عليه، ومع ذلك فقد كانت هناك، في مصر، أحداث مماثلة طيلة أربعة قرون خلت، وظلت هذه البلاد الجميلة، بعد انتهاء الأيوبيين، خاضعة لعبيد عسكريين، ولدوا فيما بين بحر قزوين والبحر الأسود . ويمكننا القول بأن حكومة الأمراء المماليك لم تكن لا وراثية ولا انتخابية، ففي بعض الأحيان، كان المنشأ يضع إنسانا ما في مركز الصدارة ، ومع ذلك فقد كان قاتل الأمير هو في معظم الأحيان خليفته . وكان هناك عدد من الثورات أو أحداث التمرد تعادل عدد العهود (التي تعاقبت على مصر) ، وكان هناك كثيرون يتصارعون على السلطة ، في نفس الوقت ، ويدعونها لأنفسهم في سوريا وفي القاهرة أو في الصعيد . ولقد حكم بعض زعماء هذه الفوضى بتألق، وحين استولوا على سوريا أذلوا كبرياء المغول، ودفعوا الأوربيين، وحملوا أسلحتهم الظافرة إلى اليمن وجزيرة قبرص وأرمينيا، لكننا لا نلحظ في كل هذه الأحداث سوى ملامح الجرأة ، والرغبة في الثأر، والمخاتلة ، والجهالة ، والطموح المتوثب . ومع ذلك فليس باستطاعتنا أن ننكر أن الدين الإسلامي، إن لم يكن قدخفف من آلام وأحزان هذه الأيام، فقد ولّد في نفوسهم الضعيفة بعض المشاعر الإنسانية ، وأوحى لكل من الحاكم والرعية بأعمال مشرفة.

ومن بين كل الأسباب التي عكرت صفو فلسطين ومصر، لا نجد سببا أكثر تأثيرا من حملات الأوربيين ضد هذه البلاد ، ومع ذلك فإن هذه الحملات ذائعة الصيت، والتي هزت طوال قرنين كل أمم الغرب، لم تحقق أيا من النتائج التي كانت هذه الأمم ترغب فيها، ولقد سببت الكثير من الاضطرابات التي استمرت لزمان طويل، وإن كانت في نفس الوقت قد شحذت عبقرية التجارة، ووسعت آفاق الرؤية ، وضاعفت من عمليات الصناعة والملاحة، وأدت في دول عديدة إلى سقوط النظم والحكومات الإقطاعية ، حين دعمت من سلطة الملك ومن الحريات المدنية، في نفس الوقت الذي أعلت فيه من المكانة السياسية لروما إلى درجة لم تستطع أن تتوازن عندها .

ولقد حدث أن استولى مائة ألف فارس- دون جدوى- على دمياط، وعندما واصلوا زحفهم فى وقت غير موات ، حصرهم المسلمون بين ترع رافدة عن النيل، وحيث قد اضطروا للتسليم فقد تخلوا عن انتصارهم. وبعد ثلاثين عاما من ذلك ، أدت نفس الأخطاء إلى نفس النتائج مسببة آلاما أكبر، فلقد قاد لويس التاسع - شرف عصره، والذى مارس على رعاياه بل وعلى أعدائه، السلطة الطبيعية التى تمنحها الفضائل الكبرى - قاد ستين ألف مقاتل إلى ضفاف النيل. كان قد اجتاز البحر المتوسط مع ١٨٠٠ سفينة، وكان تحت إمرته صفوة أبناء فرنسا ، وبعد أن استولى على دمياط بوقت طويل، بدأ يتوغل إلى أعماق الدلتا ، فحاصره المماليك فى معسكره ، حيث انتشرت الأمراض المهلكة، وقطعوا اتصالاته مع السواحل، وعندما فقد الملك كل أمل أمر بالانسحاب، لكنه لم يستطع تنفيذه. وكان بقية الفرنسيين على وشك أن يهلكوا والسلاح فى أيديهم، حين أعلن أحد الأبطال وسط المذبح - إما من تلقاء نفسه، وإما لأنه قد تلقى أمرا بذلك - أنه لم يعد بالإمكان إنقاذ حياة الملك إلا بالاستسلام للأسر، ثم سقط فى الأسر الملك نفسه ، وهو الذى لم يشأ مطلقا أن يدع مؤخرة جيشه فريسة فى يد أعدائه، ويعرف الجميع بأية عظمة عسكرية شرف هذا الملك أسره(!) ، وبعد ذلك افتدى رجاله، وقدم دمياط فدية لنفسه ثم أبحر إلى عكا بفلسطين .

فى هذه الأوقات كانت الأمم الأوربية تتساوى بالكاد مع الأمم الآسيوية، ولم تكن قد اكتسبت بعد مطلقا هذا التفوق فى القوة الذى يميزها اليوم، والذى نتج عن تقدم كل الفنون، أما عادات وسلوكيات الحرب فكادت تكون هى نفسها ، وهى هنا وهناك غير تامة، وهكذا كانت الشعوب التى وهبتها الطبيعة شجاعة تعز على الإخضاع، والتى كانت تتمتع بميزة الحياة فى ظل نظام أفضل، قادرة بالضرورة أن تزود عن نفسها بنجاح فوق أرضها هى (!) ، ولذلك أبادوا جيوشا لاحصر لها، وإن كانت مضطربة، كان الغرب يجددها بلا انقطاع على الرغم من فقده ملايين عديدة من أبنائه. لكن الأحوال الخاصة بالأمم قد تغيرت منذ القرن السادس عشر،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فطور البعض منها نظام الحكم المدنى، والتاكتيك العسكرى ، وتقدموا فى فن استخدام المدفعية ، وتكوين وصيانة وقيادة الجيوش . لكن الشرقيين، على العكس من ذلك، قد أهملوا كل الاختراعات التى تسهم فى نجاح الحروب ، أو هى لم تتقدم فى هذا المضمار إلا لمدى بالغ الضيق . هكذا كانت سطوة المعارف ونفوذ وقوة العادات العسكرية والفنون، لحد أن نفس هذه البلدان التى صدت شعوبها لمدة قرنين من الزمان جهود كل أوربا مجتمعة، لم يعد بمقدورها اليوم أن يدافع حكامها الحاليون ضد جيش واحد من جيوشنا، ولحد أن ممتلكات هؤلاء الحكام فى هذه البلدان نفسها لم يعد لها من ضمان سوى المعاهدات وسوى التناقضات القائمة والمتبادلة بين أمم الغرب الكبرى .

لم يعد يحكم مصر منذ بداية القرن السادس عشر ملوك مستقلون، فقد استولى عليها العثمانيون بعد أربعة وستين عاما من استيلائهم على القسطنطينية.

كان سليم الأول – والد السلطان ذائع الصيت سليمان الثانى – قد اعتلى العرش بواسطة الانكشاريين، كان تمردهم هو الذى منحه العرش، وحافظ عليه بقتله لوالده، وبعد ذلك أمر بإعدام إخوته قبل أن يتصدى لمشاريعه الواسعة فى آسيا، ولم يتردد مطلقا فى تهديد فارس ومصر وسوريا ، وسرعان ما استولى على القطرين الأخيرين اللذين كانا خاضعين لحكم سلاطين المماليك ، ولم يكن هؤلاء يتمتعون إلا بسلطة غير أكيدة ، كما كانوا بالكاد يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد خيانات صغار ضباطهم . خاض سليم معهم معركتين : أولاهما فى حلب ، حيث فقد السلطان قنصوه الغورى حياته، أما فى المعركة الثانية فكان خليفته طومان باى هو الذى فقد حياته على مسافة قريبة من القاهرة . لم تكن القوات العثمانية كبيرة العدد لحد كبير، وكذلك لم يكن المماليك قد تبنوا بعد استخدام البنادق ، وسلم آخر سلاطينهم للغازى وشنق تحت أحد أبواب المدينة. وجمع عدد كبير من المماليك وذبحوا أو ألقى بهم فى النهر، ولم تلبث الأسكندرية أن استسلمت، وامتلأت الشعوب المجاورة رعبا، وجاء شريف مكة ليقدم الهدايا إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سليم الذى أعلن نفسه حاميا ورئيسا وراثيا للإسلام، مؤكدا بذلك إرادته فى أن يجمع إلى القوة العسكرية السلطة الدينية ، كما أرسل الشاه إسماعيل الصفوى إلى القاهرة سفارة باذخة سعيا وراء السلام .

لكن موت سليم أوقف مسار انتصاراته، وساهم سليمان، ابنه، كثيرا - سواء بحروبه أو بسياساته - فى ازدياد نفوذ العثمانيين، وخصص سنوات عديدة لتنظيم الحكم الداخلى فى ولاياته، وتبعا لأوامر صادرة منه، وضعت الأنظمة الخاصة بمصر والتى لاتزال حتى اليوم تستخدم فى الإدارة الأقليمية لهذه البلاد . ومع ذلك فإن هذه الأنظمة تنسب فى بعض الأحيان إلى سليم، الذى يصح القول بأنه لم يساهم فيها على الإطلاق، ذلك أن سليما قد أنفق وقتا قصيرا فى مصر خصصه كله للحرب هناك، وعندما عاد إلى القسطنطينية لم تكن تشغله إلا استعداداته ضد فارس ووسط أوربا ، كان يفكر فى تدمير بغداد، ولم يتوقف مطلقا عند وضع الأنظمة وتنظيم الميرى فى مصر. ولقد نشرت وثيقة التسليم التى أبرمها المماليك معه، لكن قصاصة الورق هذه لا يمكن أن تحوز أى قدر من الثقة، فكل ما هو جدير بالملاحظة فى سلوكه السياسى هو تفاوضه مع شريف مكة، وكذا الحرص الذى أبداه فى أن يصحب معه إلى القسطنطينية خليفة العباسيين.

إن سليما الذى حصل على الاسم اللائق بكل من هو بشع وفظ ، والذى أرسل وزراءه إلى الهلاك لأنهم لم يحدسوا إلى أية جهة من العالم ينبغى عليه أن يبعث بجيوشه، والذى ظل يأمر طيلة سنوات عهده بإعدام أصدقائه وأعدائه دون تمييز، والذى كان قاتلا لوالده ولإخوته ولثمانية من أبناء إخوته - كان يربط الروحانيات بالقسوة . فليس هناك أى امبراطور عثمانى آخر قد ذهب به الحقد ضد الأديان الأجنبية إلى المدى الذى ذهب هو إليه، كان على وشك أن يرغم رعاياه المسيحيين على اعتناق الإسلام، لكن امبراطورية التقاليد سرعان ما عادت من جديد إلى التسامح مع الديانات الأخرى، وهو المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه الدول الإسلامية ، والذى لولاه لربما ما كانت قد تكونت إطلاقا . وقد أعطى سليم لمصر،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما أعطى لكل الولايات التى هزمها ، حكومة تنهض على دعامات من حاميات تركية، لكن العسكر بدأوا يتمردون، ويطالبون بزيادة رواتبهم، ويذبحون رؤساءهم، وسعى الباشوات إلى الحصول على استقلال تام. أما المماليك، فعلى الرغم من أنهم قد بقوا بأعداد ضئيلة، فقد حصلوا على ميزة كبرى ، استمدوها من ذكرى سلطتهم وسطوتهم ، ومن صلاتهم بالعربان وبالقوى المحلية . هذا هو أصل حالة الفوضى التى تكونت عقب الغزو، ولقد استمرت هذه الحالة حتى انتصرت شجاعة البكوات وجرأتهم على الانكشاريين الذين أغضبتهم رخاوة الجنود، ودعة حراس القلاع القاعدين.

وفى الوقت الذى كانت مصر وسوريا تخضعان فيه لسادة جدد، كانت الحالة السياسية، وكانت تجارة الدول تتعرض لقلاقل واسعة وغير متوقعة، وليست هناك فترة أخرى من التاريخ ذاخرة لهذا الحد بالأحداث الكبرى . كانت القوة العثمانية تنشر الفزع فى أوربا وآسيا، وكف الكثير من الدول الأوربية عن الاعتراف بسلطة الحبر الأعظم فى روما، وكان الإسلام يستشعر حاجة إلى ثورة مماثلة، وكان هناك مذهب جديد، رحب به الصفويون، يشق البلدان الإسلامية، وكانت فرنسا تستجلب الفنون الجميلة التى أضاءت سماء ايطاليا، وكانت أسماء فرانسوا الأول وسليمان وشارل تملأ العالم أجمع . وطورت أوربا ، ممارسة فى النهاية عبقريتها الخاصة ، أنظمتها المدنية ، وجعلت ممالكها قوية عن طريق إقامة جيوش ثابتة، وقطع فن الطباعة وكذا المعارف البحرية والعادات العسكرية أشواطا غير عادية من التقدم، وتعلقت كل العقول بالحملات التى قام بها كولومب وفاسكو دى جاما ، ولقد دهش البرتغاليون والأسبان عندما تلاقوا عند الطرف الأقصى لآسيا ، بعد أن كانوا قد خرجوا من موانيهم متبعين اتجاهين متضادين . كانت الرغبة فى الاستيلاء على تجارة الشرق هى التى بعثت على هذه الاكتشافات، وفى الواقع فقد كانت منتجات الهند الثمينة تتبع حتى ذلك الوقت طريقا غير معروف . وفقدت مصر - وهى التى كانت تتجمع فيها هذه المنتجات ، ثم تنقلها إلى مختلف بلدان أوربا وأفريقيا - تلك المميزات التى آلت إليها من مؤسس الأسكندرية، كما أضرت حملات البرتغاليين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالبنادقة على وجه الخصوص، أولئك الذين لم يستطع مطلقا حلف قوى من أمم عديدة أن يحطمهم، والذين كانوا موجودين عند كل منافذ التجارة، لقد وجد هؤلاء عظمتهم تضمحل وتغرب دونما رجعة، وأخيرا فسرعان ما تقطعت العلاقات التى كانت تربط ما بين عدد كبير من الدول والمدن .

وفى الوقت نفسه ، كانت العبقرية القلقة والطموح للأوربيين تؤسس علاقات جديدة بين أشد مناطق العالم تباعدا، واستخدموا - وهم جد مشغوفون باستعمال أدوات قوتهم الجديدة - البوصلة للتوجه فوق أراض مجهولة ، كما استخدموا الأسلحة النارية لترويض شعوب هذه الأراضى، وعثروا فى مناجم أمريكا على المعادن النفيسة التى كانت لازمة لمضاعفة المبادلات التجارية مع الشرق، كما جلبوا من أفريقيا سكانا لزراعة الممتلكات الجديدة .

أما البنادقة، فقد بذلوا - متحالفين فى ذلك أولا مع المماليك، وبعد ذلك مع الحكام العثمانيين - جهودا بائسة لتدمير المنشآت البرتغالية فى البحار الشرقية، وشرع الأولون فى نقل الاخشاب من دلماشيا إلى ضفاف النيل، ثم من هناك إلى السويس لبناء أسطول . وفى البداية أمكنهم أن يحصلوا على بعض الفوائد من جراء استخدام ضروب القوة هذه، لكن حملات السلاطين الغورى وسليم وسليمان لم تتمكن من إيقاف تقدم غزاة الهند، وإذا ما ألقينا بالا لما جاء بتقارير بعض الرحالة، فقد كانت مصر نفسها فى هذه الفترة ، مهددة بتطور أكثر دمارا ، بحيث لا يمكن أن يتلوه تطور آخر، إذ يؤكد هؤلاء الرحالة أن حكام الحبشة المتحالفين مع بلاط لشبونة، قد عزموا على تحويل مجرى النيل نحو البحر الأحمر ، ليجعلوا قاحلة إلى الأبد تلك الأراضى التى يغطيها النيل كل عام بفيضه السنوى . لقد كان فى الواقع أمرا لاجدوى من ورائه أن يلجأ فاتح جوا وملقا وهرمز إلى هذا المشروع الخيالى ، فلقد خدم بلاده بطريقة أفضل عندما حطم كل الأساطيل المعادية. ولقد توغلت سفن الملك ايمانويل تحت قيادة البوكرك وخلفائه فى البحر الأحمر حتى طرف الخليج، بحيث لم تعد هناك نقطة واحدة على شواطئ المحيط الآسيوى الواسعة لاتعترف بالسيطرة البرتغالية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد اقتضى الأمر أن يكون ظهور هذه القوة المتعاظمة لفترة قصيرة، ومع ذلك فقد كان لظهورها هذا أثره الهائل على أقدار الغرب . وفى واقع الأمر، فقد كان بمقدور العثمانيين - وقد أصبحوا سادة لمصر- أن يستحوذوا على ثروات الهند، وكان بوسع هذه التجارة أن تمنحهم أسطولا بحريا هائلا ، بالإضافة إلى كل المصادر التى يتطلبها تمويل الجيوش العديدة، وفى ذلك الوقت، كان يحكمهم حكام طموحون، مقاتلون وسياسيون، وكانت أوربا المنقسمة على نفسها تواجههم بمقاومة غير مؤكدة . ولو أن اكتشافات دى جاما لم تكن قد حرمتهم من مصادر زيادة القوة هذه، لربما كانوا قد غزوا الجزء الأكبر من الأقطار المسيحية، ولكانت هذه الدول، بالغة الازدهار وبالغة التمدن، تئن اليوم تحت سطوة أجنبية معادية للمعارف النافعة، وللفنون الجميلة على حد سواء.

وهكذا فإن بداية القرن السادس عشر تحدد بداية فترة مشئومة فى تاريخ مصر، فلم تعد هذه البلاد - بعد أن هزمت ونهبت وعزلت عن سوريا- تشكل دولة مستقلة، لقد تركت لشح الباشوات الطموح ، ثم سقطت بعد ذلك فى أتعس أنواع الفوضى . كان يساهم فى مهام الحكم هناك مجلس أعلى ، يتكون من أهم رؤساء الفرق العسكرية ، ويرأسه نائب الملك (الباشا)، وعهد بإدارة وحكم الأقاليم إلى كثير من البكوات المماليك التابعين لهذا المجلس (الديوان) ، والذين لم يكن يحق لهم أن يمارسوا سوى سلطة محدودة . وقد حملت نوبات العصيان والتمرد التى قام بها باشوات عديدون، ديوان القسطنطينية على تحبيذ نفوذ رؤساء الفرق العسكرية، وكان هؤلاء الأخيرون يكونون بيوتهم من العبيد الأجانب، الذين يعدون منذ شبابهم الباكر على استعمال السلاح، والذين كانوا فى معظم الأحيان يرتقون سلم الوظائف بالغة الأهمية.. وعند نحو منتصف القرن الأخير (الثامن عشر)، دفع إبراهيم ورضوان رئيسا الانكشارية والعزب عددا كبيرا من مماليكهما إلى وظائف الصدارة، وبعد أن وحدا مصالحهما، استوليا على الحكم، ولم يدعا للباشا إلا سلطة شكلية، لكنهما فى واقع الأمر قد سلباه ممارسة السلطة الفعلية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومارس على بك، الذى خرج من بيت إبراهيم، سلطة السيادة باسم حاكم العاصمة، وبعد أن عمل على قتل أعدائه ومنافسيه، وبعد أن دعم قوته بالصعيد، عمل على احتلال مدينة مكة، ونصب عليها من جديد شريفها السابق عبدالله، وسعى (على بك) لكى يحصل على اعتراف منه بأنه سلطان مصر، وشرع فى أن يقيم فى ميناء هذه المدينة منشأة ثابتة تتولى تجارة الهند . وسهلت مشروعات على بك تلك الحربُ التى كان على الباب العالى أن يخوضها ضد روسيا، بالإضافة إلى التمرد الذى قام به الشيخ ضاهر الذى كان معه حزب كبير فى فلسطين، فأرسل على بك قوات إلى سوريا، وأرغمت قواته بعد أن تحالفت مع قوات الشيخ ضاهر باشوات الألوية المجاورة على الفرار . ولكن سرعان ما أدت نصائح إسماعيل بك وإغراءات الباب العالى إلى تمزيق حزب على بك ، فانشق عليه معتوقه محمد بك (أبو الدهب) الذى كان قائدا لجيشه فى سوريا، وعاد إلى القاهرة . وبعد أن نفاه سيده لبعض الوقت، أمكن له (لمحمد بك) أن يكون لنفسه حزبا قويا، عندئذ ترك الصعيد ليستقر بالعاصمة . وانسحب على بك إلى حليفه الشيخ ضاهر، والتمس النجدات من روسيا، لكنه فقد قوته قبل أن تنتهى المفاوضات، فأسرع بالعودة إلى مصر بعد أن خذلته وأضلته الخيانات المحيطة به، وجرح فى إحدى المعارك؛ التى خاضها فى الصالحية ضد عبيده القدامى، ثم مات بالقاهرة متأثرا بجروحه .

بدا محمد بك أكثر خضوعا لأوامر الباب العالى، فحصل الضرائب، وبعد أن حصل على لقب باشا زحف إلى سوريا ضد ذلك العربى، الشيخ ضاهر العمر، وأمكنه الاستيلاء على يافا، ثم قاد جيوشه الظافرة إلى عكا، لكنه مات ميته شبه فجائية من أثر إصابته بمرض معد . وخلفه فى السلطان اثنان من مماليكه ، هما إبراهيم ومراد، فقلدا سلوك على بك (تجاه تركيا)، واستثير ضدهما بفعل الإغواء إسماعيل ، وهو الذى سبق له أن خان على بك ، فكون عصبة قوية كانت كافية لإرغام غريميه على ترك العاصمة. وبعد أن لجأ إلى الصعيد، توصلا إلى عقد صلح مع الكثيرين من بكوات الحزب المنتصر، ولم يتوانيا بعد ذلك فى تجريد إسماعيل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من السلطة، وعندئذ ارتكبا من المظالم المتضاعفة ما جعلهما أكثر بغضا من ذى قبل، وتملصا بكافة الوسائل الممكنة من الرضوخ لسلطة السلطان . عندئذ كلف حسن باشا – من قبل بلاط السلطان – بمعاقبة المتمردين ، فوصل إلى القاهرة مع قوات قليلة العدد، وأقصى إبراهيم ومراد، وأرسل إلى القسطنطينية جزءا من الأسلاب التى حصل عليها، سواء من أتباع الأميرين الفارين أو من الابتزازات التى ارتكبها. وحين استدعته الحرب التى نشبت من جديد مع روسيا، أنهى حملته بأن وهب البكوين جزءا كبيرا من الصعيد، أما حكومة القاهرة فقد تركها فى يد إسماعيل بك، لكن الأخير مات بالطاعون فى عام ١٧٩١، حيث حصد الوباء فى ربيع هذا العام ثلث سكان القاهرة، وقضى – بتأثير هذا المرض نفسه – على نصف المماليك المرتبطين بإسماعيل، وفقدت المدينة أكثر من ستين ألفا من أبنائها فى الفترة الواقعة ما بين السادس والتاسع من أبريل من نفس العام .

وهكذا استعاد إبراهيم ومراد من جديد سلطتهما بالعاصمة، على الرغم مما كانت تفرق بينهما من حزازات قديمة، فقد ربط بينهما الإحساس بمصلحتهما المشتركة، وانغمسا بعد ذلك فى أعمال عنف جموح، مزدريين أوامر السلطان، فارضين ضرائب جديدة عن غير روية أو بصيرة، وبدون مبالاة بأثر ذلك على التجارة والزراعة والصناعة، ومنتزعين الحبوب اللازمة لأقوات الفلاحين الذين هلك منهم عدد كبير بدون أن يتلقوا عونا من أحد.

لم يكن التجار الأجانب مطلقا بمنأى عن هذه المظالم، وتعرض الفرنسيون بصفة خاصة لمظالم ومغارم ظلت طويلا بلا عقاب، وبدا أن البكوات قد ظنوا أن الحالة السياسية التى كانت تمر بها فرنسا حينئذ هى مبرر لهذه الإهانات، كما كانوا– فيما يبدو – على ثقة بأن حكومتها الجديدة لن تكون فى وضع يسمح لها بأن تحصل على أية ترضية عن هذه الإهانات ، وفى واقع الأمر ، فإن الوفود التى أرسلت فى هذا الصدد إلى بلاط القسطنطينية كانت عديمة الجدوى، فهذه القوة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(تركيا) لم تبذل أى جهد لعقاب طغاة مصر ، أو لقمع سلوكهم العنيف المعادى لحلفائها، وتجددت الإهانات والابتزازات مما جلب الخراب لبيوتنا التجارية.

لم يكن من المستطاع مطلقا أن ندع هؤلاء، بدون أن نسلم للأمة المنافسة لنا (انجلترا) مميزات كانت لها فى معاهدات بالغة القدم، وبدون أن نقدم مثالا على ضعف (من جانبنا) قد يغدو قاتلا بالنسبة لكل المؤسسات الفرنسية. لقد كان الأمر إذن يقتضى منا إما أن نرضى عن طيب خاطر بأن نستبعد عن تجارة الشرق، ونتسامح فى المظالم التى تلحق بنا، وإما أن نجد أمننا فى ممارسة قوتنا الذاتية.

كانت هذه هى الظروف التى دعت الفرنسيين إلى المجئ إلى مصر، وهكذا أصبحت هذه البلاد مسرحا لواحدة من أهم الأحداث الكبرى فى التاريخ الحديث. وتضاف إلى الدوافع التى انتهينا من ذكرها تلك المزايا التى يعد بتحقيقها قيام مؤسسة ثابتة لنا فى المشرق، مع الأمل فى توافق يتم مع الباب العالى ، ما أن نبصره بمصالحه الحقيقية، مع تقديم كل الضمانات التى يمكن له أن يطلبها .

وفى الواقع، فقد كان يمكن لإسهام فنون أوربا، بالإضافة إلى قيام حكومة منظمة فى مصر ، أن يغير على وجه السرعة من الأوضاع هناك . كان يمكن للزراعة إذا ما رعتها إدارة مستنيرة أن تحرز هناك - فى وقت قصير - قفزات هائلة، فمن المعروف أن خصوبة أرض مصر، تتجدد من تلقاء ذاتها بفعل الفيضانات السنوية، فى حين ترتكز أعمال الزراعة بصفة أساسية على نوبات الرى، لكن توزيع المياه اليوم غير منتظم وغير تام، فقد شقت الترع التى تجلب هذه المياه دون تبصر أو حذق، وهكذا تصل المياه فى مناطق بعينها بوفرة تزيد عن الحاجة ، فى الوقت الذى تظل فيه مناطق أخرى تتعرض لجفاف طويل، وفى مناطق ثالثة يؤدى حفر روافد أنشئت عن غير ترو إلى إضعاف مقاومة مياه النيل تجاه مصابه ضد مياه البحر، ويكون من أثر ذلك أن تتحول فجأة إلى مساحات رملية لا نفع فيها أراض ثمينة كانت توفر حتى ذلك الوقت أفضل الحاصلات. ولا

يتم رفع مياه الرى هناك إلا بواسطة بعض الماكينات الخشنة، وأثر هذه بالغ الضآلة بالغ التواضع، وعن طريق تعرض الحيوان أو بالأحرى الإنسان ذاته لصعوبات ومتاعب متزايدة. وحيث إن المقاطعات المختلفة - وسط ظروف الاضطرابات السياسية - لم تكن تخضع لإدارة موحدة، فقد كان يحدث فى معظم الأحيان أن يتصرف القوم فى المياة بدون روية، وهكذا كانت تحول مجارى المياه، وتجفف الترع ، وتفتح الجسور بدون سند من أى حق، وهكذا أيضا لم يستطع القوم أن يفيدوا مما حبتهم به الطبيعة، واستخدموا كل حذقهم ليستحوذ عليها كل منهم لصالحه بالتبادل . كان يمكن تحاشى هذه الفوضى عن طريق توزيع للمياه أكثر انتظاما، وهو الأمر الذى كان سيزيد - فى وقت معا - مساحة الأرض القابلة للزراعة، وكذا خصوبتها. وقد يكون من اليسير أن نروى الأماكن الأكثر ارتفاعا، بوضع نظام أفضل لعمل الحيوان، بل ربما بدون اللجوء لعملها على الإطلاق، وذلك إما بأن نرفد (الترع والقنوات) من المياه العالية ، وإما باللجوء إلى القوى الميكانيكية التى تنتج عن الرياح أو عن مجرى النهر ذاته.

وبخلاف القمح والأرز، ومختلف نباتات المحاصيل والفواكه من كل نوع ، التى تنتجها مصر بوفرة، فمن الممكن الحصول على فوائد أكبر من ذلك بكثير عن طريق زراعة قصب السكر والكتان والنيلة، كما يمكن لهذه البلاد أن تمد أوربا بالنطرون الذى يتكون من تلقاء نفسه فوق سطح أرضها، وكذلك بأجمل مواد الصباغة والعطارة والعطور بمبالغ ضخمة، وبالبن والعطور القادمة من الجزيرة العربية، وبالتبر (تراب الذهب) والعاج وكل المواد التجارية الأخرى الواردة من أفريقيا . أما النباتات الوطنية - بمعنى الكلمة - فهى قليلة العدد، وإن كانت هذه الأرض الخصيبة والتى تتدرج حرارتها اللطيفة بدءا من البحر حتى حدود النوبة، يمكن أن تدخل فى عداد البساتين الفسيحة ، القادرة على أن تستوعب وأن تحفظ أثمن منتجات العالم .

تلك هى المزايا الطبيعية التى لمصر ، والتى لم يكن من المستطاع إفناؤها ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولو بفعل سطوة طويلة لإدارة بالغة السوء، فلا يزال الناس هناك يستمتعون حتى اليوم بثروات الزراعة والصناعة والتجارة، كما أن القاهرة، من جوانب كثيرة ، تعد مدينة ثرية ، ويبلغ عدد سكانها أكثر من ٢٥٠ ألف نسمة ، كما تحتفظ بعلاقات متزايدة مع الجزيرة العربية وكل وسط أفريقيا ، وكذلك مع تركيا وفارس والهند وأهم بلدان أوربا . لقد حولت الاكتشافات البرتغالية طريق التجارة عن الأسكندرية، ومع ذلك فقد ظلت الاتصالات مع الهند مستمرة ، إما عن طريق البحار الشرقية وإما عن طريق البر، وهكذا احتفظت مصر بكل عناصر عظمتها القديمة، كما ظلت هذه بذورا تعد بازدهار جديد، سوف ينمو بشكل سريع لو أن قد خصبتها عبقرية أوربا ، وحسن إدارة حكومة عاقلة وقادرة .

أما عن خواص الطقس، فقد لايكون بالإمكان أن نُعَرِّف بها إلا عن طريق عرض مفصل لا يتفق مطلقا مع طبيعة هذه المقدمة، لكننا نكتفى هنا بالقول بأن ملاءمة هذه البلاد (للصحة) لا يمكن أن توضع موضع ارتياب، ويتطابق مع هذه النتيجة كل تاريخ مصر، وكذا التجربة الحاسمة للجيش الفرنسى (هناك) ، كما تتفق مع الوضع الراهن لتعداد السكان، حيث يعيش نحو مليونين وثلاثمائة ألف شخص، منتشرين على مساحة ١٨٠٠ فرسخ مربع.

وكان من بين أعظم المنجزات التى يمكن لاحتلال مصر أن يحققها ، هو ما يتمثل فى ربط الخليج العربى (البحر الأحمر) بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق قناة ملاحية، وهو مشروع نال شهرة واسعة منذ زمن طويل، وكان يمكن له اليوم أن يتحقق باقتدار. وفى الواقع، فمهما يكن المستوى المتبادل لمنسوب البحرين، ومهما تكن النتائج التى تم التوصل إليها عن طريق ما سبق القيام به من أعمال تتصل بنفس هذا المشروع، فلعل من الميسور على المهندسين الأوربيين أن يقيموا مثل هذا الاتصال ، وأن يحافظوا عليه . ويمكن القول بأن هذا الاتصال سوف يقرب الأقطار الشرقية بتلك التى تقع على ضفاف البحر المتوسط، وبدون أن نغير كلية من طرق التجارة الحالية ، فإن هذا الاتصال سوف يؤثر على علاقات أوربا بالهند

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والجزيرة العربية وأفريقيا، ويمكن لنا أن نقارن هذه النتائج (المتوقعة) بتلك التغييرات التى تمت، فى اتجاه مضاد، بعد الحملات البحرية للبرتغاليين.

ومن جهة أخرى، فإن لمصر - التى تتجمع فيها كما لو كان من تلقاء نفسها، ثروات الزراعة وثروات التجارة - مزايا أخرى لا يمكن أن تتوفر مطلقا فى أية مستعمرة أخرى بعيدة، إذ لايفصلها عن فرنسا سوى بحر قليل الاتساع، تبدو الملاحة فيه كما لو كانت حكرا لهذه القوة ولحلفائها الطبيعيين، كما أن مصر تدخل ضمن نطاق نظام للدفاع المشترك عن الجزر المجاورة لايطاليا ، ولتلك التى تقع بالبحر الأدرياتيكى والأرخبيل، بالإضافة إلى أنها لا تتعرض مطلقا لغزو غير متوقع، ولا يمكن أن تهاجمها إلا قوات هائلة ، بحيث إنه لو أمكن لتلك القوة الأوربية (فرنسا) التى احتلت مصر منذ وقت طويل، أن تظل على علاقة حميمة بالباب العالى، وأن تحصن هذه المنشأة (المستعمرة) لكان بمقدورها الاحتفاظ بها. وبالإضافة إلى كل هذا، فإن هذه البلاد توفر للفرنسيين ميزة بالغة الأهمية ، هى حصولهم على موقع متوسط، فحين يجد الفرنسيون أنفسهم على أبواب آسيا فسيغدو بإمكانهم من هناك أن يهددوا على الدوام ثروات وممتلكات أمة معادية (انجلترا)، وأن ينقلوا القلاقل، بل والحروب، إلى نفس مصادر ثرائها.

وسوف تحقق العلاقات التى سرعان ما ستنشأ بين مصر (كمستعمرة فرنسية) وبين المؤسسات القائمة فى الجزيرة العربية وفارس والهندستان وأفريقيا، مزيدا من المبادلات التجارية ، مما يعود بأكبر الفوائد على فرنسا والشعوب التى تمارس الملاحة فى البحر المتوسط، وبذلك نستطيع أن نحترف تلك المهنة الرابحة التى يدين لها البنادقة بثرواتهم ، والتى منحتهم لوقت طويل قوات بحرية تفوق القوى البحرية لمعظم دول الجنوب، فى حين توقف كل ذلك على الفور حين تغيرت مقادير مصر.

وفى الواقع فقد كانت تجارة الهند مع الدول الأخرى تتم مبادلة بالمعادن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النفيسة، وهذه صلات مستمرة منذ وقت لا تعيه الذاكرة، ولقد كان على كل الدول الثرية أن تدفع هذه الضريبة عندما كانت تدفع ثمنا لمنتجات الشرق كمية هائلة من الذهب، وبخاصة الفضة ، التى كانت تتكدس هناك دون سبيل لاستعادتها . ومع ذلك فقد استطاع البنادقة - فيما يبدو - أن يقيموا مع هذه البلدان علاقات من طبيعة مختلفة، وكانت مصر - وقد أصبحت بالنسبة لهم المستودع الرئيسى لثروات العالم أجمع - تحصل، بالإضافة إلى الأخشاب والمعادن النافعة، على أشياء من منتجات مصانع هذه البلاد نفسها ، وكان البنادقة يستجلبون منها السلع الثمينة التى تنتجها الهند والجزيرة العربية وسوريا وفارس، ثم يوزعونها على كل أنحاء أوربا .

وهكذا لم تعد مصر مفيدة بما تملكه فقط ، بل هى نافعة بما ينقصها كذلك. ومن المؤكد أن بوسعنا أن نصنع فى هذه المستعمرة الأقمشة النفيسة، والأجواخ الناعمة ، والخمور ، بالإضافة إلى منتجات صناعية متنوعة، وقد ننقل إليها الحديد والرصاص، وعلى وجه الخصوص الخشب الخاص بإنشاء المساكن وبناء السفن، ونستطيع بشكل جزئى عن طريق هذه المبادلات أن نحصل على أثمن سلع الهند، ونتزود بها كذلك عن طريق اتصالات مباشرة. وبخلاف الموانى التى ستفتح أو ستنشأ على شواطئ البحر الأحمر، فقد نرى قيام منشآت أخرى فى مختلف مناطق هذا الطريق التجارى المؤدى للهند، تجعل الملاحة أكثر يسرا وأكثر أمانا، حيث تتبادل هذه المنشآت الدعم فيما بينها .

ولسوف نستطيع كذلك (لو تحقق كل ذلك) أن نسموا إلى اعتبارات أكثر عمومية وشمولا ، وأن نحدس النفوذ الذى قد تمارسه مستعمرة فرنسية ، لها مثل هذا الموقع المناسب ، على ظروف وأحوال البلدان المجاورة، وستكون الجزيرة العربية وسوريا من أوائل البلدان التى ستفيد من المزايا التى ستتحقق من وراء ذلك. فسوف تتمتع التجارة هناك ومنذ البداية بأمن ظل مجهولا حتى هذه اللحظة، وسوف تعرف الزراعة والصناعة ازدهارا جديدا ، وقد نستطيع عقد تحالفات مفيدة ودائمة مع فارس وممالك آسيا الأخرى، وسوف نتوغل من كل جانب إلى داخل

قارة أفريقيا الواسعة، وسوف نكتشف الأنهار التى تجرى داخلها، وكذا الجبال ومناجم الحديد والذهب التى تحتويهما بوفرة، وفى النهاية فسوف يكون بمقدورنا أن نأمل فى أن حكومة مصر ستعمل جاهدة على أن يسود الأمن والنظام على سواحل أفريقيا الشمالية، وذلك بجعلها السكان هناك يخضعون لإدارة أكثر إنسانية وأكثر حكمة، عندئذ سوف يكون البحر المتوسط ، للأبد ، قد أصبح بحرا فرنسيا، فى حمى من غارات القراصنة.

من كل ذلك نرى كيف يختلف إنشاء هذه المستعمرة الجديدة على طرف بحر ضيق ومجاور، وفى واحدة من أجمل بقاع العالم، عن هذه المغامرات البعيدة التى تسعى لخلق منشآت باهظة التكاليف، معرضة لكل الاحتمالات والشكوك التى تجلبها الحرب، والتى لا يمكن الاحتفاظ بها حتى فى وقت السلم دون أن نضاعف من ضحايا المناخ غير الصحى (هناك). ولن نكون بحاجة على الإطلاق أن ننقل إلى هناك (إلى مصر إذا أصبحت مستعمرة فرنسية) مزارعين أجانب باعتبارهم عبيدا، بل إننا - بعيدا عن ممارسة أى عنف ضد الأهالى هناك - قد نعيد كل ماسلبته منهم حكومات رعناء ومستبدة.

وعلى هذا فقد كان المشروع الذى نعرض له الآن يستحق فى واقع الأمر التأمل من جانب رجل دولة، فليس فى هذا المشروع إلا ما هو نافع ومجيد، كما أنه مناسب لحلفائنا ، ويضمن للشعوب المجاورة مقادير أفضل، وسيوحد بين الفوائد السياسية التى ستتحقق لوطننا والمصالح الحقيقية للأمم الأخرى، وهو أمر لا يقدر بثمن.

لكن الأحوال فى أوربا لم تسمح لمصر مطلقا بأن تحصل على العطايا التى وعدت بها، ومع ذلك فإن ذكرى الحملة الفرنسية لن تمضى مطلقا دون أن تؤتى ثمارها، ولسوف تعرف حكومة القسطنطينية كل المزايا التى كان بمقدورها أن تحصل عليها لو أنها أعطت لهذا الإقليم إدارة أفضل، كما ستتبين بكل سهولة أية مرام أو نوايا كانت ترمى إليها تلك القوى الأوربية التى سعت لإعادة تثبيت سلطة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المماليك، فلا يمكن أن تكون هناك وسيلة أكثر ضمانا لحرمان مصر من الميزات الخاصة بها إلا بإعادتها إلى طفاتها الأول، أولئك الذين يتساوى عداؤهم للصالح العام بعداوتهم للسلطة الشرعية، وأخيرا فإن البلاط العثمانى سوف يغترف نصائح مفيدة من السفر الذى ننشره اليوم، وسيكون بمقدوره أن يلجأ إلى فنون الغرب، وأن يستخلص من هذه الموسوعة نفسها القدر الأكبر من النتائج التى تؤكد له ما قدمته جيوشنا من إسهامات، وأن يضع موضع التطبيق تلك النوايا الطيبة التى كانت فرنسا قد كونتها.

وإذا سعينا الآن إلى تمييز الوسائل التى يمكنها أكثر من غيرها أن تسهم فى نجاح هذه الأهداف، فلسوف ندرك كم كان مهما أن نمهد السبل لتقديم العلوم والفنون، إذ لا يمكن فى واقع الأمر أن تكون هناك ظروف أخرى أكثر إلحاحا من تلك لتطبيق العلوم والفنون . كان من الضرورى أن نثرى الزراعة ، وأن نتوسع فيها، وأن يدرس مجرى النهر ، وأن تخضع الزراعة لخطة شاملة، وأن نعمل على اتصال البحرين ، وأن نؤمن الملاحة فى الخليج العربى، وأن تنشأ الترسانات البحرية والموانى.. كان ينبغى أن نرقب طقسا يكاد يكون مجهولا (بالنسبة لنا فى أوربا)، وأن نمتد بأبحاثنا فى مجال التاريخ الطبيعى والجغرافيا لتشمل البلدان المجاورة، وأن ندير التجارة، ونطور المنسوجات والصباغة وطرق استغلال النطرون وتصنيع السكر وملح النوشادر والنيلة، وباختصار أن نخلق صناعة جديدة وأن نضع فى خدمتها كل اكتشافات أوربا.

وهكذا أثيرت فكرة اصطحاب العلوم – التى تمثل المعرفة الشاملة – إلى وادى النيل ، بعد أن نفيت عنه لوقت طويل ، كانت هذه الفكرة تستوحى الأمجاد القديمة لطيبة وممفيس ، واستقرار آلهات الفن والعلم والأدب الإغريقية فى عاصمة خلفاء الاسكندر، كما عرفت بشكل أفضل فائدة ومدى نطاق المشروع الذى كنا على وشك تحقيقه. وبعيدا عن أن نتقبل فى العلوم تمييزا لا يتفق مع تسامى الغايات ، فإن أولئك الذين يستعينون بها للإسهام فى انتصاراتهم لم ينظروا إليها (العلوم) إلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باعتبارها تنتمى جميعا إلى نفس العائلة . لقد أراد القائد أن نستزرع فى وقت واحد كل فروع الآداب والفلسفة ، ولجأ إلى العلوم الرياضية التى تشكل مبادئ دقيقة فى كل المجالات بالغة الأهمية، كما لجأ إلى العلوم الفيزيائية التى تهدف إلى دراسة و وصف الطبيعة، كما التجأ إلى الفنون ذات الفوائد المباشرة والمحسوسة، وكذلك إلى تلك التى لا تقل عن ذلك قيمة ، والتى تساهم فى تألق الحكومات ، وتمدنا بأنبل مباهج الأرواح والعقول. وكان يمكن لمصر فى وقت قصير بفضل هذه الإدارة الحكيمة ، لا أن تصبح مستعمرة فرنسية فقط، بل بشكل ما إقليما فرنسيا، وأن تقدم لسكانها الجدد صورة من وطنهم هم .

لقد كانت تلك هى الاعتبارات التى أوحت بمشروع إقامة هيئة علمية فى عاصمة البلاد التى ذهبت جيوشنا لإخضاعها. ولقد انتهينا للتو من تذكر مختلف عصور تاريخ مصر ، بالإضافة إلى الوقائع التى سبقت الحملة الفرنسية ، كما استعرضنا المرامى والأهداف التى تعهدنا بمقتضاها هذه الحملة وأدرناها، ويلزمنى الآن أن أقدم إلى القارئ الظروف الأساسية لهذا الحدث الكبير.

كان الفرنسيون الذين وجب عليهم أن يسهموا فى هذه الحملة قد حشدوا فى نقاط مختلفة على سواحل البحر المتوسط، لكنهم كانوا يجهلون الهدف الذى سيقادون من أجل تحقيقه، وأبدوا فى هذا الخصوص تخمينات بالغة التعارض. لكن التوقد العسكرى وحمية الشباب ، بالإضافة إلى عدم اليقين، كانت تجعل القلوب تخفق بشدة، وإن كان ظهور فاتح إيطاليا قد أوحى بثقة تامة وعامة، كان اسمه وحده كفيلا بأن يثبت الأمانى كأنها بالفعل قد تحققت.

وبعد أن خرج الأسطول الفرنسى من خليج طولون وانضم إلى الفرق التى تشكلت فى موانى ايطاليا، توقف فور رؤيته لمالطة التى كانت حكومتها قد أعلنت نفسها منذ وقت طويل فى حالة عداء معنا، لكن هذه الجزيرة التى هوجمت بشدة لم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تبد إلا مقاومة ضعيفة لا طائل من ورائها، وسرعان ما أذعنت وأقيمت بها حامية فرنسية، وكانت ثمانية أيام بالكاد قد انقضت منذ ظهرت سفننا أمام مالطة، ثم تقدم هذا الأسطول الضخم سريعا نحو مصر. وحين وصلنا إلى ساحل الأسكندرية، كان البحر يضطرب بقوة وعنف مما جعل دخولنا أمراً عسيراً ومع ذلك فقد كان أدنى تأخير يمكن أن يصبح كارثة مميتة ، وسرعان ما تم الإنزال، وزحفت فرقة من القوات الفرنسية على الأسكندرية قبل انتهاء الليل، وكان القائد العام نفسه على رأس الصفوف، وأبدى السكان مقاومة حامية وعنيدة ، ولم نستطع عندئذ إقناعهم بأن هذه الحرب موجهة فقط ضد المماليك ، وليس ضد رعايا السلطان المخلصين . لكن أية عقبة لم تكن لتوقف حمية قواتنا، فاخترق جنودنا المدينة واستولوا عليها، وعندئذ مارس المنتصر سلطة وصاية، وقدم إلى الأهالى السلام والأمن، واستقبل بترحاب رسل القبائل البدوية، أو الـ Scénites الذين يسكنون الصحراوات المجاورة.

وفى هذه الأثناء كان هناك أسطول معاد يعبر مختلف مناطق البحر المتوسط، وظهر أمام ميناء طولون بعد أن كنا قد غادرناها ، ثم ظهر فى مالطة بعد رحيلنا، وبعد ذلك ظهر فى الأسكندرية قبل مجيئنا، ثم ابتعد ليمسح الخليج فى نفس الوقت الذى كان الجيش الفرنسى فيه يخترق الصحراء متقدما نحو العاصمة.

لقد جذبت الأحداث العسكرية التى أصبحت هذه البلاد عندئذ مسرحا لها، انتباه العالم أجمع، فقد انتشر خبرها على الفور فى الشرق وأفريقيا، وتملكت كل النفوس فى أوربا حالة من الترقب، وأخذ الناس يرقبون إلام تؤول المغامرة ؟. ولقد أثارت أمارات الشجاعة والصبر المتضاعفة والتى ميزت هذه الحملات ، وكذا المخاطر التى كان الجيش الفرنسى يتعرض لها بدون انقطاع، والمتاعب التى لا سبيل إلى شرحها والتى ظل يواجهها، وكفاءة القواد وتضحياتهم- أثار كل ذلك فى فرنسا إعجابا وعرفانا عامين. ولم يكن هناك شخص واحد لم تهزه جدة وحداثة الظروف الغريبة للغاية على أجوائنا ، أو هذا الإسهام غير المعتاد من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جانب أحداث الحرب الباهرة فى الاكتشافات الحاذقة ، وبصفة خاصة هذه الأوضاع العسكرية والمدنية والسياسية الكثيرة التى فرضت على القائد العام مهمة أن يغزو وأن يحكم فى نفس الوقت.

لا تسمح لنا طبيعة هذه المقدمة إلا بالإشارة إلى تسلسل هذه الأحداث، ومن شأن التاريخ وحده أن يتصدى لها ، وهذه معروضة بكل فخار واعتزاز فى مراسلات وروايات حملتى مصر وسوريا . وكان واضع هذه الدراسات المتألق - وهو الذى كان أمينا بصفة مباشرة على أفكار ومرامى القائد العام - يقود كل التحركات، ويحدس كل العقبات، ويسهم بفخار وعظمة فى كل النجاحات، وهكذا اكتسبت صروح الشرف الفرنسى - التى تولى بنفسه نقلها إلى الأجيال المقبلة - مزيدا من الصدق والأصالة ، ومزيدا من التألق فى وقت واحد .

وما أن تم إخضاع الأسكندرية حتى توغل جيشنا فى أعماق مصر، وأصبحت رشيد فى حوزتنا ، وأخذت سفننا المسلحة تصعد النهر، ويقدم تاريخ هذه الحملة سلسلة متوالية من التقدم السريع والمعارك والنجاحات، ولم يستطع أن يبطئ من الاندفاع الجسور لقواتنا ، لا لهيب الصحراء ، ولا النقص التام للمياه وللمؤن فى منطقة قاحلة ومجهولة بالنسبة لنا . لقد تشتت العربان، وخسر المماليك معركتين نظاميتين، واحتل مكان الثقة العمياء التى كانت لديهم كل من الفزع واليأس، فتركوا القاهرة، وهكذا كانت عشرة أيام كافية كى تحسم قدر مصر . أما مراد وإبراهيم فقد انفصل كل منهما عن الآخر، كانا قد فقدا سلطتهما ، لكن عداءهما لنا قد استمر، ولاذ أولهما - وهو أكثر ميلا للقتال من زميله - بالصعيد، أما الثانى فقد اندفع فى عجالة نحو صحراوات سوريا، وكان آخر عمل من أعمال القوة قام به هو انتهابه لإحدى القوافل . وجَدَّ الفرنسيون فى أثره، وأمكن للقائد العام نفسه، مع بعض رجال من طلائع جيشه، أن يلحق بمماليك هذا البك الهارب، فهاجمهم وشتت شملهم ، وأرغمهم على الإسراع بالتقهقر بعيدا عن حدود غزوه .

عندئذ علمنا أن أسطولنا الذى كانت الأوامر قد صدرت إليه إما بدخول ميناء الأسكندرية أو الانسحاب إلى مضيق كورفو، وإن كان قد نفذ الأوامر على نحو مخالف للغاية - قد هوجم للتو، وتحطم بشكل شبه تام فى خليج أبى قير. وأوحت هذه الانتكاسة غير المتوقعة، والتى لم تنل من عزيمة وشجاعة الفرنسيين، أوحت لهم بعزم أكثر ثباتا وبإصرار شبه إجماعى.

وفى الوقت الذى كان الفاتح فيه مشغولا بأمر إصلاح الحكومة المدنية بالقاهرة ، تفجرت روح العصيان فى هذه المدينة، فتسلح عدد كبير من الناس، ولقى كثير من الفرنسيين الذين فاجأتهم الأحداث وهم فى داخل بيوتهم أو فى الميادين العامة، حتفهم برصاص المتمردين ، لكن قوة السلاح أعادت استقرار النظام، ولقى بعض الزعماء عقابا قاسيا، وتم العفو عن الألوف الجاثية. كانت مصر حتى ذلك الوقت لم تعرف حقيقة سادتها الجدد، ثم أحست فى هذه المناسبة بتفوق قوتهم، كما أدركت الدرس الذى لابد لها أن تستخلصه من تسامحهم ورأفتهم، وهكذا أخلت هذه الاضطرابات الدامية مكانها لأمن دائم.

غدت قواتنا تحتل الساحل الشمالى، وكل الأقاليم الداخلية ، وقد أمكن لفن ولصناعة حاذقين أن يخلقا - ربما بشكل مباغت - أعمالا ومنتجات خاصة بالدفاع العسكرى عن البلاد . كانت هذه الإنشاءات التى تتناسب مع نوع الحرب التى قدر علينا أن نخوضها ، تهدف إلى التصدى للمشاريع الأولى للعدو، وإلى توفير كافة المؤن والمواد التموينية التى تتطلبها تحركات الجيش .

بدأت مصر، فى النهاية، وبعد أن تخلصت من طغاتها، تتمتع بنعمة القوانين، ومارست هذه القوانين هناك - تحت رعاية الجيوش الفرنسية - سطوة لم تكن لها فى العادة، ودعى القادة الوطنيون لتولى الوظائف المدنية، وعادت العلوم- بعد نفى طال أمده - لتزور مسقط رأسها ، وأخذت أهبتها لتطوير وتجميل وطنها الأم،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتوسعت الجغرافيا بأبحاثها لتشمل الموانى والبحيرات والسواحل، وحددت بدقة مواقع كل الأماكن الهامة، وأقامت مقاييسها على أساس الملاحظات الفلكية، ودرست الفيزياء خواص الطقس، ومجرى النهر ، ونظام الرى، وطبيعة التربة، والحيوانات والمعادن والنباتات . أما الفنون الجميلة فقد عثرت على نماذجها القديمة، وتأهبت لتنقل إلى أوربا – بأمانة – هذه الآثار الخالدة لعبقرية مصر. كان ثمة قائد لامع يخلع على كل هذه الأمور بريق مجده الشخصى، وكان يشجع بحضوره كل الاكتشافات، بل كان بالأحرى يحض عليها، واستوعبت عقليته الواسعة، فى وقت معا، وبسهولة لا تكاد تصدق، مشاكل الحرب والسياسة وشئون القوانين والعلوم .

ولقد شرعنا تحت رعايته فى إجراء الأبحاث التى ننشر اليوم نتائجها، وقد عاون فى هذه الأبحاث جميعا القادة والمهندسون والضباط الفرنسيون، لقد تمت فى بعض الأحيان تحت إشرافهم، وكان الكثيرون منهم يخصصون – لصالح تقدم العلوم – كل وقت الفراغ الذى أمكن أن تتركه لهم العمليات العسكرية. ولقد نشرت بالفعل دراسات بالغة الأهمية عن الجغرافية الطبيعية للدلتا ، وعن الوضع السياسى لمختلف طبقات السكان، وكذلك عن مجرى النيل ، وطبيعة التربة، ووصف العصور القديمة ، ولقد أفدنا من كل التسهيلات التى أمكنها أن تعرض لنا كى نجتاز ونلاحظ البلاد التى احتلتها جيوشنا، ولم تكن أية عملية استطلاع عسكرية لتتم إلا ويسارع عضو أو عدة أعضاء من المجالس العلمية المختلفة فى الانضمام إليها، بغية القيام ببعض كشوف مفيدة . وكان العربان الهلوعون يفرون من كل مكان، تاركين المسرح الذى اعتاد على ما يلحقونه به من دمار، وكانوا بذلك يخلون المكان لتلك الجرأة التى تستعصى على الهزيمة ، لواحد من ألمع قادة جيش الشرق، قدر له أن يسهم بفخار ومجد فى الانتصارات التى تمت فى سوريا وأبى قير (الجنرال مينو)، والذى جعلت يده الراعية، والحاضرة على الدوام، الجزء الغربى من مصر، يحظى بأمان لم يكن معتادا عليه.. كذلك أصبحت عمليات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التفتيش على السواحل أو الصحراوات المجاورة، وكذا الحملات التى تمضى إلى أماكن بعيدة، وعمليات الزحف التى تقوم بها سرايانا ، والمفاوضات أو حتى المعارك التى تخوضها مع هذه القبائل الهائمة ، أو الأعمال الإدارية .. أصبح ذلك كله مناسبة بل وأحيانا غاية ، للقيام ببحث جديد .

كنا قد أحضرنا معنا من أوربا كل الأدوات اللازمة للطباعة، وجمعت هذه فى القاهرة فى مبنى كبير، كانت تسهر على إدارته حماسة نشطة متنورة، وكان هذا الفن، الذى كاد أن يكون مجهولا كلية من جانب الشرقيين، يثير اهتمام كل المصريين، وقد ساعد على مضاعفة عمليات الاتصال، سواء فيما بين الفرنسيين أنفسهم، أو بيننا وبين السكان، كما سهل فى نفس الوقت من نجاح الحملة وتقدم العلوم.

ولقد وضعت الأنظمة بالغة الدقة فى كل أجهزة الحكومة الداخلية، وهكذا لم يقتصر الأمر على أن السكان لم يتعرضوا قط لعمليات الإهانة والإذلال التى تميز النجاحات العسكرية فى الشرق عادة، بل لقد احترمت تقاليدهم الدينية والمدنية،. وعوقبت أتفه إهانة أو سباب (وجه إليهم من جانب جنودنا) بقسوة مدوية، وحل نظام معتدل للضرائب، وزعها بعدالة بين طوائف السكان ، محل الابتزازات والمظالم التى كانت تقع من جانب سادتهم القدامى. أما الدين والشريعة فكانا موضع تبجيل وتقديس من جانب الفاتح، وحظيت هيئاتهما بفضائله ، وتحقق لهم ما يريدون من قبل أن يفصحوا عنه، أما حق الملكية، الذى كان يخرق أو ينكر على الدوام ، فلم يمسسه سوء ، وسادت العدالة واستتب النظام فى المدينة فأمنت المعاملات التجارية ، وفتحت الحكومة كل مصادر الازدهار الزراعى، وتمت بالعناية الواجبة صيانة الترع التى تنقل مياه النهر ، والجسور التى توقف مجراها، وافتتحت خطوط اتصال جديدة، وعهد بإدارة هذه المشروعات الكبرى، والتى سددت تكاليفها بكل نزاهة ، إلى اثنين من خيرة كفاءاتنـــــا ، ونشرت الأسلحة الفرنسية - الرادعة فقط لأعداء مصر- الرعب والفزع بين عصابات لصوص الصحراوات، وعقدت العدالة مع القوة حلفا دائما .

لقد كان كل واحد من التغيرات السابقة التى مرت بها هذه البلاد مؤشرا لقيام نظام جديد من القهر، ولم يكن الناس، وهم الذين قد اعتادوا ألا يروا فى سلطة الحاكم إلا حقه المطلق فى السلب والإيذاء، يستطيعون أن يتقبلوا أو يعقلوا أن النصر يمكن أن تعقبه سعادة عامة، وأن تكون له أغراض بمثل هذا النبل . وتفتحت القلوب فى النهاية للمعرفة، وظهرت مشاعر جديدة - لم يوح بها من قبل أى حاكم من حكامهم - ربطتهم بالحكومة الجديدة، وإلى الآن، لا يزال لاسم فرنسا سطوته فى هذه البلاد، ولن يكون فى وسع أية أحداث أن تمحوه.

كان القائد العام يرنو ببصره منذ وقت طويل إلى ربط البحرين، فاتجه إلى السويس على طرف الخليج العربى، واكتشف مع توجهه نحو الشمال، ولفت نظر مرافقيه إلى آثار ترعة قديمة ، نفذها الملوك القدماء بهدف ربط النيل بالبحر الأحمر، وتتبع آثارها لوقت طويل، وبعد ذلك بأيام قليلة، تعرف - وكان قد اقترب من الأراضى التى ترويها مياه النيل - على الطرف الآخر لهذه الترعة، إلى الشرق من بوباسطة القديمة (*)، فأمر على الفور باتخاذ كافة الإجراءات الضرورية لتنفيذ المشروع الضخم الذى كان ينعم فيه النظر، وعهد بالمهمة إلى رجال، كان يقدر جدارتهم العليا وحماستهم، ربطوا معارفهم النظرية بكل معطيات التجربة وخبراتها .

كان لنفس هذه الرحلة كذلك - على الرغم من قصر مدتها - غرض آخر ، فقد أمر القائد العام بالتعرف بدقة على ميناء الخليج وسواحله وظروف الملاحة فيه. لقد كان يتدبر أمور الدفاع عن السويس ، وعدل الرسوم المتزايدة التى كانت مفروضة على التجارة، وبذلك جعل تجارة الصادر أكثر سهولة وأوفر أمنا ، كما أنشأ علاقات ود ومصلحة مع عربان القبائل المجاورة.

ولم يتوان الجزء المدارى من مصر مطلقا فى أن يتحرر من ربقة المماليك، كان مراد قد التجأ إلى هناك، وتحالف مع نفس المماليك الذين سبق له أن طاردهم

(*) حاليا ، تل بسطة بالشرقية. (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بانتقامه ، وأصبح الآن يوجد بينهم وبينه خطر مشترك يهدد أقدارهم جميعا، واستدعى مراد لنجدته من الشاطئ المقابل للبحر الأحمر فيالق من أبناء مكة وينبع، وكانت ذكرى سلطته لاتزال تخضع له أبناء الريف وسكان الصحراوات المجاورة. جمع مراد كل هؤلاء، وجهز الإمدادات، وجبى من كل مكان ضرائب حرب ، ومع ذلك، فسواء كان هو الذى بدأ هجومه أو كان الفرنسيون هم الذين بادؤوه ، فقد هُزِم وشرع فى الفرار، محتفظا على الدوام بجزء من قواته. وحيث لا توجد بالصحراوات الوعرة طرق مجهولة بالنسبة له، فسرعان ما ظهر من جديد، على رأس قوات جديدة، ولقد تغلب الضباط القادة الذين أوكلت إليهم أمور هذه الهزيمة العسيرة (أى هزيمة مراد) على كل العقبات التى كانت تواجههم بكفاءة غير معتادة، واستعاروا على نحو ما نفس وسائل عدوهم وعاداته فى مواجهة شئون المعيشة، وسرعان ماتفوقوا على هذا العدو بسبب من جسارتهم وهمتهم، بل وكذلك بفضل معرفتهم بطبوغرافية مسرح القتال. وأخيرا أقصى المماليك من الصعيد، ودفع البعض منهم ثلاث مرات متواليات إلى ماوراء شلال أسوان، وانسحب بعض آخر منهم إلى الواحات التى تفصلها فراغات شاسعة وقاحلة عن وادى النيل، أما العربان فقد هلكوا أو تشتتوا ، ومسحت العدالة والسماحة قلق الشعب وذعره، وأتمت فعل النصر.

أما الجنرال الذى عهد إليه منذ البداية بمهمة احتلال الصعيد (*)، وأن يدمر هناك سلطة المماليك، فقد خفف من ويلات الحرب بأمارات متضاعفة من الحكمة وسمو الروح، كان يعيش من أجل آمال الوطن وشرفه ، وسرعان ما وجب عليه أن يهرع إلى سهول ايطاليا ، وأن يسهم بكفاءاته وشجاعته، بل وبالتضحية بحياته نفسها، فى حدث خالد، كان له بالغ الأثر على الموقف فى أوربا ، وحين أنهى بعظمة ومجد، فوق ساحة المعركة، سجله المضئ، فقد وجد فى انتصار جيوشنا المكافأة على جهوده العظيمة، واختلطت بأنين أنفاسه الأخيرة صيحات النصر،

(*) الجنرال ديزيه Desaix .(المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان قد بث فى جيش الشرق، وفى قلوب سكان مصر شعورا عاما بالتعلق والإعجاب به، ولم تكن ذكراه أقل من حياته تبجيلا بفعل من مشاعر الحزن المؤثرة من جانب أولئك الذين كان قد حكمهم (فى مصر) أو بفعل الآلام الجليلة التى سرت بين الفرنسيين.

هذه هى وقائع الحملة التى فتحت لنا محراب مصر، وفى خلالها اكتشفنا هناك ذلك المعبد الرائع فى تنتيريس القديمة، كما اكتشفنا آثار طيبة الجديرة حقا بأشعار هوميروس، بالإضافة إلى بيوت الفراعنة، الملكية بمعنى الكلمة، ولقد توغلنا إلى ما وراء الفانتين، وفى هذه الجزيرة المقدسة، التى تبدو فى حد ذاتها وكأنها مبنى قائم بذاته، صرح شيده المصريون على شرف آلهة الفنون الجميلة. ولقد أخذ الجنود الفرنسيون الذين استدعتهم الحرب إلى ضفاف النيل إعجابا بهذا العمل الرائع، وتوقفوا كما لو كانت قد شدهتهم الدهشة والاحترام . وكان شاهدا على هذه الأحداث التى لن يلقى بها تاريخ الفنون الجميلة مطلقا إلى زوايا النسيان، رجل ذواقة لا يمكن أن يقدرها إلا واحد من نوعه، وستظل أعماله - التى قدمت لأوربا لأول مرة فكرة تامة وصحيحة عن آثار مصر - تلفت فى كل العصور انتباها قويا، إذ إن لها جمالها الذى لا يشع إلا منها، كما أنها تتجاوز بكثير ما يمكن للمرء أن ينتظره من جهد ومقدرة رجل بمفرده [*].

ولقد أحرز تطبيق النظريات الميكانيكية والكيميائية فى القاهرة تقدما كبيرا، وكنا قد جمعنا داخل نفس سور المبنى الكبير الذى خصص للعلوم كل العناصر والأدوات التى يمكنها أن تساعد فى تطور الصناعة، وكان يدير هذه المنشأة رئيس يدعو للاحترام، فقدته العلوم والوطن منذ عدة سنوات، وكان يجمع إلى حماسته المنزهة عن كل هوى كفاءة حاذقة معطاء ، كانت تفتح له آفاقا لم تكن مرئية، وكان بالفعل قد أثرى فرنسا بالكثير من الاختراعات، وسرعان ما منح مصر بعضا من

(*) لعله يشير هنا إلى فيفان دينون Vivant Denon . (المترجم) .

فنون أوربا بالغة الأهمية ، فأنشئت ماكينات هيدروليكية، وصنع الصلب والأسلحة والأجواخ والأدوات الرياضية والبصرية ، وقد قامت هذه المصانع الكبيرة خلال فترة الحملة بتهيئة ألوف الأشياء التى كان من شأنها أن تسهم فى نجاح الحرب وفى مباهج السلام. ولم يتوان أهل البلاد مطلقا عن الإفادة من المزايا التى حققتها هذه المنشآت ، فبدأوا يلتفتون إلى مصانعهم ويطورون الوسائل التى كانوا معتادين على استخدامها، كانوا يتأملون باهتمام شديد منتجات المصانع الفرنسية ثم يدأبون على تقليدها، واعترافا منهم بصنوف التفوق المختلفة التى وجدوها فى الغازى فقد خضعوا بمزيد من الثقة لسلطة الحكومة الجديدة الراعية. وكان صنع البارود من عمل شعبة خاصة، وحقق الشخص الذى عهد إليه بإدارتها- بتقديمه خدمات بالغة الخطر- كل الآمال التى أدركها بمعارفه وكل خبرته الطويلة . كان مجمع القاهرة يدير الأبحاث ، وكان الأشخاص المكونون له يضعون نصب أعينهم على الدوام مصالح الجيش ، والحرص على تقدم العلوم والفنون، وكان يشجعهم فى عملهم صداقة يقظة ومعونة حقة من ضابط يتحلى بأنبل وأعظم الصفات، كانت تنتظره فى ميادين سوريا ميتة مجيدة ، أثارت الأشجان والأسى (*) . كان نموذجا يكاد يستعصى على التقليد فى النزاهة والمثابرة والفضيلة، كان كأنما ولد من أجل كل الفضائل والعواطف الكريمة، وكان ينسى دون تصنع آلامه الخاصة ليشعر بقوة بآلام الآخرين، ولم يبد أحد على الإطلاق مثلما أبداه هو من نوايا طيبة ، من أجل سعادة الوطن وتقدم العقل والفنون، وقد أسهم فى كل الأبحاث العلمية التى شرعنا فيها فى ذلك الوقت، وقد شاء وفاء التاريخ أن ترتبط ذكراه بالاكتشافات التى كانت ثمرة لهذه الأبحاث.

ومن بين الأمور الجديرة بأن تلفت انتباه أوربا - العلم بأننا تمكنا من أن نحدد بدقة المواقع الجغرافية ، ولقد أعطينا لهذا الإنجاز الكبير كل عناية مثابرة ، كما لجأنا لكل الوسائل والطرق التى تضمن دقته ، كما تأسس ذلك - فى

(*) لعله يقصد الجنرال كافاريللى .   (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جزء منه - على ملاحظات فلكية تحدد موضع المدن والأماكن بالغة الأهمية. ولقد شرعنا فى هذه الأعمال - التى ندين بها لمواهب متمرسة بذلت أقصى ما فى طاقتها من حماسة مرجوة - وسط قعقعة الحرب وفى داخل أقاليم متباعدة، لم تخضع لنا إلا منذ عهد جد قريب، وكان خضوعها علاوة على ذلك غير مؤكد، وكنا نضطر فى مرات كثيرة أن نستبدل الأسلحة بأدوات القياس، وعلى نحو ما، أن نصارع وأن نخضع الأرض التى جئنا لقياسها.

كانت مصر قد تخلصت من السلطة التى كانت تقهرها، وكنا قد اقتصصنا من الإهانات التى وجهت إلى الأمة الفرنسية، وكان لنا أن نأمل أن هذه الأحداث لن تشعل مطلقا الحرب بيننا وبين الامبراطورية العثمانية. وفى الواقع، فلقد كانت هذه الولاية الجميلة منذ وقت طويل فريسة سائغة لبعض عبيد (مماليك) ينشدون الاستقلال، وكانوا يزدرون - عن طريق إهانات مستمرة - صاحب الجلالة السلطان، بالإضافة إلى ازدرائهم لجلال الشريعة والدين . وكان الباشا، المفترض أنه مطاع من جانبهم - أسيرا لهم، وشاهدا لاحول له على فظاعتهم التى كانت تمر دوما دون عقاب، وأصبحت السلطة التى لاينفكون يتنازعون عليها هى المكافأة التقليدية للجريمة والنكران . وحين يتوصل واحد منهم - إما بفعل السم، وإما عن طريق الحديد والنار - إلى تدمير كل أصحاب الفضل عليه وكل منافسيه، فلن يكون هذا النجاح سوى أمارة على عصيان موجه ضد الباب العالى. كان أكثر هؤلاء خضوعا ينازع فى تسديد الضريبة الضئيلة التى قررها الباب (على مصر)، أما الآخرون فيرفضون سدادها بشكل صريح . ولقد أرهقوا بابتزازاتهم، التجارة الداخلية وتجارة أوربا والجزيرة العربية وأفريقيا، كما أرهقوا الزراعة وكل الحرف النافعة، كما كانوا يمارسون على الشعب سلطة منفرة جامحة.

وقد يكون من الأوفق أن نقول إن الأسلحة الفرنسية قد خلصت مصر، لا أنها قد هزمتها. ولسوف تمضى هذه الأرض البائسة، والتى ظلت حتى ذلك الوقت خصيبة دون جدوى، نحو حالة من الازدهار السريع، كما أن مآل هذا التطور الذى

لايمكن أن تفزع منه سوى قوة أوربية واحدة (*) لم يكن ليتعارض مطلقا مع مصالح الامبراطورية العثمانية، بل كان يمكن لهذه، على العكس من ذلك، أن تزيد من عوائدها ، وأن تدعم سلطتها فى إقليمين هامين (من أقاليمها) ، وكان المنتظر من بلاط القسطنطينية أن يفضل أقدم حليفاته على رعايا له لكنهم عصاة متمردون، لم يكن سيفقد مصر وسوريا، بل كان سيسترجعهما على نحو ما ، كان ينبغى على هذا البلاط أن يرى فى قيام مؤسسة (مستعمرة) تحت رعاية وحماية جيش قوى، وتعاونه كل فنون أوربا، أمرا يعد كلا الدولتين بمزايا واسعة، وبوسعه أن يدعم سطوة الاسم العثمانى فى آسيا وأفريقيا. لكن هذه الاعتبارات لم تكن محل تقدير على الإطلاق، كان ضباط الامبراطورية، القادرون على إدراك واستبصار هذه الدوافع معزولين أو منفيين، ولقد أكد الانتصار البحرى الذى أحرز فى أبى قير، لدى هذه الحكومة، الرأى الذى كان لايزال غير مؤكد، فأذعنت لنصائح أعداء فرنسا الذين أوحوا إليها بمحاذيرهم الخاصة، وسرعان ما انساقت إلى حرب وإلى تحالف مضادين لنا.

كان قائد الحملة الفرنسية قد بذل أكبر الجهود ليتفادى هذه القطيعة، كان يدير أسلحته فقط ضد أعداء السلطان، وعمل على توكيد الاحترام لاسم السلطان باعتباره الحاكم الشرعى (لمصر) ، كما راعى بكل عناية العادات والتقاليد الدينية والسياسية. كان جيشه يسلك فى مصر باعتباره جيشا معاونا للباب، ولم يسبق لهذه الولاية أن كانت محكومة بشكل أفضل، ولاتتمتع بممارسة عباداتها على نحو أيسر، ولم تكن قد خضعت من قبل مطلقاً لحكام أكثر استعدادا للاعتراف بسلطة القسطنطينية، لكنه بثاقب بصره كان يصارع وحده ضد كل العقبات، ولم تساعده السلطات فى فرنسا نفسها إلا بشروع فى التفاوض متأخر وغير كاف . وحدس فى هذه الظروف أن الأمر سرعان مايحتم عليه أن يدافع عن مصر ضد قوات

(*) يقصد انجلترا.(المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هائلة، لذا فقد قر عزمه على مشروع يتميز بجرأة غير عادية، هو أن يتوقى الهجوم المتوقع بأن ينقل الحرب إلى قلب سوريا نفسها.

كانت هذه البلاد تخضع في جزء منها لسيطرة رجل كانت قساواته وغدره وخياناته قد جعلت اسمه شهيرا في كل الشرق، لقد كان أحمد الجزار لوقت طويل عبدا في القاهرة، حيث عوقب كثيرا من جراء سرقاته المنزلية، بل لقد كان يتميز بين المماليك أنفسهم بمخاتلة وشراسة غير عاديتين، وكان قد خان على التوالي كلا من : على بك ، والدروز ، والعرب ، وبلاط القسطنطينية . كان عندئذ حاكم صيدا ، وكان يقيم في عكا، وهي بتوليمايس القديمة Ptolémais . بدا الجزار في الظاهر معتنقا قضية بكوات مصر، وتقدم - مخفيا في الحقيقة طموحات أكبر - ليقود الحملة التي كانت تدبر ضد الجيش الفرنسي . وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الاستعدادات تهز كل آسيا الصغرى وسوريا، عمل هذا الباشا منذ البداية على أن تحتل طلائع قواته مناطق الحدود، لم يكن ليتخيل مطلقا أن عليه أن يخوض هو نفسه حربا دفاعية. وكان كل شئ ينبئ بأن مصر توشك أن تتعرض لهجوم عن طريق البحر، في الوقت الذي تصبح فيه عمليات الإنزال ممكنة، وكانت الخطة تقضى في نفس الوقت بتسيير القوات التي تجمعت في سوريا، وتلك التي يمكن أن يكون البكوات قد احتفظوا بها في الصعيد. وحين تبين للقائد العام - وهو الذي سبق له أن اخترق مشروعات الحلفاء - أنه ينبغي أن تمضى عدة أشهر قبل أن يكون باستطاعة أعدائه القيام بأي إنزال للجنود، قرر أن يحمل على وجه السرعة، مع اثنى عشر ألفا من الرجال على سوريا ، وأن يشتت القوات التي تجمعت هناك ، ثم يعود على الفور ليواجه الحملة التي كانت تهدد السواحل . مثل هذا المشروع لم يكن ليتحقق إلا على يد جيش مقدام ، متمرس على كل الفضائل العسكرية ، وفي الواقع فإن التاريخ المفصل لهذه الحملة يستطيع أن يقدم الكثير من الملامح التي لم يسبق لأحد أن سمع بمثلها عن الشرف والقيم الفرنسية. كان علينا أن نتوغل تحت سماء ملتهبة إلى ما وراء صحراء شاسعة ومجهولة ، وأن نغزو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بغتة بلدا أجنبيا تذود عنه قوات متفوقة. كان ثمة أسطول إنجليزى فى البحر، وكان سكان المدن وكذا العربان الجوابون مسلحين ضدنا، لم يكن بهذه الأرض المعادية إلا كل ما يناصبنا العداء، ولم يكن جنودنا بقادرين على أن يخطوا فيها خطوة واحدة دون أن يلقوا مصاعب جديدة، لكن ثقة لا تحول كانت تسمو بهم فوق كل المخاطر، فأخذوا يتقدمون بسرعة فى الصحراء الشاسعة التى تفصلهم عن سوريا، واستسلم حصن العريش، ثم استسلمت غزة، واستولينا بالقوة العنيفة على يافا أو Joppé القديمة، وقررنا فى ميناء حيفا، وعثرنا فى هذه المناطق، وفى مناطق أخرى متفرقة، على ذخائر، ومعدات قتال، ومخازن هائلة، ومؤن من كل نوع.

كانت أول فرقة من الجيش المعادى، يتلوها المماليك والعرب، قد تقدمت بالفعل إلى هذا الجزء من سوريا، وأخذت هذه القوات فى معسكراتها على غزة، وظلت تتراجع مندفعة على الدوام، تاركة فى ميادين القتال كل ما لديها من مدافع، وكل معدات القتال التى كانت تتطلبها حملة مدبرة ضد مصر. وفى النهاية شرع قادة الفرق التركية الذين لديهم الكثير من الفرسان، فى تجميع قواتهم إلى قوات حلفائهم، وفى أن يحملوا على الفرنسيين وهم يحاصرون مدينة عكا التى كان قد انسحب إليها ولاذ بها أحمد الجزار. لكن القائد العام توقاهم كذلك، ورأى أن من الضرورى أن يلتقى معهم فى معركة حاسمة، لكى يدفع بهم نحو دمشق. وحين هوجم هؤلاء فى نفس الوقت فى مناطق بالغة البعد، لم يستطيعوا مقاومة هذه التحركات الجسورة بل المتهورة وغير المتوقعة، ووجدوا أنفسهم قد انفصلوا عن معسكراتهم، محرومين من كل مؤونتهم، وشبه محاصرين من كل جانب، وسقط الكثيرون منهم إعياء فى ازدريلون أو فى المعارك السابقة، أما الآخرون فقد لاذوا بالفرار ملتمسين الأمان عن طريق تقهقر متسرع ذى جلبة. كان الفرنسيون قد استولوا منذ البداية على كل الأماكن التى قد يلوذ بها العدو، كما استعاضوا عن قلة عددهم بخفتهم فى التحرك وسرعتهم فى الزحف، بحيث كان يبدو أن ليس ثمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نقطة فى الميدان إلا وهم يتجمعون فيها، وكانت النهاية الظافرة (!) لهذه المعارك قد حطمت آخر آمال العثمانيين، وملأت بالرعب قلوب الأقوام الذين تحالفوا معهم، فعادت تلتمس الأردن بقايا هذه الفرق العسكرية (المعادية)، بشكل بالغ الاضطراب، حاملة معها الفزع إلى داخل مناطق شديدة البعد.

وفى الوقت الذى كان فيه جزء من قواتنا يقاتل على أرض فلسطين بشكل مجيد، كانت قواتنا التى بقيت بمصر تكمل احتلال بقية البلاد، ابتداء من أسوان حتى البحر (المتوسط)، وقام الإنجليز بمحاولة لا طائل من ورائها ضد السويس، ومع ذلك فقد تم صد عرب مكة، وتم الاستيلاء على كل الصعيد، وقمعت حركات العصيان التى اندلعت فى الأقاليم الشمالية، وكان يسهر على الدفاع عن الأسكندرية والسواحل فطنة حاذقة.

وفى نفس الوقت فإن باشا عكا قد تخندق فى ملاذه الأخير، وجاءه العون من البحر ضد الفرنسيين الذين كانت تنقصهم المؤن والمدفعية اللازمة للحصار، وأمكن لهذا الباشا أن يحصن دفاعاته، بحيث تستطيع أن تصمد لوقت أبعد من الوقت الذى يمكن لجيشنا أن يبقى فيه فى سوريا. كان الغرض الحقيقى من وراء هذه الحرب قد تحقق، فلقد أحدثنا الارتباك فى مشروعات العدو، واستولينا على مخازنه ومعداته الحربية، ودمرنا حصونه وأفنينا جيشا كبيرا كان يستعد لغزو مصر، وكانت قوات الإنزال المخصصة للهجوم على الأسكندرية قد حولت عن غرضها، واستخدمت فى دعم حصار قاتل. كان استيلاؤنا على عكا يضمن لنا عقاب أحد المماليك السفاحين، الذى كان يستحق الإعدام بسبب ما اقترفه طيلة حياته، والذى لا يمكن لأى ارتباط به أن يوحى إلا بالفزع، لكن هذا الحصار - فى نفس الوقت - كان يقتضى منا مزيدا من الوقت، ولم يكن من شأن النصر أن يقدم لنا إلا مزايا هزيلة، لا يمكن لها مطلقا أن تكون عوضا عن أخطار البقاء هناك مدة أطول من ذلك، وفى ذلك الوقت كانت الأمراض المعدية تنشر رعبا عاما، وكانت تنتشر فى كل أنحاء سوريا بسرعة هائلة، وتزداد بشاعتها أكثر فأكثر،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأخيرا فلقد اقترب ذلك الوقت الذى يمكن أن تهاجم فيه مصر نفسها من البحر. وفى الحقيقة فإن هذه الحملة لم يعد بمقدورها أن تحصل على دعم من الجيش العثمانى فى سوريا، الذى شتتناه للتو، وإن كانت قد بقيت للعدو مع ذلك قوات هائلة .

لقد جعلت هذه الظروف من عودتنا أمرا لا مناص منه، وأنذر القائد العام قواته بأن الدفاع عن سواحل مصر سيفرض عليها جهودا جديدة . وعبرت هذه القوات للمرة الثانية تلك الصحراء التى تفصل مصر عن سوريا، وقبل ابتعادنا عن القطر الأخير عاقبنا بقسوة تلك القبائل التى نكصت عن وعودها ، وخانت مواثيقها مع الفرنسيين، ثم دمرنا المؤن الحربية وكل المصادر التى يمكنها أن تسهل تجهيز حملة معادية بعد ذلك .

وسرعان ما استقبلت عاصمة مصر هذا الجيش الذى واجه الكثير من المخاطر وضرب الأمثلة على كل الفضائل، وتوجه وجهاء المدينة لاستقباله، وتبعتهم حشود هائلة كانت تحيى قواتنا بالهتافات والتهليل والألعاب ، وفى النهاية، ذاق الفرنسيون بهجة الالتقاء برفقاء السلاح. أما الاستقبال المؤثر الذى قدمته هذه الحشود ، فلن ينمحى أبدا من الذاكرة ، إذن فقد بدأ الرفاق يتحادثون معا عن المخاطر التى عليهم أن يواجهوها بعزائمهم وآمالهم، وبدا أن مصر قد أصبحت بالنسبة لهم وطنا جديدا، وأنهم لم يعودوا يشكلون إلا أسرة واحدة .

بعد وقت قصير تعرف القائد العام على حركات متفرقة كانت قد تمت بالداخل، وكان مشروع الغزو المرتقب يوشك أن يفجرها . وفى الواقع فإن المماليك قد هبطوا إلى ضفتى النهر، وتجمع عربان الغرب ليلحقوا بمراد بالقرب من وادى بحيرات النطرون ، فى نفس الوقت الذى ظهر فيه أسطول أبى قير. كنا قد ارتقبنا هذه الظروف ، وهوجم العدو فى وقت واحد فى كل مكان ظهر فيه ، وتحرك طابور شتت العربان ، أما المماليك من حزب إبراهيم، الذين فوجئوا داخل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معسكرهم فقد ولوا الأدبار على الفور نحو الصحراء تاركين أمتعتهم ، وأما مراد – وهو أكثر فطنة وأكثر حذرا – فقد أسرع يلتمس مصر العليا، وكان القائد العام نفسه يجد فى أثره ، وحين بلغه ظهور الأسطول المعادى اتجه على الفور نحو الأسكندرية ، وفى أثناء هذه المسيرة أرسل أوامر بالغة السرعة إلى مختلف فرق الجيش التى شرعت كلها فى التحرك فى وقت واحد، وعمل على مراقبة واحتواء المماليك والعربان، واتخذ وضعا يمكنه من تقديم العون إلى رشيد أو إلى الأسكندرية (إذا هوجمت أى منهما).

كانت قوات عثمانية قد نزلت فوق شبه جزيرة أبى قير واستقرت هناك بعد أن انتزعت الحصن بعد استسلامه، وقر رأى القائد العام على أن يهاجم هذه القوات على الفور وهى وراء حصونها، وكللت كل الهجمات التى تمت على كل المواقع بنجاح سريع، ولم تستطع خطوط العدو أن تصمد أمام الهجمات الجسورة والمتهورة من جانب الفرنسيين، أما العثمانيون فقد دفعهم اليأس إلى استخدام السلاح الأبيض ، ورفضوا رفضا شبه إجماعى أن يقعوا فى الأسر، وعندما أحيط بهم من كل جانب سقطوا صرعى أو هرعوا إلى البحر محاولين– دون جدوى– الوصول إلى السفن التى جاءت بهم، وهلك منهم عدد كبير فى ميدان المعركة، ومات معظمهم بين الأمواج بفعل نيران مدفعيتنا ، واستولينا على بنادق وخيام وذخائر حربية . أما الباشا الذى كان يقود الحملة فقد وقع هو نفسه فى قبضتنا ، وتحصن ابن هذا الجنرال سيئ الحظ داخل الحصن مع من تبقى من قواته، وشرع يخوض دفاعا بالغ العناد. وفى النهاية، وحين رأى آخر من تبقى من جنود هذا الجيش أسطولهم يدمر بفعل المدافع الفرنسية، وعندما رأوا أنفسهم مشرفين على الموت من الجوع أو العطش أو الإرهاق، ألقوا بأسلحتهم واستعطفوا المنتصر، وكان الحصن قد أصبح كومة من الأنقاض ، تغطيها أجساد القتلى والجرحى ، أجساد أولئك الذين هلكوا أثناء الحصار.

فى الوقت الذى كانت تدور فيه هذه الأحداث فى سوريا ومصر، وكان جيش

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشرق يدافع بثبات وإصرار عن الأرض الشهيرة التى فتحها، كانت فرنسا قد انغمست فى انشقاقات وخلافات مدنية، وكانت جبهاتنا (فى أوربا) مهددة . لقد أصبحت هذه الأوقات العصيبة جد بعيدة عنا، ويحول شعور الألفة السائد اليوم دون أن ننقب فيها. لقد أبلغ القائد العام بحقيقة الأوضاع فى أوربا وبالكوارث التى تحيق بفرنسا ، وأوحت له معرفته بهذه الأحداث بالرغبة فى معاودة الظهور بين جيوشنا، فقرر بعد ذلك النجاح الذى أحرزه فى أبى قير بأن ينفذ هذا المشروع الذى كانت عواقبه وخيمة على أعدائنا . وكانت مصر قد ألزمت الهدوء ، ولم يكن بالإمكان - لوقت طويل - أن تكون عرضة لهجمات جديدة، وكان المماليك قد فروا إما إلى داخل فلسطين أو إلى حدود النوبة، وكان العربان يجدون سعيا فى الحصول على تحالف معنا. وبذل الصدر الأعظم جهودا لا جدوى منها كى يجمع قواته فيما وراء دمشق، فقد كانت الحملة الفرنسية على الشام قد دمرت كل المصادر التى يحتاجها أى تجهيز لمسيرة جيش ، وكانت الشواطئ (المصرية) - ابتداء من الأسكندرية حتى دمياط - قد وضعت فى حالة دفاع ، وكانت الحصون مزودة بالمؤن وذخائر الحرب . وكانت مدينة القاهرة منذ وقت طويل تجنى ثمار وجود إدارة راعية ، فظهرت بمظهر العارف بالجميل، وخصص القائد العام كل اللحظات التى سبقت رحيله فى تحسين وتطوير المنشآت العسكرية والإدارات المدنية، جاهدا فى أن يجعل وجوده بشخصه أقل ضرورة بقدر الإمكان، وفى نفس الوقت كان يعلم أن المراكب المعادية قد اضطرت للتخلى عن القيام بعمليات المراقبة البحرية، عندئذ رحل إلى الأسكندرية، وبعد ذلك بقليل غادر شواطئ مصر. لقد دعاه الواجب وأمن فرنسا، لقد ابتعد وكشف عن مكنون سره لذلك الرجل الذى عمل فى خدمة مشروعاته الأولى، وأخفاه الحظ عن أساطيل الأعداء، ورد البحر ، الذى كان مخلصا للمرة الثانية، إلى أرض الوطن ذلك الرجل القادر على التصدى لأعدائه الخطرين .

ولم يكن القائد العام طيلة مدة حرب مصر وسوريا ليكف مطلقا عن رعاية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصالح العلوم ، فقد كان هذا المشروع الكبير حاضرا على الدوام فى ذهنه ، سواء قبل انتصاره أو بعده ، وسواء كان يقود العمليات العسكرية أو كان يفكر فى أوضاع إدارية أو اجتماعية جديدة، فكان يعهد – وهو بين المعسكرات – إلى عبقرية الفنون الجميلة أن تخلد ذكرى المعارك التى أضاءت سماوات فلسطين والفيوم والصعيد . وفى الأيام الأخيرة التى سبقت رحيله كان لايزال مشغولا بتشجيع الأبحاث العلمية ، وذلك بأن قدم للأكاديمية التى كان قد كونها الوسائل اللازمة لاجتياز وعبور المناطق المدارية من مصر ، ولملاحظة أعاجيبها بأمان، وأصبحت هذه الرحلة التى ستزود الفنون والآداب بالكثير من النتائج موضوعا مباشرا لعنايته وتقديره، فقد وضع بنفسه خط سيرها، وهيأ لها كل الظروف المواتية مع حيطة ويقظة بالغتين .

كنا فى ذلك الفصل من العام، الذى تسهل فيه رياحه القوية الملاحة فى النيل، عندئذ كان ميسورا علينا أن نصعد فى وقت قصير إلى جزيرة الفانتين ، وفى نفس الوقت، عزمنا على أن نبلغ كل الأماكن التى تقع بها الآثار، بغية التعرف أولا على الأشياء التى ينبغى لنا أن نصفها، وأن نضع عن طريق هذا الحصر الأوّلى، نظاما أكثر دقة فى أبحاثنا. وحين وصلنا إلى الحدود التى تفصل مصر عن النوبة ، إلى الجنوب من الشلال الأول، هبطنا مجرى النيل ابتداء من أسوان حتى القاهرة، ووضعنا كل أثر مرة أخرى تحت فحص بالغ الدقة، فما أن كانت السفن تلمس الشاطئ ، حتى كنا نهرع لنجتاز من كل جانب تلك الأسوار أو الأفنية التى يمكن أن نجد بها بعض بقايا لمنشآت قديمة. وأقمنا خرائط طبوغرافية، ورسمنا مناظر طبيعية مع كثير من مشاهد تصويرية لكل مبنى ، كما قسنا الأبعاد المعمارية بالإضافة إلى التفاصيل التى لاحد لها للزينات ، وقلدنا بأمانة اللوحات المرسومة أو المحفورة مع كل الحروف الهيروغليفية التى تغطيها، وفى الوقت نفسه كنا نلحظ الحالة الراهنة للأطلال ، وأساليب البناء ، وطبيعة المواد التى بنيت بها المنشآت، ودونا الكتابات العادية أو التاريخية أو تلك التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تختص بالنذور والمناسبات الدينية الأخرى، والتى تذكر بكثير من الأسماء اللامعة . وقام آخرون منا بقياس سرعة المياه وكمية ترسيب التربة وارتفاعات الأرض، وحدد فريق ثالث المواقع الجغرافية عن طريق ملاحظات فلكية. لقد أكببنا على فحص طبيعى للمنطقة ، كما جمعنا مجموعات ثمينة من الحيوانات والمعادن والنباتات وكل العناصر التى من شأن دراستنا لها أن تطلعنا على الثروات الزراعية وكذلك التجارة والعادات والتقاليد والوضع الاجتماعى للسكان .

وكان من الضرورى أن نلحق بدراسة الخواص الفيزيقية للطقس، دراسة عن الأثر الذى تحدثه هذه الخواص على حياة وصحة الإنسان، وإننا لندين بهذه الأبحاث لأناس وهبوا أنفسهم بحكم مهنتهم لمختلف فروع فن العلاج (الطب) ، وقد رسم خطة هذه الأبحاث كبير أطباء جيش الشرق (*) ، وقام بتجميعها وبنشرها، كما أننا مدينون لكبير جراحى هذا الجيش (**) بعمل من نفس النوع يضم عددا كبيرا من الملاحظات . ولقد حصلا، بخلاف المزايا الأدبية التى يضفيها عليهما نشر هذه الأبحاث، كما حصل زملاؤهما – على مزايا أخرى كنوع من العرفان العام . وسوف يظل يذكر تاريخ هذه الحملة لكل هؤلاء كل الخدمات التى أدوها، «ينابيع الحذق والجسارة التى أملتها عليهم كفاءتهم ، سواء عندما كانوا يحملون المواساة والأمل إلى ميادين المعارك بين أشد أهوال الحروب وأكثرها إثارة للفزع، أو عندما كانوا يواجهون بروح هادئة الدمار المروع الذى كانت تحدثه الأوبئة ، والفزع القاتل الذى كانت تسببه هذه الأمراض فيعصف بنفوس الألوف.

وقبل أن نشرع فى الرحلة التى أشرت من قبل إليها، كان عديد من الأشخاص المتحمسين لتقدم العلوم قد توجهوا بالفعل إلى الصعيد أو إلى الفيوم، وفى خلال الإقامة الطويلة التى كانت لهم هناك، كانوا قد عكفوا على وصف دقيق

(*) ديجينيت Desgintles . (المترجم) .

(**) البارون لارى Larry . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للآثار ، وعلى أبحاث هامة حول مجرى النيل، والطبيعة الفيزيقية للأرض، وزراعة وتجارة وجغرافية البلاد القديمة، وأسرعوا يضمون إلى المؤلف العام كل النتائج التى سبق أن حصلوا عليها.

وقد أنجزت مختلف أجزاء هذا العمل الضخم فى نفس الوقت، فكان كل منا قد انغمس بشكل خاص بموضوع دراساته المعتاد، وكان ينقل إلى الآخرين أفكاره ووجهات نظره، ولقد سهل هذا التعاون المثمر - وهو الذى لا يوجد مثيل له على الإطلاق فى تاريخ الرحلات العلمية - القيام بكل الاكتشافات، وجعل منها اكتشافات أصيلة وصادقة إن صح التعبير، لقد كان الصالح العام للفنون والعلوم والآداب يؤلف بسهولة ما بين العقول ، مبقيا فى الوقت ذاته على تنوع الآراء واختلافها، وسيظل التقدير المتبادل هو أكثر البراهين وثوقا على تآلف وتكامل وجهات النظر، وكانت تربط بين هؤلاء - فضلا عن ذلك - صداقة قديمة، الأمر الذى جعل المصاعب أكثر يسرا ، كما جعل المسرات أكثر بهجة، كما كان يعطى جرعات متجددة من القوة عند مواجهة المخاطر المشتركة، ومن الصلابة كلما اشتدت مشقات البعد عن الوطن.

لم يسبق لأى بلد آخر أن خضع لأبحاث بمثل هذا الشمول وهذا التنوع، وفضلا عن ذلك فليست هناك بلاد أخرى جديرة بأن تكون موضوعا لأبحاث كهذه، فمعرفة مصر أمر يهم فى الحقيقة كل الأمم المتحضرة، سواء لأن هذه البلاد هى مهد الفنون والنظم الدينية، أو لأن بإمكانها - حتى اليوم - أن تصبح مركزا للعلاقات الدولية ولتجارة الامبراطوريات . ولقد ترك الشعب الذى كان يسكنها آثارا تدعو للإعجاب بعظمتها وقوتها ونفوذها، كما أن الفنون لم تبذل على الإطلاق فى مكان آخر مثل هذا الجهد ، كى تسمو إلى هذا الطابع الذى لا يحول والذى يماثل فى ذلك أعمال الطبيعة ذاتها.

وفى هذه الأثناء كان الحلفاء قد حاولوا دون جدوى أن يستولوا على ميناء القصير، وبعد ذلك بوقت قصير استعاضت حامية دمياط الضعيفة عن عددها الضئيل بالجرأة والجسارة وسرعة الحركة، فدمرت فرقة قوامها أربعة آلاف من جنود الإنكشارية أنزلوا عن طريق البحر وبدأوا يتخذون مواقعهم على الساحل . ومع ذلك فإن الفرنسيين الموكلين بالدفاع عن مصر كانوا يجهلون الأحداث السياسية التى أعادت الأمن إلى وطنهم ، وحطمت للأبد الآمال الطموح للقوى المعادية، كانوا لايعرفون بعد إلا أن وطنهم يعيش فى الآلام والشقاء، لذلك فقد كان الوطن موضوع قلقهم وأسفهم . وتجددت (*) تلك المفاوضات التى كانت تهدف إلى التوافق مع الباب العالى، وعلى حين غرة، اتخذت هذه المفاوضات وجهة مختلفة وغير متوقعة، ولهذا أعد وأبرم على وجه السرعة اتفاق العريش العسكرى ، الذى تم الإقرار فيه على أن تعود الفرق العسكرية إلى موانيها (فرنسا)، بعد أن توافق على تسليم مصر إلى سلطة الباب العثمانى، على مراكب مملوكة للقوى المتحالفة.

وعلى الفور بدأت تتم الالتزامات المتبادلة، ودخلت إلى مصر - بحرية تامة - قوات كبيرة، نظامية وغير نظامية للوزير (الصدر الأعظم) والبكوات ، وتقدمت حتى بلغت أبواب القاهرة، وبدأ كل شئ ينذر بأن هذه البلاد الجميلة ستعود من جديد لتقع فى براثن سادتها القدامى، لكن سببين مختلفين أسهما فى تغير مباغت لما تهيأت له النفوس، كان أولهما هو الإعلان عن ثورة حدثت فى الحكومة المدنية لفرنسا.

استسلم الجيش للمشاعر الجديدة التى أوحت بها إليه هذه الأحداث حين رفض الطرف الآخر تنفيذ الشروط التى كان قد قبلها، ويعود السبب فى ذلك إلى القوى المتحالفة التى ساهمت بأكبر نصيب فى إبرام هذا الاتفاق الذى اقترح

(*) يستخدم المؤلف الضمير on ، وهو ضمير نكرة لايحدد بدقة شخص الفاعل ، وبذلك يروغ هنا وفى كل السياق لهذه الدراسة من تحديد مسئولية الأطراف المختلفة. (المترجم) .

ووفق عليه باسمها، فلقد وضع عند التنفيذ عقبةً غير متوقعة حين وجه إلى القوات الفرنسية اشتراطٌ مهينٌ بأن تبقى أسيرة فى مصر، كان الطرف الثانى - بهذا الاشتراط - يجدُ فى هذا التنكر لوعوده، للحصول على امتياز لم يكن ليتوقع الوصول إليه بقوة السلاح . وفى هذا الوقت كانت القوات العثمانية قد استحوذت على الصعيد ، وعلى كل المناطق ابتداء من موانى البحر الأحمر حتى دمياط، وكنا قد سحبنا مدفعيتنا من قلعة القاهرة ، وكان من المفترض أن نسلم العاصمة نفسها بعد ذلك بيومين، كما كانت المؤن والذخائر بالفعل قد نقلت إلى الأسكندرية، وأصبح الجيش الذى كانت فى حوزته قبل ذلك بيومين أقاليم عديدة ثرية وخصيبة، محروما من وسائل مواصلة الحرب ، ولم يعد يتملك من أرض مصر إلا تلك التى يصطف عليها، ومع ذلك فإن ظروفا غير عادية كذلك، كانت قد رفعت من معنوياته، لم تكن لجيشنا إلا غاية واحدة أو هدف واحد، وكان الشخص الذى يقوده قد بث فى كل القلوب سخطا كان يثيره هو، وتعرف أوربا سلسلة المعارك الخالدة التى تلت هذه القطيعة، ثم جاء النصر - وهو أكثر وفاء من كل المعاهدات - ليبسط حمايته على أولئك الذين لم يترك لهم مكان يلوذون به سوى الصحراء، وشُتت وأُفنى الجيش العثمانى. الذى هاجمه الفرنسيون بالقرب من خرائب هليوبوليس، واجتاز الصدر الأعظم - شبه وحيد خلال هروبه المتعجل - نفس البلاد التى سبق له أن توغل فيها ومعه قوات هائلة، وفقد ثلاثة معسكرات بالإضافة إلى مدفعيته ومؤنه العسكرية، كما استعدنا الحصون التى كانت قد سلمت له، وقمعت حركات التمرد التى كان قد أشعلها فى كل المدن فى وقت واحد، وطردت قواته من الصعيد ومن دمياط .

أما العاصمة نفسها فقد فاجأها المماليك والانكشاريون، وتحولت على الفور إلى ميدان قتال فسيح، تنهشها أهوال الحرب والتمرد ، وبعد أن شاهدت المدينة جزءا من مبانيها تضطرم فيه النيران ويتحول إلى أنقاض، فى الوقت الذى تطيع فيه قادة منقسمين تفرق بينهم مصالحهم الخاصة، وحين أفزعها ما حدث لمدينة

مجاورة، نالت من قبل عقابا صارما وقاسيا، استسلمت مستعطفة الغازى . أما الفرق التى سبق أن تجمعت فيها والتى كانت قبل ذلك بوقت قصير تتقدم ضدنا حين كان البحر موصدا أمامنا، خارقة بذلك أكثر المعاهدات توثيقا- فقد التمس جنودها التسليم والإذعان ، وعندما تم لها ذلك عبرت معسكراتنا فى أمان، وتذوق الفرنسيون الثمار الأولى للنصر، وتشبثوا بالبنود والقرارات الثابتة التى تمليها عليهم المصالح الحقيقية لوطنهم . وفجأة وقع حادث مؤسف أغرق الفرنسيين فى الرعب والوجوم، لقد تآمر أغوات الانكشارية الذين لجأوا إلى سوريا ضد حياة القائد الفرنسى، وأغروا واحدا من أبناء حلب تملى عليه ديانته كل حركاته، أن يضحى بحياته فى مقابل هذه الجريمة الكبرى ، ووصل هذا الشاب المخبول، الذى كان من السهل غوايته بفعل سنه، بطريقة سرية إلى القاهرة، وبعد أن قضى ثلاثين يوما فى الصلاة بالمساجد، ارتكب جريمته البشعة. كان كليبر أعزل من السلاح، بعيدا عن حراسه ، وطعن مرات عديدة بالخنجر، ولفظ أنفاسه بعد ذلك بلحظات ، وبمجرد أن انتشر خبر هذا الاغتيال الجديد فى كل أقاليم مصر عبر جيش الشرق عن مشاعر حزن تام وجماعى، وروى بالدموع مقبرة قائد لامع، مسح لتوه بالنصر مهانات المفاوضات ، ثم سقط صريعا وسط مغانم انتصاراته، وقد كان الوطن يعده واحدا من أكثر من دافعوا عنه فداء وتضحية . وتجمع القادة العسكريون منذ اللحظات الأولى التى أعقبت وفاته ، وعلى الفور وجه الشخص الذى كانت ترشحه القوانين العسكرية لقيادة الجيش من الأوامر ما تحتمه خطورة الظروف ، وأخذت القوات العسكرية تظهر على التوالى أمام الناس ، وأطلقت المدافع ، ووضعت الأعلام الفرنسية على مآذن المساجد. كانت هذه الاحتياطات ضرورية للغاية، إذ كان من المعتاد فى بلاد الشرق هذه - خلال الثورات وحركات التمرد التى تهزها وتشيع فيها القلق - أن يتلو الميتة العنيفة لزعيم ما دمار حزبه وتشتت جنوده . كان قد ألقى القبض على القاتل سليمان، ولم يشارك فى جريمته أى واحد من المصريين، واكتشف ثلاثة متواطئون كان قد ائتمنهم على سره،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانوا مثله من أصل سورى، وحكم عليهم جميعا بالعقوبات التى ينبغى أن يحكم عليهم بها تبعا للشريعة الإسلامية، وفى خلال المدة الطويلة التى استغرقها إعدام سليمان كان يقرأ بعض آيات من القرآن، كما كان ينعى على المسلمين أنهم لم يقدموا له العون .

وأسهم سكان العاصمة فى إضفاء طابع المهابة على جنازة قائد الجيش الفرنسى ، وسرعان ما رأوا خليفته يمضى قدما فى تنفيذ المشروعات النافعة التى كانت قد أقرت عقب الفتح . والتزم القائد العام (الجديد) ، مستفيدا من المزايا التى حققتها نجاحاتنا الأخيرة، بدعم سطوة القوانين، وبتحسين إدارة الضرائب، وتيسير السبل أمام تقدم وتطور الزراعة والصناعة والتجارة، وأكب فى الوقت نفسه على تصريف شئون جيشه الذى وجد فيه (أى فى قائده) مثالا للتضحية والمثابرة، وتمتع الزراع الذين انحدر بهم الشح الأرعن لسادتهم القدامى إلى حالة من التدنى والمهانة ، تمتعوا وبحرية كاملة بثمار أعمالهم، وعقدت تحالفات جديدة مع العربان ، ووهبت بعض القبائل أراضى غير آهلة، كانت الشقاقات المدنية قد حرمتها من الزراعة ، وأقيم على أسس محددة نظام عام للرى، وبذلت كافة الجهود لتوقى كل المساوئ المرتبطة بوضع المياه المضطرب أو بإساءة استخدامها، وتقررت مكافآت عامة لسكان الريف الذين يضاعفون من عدد الأشجار النافعة، وتجمعت داخل منشأة واسعة تلك النباتات والشجيرات الأجنبية التى رؤى من المناسب نشر زراعتها: كانت فنون أوربا قد بدأت فى صنع التقدم على أرض مصر، وانتعشت الصناعة فى كل مكان.

وأنشئ نظام جديد للمالية، عهد بإدارته العامة إلى إدارى حكيم ونزيه، كان قد حاز منذ وقت طويل تقدير الجيش ومحبة الأهالى ، وكان قد فحص بعناية كبيرة المصادر المتنوعة للدخول العامة ، وكان يدرك كل المزايا التى ينبغى أن تتوقع الحصول عليها أية حكومة عاقلة مستنيرة من امتلاكها لمصر ، وقد قام بتكوين جداول ليستخدمها مدخلا لحساب الميزانية العامة ، هى التى قدمها عن إدارته

للمالية طوال مدة الحملة (*) . ولقد استخلصنا نحن من هذا المؤلف، الذى أرجئ نشره، الدراسة التى ضمنت هذه الموسوعة ، وهى تحتوى على عدد كبير من النتائج التى ما كان ليسهل الحصول عليها دون ظروف مواتية لهذا الحد، وينبغى أن ننظر إليها باعتبارها عناصر ثمينة فى تاريخ مصر الحديث .

ومن جهة أخرى فقد وضعت لوائح نزيهة وعادلة أدت إلى تنشيط التجارة الخارجية التى أوشكت حكومة المماليك أن تقضى عليها. إلى هذا الحد بلغ تأثير الإجراءات التى اتخذناها، والتى أمكنها - على الرغم من العقبات الكثيرة التى نجمت عن حالة الحرب - أن تقيم من جديد علاقة نافعة مع الأرخبيل وسواحل الجزيرة العربية وبلاد أواسط أفريقيا، كما ساهمت أعمال جديدة عامة فى تجميل العاصمة والأسكندرية وتحسين الحالة الصحية بهما، وشيئا فشيئا كف المواطنون عن أن يظنوا أنفسهم غرباء عن الأمة الفرنسية ، كما كانت الثقة المتبادلة تحرز كل يوم تقدما ملموسا ، ولقد أدرك هذا الارتياح - من جانب كل النفوس - كافة الذين تعهدوا العلاقات الودية مع شعب مصر ، وقد أدرك هذا بصفة خاصة مؤلف هذه الدراسة ، وهو الذى كان يسهم فى الحكومة المدنية بتوليه إدارة العدل . وهكذا كان الزمن وحده كفيلا بأن يؤكد ويدعم هذه الأنظمة الجديدة ، وأن يجعل الناس يشعرون بها (ويجدواها) ، لكن الحرب قلبتها بغتة، ولم تبق على أى أثر منها . وقد نشر نجاح الحملة الفرنسية - الذى كان يعد كل الأمم الأوربية بخطوط اتصالات هامة - القلق والفزع فى انجلترا، وعزمت هذه القوة على القيام بجهود غير اعتيادية، وشارك البلاط العثمانى - حين انساق وراء اعتبارات روحانية - فى وجهات نظر وآراء حلفائه الجدد ، فتقررت مهاجمة سواحل البحر الأبيض على يد جيش انجليزى، كما تقرر أن تدعم هذه الحملة بفرقة من الانكشارية والألبان أوكلت قيادتها إلى قبطان باشا، وتلقت هذه القوات الأوامر بأن تتوغل فى الخليج العربى،

(*) يشير المؤلف إلى دراسة الكونت استيف Estéve عن مالية مصر، وهى الدراسة التى تكون مع غيرها المجلد الخامس من الترجمة العربية الكاملة لوصف مصر . (المترجم) .

وأن تنزل إلى مصر عن طريق مينائى السويس والقصير، وفى النهاية اقتضى الأمر أن يتقدم الوزير (الصدر الأعظم) إلى العاصمة على رأس جيش عثمانى قادم من سوريا. كانت كل عناصر خطة الغزو قد أعدت ووزعت بعناية ، ووضعت كلها موضع التنفيذ فى وقت واحد . ولقد تجلى فى حركة القوات قدر من الوثوق والإصرار ، على النحو الذى تسمح به المسافة النائية للأماكن وعناد المسلمين الذى لاسبيل إلى قهره . كان إبراهيم ومماليكه يزحفون مع الوزير ، أما القبائل العربية التى أثارتها نصائح وتحريضات النبى الجديد مولاى محمد(!) فلم تكن تنتظر سوى الإشارة كى تتجمع ، وأخيرا فقد كان حزب مراد، حاكم الصعيد ، قد ارتبط سرا بالإنجليز .

كانت المعارك السابقة قد أضعفت الجيش الفرنسى الذى لم يعد ثلثه قادرا على أن يستخدم فى حرب الأقاليم، كانت الجروح الخطيرة والكثيرة تغطى أجسام هؤلاء الجنود الأسخياء (الفدائيين) الذين كانت تحثهم على البذل قيمة أكثر منهم إصرارا واندفاعا نحو الأخطار الجسام، وكانت هذه الجروح تجعلهم عاجزين عن أية مشاركة إيجابية فى الوقت الذى كانت قواتنا فيه تحتل بلدانا شاسعة تبدو كل بقعة فيها وكأنها تحتم وجودها، فكانت تحرس حدود مصر مع سوريا والتى يتهددها الصدر الأعظم ، كما كانت تحرس القاهرة والجيزة وبولاق والسويس وجزءا من مصر العليا ، كما كانت تستخدم فى الأقاليم كى تحمى جباية الضرائب، ولكى تؤمن الملاحة فى النهر، ولكى تصد المماليك ، وتحتوى القبائل العربية . أما الاتفاق الذى أدت دوافع عديدة إلى إبرامه مع مراد فلم يكن ليوحى بأية ثقة ، لقد ضاعف تحالفه مع الفرنسيين من نفوذه ومصادر قوته ، لكنه ماكان ليفيد من كل هذه المزايا إلا لكى يعلن وقوفه ضدهم، وكان علينا أن نخشاه خائنا ، وألا نأمل إلا فى عون جد ضئيل من جانبه لو أنه كان مخلصا . وهكذا كان موقف الفرنسيين عندما ظهرت السفن المعادية أمام الأسكندرية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمكن الجيش الإنجليزى من القيام بعمليات إنزال على سواحل أبى قير، ثم تقدم بعد ذلك داخل شبه الجزيرة ليتخذ موقعا مواتيا للغاية يقع بين البحر وبين بحيرة المعدية . وحين هاجمته بعض القوات الفرنسية دافع عن نفسه بنجاح فوق أرض ضيقة ، يدعمها خط من الحصون ، وتحميها زوارق المدفعية من جانبى البحر والبحيرة . وقد جرح فى هذه العملية قائد الحملة الإنجليزية ، ومات بعد ذلك بأيام قليلة متأثرا بجروحه ، تاركا ذكرى مشرفة بحق . وبعد أن تلقى الحلفاء دعما هائلا قرروا احتلال رشيد ، ثم بدأوا التقدم صوب شاطىء النيل فى نفس الوقت الذى كان أسطولهم فيه يصعد النهر، واستسلم حصن الرحمانية وامتلك العثمانيون دمياط، ولم تلبث العاصمة أن حوصرت .

كان الصدر الأعظم قد ضم جيشه إلى الجيش الإنجليزى وجيش قبطان باشا، وكان يحصل كل يوم على قوات دعم جديدة من داخل مصر وسوريا، وكانت صلاته مع العربان والمماليك والقوات العسكرية القديمة وسكان الريف تتدعم فى كل مكان نتيجة تلك النجاحات الأولى التى أحرزها جيش الحملة ، وكانت قوات الهند قد وصلت ، أما القاهرة والأسكندرية فكانتا فريستين لوباء بشع وقاتل ، وفى نفس الوقت انضم إلى العثمانيين مماليك إبراهيم ومماليك مراد بالإضافة إلى فرسان كثيرين من العربان . هكذا كان وضع القوات المتحالفة حين تقدمت ، لكى يتم لها استرداد القاهرة والأسكندرية، ببنود امتيازات لاتختلف كثيرا عما جاء بمعاهدة العريش . لم يكن ثمة عملية عسكرية واحدة لم تكن قواتنا فيها أدنى عددا بكثير، فعدم تأكدنا من معرفة نوايا العدو كان قد أرغم القائد العام أن يوزع على جبهات عديدة القوات التى يمكنها أن تتصدى للعدو، وينبغى أن نضيف بأنهم - أى العدو - لم يكفوا طيلة هذه الحرب عن أن يعرضوا على الفرنسيين العودة إلى وطنهم ، وبنفس الشروط التى سبق لهم أن قبلوها قبل ذلك بوقت طويل والتى سبق للحلفاء كذلك الالتزام بها .

وعندما أبلغ الجنرال مينو بأن باب المفاوضات قد فتح فى أوربا، وبالمحاولات المتكررة التى يقوم بها أسطولنا كى يجلب إليه المساعدات ، اشتد عزمه على أن يستمر فى الدفاع عن الأسكندرية لأطول وقت ممكن ، وظل متشبثا فى موقعه لآخر الشوط ، وعند نهاية الحصار كان نصف الفرنسيين مرضى بالمستشفيات، أما أولئك الذين لم تكن قد مستهم شرور الأوبئة بعد فكانت قد أضنتهم الأعمال التى لاتنتهى ، واستخدام المياه المالحة ، وتناول الأطعمة الضارة لفترة طويلة ، بل وكذلك نقص الأطعمة . كانت الأمثلة التى قدمها قادتهم تقوى من عزائمهم ، وفى النهاية لم يبق لديهم إلا شجاعتهم ، وكان المرء يراهم مهدمين منهكين لايقدرون إلا بالكاد أن يتحملوا ثقل سلاحهم، وكانوا لايستعيدون قواهم إلا حينما كان الواجب يدعوهم إلى المعركة . هكذا أنيط بهم أن يضعوا بجهودهم الأخيرة نهاية مشرفة لهذه الحملة الخالدة .

وفى الوقت الذى كان جيشنا يستعد فيه لمغادرة موانى مصر، وكان الناس فيه فى أوربا يجهلون العمليات الأخيرة للحلفاء ، وقعت فى باريس ولندن تلك المعاهدة التى تعيد هذه البلاد إلى الباب العثمانى . هكذا قدر عليها أن تعود من جديد لهمجية السلاح التى كانت جيوش فرنسا قد خلصتها منها، وهذه هى اليوم فريسة لابتزازات نواب الملك ولصوصية العربان والفرق العسكرية غير النظامية ، أو لعنف بعض البكوات الذين ظلوا على قيد الحياة . لقد استعاد هؤلاء الأغراب – على الرغم من تقلصهم إلى عدد ضئيل – وطنا إلى حوزتهم ، وخلف عبيد مراد وإبراهيم سيديهم ، لقد أقصيت هذه الحكومة العجيبة على الأقل لمدة ثلاث سنوات بسبب وجود الفرنسيين ، فلقد هزم الفرنسيون المماليك ونفوهم ، كما قمعوا العربان ، وأبادوا ثلاثة جيوش عثمانية فى فلسطين وأبى قير وعلى أبواب العاصمة ، وليس أقل جدارة بالذكر من ذلك أنهم لم يمارسوا إلا سلطة حماية فى البلاد التى خضعت لهم ، ويبدأ كل واحد من هؤلاء الفرنسيين مرتفعا لمستوى أكبر الأهداف التى جعلتنا نشرع فى هذا الغزو . ولقد واجه الفرنسيون طيلة سنوات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثلاث مخاطر لاتنقطع، كأنما كانت تتوالد من جديد، وقاسوا - بعزيمة ثابتة، وتحت سماء ملتهبة وغريبة عليهم - متاعب يصعب التعبير عنها، ولقد تكاتفوا في هذه المهمة الشاقة رغبة منهم في أن يهبوا أنفسهم لمجد ومصلحة وطنهم . وإنه لشعور نبيل ونافع يسمو بالإنسان ليتفوق على نفسه ، ويوحى بكل التضحيات ، ويظل في نفس الوقت هو الدافع وهو الجزاء . ولقد جاءت عودتهم في أفضل الظروف ملاءمة، فكانت أوربا هادئة ، وكانت فرنسا - بعد أن ثأرت لنفسها وانتصرت - تركن للراحة في ظل قوانين أكثر لطفا من الهزات التي سببتها الحروب الخارجية.

ومن جانب آخر، كانت الهيئة العلمية التي تشكلت في عاصمة مصر، تحت حماية الأسلحة الفرنسية، قد اتخذت لنفسها نفس اللوائح التي تنظم أعمال أكاديميات أوربا، كانت مهمتها أن تزيد وأن تحسن كل المعارف النظرية ، وأن تضاعف من تطبيقاتها. كانت إسهامات العلوم والفنون قادرة على أن تدعم وأن تجمل منشآت الفرنسيين ، في الوقت الذي تؤثر فيه في الأحوال المدنية للأهالي، لكنها لم تكن لتبلغ هذا الهدف المرجو للغاية دون أن نكون قد اكتسبنا معرفة عميقة بمصر . ولم يكن الوصف التاريخي والفيزيقي لهذه البلاد في الحقيقة إلا جزءا من خطة عامة ، كنا قد وضعناها لدراسة العلوم ولتهيئة تقدمها، لكن الوصف مع ذلك كان عنصرا ضروريا ، وكان واحدا من تلك الموضوعات التي يهمنا أن ننقلها إلى أوربا . وكان هذا هو الغرض من هذه الموسوعة التي ننشرها اليوم، والتي تشتمل على نتائج الأبحاث الرئيسية التي قمنا بها خلال مدة بقاء الحملة الفرنسية ، والتي تستطيع أن تقدم معرفة متكاملة بمصر. أما هذا المؤلف الضخم فيتكون من : النص ، ومن مجموعات اللوحات . ويتكون النص من الدراسات والأوصاف ، أما الأطالس فتحتوي على : ١- رسوم عن مصر القديمة ، ٢- رسوم تتعلق بمصر الحديثة ، ٣- لوحات الحيوان والنبات والمعادن ، ٤- الخريطة الجغرافية . إذن فمجموعة هذه اللوحات تمثل الأشياء الموجودة والتي يمكن ملاحظتها ووصفها بدقة، والتي لابد أن نعتبرها - لهذا السبب - عناصر موضوعية لدراسة مصر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكنا كذلك نهدف فى الدراسات والأوصاف إلى عرض هذه الأمور على نحو أكمل وأكثر تماما ، وأن نبين بدقة ما قد لايستطيع فن الرسم أن يعرف به ، وأن نقارن الوقائع ، ونقارب مابين النتائج ، وأن نتفحص ما يمكن لنا أن نستخلصه من ذلك كله .

وتتكون الخريطة الجغرافية من خمسين لوحة خاصة ، تقدم كل التفاصيل التى يمكن لنا أن نرغب فيها ، وليست هناك منطقة فى أوربا يمكن لها أن تكون قد وصفت على هذه الدرجة من الكمال . ويشمل هذا العمل الكبير - الذى يقوم فى جزء منه على ملاحظات فلكية - كل البلاد الواقعة مابين شلال أسوان والبحر، وابتداء من آخر مبنى يقع إلى الغرب من الأسكندرية حتى خرائب صور القديمة Tyr، وأضفنا إلى ذلك خرائط خاصة بالمدن وبالموانى، وخرائط ومذكرات عن الجغرافيا القديمة، وحصراً بالأسماء العربية لكل المناطق الآهلة، مع ملاحظات عن السكان والزراعة وامتداد الأراضى الخصبة ، والملاحة والصناعة والمنشآت العامة وبقايا المدن القديمة .

وقد لاحظنا بكثير من العناية الحالة الجغرافية لوادى النيل، والصخور التى تقوم بمثابة حدود له، وامتدت الأبحاث التعدينية إلى مناطق صحراوية وجبلية بعيدة عن النهر، كما اشتملت هذه البحوث كذلك على فحص المحاجر التى استغلها المصريون القدماء، وعلى تصنيف دقيق للمواد التى استخدمت فى بناء الآثار. وقمنا برحلات كثيرة كى نجمع من الصحراوات المجاورة لمصر، وفي الصعيد والدلتا ، وعلي ضفاف النيل والترع - النباتات الخاصة بمصر ، وتلك التى أمكن للعلم أن يؤقلمها هناك، كذلك كان هذا العمل يهدف إلى الإكثار من الثروات الزراعية للبلاد ، وأن نزود التجارة والصناعة بعناصر جديدة . وقد أعطينا لدراسة الحيوان عناية مثابرة ، فأكببنا على تمحيص النتائج التى سبقت معرفتها ، وعلى إتمام الأوصاف الناقصة وإضافة الملاحظات التى لم يكن الطبيعيون قد قاموا بها من قبل مطلقا أثناء رحلاتهم السابقة . وقد أسفر فحص المواد الطبيعية بمصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن أهمية بالغة ، خاصة وقد سبق لها أن شغلت من قبل، ولوقت طويل، المشرعين الأول فى هذه البلاد، وفى بعض الأحيان كانت معرفتنا بهذه المواد تلقى ضوءا كاشفا وغير متوقع ، على نقاط غامضة فى عقائد المصريين (القدماء) . كما تتميز اللوحات التى تمثل هذه الأشياء بأمانة بالغة فى النقل والتقليد، فلها طابع الحقيقة وملمح الدقة اللذين يشهدان فى الوقت نفسه بعناية الفنان واهتمامه، وبخطى التقدم التى أحرزها هذا الفرع من فن الرسم، وحتى الآن، لم يسبق أن تمت جهود أكثر نجاحا وتوفيقا من ذلك كى تنوب عن حضور الطبيعة ذاتها (أى كى ينوب الرسم عن الأصل نفسه) .

أما بخصوص الآثار التى خلدت مصر ، فلم تكن لدينا عنها إلا معرفة شائهة قبل الحملة الفرنسية ، بل لقد كانت هذه الآثار مجهولة لنا بشكل تام، وسوف يقدم هذا المؤلف وصفا دقيقا لها. ولقد تعرفنا على الموقع الجغرافى لكل مبنى وبيناه علىّ الخريطة، ثم أقمنا بعد ذلك الخرائط الطبوغرافية التى تعرفنا بالمواقع الخاصة بمنشآت مدينة بذاتها أو بموقعها بالنسبة للنيل أو للجبال المجاورة ، وقد ضاعفنا من المناظر المرسومة لهذه الأنقاض الجليلة ، أما الفنانون الذين ندين لهم بهذه الرسوم فقد أخذتهم روعة الموضوعات وما يشع منها من جلال هو جدير بها، حتى أنهم لم يستبعدوا أى تكوين ولو كان اعتباطيا أو تعسفيا، إنهم إذن لم يلتزموا إلا بحقيقة النقل والتقليد بغية أن ينقلوا بإخلاص وأمانة نفس الأثر الذى أحدثته فيهم رؤية مصر، وليس هناك بين كل منجزات البشر على الإطلاق ما قدم لعبقرية الرسم موضوعا أكثر سموا ورفعة .

وقد قام هؤلاء عدة مرات، وبالعناية البالغة الدقة، بقياس أطوال المبانى وأطوال الأجزاء الرئيسية أو الإضافية التى تتكون منها، وقد رسمت لكل هذه المبانى تصميمات وواجهات وقطاعات أخذت من جوانب عدة ومن منظورات خاصة، ولقد حققت الرسوم والدراسات التى تضم نتائج عمليات القياس هذه كل ما نطمح إليه لدراسة العمارة المصرية، ونستطيع نحن أن نستخدمها لإنشاء مبان تشبه تمام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشبه تلك التى وصفناها ، ولا بد لنا أن نلاحظ أن هذاالعمل (من جانبنا) لم يكن قاصرا قط على بعض الأطلال المنعزلة التى أفلتت من فعل الزمن، وإنما اشتمل على المبانى الرئيسية لأمة متنورة تدين لها أغلبية الأمم الأخرى بنظمها ومؤسساتها . وفى واقع الأمر فإننا لم نلاحظ فى مصر المدارية وجود هذه الأسباب المتضاعفة، التى ترمي- على الدوام - فى الأجواء الأخرى إلى تدمير المنشآت، وإلى محوها - فى بعض الاحيان - حتى آخر أثر لها، ومع ذلك فإن هذه الأعمال تذود عن نفسها بنفسها بكتلتها الخاصة كذلك ضد جهود البشر، وهكذا أمكننا اليوم أن نقدم لوحة لعمارة المصريين ، واثقين بأننا قد ضمناها أجمل منشآتهم .

ومن الواضح أن هذه المنشآت التى لا تزال باقية فى طيبة وأبوللينوپوليس وفى أبيدوس ولاتوبوليس (*) هى نفس القصور التى سكنها الملوك (القدماء) أو هى أكثر معابد (المصريين القدماء) أهمية، إنها كذلك هى نفس المبانى التى وصفها كل من هيكاتيه Hecaté وديودور Diodor وسترابون Strabon، ولا يمكننا أن نجد ما هو أكثر أهمية بالنسبة لتاريخ الفنون من معرفة هذه النماذج العظيمة التى أثارت إعجاب الإغريق وطورت عبقريتهم .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أكببنا على نقل وتقليد دقيقين لأعمال النحت والحفر التى تزدان بها هذه الصروح، أما النقوش البارزة فتمثل أشياء بالغة التنوع، كما أنها تلقى أضواء جديدة على علوم العصور القديمة، وهى تتصل بتقاليد الحرب، والحفلات الدينية، والظواهر الفلكية، ونظام الحكم، والتقاليد العامة، والعادات الأسرية، وبالزراعة والملاحة وكافة الصناعات المدنية ، وقد حرصنا عند رسم عدد كبير من هذه المبانى على أن ننقل بدقة كافة الرسوم والحروف الهيروغليفية، ولم نحتفظ لها بأشكالها المفردة فحسب، بل بالنظام والوضع الخاص بإشاراتها

(*) وهذه المدن الأربع هى الآن على التوالى : الكرنك، وإدفو، ومنطقة خرائب بالقرب من العرابة المدفونة والخربة، واسنا . (المترجم) .

كذلك، وقد جمعنا الكتابات والنقوش القديمة التى تهم العلوم والتاريخ ، وقلدنا بعناية الألوان التى لاتزال تحلى العديد من المبانى ، والتى تبدو وكأنها لم تفقد شيئا من بريقها الأول .

وبعد ذلك ألحقنا بالخرائط الطبوغرافية، وبالأشكال المرسومة، وباللوحات المعمارية وبالرسوم البارزة وصفا موسعا، جمعنا فيه كل الملاحظات التى لايستطيع الرسم أن ينقلها، وتشتمل هذه الأوصاف على نتائج فحص مستفيض، أصيل وموثق، عاون فيه على الدوام كثير من الشهود . وكانت هذه الأوصاف تهدف إلى أن تعرفنا بشكل كاف على الحالة الراهنة للمبانى ، وعلى التدهور الذى حدث فيها بفعل الزمن، وكذلك على نوع المواد التى استخدمت ، وعلى أمور كثيرة أثارت اهتمامنا . ونجد فى هذه الأوصاف ملاحظات متنوعة عن العمارة ، وحول أساليب البناء، والألوان، واستخدامات الأشياء المرسومة، كما نجد ملاحظات حول طبيعة الأرض، والتغييرات التى تحدثها الفيضانات الموسمية، وحول موضوعات أخرى لم تكن واسعة بالقدر الذى يكفى لكى تعالج فى دراسات مستقلة .

وبنفس هذه العناية، قمنا بوصف المقابر الرائعة التى لملوك طيبة القدماء، والمقابر الصخرية حيث يجاهد الخدم المخلصون لتخليد ذكرى وأجساد الأجداد، كما وصفنا الحجرات السفلية الأخرى التى كانت مخصصة فيما يبدو لطقوس أو لممارسات غامضة.

وتقدم أهرام ممفيس الشهيرة ذائعة الصيت، القليل من الأهمية فيما يتصل بالفنون الجميلة، وإن كان ثمة دوافع أخرى ينبغى لها أن تُخْضع لأبحاث بالغة الأهمية هذه المبانى الضخام التي كانت موضوعا لملاحظات تنقصها الدقة، وقد حددنا نحن من جانبنا موقعها الجغرافى واتجاهات جوانبها بالنسبة لخط الزوال، وكذا الأبعاد الخارجية، وأبعاد كل الغرف التى أمكن لنا أن نتوغل إليها، وأخيرا فقد وصفنا كافة المبانى الجانبية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد أفردنا أشكالا خاصة، رسمت فيها كل من المسلات وتماثيل أبى الهول والتماثيل الضخام والتوابيت ومسلات مختلفة أخرى، ولم يكن من المستطاع نقل هذه الزينات الثمينة للصروح والأماكن المقدسة إلى أوربا دون بذل جهود هائلة لم تسمح الظروف مطلقا ببذلها على الإطلاق ، وإن كانت توجد منها ألوف أقل حجما جمعها بعض الأشخاص واحتفظوا بها أو أودعت اليوم فى المتاحف العامة. وقد جلبنا معنا من مصر أحجارا منقوشة وتماثيل بأكملها أو مجدوعة ، وقطعا من البرنز ، و من الخزف أو البورسلين، وأحجارا مقطوعة ومشذبه تحمل نقوشا ورسوما فنية أخرى تتصل بالديانة القديمة وبعلوم وبعادات أهل البلاد، كما تفحصنا باهتمام عددا هائلا من مومياوات البشر ، ومن مومياوات الحيوان من ذوات الأربع ، وكذا الزواحف والطيور ، واحتفظنا بالكثير منها. وقد عثرنا فى الصناديق والآنية الفخارية التى تضم هذه الأجساد الجافة على أقمشة من نسيج ثمين ، وعلى مذهبات وعقود وتمائم وحلقان، وعلى أعداد هائلة من الشظايا، كما استخرجنا من هذه الصناديق مجلدات عديدة من البردى مغطاة بنقوش هيروغليفية أو بحروف هجائية . وقد اكتشفنا هذه الأشياء وسط خرائب المدن القديمة وداخل الحفريات الكثيرة التى اقتضى القيام بها الفحص الذى أجريناه للمبانى، وكذلك فى داخل المقابر العامة أو الملكية ، وفى بعض الأحيان أيضا فى داخل البيوت الحالية، وقد جمعت كل هذه خلال أحداث الحملة الفرنسية ، وتبينا أن من الضرورى أن نضمن رسوماتها المجلد العام.

أما اللوحات الخاصة بمصر الحديثة فتمثل : ١ - المساجد ، والقصور، وبوابات المدن ، والميادين ، والمحاكم ، ومجارى العيون ، والمقابر ، والأحواش ، والوكالات المخصصة للتجارة ، والنقوش ، والميداليات وقطع النقود . ٢ - الحدائق، والحمامات، والمدارس، وأدوات الحرف، والأسلحة، ومقابر العائلات، وبيوت الخاصة، ومنشآت المصانع، والماكينات، والورش، وأدوات المهن المختلفة. ٣- الاحتفالات السنوية ، المواكب ، الاجتماعات العامة، التجمعات والأعياد المدنية،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التدريبات العسكرية ، العادات الخاصة بالجنازات وبالزواج وبشراء العبيد وعتقهم وبالميلاد. ٤ - وأخيرا الشخصيات الهامة من مختلف طبقات السكان أو من الأجناس الأجنبية ، والملابس والأسلحة التى تميزهم.

وقد سعينا، فى الدراسات التى تشكل جزءا من هذه الموسوعة، إلى أن نستكمل وصف مصر وأن نعمق دراستنا لها عن طريق مقارنة الظواهر ومناقشتها. ولم نكن نهدف مطلقا، من هذا المنظور الثانى، لأن نشرع فى بحث يقتصر على حدود محددة، فالمرء لا يستطيع فى واقع الأمر أن يقصر أبحاثه حول مصر مطلقا (عند حد محدد)، فليس ثمة موضوعات فى الدراسات الإنسانية أكثر من ذلك خصوبة أو أكبر اتساعا ، فإذا ما ظننا أننا قد استوفينا مجالا ما فى هذه الدراسات فإننا نكون فى واقع الأمر قد استخففنا به ، ولكننا اقتصرنا على وضع نظام يكفل لنا أن نعالج كافة المسائل الرئيسية ، ولهذا السبب فإن مؤلفى الدراسات قد ركزوا بحوثهم على ما يأتى :

١ - المؤسسات والنظم، العادات والتقاليد، الآداب والعلوم والفنون، نظام المقاييس والصناعة عند قدماء المصريين.

٢ - الجغرافيا القديمة والحديثة، تاريخ مصر، الحكومة الحالية لهذه البلاد، الدين، التقاليد، العادات العامة والأسرية، حالة الفنون والآداب والعلوم ، الزراعة والصناعة والموارد العامة، الملاحة والتجارة.

٣ - طبيعة وخواص التربة والهواء والمياه من الناحية الفيزيقية، الحيوان والنبات والمعادن، جيولوجية مصر.

ويشكل كل واحد من هذه الموضوعات دراسة مستقلة ، وقد راعينا فى هذا الجزء من الموسوعة الذى يشتمل على الدراسات، نفس القواعد التى تراعى فى الموسوعات الأكاديمية . وعندما قام كاتب شهير- بحق - بنشر نتائج رحلاته إلى مصر وإلى سوريا ، فإنه قد أثرى بالفعل الأدب الفرنسى بوصف دقيق وبليغ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لعادات وحكومات هذه البلدان ، وقد لمسنا كيف تتطابق ملاحظاته مع الأبحاث التى قمنا بها خلال الحملة .

وتنتمى الأبحاث التى دارت حول الآثار الفلكية التى اكتشفت فى الصعيد إلى الجزء الأول من هذا المؤلف، وإن كان نشره هو الذى تأخر.

وفى معظم الأحيان نسبت فى المقالات العديدة والمبتسرة التى أوجدها هذا الموضوع الشهير بالفعل إلى كاتب هذه الدراسة آراء تختلف عن تلك التى انتوى أن يؤسسها . إن النتائج التى تستخلص من الدراسة المتأنية للنظم لن تسمح مطلقا بفهم تاريخ مصر داخل إطار تاريخ ضيق لم تستمر متابعته مطلقا فى القرون الأولى للمسيحية، كما أن هذه النتائج ليست أقل تعارضا مما يستخلصه أولئك الذين يؤسسون على افتراضات (أحوال) العصور القديمة المعلية من شأن الأمة المصرية، ثم لا يميزون مطلقا الفترات التاريخية ، والتى تستحق بالفعل مثل هذا الوصف، من تلك الحسابات والأرقام التى تستخدم فى عمليات التقويم .

ويوضح لنا السرد السابق، تلك الخطة التى اتبعناها فى وصف مصر. لقد التزم المؤلفون بملاحظة أعمال الطبيعة وأعمال الإنسان التى يمكن أن يفيد فحصها فى دراسة هذه البلاد، وقد مثلت هذه الأشياء بالرسوم أو المناظر المرسومة أو الخرائط أو التصميمات كلما كان الأمر ممكنا لذلك، لكن هناك عددا كبيرا من الظواهر لا يستطيع أن يقتفى أثرها سوى الحديث (أى البحث) فضمناها فى الدراسات والأوصاف التى تشكل النص، ولم نهمل شيئا وجدناه لازما كى يكون الجانب الوصفى من هذه الموسوعة كاملا ، ولقد سهل وجود الأسلحة الفرنسية بالإضافة إلى ترحيب الجنرالات وإسهام العديد من المراقبين والشهود ودقة الأدوات فى القيام بهذه الأبحاث ، ومع ذلك فكثيرا ما قطعت هذه الأبحاث بفعل أحداث وظروف مشئومة ، وعديد من بين هؤلاء الذين قادهم إلى مصر تذوقهم للفنون الجميلة، والذين جلبت لهم أعمالهم السابقة الاحترام قد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سقطوا صرعى، بسبب اضطرابات كانت تتجدد دون انقطاع أو فى مخاطر شبه مؤكدة دفعتهم إليها حماسة ملتهبة، وهلك آخرون دفعهم إلى هناك شغفهم فى خدمة العلوم وأملهم فى تشريف عائلاتهم، واختصوا وطنهم بثمار دراساتهم، هلك هؤلاء فى شباب غض فوق هذه الأرض الغريبة عليهم ضحايا للتمرد والعصيان والأوبئة المهلكة . ووسط هذا الخضم من أحداث الحرب، توقفت الأبحاث العلمية فى بعض الأحيان بسبب عراقيل لا يمكن السيطرة عليها فى حقيقة الأمر. هكذا يمكننا أن نؤكد أن ثمة بعض أمور قد أغفلناها، لكن هذه الأمور ليست بالهامة على الإطلاق، ولذلك فإن المؤلف الذى نشرنا الجزء الأول منه سيقدم معرفة مركزة ودقيقة عن الحالة الفيزيقية لمصر، وعن الصناعات الحالية للسكان، وعن المنشآت التى أقامها أجدادهم . وربما لم يكن هناك، على امتداد كل الدول المتحضرة ، أى بلد آخر قد خضع لفحص أكثر تفصيلا أو أكثر دقة .

وبخلاف هذا الوصف الطبيعى والتاريخى لمصر، فقد كان بمقدور إقامة الفرنسيين فى هذه البلاد أن تقدم المزيد من الفوائد والمزايا المرغوبة ، بل لقد كان بمقدور الفنون أن تكون – فى الوقت الحاضر نفسه – قد طورت وجملت ضفاف النيل، كما كان بمقدور الناس هناك ، بعد أن تخلصوا من إدارة عابثة وغير إنسانية ، أن يعكفوا بأمان على زراعة أرضهم وأن يفيدوا من ثمار حرفتهم، وكان يمكن للمخترعات الميكانيكية أن تحل محل قوة الإنسان ، وتجعل أعماله أكثر يسرا وأوفر إنتاجا، وكان بالإمكان أن تتوطن بعض القبائل العربية فى أرض أصبحت خصيبة ، وأن يدفع الآخرون إلى أعماق الصحراوات، وأن تثرى هذه الأرض الخصيبة بالنباتات والمحاصيل الأجنبية التى يمكن أن تجلب إليها أو تزاد كمية ما يزرع منها، بل لقد كان بوسع الفرنسيين أن يقيموا هناك الكثير من المصانع الهامة ، كما كان من المستطاع إقامة علاقات طيبة مع فارس والهند والجزيرة العربية، وعبور ووصف هذه المناطق، بل كان سيصبح فى مقدور رحالة كثيرين أن يراقبوا (وأن يدرسوا) المجرى الأعلى للنيل وأن يتفحصوا المنشآت القديمة القائمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى جنوب أسوان وفى أثيوبيا، وأن يتوغل آخرون مع القوافل إلى الواحات وإلى بلدان أفريقيا الداخلية، وأن نحصل على معلومات أكثر دقة حول الأنهار والجبال ومناجم الحديد والذهب وكل المنتجات الطبيعية، والمدن، وخاصة عناصر تجارة هذه القارة الشاسعة، وكان من الممكن كذلك أن يتم مشروع القناة التى من شأنها أن تربط بين البحرين ، وبذلك يبدأ جزء من تجارة الشرق يتبع طريقا بالغ اليسر طالما رغب العالم فى وجوده .. كان يمكن أن يكون ذلك هو حال مصر اليوم لو أن قدرا معاكسا لم يعد بها إلى طغاتها القدامى، ونستطيع هنا أن نؤكد أن ليس ثمة أية مبالغة فى هذه اللوحة التى رسمناها للتو، فلقد كانت السنوات الثمانى التى انقضت (منذ خروجنا من مصر) كافية لكى تزود هذه البلاد (لو أننا مكثنا فيها) بالكثير من الاكتشافات والمؤسسات النافعة، فأى شئ هذا الذى لا نستطيع أن نتوقعه من تأثير ممتد يمكن له أن ينتج عن الارتباط بفرنسا وعن التقدم المستمر لأضواء المعارف والفنون !

وعلى الرغم من أن العلوم قد شاهدت - ربما - بدء ازدهار جزء من الأمل الذى كانت فى ذلك الوقت حبلى به، فإنها قد خسرت المزايا الهائلة للحملة الفرنسية . وتقدم لنا الموسوعة التى بدأنا اليوم فى نشرها ميدانا رحبا للأبحاث الأدبية والعلمية ، وسوف تلقى أضواء جديدة عن أصل كل الفنون، وليس لدى أولئك الذين أسهموا فى وضعها ما يضيفونه إلى عظمة موضوعها .

كان عملهم يستلزم منهم فحصا مثابرا، كما أن الحقوق التى يمكن أن تترتب لهذا العمل على الرأى العام تنتج من طبيعة موضوعه ذاتها أو من الظروف التى صاحبت تكوين عناصره ، فإذا ما نظرنا إليه من وجهة النظر هذه، فإن هذه الموسوعة سوف تشكل صرحا هائلا للتاريخ والفنون، كما أن هذا العمل العظيم يسهم فى مجد وطننا، ونحن مدينون به لجهود مقاتلينا، كما أنه يستمد أصالته من اتحاد العلم بالسلاح ، فهو شهادة وثمرة لتحالفهما، إنه تذكار عظيم لوجود الفرنسيين فى واحد من أشهر بلدان العالم، ولكل ما فعلوه هناك من تكريم للنصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باتخاذ طريق العدل والتسامح، مقلصين حقوق المنتصر إلى مجرد ممارسة لسلطة وصاية ، ويمكن لهذه الموسوعة أن توحى لبلاط القسطنطينية بمشروعات تدعم عودة سلطتها إلى مصر ، وتقيم فيها حكومة أكثر اتباعا لقواعد الحكم والإدارة، وستظل تنقل إلى هذه البلاد أفكار وأمانى أصدقاء الفنون الجميلة ، وكل الذين يتطلعون بإخلاص وتجرد إلى تقدم المعارف النافعة .

ولسوف يجد الناس فى هذا المؤلف الأساسى، مع أمهات الكتب التى رفعت اسم اليونان وايطاليا، لوحة أمينة للآثار المصرية، وسيجد الناس فى متناول أيديهم أعظم ما أنتجته عبقرية الفنون وأكثرها تماما. وحين يقارن الناس هذه النماذج فلا بد أن يتذكروا أنها هى كل ثمن النصر، هكذا تقيم فرنسا أنصبتها التذكارية من أسمى منجزات العصور القديمة ، رابطة على هذا النحو ذكرى انتصاراتها بكل عصور المجد التى عرفتها الفنون الجميلة .

إن مصر التى كانت تطمح لأن تجعل من مؤسساتها ومنشآتها أشياء تقاوم الفناء، والتى تركت بها كل الفنون بصمات لا سبيل لمحوها، ستظل لوقت طويل تدفع بتلك المهابة الصارمة بل التى تتزايد روعتها، والتى تشع من أقدم نماذج (الفن التى عرفها البشر) – خفة وطيش العقل البشرى وعدم استقراره . لقد شيدت هذه الصروح من قبل أن تنشأ مدن الإغريق بقرون عديدة ، و لقد رأت هذه الآثار نشأة وازدهار صور Tyr وقرطاجة وأثينا، وكانت تحمل بالفعل اسم «العصور المصرية القديمة» فى زمن أفلاطون، وسيظل يعجب بها أحفادنا فى وقت لن يبقى فيه فى أى مكان آخر على ظهر الكرة الأرضية أثر واحد لمنشآت شامخة اليوم.

وبالإضافة إلى ذلك فإن البقاء الطويل لهذه الصروح لا يرجع فقط إلى خواص الطقس ، بل هو ناتج بشكل خاص عن جهود هؤلاء الذين شيدوها، ذلك أننا نكاد لا نستطيع أن نعثر – على ضفاف النيل – على أثر لمنشآت رومانية . إن المصريين الأوائل لم يكونوا يعتبرون جميلا وجديرا بالإعجاب بهذا المعنى، إلا ما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هو قابل للبقاء وينهض على فكرة المنفعة العامة، كان الفهم المبدئى من وراء أعظم منجزاتهم هو جعل الأرض أكثر ملاءمة لصحة الإنسان، وأكثر خصوبة وأعظم اتساعا، فتوصلوا إلى تجفيف المستنقعات والبحيرات وإلى انتزاع أقاليم بأكملها من الصحراوات الليبية (وحولوها إلى أرض زراعية)، كما تفادوا أخطار عدم ثبات منسوب الفيضانات باحتياطات نشطة تتسم ببعد النظر وتستخدم كل أعاجيب الفنون، فأسسوا مدنهم فوق أرصفة شاسعة، محولين مجرى النهر حسبما يتراءى لهم أو مقسمينه إلى روافد وقنوات كثيرة، ورأوا الأرض نفسها تطل من قلب المياه(*) ، فخلقوا - بمعنى كلمة الخلق - بأنفسهم سهول الدلتا الجميلة التى سرعان ما أصبحت بالغة الثراء، ولقد ساهم ثبات الطقس وانتظام الظواهر الطبيعية فى طبع هؤلاء القوم بهذا الطابع العميق من الوقار والمثابرة والإصرار، وهى الملامح التى تميز أنظمتهم، ولم يكتف هؤلاء القوم بأن يزينوا شواطئ النيل بالكثير من الصروح الخالدة ، بل شرعوا فى إقامة أعمال باذخة فى قلب الصخور التى تتاخم أراضيهم، و« مصر التحتية أو الدفينة» هذه تعادل فى عظمتها عظمة أولئك الذين كانوا يقطنونها، وهى تلك العظمة التى أثرتها كل الفنون .

وكان المصريون يعتبرون على نحو ما خالدا كل ما كانت له صلة بديانتهم وحكومتهم، فكانوا يتعهدون على الدوام هذه الفكرة بإنشائهم الصروح الكبرى والتى تظل على الدوام هى هى، والتى تبدو وكأنها لا تخضع مطلقا لفعل الزمن، ولقد أدرك مشرعوهم أن هذا التأثير الروحى قد يسهم فى دعم نظمهم . وفى نفس هذا الاتجاه، نقش هذا الشعب فوق قصوره ومعابده ومقابره ، صور آلهته وملوكه، وملاحظاته للنجوم، ومبادئه وحكمه المقدسة، ومشاهد من عباداته وأعياده المدنية ، وهذه هى أقدم أثر يمكن أن يكون الإنسان قد تركه على ظهر الأرض، وهى تنتمى إلى حضارة آسيا الضاربة فى القدم والتى سبقت كل العصور التاريخية لليونان،

(*) يشير هنا إلى طمى النيل . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد أوقفتنا هذه الآثار على ما كانت عليه فى ذلك الوقت عقول الأمم وتقاليدها .

ولن يكون بمقدورنا مطلقا أن نعجب بآثار مصر ومنجزاتها، ولا أن نتذكر ما كانت مصر عليه فى عصور مجدها، دون أن نولى اعتبارا للآلام ونوبات الشقاء التى سببها فقدها لاستقلالها ولقوانينها ولمعارفها . وسنظل نقدر على نحو أفضل أنظمتها، وسنظل ننظر إليها باعتبارها منبعا روحيا للازدهار لم يكن أقل ضرورة، فى هذه البلاد، من النهر الذى يرويها، وسنظل على الدوام، وعلى وجه الخصوص، ندرك هذه الحالة المحزنة التى تردت إليها، على الرغم من الثراء الذى يمكن أن تجلبه إليها، فى سنوات قليلة، إدارة أكثر حكمة .

وهكذا فإن دراسة مصر، الخصيبة لهذا الحد بالذكريات العظيمة، تظل تنذرنا بأن تطور العقل وتطور الصناعة إنما يرتبطان باستتباب النظم، كما تظل توضح لنا، وعلى نحو أفضل، ما تساويه القوانين، وما تساويه حكومة مستقرة مستنيرة، وستظل توحى لنا بدوافع جديدة كى نحب ذلك . ومثل هذه الدراسة لا يمكنها إلا أن توحى بأفكار عادلة ومتسامية، وبأن تغض الطرف عن البحث فى البهرج التافه، وإلا أن تقودنا نحو وحدة وبساطة الآراء ووجهات النظر . ولسوف تجعلنا هذه الدراسة ندرك على نحو أفضل أن الأشياء الراسخة والقابلة للبقاء هى ذات عظمة لا تشع من سواها، وأنه، إذا كانت الأناقة الحاذقة للأشكال والمنجزات تسهم فى التطور، فإن فكرة الجمال الحق تحوى بالضرورة فكرتى الرسوخ والعظمة، وستظل توضح لنا هذا المبدأ بكل جلائه، ولا بد أن تكون لهذه الفكرة سطوتها الخلاقة على ذوق وإنجازات العصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إيضاحات

جمعنا في هذه الإيضاحات كل الملاحظات المختلفة التي تتصل بخطة هذا المؤلف ، أو التي يمكن لها أن ترشد القارئ عند استخدامه للأطالس، وقد سبقت ذلك نبذة تاريخية ، تناولت الإجراءات التي اتخذت عند تجميع محتويات هذا المؤلف ، وكذلك عند نشرها .

بعد عودة جيش الشرق مباشرة، أمرت الحكومة بأن تجمع كل الدراسات والخرائط والرسوم وكافة الملاحظات التي تتصل بالعلوم والفنون والتي جمعت أثناء الحملة ، في مؤلف عام ينشر على نفقة الخزينة العامة، ودعى الأشخاص الذين سبق لهم أن ساهموا في هذه الأبحاث كي يقترحوا الكتابات أو الرسوم التي ينبغي لهذا المؤلف أن يتكون منها، وفي نفس الوقت عهد بإدارة هذا العمل إلى لجنة مكونة من ثمانية أشخاص ، حددهم وزير الداخلية باعتبارهم ممثلين لكل جماعة المؤلفين، واختارت هذه الجماعة بنفسها بعد ذلك وعن طريق الاقتراع ، ذلك الشخص- من بين أعضائها - الذي يناط به كتابة المقدمة التمهيدية . وقد عين السادة: برتوليه، كونتيه، كوستاز، ديجينيت، فورييه، جيرار، لانكريه، مونج أعضاء في اللجنة التي تمارس الإشراف العام على مختلف أقسام هذا المؤلف ، بالإضافة إلى تنظيم نفقاته وعرضها بموافقة الوزير. وقد حل محل السيدين كونتيه ولانكريه على التوالي السيدان جومار وجولوا (*) ، أما السيدان ديليل وديفيلييه فقد ضما إلى هذه اللجنة في بداية عام ١٨١٠ .

(*) اكتفيت بإيراد الأسماء هنا بالحروف العربية ، حيث سبق ورود كل أسماء علماء الحملة بالحروف اللاتينية في مذكرة المسيو بانكوك . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان من الضرورى أن يعين قوميسيير ، كى يتولى تنظيم ومباشرة تفاصيل التنفيذ ، ومراعاة المصاريف، والتنسيق بين كل أجزاء العمل، بالإضافة إلى ترتيب المادة وفقا للنظام الذى اتفق عليه. وعليه أن يختار الحفارين ، وأن يستلم منجزاتهم ، وأن يضعها تحت فحص اللجنة ، وأن يقدم كشفا بالمصاريف وبيانا بالتقدم المضطرد فى العمل، وفى النهاية أن يدير مختلف نواحى العمل فى حفر وطباعة اللوحات . وقد عين الوزير، ليشغل هذا العمل، المسيو كونتيه الذى أحدثت وفاته أسفا بالغا، فهو الرجل الذى قدم لوطنه وللعلوم خدمات لا تنسى ، وهو الأمر الذى وجدنا أن الواجب يقتضى منا أن نذكره فى مقدمتنا التاريخية . وقد خلفه المسيو ميشيلانج لانكريه، مهندس الطرق والكبارى، فى نهاية عام ١٨٠٥، وكان قد لفت إليه الأنظار منذ وقت طويل بمعارفه النادرة للغاية فى مجال الهندسة وفى كل فروع الفلسفة الطبيعية، لكنه سقط صريع مرض مزمن ومؤلم عند نحو نهاية عام ١٨٠٧ ، بعد أن قدم أمارات لا حصر لها على حماسة قل أن نجد لها نظيرا، وحل محله المسيو جومار مهندس المساحة السابق والمشرف على المخازن العسكرية والذى خصص لهذا العمل منذ وفاة المسيو كونتيه عنايته المثابرة . وقد اختارت اللجنة المكلفة بإدارة النشر – من بين أعضائها، وبموافقة وزير الداخلية – سكرتيرا موكلا بالمراسلات العامة، يقوم بتدوين المداولات، وبالمراقبة المباشرة على طبع الدراسات، وبالمساهمة مع القوميسيير الخاص فى جمع وتصويب اللوحات . وعهد بهذه المهمة على التوالى إلى السيدين لانكريه وجومار، ويشغلها اليوم المسيو جولوا مهندس الطرق والكبارى، ويشرف المؤلفون المقيمون بباريس على حفر رسومهم بالتنسيق مع قوميسيير الوزير .

كان الهدف الذى توخيناه عند وضع هذه الموسوعة أن نقدم بانتظام النتائج التى تتصل بعصور مصر القديمة، وبالحالة الراهنة والتاريخ الطبيعى، وجغرافية مصر، أى بتجميع العناصر الرئيسية لدراسة هذه البلاد . وقد وزع هذا العمل الكبير بين عدد كبير من الذين أسهموا فيه، وقد كونا عن طريق تجميع أعمالهم،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

الوصف الكامل الذى كنا قد توخيناه. وقد وجدنا من الضرورى أن يتم فحص كل جزء من هذه الموسوعة عن طريق المؤلفين مجتمعين، وليست هناك دراسة واحدة أو رسما واحداً لم يعرض بشكل مفصل أمام الجمعية العامة ، حيث خضع هناك لمداولات متأنية . وكان الغرض من هذه المناقشات العامة ضمان دقة الوقائع، واستبعاد أو تصويب الأعمال المحرفة أو غير الدقيقة . وأعطت هذه المناقشات لأولئك الذين قبلت أعمالهم نوعا من الأصالة أو التوثيق ، ذلك أنه لم يسمح بالنشر لأى من هؤلاء إلا بعد أن نالوا الموافقة فى اقتراع ، وبغالبية الأصوات . لكن هذا الفحص لم يكن ليمتد مطلقا كى يتناول الأفكار التى تبناها مؤلفو الدراسات أو إلى النتائج التى استخلصوها من أبحاثهم ، ومع ذلك فلا ينبغى أن نرتب على ذلك أن جماعة المشاركين كانت تشاطر على الدوام هذه الآراء، أو حتى كانت تشاطر هذه الآراء تلك اللجنة التى كانت تتولى نشر الأعمال .

ولسوف نضمن الجزء الأخير من وصف مصر قائمة بأسماء كل الذين سيسهمون فى هذه الموسوعة، وعندئذ فقط يمكن لنا القول بأننا قدمنا قائمة عامة ودقيقة، وستحل هذه القائمة الشاملة محل تلك القوائم الجزئية التى ستلحق بكل جزء، وسوف نضيف كذلك أسماء المشاركين الذين أوقف الموت أعمالهم ، سواء بعد رجوع جيش الشرق ، أو خلال الحملة .

ولقد سهل من إنجاز هذه المهمة الكبيرة تلك الرعاية المستمرة من جانب الحكومة، ولقد قدمت هذه الرعاية الكثير من التشجيع إلى الحفارين الفرنسيين حين سعت إلى إسهام متواصل لعدد كبير من الفنانين، كما أدت هذه الرعاية فى النهاية إلى أشواط جديدة فى تقدم هذا النوع من فن الرسم، وقد اكتسب حفر الخرائط الطبوغرافية ولوحات التاريخ الطبيعي، وبشكل خاص لوحات العمارة، درجة من الاتقان لافتة للنظر، وسيجد الناس فى هذا الإنجاز نماذج كثيرة من العمل بالغة النقاء وبالغة التمام . وعند التدريب على كيفية التعبير عن الطابع العظيم الذى للمبانى المصرية، تكوّن فنانون شبان، تميزوا بالفعل بمواهب نادرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

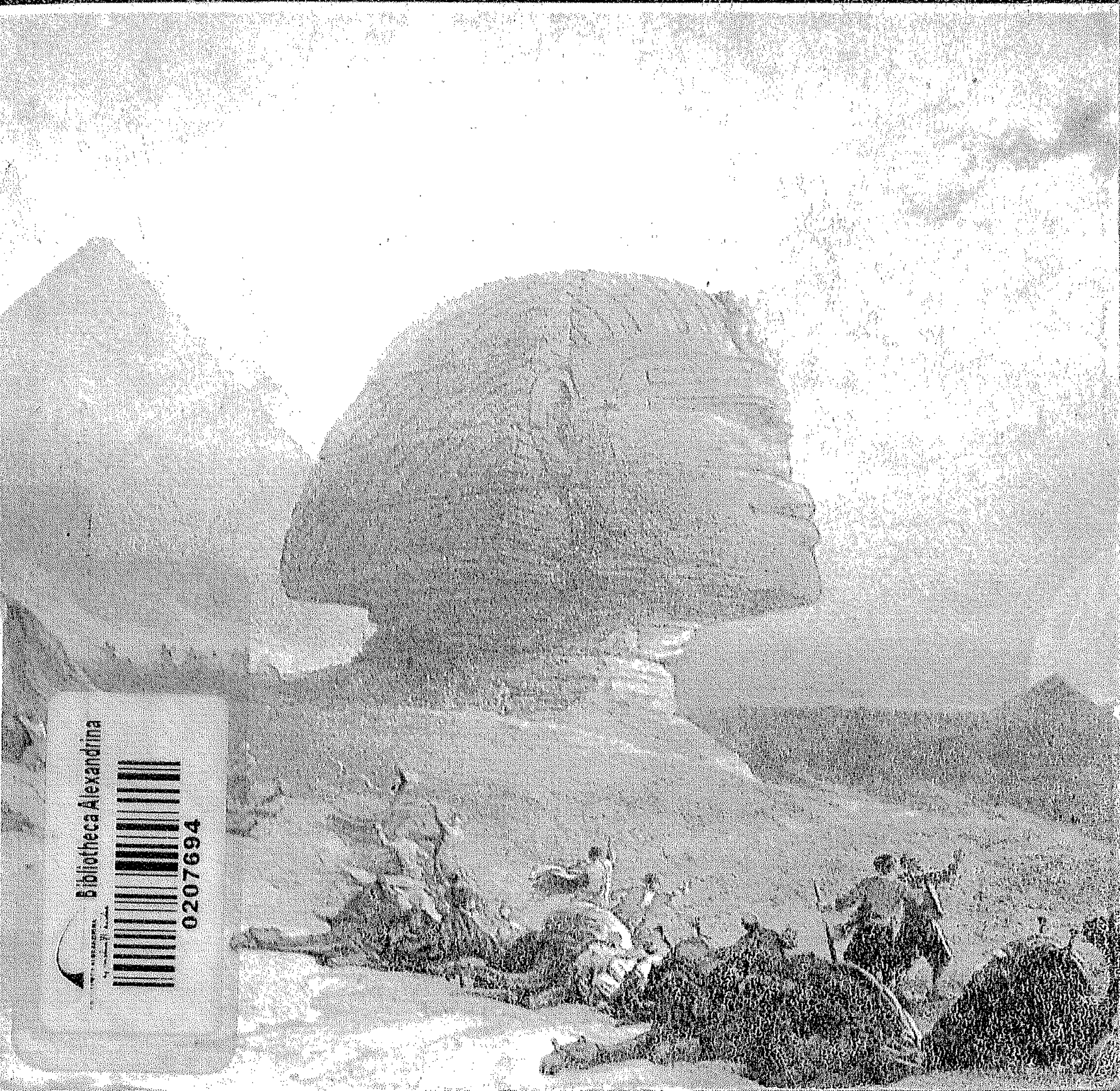

Bibliotheca Alexandrina
0207694

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الترجمة الكاملة
(٢)

وصف مصر

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

العرب فى ريف مصر وصحراواتها

دار الشايب للنشر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اهداءات ١٩٩٩

صندوق التنمية الثقافية

القاهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢

وصف مصر
الترجمة الكاملة

وصف مصر

العرب في ريف مصر وصحراواتها

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

دار الشايب للنشر

١٠ ش سليمان الحلبي - التوفيقية
ت: ٥٧٤١٣٧١ - ٥٧٢٦٨٣٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى

مِصـــرَ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعــة الثانيــة

يسرني أن أقــدم الى قراء العربيــة هذه الطبعة الثانية من هذا المجلد ، وهي مناسبة طيبة لحمد الله ولتوجيه الشكر للقارىء النبيل الذى اولى هذا العمل ثقته واقبــاله .

ومما له دلالته الطيبة أن تصدر هذه الطبعة في ظروف هي أفضل بكثير من الظروف التى صــدرت فيها الطبعة الأولى،فقد اصبح لهذا العمل اليوم ناشر يتعهده مشكورا ، هو مكتبة الخانجى العريقة بعد أن كان عبء نشره يقع على كاهلى المثقل ، كما حاز العمل ثقة القارىء والجهات المعنية بعد أن كان يتحسس طريقه وقتها على استحياء يقدم رجلا ويؤخر أخرى، واخيرا فقد نال هذا العمل - وهذا افضل لدى من أن اقول نلت انا عنه - جائزة الدولة التشجيعية لعام ١٩٧٩ كما كان موضع ترحيب كل الاقــلام الجادة والشريفة .

ويسعدنى أن تصدر هذه الطبعة في وقت نوشك فيــه أن نصــدر مجلدين من مجلدات اللوحات هما المجلدان الخاصان بالدولة الحديثة في شكل فنى لائق للغاية يستحق الشكر عليه كل من ساهم فيــه . وبذلك يكون هذا المجهود قد خطا خطوة كبيرة الى الأمام .

اما عن هذه الطبعة ، فانها تختلف عن الطبعة الأولى فيما يلى :

١ - اعادة ترتيب الدراسات ، فجاء الجدول الخاص بالقبائل العربية فى نهــاية الــكتاب وليس فى بدايتــه استجابة لملاحظة القراء غــير المتخصصين الذين وجدوا هذه البداية غير مشجعة لهم على القراءة، مع اننى وضعتها على هذا النحو لاعتبارات أكاديمية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ — اضافة دراسة جديدة اليه تتناول خروج العبرانيين من مصر وهى احدى دراسات العصور القديمة لمصر ، أما السبب فى اضافتها هنا ، فهو أن مؤلفها ، دى بوا — ايميه قد قدمها للجنة التى قامت بنشر وصف مصر باعتبارها متممة لدراسته عن القبائل العربية فى صحراوات مصر والتى وردت فى هذا المجلد .

وهذه هى المرة الأولى التى أسمح لنفسى فيها بنقل دراسة من دراسات العصور القديمة لتتجاور مع دراسات عن الحالة أو الدولة الحديثة فى مصر لأننى اقتنعت بأهمية ذلك ، وبعد أن فكرت فى الأمر مليا ، وقد شجعتنى اعتبارات مماثلة على ضم الدراسة الخاصة بالموسيقى عند قدماء المصريين للدراسة الهامة أو الموسوعة الكبيرة التى تناولت الموسيقى العربية على ضفاف النيل والتى سيبدأ صدورها تباعا اعتبارا من المجلد السابع وهو المجلد القادم الذى سيصدر فى وقت قريب بعون الله .

والله نسأل أن يجنبنا العثرات وأن يهدينا سواء السبيل وأن يوفقنا الى تقديم بعض ماينفع وطننا مصر واخوتنا المصريين .

مارس ١٩٨٠ — **المترجم**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقـدمة الطبعـة الأولى

صدر منذ نحو عامين المجلد الأول من الترجمة العربيـة الـكاملة لـكتاب وصف مصر ـ وتعنى الترجمة الكاملة هنا أننا ننشر النص الكامل دون تصرف من أى نوع ، أما تقديم ترجمة كاملة لكل وصف مصر فسيظل مطمحا نرجو أن تساعدنا الأيام فى تحقيقه ـ مشتملا على احدى دراسات هذا السفر الضخم ، وكان موضوعها « دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين » ، وهى من وضع المهندس الشاب ، ج. دى شابرول ، الذى يشار اليه باسم شابرول دى فولفيك ، والذى شارك فى الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ .

ولقد كانت النية تتجه الى مواصلة نشر أجزاء من وصف مصر تباعا لـكن الظروف لم تكن مواتية ، فتأخر نشر المجلد الثانى منه الى اليوم ، ولابد أن القراء سوف يلتمسون العذر حين يعلمون أن نشر هذه الترجمة، فضلا عن الترجمة ذاتها ، يتم بجهود ذاتية .

● وفى مقدمة المجلد الأول ذكرت انه على الرغم من اية دوافع ذاتيـة ، قـد تكون وراء نشر مؤلف كهذا ، الا أننى أحب أن اربط الجهد كله بتلك الحركة التى دبت فى مصر ، منذ يونيو ١٩٦٧ ، والتى زادت بعد أكتوبر ١٩٧٣ ، الذى أعاد لمصر بعض توازنها وبعض ثقتها بالنفس، فاستمرت فيما بدأت فيـه فى محاولتهـا التفتيش والبحث عن الذات ، ساعية الى استقراء كافة تاريخها ، لاسيما تاريخها الحديث الذى بدا فى بعض فترات حياتها المعاصرة وكأنه لا يلقى الاهتمام الكافى . وحين أحاول ان اجد ما اقدم به هذا المجلد الثانى ، فاننى أجدنى أكاد أكرر نفس ماقلته آنذاك . أن التاريخ حلقات متصلة ، كل حقبة منه تحمل ظل سابقتها ، كما انها تشكل على نحو ما ملامح الحقبة القادمة حتى ولو قامت ثورات شاملة ، تسعى لتغيير كل شيء ، فمعطيات الواقع وعنـاصره ، التى يتشكل منها الحاضر ، الذى يصبح بعد ذلك «تاريخا» قادرة على التحور، لتوجد فى أشكال جـديدة ، بتسميات جـديدة . وأكثر من ذلك فان ما « مضى » ـ أى ماحدث وأصبح تاريخا ـ هو أكثر أبعاد الزمن صدقا،

لأنه تشكل بصفة نهائية ، فى حين يظل الحاضر افتراضا زئبقيا ، يقفز دوما الى الأمام ، أو يتشبث بمعطيات الماضى ، أو يفعل الاثنين فى وقت معا فى أغلب الأحيان . نعم ، قد تضطرنا الظروف لاستقراء الماضى على نحو ما ، كما أن من المشروع — من الناحية الأكاديمية البحتة وليست السياسية العارضة فقط — أن نختلف فى تفسير دروس التاريخ ، ومغزى معطياته ، لكن الوقائع مع ذلك لابد لها أن تحترم هذا الوازع الأخلاقى ، ليس فقط لأن الصدق مع النفس يقتضى ذلك ، وانما لأننا — أيضا — اذا ماسلكنا هذا الدرب — درب عدم احترام الوقائع التى تمت أو تجاهلها — لن نستطيع مطلقا ان نفهم الحاضر الذى نعيشه ، وسيصبح هذا الحاضر مجرد محاولات تتنصل متخبطة ، فى حين يصبح المستقبل نفسه مغامرة غير مأمونة الى ان يأتى اليوم الذى يصبح فيه المستقبل واقعا مريرا ، أو حاضرا لم نكن نتوقع أننا نسير اليه .

لكن هذا الذى نقر به لا يعنى مطلقا اننا نحبذ الجمود او ندعو اليه ، فالتطور حتمى شئنا أم أبينا ، والماضى لا يعود مطلقا ، كما انه ليس خيرا كله ، وفى نفس الوقت ، فلابد أن تكون لنا احلامنا وطموحاتنا فى مستقبل افضل ، نصنعه ، ولا ندع الأيام تصوغنا كما تهوى . ولكن يبقى هناك على الدوام الفرق بين الطموح المشروع وبين الخيال المحض ، وبين الاعتراف بالواقع وبين الجمود ، وفى كلمة ، بين أن نبنى فوق أساس متين ، وبين أن نشيد قصور الوهم العالية فوق الرمال الناعمة ، المتحركة .

لابد أن هذا كله ، أو بعضا منه ، أو اكثر من ذلك ، هو الذى حدا بالحركة المصرية فى مصر أن تنقب فى تاريخها الحديث ، وان تتصدى له ، وان تحاول اعادة النظر فى أمور كادت تعد من المسلمات . ومن اللافت للنظر أن الذين تصدوا لهذه الحركة الفكرية التى ارتبطت بالتاريخ لم يكونوا كلهم من اساتذة التاريخ ، مما يعنى ان التاريخ كعلم قد أصبح « ثقافة » يحرص المثقفون جميعا ليس فقط على الالمام بها واستيعابها ، وانما كذلك على الاسهام فيها ، دون ان يعنى ذلك مطلقا اى مساس بقدر وانجاز أساتذة التاريخ الأجلاء ، الذين ستظل منوطة بهم بطبيعة الحال الانجازات الرئيسية فى هذا المجال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن جهة اخرى فاننى لا اريـد ان اقحم رأيى هنـا ، ولست أريد بالذات ان يكون تقديم هذه الدراسات هو المناسبة التى يقال فيهـا راى خاص او يدور جدل لا ينبغى أن يتحمل هذا العمل وزر خطئـه ان كان مخطئا ، أو ينال دعما بسببه قد لا يستحقه ان كان هذا الراى صائبا . فلسنا هنا على الأقل ازاء مؤلف نضعه فى الوقت الحاضر ، نساهم به فى جدل قائم ، لـكنه « ترجمة » لدراسات كتبها « اجانب » عن ظروف بعينها عاشتها مصر فى بعض مراحل حياتها ، كما انها قد كتبت من وجهة نظر هى ليست وجهة نظرنا . وقـد حملت وجهـة النظر هـذه بالطبع بصمات الظروف التى كتبها فيها أصحابها ، كما عبرت اكثر من ذلك عن رغباتهم وطموحاتهم ومتاعبهم هم .. وان كان ذلك لايعنى انكار الوقائع، كما لا يعنى كذلك أن تصدر حكما قاطعا بموجبها ، فليست هى الحيثيات الوحيدة ، أو التى لا يأتيها الباطل من بين يديها او من خلفها ، واكثر من ذلك فاننا لاينبغى أن ننظر الى الحاضر من معطيات ماض ولى ، بل وتمثلته مصر واصبح جزءاً منها . بل اننا قد نرى فى هذه اللوحة القـاتمة التى تقدمها هذه الدراسات التسع فى مجملها - بخصوص علاقة مصر بالقبائل العربية التى كادت تحيط بها وتنفذ الى اعماق واديها ودلتاها وعلى الرغم من كل التحفظات الضرورية التى سبق ابرازها - أمرا ايجابيا ينبغى ابرازه، الا هو تلك القدرة العبقرية الفذة التى لمصر ، والتى تمكنها من استيعاب كل المتناقضـات ، واحتواء كافة نواحى السلب ، ثم تمثل ذلك كله بخطو وئيد لـكنه واثق ، ثم افرازه فى النهاية كيانا سويا ، متناغمـا ، وفوق ذلك كله ، مصريا .. كأنما كانت هذه الحركة العنيفة من الشد والجذب بوتقة ينصـهر فى أتونها شعب مصر ، ليصـبح واحدا من اكثر شـعوب العـروبة امتزاجا وتوحـدا .. وليس صـدفة ان مصر وحـدها دون كل شعوب المنطقة ، هى التى لاتشكو من وجـود أقليـات عنصرية فى داخلها ، على الرغم من كثرة من وفدوا اليها .. وبخلاف شعوب اخرى من حولنا .

بل اننا نكاد نقف فى هذا المثال الفـذ على درس حضـارى ، بل انسانى عظيم فى هذه القدرة على التمثل والهضـم ، فحين تمثلت مصر العناصر المملوكية والتركية مثلا ، فقد جعلتهم ابناءها ، لايكاد يميزهم احد عن سواهم ، وبغض النظر عن بعض التفاصيل الوقتية أو المرحلية ،فقد اصبحوا محض مصريين ! وهكذا ذاب الغالب فى المغلوب ، واصبح قدره قدره ، وهو نفس قدر مصر ، يجوز عليهم مايجوز عليها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واذا ماتركنا كل هذا لنقترب من العمل الذى بين يدينا فاننا نجده كما سبق القول ، يشتمل على تسع دراسات لثمانيـــة مؤلفين من الذين شـــاركوا فى الحملة الفرنســـية على مصر ، وبالتـــالى فى وضع وتأليف كتاب وصف مصر .

واذا كان من المقبول والممكن أن نقدم الدراسات الــكبيرة من هـــذا المؤلف الــكبير فى كتب مستقلة كما هو الحال بشأن المجلد الأول ، وبشأن دراسات أخرى كثيرة : كدراسة جومار عن مدينة القـــاهرة ، ودراســـة ديجينيت ولارى عن الأمراض ، ودراسة جيرار عن الزراعة والصـــناعة والتجارة ، ودراسة فيوتو عن الحالة الحالية لفن الموسيقى والغناء عند المصريين ، فانه من غير الممكن أو المتصور كذلك أن نقدم الدراسات القصيرة على نفس النحو ، أى فى كتب مستقلة ، كما لايحسن تقديمها مجمعة كيفما اتفق . ولكى يكون القارىء فى الصورة معنا ، فانني أوضح له دون أن يعنى ذلك أى مأخذ — أن الدراسات فى كتاب وصف مصر تتجاور فى نفس المجلد ، قصيرة وطويلة ، دون نسق منهجى واضـــح . هى اذن أشـــبه بكتب وكتيبات مستقلة تتجاور أو تتلاحق دون رابطة منهجية ، وان كانت تدخل كلها بالطبع ضمن اطار « وصف » مصر .

ولقد حاولنا أن نضفى هنا طابعا منهجيا على هـــذه الدراســـات ، فحاولنا تجميعها حسب الموضوع الرئيسى الذى تدور حوله . فجاء هـــذا المجلد بدراساته التسع التى تدور كلها حول القبـــائل العربيـــة ودورها فى مصر .

ومثل هذا المنهج — مع أنه فى تقديرنا افضل مايمكن اتبـــاعه — لا يمكن أن يكون مبرءا من العيوب ، ان لـــكل دراسة من هذه الدراسات التسع ظروفها التى كتبت فيها ، كما أنها تختلف باختـــلاف نظرة كل من مؤلفيها الثمانية الى الأمور ، مابين منصف ومتحامل ومجامل ايضا .. وما بين نظرة استعمارية تنشد الاصـــلاح لغرض بعينه ، وما بين فهم انسانى شامل وعميق للأمور .

ومن جهة أخرى فان معطيات هذه الدراسات تتجاوز فى الحقيقـــة الاطار الذى وضعت داخله فى ترجمتنا العربيـــة ، فلسوف تقـــابلنا فى ثنـــاياها :

— امور تختص بجغرافية مصر وطبوغرافيتها

— وأمور أخرى تتعلق بمسيرة الحملة الفرنسية ذاتهــا على مصر والمتاعب والصعوبات التى كانت تواجهها .

— وأمور ثالثة قد تدخل فى نطاق تاريخ العلم، فالأحداث والاكتشافات اليوم قد تجاوزتها .

— وهناك أمور رابعة تعد من قبيل جغرافية التاريخ . أى تنــاول التاريخ فى مرحلة بعينها بشكل سكونى .

وهذه بالتأكيد عيوب ليست من صنع واضــعى هــذه الدراسات ، الذين لم يقصدوا وقتها ان يضعوا دراستهم فى نفس السياق الذىنضعها نحن فيه اليوم ، وانما هى ناتجة بالتأكيد من محاولة اضفاء منهج لامناص من اتباعه فى واقع الأمر — لــكنه بالتأكيد يأتى من خارجها . وعلى كل فان مثل هذه العيوب تختفى كلية لو أننا حذفنا العنوان الذى اقحمنــاه على هذه الدراسات التسع ، واكتفينا بالاشارة الى هذا المجلد باعتباره المجلد الثانى فى الترجمة العربية الــكاملة ، وان كان هــذا بدوره غير متصور ، الا بعد ان تتم ترجمة ونشر هذا السفر كاملا ، او علي الأقــل المجلدات الثلاثة الخاصة بالدولة الحديثة .

ولقد شارك فى تأليف هذه الدراسات كما سبق القول ثمانيـــة من علماء الحملة الفرنسية ، وابرز هؤلاء بالتأكيد الرياضى الشهير العــلامة مونج ، رئيس المجمع العلمى الذى انشأه بونابرت فى القاهرة . وتوضح الدراسة التى « يشارك » بها هنــا — الدراسة الرابعة « دراسةموجزة عن عيــون موسى » — اسـلوبه المركز والملىء ، والصــارم فى دقتــه وموضوعيته ، وان كنا نأسف حقا لأننـــا لم نجد له فى هذا الاطار الذى اخترناه دراسات اكبر واطول .

واول دراسات هذا المجلد الذى بين يدينـــا من وضع أميديه ايمليان جوبير وهو مستشرق فرنسى ، وعضو مجمع العلوم فى فرنسا ، وقــد شارك فى حملة مصر بوظيفة سكرتير اول مترجم للقائد العــام بونابرت، وتولى تدريس اللغة التركية عقب عودته الى فرنسا ، ثم قام ببعض المهام الدبلوماسية في فارس وتركيا خدمة لنابليون . وقد عين بعد عودة الملكية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى فرنسا سكرتيرا مترجما عام ١٨١٩ ، وفى عام ١٨٣٠ عين مدرسا للغة الفارسية فى الكوليج دى فرانس ، وله مؤلفات عن رحلاته الى ارمينيا وفارس ، وعن قواعد اللغة التركية . كما ترجم عن العربية جغرافية الادريسى . وله بالاضافة الى ذلك مقالات كثيرة .

اما الدراسة الثانية فهى لأحد شبان مهندسى وضباط الحملة الفرنسية الذين تصمت كثير من المراجع عن ذكرهم للاسف ، جراتيان لوبير وهو الشقيق الأصغر للمهندس لوبير كبير مهندسى الحملة الفرنسية ، الذى اشرف على الدراسات الهندسية الخاصة بقناة السويس . ومن دراساته فى وصف مصر ، يتضح انه كان من معاونى الجنرال مينو ، وقد أصيب كما ذكر بالطاعون مرتين ونجا من الموت بأعجوبة وتوضح دراساته تشبعه بتخصصه كمهندس اذ يكاد يكون العالم فى نظره أطوالا ومقاييس . وفضلا عن ذلك فان نظرته للامور يشوبها — فى بعض الدراسات — نوع من التعالى والتعصب .

أما الدراسة الثالثة فهى من وضع الجنرال أندريوسى (أنطوان — فرانسوا أندريوسى) ، وهو جنرال (عسكرى) ودبلوماسى ، وهوالحفيد الأصغر لأندريوسى المهندس والعالم الرياضى ، كان عضوا فى مجمع القاهرة وبعد عودته الى فرنسا عين سفيرا لبلاده فى لندن ثم فينا ثم استانبول على التوالى . وخلال المائة يوم عاد الى الخدمة تحت قيادة نابليون ، وبعد واترلو شارك فى المفاوضات لانقاذ ما يمكن انقاذه ، وله دراسات هامة أبرزها دراسة عن تناقص مساحة كوكب الأرض .

أما ج. كوتل مؤلف الدراسة الخامسة فهو مهندس ، ولد فى مانس ١٧٤٨ ومات بها عام ١٨٣٥ ، أى أنه جاء مصر وعمره نحو خمسين عاما ، وقد درس منذ طفولته الفيزياء والكهرباء ، وكان رئيس اركان لجنة السلم العام ، وقد ادت معركة أبى قير الى ضياع كثير من المادة التى جمعها عن مصر .

والدراستان السادسة والسابعة من وضع مؤلف واحد هو دى بوا — ايميه ، ومن المعلومات القليلة التى تذكرها المصادر عنه نعرف أنه طالب مهندس ، وأنه قدم الى مصر وعمره نحو تسعة عشر عاما . لكننا حين نقرأ دراستيه ، وكذا الأعمال الأخرى التى ساهم بها فى وصف

مصر ، سوف نظن انفسنا بازاء شيخ كبير عركته الأيام وباحت له بمكنونات سرها وتجاربها . وتجمع اعماله الشامخة بحق بين غزارة المعلومات ، وسلاستها ، وبين عذوبة الأسلوب ورقته وشاعريته . وهو لايصدر فقط عن روح متصفة وانما يتجاوز ذلك بكثير فيصدر بحق عن روح انسانية عظيمة ، لاتقف عند حدود الأجناس والحضارات بل تنداح عندها الحدود وتتداخل الحضارات ، ونلمس في كتاباته حبه العظيم لمصر وانبهاره الشديد بها . ومن عجب اننا لم نسمع به واحدا من كبار ادباء فرنسا وعظمائها ، وقد يعود ذلك لأن عمره العبقري كان قصيرا ، فقد مات وعمره لما يتجاوز ٣٦ عاما .

واذا كانت تنقصنا المعلومات الوفيرة كذلك عن ب.م. مارتان مؤلف الدراسة الثامنة ، وان كنا نتعرف عليه من خلال دراسته ، ونلحظ انه كان متشبعا الى حد ما بأفكار مينو الاستعمارية بخصوص مصر ، مع اننا نحيي فيه حقا رغبته الجامحة فى معرفة مصر والوقوف حتى على مجموعة احجارها ، فاننا ولاشك نعرف الكثير عن جومار او ادم — فرانسوا جومار مؤلف الدراسة التاسعة عن عرب مصر الوسطى ، وهو مهندس وجغرافي واركيولوجى. وقد ولد فىفرساى عام١٧٧٧ ومات عام١٨٦٢ — اى انه قد قدم الى مصر وعمره لما يتجاوز ٢١ عاما ، وعلى الرغم من ذلك جاءت دراساته الكثيرة لتشهد له بالدقة وسعةالأفق واتساع المعارف ،وسلاسة الأسلوب لذلك فقد حل محل مونج عندما غادر الأخير مصر فى صحبة بونابرت . وقد ساهم بجهد كبير فى نشر وصف مصر ، وقد كانت له مكانة كبيرة عند كل من محمد على وسعيد باشا ، وانعم عليه بلقب بك ، ولما اعيد انشاء المجمع العلمى المصرى اسندت اليه رياسته الفخرية عام١٨٦١ ، وكان معدودا من بين كبار علماء الجغرافيا والآثار القديمة فى فرنسا .

ولقد ترددت كثيرا فى اختيار بعض هذه الدراسات كى أدخلها فى هذا الاطار ، وتكاد الدراستان الثانية والثامنة تحظيان بأكبر قدر من هذا التردد ، خاصة واننى قد اعددت مجلدا آخر من هذه الدراسات القصيرة يدور حول « وصف بعض المدن والأقاليم المصرية » ، لكننى فضلت بعد تفكير طويل وضع هاتين الدراستين على الرغم من انتمائهما اكثر الى هذا النسق ، بسبب كبر حجم المجلد الخاص بالمدن من ناحية ، وبسبب وجود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اشارات هامة ومسهبة حول القبائل العربيـــة فى الدراستين ، وكذلك بسبب وجود قائمة بالقبائل العربية فى بنى ســـويف والفيوم ، وهو أمر تتضح جدواه حين نربط هذه الدراسة بالدراسة الأخيرة التى تدور حول العرب فى مصر الوسطى .

ويحتم واجب الأمانة ان اقر بالمصـــاعب التى واجهتنى فى تحقيـــق اسماء القرى والأماكن والقبائل ، بسبب الأخطاء الاملائية ، واخطاء النطق منجهة وتشابه هذه الأسماء نفسها منجهة أخرى، مع غيبة الارشادات التى تستخدمها اللغاتالأجنبية اليوم حين تكتب الأسماءالعربية .وقد اقتضى ذلك منى بذل الكثير من الجهد والوقت والاستعانة بالأصـــدقاء والمراجع وكافة المظان المتيسرة .. ومع ذلك فاننى ارجو المعـــذرة ان كانت قـــد تسربت رغم ذلك كله بعض الأخطـــاء فى هذا الخصوص . وهذا قصور لاشك فيـــه فى حالة حدوثه لايمكن تبريره واننى فى هذا الصـــدد أتقبل بصدر رحب كل توجيه أو حتى تصويب .

كما يدفعنى واجب الأمانة ان اقرر ايضا أننى قد تصرفت فى موطن أو اثنين فى ترجمة عبارتين وجدت من اللائق أن أتصرف فى ترجمتهما . وقد أشرت الى ذلك فى موضعه .

كما أن الأمانة تقتضى كذلك ان اشير الى تلك المساعدات القيمة التى لقيتها فى سخاء وروح علمية عالية من الأساتذة والأصـــدقاء ، اســـتاذنا الدكتور عبد الرحمن زكي والأخوين الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن استاذ التاريخ بكلية البنات الاسلامية والأستاذ رينيه خورى .

كما لا يفوتنى أن أوجـــه شـــكرا خاصـــا للاخ الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة الذى افسح لهذا الجهد صـــفحات مطولات من مجلته القيمة ، بشكل يستحق عليه من جانبى كل الشكر ، كما كان لتشجيعه بالـــكتابة عنـــه بقلمه أو بأقـــلام آخرين افضـــل الأثر فى نفسى .

وحين اختم ذلك باسداء الشكر الى السيدة زوجتى على ماتقدمه من عون وتشجيع من أجل انجاز هذا العمل فاننى لا افعـل ذلك ليـاقة او مجاملة وانما اقرارا لحق واعترافا بواقع ملموس ومشكور .

كما اقـدم الشكر لـكل من ساهم فى **تشجيعى** على هذا العمل ولو بمجرد التشجيع الشفهى ــ واقـدم الشـكر سلفـا لـكل من يتطـوع بالنصح والتوجيه .

وكل ما أرجوه أن يكون هـذا الجهـد نافعا لوطنى مصر ولمواطنى المصريين وسيكون هذا ــ لو تحقق ــ هو افضل الجزاء .

والله تعـالى هو الموفق ،،،

زهير الشايب

مارس ١٩٧٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراسة الأولى :

جولة فى إقليم المريوطية

جراتيان لوبير

العنوان الأصلى للدراسة هو :

دراسة موجزة عن الجزء الغربى من ولاية البحيرة والذى كان يعرف قديما باسم اقليم المريوطية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حين نتذكر وجود منطقة قديمة لم تتغير طبيعتها (*) .. لكنها مع ذلك لم تعد كما كانت فى الماضى آهلة بالسكان أو مزروعة ، فمعنى ذلك اننا نحاول النظر فى امكانية استجلاب سكان جدد اليها ، وبخاصة عندما لاتكون هذه الأراضى قد فقدت العوامل الطبيعية لخصوبتها . ونحن نقصد هنا بهذا الحديث ذلك الاقليم الذى يقع فى أقصى الغرب من شمال مصر والذى كان يعرف فى زمن الامبراطورية الرومانية باسم اقليم المريوطية ، والذى لا يحمل اسم مريوط الحالى الا مجرد ذكرى باهتة لوجوده . وهذا الأسم — مريوط — قد أطلقه العرب على مدينة قديمة فى هذا الاقليم .

وعلى الرغم من أن هذه المنطقة تقع على مشارف الاسكندرية ،فانها فى أيامنا هذه مهجورة وخالية من السكان حتى أننا لا نكاد نعرف — مجرد معرفة — عدد المدن الخربة الموجودة فيها والتى لا يتردد عليها سوى العربان الرعاة أو الرحل ، الذين يأتون ليقيموا فيها خيامهم فى أوقات معينة من السنة .. وسوف يساهم الوصف السريع الذى نقدمه هنا عن حالة هذه المنطقة فى الماضى وكذلك بعض المعلومات التى نقدمها عن

(*) فى الرابع من جرمينال من العام التاسع بالتقويم الثورى الفرنسى ، الموافق ٤ ابريل ١٨٠١ ، قطع الجيش الانجليزى — التركى جسور ترعة الاسكندرية ، عند الطرف الغربى لبحيرة المعدية ، على بعد ٧ر٥ كيلومترات من باب رشيد ، الواقع الى الشرق من السور القديم لمدينة الاسكندرية ، فتدفقت مياه هذه البحيرة المالحة ، وكذا مياه البحر الذى يتصل بها .. وبعد سبعين يوما أى فى نهاية شهر بريريال (١٥ يونية ١٨٠١) امتلأ الحوض القديم لبحيرة مريوط .

ولكى تتبين فرق الجيش المعسكرة بالاسكندرية حقيقة حالها ،وطبيعة الموقف الذى أصبحت فيه ، قامت دورية استطلاع من الجيش لمسح هذه المنطقة ، فكانت هذه الدراسة (المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حالتها الراهنة فى رسم خريطة مصر الجديدة وفى اعطاء افكار دقيقة الى حد ما عن هذا الجزء من أرض مصر (١) .

وقد أطلق الرومان اسم اقليم المريوطية على كل البلاد الواقعة بين بحيرة ماريوتيس « مريوط » والبحر فى الشمال . ويحد هذا الاقليم من جهة الغرب : البحر بلا ماء ، ومن جهة الجنوب وادى اقليم نتريوتيس ، ومن الشرق الترعة التى كانت تحمل مياه النهر الى البحيرة التى اعطت الاقليم اسمها. وكانت بحيرة ماريوتيس تمتد حسبما يقول سترابون حتى مدينة تابوزيريس على الخليج البلنتينى ، وكانت محاطة بالمساكن الفخمة والقرى والمدن وكانت مدينة ماريا عاصمة لهذا الاقليم . وقد عاشت هذه المدينة قبل مجىء تمبيز بوقت طويل فى العام ٢٢٩ من تأسيس روما أى قبل الميلاد بـ ٥٢٥ سنة . ويقول هيرودوت حول هذا الموضوع : « وعندما شعر سكان ماريا بالنفور من الحفلات الدينية التى كانت للمصريين ، أرسلوا يستلهمون الوحى من جوبتير آمون كي يعرفوا ما ان كان ينبغى عليهم أن يخضعوا لهذه القوانين ، لانهم كانوا يظنون انفسهم من شعوب ليبيا لكن الوحى اجاب بأن كل البلاد التى يغطيها النيل بمياهه تابعة لمصر ، وان الاقوام الذين يشربون من مياهه انما هم مصريون » . وهذا الأقليم الذى يقع على تخوم الصحراء الليبية هو فى الواقع اقليم مصرى ، وكان على الدوام خاضعا لحكم الأمراء المصريين ، وفضلا عن ذلك ، فهو يدين بكل مبانيه وزراعاته لمياه النيل . وعلى هذا فان اجابة وحى آمون تبدو صحيحة وطبيعية .

وترجع أسماء أهم المدن والقرى فى هذا الاقليم — كما نوردها هنا — الى العالم الجغرافى بطليموس الذى يحدد مواقعها الجغرافية على النحو التالى :

---

(١) مريوط . واسمها القديم ماريوتيس . يقول عنها عبد الرشيد فى معجمه : انها مدينة تقع بالقرب من الاسكندرية ، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ، واشتهر عن سكانها أنهم يعمرون طويلا .

اسم المدينة	خط الطول		خط العرض	
شيموفيكس	٣٠′	٥٩°	٦′	٣١°
بلنتين	٤٥′	٥٩°	٠	٣١°
جزيرة شرسونيسيس ومدينة بورتس	٠	٦٠°	٦′	٣١°
مونوكامينيم	١٠′	٥٩°	٣٠′	٣٠°
هاميرا	٤٠′	٥٩°	٥٠′	٣٠°
تابوديريس	٥٠′	٥٩°	١٥′	٣٠°
كوبى	١٠′	٥٩°	٢٠′	٣٠°
أنتيفيلى	٣٠′	٥٩°	٢٠′	٣٠°
هيراكس	٤٠′	٥٩°	٤٠′	٣٠°
فوموثيس	٠	٦٠°	٤٠′	٣٠°
بالى ماريا فيكس	٠	٦٠°	١٠′	٣٠°
ماريا بالوس	١٥′	٦٠°	٥٠′	٣٠°
الإسكندرية وراكوتيس	٣٠′	٦٠°	٠	٣١°
كانوبوس ، مينلاى ، متروبوليس	٤٥′	٦٠°	٦′	٣١°

ويمكن بواسطة هذا الجدول ، أن نستدل بسهولة على الموقع الخاص بأهم الأماكن فى هذا الاقليم القديم ، وأن نرسم خريطة له ، ولكنا سرعان ما نلحظ عند تمحيص هذا الجدول ، بعض الأخطاء التى تعود بلا ريب ، الى معطيات خطوط العرض ، اذ كيف نجد جزيرة شرسونيسيس ، التى لا جدال فى أنها هى الموقع الحالى لمريوت (العجمى) ، وهو راس صغير به حصن ، ويقع على بعد فرسخين صغيرين ، على الشاطىء الذى ينحدر الى الجنوب الغربى من الاسكندرية — كيف يمكن لنا أن نجدها مبينة على ار٥. الى الشمال من خط عرض هذه المدينة .

ويمكننا ان نقول المزيد بخصوص موقع بلنتين ، التى تبين على نفس خط الاسكندرية ، على الرغم من أنها اكثر ابتعادا ، نحو الجنوب الغربى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومع ذلك فان من العسير أن نتقبل ان يكون بطليموس – وهو العالم الجغرافى والفلكى الذى ينتمى الى مدرسة الاسكندرية ، والذى كان يقيم بهذه المدينة من عام ١١٧ الى ١٦١ من العصر الحديث – هو الذى يمكن أن يقع فى أخطاء كهذه حول مواقع أماكن شديدة القرب من عاصمة مصر ، كانت تربطها بها علاقات قوية بسبب روابط السياسة والتجارة والدين . . ولعل من الأقرب للصواب أن ننسب هذه الأخطاء الى الناسخين والى مترجمى هذا العالم الجغرافى كما يمكن أن ننسبها كذلك الى شراحه كما يرى جوسلان Gosselin (٢) فى كتابه : الجغرافيا عند الاغريق Géographie des Grecs

ويحدد سترابون مواقع المدن الساحلية لهذا الاقليم بشكل مخالف فيتحدث عن كينوسيما وعن تابوزيريس التى يقول عنها بأنها لاتقع مباشرة على شاطىء البحر وانه كان يحتفل فيها بأعياد كبرى ، ثم يتحدث عن تابوزيريس أخرى تبعد من الأولى بمسافة كافية ، وكان يجرى فيهما كل عام – فى فصل الربيع – مسابقة للشعب وبخاصة بين الشبان الذين كانوا يساهمون فى الاحتفالات بالنصيب الأكبر . ونفهم من كلام سترابون انه كانت تحدث هناك كما كان يحدث أيضا فى كانوبى ومنديس Mendis مشاهد **شهوانية** خليعة كان يغطيها الكهنة بأقنعة من اسرارهم (٣) .

---

(٢) يقول جوسلان Gosselin فى كتابه : الجغرافيا عند الاغريق ، الذى شرح فيه ملاحة القدماء ان بوزيدونيوس Posidonius قد اقترح على مدرسة الاسكندرية مقياسا جديدا للدرجة الأرضية ، وينقص هذا المقياس الذى أخذ به ، قيمة الدرجة الى ٥٠٠ غلوة ، فكانت الدرجة تقاس من قبل بـ ٧٠٠ غلوة للمسافات التى تؤخذ باتجاه خطوط العرض ، وفى الاسكندرية تغيرت المسارات القديمة ، لكن بعضها قد نسى بلا جدال : وينسب جوسلان الأخطاء التى تسربت الى جداول بطليموس الى هذا التغيير .

(٣) فى كتابه عن تاريخ المصريين ، لا يتحدث هيرودت عن الأعياد السنوية التى كانوا يحتفلون بها فى منديس Mendis الا فى تكتم غامض عادة كالأسرار المصرية نفسها ، على الرغم من انه قد شارك فى هذه الأعياد وتمثلها ، ومع ذلك ، فاذا كان هذا المؤرخ قد استطاع أن يحتفظ بالسر الذى اقسم على الحفاظ عليه للكهنة المصريين ، وبخاصة فيما يتصل بديانتهم ، فان بطاركة الاسكندرية ، وآباء الكنيسة الأول ، لم يتحرجوا من أن يكشفوا عن خسة وبذاءة هذه الأعياد فى كتاباتهم ، ويمكن الرجوع فى هذا الصدد الى لارشيه Larchet ، الترجمة الفرنسية لهيرودت ، الكتاب الثانى ، ص ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، باريس ، ١٨٠٢ ، (الملاحظات أرقام ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد هاتين المدينتين اللتين تحملان اسم تابوزيريس تأتى مدن : بلنتين ، نيسيبى ، باجوس ، شرسونيسيس ، والأخيرة عبارة عن رأس صغيرة بها حصن وحامية ، ولم تكن تبعد عن الاسكندرية الا بـ ٧٠ غلوة « الغلوة الاغريقية = ٥٠ر٧٦ قامة وتساوى الغلوة الأولمبية ٩٥ قامة ».

وكانت هذه المنطقة تشتهر بجودة نبيذها — وكان من خاصيته أنه يعيش لوقت طويل — وكانت الاسكندرية تصدر منه كميات كبيرة الى روما والى بلدان اجنبية أخرى . كما كانت هذه المنطقة أيضا تمتلىء بأشجار الزيتون وان كان نوعه هناك أقل جودة من نوع الزيتون الذى كان يزرع باقليم أرسينويت Arsinoïte حيث يعطى الزيتون هناك كميات وفيرة من الزيت .

وكان يسكن الجزء الأكبر من هذا الاقليم فى القرون الأولى للمسيحية، فى عصر أباطرة القسطنطينية ، المسيحيون الذين كانوا يفرون هربا من اضطهاد وملاحقة الأريوسيين والدوناتيين واتباع المذاهب الأخرى ليجدوا ملاذا فى صحراوات مصر الغربية وفى الصعيد . وكان وادى مريوط مزدحما بالسكان ، وبلغ عدد الأديرة التى بنيت هناك حدا دعا الامبراطور فالون Valens فى القرن الرابع أن يكلف الكونت دوريان d'Orient حاكم الاسكندرية أن يجرد حملة على الرهبان الذين يجدهم هناك قادرين على حمل السلاح (٤) .

---

(٤) يقول فلورى Fleury فى كتابه ، موجز التاريخ الكنسى Abrégé de l'Histoire écclésiastique ان الامبراطور فالون valens قد أمر عام ٣٧٦ بأن يجند الرهبان وأن يرغموا على حمل السلاح كجنود . وعلى الرغم من أنه قد ينظر الى هذا الأمر على أنه صادر عن حاكم يضطهد الكنيسة ، الا أنه يمكن القول بأن هذه الألوف الهائلة من الرهبان قد جعلت مثل هذا الأمر ضروريا ، فلقد بلغ عدد الأديرة فى مصر العليا وحدها خمسة آلاف دير وكانت مدينة أوكسيرينشيس oxcyrynchus الواقعة فى الصعيد الأدنى تضم عشرة آلاف راهب وعشرين الف راهبة كما كان دير التبين Tabenne الذى أنشاه القديس باخوم فى الصعيد الأعلى يضم خمسة عشر الف راهب ، أما الدير الذى أنشأته أخته والذى يقع فى مواجهة ديره فكان يضم أربعمائة فتاة ، وكان عدد الذين يحضرون الاجتماعات العامة السنوية التى تعقد تحت رياسته يصل الى خمسين

=

وقــد بلغ عدد الذين جندوا قسرا فى أقليم الجنوب حوالى خمسة آلاف رحلوا جميعا الى القسطنطينية ، حيث الحقوا بجيش الامبراطور . اما الأديرة التى نجدها حتى اليوم فى وادى بحيرات النطرون وفى المناطق الأخرى من مصر ، فليست سوى بقايا هذه الالوف من الأديرة التى كانت تغص بها فيما مضى هذه الصحراوات ، كما أن الخرائب التى عثر عليها الفرنسيون فى كل مكان فى جولاتهم الاستكشافية العسكرية التى قاموا بها فى هذا الجزء الغربى من مصر ، تشهد بصحة مايقول به التاريخ عن ازدحام هذه المنطقة المهجورة اليوم بالسكان فى الزمن القديم . وسنقدم هنا بعض التفاصيل باعتبارها ذات نفع .

قام اللواء ديستان Destaing قائد منطقة الرحمانية بعد عودة الجيش من الحملة على سوريا ببعض حملات ضد العربان فى شهر ترميدور من

=

الف راهب . وكان عدد الرهبان المقيمين فى الأديرة الكبيرة وحدها فى مصر يبلغ ٧٦ الف راهب ، أما عدد الراهبات فقــد بلغ حوالى العشرين الفا . ولا يتضمن هذا الرقم اعداد الرهبان والراهبات فى الأديرة الصغيرة التى لا يحصيها عد ، وكان يخضع لسلطة الأب سيرابيون Sérapion بالقرب من أرسينويه Arsinoé عشرة آلاف راهب .

ويمكن أن نرجع سبب هذا الحماس لحيــاة الأديرة فى ذلك الوقت الى تفشى روح الحزبيــة التى مزقت الــكنيسة فى القــرون الأولى من انشائها ، أكثر مما يمكن أن نرجعها الى الاضطهادات التى تعرضت لهــا الــكنيسة : فقد كانت الاسكندرية مسرحا داميــا لانشــقاقات الدوناتيين والآريوسيين ، ذلك ان المسيحية التى انتشرت بعــد المسيح فى صــمت وسلام ، بدأت فى عهد قسـطنطين (حوالى عام ٣٣٠م) تنتشر بالاغراء والارهاب وقوة السلاح ، وهنــا بدأ الصــليب يخضب الأرض بالدماء ، وتسبب آريوس ، الليبى المولد وزعيم الطائفة التى تحمل اسمه ، واثناس بطريرك الاسكندرية ، بانقسامهما ، فى قيــام حروب اهلية عديدة فى هذه المدينة ، وقد استطاع آريوس ، الذى ادانه مجمع نيس عام ٣٢٥ ، والذى اعاده قسطنطين من المنفى ، أن يضم الى حزبه أكثر من ٧٠٠ فتــاة من الاسكندرية ومريوط .

انظر :

L'Histoire des Bas - Fmpires, t. ler, liv IV et t. III liv. XVIII p. 262.

وكذلك :

L'Histoire de la décadence de l'Empire Romain, t. VI. p. 68.

العام السابع « اغسطس سنة ١٧٩٩ » فاخترق اقليم البحيرة الى منطقة مريوط وقال انه قد شاهد هناك عددا كبيرا من المدن والمساكن المتهدمة .

وفى شهر نيفوز من العام التاسع (يناير ١٨٠١) قام فريان Friant قائد حامية الاسكندرية بحملة ضد بعض قبائل العربان ، واندفع بجنوده حتى برج العرب ، الذى يقع على مسيرة تسع ساعات على الشاطىء الجنوبى الغربى من الاسكندرية . وكانت هذه أول مرة منذ الاحتلال الفرنسى لمصر تكتشف فيها هذه البقعة من الساحل المصرى . وقد أبدى هذا القائد فى تقريره العام عن الحملة ، أسفه لأنه لم يصحب معه بعض الأشخاص من العارفين بالآثار القديمة .

وقد قام كبير مهندسى الحملة ، لوبير Lepère — وهو اخى الأكبر — يصحبه السادة فاى Faye وشابرول Chabrol ولانكريه Lancret وهم من مهندسى الطرق والكبارى ، قام كل هؤلاء بجولة فى اقليمى رشيد والبحيرة ، كان القصد من ورائها استكشاف ترعة الاسكندرية ، التى تبدأ من الرحمانية ، حاملة مياه النيل الى المدينة ، ومن هناك رحل هؤلاء المهندسون فى الرابع من بليفوز من العام التاسع (٢٤ يناير ١٨٠١) لمشاهدة الآثار الموجودة عند برج العرب . وقد سجلت نتائج هذه الجولة الاستطلاعية تحت رقم ١٠٧ من بريد مصر Courrier de l'Egypte ومنذ نزول الانجليز فى أبى قير ، قام قائد الحامية من سلاح الهجانة ببعض الحملات فى هذا الجزء ، وقد اخبرنى بأنه قد مر هناك بأطلال هامة (٥) وقد تمثلت جيدا كل هذه المعلومات ، وانتهزت فرصة آخر حملة استطلاع كلف بها هذا الضابط من قبل الجنرال مينو ، لكى اتأكد من حجم المساحة التى تغرقها بحيرة ماريوتيس (مريوط) وان كانت كل المنطقة قد غرقت بأكملها فى نهاية شهر بريريال من العام التاسع (يونية ١٨٠١) . وهذا ما سأتحدث عنه بافاضة فى مقالى عن البحيرات فى مصر . وقد كان

---

(٥) نقرأ فى رحلات جرانجيه Les Voyages de Granger (ص ٢٢٢) انه يوجد على بعد ستة فراسخ الى الغرب من برج العرب ، برج آخر قد تحول الى أنقاض ، وقد لاحظ هذا الرحالة (فى عام ١٧٣٠ — ١٧٣١) وجود كتابات عربية على جدرانه .

القصد من وراء هذا الاغراق الذى تم ، حصار الفرنسيين فى الاسكندرية، وذلك بقطع اتصالهم بفرقة الجيش الموجودة بالقاهرة .

رحلنا من الاسكندرية فى السادس عشر من فلوريال من العام التاسع (٦ مايو ١٨٠١) ، مع قائد الحامية المسيو كافالييه Cavalier على راس اربعين رجلا من الهجانة ، وكان معنا احد ضباط البحرية هو المسيو جار Gara الذى تلقى تعليمات بأخذ مجسات فى نقاط متفرقة من البحيرة ، وبعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف الساعة ، وصلنا الى اول جزيرتين فى وادى مريوط . كانت المياه بالفعل قد تجاوزتهما بكثير ، وكانتا فى ذلك الوقت قد خصصتا للدفاع عن هذا الجزء المحصور من البحيرة والذى يشكل الراس الشمالية لهذا الوادى . عبرنا الى هاتين الجزيرتين فى قارب من تلك القوارب التى كانت تتبعنا ، فى الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم ، ووجدنا اكبر عمق لمياه البحيرة الذى يبلغ ٥٠٠ الى ٦٠٠ قامة يبلغ عند هذه النقطة ٤٠ بوصة ، وبعد أن نصبنا خيامنا بالجزيرة واصلنا فى اليوم التالى ابحارنا داخل البحيرة التى وصلنا اليها فى الوقت الذى كانت قد وصلت اليها فيه مياه الاغراق . وتوغلنا لمسافة فرسخين الى غرب الجنوب الغربى ، تتبعنا فرقة الحرس التى كانت تسير بحذاء الشاطىء الغربى للجزيرة . وعلى هذا البعد ، وكنا فى حوالى الساعة الثامنة من صباح السابع عشر من فلوريال ، وجدنا أن عمق المياه لم يعد يتجاوز أكثر من ٧ الى ٨ بوصات . وعندما فشلت قواربنا فى التقدم لأبعد من ذلك ، غادرناها لكى نكمل مهمتنا الاستطلاعية سيرا على الأقدام . وبعد ذلك بحوالى نصف فرسخ انتهى المدى الذى وصلت اليه مياه الاغراق . وكانت هذه المياه تواصل حركتها حثيثا . وفى نفس الوقت واصلنا صعود الوادى حتى نتعرف على زاوية اتجاهها وحتى نمنح انفسنا الوقت الكافى لملاحظة المدى والحد اللذين سيبلغهما الغرق فى الأيام التالية .

وبعد قليل وصلنا الى ضريح ، كانت المياه ماتزال على مسيرة ثلاثة ارباع الساعة منه ، ويطلق على هذا الضريح اسم القبة الكبيرة ، وهو حسب العادة عبارة عن مقبرة لبعض شيوخ العربان ، وهؤلاء ينظرون اليها بتقديس كبير ، وهى تقع على بعد حوالى مائتى خطوة من شواطىء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البحيرة فى شعب صغير لأحد التلال وتحيط بهـا اشـجار النخيل التى تحميها من رياح البحر مرتفعات هذا التل نفسه والذى يمتد بطول شاطىء البحيرة . وبعد أن عبرنا مرتفعات هـذا التل فى الشمال هبطنا الى واد صغير مواز للبحيرة وللشاطىء ، ويمتد بطول البحر ابتـداء من الضريح ولمسافة ١٠ ـــ١٢ فرسخا الى الجنوب الغربى ، ويجد المرء هنا وهناك بعض جذوع النخيل وآثار خضرة واشارات لم تستغلق علينـا تدل على وجود مياه عذبة تحت رمال الصحراء . وتغلق هذا الوادى الصغير من جهة الجنوب سلسلة متصلة من المرتفعات التى تحدثنا عنها والتى تشرف على بحيرة مريوط ، أما من جهة البحر « الشمال » فتحده سلسلةصغيرة من المرتفعات الصخرية التى تحاذى الساحل بأكمله ، وهى مغطاة برمل ابيض يكونه البحر ويلقى به بلا انقطاع على شواطئه ، فتبعثره الرياح أو تجمعه فى شكل كثبان صغيرة متحركة . وهناك ، توجد مياه حلوة ، ولو انها تميل للملوحة بعض الشىء وذلك فيحفرات ضحلة حفرها العربان لسقاية ماشيتهم . تتبعنا هذا الوادى من القبة الـكبيرة حتى برج العرب حيث وصلنا الى هناك بعد مسيرة ثلاث ساعات .

وبرج العرب ، عمود له قاعدة مربعة تحمل جذعا مثمن الزوايا تعلوه كتلة دائرية ضخمة على غرار عمود مبتور لم يعد يتناسب ارتفـاعه مع الارتفاع الذى يفترض له من طول قطره .وهذا المبنى القائم على الشاطىء، لايبدو فى الواقع الا كعمود هائل معكوس بشكل جزئى . وفى الخارج ، على أحد وجوه الجزء المثمن منه ، وهو الوجه المقابل للبحر ، نجد عدة درجات لسلم لابد أنه ينتهى الى بداية البرج على عمق حوالى عشرةأمتار تحت سطح الأرض ، وهذا المبنى الذى قام بفحصه مهندسونا فحصاجيدا، جيد البنـاء ولابد أنه كان يستخدم كنقطة مراقبة بحرية شأنه شأن كل الأبراج الأخرى التى تقع بالمثل على الشواطىء قليلة الارتفـاع فى مصر وفى هذا الجزء من صحراواتها الغربية .

وقبل أن انتقل الى موضوع آخر ، ينبغى أن اتحدث عن شىء لم ألق عليه سوى نظرة عابرة ، حيث كنت على الدوام متخلفا عن رجالنا لكثرة ما كنت اتوقف لتفحص الأنقـاض والمواقع ، أريد أن أتحـدث عن ربوة مرتفعـة بعض الشىء نلاحظها على نفس السلسلة التى تفصل البحيرة

من البحر ، مخلف هذه الربوة الواقعة على بعد ١٠٠٠ — ١٢٠٠ متر من برج العرب عند الاتجاه نحو الاسكندرية تلمح أنواعا من النواطير وأجزاء مبنية من الحجارة واخيرا واجهات مربعة الزوايا ومائلة لتعطى فى مجملها شكلا هرميا . وفى أسفل هذه الربوة ، يوجد قاع به أنقاض خزان جميل للمياه كما توجد منشآت أخرى . واسم كوم ابوصير (٦) الذى يطلقه العرب على هذا المكان انما هو مشتق من اسمه القديم ، تابوزيريس ، وهي المدينة التي يحدد مكانها كل من سترابون وبطليموس — وقد سبق أن ذكرنا ذلك فيما سبق عن هذا الموقع ، وان كان موقعها هذا يتفق فى الواقع مع تابوزيريس أخرى كانت كما سبق أن حدد العالم الجغرافى اليونانى تقع على بعد مسافة من مدينة تحمل هذا الاسم (٧)، والتى نظن أن موضعها كان فى نفس موقع برج العرب كما سنوضح فيما بعد .

وبمواصلة السير بحذاء الساحل الى الجنوب الغربى يجد المرء على بعد ٤٠٠ متر من البرج ، اطلال مبنى واسع مربع الشكل تحيط به جدران يبلغ ارتفاعها من ١٢ — ١٥ مترا ويبلغ طول واجهاته حوالى ٢٤ مترا . ويتجه مدخل هذا المبنى باتجاه الاسكندرية . وتعلو هذا المدخل قبتان ويضم المبنى فى داخله حجرات بها بعض النوافذ الصغيرة والعالية مما لا يسمح الا بدخول قدر كاف من الضوء وهذا يعنى بوضوح أنها خلوات سرية والحجرات متينة البناء كما أنها سهلة ومريحة ، وجدرانها مبنية من الحجارة ولها مظهر جذاب . ويبدو للوهلة الأولى أن هذا المبنى ينتمى

---

(٦) فى رأينا ، أن اسم « ابو صير » يحتفظ بكل معنى الاسم القديم الذى كان يعنى عند الاغريق ، كما لاحظ ديودور ، مقبرة أوزيريس، وبوزيريس التى يلفظها العرب بوصير هى الاسم الذى كان المصريون يطلقونه على الأماكن التى توجد بها مقبرة لأوزيريس . وتوجد كذلك قرية تحمل هذا الاسم غرب أطلال ممفيس عند سفح الجبال التى أقيمت عندها أهرام سقارة . ويقول المترجم الحاذق لهيرودت المسيولارشيه Larchet فى شروحه ، ان بو باللغة المصرية تعنى مقبرة . ويضيف هذا المترجم العلامة أن بلوتارك يخبرنا انه نقل عن أودوكس Eudoxe انه على الرغم من وجود مقابر عديدة لأوزيريس فان جسمه كان مدفونا فى بوزيريس .

(٧) انظر الوصف الخاص بمدينة تابوزيريس القديمة والذى قدمه سان جنيني Saint Genis — وصف آثار العصور القديمة ، وصف مصر .

الى العمارة المصرية . لـكنه فى واقع الأمر ليس سوى تقليد لها ، وهو مبنى جميل . وتدل أنقاض أعمدته المضلعة وقمته ذات النمط القوطى التى نجدها في أطـلال السور ، على أن هـذا المبنى يعود تاريخه ، مثل برج العرب ، الى العصر الرومانى ، وفى نفس الوقت ، فاننا نستطيعواثقين أن ننسب بنـاءهالى جوسـتنيان الذى عمل فى حوالى منتصـف القرن السادس عشر ــ كما يذكر بروكوب Procobe ــ على بنـاء عدد كبير من المنشـات فى تابوزيريس ، الواقعة ــ كما يقولهذا المؤرخ ــ علىالشاطىء الأفريقى ، على مسيرة يوم من الاسكندرية ، والتى كانت تضم كما يذكر مقبرة لأوزيريس ، وليس ثمة شك ، فى أن هذا هو المكان الذى حـدد فيـه هيرودت ، النقطة الغربية لقاعدة الدلتا ، والذى كانت تقام فيـه الأعياد على شرف أوزيريس ، وهى الأعياد التى كانت تجذب كل عام ، أعدادا هائلة من النـاس ، وبخاصة الشباب كمـا ذكرنا ، وكمـا يذكر سترابون .

وتقدر المسافة بين الاسكندرية وتابوزيريس الواقعـة على الخليج البلنتينى حسب جدول تيودستيوس بـ ٢٥ الف خطوة فى مقابل ٧٥٦ قامة (١٤٧٣ مترا و ٤٧ سم) بالميل الرومانى ، أى ما يساوى ١٨ر٩٠٠ قامة (٣٦ر٨٣٦ مترا) ، لكن يبدو أن هذه المسافة ، هى تلك التى تقع بين الاسكندرية وتابوزيريس التى كانت توجد كما سبق القول ، عند كوم أبى صير ، والتى عثرنا على خرائبها على بعد ١ر٠٠٠ الى ١ر٢٠٠ متر، الى الشمال الشرقى نحو الاسكندرية ، ونحن نقدر المسافة بين أطلال تابوزيريس ، التى تقع على الخليج البلنتينى (ويسمىحاليا خليج العرب) بمسيرة تسع ساعات ونصف الساعة ، أى أنها ، اذا ماقدرنا مسـيرة القوافل بـ ٤ر٠٠٠ متر فى الساعة الواحدة ، حسب ملاحظاتنا فىمصر، تساوى ٣٨ر٠٠٠ متر .

وفيما بين برج العرب ، والمبنى الذى انتهينا من الحديث عنه ،ترتفع سلسلة من الجبـال تخترقها محاجر أدى استغلالها الى انشاء المبـانى والمدن التى ذكرناها ، وقد حفرت بعض هـذه المحـاجر واقتطعت على شكل مغارات . ويمكن أن يبلغ عرض الساحل فى هذه النقطة ابتداء من حافة البحر حتى حافة وادى مريوط والذى يبـدو كما لو كان حوضـا للبحيرة ، من ١٠٠٠ الى ١٢٠٠ متر ، ويلاحظ فى حوض هـذا الوادى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نتوءات أو سدود صغيرة تعترضه وهى التى عملت على تسهيل الاتصال بين الساحل وبين كل البلاد فى الجنوب . وتخترق هذه النتوءات بعض الجسور الصغيرة المخصصة لتصريف مياه المطر فى الشتاء . وتتوقف المياه المتسربة من بحيرة مريوط على بعد حوالى الألف متر الى الشمال الشرقى حسب تقرير المسيو لوجنتى ، ذلك الضابط المهندس الذى قام بالاستطلاعات الأخيرة فى هذه المنطقة . وفى نفس الوقت ينبغى أن يكون من المؤكد — بحسب حالة هذه الأماكن — أن مياه البحيرة قد تتجاوز كثيرا هذه السدود فى الجنوب الغربى حيث كان النيل فيما مضى يصب مياهه فى هذه البحيرة مما ادى الى اتساع مساحتها الى حد كبير كما لاحظ سترابون .

وعلى بعد بضعة ميريامترات « الميريامتر = ١٠٫٠٠٠ متر » يظل يحتفظ الشاطىء الذى يتبع على الدوام اتجاه غرب جنوب الغرب بنفس طبيعته ، وبنفس تكوينه من الحجر الجيرى والرملى الشديد البياض .

اما عن الوادى الثانى الذى سبق أن تحدثنا عنه والذى تمضى زاوية اتجاهه موازية للشاطىء ولوادى مريوط الكبير فانه يصبح ابتداء من برج العرب جزءا سهليا محصورا ينتظم اتساعه على نحو كبير بين ٥٠ر٢٠٠ متر حتى ليبدو وكأنه ترعة حفرتها يد الانسان . وتنمو الخضرة هناك بوفرة متمثلة فى شجيرات ونباتات بحرية . وقد سرنا فى هذا الوادى لمدة ثلاث ساعات متصلة ، وعند بلوغنا القمة التى يقود اليها الطريق لم أر سوى امتداد لنفس هذا المنظر . وعندما عملت على حفر حفرة فى هذا الجزء من الشاطىء استخرجت رمال كبيرة الحجم وشديدة الرطوبة ، وعلى عمق قدم واحدة نقط ظهرت مياه ملحية الطعم مما يؤكد أن الأرض فى هذا الوادى الصغير أدنى من مستوى سطح البحر . وقد نصبنا خيامنا فى هذا المكان الذى شكل بالنسبة لنا ملجأ أمينا يسهل الدفاع عنه اذا ماحدثت اية مفاجأة لنا من جانب العربان

وفى اليوم التالى ، الثامن عشر من فلوريال . عبرنا الى جنوب وادى مريوط الكبير . الذى يبلغ اتساعه مابين ٠٠٠ر١ و ٢٠٠ر١ متر ، ووجدت نفس الشكل الذى سبق أن وجدته عند برج العرب ، شكل السهل الواحد ، المكون من رمال كبيرة الحجم ، وان كانت أقل طينية ، وتغطيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعض النباتات ، ومن أعلى سلسلة المرتفعات التى تحد هذا الوادى الكبير ، والتى تمتد بطوله من الجنوب الغربى وحتى الشمال الشرقى ، لمحنا رأسا يبدو انها تشكل نهاية للخليج البلنتينى القديم ، من جهة الغرب ، فى الوقت الذى تشكل فيه نهايته من جهة الشمال الشرقى رأس شرسونيوس والتى تسمى اليوم بالضريح أو الشيخ . ومن هذه النقطة ، لمحت كذلك سلسلة أخرى من الجبال تتجه نحو الجنوب الغربى لتنتهى بنفس هذه الراس . وينبغى أن نستنتج أن هذه السلسلة ، تنتمى الى السلسلتين من الجبال ، اللتين تشكلان حوض البحر بلا ماء .

لم يشأ قائد الحملة ، المسيو كامالييه ، الذى كان يشاركنى نفس اهتماماتى أن ينهى استطلاعاتى التى كانت قد تجاوزت الغرض من استطلاعاته هو ، وأن كان قد رفض أن نمضى لأبعد من ذلك بمثل هذه الحراسة الضعيفة وفى هذه المنطقة من الصحراء التى يتجول فيها عديد من قبائل العربان . نزلنا الى السهل وسرعان ماصعدنا الى الشمال الشرقى محاذين سلسلة جبال مريوط . وقد دلتنا الخضرة الوفيرة والآثار التى خلفتها الماشية اننا فى منطقة يتردد عليها العربان الرحل . واستولى رجالنا على ٦٠ من العجول والأبقار والخراف التى تمر حراسها ، وقد شاهدنا بعض العربان يهربون عدوا نحو أماكن غير مكشوفة تشكل لهم ولا شك خطوط الرجعة اذ اننا حين تتبعناهم وجدناهم اختفوا فجأة .

وبعد قليل ، وجدنا أطلال مدينة صغيرة ، وبين الأنقاض والأحجار وجدنا بعض خزانات المياه والكثير من الآبار المبنية المعتنى بها ، وثمة جداول مرصوفة تتجمع فيها مياه الأمطار وتحملها بفعل انحناءات محسوسة فى نفس الاتجاهات المؤدية نحو هذه الآبار . وبعد أن استرحنا بعض الشيء فى هذا المكان تذوقنا مياهه فوجدناها طيبة فملأنا منها قربنا . وقد مرت الماشية التى استولينا عليها من العربان بهذا المكان دون أن تشرب ، ومن هنا نفهم بالطبع أن المياه لاتنقصها .

وبعد مسيرة نصف الساعة الى الشمال الشرقى ، وعلى مسافة ٨٠٠ — ٩٠٠ خطوة من سطح سلسلة الجبال التى سرنا بحذائها وعن شمالها وجدنا ، بقايا مدينة أخرى صغيرة ، لابد أن مبانيها كانت على قدر من الفخامة ، وشاهدنا هناك أطلال منشآت جميلة من الحجر ومن الطوب

الأحمر وأبراجا وأرصفة تحتيه وخزانات مياه .. وبمواصلة سيرنا فى نفس الاتجاه وجدنا بعد ثلاثة ارباع الساعة خرائب هائلة لمدينة ثالثةحيث تناثرت على مساحة واسعة اكوام من الحجارة الضخمة والمكدسة بشكل مضطرب ينتج عن حال مدينة قلبت راسا على عقب واخيرا وعلى بعد مسافة مشابهة وخلال سيرنا الى الامام ، عثرنا على خرائب جديدة لمدينة رابعة . وينبغى ان نلاحظ أن المسافات التى حسبناها ، هنا بالزمن ، انما قد حسبت بحساب السير السريع للجمال .

ونظن أن بامكاننا أن ننسب الى خرائب المدن الأربع ، الكبيرة منها والصغيرة ، والواقعة فى إتساع يقل عن أربعة فراسخ أسماء المدن والقرى المبنية بجدول بطليموس بحسب الموقع الخاص بكل منها وهى كما يلى بادئين بأكثرها بعدا : كوبى ، انتيفيلى ، هيراكس ، فوموثيس .

وكل هذا الجزء من الصحراء تكسوه الخضرة والأشجار . ويبدو أن تربتها القابلة للزراعة تحتوى على رمل أقل وطين صالح للزراعة اكثر مما تحتوى سهول البحيرة . وعند صعودنا الى الشمال عبرنا من جديدسلسلة الجبال التى تشرف على جنوب منطقة مريوط ، وعند قمتها لمحنا على بعد حوالى الفرسخ الى الجنوب الغربى برج العرب . ويكفى هذا لتحديد الموقع الجغرافى بدقة كاملة لخرائب المدن والقرى الأربع التى تحدثنا عنها عند اتجاهنا من جديد نحو الجنوب الغربى .

كان المسيو كاففالييه قائد الحملة يجد فى البحث عن خرائب اكثر اثارة سبق له أن زارها ويريد أن يرينى اياها ، وتوجد هذه الخرائب على الشاطىء الجنوبى لبحيرة ماريوتيس « مريوط » تجاه ضريح ابىالخير الواقع على حافة الشاطىء المقابل والذى سبق أن زرناه منذ يومين ، وهى عبارة عن أنقاض سور مزدوج لمدينة حصينة يبلغ ارتفاعه مترا او مترين فقط وتعلوه أبراج ، وينتهى فى شماله الشرقى برصيف متقدمداخل البحيرة. ولا يمكن أن يتطرقالينا الشك للحظة واحدة فى ان هذهالخرائب الهامة والتى تقع على بعد حوالى ٣٠ الفا من الأمتار الى جنوب الجنوب الغربى للاسكندرية ، ليست سوى اطلال مدينة ماريا ، العاصمة القديمة لاقليم المريوطية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقبل أن أمضى لأبعد من ذلك ، سأتحدث عن مبنى هام يقع بأكمله تقريبا وسط حوض البحيرة على مسافة ١٢٠٠ — ١٥٠٠ متر الى الجنوب الغربى من مدينة ماريا ، ومع ذلك فليس بمقدورى أن أقــدم عنــه الا مقاييس جزافية اذ كان على — وقد أصبحت وحيداً بعد أن قمت بزيارة بعض الجزر والخرائب الأخرى بالبحيرة — أن أسرع للحاق بالفرقة التى أصبحت بعيدا عنها والتى كانت فى هذه اللحظة قد وصلت الى ماريا ، لهذا لم أستطع أن أتوقف طويلا عند هذا المبنى الهام على الرغم من أننى جئته دون قصــد منى ، ذلك أن القارب الذى كنت أركبه قد ساقنى فجأة بينما هو يصارع سهل البحيرة الرطب وانزلق الى هذا المكان .

وهذا المبنى عبارة عن سور مستطيل الشكل يبدو أن طول واجهتيه الكبيرتين يبلغ ٥٠ — ٦٠ مترا بينما يبلغ عرض الواجهتين الصغيرتين من ٢٠ الى ٢٥ مترا . وجدرانه مبنية بحذق شديد وعلى هيئة مرافىء ماريا التى لم أكن بعد قد زرتها والتى توجهت اليها للحاق بالمسيو كامالبيه الذى كان ينتظرنى هنــاك . ويبلغ سمك هذه الجدران من ٣ — ٤ أمتار ويبلغ ارتفاعها نفس الطول عند قياسه من فوق التربة الخارجية باعتبارها فراغا خاليــا . وكان الموقع المنعزل لهذا المبنى الواقع فى الحوض الجافلبحيرة مريوط والذى لم تكن مياه الاغراق تبعد عنه فى ذلك اليوم بأكثر من ٤٠٠ الى ٥٠٠ متر ، وكانت الفتحة الوحيدة التى لحتها فيه توجد نحو البحيرة من عرضها .. كان كل هذا يجعلنى أظن بأن هذا المبنى لايمكن أن ينشأ فى هذا الجزء الذى يمكن لمياه البحيرة أن تغرقه الا لكى يستخدم فى بناء أو ترميم أو قلفطة سفن شراعية حربيــة وبوارج وأنه كان من الممكن أن يفتح أو يغلق حسب الحاجة الملئه بالماء أو لتجفيفه هو والمبانى التىبداخله منها . ومن الصعب أن نستنتج غاية أخرى للافادة من مثل هــذا المبنى الذى تبدو ترساناتنا لبنــاء السفن فى طولون ، وروشفل ، وبريست فى فرنسا ، وفى بعض الموانى الكبرى فى أوربا ، مجرد محاولة للاقتراب من عظمته .

وبعد أن زرنا موقع ماريا عبرنا البحيرة متجهين الى الشمال الغربى نحو ضريح أبى الخير الواقع فى الجهة المقابلة كما سبق أن قلنا ، وقــد عبرناها بواسطة طريق صغير مرصوف ، تم بنــاؤه فى هذه الجهة كما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تم بنـــاء غيره فى نقاط أخرى على يد العربان حتى يحصـــلوا على طرق ميسورة لكى يقوموا بجولاتهم عبر سهول هذه البحيرة القديمة ، الطينية والرطبـــة .

كانت مياه الاغراق قد وصلت بالفعل الى علو يبلغ ١٠ ــ ١٢بوصة على الأكثر وذلك عنـــد النقطة الأولى من هـــذا الطريق الذى يبلغ طوله ــ وهو قليل التعاريج ــ حوالى ١٤٢٠خطوة من شاطىء لآخر من شواطىء البحيرة أى ما يبلغ ٥٨٠ قامة اذا ما حسبنا خطوة كل من الجنديين اللذين ارسلتهما الى هناك لاجراء هذا القياس باعتبار قدمين ونصف القدم للخطوة الواحدة وكانت مياه البحر تتقدم حثيثا نحو برج العـــرب الى الجنـــوب العربى . ويمكننا تصور أن هذه المنطقة يمكن أن تصبح نقطة الاتصال بين الأسكندرية وفرقة الجيش التى لاتزال تحتل الرحمانية وبالتالى مع بقيـــة الجيش فى القاهرة . تلك كانت نقطة هامة وثمينة قد حصلنا عليهاويمكننا تقديمها الى القائد فى الاسكندرية ، فلقـــد كانت هـــذه هى الهـــدف من استطلاعنا .

ولذا ، فلكى نتأكد من الارتفاع المحتمل للمياه فى هذه المنطقة ، فى حالة الاغراق الكامل للبحيرة ، فقد قمت بعمل تفدين (أى تعيين الارتفاع النسبى لمختلف أجزاء الأرض) ابتداء من البحـــيرة وحتى البحر ، مرورا بالضريح ، وكذلك فوق جزء منخفض من الجبل الذى يفصل بينهما ،وأرسلنا لهذا الغرض من يقوم بقياس منسوب المياه فى الجزر الأولى التى تحدثنا عنها ، والتى كنا نقوم عندئذ بتقويتها . وفى اليوم التالى ، قمت بعمل هذا التفدين أولا من البحر الى البحيرة ، لكى أحصل على تقدير مؤكد . واليكم ما حصلت عليه من نتائج :

فى التاسع عشر من فلوريال من العام التاسع (٩ مايو ١٨٠١) ، كانت مياه البحيرة تنخفض عن مستوى مياه البحر بـــ ١٠ لنية ، ٦بوصة ، ٢ قدم ، ومن جهة أخرى ، بلغ ارتفاع المياه فى الجزء الأكثر انخفاضا من الطريق المرصوف الذى يعبر البحيرة ، فى نفس اليوم ٨ بوصة ، ١قدم ، ويؤكد هذان التقديران ، أن عمق المياه فى هذا الجزء من البحيرة ينبغى أن يصل الى ١٠ لنية ، ٢ بوصة ، ٤ قدم ، بل ويمكننا أن نصـــل بهـــذا

العمق الى خمسة اقدام ، بسبب اندفاع المياه نحو هذا الطرف من البحيرة، وبسبب اختلاف المنوسطات فى مياه البحر الواطئة (٨) .

وتبلغ مسافة الأرض المحفورة من الشطآن ، من البحيرة الى البحر حوالى ٣٥٢٠ خطوة أو ١٥٦٧ قامة حسب تقديرنا السابق للخطوة ، لكن هذه المسافة تشتمل على ارتفاع وانخفاض الجبل وهو الأمر الذى يستوجب منا أن نزيد هذا التقدير بحوالى العشر . وقد جعلنا هذا التقدير نتوصل الى أن النقطة الأكثر ارتفاعا من سلسلة الجبال التى تشرف على البحيرة والبحر كما قلنا تصل الى ٦٠ قدما فوق مستوى سطح البحر ، وان أدنى نقطة فى الوادى الصغير المتاخم والموازى للشاطىء تصل الى ١٠ اقدام فوق منسوب البحر .

ومن ذلك نستنتج أن المياه المالحـــة بعض الشىء ، والتى هى برغم ذلك صالحة للاستعمال ، والتى نجدها على عمق ٢ الى ٣ أقدام فى كل انحاء هذا الوادى الصغير ، المتد حتى برج العرب ، حيث يعـــدل من طبيعته ، ليتخذ مستوى ادنى ، يبلغ مستوى منسوبها هى الأخرى من ٧ الى ٨ اقدام ، أعلى من مستوى سطح البحر .

واضيف الى هذه التفاصيل أن قائد الحملة المسيو كافالييه وكذلك ضابط البحرية المسيو جار قد أسعدهما أن مساطر الارتفـــاع ظلت تعمل طيلة النهار الذى استغرقته هذه العملية المدققة التى زاد من صعوبتها ، وبالذات من ناحية الرؤية ، كثرة الوقفات والمراحل وشدة الحرارة والتموج

---

(٨) قلت من قبل ، انه فى اليوم السابق على عبورنا للبحيرة تجـــاه ضريح ابى الخير ، كانت مياه الاغراق قد بلغت بالفعل ارتفاعا قدره ١٠ ـــ ١٢ بوصة عند أدنى نقطة من الطريق المرصـــوف ، وعندما ثبت علامة على الشاطىء الشمالى للبحيرة فى هذا اليوم ١٨ فلوريال وجدت فى اليوم التـــالى ١٩ منه زيادة فى ارتفاع المياه قدرها ٨ بوصـــات فى مدى أربع وعشرين ساعة ، مما جعلنى اقدر هنـــا ارتفاع المياه فوق أدنى نقطة من الطريق المرصوف بـــ ٢٠ بوصة .

الشديد فى طبقات الجو فوق رمال الصحراء (٩) .

وكنت قد لاحظت خلال الأربع والعشرين ساعة التى امضيناها عند ضريح ابى الخير ، أن مياه الاغراق التى كانت قد امتدت بالفعل الى بعد نصف فرسخ ، الى الجنوب الغربى من ماريا ، نحو برج العرب ، قد ارتفعت فى هذه النقطة الى ٤ لنية ، ٨ بوصة ، وعند عودتنا من الاسكندرية ، وجدنا أن العمق عند الجزر الصغيرة التى قمنا بتحصينها ، والتى اجرينا عندها أولى ملاحظاتنا منذ أربعة أيام ، قد أصبح ٧٠بوصة. اذن ، فقد بلغ الاغراق هناك فيما بين ١٦ ، ٢٠ من فلوريال حوالى ٦ بوصة ، ٨ قدم ،فلقد سبق لنا القول بأن هذا العمق لم يكن يبلغ فى السادس عشر من فلوريال الا حوالى ٤٠ بوصة . واختتم هذه البيانات، بأن هذا العمق ينبغى أن يكون قد بلغ اليوم ١٠ اقدام ، فى هذا الجزء من البحيرة ، وخمسة عند قمة ماريا .

---

(٩) قلة فقط من الفرنسيين الذين اقاموا فى الاسكندرية هم الذين لم يكن بمقدورهم ان يلاحظوا أثر انكسار الأشعة على هذه المنطقة من سواحل مصر ، وعندما ترنو فى هذه المدينة نحو برج العرب فانك تلاحظ على الدوام نوعا من البخار يرتفع من الارض والبحر ، مشكلا درجات محسوسة جدا للونين متمايزين ، لون يميل الى الشقرة ولون يميل الى الزرقة : وهذا ناتج عن انكسار اشعة الشمس فى الطبقات الدنيا من الجو عند الأفق ، وترسم هذه الأشعة الملونة وتشكل امام البصر بشكل واضح هذه الالوان ، التى تعود الى تاثير انكسار الأشعة فوق رمال الصحراء ومياه البحر .

وبعد متاعب ذلك اليوم ذبح جنودنا فى المساء ، وفى خيمتنا ، عند الضريح ، ووسط القطيع الذى استولوا عليه ثورا باطلاق رصاص البندقية عليه من على بعد خمس عشرة خطوة، وبقى الحيوان الذى أصيب فى منتصف جبهته لحظة بلا حراك ، ثم ترنح وسقط . ان العبور من الحياة الى الموت ليس سوى وميض ، واحاط بالحيوان للحظة كل ثيران القطيع ثم أطلقوا جميعا خوارا طويلا ، اخذ بعده البعض منهم فى الابتعاد ، والبعض الآخر فى الهرب ، وقد أصابهم ذهول عميق . ولقد ذكرتنى هذه الملاحظة التى هزتنى ، وأرجو الا يعتبر البعض تدوين ذلك أمرا لاجدوى من ورائه ،بهذا البيت الجميل لفرجيل :

وارتجف الثور بفعل الضربة ، وترنح ، ثم سقط

وقد جاء تذكرى لهذا البيت طبيعيا ، لأن الصورة التى رسمها الشاعر اللاتينى صحيحة وحقة . وقد قام بترجمته ترجمة أمينة المسيو ديليل Delille فى الياذته الفرنسية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحركنا من هذه الجزر الصغيرة متوجهين الى الشمال الغربى نحو الضريح عابرين سلسلة الجبال حيث توجد محاجر واسعة لابد أنها قد استغلت فى بناء الاسكندرية . ويتكون الشاطىء فى كل هذه المنطقة من تربة حجرية ورملية تسير فيها الجمال بمشقة بالغة . فى هذه المنطقة، والى الغرب من هذا الضريح نزل الجيش الفرنسى ، أول يولية ١٧٩٨ ». ومن منطقة الضريح توجهنا الى الاسكندرية حيث دخلناها « ١٠ مايو ١٨٠١ » وهو اليوم الخامس لمغادرتنا هذه المدينة .

وفى يوم ٢٣ التالى قمت بتفدين آخر عند قطع فى الساحل يبدو أنه كان ترعة قديمة تصل بين خليج الاسكندرية والبحيرة على مسافة ٥٨٥٠ مترا الى الجنوب الغربى للعمود .

ويمكننا ان نرى هناك آثار مجرى هذه الترعة القديمة التى لايجاوز متوسط ارتفاع الجزء الثانى منها ٤ أقدام فوق مستوى البحر ، كمانلاحظ أنها لا تتطلب الا جهدا ضئيلا لكى يعود عن طريقها الاتصال القديم بين مينائى الاسكندرية وموانى مريوتيس . وقد لاحظت كذلك أن مياه البحيرة فى الفترة التى قمت فيها بهذه العملية كانت قد ارتفعت الى حوالى ٣ اقدام و١١ بوصة و٣ شرطات ذلك أن قياس الارتفاع الأخير قد أخذ بالنسبة لمستوى مياه البحيرة لكى نحصل على مستوى مياه البحر ، وقد ظلت تتزايد الأطوال التى تقدمها المجسات التى أدليتها فى البحيرة باتجاه هذه الترعة القديمة التى بلغت من ٨ اقدام من المياه الى ٥٠٠ قامة .

وفى الثامن والعشرين من هذا الشهر ، تراوحت الأطوال التى أعطتها المجسات ، بين ١١ قدما و٧٠٠ الى ٨٠٠ قامة ، بحيث ينبغى أن تصل المياه عند اقصى درجات الاغراق من ١٥ الى ١٧ قدما .

وفى يوم ٢ من بريريال التالى ، حصلنا بالمثل على ٧ ــ ٨ اقدام من المياه ، فى المسافة بين الجزر الصغيرة المحصنة على الشاطىء الجنوبى للبحيرة من نفس النقطة التى قمنا بقياسها منها ، يومى ١٦ و٢٠ من فلوريال .

لم أشأ ان اتحدث عن عدد من الخرائب الأخرى ، كبيرة كانت أم صغيرة وجدتها فى كل مكان وبخاصة على الشواطىء الجنوبية للبحيرة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيكفينا من هذه الجولة الاستطلاعية أنها جعلتنا نعثر على موقع سبع مدن أو قرى هامة نعتقد أنها تنتمى الى مدينتين باسم تابوزيريس ، واحدة منهما تقع على الشاطىء والأخرى تقع بالداخل ثم مدن وقرى كوبى ، وانتيفيلى ، وهيراكس ، وفوموثيس وأخيرا مدينة ماريا عاصمة هذا الاقليم والتى تقع على شاطىء بحيرة تحمل اسمها .

وقد جعلتنا هذه الجولة ندرك أن كل الشاطىء وكل داخل هذه الصحراء التى تغطيها الخرائب والتى تمرح فيها قبائل عديدة من العربان الرحل والرعاة قد ظلت على الدوام صالحة للسكنى ، بحيث يمكننا أن ننزع أى ظل من شك قد يحيط بشهادة المؤرخين الذين يقولون بأن هذه المنطقة كانت فيما مضى منطقة زراعية مزدهرة وآهلة بالسكان . ونرى فى النهاية أنه يكفى لكى تعود هذه المناطق الى حالتها القديمة أن يعاد حفر الترع المتفرعة عن النيل والتى كانت تجلب اليها كل عام مصادر الخصوبة .

أما بخصوص مختلف القبائل العربية التى يبدو أنها وضعت يدها على المنطقة، فانه ينبغى على حكام مصر أن يتركوا لها حرية استغلالها شريطة أن يصبحوا مزارعين مسالمين ، والا فعلى هؤلاء الحكام أن يجلوهم عنها بقوة السلاح .

أما القبائل العربية التى تجوب صحراوات مريوط ، والتى تقوم بغاراتها حتى وسط اقليم البحيرة ، فهى قبائل الجومات والطزوات ، بنى عون ، الجوابى ، الهنادى ، أولاد على (١٠) ، ويزرع عربان القبائل الثلاثة الأولى بعض أجزاء من اقليم البحيرة ، وهى الأجزاء المتاخمة للصحراء . وقد استقر عرب بنى أونوس فى قريتى جوامى والحوش حيث يزرعون الشعير . ولكى نعمل على توطين هؤلاء نهائيا هناك فلا

---

(١٠) حصلت على جزء من هذه المعلومات عن طريق المسيو شابرول Chabrol الذى قام ببحث واسع حول مختلف القبائل العربية التى تجوب هذه الصحراوات ، ومهما تكن هذه اللمحة سريعة ، فمن الأفضل أن نوردها هنا ، ذلك أن المسيو شابرول قد أخبرنى بأنه يخشى أن يكون قد فقد المادة التى جمعها حول هذا الموضوع .

(جراتيان لوبير)

ينبغى أن نسلك معهم مسلك العنف والقسر بقدر ماينبغى أن نخلع عليهم حمايتنا ضد القبائل التى تقف منهم موقف العداء ، فلقد أصبح هؤلاء يصطنعون شيئا فشيئا عادات الفلاحين وتقاليدهم ، ويبدو أنهم مؤهلون لكى يصبحوا مزارعين .

وفى الوقت نفسه ، فمن الميسور أن يترك عربان الهنادى حياة الترحال ، وينبغى على حكام مصر ، حتى يبلغوا بهم هذه الحال أن ينتزعوا منهم ، عن طريق هجمات خاطفة ماشيتهم ، وبخاصة خيولهم ، ذلك أنهم سيصبحون مضطرين للاستقرار وممارسة الزراعة ، اذا ماحرموا من وسائل الهرب السريعة وهو الأمر الذى سيحد من غاراتهم وانتهاباتهم . وينبغى حتى نرغمهم على ذلك أن نستولى على الحبوب التى يحصدونها من بعض المناطق التى تساعد مياه الأمطار على زراعتها ، وذلك قبل أن يقوموا بحصادها وفى النهاية فان وطأة العوز : عندما يصبح هؤلاء محرومين من كل مصدر دخل — ستضطرهم الى اللجوء الى طلب عون الحكومة وحمايتها .

ان هذه الوسائل التى عددناها باعتبارها أساليب يمكن اللجوء اليها ضد بعض قبائل العربان هذه، لتتناسب عموما مع نوع الحرب التى ينبغى دعمها ضد كل القبائل التى تخرب وتروع حدود مصر ، والتى يمكن أن يبلغ تعداد محاربيها مجتمعين كما يقول الجنرال رينييه Reynier فى كتاب « الأوضاع فى مصر » Situation de l'Egypte من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ فارس ، هذا ان لم تفرق المصالح فيما بينهم ، وتجرهم الى حالة من الحرب المستمرة بينهم وبين بعضهم البعض .

ويشكل عربان أولاد على بشكل دائم ، حين يراد حماية مصر من غاراتهم عقبات أكبر من تلك التى تشكلها القبائل العربية الأخرى ، فهؤلاء العربان يأتون كل عام لقضاء عدة شهور على الحدود الغربية لمصر ويعيشون فى حالة حرب دائمة مع بقية القبائل . ولقد جعلت منهم الأتاوات التى يحصلونها والمصادر التى يحصلون عليها أثناء رحلتهم الطويلة فى الصحراء الممتدة بحذاء سواحل البحر فى غرب مصر ، بالاضافة الى ما يحصلون عليه من مكاسب من ماشيتهم وما يستحوذون عليه بفعل القوة ، كل هذا جعل منهم أعداء أشداء يخشى بأسهم بالنسبة لولايات مصر الغربية ،حيث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقتربون دائما فى موسم الحصاد السنوى كى يقوموا بالانتهاب والسلب ولكى يبثوا الرعب والاحزان فى هذا الوقت من العـــام . لذلك ينبغى أن تخصص قوة متحركة ، كتلك التى يمتلكونها هم ، لكى يمكن أتقاء شرهم، ويمكن أن يقوم بسلاح الهجانة الذى انشاه قائد الجيش الفرنسى فى مصر بهذه المهمة المرجوة ، والتى لابد أن تصبح الشغل الشاغل لاهتمام الحكومة الأم ، بخصوص هذه المنطقة القديمة والبائسة .

الدراسة الثانيــة :

رحلة الى وادى النطـرون

الجنرال اندريوسى

العنوان الأصلى للدراسة هو :

دراســة موجزة عن وادى بحيرات النطرون وعــن النهــر بلا ماء ، حسب المعلومات التى حصلنا عليهــا من جولة استكشافية تمت فى ٤،٥،٦،٧،٨ بليفوز من العــام السابع ، (أى ٢٣،٢٤،٢٥،٢٦،٢٧ من يناير ١٧٩٩) .

(المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكاد لا يعرف الناس عادة من كل أرض (١) مصر ، الا واديها الذى يرويه النهر ، ومع ذلك ، فهناك من الاعتبارات الجغرافية والحكايات التى يرويها مؤرخون قدامى ورحالة محدثون ، مايدفع على الاعتقاد بأن مياه النيل كانت قد اقتحمت فى أزمنة ضاربة فى القدم ، أعماق صحراوات مصر الغربية ، وأنها قد تركت هناك آثارا لمجراها .

واذا صح أن ملوك مصر القدامى قد أمكنهم — كما يدعى هيرودت — دفع النيل واحتواءه فى حوضه الحالى ، عن طريق قيامهم بأعمال هائلة، فلابد أن يعد هذا العمل من جانبهم ، واحدا من تلك الأمور العظيمة التى يمكن لذاكرة البشر أن تحتفظ بها .

ان البحث فى هذا المجرى الابتدائى للنيل ، ينبغى أن يلقى الضوء على الجغرافيا الفيزيقية لمصر ، وعلى تلك الأعمال التى بذلت كى تصبح أرضها خصبة ، كما لابد أن يفضى بنا الى الطريق الواجب اتباعها لاصلاح نواحى الخلل ، التى أحدثتها حقبات الأزمان ، وأدت الى تراكمها، الهمجية والجهل فوق أرض محرومة من مزايا الأمطار ، لن يكون لها من مصير فى غيبة الفيضانات أو وسائل الرى الصناعى سوى التحولة والعقم .

ويشير الجغرافيون لهذا المجرى القديم للنيل باسم « بحر بلا ماء » ويسميه أهالى البلاد باسم « البحرالفارغ » . ومن المعروف أن هذا المجرى لا يبعد كثيرا عن بحيرات النطرون التى بدىء فى استغلالها من جديد منذ حوالى خمسة عشر عاما ، والتى يشتد الطلب على منتجاتها فى مجالات صناعية عديدة فى فرنسا . ومن المعروف كذلك انه يوجد بالقرب منه أديرة ومغارات لرجال الدين الأقباط ، انشئت فى القرن الرابع الميلادى أى فى ذلك الوقت الذى انجذب فيه الى أعماق صحراوات الغرب ، وبفعل الوله بحياة الأديرة ، رجال يتقدون حمية وحماسة لدينهم أو آخرون هيابون

---

(١) سبق أن نشرت هذه الدراسة فى Décade égyptienne (دورية تصدر كل عشرة أيام) التى كانت تطبع فى القاهرة .

آثروا السلامة فابتعدوا عن النير ، وان كانوا قد ظلوا مرغمين بفعل احتياجاتهم على الاقتراب من هذا النير ، سعيا وراء استثارة شفقتهم أو تأجيج ايمان ساذج لديهم .

ولقد كان مما يثير فضولنا ، وهو فى نفس الوقت أمر مفيد لاعتبارات عدة أن نتعرف على ذلك الجزء من أرض مصر الذى انتهينا من الحديث عنه.ومن أجل تقدير كل الأمور التى يمكن أن تفيد منها كل من الجيولوجيا وضروب الصناعة المختلفة فلقد دعا لاعداد هذا البحث السادة برتوليه Bertholet وفورييه Fourier وريدوتيه Redouté الشاب (٢) .

ولقد كان لدى أنا الأمر ، أثناء قيامى ببعض العمليات العسكرية ، بأن أحمى أبحاثهم فى مناطق تتعرض على الدوام لغارات العربان الرحل، الذين يأتون أحيانا من الصعيد وأحيانا أخرى من أطراف اقليم البحيرة ، الى مشارف هذه الصحراوات لسلب بل ولاغتيال هذا المزارع المسالم، والفلاح البائس . ولقد تجمعنا هناك لكى نحاول تجميع كل الملاحظات التى تبدو لنا على درجة من الأهمية وسأقدم فى هذا الموجز عرضا لتفاصيل الرحلة ، تاركا للمسيو برتوليه مهمة أن يقدم بنفسه نتيجة التجارب الهامة التى قام بها ، لكى يتعرف على طبيعة المادة ، وسوف تكون هذه النتائج ذات فائدة قصوى ، بمجرد أن يبين لنا المجالات التى يمكن استغلالها فيها .

---

(٢) فنان ماهر فى رسم اللوحات والحيوانات ، وبخاصة الأسماك الملونة ، كما ألحق باللجنة المسيو ديشانوى Duchanoy والمسيو رينو Regnault ، تلميذ برتوليه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

عن وادى النطرون

رحلنا من الطرانة فى ٤ بليفوز « ٢٤ يناير » الساعة الثانيةصباحا، وبعد مسيرة أربع عشرة ساعة لمحنا الوادى الذى توجد به بحيرات النطرون .

الحالة الطبوغرافيــة :

يفصل وادى النطرون عن وادى النيل هضبة فسيحة ، يتدرج سطحها ببطء وتوازى النيل على الدوام ، ويبلغ عرض هذه الهضبة التى تظل على الدوام ، تقريبا محافظة على نفس مستواها ، ثلاثين ميلا ، وتغطى أرضها المتينة والصلبة بالحصى من مختلف الأحجام ، وبزلط صغير مستدير يتلون بألوان مختلفة ، وببعض الزلط المختلط بالعقيق .

وقد دفعت الرياح القوية القادمة من جهة الغرب ، الى الجهةالأخرى من التلال التى تحف بالنيل ، وكذلك الى داخل الوادى ، كل الرمال المتحركة ، ويبدو الحجر الجيرى فى بعض المناطق على سطح الأرض . وفيماعدا ذلك ، فان المرء لا يلمح فى هذه الصحراء التى قد يظن المرء بأن الطبيعة قد تركتها نسيا منسيا ، الا ثلاثة أو أربعة أنواع من النباتات الضعيفة والصغيرة والمبعثرة للغاية ، مثل نبات الشوكية (٣) nitraria والبنج البنفسجى (٤) أو « الداتورة » .

وسوف يكون من العسير أن يستطيع اى كائن حى ان يجد مايعيش عليه ، فوق أرض على مثل هذه الدرجة من القحولة ، وفى نفس الوقت

---

(3) Nitraris Schoberi, Lin.
(4) Ayoscyamus daturas Fors.

فاننا لم نجد هنـــاك سوى نوع واحد من الحشرات ، ليس من هذا النوع من الانواع الشائعة ، ويطلق عليه اسم mente obocure ، والصفة التى تحملها هذه الحشرة ، « صفة العتمة » ، تماثل تماما حالة العزلة التى نحياها ، فى أعماق مثل هذه الصحراوات .

وعند الرحيل من الطرانة ، يتخذ الطريق اتجاهه فى البـــداية من الشرق الى الغرب . وقبل الوصـــول الى النطرون بحوالى الساعتين، وبعد ان يكون المسافر قـــد اجتاز ممرا جبليا بالغ الانخفـــاض ، يسميه النـــاس راس البقرة ، يمضى الطريق نحو الشمال الغربى ، مع ميل أكبر الى جهة الغرب ، وعندما هبطنا ، وجدنا فى منتصف هذا الجنب ، وفوق ربوة ، قصرا أو حصنا مهدما ، بنى سوره المربع والـــذى تعلوه أبواب مستديرة عند اثنين من زواياه ، بواسطة قطع صغيرة من النطرون ، مما يدل على أن الأمطار ليست بذات بال فى هذه المنطقـــة ، كما رأينـــا فى الانحدار المقـــابل دير براموس أو دير الأروام ، كما يوجـــد الى الشمال وعلى نفس المسافة تقريبـــا دير السريانيين أو دير بيشوى حيث يجـــاور كل منهما الآخر .

اقمنا مثلثـــا يربط القصر ودير البراموس ودير السريانيين . واذا ماتخذنا كقاعدة ، تلك المسافة التى تفصل بين القصر ودير البراموس، والتى قمنـــا بقيـــاسها فوجـــدناها تبلغ ٧٢٣١٣/٤ مترا فان ضلعى المثلث الآخرين يبلغان ٧٤٣٠ ٢/٣ مترا للمســـافة بين القصر ودير السريانيين ، و ٩٢٥٨ ١/٤ مترا للمسافة بين هـــذا الدير ودير البراموس ، واذا أردنا الذهاب بين واحد من هذه الأماكن وبين غيره يكون علينا أن نجتاز طريقا هو عبارة عن رمال متحركة أو ثابتة فى بعض الأحيان بفعل بعض الطحالب النباتية ، ويلمح المرء هناك بعض النباتات ، ويقابل فى كل مكان الجبس وكتل الصخور الجيرية ، كما يرى اجمل الأحجـــار الطبـــاشيرية بين دير البراموس ودير السريان .

الجغرافيا الفيزيقية للوادى :

يصنع وادى النطرون زاوية ٤٤ درجة الى الغرب مع خط الزوال المغنـــاطيسى أما فيما يختص بالمواقع التبادلية للبحيرات وأطوالها ، فانها تقع فى نفس الأتجاه الذى للوادي ، ويحدد الأب سيكار حوضها العمودي

باتجاه الوادى ، وهو ما يتعارض بصفة عامة مع الهيدروجرافيا « علم وصف المياه أو طبوغرافيا البحار » . ولم يبين الأب سيكار على خريطته، سوى بحيرة واحدة كبيرة ، فى الوقت الذى توجد فيه ست منها : ثلاث الى الشمال من القصر وثلاث الى الجنوب منه ، بل أن اهالى الطرانة يذكرون أن عددها سبع . فقد كانت البحيرة رقم ٤ منفصلة بالفعل الى بحيرتين بواسطة سد تحطم فى الوقت الحاضر . ويبين دانفيل — وهو يتفق فى ذلك مع سترابون — بحيرتين ، لكنه يعطيهما نفس الموقع الذى يحدده الأب سيكار P. Sicard

وبحيرات النطرون عبارة عن مساحة تبلغ ستة فراسخ طولا ، ومن ٦٠٠ الى ٨٠٠ متر عرضا ، وذلك من طرف الحوض الى طرفه الآخر، وهى منفصلة عن بعضها البعض بواسطة رمال قاحلة ، وتحمل البحيرتان الأوليان منها ، وهما الواقعتان نحو الجنوب اسم بركة الدوارة أو بحرة الاديرة أما البحيرات أرقام ٣،٤،٥،٦ فتحمل أسماء لا تدل على معنى محدد، ويقوم عرب السمالو (٥) بتهريب النطرون من البحيرة رقم ٦ وينقلونه الى الاسكندرية .

وتوجد المياه العذبة — وان كانت درجة صلاحيتها تتفاوت — اذا ماحفرنا بطول البحيرات فى الانحدار المتجه الى ناحية النيل ، وتجرى المياه بغزارة على سطح الأرض لمدة ثلاثة اشهر فى العام ، أى فى تلك الشهور التى تلى انقلاب الصيف ، وتتزايد المياه عند نهاية ديسمبر ، ثم تبدأ فى الانخفاض تدريجيا ، حتى أن بعض البحيرات يصاب بالجفاف .

وينبغى بصفة أساسية أن نلاحظ الحالة الفيزيقية للبحيرات ، اذ تتقطع شواطىء البحيرات من جهة الشرق الى خلجان صغيرة ، حيث ترشح المياه وتتخذ شكل نافورات عند بداية الوديان الصغيرة ، ثم تتسرب بعد ذلك فى شكل نهيرات صغيرة تتجه الى أعماق الأحواض . أما البحيرة رقم ٣ ، فان الجزء من الأرض الذى يعلو عن هذه الينابيع — وهذا ما لاحظناه

---

(٥) عرب السمالو ، شأنهم فى ذلك شأن عرب الجوابى الذين سنتناولهم بالحديث فيما بعد ، هم عرب رحل بالغو الكرم ، ولهم ثلاثة رؤساء (مشايخ) ، اكبرهم الشيخ سليمان أبو دمن ، وتتكون هذه القبيلة من حوالى ١٫٠٠٠ رجل ، وتملك أربعين حصانا .

بصفة خاصة يمتد ليبلغ عرضه مائتين وخمسين مترا ، تغطيها بلورات من الملح ، ينهض وسطها وبكميات وفيرة بعض الشيء ، هذا النوع من الغاب المسطح الذى يستخدم فى صناعةالحصر العادية . اما الأرض التىتشغلها هذه الينابيع فيبلغ عرضها ٩٦ مترا ، وتشرف فى شمال البحيرة علىشريط من النطرون يبلغ ٣١ مترا . اما البحيرة فيبلغ عرضها ١٠٩ من الأمتار . فى حين يبلغ طولها ٥١٤ مترا ، اما أقصى عمق لها فيبلغ نصف المتر . وقاعها طباشيرى مختلط بالرمال ، والمياه فى هذه البحيرة وحدها لها لون الدم .

تلك هى الحالة الفيزيقية للبحيرة رقم ٣ من جهة النيل ، ويلامس الشاطىء الأيمن لحوضها رمال قاحلة ، وهناك ينمو بعض الغاب ، ويبدو ان المياه العذبة لا تصل اليه . فهل يمكن القول بأن المياه التى تغذى البحيرات تأتى من النيل مخترقة فى بطء هذه الكتلة أو هذه المسافة التى تبلغ ثلاثين ميلا ، والتى تفصل وادى النيل عن وادى البحيرات ، متبعة فى مسارها تكون الانحدارين اللذين يتجه أحدهما الىالشمال وثانيهما الى الغرب ؟ أم هى بعد أن انفصلت عن النيل بفعل هذين الانحدارين قد جاءت من رأس الوادى — كما سنرى فيما بعد — تلتمس وادى النيل فى الفيوم ؟ وعلى الرغم من كون الراى الثانى اقرب الى الطبيعة ، الا انه لا يبدو معقولا ، اذ من المؤكد أن المياه التى تصب فى البحيرات تخرج من انحدارات الشط الأيمن الذى يعلوه . وثمة عدد قليل من الينابيع على الانحدار المقابل ، وتوجد هذه على عمق كبير . وينهض الرأى الأول على انتظام حركة ارتفاع وانخفاض المياه فى البحيرات كل عام ، وفى فترة تتصل بشكل شبه مستمر بفترة الفيضان .

تحليل مياه البحيرات :

تحتوى مياه البحيرات على أملاح ، تختلف حتى فى أجزاء من نفس البحيرة الواحدة ، مما يدل على عدم وجود اتصال بين مياهها .

وهذه الأملاح هى على الدوام: موريات الصودا ، وكربونات الصودا ، وقليل من سلفات الصودا .

وتغلب كربونات الصودا فى بعض هذه البحيرات ، بينما تغلب موريات الصودا فى البحيرات الأخرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبدو — تبعا للحالة الفيزيقية للارض — ان كربونات الصودا قد جاءت الى هذه البحيرات عن طريق مياه النافورات التى تحدثنا عنها، وكذلك عن طريق مياه الأمطار ، وهذا هو مايفسر لنا لماذا يكون الملح الموجود فى جزء من البحيرة يختلف عنه فى جزء آخر منها .

ومياه البحيرة رقم ٤ وجزء من مياه البحيرة رقم ٣ ذات لون أحمر قان يشبه لون الدم ، ويعود هذا الى أمر مادة نباتية — حيوانية ،وعندما تتبخر هذه المياه يحتفظ الملح البحرى — وهو الذى يتبلور أولا — بهذا اللون الأحمر ويكتسب رائحة الورد الجميلة .

ويرى المسيو برتوليه أن تكون الصودا ، يعود الى تحلل الملح البحرى بفعل كربونات الجير الموجودة فى الأرض الرطبة ، التى يتم فيها هذا التحلل . ووجود الرطوبة أمر ضرورى لحد كبير لتحلل الملح البحرى، وقد رأينا ان هذا أمر متوفر . أما عن الحجر الجيرى ، فانه موجود بكميات كبيرة فيما بين النيل والبحيرات ، وكذلك فى الوادى ، حيث يظهر اما فى شكل صخور أو فى شكل طباشير .

استغلال النطرون

يشكل استغلال النطرون جزءا من التزام الطرانة (٦) التى تدخل حاليا ضمن الحدود الجديدة لولاية الجيزة (٧) .

ويتم نقل النطرون فى الفترة مابين البذر والحصاد ، وتتجمع القوافل فى الطرانة ، وتتكون القافلة الواحدة من مائة وخمسين جملا ومن ٥٠٠

---

(٦) تشتمل منطقة الطرانة على ستة قرى منها : كفر داود ، الطرانة ، وأبو نشابة .

(٧) كان يحد ولاية الجيزة تحت حكم المماليك ، من الشمال الجسر الأسود ، الذى كان يفصلها عن ولاية البحيرة ، لكنها تمتد الآن حتى قرية أبو جروة . ويعبر الجسر الأسود الأول ، ابتداء من الكثبان الرملية ، حيث ينحدر حتى النيل . وعند طرف هذا الجسر بالقرب من قرية أم دينار ، توجد قناطر لتمرير مياه الفيضان ، أما المياه التى يحجزها الجسر الأسود ، طول الوقت المطلوب ، فانها تخصب السهل ، وتجعل انتاجه بالغ الوفرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى ٦٠٠ حمار ، وترحل مع حراسها عند غروب الشمس ، لتصل الى البحيرات أثناء النهار ، فتكسر النطرون وتحمله ثم تعاود الرحيل .

وفى أثناء العودة تتوقف القافلة فى منتصف الطريق . وتصنع وقودها من روث حمير وجمال القافلة السابقة (٨) ويشرب رجال القافلة ومرشدوها القهوة ، ويدخنون النارجيلة ، ويتزودون بقليل من الخبز ، وذلك بعجن الدقيق فى طبق من الخشب ، ثم بانضاج العجين على الفحم ، ويقيم مرشد القافلة نقط حراسة لكى تظل القافلة فى حمى ضد العربان ، وتنام بقية القافلة لبضع ساعات ، ثم تعاود السير ، لتعود الى الطرانة فى اليوم الثالث .

ويقدر ما تنقله كل قافلة بستمائة قنطار من النطرون ، كل قنطار منها يزن ٤٨ أقة (٩) .

والطرانة هى مستودع النطرون ، وينقل النطرون بطريق النيل الى هذه القرية ثم يرسل الى رشيد ، ومن هناك يذهب الى الاسكندرية ، ثم يصدر من ثم الى أوروبا ، أو ينقل الى القاهرة حيث يباع لكى يستخدم في تبييض الكتان وصناعة الزجاج (١٠) .

ويقدر الفاقد الذى يصيب المادة عند التفريغ أو الايداع بـ ١/١٠ الوزن .

ويدفع فلاحو قرى الطرانة الست الميرى المقدر عليهم من نقل النطرون ، واذا ماحدث نتيجة لظهور العربان أو بفعل أحداث أخرى أو

---

(٨) يؤدى نقص الوقود ، على الدوام ، بالقوافل المتتابعة فى الصحراء ، الى أن تتوقف فى نفس الأماكن التى عسكرت فيها سابقتها من قبل .

(٩) تساوى الأقة ٤٠٠ درهم أو رطلين ونصف زنة مارك .

(١٠) يوجد فى القاهرة نوع آخر من النطرون ، يجلبه الجلابة السود فى قوافل دارفور وسنار ، ويستخدم فى تجهيز التبغ المصرى ، اذ يخلط به لاعطائه نكهة نفاذة . وقد قام المسيو رينيولت بتحليل هذا النطرون ، ووجد أنه يحتوى على كمية من مريات الصودا أكبر من غالبية العينات التي جلبناها معنا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عانى استغلال النطرون من بعض التعطيل ، يدفع الفلاحون احدى عشرة بارة (١١) عن كل قنطار كان مقدرا أن ينقلوه .

ويباع النطرون فى مصر بسعر القنطار زنة ٣٦ اقة ، بخردة واحدة تساوى بدورها تسعين بارة .

ويدفع المشترى أجرة الشحن النهرى ، ويجهز الملتزم البارود والرصاص لحرس القوافل ، ويبلغ عدد افراد هذا الحرس ستين رجلا مسلحا ويطلق عليهم اسم الباشات .

ويدفع اليهم الملتزم أجورهم . والتزام النطرون هو ضريبة ملح حقيقية ، وتلتزم القرى التى تملك منشآت تستخدم فيها هذه المادة بشراء كمية محددة منها كل عام .

وقد جعلت صعوبة اختراق وادى النطرون ، من العسير ، فى كل وقت ، دراسة أحوال البحيرات ، فكان استغلالها يتم على غير نظام او قاعدة . وشواطىء البحيرات كما سبق القول مغطاة بكتل من بلورات الكريستال التى لا يقترب منها احد ، والتى يمكن برغم ذلك الحصول منها على فوائد جمة ، فهى توجد بكميات وفيرة . ولا يستغل من بين هذه البحيرات فى الوقت الحالى الا البحيرة رقم ٤ . ويدخل الرجال عراة الى المياه ، ويكسرون وينزعون النطرون بكماشة حديدية مستديرة الشكل ، يبلغ وزنها حوالى الستين رطلا ، احد فكيها على هيئة عش الغراب ، اما الآخر فينتهى بسن مدببة من الصلب . وهؤلاء الرجال لا يلقون أدنى اهتمام بالنطرون الموجود على سطح الأرض ، والذى يمكن انتزاعه بجهد أقل من الجهد المبذول فى استخراجه من البحيرات بكثير . وانه لمشهد مثير للفضول أن ترى هؤلاء المصريين ، وهم يخرجون من البحيرات فى بياض شاهق ، بينما هم فى الحقيقة سود البشرة أو برنزيو اللون .

تجارة النطرون :

تعتمد حالة تجارة النطرون بالمثل على تحليلات لم نكن فى وضع يسمح لنا بالقيام بها ، وعلى نوع من النشاط والاهتمام لا يمكن لنا

(١١) كل عشرين سو Sous فرنسية تساوى ٢٨ بارة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاضطلاع به ، فى بلد ظلت فيه مكاسب الصناعة فريسة لمغارم الحكام ومظالمهم . وقد يترك المستغلون فى النطرون خليطا من مختلف الأملاح مع الصودا ، وبالذات الملح البحرى ، الذى يؤدى وجوده الى زيادة مجحفة فى وزن النقلة . ومن جهة أخرى يشكو صناع مارسيليا فى أنهم يعانون من أضرار حقيقية وكبيرة ، اذ تتحلل غلاياتهم اثناء غلى الأملاح ، وبداوا لذلك يقبلون على الصودا القادمة من اليكانتى . وهكذا كانت مصر توشك أن تفقد هذا المصرف لبضاعتها فى أوربا ، لولا أن الحرب قد نشبت فجأة فجعلت نقل الصودا من اليكانتى أمرا اكثر مشقة .

وفى سنوات ١٧٨٨ ، ١٧٨٩ ، ١٧٩٠ ، عندما أمكن لتجار مارسيليا عقد صفقات تجارية جديدة ، فانهم استوردوا الى فرنسا كمية هائلة من النطرون ، خزنوا جزءا كبيرا منها فى محلاتهم .

ويتم تصدير النطرون المصرى الى الخارج ، الى البندقية وفرنسا وانجلترا ، ويكاد ماتستورده انجلترا يساوى نفس الكمية التى تستوردها فرنسا ، أما البندقية فلا تحصل الا على خمس ماتستورده الدولتين الأخريين .

وقد اهتم المسيو رينيولت بموضوع شديد الأهمية ، هو أن يفصل اكبر قدر من الصودا عن النطرون ، بقصد تقديم النطرون الى أغراض التجارة وهو فى أقصى درجات نقائه ، الأمر الذى يؤدى مع زيادة طفيفة فى مصاريف استخراجه الى مضاعفة انتاج وقيمة الصودا ، مع اتباع نفس الأساليب المستخدمة . ويوجد الملح البحرى فى بعض أنواع النطرون بين طبقتين أفقيتين من الصودا ، بحيث يمكن استخلاص الملح بشكل آلى .

وهكذا ، فتجارة النطرون فى مصر ، بعد أن أصبحت هذه مستعمرة ، سوف تعتمد على اعتبارين أساسيين :

الأول : الاستغلال الحر للبحيرات ، وسيصبح هذا الاستغلال فى شكل أفضل ، عن طريق اقامة حرس ، واتخاذ اجراءات عسكرية ، مثل اعادة استخدام وترميم القصر وشغل الأديرة القبطية .. الخ ، لأن العربان فى هذه الحالة ـ وأمرهم لا يخفى علينا ـ سيكونون اقل مدعاة للمخاوف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ الثانى : اختيار وتنقية النطرون . وينبغى أن تقام المنشآت الخاصة بتنقية النطرون فى أماكن أكثر قربا من البحيرات مثل القصر والطرانة .

منتجات الممالك الثلاث « النباتية والحيوانية والجمادات » :

يوجد على شطآن البحيرات البوص والسمار بوفرة شديدة ، كما توجد منتجات أخرى من المملكة النباتية . وتتناقض خضرة هذه النباتات بدرجة تبعث على الدهشة ، مع بياض بللورات الملح شاهقة البياض، ومع اللون الرمادى الكالح لحصى الصحراء .

ونرى بالقرب من البحيرات غاب البوص ذا السيقان العالية (١٢)، والطقطق « زهور من فصيلة الرصاصيات » الخالى من الأوراق (١٣)، والاثل الفرنسية (١٤) والارطماسية البحرية (١٥) « نبات عطرى » والسمار (١٦) والبوط « أو عصنوية المروج » ذات الأوراق العريضة (١٧). وهذا النباتالأوربى الذى ينمو بوفرة فى فرنسا ، فىالبرك والمستنقعات، وهو واحد من أغزر النباتات على شواطىء بحيرة النطرون . وترى هناك الشنجبار ذات الأوراق الضيقة (١٨) « هو نبات زينة » ، والجمان أو الطرطير ذات الورود البيضاء (١٩).والجنبة أو الحولاى (٢٠) ذات الأوراق الرمادية . وتوجد أيضا السويدا (٢١) وهو نوع من الصودا ويطلق عليه هذا الاسم فى حين يسميه العربان باسم الصهد . ويشاهد هناك أيضا بعض أشجار النخيل قليلة الارتفاع ، وهى تكون غابات كثيفة ، لكنها لا تنتج ثمارا على الاطلاق . وقد وجدنا خلف البحيرة الأخيرة بقليل عشرين نخلة منزوعة من الأرض ، ومجمعة كيفما اتفق فى شكل كومة ، بحيثبمكن القول بأنها قد انتزعت وحطمت بفعل حركة عنيفة .

---

(12) Arundo maxima, Fors.
(13) Statice aphylla, Fors.
(14) Tamarix gallica, Fors.
(15) Artemisia marltima, Lin.
(16) Juncns spin asus, Lin.
(17) Typha latifolia, Lin.
(18) Lithospermum angustifolium, L.
(19) Zygophyllum album, Lin.
(20) Fagenia scabra, Fors.
(21) Suoeda vera, Fors.

أما أنواع الحيوانات المختلفة هناك فليست كثيرة العدد فترى الجعل أو القنديد (٢٢) والسرطان بأنواعه المختلفة (٢٣) والنمل العـــادى والنمل الضخم ذا الأجنحة ونوعا من البعوض الذى تسبب لسعته أوراما هائلة. ومن طبقة الصدفيات نجد القواقع « الحلزون » من النوع الصغير ، ومن ذوات الأربع نجد الحرباء والغزلان ، ويستدل على الأخيرة من آثار أقدامها المشقوقة التى تتركها على الرمال . وقد تعرفنا بين الطيور على دجاجـــة المـــاء والبط والشرشير « البط البرى » ، وتوجد هذه الطيـــور بوفرة شديدة وبخاصة عند البحيرة الأخيرة ، وهى التى يقل تردد الناس عليها .

ولا يوجد فى وادى النطرون أى أثر لمنشآت قديمة ، اذ لم نشاهد فيها وراء البحيرة الرابعة الا أثر مصنع للزجاج ، وقـــد تعرفنا عليه من أنقاض أفرانه المبنيـــة بالطوب الأحمر ، ومن بعض فتات المعادن والزجاج فى أشكال مختلفة . ويزخر الموقع الذى كان يوجد به بالمادتين اللازمتين لصناعة الزجاج ، وهما الرمل الصوانى والصودا . ولعل الخشب فىذلك الوقت لم يكن بالندرة التى هو عليها اليوم . ولسنا نعرف الى أية فترة تنتمى هذه المنشأة ، وكان من الممكن أن نستدل على ذلك من نقوش الميدالية او قطعة النقود التى عثرنا عليها هناك ، لكن هذه النقوش كانت صـــدئة لدرجة لم يكن من السهل معها أن نفك أيا من رموزها .

---

(22) Pimelia muricata.

(23) Carabus variegatus.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

طبوغرافيـــة البحر الفـــارغ

يقع وادى النهر بلا ماء الى الغرب من وادى بحيرة النطرون . وهذان الواديان اللذان يلتصقان كل منهما بالاخر ، لا ينفصلان الا عن طريق تل مرتفع ، وتستغرق المسافة من الديرين الى الوادى المجاور ساعة ونصف الساعة .

وقد تكدست الرمال فى وادى نهر بلا ماء ، ويبلغ اتساع حوض هذا الوادى من شاطىء لآخر حوالى ثلاثة فراسخ . ويمضى المرء أربعين دقيقة كى يهبط ، عن طريق منحدر منتظم على نحو معقول ، حتى يصل الى قاع الوادى فوق الرمال .

وهذا الوادى قاحل لا تبدو به أية مصادر للمياه : وقـــد وجدنا به الـــكثير من الخشب المتحجر ، وعددا من اجسام أشجار بأكملها يبلغ طول البعض منها ثمانية عشر قدما . ولم يكن يبدو أن أجسام الشـــجر وقطع الخشب التى ظهرت لعيوننـــا قد مستها يد الانسان (٢٤) . وكانت غالبيتها قد تحجرت تماما أما اقلها فقد بدا أقل تقدما فى تحجره ، لذلك كان مغلفا بطبقة بالغة الكثافة وبالغة الصلابة. أما الجزء الذى يشكل المادة الخشبية « اللباب » فكان متباعدا فى شكل طبقات من الورق . وقد وجدنا كذلك

---

(٢٤) يؤكد ب. سيكار P. Sicard (Lettres édifiantes) أن المرء يجد فى وادى نهر بلا ماء صوارى ، وانقاض سفن متحجرة ، الا اننا لم نلاحظ شيئا من ذلك ، وان كنا فى الحقيقة لم نر الا جزءا من الوادى : ويدعى جرانجيـــه Granger فى تقريره عن رحلته الى مصر ، ان ما نأخذه عادة على أنه خشب متحجر ليس كذلك على الاطلاق ، ومع ذلك ، فان المبينات التى احضرناها لها بالتأكيد خواص الخشب المتحجر، حتى أنها بدت كذلك فى أعين افراد اقل خبرة ودراية ، كما أن علماء الطبيعة الحاذقين ، الذين فحصوها بعناية ، قد حكموا عليها نفس الحكم .

فى هذا الحوض سلاسل عظام من السمك الكبير الذى بدا لنا متحجرا، وهو ما يضيف احتمالا جديدا — كما سنرى — الى الاحتمال القائل بأن المياه كانت تجرى فى هذا الوادى ، وانها كانت تحتوى على حيوانات تعيش فيها .

وبخلاف الأخشاب المتحجرة ، يرى المرء ، وبشكل خاص على منحدرات الوادى ، أحجار صوان ملفوفة ، جاءت دون شك من مكان جد بعيد ، بالاضافة الى الزلط والجص والبلورات الصوانية المكونة داخل تجويفات ، وانواع من الجيود « وهو حجر به تجويف ومبطن ببللورات او بمادة معدنية » وقطع من الدشب « حجر كريم مختلف الألوان » المستدير، وقطعا من الحجارة ذات قاعدة صوانية تميل الى اللون الأخضر ، وبعضا من اليشب المسمى بالزلط المصرى .. الخ وتنتسب غالبية هذه المواد الى تلك الجبال النائية فى صعيد مصر ، ولا يمكن أن تنتقل هذه المواد الى هنا الا عن طريق مياه النيل . اذن فقد كانت هناك صلة بين النيل ونهر بلا ماء ، ونتيجة لذلك فقد كان ثمة صلة بين الواديين ، وليس ثمة مايؤكد أن مثل هذا الاتصال كان مستحيلا ، لكننا سوف نؤسس وجود هذه الصلة على اعتبارات أخرى .

ان اتجاه وادى نهر بلا ماء هو نفس اتجاه وادى بحيرات النطرون، والرأى الشائع هو أن المرء عند اتجاهه الى الجنوب بين هذه الوديان ، يصل الى الفيوم ، وعند اتجاهه الى الشمال منها يترك على يساره اقليم مريوط (٢٥) . وهذا هو الطريق الذى يسلكه العربان عادة للقيام بغاراتهم

---

(٢٥) تقع مريوط على مسافة أربعة فراسخ الى الغرب من الاسكندرية ، نحو البحر ، وتستطيع سرية من الفرسان ، راكبى الجمال (الهجانة) أن تصلها فى ساعتين ونصف الساعة ، ويجد المرء فى هذه المنطقة ، ثلاثة آبار عميقة ومعتنى بها ، تغذيها مياه الأمطار ، ويلمح المرء فى المنطقة المجاورة بعض الخرائب ، وكذلك مقابر العربان المزدانة بالتعويذات ، وهذه عبارة عن آيات من القرآن ، موضوعة داخل كيس صغير من الجلد ، معلق فى خيوط فوق المقابر .

=

فى مناطق الصعيد . كما أن اتجاه هذين الواديين ، يدفع الى استنتاج أن نقطة تماسهما تقع فى نفس المكان الذى ترسم فيه على الخريطة بحيرة موريس ، كما أن اتساع وادى النهر بلا ماء بالاضافة الى مايذكره المؤرخون عن بحيرة (قارون) يدفع الى الاعتقاد بأن هذا الخزان لم يكن سوى رأس لهذا الوادى ، الذى سد بشكل طبيعى بفعل تكدس الرمل ، أو بواسطة يد الانسان ، بطريقة يمكن القول معها بأن بحيرة موريس قد تكونت ولم تحفر . وهذا الرأى شديد الترجيح بحيث أن المرء عندما يفكر فى طبوغرافية هذه البلاد سيجد ما يقنعه بأن خزانا يحفر تحت مستوى تربة مصر ، سوف يجعل المياه التى ينلقاها بغير ذات نفع لهذه التربة . ولقد أوضحنا أن المياه التى حجزت على هذا النحو ، ستكون بالأحرى فى وضع تجرى معه نحو نهر بلا ماء ، لا أن تجرى الى داخل وادى النيل .

ولكى تكون هذه المياه نافعة للجزء الأدنى من مصر ، كان الأمر يقتضى عكس ذلك ، أى أن يكون حوض البحيرة ، بدلا من أن يكون محفورا بشكل طبيعى ، قد يكون عن طريق سدود علوية أقيمت فوق الأرض الطبيعية ، بقصد أن تحجز بعد الفيضان كمية من المياه أعلى من مستوى أرض مصر . ان وجود بحيرة موريس ، والغرض الذى ينسب اليها عادة، سيصبحان اذن أمرين مشكوك فى صحتهما ، وربما يشكلان على الدوام مشكلة تستدعى الحل .

= وتلامس أرض مريوط ، التلال التى تنتهى اليها المرتفعات الليبية ، أما التربة هنــاك ، فهى عبارة عن أرض رسوبية ، تشابه أرض مصر ، ونبعا لذلك ، فانها تدين بتكوينها لميـاه النيل ، التى كانت تصل الى هناك فيما مضى ، وحين تسقط الأمطار ، تتكاثر بعض الأعشاب فى مربوط ، وهذا مايدفع العربان ، وبخاصة الجوابى ، الى الذهاب الى هنـاك مع قطعانهم ، ولأن الآبار لا تتزود بالمياه الا عن طريق الأمطار ، فان ميـاه هذه الآبار ، تتجدد فى أوقات الجفاف ببطء شديد . ويتردد العربان على مريوط بسبب قربها من الاسكندرية ، ولأنها تقع على طرف خط الآبار الذى يجاور الصحراء عند الاتجاه الى ولاية البحيرة . ويؤدى هـذا الخط الى بحيرات النطرون ويصل المرء بعد عبوره الهضبة التى تفصــل الواديين، بعد مسيرة يوم ، وعند الطرف الشمالى للبحيرات ، الى مرتفعين متجاورين يطلق عليهما اسم النهدين .

وهذا الجزء ، الذى سمحت لنـا الظروف بالتعرف عليه ، هو مفتاح الجغرافيا الفيزيقية لمصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وان كان لنا ان نتجاسر على التشبع لراى ، لقلنا أن اتساع وحجم حوض النيل فى الفيوم يعودان الى منفذ بحر بلا ماء الذى يبدو على نحو هائل . ويحدد الأب سيكار ، ويحذو حذوه سترابون ، حوض هذا الفرع القديم للنيل ، بأنه يتجه نحو بحيرة موريس ، لـكنهما يتركان نقطةالتلاقى غامضة ، ويعطيان لبحيرة موريس نسبا وأبعادا من الضخامة بحيث تتجاوز الحد بالنسبة لاتساع بحر بلا ماء . واذا كان الراى الذى عرضناه لايعدو أن يكون الا نوعا من التخمين ، فان النتائج التى حصلنا عليها ، وحسب استنتاجاتنا ، من المهمة الاستطلاعية التى قمنا بها ، توضح لنا ، انهكانت توجد مجارى مياه كبيرة فى داخل الصحراوات . وانه من المحتمل جـدا ان كان النيل ينقسم الى عدة فروع الى الجنوب من بحيرة موريس ، وان الفرع الحالى كما سبق أن لاحظنا كان يجرى فى قاع الحوض بطول التلال الليبية ، كما تبرهن على ذلك شهادات المؤلفين ، وخطوط مهد أو قاع هائل يستمر بطول هذه التلال ، ويستحيل أن يكون هذا المهد قـد تـكون الا بواسطة مجرى مياه كبير . وقد وجدت هـذا المهـد فى كل اتساع ولاية الجيزة ولمساحة تبلغ ثلاثين فرسخا ، وثمة مظهر لافت للنظر وهو انه يتوغل الى الأمام متجهـا نحو الجنـوب حتى يصـل فيما أزعم حتى بداية بحر يوسف ، اى عند النقطة التى يعتقد أن النيل فيها قـد غير مجراه ، لكى يلقى بثقله على الشط الأيمن ، وفى أعماق هذا المهد تجرى ميـاه بحـر يوسف (٢٦) .

وهكذا يبدو لنا من شهادات التاريخ القديم التى تناولت تربة مصر :

١ ـــ أن النيل ، أو بترجيح أكبر ، أن جزءا من مياهه كانت تجرى داخل صحراوات مصر الغربية عن طريق وادى النطرون ونهر بلا ماء .

٢ ـــ أن المياه قد دفعت الى الوادى الحالى ولعلنـا نستطيع أن نفسر بهذا ، لماذا كانت مياه الفيضان فى عصر هيرودت ترتفع الى خمسة عشر ذراعا بينما لم تبلغ فى زمن موريس الا ثمانية أذرع فى حين أنها اليوم ، تبلغ ثمانية عشر ذراعا .

---

(٢٦) تحمل هذه الترعة فى البداية وهى تمر بولاية الجيزة اسم ، ترعة اللبن ، ثم ترعة الاسراء ، ثم تستعيد فى ولاية البحيرة اسمها الذى تسمى به فى مصر العليا وهو اسم : بحر يوسف .

٣ ــ ان النيل بعد هذه العملية قد جرى بأكمله بموازاة التلال الليبية، وشكل لنفسه المهد الذى نراه فى مصر السفلى ، وفى جزء من مصر الوسطى .

٤ ــ أن النيل قد « حمل » على الشط الأيمن وأن هذه الفترة قد سبقت مباشرة الوضع المنتظم للفروع السبعة للنيل وتكوين الدلتا (*) .

٥ ــ ان الشهادات الجغرافية التى عاصرت الوقائع السابقة ، تؤكد بالاضافة الى ما قلناه ، أن مياه النيل تميل للاتجاه نحو الغرب، وهو ميل يوضحه فى مصر ، كما هو الحال فى كل بلد آخر ، فى أى موقع آخر ، فعل وتأثير الطبوغرافية العامة للارض .

ويتبع هذا الرأى الأخير ، أن المشروع الذى كان لدى البوكيرك والذى كان يُرمى الى تحويل مصر الى أرض جرداء ، بتحويل مجرى النيل ، كان ممكن التحقيق لو أنه قد دفع بمياه النيل الى الصحراء الغربية ، أكثر منه ممكنا لو أنه دفعها الى اتجاه البحر الأحمر ، كما كان يقضى مشروعه .

ان وادى النهر بلا ماء لبس هو النقطة النائية فى هذه المنطقة ،اذ يمكن للمرء أن يتوغل من هناك الى داخل أفريقيا ، فسكان الطرانة يذهبون الى ماوراء هذا الوادى لقطع السمار ، الذى تنقله قبيلة عرب الجوابى من قراهم ، ليباع فى منوف (٢٧) حيث يستخدم فى صناعة ارق انواع الحصر ، ولكى نتوجه من وادى نهر بلا ماء الى المكان الذى

(*) انظر دراستنا عن بحيرة المنزلة . (المجلد الثالث من الترجمة العربية) .

(٢٧) منوف : هى احدى مدن الدلتا ، وتقع مباشرة امام الطرانة على بعد فرسخين من فرع رشيد ، وأربعة فراسخ من فرع دمياط ، وعلى الشط الشرقى لترعة الفرعونية ، التى تعبر ، بالمثل ، الجزء الجنوبى من الدلتا ، ابتداء من فرع دمياط ، حتى فرع رشيد ويقفلها عن جهة فرع دمياط جسر يسمى الفرعونية ، وبهذه الطريقة أمكن توزيع عادل للمياه بحيث حصلت الولايات الواقعة الى شرق او الى غرب الدلتا ، على نفس الامتيازات ، وتستطيع ادارة متنورة، بأيسر السبل ،أن تعالج الاضطرابات والمتاعب التى نجمت عن جشع وجهالة الحكومة السابقة ، عندما فضلت ولاية المنصورة ودمياط على حساب ولاية البحيرة ، التى تحول جزء كبير من اراضيها بسبب نقص المياه ، الى صحراء حقيقية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقطع منه السمار ينبغى أن نسير ثلاثة أيام كاملة من شروق الشمس حتى الغروب ، دون أن يكون بامكاننا أن نعثر على ماء طيلة هذه المسافة ، وحتى نبلغ المنطقة التى ينمو فيها السمار .

زحف الرمال :

قلنا فى بداية هذه الفقرة أن وادى نهر بلا ماء قد غص بالرمال . وما يقال بخصوص هذه الرمال هو نفس مايمكن قوله بخصوص الرمال التى توجد فى وادى النيل ، فقد حملتها الرياح من فوق الهضاب الواقعة الى الغرب . وحيث أن وادى النطرون ووادى نهر بلا ماء لا ينفصلان الا بواسطة تل ضيق ، فان الوادى الأول يكاد لا يساهم على الاطلاق فى زحف الرمال هذه ، على الرغم من أنه توجد على يمين الوادى أو الى الشرق منه ، تلك الهضبة الواسعة التى تفصله عن النيل . ويدل ذلك بوضوح على تحرك محدد للرمال من الغرب الى الشرق ، وقد كانت هذه الحركة ملموسة منذ وقت طويل ، لدرجة سببت أشد القلق على مصير تلك المنطقة شديدة الخصوبة من أرض مصر ، وهى تلك التى توازى الشاطىء الأيسر للنهر .

ودون أن نخرج كثيرا عن الاطار الذى حددناه لأنفسنا ، نستطيع القول بأن الكثبان التى تقع فوقها قرية منية سلامة والتى تضم أتريس ووردان (*) قد تكونت بفعل انتقال الرمال من الصحراوات الليبية ، عن طريق الرياح القادمة من الغرب ، وتحت هذه الكثبان توجد تربة رسوبية تكونت من طمى النيل أى أنها بمثابة قاعدة لهذه الكثبان ، وترتفع منها أشجار جميز بالغة الجمال ، لتخرج من قلب هذه الكثبان القاحلة . وتصل الرمال فى هذه المنطقة ، وفى مناطق أخرى الى النيل ، كما يصل رماد فيزوف الى شاطىء البحر . وتردم الرمال الطريق الموازى للنهر ، وتضطر المسافر الى اجتياز هذه الأرض المرتفعة والمتحركة .

ويؤدى هذا الأمر ، بالاضافة الى ماقلناه فى دراستنا عن بحيرة المنزلة ، الى أمور نوجزها فيما يلى :

(*) انظر الخريطة الطبوغرافية لمصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هناك ثلاثة أسباب مجتمعة عملت منذ وقت طويل على حصر أرض مصر وتدهور خصوبتها . وهذه الأسباب هى : عمل الحكومة وهو فى عمومه ذو أثر مضاد للصالح العام ، تقلبل فاعلية مياه النيل وهو الأمر الذى أدى نتيجة للادارة السيئة للحكومة الى طغيان مياه البحر على الأجزاء الدنيا وغير المستوية من أرض مصر ، وأخيرا ذلك العمل المستمر والدءوب للرياح التى تدفع رمال الصحراوات من الغرب الى الأراضى الصالحة للزراعة والى الترع والنهر .. ومن الممكن تعديل الظروف فيما يختص بالسببين الأولين، لكن ليس ثمة جهد بشرى يمكنه أن يتصدى لزحف الرمال. وفى غيبة العوامل الطبيعية القادرة على ذلك ، فقد أدت السذاجة والجهل الى تلمس الخرافات ، فنقرأ مثلا عند مؤلفين عرب (٢٨) ان ابا الهول، الذى يشاهد بالقرب من الأهرام، هو بمثابة تعويذه لايقاف الرمال الليبية، ومنعها من التوغل فى أراضى ولاية الجيزة .

ومع ذلك فاننا نعتقد أن بامكاننا أن نضيف الى ما سبق ، وكما امكننا أن نلاحظ ذلك بأنفسنا ، أن غزوة الرمال الليبية تقارب من نهايتها، بالنسبة لمصر السفلى على الأقل ، حيث لا يوجد فى الواقع الا القليل من الرمال المتحركة فوق الهضبة ، الى الغرب من النيل .

وهذه الهضبة من الحجر الجيرى .

وتكاد تكون كل الرمال التى ترى فى وادى النيل من نوع الرمال الصوانية ، فلا يبقى اذن للرياح الا الرمال التى يمكن أن تنتج عن تفتت الأحجار الجيرية .

وبالاضافة الى ذلك ، فان وادى نهر بلا ماء ، يقوم بدور الحاجز ضد الرمال التى تزحف من داخل أفريقيا نحو النيل ، ويوازى هذا الوادى ولايتى الجيزة والبحيرة ، وفى الحقيقة فان وادى نهر بلا ماء هذا يغص بالرمال ، لكن الرمال لايزال أمامها الكثير حتى ترتفع الى حواف حوضه،

---

(٢٨) انظر جغرافية عبد الرشيد ، الذى كتب عام ١٤٠٣ من العصر الحديث (الميلادى) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بل انه حتى لو حدث ذلك، فسوف يكون على الرمال أن تسد وادى بحيرات النطرون قبل أن تبلغ الهضبة لتنتقل من هناك الى وادى النيل .

ان عمل الرياح على الرمال الموجودة فى هذا الوادى هو بلا جدال اكثر الأمور مدعاة للاسف ، وهذه الرمال تتحرك وتتغير من مكانها ،وسوف تضل بعد انتقالها من صخرة لأخرى الى النهر ، كما يشاهد ذلك فى الأماكن التى يضيق فيها وادى النيل ، فى حوض مصر .

ومع ذلك ، فليست الرياح وحدها هى التى تنهض بكل العبء لـــكى تدفع بالرمال نحو النيل ، فمياه النيل نفسها ، بتحميلها على الشط الأيسر، وبنحرها لهذا الشط ، تسعى بنفسها حثيثا نحو الرمال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

عن الأديرة القبطية

انشئت الأديرة القبطية الموجودة فى وادى النطرون فى القرن الرابع ، ومع ذلك فيبدو أن هذه الأديرة قد أعيد بناؤها أو ترميمها مرات عدة ، منذ هذا التاريخ . وثلاثة من هذه الأديرة قد بنيت على شكل مستطيل ، يبلغ طولها من ٩٨ الى ١٤٢ مترا ، ويتراوح عرضها مابين ٥٨ الى ٦٨ مترا ، الأمر الذى يؤدى بمتوسط مساحتها الى ٧٥٦٠ مترا مربعا .

ويبلغ ارتفاع جدران السور ثلاثة عشر مترا على الأقل ، أما سمكه فيبلغ عند الأساس من ٢ ١/٢ الى ٣ من الأمتار وهى مبنية من خامات جيدة وبشكل معتنى به . وبسبطر على الجزء العلوى طوار يبلغ عرضه مترا واحدا . وبالحائط فى أعلى الطوار كوات بعضها الى داخل الجدار وبعضها تميل وتنزلق الى خارجه حتى يسهل الدفاع عن النفس ضد العربان ، وذلك بقذفهم بقطع من الحجارة حيث أن أنظمة الرهبان تحرم عليهم استخدام الأسلحة النارية . ولهذه الكوات المنزلقة الى الخارج ، أقنعة لتامين الناس من طلقات البنادق .

وليس للاديرة الا مدخل واحد ، وهو خفيض وضيق فلا يبلغ ارتفاعه أكثر من متر ، كما لا يصل عرضه لأبعد من مترين ويغلق هذا المدخل من الداخل باب شديد السمك ، مزود بمزلاج فى أعلاه وبقفل خشبى قوى « ضبة » فى وسطه ، كما انه مزود عند أسفله بعارضة حديدية تخترقها مسامير ذات رءوس ، وبخلاف ذلك فان مدخل الدير مقفل على نحو ما وباحكام من الخارج ، وذلك بواسطة رحوين من الجرانيت موضوعتين على جانبى المدخل الضيق ، وقطر كل منهما اقل بقليل من ارتفاع المدخل ويسمح سمكها بأن ينهضا فى ثبات . وتشرف على الباب شرفة دفاعية يمكن منها احراق المهاجم والقاء الحجارة فوقه . وعندما يراد الاختباء ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ببدأ راهب موجود خارج الدير في دحرجة واحدة من الرحوين بواسطه عتلة ، ثم يثبتها ، ثم يدحرج الأخرى وينسل الى الداخل ليجر ، نحوه الرحى الأخرى فتأخذ مكانها بشكل طبيعي الى جانب الأولى وعندما تتماسك الرحوان يقفل الباب، ومن طريق الشرفة الدفاعية يكون من السهل اكتشاف أولئك الذين يريدون زحزحة الرحوين .

والى جوار هذه الشرفة ، يوجد الناقوس الذى يتدلى منه حتى يلامس الأرض حبل مصنوع من ليف النخيل . وفي بعض الأحيان يستيقظ الرهبان اثناء الليل على صوت الناقوس ، ومع ذلك فهم على الدوام يلزمون الحذر والحيطة ، حتى ولو تعرفوا بالفعل من حيث هم أعلى الأسوار ، على انهم يتعاملون مع أناس أصدقاء ، فانهم لايقررون فتح الباب امامهم واستقبال الطارق الا بعد أن ينزل راهب عن طريق الشرفة متعلقا في طرف حبل مربوط في رحى صغير ليرى عن قرب ما ان كان ثمة من يبغى اخذ الدير على غرة ، وعندما يأخذ في فتح الباب يبقى واحد من الرهبان في أعلى الحائط متخذا وضع الحارس ، حتى يلحظ ما ان كان هناك من يأتى على بعد من العربان .

ولكل دير بداخله برج مربع الشكل ، لا يمكن الدخول اليه الا بواسطة جسر متحرك يبلغ طوله خمسة أمتار ، ويبلغ ارتفاعه فوق سطح الأرض ستة اقدام ونصف القدم . ويرفع الجسر بواسطة حبل أو سلسلة تمر من خلال الجدار ، ويلتف هذا الحبل حول رحى أفقية ، وينتهي البرج بسطح علوى فوق جدار السور .

وللاديرة الثلاثة التى تجاور البحيرات آبار محفورة يبلغ عمق الواحدة منها ثلاثة عشر مترا ، ويوجد بكل بئر حوالى المتر من المياه العذبة التى ترفع بواسطة ساقية ذات قواديس . وتستخدم المياه في احتياجات الرهبان ولرى حديقة صغيرة تنمو فيها بعض الخضروات ، كما تزرع فيها بعض الأشجار مثل النخيل والزيتون والتمرهندى والحناء والجميز . وعند نهاية شهر يناير ، يبلغ ارتفاع مياه الآبار حده الأقصى ، لتنخفض اثناء الصيف لكن الآبار لا تنضب مطلقا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويمتلك دير السيريان شجرة سانت افرام (٢٩) ، وهى شجرة مقدسة يبلغ ارتفاعها ٦ أمتار ونصف المتر ، ويبلغ محيطها ثلاثة أمتار .. أنها شجرة التمرهندى (٣٠) التى يظن الرهبان السيريان أنهم وحدهم الذين يحوزون مثل هذه الشجرة « أى أنها لا توجد عند سواهم » .. وهذه الشجرة بالغة الندرة فى مصر السفلى ، لكنها بالغة الانتشار فى الصعيد.

وليس للدير الرابع الذى يحمل اسم دير الأنبا مقار الا بئر واحدة، مياهها مالحة ، ولكن ثمة بئرا محفورة على نحو طيب (٣١) ومياهها بالغة العذوبة تقع خارج الدير وعلى بعد أربعمائة متر منه ، كما يوجد نبع عند الانحدار المقابل لهذا الممر الجبلى ، وللديرين الآخرين بالمثل نبع يجاورهما.

وصوامع الرهبان عبارة عن حجرات ضيقة ، لا يصلها من ضوء الا من طريق المدخل الذى يبلغ ارتفاعه أكثر من المتر . وأثاثهم ليس سوى حصيرة وجرة وقلة (٣٢) . والكنائس منظمة على نحو طيب ، لكنها تزدان بصور رسمت بخشونة ، وبخلاف ذلك فكل شىء مضطرب ، غير منتظم وغير نظيف وخال من الذوق . وحيث أن فقر الأديرة لايسمح لها مطلقا باتخاذ زينات فاخرة ، فان الرهبان يجدون فى تجهيزها بأشياء

---

(٢٩) يحكى أنه حدث فى الأزمنة الأولى لحياة الأديرة ، أن شكا الرهبان من ضيقهم بحالتهم ، ومن أنه لا ينمو حولهم فى وحدتهم القاحلة تلك أى نبات . ولكى يقوى القديس افرام من حماستهم ، ويزيد من ايمانهم ، فقد أمر أحد اتباعه بأن يزرع عصاه فى الرمال ، مخبرا اياه أنها ستغدو شجرة ، وبعد فترة تردد أطاع الراهب الشاب . ويقال ان المعجزة قد حدثت وان العصا قد مدت لها جذورا وأنبتت لها فروعا ، وانها هى نفس الشجرة التى لا تزال تنهض حتى اليوم وتحمل اسم شجرة القديس افرام أو شجرة الطاعة .

(30) Tamarindus indica, lin.

(٣١) يبلغ عمق هذه البئر خمسة أمتار ، وهى على شكل مربع ، طول ضلعه متر وثلث المتر ويبلغ ارتفاع الماء بها اقل من المتر بقليل .

(٣٢) يقال لها ايضا وبشكل أكثر شيوعا : بردق ، وهذه الكلمة الأخيرة تركية ، والقلل عبارة عن آنية مصنوعة من الطين المعد والمحروق، بطريقة تسمح بنسوغ خفيف للمياه ، وهى تستخدم فى تبريد الماء ،وذلك بتعريضها ، هي ، لتيار الهواء .

مقلدة .. وهكذا فبدلا من المصابيح الفضية تجد لديهم مصابيح من بيض النعام لها تأثير جميل لحد لا بأس به .

ورجال الدين هؤلاء ، هم فى العادة عور او عميان ، ولهم ملمح وحشى ، حزين وقلق ، ويعيشون على بعض الدخول ، وبصفة أساسية على العطايا والاحسان ، ويتغذون على الفول والعدس المطبوخ بالزيت ، وينقضى وقتهم فى الصلاة ، ويحترق البخور فى هذه الخلوات التى يحيط بها بحر من الرمال .. ويعلو الصليب القباب عالية الارتفاع .. ويوجد تسعة من الرهبان فى دير براموس وثمانية فى دير السريان ، واثنا عشر فى دير الأنبا بيشوى وعشرون فى الدير الرابع ، ويعنى بطريرك القاهرة برعايا هذه الأديرة الأربعة .

اننا فى الحقيقة لنجهل ماتكون عليه مباهج وملذات حياة هؤلاء الرهبان الورعين والمتوحدين ، فنحن لم نلمح شيئا يمكن أن يشتم منه انهم يعتنون بتثقيف أرواحهم ، ولا بتنشيط أيديهم . والكتب التى بين يديهم ليست سوى مخطوطات صوفية مكتوبة على رق أو على أوراق من القطن ، وبعضها مكتوب بالعربية ، وبعضها الاخر مكتوب باللغة القبطية ، وعليها فى الهامش ترجمة عربية ، وعندما تصفحنا المخطوطات الاخيرة ، وجدنا أنها ربما تعود الى ستمائة عام . وقد عبرنا داخل هذه الأديرة ، ووقفنا على كل تفاصيلها ، وقد أخذ الرهبان بسرور بالغ استعدادهم لزيارتنا هذه ، وعدوها بمثابة تقدير لهم أرضى كبرياءهم .. وقبل خروجنا تقبلنا خبز القربان (٣٣) الذى قدموه لنا .

ويقوم رجال الدين تجاه العربان بواجب الضيافة الاجبارية . وهم مضطرون أن يكونوا على الدوام فى كنف حراستهم ، ولذلك فهم عندما يذهبون من ملجأ لآخر ، لايفعلون ذلك الا فى اثناء الليل ، ويمر العربان بالأديرة اثناء جولاتهم ، ويتوقفون ليتناولوا طعامهم ، ولكى يستريحوا ويريحوا خيولهم ، ويقدم اليهم الرهبان واجب الضيافة هذا من وراء الجدران ، ذلك انهم لا يفتحون لهم الأبواب مطلقا ، فثمة بكرة موضوعة

---

(٣٣) يصنع خبز القربان دون خمور ، وهو مستدير ، ويبلغ سمكه سمك الاصبع ، وهو فى حجم كف اليد ، ويغطى سطحه بحروف عربية .

على احدى زوايا السور ، الغرض منها أن تنزل بواسطة حبل قفة الخبز والخضار والشعير المخصص لهم . وهم مضطرون للسلوك على هذا النحو حتى لايتعرضوا عندما يقابلهم العربان خارج الأديرة للنهب بل والقتل على أيدى هؤلاء . وحيث أنهم يعيشون فى وطأة هذا الخوف والقهر فانهم يتحملون بنفاد صبر متعصبى الديانة المسيطرة . وتلك هى الآفة الرهيبة لهذه الأفكار المسبقة ، التى تؤدى الى أن يكون اختلاف الدين ، بل وحتى اختلاف المذهب سببا فى خلق أعداء متباغضين فى هذه البلاد، ليس فقط بين أتباع المسيح وأتباع محمد ، بل وحتى فى داخل الاسلام نفسه بين أولئك الذين يتبعون مذاهب مختلفة فى أطار الدين الواحد ، وكان الرهبان يسألوننا — وكأنه أمر دينى مقدس وبلهجة لا تخلو من غرض — وماذا سيكون موقفكم من المسلمين (*) ؟ ولم يكن هذا أول سؤال من نوعه يوجه الينا ، منذ وطئت أقدامنا أرض مصر .

ومع ذلك فان المصلحة والخرافة تقربان فى بعض الأحيان بين هؤلاء الخصوم الطبيعيين ، فيحدث على سبيل المثال فى مناطق معينة أن يرسل مسلم ، يريد أن ينشىء برجا للحمام ، الى أديرة الصحراء التماسا مصحوبا بهدية مناسبة ، ويتقبل الرهبان الورعون الهدية ، ويعطونه فى مقابلها بطاقة بها عبارات دينية ، من شأنها ، عندما توضع فى البرج وحسب الاعتقاد الشائع ، أن تجعله مزدحما بالحمام ، وأن تجلب له البركة والازدهار .

(*) الترجمة هنا بتصرف طفيف . [المترجم]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

عن عرب الجوابى وعن البدو

يتردد على شواطىء بحيرات النطرون كل عام عربان الجوابى(٣٤)، وهم أبنـــاء قبيلة عربية رحالة ومضيافة ، وتعسكر هذه القبيلة هناك مع قطعانها فى فصل الشتاء . ويعمل هؤلاء العربان فى خلال هذا الفصل من العام فى نقل النطرون والسمار ، كما يقومون بنقل البلح ، ولــكى يحصلوا عليه ، يذهبون فى شكل قوافل الى سـيوة ، واحـة آمون ، ويستغرقون فى رحلة الذهاب الى هناك من ١٢ الى ١٥ يوما . وهؤلاء العربان يعيشون فى حالة سلم دائمة (٣٥) ، فهم مسـالمون ، يتجولون هنـا وهناك بحثـا عن الميـاه والمراعى لماشيتهم . وتحتفظ هذه القبيلة اكثر من سواها بالعادات القديمـة ، وابنـاؤها رعاة بسطاء لا يميلون لاحتراف الزراعة . وهم رقيقو الحاشية ، لطيفو المعشر ، ولا يحسون بأدنى غضاضة من نوع الحياة التى يحيونها . ومع ذلك فعواطفهم متأججة، وبخاصة عاطفة الحب ، الذى هو صنو للغيرة فى كل البلدان ، وخاصة عند الشرقيين . وقـد تدفعهم هذه العاطفة فى بعض الأحيان الى سلوك متطرف ، بالغ القسوة (٣٦) .

---

(٣٤) رؤساء قبيلة الجوابى هم الشيوخ : قراميط أو غالب ، وهو شيخ القبيلة الأكبر ، والحاج عيسى ابو على ، والحـاج طه أبو ديل ، وتتكون هذه القبيلة من حوالى الفى رجل ، وقد يصـل عدد ماتملك من خيول الى الستين .

(٣٥) أناس مسالمون ، لا يبدأون مطلقا بشن الحرب ، ولا يشهرون السلاح الا للدفاع عن النفس ، وهو امر نادر الحدوث ، وهم ينصرفون عادة لـكسب المـال .

(٣٦) هواد ، رب لأسرة كبيرة العدد ، وشيخ مسن يحظى بالاحترام، ومن أتبـاع الحاج طه ، وذات يوم وجـد ابنـه الوحيد قتيلا الى جوار زوجته ، وكانت تلك متزوجة من قبل من رجل آخر ، طلقها لبعض التعلات الواهية ، ولمـا كان هذا الأخير مجنونا بحبها لدرجة السعار ، فقد أقسم
=

وملابس الجوابى ، حرام وبرنس وهو نوع من المعطف الذى يشبه الغفارة التى تستخدمها الكنيسة الرومانية عند اقامة قداس ، وهو من الصوف الأبيض. وتستخدمهذه الأقمشة فى صنع ملابس الرجالوالنساء، وهى تصنع فى النوبة ، ويشتريها العربان من القاهرة ، وبصفة خاصة من الاسكندرية .. وتغزل النسوة وبر الماعز ليصنعن منه أقمشة الخيام وبعض البسط العادية .

وتتمثل ثروة الجوابى ، وعموما كل عربان الصحراوات ، فى الجمال وقطعان الأغنام والماعز ، بينما تتمثل ثروات من استوطنوا القرى منهم فى الماشية الكبيرة وقليل من الجمال . ومن ذا الذى كان يدور بخلده أن الثروة فى وسط هذه الصحراوات القاحلة ، شأنها فى ذلك نفس شأنها عند الأمم المتحضرة، يمكن أن تصنع هذا التمايز وتبتعد بأصحابها عن حياة الفطرة ؟ فليست كل الأمهات العربيات يرضعن بأنفسهن أطفالهن ، اذ تتخذ الثريات منهن لأطفالهن مرضعات . أما أولئك اللائى لا يسلمن أبناءهن لامهات مأجورات ، فيعرفن فيما يبدو الأهمية التى توحى بها هذه السن الحنون للشعوب المتحضرة . وعند الهجوم على مخيم عربى ، لم يتخذ احتياطاته الكافية ضد المفاجآت، يركب الرجال على الفور خيولهم ويهربون سريعا تجاه النيل ، وتبقى النسوة وحدهن مهجورات ، ولكى يعقن بطش جنودنا وابطاء زحفهم يتسترن علي نحو ما بأطفالهن ويضعنهم أمامهن ، وقد يتم هذا من جانبهن بدافع من الغريزة وحدها ، كما قد يتم بعد انعام للفكر ، لكن مثل هذه العقبات لم تكن لتوقف زحف رجالنا الشجعان،فكانوا يلتقطون اثناء جريهم هذه المخلوقات البائسة ويحملونهم ثم يودعونهم على مقربة من امهاتهم ويواصلون ملاحقة الأعداء .

= هذا المخبول أن يقتل بيده من يتزوجها . وكان عند كلمته ، وحيث لم يستطع هواد أن يتحمل رؤية قاتل ابنه ، فقد انسحب الى الصعيد ، فجر معه، دون قصد منه ، العديد من الأسر ، وحين لاحظ هذا الأب المسكين أن انسحابه قد ادى الى حدوث اضطراب فى القبيلة ، فقد آثر أن يكظم آلامه حتى لا يؤذى الصالح العام لقبيلته ، فعاد الى كنف الحاج طه ، لكنه كان يشاهد على الدوام حزينا وعيناه مليئتان بالدموع ، وعاش حياة مليئة بالألم والضنى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن العسير الا تدب الفوضى فى مخيم استولى عليه عنوة ، ففى هذه الحال ترى النسوة العربيات وهن خائفات من أن تطبق عليهن شريعة المنتصر ، ويلجأن كى ينفرن منهن رجالنا ، الى تكتيك شاذ وهو أن يلطخن وجوههن بروث البقر .

ويحمل عربان الصحراء اسم عرب الخيش أى عرب الخيام ، أما الساكنون خلف الجدران، فقد كانوا فيما مضى عربا رحلا ،وعندما اقتربوا من بلدان مزروعة ظلوا لفترة تحت الخيام ، ثم بدأوا شيئا فشيئا يبتنون لأنفسهم بيوتا مثل بيوت فلاحى مصر .

وليس هناك عقد يربط أفراد قبيلة ما بشيخها ، ويعود هذا الشيخ فى معظم الأحيان الى أصل ضارب فى القدم ، يسر الناس أن يعرفوه، ومع ذلك فعليه لكى يصبح على رأس قبيلته ، أن يستخدم الاقناع والمهارة والمرونة ، وباختصار كل الكياسة المفترضة فى حاكم ماهر ، اذ أن عليه فى الوقت نفسه أن يعقد السلم أو أن يشن الحرب ، وأن يقضى فى كل مايمكن أن يكون نافعا للقبيلة .

وما أن يعقد سلام مع قبيلة أو ما أن يتم تعامل معها حتى يخلع على شيخها جبة وشال . وعادة تقديم الهدايا أمر مستقر ، حتى أنه لا يتيقن أن الاتفاق قد تم بدون ذلك .

ويتفاوض شيوخ العرب فى **كرامة** أو مع استخدام العنف ككل المخاتلين . ان مايسمونه اكل العيش والملح مع الحلفاء الجدد ، ذلك الأمر الذى يحظى بالاحترام فيما يقال ، ليس سوى فعل شائع أملته العادة ، فلقد برهن عربان ضفتى النيل أنهم لا يحترمون العهود ، فهم ينتهكون المواثيق التى وضعوها ذات حين ، حين أملى عليهم ذلك ضعفهم أو مصلحتهم .

وعندما يذهب العربان للقاء شخصية يحترمونها ، فانهم يتركون خيولهم على بعد مائة خطوة ، ثم يتقدمون اليه سائرين على أقدامهم .

ولا يعرف العربان قوانين أخرى غير قانون القصاص ، وحيث لايوجد قانون رادع ، ولا قضاة يستطيعون تنفيذه فسوف يبقى القتل بلا عقاب

ما لم يات الاغتيال ، ليقابل هـذا الضرب من ضروب استخدام القوه ، وعندئذ فان ما ننظر اليه نحن على اعتباره جريمة او جبنا ، يغدو انتقاما مشروعا يتابعه أهل القتيل من جيل لجيل .

وتغذى الاغتيالات نوازع الحرب من قبيلة لأخرى ، أو بين القبائل والقرى ، ويقال عندئذ ان بين هؤلاء دما . وفى بعض الأحيان يضطر الناس أن يدفعوا ثمنا لاعادة شراء الدم واحلال السلام « الدية » ، وان كان ينظر الى ذلك باعتباره عارا ، وعندئذ يصبح على الضعيف المتخاذل أن يدفع جزية مضاعفة للأقوى .. أما القرى التىترفض أن تدفع فتتعرض للسلب والنهب ثلاث مرات ، ويصيب مثل هـذا السلب القرى بالفزع ، وينظر الفلاحون الى العربان كما ينظرون الى وباء مخيف . سألت مرة احد مشايخ قرية ما : هل حل الطاعون بقريتكم هذا العام ؟ فأجاب ،نعم مرتين ، فلقد حل الطاعون والعربان .

والغرام بالمولود الذكر أمر ذو مذاق طيب ومرغوب عند العرب ، كما هى الحال عند كل أمم الشرق .

ويؤدى العربان الصلاة خمس مرات فى اليوم ، ويتناولون الطعام قبل صلاة الظهر وقبل الصلاة الأخيرة « العشاء » عند انتهاء الغسق ، ويكفى طعام اثنين من سكان القرى لاطعام عشرة من العربان ،فهؤلاء يأكلون القليل من الخبز ، ويستخدمون لطحن الدقيق طاحونة ذات ذراع مزودة بشقين صغيرين منالحجارة « رحى » ويأكلون كذلك البلح،ويشربون القليل من الماء ، ويفضلون لبن النوق ، وينامون حوالى ست ساعات فى اليوم . وقلما يأكل العربان اللحم ، ولا يعرف هؤلاء وجبات البذخ: فخروف محمر يقدم بأكمله بعد قطع رأسه ، هو الوجبة الفاخرة لديهم، وهذه ، لا يقدمونها الا ترحيبا بزائر كبير أو شيخ عربى .

ولا يبالى العرب بقياس الوقت الا لمعرفة أوقات الصلاة .ويقدرون الوقت بقياس طول ظلهم ، ويقيسون هذه الظلال بقدميهم عاريتين، ويضعونها واحدة أمام الأخرى بالتبادل ، ويرون — كقاعدة عامة — أن الظهر يتحدد صيفا عندما يبلغ طول الظل قدما واحدة والشمس عمودية . ويتحدد نفس الوقت شتاء عندما يبلغ طول الظل تسعة أقدام . أما الفترة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفاصلة بين منتصف النهار وغروب الشمس « العصر » فيتفق جلولهـا صيفا عند بلوغ طول الظل سبعة أقدام .

ويعتقد العربان بسبب جهلهم وسذاجتهم بأن علاج الحمى وعلاج بقية الأمراض ، يتم بأن يوضع تحت رأس المريض ورقة تحتـوى على بعض كلمات سحرية ودينية كتبها أحد الدراويش . وهنـا ينـام المريض وهو شـديد الثقـة فى هـذه التـذكرة « الطبيـة » ، وأكثر من ذلك فى قدرة العناية الالهية .

ويجد النسوة العربيـات عند نهاية فترة الحمل ، عند بنات جنسـهن، العون والمساعدة فى عملية الرضـاعة ، ويؤكد البعض أن الفتيـات أو النسوة الأرامل اللانى يصبحن حاملات يقتلن علي يد أهليهن ، هذا ان لم يقتلن انفسهن بأنفسهن .

ويخشى العربان كثيرا وبائى الجـدرى والطـاعون . ويسـارع الأشخاص الذين لم يصابوا مطلقا بهذين المرضين الى الابتعاد عن أولئك الذين يصابون بأى منهمـا . ويترك الجـدرى ندوبا كبيرة ، وبرغم كل أفكارهم الدينية المسبقة، يقوم العربان باحراق جثث الذين ماتوا بالطاعون، ويولون ذلك الأمر عناية شديدة .

ويقدر عمر الأطفال بالنسبة الى أحداث أو فترات معينة ، وهكـذا فان مواليد هذا العـام ستقدر أعمارهم بالنسـبة الى دخول الفرنسيين الى مصر . ولدى العربان نوع من التقويم يغطى حوالى سـتة أعوام . وليس ثمة سجلات عامة ، لذلك يكتب تاريخ مولد الطفل على قطعة بالية من الورق ، أو على صفحة من القرآن (الـكريم) كما يكتب تاريخ ميلاد الأطفال فى القرى على أبواب المنازل أو جدرانها .

ويؤدى بهم نقص الأدوات الطبيـة الى ممارسات شـاذة لعـلاج جروح الأسلحة النـارية ، يهدفون من ورائها الى الاستعاضة عن آلات الجراحة ، لاخراج المقذوفات النارية التى لم تصل لأبعد من اللحم أملا فى الشفاء ، وهذه الممارسة هى مطابقة شق أحدث فى الجزء الخلفى لضفدعة بشق الجرح وربط الاثنين برباط محكم، ويزعم العربان أن الحركة المرتعشة التى تحدثها الضفدعة وهى تموت كفيلة بجذب المقذوف الى الخارج .

وينظف العربان الجرح بالزيت او الزبد ، ويكوونه بالجنزار ، حتى يمنعوه أن يلتئم قبل الأوان ، ولنفس الغرض ، ولكى يساعدوا المصاب على التحمل الجميل ، يضعون فى الجرح زلطة صغيرة ، وهو أمر يماثل الكى الذى نستخدمه لهذا الغرض فى أوربا .

ويصحب العربان معهم اينما ذهبوا ، الجزء الأكبر من ثروتهم ومئونتهم ، ويحتفظون فى مخيمات اقامتهم بالقش المهروس « التبن » والحبوب ، وذلك فى تجويفات كبيرة محفورة فى الأرض . وتحدد مجاورة الآبار العذبة وبعض قطع الأرض ذات الانتاج الضعيف ، أو البحيرات الملحة التى يقدم استغلالها بعض النفع — يحدد كل هذا اختيار مكان مخيماتهم ، وبالاضافة الى ذلك فللعربان على مبعدة أربعة أو خمسة فراسخ من مشارف الأرض المزروعة ، مخازن مسورة بسور عال . والى الأبعد من ذلك ، فى الصحراء ، توجد مستودعات فى الرمال توضع عليها علامات لا يعرفها الا أصحابها .

ولكى يحتمى الجوابى من سلب وانتهاب القبائل الرحل لهم ، فانهم مضطرون لاستضافة هؤلاء فى مخيماتهم ولتقديم الشعير لجمالهم ، ولا يعرف العربان الرحل « البدو » أى نوع من القوانين ، وقد كانوا على الدوام فى عداء مع الحكومة الأخيرة التى كانت قد توصلت ، برغم ذلك و... بعض الظروف ، الى تضييق الخناق عليهم لمنعتهم من دخول مصر .

ومنذ بضعة اشهر اخذت فتيات الهنادى (٣٧) ينشدن لنا :
عاش الشعب الذى طرد مراد من القاهرة .
عاش الشعب الذى اتاح لنا أن نرى القرى .
عاش الشعب الذى جعلنا ناكل الفطير (٣٨) .

---

(٣٧) شيخ القبيلة الرئيسية من قبائل الهنادى ، هو موسى أبوعلى، ولهذه القبائل من ٣٠٠ الى ٤٠٠ حصان . ويرتفع الرقم الى ٩٠٠ — ١٠٠٠ اذا ما اضفنا ما تمتلكه القبائل الصديقة والمتحالفة معها من خيول ، ولعل الهنادى هم اقدم القبائل الليبية التى يتعرف عليها المرء فى مصر .

(٣٨) نوع من الفطائر المورقة والتى غمست أوراقها فى السمن ، وياكلها الناس مغموسة فى عسل النحل ، وكثيرا ما تؤكل مغموسة بالعسل الأسود .

ولكنهم منذ تمكنا بفعل اجراءات عنيفة أن نقمع سلبهم وانتهابهم ، قد كفوا عن الترحيب بنا . وينبغى للمرء أن يحترس من العربان بالقدر الذى يحتمى به من اللصوص والسفاحين . وهم لا يوحون بأية رهبة كفرقة مسلحة مادام هناك من يقاومهم أو يزحف عليهم ، وفضلا عن ذلك فلقد توغلنا « نحن الفرنسيين » فى الصحراء التى كانوا يظنون أنفسهم فى منعة فى جوفها ، ولم تعد هذه الرمال القاحلة بغريبة علينا .

والعربان مسلحون بحراب (٣٩) يستخدمونها بمهارة ، ويقذفونها وهم ممتطون خيولهم لكنهم يجحفون بخيولهم الطيبة وذلك بايقافها فجأة على قدميها الخلفيتين ، وهى تجرى بأقصى سرعتها وان كانوا فى نفس الوقت يبذلون قصاراهم للعناية بها الى حد لم نسمع به من قبل . ولا يغير العربان مطلقا وهم على هيئة صفوف لكنهم يغيرون متفرقين ، وهم يطلقون صيحات عالية تختلط بسباب بذىء ، وطريقتهم فى الحرب هى الطريقة التى تتبعها الفرق الخفيفة .

والخيول العربية شديدة السرعة . ويطلق الفرسان لها العنان دون أن يتركوا السرج التى يمسكون بها بيدهم اليسرى ، وهم يحملون على عدوهم ، فاذا قتلوه سلبوه ، وفى بعض الأحيان يحزون رأسه ويحملونها على طرف حرابهم دليلا على النصر ، وعندما لايحرزون النصر يعودون ليحملوا على عدوهم عن ميمنة أو عن ميسرة أو يسعون لتحسين وضعهم بارتقاء الأماكن العالية .

لكن العرب فى العادة مسلحون على نحو غير جيد ، وبارودهم وأسلحتهم النارية بالغة الرداءة ، والبارود مغلف بطريقة شائهة . وكمية الفحم به أكثر مما يلزم ، وهم يحملونه فى علب مصنوعة من الخشب ،

---

(٣٩) الحربة ، قطعة حديد مربعة الشكل ، تنتهى بسن مشحوذة ، وتثبت فى عصا يبلغ طولها من أربعة الى خمسة أمتار ودرجة اختراق الحربة أقل من درجة اختراق الرمح ، الذى تكون حديدته مسطحة ، لكن الجروح التى تحدثها الحربة ، بتواليها ، تكون أقسى وأخطر من جرح الرمح ، اذ تسبب الاصابة بالتيتانوس ، ويحمل العرب الذين يقطنون حول النيل الحراب والرماح ، فى حين يحمل عربان ليبيا الأسلحة النارية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما يحملون الطلقـــات بشكل منفصـــل فى حقيبـــة من الجـــلد ، ومن النادر أن يعبئوا بنادقهم بالخراطيش .

وكان من عادة العرب المتاخمين لمصر أن يرسلوا الى بولاق جواسيس يتخفون فى هيئـــة فلاحين ، وكان هؤلاء يتعرفون على نوع وحجم الفرق التى كانت تخرج من القاهرة للزحف عليهم ، ويذهبون لتقديم تقرير عن ذلك ، وعلى الفور كانت القبيلة ترفع خيامها وترسل الى أعماق الصحراء بالنساء والأطفال وكل ثمين لديهم ، ويمشى العرب لعدة أيام حتى ينهكوا خصمهم ، وفى هذه الأثناء تتجمع القبـــائل المتحالفة ليقـــرروا ان كانوا سيهجمون ومتى ، أم أن عليهم أن يكتفوا بصد هجوم العدو .

وتقيم المخيمات نقاط استطلاع فوق المرتفعات ، ويضع أفراد هذه النقاط عماماتهم فوق رماحهم ، فان رأوا أن من الأفضل أن تقوم مخيماتهم بالهجوم يتجه هؤلاء ناحية العدو أو الضحية التى قرروا الاغارة عليها ، اما فى الحالة المضادة فيعودون الى جهة المخيم .

وعندما يخشى العرب من هجوم العدو عليهم ، يتفرقون فى مخيمات كثيرة العدد ، ويستكشفون العدو عن بعد كبير ، ويحتفظون بالجمال مقيدة بالقرب من الخيام ليكونوا مستعدين للفرار فى أقرب وقت .

وعندما يشتبك المخيم مع قبـــائل أخرى ، تظهر الفتيـــات على مرأى من المتصارعين ، ويضربن على الدفوف ، وترن فى الهواء أغانيهن لتلهب الحماسة ، ويستقبل الجرحى بعناية كبيرة من زوجاتهم وحبيبـــاتهم .. ويقدر هؤلاء النسوة الشرف حق قدره ، ويزيد تقدير القبيلة لشيخها كلما زادت الندوب فى وجهه « دليلا على ماتلقى من جروح دفاعا عن الشرف » فهذا الشرف ، الذى هو دعامة الامبراطوريات ، يقوم بالدور نفسه عند هذه العصب البائسة من اللصوص .

وينظر الى معركة يهلك فيها عشرون أو خمسة وعشرون رجلا على انها معركة دامية ، وتظل ذكراها محفوظة فى تاريخهم .

وعلى الجيش الذى يزحف فى الليل سعيا وراء العربان أن يحذر من خطأ يجعله يتوهم ان ثمة مخيمات حيث لا وجود لأثر لها ، وينتج هذا

الخطأ ـــ وهو يحدث كذلك فى حروب البحار ـــ حين تظن أشعة النجوم عن بعد على أنها نيران العربان .

ولقد أوجبت الطبيعـــة على الانسان حين وهبته غريزة التكاثر ، أن يسعى لبقاء نوعه . ويعيش فى تخوم مصر أربعون ألف عربى لا يجدون فى رمالهم القـــاحلة أى مصـــدر لحياتهم ، وهم ينظرون الى أرض مصر باعتبارها عقارا لهم . وتحت هذا الادعاء ، يأتون اليهـــا ليمارسوا آلاف الانتهابات والسرقات ، ولقد سعت كل حكومات مصر الى ردعهم ، لكنها لم تنجح فى ذلك كل النجاح .

وفى خضم هذا الصراع ، وجد الفلاح المسكين نفسه يرتعد فرقا من عمال « موظفى » الحكومة ، الذين يعتصرونه وينقـــلون كاهـــله ، ومن العربان الذين ينتهبونه ويسفحون دمه .

لقد كان هذا على الدوام قدر شعب مصر ، وكل ما نأمل فيـــه أن يتحسن مثل هذا القدر .

خط سير داورية الاستطلاع التى مرت ببحيرات النطرون والنهر الفــارغ

المسافة المقطوعة مبينة بالأمتار أو مقدرة بالساعات	عدد الأمتار	عدد الساعات	ملاحظات
من الطرانة إلى القصر	—	١٢	بالنسبة للقوافل
من القصر إلى البحيرة رقم ٣	٦٢٨	—	
من القصر إلى الطرف الجنوبى للبحيرات	—	١½	
من القصر إلى الطرف الشمالى	—	٤	
من القصر إلى دير براموس	٧٢٣١	—	
من القصر إلى دير السيريان	٧٤٣٠	—	
من دير براموس إلى دير السيريان	٩٢٥٨	—	
المسافة بين دير السيريان ودير الأنبا بيشوى	٤٤٤	—	
من دير السيريان إلى دير الأنبا مقار	—	٣	حسب الاستدلال
من دير براموس إلى النهر بلا ماء	—	١½	حسب الاستدلال
من دير السيريان إلى النهر بلا ماء	—	١½	مع الاتجاه شمالا وجنوباً
من دير الأنبا مقار إلى النهر بلا ماء	—	١	حسب الاستدلال
من دير الأنبا مقار إلى وردان عن طريق ميت سلامة	—	١١	

وصلنا فى الخامس من بليفوز (٢٥ يناير) الى الطــرف الشمالى للبحيرات ، ووصلنا فى السادس منه الى دير براموس ، وفى الســابع منه عبرنا النهر بلا ماء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزوايا التى ســـارت عليها بعض اتجاهاتنــا
بالنسبة لخط الزوال المغناطيسى

الاتجـــاه من القصر الى دير براموس	١٦٢°
الاتجاه من القصر الى دير السيريان	١٨٠
الاتجاه العــــام للبحيرات	٤٤
الجـــانب الشرقى لوادى السيريان	٧
واجهة الدخول الى دير الأنبـــا مقار شمالا وجنوبا	١٠

أما مداخل الأديرة الثلاثة فتطل جهة الشمال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراسة الثالثة

دراسة موجزة عن عيون موسى

ج . م . نجم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الشاطيء الغربى لخليج السويس ، وعلى بعد أربعة فراسخ الى الجنوب من المدينة ، ويكاد يكون فى مواجهة وادى النيه ، توجد منابع مياه رسمتها كل الخرائط ، تعرف باسم عيون موسى ، ولسوف نقع فى خطأ بين اذا ماظننا أن اسم هذه الينابيع يستمد أصوله من العصور المصرية الضاربة فى القدم ، وأنه قد ظل يستخدم بلا انقطاع حتى اليوم، ذلك أن اسم هذه الينابيع شأنها فى ذلك شأن عين العذراء فى المطرية « هليوبوليس القديمة » ، وشأن عيون غيرها كثيرات ، لا يعود الى ماقبل وقت استقرار المسيحية بمصر ، حيث تحورت أسماء قديمة ، تتصل بديانة تزعزعت مكانتها ، الى أسماء أخرى مشابهة ، فى المعتقدات الجديدة .

وعلى الرغم من أن عيون موسى أقل ملوحة من مياه آبار كثيرة حفرت فى مناطق أخرى من الصحراء ، فانها مع ذلك مائلة الى الملوحة ، ونتيجة لهذا الأمر ، فليس من خاصيتها أن تروى من الظمأ بقدر ماتروى المياه العذبة ، وان كانت تكفى للابقاء على حياة النباتات والحيوانات ، وقد روينا منها لمدة أربع وعشرين ساعة أثناء زحف شاق ، لكننا لم نسغ طعمها . ومن جهة أخرى فحيث ان هذه المياه تجرى وتتجدد بصفة مستمرة، فانها رائقة على الدوام ، وليست لها لا رائحة ولا مذاق غير مناسبين ، فى الوقت الذى تتعكر فيه مياه غالبية الابار عادة ، بفعل الاهتزاز الذى تحدثه حركة الاغتراف منها ، والتى لها على الدوام رائحة كريهة مقززة ، وعلى سبيل المثال فان بئر العجرود الواقعة على بعد أربعة فراسخ الى شمال السويس ، والمخصصة لسقاية محمل مكة — بعد مسيرة ثلاثة أيام من القاهرة ، وهى محفورة على عمق مائتى قدم — تتحلل وتتعفن فيها المواد الحيوانية والنباتية ، التى لايستطيع أحد أن يتفادى سقوطها فيها ، ولذلك فان لمياهها — بخلاف قدراتها الطبيعية — رائحة كبريتية يتحملها المرء بصعوبة .

ولابد أن عيون موسى كانت على الدوام بذات نفع كبير لعرب الطور، الذين يسكنون ضواحى جبل سيناء . فالعرب مضطرون على الدوام أن يجلبوا من مصر بعضا مما يحتاجونه من مواد تموينية ومصنوعات أجنبية،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعليهم فى مقابل ذلك ان يحملوا اليها منتجات الغابات الصغيرة التى تغطى جبالهم ، ولم يكن هذا التبادل ليتم الا عن طريق قوافل كان عليها على الدوام ان تتخذ من عيون موسى واحدة من محطاتها . وفضلا عن ذلك . فما أن كانت تتم منشآت بحرية فى أعماق الخليج ، وليكن فى السويس ذاتها ، أو فى وادى التيه ، أو على الطريق من البحر الأحمر حتى ممفيس .. حتى يكون من الضرورى أن يتردد الناس على هذه العيون ، لأنها مصدر لاغنى عنه ، بعد أن تنضب مياه الخزانات التى تكونها مياه الأمطار اذا ما مرت فترة من جفاف طويل .

لكن الوقت الذى كانت فيه عيون موسى — فيما يبدو لنا — تجذب اكبر قدر من الاهتمام ، هى تلك الفترة التى دارت فيها الحرب ، التى تحالف خلالها البنادقة والمصريون ضد البرتغاليين ، بعد اكتشاف طريق الى الهند عن طريق راس الرجاء الصالح . فمن المعروف أن هؤلاء الجمهوريين ، كى يدافعوا عن صولجان التجارة الذى احتفظوا به حتى ذلك الوقت ، والذى بدا انهم سيفقدونه ، قد أنشأوا وسلحوا أساطيل لهم فى السويس ، ولكن ليس من المحتمل على الاطلاق ان يكونوا قد أقاموا ترسانات لبناء السفن عند عيون موسى ، اذ لايقدم موقعها أية ميزة فى هذا الخصوص ، ومع ذلك فيبدو أنهم قد أنشأوا هناك موردا تتزود منه السفن بحاجتها من المياه ، لكن لم يبق شىء من آثار هذا المورد على الاطلاق ، لقد تبدد كل شىء أو قل لقد أستهلكه العربان ، ولا يجد المرء هناك أية آثار اخرى الا اساسات ، جزء كبير منها تحتى ، وهذه الآثار التى لاتزال هائلة والتى لم نكتشف الا جزءا منها فى ذلك الوقت القصير الذى امكننا ان نخصصه لها ، هى بالدرجة الأولى انقاض خزانات كبيرة شيدت بعناية . وكانت تجلب اليها مياه العيون عن طريق ترع مغطاة وكانت المياه تنتقل منها بواسطة قناة حتى شاطىء البحر . وقد اكتشف الجنرال بونابرت هذه الترعة المغطاة بكل طولها الذى يبلغ من ٧٠٠ — ٨٠٠ قامة (*) ، وقد بنيت من مواد بنائية جيدة ، وكانت مغطاة فى كل طولها ، وليس لها من انحناء الا عند البلاج الذى تسير تحته ، وبعد توقف استعمال

(*) تساوى القامة ستة اقدام (المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هــذه الترعة ، ادت الرمال التى جلبتها المياه الى طمسها فى الخمسين قامة الأولى منها . اما الجزء الباقى ففى حالة جيدة ، بحيث يمكن اعادتها الى العمل بأقل المصـاريف المكنة . وعلى الشاطىء تنتهى الترعةبأكمتين كونتهما الأنقاض ، ولعلهما من آثار المورد الذى تحدثنا عنه ، ويتضـح ذلك من الاسم الذى يطلق عليهما . ولابد ان يكون هـذا المورد قـد بنى بطريقة مناسبة ، من ناحية الشكل وطبيعة الأوانى التى كان من المعتاد استخدامها لنقل المياه اثناء الرحلات البحرية .

وعلى بعد حوالى مائتى قامة ، الى الشمال من العين الأخيرة ،يوجد جبل هائل لحد ما ، وهو يتكون شأنه شأن جبل تستاتشيو Tcstaccio فى روما، من أنقاض الجرار وآنية أخرى مصنوعة منفخار سيىء النضج.

وقد اكتشفنا هناك بقايا هى بلا جدال انقاض لأفران قديمة ، اذن فقد كان هناك فى هذه المنطقة منشأة هائلة لصناعة الفخار ، ولا يمكن أن يكون غرض هذه المنشأة الا صناعة الانية الفخارية، التىتكون السواقى، التى بواسطتها تنزح مياه الابار لرى الأراضى التى لايغرقها الفيضان فى كل أنحاء مصر ، وفى الحقيقة فعندما اصبحت عيون موسى آهلةبالسكان، كان كل البلاج الممتد من العيون حتى الشط مزروعا ، وما زلنا نرى فيها حتى اليوم عددا لا بأس به من النخيل الصغير ، الموزع بنظام لا يمكن أن يكون قـد تم صـدفة . وتلك النخلات الصغيرة ، وهى فيما يبدو ليست سوى سلالات من اشجار قديمة بليت ، انمــا هى على الأقل أدلة على وجود زراعة قـديمة فى هذه المنطقة ، ولم تكن هذه الزراعة تتطلب اى نزح للمياه من اجل الرى ، حيث كان فى مقدور مياه العيون بسهولة أن تصل ، عن طريق قنوات غير مغطاة الى كل الأجزاء المنزرعة ، لذا لمتكن السواقى ضرورية . ولذلك فاننــا لم نجد بين هذه الأكداس الهائلة من الفتات والحصى التى تكون المرتفع ، الا مايمكن أن يعود الى سواقى لم يتغير شكلها منذ ازمنة ضاربة فى القدم .

وكل هذه السواقى التى رأيناها كانت مصنوعة من فخار ذى كفاءة عالية لحد كبير ، ونحن نعتقد أن الغرض من هذه المنشأة الكبرى للفخار، هو صناعة الجرار الـكبيرة المخصصة لنقل المياه بحرا ، فى بلد أدت ندرة الخشب فيـه ، بل وربما غيبة الصناعة ، الى جعل صناعة البراميل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

امرا غير عملى . لذلك فقد كان أولئك الذين يفدون لجلب المياه من عيون موسى على ثقة بأنهم سيجدون الجرار التى سنسنوعبها ، وأنهم سيجدون بنفس الطريقة الآنية الفخاريه الأخرى اللازمة لاستعمالهم الشخصى .

وشكل عيون موسى ظاهره هامة فى الهيدروستاتيكا (*) فالينابيع المختلفة التى تكونها ، والتى يبلغ عددها ثمانية ، توجد كلها على قمم عدد مماثل من مرتفعات مخروطية صغيره ، تنتهى كل منها فى جزئها العلوى بفوهــه تستخدم كحوض للعين ، ومنــه تسيل الميــاه على السطح المخروطى بواسطة قنوات طبيعية ، وعلو هــذه المرتفعــات يختلف فيما بينها ، واكثر هذه المرتفعات علوا يبلغ ارتفاعه ٤٠ قدما من مستوى الأرض المجاورة ، وقــد نضبت عين المرتفع الأخير منذ وقت طويل ، وفوهتهــا مليئة بالرمال التى كدستها فيها الرياح ، ولا يزال يرى هناك حتى اليوم ، جذع نخلة قطعها العربان بعد أن كانت قد نمت نموا كبيرا .

ولقد كان من السهل أن نتفهم الطريقة التى تكونت بها المرتفعــات التى توجد على قممها العيون . فقد أدت الرطوبة التى نشرتها مياه احدى العيون فى أرض مجاورة ، الى نمو خضرة دائمة حول حوضها ، وأدت أعشاب هذه النباتات الى تقليل سرعة الريح التى تصــطدم بها ، ممــا جعلها تتخلص من كل حبوب الرمل الــكبيرة التى كانت تحملها ، وحيث ان سيقان هذه الأعشاب كانت تحمل تلك الرمال التى تحجزها ، والتى تترسب أسفلها ، فقد بدأت هذه الرمال تتماســك بفعل الرطوبة ، حتى تلتحم ببعضها البعض ، مما جعلها تصمد لهبات الرياح بالغة القوة . وقد اخذت كربونات او سلفات الجير التى تحتويها ميــاه النبع متحللة ، والتى كانت تتعرض للهواء بفعل البخر ، أخذت تتشكل بللورات بين حبوب الرمل وتشكل جلوتينا تكمل هذا الالتحام . ومن هنا فان حواف الحوض توجد عالية بعض الشيء . وكان على المياه أن ترفع من منسوبها مع كل ارتفاع للحوض لكى تخرج منه وتسيل الى خارجه ، وحيث أن الظروف التى تؤدى لحدوث ذلك هى من طبيعة يمكن أن تتكرر معها على الدوام ، فانه يمكن القول بأن عملية الارتفاع مستمرة برغم بطئها ، وبعــد وقت طويل يصبح النبع الذى يرتفع منسوبه على الــدوام ، فى قمــة مرتفع

(*) علم دراسة توازن المواضع وضغوطها . (المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مخروطى ، يتكون من مادة رملية وطباشيرية مالحة كمياه النبع نفسه ، تخرج منها شرارات تحت ضربات المعاول .

وحيث أن النبع الذى يعد حوضه اعلى الأحواض ارتفاعا قد نضب ، فان من الطبيعى أن نرى أن ارتفاعا يبلغ ٤٠ قدما وهو الارتفاع الذى وصل الحوض اليه — هو أقصى حد ، ويعود هذا الى درجة المقاومة التى تقدر عليها الجدران الداخلية للقنوات التحتية التى تجلب الماء الى الحوض ، أكثر مما يعود الى ضخامة قوة الضغط الذى يحدث على قاعدة المرتفع ، وبمجرد أن تتمكن المياه — وهى تحاول صعود هذا الارتفاع — أن تحطم جدران قنواتها ، وأن تتخذ لنفسها مخارج جديدة ، فان عيونا جديدة تكون قد تكونت ، وتصبح هى السبب فى نضوب الأولى ، لتكون بنفس الطريقة ، المرتفعات التى توجد على قممها اليوم هذه العيون .

ومهما يكن الأمر ، فانه من المحتمل لحد كبير ان **عيون موسى لم يكن لها** — فى هذه الفترة البالغة البعد — من نبع الا ذلك النبع الذى نضب منذ زمان طويل ، وان الينابيع الثمانية التى تعطى مياهها اليوم ، والتى لها أحواض اقل ارتفاعا من حوض ذلك النبع الذى جف ، قد تكونت فى زمن لاحق ، أو بفعل تحطم القنوات التى كانت تحمل المياه لشدة ضعف جدرانها ، أو بسبب تنقيبات تمت بقصد انشاء مبان مختلفة ، وقت أن كان الناس يترددون على النبع ، وحين كانت المناطق المحيطة بهذا النبع آهلة .

ولابد ان كان من المفيد أن نتعرف على شكل وطبيعة القنوات الطبيعية التى كانت تجلب المياه الى ينابيع عيون موسى ، خلال سهل فسيح من الرمال ، تحملت خلاله ضغطا قويا ، قادرا على دفعها كى ترتفع لأكثر من أربعين قدما فوق مستوى أرض هذا السهل ، ولابد ان كان من المفيد كذلك ، أن نحاول التأكد مما ان كانت هذه المياه تأتى من سلسلة الجبال التى تبدأ من سوريا لتنتهى بجبل سيناء ، والتى نلمحها على بعد حوالى اربعة فراسخ الى الشرق من العيون : لكنا لم يكن لدينا الوقت للانشغال بمثل هذه الأبحاث التى لم يكن يرجى منها أى نفع قريب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراسة الرابعة

ثمانية وعشرون يوماً في سيناء

ج. بكوتل

العنوان الأصلي للدراسة هو :

ملاحظات حول طبوغرافية شبه جزيرة سيناء .. التقاليد، العادات ، الصناعة، التجارة ، الشعب والسكان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينقسم الخليج العربى أو البحر الأحمر ، عند خط عرض ٢٨ شمالا، الى فرعين ، يتجه أحدهما الى شمال الشمال الغربى ، ويتجه الآخر الى الشمال الشرقى ، ويطلق على الأول اسم بحر القلزم اى بحر العرب اما الآخر فيسمى بحر العقبة أى بحر الشرق .

وتشكل مساحه الأرض الواقعة بين هـذين الفرعين ، والتى تبلغ مساحتها ١٦٠٠ **فرسخ** مربع والتى نسمى شبه جزيرة الطور ، أو سيناء ، امتدادا للجزيرة العربية الصخرية (الصحراوية) ، وتمتد من خط طول ٣٠ َ ٣٠ ° الى ٣٠ َ ٣٢ ° ومن خط عرض ٢٨ ° حتى خط عرض ٤٥ َ ٢٩ ° شمالا .

وكل أجزاء هذه المساحة الداخلية نغطيها الجبال ، وهى جبال قديمة من الجرانيت والرخام السماتى فى بعض الأحيان ، أو هى تكوينات حديثة من الجبال الرملية أو الحجر الجيرى والجص (الجبس) فى أحيان أخرى.

وتنتج الوديان التى تسكنها قبائل عربية عـديدة ، بخلاف بعض النباتات الشوكية ، عددا صغيرا من أشجار (المن) وبعض أشجار الأكاسيا (الست المستحية) التى يطلق عليها اسم الأثل ، واذا مااستثنينا بعض أشجار النخيل والنبق وبعض الحدائق التى تنمو فى سفح جبال حوريب وسيناء وفيما حول الطور ، فاننا لن نجد فى كل شبه الجزيرة أى نوع من الزراعة ولا أية أرض يمكن زراعتها .

كنت قد أبديت الرغبة فى الانضمام الى الرحلة الذاهبة الى جبل سيناء التى أخذتها لجنة الفنون على عاتقها ، فلقد كان يهم الحكومة الفرنسية أن نتعرف بشكل خاص على القبائل العربية ، التى تدفعها الحاجة وتجارة الفحم ونقل البضائع التى تصل الى السويس عن طريق البحر الأحمر ، للمجىء الى القاهرة مرات عدة كل عام. ونتيجة لذلك فقد اوقف كل شىء من أجل الرحلة ، وكانت قافلة الطور قد وصلت منذ بضعة أيام ، وكانت تتهيأ للعودة الى بلادها ، واقترح على المسيو بليار Belliard قائد القاهرة أن أسافر معها ، فتقبلت ، وشـاء المسيو روزيير ، خبير المعادن ، أن يقتسم معى مخاطر ومتاعب هذه الرحلة ، وكان القائدالعام قد سبق أن تعامل مع أهم شيوخ البلاد وخلع عليهم الجبة ، كما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعدهم بمكافآت سخية مقابل وفائهم وخدماتهم ، وطلب اليهم تقديم بعض الرهائن ففعلوا دون مشقة .

اليوم الأول

خرجنا من القاهرة ، المسيو روزيير وأنا ، فى السابع عشر من بروميير من العام الثامن (٩ أكتوبر ١٨٠٠) ، مع شيوخنا الأربعة ، ومترجمين اثنين ، أحدهما مصرى والاخر رومى ، وخادمين مصريين ، بالاضافة الى العربان الذين يقودون جمالنا ، وكنا نركب نوعا من الجمال يسمى الهجين .

وعلى الرغم من أن الأمور كانت تحتم اصطحاب حراس ، فقد كان الأمر فى الواقع مستحيلا فى بلاد لاتكاد تنتج شيئا ، فمجرد حمل المياه اللازمة لمجموعتنا والتى روعى فى كميتها أن تفى فقط بأبسط الضروريات، لم يتم بلا صعوبات من نوع ما ، كما أن اصطحاب هؤلاء الحراس كان سيؤدى من جهة أخرى الى تبديد الهدف الذى أخذت على عاتقى أن أحققه، ألا وهو دراسة شعب بالغ التوجس ، لا يولى ثقته لأحد ، ويظن أن أحدا لايمكنه زيارة الصحراء الا بقصد التمهيد لغزوهم .

لقد بدت لى الثقة التامة هى الوسيلة الوحيدة للنجاح مع العربان، لذلك لم اشترط عليهم سوى شرط واحد ، هو أن نظل نرتدى ملابسنا الفرنسية ، ذلك أن ارتداء ملابس لم نكن معتادين عليها سيكون بالنسبة لنا أمرا غير مريح ، كما أن هذا التخفى (بارتداء زى غير زينا) قد يستثير شكوك العرب دون أن يزيد من درجة أمننا نحن .

كانت القافلة المكونة من بعض أبناء شبه الجزيرة ، والتى كانت قد جلبت الى القاهرة الفحم والبضائع التى أفرغت فى السويس ، قد سبقتنا ، وكانت قد عسكرت ولابد فى الصحراء على بعد حوالى اثنى عشر ميلا ، وقد لحقنا بها عند نهاية اليوم بعد مسيرة استغرقت ست ساعات ، ولم يسمح لنا اتساع المعسكر الا بزيارة جزء منه ، وقد بدت على الجميع دهشة ممزوجة بالارتياح والسرور ، وبخاصة على الشبان منهم ، عندما رأونا . توقفنا بين جماعات منهم حيث قدموا الينا القهوة ، ويبدو أنه قد أثار اعجابهم أن يشعر اثنان من الأوربيين بالأمن بينهم .

اليوم الثـــانى

فى صبيحة اليوم التالى رحلنا ، كانت كل العيون مركزة علينا ،وبدا العرب أكثر اندهاشا عنـــدما راونا ننزل من فوق الجمـــال لنمشى بينهم بلا ســـلاح (١) .

وعندما كنا نريد أن نقدح بعض الزلطات (للحصول على النار) كانوا يجلبون الينـــا اكثرها شفافية اذ يظنونها أفضـــل ما يصـــلح ليستعمل كقداحات . واذا ماتفحصنا ملابسهم ، كان شـــكل قبعاتنـــا ، وملابسنا الضيقة القصيرة ، والجلد الذى كنا نحبس فيـــه أقـــدامنا وسيقاننا .. كان كل ذلك يبدو غير مريح ولا نفع من ورائه . وبينما كنت أتفحص بنادقهم وخناجرهم سألنى أحدهم أين توجد اسلحتى فأجبته على الفور مشيرا الى أسلحتهم : « هذه هى أسلحتى. الست مسلحا كى تدافع عنى ؟ »فأجابنى: « أنت فرنسى طيب ، أذاهب مع أصدقائك الى الطور ؟ » (٢) .

كانت لدى الرغبة فى أن أعرف عدد الرجال والجمال الذين يكونون قافلتنا ، وكان يستحيل على أن أعرف ذلك عن طريق الشيوخ (٣) ، وبعد محاولات عدة لاحصائهم قدرتهم ثمانمائة شخص ، ويضم هذا العدد أطفالا كثيرين وبعض النسـاء ، كما كان هنـــاك ٨٠٠ر١ ـــ ٠٠٠ر٢ جمل من بينها ٩٤ جملا محملا بالبضـــائع الى ســـوريا ، وتسير فى صحبة احدى قبائل الطور وهى قبيلة لم يسبق لنـــا التعامل معها . ويقود الرجل الواحـــد ثلاثة جمـــال . ولـــكى يمر خمسمائة جمل فان الأمر يحتـــاج الى خمس عشرة دقيقة ، وقد انفقت قافلتنا فى ذلك أكثر من ثلاثة أرباع الساعة .

ويحمل كل رجل خنجرا ، لكننى لم احص اكثر من بندقية واحدة لكل ثلاثة رجال .

---

(١) كنت احوز سيفا بالغ الجمال كان لأحد المماليك ، وكنت أتركه على الدوام متدليا من قربوس برذعة الجمل الذى كنت أركبـــه حينما كنت اتمشى بينهم .

(٢) طلب العرب نفس الشىء من المسيو فولنى Volney أثناء رحلته الى سوريا .

(٣) لا يعبر أهل الطور عن الكميات الا بكلمتى : قليل وكثير ، وهم لا يعدون لا أعمارهم ولا أعمار أولادهم ، وعندما تسألهم عن الأمر يجيبون بأنه شىء لايحتاجون لمعرفته .

استمر السير طيلة اليوم ، وكان راكبو الجمـــال منهم يندفعون الى الامام فى بعض الأحيان ، ثم يتوقفون لحظة لتناول القهوة ، ويستحق النظام المتبع فى اقامة المعسكر ، والدقة التى يتم ذلك بهـــا ، وقفـــة خاصـــة لتوضيح تفاصيله .

يحدد وجود الأعشاب التى تقابلها القوافل فى بعض مناطق الصحراء المنخفضة مكان اقامة المعسكر ، فهذه هى المناطق التى تبقى فيها ميـــاه الأمطار التى تسقط مرة أو مرتين فى العـــام لوقت أطول مما تبقـــاه فى مكان آخر مما يجعل البذور تنمو .

وتتوجه القوافل الى هناك لتستريح بعد مسيرة تبلغ ٨ـــ١٠ ساعات. وأول قبيلة تصل الى المكان هى التى تعسكر أولا ثم تتبعها بقية القوافل على التوالى . ويتم ذلك دون ارتبـــاك أو تخبط . وتتشكل القبائل دائرة واسعة ، وتتخذ كل قبيلة مكانها المعتـــاد فى نفس النقطة من الدائرة، ثم تنقسم هى بدورها الى زمرات وتتكون كل زمرة من عدة عائلات أو من مجموعـــات تعيش على الشـــيوع تتكون كل منهـــا من ستة الى عشرة أشخاص (٤) .

وفى لحظة خاطفة تنزل حمولة الجمال ، وتذهب هذه وحيدة ، أو يقودها طفل ، الى منطقـــة الـــكلأ والأعشاب التى تقع فى بعض الأحيان على بعد ميل من مكان المعسكر (٥) وعندئذ يجرى اثنـــان أو ثلاثة رجال من كل زمرة ليبحثوا عن بعض الأعشاب أو النباتات الجافة بينما يقـــدح واحد ممن بقوا القداحة ويشعل النـــار ثم يحرك الهواء بذيل ردائه ، وينحنى فى بعض الأحيان ليستقبل الريح بشكل منحرف ويوجه الهواء الى النـــار ، ويقوم آخر بتحميص البن (٦) ويقوم ثالث بعجن الدقيق وصب الروجا أو الفطير . وهو نوع من الأقراص ، لا خميرة فيـــه ، يبلغ سمك

---

(٤) حيث أن القوافل تتكون من نفس القبائل والعائلات فمن المرجح أن يظل نظام المعسكر هو نفسه على الدوام .

(٥) ليس ثمة ما يدل على الطريق ، فأقدام الجمال وأقدام الانسان لا تترك أى أثر فى هذا البحر من الرمال والزلط .

(٦) يحمص البن فى ملعقة حديدية ثم يصحن بعد ذلك بواسطة عصا غليظة فى اناء من الفخار .

الواحدة منها ٥ــ٧ مم ويتنـــاسب حجمها مع عـــدد أبنـــاء الزمرة الذين يشاركون فى اكلها . وبعد نحو اقل من ١/٤ الساعة يكون هــذا العجين قــد نضج بين الرمال الساخنـــة وقطع الفحم الصغيرة وبعرات الجمال المحترقة والتى تظل فى بعض الأحيان مشتعلة بعد نضوج الفطيرة (٧).

وسرعان ما تنتهى هذه الأعمال التى تستدعى الابتعاد عن المخيم ، ويجلس الناس من حول النـــار ، ويتنـــاولون القهـــوة بينما هم يأكلون الروجا ، ويزيد بعضهم على ذلك بعض الدقيق والأرز المطبوخ مع قليل من الزيت وبعض البصل ، ويضيف آخرون الفول والعـــدس ، وتنتهى الوجبة على الدوام بتنـــاول القهوة . وتمتد المناقشات فى كثير من الأحيان لساعات طويلة ، فيتحدث النـــاس عن السفن التى ينتظر قدومها من جدة وينبع ، وعن حمولة الجمال ، وعن المطر الذى طال انتظاره ، واذا كان ثمة راو للحكايات فانهم يصغون اليه بانتباه ويضيفون المـــاء الى ثفل البن. ولقد كنت اجلس على مسافة قصيرة من هذه الجماعات متخيلا اننى انصت الى تجمع من أبنـــاء ريفنا .

وعند نهاية النهار تعود الجمال من تلقاء نفسها ، وتسعى نحو المكان الذى انزلت فيـــه حمولتها ، فاذا اخطأت الطريق اليه ، فانها تسرع نحو صوت سيدها يناديها .

كنت كل ليلة اقوم بجولة فى جزء من المعسكر ، وكانت كل جماعة تدعونى لتناول القهوة وأن استريح على جلد المـــاعز ، فاذا ماقبلت كانوا يرددون : « طيب فرانسيس ، انت فى الطور ، سوا سوا » اى : « انت فرنسى طيب ،قادم الى الطور ، مع اصدقاء لك » .

وفى الغد ، قبل انبـــلاج النهار ، كان الناس يعملون فى تحميل الجمال ، بينما يضع الآخرون القهوة والروجـــة ، وبعـــد ذلك نرحل ؛ ويستتب النظام ، بشكل تلقائى ، وطبيعى .

---

(٧) اذا كان العدد اكبر مما ينبغى فانهم يصنعون اكثر من فطيرة .

اليوم الثالث

في هذا اليوم ، عسكرنا في المجرود ، على بعد حوالى ثمانية اميال من السويس حيث واتتنى الفرصة كى اتبين كم سيكون من الطبيعى ، لو اننا اصطحبنا معنا حراسا ، أن تقل الثقة فينا ، والتى كان من مصلحتنا ان نبثها فى نفوس العرب ، فلقد لحق بنا هناك ضابط مهندس ، لم يستطع الافادة من سفر قافلتنا ليصحبنا الى السويس .وقد أدركنا هناك ، بعد مسيرة يومين ، ومعه حرسه . لمحه العربان عن بعد فلاحظت على الفور تغيرا فى سحنتهم وسرعان ماحدست السبب . لقد اعتقدوا اننى خدعتهم ، وأن حرسا قد جاء يصحبنا فى جبالهم . وعلى الفور مررت بعدد كبير من خيامهم وانا اكرر : اننى اثق فى شرف العرب، ويمكنكم أن تثقوا فى شرف الفرنسيين ، سنذهب وحدنا ، رفيقى وأنا الى جبالكم ، وستصحبونا انتم الى القاهرة ، فهذا الضابط الفرنسى (الذى ترونه) ذاهب الى السويس . وكرروا بأننا ذاهبون مع أصدقاء. وعسكر الجنود (الضابط وحرسه) بينهم ، وفى اليوم التالى عاودنا السير معا دون قلق أو شكوك .

اليوم الرابع

سرعان ماتركتنا القافلة تذهب كى تضرب خيامها فى عيون موسى بعد ان استدارت حول قمة قلزم السويس . كانت الجمال لم تشرب منذ غادرنا القاهرة اى منذ ٧٢ ساعة ، عندما وصلت الى العيون ، وذهبنا مع شيوخنا كى ننام فى السويس .

اليوم الخامس

فى اليوم التالى توجهنا بطريق البحر الى العيون حيث لحقت بنا جمالنا بعد ان دارت حول قمة الخليج ذى المد المنخفض ، كانت قافلتنا قد غادرت العيون فى الصباح ، وتهيأ كل امرىء للعودة الى قبيلته عبر الجبال ، وانزلت حمولة ٩٤ جملا من قافلتنا وهى البضائع الذاهبة الى سوريا ، وظلت البضائع فى حراسة بعض ابناء الطور الذين يتعامل معهم التجار لنقل البضائع الى هذه البلاد .

بقينا مع شيوخنا الأربعة ومع العربان الذين يقودون جمالنا ، كنا قـــد أصبحنا فى شبه جزيرة سيناء ، ولم يعد لدينا مانخشاه من العرب الغرباء الذين قد يكون عليهم دم ينبغى الانتقام له : لكن ماحدث للتجار الذين صحبونا حتى السويس وذلك المصير المحزن الذى كان من نصيب القـــائد المساعد « ديلانو » (٨) قـــد برهن لنـــا اننـــا لا ينبغى أن ننسى مخاوفنا فى رحلة لم نكن نستطيع ان نعرف موعد نهايتها ، اذ يعتمد ذلك على رجوع القافلة إلى القاهرة وهو الأمر الذى يتبع بدوره الحاجة التى يمكن أن يشعر بها العرب فى نقل بضائعهم الى هنـــاك ، والذى يعود كذلك الى استتباب الأمن فى الداخل ، ومع ذلك فقد اتبعنا نفس طريقتنا فى الرحابة والثقة اللتين أظهرناها عند بداية الرحلة .

وبعد زيارتنا العيون (٩) واصلنا طريقنا ، تاركين البحر الأحمر الى الغرب وكانت تقع الى يميننا الجبـــال المسماة تيت (أو طيط) التىيسكن فى سفحها عربان الطور ، عسكرنا على بعد خمسة أميال من العيون عند خور ضيقيسمى عين، وهو قفر ليست به مياه ، ولا تنبت فيهاعشاب ولا أى نوع من الخضرة ، ولم نكن لنستطيع أن نوقد نارا لو أن العربان الذين يعرفون جيدا أحوال المناطق التى سنعسكر فيهـــا لم يعوا اثنـــاء الرحلة أو اثناء الطريق بالحصول على القش اللازم للوقود (١٠) .

اليوم السادس

فى اليوم السادس ، وبعد مسيرة ثمانى ساعات رصف ، احيـــانا خلال سهل قاحل ، وأحيانا اخرى من خلال كثبان من الرمال والأعشاب الشوكية ،وصلنا الى أبى صويره ، فى مكانتغطيه اشجار الأثل والنباتات، مما ينبىء عن ارض اكثر رطوبة . وفى الواقع فان المرء يجد هناك عددا

---

(٨) اختطف العربان القائد المساعد ديلانو ، أثناء ذهابه من الاسكندرية الى القاهرة وقد افتدى الرجل بكيس ملىء بالنقود الفضية ، وعندما اختلف العربان على كيفية أقتسام النقود ، وتشاجروا فيما بينهم ، أطلق عليه احد العربان رصاصة فقتله .

(٩) أنظر وصف هذه العيون بقلم المسيو مونج Monge ، الدولة الحديثة ، المجلد ١ ص ٥٥٥ (الدراسة السابقة فى هذا الكتاب) .

(١٠) كثيرا ما يبتعد العربان اثناء السير ويجرون لمسافة تزيد على الميل كى يلتقطوا بعض الأعشاب اللازمة لسهرة المساء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كبيرا من الآبار . يبلغ عمق الواحدة منها مترين ونصف المتر تحت سطح الرمال ، وقد تقوض جزء من هذه الآبار ، وعلى الرغم من أن مياه هذه الآبار حبيسة — فيما عدا واحدة منها على الأقل — فانها أفضل من مياه عيون موسى . ويتردد عرب تراابين على هـذا المـكان ، وهم يمتلـكون المنطقة ابتداء من القاهرة حتى وادى الغرندل على شواطىء البحر الأحمر ،وقد وجدنا كثيرين منهم يرعون هنـاك ماشيتهم .

اليوم السابع

عند الرحيل من أبى صويرة يقضى المرء عشر ساعات فى سهل قاحل على شاطىء البحر، وبعد ذلك ، وبعد أن يجتاز كثيرا من الشعاب الضيقة، يصل الى وادى الغرندل . ويمتاز هذا المـكان بمياهه المعدنية الحارة التى تسمى حمامات فرعون وتجرى هذه المياه فى سفح جبل يبلغ ارتفاعه مابين ٢٩٠ — ٣٩٠ مترا (١٥٠ — ٢٠٠ قامة) . وتسيل ميـاه العين الأولى بعمق يبلغ بوصتين ، وفى هذه المياه يرتفع ترمومتر ريومور الى درجة ٥٦ ، وتغطى الأحجار التى تسيل فوقها هذه المياه وكذلك تلك التى تحيط بالترعة بالـكبريت المؤكسد . وتجرى مياه عيون كثيرة اخرى خلال الرمال بطول يصل الى خمسين خطوة .

وعلى ارتفاع اربعة امتار (حوالى قامتين) فوق مستوى هذه العيون نجد فتحتين : تلك التى تقع الى اليمين وتؤدى الى مايشبه مغارة يرتفع فيها الترمومتر الى درجة ٣٤ وسط جو رطب تصـحبه رائحة الـكبريت القوية : أما الأخرى فتشكل مدخل كهف لا يزيد علوه على نصـف المتر (حوالى ١٥ — ١٨ بوصة) ، فوق عرض أكبر من ذلك بقـدر طفيف ، ولذلك يضطر المرء كى يبلغ النبع أن يزحف عاريا لمسافة يبلغ طولها ٢٣— ٢٥ مترا (١٢ — ١٥ قامة) فوق رمل حار ورطب ، وهناك يرتفع الترمومتر الى درجة ٣٦ . وهذه الحرارة المتزايدة ، بالاضافة الى هذا الوضع المتعب للجسم والذى يضطر المرء لاتخاذه ، هى السبب فى النصيحة التى تقال للمسافرين هناك والتى مؤداها أن النور ينطفىء داخل هذه المغارات وان هناك خشية من أن يختنق المرء هناك فى وقت قصير . لم نبق هناك لوقت طويل يكفى للتأكد من صحة هذا الزعم ، لكننى لم أشعر بأن انفاسى قد ضاقت كما أن رائحة الكبريت فى هذا الجو المشبع بالرطوبة قد بدت لى محتملة .

ويبدو لى أن وادي الغرندل كان فيما مضى مرفأ بالغ الجودة ، اذ هو فى حمى من رياح الشمال والجنوب لأنه مفتوح الى الغرب ، كما يساعد على الخروج منه رياح الشرق ، وهي التي تسود البحر الأحمر فى معظم الأحيان . وهناك تشكل المياه التى تسقط فوق الجبال مرة أو مرتين فى العام ، أضرارا كبيرة ، اذ تحمل الى الوادى كمية هائلة من الزلط ومن قطع الحجارة . وهذه هى المنطقة التى يزعم كثير من المؤلفين أن موسى قد أتى اليها بعد عبوره البحر الأحمر . وهذا الوادي (الخليج) جاف خال من الماء في هذه الأيام .

اليوم الثامن

عند الخروج من وادى الغرندل يدخل المرء الى واد ضيق ، أو بالأحري في شعب تحيط به جبال عالية شديدة الانحدار ، ويبلغ طوله حوالى أربعة أميال ، وعند طرفه يصل المرء الى ربوة توجد بها بعض اشجار النخيل . وثمة بئر يبلغ عمقها المتر (حوالى ٣ أقدام) توفر كمية ضئيلة من المياه الرديئة وصفها بوكوك Pococke بأن لها مذاق الصلب ، وسرعان ماتنضب مياه هذه البئر ، لكنها تتجدد من جديد فجأة ، ومن هذه المياه يسقى العربان جمالهم . ويطلق على هذا المكان اسم الحوزية وهو يقع على بعد ٢٤ ميلا من أبى صويرة . وعلى الرغم من شدة ارتفاعه فوق سطح البحر ، فهناك سلسلة من الجبال العالية تتحكم فيه وتمتد هذه الجبال باتجاه سوريا . ويمتلك عربان الطور هذه الأراضى .

كان ما يزال علينا أن نمضى أثنتى عشرة ساعة فى الطريق حتى نصل الى مكان المخيم وعلى الرغم من أن هذه المنطقة كانت أفضل مكان قابلناه ، منذ غادرنا القاهرة فاننا لم نبق بها الا لوقت يكفى بالكاد لسقاية جمالنا .

قادنا واد طويل الى الجنوب ، الى هضبة واسعة تحيط بها جبال تجعلها فى حماية من رياح الشمال . كانت الحرارة هناك ، فى الساعة العاشرة من الصباح ، شديدة الارتفاع ومع ذلك فقد كان الترمومتر لا يتجاوز درجة ٢٥ . وبعد أن عبرنا سلسلة الجبال الى الجنوب الشرقى دخلنا الي وادي اتل ثم فى شعب ضيق دفن به شيخ يسمى ريس الشمالة

ويحمل اسمه احد جانبى الوادى ، وهو المكان الذى نوجد به مقبرته . ويودع العربان هناك عند مرورهم من هذا المكان بعض الأغصان أو بعض قطع من القماش ، أما الجانب الآخر للوادى فيحمل اسم شبقية . وبعد ذلك ، وبعد أن نجاوز واديا مزروعا بأشجار الأثل (المن) نلاقى البحر من جديد الى الجنوب الغربى ، وقد توقفنا هناك كى نذهب ، على بعد خمسمائة قامة الى الشمال ، لزيارة جزء من الجبل الذى يستخرج العربان منه السكبريت . وفى واقع الأمر ، فقد وجدنا هناك بعض عينات من الكبريت شديدة التكلس .

وبمغادرة طريقنا نحو الجنوب دخلنا فى واد بالغ الاتساع، تحيط به جبال عالية مما يجعله فى حمى من رياح الشمال ، والشمال الشرقى ، والجنوب ، لكنه ، كما هو الحال فى وادى الغرندل ، يكاد يكون مردوما عن آخره . وبعد الالتفاف من حوله خوضا فى المياه لمسافة تبلغ حوالى الميل ، عسكرنا فى سهل المجرى (أو المجره) وسط الكثبان التى كونتها غابات الاثل أو الطرفاء التى تصد الرمال التى تحملها رياح الشمال . وهناك توجد مياه غير طيبة . كانت مؤنتنا من مياه النيل قد نفدت عند السويس وجعلنا تلبك معدتنا نشعر بالفرق بين هذه المياه وبين تلك .

اليوم التاسع

بعد مسيرة ساعة فى هذا الوادى الملىء بالشجيرات ، دخلنا فى واد تغطيه كتل من الجرانيت والسماق (الرخام) والزلطات المستديرةالتى انفصلت عن السلسلة التى تطل على الجبال الجيرية التى اتبعنا اتجاهها، والتى اجتزناها بعد ذلك لكى نصل الى واد يسمى فيران ، حيث تمنا دون أن نعثر على ماء .

اليوم العاشر

فى اليوم العاشر ، تضينا ثلاث عشرة ساعة فى صحراء جرداء، وفى وديان نلقى فيها بالكاد بعض الأعشاب الشوكية : هناك ترى الى الغرب سلسلة جبال سيناء . وتوجد الى الشرق جبال من الحجر الجيرى . دخلنا وادى المغارة حيث اكتشفنا وسط أشجار النخيل شجرة دوم ، وهناك حوض مبنى يبلغ عمقه ستة اقدام يوفر كمية من المياه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجيدة ، وبعد أن عبرنا سهلا قاحلا ، رطبـــا مليئـــا بالملح ، وصلنا بعد مسيرة ساعة الى الطور .

بندر طور أو ميناء الطور

يشكل ميناء الطور خليجا يبلغ اتساعه حوالى الميل ، ويكاد يكون ذا عمق متساوى السطح ، ويقع الخليج تحت خط عرض ١٢′ ٢٨° وعند خط طول ٢٠′ ٣١° الشمالى من خط زوال باريس . وقاع هذا الميناء ليس طيبا على الدوام ، فهو يتكون من كتـــل من المرجان وكتل من الأحجـــار يغطيها المرجان والقواقع على عمق متر أو مترين (٣ــ٦ اقدام) بل ان بعض شعاب المرجان هذه تصل لمستوى سطح المـــاء لتجعل من الجزء الشمالى الغربى نوعا من روضة تنتثر فوق سطحها المغطى الورود .وفى حين يرتفع مد البحر فى السويس من ١ ½ الى مترين (٤ ـــ ٦ اقدام) فانه لا يبلغ هنا اكثر من ثلاثة أرباع المتر فى أكثر حركاته قوة . اما فى النوبات العادية ، فانه لا يتجاوز ثلث المتر (١٠ــ١٢ بوصة) .

وتقوم سلسلة جبال سانت كاترين وسيناء بحماية هذا الميـــاء من رياح الشمال والشمال الشرقى ، كما تحميه من رياح الشرق غابات قديمة من اشجار النخيل وبقية قلعة الطور التى اصبحت شبه مهدمة تماما على وجه التقريب وان كان المرء لايزال يرى بها كوات فى مستوى سطح الماء تغطيها قباب على شكل مشكاة . كانت هذه المبـــانى المحطمة ، ومظهر الأرض ، وتلك الحدائق بالغة السوء ، وهذه الأسوار التى تكاد تكون كلها حطاما ، بالاضافة الى مظهر السكان البائس ، كان كل هذا يعطى صورة للخراب والموت . اما الميناء المفتوح الى الجنوب الغربى ، فتسده فى أكبر اتساع له كتلة صخرية ضخمة ، يبلغ ارتفاعها مستوى سطح الماء .

اما قريتا الشاذلية ، وبلد النصارى ، اللتان تكونان مدينـــة الطور القديمة فتضم من ٢٥ ـــ ٣٠ مسيحيا ، ومن ١٠ ـــ ١٢ عربيا مسلما وان كان هذا العدد لا يشتمل النساء والأطفال .

أما قرية الجبل الصغيرة ، الى جنوب قلعة الطور ، فـــلا تضم الا خمسة او ستة صيادين يعملون مرشدين للسفن التى تعـــبر الطور الى

السويس او الى جدة ولا يتجاوز سكان كل هـذه القرى والنجوع مائة وثلاثين فردا .

ويدير شئون المسيحيين واحد من رجال الدين من دير سانت كاترين فى جبل سيناء ، وهو الذى يتسلم المؤن القادمة من القاهرة عن طريق القوافل والتى يبعث بها الى الدير ، وكذلك السمك الـذى يشرف على صيده . ولا يفوق بساطة مسكنه الا بساطة تلك الكنيسة الصغيرة الموجودة فى فنائه .

وعلى بعد ميلين من الطور ، الى الشمال الشرقى ، بالقرب من الجبال الجيرية ، يمتلك رجل الدين هذا حديقة واسعة بعض الشىء ، تحيط بها الجدران ، وتزرع بها اشجار النخيل ، وتتفجر فيها عيون مياه معدنية حارة ، تسمى واحدة منها الحمامات . وهناك حوض واسع مسور تظل المياه فيه على ارتفاع ثمانية دسيمترات وفى درجة حرارة ٢٧ ويبدو الحوض وكانه قد بنى خصيصا لهذا الغرض . وهنـاك كمية هائلة من سعف النخيل تغطى سطح هذه الأرض غير المزروعة .

وحيث ان اهالى الطور البؤساء لا يمتلكون على الاطلاق اية جمال ، اذ ليس لديهم ما يحملونه الى القاهرة للمقايضة عليه ، فانهم مضطرون للعمل على جلب القمح عن طريق القوافل ، مما يضاعف فى سعره ، ولهذا السبب فهم يستهلكون منه القليل ، ويعيشون على السمك .

وفى الطور ، تهب رياح الشمال لجزء طويل من العام فيما عدا فصل الشتاء ، اذ تهب الريح فى هذا الفصل من جهة الجنوب وذلك حتى منتصف النهار فقط ، ثم تستعيد اتجاهها فى بقية النهار .

وتدخل السفن الصغيرة فى الميناء التى يبلغ عمقها ، وكذلك عمق المضيق البحرى من ٦ الى ٨ اذرع ، لكن السفن التى تخشى عادة أن يلقى بها على الساحل المنحدر الأجرد فلا تتوقف هناك الا للتزود بالمياه ، أما السفن الضخمة فتبقى فى الخليج . ويجد الناس فى الميناء ، على بعد مسافة صغيرة من البحر آبارا مبنية بالحجارة بقدر كبير من العنـاية ، توفر مياها بالغة الجودة . وتعلن هذه الآبار ، بالاضافة الى الحصن وبعض بقايا المنشآت القديمة ، أن هذا الميناء كان فيما مضى مطروقا لجد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كبير . لكن فقر السكان الذين لايستطيعون انتاج اى شىء أو شراء أى شىء ، بالاضافة الى أحداث السلب التى مارسوها مرات كثيرة مع بعض السفن ، قد أبعد التجار عن هذا الميناء (١١) .

ولو أننا اتبعنا الطريق الذى اعتاد المسافرون ، وكذلك العربان المرافقون لنا اتباعه لكنا قد دخلنا الجبل فى الشمال كى نذهب الى جبل سيناء على بعد أربعة وعشرين ميلا من الطور ، لكننا كنا نرغب فى القيام بالدوران حول شبه الجزيرة للتعرف على الموانى الواقعة على طرفها وللتعرف على بحر الشرق (خليج العقبة) . ولكى نحقق هذه الغاية كان علينا أن نسير لمدة ثلاثة أيام بلا مياه ثم خمسة أو ستة أيام نقضيها وسط الجبال ، وهكذا كان يتعين علينا أن نمر وسط خيام قبيلة مزينة التى لا تشكل جزءا من تحالف قبائل الطور ، والتى لم تكن تربطنا بها أية معاهدة (١٢) ومع ذلك فلم يكن لمثل هذه الصعوبات أن تعرقل مشروعنا .

وقد لقينا أكبر مقاومة من جانب العرب الذين كانوا معنا ، فقد احتجوا بصعوبة نقل المؤن اليهم ونقل المياه الى جمالهم ، وقالوا لنا اننا لم نتفق معهم الا على الذهاب الى الطور ومن هناك الى جبل سيناء، كما حذروا بأننا قد نهاجم من قبل عربان قبيلة مزينة الذين قد يطمعون فى اقتسام ما معنا من خيرات . ذللنا كل العقبات باسترضاء جزء من رفقائنا ومرشدينا وذلك بتقديم المؤن اليهم والى جمالهم ، وبتوضيح عزمنا الذى لا يلين على القيام بهذه الرحلة حتى وأن لم يبق معنا سوى مرشد

---

(١١) لم يعد لدى أهالى الطور سوى تسع سفن صيد ، يمتلك الأروام ثمانى منها ويرى المرء هناك بقايا سفينة جانحة ، وكانت هذه السفينة قادمة من ينبع ، ودخلت الميناء للتزود بالمياه . ويؤكدون أن مرشد الطور هو الذى جعلها تصطدم بالصخور عن عمد وانها نهبت بعد ذلك ، وكانت تحتوى على ١٣٠ بالة صغيرة من القماش ، تضم البالة الواحدة ثمانين قطعة ، وثمانين طردا من العدس ، سعة الواحدة نصف أردب ، ومائة وعشرة من الأرز (شرحه) وبالتين صغيرتين من النحاس زنة الواحدة ستمائة رطل . ويلقى العرب بمسئولية السلب على الأروام ، وهؤلاء يلقون بها على العرب ، وقبل مجيئنا الى الطور بخمسة عشر عاما نهبت قبيلة القرارشة احدى السفن ، فحرم عليهم المماليك المجىء الى القاهرة، وهكذا لم تعد الطور تدخل ضمن نطاق الموانىء التى يتوقف فيها التجار .

(١٢) لعل عربان هذه القبيلة هم الذين نهبوا البضائع التى كانت قافلتنا قد نقلتها معنا من القاهرة حتى مدخل الجبال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واحد ، وقلنا لهم فى النهاية : من حق العربان أن يخشوا قبيلة معادية . أما الفرنسيون فهم أصدقاء لكل القبائل . وعندئذ قال أحد الشيوخ المسنين : لا يقول الفرنسيون سوى كلمة واحدة . سنذهب معك حتى لا يصيبك سوء .

اليومان الحادى عشر والثانى عشر

لم يخدعنا رجالنا العربان ، مشينا لمده يومين ، على مسافه قصيرة من البحر ، أحيانا فى سهل رملى قاحل نادرا ما تلقى فيه بعض الشجيرات، وأحيانا أخرى وسط جبال من الرخام السماقى والجرانيت المرقق (أى تتكون صخوره من طبقة فوق طبقة وهكذا) .

وكنا فى فصل تتقلب رياحه الجنوبيه والغربيــة ، أى فى فصل العواصف ، وهو الفصل الذى يرغبه العربان أكثر من غيره لأنه يهيىء بعض المياه ، لكن الحرارة فى بعض الأحيان كانت أكثر ارهاقا لنا من أعلى حرارة عانينا منها فى صعيد مصر كما كانت درجة الحرارة أكثر ارتفاعا(١٣) وبعد أن سرنا طويلا الى الجنوب الشرقى دخلنا الى الجنوب فى واد طويل أو بالأحرى فى شعب عميق تحف به من الجانبين جبال تتكون حتى قمتها من أحجار مستديرة ، وكان الطين الذى يثبتها قد اكتسب قدرا من الصلابة حتى أن قطعا ضخمة منه كانت تسقط مندفعة نحو الوادى دون أن تتفتت . ويقع ميناء رأس محمد عند قمة الساحل ، وهو يشكل فيما يبدو نقطة انتصاف فى شبه الجزيرة .

ويقفل هذا الميناء المفتوح عند شرق الشمال الشرقى ، لسان من الأرض فهو شبه جزيرة ، قمتها رأس جبل مرتفع بعض الشىء وهذا هو ما جعلهم يطلقون على هذا المكان اسم رأس محمد . وحيث يقترب الميناء بشدة من الجبل فانه يكاد يكون مطموسا فى جزء منه بالرمال والأحجار التى جرفتها السيول .

ولم نجد هناك اى نوع من المساكن .

---

(١٣) سجل ترمومتر ريومور درجة الحرارة فى الظل بـ ٣٢درجة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليوم الثالث عشر

فى اليوم الثالث منذ رحيلنا من الطور ، أو اليوم الثالث عشر من بدء رحلتنا ، سافرنا من رأس محمد للذهاب شرقا من خلال الجبال الى ميناء شرم (الشيخ) التى تقع تحت خط طول ١٠ً ٥٨َ ٢١° من خط زوال باريس وخط عرض ١٠ً ٥٦َ ٢٧° حيث وصلنا بعد مسيرة ثلاث ساعات. وتقسم هذا الميناء ، الذى يقع مدخله الى الجنوب ، قمة جبل يبلغ عرضه حوالى مائة قامة وبانحدار مماثل . ويجد المرء على مسافة قصيرة من الشاطىء آبارا مبنية بكتل ضخمة من الجرانيت . كانت السفن تأتى الى هناك فيما مضى للتزود بالمياه ، وعندما كانت تفاجئها رياح معاكسة ،يلوح لها أن مدنها سوف تطول . فانها كانت تفرغ هناك بضائعها التى كانت تنقل برا الى القاهره ، وهناك ضريح وكثير من أحجار أضرحة كثيرة ، لعلها تنبئنا أن هذا الميناء كان فيما مضى آهلا بالسكان ، وقد شاهدنا هناك بعض الصيادين الذين لا يعيشون الا على السمك ، ابتعنا سمكا منهم ، واكلوا هم غداءهم بالقرب منا ، وكانت الدهشة تبدو على أطفالهم ، الذين استملناهم الينا ببعض البارات ، من شكل قبعاتنا بشكل خاص .

وتقع شرم (الشيخ) فيما يبدو على بعد ستة الى ثمانية أميال من بحر الشرق (خليج العقبة) الذى ميزناه بدقة بواسطة جباله الواطئة للغاية ، وبدا لنا فى اتساعه يختلف قليلا عن اتساع بحر العرب، ولمحنا جبال الشاطىء الآخر تنخفض وتمتد لتتوغل فى الصحراء الغربية . قطعنا مسافة كبيرة بطول الساحل وكنا نود الذهاب الى العقبة ، قمة نهاية الخليج ، لكن ذلك كان يستوجب منا أن نعبر صحراء خالية لم يكن عرباننا يعرفونها ، فضلا عن أننا كنا سنبتعد عن جبل سيناء الذى كان هو الهدف من رحلتنا . ودخلنا الجبل عن طريق الطرف الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة .

وبعد ذلك بوقت قصير قابلنا فوق أحد التلال بعض الخيام فاقتربنا منها ، ولم يبد على النسوة الفزع لرؤيتهن لنا بل طلبن الينا اعطاءهن بعض الابر والبارات .

اتبعنا نفس الوادى باتجاه الشمال الغربى فوجدنا مرة أخرى بعض الأشجار ومخيما اكبر اتساعا ، كان هذا هو مخيم قبيلة مزينة ، لم يخدعنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اذن شيوخنا ، حيث لم يبد أولئك مسرورين لرؤيتنا فلم يقدموا لنا أى شىء عند مرورنا من امام خيامهم ، وسأل أحد العربان وهو يصحن بعصاه فى هاون من الخشب خليطا ويصنع منه البارود ، سأل بحدة مترجما « لماذا جئت بهؤلاء الكلاب » ولم يقم شيخ هذه القبيلة بدعوتنا الى داخل خيمته حسب عادة العرب كى لا يجعلنا نقترب من مخيمهم الذى كنا برغم ذلك قد اجتزناه . وعندما مدت مائدة الطعام وسط الوادى لم نبد أى ضيق أو قلق، واتخذنا مكاننا بينهم لنأكل العنزة دون أن نوجه الينا دعوة . وقدمنا اليهم البن ، ونمنا بينهم فى هدوء .

اليوم الرابع عشر

قدم الينا عرب المهاتنة ، وهى قبيلة صغيرة تنتمى الى عرب العواتمة الذين التقينا بهم فى اليوم التالى فى وادى النصب ، قدموا الينا فكرة أكثر دقة عن الطريقة الأبوية التى يتعامل بها العرب مع الأغراب ، وقدم الينا الشيخ الحاج حسن وأجلسنا الى جواره فى مدخل خيمته وأمر بذبح عنزة وأعطانا مانغتسل به ، وبينما كانت النسوة يعددن الطعام ، وبينما نحن نتناول القهوة قام أحد المغنين ، وبعد أن ابتهل الى الله ، غنى المقاطع التالية مصطحبا آلة ذات أوتار ثلاثة (١٤) ، كان يعزف عليها أنغامه بقوس فى يده .

ينفق الناس كثيرا من مالهم كى يذهبوا الى مكة
ويتركون أبناءهم عاما كاملا كى يذهبوا الى مكة

---

(١٤) تتكون هذه الآلة من جفنة صغيرة من الخشب مغطاة بجلد جمل ، عليها من أحد طرفيها بمسافة ٢ ديسيمتر (حوالى ٧ بوصات) حديدة مسطحة عرضها من ١٢ ــ ١٥ مم وطولها ٣ ديسيمتر (١١ ــ ١٢ بوصة) . ويرفع طرف الجفنة السميك الذى يبلغ طوله ٢ ديسيمتر (٧ بوصات) على الأرض .

وهناك فى الطرف الآخر عصا ذات ذراع يبلغ طولها ٤ الى ٥ ديسيمتر (١٨ بوصة) ويوجد فى أحد طرفيها ثلاثة ملاوى أو أوتاد تستخدم فى شد ثلاثة أحبال مكونة من اتحاد شعيرات عديدة مثبتة فى الطرف الآخر بعد أن تمر على مشط .

أما القوس المصنوع من قطعة من الخشب الخام يبلغ طولها ٤ــ٥ ديسيمتر (١٨ بوصة) فيحمل حزمة من الشعيرات مثبتة من أحد طرفيه ومشدودة الى الطرف الآخر بواسطة أصبع .

وعندما يزوج شيخ ما ولده يحضر له كل شيخ من شيوخ القبائل الاخرى عنزة ثم ينتهى بما يلى :

أولادى كثيرون ، ويأكلون كثيرا ، وذراعاى قصيرتان

(أى أنه قليل الحيلة) فلا أستطيع أن أحصل لهم على الخبز .

وبعد أن انتهى الطعام (١٥) ، استرحنا تحت سقف خيمتنا التى اقمناها فى مواجهة خيمة الشيخ .

ولقد وجدنا نفس كرم الضيافة عند القبائل الأخرى ، ومع ذلك فلا يمكن لأى من شيوخ هذه القبائل أن يكون ندا لهذا الشيخ فى صفاته الكريمة ، فتقاطيعه بالغة التمايز وروحه بالغة التوقد على الرغم مما يبدو عليه من شرود . ولقد كانت له علاقات مع التجار والأغراب كما سبق أن قام برحلة مكة (الحج) مرتين ، ويؤدى فريضة الصلاة بشكل بالغ الانتظام (١٦) .

اليوم الخامس عشر

لم نكن قد قابلنا حتى اليوم سوى أشجار السنط وبعض الأثل (الطرفاء أو المن) وبعض غابات من الأعشاب الجافة ، بالاضافة الى جبال الجرانيت والسماق المورقة (أى التى تتشكل من طبقة فوق طبقة) ولم نكن نلقى المياه الا فيما ندر وبكميات بالغة الصفاء تجرى فى واد الكيد بين كتل ضخمة من الحجارة الجرانيتية ، وها نحن نرى كذلك أجزاء من الأرض تكسوها الخضرة ويغطيها النعناع لمسافة يبلغ طولها حوالى الميل ويبلغ عرضها من ست قامات الى خمسين قامة . وتنمو فى هذا الوادى أشجار النخيل والنبق ، وهناك بعض الأسوار من الحجارة الصلبة تستخدم كمأوى وأماكن اقامة ومستودعات للعرب الملاك الذين

---

(١٥) وصفت مائدة الطعام فى مقال عن عادات وتقاليد العربان (فى آخر الدراسة) .

(١٦) بعد أن عدنا الى القاهرة ، ظهرت على هذا الشيخ كثير من علامات الجنون . ومن المؤكد أن مقبرته (بعد موته) ستكون موضع التقديس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يأتون ليحصدوا ثمارها ، ومع ذلك فان أحدا لا يقيم فى هذا الوادى الا فى فترة الحصاد ، وفضلا عن ذلك فاننا لم نجد به على الاطلاق استراحات مناسبة .

اليوم السادس عشر

لم نكن فى هذا اليوم محظوظين كما كنا فى اليوم السابق ، فقد قضينا النهار والليل فى وديان قاحلة جرداء دون أن نقابل ظلا لنبات أخضر .

اليوم السابع عشر

وأخيرا ، فى هذا اليوم ، وبعد أن عبرنا مع جمالنا جبالا كنا نجد فى معظم الأحيان مشقة بالغة فى تسلقها بأقدامنا ، وصلنا الى دير سانت كاترين .

كان أحد الأخوين اللذين اصطحبانا حتى الطور قد سلك الطريق الأقصر حتى يلتقى بنا ، وكان ينتظرنا بقدر كبير من اللهفة والقلق .

يؤدى الى هذا المكان المنعزل منفذ صغير يعلو الجدران التى يبلغ ارتفاعها من عشرة إلى اثني عشر مترا . وهذا المنفذ هو المدخل الوحيد الى هذا المكان المنعزل (١٧) ، وتغطى هذا المنفذ بكره يمر فوقها حبل ضخم يلتف حول اسطوانة مثبتة فى شبه ردهة وينزل الحبل الذى ينتهى بحلقة من الحبال يدخل فيها الشخص الذى يراد رفعه وندار الاسطوانة بواسطة روافع متشابكة ، تشبه تلك التى تستخدم فى الموانى لانزال الأحجار من فوق السفن .

وعندما جاء الآباء لاستقبالنا ، رأينا ترحيبا حارا يكاد يبلغ مرتبة الملق واقتادونا الى رواق الأغراب ، ومكثنا هناك خمسة أيام زرنا خلالها الدير والأماكن المقدسة المحيطة به .

---

(١٧) ومع ذلك فيوجد باب للعربات ولكنه مسور ومغطى جزئيا بالأتربة ، كما أنه لا يفتح الا لاستقبال زيارة البطريرك .

ويقع هــذا الدير ، الذى تشكل جدران ســوره ، المبنية بكتل من الجرانيت يبلغ ارتفاع الكتلة الواحدة منها حوالى نصف المتر (١٨بوصة) وعرضها أكبر من ذلك بقليل ، مربعا يبلغ طول ضلعه حوالى ١٦٢ مترا (اى ٨٤ قامة والقامة تساوى ياردتين) — يقع هذا الدير عند سفح جبل حوريب أو خوريب .

وتشعر وأنت بداخل الدير بعــدم انتظام سطح الأرض التى أقيم فوقها ، وهو يتكون من عدد كبير من المبانى غير المنتظمــة المقــامة على مستويات مختلفة ، ويضم كنيسة مكرسة لسانت كاترين ، و٢٦ كنيســة أخرى لها نفس العدد من المشرفين ، ومسجدا (١٨) ومسارب بسيطة تتصل بدهاليز خارجية ومغطاة بالخشب وبعض مصــانع يدوية لصنع الأشــياء الضرورية لحياة رجال الدين ولصيانة الدير .

ويقيم فى هذا « السجن المقدس » ستة من رجال الدين واثنــان وعشرون راهبا . وتتكون الكنيسة من أجنحة ثلاثة تفصلها عن بعضــها البعض عواميد من الجرانيت تحمل سقفا خشبيا مطليــا بلون أزرق بالغ الجمال تتناثر فيه النجوم الذهبية اللون وتغلق المحراب قطع من الخشب جميلة ، محفورة ومذهبة . أما المذبح فمن زخارف حرشــفية تشبه جلد السمك ، مطعمة بالصدف ، ومشغولة بشــكل بالغ الجودة ، أما المنبر فمن الرخام لكن كرسى المطران مصنوع من الخشب المنقوش والمذهب ، ويزدان التاج بلوحة منقوشة على الخشب نرى فيها فى منظور (١٩) سيىء التنفيذ تفاصيل بالغة الدقة للدير ، وتغطى الجدران لوحات سيئة لحد ما مرسومة فوق الخشب ، أما البلاط فمن الرخام والجرانيت ويتخذ السلم شكلا حلزونيــا (٢٠) .

وجــدران الســور مسننــة ، بها استحكامات بارزة ذات زوايا

---

(١٨) أخبرنا رجال الدين ان هذا المسجد قد بنى فى الفترة التى كان العرب يعملون فيها فى خدمة الدير .

(١٩) انظر اللوحة ١٠٣ ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى .

(٢٠) لا يوجد بالدير جرس ، وينادون هنــاك على الصلاة وكذلك لبقية الممارسات الدينية بالطرق بواسطة بيزر (مطرقة ذات رأسين) على لوحة طويلة من الزان مغلقة أفقيا من الطرفين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اربع تحمل كوات تغطى قطعا صغيرة من السلاح تطلق قـذائف من زنة الرطلين ، لكن هذه المدافع لم تنطلق أبدا الا لكى تحدث ضجيجا فى الجبل (أى لم يحدث أمر جدى يستدعى انطلاقها) .

وتشتمل ترسانة الدير على عدد صغير من البنادق ذات المحاور ، اضطر الرهبان لاستخدامها فى بعض الأحيان ضـد العربان الذين كانوا يأتون بقصد انتهاب حديقة الدير الخارجية التى تحيط بهـا جدران أكثر انخفاضا وأقل صـلابة من جدران الدير . ويصـل سـكان الدير الى الحديقة عن طريق ممر سفلى يغلقه باب مزدوج من الحديد ، وهذه الحديقة واسعة بعض الشىء لـكنها مزروعة بشكل غير جيـد ، ومع ذلك فهى تنتج الخضروات التى تشبه بعضها ماننتجه نحن من خضـار ولـكنها اقل جودة ، كما تنبت فيها الكروم واشجار اللوز والبرتقال والليمون والمشمش والتفاح والبرقوق والزيتون. أما العربان، أولئك الذين لايعتنون بزراعتهم، ولا يقلمون أشجارهم بشكل دقيق ونادرا مايلجأون الى تطعيمها فينتجون فواكه ضئيلة الحجم لكنك تجدها لذيذة الطعم حيث أنت فى مكان تندر فيه الفاكهة الى هذا الحد . ولا يعرف رجال الدين التطعيم عن طريق شق القشرة ، وقـد علمتهم طريقـة التطعيم بالبراعم وكيفية تكاثر اشـجار الـكروم عن طريق ترقيد العقل (العقلة) .

والمياه فى الدير وفيرة ، ويخترق الحديقة جدول تسيل فيه الميـاه وبعمق يبلغ أكثر من ثلاث بوصات حتى ولو لم تكن قـد سقطت امطار منذ عام كامل ، وعلى الرغم من أن معظم العيون عندئذ تكون قد نضبت .

وحياة رجال الدين شديدة الزهد ، ويقتصر عمل الرهبان على القيام بأعمال بالغة الضآلة فيصنعون الزيت وقليلا من النبيذ من عنب كرومهم، كما يصنعون الخمور من البلح والتين والعنب المجفف ، ولا عمل لهم بعد ذلك الا ان يأكلوا ويحصل الدير من القاهرة على كل احتياجاته من المؤن التى تجلبها اليه القوافل والتى يرسلها الـدير الرئيسى هنـاك . ويثرى هذا الدير عن طريق صدقات المسيحيين الذين يطمحون فى أن يحصلوا بهذه الوسيلة على هبات السماء عن طريق دعوات رجال الدين فى جبل سيناء . واذا ما استثنينا قـداس الصبـاح ، وبعض الصـلوات التى تتلى فى السماء ، فان هؤلاء الرهبـان الورعين يقضـون كل وقتهم فى انجاز لا شىء .

وهنـــاك مكتبة جميلة لحد لا بأس به ، تضم عددا كبيرا من المجلدات اليونانية ، ومع ذلك فقد بدا لنـــا أن أحدا لايتردد عليها . ويتحدث الجميع باليونانيـــة وليس ثمة الا عـــدد صـــغير من الرهبـــان يفهمون العربيـــة ويتحـــدثون بها . وهؤلاء هم الذين يقـــومون بالســـفر الى القـــاهرة لتدبير شئون الدير .

اليومان الثامن عشر والتاسع عشر

يشكل جبل خوريب أو حوريب ، الذى يقع الدير فى سفحه ، ربوة تقع الى الشمال ، يمر فوقها الناس وهم ذاهبون الى جبل سيناء (٢١) .

وعلى مسافة حوالى ٥٠ قامة (١٠٠ ياردة) الى الجنوب من الدير تقابل عين ميـــاه تسمى بئر الاسكافى تهيىء طيلة العـــام كمية صـــغيرة من المياه بالغة الجودة ، وعند نقطة الالتقاء توجد كنيسة صغيرة يطلق عليها اسم كنيسة مارى أو كنيسة المفوض . وفوق هذا الجبل يوجد خزان مياه مبنى وكذلك شىء يشبه حوضـــا كبيرا للسمك يمتلىء بمياه الأمطار . كان كلاهما ـــ الخزان والحوض ـــ جافين منذ زمان طويل ، وفوق الربوة توجد شجرة سرو تمتاز بجمالها ، وعلى ارتفاع متر ونصـــف المتر (٤ اقدام) يبلغ محيط هذه الربوة مايقرب من مترين وثلاثة أرباع المتر (٨١/٢ اقدام) مع ارتفاع مناسب (٢٢) . وعلى جزء أكثر ارتفاعا على نحو طفيف من نفس الهضبة توجد كنيستان صغيرتان تحملان اسمى : أيلى ، ايليزيه، وجدرانهما مغطاة بأسماء أولئك الذين قدموا لزيارة جبل سيناء الذى يبلغ المرء قمته بعد مسيرته ساعتين صعودا فوق سلم يتكون من درجات من الصخور وكتل الجرانيت التى جلبت الى هذا المكان . ويغلق الممر المؤدى اليه بعض الأحيان ويقوم بحراســـة الأبواب رجل لايسمح بمرور احـــد الا من كان مسيحيا مزودا بكتاب من بطريرك سوريا . ويرى المرء أيضا من فوق هذا الجبل أطلال كنيسة صغيرة مبنية بالجرانيت ، كما يرى مسجدا يرتفع فوق مايشبه قبوا صغيرا يبلغ ارتفاعه مايقرب من متر ونصف المتر (٤ أقدام

---

(٢١) عادة ما نضع على الخريطة كلا من جبل حوريب وجبل سيناء باعتبارهما كتلتين تنفصل بينهما مسافة قصيرة ، وهذا خطأ ، فجبل حوريب ربوة من جبل سيناء ، أما تلك الكتلة التى تنفصل عنه فهى قمة جبل سانت كاترين ، وهذه أكثر منه رتفاعا بنحو طفيف .

(٢٢) يلاحظ وجود ربوة مشابهة داخل الدير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

و٧ بوصات) فوق مايماثلها من العرض والعمق . وينظر الى هذا المكان باعتباره المكان الذى أمضى فيه موسى أربعين يوما . ويوجد فى مقابل هذا المكان كهف بالغ الضيق هو ذلك الكهف الذى اختبأ فيه موسى ـ كما يقال ـ عندما تجلى له ربه . ويرى المرء بالمثل أطلال كنيسة ثانية خربها العربان لأنها كما يزعمون كانت تمنع المطر من السقوط . وهناك كثير من الآبار المحفورة فى الجرانيت ، لكنها جافة .

كان العرب ينتظروننا عند سفح الجبل ، وهنا وقع حادث ،طبيعى فى هذا الفصل ، لكنه نادر ، يتلهف الناس لحدوثه منذ زمن طويل ، جاء ليضيف الى الاحترام الذى يكنه هؤلاء العرب للفرنسيين ولتقديرهم لنا ، لم تكن قد سقطت أمطار منذ عام ، وكانت القطعان تعانى ، وكانت مصادر المياه تتناقص . وسمعنا ونحن فوق الجبل الرعد يزمجر عن بعد، وبدأ المطر يتساقط بينما كنا نهبط ، لم نكن قد شاهدنا مطرا يسقط منذ زمن طويل . فتمتعنا بلذة أن نحس بأنفسنا مبللين ، ولم يكن يخطر على بالنا مطلقا أن ننسب لأنفسنا فيما يحدث فضلا حين سمعنا العرب يهتفون، وعندما حاذيناهم هبوا جميعا واقفين يهللون : « ماشاء الله ! ماشاء الله ! عظيم غفار ! أيها الفرنسيون الطيبون . لقد صليتم من أجلنا فوق جبل سيناء ! لقد ساعدتم (بذلك) فى أن يهطل المطر علينا ، وهو أثمن علينا من الذهب » كانوا يقبلون أكمامنا وذيل ملابسنا ويبتهلون الى السماء وهم يرددون : أيها الفرنسيون الطيبون ! أيها الفرنسيون الطيبون ! كان الجو مشبعا للغاية . وكان لون السماء يماثل لونها فى أوربا قبل هطول ثلج كثير . وأبديت هذه الملحوظة لزميلى ثم اجبتهم . « اننا مسرورون منكم ، لقد صلينا على الجبل ودعونا الله من اجلكم ، وسيستجيب على الفور لأمنياتنا وأمنياتكم » . وبالكاد ، كان لدينا الوقت الذى يكفى لأن نحتمى تحت سقف مبنى ردىء من مبانى الرهبان ، تدخله الرياح من كل اتجاه ، وظل المطر يسقط بغزارة شديدة ، واستمر بنفس القوة لفترة طويلة من الليل .

رحلنا فى اليوم التالى عند انبلاج النهار لكى نذهب لزيارة جبل سانت كاترين ، وأمضينا أربع ساعات لكى نبلغ القمة بادئين من عند السفح ، نسير احيانا فوق قمم حادة مدببة واحيانا فوق صخور من السماق المورقة أو المفتتة بشكل تام . وفى كل لحظة كانت مساقط المياه،

والأخوار . والشعاب التى شكلتها الثلوج التى سقطت فى العشية عند ذوبانها والتى كانت لاتزال تغطى الثلث الأخير من الجبل .. كان كل ذلك يجعل عبور بعض الممرات أمرا بالغ الصعوبة . وكانت الرياح تهب من جهة الشمال ، وعلى الرغم من أن الترمومتر لم يكن يشير الى درجة التجمد ، فقد كان الجو جد قارس بالنسبة لنا ، نحن الذين لم نعد نعرف منذ زمن طويل لا البرد ولا المطر . ولا الجليد ، كانت السماء صافية فوق رءوسنا ، لكن بخر المياه التى سقطت فوق الصخور الدائمة على الدوام قد شكل من حولنا ، ومن تحت أقدامنا سحابا كثيفا ، كأننا كنا فى داخل جزيرة ، وكأنما قمم الجبال العالية من حولنا تشكل عددا مماثلا من صخور البحر ، وسط هذا البحر من البخار . وفوق هضبة الجبل شديدة الضيق ، ينهض كوخ متهدم بشكل جزئى ، ويغطى صخرة من الجرانيت، هى موضع تقديس من جانب المسيحيين . وقد شرح لنا الأخ الذى كان يصحبنا والرهبان الذين كانوا معنا ، فى أثناء عودتنا الى الدير سر هذا التقديس .

لقد استشهدت سانت كاترين ، عذراء الاسكندرية ، حسبما يذكر مؤرخو القرن التاسع فى مدينتها الاسكندرية . فى عهد ماكسيمانوس الثانى ، الامبراطور الرومانى فى ذلك الوقت . وفى هذه اللحظة ، وجد الناس على صخرة سانت كاترين هذه جثة لفتاة . واخبر بعض المسيحيين احد الرهبان بالأمر ، وذهب الجميع للتعرف على الجثمان . واقروا بأنه جثمان لشهيدة . وانه لابد ان يكون جثمان سانت كاترين . التى نقلت بالتأكيد ، حسب المعتقد الراسخ فى الدير . من الاسكندريه الى هنا بواسطة الملائكة الذين انزلوا الجثمان عند سفح جبل حوريب (٢٣)

وسرعان ماذاع صيت هذه المعجزة ، وتزايد عدد الحجاج القادمين من سوريا ومن القاهرة (كذا) ، وسرعان ما امد هؤلاء الرهبان بوسائل لاقامة كنيسة صغيرة كانت هى اصل منشأ هذا الدير .

وبعد ذلك وضع الجثمان فى صندوق له نافذة من الرخام الابيض

---

(٢٣) يحدد رجال الدين المحطات التى استراح فيها حاملو الجثمان. وهم يقدمون كذلك الصخور الأفقية التى وضع الجثمان فوقها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحفظ بالطريقة التى يقضى بها الدين ، وفى أيام العيد تعرض الرأس واليد اليمنى أمام النافذة وتنال تقديس الناس ، اما النافذة الموازية فلا تدع أحدا يلمح الا أجزاء من الهيكل (٢٤) .

رجونا رئيس الدير ان يسمح لنا بالمشاركة فى هذه الحفلةالدينية، فوافق على تحقيق هذا الرجاء فى الغد ، وعندئذ زينت الكنيسة كما فى أيام الأعياد الكبرى ، وأضيئت كافة الشموع والمصابيح ، وبعد أن خر رئيس الدير والرهبان ساجدين ابتداء من أسفل الكنيسة حتى بلغوا المحراب ، جاء هؤلاء ليقبلوا جبهة القديسة والخاتم الذى يحيط بأحد اصابعها .

ولقد لفت هؤلاء أنظارنا عند هبوطنا من الجبل الى زهور نسرين بالغة الازدهار والتفتح ، يطلق عليها الرهبان اسم شوك النار ، وقد أعجبنا عند مرورنا بالوادى الواقع بين جبل سيناء وجبل سانت كاترين ، بكتل رائعة من الخزف الهولندى تحيط بحوض أسماك واسع كانت الأمطار قد ملأته اثناء الليل .

وعلى بعد مسافة قصيرة من ذلك ، عند منتصف الوادى ، لفتهؤلاء انظارنا الى الصخرة التى خرج عندها موسى من الماء (٢٥) .

---

(٢٤) استرعى رجالالدين انتباهىالى انه اذا كانالملائكة لم يعرضوا الجسد كله ، فقد كان ذلك من جانبهم تقديرا لاعتبارات العفة والفضيلة.

(٢٥) تشكل الأمطار بسقوطها فوق الجبال أخوارا ، تحمل معها ، بينما هى تتبع نفس الاتجاه لوقت طويل ، الطين والأحجار ، والزلط المستدير ، وتشكل بهذه الطريقة صخورا تستعصى على حركة التنقل هذه، كما تحفر جداول يزداد عمقها بقدر ماتزيد رخاوة الحجر وبقدر ما يحدث المزيد من الأخوار ، حتى يحدث أن تندفع هذه الصخور من تلقاء نفسها ، بعد أن تفقد القاعدة التى كانت تنهض عليها بفعل انحراف الأرض من تحتها ، الى الوادى ، ولقد اندفعت كتلة من الجرانيت تبلغ مساحةسطحها ٤ر٥ أمتار مربعة ، (حوالى ١٤ قدما مربعا) الى وسط الوادى ، وترى اليوم على سطحها جدولا صغيرا يبلغ عرضه ٢ر٥ ديسيمتر ، وعمقه ديسيمترا واحدا ، وتقطعه من ١٠ — ١٢ قطعا يبلغ عمق القطع منها ٣—٤ سم (١ر٥—٢ بوصة) ، وقد تشكلت هذه بفعل بقاء المياه فى الأجزاء الأكثر رخاوة من هذه الكتلة ، التى يسميها الرهبان والعرب صخرة موسى . ويضع الأخيرون العشب فى هذه الأفواه المزعومة ، ويطعمونها جمالهم ، عندما تكون مريضة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى مسافة عدة أميال من هذا المكان ، تتلاقى عدة وديان وتشكل باتحادها هضبة واسعة مليئة بالرمال وكتل الجرانيت والزلط وتحمل اسم سهل الاسرائيليين . وهناك وسط هذه الصحراء تل قليل الارتفاع يسمى جبل هارون ؛ وقد اكد لنا مرافقونا أن بعض العرب يذهبون الى هناك لذبح العنزات ، وبمواصلة طريقنا ، رأينا صخرة مجوفة ؛ يزعم الرهبان بأن العجل الذهبي قد صب (صيغ) فيها .

كانت القافلة هى نقطة البدء لعودتنا الى القاهرة ، وكان علينا أن نحرص على انتهاز هذه الفرصة والا فاننا سوف نخاطر بالبقاء فى الصحراء حتى يحين موعد سفر القافلة التالية أى لمدة أكثر من ستة أسابيع اذا مافترضنا – فوق ذلك – أن حدثا طارئا لن يأتى ليعطل مسيرتها . اذن فقد عدنا الى الدير . وفى اليوم التالى فارقنا هؤلاء الرهبان لكى نعود الى القاهرة عن طريق الجبال . كان شيوخنا فى انتظارنا عند سفح الكهف . وكانت القبائل الأكثر بعدا قد بدأت بالفعل مسيرتها لكى يلتقى الجميع عند مدخل الوادى لعبور صحراء السويس ، لكى يتبادلوا الحماية ضد القبائل المعادية التى قد يصادفونها .

وبينما كنا نشرف على تحميل جمالنا ، جاء أحد مترجمينا وأخبرنى أن عربيا قد ابلغه أن الأتراك قد سيطروا على القاهرة وقتلوا الفرنسيين . كان بمكننى استدعاء هذا الأعرابى **وسؤاله** حول صحة هذا الخبر وأن أفحمه لو كان الخبر مختلقا لاثارة العربان ضدنا . لكن مثل هذه المناقشة سوف تكون لها مساوئها . فقد كان بعضهم حانقا لأن رحلتنا قد عادت ببعض الفوائد على عدد قليل منهم . واعطيت امرى للمترجم ان يذهب ليقول لراوى الخبر ان الفرنسيين اصدقاء للاتراك ، وانه – هو – لايعرفنا حق المعرفة . ان كان يظن انه بذلك سيخيفنا ؛ واننى أرسل له حفنة من البارات باعتباره منشدا وراوى قصص . وبعد أن ركبنا جمالنا (الهجين) ؛ وزعنا البارات على الفقراء ، والقينا بها الى الأطفال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما كانت عادتنا ان نفعل عندما كنا نغادر احدى القبائل ، ورحلنا بينما ادعيات وبركات الرهبان الطيبين ، تنهال علينا (٢٦) .

اليوم العشرون

بعد مسيرة ست ساعات من وادى الراحة وبعد مسيرة ساعتين فى وادى الشيخ صالح عسكرنا بالقرب من أولاد سعيد الذين لقينا فى كنفهم افضل استقبال . قادنا الشيخ الى خيمته ، ودار حوار عنيف أثناءالطعام بينه وبين جار له كان يود أن يستضيفنا . وفقنا بينهما واعدين الأخير أن نذهب لنأكل عنزة معه فى الغد قبل رحيلنا .

اليوم الحادى والعشرون

لم يعد أمامنا سوى مسيرة ساعتين لكى نصل الى وادى فيران الخصيب والذى تحتله قبيلة القرارشة ، وهى أكبر القبائل عددا ، ويعد شيخها فى نفس الوقت أقدم المشايخ ويحمل لقب الشيخ الكبير . ويبلغ طول هذا الوادى ، المزروع بأشجار النخيل وبعض اشجار النبق حوالى ثلاثة أميال وعرضه حوالى ٢٠٠ الى ٣٠٠ متر (١٠٠ — ١٥٠ قامة). ويحتوى على أسوار كثيرة جدرانها من الحجارة الصلبة ، تشكل عددا مماثلا لعددها من الملكيات التابعة لأكثر ابناء القبائل المجاورة ، ميسرة ، والذين يأتون ليجنوا هناك بلحهم ، وهناك شخص بعينه يأخذ علىعاتقه الحفاظ على هذه الحدائق التى تحظى بحماية الشيخ الكبير .

وهذا المعسكر كبير فى مساحته واهميته ، فهو يتكون من حوالى اربعين خيمة تنهض بين اشجار الطرفاء (المن) ، وهى تضم الجزءالاكبر من أبناء القبيلة ، ويجد المرء هناك آبارا عديدة تهيىء المياه بوفرة كافية . وهم ينزحونها من عمق عشرين قدما ، وقت أن كنا فى رحلتنا هذه .

---

(٢٦) كانت قطعة من جوار السور قد تهدمت ، ولم تكن لديهم وسيلة لترميمها ، فوعدناهم بأن نرسل اليهم بنائين سافروا بالفعل مع اول قافلة تبعا لاتفاق عقدناه مع العربان . وبعد ذلك بسنوات وجد أحد الرحالة الروس ، الذى سافر برا من سوريا الى جبل سيناء ، اسمنا مدونا فى حجرة الأغراب ، دليلا على عرفانهم بالجميل .

Extrait du Journal du Monde élégant, Berlin, 1806.

وكان الطعام الذى قدم لنا هناك هو نفس ذلك الطعام الذى قدمته الينا القبائل الأخرى ، لكن تجمعهم الكبير العدد كان يضم من ٤٥ الى ٥٠ شخصا ، أى كل رجال واطفال القبيلة .

ثمة ما يجعلنا نلمس واقعة هامة . كان بوكوك Pococke وبصفة خاصة نيبيور Niebhur قد وجدا على بعد مسيرة يومين وادى فيران أحجارا تغطيها النقوش الهيروغليفية يبدو أنها تشير الى وجود مقابر مصرية ، وقد تحدث الناس اليهما كذلك عن وجود مدينة قديمة ، الأمر الذى يتفق لحد كبير مع ما واتتنا الفرصة مرات عديدة للتعرف عليه فى صعيد مصر، اذ من المعروف أنك عندما تجد خرائب مدينة فانك على يقين من انك ستلقى مقابر غير بعيدة من هذا المكان ، والعكس صحيح . ولما كنا نعيش منذ قرابة شهر مع رجالنا العربان ، ولما كانوا يبدون شديدى الثقة بنا للحد الذى لا يقدر أحد أن يحصل عليه من هذه الشعوب المرتابة ،فقد كانتلدينا من الأسباب مايكفى لأن نأمل بمساعدتهم فى العثور على الآثار القديمة التى رسمها ووصفها نيبيور ، وعليه ، فقد سألنا رجال الدين الذين قاموا بالسفر الى هناك عدة مرات ، كما سألنا الرجال الطاعنين فى السن ، وأولئك الذين لبس لديهم مايخفونه حيث لايمتلكون شيئا يخشون من فقده ، ووافق الجميع على أن يدلونا على أطلال مدينة قديمة تقع فى نفس المكان ، وعلى بقايا أحجار منقوشة فى مكان آخر ، هو بالتأكيد المكان الذى اشار اليه نيبيور ، لكن ، لقد خدعتنا امانينا ، سواء كان ذلك بدافع من الجهل أو بدافع من سوء الطوية والظن منجانب مرشدينا ، فانا لم نذهب الى المكان الذى توجد به الأنقاض القديمة ،التى كنا نتلهف على زيارتها .

اليوم الثانى والعشرون

بعد ساعة من خروجنا من وادى فيران ، اكتشفنا فوق تل يبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثين مترا (١٥ قامة) وجود هضبة تحيط بها جبال عالية . وقد رايت وسطها كذلك انقاض مساكن قديمة تفتقد الذوق فى بنائها . وقد بنيت هذه بكتل من الحجارة غير المشذبة ، كما بنى جزء منها بالطوب النيىء . ويوجد فى اسفل الجبل بقايا جدار سميك يبدو انه كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد بنى بقصد دعم التربة ، أو لاستخدامه كسور ، كما توجد ثمة مغارات محفورة فى الصخور ، لكن مداخلها ظلت ناتئة غير مشذبة .

ويؤكد العربان والرهبان أن المبانى الموجودة فوق التل وسط الهضبة هى أطلال مدينة صغيرة كان يسكنها المسيحيون ، وخربها العربان الذين طردوهم منها ، ويزعم آخرون أن هذه المدينة قد انهارت فوق سكانها الذين وجدت جثثهم تحت أنقاضها .

وعلى قمم شديدة الارتفاع تسمى رأس الطاحونة توجد أساسات كنيسة قديمة تعود الى نفس الزمن الذى تعود اليه المبانى الموجودة فى أسفل ، وكل ماهناك ينبىء ببؤس وجهالة السكان القدامى لهذه المبانى التى تهدمت حيث لاشىء منه شبيه بالمبانى المصرية فى شكلها ومتانتها .

وعلى بعد خمسة عشر أو ستة عشر ميلا (مسيرة يوم) مررنا كذلك بسفح جبل تغطيه النقوش مع الأرقام العربية ١١٠ ، ١١١ ، ١٥٠ ، ٥٠٠ ، ٦٠٠ ، وبجوار اكبر هذه الأرقام يوجد عدد ضئيل من الحروف لدرجة لا يمكن منها أن تكون شيئا آخر سوى أسماء يسبق الكثير منها — أو يتبعها — رسم الصليب . وقد رأينا هناك خيولا وجمالا منقوشة ، ورجالا على ظهر حصان وهناك رجل بين آخرين ، يحمل رمحا تشبه قمته رأس السهم .

وتوضع هذه النقوش أحيانا فوق احجار افقية ، وأحيانا أخرى فوق أحجار رأسية ، وكان الكثير من هذه الحجارة **مقلوب** لأنها انفصلت عن الجبل منذ نقشها ، ولا يزيد ارتفاعها مطلقا على مايزيد على ثلاثة أمتار ونصف المتر (١٠ — ١٢ قدما) بل انها نادرا ما تبلغ هذا الحد من الارتفاع . وفى هذه السلسلة من الجبال ، التى يبلغ طولها حوالى ثلاثة أميال ، والتى تقطعها فى أماكن عديدة شعاب أو وديان صغيرة ، لا يجد المرء مطلقا احجارا منقوشة وان كان ذلك قد يحدث أحيانا عند زوايا الممر .

ولا تنبىء أى من هذه النقوش لا عن موهبة — بل ولا حتى عن عادة — النقش فوق الأحجار . وقد حفرت كلها بواسطة احجار مدببة صلبة أو بقادوم ، فيما عدا عدد ضئيل منها تم حفره بواسطة ازميل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الصعب الا يدرك المرء الغاية من هذه الكتابات ، بل ومن الصعب أكثر أن نتردد حول التفسير الذى ينبغى أن يعطى لها ، اذ هى لا يمكن أن تكون قد تمت الا على أيدى مسيحيين كانوا يذهبون للحج (الزيارة) الى جبل سيناء . ويوجد أكبر عدد من هذه النقوش فى مكان استراحة الليل، وهناك القليل منها فى مكان استراحة النهار فى الوقت الذى لانجد فيه أى نقش على الاطلاق فى أى مكان آخر على الطريق .

وقد نسخنا العديد من هذه النقوش ، ثم دخلنا بعد ذلك الى الشرق فى واد ضيق حيث نصبنا خيامنا بعد أن قطعنا ثلاثة أميال فى سفح جبل جرانيتى وسط قبيلة العوارمة .

اليوم الثالث والعشرون

وفى هذا اليوم ، لم نقطع سوى أحد عشر ميلا فى واد ضيق ، بين جبلين رمليين ليس بهما أثر لخضرة من أى نوع ، لكى نصل الى هضبة مرتفعة تسمى وادى الخميلة ، حيث قضينا الليل .

اليوم الرابع والعشرون

باتباعنا الوادى . مع الانحراف قليلا الى الغرب ، عبرنا عدةشعاب مغطاة بصخور رملية وجرانيتية وسماقية (رخامية) ، ثم توقفنا فى وادى النصيب على بعد عشرة أميال من وادى الخميلة ، فى سفح جبل من الجرانيت تغطيه النقوش .وعلى الرغم من أن هذا المكان ليس سوى استراحة نهارية ، فانه ينبغى عليك أن ترسل الجمال الى مسافة عدة أميال من هناك اذا كنت تريد الحصول على الماء .

كنا وسط قبائل العليقات ، وقادنا شيخها . الذى كان قد هرع الينا من مخيمه حيث نمنا بعد أن أكلنا العنزة تحت سقف خيمته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليوم الخـــامس والعشرون

فى هذا اليوم ، وجدنا آخر النقوش (٢٧) فى واد يسمى وادى الحمور بعد مسيرة نحو خمس ساعات وبعد أن اجتزنا واديا عميقا ورطبا مليئـــا بالبوص ، وبه بعض أشجار النخيل ، ويغطيه فى جزء منه الملح والبارود الأبيض بطول يبلغ ثمانية أميال ، وصلنا الى واد عسل ، حيث قضـــينا الليـــل .

اليوم الســـادس والعشرون

وباتباع الوادى ، الى الشمال الغربى ، استرحنا للحظات فى مكان يقع الى الجنوب من وادى الغرندل لكى نذهب لنقيم خيامنا فى خور فرق

---

(٢٧) لمعرفة كل النقوش أنظر اللوحات A , E المجلد الخامس ، كما يمكنك أن تجد جزءا منها فى Voyage de Niebuhr en Arabie المجلد **الأول**.

ومن المرجح أننا ابتعدنا لمسافة قصيرة من الجبل الذى نسخ عنـــه هذا الرحالة الممتاز الكتابة الهيروغليفية المنقوشة فى مؤلفه ، ولكن سواء كان ذلك عن جهالة أو عن سوء طوية فأن عرباننا قد أكدوا لنـــا انهم لايعرفون أحجارا أخرى منقوشة . وقد واصلنا طريقنا **ونحن** واثقون من اننا سنعثر على النقوش الهيروغليفية ، لأنهم عندما أخبرناهم أنه لاتزال توجد أحجار أخرى ، دلونا على مكان أكثر بعـــدا لنبحث عنهـــا هنـــاك ، ولم ندرك أننا قد خدعنا الا عندما وجدنا النقوش الأخيرة . كانت القافلة تسير ولم يعد ذلك هو الوقت الملائم لكى نواصل البحث ، بل لـــكى نعود أدارجنـــا لنلحق بالركب .

وفى أثناء عبورنا الصحراء ، سببت لنا الـــكثير من القلق ، احدى القوافل التى كانت تسير على مسافة بعيدة منـــا ، ثم تعرفنـــا فيها على قبيلة صديقة .

وعلى مسيرة يومين من القـــاهرة ، عندما كنا معسكرين ، فوجئت غزالات ثلاث بأنفسها سجينة داخل المعسكر ، وبدأت تطاردها صـــيحات العربان ، وكلما فرت قابلتها نفس العقبة (الصياح) وقد اجتازت احداهن الشباك ، وأفلتت الأخرى على الرغم من جراحها ، وأسرت الثالثة .كان العربان من قبل قد ذبحوا لنـــا غزالة كنا قد اشتريناها عشية وصـــولنا الى دير سانت كاترين، ويماثل لحمها كثيرا لحم اليحمور (نوع من الأيائل) البـــالغ اللذة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على بعد عشرة أميال من الحوزية **وذلك**بعد ان بلغنا هضـــبة شـــديدة الارتفاع وجدنا فيها مياها بالغة الرداءه داخل مايشـــبه كهفا مكونا من الأحجـــار الجيرية . اجتزنا وادى الغرندل الذى يغطيه أشجار الطرفاء (المن)حيث يأتى عرب العليقات يصنعون الفحم .

اليوم السابع والعشرون

كنا بعد على بعد أكثر من عشرين ميلا من عيون موسى . وكنا منذ نهاية اليوم الثانى قد تركنا الجبال لكى ندخل صحراء قاحلة قطعنا فيهـــا سته عشر ميلا ثم نصبنا خيامنا فى وادى الحلزا .

اليوم الثامن والعشرون

فى هذا اليوم وصلنا فى ساعة مبكرة الى عيون موسى . كان المـــد قـــد بدأ يهبط وعبرنا ذراع البحر (الخليج) تجاه السويس ، وفى أماكن كثيرة كانت الميـــاه من حولنا تبلغ عمقا يقدر بأكثر من أربعة أقدام . وفى اليوم التالى لحقنا بالقافلة فى العجرود . وكانت القافلة تتكون من ١٢٠٠ جمل ومن ٤٠٠ الى ٥٠٠ رجل وفى اليوم الحادى والاربعين منذ رحلينا ، وصلنا الى القاهرة .

تقاليد وعادات عرب الطور

يسمى سكان شبه جزيرة سيناء الطورة أو عرب الطور . وهؤلاء ـــ شأن كل العربان . ذوو قامة يبلغ طولها فى المتوسط من متر ونصف المتر الى متر و٧٣٢ مم (٤ أقدام وست بوصات) . ولون بشرتهم حائل، شديد السمرة ، بل يكاد يكون أسود تمـــاما ، وعيونهم حادة ســـوداء ، تغطيها الجفون بعض الشيء . وهم فى العـــادة نحيفو الأجسام ، جادو التقاطيع دون أن يوحوا بالكآبة ، وهم على دين محمد ، لكنهم لا يعرفون من محمد سوى اسمه ، ولا يعرفون عن القرآن سوى شهادة لا اله الا الله ، محمد رسول الله . ولم نقابل من بينهم سوى رجل واحد يؤدى الصلاة بانتظام ، كما قام بالسفر الى مكة (الحج) مرتين .

وعلى الرغم من أن الاقامة الاعتيادية لهؤلاء العربان فى جبال صخرية ووسط أرض قاحلة لايمكن أن تغرى أحدا على الاطلاق على انتزاع هـــذه

البلاد منهم ، فقد منحتهم هذه الحيــاة ــ كما منحت كل العربان البدو ــ روحا من الحرية أساءوا استخدامها فى معظم الأحيان . وعلى الرغم من أن الضرورة تفرض عليهم أن يكونوا على الدوام مسلحين لحماية تجارتهم وللدفاع عن أنفسهم ، وعلى الرغم من أن حوادث الانتقام (٢٨) التى قــد يكون عليهم أن يمارسوها ضد قبيلة معادية قد دعمت لديهم الميل الى السلب حين يكونون منتصرين فان المرء مع ذلك لا يستطيع أن ينكر أنه يجد ــ رغم ذلك ــ فى كل القبائل العربية بقايا ثمينة من تلك التقاليــد الأبدية التى نقلها الينــا سفر التكوين فى قصــة ابراهام ، وكما وصفها المسيو فولنى Volney بقدر كبير من الدقة والعذوبة فى مؤلفه الهام الحالة السياســية لسوريا Etat Politiqu de la Syrie ان مانستطيع أن نؤكده هو أننا فى خلال الواحد والأربعين يوما التى أمضيناها مع عــرب الطور لم نستشعر من جانبهم أى نوع من القلق أو أن نتوجس منهم خيفة ، كانت خيمتنــا على الدوام مفتوحة بل وكثيرا ماكنا نغادرها ، وكانت أسلحتنا ملقاة كيفما اتفق، ومع ذلك فلم نفقد شيئا على الاطلاق مهما يكن ضئيلا .

ولقد وجدناهم شديدى التحفظ تجاه الفرنسيين ،ولكى ندعم مواقفهم الطيبــة هذه معنا ، فاننــا لم نعدهم بشىء على الاطلاق دون أن نــكون عند وعودنا ، كما لم نطلب اليهم ما يستحيل عليهم أن يفعلوه . ومع ذلك فقد كنا نفرض مانريد بقدر من الحزم كنا نبدو معه وكأن لدينــا من القوة مايجعل الغير يستجيب لارادتنا .

« كلمة الفرنسيين واحدة » ، هكذا كانوا يقولون على الدوام . وقد سألنى كثيرون منهم ، وهم دهشون لرؤيتنا نركب جمال الهجين ونســير بينهم ، نتحمل نفس المتاعب ونفس صنوف الحرمان التى يعانون منها ، سألونى : ان كان كل الفرنسيين أقوياء مثلى . وكنت أقول لــكل سائل انك ذاهب الى القاهرة ، وسوف ترى بنفسك أننى لست واحدا من أكثر الفرنسيين فتوة كما أنى لست واحدا من أكثرهم قوة فكانوا يجيبون : لقد خلقتم معشر الفرنسيين للاسفار .

---

(٢٨) هناك قانون عام عند العرب يقضى بأن دم كل قتيــل لابد من الانتقام له بدم قاتله وهو يسمى بالثأر أو القصاص .

كل مايرتديه عرب الطور كملبس هو قميص من الصوف الأبيض ينزل الى منتصف الساق ، وأكمامه قصيرة ، وكذلك جلباب من الصوف المقلم بالأبيض والغامق ، مفتوح من الأمام ، وليست له أكمام ، ومشقوق من الجنبين لمرور الذراعين ، وسروال من التيل .

ولا يرتدى الأطفال سوى الجلباب ، وكثيرون منهم عراة ، وفى الصيف لا يرتدى الرجال سوى القميص مع حزام من الجلد أو من قماش صوفى . أما الشيوخ ، وهؤلاء هم أكثرهم ميسرة ، فيرتدون ملابسهم على طريقة المصريين وقد تلقى كثير منهم عباءات (خلعات) من حكام البلاد.

ويرتدى البعض منهم نعلا نربطه الى قدمه سيور من الجلد أو خيوط من الصوف ، لكن سيقان الجميع عارية حسب عادة المصريين ، ويرتدون غطاء للرأس ، قلنسوة تحت عمامة رديئة من الصوف الأحمر أو الأبيض، وتكاد تكون رءوس كل الأطفال عارية .

ويحمل هؤلاء العرب كسلاح بندقية ذات سير جلدى وخنجرا مقوسا طوله ٥١ ديسيمتر (حوالى ٢١ بوصة) وهو ذو حدين ومزخرف بالفضة فى معظم الأحيان وهم يحصلون على هذا السلاح المصنوع فى فارس عن طريق جدة وهو يوضع فى مقدمة الحزام من الشمال الى اليمين .

وهناك ما يشبه جعبة من الجلد تعلق بالمثل فى الحزام من الأمام ، وتمتلئ بعلب من البوص أو الخشب ليوضع بها البارود ، وبالاضافة الى ذلك ثمة جراب يتكون من سيور صغيرة من الجلد المجدول ، تنتهى بأهداب مزدانة فى بعض الأحيان بقطع صغيرة من الرصاص ، ومزود به حقيبة من الجلد للصوفان (مادة اسفنجية للجراحة) وفتائل مطلية بالكبريت ، وحقيبة اخرى للاحجار . وتعلق به قداحة لها سلسلة صغيرة ، وهناك حقيبة ثالثة صغيرة توضع بها المقذوفات وعلبة كبيرة من الخشب على شكل مخروط تمتلىء كذلك بالبارود ، بالاضافة الى جعب كثيرة مشابهة تعلق بهذا الجراب .

وتشبه ملابس النساء ملابس نساء القاهرة ، سروال ضيق من قماش فاتح ، وفستان طويل من التيل الأزرق ، مفتوح عند الصدر ، وله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أكمام واسعة مشقوقة حتى منتصف طولها ، برقع أو رباط من القماش الأسود يبلغ عرضه ٢ ديسيمتر (٨ــ٩ بوصات) وطوله ٥ــ٦ ديسيمترات (١٨ ــ ٢٠ بوصة) ، معقود من جانبى الرأس فوق العينين وعند منتصف الجبهه بشريط صغير تغطيه البارات (قطع النقد الفضية) فى بعض الأحيان ، على هذا النحو تتكون ملابسهن ، وفى نفس الوقت ينبغى أن نضيف الى ذلك قناعا من التيل الأزرق وعقودا وأساور من الحلى الزجاجية ، ولبعضهن حلقات كبيرة من الفضة فى أسفل الساق العارية (خلخال) والتى لايغطيها جراب (شراب) .

الأثاث

تشتمل أثاثات عرب الطور على خيمة من قماش من الصوف الغامق يصنعونه بأنفسهم ، ورحى من الحجارة لطحن القمح ، وغلاى أو غلايين للقهوة من النحاس ، وقدر معينة ، وأطباق من الخشب وملعقة من الحديد لتحميص البن وهاون من الخشب ليصحن فيه البن بواسطة عصا ــ هذا هو أثاث الميسورين من هؤلاء العرب والذين يمتلكون زيادة على ذلك ، حقائب من الصوف لنقل الفحم .

المخيم

نادرا مايضم المخيم القبيلة بأكملها ، ولا يتجاوز عدد الخيام الخاصة بكل قبيلة والتى توزع هنا وهناك تبعا لوجود الأعشاب والشجر التى يعثرون عليها فى الوديان ، ١٢ أو ١٥ خيمة ، وينبغى استثناء عرب القرارشة الذين يمتلكون ٣٥ الى ٤٠ خيمة لأنهم يقيمون فى وادى فيران الخصيب .

وتنهض الخيام ، وهى مفتوحة من الأمام ، فوق عارضة من الخشب يحملها وتدان يبلغ ارتفاعهما المترين (حوالى ٦ أقدام) ، وتنزل بشكل منحدر لمسافة يتفاوت طولها فوق عارضة أخرى يبلغ ارتفاعها نصف المتر (١٨ ــ ٢٠ بوصة) وهى من الطين ، وتنهض فوق العارضة الأخرى بشكل عمودى . وتقفل الجوانب بنفس القماش أو بقطع عديدة مختلفة الألوان . وفى معظم الأحيان تنقسم هذه الخيام بشريط من القماش يمتد الى الأمام قليلا ويستخدم فى عزل المكان المخصص للنساء .

الممتلــكات

اذا استثنينا بعض الأراضى فى وديان الكيد وفيران ، وهى المحاطة بأسوار متهدمة ومزروعة بأشجار النخيل والنبق ، واذا ما استثنينا كذلك الدير وحديقة الرهبان ، فيمكن القول بأنه ليست هناك ملكيات فى شبه جزيرة سيناء ، فجمل أو عدة جمال ، بالاضافة الى بعض العنزات هى ثروة العربى ، وتنتشر كل قبيلة فوق منطقة محددة من الأرض ترعى فوقها قطعانها وتصنع فحمها ، وتقدر الثروة هناك بعدد الجمال ، ويعد فقيرا من لا يملك جمالا : أبو فقير ، مفيش جمل ، أى انه فقير لا يملك جمـالا مطلقا ، فليرعه وليمطه المالك .

الصــــناعة

تتناسب صناعة عربان الطور مع احتياجاتهم بالغـة البساطة ، فهم يصنعون ملابسهم ، ويصنعون بأنفسهم أقمشة خيامهم من الصـوف ووبر الماعز الذى يغزلونه دون ازالة الشحم منه (٢٩) .

وعلى الرغم من أن بيع الفحم هو مصدر دخلهم الأساسى ، فليست لديهم الوسائل اللازمة لقطع الخشب ، وهم يضـعون النـار عند جذر الشجرة ، ويكسرونها بقطع ضخمة من الأحجار . واذا كانت لدى البعض

---

(٢٩) تحمل الخيوط التى تشكل سداة القماش ، عصوان موضوعتان بشكل أفقى . **ومثبتتان** بالأرض من كل من طرفيهما ، وتبتعد كل منهـا عن الأخرى بمسافة تزيد أو تنقص (حسب الغـرض المطلوب) ، وهنـاك جزء من غزل صوفى مماثل ، ملفوف حول عصـا طولهـا ٣ ديسيمترات (حوالى ١ قدم) تستخدم كمكوك ، وتصنع لحمة القماش بتمرير هذا المكوك باليد بالتبادل خيطا فوق خيط من تحت ، ويكون الصـانع فى هذه الحالة راقدا ، ثم يسحب المكوك ويمرر من جـديد حتى يبلغ الطرف الآخر من خيوط السداة ويضمون خيوط اللحمة الى بعضها بضربها بمشط له ١٠ الى ١٢ من الأسنان . وعندما يضم الخيط بأكمله يعود المكوك الى الجانب الآخر بنفس الوسيلة . وأعتقد أن الخيط الواحد لاينسج ولا يضم فى أقل من ١٠ دقائق أو ربع الساعة وتقوم النسوة بهذا العمل ، بينما يصـنع ازواجهن الفحم ويحملونه الى القاهرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بلطات صغيرة (قادوم) فهى ضعيفة وبالغة السوء لدرجة لا يمكن معها أن يستخدموها الا لقطع الأغصان ، وعندما سألتهم لماذا لايجلبون من القاهرة بلطات أحدث أجابونى : هكذا كان يصنع آباؤنا . وهؤلاء العرب لايولون أى اهتمام لما يضيع بددا من خشب ماداموا سيظلون يعثرون على الدوام على خشب يستعملونه فهم لايفكرون مطلقا ان كانوا سيظلون يجدون الكثير منه ولوقت أطول لو أنهم استخدموا وسائل أفضل « ربك يدبرها » ، وهم يصنعون الفحم بوضع الخشب بشكل أفقى وتغطيته بالتراب ، ويكتمونه دون أن يرطبوه . ويمكن أن يكون هذا الفحم بالغ الجودة لو أنه كان أكثر سمكا بقليل مما هو عليه . لكنه مع ذلك يكفى لأعمال المطبخ وكذلك فى العدد الأكبر من محلات الحدادة فى القاهرة .

ولكى لايبذل جهد لا جدوى منه . فان أحدا لا يصنع من الفحم الا الكمية التى تستطيع جماله أن تحملها . ويصنع العرب الفحم فى نفس المكان الذى أسقطت فيه الشجرة . **ويملؤون** منه حقائبهم ويتركون هذه الحقائب على الأرض أو يحملونها الى طريق القافلة لكى تأخذها عند مرورها .

التجـــارة

تشتمل تجارة عربان الطور على الفحم الذى يحملونه الى القاهرة، وعلى نقل البن والسلع الأخرى التى تصل الى السويس عن طريق البحر الأحمر .

ويباع الفحم بالقاهرة بسعر ٦ **بوطاقات** أو ١٨ فرنكا للحمولة الكبيرة اذا كان من فحم السنط (أو السيال) و بـ ٤ ١/٢ **بوطاقات** أو خمس **بوطاقات** اذا كان من خشب الطرفاء (الاثل أو المن) .

ولا يحمل العدد الأكبر من الجمال سوى نصف أو ثلثى الحمولة . مما يعطى ثمنا يبلغ ٩ ، ١٢ فرنكا .

وعن طريق بيع الفحم يدبر العرب عيشهم وعيش عائلاتهم وجمالهم لمدة ستة أسابيع تستغرقها الرحلة الى القاهرة ، وعن طريق هذا المبلغ المواضع أيضا يشترون البن والدقيق أو القمح والتبغ **والنارجيلات** التى

تمثل احتياجا كبيرا بالنسبة لهم ، كما يمكنهم أن يتزودوا بقطع الملابس ومعدات الجمال التى لايمكنهم صنعها .

وقد يصعب على المرء أن يتصور كيف يمكن بمقدور هؤلاء أن يعيشوا بمثل هذا الدخل الهزيل ، وقد يصعب عليه بدرجة اقل مما سبق أن يتصور أيضا كيف يمكن أن توجد بينهم بعض العائلات الميسورة ـ اى التى تمتلك جمالا كثيرة ـ اذا لم يكن لها مصدر آخر للثروة ، أو على الأقل ، اذا لم تكن تلجأ الى استخدام أكثر ادرارا للربح لهذه الحيوانات (٣٠) .

ويقوم العرب عادة بعمليات النقل من السويس الى القاهرة ويقوم التجار باخطار شيخ أو عدة شيوخ ، عند مرورهم بالطور ويتعاقدون معهم على نقل حمولتهم التى قد تتطلب من ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ جمل . ويذهب أولئك الذين تعاقدوا الى الجبل ليبرموا صفقات خاصة يحققون من ورائها بعض الأرباح ويدفع للحمولة (حمولة الجمل) الكاملة ٨ **بوطاقات** او ٢٥ بارة مع جزء من البن .

وبخلاف هذه المنافع ، كان عرب الطور يتولون أمر القوافل الذاهبة الى مكة والتى كانوا يمدونها بثمانين جملا تذهب من القاهرة الى العجرود ، وكانوا يتلقون من البكوات ٢٤ الف بارة أى ٨٠٠ فرنك وفردا من البن (قنطار يساوى ١٠٨ اقة) و١٢ أردبا من القمح وثلاثة أطقم ملابس .

الطعـــــام

يتمثل طعام العربان فى بعض البصل ، والروجة أو الفطير ، وهى نوع من الأقراص المصنوعة من الدقيق المعجون بالماء بدون خميرة أو ملح ، ويصنعونها مرتين كل يوم ، ويضيف اليها الميسورون الفول أو العدس المطبوخ بالبصل وقليل من الزيت ويكتفى الفقراء بأكل الروجة

---

(٣٠) تحدد الثروة بعدد الجمال ، واذا سألت ان كان عربى ما غنيا او فقيرا فانك تحصل على هذه الاجابة . ان لديه جملا ، أو ان لديه عدة جمال ، ومن يمتلك من بينهم اربعة جمال يعد أكثر ثراء بأربع مرات ممن لا يملك سوى جمل واحد .

ولا يذبح عربان الطور العنزات الا ايام الأعياد أو عندما يستضيفون اغرابا ، وعندئذ ياكلون الأرز والبلح ان كان قد تم جنيه .

وقد عوملنا على النحو التالى عند كل القبائل فيما عدا قبيلة مزينة : تبسط امام مدخل الخيمة قطعة من السجاد أو بعض جلود الماعز ،ويجلس الشيخ أولا ثم قدامى القوم وشيوخهم بترتيب السن ، ويشكل كل ابناء القبيلة دائرة كبيرة وتوضع النار فى الوسط ، وعندما يكون آخر من يصل ، كانت القبيلة بأكملها تنهض واقفة ويجلسوننا بجوار الشيخ ، ويصبون على يدنا الماء بعد ذلك لنغتسل . وكانوا يدفئون الماء عندما يكون الطقس باردا ، وتقدم القهوة ، ثم يحضرون أمام الأغراب وكبار السن طبقا كبيرا من الخشب مليئا بالبلح ، ويمرر هذا الطبق بالتوالى فى نقاط كثيرة من الدائرة الكبيرة حتى يستطيع كل امرىء أن يأخذ منه ، ويظل شيخ القبيلة واقفا بالقرب من الفاصل الذى يشكل عازلا للحريم اللاتى يمرر اليهن الطبق بعد انتهاء الطعام .

وتغسل الأيدى مرة أخرى ، ثم نسلم النسوة الى الشيخ قطعة قطعة من العنزة المسلوقة فى ماء بدون ملح فوق قطعة من الفطير ، ويسلم الشيخ هذه القطع بادئا بالأكبر سنا ، ثم الى الشبان والى الأطفال. وزيادة فى اكرامنا كانوا يرسلون الينا فى طبق من الخشب قطعا كثيرة من العنزة مع عدد مماثل من قطع الفطير .

ويعيد الشيخ بقايا الطعام التى ترد اليه ، بعد أن يأكل هو نفسه. ويظل هذا الرجل واقفا طيلة تناول الطعام ليكون على اتصال بالحريم ولكى يخدم المجموع .

ونغسل ايدينا للمرة الثالثة مع تمرير قطعة الصابون من يد لأخرى. وفى الفترات الفاصلة اثناء الاكل نتناول القهوة ، واخيرا يصل الأرز المطبوخ بالدقيق وقطع من الفطير وقليل من الزيت وبعض البصلات ،ويقدم هذا كله فى طبق كبير من الخشب يحمله شخصان فوق قطعة من السجاد او بالأحرى فوق جلباب . ويوضع الطبق امام أوائل الجمع . وياكلون هذا النوع من العجين شأنه شأن غيره بالأيدى ، ويمرر الطبق على التوالى حول الدائرة . ويحصل الأطفال الذين لم يستطيعوا أن يعثروا لأنفسهم على مكان فوقفوا الى الخلف جزءا من هذا الطعام فى أيديهم ، ويعود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبق امام الشيخ الذى يمرره بعد ذلك الى النسوة . ولا توجه الى اى واحد من هؤلاء الآكلين دعوة الى الطعام ، فكل جائع يأكل ، ويبتعد عن المائدة فور شعوره بالشبع. وفى اثناء الطعام يتحدث كبار القوم(شيوخهم) وحدهم ويتناقشون ، وهو أمر نادرا مايحدث من قبل الشبان، كما لايصدر مطلقا عن الأطفال ، وفى كل القبائل كان العرب يشعرون نحونا بالامتنان الشديد لأننا نعيش ونأكل على طريقتهم دون اى تمييز سوى أننا كنا نتصدر المكان فى مدخل الخيمة حيث كنا نجلس على جلد عنزة او فوق قطعة من القماش .

الرقص

لا يستسلم العربان فى ايام الأعياد لمرح يكون اكثر صخبا مما اعتادوا ، ويقوم الشبان وحدهم ، وفى يدهم سيف أو خنجر ، بعمل بعض حركات الجسم والأعضاء التى تقلد شكل معركة بطريقة منفرة وخشنة . ولا يشبه رقص النساء فى شىء رقص العوالم (عالمة) فى مصر . ولا يحدث هذا الرقص الا فى الليل .

يتجمع رجال كثيرون فى شكل نصف دائرة متماسكين باليد وهم يهتزون ؛ أو يغنون بعض العبارات التى تتفق مع المناسبة (٣١) والتى يصحبونها من وقت لآخر بتصفيق منغم بالأيدى .

وفى اثناء الغناء تقبل امرأتان كل واحدة منهما من احد طرفى الدائرة، ويبسطان الذراعين ؛ ويمران بالتبادل قدما امام الأخرى ، ويقومان ببعض الانحناءات للتحية والتبجيل ، وهما يهزان جسميهما حتى تبلغا وسط نصف الدائرة وعند كل انحناءة احترام ينحنى المنشدون ثم يغادران نصف الدائرة وهما يصنعان نفس الحركات ، وتمثل مكانهما اثنتان أخريان ، وعند انحناءة الاحترام الأخيرة بتحنين ، وهم يطلقون صيحة من الحنجرة ، هى تلك التى

---

(٣١) اليكم بعض هذه الجمل : شكرا لله وللرسول لأن رجالنا قد وصلوا ـــ كل القبيلة فى فرح منذ وصول مسالم مع صحبه ـــ مسالم يترك خيمه مفتوحة لكل الناس ـــ الذين طردوا المماليك كتبوا الى مسالم لكى يحظر ـــ نرجو الله ورسوله ان يظل الذين يحكمون مصر الآن ، فهيا الى الأبد ـــ كنا فى انتظار عودة مسالم لكى نحز راس الخروف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تستخدم فى اناخة الجمال ، وكان احد شـيوخنا ويسمى كريبزات داخل الدائرة فغنين له :

كريبزات يحسن تحميل جماله .

وقد أرسلنا الى الراقصـات بعض قطع من الـذهب وبعض البن فغنين لنـا :

قدم الينا الفرنسيون البن مع السكر فى فناجين جميلة .

العـــادات

عندما يموت شيخ يحل ابنه محله طالما كان هذا الابن شهما وطالمـا كان لبق الحديث وكانت خيمته مفتوحة امام كل الناس . وفى الحالة التى لايكون للشيخ المتوفى فيها ابن ، يعين أقرب أقربائه اليه أو الشخص الذى تتوفر فيه هذه الشروط ، ويجمع النـاس عليه ، ويعترف به دون أدنى اعتراض .

وتتشابه بعض وظائف الشيخ مع وظائف قاضى السلام Juge de Paix عندنا . وفى حالات المنازعات يأتى الناس لالتماس حكمه ، ونسلم اليه كل الأطراف المتنازعة وكذلك الشهود خناجرهم فيرشقها فى الأرض أمامه ، وعندما يتحدث اليهم يمسك بيده عدة خناجر يلوح بها . ويتحدث الجميع، أو عدد كبير منهم ، فى وقت واحد ، فيحـدثون بذلك ضجة كبيرة ، واذا لم يتفقوا فان الشيخ يصدر حكمه ، ويعيد اليهم أسلحتهم ، وتهدأ الضجة فى لحظة ثم ينسحبون .

اما الجرائم ، مثل القتل ، فيقتص لها بالدم ، أو تفتدى مقابل مبلغ كبير ، وتدفع دية الجرح بحسب حجمه ، ويقاس ذلك بحبات القمح .

واذا ما تشاجر رجل ميسور مع آخر فقير، ترجح كفة الرجل الفقير .

وحيث تختلط القطعان ، وحيث الخيام مفتوحـة ، فان العرب فى حاجة شديدة لكى يجعلوا من السرقة فيما بينهم أمرا يوحى بالذعر الشديد . ويقصون فى هذا الصدد ، وهم يمتدحون ، حكاية أب سرقت ابنته احدى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنزاته ، فقد تابع الأب المذنبة فى الجبال ، ووجدها تشوى قطعة من لحم العنزة ، فقيد قدميها ويديها وألقى بها فى النار .

وتعاقب بنفس العقوبة الزوجة الخائنة والبنت التى تفقد شرفها ، ويتم التنفيـــذ علنا ، اذ يقود الأب ومعـــه الـــكثيرون من الأهل المخطئـــة الى الجبل .

ولا ينفذ الأب اى شىء كتابة ، اذ ليس من بينهم احد يقرأ أو يكتب، ولديهم قوانين وقواعد انتقلت اليهم عن طريق التقاليد ويتعلمونها بالممارسة (أى من وقائع الحياة) .

وترغم البنت على الزواج من الزوج الذى يقدمه لها أهلوها . لكن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة للولد ، وعادة يفضل العرب أنيتزوجوا من نفس عائلتهم .

ويمكن للولد أن يتزوج من ابنة عمه أو خاله لـــكنه لايستطيع أن يتزوج أخت زوجته ولا أخت أبيه . ويدفع عند الزواج ١٠ **بوطاقات** على الأقل من ذات التسعين بارة (حوالى ٣٢ فرنكا) الى أهل البنت ولا يعطى شىء للبنت نفسها ، ولكن اذا طلق الزوج زوجته فانه يعطيها مائة قطعة من ذات الثلاثين بارة ، (حوالى ١٠٦ فرنك) أما اذا كانت هى التى طلبت الطلاق فانها لاتستطيع أن تطلب شيئا .

واذا مامات أب وترك ابنـــا وابنـــة ، يحصل الابن على ثلاثة أرباع القطيع ، أما اذا ترك ابنا وعدة بنات ، فيحصل الابن فى هذه الحالة على النصف فقط .

واذا ترك الزوج زوجة لا ابنـــاء لها ، يكون لأهله الآخرين فىميراثه نفس الحقوق التى كانت ستؤول الى ابنائه ، وتؤول الأسلحة التى كانت للاخ الأكبر (المتوفى) الى اخيه او ابن أخيه او ابن عمه .

واذا ترك هذا الزوج زوجة ثانية لا ابناء لها ، وله ابناء من الزوجة الأولى فان الزوجة الثانية هذه لاتستطيع أن تفرض كحق لها الا ما أعطاه الزوج لها بموجب وصية أوصى بها أمام شهود .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويتكفل باليتامى أحد الاقارب من الميسورين . ويتكفل كذلك بالقطعان التى سيقدم عنها الحساب عندما يكبر الأطفال .

واذا كان الأطفال بلا قطيع فان الله يرعاهم ، ومن لديه يعطيهم .
والامراض الشائعة عند العرب قليلة للغاية ، على الرغم من أن غالبيتهم ينامون عراة ، وقد لاحظت أن عددا كبيرا من بينهم يصابون بالسعال فى نهاية نوفمبر وان أطفالا كثيرين هناك يصابون بما يشبه السعال الديكى .

ويستخدم العرب الكى فى حالات كثيرة ، ويجلب بعضهم من القاهرة أدوية يبيعها لهم المشعوذون بسعر رخيص . وهم يشربون الماء المغلى فوق بعرات الحمير كعلاج لأوجاع الرأس .

عن شبه جزيرة سيناء

السكان

يبلغ تعداد عرب الطور حوالى ٩٠٠ الى ١٠٠٠ رجل يستطيعون حمل السلاح ويدخل فى هذا العدد سكان منطقة الطور ورجال الدين .

وللبعض من هؤلاء أكثر من زوجة تسكن كل واحدة منهن فى خيمة مستقلة . وثلثا عدد السكان على الأقل متزوجون ، وهم يسكنون الجبل على النحو التالى :

اسم القبيلة	عدد الرجال القادرين على حمل السلاح
العليقات	١٥٠
العوارمة	١٢٠
القرارشة	١٠٠
أولاد سعيد	١٣٠
مزينة	٢٥٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبالاضافة الى ذلك هناك خمس قبائل صغيرة اخرى أو عائلات تنتمى الى تلك القبائل ، وهى الرزيدات ، العتايمة ، الجريزات ، الدرامة ، الحمادى .

واخيرا ، يشكل الجبالية ، الذين كانوا فى الماضى يقومون بخدمة دير سانت كاترين الواقع بالقرب منهم ، خمس قبائل صغيرة لكل واحد منها شيخ . ويبدو أنهم كانوا مسيحيين فيما مضى وأنهم كانوا يدخلون الدير ، ولكنهم منذ اعتنقوا الاسلام أو منذ حل محلهم العربان ، لم يعودوا يترددون على الدير أو يقومون بخدمة رجال الدين بأفضل مما تفعل بقية القبائل . وهؤلاء الجبالية هم أكثر هذه القبائل بؤسا، وهذه هى أسماؤهم:

اسم القبيلة	عدد الرجال القادرين على حمل السلاح
السلايمة	٣٠
الحمايدة	٢٠
الوعيبات	١٥
أولاد جندى	٣٠
أولاد رزين	٤٠
المجموع	١٣٥

وعلى الرغم من أن الوقت والظروف لم تسمح لنا برسم خريطة ومسار الطريق فإننى دونت مذكرة دقيقة بكل نقاط هذا الطريق . وقد قست المسافات عن طريق الوقت الذى كنا ننفقه للذهاب من نقطة الى أخرى مع تقدير ميلين لكل ساعة للمسافة التى تقطعها الجمال محملة أو التى تسير فى قافلة دون أن يسرع بها قائدوها . وقد تبين لى انك لكى تذهب من القاهرة الى طرف شبه جزيرة سيناء مرورا من جهة البحر بالنقاط التى توجد بها المياه ، ولكى تعود من خلال الجبال فإن عليك أن تنفق مثلنا ٢٣٦ ساعة ، واننا نستطيع على هذا النحو أن نفترض أن هذا الطريق يبلغ ٤٧٢ ميلا أو ٢٣٦ فرسخا بالقياس الفرنسى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واليكم واقعة تؤيد هذا التقرير .

وجد العالم الفلكى المسيو نويه Nouet عن طريق عمليـــة حساب مثلثات أن السويس تبعد عن القاهرة بـــ ٢٨ فرسخا مقـــدارها ٢٢٨٢ قامة (القامة = ٢ ياردة) أى ٦٣ ميلا و٨٩٦ قامة . وقد قطعنا هـــذا الطريق مرتين مع نفس القافلة ، وانفقنا فى كل مرة ٤٢ ساعة (مع فارق بضع دقائق زيادة أو نقصانا) ، الأمر الذى يعطينا تبعا للتقدير السابق ٦٤ الف قامة أو ٣٢ فرسخا ، طول الفرسخ الفا قامة .

ومن هنـــا نرى أنه ليس هنـــاك ســـوى فارق بين النتيجتين يبلغ ١٠٤ قامة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطريق من القاهرة الى طرف شبه جزيرة سيناء عن طريق السويس مع اشارة الى الأماكن التى توجد بها ميـــاه

ترتيب أيام المشى	أسماء الأماكن والاستراحات	المسافة بالميل	نوع
الأول	من القاهرة، فى الصحراء	١٢	بدون ماء
الثانى	«	٢٠	شرحه
الثالث	إلى العجرود	٢٤	شرحه
الرابع	إلى بير السويس	٦	مياه ملحية
	إلى السويس	٤	بدون ماء
الخامس	إلى عيون موسى	٦	مياه كبريتية وجبسية
	العين	٥	بدون ماء
السادس	أبو صويرة	١٥	مياه جبسية
السابع	وادى الغرندل	٢٠	بدون ماء
الثامن	وادى الحوزية	٤	مياه جبسية
	وادى إتل	٢٤	« «
التاسع	وادى المغارة	٢٦	مياه جيدة
العاشر	الطور	٢	« «
الحادى والثانى عشر	فى الجبال	٣٢	بدون ماء
الثالث عشر	شرم (الشيخ)	٦	جيدة
	قبيلة مزينة	—	بدون ماء
الرابع عشر	وادى نصيب	٢٠	شرحه
	وادى المندار	٢	مياه جيدة
الخامس عشر	وادى الكيد	١٨	« «
السادس عشر	فى الجبال	١٤	بدون ماء

ترتيب أيام المشى	أسماء الاماكن والاستراحات	المسافة بالميل	نوع المياه
السابع عشر	إلى دير سانت كاترين	٦	مياه جيدة
الثامن والتاسع عشر	فى جبال سيناء وسانت	١٢	جيدة
	كاترين وسهل الإسرائيليين	٨	—
	والعودة إلى الدير		
العشرون	وادى الشيخ صالح	١٥	جيدة، تنضب فى الصيف
الحادى والعشرون	وادى فيران	٤	جيدة
الثانى والعشرون	فى واد ضيق	٦	بدون ماء
الثالث والعشرون	وادى الخيلة	١١	شرحه
الرابع والعشرون	وادى نصيب	١٠	جيدة
الخامس والعشرون	وادى عسل	١٦	بدون ماء
السادس والعشرون	الحوزية	٨	—
	خور فرق	١٠	كلسية
السابع والعشرون	وادى الحلزا	٦	بدون ماء
الثامن والعشرون	عيون موسى	٤	—
التاسع والعشرون والثلاثون والحادى والثلاثون	إلى القاهرة	٧٢	—
	مجموع المسافة	٤٧٩	

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراسة الخامسة :

رحلة الى بنى سويف والفيوم

ب.م. مارتاف

* العنوان الأصلى للدراسة هو :

وصـــف هيـــدروجرافى لولايتى بنى سويف والفيوم .

(والهيدروجرافيا هى علم وصف المياه أو طبوغرافيا البحار . أما الكوروجرافيا فهى علم وصف البلدان . المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تثير ولايتا الفيوم وبنى سويف ، الواقعتان فى ذلك الجزء من مصر ، الذى كان يشار اليه فيما مضى باسم هبتانوميد ، والذى يعرف اليوم باسم الوسطانى ، أو مصر الوسطى . اهتماما كبيرا من ناحية كوروجرافيتهما ، التى لاتزال حتى يومنا هذا موضوعا لجدل ، لم تلتق حوله الآراء ، بين اكبر وأشهر جغرافيينا . ذلك أن الأوصاف التى خلفها لنا الأقدمون لهذين الاقليمين ، تختلف أشد الاختلاف عن تلك التى يقدمها لنا . عنها ، الرحالة ، وأشهر النقاد المحدثين ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وحين نريد التوفيق . بين هذه الاختلافات ، نجد أنفسنا فى كثير من الأحيان . عرضه للوقوع فى أشد الأخطاء خطورة .

وعند وصولنا الى مصر ، كان لابد أن تهدف لجنة العلوم والفنون الى العمل على ازالة كل هذه الشكوك ، والى أن نؤكد فى النهاية ، وبطريقة لاتقبل الجدل ، ذلك الرأى الذى لابد لكل امرىء أن يتوصل اليه ، بخصوص عظمة وعبقرية قدماء المصريين ، كما توضحهما مؤلفات تحظى بدرجة عالية من الاحترام ، مثل مؤلفات هيرودوت وسترابون ، وديودور (الصقلى) ، وبطليموس .. الخ ، وهى مؤلفات يستحيل على المرء مطلقا أن ينحيها جانبا أو حتى أن ينظر اليها نظرة استخفاف ، ونتيجة لذلك ، لقد توجه عديد من أعضاء هذه اللجنة الى بنى سويف والفيوم ، فى كل مرة كانت تسنح فيها الفرصة لأى منهم للقيام بمثل هذه الجولات ، وقد أبدى الأستاذان : جومار Jomard ، وجيرار Girard حماسة لا تعرف الكلل فى أبحاثهما التى قدمت نتائجها الى مجمع القاهرة .

لقد أخذ أولهما على عاتقه أن يتأكد من حقيقة الأوصاف التى قدمها كل من هيرودوت ، وديودور ، وسترابون لبحيرة موريس ، وبرهن بشكل شديد الوضوح على أن هؤلاء المؤرخين ، يعنون فيما دونوه فى مؤلفاتهم ، تلك البحيرة التى تعرف اليوم باسم بركة قارون ، اذ هى البحيرة الوحيدة التى تنطبق عليها الأحوال التى أوردها كل من هؤلاء (١) .

---

(١) انظر دراسة حول بحيرة موريس ، تأليف جومار ، العصور القديمة ، دراسات المجلد السادس . وصف مصر (الطبعة الثانية) .

أما المسيو جيرار ، فقد اهتم بشكل خاص بوصف الفيوم بوضعها الحالى ، بينما هو يعالج أمور الزراعة والتجارة ، لكنه ، على الرغم من ذلك النفاذ المعروف عنه ، والمعارف العميقة والغزيرة التى تميز كل مؤلفاته ، قد ظل عند مناقشته لهذه الموضوعات بعيدا عن مناقشة الطبوغرافية القديمة لهذا الاقليم .

وفى الواقع ، فان الدراسة العميقة التى قام بها المسيو جومار قد ازالت كل لبس ، فقد أصبحنا الآن على ثقة من الموقع الصحيح لبحيرة موريس ، واللابرنت ، واقليم أرسينويه . لقد كنا نعرف ضعف الأسس التى تنهض عليها افتراضات دانفيل d' Anville وجيبير Gibert ، ولم يعد بمقدور أحد أن يرى بحيرة موريس لا فى تلك الحقول المزروعة على الدوام ، مثل حقول الباطن (أى الداخل) ، ولا فى هذا الفرع المتعرج للنيل والذى يحمل اسم بحر يوسف ، ذلك الذى يكفى بالكاد لملاحة بعض القوارب الخفيفة ، ومع ذلك فان المسيو جومار لم يكن قد استطاع حتى الآن أن يدحض دانفيل وجيبير ، الا ببراهين من شأنها أن تقدم بعض افتراضات ، تشى بعدم قدرتها على الاقناع ، اذ كان دانفيل قد أنشأ ، دعما لرأيه ، وبينما هو يعبر عن فكرته بخصوص حقول الباطن تبعا لما زعمه الأب سيكار P. sicard ، خريطة ترك الأمر فيها معلقا ، حين يطلق على هذه الحقول اسم بحيرة موريس تبعا لما يذكره هيرودوت وريودور ، ثم يعود فيطلق فى الوقت نفسه اسم بحيرة موريس على بركة قارون تبعا لما يورده سترابون وبطليموس . وللوصول الى يقين حول هذه النقطة ، كان من الضرورى عبور الجزء الشمالى من البركة ، وألا نظل نحدد اتجاهها واتساعها تبعا لأوصاف مبسطة الى هذا الحد ، وغير دقيقة ، ولقد كان لسوء الحظ ، مستحيلا على السيدين جومار وجيرار أن يقوما بهذا الاستطلاع . ففى الفترة التى عبرا فيها هذا الاقليم . لم تكن مصر ، غير الواثقة حتى ذلك الحين من مصيرها ، لتسمح للفرنسيين الدارسين أن يتجولوا فى ربوعها ، الا فى أعقاب فرق من الجيش ، أوكلت اليها مهمة تأكيد السلطة الجديدة . ولأنهما ، والحال كذلك ، لم يستطيعا أن يديرا حركتهما بالحرية اللازمة لعمليات تتنبع على هذا النحو ، فانهما لم يشغلا نفسيهما فى هذا الوقت ، الا بالجغرافيا الفلكية ، فى دراسة المنشآت وطبوغرافيتها . وفى النهاية ، فلقد أدى الانتصار الباهر ، فى معركة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هليوبوليس ، واستعادة القاهرة عام ١٨٠٠ ، الى اعادة الهـدوء الى مصر ، ويبدو أن السهولة التى امكن بها تحطيم جهود العثمانيين ، الذين ينظر اليهم فى هذه البلاد ، باعتبارهم الأعداء الوحيدين الذين يخشى بأسهم (بالنسبة لنا) ، قد جعلت المصريين يألفون فكرة أن ينظروا الى الفرنسيين منذ الآن ، باعتبارهم حكاما يستحيل ردهم على أعقابهم ، فتأقلموا منـذ ذلك الوقت معنا بتقاليدهم اللطيفة وطباعهم الودودة ، وكظموا أمانيهم ، وأزالوا العقبات التى كانت تعترض سبيل الفرنسيين ، وبدأ هؤلاء يجوبون أنحاء مصر ، وحدهم ، فى أمان .

وقد سارع أعضاء لجنة العلوم والفنون باقتنـاص هـذه الظروف المواتية ، فانتشروا فى الأماكن غير المأهولة وغير المعروفة كى يضـيفوا جديدا الى اكتشافاتهم ، ولكى يطابقوا نتائج أبحاثهم السابقة على الواقع ، عندئذ حدث أن قامت رحلات الى جبل سـيناء ، ووادى التيـه ، وبرج العرب ، وأقر مشروع لزيارة الواحات ، والذهاب الى الحبشة ، وأمكن باختصار أن نعمل بنجاح بالتفاصيل الكوروجرافية لمصر .

أما مهندسو الطرق والكبارى ، الذين أوكل اليهم بشكل خاص كل مايتصل بنظام الرى ، الذى ينهض عليه وجود مصر ، فقد شغلوا معظم أوقاتهم بدارسة نظام النيل ، وترع الملاحة ، والرى ، والتجفيف ، وكان من نصيبى ولايتا البهنسا والفيوم ، وتوجهت الى بنى سويف . قرب نهاية شهر ميسيدور من العام الثامن (منتصف يوليه ١٨٠٠) .

كنت أعى تماما كم ستكون مهمتى ضخمة وعسيرة بالنسبة لقدراتى ، لكننى تدفعنى ، أهمية نتائج هذا العمل ، قد افترضت أن الحماسة المتأججة والشجاعة ستعوضان عدم كفايتى ، واتخذت قرارى الحازم باجتياز هاتين الولايتين من كل أجزائهما ، وأن أنشىء لهما الخرائط التفصيلية على قدر استطاعتى ، وعزمت على وجه الخصوص أن أقوم بدورة حول بحـيرة موريس هـذه ، وهـو عمل لم يقم به حتى اليوم رحالة قديم ولا رحالة محدث ، وأن أصل بذلك الى فكرة محددة حول شكلها ، وامتـدادها ، وحقيقة الأغراض التى كانت تستخدم فيها فى العصور القديمة .

ويذكر التـاريخ باعجاب ، العصـور والرجال الذين نفذت بمقتضى أوامرهم ، تلك الأعمال التى ازدهرت بفضلها الزراعة فى مصر . ان ثراء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه البلاد لمدين لاسماء هؤلاء بالعرفان والمديح الواجبين . وكنت اقــول لنفسي : يا لها من ميزة ستتحقق لوطني ، فرنسا ، اذا ما اصبحت مصر، بعد تحقيق اعمال كهذى ، مستعمرة فرنسية ! واى مجــد يمكن أن يكون للفرنسيين اذا خصصوا أعمالهم لخير البشرية .

واقدم هنا تفاصيل أبحاثي ومجهوداتى كى أتوصل الى تحقيق الهدف الذى وضعته نصب عينى ، وسوف تستخدم هذه التفاصيل كنص لتفسير الخرائط التى رسمتها ، والتى تشكل جزءا من الأطلس الجغرافى (٢) .

وتنقسم هذه الدراسة الى قسمين :

فى القسم الأول ، قدمت وصفا لولاية بنى سويف ؛

وفى القسم التانى ، قدمت وصفا لولاية الفيوم .

---

(٢) انظر الخرائط أرقام ١٨و١٩و٢٠و٢١ فى الأطلس الجغرافى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الأول

ولاية بنى سويف

بدأت بعد بضعة أيام من وصولى الى بنى سويف ، حيث وجدت فى شخص الجنرال زيونشيك قائد الولاية ، صديقا متحمسا للعلوم ، سارع فوضع تحت تصرفى كل الوسائل اللازمة لتسهيل عملياتى — بدأت باقامة عدة مثلثات كبيرة ربطت فيها — تبعا لقواعد علم حساب المثلثات — قرى بنى سويف وبوش (*) بأعلى قمة لجبل المقطم ، الذى ينهض على الضفة الشرقية للنيل ، وكذلك بالهرم الذى يرى عند مدخل الفيوم ، وبعد ذلك وباستخدام الوسائل الطبوغرافية المعتادة عينت تفاصيل شمال الولاية ، وربطتها بهذه البنية المثلثية ، التى يمكن رؤيتها من كافة الجهات على وجه التقريب .

يجرى النيل ، كما يحدث فى كل بلاد الصعيد تقريبا ، عند سفح الجبل الغربى بطول ولاية بنى سويف ، وينقسم الشط الغربى من هذه الولاية ، من ناحية عرضه ، وهو الشط الوحيد القابل للزراعة ، الى قسمين متمايزين وذلك بخصوص الرى . والقسم الأول ، وهو يبدأ من عند حافة النيل ، أكثر ارتفاعا عن المياه العالية باتساع يبلغ حوالى الكيلومترين ، وترويه عدة ترع صغيرة، تختص كل ترعة منها بقرية واحدة، ويلجأ الناس الى الأذرع (الشواديف) ، والماكينات (السواقى) لرفع المياه حتى تغمر الأرض . أما القسم الثانى ، وهو الذى يمتد بعد ذلك الى سفح الجبال الصحراوية التى تفصل مصر (الوادى) عن الفيوم ،فهو يشكل ، تبعا لانحداره ، فى نمطين ، يصنع اتجاه كل منهما مع الآخر شكلا شبه عمودى ، أما النمط الأول فيتجه نحو الغرب أما الثانى فيتجه نحو الشمال وفق اتجاه مياه النهر . ولن آخذ على عاتقى مطلقا أن أفسر سبب هذا التباين فى ارتفاع هذين الجزئين من أرض الوادى ، فقدعولجت

(*) احدى قرى بنى سويف [المترجم] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه النقطة بما فيـــه الـــكفاية فى دراسة المسيو جيرار عن الزراعة فى مصر العليا (٣) .

وهذان الانحناءان محسوسان لدرجة أن المياه العاليـــة تظل تغمر الأرض بارتفاع يبلغ المترين ، ويبدو الريف فى هذه الفترة من الفيضان فى شكل بحر مترامى الأطراف ، ومثل هذا الموقع المواتى يغنى تماما عن الأعمال الميكانيكية فى الرى ، لكنه مع ذلك يتطلب أعمالا ضخمة للاحتفاظ بالمياه أثناء الوقت اللازم للزراعة ، لأن الانحدار الى الشمال ، ذلك الذى يسحب الميـــاه بنفس سرعة النهر أثناء تناقص الأخير ، يحول دون بقـــاء المياه فترة طويلة كافية فوق الأراضى .

ولعلاج هذه السوءة ، اقامت السلطات المحلية باتساع هذا الجزء من ارض مصر ، وعلى مسافات محددة ، جسورا تلامس الجبال ثم يظل ارتفاع هذه الجسور يتضاءل ليبلغ مرتبة الصفر عند الأراضى المرتفعـــة على ضفاف النيل ، وتسبب هذه الجسور انحسار الميـــاه حتى مستوى الأجزاء العليا ، وتظل على هذا النحو حتى تسمح لهـــا الأراضى ، وقـــد تشبعت بالمياه ، أن تنصرف بواسطة قطوع أعدت فى هذه الجسور .

وهذه الأعمال كما نرى ، ذات أهمية قصوى فى نظام الرى ، ولابد أن وجودها الذى بدأ مع بدء وجود الترع على مر العصور ، قـــد أثار اهتمام الحكام ، ونميز من بين هذه الجسور : الجسور الكبيرة ،والوسطى والصغيرة . أما الجسور الكبرى فقد بنيت باتساع الوادى كله ، ويوجد منها احد عشر جسرا فى كل ولاية بنى سويف ، أكبرها واكثرها اهميـــة هو ذلك الجسر الذى يحمل اسم الوكشيشى ، ويقع على بعد حوالى ٢ ميريامتر (٢٠٫٠٠٠م) شمال بنى سويف ، وهو يبـــدأ عند النيل ، الى الجنوب من قريتى الزاوية والمصـــلوب ثم يمضى الى شـــمال قريتى قمن العروس وابجيج ثم يمضى جنوب الصحراء مارا بالقرب من قريتى ابويط، وكوم أبو راضى ، أما السهل الذى بنى من أجله فينتهى عند قرى بهبشين، ودلاص ، والزيتون .. الخ ، ويشمل مساحة حوالى ١٠٫٠٠٠ هكتار ، تناثرت عليها ١٨ قرية .

---

(٣) Decade egyptienne ، المجلد ، ص ٣٠ ، ٣١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الجسور الكبرى الأخرى فهى جسور : بهبشين ، صـــفانية ، صفط ، راشين ، النويرة ، الشوبك ، اهوة ، تدهل أو الشـــنطور ، سمالوط ، منبال ، بردنوها .

أما الجسور المتوسطة ، والتى لاتخدم الا بعض الاراضى ، فيبدأ بعضها من ضفاف النيل ، ويبدأ بعضها الاخر من الجسور الكبرى نفسها ،وينتهى كلاهما بالالتحام بأحد المرتفعات التى بنيت القرى فوقها .

ومن جهة ثالثة واخيرة ، فان الجسور الصغرى جسور محليـــة ، تنشأ لصالح عدة قراريط أو أجزاء من القرية .

وقد اقتضى نفس وضع الانحدارات العرضية للوادى وجود نوعين من الترع .. الترع الكبرى ، وتحمل الميـــاه الى أعلى ، اى الى الجزء الواقع الى اقصى الغرب حتى سفح الجبل ، والصغرى ، التى تبدأ اما من النيل نفسه ، وأما تشكل فروعا من الترع الكبرى ، وتنتهى عنـــد سفح المرتفعات المتناثرة فوق رقعة الأرض العالية ، الشديدة الاقتراب من النهر .

وقد يظن البعض ، نتيجة لذلك ، أن الأراضى الواقعـــة بالقرب من الجبال يمكن على الدوام أن تروى بشكل طبيعى بواسطة الترع الكبرى . مهما يكن ارتفاع فيضان النهر ، حيث أن منسوبها أدنى من منسوب أقل الفيضانات علوا ؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو ، اذ لايكفى لكى تروى هذه الأراضى أن يبلغ الفيضان نفس مستوى ارتفاعها ، بل لابد أن يتجاوز الفيضان ارتفاع قاع الترع التى ينبغى أن تحمل المياه الى هـــذه الحقول الشاسعة . ولايمكن أن يتحقق هذا الشرط الا بالعناية المستمرة من جانب حاكم عاقل مستنير ،وتلك ميزة لم يعرفها المصريون منذ قرون طويلة؛ فهذه الأراضى الواقعة الى الغرب ، والتى حبتها الطبيعة الى هذا الحد ، والتى ينبغى أن تنهض عليها دوما آمال بقية مصر ، هى اكثر المناطق بؤسا ؛ فالميـــاه تنقصها كلية اثناء الفيضانات الضعيفة ، ولا تصل اليها الا بكميات ضئيلة اثنـــاء الفيضـــانات العالية اذ يتسبب ارتفـــاع قاع هـــذه الترع نتيجـــة للاهمال الطويل فى الحيلولة دون تدفق المياه الى هذه الأجزاء المنخفضة، ويحدث فقط عندما يتجاوز الفيضان ارتفاع قاع الترع ان تنزل المياه كشلال هادر ، لتغطى الأرض فى لمح البصر ، ولقد شاهدت هذه الأراضى جافة

فى ٢٤ ميسيدور من العام الثامن (١٢ أغسطس ١٨٠٠) ، وفى العاشر من فريكتيدور الذى يليه (٢٨ اغسطس) وجدت المياه تعلو بنحو مترين ونصف المتر ، الى ثلاثة امتار ، عند سفح الصحراء فى حين لم يبلغ الفيضان الفعلى فى ذلك الوقت الا مترا واحدا و٢٥ سم .

وقد أدى ارتفاع فيضان العام السابع (١٧٩٩) ، الذى لم يستطع أن يتجاوز ارتفاع قاع العدد الأكبر من هذه الترع ، الى ترك مايقرب من ثلاثة أرباع الأراضى دون زراعة ، مما جلب الشقاء والأسى لعدد لاحصر له من العائلات فى حين كان ارتفاع منسوب المياه ، مع ذلك ، أعلى بدرجة كبيرة من ارتفاع هذه الأراضى التى كان يمكن أنتنتشر فوقها الحياة والرخاء ، لو أنهما قد وجدا للوصول اليها سبيلا .

ينبغى اذن الا ننظر الى ترع الرى الكبرى فى مصر باعتبارها مجرد خزانات للمياه ، حفرت لنفسها بطول مجراها فروعا لها ، فهى وسائل أو قل « خراطيم » تجلب المياه الى المناطق النائية : وعلى هذا ، فياله من أمر بالغ الأهمية الا تسد هذه الطرق ، وان تستطيعالمياه أن تجتازها دون عوائق ما أن تبلغ واحدا من أطرافها ، وهكذا فالهدف الذى يجب العمل فى سبيل بلوغه عند اعداد الترع فى مصر ، هو أن تحرص على أن تكون أطراف هذه الترع عند النهر على أدنى درجة ممكنة من الارتفاع ، وأن يكون هذا الارتفاع على مستوى أقل المناطق الداخلية ارتفاعا ، وهذا على وجه التقريب هو ما توصل اليه بطليموس ابيفان وحرص على تنفيذه ، فى الأعمال الكثيرة التى قام بانجازها ، ومن أجل هذا بالتحديد ، سجل حجر رشيد ذو النقوش الثلاثة اسمه كواحد من أبرز الذين قدموا لمصر الكثير من الأعمال النافعة .

أما أولئك الحكام الهمج والجشعون الذين تعاقبوا على مصر منذ ذلك الوقت ، ونحن لانستثنى من ذلك الرومان ، فقد أهملوا هذا الفرع الهام منفروع الاقتصاد السياسى، وأى حظ ذلك الذى سيكون للفرنسيين، لو أمكنهم ، كما كانت لديهم النية، أن يضعوا فى سجلات التاريخ، ذكراهم الى جانب ذكرى ذلك الحاكم الخير ، الذى ذكرته للتو .

تقطع شمال ولاية بنى سويف عديد من الترع الصغيرة التى تتفرع عن النيل ، والتى لا نجد من بينها سوى ترعة واحدة كبيرة تسمى ترعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنى عدى ، باسم القرية التى تجرى هذه الترعة بالقرب منهـا ، ويبلغ اتساع هذه الترعة فى العادة ٢٥ مترا ، وقد لمست أن ارتفاع المياه بها، فى الحادى والعشرين من ترميدور من العام الثامن (٩ أغسطس ١٨٠٠)، وبعد اليوم الذى اجتزناها فيـه ، يبلغ المترين و٥٠ سم ، وتتبع هـذه الترعة من النيل مباشرة ، على بعد ١٥٠ ك.م من بنى سويف وتستطيع القوارب أن تعمل بها لمدة تقرب من ستين يوما ابتـداء من ١٥ أغسطس حتى ١٥ أكتوبر ، ويتفرع من جانبى هذه الترعة عديد من القنوات الصغيرة لرى أول جزء مرتفع من أرض الوادى ، وبالقرب من طنسا تنقسم الترعة الى فرعين : يمضى أولهما الى هذه القرية حيث توجد قنطرة من القرميد لها ثلاثة أقواس ، تشكل الحد الذى تنتهى عنده الملاحة ، وبعد ذلك تمضى المياه لتفترش الأراضى الواقعة عند سفح الجبل : أما القسم الثانى فيقوم ببعض الالتفافات ، ويمر بالقرب من قرى الحافر ، أبو صير ، انفسط ، أبويط ، قمن العروس ، وبعد أن يغطى بمياهه كل السهل الواقع بين جسر وكشيش فى الشمال ، وجسر بهبشين فى الجنوب، يذهب مايفيض من مياهه ، عن طريق قناة تقع بالقرب من قرية معصرة الخليل (*)، الى منخفض غير مزروع ، بين جبلين فاصلين وصحراويين ، تجرى منه المياه نحو بحر يوسف ، لتمضى بعـد ذلك ، حيث تصب فى الفيوم ، مارة تحت قنـاطر هوارة .

ويوجد بالجزء الجنوبى من الولاية ، عدد أقل من الترع المتفرعة عن النيل ، وذلك بالمقارنة مع العدد الموجود بالجزء الشمالى ، لـكن الجزء الجنوبى ، يحصل على حاجته من المياه بنفس السهولة التى يحصل عليها بها الجزء الشمالى ، حيث تشقه باتجاه عرضه عديد من الترع الـكبرى المتوازية مع مجرى النهر ، فتغطى حتى فى حالات الفيضانات الضـعيفة شرائح الأرض الواقعـة بينها . وأهم هذه الترع : ترعتان يشير اليهما الجغرافيون باسمى : بحر يوسف ، وبحر الباطن . وقد ضللتنا الأكاديميين

(*) يورد القاموس الجغرافي للاستاذ محمد رمزى أسماء عدة قرى فى هذه النواحى تحمل اسم معصرة ليس من بينها اسم معصرة الخليل . ولابد انه يقصد واحدة من هذه القرى . [المترجم]

دانفيل ، وجبير Gibert اللذين نظرا اليهمـــا باعتبارهمـــا نفس بحيرة موريس .

اما بحر يوسف ، الذى ترسمه على الدوام الخرائط الحديثة لمصر ، وهو ترعة تسير فى خطوط مستقيمة لمسافة تصل الى حوالى ٣٦ فرسخا، ابتـــداء من ملوى حتى دخوله الى الفيوم ، فليس سوى فرع قـــديم من فروع النيل ، متعرج بقدر مايتعرج النيل نفسه ، ويبلغ اتســـاعه اليوم حوالى المـــائة متر ، ويبلغ أقصى اتساع له فيما بين قريتى Hezè (*) ومنقطتين ، وقـــد قسته بنفسى ، ١٤٠ مترا . ويحاذى هـــذا الفرع من فروع النيل سفح الهضـــبة الليبيـــة (الغربية) كما يحاذى النيل نفسه سفح الهضبة العربيـــة (الشرقية) ، وينقل بحر يوسف مياه النيل الى الفيوم ، ومجراه على الدوام أدنى من مستوى السهل الذى يعـــد ، كما ذكرت من قبل ، أدنى من منسوب مياه النهر ، ومع ذلك فان بحر يوسف يتصل وقت الفيضان ، بالترع المتوازية معه ، فتغطى المياه الأراضى التى تقع بينه وبين النيل .

أما اسم الباطن ، الذى أطلق على سبيل الخطأ على احدى الترع، فليس على الاطلاق اسم علم ، ذلك أنه تسمية تطلق بشـــكل عام على معظم الترع التى تعبر الأراضىالداخلية باتجاه من الجنوب الى الشمال(٤) ويطلق اسم باطن كذلك على ذلك الجزء من الأراضى الواقعـــة بين النيل والهضبة الليبيـــة . وتشتق هذه الـــكلمة فى العربيـــة من بطن بمعنى وسط ، أو البطن نفسها ، وعلى هذا النحو أطلق العرب اسم بطن البقرة على قمة الدلتا التى ينفصل عندها فرعا دمياط ورشيد .

وهناك اسم آخر أكثر خصوصية ، على الرغم من أن عـــديدا من الترع تحمله ، هو : فيـــاض : ويميز هـــذا الاسم البواطن الـــكبرى عن البواطن الصغرى.وأكبر هذه الفياضات الباطنيـــة ، وهو الوحيد الذى

(*) لم أســـتطع التحقق من هذا الاسم فآثرت ان اورده بحروفه اللاتينية كما ورد بوصف مصر . [المترجم]

(٤) انظر دراسة عن بحيرة موريس ، تأليف جـــومار ، العصـــور القديمة ، دراسات ، المجلد السادس .

امكنه أن يضلل كلا من جرانجية Granger والأب سيكار ودانفيل ويوقعهم فى الخطأ ، لا يزيد طوله عن ستة فراسخ ، ويتفرع من النيل عند قرية الشيخ زياد ، على بعد حوالى ١٢ فرسخا الى الجنوب من بنى سويف، ثم يواصل بعد ذلك مجراه ، باتجاه الشمال الغربى ، ليمر على بعد فرسخ واحد الى الشمال من الفشن ، جنوب قرية بنى صالح ومن هناك يمضى لتفيض مياهه فى الأراضى حتى يحجزها جسر صفط راشين . وفى خلال الفيضان ، يتم اتصاله مع بحر يوسف ، الى الشمال قليلا من قرية مزورة ، ويبلغ اقصى عمق له ٣٦مترا ، وعندما قمت بعمل مجسات له فى العشرين من فريمير من العام التاسع (ديسمبر ١٨٠٠) لم يكن عمق مياهه لتبلغ اكثر من ١٥٠ سم وكان اتساعه يبلغ ٢٦٠ سم تحت مستوى سطح السهل .

والى الجنوب ، لأبعد من ذلك ، يوجد فياض باطنى آخر ، ينبع من النيل بين قريتى النزلة وقلوصنا ثم يمضى بالقرب من قرية مطاى حيث يتفرع الى قسمين ، يصبح احدهما ، وهو الواقع الى الشرق ، باطنا صغيرا ينتهى على بعد فرسخين من هناك ، فى أراضى أبو جرج ، أما الآخر ، الواقع الى الغرب فيتصل أثناء الفيضان ببحر يوسف عند قرية اهوة . لكن طوله لا يبلغ اكثر من ثلاثة فراسخ .

وهكذا فان رى أراضى ولاية بنى سويف ، يتم ، كما يتم فى كافة انحاء مصر العليا عن طريق كل من الرى الطبيعى ، والرى الصناعى، مع فارق واحد هو أن الرى الطبيعى يتم حتى سفح السلسلة الليبية فى الجزء الشمالى للولاية ، حيث يستمر الانحدار حتى هناك ، فى حين يشكل المقطع الطولى للوادى ، فى الجزء الجنوبى من هذه الولاية ، شكل منحدرين ، أولهما يبدأ من ضفاف النيل ، ويبدأ الثانى من شط الفرع المسمى بحر يوسف ، بحيث يشكل هذان الانحداران عند التقائهما داخل الأراضى منخفضا او ترعة صغيرة تحمل اسم البحر الباطن اى النهر الداخلى بسبب احتفاظها بالمياه وقتا اطول مما تحتفظ بها الاجزاء الأخرى، وبسبب هذا الوضع كذلك فان الرى الصناعى لا يتم فى الجزء الشمالى الا فى شريط الأرض القريب من النيل فى الوقت الذى يتم فيه فى جميع انحاء الجزء الجنوبى على شواطىء كل من النيل وبحر يوسف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والطرق التى تتبع فى هـــذا الرى الصناعى بسيطة للغــاية ، ولا تختلف الا حين يستوجب الأمر رفع الميـاه بعلو يتفــاوت قدره . وهذه الطرق ، هى على وجه التقريب نفس الوسائل المستخدمة فى كل أنحاء مصر ، والتى وصفها عديد من زملائى . لــكننى أجريت بنفسى تجــارب لا ارى بأسا من ان اورد هنـــا نتائجها .

ان ابسط كل هذه الوســائل ، هى تلك التى رسمت فى الصورة رقم ٤ من اللوحة ٦ ـــ الدولة الحديثة ، المجـلد الأول . وتمثل هـــذه الصورة رجلين ينكفئان فوق أكمة من الأرض يحملان ويؤرجحان ، بواسطة اربعة حبال ، سلة من اغصان الصفصاف ، مصنوعة على شكل قلنسوة كروية ومغطاة بالجلد . ويغترف هـــذان الرجلان المـــاء ، بواسطة هذه السلة « على الطائر » ويفرغانها بنفس السرعـــة على الأرض ، وتنتظم حركة تشغيل السلة ، وعب المـــاء وصبه بأغنية خاصـــة ، يمكن ان نجد نصها فى دراسة المسيو فيوتو Villoteau عن الحالة الراهنة لفن الموسيقى فى مصر (٥) ، وتكاد لاتستخدم هذه الطريقـــة فى مصر العليـــا لأنهـــا لا تفترض سوى فرق طفيف فى مستوى ارتفاع الأرض عن سطح المياه. ولهذا السبب فهى أكثر ملاءمة لمصر السفلى حيث تستخدم بكثرة ، وفضلا عن ذلك فاننـــا نرى انها هى نفس الطريقة المستحدثة فى أوربا تحت اسم baquetage التى تلجأ اليها الناس فى عملية نزح المياه .

اما الوسيلة الثانية ، والتى تتطلب فرقا اكبر فى مستوى ارتفـــاع الأرض عن سطح الماء ، فهى الشائعة فى كل انحاء مصر العليا : وهى عبارة عن اداة تسمى « دلو » ، رسمت فى الصور رقم ١ ، ٢ ، ٣ ـــ اللوحة السادسة ، الدولة الحديثة . المجلد الأول ، وهذه عبـــارة عن رافعة من الخشب ، طولها ثلاثة أمتار وتبعد نقطة ارتكازها بمسافة متر عن أحد طرفيها . وتعلو مستوى الأرض بـــ ١٢٠ سم ، ويتصل بالطرف الأطول قضيب متحرك طوله ٢٦٥ سم . تتعلق بطرفه ، كما فى الوسيلة الأولى ، سلة من أغصان الصفصـــاف مغطـــاة بالجلد ، وتتحرك حول محورها ، وفوق الطرف الآخر من الرافعة يثبت ثقل (المقاومة) من الطين

---

(٥) أنظر الدولة الحديثـــة ، الدراســـات ، المجـــلد الرابع عشر (الطبعة الثانية) .

الجاف الهدف منه تسهيل حركة صعود السلة . ويقوم الشخص المكلف بادارة هـذه الرافعة باغتراف الميـاه ، وصبـها على الأرض ، أو فى قنـاة تحملها الى الأراضى التى يراد ريها . ويبلغ قطر السلة ٤٠ سم، ويبلغ عمقها ٢٥ سم ، وترفع حوالى ١/١٠٠ من المتر المكعب من المياه . وقد تابعت عدة مرات ، حركة اتنين من هذه الدلاء : كانت المياه فى حالة الدلو الأول تبعد عن الأرض بنحو ٢٣٠ سم ، وكان العامل يرفع الدلو ٦٤ مرة كل ٦ دقائق : أما فى الحالة الثانيـة ، فـكانت الميـاه تبعـد عن سطح الأرض بـ ٢١٠ سم ، لـكن العـامل لم يكن يرفع الدلو الا ٥٠ مرة كل ٦ دقائق . ولا يستطيع العـامل أن يعمل لأكثر من ساعتين فى اليوم الواحد ، ثم يستبدل به آخر ، ليعمل لنفس المـدة ، وهكذا ، فاذا ما افترضنا وجود رجلين يعملان بشكل منتظم منـذ شروق الشمس حتى غروبها ، فانه يلزم لرى الفـدان الواحد أن يعملا لمـدة خمسـة أيام : وتبلغ مساحة الفدان ٥٧٢٤ مترا مربعا .

ويستخدم الدلو للرى بالنسبة للأراضى التى تزرع بالشـعير والذرة والحنطة وبقية البقول والحبوب الزيتية ، وان كان قد يصعب استخدامه فى زراعة الأرز وقصب السكر وحبوب صبغة النيـلة ، وغيرهـا من المحصولات التى تتطلب كميات كبيرة من المياه .

وتروى الأراضى التى تزرع بهذه المحاصيل بوسيلة ثالثة ، عبـارة عن دولاب ذى قواديس (الساقية) ورسمها مبين فى اللوحتين الرابعـة والخامسة ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، الفنون والحرف .

وفى هذه الآلة ، يعلق ثوران فى طرف رافعة يبلغ طولها ٢٩٠سم، تدار بواسطتها شجرة موضوعة بشكل رأسى ، تحمل بشكل افقى مدارا مسننا يبلغ طول نصف قطره ٨٠ سم ، ومزود بـ ٣٦ سـنة يبلغ طول الواحدة منها ٢٠ سم ، وتحمل تلك الشجرة التى تدور حول نفسها ، والتى يبلغ طولها ٢٧٠ سم ، فى طرفها الآخر ، دولابا آخر يبلغ طول نصـف قطره ١٢٠ سم ، تتحرك حوله ، بفعل دورانه سلسلة من الحبـال تحمل ١٨ قادوسـا من الطين (الفخـار) دائرية الشكل ، يبعد كل واحد عن الآخر بـ ٥٠ سم ، وهذه القواديس تحمل الميـاه الى أعلى الـدولاب

بارتفاع يبلغ ٣٢٠ سم فوق مستوى سطح النهر ، ثم تصبه فى حوض، تمضى منه الى الأراضى المراد ريها عن طريق مسقاة صغيرة .

ويبلغ محيط الطريق (المدار) الذى تدور فوقه التيران ١٨ مترا و٨٦ سم ، وتدور التيران ١٥٠ دورة فى الساعة الواحدة . وبشكل متواصل يعمل ثوران لمدة ثلاث ساعات ، وفى نهاية هذه المدة يستبدل بهما غيرهما ليعملا ثلاث ساعات أخرى ، وهكذا يعمل بالساقية أربعة ثيران ، يبلغ اجمالى المدة التى يعمل خلالها كل اثنين منهم ست ساعات فى اليوم الواحد ، أى أن الدولاب يعمل لمدة ١٢ ساعة يدور خلالها ١٨٠٠ دورة ، وحيث تبلغ الأسنان الخشبية للمدار الأفقى (القنفذ) ٥٦سنة، حيث تبلغ اسنان الدولاب الرأسى الصغير ٣٦ سنة فقط فان الدولاب الأخير يقوم بدورة كاملة و ٥/٩ الدورة كلما اكمل القنفذ الأفقى دورة واحدة ، وهكذا فان الدولاب الرأسى الصغير يكمل ٢٨٠٠ دورة فى مقابل ١٨٠٠ دورة التى يدورها القنفذ فى اليوم (١٢ساعة) . وحيث يبلغ قطر الدولاب الذى يحمل القواديس ٢٤٠ سم ويبلغ محيطه ٧٥٤ سم فى حين أن محيط الحزام الحامل للقواديس ٩أمتار فان عدد دورات الأخير يكون عكس محيطه . اى أن حبل القواديس يعمل ٨٣٧ ٧/٩ دورة كلما قام الدولاب بـ ١٠٠٠ دورة : وقد سبق أن رأينا أن الدولاب الرأسى الصغير . يقوم بـ ٢٨٠٠ دورة فى اليوم ولهذا فان الحزام الحامل للقواديس يتم ٢٣٤٦ دورة خلال نفس المدة . ويبلغ قطر القادوس حوالى ١٦ سم بعمق يبلغ ٢٦سم، وهكذا تبلغ سعته ١/٢٥٠ من المتر المكعب (أى ٥٠٠٠ سم٣) مما يبلغ بسعة الـ ١٨ قادوسا الى ٩/١٠٠ من المتر المكعب (أى ٩٠٫٠٠٠ سم٣) فى كل دورة ، أى ٢١١ مترا مكعبا و١٤ سم٣ من المياه خلال ١٢ ساعة من عمق يبلغ ٣٢٠ سم .

واذا اردنا أن نعقد مقارنة بين الدلو والدولاب ذى القواديس حسب التجارب التى انتهيت من ذكرها فسنرى اذا أخذنا الدلاء اساسا ، أن العامل الذى رفع بواسطة الدلو ٦٤ سلة مليئة بالمياه خلال ٦ دقائق على ارتفاع يبلغ ٢٣٠ سم لم يكن ليرفع سوى ٤٦ سلة على ارتفاع ٣٢٠ سم وخلال نفس المدة . وحيث أن سعة السلة تبلغ ١/١٠٠ من المتر المكعب (١٠٫٠٠٠ سم٣) ، فان بمقدور هذا العامل أن يرفع ٤ ٦٠/١٠٠ من الأمتار المكعبة فى الساعة الواحدة ، أى : ٥٥ م٣ و ٢٠ سم٣ من المياه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خلال ١٢ ساعة . وهكذا فان انتاج الدلو بالنسبة لانتاج الدولاب ذى القواديس بالأرقام ٥٥٢٠ الى ٢١١١٤ ، وعلى هذا النحو يمكن أن نضع أربعة دلاء فى مقابل دولاب واحد لكن السهولة القصوى فى استخدام الماكينة الأولى بالاضافة الى سهولة انشائها ونقلها والحصول عليها فى كل مكان ، تجعلنا نفضل استخدام الدلو ، الذى نراه منتشرا على ضفاف النيل وترع الرى ، فى كل أنحاء مصر .

وفى هذا الوصف الهيدروليكى الذى انتهيت من تقديمه لولاية بنى سويف ، لم نر شيئا على الاطلاق يمكننا منطقيا من أن نظن أن بحيرة موريس وملحقاتها تستطيع أن تجد لنفسها مكانا ، فى هذه الولاية ، والآن ، سندخل الى ولاية الفيوم ، وهناك سنرى كل الصعوبات قد اختفت دون جهد ودون عوائق ، وسوف نعرف فى النهاية ، أن التفاصيل التى قدمها القدماء ، تنطبق تمام الانطباق على هذه الولاية ، حتى أنها لتغرينا على الدوام ، وفى كل خطوة ، أن نطلق على الأماكن الحالية، نفس الأسماء القديمة ، التى وصلتنا عنها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الثانى

ولاية الفيــــوم

على الرغم من أن الأبحاث التى أخذت على عاتقى القيــام بها فى الفيوم ، كانت هى الهــدف الأساسى من وراء رحلتى الى هذه المناطق، فاننى لم أتمكن من النفاذ الى هنــاك الا فى الأيام الأولى من شهر نيفوز من العــام التاسع (نهاية ديسمبر ١٨٠٠) ، ذلك أننى وجــدت نفسى، بعد أن انشغلت فى بداية رحلتى برسم خريطة مساحة لبنى سويف التى كان على أن الحق بها خريطة لولاية الفيوم ، غير قادر على القيام بالذهاب الى هذه المنــاطق ، وبأية وسيلة ، بسبب فيضــان للنهر غير عادى ، اوقف كل أعمــالى لأكثر من ثلاثة شهور . كان فيض بحر يوسف قد أوقف بشكل تام ، الاتصــال بين بنى ســويف والفيوم ، وتتسبب عزلة الولاية الأخيرة فى كل كارثة كبيرة تصــيبها ، ذلك أن العرب الغرباء لا يترددون مطلقا فى اغتنام هذه الفرصة كى يأتوا لينتهبوا السكان . وقد حدث ذلك خلال الفترة التى تحدثت عنها ، وحين قام قائد بنى سويف بانفاذ قوات النجدة التى أرسلها الى المدينــة (*) ، فقد اختفى العربان ، الذين تلقوا تحذيرا بالأمر فى الوقت المنــاسب ، ومعهم أســلابهم ، قبل أن تصــل الفرق الفرنسية . وقــد يكون من الضرورى للغــاية ، كما ســبق أن أوضحت رأيى ، أن ينشأ طريق من بنى ســويف الى قريتى هوارة (**) واللاهون ، اللتين تقعان عند مدخل الفيوم .

وقــد رحلت أخيرا فى الثالث من نيفوز من العــام التاسع (٢٤

(*) يقول الأستاذ محمد رمزى فى قاموســة الجغرافى : « وذكر صاحب كتاب الفيوم وبلاده ، أن اسمها المدينة ، وهو اسم يطلق فى الفيوم على مدينة الفيوم تمييزا لها عن الاقليم المسمى باسمها » ، ومنــذ الآن سنشير اليها فى الترجمة العربية باسم مدينة الفيوم فى حين يعنى الفيوم الاقليم بأكمله . [المترجم] .

(**) هناك أكثر من قرية تحمل هذا الاسم ، ولعله يقصــد هوارة عدلان ، حيث يذكر القاموس الجغرافى للبلدان المصرية ، للاستاذ محمد رمزى عن هذه القرية انها « من القرى القديمة ، وكانت تسمى قــديما دموه اللاهون لأنها واقعة بجوار قناطر اللاهون » . [المترجم]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ديسمبر ١٨٠٠) مع رفيقى ، المسيو كاريستى Caristie ، وذهبنا لننام فى هوارة الكبيرة وهى قرية كبيرة تقع على الشط الأيسر لبحر يوسف عند الفتحة التى يأخذ منها هذا الفرع من النيل مياهه، وقبالتنا على الشط الأيمن ، رأينا قرية اللاهون الصغيرة ، ويتم الاتصال بين هاتين القريتين عن طريق قنطرة مبنية بالحجارة ، وتتكون من ثلاثة أقواس ، تبلغ فتحة كل منها ، فيما بين قوائمها التحتية المستقيمة ، ٢٨٠ سم ، ولا تهدف هذه القنطرة الى مجرد تحقيق الاتصال بين هاتين القريتين ، لأن كلا من هذه الأقواس الثلاثة ينتهى بقناة تستخدم فى تنظيم كمية المياه التى ينبغى أن تحصل عليها ولاية الفيوم . بحيث لا تسيل المياه اليها ، أثناء الفيضانات الضعيفة بوفرة أكثر مما ينبغى ، أما فى حالة الفيضانات العالية ، فتفتح أمام المياه فتحة أكثر اتساعا وتتخلص منها بذلك أرض مصر ، التى قد يصبح مكث المياه فوقها ، لمدة أطول من اللازم ، مجحفا وضارا .

وعند الحاجز الشرقى راينا أثرا لثلاثة أحجار منتزعة اكد لى المملوك كاشف سليمان ، الذى كان يرافقنا ، أنه قد راى عليها كتابات عربية تبين أن هذه القنطرة قد شيدها السلطان سليمان بن محمد ، فى القرن السادس الهجرى ، ومما تجدر ملاحظته أن هذه الفترة هى نفس فترة حكم الأسرة الفاطمية ، التى أصبحت مصر من جديد تحت سيطرتها، مملكة مستقلة (كذا !) ، وفى هذه الفترة كان السلاطين الحاكمون ، نتيجة لذلك ، يعملون لصالح مصر ، ولتحقيق منافعها الخاصة .

وفيما بين قنطرة وقرية اللاهون ثمة قنطرة تحتجز المياه التى تجلبها ترعة بنى عدى الكبرى ، والتى تمضى بعد سقوطها ، عن طريق قناة المعصرة ، فى ذلك المنخفض الواقع عند سفح جبل أبى صير ، لتروى بعض الأراضى حول ترعة اللاهون ، ثم تذهب بعد ذلك ، عن طريق بحر يوسف الى الترعة التى تصل إلى طامية .

وتشيع بين أهالى الفيوم فكرة متواترة عن الحالة القديمة لهذه الولاية ، أعتقد أن ليس خروجا على الموضوع أن نوردها ، وقد علمت هذه الفكرة عن طريق رجلين وجدت فيهما درجة عالية من الذكاء ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالنسبة لمواطنيهما ، احدهمـــا هو سيد أحمد الشيخ الأكبر لمدينة الفيوم، أما الآخر فهو المملوك الكاشف سليمان ، الذى سبق أن تحدثت عنـــه ، والذى كان يقطن الفيوم منذ مدة طويلة . وقـــد أكد لى هـــذان الرجلان: أن ولاية الفيوم تبعـــا للحكايات المـــأثورة ، والمتواترة من زمن الى آخر، لم تكن قبل عهد يوسف بن يعقوب ، الذى يعودون به الى عصر ضـــارب فى القـــدم ، سوى بحر واسع ، جاءت مياهـــه عن طريق النيل ، وان يوسف قـــد أمر ببنـــاء جسر فى اللاهون كى لا يتـــدفق المزيد من المياه الى هذا الخليج ، وان المياه التى بقيت قـــد انصرفت الى البحر ، ممـــا ادى لحدوث عمليـــة جفاف كبير للأراضى ، وعندما بلغ ارتفـــاع الميـــاه (فى هذا الخليج) الى مستوى السرير الذى تجرى فيـــه ، ظلت المياه الزائدة فى المناطق الواطئـــة ، وكونت بركة قارون وبركة الغرق اللتين أصبحتا مستودعين لمياه الاقليم ، وبدأ يقل ارتفاع مياههما بفعل البخر .

ان هذا الرأى ، الذى يبدو بشكل واضح ، فوق مستوى المصريين المحـــدثين لحد كبير ، لا يمكن أن يكون نتيجة لخيالهم ، لـــكنه يحمل ملحما من رواية مأثورة قديمة ، ولعلنا لو تفحصناه عن قرب لوجدنا فيه تفسيرا لهذا الاتساع الـــكبير للغاية والذى أعطاه الأقـــدمون لبحيرة موريس ، وكذلك على وجه الخصوص ، لتلك المنـــافع التى يقـــولون ان المصريين كانوا يحصلون عليها من هـــذه البحيرة ، حين كانوا يستخدمونها ، المرة بعد المرة بمثابة وعاء وحوض وخزان . وتتفق هذه الرواية مع ماشاهدته حول بحيرة قارون ، كما أنّ النتائج التى سوف أحصل عليها ، ســـوف تفضى كذلك الى نفس معطيات هذه الرواية ، وربما بمزيد من الدعم .

وعندما نجتاز الفتحة التى يتركها الجبل بين هوارة وبين اللاهـــون نرى سهلا واسعا يشكل ولاية الفيوم ، وليس لهـــذا السهل من مستوى واحد ، وانما هو يشكل تكوينين ينحدران على نحو خفيف ، يتجه احدهما الى الشمـــال ، ويتجه الثانى الى الجنوب ، وفوق الخط الفاصل بين هذين المنحدرين توجد ترعة تبـــدأ من قنطـــرة هوارة ، لتمر بعد ذلك بمدينـــة الفيوم ثم تعبر المـــدينة وتنقسم عند الطرف الغربى الى تسع قنـــوات صغيرة ، تمضين حاملات للميـــاه لأراضى القرى المختلفة ، وتحدد فتحة الميـــاه الخاصة بكل واحدة من هذه القنوات بواســـطة قنطرة روعى ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكون مستواها أعلى من مستوى سطح الأراضي التي تمر بها وأعلى كذلك من منسوب الأرض التي ستروبها .

وتسمى أول هذه القنوات ، أى تلك التى توجد الى أقصى الشرق، بحر نقاليفة ، وتمر بقريتى نقاليفة ، وسيلة .

أما الثانية فتحمل اسم بسنهور وتصل الى قرية تحمل هذا الاسم .

ويطلق على الثالثة اسم سينيرو وتتجه الى قرية فيديمين .

وتعبر الرابعة قرى العجميين ، أبشواى ، أبو جنشو ، أبو كساه .

وتسمى الخامسة ترعة تلات . وتذهب الى قرية تسمى بهذا الاسم .

وتمر السادسة بقرية السنباط .

وتحمل السابعة اسم بحر دسيا ، وتنقل المياه الى أراضى قرى : دسيا ، جردو ، طبهار ، المناشى (مناشى الخطيب حاليا) .

وتروى الثامنة أراضى : موتود ، وريد ، أبو دلشى (*) .

وأخيرا فان القناة التاسعة التى تبدأ من أحد أقواس قنطرة جامع الحاج حسن ، تروى أراضى قرية الزاوية .

ومن جهة ثانية ، فثمة ترع أخرى عند الطرف الشرقى للمدينة ، تحصل على مياهها ، شأنها فى ذلك شأن الترع التى انتهينا من ذكرها ، من القناطر والخزانات : وتتجه أولى هذه الترع — وهى تقع تقريبا من باب النويرة — الى قرية ترسا وذلك بعد أن تدور حول خرائب أرسنويه .

أما الترعة الثانية وهى تحمل اسم بحر سنورس فتمر بقرى : الكعابى ، بيهمو ، خنفشة ، أبويط ...

وتحمل الترعة الثالثة والأخيرة اسم بحر المعصرة وتروى قرى الزربى ، كفر فزارة ، منشأة الأمير ، سرسنا ، أنترتارس (**) .

(*) لم اتمكن من التحقق من صحة هذه الأسماء .

[المترجم] .

(**) لم أجد فى القاموس الجغرافى قرية بهذا الاسم ويحتمل أن تكون هى قرية مطرطارس . (**المترجم**)

وكما سبق لى أن ذكرت ، فمن الملاحظ أن الترعة التى تنقل المياه من هوارة الى مدينة الفيوم ، والتى تحمل طيلة هذه المسافة اسم بحر يوسف ، هى أكثر ارتفاعا عن أرض الولاية ، كما أن مجراها ذو قاع صخرى فى كل المناطق الجبلية التى تخترقها هذه الترعة .

ونجد على بعد حوالى ثمانية آلاف متر من جسر هوارة الكبير ، على الشاطىء الأيمن قرية هوارة الصغير ، التى شيد بالقرب منها ، وبكثير من الحذق جدار لتقوية الشاطىء ، يشكل خزانا صغيرا ويصنع فى الوقت نفسه مسقط مياه يبلغ حوالى سبعة أمتار .

وحين تعلو المياه فى بحر يوسف ، فوق هذا الخزان ، فانها تسقط فى رشاح واسع ، لتمضى من ثم الى طامية ، ومن هناك الى بركة قارون، بل ان هذا الخزان ، فيما يبدو ، لم يكن كافيا على الدوام لاستيعاب الزيادة الشديدة فى المياه ، حيث نرى أبعد من ذلك بثلاثة آلاف متر ، خزانا آخر يصب المياه كذلك من جديد داخل الرشاح الذى سبقت الاشارة اليه عن طريق قناة صغيرة تفضى بها الى هناك .

وتشكل تفاصيل هذا الشط الأيمن لبحر يوسف ، ابتداء من اللاهون حتى هذا الخزان الثانى أهمية قصوى ؛ فبالقرب من قرية اللاهون نقابل أول هرم ، قاعدته من الحجر الجيرى ، أما بقيته فمن القرميد ، ثم نرى أبعد من ذلك بثمانية آلاف متر هرما آخر من القرميد من نفس نوع الهرم الأول ، تمر عند سفحه قناة صغيرة تنبع من بحر يوسف قبل الخزان الأول الذى سبق أن تحدثت عنه . وتتجه هذه القناة الى طامية باتجاه مواز لاتجاه الرشاح الكبير ، الذى يظل جافا طول السنة تقريبا ، اذ هو لا يتلقى الا المياه الزائدة عن حاجة الولاية ، ويطلق عليه لهذا السبب اسم بحر بلا ماء (أو النهر الفارغ) .

وتغطى الأرض حول هذا الهرم الثانى أكوام من الأحجار الجيرية وأنقاض منشآت تدل بوضوح على المكان الذى كان ينهض فيه قصر اللابرنت الشهير ، الذى كان مقرا لاثنى عشر ملكا ، والذى يتفق معظم المؤرخين فى أن يضعوه الى الجنوب قليلا من بحيرة موريس ، غير بعيد عن كروكوديلوبوليس Crocodilopolis (أى مدينة التمساح) وفى الواقع ، فاننا ما نزال نرى هناك بقية من حجرة ، لكنها مطموسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تماما ، بالاضافة الى قطع من الأعمدة المصنوعة من الجرانيت الصـــوانى، مقطوعة على النحو الذى قطعت به أعمدة معابد مصر العليا ، على شكل حزمة من النباتات البصيلية لقباب مصرية ضخمة من الجرانيت كذلك ، ويؤكد بلين Pline أن اللابرنت هو الوحيد من بين كل آثار مصر العليا الذى وضعت فيـــه أعمـــدة شكلت على هـــذا النحو .

وقـــد انتقلت الى هـــذا المكان ، فى العاشر من نيفوز من العـــام التاسع (٣١ ديسمبر ١٨٠٠) ، وقد ربطت ببعض العمليات المثلثية هرم اللاهون بهذا الهرم الثانى ، الذى أسميته هرم اللابرنت ، وكذلك بمئذنة جامع الروبى الواقـــع الى أقصى الغرب من مدينة الفيوم ، وبهذه الطريقة، استنبطت خطى طول وعرض هذه المدينة — ولم يكن المسيو نوية Nouet قد دونهما ، وقـــد وجـــدت أن خط عرضها هو ٤٨ ، ٢٨ ، ٢٩° شمالا، فى حين انها تقع على خط طول ٩ ، ٤١ ، ٢٨° الى الشرق بالنســـبة لخط زوال باريس .

وقد تبين لى أن طول الخط الواصـــل بين الهرمين يبلغ ٨١١٦ مترا و ٠٫٠٠/٥٧ من الأمتار ، وانه يشـــكل مع خط الزوال المغنـــاطيسى زاوية مقدارها ١٠ً ، ٤٩° الى الغرب .

وقاعدة هرم اللابرنت مربعـــة الشكل ، ويبلغ طول كل ضـــلع من اضلاعها ١١٠ من الأمتار . ومع ذلك فمن الواضح ان كانت ثمة تكسية لجدرانه لم نستطع تقدير سمكها ، ويرى المرء قبيل زاويته الشرقية فتحة مبنية ، وهى واســعة مستديرة تنتهى الى ممر تحت الأرض ويتجه نحو الجزء السفلى من الهرم ، ولقد نزلت من هـــذه الفتحة كى اتوغل فى هذا الممر تحت الأرض ، لكن سرعان ما أوقفتنى هناك كومة من الانقاض يغص بها الممر . ويحتوى قاع هـــذه الفتحة على مياه تبينت انها شديدة الملوحة . ويجد المرء اذا ما نزل عنـــد نحو منتصف الرشاح ، تجاه هرم اللابرنت ، بقايا حائط كبير من الحجارة ، وقـــد استخلصت من ذلك أن هذا الحائط قد كان فيما مضى جسرا يحتجز الميـــاه التىكانت تتسرب من اعلى الخزانات التى كانت مقامة على الترعة الكبيرة .

وليست للشط الأيسر لبحر يوسف نفس الاهمية التى للشط الأيمن

وتشهد نتوءات الصخر المتناثرة عليــه ، والتى تشكل زوائد جبلية (أى مقدمات لظهور الجبل) بأن هذا الشط لم يكن عامرا من قبل قط ! وان كنا مع ذلك نجــد عليه اليوم قرية دمشقين التى ترتبط اراضى ومصالح أهاليها مع ذلك بأراضى ومصالح قرية هوارة الكبيرة حيث تتجاور هذه مع تلك . بل انك لا تستطيع المضى فوق هــذا الشط اذا كنت تبغى الوصول الى قريه الحصة التى تحدها بعد أن تجتاز الخزان الثانى بقليل ، والذى يقع بدوره على الشط الأيمن وقـــد سبق أن تحدثت عنه ، وبالقرب من قرية الحصة هـــذه ، الى الشرق منها والى الغرب يتم تخزين مياه بحـــر يوسف ، عن طريق ترعتين ، فوق منطقة تنحدر الى الجنوب وهكذا تروى القرى التى تنتشر بين بحر يوسف وبحيرة الغرق .

ويشكل سطح هــذه المنطقة فيما يبدو ، الى جانب انحداره نحــو الجنوب ، منحدرا هائلا نحو الغرب ليبلغ قمة بحيرة قارون . ويشق هذا المنحدر خور واسع يحمل اسم بحــر الوادى . وقــد شيد عليه ســد ضخم رائع يحــد من تدفق مياهه فوق هــذا المنحدر . ويختلف هــذا السد اختلافا بينا عن أمثاله من السدود التى تراها فى وادى مصر ، فهو مبنى من الأحجار والقرميد ، وتدعمه أكتاف سميكة متعددة ، وتمتاز بمتانة لا تهيئها عادة الا مراعاة قواعد فن البناء ويبتدىء هــذا الجسر عنــد قرية دفينو وينتهى عنــد قنــاة صغيرة تشكل حدود الأراضى المزروعة (فى هذه المناطق) ، ويبلغ طول هــذا الجسر حوالى ٨٥٠٠ متر .

ولا يستطيع المرء ان يكتم دهشته البالغة حين يرى عمـــلا بهـــذه الضخامة لخدمة مثل هــذه المنطقة الصغيرة من الأرض والتى تنحصر بين بحيرة الغرق وبين الجبال التى تفصل الفيوم عن مصر وبحر يوسف والسد، فى حين أن هنـــاك مناطق شاسعة للغاية من الأرض ، ولكنها مهملة فى وادى مصر كليـــة ، اذا ما صرفنا النظر عن بعض المصاريف الزهيدة التى تنفق على الجسور والترع التى تغذى أو تحمى هــذه الأراضى . وهنـــاك ما يدفعنى على الاعتقـــاد بأن المنشأة التى تحدثت عنها ، مثلها فى ذلك مثل قنطرة هوارة ، هى من عمـــل واحــد من ســـلاطين (الخلفـــاء) الفاطميين القدماء .

كان هدفى ان أجتاز كل منطقة البحر بلا ماء لكى ابلغ طامية وبركة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قارون وقـــد كنت أوشك أن ابدأ عمل مسح لها لكن الظروف التى صاحبت بعض التحركات العسكرية للفرقة المعسكرة فى الاقليم ، قد حرمتنى من الجنود الذين وضعوا تحت امرتى . وقـــد كنت شديد الحاجة اليهم لاتمام عملياتى . لذلك فقد اضطررت ، آسفا ، ان اعود ادراجى الى مدينـــة الفيوم — حيث اتخذت على الفور استعداداتى لبدء جولتى حـــول بركة قارون ، وهى الجولة التى كنت ارغب فى القيام بها منذ وقت طـــويل ، كما قـــد انتهزت بعض الفراغ الذى هيأه لى بطء الاستعدادات كى أزور موقع كركوديلوبوليس (أى مدينة التمساح) القديمة والتى تحول اسمها فى عهد البطالمـــة الى **أرسينويه** .

حين يخرج المرء من مدينة الفيوم عن طريق القنطرة الواقعة تجـــاه جامع الروبى ، فانه يجتاز ، بينما هو يتوجه الى الشمال ، فراغا كبيرا تتناثر فيـــه مقابر المسلمين ، ليجد بعدها باتجاه يمتد من الجنـــوب الى الشمال عديدا من المرتفعات التى تكونت من أنقاض من الأحجار الجيرية والطوب والفخار مبعثرة هنـــا وهنـــاك لمسافة تبلغ حوالى ٣ر٥٠٠ متر نحو الشمال ، و ٢ر٥٠٠ متر من الشرق الى الغـــرب . وقـــد عبرنا ، المسيو كاريستى Caristi وأنا ، وزرنا ونقبنا فى كل واحـــد من هـــذه المرتفعات كى نتعرف فيها على اثر لبعض المنشآت ، لكننا لم نجد سوى انقاض شائهة لم نستطع أن نتوصل منها الى نتيجة سوى أنها تنبىء بسبب اتساعها وضخامة حجمها عن موقع مدينة (قديمـــة) ، وحيث لا توجـــد انقاض اخرى بهذه الضخامة فى كل الاقليم ، فقد استنتجنا أن هذه المدينة هى كروكو ديلوبوليس التى سميت فيما بعد : أرسينويه .

وسرعان ما تأكدت لنـــا هـــذه الظنون ، فقد وجدنا بفضـــل بعض العمليات المثلثية (اى باستخدام مبادىء حساب المثلثات) التى قمنا بهـــا على هـــذه المرتفعات ان المسافة التى تفصل بينها وبين هـــرم اللابرنت تبلغ ٩٨/١٠٠ ٨٧٠٢ منها ١٢٥٠ مترا تمتد حتى منتصف الخرائب . ويقول سترابون بطريقة موضوعية ان المسافة فيما بين ارسينويه وهذا الهرم ، تبلغ ١٠٠ غلوة ، اما دانفيل فيرى ان من المحتم ان نطرح من اطوال هذه الأبعـــاد مقـــدار الثمن (فى مقابل التعرجات) لكى تتفق مع الخطوط المستقيمة ، وتبعا لحساب الأميال الرومانية ، التى يضع دانفيل كل أربعة منها مساوية لشونة مصرية واحـــدة ، وبذلك يبلغ طول الشونة المصرية

٣٠٢٤ قامة ، فان طول الغلوة يساوى ٥٠ قامة، و٦ بوصات أو ٩٨٣٦/٠٠١ مترا ، وبذا فان كل ٦٠ غلوة تساوى شونة واحدة . وهكذا فان المائة غلوة تساوى ٥٠٤٠ قامة ، وقدما واحدا ، وثماني بوصات ، أو ٩٨٢٦ مترا ، يحصم منها الثمن فيتبقى ٨٥٨٩ متر ، وهو ما يتفق لحد كبير مع المسافة التي توصلنا اليها باستخدام أساليب المساحة وحساب المثلثات .

سبق أن عرفنا فى مدينة الفيوم ، ان كانت توجد أطلال هامة الى الغرب من هذه المدينة ، وقد انتقلنا الى هناك ، لكننا لم نجد سوى منطقة يطلق عليها اسم العمود ، شاهدنا بها مسلة واحدة من الجرانيت على بعد حوالى ١٫٠٠٠ متر من قرية أبجيج وحوالى ٤٫٠٠٠ متر من مدينة الفيوم نفسها ، وقد أخذ المسيو كاريستى على عاتقه أن يقدم الرسوم وبعض التفاصيل الخاصة بهذه المسلة .

وما ان انتهت الاستعدادات لرحلتى حول بركة قارون حتى تمكنت من بدء طريق كى أتمم هذه الجولة الاستطلاعية . كنت قد استطلعت مبدئيا رأى كل من الشيخ احمد وسليمان كاشف حول هذه الرحلة ، وكنت اخبرتهما بأننى — وقد علمت المصاعب التى سوف الاقيها مع جنودى الفرنسيين ، وهى المصاعب التى يعانى منها أى انسان يقيم فى الصحراء لأيام كثيرة — قد عزمت على أن أصحب معى بعض العربان ، وقد سعيا كلاهما كى يثنيانى عن عزمى ، مؤكدين لى أن كل القبائل التى تجوب هذه البقاع تتحارب ، وأننى لا أستطيع أن أضع ثقتى فى أى منها دون أن اجازف بمخاطر كثيرة ، وقد اكد لى صحة ذلك شيخ العرب الذى تعهد بأن يصحبنى مع ثلاثين من اتباعه لو أننى اصطحبت معى عددا مماثلا من الجنود الفرنسيين ، هنا طلبت ثلاثين جنديا من الكولونيل ابلير Eppler قائد الولاية ، لكنه اجاب بأنه يرحب بأن يضع تحت امرتى أى عدد أطلبه من الجنود لاجتياز القرى والأراضى المزروعة ، لكنه لن يجازف ويعطينى جنديا واحدا لمثل تلك الرحلة التى عزمت على القيام بها .

لكن الرغبة المتأججة التى كانت تدفعنى للقيام بهذه الجولة الاستطلاعية ، جعلتنى احادث من جديد شيخ العربان ، وانضم الكولونيل ابلير لدحض الاعتراضات العديدة ، والتى تتولد بلا انقطاع ، والتى يقيمها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ردا على كل اقتراح لنـــا ، ومع ذلك فقد اقتنعناه فى النهاية بان يصحبنى، ومعه ثلاثون من أتباعه من راكبى الخيول .

كان هـــذا العربى ، واسمه على ، شنابا لنـــا يتجاوز الثلاثين من عمره ، وهو ابن صالح ، الشيخ الأكبر لقبيلة السمالو ، التى اتخـــذت لنفسها مقر اقامة ثابت ، فى قرية مبنية تقع على شط بحر الوادى .

ويطلق اسم السمالو على هـــذا التجمع العـــام للقبائل التى تحيط باقليم الفيوم ، وكان لصالح هـــذا ثلاثة أبناء وابن أخ واحـــد ، يتولى كل منهم زعامة قسم من اقسام القبيلة ، وكان أولهم ، وهو الشيخ على يقيم فى مدينة الفيوم ، أما الثانى ، جروبة فكان قريبا منه فى المنيا ٢ أما الثالث فهو عثمان ، ويسكن أبو جندير ، وبالقرب منه يقيم بعض أبناء له آخرين أنجبهم من امائة ، وكان هؤلاء زينة وبهجة شيخوخته، أما ابن أخيه ، على أبو بكر ، فكان يشغل النزلة ، وسوف اقدم فى نهاية هـــذه المذكرة جدولا مفصلا بكل القبـــائل الخاصـــة بولاية الفيوم وكذلك بقبائل بنى سويف .

والسمالو ، هم العربان الوحيدون الذين اتخذوا لأنفسهم مقر اقامة ثابت فى الفيوم ، وهم يقيمون هناك منذ زمان ضارب فى القدم كما أنهم قوم ذوو باس شديد لكنهم على الدوام فى حالة حرب مع القبائل الغربية التى تأتى لتشن غاراتها داخل الاقليم ، ونقصد هنا عرب الضعفا ، من بنى سويف ، والذين يدخـــلون عن طـــريق قرى طامية انفسط وابويط حيث يتخذونها مقر اقامة لهم ما ان تصل الى أراضيها مياه الفيضان ، كما ينطبق الحال على عرب الفرجان الذين يسكنون صحراوات الاسكندرية والبحيرة، أولئك الذين يتجمعون فى الفيوم بعـــد مجيئهم عن طريق قصر قارون كى يشنوا غاراتهم العديدة التى يسلبون خلالها قرى السمالو .

وهكذا ، لم نكن مخاوف الشيخ على لتنهض على غير أساس ، ومع ذلك فقد اعتقدت بأننـــا مادمنا قـــد هزمناهم مرة ، فاننا الآن بمنأى عن الأخطار ، ولم أعد أفكر الا فى مشروع رحلتى .

وضعت البرنس على ظهـــرى ، وغطيت راسى بطربوش يعممـــه شال ، هكذا رحلت ، فرنسيا وحيدا ، يحوطه ثلاثون بدويا تسلحوا بشكل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جيد ، وعرفوا ، كما أخبرونى ، كيف لا يمكنوا احدا من أن يلحق بهم العار أو الفزع ، وحيث اراد الشيخ — دون شك — أن يعطينى فكرة طيبة عن قبيلته ، فقد بدأ يظهر ضروبا من شجاعة فياضة لم أكن أعهدها فيه حتى هذه اللحظة ، وانتقلت هذه الشجاعة دون مشقة الى تابعيه .

غادرنا مدينة الفيوم فى السادس عشر من نيفوز من العام التاسع (٦ يناير ١٨٠١) فى منتصف النهار تماما ، وواصلنا طريقنا باتجاه الشمال بدقة بين عدة ترع ، وكانت تقع على شمالنا ترعة ، شاهدت على شاطئها خزانا مبنيا ، وسرعان ما مررنا بالقرب من قرية الأعلام التى كانت تقع يمينا ، ودخلنا فى دغل يغمره الضوء ، ويغص بأشجار النخيل ، ووصلنا بعد ذلك الى قرية الكعابى الجديدة ، وكان أقصر الطرق بالنسبة لنا أن نسير باتجاه شمال الشرق نحو المعصرة وطامية ، ولكنا عندما قيل انه يوجد بالقرب من هنا مبنى سبق أن تحدث عنه بوكوك Pococke ، يعرف باسم أقدام فرعون ، فقد واصلنا طريقنا الى الشمال مجتازين الترعة التى تمر بقرية الكعابى ، فوصلنا الى سهل رملى واسع تقع به قرية بيهمو ، حيث يعلو بالقرب منها أقدام فرعون المزعومة : وليست هذه الأقدام سوى كتلتين كبيرتين ، تتكونان من أحجار جيرية ضخمة ، ويبلغ طول كل منهما حوالى ستة أمتار بعرض يبلغ مترا واحدا وثلاثين سنتيمترا ، كما يبلغ ارتفاعهما نحو المتر وهما مثبتتان ، كلتاهما ، بدون أسمنت أو مونة من أى نوع ، وتبعد كل منهما عن الأخرى بحوالى ١٢٠ مترا ، كما أنهما محاطتان بكتل صغيرة شكلت بنفس الطريقة .

وقد شاهدنا بالمثل أحجارا ضخمة متناثرة ، مما يدل على أن هاتين الكتلتين كانتا فيما مضى أكثر ارتفاعا مما نراها عليه الآن ، اذ هى لاتبلغ الآن اكثر من عشرة ارهاصات (مدماكات) ، ويقدر ارتفاعهما معا بعشرة أمتار ، أما سطحهما الداخلى فمربع يبلغ طول ضلعه حوالى ثمانية أمتار . كنت قد لاحظت أن انحدار الأرض ، الذى بدأ منذ حوالى ٤٠٠ متر الى الجنوب ، قد بدأ يصبح محسوسا بشكل طفيف ، مما قد يحمل على الاعتقاد بأن البحيرة تمتد حتى تبلغ هذه النقطة ، وكانت مسيرتنا قد انتظمت منذ غادرنا مدينة الفيوم ، وكنا نقطع حوالى ٥٠٠ر٣٣ متر فى الساعة ، ومع هذا فلابد أن الساعة الآن قد بلغت الثانية الا الربع ، ومن هنا ، من خلال هذه الأطلال ، كنت ألمح وسط دغل كبير من أشجار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النخيل ، الى الشمال ، قرية سنورس ، التى وصلنا اليها فى الساعة الثالثة وكنا قد غادرنا أقدام فرعون فى الثانية تماما .

سنورس قرية كبيرة بعض الشىء ، وهى مبنية فوق مرتفع ، هو أعلى المرتفعات التى شهدتها فى مصر ، ويقدر ارتفاعه بحوالى ٥٠ مترا ، ويحتمل أن كان يشكل فيما مضى واحدة من جزر البحيرة التى يبدأ المرء يرى مياهها بمجرد بلوغه أعلى المرتفع ، ومن جهة أخرى فسنورس هى مستودع للأملاح التى تستخرج من البحيرة .

وقد نزلت عند الشيخ الحبشى الذى استقبلنى بمودة بالغة ، واشتريت من القرية الشعير والفول اللازمين للخيول فى الصحراوات ، ثم رحلت فى الساعة الخامسة متوجها نحو الشمال ، واستمرت مسيرتنا نهارا حتى السادسة والنصف بالرغم من أننا فى انقلاب الشتاء ، ووصلنا الى رشاح صغير يسمى البطش ، يجرى من الشرق الى الغرب ، وينقل المياه من طامية حتى بركة قارون ، وتصل المياه الى طامية عن طريق ترعة قادمة من الروضة عن طريق ترعة تمر عند سطح هرم اللابرنت ، وعن طريق رشوحات البحر بلا ماء .

وكان بالامكان عند النقطة التى وصلنا اليها ، أن نعبر الرشاح فاتساعه هنا يبلغ حوالى ثمانية أمتار فى حين لا يزيد عمقه عن ٣٢سم ، بعد أن كنت قد لاحظت انه كان محفورا على شكل ترعة بعمق يبلغ حوالى عشرة أمتار ، وباتساع يبلغ ثمانين مترا . كنا لانزال على بعد يبلغ مسافة فرسخين الى الغرب من طامية وكانت المياه لما تزل بالغة الجودة ، مما يدل على أنها لم تتأثر مطلقا من قربها من البحيرة . وهناك تزودنا بما نحتاج من المئونة والمياه ، وملأنا قربنا بكمية تكفى فترة جولتنا بالصحراء .

اخبرنى الشيخ على أن هذه النقطة هى تلك التى تمر بها القوافل التى تمضى مباشرة من الجيزة الى سنورس . بل أن الفيضان نفسه لا يتسبب فى توقف مسيرة القوافل التى تمضى عندئذ صاعدة الى سيلة .

لاحظت أن الانحدار نحو البحيرة ، ابتداء من سنورس ، كان لايزال محسوسا حتى بيهمو ، وان سطح الأرض يتبع انحدارا آخر من

الشرق نحو الغرب ، وهذان الانحداران واضحان تماما ، حتى اننى لم أعد أرى ذروة رشاح البطش فى الجنوب الا كشريط عام يلتقى بشكل حاد مع الأفق .

كان الظلام تاما حين انتهينا من ملء قربنا ، فمن المعروف أن مدة الغسق فى هذا المناخ أقل بكثير من المدة التى يمكثها الغسق فى أوربا، لذا فقد عزمنا على أن نمضى ليلتنا فى هذا المكان ، وذهبنا لكى نقيم خيامنا على قمة الشط الشمالى ، على مسافة تبلغ مسيرة نصف ساعة الى الغرب من النقطة التى عبرنا عندها رشاح البطش .

منذ رحيلنا من مدينة الفيوم ، حذا رفاقى فى السفر فى سلوكهم نحوى حذو الشيخ على فى سلوكه ازائى . وكان هذا الرجل لا يفارقنى أبدا . وعلى الرغم من الصعوبة التى كنت أستشعرها فى التعبير عن نفسى وأفكارى بلغته ، فانه لم يكن يحادث سواى . كان يقص على بقصد تسليتى وارضائى دون ريب ، حكايات كنت أجد ـ وهذا اعتراف منى ـ مشقة كبيرة فى تتبع تسلسلها ، وان كانت تشتت انتباهى لدرجة أكبر مما كنت أود ، اذ كنت غارقا تماما فى ملاحظاتى ، وفى بعض الأحيان كنت الحظ عن بعد ، بينما هو يقص حكايته ، أمرا يستنفر فضولى فكنت أجرى اليه ، ومع ذلك فقد كان حصانه يتعقب على الفور ، وبأقصى سرعة آثار حصانى ، وكذلك فقد كان العربان ، كى يدخلوا البهجة على نفسى يتصنعون فيما بينهم معارك ومبارزات ، وذلك بأن يجروا على التوالى ، فريقا فى اثر فريق ، ثم يأتى أحد الفريقين القريب منى لينشدنى أغنيات البطولة الخاصة بقبيلته . وكان مظهر السرور الذى أبديه ، هو بمثابة مكافأة اقدمها لهم ، فيعاودون من جديد العابهم التى لم تقلل برغم ذلك من جدية وانتظام مسيرتنا .

ما ان أعطيت اشارة التوقف لاقامة معسكر المبيت حتى نصبت خيمتى وكنت قد أحضرت مرتبتين صغيرتين : احداهما للشيخ على والأخرى لى ، لكننى لم أنجح مطلقا فى أن احمله على تقبل المرتبة التى خصصتها له ، بل لقد استطعت بعناء شديد أن أقنعه على أن ينام داخل خيمتى ، حيث اكتفى بحصيرة بسطها فوق الرمال . وخلال بضع دقائق أعددت القهوة ، وقدمت ، وبدأت استعدادات العشاء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبانتظار ذلك ، ابديت رغبتى فى أن ارى كل رفاقى ، فأتوا يقبلون يدى، وينحنون مصطفين حول فراشى . وشـــاء أحدهم ، وهو الذى قدمه الى الشيخ على بوصـــفه منشدا ، أن يعطينى فـــكرة عن امجـــاد وســـمو قبيلته ، فقص واحدة من هذه القصص التى تحكى أعظم انجازات السمالو والتى يتـــداولونها استلهاما للشجاعة ، كان المستمعون فى كل لحظـــة يطلقون « يا الله » دليلا على الاعجاب ولارضـــاء المنشد ، وعلى الرغم من أننى لم أكن أدرك معنى سوى القليل مما كان يقـــول ، فاننى لم أكن الأخير فى اظهار سرورى . كانوا جميعا مسرورين . وفى النهاية أحضر الدجاج والبيـــلاف (طعـــام شرقى من أرز ولحم وتوابل) أكلنا بنهم . وبعد الطعام صرف الشيخ على كل رجاله وأوقد شعلتين حول خيمتى كى يبعد الضـــباع — حسبما يقول — وهى التى تتجول هنـــا وتكثر فى هذه المنـــاطق ، وتـــدثر كل من الباقين فى برنسه وقضى الليل على مقربة من حصـــانه .

فى الســابع عشر من نيفوز (٧ ينـــاير) أزلنا خيـــامنا فى الساعة السادسة والدقيقة الأربعين من الصباح ، وكان الاتجاه الرئيسى لطريقنا يتجه من الشرق الى الغرب ، لكننا انعطفنا لحظة الى اليمين نحو الجبل العـــالى ، تاركين البحيرة عن يسارنا ، على بعد حوالى فرسخ ، وارتفع الانحـــدار بهـــدوء وبشكل غير محسوس ليختفى بعد ذلك فى واد واسع ينبسط نحو الشمال ، أخبرنى الشيخ على انه هو الطريق المؤدى من مدينة الفيوم الى الجيزة ، والى الاسكندرية عن طريق البحر بلا ماء الذى يمـــر بالقرب من بحيرات النطرون ويتفق مايقول الشيخ على هنـــا ، مع رأى الجنرال أندريوسى (١) وسوف نرى فيما بعد النتائج التى استنتجتها حول طريقة استغلال البحيرة فيما مضى .

كان العربان شديدى اليقظة ، يجدون فى التعرف فى الرمال التى تغطى هذه الصحراء ، على ما ان كان قـــد مر من هنـــا منذ مدة قريبـــة عربان آخرون وبعد مسيرة نحو الساعة تعرفوا خلال الـــكثبان على آثار

---

(١) أنظر ملاحظات حول بحيرة موريس المدونة فى الاخطار الخامس بالثالث عشر من بروميير من العام التاسع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عربان الضعفا الذين سبق للسمالو أن طردوهم من الفيوم قبل ذلك بنحو عشرين يوما كما قيل لي .

وقد وجدنا بين البحيرة والجبل كمية كبيرة من الأشجار التي جفت وهي بعد واقفة ، وهي تشبه منسغة (*) صغيرة جافة ، ويبدو أن أحدا لا يفيد من هذه الغابة الصغيرة في شيء في حين أن من المستطاع أن تكون ذات نفع كبير لمدينة الفيوم .

وصلنا في العاشرة الا الربع الى ضفاف البحيرة وهناك شاهدنا أكمتين كبيرتين تنعزل احداهما عن الأخرى ، ويبلغ ارتفاع كل منهما ٥٠ مترا، ويصل قطر أولاهما وهي مستديرة مائتي متر أما الأخرى فقاعدتها ذات أركان أربعة ، ويبلغ طولها ٥٠٠ متر بعرض يبلغ ثمانين مترا .وهذه الأخيرة هي الأدنى الى البحيرة ، وتغطى كليهما أحجار شديدة الصلابة من الحجر الجيري مقطوعة بشكل خشن ، وقد رأينا هناك كذلك بعض انقاض من القرميد ، لكننا لم نلمح عليها لا نحتا ولا آثارا لمنشآت ، كانت الكتلتان نصف مطموستين في الرمال ، وتقع احداهما بالنسبة للأخرى في خط يسير من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي بطول يبلغ حوالي الألف متر . في هذه المنطقة يبتعد الجبل عن البحيرة بحوالي ثلاثة فراسخ على الأقل ، لكنه يميل بعد ذلك الى الاقتراب منها وتتناثر في كل هذا الفراغ أكوام صغيرة من الأحجار الحمراء تتكون من نوع من الحجر الطباشيري يشبه الى حد ما ، مانطلق عليه نحن الحجر الدموي أو الطباشير الأحمر Sanguine وقد نزل العربان جميعا من فوق خيولهم وأكبوا على جمع هذه الأحجار بهمة شديدة ، وأخبروني بأن الناس يشترون منهم هذه الأحجار لاستخدامها في صباغة المنسوجات ولطلاء الأخشاب .

ترجلت عند شاطيء البحيرة التي بدت لي مياهها الرائقة للغاية وكأنها تميل الى الملوحة ، وان كانت هي غير ملحية ، فسقينا منها جميعا خيولنا وتناولنا هناك وجبة خفيفة ، وقد أكد لي العربان أن البحيرة

(*) المنسغة : أحراش نبتت أشجارها الصغيرة على أرومات أشجار قديمة مقطوعة .

تحتوى على أســماك بالغــة الجمال ولذيذة الطعم وان كان سكان الفيوم لا يصيدونها على الاطلاق ، وان صيادين من وادى النيل هم الذين يأتون الى هنــاك لهذا الغرض ابتداء من نهاية مارس وحتى ابتــداء فيضــان النيل . وتزدحم البحيرة كذلك بالطيور المائية . وكان عرض البحيرة عند النقطة التى نزلنا عندها يبلغ — فيما يبدو لى — حوالى الفرسخ .

وحين اجتزنا الهضبتين لاحظت أن الأرض ترتفع بطريقــة شــبه فجائية ، وان كان فى شكل مرتقى غير وعر ، ثم يصل المرء بعد ذلك الى هضبة واسعة صــخرية السطح ، عارية من الخضرة ، تمضى لتتصــل بالجبل الذى يبعد عن النقطة التى نحن عليها بحوالى الفرسخ جهة اليمين، كما يتوغل سطح الهضبة حتى ضفاف البحيرة على بعــد ١٠٠ متر جهة الشمال ، وقــد رأينــا فى الفراغ الذى يفصل صخرتى الهضبة طبقات من أرض قابلة للزراعة تغطيها طبقة خفيفة من الرمال ، كما رأينا هناك أيضا بعض آثار لملاحات قديمة .

وقد وجدت فوق هذه الهضــبة التى وصلت اليها بعد الظهر بعشر دقائق ، أطلال مدينة ، أو ربما أطلال قصر واســع أخبرنى العربان انه يسمى قصر « طفشارة » أو مدينة النمرود ، كما رأيت هنــاك حائطــا سميكا بالغ الارتفاع ، تعرفنــا فيــه على عدة مبــان مختلفة ، تشــهد حالها على قدمها ، وقد كنت اود لو استطعت ان أرسم الأسطح التفصيلية لهــذه الخرائب ، لــكن لم تتيسر لى لا المساعدات اللازمة ولا الوسائل، ولا الوقت اللازم . لذلك فقد اكتفيت برسم كروكى لها يشــير اليها على خريطتى . وكانت الجــدران مبنيــة بنوع من القرميد طوله ٢٠ ســم وعرضه ١٠ سم وسمكه ٧ سم ، مصنوع من الجير الأبيض المخلوط بالقش المهروس مع قليل من الصلصال ثم جفف بعــد عجنه بتعريضه لأشــعة الشمس . وهــذا الخليط هش للغــاية ، ويتحول بسهولة بالغــة بين الأصــابع الى تراب .

وتمتد هذه الخرائب حتى شاطىء البحيرة ، بعرض يبلغ مائتى متر، وبطول يصل الى نحو ستمائة متر ، ويتجه من الشــمال الى الجنوب ، وقــد شاهدنا هنــاك كميــة من القرميد المحروق والفخــاريات وأوانى المومياء .. الخ . وحين تبين لى عجزى التــام عن انشاء خريطة لهــذا

المكان بسبب نقص الامكانيات ، أبديت للعربان رغبتى فى أن أقوم بعمل بعض الحفائر ، فبدأوا جميعا البحث ، واحضر لى واحد منهم نصلا مستقيما ذا حدين صنع مقبضه من القرون ، ويبلغ طوله ٩٠ سم وعرضه ٥٠ سم ، ويحمل فى أعلاه ، أسفل القبضة نقشا عربيا محفورا ، كما انه مطعم بسلك من الفضة ، وقد حملته الى فرنسا ، وان كان سرق منى فى مارسيليا ، فى نفس اللحظة التى كنت أتهيأ فيها للرحيل الى باريس .

نزلت من المرتفع الصغير الذى توجد هذه الأطلال فوقه ، وواصلت طريقى قريبا لحد كاف بين شواطىء البحيرة باتجاه غرب الجنوب الغربى . وظلت التربة هى نفس تلك الهضبة الصخرية التى وجدتها قبل قصر النمرود . وكان الجبل الواقع عن يمينى على بعد فرسخ صغير من البحيرة يواصل ميله على الدوام نحو الاقتراب منها ، وعند حوالى الثالثة كان طريقنا ، المتوازى على وجه التقريب مع الاتجاه الرئيسى للبحيرة ، يمضى بشكل ثابت نحو الجنوب الغربى ، وفى تلك اللحظة نزلنا فى منخفض ظننته فى البداية خليجا قديما ، لكننى رأيته بعد ذلك يتوغل نحو الجبل مواصلا اتجاهه نحو الغرب . وعند مدخل هذا المنخفض، على شاطىء البحيرة ، لمحت مرتفعا صغيرا على هيئة هرم فذهبت الى هناك على الفور وسرعان ماتبينت أنه ليس سوى صخرة تغطيها اتربة تختلط بالرمال وتنمو عليها نباتات كثيفة .. وفى مواجهتها رأيت جزيرة منخفضة السطح وسط البحيرة .

فى كل هذا المنخفض تتناثر عدد كبير من الأكمات على شكل قمم، تغطيها فى معظمها ارض قابلة للزراعة ، وبقايا أحجار جيرية شبيهة بتلك التى سبق أن رأيتها فى الصباح . وهكذا ، فاذا أخذنا بالافتراض المرجح القائل بأن البحيرة كانت تمتد حتى الجبل — وهو افتراض تدعمه الطبقات التى نراها ، والأكمات التى تحدثت منها ، والتى تآكلت بشكل أفقى بفعل المياه ، وكذا القواقع التى كانت لاتزال على نفس حالها حين جمعتها من تحت قدمى — فان هناك مايدعو الى الظن بأن كل هذه الأكمات قد كانت بالمثل جزرا ماهولة ، اما الهرمان اللذان تحدث عنهما هيرودوت ، فلابد أنهما كانا يقفان فوق واحدة من هذه الجزر العديدة ، وان كان قد

يصعب علينا أن نعرف فوق أى واحدة من هذه الجزر كان ينهض هذان الهرمان اذا ما استثنينا الجزيرتين الأوليين اللتين تقعان عند منتصف البحيرة طولا وعرضا ، على افتراض أنها كانت تبدأ عند طامية وتمتد من بيهمو حتى الهضبة الليبية ، ذلك أننا اذا استبعدنا هذا الموقع الأوسط الذى يبدو هيرودوت وهو يشير اليه كما لو كان يستند الى شىء ثابت، فسوف نجد عددا كبيرا من الجزر يصلح اى منها لوجود هذين الهرمين تبعا لكمية واحجام الأحجار الجيرية التى تغطيها .

أما وقد ظللنا نواصل طريقنا على الدوام باتجاه الجنوب الغربى فقد وصلنا فى الساعة الرابعة والدقيقة ٣٥ بعد أن أسرعنا فى السير قليلا ، الى موقع غابة ، تغطيه اشجار جافة تشبه ما كنت **شاهدته** فى الصباح ، بل لقد كان امتداد الغابة الأخيرة يبدو أكبر بكثير ، كما كانت جذوع الأشجار تبدو أقوى ، وكان الكثير منها له سمك ذراع الانسان، كما كان سمك البعض الآخر يماثل سمك الفخذ . من هناك كنا نرى باتجاه الغرب قصر قارون . وكان قد خطر ببالى أن اذهب الى هناك لقضاء الليل حين لحق بنا أحد العربان ، أرسله الشيخ صالح ، والد الشيخ على . وكان قد بلغه منذ قليل أن ثمانية من رجاله قد انتهبوا بواسطة جماعة تتكون من ٣٠٠ من فرجان البحيرة (عرب الفرجان بولاية البحيرة) . لقد كلف الشيخ صالح هذا العربى بأنه يخبرنا بأنه يلزم حراسنا اليقظة ، كما طلب الينا بشكل خاص الا نغامر على الاطلاق بالدخول فى معركة ، نظرا لقلة عددنا ، ومع ذلك فقد أخبرنا أن نظل على هدوئنا (الا نفزع) وبأنه على صلة بمجريات الأمور لكى يعرف ما آل اليه حال أعدائه الفرجان ، وبأنه اذا مابلغه انهم لايزالون على مقربة منا ، فسيأتى للقائهم على الفور وفى صحبته ٥٠ من السمالو ، هنا لفت الشيخ نظرى ، دون أن ترهبه هذه الأخبار ، أن ليس من حسن الفطن أن نصل الى قصر قارون مع قدوم الليل ، اذ يعد هذا المكان الملتقى المفضل للقوافل الجوابة وانه ، اذا مافترضنا أن فريقا من بينهم قد يقضى الليل فى المناطق المجاورة ، فسوف يعاود سفره مع بزوغ النهار ويترك لنا الميدان خاليا . أدركت صواب رأيه ، وفضلا عن ذلك ، فلم نكن قد نلنا ـــ حتى ذلك الوقت ـــ أى قسط من الراحة منذ السادسة صباحا ، أى أننا قد سرنا بشكل متصل لمدة عشر ساعات لذلك

فقد اخترنا من الغابة مكانا دنيـــا وحصيناه تحيط به المرتفعـــات ، حيث يتردد على الطريق الذى كنا سلكناه عرب الفرجان فى معظم الأوقات ، وأقام الشيخ عليه حراسة ، وقضينا الليل فى هذا المـكان .

كنا بالفعل على ضفاف البحيرة ، كما كنا فى نفس الوقت جد قريبين من الجبل . تذوقت المياه مرة أخرى فوجدتها تماثل تلك التى تذوقتها فى الصـــباح . وقـــد شربت منها كل خيولنا بل وكثير من خدمنـــا ، الأمر الذى يعـــارض بعض الشىء مع تأكيدات بوكوك Pococke الذى وجدها كما يقول اكثر ملوحة من ماء البحر . وفى الحقيقـــة ، فقـــد جاء هو الى هنـــاك بعد مثل الفصـــل الذى جئت فيـــه بشـــهر ونصـــف ، ولعـــل الفيضـــان الذى سبق رحلته كان بالغ الضـــعف ، فى حين كان الفيضان الذى سبق رحلتى بالغ الوفرة .

وفى اليوم التالى ، ١٨ نيفوز (٨ ينـــاير) واصـــلنا طريقنـــا فى الخامسة والربع صـــباحا ، لـــكننا لم نستطع أن نحاذى ضفاف البحيرة بسبب أدغال الأشجار التى تغطيها . لذلك فقد اضـــطررنا أن نقترب من الجبل ، الذى كانت المسافة التى تفصله عن البحيرة تضيق شيئا فشيئا، كما قـــد أصبحت طبقـــة الأرض القابلة للزراعـــة يزيد سمكها اكثر فأكثر دون أن تخالطها الرمال، ولهذا فلعل من المؤكد أن يكون هذا الجزء الشمالى من البحيرة قابلا للزراعة حتى سفح الجبل اذا أمكن رى أراضيه بميـــاه الفيضـــان العذبة .

وصلنا أخيرا حوالى الساعة السابعة والربع ، بعد مســـيرة أبطأ بعض الشىء من مسيرة البشـارحة ، الى الطرف الغربى للبحيرة ، وهـــو يفرق كلية سطح الجبل وكنت أظن أننى هنـــا بصـــدد ذلك الجبل الذى يقطعه منذ مبدئه ، البحر بلا ماء ، والذى يسميه دانفيل فى مؤلفـــه مصر القـــديمة Aegyptus antiqua باســـم Lycus Fluvius ، ولـــكننى وجدت ، بدلا من هـــذه الفتحـــة ، أن السلسلة تتابع حتى مدى البصر باتجاه الجنوب الغربى ، وعرفت من العربان انه لا يوجـــد فى هـــذه المناطق لا البحر بلا ماء ، ولا منخفض من اى نوع يستطيع أن يقوم ادعاء على وجوده .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما لسان الأرض الضـــيق ، والذى يسمح بالمرور بين طرف البحيرة وسفح الجبل ، فقد كانت تطمسه كومة من الأحجار الجيرية الضخمة التى لا يبدو عليها اى أثر لعمل الانســـان والتى أعتقد أنها ببساطة قـــد سقطت من الطبقـــات العليـــا للجبل ، وفضلا عن ذلك فقد كان هـــذا المر وعرا لان شـــواطىء البحيرة هنـــاك مغطاة بقشرة ملحية تخور بسهولة تحت الأقـــدام وتوجد تحتها مياه عميقة لحد كبير فى بعض الأحيان . وتمكنت جمالنا بعد جهد بالغ المشقة من عبور هذا المر .

وحيث كنت قـــد نفد صبرى شـــغفا لرؤية قصر قارون الذى كنت اراه منذ الصـــباح بشكل بالغ الوضوح : فقد تركت القـــافلة تواصـــل طريقها ، ورحلت وحيدا الى الأمام متخـــذا اتجـــاه جنوب الشرق نحو هـــذا المبنى الذى وصلت اليـــه فى الثـــامنة والربع . وهكذا أمضيت ساعة ، سار فيها حصانى بأقصى سرعته كى اقطع المسافة التى تفصـــل القصر عن طرف البحيرة ، إذ أن المنحدر لم يكن وعرا بل كان كبيرا . وفى نفس الوقت فان القصر مبنى فوق مرتفع صـــغير مما يسمح بالظن بأن ميـــاه البحيرة كانت فيما مضى أكثر ارتفـــاعا ، وبأنهـــا فى تلك الأزمنة التى كانت تمتد فيهـــا لتبلغ الجبل ، كانت تأتى كذلك كى تبلل سفح هذا المبنى .

لن اقـــدم هنـــا مطلقا وصـــفا لقصر قارون ، فقـــد سبق أن قدم المسيو جومار Jomard الرسوم والخرائط الدقيقـــة لهذا المبنى (٦) ، لـــكننى فقط اسمح لنفسى بأن اقرر أننى لست أعتقـــد أن مبنـــاه قـــديم بنفس قـــدم معابد مصر العليـــا ، فأطلاله ، أولا ، لا تبـــدو حاملة لآثار تخريب الزمن لـــكنها تحمل آثار تدمير قامت به يد البشر . وثانيا فـــها نحن نرى عند مدخله أحجارا منحوتة بشكل خشن على طريقة الاغريق ، فوق الدعامات الأمامية ، وان كان من الممكن الافتراض بأنها قد اضيفت فى أزمنة لاحقـــة . وقد حفر دكتور بوكوك اسمه على أنقاض عضادات باب الـــدخول الأول الواقـــع الى اليســـار ، كمـــا حفـــر بول لوكاس Paul Lucas اسمه على أنقاض العضادات الواقعة الى اليمين .

---

(٦) انظر اللوحتين ٦٩ ، ٧٠ ، العصور القديمة ، المجلد الرابع .

كان هذا بمثـابة اكتشاف له أهمية قصوى بالنسبة لى . هنا لم أستطع أن اقاوم نزوة أن ألمسها ، فكتبت هذه الـكلمات على المضادة الواقعة الى اليسار فوق اسم بوكوك .

عـبر ب. م. مارتان ، المهنـدس الفـرنسى الجزء الشمالى من بركة قارون ، فى السابع عشر من نيفوز من العـام التـاسع لقيـام الجمهورية الفرنسـية (الموافق ١٧ ينـاير ١٠٨١)

وقد تفحصت باهتمام ، من أعلى المبنى ، وبمنظار جديد ، امتـداد الجبل الذى تركته عند شـاطىء البحيرة ، فلم أجـد على مدى البصر مايمكن أن يدعم افتراض وجود الفتحة التى يتحـدث عنها كل من ليكاس ودانفيل ؛ بل وجدت الأرض تمضى صـاعدة فى مرتقى لطيف يبتدىء عند البحيرة وينتهى ببلوغ قمـة الجبل . ويرى المرء عن بعد كبير تلك الحلمة (القمة) التى حـددها هـذا الجغرافى فى خريطته عن مصر الحديثـة تحت اسـم Haram Medaté el - Hebjad ولا تزال بعض جدران قصر قارون تنهض واقفـة سواء من ناحيـة الشرق أو من ناحيـة الغرب ، بل ويوجد كذلك مبنى صـغير أمام مدخله ، ومع ذلك فلا توجد مطلقـا قطعـة واحدة من الجرانيت . وتقع حجرات القصر ، المربعة الشكل ، على خط يمتد بشكل تقريبى من الجنوب الى الشمال ، أما خط الواجهة الرئيسية أو المـدخل فيمتد من الجنوب الشرقى ، واذا ما رنا الانسان ببصره نحو الأفق فسوف يلاحظ عن قرب ، والى الجنوب ، قمة عالية من الأرض تدل بوضوح على الحد القديم للبحيرة .

غادرت قصر قارون عند الظهر تماما ، واتخذت طريقى مباشرة نحو الجنوب الشرقى ، كانت الأرض التى نطؤها صخرية خالصة تغطيها رمال خفيفة ، وتتنـاثر عليها اكداس صـغيرة من الأحجار والقرميد ، ولـكن بكميات بالغـة الضآلة ، وهـذا ما جعلنى أظن أننـا نتوصل الى نتيجة مبتسرة حين نطلق على هذه الأطلال اسـم بلدة قارون ، ذلك أننى مقتنع بأنه اذا كانت توجـد بعض مبـان فوق هذه الصخرة فانها لابد أن تعود الى فترة جد قريبـة ، جاءت بعد انحسار مياه البحيرة بزمن طويل ، كما

ان هذه المبـــانى ، من جهة اخرى ، ضئيلة الأهميـــة للغاية ، ولا يمكنها بأية حال أن تدلل على وجود مدينـــة قديمة ، وسيكون موقع مثل هـــذه المدينة ، فضلا عن ذلك بالغ السوء ، اذ يظل هذا المكا ن، على الدوام، عاريا من اية خضرة .

كنا نسير بخطو حثيث ، اذ كانت جمالنا قـــد سبقتنا بنحو نصـــف الساعة ، ووجدنا انفسنا عند حوالى الساعة الثانية فوق قمة بناء صغير يقع الى اليسار على شـــاطىء البحيرة ، ولاحظت أن قمة عاليـــة بعض الشىء تمتد بدءا من هذه النقطة ، على نحو مواز لهذا الشاطىء .

وبعد مسيرة نصف ساعة شاهدت مبنى آخر فوق نفس القمـــة ، وتلك على وجه التقـــريب هى الأماكن التى يطلق عليهـــا بوكوك اسمى قصر كوفو Couphou وقصر كوبال Copal ، واخبرنى العـــربان انه يشار الى هـــذه المبانى فى عمومها باسم قصر البنـــات ، وتوجـــد على شواطىء البحيرة ، عند سفح الجبل الواقع الى يميننا فى ذلك الوقت ، ونحن باتجاه بحيرة الغرق ملاحات كان يستغلها أهالى النزلة . ولـــكى يتم لهم ذلك ، قاموا بحفر آبار تسحب اليها المياه المالحة ، وتترك لتتبخر فوق الأرض ، لتنتج ملحا لذيذ الطعم ، بالغ الجودة .

ويصبح الانحدار ، ابتداء من قصر قارون ، غير محسوس ، لكننى احسست فى الساعة الثالثة أن الانحدار قـــد عاد ليصبح بالغ الشدة. وعند الثالثة والربع وصلنا الى القمة التى تشكل نهاية الصحراء . هناك احسست بلذة يصعب وصفها فمنذ ثمانى واربعين ساعة ، لم تكن عينى النهمة للاكتشاف ، والتى كانت تحدق بلا انقطاع فى كل مايحيط بى ، لم تكن تقع الا على احجار ورمال . كانت صورة الموت وحدها ترتسم بخيالى دون ان تعطينى مع ذلك اى احساس بالحزن أو الانقبـــاض . كنت أبعد ما اكون عن الاحساس بالحرمان أو الاجهاد ، ذلك الاحساس العـــادى الذى ينتـــاب المسافر فى الصحراوات ، فلقد قمت بهذه الرحلة برغبتى بل وبترحاب كامل من جانبى ، بل انى لاشك أن أوربيـــا آخر يستطيع مهما تكن الظروف التى تحيط به ، أن يجد رحلة شبيهة برحلتى ، فلقـــد كانت روحى على الدوام فى توق لعملياتى ، كما انى لم أعان مطلقا من

حرارة الجو التى كانت ترتفع ، على الرغم من أننـــا كنا فى يناير ، من ٢٢ الى ٢٤ درجة فيما بين العاشرة صباحا والثالثة بعد الظهر . لم يحدث أن فتحت قربتى ولو مرة واحدة كى أشرب اثناء الطريق بين لحظة واخرى . ومع ذلك فان السرور الذىتملكنى عند أول رؤية للخضرة ، رؤية الطبيعة فى حالة حركة وحيـــاة ، جعلنى احس برجفة تسرى فى جسدى ، وبأننى دون أن أدرى فى حالة من انفعال مستمر .

كنا نلمح عن بعد قرية النزلة ، فى نفس اتجاه جنوب الشرق الذى اتبعناه بدءا من قصر قارون ، وقام العربان الذين كانوا قد أوقفوا سباقهم أثنـــاء فترة اجتيـــازنا للصحراء ، بترقيص خيـــولهم من حولى ، مرهقين اياى بالتحيـــات والتمنيات وعبـــارات الصـــداقة . فـــكانوا يصـــيحون خلال فرحتهم بأنهم قـــد أعادوا ، سليما ، معافى ، مدبر السمالو ، وهى كلمة تعنى منظم ، ويستخدمونها فى مقابل كلمة مهنـــدس عندنا ، ولقـــد قدموا لى شهادة كبيرة على تقديرهم ، حين أضافوا الى هـــذا اللقب اسم قبيلتهم، واعترفبأننى لمأكن متبلد الاحساسأمام هذهالدلالات؛ فلقد جعلونى واحدا منهم ، وكان وجهى الذى لوحته الشمس ، كما كان شاربى الكث وردائى البـــدوى كان كل ذلك يتحـــدى أمهر خبير فى تمييز الملامح (أن يتعرف على) ، لذلك فقد لاحظت أن احدا من كل الأهالى الذين قابلناهم بعد ذلك ، لم يحدس وجود رجل فرنسى ، بين هذه الكوكبة من العربان .

وصلنا الى النزلة فى الساعة الخامســـة . وتقع هـــذه القرية ، الـــكبيرة بعض الشىء على بعد حوالى ثلاثة فراسخ من شواطىءالبحيرة، وعلى الشط الأيسر لترعة واسعة تعتبر امتدادا لبحر الوادى الذى سبق لى أن أشرت اليه . وفيما مضى ، كانت النزلة تحصـــل على حاجتها من الميـــاه عن طريق رشاح يأتى من مدينـــة الفيوم ، لـــكن المياه ، منذ أن قطع سد المنيا، ظلتتغمر الأرض، لدرجة أننى كنتارى فىذلك الوقت بركا كبيرة الحجم ، على مقربة من القرية ، على الرغم من أن انخفاض المياه التى كانت تتدفق منذ مايزيد على ثلاثة اشهر ، ربما يكون قد ترك الأرض مكشوفة (أى معرضة للجفاف) فى كل مكان .

قضيت الليل فى النزلة ، ودعوت الى العشـــاء معى شيخ هـــذه القرية ، وكذلك الشيخ على أبى بكر ، ابن اخى الشيخ صـــالح ، الذى

كان قــد قــدم على عجل لزيارتى . وقــد افدت من هذا اللقــاء ، اذ حصلت من كل منهما بشكل خاص على كافة المعلومات التى يمكن لمثليهما ان يقدماها لى عن الصحراوات المحيطة بالفيوم ، ولابد انيستنتج القارىء اننى لم اهمل ما يتصــل بالواحات . وقــد سررت سرورا جمــا حين لاحظت أن اجاباتهما تتطابق بشكل تام مع التفاصيل التى حصلت عليهمــا قبل ذلك بعدة أيام ، من سليمان الكاشف ، ومن اثنين من اهالى الواحة الصــغيرة ، كنت لقيتهما فى مدينــة الفيوم ، وســأقدم فيما بعد نتائج هذه اللقاءات .

غادرنا النزلة فى التاسع عشر من نيفوز (٩ ينــاير) ، فى الساعة التاسعة والربع صــباحا ، واتخذنا طريقنــا ، بشكل مستمر ، باتجاه الجنوب الشرقى ، وسط الأراضى المزروعة ، والتى كانت متشققة فى ذلك الوقت ، مما جعل ســيرنا عســيرا ، الى أن وصلنــا بحر الوادى فى الحادية عشرة والربع ، تجاه قرية (العرين) الواقعة على الشط الأيمن. وهنــاك ، كان عمق الرشــاح لا يقل عن ١٦ الى ١٧ مترا بعرض يصل الى نحو مائتى متر ، نزلنــا نخوض فى ميــاه الرشاح ، وكان الســير فوق قاعه أقل مشقة من السير فوقحافته .كانت مياهه تجرى فى الجانب الأيمن من سريره ، وقــد صعدنا متجهين نحو الجنوب حتى بلغنــا فتحة ترعة صــغيرة ، كانت تأتى من قبل ، كما قيل لى ، من مدينة الفيوم ، مارة بالمنيا ، متجهة الى بركة قارون بعد أن تسقى أراضى القرى الواقعة على مجراها ، وقــد اكد لى العربان ان بحر الوادى الذى كنت اراه بالغ الاتساع قــد تكون نتيجــة لفيض مفــاجىء للميــاه التى تسربت فى ذلك الوقت ، حين تصــدع جسر المنيــا ؛ لــكننا سنرى فيما بعد ان هــذا الافتراض بعيد الاحتمال ؛ ولم تبد لى الجبــال الواقعــة الى الغــرب سوى انحدار طفيف تضيع ذروتها فى الأفقَ البعيد .

وفى الساعة الحادية عشرة والربع ، وصلنا الى أبى جندير ،وهى قرية بالغة الارتفاع ، تقع الى جنوب الجنوب الغربى من النزلة . ومن فوق المرتفع الذى بنيت فوقه هــذه القرية ، كنت ارى بوضوح مدينــة الفيوم والنزلة ، وكل المنطقة الوسطى من ولاية الفيوم ، وعبر فرع من الرشاح القــادم من مدينــة الفيوم بالقرب من أبى جندير ؛ وحيث تظل

تصل الميـــاه حتى هذه المنطقـــة فى مستوى سطح الأرض ، فانها تشكل عند تدفقها الى الوادى مسقط مياه يبلغ انحداره نحو عشرة أمتار ، وهذه ظاهرة غير معروفة فى بقية أنحاء مصر .

وهكذا فان اقامة آلات تحركها مساقط المياه ستعود بنفع كبير للرى. وكان دليلى ، الشيخ على قـــد لقى فى أبى جنـــدير أخاه الشيخ عثمان، شيخ القبـــائل المقيمة حول هذه القرية ، فلم نمكث فى خيمة الأخير سوى ربع الساعة تناولنا خلالها القهوة ، ثم واصلنا طريقنا باتجـــاه الجنوب الغربى ، مصطحبين معنا هذا الشيخ عثمان .

وعند الثانية عشرة والربع ظهرا ، عـــدنا الى الصحراء ، التى تشكل ارضها ـــ وهى أعلى من الأرض المنزرعة ـــ أحجارا رسوبية تختلط بالرمال ، فوقها قطع من الأحجار الجيرية . لقد كنافوق ما يشبه هضبة، عند بدء انحدارها غير المحسوس نزولا ، جهة الشمال الغربى نحو قصر قارون ، وبدء انحدارها كذلك الى الجنوب الشرقى عند قرية ورشاح الغرق، حيث يتحول الانحدار الى مرتقى يمتد صاعدا بشـــكل غير محسوس الى مدى البصر .

وفى الساعة الواحـــدة الا خمس دقائق ، وصلنا الى مرتفع منعزل يسمونه « كوم الغرق بتـــاع الملط » وهنـــاك تعرفت على اطلال هائلة تمتد من جهاتها الأربع الى داخل السهل . صـــعدت المـــرتقى ، فرأيت بحيرة الغرق ، فى أسفل ، وهى تمتد الى الجنوب لبعد يبلغ حوالى نصف الفرسخ، واسترعى مرافقى انتباهى الىوجود جبلين يقعان عن بعد باتجاه جنوب الجنوب الغربى ، ويوجد بينهما ريان (بئر) وكذلك الطريق المؤدى الى الواحة الصغيرة التى سأتناولها فيما بعد ؛ ويرى المرء الى الجنوب الغربى تلك القرية التى تحمل اسم مدينـــة الغرق ، اما ظهر الجبل الـــذى يفصل وادى الغرق عن وادى مصر ، فيشكل منحدرا لطيفا سهلا .

تركنا اطلال مدينة (معدى) فى الساعة الواحدة والنصف ، ونزلنا فى منخفض من أرض صـــالحة للزراعة ، تغطيها رمال غير كثيفة . ومن السهولة بمكان زراعة هـــذه الأرض رغم كونها مهجورة ، اذ تتكاثر فيها دون أية مجهودات أو عناية تذكر ، مجموعات كبيرة من الأشجار والنباتات المتنوعـــة .

وتجرى فى هذا السهل ترعة تزرع شطآنها ، وتمضى جنوبا لتصب مياهها فى البحيرة وقد صعدنا باتجاه هذه الترعة حتى مدينة الغرق فوصلنا الى هناك فى الساعة الثالثة بعد الظهر . ثمة سور يحيط بهذه القرية الدفاع عنها ، لكنها ، فى داخلها ، تشكل مظهرا بالغ البؤس ، وهناك منزل لأحد المماليك قد تحطم عن آخره ، وليست ضواحى القرية بأحسن من داخلها حالا : وبخلاف كل قرى مصر ، تلك التى يتعرف عليها المرء عن بعد بأشجار النخيل الكثيفة التى تحيط بها ، فان مدينة الغرق لاتحيط بها ولو شجرة واحدة ، فهى لا تمثل الا مظهر عرى بالغ الوحشية لحد يبعث بالرجفة الى القلب . وقد بقيت هناك لقضاء الليل ، وكنت أريد ان ارى « كوام الوزازى » وهم عربان تابعون للسمالو ، سمعت انهم لصوص ذوو حيلة ، ونصحنى كثيرون بأن اتجنبهم ، ولست أدرى ما ان كان ظهور الشيخ على والشيخ عثمان هو الذى كبح جماحهم ،ومهما يكن من امر فقد خرجت من قبضتهم دون أن يكون لدى ما اشكو منه ، ولقد حدثونى بسرور بالغ عن المدبر جيرار ، وكانوا قد صحبوه فى جولته قبل ذلك بعامين . وقد عرض على شيخهم كرامتى خدماته بأن يصحبنى الى البحيرة التى يسمونها الغرق بتاع الغرق ، وهى تبعد عن القرية بمسيرة ساعتين نحو الجنوب .وقد قبلت صحبتهم ، لكننى اجلت الزيارة الى الفترة التى قد ازور فيها الجزيرة الصغيرة ، وهى زيارة كنت عزمت على القيام بها منذ عرفت تفاصيل موقع هذه الجزيرة الصحراوية . وان كنت مع ذلك قد صحبته معى لزيارة الأنقاض الواسعة التى تحمل اسم دير زخاوة بتاع الغرق والذى يبعد موقعه عن القرية بنحو فرسخ واحد باتجاه جنوب الجنوب الشرقى .

رحلنا من الغرق فى العشرين من نيفوز (١٠ يناير) فى الثامنة الا الربع صباحا فوصلنا الى قرية سنورس ، وهى قرية صغيرة تحيط بها الجدران ، وتعسكر حولها قبيلة المعربين ، على الشط الأيمن للترعة تجاه الغرق مباشرة ، وحين توجهنا بعد ذلك — على نفس طريقنا — الى الشمال الشرقى ، وجدنا السنة صحراوية كثيرة تعترضها اجزاء قابلة للزراعة ، وفى الساعة التاسعة والنصف عبرنا الترعة الصغيرة

التى تمضى فتصب مياهها فى الوادى شمال ابو جنـــدير ، ووصلنا الشط الآخر عند بداية الجسر الرائع الذى سبق ان تحـــدثت عنه والذى بينت فوائده عند شرح الحركة العامة للمياه فى الولاية ، واقدم الان التفاصيل التى حصلت عليها حول هذا الجسر .

يقدم لنـــا هذا الجسر ـــ وهو مبنى باكمله من الترميد او الأحجار المتماسكة بشكل متين بفعل ملاط من الجير والأسمنت ـــ نمطا لواحد من تلك الأعمـــال العظيمة التى نتجت عن رعاية حكومة عاقلة تضـــع فى اعتبارها العمل لصـــالح البشر،ويبلغ سمك هـــذا الجسر ستة امتار عند ارتفاعه ، كما يبلغ ارتفاعه ابتـــداء من ادنى نقطة فيـــه ســـتة امتـــار كذلك ، وتدعم الجسر وتقويه دعامات ومصدات مياه ، ولكن على الرغم من هذه الاحتيـــاطات فقد تصـــدع عند المنتصف بالقرب من قرية شدموه لمسافة تبلغ ٦٠ مترا . ويبـــدو أن هذا التصـــدع لا يعود الا لقوة اندفاع الميـــاه ، بمعنى انه لم يحدث نتيجة لتخريب من اى نوع على يد الانسان فنحن لا نزال نرى هنـــاك كتل البنـــاء الضخمة التى حملتها الميـــاه معها الى بعيد فى قاع الترعة . وربما يقال تفسيرا لذلك ، وانا نفسى اشارك فى هذا الراى ، بان تصـــدعا كبيرا كهذا لا يمكن ان يتم الا بفعل الاهمال فى اصـــلاح اول تلف احدثتـــه الميـــاه ، فلقد كان كافيا أن يحدث تسرب للميـــاه ولو ضئيل لـــكى يحدث على المـــدى البعيد كل هـــذا الدمار ، ومنذ ذلك الوقت ، لم يعد للجسر من فائدة او معنى ، فلقد اصبحت حقول وادى الغرق غير مزروعة ، واخذت المياه تذهب عن طريق بحر الوادى، لتغرق ـــ مشكلة بذلك خسارة تامة ـــ تلك الأراضى التى تقع فيمـــا بين النزلة وبحيرة قارون .

وتقطع اعلى هـــذا الجسر على الدوام قنـــاطر صغيرة ، نفذت فى فتحاتها خزانات مخصصة ولا ريب لتنظيم ارتفاع الميـــاه حين تغطى وادى الغرق . ومن شأن هذا أن يدحض زعم العربان الذين يدعون بأن الوادى لم يكن يوجد مطلقا قبل قطع الجسر . لقـــد كان على المياه التى تعبر هذه الخزانات أن تتجه بالضرورة وعن طريق ترعة ما الى بركة قارون . وان كان يمكن ـــ فقط ـــ أن تكون مثل هذه الترعة اقل اتساعا مما هى عليه اليوم ؛ ومن جهة أخرى فان الجسر يقوم بدورات عديدة تبعـــا لانثناءات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

و نعطافات الأرض ، ويتوغل نحو الشرق بطول يبلغ حوالى ٨٫٥٠٠ متر حتى قرية دفنو ، حيث ينتهى الجسر .

اقتربنا من قرية المنيــا (*) حيث يقيم الشيخ الاكبر أبو صـــالح ، والد على وعثمان ، رفيق ســفرى ، وسرى النبأ فى القرية ، فشاهدنا على الفور ظهور أخيهما الثالث جوربة ، الذى أرسله أبوه ليهنئنا بسلامة الوصول .

ثم جاء هــذا الشيخ (المسن) نفسه للقــائنا ، وما أن اقترب منا بنحو مائة خطوة حتى ترجل ، واتجه نحوى سائرا على قدميه ، بادلتــه على الفور نفس تحيته ، وتقدمنا ، وحدنا ، كل منا تجاه الآخر ، وكل منا على رأس جماعته ، وحتى هذه اللحظة ، كان الشيخ على يضع نفسه رهن اشارتى ، اللهم الا فى تلك اللحظات التى تركته خلالها عند طرف بحيرة قارون لأهرع وحدى الى قصر قارون . أما الآن ، فانه لم يتبعنى مطلقا ، لقد منعه من ذلك ، الاحترام الذى يكنه لوالده ،ولقد ابديت لأبيــه من جانبى كل رضــائى لأنه قــد أتاح لى أن أصحب رفيقا مثل ولده ، وعربا مخلصين ذوى شهامة مثل اتبــاعه الشجعان من أبناء السمالو . لاحظت انه تأثر لاطرائى ، ومنذ هذه اللحظة نشأت بيننا الثقة . امتطينا حصاننا من جديد ، وسار أبو صـــالح عن يمينى ، أما أبنــاؤه الثلاثة فقد ساروا من خلفنا ، فشكلنا على هذا النحو ما يشبه الدخول المظفر الى المنيا . كان الوقت قــد بلغ العاشرة والربع وكان السكان جميعا قــد اصطفوا على جانبى طريقنا وأسمعتنا النسوة زغاريدهن ، تلك العلامة المعتــادة عند حلول الأفراح الــكبرى .

يقطن ابو صــالح فى المنيــا بيتــا واسعا بعض الشىء ، سرعان ما امتلأ بعدد كبير من المــدعوين من كل الطبقات والأعمار ؛ وما ان جلسنا على الأرائــك حتى قــدم الى الشيخ صـــالح كل أبنــائه ؛ لاحظت من بينهم واحدا لــا يتجاوز التاسعة أو العـــاشرة من العمر ، يكن له أبوه عاطفـــة خاصــة وكان هــذا الصبى ، وله وجه بالغ الجمال ، يركب الخيل ، ويستعمل الأسلحة بقــدر ما قد يفعل ذلك أكثر البــدو تمرسا ،

(*) احدى قرى مركز أطسا . [المترجم]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبدى من حيوية الطبع ما يسر والده بشكل بالغ ، وقلت لأبى صـــالح اننى كنت قـــد لاحظت وانا فى السهل رشاقة ومهارة هذا الصبى ومظهره الحسن ، دون ان أعرفه وكيعقوب جـــديد ، عبر لى أبو صـــالح ، وقد هزه المـــدبح الذى انهـــال به على ولده المحبوب ، عن عرفانه بطريقة قـــد تبدو غير معقولة فى تقاليـــدنا ، لـــكنها ولا شك نتيجة افكارهم عن الرق ، فلقد قـــدم الى هذا الطفل قائلا ان بامكانى أن أصطحبه وان الحقه فى خدمتى ؛ فأجبته باننى قـــد تأثرت للغاية بهذا العرض ، لـــكن ولده لن يكون مطلقا على خير مايرام ، بل انه قـــد يتلف بلا جدال لو انه نشأ بين قوم غير قومه ، وأن لى فضلا عن ذلك ، فى فرنسا ، طفلا كطفله ، تتعلق به كل آمالى ؛ واننى معرفة منى بقدر صنيع السماء ســـوف الوم نفسى أذ حرمت من خدمات رجل اود ان انظر اليه منذ الآن وان احبـــه كوالدى ، فرفع عينيه الى السماء شاكرا الله اذ جعله يجد فى شخصى صـــديقا حقا .

قد يدور بخلد البعض انه قد لذ لى هنـــا ان اصور مشهدا من صنع الخيال ، او اننى على الأقل قـــد جهدت فى أن أمنح هـــذا المشهد بعض مذاق الخيال ، لـــكن الحقيقـــة هى اننى انقل بدقة ما قد حدث ، واننى اكاد اقـــدم احاديثنـــا كلمة بكلمة كما وجدتها فى مذكراتى ، التى دونتها فى مساء نفس اليوم ، ومع ذلك فينبغى على أن اقول كذلك ، تفســـيرا لمشاعر الصداقة هذه ، انه يبـــدو أن أبا صـــالح كان يريدنى أن أستشف أنه يرعانى بسبب صفتى مدبرا ، شخصية بالغـــة الأهمية ، وانه يريد أن يحملنى على العزم على اعادة ترميم الجسر وخزاناته وقد حدثته عن الحالة الراهنة لهذا المبنى باعتبارها تقارب حد الكارثة ، وان الفرنسيين كانوا ينتوون ترميمه فى أقرب فرصـــة ممكنة ، واكد لى هو من جانبه ، وقـــد تدفقت عواطفه وزاد عرفانه بأن بامكانى الاعتماد عليه ، وعلى كل قبيلة البيمالو ، الذين سيصحبوننى فى كل مكان اريد الذهاب اليه ، وانهم يمتثلون لأمرى فى الحياة وفى الممات ، وانتهزت انا هذه اللحظة لكى اعد لرحلتى الى الواحة ، وقـــد اكد لى دقة المعلومات التى حصلت عليها فى مدينـــة الفيوم وفى النزلة ، كما اكد باننى ، عندما اخبره بيوم رحيلى ، ســـأجد كل شىء معدا للقيـــام بهذه الرحلة فى تمام واتقان . وهـــذه هى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التفاصيل التى جمعتها حول هذه الواحة ، وحول الطريقة التى اتفقنا عليها للقيام بالرحلة .

تبعد الواحة التى تقع على مرتفعات الفيوم ، والتى يشار اليها فى كل الخرائط القديمة باسم واحة برفا Oas's Parvs بنحو مسيرة ثلاثة أيام ونصف اليوم الى الجنوب الغربى للمدينة ، وهى عبارة عن واد صغير يوجد به عديد من ينابيع المياه الحارة والباردة ويتوزع سكانها على اربعة قرى ، تضم كل منها من ١٥٠ — ٢٠٠ نسمة ، يزرعون الكثير من اشجار النخيل وهى التى تشكل تجارتهم الرئيسية ، كما يزرعون الأرز والذرة وبعض اشجار الفاكهة ، مثل اشجار التين والموز والبرتقال والرمان ، لكنهم لا يزرعون القمح ، وهم ينقلون أو يعملون على نقل ما يفيض عن حاجتهم من المواد الغذائية عن طريق عرب الكومى من البحيرة الى الفيوم والقاهرة ويقايضونها بالأقمشة والحديد والقمح ، ولاتوجد فى هذه الواحة خيول ولا خراف ، وذلك بسبب عدم وجود المراعى بلا جدال ، والطقس هناك غير صحى على الاطلاق ، اذ تحمل اليها رياح الجنوب والشرق والغرب ، وهى نجتاز مساحة شاسعة من الرمال ، هبات حارة ومسممة ، من نوع رياح الخماسين التى تهب على مصر ، لذلك فالناس هناك ذوو قامة قصيرة . **وهم** على الدوام مرضى ، ويبدو عليهم لأول وهلة أن صحتهم بالغة السوء .

وينبغى على المرء ، كى يتوجه من مدينة الفيوم الى الواحة ، أن يمر ببحيرة الغرق ، ويجد على مسيرة ساعتين ، الى الجنوب ، بئرين تسميان ريان الكبير وريان الصغير ، ويرى بالقرب منهما مبنى يشبه قصر قارون ثم يجتاز بعد ذلك ، وباتجاه الجنوب الغربى ، ولمدة يومين ونصف اليوم ، صحراوات جرداء لا أثر فيها لمياه أو خضرة .

كان على أن أقوم بهذه الرحلة مع خمسين من العرب ، يقلهم خمسة وعشرون هجينا ، يحمل كل هجين منها من الطعام والشراب مايكفى راكبيه وما يكفيه هو نفسه، وهو الذى يعبر كل الصحراء دون أن يشرب ، ابتداء من بئر الريان الأخير حتى الواحة ، وقد شرب الرجال من البحيرة . وعند بئرى الريان ، حيث لم يملئوا الا قربة بالغة الصغر لكى يخففوا من حمولة الجمال ، ولذلك فقد كانوا يكتفون بشربة واحدة فى اليوم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان علينا ، الشيخ علي وانا ، أن يمتطي كل منا حصانه ، وكان ثمة جملان يحملان لنا الأمتعة والمؤن ، وثلاث قرب من المياه ، لكل حصان قربة في حين خصصت لنا نحن الاثنين ، القربة الثالثة .

أما بخصوص واحة آمون ، والتي تعرف باسم واحة سيوة ، فان الطريق اليها تقع الى الغرب من قصر قارون ويقتضي الأمر من المرء أن يصعد الجبل الى اليسار ثم يتجه على الدوام باتجاه الغرب ؛ وتفصل بين هاتين الواحتين مسيرة سبعة أيام ونصف اليوم ، لكن الأمر لايستغرق أكثر من عشرة أيام اذا بدأت الرحلة من مدينة الفيوم ، ويعثر المرء بعد مسيرة أربعة أيام على بحيرة من المياه العذبة تسمى مجرارة ، وتقع هذه البحيرة في مكان متوسط بين الواحة ومدينة الفيوم ؛ وقد نستطيع أن نستخلص أن هذه البحيرة تقع داخل منخفض يتصل بمنخفض الواحة ؛ وبعد ثلاثة أيام نصل الى بئر من المياه المالحة تسمى هيجة ؛ وبعد ذلك بيومين نلتقي ببعض الأكواخ المأهولة . ثم يصل المرء في النهاية ، في اليوم التالي : الى سيوة .

وخلال هذه الرحلة ، تكفي قربة رجلين لمدة أربعة أيام ، وتكفي قربة واحدة في اليوم لكل حصان ، في حين تشرب الجمال عند البحيرة ، ثم عند بئر الهيجة ، ثم سيوة ، لكنها لا تشرب مطلقا في المسافة التي تفصل بين محطة واخرى .

قمت بتقدير المسافات في هذه التفاصيل بعدد أيام السير . وقد حاولت في بعض الأحيان أن أتبينها بطريقة أكثر تحديدا ، لكن الأمر على الدوام كان مستحيلا ، واذا سألت كم فرسخا يقطعها المرء منذ بئر الريان حتى الواحة ؟ كان العرب يردون على دائما : فرسخ واحد فقط . وحين أطلب التفسير يقولون : ان الناس في الصحراء لايقيسون المسافات على نحو ما يفعلون في البلدان المزروعة ، حيث الفراسخ المعدودة هي على الدوام المسافة بين محطة واخرى ، لكننا في الصحراء نحسبها بالزمن ، ومع ذلك فلو أنني سألتهم : « اذن فكم ساعة تنقضي .. » لأجابوا : « يتوقف هذا على طول اليوم » ، ذلك أنهم يقدرون المسافة الزمنية بين شروق الشمس وغروبها باثنتي عشره ساعة ، مهما يكن الفصل من العام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مما يجعل المسافة التى يقطعونها فى الساعة أمرا يصعب تحديده بشكل مطلق .

قدم العشاء ، فوضع نهاية لهذه المناقشات الطريفة التى دارت بينى وبين أبى صالح وعربانه وأبنائه لأكثر من ساعتين ، وبعد ذلك افترقنا ونحن راضون تماما ، كل منا عن الاخر ، مع وعد متبادل من كلينا بأن نلتقى عما قريب . لكن هذا الوعد لم يقدر له ، للأسف ، أن يتحقق على الاطلاق ، فقد قطعت الأحداث كل مشروعاتى ، ولم أر بعد ذلك أبدا هذا الشيخ الطيب الذى كنت أكن له — كشىء طبيعى — عاطفة قوية .

رحلنا من جديد ، الشيخ على وأنا ، من المنيا فى الساعة الواحدة، متجهين نحو مدينة الفيوم باتجاه الشمال الشرقى ، ومررنا بقريةالجعافرة، على مسيرة نصف ساعة ، تاركين دفنو عن يميننا ، وبعد ربع الساعة وصلنا الى العتامنة ثم الى اطسا ، وهى قرى متقاربة فيما بينها ، وهناك اتخذنا الطريق بين أبى صير عن يميننا والمعصرة عن شمالنا ، واجتزنا الصوافنة ، ومررنا من جديد بالقرب من ابجيج ، فدخلنا المدينة فىالساعة الثالثة والنصف بعد أن راعينا أن تسير الخيل بأقصى سرعتها ابتداء من المنيا .

لقد أمكن للجولة الاستطلاعية التى قمت بها للتو أن تدعم فكرتى حول نظام الرى فى الفيوم ، ومع ذلك ، فلكى نشرح جيدا هذا النظام ، ولكى نوضح كيفية ارتباطه بما يذكره ، كل المؤلفين القدماء ، فقد كان من اللازم وجود معطيات دقيقة ومحددة حول علاقة كل مناطق الولاية بنظام النيل وبتربة وادى مصر : وكنت فى هذا الصدد أنتوى أن أقوم بعملية مسح ابتداء من النيل حتى قرية هوارة الكبيرة ، وأن اقيس مسقط قناطر هذه القرية ، وأن أواصل عملية المسح بعد ذلك حتى بركة قارون ، من جهة ، الى بحيرة الغرق من جهة أخرى ، لكننى تلقيت بعد عدة أيام الأوامر بأن أتوجه الى القاهرة ، ومن هناك الى دمياط، للقيام بمشروع شق طريق بين الصالحية والاسكندرية ولقد حدثت رغم ذلك عراقيل مناخية أعاقت تنفيذ هذا المشروع ، مما سمح لى أن آمل بان أواصل من جديد عملياتى بالفيوم ؛ بل لقد حصلت بالفعل على تفويض بالعودة الى هناك ، وأوشكت على الرحيل عند حوالى منتصف شهر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منور (أول مارس ١٨٠١) في صحبة الجنرال دماس Damas الذى عين قائدا للولايتين (بنى سويف والفيوم) ، لـكن قدوم الانجليز ، ثم ما تلى ذلك من رحيلنا عن مصر ، قد وضع نهاية لكل أعمالنا فى هذه البلاد .

خاتمـــة

على الرغم من كل ذلك ، فان ما شاهدته يكفى لالقاء ضوء كبير على موضــوع الموقع الحقيقى لبحـيرة موريس ، وشـــكلها ، وامتـــدادها ، واستعمالها ، ويتفق النـــاس جميعا حول نقطة واحـــدة ، هى أن بحيره موريس كان لها شكل البحر الواسع ، وانها كانت لوقت طويل ذات نفع كبير فى استيعاب مياه الفيضانات بالغة العلو ، وفى رى وادى مصر عند انخفاض مستوى النهر ، لـكنهم يختلفون فقط حول وضع هذه البحيرة، كما انهم يتشككون فى كون هذه البحيرة من صنع الانسان نظرا لمساحتها الهـــائلة .

وقد انفق البعض جهده ، تبعا لهذا النص من هيرودوت . « وتوجد بحـــيرة طويلة تتجـــه من الشمال الى الجنوب » فى البحث عن بحـــيرة موريس هـــذه فى ترعة تتجه نفس الاتجاه ، وحيث شاءوا لها أن يبلغ محيطها ٣٦٠٠ غلوة ، نفس المســافة التى يحددها هـــذا المؤرخ ، وحيث لايستطيع احد ان يعثر على ترعة بهذا الطول فى ولاية الفيـــوم ، فقـــد اتجهوا ببحـــوثهم الى ولاية بنى ســـويف حيث ظنوا انهم قـــد عثـــروا عليها هنـــاك .

وعلى العكس من ذلك ، فان آخرين أوقفوا جهودهم في البحث عن بحيرة موريس على بركة قارون ، مستندين فى ذلك الى الوصف المفصـــل لهذه البحيرة ، والذى نجده عند سترابون ، « ان المساحة المائية الشهيرة باسم موريس ، انما هى بحيرة باهرة ، لها اتساع وشكل البحر ، كما أن لها شواطىء تماثل شواطىء البحار » .

اما انا من جانبى ، فلن ادخل طرفا فى هـــذا النقاش الذى اصبح اليوم أمرا لا جدوى منه ، والذى حسم بشكل علمى تام ودقيـــق ، كمـــا سبق أن ذكرت ، بعد تلك الدراسة التى قام بها المسيو جومار Jomard

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فبركة قارون اليوم هى بالتأكيد بحيرة موريس الأمس ، لكنها ، كذلك ليست سوى قاعها ، بمعنى كلمة قاع ، والذى بلغ عمقه اقصاه بفضل التوازن القائم بين البحر وبين المياه التى تصب فيها كل عام ، وينتج عن ذلك أنه لا ينبغى لنا أن نقارن محيطها الحالى بذلك المحيط الذى ينسبه لها هيرودوت ، فقد كانت البحيرة فى هذه الفترة ، وكذلك فى عصر سترابون ، تغطى كلية اقليم ارسينويت ، ويقرر هذا الجغرافى ذلك بنص العبارة ، وبأنها كانت تبدأ عند الانحدار الذى وجدته أنا محسوسا عند قرية بيهمو ثم تمضى — البحيرة — لتلامس الجبل من الجهة الشمالية ، وقد تأكدنا من صحة ذلك بفعل الارتفاع الكبير لقرية سنورس ، التى كانت تقع فوق جزيرة ، وبسبب طبقات الأرض القابلة للزراعة والتى خلفتها الترسيبات فوق كل الامتداد الواقع الى شمال البحيرة ، وتأكدنا من ذلك أخيرا بفعل الخطوط الأفقية التى يرى المرء آثارها فوق طبقات الجبل ، وبارتفاعه كله ، ويرى المرء وسط هذا الاتساع ، الجزر التى كان ينهض فوقها الهرمان اللذان تحدث عنهما هيرودوت .

كانت البحيرة تمتد بطول الجبل ، الى الغرب ، وحتى مسافة كبيرة للغاية ، ثم تعود بعد ذلك لتتجه نحو الجنوب ثم تمضى لتبلغ ذروتها عند النزلة حيث كانت تلامس الجبل الفاصل بين الفيوم ومصر .

واذا أخذنا فى الاعتبار الآن ، الامتداد الواسع لهذا التكوين فقد لانتردد فى تأكيد مسافه الـ ٣٦٠٠ غلوة التى يوردها هيرودوت أو فى تأكيد مقياس مقارب على الأقل ، حيث لاينبغى علينا أن ننظر للأطوال التى يغطيها هذا المؤرخ باعتبارها دقيقة من الناحية الرياضية ، بل لقد انذرنا هو نفسه بأنه لايستطيع أن يؤكد كأمر صحيح ، أمرا لم يره ، ومن جانب آخر فان علينا الا نلتزم بكل ماينقله هو عن الآخرين ، بل ان تقتنه فى صدق تفاصيل الطريقة التى يؤكد أنها استعملت لرفع ركامات وانقاض الأراضى التابعة للبحيرة ، لأمر يجعلنا نلزم جانب التحفظ ، وان نضع فى اعتبارنا انه قد حصل على كل ما يقول به عن طريق الكهنة المصريين . أما سترابون ، الذى راعى اكبر قدر من الدقة والذى لم يكن يدون الا ماهو بالغ الثقة من صحته ، فى مؤلفه الجغرافى البحت ، فقد لزم الصمت حول طول هذا المحيط الذى لم يستطع لا أن يراه ، ولا أن يقدره بدقة ،

وقد اكتفى بأن قال انها (أى البحيرة) تستحوذ على الاعجاب بحجمها ؛ حتى انها تشبه البحر .

أما الجزء الذى ربما تكون قد صنعته يد الانسان ، فهو الترعة التى تحمل اليوم اسم بحر بلا ماء الذى يربط مابين بحر يوسف وبركة قارون ، وهو الذى كان يقصده هيرودوت حين قال « انها تمتد من الجنوب الى الشمال » (٧) .

ولقد وجدت أن اللابرنت يقع بالضبط فى نفس المكان الذى سبق لى أن توصلت اليه ، أى على بعد مائة غلوة من أرسينويه — وهى نفس المسافة التى حددها سترابون حينما قال : « وعلى بعد مائة غلوة توجد بلدة اسمها ارسينويه » — وعند منشأ الترعة ، أعلى البحيرة بقليل ، أو كما يقول هيرودوت « على بعد ضئيل من بحيرة موريس » . وأخيرا ، فان الموروث الشعبى ، الذى شاء أن تكون ولاية الفيوم ، فيما مضى ، خليجا تكونه مياه النيل ، ثم جف واستزرع ، وأصبح يستخدم فى رى الأجزاء الواطئة من أرض مصر بفضل عناية أمير عظيم .. كل ذلك يبرهن أن ليس ثمة مطلقا أى تناقض بين القدماء ، وأنهم جميعا قد وصفوا الأماكن كما نراها اليوم ، أو على الاقل كما لازلنا نتعرف فيها على حالتها القديمة . ومع ذلك ، فقد يقال : كيف أمكن لبحيرة موريس أن تستخدم كوعاء يحتوى مياه الفيضان ، وخزان أثناء انخفاض مياه النيل ؟ وأجيب بأنه قد يكون من العسير ، وربما من المستحيل أن نقدم تبريرا أو تأصيلا لهذه الفكرة اذا ظللنا نحرص على الا نرى مدخل ومخرج المياه الا عن طريق نفس المنفذ ، لكن سترابون يتحدث بشكل موضوعى عن وجود فتحتين : تدخل المياه من احداهما وتخرج عن طريق الأخرى .

وعلينا أن نتذكر ان المياه تسقط فى الفيوم عن طريق هويس اقيم تحت قناطر هوارة الكبيرة ؛ وان سرير الترعة التى تتلقى هذه المياه حجرى صرف ، ولهذا فان ارتفاعها ثابت لا يتغير . وفى فترة المد الأقصى لبحيرة موريس ، أى تلك الفترة التى أعقبت جفاف الخليج . كان مستوى

---

(٧) انظر دراسة موجزة حول بحيرة موريس ، العصور القديمة ، المجلد السادس .

المياه أدنى بوضوح من مستوى أرض الاقليم . ومن جهة أخرى ، فقد شاهدنا كيف أن الترعة تتحكم فى سطح الأرض لأنها تقع على خط الذروة الذى يشكله التباعد بين منحدرين ، اذن فقد كانت المياه لا تستطيع العودة من جديد الى أرض مصر عن طريق فتحة هوارة الكبيرة ؛ فهذه لم تستخدم مطلقا كما يقول الأثر ، الا كخزان لتخليص مصر العليا من الكمية الكبيرة للغاية من المياه التى تضر بالأرض .

وقد رأينا فيما سبق أن الجزء الشمالى من البحيرة يشكل فتحة لوادى النيل تصل الى الجيزة ، فلابد اذن أن هذا الوادى قد شكل بالضرورة الفتحة الثانية كما كان يقدم للمياه ممرا فى أثناء انخفاض النيل، لكى تذهب وتروى أراضى مصر السفلى ، التى تعد أراضيها أدنى بكثير من أرض مصر العليا .

وبهذا تبين بشكل طبيعى تلك الطريقة التى كانت المياه تدخل بها الى بحيرة موريس ، والتى كانت تخرج بها ، وكانت المياه بعد أن تتعرج، تتصل بفرع النيل مكونة جزيرة هرقل Hercleotique من ناحية الهضبة اللبية ، وعن طريق بحر يوسف ، تروى أولا اقليم أرسينويت ، ثم تمضى لتصب فى البحيرة الواسعة التى كانت تغطى هذا الاقليم عن طريق الترعة التى تتجه من الجنوب الى الشمال مارة أسفل اللابرنت . كانت هذه البحيرة تحتجز مياه الفيضانات الكبرى ؛ أما فى أثناء انخفاض النهر ، فكانت المياه تتجه بالمثل جنوبا وشمالا نحو ممفيس عن طريق ترعة أخرى ، لتروى أراضى مصر السفلى ، التى يسمح انخفاض سطحها بأن تتجه المياه اليها .

تلك هى نتائج أعمالى التى حصلت عليها من البحث عن الأماكن أثناء الوقت الضئيل الذى قضيته فى ولاية الفيوم ، واننى لشديد الثقة بأن العمليات التى كنت أنوى القيام بها بعد ذلك كان بمقدورها أن تمدنى ببراهين رياضية للرأى الذى أقدمه ، واننى لآسف اننى لم أستطع أن أتمها ، وأتمنى أن يحظى أحد الأوروبيين ذات يوم بثقة أكبر من حكام وسكان هذه البلاد ، عله يستطيع القيام بها بنجاح .

وحيث أن التفاصيل التى وعدت بايرادها فى ثنايا هذا الوصف عن عرب الفيوم وبنى سويف ، بمكن أن تصبح ، فى حالة تحقق افتراض كهذا ، ذات نفع كبير ، فقد اخذت على عاتقى — كواجب — أن أقدمها حتى أحقق كافة ما كنت اتمنى من معرفة تدور حول هذه المناطق الهامة .

قائمة بالقبائل العربية التى تقطن ولاية الفيوم

أسماء القبائل: الاسم العام	أسماء القبائل: الأسماء الخاصة (الفروع)	أسماء شيوخ القبائل	القرى والمناطق التى يقيمون بها	عدد الرجال: خيالة	عدد الرجال: مشاة	عدد: خيام	عدد: ماشية
السمالو (أبو صالح هو الشيخ الأكبر للقبيلة)	كوم الوزازى	كرامنى	شرق التوتون	٧٠	١٠٠	١٦٥	١٠٠٠
	المناسى	سالم جوربة	أبو جندير	٤٠	٧٠	١٦٥	١٠٠٠
	المعربين	حوت، الحاج محمد	سنورس	٦٠	١٠٠	١٤٠	١٠٠٠
	الرومة	محمد عبد الله	دفنو	٣٠	٧٠	٥٥	٤٠٠
	كامل الجودات	رحيم	التوتون	٧٠	١٥٠	١٥٠	١٠٠٠
	حواطة	تقى الدين حسين سليمان سيده داود نصر يوسف	هلية العدوة المصرة المصلوب	١٢٠	٢٠٠	٢٢٠	١٥٠٠
	الفرجان	سيد ديله جندودة أبو القاسم جبلى عبد الله أبو زيد عبدالله مبارك	سرسنا جبلة مطرطارس باهى - آمون ترسا الزاونى	١٠٠	٢٠٠	١٧٠	١٠٠٠
		. . . . . .	الروضة	١٥	٢٠	٢٠	١٥٠
			المجموع	٥٠٥	٩١٠	١٠٨٥	٧٠٥٠

قائمة بالقبائل العربية التى تقطن ولاية بنى سويف

أسماء القبائل		أسماء شيوخ القبائل	القرى والمناطق التى يقيمون بها	عدد الرجال		عـدد	
الاسم العام	الاسم الخاص			فرسان	مشاة	الجمال	الخيام
الضعفا	أولاد حيدة	عبد الأمير سالم أبو ديار	أبو صير الحواونة	١٠٠	٢٠	٥٠٠	١٬٠٠٠
	الوطنات	متيرد محمد جريب بليدى	قمن العروس إفوة ميدوم	١٠٠	٣٠	٦٠٠	١٬٥٠٠
	أولات سعيد	موسى عيسى عباس عمر الحبانى	الحمام	٦٢	١٥	١٠٠	٣٠٠
	السيدرات	أبو بكر	الحافر	١٨	١٥	٦٠	١٥٠
	القاضى	يوسف أبو ذيل عبد معيط	الميمون	٤٢	...	٦٠	١٥٠
	أولات يزيد	ابراهيم زعيطة لطفى	صفط ميدوم	١٣٠	٣٠	٤٠٠	٨٠٠
			المجموع ...	٤٥٢	١١٠	١٧٢٠	٣٬٩٠٠

(تابع) قائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية بني سويف

أسماء القبائل: الاسم العام	أسماء القبائل: الاسم الخاص	أسماء شيوخ القبائل	القرى والمناطق التي يقيمون بها	عدد الرجال: فرسان	عدد الرجال: مشاة	عدد: الجمال	عدد: الأغنام
السعدنى	السعدنى	يوسف حماط عواد عبد القادر عبدالله صروف عبد الرحمن على الندرك رايد حسن على الصويلى على رستن أحمد منصور وسط جيومع	دنديل البرج الدوالطة دلاصن السبسى بنى عدى أبو صير منفسط قمن المروس كوم إدريجة باها الميمون	١٠٢	٠٠٠	٨٧	٤٠٠
الكولى	الفرايات	جبرة	منهرا	٥٠	١٥	٥٠	٣٠٠
	كسادوة	يوسف أبو صوين	اهناسيا المدينة	٦٠	١٠	٢٠٠	٥٠٠
	يانين	عبد ربه	الزرانى	١٧	٨	٤٠	١٠٠
	المحاليف	اسماعيل جياصى محمد ماعونى	منهر منشية الحاج	٣٥	٥	٤٠	١٠٠
	كمسى	محمد عبد المجيد كسوم عمر	ميانة	١٢٠	٤٠	٢٠٠	٥٠٠
		محمد صقيرة موكر	ننا الدويك	٦٠	١٢٠	١٠٠	٤٠٠
	العلم	يربيط على ابراهيم عبد مختار	مزورة	٤٠	—	١٠٠	٥٠٠
	السنانجة	—	صفط راشين	٣٥	—	٦٠	٢٠٠
	أبويه	سليمان أبو ناى	سمسطا	٣٠	—	٦٠	١٠٠
			المجموع ...	٤٤٧	٩٠	٨٥٠	٢٧٠٠

(تابع) قائمة بالقبائل العربية التي تقطن ولاية بني سويف

أسماء القبائل		أسماء شيوخ القبائل	للقرى والمناطق التي يقيمون بها	عدد الرجال		عدد	
الاسم العام	الاسم الخاص			فرسان	مشاة	جمال	أغنام
المسارجة	المسارجة	أحمد أبو دياب محمود جيومع حسن أخميط	زاوية الوالي أبو شربان الشوبك	٨٠	٣٠٠	٥٠	٢٠٠
	فرجان	أحمد حمزة	—	٣٠	٤٠	٣٠	١٠٠
	أولاد حينة	سفع عمر	طورفة	٦٠	١٠٠	١٠٠	١,٥٠٠
	الحمور	محمد	شرشة	٢٠	٦٠	٣٠	٥٠٠
	الحزاي	زيد	العزبة	١٠٠	٣٠	٢٠٠	٢,٥٠٠
	أولاد جيادر	أزيصة	—	٣٠	٢٥	٣٠	٨٠
	زعونة	عبد الله	جوادة	٣٠	٢٠	١٥	٦٠
	الحمايدة	إبراهيم يوسف حسن تركي	دافوف	٢٥	٨٠	٤٠	٢٠٠
المحاريث	المرج	منصور أحمد سليمان خضري	كوم والي	٣٠	٦٠	٣٠	١٠٠
	الأسمار	عمر شاكر عبد الله حسن	مرزوق	١٥	٣٠	٢٠	١٥٠
	الدهامسة	ابن حسن أبو موسى سليمان أبو سيجر	برماشة صفانية	٣٠	٦٠	٤٠	٦٠٠
	الجود	حسن	كوم السعل	٢٠	٥٠	٣٠	١٠٠
	تيبناط	الحاج بركة	الشيخ مسعود	٣٠	١٠٠	٦٠	٦٠٠
			المجموع	٤٢٠	٦٥٥	٦٢٥	٦٤٩٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراسة السادسة :

العرب والعربان في مصر الوسطى

إ. جومار

● العنوان الأصلي للدراسة هو :

ملاحظات حول العرب في مصر الوسطى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مكنتني الرحلات التي قمت بها ، وكذلك تلك الفترة التي قضيتها في ولايات مصر الوسطى (١) ، من ملاحظة طباع وعادات العربان ودراسة النظام الداخلي للقبائل ، سواء منها تلك التي اقبلت على احتراف الزراعة منذ وقت طويل او فقط منذ اجيال عدة ، وسواء تلك التي لاتزرع الأرض أو حتى تستزرعها ، والتي لاتعمل ، عندما لاتكون في حالة حرب، الا في قيادة القوافل ورعى الماشية والجمال والماعز . وينطبق هذا التقسيم للعربان الى طبقتين كبيرتين على كل أولئك الذين يقطنون مصر منهم أو يترددون عليها . وسوف استخدم هذا التقسيم في مذكرتي هذه للتعريف بالقبائل التي قمت بزيارتها ، وانني بهذه المناسبة لأحذر من أن هذه الملاحظات ، على الرغم من كونها ذات طابع عام ، انما هي بالغة الخصوصية بالاقاليم التي تتحدث عنها .

ولست أدعى انني اقدم هنا لوحة كاملة لتقاليد العربان ، اذ يقتصر عملي على أن اقدم تقريرا بالملاحظات التي أضمن صحتها اذ قمت بها ودونتها في نفس أماكنها حيث توفر لي الوقت والأمن الكافيان ، أكدهما

---

(١) تتكون مصر الوسطى من ولايات الجيزة ، والبهنسا ، والفيوم، واطفيح ، والأشمونين ، وقد اخذت الثانية والأخيرة أثناء الادارة الفرنسية اسمى : بنى سويف ، والمنيا ، على اسم مدينتين رئيسيتين كان يغرقهما الفيضان ، بينما كانت الأماكن الداخلية في منأى عن هذا الفيضان لوجودها في الداخل بعيدا عن مجرى النيل . ويتفق موقع هذه الولايات الخمس مع موقع اقليم هبتانوميد Heptanomide الذى كان يضم مدن : ممفيس Memphis اكسيرينشيس Oxyrynchus وهيراكليوبوليس Heracléopolis وافروديتو بوليس Aphroditopolis وانتينوى Antinoé وكينوبولبس Cynopolis وهرموبولس الكبرى Hermopolis magna
وفي أثناء السنوات ١٧٩٩ ، ١٨٠٠ ، ١٨٠١ ، عبرت هذه البلاد وجمعت هذه المذكرات التي تنطبق اكثر ما تنطبق وبوجه خاص على ولايتي أطفيح والأشمونين .
ومن الضروري أن نتذكر ذلك ، للاحاطة بالظروف التي كتبت فيها هذه المذكرة .

اننى كنت مصحوبا فى جولاتى على الدوام بفرسان من نفس هذه القبائل، او اننى كنت اقيم بينهم . وسوف أولى اهتمامى بشكل اساسى ،بالعربان فى علاقاتهم المعتادة مع البلاد ، وعلى ذلك ، فان هذه الملاحظات — مع انها قد تبدو للوهلة الأولى منعزلة — سوف تساهم فى تقديم ملامح لهذه الأمة الفريدة ، وفى خدمة تاريخها .

وحيث يمارس العرب المزارعون فى مصر نفوذا كبيرا ، وحيث أن طباعهم وعاداتهم ليست معروفة لنا جيدا ، فسأبدأ بما يوضح احوالهم، ثم أعرض بعد ذلك ملاحظاتى عن العرب البدو الرحل وهم فى وقت معا محاربون ورعاة . وينبغى أن تنقسم الطبقة الأولى الى طبقتين اخريين : الاولى وهى التى استقرت فى مصر منذ مدة طويلة وهى من اصل آسيوى، ويزرع هؤلاء الأرض بأنفسهم ، ويسكنون المدن التى تقع فى غالب الأحيان على شواطىء النيل ، أما الأخرى فلم تعمل بالزراعة الا منذ فترة قريبة وتتكون بصفة أساسية من عرب قدموا من شمال افريقيا، وهؤلاء الأخيرون يشغلون جزءا من ارض الشاطىء الأيسر « الغربى » وهم فى غالبيتهم يقيمون تحت الخيام ويستزرعون أرضهم بواسطة الفلاحين اى ابناء مصر، ولهؤلاء وأولئك مقر ثابت ويخضعون للضرائب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

العرب المزارعون

١ ـ القبائل التى استقرت فى مصر منذ زمن بعيد :

هناك عائلات عربية بدأت الزراعة فى مصر منذ دخول الاسلام ، وهناك أخرى أقبلت على احتراف الزراعة فقط منذ دخول الأتراك ، وقد زاد تعداد هذه العائلات بشكل كبير . ولقد طور هؤلاء الزراعة والصناعات الزراعية بأكثر بكثير مما صنع الفلاحون ، الا تدار أرضهم بعناية أكبر ، وهى كذلك أفضل ريا ، كما أن قراهم أكثر ازدحاما بالسكان وبشكل عام فانه يكاد يعود الى العرب فضل زراعة وصناعة السكر فى مصر الوسطى . وحيث أنهم يكادون يسكنون جميعا شاطىء النيل الأيمن « الشرقى » وهو ضيق الاتساع بعض الشىء حيث يحدق به الجبل ،فانهم لم يدعوا نقطة واحدة لم يزرعوها بدءا من مجرى النيل وانتهاء بسفح الصخور . ولهذا نجد لهذه القرى ملمحا خاصا يميزها بسهولة على القرى الأخرى ، ويمتلك السكان الخيل والجمال بأعداد كبيرة ، كما كان يفعل آباؤهم من قبل أن يقبلوا القيام بأعمال الزراعة وقبل امتلاكهم بالتالى لمراع وفيرة ، ومع ذلك فعند أول اشارة للحرب يرى المرء هؤلاء المزارعين وقد تحولوا على الفور الى فرسان يتسلحون بالحراب شأن البدو ، بل ويعسكرون فى السهول الى جوار مساكنهم الخاصة .

ومن السهل أن نميز هؤلاء عن الفلاحين عن طريق تقاطيع وجههم وطباعهم وكل خصالهم ، فلقد استمر الدم العربى يتدفق فى عروقهم دون اى اختلاط حتى أنك لا تستطيع أن نميز ملامحهم عن ملامح العربان

المحاربين ، فما أن يمتطوا الخيول ويتلفعوا بالبرنس (٢) حتى نعـدم كل وسيلة للتعرف عليهم . فقد احتفظوا بخطوط الوجه ، وبخاصـة بالعينين الصغيرتين اللامعتين اللتين تميزان هذا الجنس ، وان كانوا قد احتفظوا فوق كل شيء بروح الجشع والضراوة والشجار والمماحكة .

وجيرة كهذه لا يمكن أن تكون بالنسبة للفلاحين سوى كارثة ، فهم يجورون باستمرار على اراضى الأخيرين ، مرة تحت الادعاء بأن النيل قد اكل جزءا من أراضيهم وأن عليهم أن يستعيضوا عنهـا من أراضى الشط الآخر من النهر ، ومرة أخرى بادعاء حقوق قـديمة مزعومة قـد تعـود حسب أقوالهم الى عشرة اجيال ، وأخيرا فانهم عندما لايجدون ذريعة يمكن أن تسعفهم فى جورهم هـذا ، فانهم يركبون خيـولهم ويسـتولون بقوة السلاح على الأراضى التى تناسبهم . وليس ثمة مثال واحد على أن محاولة من هذه المحاولات لم تلق نجاحا ، واذا حدث أن استنفرت بعض القرى أبنـاءها لمقاومتهم بالقوة فانها تدفع ثمن ذلك باهظا ، ويجد العربان أفضل دعم لادعاءاتهم فى قوة سلاحهم وكثرة تعـدادهم عن الآخرين .. وهكذا يعيش الناس فى مجاورتهم فى خوف لاينقطع وعلى مر الأيام يتناقص سكان القرى المحيطة بهم حتى تهجر تماما .

وتبنى الأخصاص التى يسكنونها بشكل ردىء . واذا ماأردنا الدقة فاننـا نقول بأن هذه ليست فى غالب الأحيـان سوى أكواخ ، فى حين يجد المرء فى قرى الفـلاحين على الدوام بيوتا مناسبة وجيدة البناء (٣) . ولا يرى فى قرى العربان بيوت للمماليك ؛ فهؤلاء لا يذهبون مطلقا للاقامة بين العرب وهم لا يحصلون الضرائب من هناك الا بمشقة بالغة مع ترك تقديرها على الدوام لادعاءات مشايخ هذه القرى ، لذلك يمكن القول بثقة بأن المماليك لم يكونوا يحصلون على ضريبـة عن كل مصر ، ولنفس هذه

---

(٢) رداء أبيض اللون ، مزود بغطاء للرأس ، ومصنوع من صـوف تتفاوت درجة نعـومته يغطى به العربان كل جسمهم فيما عـدا الوجـه والأطراف .

(٣) ومع ذلك فهناك قرى عربية مثل بنى حسن وبرشة وقرى أخرى مبنية على نحو طيب .

الأسباب لاقى الفرنسيون كبير عناء فى تحصيل الضريبة من كثير من هـــذه القرى ، التى لم تكن تدفع ضرائب على الاطلاق لأى شخص .

ويكاد يكون سكان كل قرى الشط الأيمن للنيـــل فى ولايات أطفيح واشمونين ومنفلوط من العرب القدامى الذين ينتمون الى قبيـــلة تسمى العطيات : وكثير من هؤلاء لم ينخرطوا فى الزراعة الا منذ عهد على بك، كما أنهم لم يستقروا فىوادى الطير وطهينة الا منذ عشر سنوات .وتستمد القرى المعروفة باسم العمارنة اسمها من اسم جدها ، وهو عربى قـــديم يسمى عمران ، قـــدم من بلاد الحجاز الى مصر ، فخرب تلك المدينة الكبيرة الواقعة بين الحواطة والتل وبنى من حولها بعض المساكن . ولقد تصارع أبنـــاؤه لسنوات طويلة على امتلاك الأراضى الواقعة على شاطىء النهر، ولا يزال أحفـــاد هؤلاء حتى اليوم متنازعين حول الأمر نفســـه . وقـــد شاهدت بنفسى شجارا قام بين سكان بنى عمران وســـكان نزلة ســـعيد بسبب اختطاف احدى السيدات على يد واحد من أفراد احـــد الفريقين : وقد قتل مدبر هذا الشجار ، ووضع موته حدا للمعركة ، فقليل من الدم المسفوح يهـــدىء فى العـــادة كل هذه الحروب العائلية لفترة من الزمن على الأقل .

وليس ثمة قرية عربية الا وبها عديد من المشـــايخ ، ويعيش هؤلاء الشيوخ عادة فى شقاق فيما بينهم ، وبذلك تبدو قراهم منقسمة الى اجزاء عديدة متميزة وسرعان ما تؤدى العداوة التى تسود بينهم الى الاقتتال ، وينساق الى خوض هذه المعـــارك الأهل والأصـــدقاء ، ويحدث أن يموت احـــدهم بعد وقت يطول أو يقصر ، وتضطر أسرة القتيل الى الفرار مع جزء كبير من السكان ، ولكن الى اين وقـــد انتزعت عنهم كل أراضـــيهم ومنشآتهم وعقاراتهم ؟ لـــكن لا تظنن بهم الحيرة ، فلسوف يتجهون الى مسافة فرسخين من ارض المعركة ، ويقيمون فوق أراضى الفـــلاحين اما باستخدام القوة الصريحة عندما يكون المهزومون بعد أكثر قوة ممـــا يلزم لصـــدهم عن هذه الأراضى ، وإما عن طريق المخاتلة عندما يعدون بهزيمة خصومهم وتعويض الفـــلاحين عن أراضيهم ، بتلك التى سيستولون عليها . وهكذا رأينـــا مصر ، عاما بعد عام ، تغص بهذه القرى الصـــغيرة التى ليست سوى أكداس من الأكواخ ليس بها نخلة واحدة ، وتحمل كل منها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسم الشيخ العربي الذى أسسها ، ومن اللافت للنظر انها تسمى نزلة أو نزل وهى كلمة تعنى النزول . انها اذن نوع من المستوطنات تدين بنشأتها ككثير غيرها الى الغزو واستخدام العنف ، ويمكن أن نذكر فى هذا الصدد اسماء نزل أبو جانوب فى ولاية اشمونين أو المنيا ونزل المطاهرة فى اطفيح ونزل بنى حسن (٤) وثلاثين نزلا آخر ، وهكذا تستمر مشاحنات القرى العربية خلال الأجيال حيث هناك ماينبغى الحصول عليه ، سواء كان ذلك لصالح الحزب المنتصر ، أو كان ذلك لصالح الحزب المهزوم .

ومعظم الجزر ذات الأهمية مملوكة للعرب . ولكن اذا ماعدنا الى اصل هذه الملكية فسنجدها قد قامت على الاستبداد والظلم ، اى أنه تحت الادعاء بأن النهر قد أكل أراضيهم وأن من حقهم الحصول على شواطىء الجزر المقابلة متذرعين بذلك المثل المصرى القائل بأن النهر يرد من جهة ما أخذه من جهة أخرى ، ثم بعد ذلك يتوغلون باطراد فى داخل هذه الجزر ثم ينتهى بهم الأمر بطرد سكانها القدامى ، وأعرف على ذلك امثلة عديدة، ولكن اكثرها اهمية بلا جدال هو مثال جزيرة الزعفرانة الكبرى التى كانت ملكا لقرية منشية دعبس (٥) والتى انتزعها سكان قرية الشيخ تمى وسكان قرية بنى حسن ، وهما قريتان عربيتان تقعان فى مواجهتها ، وانتزعوها حديثا من فلاحيها دون مراعاة لأبسط قواعد الشكلية ، وحيث كان الأمر سوف يستغرق كثيرا فى تبين الحدود القديمة التى نماها الفيضان وتنظم حقوق كل طرف بالتالى ، فقد سلك العربان الطريق الأقصر وهو طريق العنف ،فقطعوا النخل المزروع بالجزيرة وخربوا بيوت القرية وقتلوا شيخ المنشية وجرحوا ابنه ومعه كثير من الفلاحين ؛ ويعيش فيها العرب اليوم ملاكا آمنين بينما هى تعد واحدة من اجمل جزر النهر .

وتضع القرى العربية أيضا يدها على الأراضى التى تتاخم الشاطىء الأيسر للنهر ، وقد حصلت على هذه الأراضى بنفس الطريقة التى حصلت

---

(٤) عقب المعارك التى نشبت فجأة فى بنى حسن ، والتى جعلت اهاليها يتركونها منذ خمسين عاما ، كون الأهالى اثنين من هذه النزل أو القرى التابعة تحت قيادة أبو عمر . وقد انفرط عقد هذين النزلين من تلقاء نفسيهما اذ اتجه سكانهما الى الشط الأيسر ليكونوا هناك قرية تسمى كرم أبو عمر .

(٥) تقع على بعد حوالى اربعة فراسخ الى الجنوب من مدينة المنيا.

بها على اراضى الجزر بلا جدال ، وتمتد هذه الملكيات الى ربع الفرسخ داخل الأرض ، وهناك فوق هذه الأراضى الرملية ، التى يغرقها النيل ثم ينحسر عنها على التوالى يزرع العرب التبغ والبطيخ وصبغة النيلة كما يزرعون قصب السكر ، كل ذلك بقصد تدعيم حقوقهم فى هذه الأراضى. هكذا يرى المرء اطراد زيادة ممتلكاتهم فى مصر ، ولست اشك فى أنهم سوف يستولون بطريقة غير محسوسة على اكبر مساحة من الأرض اذا لم تضع الحكومة (٦) حدا لغزواتهم ، واذا لم تسن قوانين محددة بالنسبة لحدود الأراضى ، وفى الواقع فاننا نرى ان هذا السلوك الاستبدادى للعرب المزارعين سيؤدى بهم أن يصبحوا سادة لمجرى النيل ، اى لتلك القطعة الأكثر اهمية من ارض مصر بالنسبة للتجارة ولشئون الدفاع عن البلاد ، بل لقد اصبحوا كذلك بالفعل مع بعض التحفظ حيث يوجد فى قراهم اكبر عدد من النوتية « المراكبية » والعدد الأكبر من الصنادل والقوارب من كل نوع ، ومع ذلك فنحن لم نر الا فى عدد قليل من هذه القرى قوارب مبنية ، وقد يكون علينا أن نضيف بهذا الصدد بأن بقية انواع القوارب التى لديهم تأتيهم عن طريق السلب .

وفى بعض الأحيان يستولى سكان الشاطىء الأيمن على قطعة من الأرض تقع على الشاطىء الآخر ويزرعونها دون أن تكون لهم هناك قرى، وفى أحيان اخرى يبتنون هناك لأنفسهم دون أن يكون ثمة ارض لهم، وفى هذه الأحوال يزرعون أراضى القرى المجاورة ، لكنهم على الدوام لا يحصلون لأنفسهم على هذه المساكن الا باستخدام العنف ، ويحدث هذا عندما تجرد أسرة أو اكثر من أسرة من ارضها وفى هذه الحالة يعبر هؤلاء النهر بلا تردد ويبتنون لأنفسهم فى عجلة اكواخا تتحول شيئا فشيئا الى قرى ، ويستأجرون من جيرانهم بالقوة بعض أراضيهم مع احتفاظهم بحق املاء الشروط .. وهكذا .. ففى الوقت الذى يدفع فيه الناس فى بلاد اخرى ثمن اقامتهم ، فان العرب هنا يبتزون أولئك الذين يستضيفونهم .

---

(٦) اقصد بكلمة حكومة هنا حكام مصر الذين يحكمونها حسب انظمة أو مؤسسات البلاد كما سلك الفرنسيون اثناء حملتهم ، وكماسلك المماليك انفسهم ، ويستطيع القارىء الذى قد يرغب فى الحصول على معلومات خاصة حول حكومة مصر أن يعود الى الدراسات الخاصة بهذه المادة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد قابلت من شيوخ القرى العربية بعض الرجال لا يشاركون قومهم هذا الميل نحو السرقة والعنف ، على سبيل المثال فى قرى وادى الطير وزاوية الميتين بالقرب من المنيا ونزلة نوير وأماكن أخرى . وقد قدمت بعض هذه القرى خدمات للجيش الفرنسى حيث يملك سكانها وسائل أوفر مما يملك الفلاحون سواء فى الخيول والجمال أو سواء فى العلف ، وفى نفس الوقت فبالعناد الآخرين واصرارهم على رفض اداء الضريبة ، وكم قتل هؤلاء من جنودنا !

وحيث اننا لا نعرف جيدا الكيفية التى تغيرت بها ملكية أراضى مصر عند دخول العرب ، فقد يجوز لنا أن نستنتج أن الجزء الأكبر من الجيش العربى بعد الاحتلال الكامل للبلاد قد عاد الى آسيا وان جزءا منه بعد أن سرح ــ قد انتشر كثير من افراده فى مصر وعاشوا على السلب والسطو ، ولأن هؤلاء كانوا أضعف من أن يسيطروا على الوادى الكبير فقد استقر بهم المقام على الشاطىء الأيمن حيث تحدق الصخور فى غالب الأحيان بالنهر ، وهناك أخذوا يتقدمون خطوة بعد خطوة من الرمال حتى بلغوا الأراضى المزروعة ، وبعد ذلك أصبحوا مزارعين ، ثم بشكل غير محسوس ، ملاكا لقرى هذا الشاطىء بعد أن طردوا سكانها بفعل الخوف والرهبة من العدو والسلاح .

قلت ان هؤلاء المزارعين « العرب » هم الأحسن تسليحا . وفى الواقع فان قراهم تهيىء وفرة كبيرة فى البنادق والطبنجات والمسدسات والسيوف .. الخ .. لكن مهارتهم كبيرة فى اخفائها ، وهناك سلاح نادرا مايتركونه ، وهو ماينقص فلاحيهم ــ أقصد بذلك تلك الحربة القصيرة ، يضعها على الدوام الى جانبهم الفلاحون البسطاء بل واكثرهم فقرا ، وهم الذين يعملون فى ري الأراضى ، وعندما يتجمع هؤلاء بأعداد كبيرة للقيام بعملهم ، الأمر الذى يحدث غالبا فى الشتاء ، يرى المرء على راس الترع غابات من الحراب المرشوقة بالأرض ولا يمكن تصور أن هذا السلوك يقصد من ورائه الذود عن املاكهم ، اذ ان هؤلاء لايكادون يملكون شيئا ، بل ولا يمكن تصور أن ذلك يتم بقصد حماية ملابسهم لأنهم يذهبون الى عملهم شبه عراة ؛ لكن عادة أن تكون مسلحا هى عادة مطبوعة عند العرب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما نكون لك مصالح ينبغى ان تسويها معهم ، سواء كان ذلك مع كبارهم أو مع أبناء الطبقات الدنيا منهم فستلمس فى استقبالهم فى البداية شيئا من الفتور والاستخفاف والصمت المتصنع ـ أما اذا حدث أن ابتسموا لك ، فلابد أنهم بذلك يقصدون خداعك ، فالكذب عادة متأصلة فيهم ، وبخاصة فى علاقتهم مع الفلاحين والأوربيين ، ومهما يكن كذبهم هذا مطبوعا ، فانهم لا يمارسونه طواعية ، وبهذا القدر من الطبيعية والنجاح ، الا اذا كانوا بصدد التعامل مع هؤلاء الآخرين . ويتحدث الناس كثيرا عن فضائل العرب ، وعن صراحتهم ، وعن العقيدة الدينية التى تدعم كلمتهم ، وعن ميلهم الى اكرام الضيف .. لكن أيا يكن الأمر من هذه المزايا ، فان عليك أن تبحث عنها فى مكان آخر ، وليس عند هؤلاء العرب الذين يقطنون مصر ، فهذه الفضائل ، عند هؤلاء لاتكون مطلقا على حساب مصالحهم الخاصة ؛ فالزيف والرياء والكذب ، هى أسلحتهم المعتادة ، وليس ثمة مايفوق مالديهم من تصنع وعنف ،حين يريدون تنفيذ مآربهم ، وبصفة خاصة عندما يتعاملون مع آخرين ، من غير العرب .

ووقت تصنيع السكر ، يتعرف المرء من بعيد على القرى التىتحدثت عنها عن طريق صوت الطواحين ورائحة ثفل القصب ودخان المداخن ، اما عن قرب فانك تستطيع تمييزها على الدوام وفى كل الفصول ..وكأمر مؤكد ، عن طريق ملامح السكان وتقاطيعهم . ففى الواقع ، فانك ستجد فى أول رجل تقابله هذه العيون اليقظة التى ليست الا للعرب . وعندما يبرز فى قراهم رجال لا يعرفونهم فان تماسكهم يضطرب كما يحدثللصوص اخذوا على غرة ، ومع ذلك فان حيطتهم تبلغ درجة لا يمكن تصديقها ، وعندما يبلغهم نبأ اعتزام بعض الفرق « العسكرية » المرور بقريتهم فانهم يخبئون دوابهم وخيولهم أو يرسلون بها الى الصحراء ، وعندما تصل الفرق بينهم ، يحتفظون بهدوئهم ويظلون بلا حراك ، فيما عدا نأمات ملامحهم ، وتلك النظرات الكئيبة والحزينة التى تقذف بها أعينهم ، ولكن ينبغى أن يكون مفهوما أن هذا السلوك يحدث فقط من أبناء الطبقات الدنيا وان كنت قد شاهدت شيوخا يمكن أن ينطبق هذا الوصفعليهم . وختاما ، فاننا اذا نحينا جانبا هذا المظهر الخارجى وهذا الاستقبال

المعيب ، فلابد أن نتفق على اننا كنا فى معظم الأحيان نجد فى هذه القرى مئونة اكثر بل وتعاونا افضل مما كنا نجده فىقرى الفلاحين، وان كان الأمر فى ذلك يعود الى أسباب كثيرة منها انه يوجد فى القرية العربية مشايخ عديدون لابد أن يكون من بينهم ولو واحد علىالأقل، يتقدم الصفوف ويتعهد بتقديم المئونة المطلوبة شريطة ان يحصل على ثمنها ، ومنها كذلك أنه مع تساوى درجة مقت الفلاحين والعرب للأوربيين ، الا أن ما لدى العرب من ثروات غذائية ودواب يفوق ما لدى الأولين ، كما أن ما لديهم منوسائل فى كل ضرب أكبر بكثير مما لدى اولئك ، ومنها أخيرا أن الشيوخ فىالقرى العربيـــة يبدون اكثر سطوة على مزارعيهم ، من ذلك النفوذ الذى يحوزه الشيوخ فى القرى الأخرى .

والمحصولان الرئيسيان عند العرب همـا قصب السكر ومحاصـــيل الاعلاف مثل الحلبـــة والبرسيم .. لأن ما لديهم من جمال وخيل وماشية اكثر مما لدىالآخرين ، ويأتى بعد ذلكالذرة والشعير والقمح والخضروات، وحيث تلقى الزراعة عندهم عنـــاية أكبر ، فاننا نجد لديهم من الشواديف أكثر مما نجـــد فى أى مكان آخر ، ويبـــدو الرجال الذين يديرونها وكأنما يستعصون على التعب ، وهم يقتنون هذه الآلات من أجل زراعات القصب والقمح والشعير الشتوى ، وكما يولون بالمثل عناية فائقة بخيولهم .

وكثيرا ما يستخدم العرب فى زراعات الـــذرة وكذا القمح نوعا من السماد يعرف بالسباخ ، وهو عبـــارة عن الرماد والأتربة التى تستخرج من أنقاض المساكن القـــديمة ، وهى التى تحتوى على نسبة كبيرة من نترات الصـــوديوم . وهم ينخلون هـــذا السباخ لاستخراج قطع العملة والمـــاديات والأنتيكات من كل نوع والتى تحتويها عادة ، وحيث أن القرى العربية أكثر سكانا من غيرها فان من يعملون بها بهذا العمل ، اكثر ممن يفعلون نفس الشيء فى قرىالفلاحين الذين يستخدمون بالمثل هذا السماد.

ويزرع سكان القرى العربية بوفرة أشجار النخيل كما رأينا فى بنى حسن وكذلك بالقرب من انتنوى ويزرعون كذلك الكثير من أشجار الأكاسيا والنبـــق . لكنى لم أر مطلقـــا حـــدائق فى القرى ، فالعرب لا يفعلون مالا ضرورة له حتى ولو كان بقصد المتعة ، وهم يبتنون مســـاكنهم على

الدوام تقريبا على حافة الأراضى الزراعية ، او فوق أرض لا تزال تغطيها الرمال رغبة فى الاقتصاد فى الأرض القابلة للزراعة .

وفى تلك المساحة الضيقة من الأرض الواقعة على الشط الأيمن ، حفر العرب المزارعون كثيرا من الترع والقنوات التى تاخذ مياهها من النيل ، ولقد حفروها بعناية كبيرة ؛ ولا تروى اى من هذه الترع الا اراضى القريه التى حفرتها ،وهذا أمر ضرورى بالنظر الىقلة عرض الأرض هناك، لكننى لم اشاهد جسورا بين ارض واخرى واقصد بذلك جسورا كبيرة لانه نوجد جسور لا مفر منها فى حقول الذرة ، واظن ان غيبة هذه الجسور كانت أمرا لابد منه حتى يكون من الميسور تماما انشاء ترعة او ترعتينبكل قرية ، دون أن يتكلف الأمر مصاريف باهظة ، ولرى الأراضى دون انتظار للمياه التى يمكن أن تجىء من القرى العليا « الجنوبية » ، وهناك سبب ثان لذلك ، وهو أن صيانة هذه الجسور — حالة وجودها — وقطعها واعادتها سوف تكون موضوعات مستمرة للشجار .

والصناعات الرئيسية لعرب هذه القرى هى تلك التى ترتبط بمحاصيلهم أى صناعة السكر (٧) وصناعة صبغة النيلة . وتغزل نساؤهم الصوف ، ويصنعون منه فى قراهم عن طريق بعض المسيحيين ، او بعض الفلاحين الذين يرى أولئك ان يسمحوا لهم بذلك ، اثوابا خشنة تسمى بشت ، وهو قماش غامق اللون يستخدمه الفلاحون رجالا ونساء فى صنعملابسهم،اما الاكثر ثراء من بين هؤلاء فيشترون اثوابهم وطربوشهم(٨) من المدن .

واكبر تجارة لدى العرب هى تجارة السكر والبلح .. وهم يذهبون لبيعها فى مصر العتيقة ، لكنهم يحتفظون بالقمح والشعير لاستهلاكهم او من أجل استهلاك خيولهم . أما فى الأسواق فيبيعون الماشية ودوابالحمل كما يبيعون الصوف وكميات قليلة من فحم السنط .

---

(٧) يصنع العرب السكر بكميات كافية بحيث قلما يتجاوز ثمنالقنطار ٤ ريالات (بوطاقات) وبذلك يكون ثمن الرطل زنة مارك (marc) ٥ — ٦ سو (sous)

(٨) نوع من غطاء الرأس . أحمر اللون . ومصنوع من الصوف ، بلف من حوله العمامة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولدى الشيوخ معلومات دقيقة عن أعماق الوديان فى الصحراء ، ولكنهم يدينون بمعرفتهم تلك للبدو الذين يتصلون بهم على الدوام للتزود بالأشياء الضرورية لحياتهم ، وعن طريق هؤلاء يعرفون مخارج الوديان واتجاهات الاخوار أو مياه الأمطار وبذلك يعرفون كل المناطق التى يمكن لهم ان يجدوا بها الماء ، وهم يستطيعون تمييز الطرق القابلة للاستعمال من تلك التى لا تصلح لهذا الغرض ، وهكذا يستطيعون حسب مشيئتهم ان يقدموا خدماتهم او يمنعوها عن الفرق « العسكرية » التى تحتاج الى التوغل فى الجبال ، وبذلك يكون فى مقدورهم ان يسلموهم الى العطش ، وان يضللوهم وأن يجعلوهم يهلكون فى الصحراء . ولقد انحاز كثير من هؤلاء الشيوخ الى المماليك ثم الى الفرنسيين ، كل بدوره ، فى تلك الحرب الأخيرة ، ودائما أبدا من أجل الحصول على المال . وفى معظم الأحيان كانوا يرشدون الفرق الفرنسية الى طرق عكسية لتلك التى كان عليهم أن يسلكوها للحاق بالمماليك ، لذلك فنادرا ما استطاع الفرنسيون أن يأخذوا هؤلاء على غرة ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الكثير من العربان نافعين لنا ، وكم أرشدونا الى الطرق التى تصلح لمرور المدافع وتلك التى يستطاع فيها سقاية القوافل .

وليس هناك ما يمكن قوله حول طعام العربان دون أن يكون الأمر منطبقا على طعام الفلاحين ، فطعامهم يضم بالدرجة الأولى خبز الذرة واللبن والبيلاف « طعام شرقى يتكون من أرز ولحم وتوابل » . أما طبقهم الكبير المشتمل على الخروف والدجاج المسلوقين معا فشهى ولذيذ الطعم ، وبصفة عامة فانهم يتغذون على نحو ما بشكل أفضل من بقية السكان ، ويفعل أولئك مثلما يفعل هؤلاء حين يقيمون الكثير من أبراج الحمام .

وهناك فرق ملحوظ بين هؤلاء العرب وبين غيرهم من العرب الآخرين ، ذلك هو أنهم لاينطقون اللغة مثلهم لكنهم ينطقونها مثل الفلاحين ، فهم على سبيل المثال لا يعطشون الجيم فيقولون جسر وجامع بدون تعطيش للجيم كما يفعل الفلاحون وليس بتعطيشها كما يفعل العرب المحاربون « البدو » . وبالمثل فهم لا يقولون ثلاثة « بالثاء » وانما تلاتة « بالتاء » . وهذه الملحوظة تشمل أكبر عدد منهم ، ومع ذلك فكثيرون منهم ينطقون اللغة على طريقة البدو .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولسكان هــذه القرى ملامح اخـرى مشتركة مع الفـلاحين ، فهم يشاركون هؤلاء فى تلك اللامبالاة بل فى ذلك النوع من الازدراء الـذى ينظرون به نحو الآثار القديمة المصرية والرومانية ، وهم لايقدرونها الا من اجل ما يعود عليهم منها من نفع عندما يحصلون منها على مواد تصـلح لاحتيـاجاتهم اليومية .. وفضــلا عن ذلك فهؤلاء ليسوا اقل من أولئك جهلا وخرافة بخصوص الأصل الذى ينسبونه لهذه المبانى ، فهم يعتقدون أن الجن هم الذين حفروا المحــاجر والمغارات وشيدوا القصور والمعابد، بل ويدعون أنهم يعرفون أسماء وتاريخ هؤلاء الجان .

وهناك شكوى لا تنقطع من هؤلاء اللصوص المرعبين الذين يسكنون شواطىء النيل فى الصعيد ، وانه لمن الخطأ أن نتهم ابنــاء البلاد ،فليس هؤلاء اللصوص سوى سكان هذه القرى العربية ، ومهـارتهم فى ذلك تفوق التصور ، وهى شائعة ومعروفة لحد سيكون مضيعة للوقت أننضرب هنــا الـكثير من الأمثلة . ولقد كانت فرقتنا فى الصعيد شهودا على الوف الأساليب الجسورة والوقحة ، والتى تبعث على الدهشة دائما ، ويجــد المرء صعوبة فى تصـديقها على الرغم من كونها وقائع . فـكم من مرة اخفوا الخيول وهى على مقربة من فرسانها ، أو اخذوا الأسلحة من موقع أو داورية استطلاع أو من الحراس أنفسهم ! ولقد كنا نرى هؤلاء الرجال يختبئون فى النهار بين أكداس العليــق « العلف » ، ويخرجون بالليــل ليمارسوا السرقة ، وكنا نجدهم عراة يكادون يقطعون النفس بين هــذه الاكوام ، ومعهم الأسلحة التى اخذوها .. بل لقد انتزعوا حقائب وبنادق من تحت رءوس الجنود ، وسرقوا السـيوف وهى الى جانب حقـائب الضــباط !.

وهناك من هذه القرى ، من يمارس كل سكانها — بما فيهم شيوخها انفسهم — مهنة اللصوصية . فهم يقطعون الطريق ويسلبون الصـنادل مهما تكن حمولتها ، كما ينهبون الأسواق والمسافرين ، ولدى البعض منهم قوارب يستخدمونها فى الهجوم على الصنادل الملاحية ، وبعض هؤلاء ياتى سابحا لينتزع بمهارة كل مايستطيع الامساك به . ويمكن أن نـذكر نزلة النوايل ، وهى قرية تقع على الشط الأيمن الى الشمال قليلا من منفلوط، كمثال لقرية كل سكانها لصوص محترفون ، ولقد قيل لى أن المماليك قـد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قتلوا من سكان هذه القرية ستين رجلا دفعة واحدة منذ عدة سنوات . لابد أن تكون بلاد كهذه بائسة لحد كبير ، لا حماية فيهـا ولا أمن ، حتى تحدث فيها كل هذه السرقات وأعمال قطع الطريق دون أن تقمع ، وفي الواقع فان هؤلاء يرتكبون هذه الجرائم دون أن يلقوا أدنى عقاب ثم يعودون بعد ذلك الى أعمالهم . بل أنهم يدفعون الضرائب . وهنـاك سكان قرية أخرى مثل بنى حسن لا يجرؤون على الاقامة فى بيوتهم المبنيـة بشـكل جيد ، ويفضلون الاقامة فى أكواخ من البوص وسط أشجار النخيل حتى ينفذوا مشروعاتهم بشكل أفضل ولكى لا يكونوا فى متناول يد البحث « عن اللصوص » وما أن تصل قراهم حتى يستولى عليهم الفزع ، وذلك الشعور اللازم للجريمة ، مما يجعلهم يجرون أمامك فارين فتجد المنازل مهجورة ، وتكاد لا تعثر فيها على عجوز تعطيك جرعة ماء .

والجانب الأكبر من القرى السبع التى يطلق عليها فى مجموعها اسم العمارنة وأهمها قرية بنى عمران قد احترف هـذه المهنة المزرية ، وقـد شاهدت عرب هذه القرى يوقفون بلا حياء ، وفى وضح النهار قاربا كان يتجه الى الجنوب لينتزعوا منه النسـاء على الرغم من صـيحاتهن ومن مقاومة الملاحين . وثمة واحد من أكثر المشاهد التى رأيتها فى حياتى تهورا ووقاحة ، قـد رأيتـه عند ركوبى النهر . كان ريس أو ملاح صـندلى واقفا ممسكا بالمجداف فى يد ، وفجأة خرج واحد من سكان العمارنة ، وصعد الدفة ، وانتزع من فوق رأس الريس العمامة والطربوش وسـارع بالقاء نفسه فى النيل ، واختفى تحت الماء ، وظل غاطسـا لوقت طويل ليخرج بعد ذلك على بعد ٤٠٠ قامة من هناك ، على الشاطىء المقابل للنيل .

٢ ـ القبـائل التى استقرت حديثا :

لقد جاءت كثير من القبائل العربية القادمة من شمال أفريقيا لتستقر فى مصر منذ حوالى قرن . وقد حصل هؤلاء العرب على أراضى عدة قرى وزرعوها أو استزرعوها فى غالب الأحيان : وهم يزرعونها عادة بمحاصيل العلف ، ويرعون فيها خيولهم ودوابهم لمدة تسعة أشهر فى العام ، ومن بين هؤلاء ، تلك القبـائل التى تعرف بأسماء : بنى وافى ، أبو كرايم ، محارب ، الطحيوى ، وهنـاك قبائل أخرى قد تفرعت عن هذه القبـائل الأساسية .. ولا تزال القبيلتان الأوليان وتلك القبائل التى تفرعت عنهما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مثل الجهمة والطراهونة يسكنون تحت الخيام ، لكنهم لا ينصبون هذه الخيام الا فوق أرضهم او فوق الأرض التى يستأجرونها ويدفعون عنها الضرائب . ومع ذلك فانهم لا يستسلمون مطلقا للهزيمة اذا ما هاجمهم عربان الخيش ، فلديهم هم أيضا خيامهم ورماحهم ، وجمالهم وخيولهم معدة على الدوام للجوء الى الصحراء اذا ماحدث أن جردوا من الأراضى التى تملكوها .والمعارك والمشاحنات كثيرة بين هذين الفريقين من العرب. وقد شهدت كثيرا من المعارك الدامية ورأيت عند هذا الفريق وعند ذاك شجاعة حقة او بالأحرى سلوكا مليئا بالشراسة والبغض والأحقاد .

ويشكل العرب « المزارعون » الذين لا يزالون يستخدمون الخيام حدا فاصلا بين العرب المزارعين الذين تحدثت عنهم فيما سبق وبين العرب المقاتلين أو الرعاة . فهم يتميزون عن الأولين بأنهم لا يشكلون جزءا من سكان القرى وبأنهم لا يزرعون مطلقا بأيديهم ، ويتميزون على الآخرين « البدو » بأنهم لا يغيرون من أماكن اقامتهم أو على الأقل المنطقة التى يقيمون فيها . وهناك شيخ معين من بينهم يمتلك أراضى ثلاث أو أربع قرى بحكم كونه ملتزما « ملتزِم » ، وهو أغنى شيخ فى كل الولاية .لذلك فهؤلاء العرب مرهوبون من جانب الفلاحين ، ويحرص هؤلاء على ارضائهم اذ يرون على أبواب قراهم مايصل الى ستمائة فارس مستعدين لانزال العقاب عند ظهور أدنى مقاومة (من جانبهم ضد العرب) .

بل يمكن القول بأن الفلاحين يحترمونهم كسادة لهم ، ويستقبل اقل واحد من هؤلاء العربان شأنا ، سواء كان مسافرا على ظهر جمله ، او سائرا على قدميه ، باحتفال فى الريف فيهرع اليه الناس حاملين الماء ان كان عطشانا ، والبلح والخبز ان كان جائعا ، أو على الأقل، فان أى فلاح هناك يستجيب لتقديم هذه الأشياء عند أول طلب . ويسير العرب على الدوام مسلحين ببندقية ذات حمالة ، وعندما يركبون الخيول ، فانهم يتسلحون بالاضافة الى ذلك ، بحربة ورمح قصير فى اليد . اية مقاومة يمكن أن تبديها هذه القرى ، ضد جماعات الفرسان هذه ، والتى تتهاون معهم الحكومة ، فى حين أن رؤساءهم أنفسهم من كبار الملاك؟ انك لاتستطيع أن تحصر عدد الجرائم والمظالم والأعمال الجائرة التى يرتكبها هؤلاء الفرسان، ففى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسواق القرى على سبيل المثـال حيث يتجمع الناس فى شكل جمهور ليبيعوا الماشية والبلح والذرة والدخان .. الخ ، يكون كل الغنم فىجانب العرب ، اذ هم يفرضون بسهولة سطوتهم على الحشد ، فليس هنـاك من فلاح واحد يكون بمقدوره أن يجادلهم فى ثمن أى شىء يعرضونه ، والا يعطيهم سلعته بالثمن الذى يحددونه هم ، وتبـدو الحربة التى يغرسها العربى ، فى صلف وقحة ، الى جانبـه ، فى عرض السوق وكأنها تقول « اننى هنـا ، صانعة القانون » ونستطيع أن نميز هؤلاء عن بعـد فى تجمعاتهم الـكثيفة ، ومن ملابسهم البيضاء ، وصـوتهم الحـاد ، وهم يستولون — بمعنى كلمة يستولون — على السوق ، وينتهى بهم الأمر أن يبيعوا وأن يشتروا لصالحهم كل ما يريدون ، وفى واقع الأمـر ، فانهم يعملون فى خدمتهم سـلاحا ليس بأقل أثرا من رماحهم وحرابهم ، ذلك هو دهاؤهم الشديد ، والذى لا يمكن مقارنته الا بجسارتهم .

واليكم الملابس التى يرتديها العربان وهم فى السوق ؛ على الرأس طربوش أحمر ، بلا عمامة فى معظم الأحيـان . وعلى الجسم برنس أو معطف أبيض من صوف تتفـاوت درجة نعومته يغطون به عادة أعلىالوجه وتحت الذقن ، وهو يغطيهم من الرأس حتى القدمين . ويلبسون تحت هذا المعطف قميصا من الصوف وحزاما ، ويرتدى الميسورون منهم صديريا فوق القميص ، وفى القدمين ينتعلون خفا أحمر اللون ، ويراهم المرء فى هذه الأسواق حاملين مسدساتهم ، وسيوفهم ، ومطارقهم ، وحرابهم ، وبنادقهم ذات السونكى (٩) ، ويعرضون بضائعهم وهم مسلحون على هذا النحو على الفلاحين ، كما أنهم متعودون على حمل قرابينـهم خلف ظهورهم ولا يخلعونها مطلقا حتى عندما يلقى القبض عليهم . ولشـيوخ القبـائل والأثرياء الفرسان مهاميز جميلة ، مذهبة ، وأسرجة فخمة لا تختلف عما لدى المماليك الا فى أن ظهر السرج مقوس وأكثر انخفاضا مما يجعـله بالنسبة لهم بمثابة كرسى مريح . فهل مع أناس يحتشـدون على هـذا

---

(٩) توضع المظاريف بعناية فى جيب من الجلد ، ويوضع صـندوق البارود الى جانب البندقية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النحو ، ويتسلحون الى هذا الحد ، يستطيع الفلاح الأعزل أن ينازع فى شىء ؟ (١٠) .

وعلى الرغم من القوانين التى تحرم استخدام العنف ضد الفلاحين، فانه من المعتاد أن ترى فى المساء ، عند عودة الناس من سوق من الأسواق ، اثنين أو ثلاثة من الفرسان « العرب » ينقضون فجأة على الفلاحين (*) وهم عائدون بمواشيهم ، لينتزعوها منهم ، فان ابدى هؤلاء شكلا من اشكال المقاومة ، فان الفرسان يجرحونهم أو يقتلونهم ، واذا ماذهب الناس لشكواهم الى رئيس القبيلة ، فهو — كما يقول — لايدرى شيئا عن الأمر ، أو هو ينكر أن هؤلاء الفرسان ينتمون الى قبيلته .. وهكذا تظل الجريمة بلا عقاب . ولقد رأيت كثيرا من هذه المشاهد فى صنبو والقوصية . بل ان شيوخ القرى انفسهم لم يكونوا اقل من هؤلاء الفلاحين البسطاء تعرضا للرعب من جانب هؤلاء العربان ، وسيكون حادث العنف الذى ساقصه الآن دليلا كافيا على ذلك ، وهو أمر يتكرر بلا انقطاع فى الوف من الأشكال المختلفة .

ذهب بعض العربان من قبيلة أبى كرايم لينصبوا خيامهم فى أراضى ترب « ببلاو » واتفقوا مع شيخها على مبلغ محدد بالغ الاعتدال فى مقابل أن ترعى ماشيتهم فى حقل « حلبة » . وذات ليلة وجدت بندقيتان وزوج من المسدسات ضائعة من خيامهم . وعندما حل النهار ، ذهب العرب على خيولهم الى القرية مطالبين باستعادة سلاحهم ، وهم ينعتون الفلاحين بأنهم لصوص وقطاع طريق لكن الشيخ الذى لم يكن لديه أدنى علم بهذه السرقة الصحيحة أو المزعومة ، لم يستطع أن يجيبهم بشىء مقنع . فهددوا

---

(١٠) كنت عدة مرات شاهدا على الجراة المندفعة التى يبدونها فى أسواق القرى . ولم يكن هؤلاء العرب بأقل من ذلك زهوا واعتدادا بازاء جنودنا الفرنسيين ؛ بل لقد واتت أحدهم جراة وقحة لحد انه عرض على أحد جنودنا شراء نجوم ضابط فرنسى كان قد قتله . وهم لايبدأون مطلقا بالتحية كما لا يردونها مطلقا . وأكثر مايجذب انتباههم فى الشخص الذى يلوح لهم هو السلاح الذى معه أو الملابس الذى يرتديها أو الحصان الذى يمتطيه . وعندئذ يبدأون فى تصور الطريقة التى تمكنهم من الاستيلاء عليها .

(*) الترجمة هنا بتصرف طفيف . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باطلاق النـــار على الأهالى اذا لم ترد اليهم اسلحتهم ، فلم يجـد هؤلاء مفرا من أن يركبوا هم ايضـــا الخيول الى جانب شيوخهم . وحيث كان عدد العرب فى ذلك الوقت قليلا فان الحظ لم يحالفهم وقتل من بينهم رجل كان ينتمى الى قبيلة الفوايد وهى قبيلة قدمت الى مصر حديثا كما قتـل فى نفس الوقت سيدة وفرس .. واضطر هؤلاء الى الانسحاب وفى اليوم التالى غادر شيخ القبيلة بنفسه ، الشيخ على أبو كرايم ، مقر اقامته فى ساو وجاء على رأس سبعمائة فارس وحاصر ببلاو وطالب بقاتل العربى، وكان هذا مختبئا ولم يستطع احد اكتشاف مخبئه . عندئذ امر الشيخ على بالقبض على اربعة من اكبر شيوخ القرية سنا ، واصطحبهم الى خيمته ، وهناك فرض مبلغا كبيرا من المال على سبيل «الدية» ، اى ثمنا للدم . وهى عادة يعاد بمقتضاها شراء دم كل قتيل بمبلغ محدد من المال ثم أمر بضرب هؤلاء الشيوخ التعساء بالعصى ويكاد يكون الأمر قـد تم كله أمام ناظـرى ، ولقد تركت « ببلاو » دون أن أعرف ما ان كان الشيخ على قد أطلق سراح الشيوخ ، وما هو المبلغ الذى تقاضاه ثمنا لذلك (١١) .

تلك هى المساوىء والمظـالم التى يرتكبها العرب الملاك كل يوم . وهؤلاء الرجال بالغو الثراء، ولهم نفوذ كبير فى البلاد، وان كانوا يستمدون مكانتهم تلك من الفزع الذى يحدثونه فى النفوس . ليكن العربى محقا أو مخطئا ، ليكن معتديا أو عكس ذلك . فشيخ قبيلته فى كل الأحوال يدافع عن شجاره على الدوام بنفس الحرارة التى يدافع بها النـاس عن أعدل القضايا ، ويكرس كل الوسائل للانتقام أو للانتصار له .

وثمة ضرب من العنف من جانب هؤلاء ، لا يستطيع الفـلاحون أن يضعوا له حدا ، وذلك هو ماترتكبه قبيلة عندما تأتى لتستأجر اراضى بينهم . فى البداية يأتى فريق من القبيلة ليضرب خيـامه فى منطقة كثيفة المرعى، وما أن يحس هؤلاء أن الأرض مناسبة لهم وما أن يسـتقروا هنـاك حتى يبـدأوا يسـاومون الفـلاحين على ثمن المـكان . ولـكن ماذا ؟ فلقـد أكلت الخيول والجمـال بالفعل جزءا كبيرا من المرعى وانتشرت الخيـام

(١١) ارتكب عبد الله بن وافى مثل هذا العنف حين احتجز شـيوخ القصير وبنى عمران لأنهم لم يقروا على حصوله ، أو بالأحرى على استيلائه بالقـوة على الأراضى التى تقع على الشـط الشرقى وهى تعد مواتيـة بالنسبة له .

فى كل مكان . ما العمل اذن ؟ عندئذ يقترح شيخ العرب ثمنا للارض لا يبلغ فى معظم الاحيان سوى جزء واحد من عشرة اجزاء من القيمة الحقيقية ولا يكون امام الفلاح من نصرف آخر سوى أن يقبل . ولقد رأيت فى كل مكان حوادث مماثلة ، وشهدت السهل يغص بهذه المخيمات المتناثرة . الا يعطينا ذلك ابلغ دليل على بؤس الفلاحين وعبوديتهم الخانقة؟ انهم يئنون فى مناعبهم ويتصبب منهم العرق لكى يطعموا هؤلاء السادة المتعالين . وينتقصهم الملبس والخبز ليتوفر كل شيء عند العرب الذين ينهبونهم. ونادرا مايسمح أولئك المساكين لانفسهم بأن يهمسوا بالشكوى، واذا ماحدث الأمر فانه يتم بصوت خفيض خفيض . انه لأمر يبعث على الأسى حقا ان نري اقاليم بأكملها نكاد نكون قد ضربت فيها من اقصاها لأقصاها مخيمات العربان. وفى الواقع فان عدد هذه المخيمات يماثل عدد القرى ، ويفد اليها على الدوام فرسان جدد ، ليسوا من أفراد القبيلة ، وانما وفدوا الى هناك ليحصلوا على اذن بالسطو لأن شيوخ هذه القبيلة هم هنا أصحاب الأمر . لذلك فكم هناك من أراض مهجورة وغير مزروعة فى « ميدان » الخيام والمناطق المجاورة له . وكم من مناطق اختفت فيها الحبوب وقت البذار : أما حين يستزرع العرب ارضا تروق لهم فانهم على الدوام واجدون كل الوسائل لاغراقها بالمياه على حساب جيرانهم ، ومخالفين لكل العادات والأصول المرعية . فهم يتوجهون والسلاح معلق بأيديهم الى احد السدود ودون ان ينتظروا حتى تحصل الأرض العالية على مايكفيها من المياه ، يقطعون السد بأنفسهم فتجرى المياه لتسقى اراضيهم هم، ثم يحتفظون بالمياه بالقدر وبالمدى اللذين يروقان لهم ، دون أن يشغل بالهم مطلقا ان تروى او لا تروى الأراضى التى تقع الىشمالهم . واذا مااحتاجوا لمياه احدى الترع فانهم يحدثون فيها قطوعات بالعدد الذى يرونه مناسبا دون أدنى تفويض او استئذان . وباختصار فهم يسدون ويفتحون ، ويطيلون مدى الترع كما يتراءى لهم ، ويقيمون السدود أن يهدمونها بحسب مصالحهم هم، ويتم الأمر دون أدنىمعارضة، لأنهم أقوى من القانون ، ومن أجل خاطرهم وحدهم تغيب الشرطة ، وليس من الضرورى أن اضيف هنا انهم لا يساهمون مطلقا فى مصاريف تطهير الترع أو بناء الجسور ، بل ولا فى اية مصروفات مشابهة على الرغم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من ان هذه الاعمـــال تعود بجل نفعها عليهم هم وبأكثر بكثير مما تعــود على الآخرين .

ان المرء ليتملكه غضب شديد وهو يرى قطاع الطرق النبــلاء هؤلاء يجوسون بوقاحة خلال الديار النى خربوها أو يعسكرون من حول القرى النى افرغوها من سكانها . وعنــدما يراهم المرء يجتازون الوادى من كل اتجاه وهم راكبون خيولهم فانه سيوقن بأنهم سادة البــلاد . وأى بلاء سببوه للصناعة عندما طردوا شيئا فشيئا من القرى المعلمين «والأسطوات» من ابنـــاء البلاد (*) والمثال على ذلك واضح فى ساو والعرين وعلى وجه التقريب فى كل القرى التى يرويها بحر يوسف ، فبســبب ظهور هؤلاء الطغـــاة ، فان قرى بأكملها حيث يسيطرون ، قــد هجرها أهلوهـــا بل تكاد تكون قد خربت لأن هؤلاء العربان لا يزرعون ولا يبنون ، واذا كانت اراضى بعض هذه القرى لاتزال تزرع فالسبب فى ذلك أن مياه النهر تفيض فترويها تلقائيا كل عام ، وبذلك لا يلزم أى عمل سوى البذار والحصاد . وعلى الرغم من كل ذلك ، فالفلاحون مرغمون على العودة من بعيد ،ومن جميع الجهات ليزرعوا أراضيهم التى أصبحت ملكا للعرب .. وتلك هى اللوحة الحزينة النى يقدمها لنـــا هذا الجزء من مصر العليا . أما فى مصر السفلى فان العرب هناك أقل سطوة ونفوذا .

ويمكن للمرء أن يسأل : ماذا نفعل كل هذه القبائل العديدة؟ وللاجابة على ذلك ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن الجزء الأكبر من كل قبيلة يشكل مخيما كبيرا يقطن فيه الشيخ : لكن كثيرا من العائلات تنتشر فى الوقت نفسه بشكل منعزل فى مناطق مختلفة ، وتشكل مخيمات تتكون من خمس الى ست خيمات . وهنـــاك ترعى هذه العائلات جمالها وحميرها وخيولها ودوابها . وأكثر من نصف رجال هذه العائلات لم يركبوا الخيـــل « أى ليسوا فرسانا » ويشتغلون كما قلنا للتو باصطحاب القطعان الى المراعى، أما الفرسان فيقضون وقتهم فى القيـــام بجولات فى السهل وهم يبحثون على الدوام عن شىء يسلبونه . وفى أيام الأسواق العامة يتوجهون الى هنـــاك مسلحين ويصحبون معهم جمالهم وماشيتهم ليستبدلوا بهـــا الذرة

(*) الترجمة هنا بتصرف طفيف للغاية (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والشعير والبلح والدخان واشـــياء اخرى من مواد الاستهلاك اليومى . اما عن البلح (١٢) ، فانهم يبيعونه بأنفسهم عندما يأتون من الواحات حيث يجلبون منه كميات كبيرة (١٣) كما يجلبون معه فى قوافلهم المشمش الجاف والأرز الذى يعد من مرتبة أدنى من ارز الدلتا ، كما يحضرون معهم مؤنا متنوعة . وتشغلهم هذه القوافل لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر فى العام ، وهم يبدأون رحلتهم عادة من الواحة الصغيرة التى تقع على مسيرة ثلاثة أيام من دلجا ، كما يلجأون على الدوام الى هذه الواحة عندما يطاردون فى مصر ، وكذلك فى أوقات الفيضـــان فى اغلب الأحيان ، لـــكنهم فى هذه الحالة يكتفون بأن يضربوا خيامهم على حافة الصحراء . وعنـــدما يصبح القش « التبن » نادرا فى مصر ، فانهم يذهبـــون الى الواحات لتتغـــذى خيولهم على قش الأرز ، ويقوم عرب الفيوم كذلك بهـــذه الرحلة ، وهم يجلبون بخلاف البضائع التى تحدثنا عنها ملح المناجم الذى يستخرجونه من الجبال المجاورة لهذا الاقليم (١٤) .

ويربى العربان فى مخيمانهم كثيرا من الخيول والجمال ، وهذا مالا يفعله الفلاحون مطلقا ، وسيظل هذا الأمر دافعا على الدوام لعـــدم دفع العرب الى خارج البلاد ، اذ لبس ثمة ســـواهم الآن من يستطيعون أن يمدوا البلاد بالخيول والجمال ، ولابد أن عدد هـــذه الدواب سيكون بالغ الضآلة الآن فى البلاد لو أن كل الحيوانات التىاستخدمها الجيش الفرنسى قـــد اخذت كلها من الريف ومعروف ذلك التقدير الذى يكنـــه الفرســـان العرب للفرسات . وقد سألت البدو الذين كنت أسافر معهم عن السبب لـــكنهم لم يخبرونى ، وعادة مايظن المرء ان الأمر يعود الى أن الفرسان

---

(١٢) هـــذا البلح جاف ولـــكنه طيب المذاق لحـــد كبير ، ويساوى القنطار ثمنه ٣ــ٤ بوطاقات (ريالات) .

(١٣) يبدأ طريق الواحات من خلف نزلة الشيخ عباس الى الشمال من سرقنـــا . وينبغى التزود بمياه تكفى ثلاثة أيام . وتوجد فى البـــلدة نفسها مصـــادر للمياه ، وهى تقدم الشعير والبلح بالاضـــافة الى الأرز والبلح ، ويواصل الطريق ارتفاعه حتى يبلغ جبل بهاية . وهنـــاك طرق عدة أخرى تؤدى الى الواحات ، احدها فى مواجهة التونة ، وثمة طريق آخر أمام بنى خالد ، ومن هذين الطريقين تخرج فروع تؤدى الى البهنسا والى الفيوم .

(١٤) انظر دراسات عن العصور القديمة ، المجلد السادس .

يتجنبون صهيل الجياد التى تعلن عن وجودهم ، وبذلك لايمكنهم اخذ فريستهم على غرة ، لكن الحقيقة فى الأمر هى أن الفرس تتحمل العطش بشكل افضل من الحصان ، كما أن احياجاتها أقل بالاضافة الى انها أقل طيشا واكثر ملاءمة لرجال يظلون فى غالب الأحيان عدة أيام متتالية ، راكبين خيولهم دون أن يكادوا ينزلون عنها .

والفرس العربية نحيفة عجفاء لكن ذلك لايقلل من سرعتها فهى لاتقل فى ذلك عن أفضل خيولنا تغذيه . ويكاد يكون لكل فرس شرابة بيضاء أو زرقاء أو حمراء تحت الرقبة وأحيانا فوق الأذنين . ولا تقل عاطفة العربى نحو فرسه عن العاطفة التى يكنها عاشق لعشيقته . وعلى الرغم من أن العربى يظل قلقا تجاه فرسته ، حريصا على الا ينقصها من الرفاهية شىء ، الا انه لا يكلف نفسه عناء القيام بأى جهد لتوفير طعام جيد لها الا اذا تم الأمر على حساب الغير . وكم من مرة رأيت فرسان العرب ، بينما كنت أسافر الى جانبهم يترجلون على الدوام — يكاد يتم ذلك كل خطوة — ويتمهلون بها فى حقول البرسيم والشعير بل حتى لو كان القمح أخضر أو ذا سنابل ! كانوا يجعلونها تأكل على الدوام حتى ظننت أن السبب لايعود الى الرغبة فى اشباع جوعها بقدر ماهو اللذة فى اطعامها من حقول الآخرين ، فليس هناك عند العرب لحظة أحلى من تلك اللحظة التى يلوح له فيها شىء يمكن له أن يسلبه !

والقبيلة العربية التى لا تمتلك أو تستأجر الا بعض الأراضى ، تمارس مع ذلك نفوذا ونوعا من السيطرة فى دائرة هى أكبر بكثير من هذه الأراضى نفسها . وهذه الدائرة محددة ومميزة عن دوائر القبائل الأخرى المجاورة، فالقبيلة لا تخرج مطلقا ، أو لا تخرج فى معظم الأحيان عن حدودها لكى تجور على دوائر القبائل الأخرى . انه نوع من الاتفاق الضمنى وضعت قواعده نتيجة للمشاحنات والمعارك والحروب التى دارت بسبب هذا الموضوع .

ودوائر النفوذ هذه متلاصقة وتشتمل فى مجموعها على أراضى هذه البلاد ؛ وليس ثمة ماهو أكثر غرابة من رؤية هؤلاء السادة المزعومين لمصر وهم يمسحون أراضيها على هذا النحو ، ويحددون الحدود التى تضمن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حقوق كل فريق منهم . وهم لا ينظرون الى الأراضى التى تقع داخل كل دائرة الا على أنها أرضهم وبلدهم ، ويعنى هذا بالنسبة لحماة دائرة ما أن ليس من حق أحد من العرب الآخرين أن يسلبوا أو يرتكبوا احداث عنف داخل دائرة تقع فى حمايتهم ، وقد بلغ الأمر الى حد أننى لم استطع مطلقا أن اصطحب معى الى ما وراء دائرة عرب وافى الفرسان العرب الذين كانوا معى كحراس ، ولا أن أصحب الى ما وراء ملوى الفرسان الذين ارسلهم الى الشيخ على ابو كريم ، ونفس الأمر بالنسبة لعرب محارب ، والسبب من وراء ذلك أن العرب ، الى جانب أنه لا يسمح لهم بالمرور فى أراضى قبيلة اخرى ، لا يحبون أن يسيروا على ضفاف النيل أو يمروا بالقرب من المدن الكبرى مثل ملوى والمنيا عندما يكون عددهم صغيرا ، فعندما يكون العربى بمفرده ، فى مكان منعزل فانه يستشعر الرهبة من المشاعر التى يكنها نحو العرب شيوخ القرى ، لذلك فهو بالغ الحذر لا يريد أن يعلن عن وجوده ، وفى واقع الأمر فان الناس يعاقبون فى بعض الأحيان أول عربى يلقونه على شر ارتكبه عربى آخر . فكل راكب حصان ، يرتدى الزى الأبيض ويتسلح بالبندقية انما هو فى نظر الفلاحين نهاب قاطع طريق ، وهم فى ذلك ليسوا مخطئين على الاطلاق .

واليكم كيف قسمت الأراضى بين مختلف القبائل التى ذكرتها :

تعسكر قبيلة بنى وافى — وهى قبيلة بالغة الثراء بخيولها منمنتصف ترعة تسمى ترعة العسل وحتى صنبو فى الشمال . ومكان اقامتها الرئيسى فى تتالية وهى قرية تقع الى شمال منفلوط ، يوجد بالقرب منها دير بالغ الأهمية ، وهذه القرية هى مقر الشيخ عبد الله بن محمود بن وافى ويمتد زمام الدائرة حتى ضواحى الأصفر ، المير ، القوصية ، صنبو .

أما دائرة قبيلة أبى كرايم التابعة للشيخ على فتشمل المسافة بين صنبو وملوى . أما مقر اقامة الشيخ فيوجد فى قرية ساو . وقد عسكر هؤلاء العرب بالقرب من ببلاو ، ودشلوط ، وساو ، وديروط الشريف ، ودلجا ، ودير مواس ، والبدرمان ، وباويط ، وامشول ، وابو الهدر ، واسمو ، بنى حرام ، وسرقنا ، بل وكذلك تندة وطوخ .

وينتمى عرب التراهونة الى هذه القبيلة ، وهؤلاء قد اقاموا خيامهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى تندة أما الجهمة فيرابطون على الشط الأيسر « الغربى » لبحر يوسف بين دجلة ، وديروط أم نخلة حتى صفط خمار أمام مدينة المنيا . ولهؤلاء خيام متناثرة فى أماكن شديدة التباعد فيما بينها ، بل ويوجد بعض منها وسط قبيلتى ابن وافى وأبى كرايم .

أما عرب محارب فيقيمون كلهم على وجه التقريب فى بيوت ، وقد كفوا عن حياة الخيام منذ حوالى خمسة عشر عاما .. ودائرتهم بالغة الأهمية فهى تمتد على الشط الأيمن من بحر يوسف ابتداء من النقطة الواقعة تجاه التونة حتى جبل البهنسا على بعد عشرين فرسخا من ملوى . وأهم مواطن هذه القبيلة هو قرية العرين حيث يقيم الشيخ أبو زيد « شيخ القبيلة » ، أما الشيخ زيد فيقيم فى ديروط أم نخلة ويقيم الحاج عبد الله فى ابشادة ، ويشغل عرب هذه القبيلة قرى المحرص ، ديروط ، ابشادة ، اشمنت .. وقرى كثيرة أخرى .

ويتفرع من قبيلة محارب عرب جبار أو الجبابرة ، وعرب غزالة ، والدرابسة والشوادى ، وهم ينتمون اليها كما أنهم جميعا مزارعون ويقيمون فى قرى .. ويشغل **الأولون** طوخ الخيل ، أما **عرب غزالة** فيقيمون فى ديروط أم نخلة وكذلك الى الشمال ، فى العزبة فى اقليم بنى سويف ، أما الدرابسة والشوادى فيشغلون ضواحى بنى سمرج وطهطا ويوجة ، ولا يزال للدرابسة بعض الخيام .

أما العرب المسمون بالخوين والغريب فيشغلون ضواحى سمالوط أما عرب الطحيوى أو المصرانى أو بالأحرى عرب طه فسنتناولهم فيما بعد .

وتمتلك قبيلة أبى كرايم الف حصان وعددا كبيرا جدا من الجمال ، وأهم شيوخها هما الشيخان على وسليمان ، أما الجهمة فيمتلكون أكثر من خمسمائة حصان . وتذهب القبائل الأربع : ابن وافى ، أبو كرايم ، الجهمة ، محارب الى الواحة الصغيرة ويعودون من هناك ليبيعوا بضائعهم فى الأسواق الكبرى فى دشلوط ودلجا وصنبو والقوصية .

وتعمل النسوة فى المخيمات العربية فى غزل الصوف الذى يصنع ى القرى ، ويتخذ أكثر الناس بؤسا ملابسهم من هذه الأقمشة الخشنة ، أما الآخرون فيشترون من المدن البرنس المصنوع من أقمشة فاخرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويوكل الى النساء ايضا طحن الذرة وصنع الخبز وتجهيز البيلاف « طعام شرقى من لحم وارز وتوابل » وكذلك كل اعمال المنزل ، والخبز عندهم عبارة عن قرص مسطح يجففونه فى الخيمة ثم ينضجونه على وقود من روث الجمال يخرج من خلال « بوز » وهو فتحة صغيرة مصنوعة من الطين على هيئة فرن ، وهكذا يجد العربان فى متناول ايديهم الخبز والوقود . وما أنتحصل اسرة ما على مئونتها من الذرة حتى يصبح بامكانها أنتستغنى عن كل ماتقدمه مصر لها من عون ، ولا يعود يعنيها الا أن تضرب خيامها بالقرب من مكان توجد به مياه ، وهذا أمر يعرف العربان اكثر من اى قوم آخرين كيف يحققونه . وتحتوى خيام العربان على مخزون من البلح والأرز والذرة وعلى قليل من الشعير والقمح والفول ، ويودع كل شىء بحذاء جدران الخيمة وبطريقة تدع المكان بالغ الاتساع ، وفى منتصف الخيمة يوجد النساء والأطفال ويكاد لا يكون هناك فرق يذكر بين ملابس السيدات وملابس الرجال ، فهن يرتدين مثل الرجال حذاء نصفيا « خفا » وينفطين بقطعة من قماش صوفى أبيض اللون من القدمين حتى الرأس ، ولم أرهن يتحجبن كما تفعل المصريات ، وهن فى نفس الوقت ، ولحد ما ، اكثر بياضا من زوجات الفلاحين ، وعند بقائهنهكذا سافرات الوجه أمام الأوربيين ، فقد كن يظهرن لى على شىء من القحة والمجون اللذين هما طابع العربان ، والذى يميزهم عن المصريين . ولا يحتم الرجال على نسائهم — اما لأنهم اقل غيرة او لأنهم اكثر ثقة بهن — ارتداء الحجاب الذى قد لا يكون له من غاية الا تفادى نظرات الفضول عن طريق هذا القناع الشائه الذى لا يبعث على البهجة ، لكنه وسيلة اقل فاعلية من غيابه هو نفسه ، فأى شىء يمكنه أن يصد الفضول ويقتل الرغبة اكثر من وجه شوهته هذه الرسوم السوداء والزرقاء « الوشم والكحل » (١٥) .

ويبدو الرجال فى خيامهم ، او على الأقل راكبو الخيل منهم ، وكأن ليس لديهم ما يشغلهم ، فتراهم ، وطربوشهم فوق أذنهم ، يتجولون من

---

(١٥) من المعروف أن النسوة فى مصر يرسمن بشكل حاد رموشهن وجفونهن باللون الأسود (الكحل) وانهن يضعن بقعا زرقاء على الذقن وبقية أجزاء الوجه (الوشم) .

خيمة لأخرى ؛ يتطوحون فى مشيتهم وأيديهم خلف ظهورهم . يرتسم المرح على وجوههم ، وهم فى عمومهم ذوو مظهر طيب ، ويبدو البيض منهم ، بتقاطيع وجوههم ، وسمنتهم ، ومشيتهم المتعاظمة وملابسهم الفضفاضة والممتلئة ، يبدون بمظهر الأثرياء العاطلين أكثر مما يبدون بمظهر الفرسان المحاربين ، وهذا المظهر من الرضا والسعادة هو أكثر ماأدهشنى عند العرب .

ومع ذلك ، فان الأمر الذى لا يقل عن ذلك جدارة بالملاحظة هو اهمالهم لطقوس الدين ، فلم أرهم مطلقا يتوضأون أو يصلون مثل بقيه المسلمين ، كما أنهم يشربون الخمور فى بعض المناسبات ولا يولون كبير اهتمام بشهر رمضان ، وحين يقومون بأداء الحج الى مكة فانما يفعلون ذلك لفائدة سيجنونها من هناك .

وتبعا لما سبق ، فاننا نجد مخيماتهم شبيهة بالقرى الكبرى وسكان تلك المخيمات أكثر بلا جدال من سكان بقية القرى فى مصر ، ناهيك عن الذهب والفضة اللذين تكتنزهما هذه البيوت المتنقلة . وفى هذه الخيام يجد المرء كل ماهو ضرورى للحياة ، ويحصل العربان من بيع المواشى والجمال وبعض المواد الغذائية على دخول أكبر بكثير مما ينفقون على شراء الأسلحة والسروج والملابس ، وفضلا عن ذلك ، فان من الممكن لنا أن نؤكد أن الغالبية منهم يتسلحون بأسلحة مهربة أو مختطفة تحت آلاف الادعاءات ، بل ان الكثير منهم يرتدون ملابس سرقوها من الفلاحين .

اما الفضة والأموال التى يكدسها العرب بين أيديهم بهذه الطريقة، فيمكنها أن تسهم فى تثبيت سيطرتهم على مصر بأكثر مما يمكن أن تفعل اعدادهم وفروسيتهم . ألست ترى أن هذا النفوذ لابد له — بحكم طبائع الأشياء — أن يتضاعف أكثر فأكثر لحد يضع مصر ذات يوم فى قبضة العرب .

ولا يحتاج هؤلاء الرجال فى مخيماتهم الا للقليل ، فهم بالغو القناعة، لكنهم يصبحون بالغى النهم وشديدى الالحاح اذا ما لجأ اليهم مسافرون يحتاجون لحراستهم ، فهم فى هذه الحالة يصرون على طعام منتقى لابد أن يحتوى على اللحم المشوى والبن والدخان بوفرة ، بحيث يتكلف طعام

كل واحد منهم فى اليوم مالا يقل عن **بوطاقة** (١٦) ويدعى هؤلاء أن هذا هو طعامهم المعتاد . وفى نفس الوقت فهؤلاء العرب لبسوا بدمثى الخلق ولا بالمجاملين الملاطفين . هذا ما شعرت به وأنا بين عرب بنى وافى وعرب أبى كرايم وعرب محارب الذين اتخذت من بينهم حراسا أثناء جولاتى . ولقد كان الأولون يبدون أثناء وجودى بينهم أقل قسوة على الفلاحين ، أما عرب محارب فكانوا ينتهزون فرصة قدومى ليجتازوا القرى ، راكبين خيولهم ، ليحصلوا لأنفسهم على آلاف الأشياء بدعوى أنها للفرنسيين .. وهكذا تتاح لهم فرصة جديدة لكى ينتهبوا ويسلبوا دون أن يلقوا عقابا ، وتحت اسم الغير (١٧) .

وتشغل قبيلة محارب هذه جزءا كبيرا من اقليم المنيا كما سبق أن قلت ، وتمتد امتيازاتها الى بعيد ، وتنقسم هذه القبيلة الى بطون كثيرة تسكن فى قرى عديدة . ومنذ وقت طويل ، لم يعد هؤلاء يقيمون تحت الخيام كما كفوا عن ارتداء الثوب الأبيض « البرنس » ، ولا يمكن لك أن تميزهم للوهلة الأولى عن طريق ملابسهم عن شيوخ الفلاحين ، وأقل هؤلاء العرب شأنا يرتدى ملابس جيدة ، وترى واحدا بهذه الصفة منهم فى وضع افضل من وضع شيخ قرية ذلك انه يرتدى فوق جسده أسلاب أربعة شيوخ .. وتساهم هذه الأبهة فى الزى فى زيادة زهوهم ، واذا ماذهبوا للسلب وسلكوا الطرق العامة أو ضفاف النيل فانهم لايرتدون ملابس أقل من هذه أبهة ، وليس بمقدور أحد ان يحصل على أى عون ضدهم لأنه يستحيل عليه أن يجد شخصا يشكو اليه . وفى هذه الحالة الراهنة ، لايستطيع المرء أن يجد الكيفية التى ينظر اليهم من خلالها ، فهم معروفون فى السر لصوصا ، ومع ذلك فليس فى مقدورنا أن نطاردهم ، لأن شيوخهم يسلكون

---

(١٦) قطعة نقدية تساوى ٩٠ بارة (حوالى ٣ جنيهات و٨ سو) .

(١٧) تدل الصغائر المهينة التى يقترفونها بقلب بهيج على قساوتهم بقدر ما تدل على ضعف الفلاحين ؛ وقد شاهدتهم بعينى رأسى يستولون عنوة من امرأة بائسة أضنتها الشيخوخة على حمولة كبيرة من أغصان أشجار التمرهندى ، كانت تحملها بمشقة كبيرة فى الصحراء ، دون أن يكون لديهم حتى ذريعة أن الخشب ينقصهم ، وحيث كانوا يهللون لسرقتهم هذه ، فقد وجدت مشقة بالغة فى حملهم على رد هذه الأعشاب الجافة مع قيامى بدفع ثمنها لهم .

ظاهريا سلوكا طيبـــا فى قراهم واراضيهم ، حتى انه ليبدوا عليهم انهم لم يشاركوا فى السلب على الرغم من انهم يكونون قــد اقتسموا الاسلاب . . وعندما وصلت اثنــاء جولتى الى دائرة عرب محارب دون أن أدرك ذلك ، سمعت احاديث كثيرة عن الاغتيالات التى كان هؤلاء العرب يقترفونها كل يوم ، ورايت انه قــد حان الوقت لأن أدعم حراستى الضعيفة بعدد من العرب ، فاستأجرت فى ديروط اثنى عشر فارسا مسلحين تسلحا جيدا . وفى الطريق كنت أكثر من سؤالى اياهم حول السرقات وحوادث العنف التى يمارسها العرب فى الوادى وفوق شاطىء النيل وبالقرب من ملوى ، لكننى لم اظفر مطلقـــا باجابة . وعرفت فيما بعــد أننى كنت اتحدث الى نفس الذين يقترفون هذه الفعال ، وتأكدت من ذلك بوسائل مختلفة . كم كان قلقى كبيرا عندئذ ! لقد اسلمت نفسى بنفسى الى قطاع طريق ، وكثيرا ماذهبت معهم لمسافات طويلة داخل الصحراء . . ولكم اثار طمعهم أكثر من مرة أدواتى وخيولى والمال الذى كانوا يظنونه معى . . ومع ذلك فقد اكتفى هؤلاء اللصـــوص الشرفاء بالأجـــر الذى كانوا يحصـــلون عليـــه منـــا وبمـــا كانـــوا يســـتطيعون أن يســـلبوه من القـــرى . ولـــكنهم كانوا سعداء عندما يجدون بمقدورهم أن يتركوا فرسانهم ترعى مجانا فى مراع وفيرة ! ومع ذلك فقد كان هؤلاء الشجعان يرتجفون فرقا عندما استوجب الأمر دخول مدينة المنيا اذ كانوا يخشون الجند الفرنسيين ، لكن ارتباطهم كان يلزمهم بذلك . فمشوا اليها وكانما هم يستجدون ، كما لم يدخلوهـــا الا اثنـــاء الليل وقد رحلوا على حين فجاة ودون أن يلحظهم أحد .

وكل القرى التى استقر بها عرب محارب فقيرة ومهجورة ونصـــف مهدمة وتخلو من الأشجار (١٨) ويكاد لايوجد بها سوى بعض الفلاحين يقومون بزراعة الأراضى المملوكة لعرب محارب — وليس بزراعة اراضيهم الخاصة ، ذلك أن هؤلاء العرب لا يزرعون بأيديهم على الاطلاق ، فليس ثمة من مهنة أكثر نبلا من وجهة نظرهم من أن تعيش من خيرات الغير دون مشقة ودون عمل ، وليس ثمة أكثر مهانة عندهم من عمل المحراث ، وكلمة فلاح عندهم مرادفة لالفاظ السباب فهى تعنى : رجل الطين ، الذى خلق من اجل الشقاء

---

(١٨) القرى التى نئن تحت وطأة نفوذ العرب محرومة من النخيل ؛ ولها مظهر عار يميزها عن بعد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والذي ولد خصيصا لانتاج طغام العربان . ويذهب هؤلاء القوم الى بعيد فى تحقير مهنة الفلاح حتى انهم يأنفون من ان يحطوا من قدر البدو فيرفضون أن يطلقوا اسم البدو على هؤلاء الذين شاءوا من بنى قومهم ان يحترفوا مهنة الزراعة مثل عرب طه والريرمون فيقولون عنهم : انهم فلاحون حقراء واخساء لم تعد تجرى فى عروقهم الدماء العربية . .

اما عرب المصراتة او الطحيوى ، أو بمعنى آخر عرب طه ، فلهم قرى بالغة الفخامة ، تقع على بعد اربعة فراسخ الى الشمال من المنيا، وهم قد استقروا هناك منذ عدة اجيال ، ولقد قدم هؤلاء العرب الى الزراعة ، على النقيض من العرب الآخرين ، خدمات جليلة ، وبذلك حصلت الأرض على مزية مزدوجة . أن تزرع بشكل ممتاز ، وأن يدافع عنها فرسان شجعان ضد أعمال العنف التى تصدر عن العرب المجاورين. وهم فى حالة سوء تفاهم على الدوام مع الآخرين لكن اليد العليا تكون لهم على الدوام فى كل المعارك التى تدور بين الفريقين .

ولم اشاهد فى مصر فلاحين أكثر سعادة من عرب طه ، فهناك تسيطر الحرية ويسود الرخاء تحت سيادة قوانين خيرة وتحت حكم أسرة محبوبة ، ولذلك ازدهرت هناك الصناعة والزراعة ، وليست ثمة قرى أكثر ثراء من قرى عرب طه فى المواشى وبخاصة فى البقر ، وليس هناك أرض توزع عليها المياه على نحو افضل . والسدود فيها معتنى بها بشكل احسن . من أراضيهم .. هكذا جعل الشيخ على الطحيوى من هذه القرية واحدة من أغنى قرى الاقليم ، وهكذا على الدوام يكون تأثير الشيخ الطيب وعلى هذا النحو يكون اثر المقاومة المدعومة التى تقف ضد الابتزازات والمظالم . وقد كان هؤلاء مصدرا لآلاف المعونات ، ولسد مالا يحصى من احتياجات الفرنسيين وبشكل اكثر يسرا بكثير مما هو فى مقدور عشرين قرية فى جهة أخرى .. منذ وقت طويل كف هؤلاء العرب عن الاقامة تحت الخيام ، وعن ارتداء الثوب الأبيض « البرنس » .. وارتدوا نفس رداء الفلاحين ، اى ثوبا من الصوف الغامق ، وتجد بينهم ، مثلما تجد بين بقية العرب رجالا سود البشرة ، وهؤلاء على الدوام فرسان ممتازون . ولقد شاهدت معركة دارت بينهم وبين عرب الشوادى ، تبين لى خلالها انهم — اى عرب طه — لم يفقدوا مطلقا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المزاج المقـــاتل حين اصبحوا فلاحين ، ولربما كنت اخذت على عاتقى أمر تدريبهم لو لم اكن قـــد توصلت الى ايقـــاف نزيف الدم بين القريتين .. وانك لواجد مشقة كبيرة حين تحاول تصور السرعة التى يتهيأ بها عرب الطحيوى للمعركة . ففى لمح البصر ، يخلع الواحد منهم اكمامه الطويلة، ويصطنع من عمامته حزاما يملؤه بالخرطوشات، ويصرع على الفور غريمه، بينما هذا الطحيوى يقاتل وحده ضد عشرة رجال .

وكل هؤلاء العرب الذين تناولتهم فى هذه الدراسة ، اذا ما استثنينا عرب الطحيوى الذين تحدثت للتو عنهم ، يظهرون نحو الفـــلاحين عجرفة متزايدة يبدو وكأنهم رضعوها مع لبن امهاتهم . وحيث أن هؤلاء لايتصاهرون الا فيما بينهم فانهم يزعمون انهم بذلك قد احتفظوا بدمهم نبيلا نقيا ، خلق خصيصا لحكم مصر . وليس ثمة من بينهم فى مخيماتهم ، حتى الأطفـــال انفسهم الذين التقيت بهم من لايشارك فى هذه العجرفة .

ولابد أن نتخيل أن من خاصية هذه العجرفة أن تمنحهم شعورا بالقوة والسمو فوق المصريين ، وتجعلهم يقدمون بنجاح على أمور بالغـــة الجرأة والجسارة ، فادعاءات كهذه لن تكون وبالا على أناس بهـــذه الدرجة من القوة سواء بفعل عددهم أو بتأثير تقاليدهم وأسلحتهم . دخلت ذات يوم فى أحد مخيمات عرب أبى كرايم ، وجاء عديد من العرب الفضوليين لجلسوا الى جوارى وتحدثوا بألفة مع حراسى ، لكن سرعان ما**اصطحبهم** واحد من رؤساء القبيلة موجها اليهم التعنيف الحاد . لقد الفيتهم أطفـــالا صدمتنى ملابسهم وكان بين هؤلاء ابن الشيخ ، كان يرتدى ثوبا أبيض بالغ النعومة وطربوشا جميلا احمر اللون وخفين ، وما أن اقتربت منه حتى قال على الفور وبلهجة تزدرى سامعه « أنا بدوى ! » ولكنى لقيت عند عرب الجهمة استقبالا افضل ، فقد هرعوا الى ، واستعلموا بفضول عن أخبار القاهرة، ومع ذلك فلابد أن ننسب ذلك الاستقبال لدوافع الخوف والقلق .

ويمكن التعرف على قرى الفلاحين التى تسيطر عليها هذه القبائل، فى أن سكان هذه القرى يبدون أقل خضوعا للسلطة ولقوانين البـــلاد ، كما لو أن حماية العرب تكفى لحمايتهم من العقاب الذى يستوجبه التمرد . ولقد كانت هذه القرى على الدوام هى آخر من يسدد الضرائب وأول من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبدا العصيان . وهنـــاك تستقبل قوات الحكومة استقبالا مسيئا . وفى الوقت الذى يفرط هؤلاء البؤساء فى ثرواتهم للقبـــائل العربية بدرجة كبيرة من عدم التبصر ، فانهم يتجاسرون على رفض تقديم ماهو ضرورى للفرق التى تمر ببلادهم ، ذلك انهم يأملون فى الافلات من سطوة سادة بعيـــدين عنهم ، فى حين يرضخون لطغاة يماثلون نسر بروميتيوس ※ فهؤلاء الطغاة لا يتركون فريستهم لحظة . وفى اقليم المنيا تخضع قرى كبيرة مثل ديروط الشريف ، ودلجا ، ودشلوط لنفوذ العربان الذين يأتون ليقيموا خيامهم على الأبواب . وحين لايجرؤ شيوخ هـــذه القرى على مقاومة الأوامـــر التى يتلقونها من القاهرة مقاومة صريحة ، فانهم على الأقل يبدون شـــيئا من العجرفة وسوء النيـــة والعدوانية يحثهم عليها العرب ، مما يجعل مثل هذه المشاعر دائمة بينهم . صحيح أن الناس فى اماكن أخـــرى ثرية فى مواشيها ، ومسلحة تسليحا جيدا يسهل الدفاع عنها مثل قـــرية المير ، لا يخشون من اقامة العرب فى السهل ، اذ هم يستطيعون على الأقل أن يعاقدوا هؤلاء على جسارتهم اذا ما تجرأوا على محاولة تجريبها ، وسعداء هؤلاء الفلاحون الأقوياء لحد يسود بينهم هذا الطبع ! فهم يعيشون هادئين ملاكا أحرارا لعقاراتهم وثرواتهم التى لا تلبـــث ان تتضاعف على حساب ضعف الآخرين وخرابهم .

أما القرى التى تحاول بالرغم من ضعف قوتها أن تدافع عن استقلالها، فان العرب يقومون بغزوها بشكل مفاجىء ، فيقتلون المشايخ ، ويستبدلون بهم غيرهم بشكل استبدادى، ويهدمون بيوت هؤلاء الذين يسمونهم أعداءهم، ويستولون على أراضيهم ويتصرفون بمهـــارة حتى أن الأمر ينتهى بهم أن يحصلوا على محبة الآخرين .

اما تلك القرى التى تخضع كأمر حتمى للعرب بسبب ضعفها وموقعها القريب من الصحراء ، فانها تقدم لهم صـــداقتها كأمر طبيعى ، ولكل شىء حســـابه فهذه الصـــداقة تكلف الفلاحين اقل مما كان سيكبدهم الحقـــد المكشوف .

※ من المعروف أن العقاب الذى أنزله جوبتر ببروميتيوس عقابا له على سرقة النار هو أن يصلب فوق جبـــل القوقاز وأن يأتى النسر ليلتهم كبده الى أن خلصه هرقل . (المترجم) .

ومن جهة اخرى فان العائلات العربية ، قليلة العدد ، والتى تمتلك قرى صغيرة شديدة القرب من بعضها البعض ، تظل على الدوام فى حالة نزاع على الحدود وعلى اقامة أو قطع السدود ، وعلى مسيرةواتجاه المياه ، وحيث لا توجد محاكم تحسم قضايا من هذا النوع فان سكان هذه القرى يحسمون هذه الأمور بأيديهم فهم يقتتلون ويلاحقون بعضهم البعض بلا هوادة وبشراسة لا تصدق ، وحتى تفنى فى معظم الأحيان واحدة من العائلات المتشاحنة عن بكرة أبيها ، وعندئذ يستولى المنتصر دون مبالاة بأبسط الشكليات، ودون رسميات اخرى على اراضى المهزومين، ويثبت فيها عائلته أو من يلوذون به . وفى نفس الوقت ، فان الحكومة لا تقوم بأى معارضة لأى من هذه الحروب الأهلية الصغيرة كما لو كان لايهمها فى كثير من سيدفع الضريبة ، بل انها تغبط نفسها على الدوام ، فالضريبة ستؤدى برغم كل شىء مع انها — أى الحكومة — فى كثير من الأحيان لا تحصل منها اى شىء ، ويكون السبب أن قادمين جددا قد هاجموا وخربوا بدورهم ، أولئك الذين سبق لهم أن انتصروا.

وشكل خيام العرب معروف . فهذه مصنوعة من قماش يسمى : خيش . يصنع بشكل اساسى فى ولاية الفيوم . ويشكل العرب منه قطعة يبلغ طولها ٢٠ — ٣٠ قدما وعرضها ١٥ قدما ، ويدعمونها من أركانها الأربعة بأوتاد يبلغ ارتفاع كل منها ٤ اقدام كما يدعمونها من الوسط بوتدين يبلغ ارتفاعهما ستة اقدام مما يعطى للخيمة من أعلى هيكل السقف المسطح ، وهذه الخيام فسيحة مريحة . وحيث انها شديدة الانخفاض ومثبتة بالحبال فهى لاتخشى مطلقا هبوب الرياح . وعندما يسقط المطر فانه لا يمكن الدخول اليها الا من الأمام فهى الجهة الوحيدة المفتوحة .

وقد لاحظت فى هذه الخيام نوعا من المهد « الهودج » المصنوع من اغصان القرانية « شجر زينة » بالغة الجفاف يبلغ سمكها بوصة ،ومصنعة بشكل تتداخل معه فيما بينها وعلى نحو مقبض ، وقاع هذا الهودج بيضاوى الشكل أو مقعر ، ولونه داكن ، وهو منتظم من أعلى . ويوضع هذا الهودج فوق جمل ، ويستخدم فى نقل سيدة وطفلها . وخشب الهودج من جهة اخرى أسود اللون بفعل الدخان ويبطن قاعه بالجلد أو يكون كله فى بعض الأحيان من الجلد . فاختطاف النساء هو أخشى مايخشاه العرب من أعدائهم . وبمعنى آخر فان هذه الهوادج المرتفعة قد صنعت لحمايتهن ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتستخدم هذه الأسرة الصغيرة كذلك فى التنقل كما فى حالة القوافل . وفى اثنــاء قيامى بجولة بلغت ثلاثين فرسخا فى عرض الصـــحراء كانت الفرصـــة مواتية لــكى ارى على الدوام جمالا محملة بالنساء على هـــذا النحو ، ولابد انـــكم تتخيلون هذا القدر من الانتباه والعناية الذى يوليـــه ازواج هؤلاء النساء أو أهلوهن فى حراستهن ، حيث يبعثون على الدوام بفرسان يسبقونهم بمسافة فرسخ كامل ليستكشفوا الطريق لهم .

ومما تجدر ملاحظته كذلك فى مخيمات العرب هو السلوق أو كـــلاب الصيد ، وتلحق هذه بالأرانب والثعـــالب ، وتقدم خدمات جليلة عند صيد الغزلان التى يلذ العربان من أكل لحومها كثيرا ، وهم يطلقون على كلاب السلوق كنية « عدو الغزالة » ، وهذه الكلاب صهباء اللون ، وهى أصغر حجما من كلابنا واكثر منها سرعة ، ويلبسها العربى قطعـــة من الجوخ ويضع فى رقابها عقدا ويمسكها على الدوام من مقودها ، وهم يجلبونها من سيوة حيث توجد منها أعداد هائلة ، ويدفع فيها لأصحابها ثمنـــا كبيرا يبلغ حوالى ٣٠ — ٤٠ **بوطاقة** ومن العسير ان تحصل لنفسك على واحـــد منها . ومع ذلك فقد توصل كثر من الفرنسيين الى الحصول على هـــذه الكلاب وبعض منها فى الوقت الحالى فى حوزة بعض الجنرالات (١٩) .

---

(١٩) شاهدت فى مغارات وكهوف مصر الوسطى رسوما مصرية تثير الفضـــول الى حد كبير ، وتمثل بدقة طريقة صيد الغزال هـــذه ، ومن اليسير ان نتعرف فيها على كلب السلوق نفسه ، وتشـــكل رســـوم هذه المغارات وشروحها جزءا من المجلد الرابع للعصور القديمة، اللوحة ٦٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

العرب المحاربون أو العربان الرعاة أو الرحل

اما الطبقة الثانية من العرب فتشمل أولئك الذين يضربون خيامهم فى أعماق الصحراء أو على مشارف مصر ، والذين هم فى حرب مع الحكومة فى بعض الأحيان ، وفى أحيان أخرى فى سلم معها ، ولا تمتلك هذه الطبقة أرضا ولا تدفع ضريبة على الاطلاق ، وهى الطبقة الأكثر عددا والأكبر قوة سواء فيما تملك من خيول وأسلحة أو فيما لديها من جمال وماشية . وهى التى تمد القوافل بالجمال التى تحتاج اليها لأغراض التجارة .

ولا يسمح لنا تغيير هذه القبائل المستمر لمكان اقامتها ، وان كان يتم فى معظم الأحيان فى اطار نفس المنطقة ، لا يسمح لنا ذلك بمعرفة أسمائها . وفى الفترة التى كنت أتجول فيها فى مصر الوسطى ، كانت قبائل أولاد على هى أكثر هذه القبائل قوه ، وكانت مخيماتها تقع فى ادمو بالقرب من المنيا . وكانت تضم ألف حصان . أما قبيلة الفوايد فكان يبلغ عدد أفرادها الألف من بينهم ثلاثمائة فارس ، وبالاضافة الى ذلك فقد كان ثمة قبائل أخرى فى أبى الهدر والدرمان ودروط وبالقرب من سمالوط فى اقليم بنى سويف وفى ضواحى الفيوم .

ويغير هؤلاء البدو من منطقة اقامتهم اذا مابدت لهم منطقة اخرى أكثر وفرة فى مراعيها أو فى مياهها أو أكثر مواتاة لمشروعاتهم ولأغراضهم فى السلب وأعمال العنف . فهؤلاء فى الواقع سواء فى حالة حرب أو فى حالة سلم يمارسون نفس القدر من أعمال السلب والعنف ، مع فارق واحد ، هو أنهم يمارسونها فى حالة السلم بعيدا عن مقر اقامتهم المعروفة وبحيطة أكبر ، فالبدو فى حالة السلم لايرتكبون السرقات ولا

اعمال القتل مطلقـــا بالقرب من مخبمهم ، وانما فى أماكن نبعد عن ذلك بفراسخ كتيره .

وحيث أنه ليست لـكثير من هذه القبــائل الجوابه من مصالح فى داخل البلاد فانها مرتكب جرائمها دون أن تلقى عقابا ، مادامت نحرص على أن تظل على بعد كاف داخل الصحراء حيث يطعمون ماشيتهم على قــدر مايستطيعون . لـكنهم فى غالب الاحيــان يعسكرون على حافة مصر ، وهنـــاك توجد كثير من الأراضى التى كانت تزرع فى الماضى ، كما نستدل على ذلك من الآثار التى يحفرها العرب هنــاك والتى تردمها الرمال كل يوم أكثر فاكثر . وفى غالب الأحيــان ، تصل مياه الفيضـــان لتغمر هذه الأراضى ، وعندئذ ينمو نوع من البرســـم بالغ القصر له أوراق بالغـــة النعومة تنفتح فى تواشيه ورود صـــفراء ويسمونه كتة ، وهو علف جيد بالنسبة للمواشى ، فى جودة البرسيم نفسه بل ويتفوق عليه حسبما يذكر اهل البلاد الدين كتيرا مارأينهم يذهبون الى هنـــاك ليحصدوه لخيولهم ، وهو قصـــير لـكنه بالغ الـكثافة . وبعد الفيضانات الكبرى « كفيضان سنة ١٨٠٠ » ينمو هذا النبـــات بوفرة شديدة حتى أن العـــرب يرعون هنـــاك ماشيتهم وخيولهم وجمـــالهم على نحو واســـع ، ويتراخون فى الذهاب لاتلاف محاصيل علف الفلاحين ، وعام كهذا هو عام مبارك بالنسبة للقبائل العربيـــة التى تأتى لتغطى بخيامها كل حواف الصـــحراء . لذلك شاهدنا فى عام ١٨٠١ مجىء كتير من القبـــائل العربية من أفريقيا بعـــد أن جذبتها أنبـــاء الفيضان الـكبير . وينمو فى هذه المنـــاطق بالاضافة الى محصول العلف هـــذا ، نبـــاتات عطرية صغيرة الحجم تشكل مرعى ممتازا للخراف والماعز ، ونتيجه لذلك تقوم الماشية بتسميد هذه الأراضى، وبهذه الطريقة يكون من السهل اعادة زراعتها لولا فقر وكسل الفلاحين أو بالأحرى لا مبـــالاة الحكام . والأرض التى تنتج هذه النبـــاتات هى فى واقع الامر صلبة لحد تستعصى معه على المحراث المصرى أن يشقها ،ومع ذلك فلماذا الاصرار على استخدام المحاريث لهذا النوع من الأراضى ؟ انها سوداء كالأرض المزروعة لـكنها أكثر تماسكا ، ويبدو لى أنها تدين بذلك لوجود طمى بالغ النعومة قـــد تكدس على مر السنين وازداد جفافه اكثر فأكثر ، لأن الجزء الأكثر نعومة من الطمى هو الذى يقوم النهر بترسيبه جد بعيد من مجرى النيل ، وتتشكل الأراضى من هـــذا النـــوع فى بعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأحيان مراعى شاسعة تمتد حتى الريف ، وتجعل الحدود الحقيقية للأرض المزروعة غير مؤكدة ، ولهذه المراعى المليئة بالورود الحمراء والبنفسجية، شكل ورائحة جذابة ، لذلك فان حواف الصحراء على بعض المناطق مثل المير والأقصار وأماكن اخرى ، تبعث على البهجة أكثر مما يبعث عليها اى مكان آخر فى مصر التى تعرف بأنها لاتنمو بها الأعشاب .

هكذا يضطر العرب الذين يطردون من الأراضى المزروعة اذن على الهروب الى مشارف الصحراء أو الى أبعد من ذلك بقليل ، وبينما يظنهم الناس قد ذهبوا الى بعيد فانهم يكونون تديدى القرب من مصر ، ومن اولئك الذين يطاردونهم ، مختفين وراء تل من الرمال .. وهم يعرفون الآبار وكافة البحيرات والبرك التى يكونها الفيضان فيلجأون اليها عندما يتوغلون داخل الرمال . واذا ماتتبعت آثار جمالهم فستقودك هذه الآثار بالتأكيد الى اماكن توجد بها مياه صالحة . فلا يتخيلن احد أنه يسبب أذى للعربان اذا ماشن عليهم الحرب كما حدث ، فلسوف يعرفون مقدما أن هناك صفا من الجنود المشاة يجدون فى اثرهم ، عندئذ يحملون حبوبهم وخيامهم ويبعثون بها الى الأمام ثم يتجمعون كلهم فوق خيولهم ليتبعوا اشياءهم وبذلك يصبحون بعيدا عن متناولك قبل ان تدرك انت ما صاروا هم اليه ، واذا مالحقت بهم فسيدافعون بسهولة عن أنفسهم ضد أناس منهكين تليلى العدد ، وهم يسببون لعدوهم من الأذى اكثر بكثير مما يسببه هو لهم ، وسرعان ما يرهقون مشاة نصف مهزومين بفعل العطش ،وأخيرا فاذا كان عدوهم فى حالة تمكنه من دفعهم ، فانهم يهربون ويلحقون بجمالهم فى اعماق الصحراء لدرجة يستحيل مطاردتهم هناك .. وليس هذا هو كل شىء ، فعندما يعرفون ان صف الجنود قد مضى ، فانهم يستعيدون موقعهم بكل ثقة ، عارفين جيدا أن العدو لن يهاجمهم مرة ثانية ، اما اذا حدث ذلك ، فانهم على اتم استعداد للقيام بنفس التاكتيك ، الذى لا يسبب لهم على الاطلاق اى تعب ، ويهربون من المطاردة الثانية ، بسهولة أكبر .

وقد شاهدت كثيرا من القبائل تتصرف على هذا النحو فى مصر العليا ومصر السفلى ، ولم يستطع لا الفرسان ولا المشاة ان يسببوا لهم ادنى أذى ، وليس فى مقدور عدوهم أن يحطم لهم اى شىء اللهم الا هدم بعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأكواخ واشعال النار فى بعض اكوام القش . وللعرب مزية لا تقدر بثمن ، هى ان لهم داخل القرى نفسها مستودعات مضمونة للحبوب وللمؤن الأخرى التى قد تسبب لهم الارتباك عند هروبهم ، وهم يحصلون بلا مشقة على هذه الخدمة الجليلة من جانب شيوخ القرى وليس لأحد من سبيل للتعرف على هذه المستودعات .

وعندما طردت قبيلة أولاد على من ضواحى الاسكندرية فى صيف عام ١٨٠٠ فقد انسحبت هذه القبيلة الى الصعيد دون أن يخامر احد الشك فى (امكانية) حدوث ذلك ، اذ بينما كنا نظنها مقيمة فى ليبيا ، قدم أكثر من الف فارس ليقيموا فى ادمو مع عدد هائل من الجمال ، وأردنا ذات يوم أن نفاجىء فريقا معاديا كبيرا منهم عند مدينة سمالوط ، لكن النبأ بلغهم فى الوقت المناسب فأنقذوا كل شىء على وجه التقريب دون أن يخسروا رجلا واحدا .

هل يستحيل اذن اللحاق بقبيلة معادية ؟

لو حدث أن كان لدينا العديد من فرق الجنود ، موزعة توزيعا جيدا ومسلحة بسلاح جيد ، يركبون الجمال ويحملون معهم مؤنا تموينية ومياها بحيث تهون من عملية مطاردة الفارين منهم لمدة خمسة أو ستة أيام فى الصحراء اذا اقتضى الأمر ، واذا أمكننا زيادة على ذلك أن نعتمد على جواسيس مخلصين ، فليس هناك من شك فى أننا فى النهاية سنلحق بالجمال المحملة ، فأسلاب كهذه هى بالتأكيد أكثر الأمور اغراء للجنود كى يواصلوا هذه الجولات المرهقة .. اذا حدث وتم لنا ذلك فلا يمكن أن تكون ثمة قبيلة عربية على الاطلاق ، ومهما كانت قوتها ، لا يمكنها الا أن تتحطم فى ظرف عدة أيام ، أو على الأقل ، تتبعثر وتحرم من نسائها وأطفالها وخيامها وجمالها ومئونتها بعد مطاردة كهذه تتم على يد خمسمائة فارس ـــ جمال « هجانة » تتوفر لهم قيادة جيدة ، ومعلومات موثوق بها ومعرفة بالطرق الصحيحة التى ينبغى أن يسلكوها (٢٠) .

---

(٢٠) ينبغى أن نحكم على هذا الزعم عن طريق النتائج الأولية التى حصل عليها الفرنسيون عن طريق تنظيم مشابه أقاموه أثناء حملتهم على مصر .

هنـــا يثور سؤال آخر . هل يمكن عقد السلم مع قبيلة جوالة ؟ أم أنه ينبغى علينا أن نعامل كل القبائل من هـــذا النوع باعتبارها معادية ؟ دون أن نستثنى من ذلك حتى العـــرب المزارعين الـــذين يقيمون داخل مصر .

اذا ما وضـــعنا فى اعتبارنا أننا لن نحصل على أى نفع من وجود العرب ، بل وجدنا أنهم بالعكس قادرون على الاضرار بنا فى كل لحظة بدعم حركات التمرد والاسهام فيها ، وبتقويه صفوف جانب مناوىء لنـــا قـــد يظهر فى الأفق ، فسوف يكون لزاما علينا الا نترك قبيلة واحدة فى حالة سلم ما لم يمنعنا من ذلك خوفنـــا من أن تنقصنا الجمـــال والخيول على الفور فى أسواق مصر . وفى الحقيقه ، فانه من الممكن أن نشجع تربيـــة هـــذه الحيوانات فى الأرياف وأن ننتج منها فى فتره محددة كميه كافيـــة ، لـــكن هذه الفترة لن تأتى الا بعد وقت جـــد طويل ، وهكـــذا سنجازف ــ لو فعلنـــا ذلك ــ بأن تنقصنا هذه الحيوانات فجـــأة وعلى الفور . ومع ذلك فان ثمة أسبابا هامة تدعونا بألا نسمح لأية واحدة من هذه القبـــائل الجديدة التى تأتى كل عام الى مصر بأن تثبت أقدامها فوق أرض البـــلاد ، فان أغرابا يعسكرون على أبواب بلد لا يمكنهم فى الواقع الا أن يكونوا أعـــداء مزعجين ، فأية كارثة يكونها أمثال هؤلاء القوم فى واد بمثل ضيق مصر ! وهل هى سياسة سليمة على الاطلاق أن تقاسى داخل البلاد من فرق معادية على هذا النحو وأن نظل « البلاد » راضخة لتجار الخيول هؤلاء ؟ وهل من الحكمة أن ندعهم ينتزعون الجزء الأكبر من أموال البلاد؟ بماذا تنبىء كل هذه الهجرات القادمة من بلاد البربر حتى ولو لم يكن بينهم العائلات التى تخرج من هذه البلاد ولديها هذه الرغبة المتأججة فى الاثراء على حســـاب مصر ، وهـــو الأمر الذى لم يعد بالنسبة لهؤلاء الا أمرا بالغ السهولة بفضـــل تراخى الحكومات ؟ واذا ما حسبنا حساب كل شىء لوجدنا أن من الواجب ألا نتفاوض مع هذه القبائل الجديدة، حيث أنه لا توجد معاهدة على الاطلاق لا تحتوى على منافع متبادلة .

اما عن العرب الملتزمين « أى الذين يقومون بوظيفة ملتزم » ، فاذا ما اعترفنا بأن ممتلكاتهم تعود كلها الى حوادث غزو ، وأن حوادث الغزو هذه تعود الى عهد جد قريب حتى أن الملاك الحقيقيين يستطيعون المطالبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باستعادتها أو استرجاعها بأنفسهم فقد يكون من المحتم بلا جدال أن يطرد من مصر ، وبلا أى استثناء كل العرب الذين أقاموا فيها أو على الأقل أن نقلص من مكانتهم ليصبحوا مجرد مزارعين بسطاء ، وأن نجعلهم يعدلون عن حمل السلاح وركوب الخيل وأن ينفضوا من حول رؤسائهم وأن يتخلوا عن نظـــام القبيلة الذى يحكمهم وأخيرا أن ندمجهم بالشعب .. ومع ذلك فان الأمر ليس على هـــذا النحو ببساطة ، فكثير من القرى انما هى ملك خاص للعرب اذ يوجد فى صعيد مصر منذ وقت لا تعيه الذاكرة عرب ملاك بل ومستقلون ، كانوا على الدوام حكاما خلصا فى مقاطعـــاتهم حتى فى زمن المماليك ، بل ان الكثيرين منهم هناك قد نالوا تقدير الناس لمـــا لهم على الزراعة من فضل وما بذلوه فى سبيلها من عناية .

اذن فليس بالامكان سوى أن نلغى الابتزازات القديمة والحديثة وأن ندع للعرب الأراضى التى فى حوزتهم بفعل حق الملكية القديمة ، ومع ذلك فان الأمر يقتضى منا فى كل الحالات أن نمنع وأن نستبعد بكل شدة عادات وطباع الخيام ، فما أن يتفرق هؤلاء الفرسان فى القرى، حتى يجدوا لزاما عليهم بالضرورة أن يهبوا أنفسهم للزراعة، وعندئذ سنرى انقطاع احداث السلب كما سينتهى بخاصة ذلك التمايز المحزن بين العرب والفلاحين ،وقد لايكون من الظلم أن نمنع هؤلاء الرجال من أن يقيموا خيامهم ، أو أن نبعدهم كلية عن البـــلاد اذا ما قاوموا ، ذلك أن بلدا متحضرا ، من اليسير على راكبى الخيل أن ينهبوه ، لاينبغى له مطلقا أن يتسامح فى وجود هذا العدد الـــكبير من العاطلين ، الذين ليس لهم من مقر ثابت والذين لا يتحملون مسئولية فعـــالهم ويضعون أنفسهم فوق القـــانون .

ومهما يكن من أمر فان المرء لا يســـتطيع أن ينظر باســـتخفاف الى التزايد المطرد فى أعداد هؤلاء الفرســـان الطموحين ، الذين لا يخضعون لشىء ، والذين يهددون بغزو غير منظور لـــكل الأراضى بل والسيطرة على البـــلاد . ولربما نصحوا ذات يوم فاذا بالوقت قـــد فات ، فلا نســـتطيع أن نقاوم مائة قبيلة ، تضم كل منها خمسمائة فارس .. ألن يكون جيش كهذا ، اذا ماحدث أن تجمع ، قويا لحد يمكنه من السيطرة على مصر ؟؟

لنضف الى هـــذه القوة العسكريه قوة المـــال الذى يتكدس دونما انقطاع فى أيديهم بنفس القـــدر الذى قلنـــاه عن العرب المزارعين . وفى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الواقع فان حصيلة بيع ماشيتهم ، والأجور التى يحصلونها من القوافل، ومنتجـات خيولهم وجمـالهم وعائد تجـارتهم .. كل ذلك يؤدى لذهاب كميات كبيرة من النقود الى خيامهم ، وهذه تبلغ رقما لا يعود ١/١٠ منـه الى مصر ثمنا لضرورات حياتهم ، لأن العرب يكادون لا يحتاجون لشىء .

ان النهم للمال والفضة عند العرب هو أولى غرائزهم ، فمجرد رؤية قطعة من الذهب تجعل أساريرهم تنفرج ، وتجعل الابتسامة ترتسم على شفاههم ، وهم لا يقدرون رجـلا الا لمـا يمتلك من المـال أو الا بقـدر ما يأملون فى الحصـول عليه منـه ، واذا ما نقص مال هـذا الرجل ، فسوف يجد فيهم أناسا لا يمكن الوصول اليهم أو الحصول على شفقتهم . ولـكم شاهدت أبنـاء الاسكندرية البؤساء الذين عانوا من مجاعة مفزعة وهم **يستجدون** هؤلاء العرب شبه جاثين على ركبتهم والنقد فى أيديهم أن يبيعوهم بعض مكاييل من القمح لاطعـام أسرهم التى ظلت على الطوى مدة يومين ، لـكن العربان كانوا يرفضون البيع بالمدينى ، فقلب البـدوى قطعة من صخر لا يمكن أن تلين الا على رنين الذهب ، والذهب وحده (٢١)

ويحتفظ العرب الرحل على الدوام ، سـواء كانوا فى حالة حرب أو فى حالة سلم مع حكام البـلاد ، بعـلاقات متينة مع بعض شـيوخ القرى تؤمن لهم المواد والمعونات الخفية ، بمعنى أن هؤلاء الشيوخ يكونون على استعداد لاخفاء أمتعة هؤلاء البـدو وحبوبهم وأشـيائهم . ولربما أخفى شيخ عنده ذات نهار ما سرقه العرب منه هو شخصيا ليلة البارحة. ومع ذلك ، فهكذا قدر على الفلاحين أن يقبلوا يد قاتلهم ، فلقد سمعت

---

(٢١) كثيرة هى النقود التى كسبها العرب من الاسكنـدرية أثنـاء شهور الحصـار الستة ، فبعد أن ضيق الانجليز عليها الخناق ، لم يعد بامكانها أن تحصل على أية مئونات من رشيد لاعن طريق البر ولا عن طريق البحر . وفى النهاية أمكن للعرب أن يدخلوا اليها بالحبوب بالطواف حول بحيرة مريوط ، وحيث لم يكن الناس يستهلكون هناك الا المواد الحيوية، وكان العرب وحدهم هم الذين يقدمونها بأسعار متزايدة ، فمن الواضـح أنهم قد نزحوا من هذا المـكان أكثر من مليونى قطعـة ذهبية اذ كان يوجد هناك أكثر من ألفى شخص ينفق كل منهم سكينا « عملة ذهبية قديمة » كل يوم ، بالاضافة الى أنهم كانوا يسلمون الينا **كل** يوم ١٣ الف جراية ، (حصة طعام الجندى **فى** اليوم) .

الفلاحين يصفون بالطيبة والشرف هذا الفريق من العرب الذين لا يقتلونهم وانما يكتفون فقط بنهبهم .

وهذا الخطأ الذى يقترفه الشيوخ فى تقبلهم هذه المخازن السرية هو واحد من أهم الأخطاء التى تقود الى الدمار والهلاك . وقد رأيت من هؤلاء الشيوخ ، الذين أصيبوا بعمى البصيرة لحد يجعل منهم شهداء ثمنا لكلمة صدرت منهم ، يحتفظون بثروة العربان على حساب ثروانهم الخاصة ، بل وعلى حساب حريتهم ، بل لقد رأيت من بينهم من يتحملون عقابا مشينا . ويتلقون لوقت طويل عذاب الضرب بالعصى قبل أن يرغموا على الاعتراف على المخازن التى أوكلت اليهم . لكن هذا ليس من البطولة فى شىء فلست أحب هذا الوفاء للوعود التى انتزعت بفعل الرعب . لكننى ألوم هؤلاء « الشيوخ » لرعبهم وضعفهم ، وأعيبعليهم أن يجدوا أنفسهم بفعل وضعهم المزرى قد انساقوا الى العمل ضد الحكومة والى حماية أعدائها . وكم يتألم المرء وهو يرى العقوبات القاسية الى هذا الحد والمهينة الى هذا الحد وهى تطبق على مسنين يحظون بالتقديس بين ذويهم ، على رجال هم قضاة ورجال دين وسادة فى وقت معا وفى نفس المكان الذى يحكمونه . ولما كنت قد وجدت نفسى شاهدا على حوادث مماثلة ، فقد كنت آمل على الأقل أن أمثلة هذه القسوة سوف تخلص الشيوخ من عيوبهم هذه وأن سيكون بمقدورها أن تقود خطاهم نحو مصالحهم الحقيقية ، ولن تكون هذه المصالح مطلقا فى معاونة شذاذ آفاق يتعاقبون عليهم ، ويأتون لينهبوهم كل بدوره .. لكن هذه المصالح ستكون فى الارتباط بالحكومة التى تظل على الدوام هى هى ، ثم يطلب هؤلاء الشيوخ بعد ذلك دعمهم ضد قطاع الطرق هؤلاء فالضرائب التى يدفعونها للحكومة تعطيهم الحق فى هذه الحماية .

ومع ذلك فهكذا تمضى الأمور ، فشيخ البلد يقوم مرة باستقبال طيب للفرق « العسكرية » التى تمر بقريته لمطاردة العربان ، ومرة أخرى لهؤلاء العربان أنفسهم الذين يعاودون المرور بقريته بعد ذلك ، وسوف تكون سعادة هذا البائس مفرطة لو أنه لم يلق المهانة على يد أحد الفريقين عقابا له على استقباله الفريق الآخر وتقديم عونه للفريقين ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذات مرة وجـدت فى اشميت حوالى العشرين من العربان الذين اشتهروا بالسلب ، وعنـدما شاهدوا مجىء مقـدمه جنودنا خرجوا من القرية ، وامتطوا خيولهم .. كان الطرفان « جنودنا والعربان » جـد قريبين من بعضهما البعض لحـد لا يمكن معه أن يستعد أيهما للمعركة ، فتلاصـق العربان فيما بينهم وأطلقوا بنـادقهم من خلف ظهـورهم ثم وضـعوها مستقيمة فوق الركبة علامة على الحرب ، ثم مضوا فى تحـد وفى شكل استعراضى ، وحيث كان عدد من تجمع من جنودنا لم يبلغ بعد ، سبعة أو ثمانية . وحيث كان هؤلاء مرتبكين بأمتعتهم ، فقد اضطروا أن يتركوا هؤلاء يفلتون دون أن يجـدوا فى أثرهم ، وأن ينتهزوا فرصـه أخـرى لعقاب هؤلاء اللصـوص النهابين . وعلى الفور هـرع الينـا شـيوخ القرية واستقبلونا بحفـاوه .. وكان هـذا الاستقبال الحافل هو نفس الاستقبال الذى قدموه منذ زمن قصـير للعربان ، ولقد قالوا لنـا عنهم الـكثير من السوء ، بنفس القدر الذى قالوه عنا لهم ، دون شك .

رأينـا من قبل أن العرب الجوابين يطعمون خيولهم ومواشيهم فى أغلب الأحيان على مشارف الصحراء ، من تلك الأعشاب التى تنمو هناك، لـكن ذلك لا يحدث الا عندما لا يستطيعون أن ينهبوا العلف من الفلاحين، حين لا يكون أولئـك البـدو كثيرين للحـد الذى يكفى للاقامة هنـاك وعندما يخشون بعض المقـاومة . أما فى الحـالة الأخرى فلن ينقصهم العلف مطلقـا ، ولن يحرموا من جانبهم شيئا على الاطلاق ، فهم يمررون خيولهم على المحاصيل سـواء كانت ناضجة تمت ثمارها أو مازالت بعـد عشبا أخضر ، ويجعلونهـا تأكل القمح أو الشعير وهو لا يزال بعد نباتا صغيرا ، وانه لتناقض فريد أن ترى التلف الذى تحدثه الفرسات الطليقة بين القمح والبرسيم ثم نرى بعد قليل جواد شـيخ القريه « وصـاحب الحقل » مقيـدا الى وتد يرعى الـكلأ ونبـات الحلفا ، ويحدث فى بعض الأحيـان أن يشعر السكان بالمهـانة من هذا السلوك ، وعندئذ — اذا ما توفر لديهم بعض الفرسان — يطبقون على العـربان ولا يتردد هؤلاء مطلقا فى الهروب ، ولـكن اذا ما فقد العرب رجلا فى المعركة ، فسوف تكون معركة لا تلوح لهـا نهاية ، اذ يأتى أهل القتيل فى أعـداد كبيرة يطالبون بالقصـاص ، فلا ينـالون بغيتهم ، وعندئذ يأتون ليحصلوا على ذلك بأيديهم ، وهنـا تتبـادل حـوادث القتل والاغتيـال الفردى بين

الفريقين ، فقتل عربى واحد فى قرية يمكن أن يعرض هذه القرية لاضطهاد قبيلة بأكملها لسنوات طوال ، ولابد من ارضاء هذه القبيلة على وجه السرعة ، اذا شاءت هذه القرية ألا ترى نفسها وقد خربت ، وكم شاهدت من قرى لم تعد فى الوقت الحاضر ، وبعد أن مرت بحالة كهذه ، سوى اطلال هجرها سكانها لأنها تجرأت على خوض معركة ، كان العرب فيها هم المعتدين .

وعندما يأتى الفيضان ، ينسحب البدو نهائيا من العمل لمدة ثلاثة اشهر ، وتكون هذه الفترة بالنسبة اليهم هى أبأس شهور السنة وأكثرها مدعاة للأسى ، فليس هناك ما يلطف قبظ الصحراء الرهيب ، تلك التى لا يجدون مناصا من البقاء فى أسارها ، ويحتم الأمر أن تقرض خيولهم اغصان التمرهندى ، لكن ذلك ليس بمتوافر على الدوام . عندئذ يضطرون خلال هذه الفترة أن يقدموا الشعير لخيولهم ، وان كان ثمة ما يزيد على ثمانية أشهر من شهور السنة الاثنى عشر لا يحدث فيها ذلك على الاطلاق .

وينتهى الفيضان، ولا يلبث محصول الذرة أن ينضج..وعندئذ تبدأ جولات الغزو والسلب . وياسوء حظ تلك القرى التى يبلغ ضعفها حدا لاتستطيع معه أن تذود عن محاصيلها ! ذلك أن الذرة هى خبز العربان ، وهى نفس الوقت خبز الفلاحين لكن الأمر ينتهى بأن تؤول الذرة — ولو فى جزء منها على الأقل الى الأولين .. الى هؤلاء الأكثر قوة .

ويكون طعام العربان الرحل عادة أكثر سوءا من طعام الآخرين، وأغلب هؤلاء غير حسنى الهندام ، ولون ملابسهم حائل كما انهم أكثر استعصاء على التعب ، لذلك فملامحهم أكثر جمودا ، وهى صارمة على الدوام وقاسية . وزى الفرسان على الدوام أبيض اللون ، اما ملابس السيدات وملابس الراجلين منهم فذات لون قاتم . ويرى فى مخيماتهم كثير من الرجال يضعون عصابات على اعينهم كما يحدث فى مدن مصر، ذلك انه من الخطأ الاعتقاد بأن هؤلاء البدو لا يصابون بالرمد ، وهم لا يبذلون أى جهد ليحصلوا على الشفاء ، بل يظلون يلزمون خيامهم وينامون فى الظل كما تعودوا . وليس لهؤلاء العربان من عمل ثابت . وان كانوا على الدوام فى حالة حركة وفى حالة زحف ، وهم يذهبون كما

الضوارى الشهباء يبحثون عن فريستهم ، ولا يتوقفون الا حيث تستبقيهم الأسلاب .

وفضلا عن ذلك فان نقاليدهم وعاداتهم هى نفس عادات وتقاليد العرب الآخرين . فهم راضون سعداء بحظهم فى الحياة وبما يملكون ، وكما ينال الشيخ التقديس من قبل قبيلته فان رب الأسرة يلقى احترامه من قبل اسرته ، واذا ما امتلك الرجل منهم حصانين وجملين واربعة خراف وبندقية وخيمة ، فلقد نال كل ما يبغى وتحققت كل رغباته وحيث لا توجد لهم فى الغالب من قوانين الا القوانين الأسرية .. وحيث لايدفعون اية ضرائب ولا يلتزمون بأى التزامات أخرى فان مخيماتهم تبدو صورة مجسمة حقة لحرية لا يتمتع بمثلها مجتمع آخر على الاطلاق . ولا يهتم بدوى ما الا بنفسه ومكاسبه وشئون حياته هو وبفعاله ، وعندما يتم تجهيز قافلة فانه يؤجر جماله ويقدر هو الثمن الذى يرتضيه دون أن يكون عليه أن يوضح أمره لا لشيخه ولا لأحد آخر ، وهو يضخم من ماله الخاص عن طريق بيع الجمال الصغيرة والفرسان الصغيرة والبان ضأنه وعن طريق عائد التجارة التى يمكنه أن يمارسها . وبهذه الطريقة يبلغ سن الشيخوخة وهو مبجل عزيز على أولاده ويموت بعد أن يكون قد استمتع طيلة حياته بأثمن ثروات الرجل : الصحة والحرية . وعند موته يترك أبناءه وهم متزوجون ، بل وآباء ، أغنياء بثروته هو ، وبما يكونون قد كسبوه .

واكثر العرب بؤسا هم أولئك الذين لا يمتلكون على الاطلاق خيولا ولا جمالا لأنفسهم ، بل ولا خياما وان كانوا يمتلكون بعض الحمير التى يربونها ويبيعونها فى الأسواق ، لكن هؤلاء الرجال لا يبدون تعساء، فتعودهم على ضروب الحرمان يجنبهم عدم التوافق مع الحياة ، وهم لا يرغبون فى ثروات يجهلونها أو ينظرون اليها على أنها ابعد منالا مما قسم لهم ، لكنهم سرعان ما يفلتون من هذا القدر ، فحيث أن طموحهم الرئيسى ينحصر فى أن يكونوا ملاكا لفرس فانهم لا يلبثون أن يحصلوا على ثمنها عن طريق بيع بعض الخراف وبعض الحمير . وبعد اقتناء الفرس يتزودون فى أقرب وقت ممكن ببندقية وسيف . وفى النهاية يرى المرء هؤلاء الناس ، فى أشد حالاتهم بؤسا ، لكنهم يشاركون شيوخ

اقـــدم العـــائلات فى التبـــاهى بأنهم بدو ، يكنون الاحتقار للأوروبيين ، ولـــكل ماهو غير عربى ..

وعلى العموم ، فاننـــا لا نجد لدى البدو البسطاء الا الأشـــياء التي تعد من ضرورات الضروريات (٢٢) .

ولـــكن ينبغى الا نحكم بما نرى عند هؤلاء على رؤساء القبـــائل ، فمصادر دخل هؤلاء لا تجعلهم فى منزلة اقل من العرب الملاك ، وكبـــار شيوخهم وعائـــلاتهم وكـــذلك شـــيوخهم الشرعيون هم اغنيـــاء بالنسبة للمصريين ، فهم يحصلون على دخول كبيرة من القوافل ، ويتخذون العديد من الزوجات والـــكثير من الخـــدم ، وطعـــامهم بســـيط لـــكنه صـــحى ووفير ، والأسلحة الجميلة والخيول الجميلة ليست أمورا نادرة هناك ، ويشترى هؤلاء فى بعض الأحيان عبيدا سودا ليتخذوا منهم فرسانا .

وقلما تنقص البـــدو الذخيرة التى يطلقونها ، وهم يتزودون بها من قرى تصنع فيهـــا بشكل سرى ، ومع ذلك فهذه الذخيرة من نوع ردىء ، وتمدهم قرية الأشمونين الـــكبيرة بالـــكثير منها ، اذ يوجـــد هنـــاك من البـــارود اكثر مما يوجد فى اى مكان ، بفضل اتساع اطلال هرموبوليس الـــكبرى ، التى بنيت فوقها المدينة (٢٣) .

وعلى الرغم من أن العرب الرحل قلقون متوجسون فانه يحدث مع ذلك ان يؤخـــذوا على غـــرة وعنـــدئذ يكتفون — ما أن يلمحوا الفـــرق العسكرية — بترحيل خيولهم وجمالهم على وجه السرعة ، هـــذا ان لم يسعفهم الوقت باقتـــلاع خيـــامهم ، وعندئذ لا يبقى فى الخيـــام ســـوى النساء والشيوخ والأطفـــال ، ويستقبلك هؤلاء استقبالا طيبـــا ، فتظن نفسك فى معسكر صديق ولست فى معسكر اعداء تجد فى البحث عنهم .

---

(٢٢) من هذه الضرورات التبغ، وان يكن ينقص الكثيرين منهم ، وهم يجدون فى البحث عنه ليتخذوا منه نشوقا وسعوطا ؛ وقـــد رأيت عربانا يدوسون على كبريائهم للحصول عليه ، لدرجة انهم كانوا يتحدثون بمودة مع جنودنا .

(٢٣) تهيىء هـــذه الخرائب ترابا تحدثنا عنه من قبل ، يحتوى على الـــكثير من ملح البارود .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومع ذلك فقد يكون من الميسور فى بعض الأحيان أن تنتزع قطعان ضخمة من الجمال ، لأن هذه القبائل لا تقيم لأنفسها حرسا على الاطلاق اذا لم تكن تعرف أنها ملاحقة وأن ثمة من يجد فى أثرها . فهم فى العادة يعهدون بمئات من هذه الجمال الى ثلاثة رجال أو اربعة ليقودوها الى المرعى ، وفى بعض الأحيان تذهب كل جمال القافلة التى يبلغ عددها الفين لترعى على بعد فرسخ من المخيم دونما حراسة من أى نوع ..

ولقد استقرت بعض هذه القبائل الجوالة منذ وقت طويل فى مصر ، وظلت على الدوام فى حالة سلم مع الحكومات ، بل تقدم اليها المساعدات ، ولا يمكن لأحد أن يوجه الى سلوكها لوما ، فهو فى مجموعه سلوك طيب لا يتعارض مع مصالحهم ويمكن أن نورد أمثلة على ذلك فى قبائل : طرابين ، الحويطات ، بلى .. وهؤلاء يقومون بكل قوافل السويس ، وسوريا ، ولولاهم لكانت تجارة البحر الأحمر عن طريق السويس بالغة المشقة .

ويختلف نطق اللغة العربية على لسان البدو تماما عنه على لسان الفلاحين .

ولا يمكن لنا أن نعد لهجة البدو جافة ، كما أنها لا تخلو من زخارف . ففيها بعض الرقة ، ويعتريها تناغم فى الصوت أكثر رخاوة، وتتآكل على لسانهم بعض المقاطع ولكن يعيبها أنها مبتورة وأكثر صعوبة . وهم يتحدثون على الدوام تقريبا بصوت خفيض ، وتكون اسنانهم حينذاك مطبقة ، ونبراتهم متنوعة ، وصوتهم منغما وغنائيا فى احاديث البسيطة ، وفى المناقشة الاعتيادية ، ويرفع أغلبهم صوته حتى يصبح ناقما ، ولم أسمع مطلقا حرفا يلفظونه أكثر نقاء من حرف الزاى، وبشكل أكثر جاذبية حرف الزاى اللاثغة « الذال » ويفعلون ذلك دون ان يختلط هذان الحرفان على الاطلاق ، وأخيرا فان كل مخارج الألفاظ الخاصة باللغة العربية ، بل وحرف الخاء والنغمات الحلقية تأخذ فى اقوالهم رقة خاصة تقترب من اللغات الأوربية وتثير الدهشة فى مصر، ويتضح هذا بشكل خاص فى نطق الجيم التى يلفظها الكثيرون ليس غير

معطشة كما يفعل أبنـاء القاهرة وانما معطشة كما يفعل العرب بشكل عام ، ولـكن يشوبها نوع من نطق الزاى على طريقة الأطفال أو الرجال المخنثين . وتسمع من اقوالهم حرف الثـاء بشكل قاطع الرقة فى الكلمات التى يدخل فى تكوينها هذا الحرف . وقـد سمعتهم مرات كثيرة يغنون أثنـاء تجوالهم على الخيول فى لحن رتيب يخرج من الأنف ، وليس لكلماته معنى مفهوم ، ويكاد يتم الأمر بدون أن تفتر شفاههم ويلاحظ المرء فى هذا اللحن تكرار المقطع « ديا » على الدوام . ويتميز البـدو عموما بهـذه الطريقـة فى الغنـاء من بين أسنانهم . وفى النهاية فانهم يظهرون الكثير من الاحتقار للطريقة التى يتحدث بها المصريون ، وينطقون بهـا اللغـة العربيـة .

* * *

ولقد تبدو الملاحظات التى كانت موضـوعا لهذه المـذكرة ، والتى تمت بشكل مبدئى فى مسرح الأحـداث بهدف وحيد هو دراسـة العرب وتقاليدهم ، قـد تبدو بلا هـدف مالم تكن ترتبط باطار عام ، أو كانت قد اقتصرت على تقديم بعض النتائج التى تقلق روح القارىء المنصف .

ولكى نكتفى فى هذه العجالة بأكثر هذه الملاحظات اهمية ، فان من الميسور أن نضيف الى ما سبق أن العرب المستقرين فى مصر يتزايدون اكثر فأكثر سـواء فى أعدادهم أو فى قوتهم وأنهم سيستولون يوما على السلطة اذا لم يوضع حد لوقف غزواتهم . وفى الواقع ، فمهما تكن أصول واقـدار هؤلاء العرب سـواء هؤلاء الـذين يسـكنون الخيـام منهم أو أولئك الذين يقطنون القرى ، وسواء كانوا يزرعون أو يستزرعون الأراضى أو كانوا لا يشتغلون الا بالقوافل وتجارة المـاشية ودواب الحمل ، وسواء كانوا ينتمون الى القبائل العربية القادمة من آسيا أو تلك التى قـدمت من شمال أفريقيا ، وسواء تلك التى تعيش فى حرب أو سلم مع حكام البلاد ، فاننـا نرى أنه تتوقد فيهم جميعا نفس الروح ، وأنهم يرون انفسهم اعلى قـدرا من أبنـاء البلاد الشرعيين أو المولودين على ضفاف النيل ، وأنهم ينظرون الى مصر باعتبارها عقارا خاصا بهم . ان خلاص هذه البلاد يكمن

فى الانقسام الحالى بين هذه القبائل ، الأمر الذى يعود بشكل خاص الى غيبة زعيم يتولى قيادتهم ويكون فى ذلك قويا وقادرا للحد الكافى ، واذا كان هناك حدث هام قد جاء ليشتت اهتمام حكام مصر ، فقد تكون الاشارة الأولى كافية لاطلاق الشرارة ، واذا كان يحق لنا ان نوازن بين الترجيحات عندما يتصل الأمر بالمستقبل ، فلابد ان ينظر المرء الى هذا التطور باعتباره واحدا من اكثر التطورات التى تتهدد الشرق احتمالا .

أما عن طباع العرب كما صورتها ، فسوف يرى القارىء أن هذه الصورة ، لا تتفق فى كثير مع ما اشتهر عن هذه الأمة من النزاهة والصراحة ، وغير ذلك مما منحه لهؤلاء القوم هذا العدد الكبير من الرحالة . ومع ذلك فقد أردت أن أنقل الى القارىء باخلاص ، نفس الانطباع الذى تكون لدى وأنا بينهم ، فى مخيماتهم .

لقد كان على أن اقدم العرب كما قد رايتهم فى مصر ، وليس كما هم فى أماكن أخرى . أما الأفكار التى راودتنى وأنا أراهم يسلكون ، والانطباعات التى استولت على أثناء تدوينى هذه الأفكار ، فقد احتفظت بها لنفسى ، مقتنعا بأن للرحالة هدفا يختلف عن هدف المؤرخ ، وأن عليه قبل كل شىء ، أن يولى اعتباره للمشاعر البسيطة التى شعر بها .

ومما لا شك فيه أن بدو الصحراء ، الذين ينطبق عليهم هذا الوصف ، وبخاصة أبناء شبه الجزيرة العربية ، يقدمون ملامح مختلفة بعض الشىء عما قيل ، واننى أميل الى الاقتناع ، بأنهم ليسوا فقط أقل جشعا ، وبأن لهم تقاليد أكثر لياقة ، ولكن ، فوق ذلك ، بأنهم يمارسون كرم الضيافة ، وبأنهم يصدقون فى ارتباطاتهم ، وفى بقية الأمور ؛ بل ان هؤلاء الذين رايتهم فى مصر ، انفسهم ، لا تنقصهم مطلقا الفضائل الأسرية ، لكن وضع هؤلاء يختلف عن وضع الأولين، فثراء البلاد التى يترددون عليها ، فى مقابل قحولة الصحراء ، يثير فيهم أكثر فأكثر ، الجشع والنهم والبخل ، أمهات الغدر والخيانة وكل الجرائم .

ومن جهة اخرى ، فان مثـــال المصريين والمماليك ، لم يفعل سوى ان اضاف الى عيوبهم ؛ فلقد ولد عندهم احتياجات كانوا يجهلونهـــا فى صحرواتهم ، واذواقا غريبة على تقاليدهم البسيطة والأبوية ، والتى تشكل الطابع المميز للعرب ، وهو طابع ملحوظ لحد ظل معهم على نفس حالة منذ زمان لا تعيه الذاكرة ، دون أن تعتريه سوى تحورات بالغة الرهافة، على الرغم من أن دين محمد ، قـــد بوا هـــذه الأمة عروشا كثيرة ، في آسيا ، وأفريقيا ، وأوربا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراسة السابعة :

القصير والعبابدة

دى بوا - إيميه

العنوان الأصلى للدراسة : مقالة عن مدينة القصير وضواحيها ، وعن الأقوام التى تسكن هذه المنطقة ، التى كانت ، فى الأزمنة القديمة ، مقرا لسكان الكهوف ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقع مدينة القصير على شواطىء البحر الأحمر ، عند خط عرض ٥١ ٥٦ شمالا ، وخط طول ١٢ ٤٤ ٣١ ، وهى تنهض بالقرب من الشاطىء ، فوق ساحل رملى ، يبلغ مائتين وخمسين مترا ، أما عرضها فلا يزيد على مائة وخمسين من الأمتار .

وبيوت هذه المدينة منخفضة ، وهى مبنية عادة من الطوب النيىء. واليكم هذا الوصف الموجز للتقسيم المعتاد لهذه البيوت : ثمة فناء كبير ، وفوق الباب مقصورة صغيرة مربعة الشكل ، وينتهى هذا الطابق العلوى بشرفة ، أما الطابق الأرضى ، فيضم حجرة أو حجرتين بالفتى الضيق ، يلتصق بهما من الخلف جدار السور . ويستخدم الفناء مخزنا، وان كان هذا أمرا لا يخلو من عيب ، فى بلد لايندر به سقوط الأمطار .

وليس ثمة بيت غير مزود بخزان للمياه . وتأتى المياه التى يستخدمها الأثرياء من عين تسمى درفاوة التى تقع على بعد ثمانية أو تسعة فراسخ من المدينة ، ومياه هذه العين طيبة لحد ما ، وتباع فى القصير بسعر ٢٠-٣٠ بارة للقربة الواحدة (١) ، وتزن هذه حوالى تسعة كيلوجرامات . وعلى بعد أربعة أو خمسة فراسخ ، توجد عين مياه أخرى وان كانت مياهها اقل جودة ، واخيرا ، فقد حفر الفرنسيون على مسافة قصيرة الى الجنوب الغربى من المدينة بئرا يبلغ عمقها مترا واحدا فى مجرى جاف لأحد الأخوار ، ومياه هذه البئر ليست مالحة على الاطلاق ، وان كانت ماسخة الطعم بقدر ماهى ثقيلة ، الأمر الذى ينبغى أن ننسبه الى سلفات الجير التى تحتفظ بها المياه بعد تحللها . ويمكن لهذه البئر أن تمد بالمياه ما يقرب من ستمائة رجل كل يوم .

ومآذن المساجد هناك أقل ارتفاعا بكثير عن مثيلاتها فى مصر ، مما يعطى ملمحا للقصير مختلفا عن بقية مدن هذه البلاد .

---

(١) بارة أو مدينى وهى عملة صغيرة تساوى حوالى ٩ drachmes أى درهم ، وهو نقد رومانى ثم فرنسى ضئيل القيمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما القصر ، فيقع خلف المدينة ، ويتحكم فيها بشكل تام ، فهو مشيد فوق هضبة مرتفعة من الجير الحجرى ، مغطاة بزلط مستدير الشكل ، يتجمع فى سلسلة من تلال تتكون كلها من هذا الزلط المستدير من مختلف الصخور ، وتعد هذه التلال التى تنحدر نحو البحر، بمثابة نهاية لسلسلة الجبال العالية التى تحد الأفق من جهة الغرب .

وكان هذا القصر عند مجىء الفرنسيين ، عبارة عن معين تعلوه اربعة ابراج ، ويبلغ سمك جدرانه من ٢٦ الى ٣٠ **ديسيمترا** . وهى مبنية بالحجر الجيرى ، ولا يحتوى القصر الا على عدد صغير من الغرف . كما يضم بئرا محفورة بأكملها فى الجص ، مياهها بالغة التقل ومائلة للملوحة وتكاد لاتستخدم الا فى سقاية الماشية . وعلى بعد مائة خطوة من الواجهة الجنوبية الغربية خارج القصر ، يوجد خزان مياه قديم ، مكسو بالطوب يمكنه أن يحتوى على ٤٥ مترا مكعبا من المياه ، وينتهى الى قاع الخزان مسارب عديدة ، تهبط من التلال المحيطة والمجاورة ، بحيث يمتلىء الخزان بشكل طبيعى بالمياه فى فصل الأمطار .

وفى الجهة الأخرى من الحصن (القصر) كان يوجد مسجد وعديد من الأضرحة أو المقابر هدمها الفرنسيون .

ولا يقطن هذه المدينة الا تجار قادمون من مصر ومن الجزيرة العربية، ويتوجه هؤلاء وأولئك اليها لاتمام أعمالهم ، ومع ذلك فليس لهذه المدينة سكان بمعنى الكلمة : بل ان شيوخ المدينة أنفسهم هم تجار من ينبع ، اكتروا من الحكومة المصرية جزءا من الضرائب الجمركية (اى حصلوا على التزام الجمارك هناك) .

وضواحى القصير صحراوية تماما ، وفيما عدا بعض نباتات الحنظل، وهى مع ذلك نادرة ، لا يكاد المرء يرى أى نوع من الخضرة . والأرض هناك رملية ، وان كنا نجد عند الاقتراب من البحر طبقات من الصلصال، على عمق بضعة ديسيمترات تحت الرمال .

والميناء مفتوح تماما أمام رياح الشرق ، أما من جهة الغرب فتحمى الشاطىء من الشمال هضبة من الشعاب المرجانية تمتد لمسافة مائتين وخمسين مترا داخل البحر ، وهذه الهضبة تنحدر بشكل رأسى ، وتأتى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السفن لترسو عندها ، فهى على نحو ما مرفأ طبيعى بناه المديخ (*) فى هذا المكان ، لكن المياه تغطيها فى حالات المد العالى بحوالى ثلاثة ديسيمترات ، أما فى حالات المد المنخفض ، فيبدو سطحها خشنا وعرا لحد لا يستطيع المرء معه أن يسير فوقه الا بمشقة بالغة . ومن المدهش حقا أن السكان لم يفكروا فى رفع هذه الهضبة قليلا (عن طريق الردم فوقها) لكى يقيموا فوقها مدينتهم ، ولو أن ذلك قد تم لكان بالامكان تحميل وتنزيل البضائع بسهولة بالغة ، أما فى حالتنا الراهنة، فان الناس مضطرون لنقل البضائع فى قوارب لا يمكنها أن تقترب من الشاطىء الا لمسافة ثمانية أو عشرة أمتار ، حيث يصبح البحر ضحل العمق كلما اقتربنا من المدينة ثم يكون عليهم بعد ذلك أن يخوضوا فى المياه ، حاملين البضائع فوق أكتافهم .

أما قاع الميناء فهو من الرمال ، وهو مستو بعض الشىء ، ومع ذلك فحيث أن قلسات (حبال) غالبية السفن العربية رديئة — اذ تصنع من التيل أو حتى من سعف النخيل (٢) ، مما يجعلها ضعيفة لحد كبير بالنسبة لمثيلاتها المصنوعة من القنب — فانها (أى السفن العربية) تتعرض فى بعض الأحيان لحوادث قد لا تصيب مطلقا غيرها من السفن الأفضل تجهيزا .

ويشكل الميناء عند الغرب منحنى مقعرا ، تحيط به سلسلة من أحجار مرجانية ، وينتهى بصخرة من نفس النوع ، تتوغل داخل البحر بحوالى خمسمائة متر جهة الشرق ، وعلى بعد حوالى الف متر من هذه الصخرة، وبحذاء الساحل ، يقابل المرء صخرة أخرى يبلغ طولها ١٫٢٠٠ متر ، وهى بالمثل من المرجان ، وتغطيها المياه عندما يكون المد عاليا ويبدأ الشاطىء (البلاج) ، الذى يظل شديد الانخفاض حتى هذه النقطة ، فى الارتفاع ، وسرعان مايشكل تلالا من الزلط المستدير .

ويقع ميناء القصير عند مداخل وديان تؤدى كلها الى مصر ، وقد

(*) جنس حيوانات بحرية من المجوفات .

(٢) تصنع هذه الحبال من السعف الذى يغطى أغصان النخيل .

ادى ذلك الى حتمية اختياره على الدوام مستودعا لتجارة مصر العليا مع الجزيرة العربية . وترسل مصر الى هناك فى الوقت الحاضر ، القمح والدقيق والفول والشعير والزيوت ومواد غذائية اخرى ، وترسل الجزيرة العربية البن والفلفل والصمغ والموسيلين وبعض الأقمشة من صناعة الهند (٣) .

وأثناء اقامتى فى القصير ، ابتداء من الأول من بريريال من العام السابع حتى منتصف ترميدور (من منتصف مايو ١٧٩٩ حتى بداية اغسطس) كانت الرياح التى تهب على الميناء قادمة من شمال الشرق ، وقد دخلت الى الميناء خلال هذه المدة خمسون سفينة ، يبلغ عدد أضخمها تسع أو عشر سفن ، كانت قادمة من جدة ، وكان خمس أو ست من هذه السفن مملوكة لعرب الساحل ، وكانت السفن الأخرى قادمة من ينبع ، ولم تكن هذه السفن ذات سطوح على الاطلاق ، وهى تتبع الساحل على الدوام فى رحلاتها ، وعندما تكون الرياح بالغة الشدة فانها تحتمى فى خلجان الساحل الصغيرة ، فهى لا تمخر عرض البحر الا اذا كانت تريد عبوره

هنا يسمون البحر الأحمر بالبحر المالح ، أما فى السويس فيسمونه بحر القلزم ، ويبلغ أقوى مد للبحر رأيته فى القصير حوالى ٨ ديسيمترات ، وان كان فى العادة لا يتجاوز ٥ ديسيمترات ، بينما يبلغ مد البحر فى السويس حوالى المترين .

وبطول الساحل ، يجد المرء كميات كبيرة من الاسفنج والمرجان وقواقع تتنوع الوانها بالغة الجمال ، ومن جهة اخرى فالساحل هنا غزير الأسماك ، وأستطيع أن أقدم فكرة عن ذلك ، اذا ماتحدثت عن الطريقة التى كان الجنود الفرنسيون يصيدون بها السمك ، فقد كانوا يأخذونه أخذا بأيديهم ، بعد أن يقتلوه بضربة من السيف أو العصا .

وتسكن هذا الساحل قبائل من صيادى الأسماك ، كان لها

---

(٣) لمزيد من التفاصيل ، انظر : دراسة موجزة عن تجاره الصعيد مع الجزيرة العربية ، وصف مصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مخيم على شـاطىء البحر الى الشمال من القصير ، هجره سكانه عند قدومنا ، وكان كل كوخ من اكواخ هـذا المخيم مغطى بعظام السلاحف . ولا تعيش هذه الشعوب الا على اكل الأسماك وهم يحصلون عليها بالشباك او على أسنة الرماح ، ويجففون منها كميات كبيرة ، ويأتون الى القصير ليقايضوا بها بعض الأشياء اللازمة لهم . ويستخدم هذا السمك المجفف فى تموين السـفن . اليس مما يلفت النظر اننا قـرأنا فى حكايات الأقـدمين (٤) أن الساحل الغربى للبحر الأحمر ، كانت تسكنه شـعوب جوابة آكلة للأسماك ، كان من بينهم شعب من آكلى السلاحف (٥) ، وكان افراده يستخدمون صـدفات هـذه السلاحف لتغطية اكواخهم ؟ هكـذا اذن أمكن لهـذه القبـائل الضعيفة أن تفلت من حكم الزمن ، وأن تعبر القرون تلو القرون ، محافظة على حريتها وعاداتهـا ، فى حين تقلبت أحوال أمم كثيرة بالغـة القوة ، فتغيرت انظمتها وحكوماتها بشـكل تام ، وتغيرت مع ما تغير عاداتهـا ، وفى نفس الوقت الذى اندثرت فيـه امم أخرى ، فلم يعد هنـاك ما يدل عليها الا ما نقرؤه عنهـا فى حوليـات المؤرخين . ولـكن دهشتنا ازاء ذلك لابد على الفور أن تتوقف ، فالبؤس فى واقع الأمر لا يثير اطمـاع الآخرين وحنقهم ، وهكذا سوف تظل البلاد الخصيبة ترى على الدوام سـادة جددا ، فى حين تبقى رمال الصحراء القاحلة ملكا لآخر احفاد ملاكها الأول .

ولا يزال يعيش فى هذه المنطقة شعب يستحق — بسبب تشابهه مع سكان الـكهوف القـدامى — أن ندخل فى بعض التفاصيل حول عاداته وتقاليده ، هؤلاء هم العبابدة ، وهم أبنـاء قبيـلة جوابة تشغل الجبـال الواقعـة الى الشرق من نهر النيل ، فى جنوب وادى القصير وهى منطقة كانت تعرف فيما مضى باسم : Troglodytique « اى سكان الكهوف » ،

---

(٤) أنظر بطليموس Patlymouth ، الـكتاب الرابع ، سترابون Strabon ، الـكتاب السادس عشر ، بوزاميـاس Pozamias الـكتاب الأول ، ديودور الصقلى ، الـكتاب الثالث والثلاثون ، بلين ، الـكتاب السادس .

(٥) يضع ديودور الصقلى اكلة السلاحف فى جزر قريبة من سواحل اثيوبيا ، ويذكر بلين أن بعضا منهم يوجدون بالقرب من الخليج الفارسى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتمتلك هذه القبيلة كذلك عدة قرى على الشط الأيمن (الشرقى) للنيل أهمها دراو ، الشيخ عامر ، الرديسية .

ويدفع كل التجار الذين يمارسون تجارة القصير الى العبابدة ٢٣ مديني عن الجمل المحمل ومكيالا صغيرا (٦) من القمح أو الفول أو الدقيق أو الشعير حسبما يحمل الجمل ، كما يأخذ العبابدة عينا ١/٢٠ من الخراف والماعز والدجاج والمواد التموينية الأخرى ، من تلك الأنواع التى تصل الى القصير . وقد اقام هؤلاء مخيمهم الذى نصبوه فى ضواحى هذه المدينة بقصد منع أى نوع من التهرب (من الاتاوة) من جانب التجار ، ومن جهة أخرى فقد كان العبابدة ملزمين — فى مقابل هذه الاتاوة — بالسهر على تأمين الطريق وحراسة القوافل ، لكنهم لايتعهدون مطلقا بالرد على الحوادث وبخاصة تلك التى يمكن أن تأتى من جانب عربان الحويطات الذين ينتشرون فى هذه الصحراوات حتى قلزم السويس ، وتدور بين هاتين القبيلتين (العبابدة والحويطات) حرب مستمرة منذ زمان لاتعيه الذاكرة .

وفى وقت معين ، عندما يشكل القمح والمواد الغذائية الأخرى التى يقدمها التجار أكواما هائلة وسط المخيم ، يتزايد عدد العبابدة ، ويبدأون يمارسون تقسيم هذه الحصيلة فيما بينهم . ولم أتمكن من الحصول على أية معلومات حول الطريقة التى يتم بها هذا التقسيم ، ومع ذلك فمن الممكن الافتراض أن الأمر لا يتم على الدوام وفقا « للذمة والأمانة » اذ ينتهى بمشاجرات فى معظم الأحيان .

وعدد الخيول لدى العبابدة بالغ القلة ، فهؤلاء لا يركبون سوى الهجين (٧) ولا يختلف هذا الهجين عن الجمل الا فى أن قامة الأول اكثر رشاقة بكثير ، كما أنه أكثر خفة وسرعة أثناء الجرى ، ولا تشبه السروج التى يستخدمها العبابدة لجمالهم على الاطلاق تلك التى تستخدم فى مصر ، اذ هى تتكون من قطع مختلفة من الخشب مربوطة الى بعضها البعض بسيور من الجلد ، كما أنها ليست ضخمة الحجم ، ومع ذلك يجد

---

(٦) ١/٢٤ من الأردب .

(7) Dromadaire des Naturalistes.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الانسان نفسه فيها مستريحا بشكل تام لأن الخشب محفور بطريقة تجعل السطح مقعرا مما يمنع الجسم من أن « يحمل » على جانب واحد ، وفى العادة يبسط فوق هذا السطح المقعر جلد خروف ، ومن فوق هذه السروج ، لا تتدلى ساقا الراكب كما يحدث للفارس المتطى حصانا ، لكنه يكون جالسا ، وساقاه ممتدتان الى الأمام ، تستقران أو تتشابكان فوق رقبة الهجين .

ويربى العبابدة عددا هائلا من الجمال ، يؤجرون أو يبيعون جزءا منها للقوافل ، وهذا فيما اعتقد هو مصدر الجزء الأكبر من دخولهم ، وهم يجنون من جبالهم كمية كبيرة من السنامكى والصمغ العربى ، كما يستغلون هناك النطرون والشبة وبعض المواد المعدنية الأخرى . فاذا ما أضفنا الى ذلك بعض العبيد الذين يجلبونهم من الحبشة ، فسوف نكون فكرة عن أهم السلع التى يأتى العبابدة ليستبدلوا بها فى أسواق مصر العليا ، الحبوب والمنسوجات والآنية من كل نوع ، وكل مايحتاجون اليه .

والعبابدة مسلمون ، لكن البلاد التى يقطنونها وكذا الحياة النشطة التى يحيونها على الدوام ، لا تمكنهم من اتباع كل مبادىء هذه الديانة باخلاص وورع .

ويتباهى العبابدة بأنهم شعب محارب ، واذا ما بادرت احدهم بالسؤال : من انت ؟ فانه يجيبك على الفور فى زهو واعتداد : أنا جندى . ولقد أجاب على هذا النحو كل الذين بادرتهم بهذا السؤال .

ويزعم العبابدة بأن بامكانهم أن يضعوا تحت السلاح الفى رجل ، ولعل هذا تقدير مبالغ فيه ، وينبغى أن نتشكك فى صحته ، ولو على الأقل ، تبعا لذلك الميل الذى يغرى الناس عادة بالمبالغة فى قوة امتهم .

وتتيح لهم طريقتهم فى الترحال أن يجتازوا بلدا صحراويا بالغ الاتساع ، فيقطعون ما يبلغ مائة فرسخ فى أربعة أيام ، ويحمل معه كل راكب هجين ، ثلاث قرب تتدلى بطول السرج : واحدة مليئة بالفول ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واخرى بالميـــاه ، اما القربة الثالثة وهى أصغر فتمتلىء بالدقيق . وفى بعض الأحيـــان ، وبعد أن يكونوا قد تجهزوا على هـــذا النحو ، يتجمع العبـــابدة ويتوغلون لمسافة مائة أو مائة وخمسين فرسخا فى الصحراء، ليبـــاغتوا بالهجوم قبيـــلة هم فى حالة حـــرب معها ، أو ليكمنوا ، فى انتظار مرور قافلة يبغون انتهابها .

ويختلف العبابدة اختلافا تاما فيتقاليدهم ولهجتهم وعاداتهم ، وبنيتهم الجسمانية عن القبـــائل العربية التى تشغل مثلهم الصحراوات التى تحيط بمصر ، فالعربان بيض البشرة يحلقـــون رءوسهم ، ويرتدون العمـــامة ، ويلبسون ملابسهم ، ولديهم أســـلحة نارية ورماح يبلغ طولهـــا من أربعة الى خمسة أمتـــار ، وســـيوف مقوسة للغاية .. الخ .. أما العبـــابدة فسود البشرة ، لـــكن ملامحهم تتشابه فى كثـــير مع ملامح الأوربيين ، وشعرهم جعد بشكل طبيعى ، لـــكنه ليس كوبر الصوف ، وهم يحتفظون به طويلا يتـــدلى على أكتافهم ، اذ هم لا يحلقون رءوسهم مطلقا. وتنحصر ملابسهم فى قطعـــة من القمـــاش يعقدونها أعلى الـــكليتين ، ولا تتدلى لأبعد من منتصف الفخذين .

وحيث أنهم يتعرضون شـــبه عراة لهـــذه الشمس الحارقة فانهم ــ وذلك دون شك لـــكى يخففوا من اثرهـــا ولـــكى يحتفظوا ببشرتهم ناعمة ــ يدهنون كل جسمهم بالدهون . بل انهم يضعون كمية منه فـــوق رأسهم قبل أن يكون قـــد ذاب بشكل تام ، حتى ليظنن المرء انهم يضعون المساحيق على طريقـــة الأوربيين . وشـــيوخهم ، هم وحـــدهم الـــذين يرتدون العمامة فى بعض الأحيـــان ، بالاضـــافة الى قميص يستخدمونه أحيانا بمثابة ثوب .

وليست لدى العبابدة أسلحـــة نارية على الاطلاق ، ويتسلح الرجل منهم برمحين يبلغ طول الواحـــد منهمـــا ١٦٠ ــ ١٨٠ ســـم ، وبسيف مستقيم ذى حدين ، وبسكين مقوسة يعلقونها فى ذراعهم اليسرى ،ويحمل بمثـــابة سلاح دفاعى ــ ترسا مستديرة من جلد الفيل يبلغ قطرها ٦٠ ــ ٧٠ سم .

ويعرف العبابدة اللغة العربية وان كانت لهم لغة اخرى خاصة بهم .

وربما كان هؤلاء ينحدرون من أصلاب تلك الشعوب الجوابة التى كانت تمتلك هذه المناطق فى الزمن القديم ، والتى حدثنا عنهم المؤلفون القدامى (٨) فالتر جلوديت Troglodytes (أى سكان الكهوف) كما يذكر هؤلاء المؤلفون ، كانوا يحملون من السلاح دروعا مستديرة من الجلد، ورماحا ، وكانوا عراة فيما عدا منطقة الفخذين والكليتين ، كما كانوا يمارسون الختان ، وأخيراً فقد كانت لهم طريقة لدفن الموتى خاصة بهم ، فقد كانوا يلقون بالحجارة فوق الجثة حتى تغطيها بشكل تام، وتمارس هذه الطريقة حتى اليوم عند العبابدة ؛ وفى واقع الأمر ، فقد لفت البعض نظرى فى وادى القصير الى أكوام عديدة من الحجارة ، كانت هى مقابر لبعض العبابدة الذين قتلوا فى احدى المعارك ، وقد رأيت كذلك فى منتصف الطريق ـ على بعد ثلاثة فراسخ من القصير ، تلالا من الحجارة ، وقد قيل لى أن من المحتمل أن هذه الحجارة تغطى جثة أحد أثرياء التجار ، قد قتل على يد العربان .

ويبدو أن ديودور الصقلى كان يخشى ، وهو يدون منذ ثمانية عشر قرنا ، أن يحمل الناس ما يقصه عن سكان الكهوف (الترجلوديت) على انه خرافات ، وها نحن نجد من جديد على نفس الأرض ، وبنفس الطريقة ، نفس الأسلحة والجزء الأكبر من استخداماتها الكثيرة ـــ وانه لأمر يبعث على الدهشة حقا أن يكون بمقدورنا على هذا النحو ، وبعد انصرام كل هذه القرون ، أن نكون شهودا على صدق مؤرخ .

ولم نشاهد أية خيمة فى ذلك المعسكر الذى كان للعبابدة بالقرب من القصير . وفى أثناء النهار عندما تلتهب حرارة الشمس ، يضع الرجل من هؤلاء على الأرض سرج جمله ، ويقيم تجاهه على مسافة معينة حجرا يماثله فى الارتفاع ثم يضع على هاتين الدعامتين سيفه ورماحه ، ثم يبسط فوق ذلك كله جلد خروف ، وهكذا ينهض بيت ، قلما يبلغ ارتفاعه فى الواقع أكثر من أربعة أو خمسة ديسيمترات . ولا يستطيع الرجل بداخله الا أن يكون راقدا ، ويحتمى آخرون من الشمس فى كهوف صغيرة

---

(٨) سترابون ، الكتاب السادس عشر ، ديودور الصقلى ، الكتاب الثالث .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانوا قد حفروها على منحدر الجبل ، ولم اشاهد فى هذا المعسكر نساء على الاطلاق ، ومن المحتمل الى حد كبير أن تكون الأكواخ والخيام فى المعسكرات التى توجد بها نساء ، أكثر من تلك اتساعا لحد طفيف .

ولقد دفعنى الفضول مرات كثيرة للذهاب الى العبابدة ، وكنت على الدوام القى استقبالا طيبا ، كنت الفرنسى الوحيد الذى كانوا يرونه بشكل اعتيادى ، وسرعان مانظروا الى كواحد من اصدقائهم ، وكنت شاهدا لمرات كثيرة على مباهجهم وضروب لهوهم .

وليس للرقص عندهم اية علاقة بذلك الرقص الشهوانى الخليع الذى للمصريين ، فهو يتخذ على الدوام صورة المعارك والمبارزات، فيتسلح الراقصون بالرمح أو السيف وبالدرع . ويخطون وهم يتبادلون الهجوم خطوات عديدة بخفة وقوة . وتتجلى المهارة فى الدفاع عن الدرع وتحل الهزيمة بمن يترك درعه تلمس ، وفى كثير من الأحيان ، يندفع احد الراقصين نحو واحد من المشاهدين ، ويضع طرف سيفه على صدره مطلقا صيحة عالية ينبغى ان يجيب عليها بكلمة : عبابدة ! وعندئذ يبتعد الراقص عنه ويواصل رقصه .

وليس فى موسيقاهم ذلك الشجن وتلك الرتابة اللتان لموسيقى المصريين : والعازف هو الشاعر نفسه فى ذات الوقت ، وتدور أغانيه حول امتداح أمجاد قبيلته والشجعان من ابنائها . وفى بعض الأحيان كذلك تتخذ من العشق موضوعا لها . ويجلس القوم من حوله يستمعون فى صمت وهو يغنى فى مصاحبة نوع من الماندولين ، وفى هذه الحالة تستطيع أن ترى المرح أو الخوف ، الشفقة أو الغضب يرتسم كل بدوره على وجوه السامعين .

ويبلغ عدد الوديان التى يمكن لنا أن نسلكها كى نتوجه من القصير الى مصر اذا ما سلمنا فى ذلك بما اخبرنا به العبابدة ، ستة وديان أو سبعة ، ويبلغ طول ذلك الوادى الذى عبرته مرتين حوالى الأربعين فرسخا ، تنبسط ابتداء من القصير حتى بير الأنبار .

وفى البداية يجد المرء على بعد فرسخين من القصير ، ذلك الخور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسمى لمباجة (٩) ، ومياهه صافية شفافة ، لكنها ثقيلة ومذاقها غير مستساغ ، ويزعم العرب أنها ضارة بالصحة الى حد كبير ، ولذلك فهم لا يستخدمونها الا لجمالهم ، ومع ذلك فقد شربت منها ، وفعل نفس الشيء كثير من الفرنسيين دون أن يصيبنا منها اى أذى . وعلى شواطىء هذا الخور يرى المرء بعض اشجار النخيل ، وقليلا من الخضرة والوفا من الطيور ، وبخاصة الحمام البرى الذى اقام هناك اعشاشه، وهو يسكن فى تجويفات الصخور ويعيش على الحبوب التى تتساقط من القوافل .

ولا يمكن أن يعد اللمباجة شيئا فى بلاد خصيبة أما فى وسط العزلة وبين قحولة الجبال الجرداء فان خورا وبضعة اشجار بالاضافة الى بعض الكائنات الحية تكفى لتجعل من المنطقة مكانا بهيجا . ولعل هذا التعبير لن يبدو مبالغا فيه بالنسبة لهؤلاء الذين سبق لهم أن استراحوا فى هذا المكان وهم يعبرون هذه الصحراء . ولسوء الحظ ، فان مياه هذا الخور تضيع فى الرمال على بعد مسافة قصيرة من منبعه . ومع ذلك ففى فصل الأمطار يصبح هذا الخور فى بعض الأحيان نهيرا بالغ الاهمية يصب فى البحر بالقرب من القصير .

وعلى بعد اربعة عشر فرسخا من هذه الواحة الصغيرة يجد المرء عيونا تسمى العدوة ، وهذه عبارة عن ثقوب محفورة فى الرمال فى سفح هضاب منحدر من الشست ، وابعد من ذلك بفرسخ وربع الفرسخ، يجد المرء عين مياه مشابهة تسمى الأحمر ، كما يلمح هنا وهناك بعض الأكاسيا (السنت المستحية) (١٠) وقد عددتها فوجدتها تبلغ العشرين فى كل مساحة الوادى .

وقد قطعنا المسافة من الأحمر الى الجيتة فى ثلاث عشرة ساعة

---

(٩) قبل الوصول الى اللمباجة ، يلمح المرء على اليمين ، المحاجر التى استخرجت منها الأحجار والتى استخدمت فى بناء القصير .

(10) Mimosa nilitica.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونصف الساعة ، هناك تتجمع الوديان الأخرى ، وآبارها بالغة الاتساع ، يكسوها القرميد ، وثمة منحدر يسمح للحيوانات بالنزول حتى سطح الماء ، وعمق هذا المنحدر لايزيد عن متر تحت سطح الأرض ؛ ويلمح المرء بالقرب من الآبار بعض بقايا الأبنية القديمة ، وخانا صغيرا يستخدم لايواء المسافرين .

وابتداء من القصير حتى ما قبل الجيتة بحوالى فرسخ كنا نسير على الدوام بين جبال عالية وعارية ، من الحجر الجيرى ، والشست ، والجرانيت ، والحجر الرملى ، والرخام ، تتباعد قليلا بعضها عن البعض الآخر ، بل ثمة بعض السلاسل التى لا يتجاوز عرضها ١٢ — ١٥ مترا ، وهناك تسد قطع الصخور الطريق لحد أن جملين محملين يسيران فى طابورين يجدان صعوبة فى ان يمرا فيها معا فى وقت واحد ، لكن الوادى عند الجيتة يبدأ فى الاتساع لحد كبير وسرعان مايشكل سهلا واسعا من الرمال ، ينتهى فى اتجاه مصر بسلسلة من تلال صغيرة من الرمال والزلط المستدير .

بعد الجيتة ببضعة فراسخ لمحنا على البعد ارضا مزروعة ، آه !. كم بدت مصر جميلة فى عينى فى هذا الوقت وهى التى قلما بدت لى مقبضة على النحو الذى مضى . وهذه الغابات من اشجار النخيل التى لا يكاد المرء يحس بأن لها ظلا .. كم جعلتنى افتقد غابات وطنى ! وكم بدت لى مقرا للنضارة والانتعاش ! اما النيل .. أيمكننى حقا أن اصور ما شعرت به ما أن رايته عند خروجى من تلك الصحراء التى قضيت بها مدة ثلاثة اشهر ؟ كانت الخماسين تهب عندئذ بلفحتها الملتهبة ، لكن هذه المياه العذبة ، موطن امانينا ، كانت تخفف من التأثير السيىء لتلك الرياح ، فكم يخفف الأمل فى خير قريب من الم الحاضر ، وعلى الرغم من اننا كنا متعجلين ، عطاشى وجائعين فقد منحنا الخيال الفاكهة وماء النيل ، واسرعنا من عدو جمالنا ، فى حين كنا طوال الطريق منذ القصير نسير فى خطو وئيد .. ولقد استمر هذا العدو مدة ساعتين لكننا كنا رجالا وجمالا ، قد نسينا التعب وسرعان ما وصلنا الى بير الأنبار .

وبير الأنبار هذه قرية صغيرة تقع على تخوم الصحراء والأرض المنزرعة . وهى تبعد بحوالى فرسخ وربع الفرسخ على مدينة تفط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القديمة ، الواقعــة على بعد نصف الفرسخ من نهر النيل ، وعلى بعــد ثمانية او تسعة فراسخ من الجيتة . وتتبع هذه القرية قبيلــة العزايزى العربية ، ويجد المرء بها آبار مياهها بالغة الجودة فى أوقات الفيضانات، اما فى أوقات الميــاه الواطئــة فانها تكتسب مذاقا غير مستساغ ، هو طعم الأيدروجين المخلوط بالــكبريت . ويعود هــذا الطعم دون جــدال الى قذارة الآبار .

استغرق وصولنا من بير الأنبــار الى قنــا — وهى مدينة صــغيرة على ضفاف النيل — اربع ساعات ، وهذه المدينة هى ملتقى القوافل التى تضطلع بتجارة القصير ، وتلك كانت نهاية رحلتى .

والوادى الذى انتهيت من وصــفه هو الوادى الــذى يسلكه عادة حجاج مكة والتجار الذين يمارسون التجارة مع الجزيرة العربية .

وقد دلنا بروس Bruce وبراون Browne وهما رحالنان انجليزيان على واديين آخرين . لكن اكثر هذه الوديان اهمية هو الوادى الذى اتبعه الضــابط المهندس باشلو Bachelu ، ويقع هــذا الوادى الى الشمال من ذلك الوادى الذى تحدثت عنه . ويجــد المرء فيــه الــكثير من الآثار القديمة ، وتبلغ المسافة بينهما حوالى أربعة فراسخ ، وهــذه الآثار هى نوع من المحطات الحصينة والتى بنيت على نمط واحد ، فهى عبــارة عن فنــاء كبير مربع الشكل ، تحيط به جــدران ضــخمة وتعلوه الأبراج ، وتجد بداخله بعض الأطلال لمســاكن كانت مبنية بداخله فيما مضى . وفى وسط الفنــاء توجد بئر بالغة الاتساع ، لها منحدر ، تستطيع الحيوانات بواسطته أن تنزل لتروى . وهذه الآبار مطموسة جزئيا ، ولكن من المحتمل ان نجد بها المياه اذا ما حفرناها قليلا .

واول محطة تقابلها عند خروجك من مصر تقع بعد أربعــة فراسخ الى ماوراء آبار الجيتة ، وقد كانت هذه بلا شك فيما مضى أول محطــة حصينة على هذا الطريق . ويبلغ عدد هذه المحطات حتى القصير ســتا او سبعا ، وتبعد الأخيرة عن القصير بحوالى ستة فراسخ ، وفى النقاط التى ينقسم فيها الوادى الى عدة أفرع أقيم مكعب من المواد البنائية ، فى الفرع الذى ينبغى على المرء أن يسلكه . وعند حوالى منتصف الطريق ،

يأخذ الطريق فى الارتفاع تدريجيا ، وبشكل غير محسوس ، وبعد بلوغه قمـة الجبل ، يهبط ثانية الى الوادى الذى يمتد بعد ذلك دون أى انقطاع آخر ، حتى خور اللمباجة ليتصل بالوادى الذى سبق أن وصفته .

وقد تحدث سترابون عن طريق يذهب من قفط Cophtos إلى ميوس هرموس Myos - Hormos . وهى مدينة تقع على شـواطىء البحر الأحمر ، وكانت ميناء بالغ الاهميـة فى ذلك الوقت ، ويضيف سترابون بأن هذا الطريق كان مطروقا بشكل اعتيـادى ، وان النـاس فى الأزمنة الأولى كانوا يحملون معهم الميـاه اللازمة فى أسفارهم ، وكانوا يتوجهون مسترشدين بالنجوم ، ولـكن حفرت الآبار بعد ذلك وانشئت خـزانات الميـاه للاحتفـاظ بمياه الأمطار ، ويبلغ طول هـذا الطريق مسيرة ستة أو سبعة أيام سيرا على الأقدام .

ويستشـهد كثير من المؤلفـين بهذا النص لسترابون Strabon ويطبقونه على طريق قفط ـ بيرينيس Bérénice ، ومع ذلك فلو أننـا قرأنا ماكتبه هذا الرحالة بانتبـاه لوجدناه يتحدث بالفعل عن طريق قفط ـ ميوس هرموس وبالموقع الذى حدده له .

وقـد ظن دانفيل d'Anville ، الذى استوعب تماما كل ماأورده المؤرخون القدماء حول موقع ميوس هرموس ، أن عليه أن يعطى لهـذه المـدينة موقعا على بعد عشرين فرسخا الى الشمال من القصير ، حيث يبدو من المؤكد أن كان يوجد فى هذه المنطقة ميناء بالغ الأهمية .

واذا تبنينا هذا الرأى ، فان الوادى الذى نقابل فيه هذه المحطات الحصينة يمكن أن يكون جزءا من الطريق القـديم الذى تحدث سترابون عنه ، والذى كان يفضى بالقوافل الى منطقـة تبعد خمسة أو ستةفراسخ من القصير ، حيث نجد المحطة الحصينة الأخيرة ، وهنـاك يتغير الاتجاه ويتخذ جهة الشمال حتى يبلغ ميوس هرموس .

ويهيىء لنـا هذا الطريق ، الذى ظل مجهولا حتى وقت مجىء الحملة الفرنسية الى مصر ، خدمة جليلة ، ذلك انه سوف يستخدم بالضرورة ، فى تحديد موانىء البحر الأحمر ، التى كان يتردد عليها القـدماء ، بطريقة أكثر دقـة ، وبشـكل لم يكن هنـاك من استطاع حتى ذلك الـوقت ، التوصل اليه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراســة الثــامنة :

القبائل العربية في صحراوات مصر

دي بوا - إيميه

العنوان الأصلي للدراسة هو : دراسة موجزة عن القبائل العربية في صحراوات مصر ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليست مصر ، ابتداء من أسوان حتى القاهرة ، سوى واد ضيق طويل (١) تحيط به الجبال الجرداء ، التى لا يكاد ينمو عليها حتى تلك الطحالب الدقيقة التى تغطى جبال أوربا وتلون أحجارها المعرضة للهواء . ولا يشق هذه الجبال نهر أو مجرى من أى نوع ، اذ أننا لانستطيع أن نطلق أيا من هذين الاسمين على تلك الأخوار العابرة التى تحدث نتيجة لسقوط الأمطار ، بالغة الندرة . ولا يمكن المرء أن يلقى هناك بعض النباتات المتناثرة اللهم الا فى قاع الوادى ، كما لا يمكنه أن يعثر ، الا على مسافات بالغة التباعد ، على الآبار . وليست هذه الآبار فى غالب الأحيان سوى ثقوب ضحلة العمق حفرت وسط الرمال ، وتكاد مياهها على الدوام تميل الى الملوحة ، بالرغم من كونها صالحة للشرب ، لكنها فى كل الأحوال ليست غزيرة لحد يكفى أن ننشأ عليها بعض الزراعات . وتتقاطع هذه الوديان فى اتجاهات عديدة ، أما تلك التى تؤدى الى وادى النيل ، فتبدأ فى الاتساع كلما اقتربنا من مصر لتشكل عندئذ سهولا من الرمال تتصل بالأرض المزروعة ، وبالنيل فى بعض الأحيان . وليس ثمة نشاط نباتى اذا صح القول الا فوق الأراضى التى يرويها النهر بشكل طبيعى أو بشكل صناعى — وتتناقص الخصوبة الشديدة لهذه الأراضى وبشكل صارخ مع ذلك الاطار الخارجى الذى يحيط بها .

والى الشمال من القاهرة ، يتفرع النيل عدة أفرع ، وتتسع مصر ، وتأخذ الجبال فى الانخفاض لتنتهى بعد قليل الى سهول فسيحة من من الرمال لتنتهى شمالا بالبحر المتوسط ولتنداح من جهة الشرق بصحراوات سوريا والجزيرة العربية ، أما من جهة الغرب فانها تمتد لتصل مصر بأعماق افريقيا .

هذه الجبال الجرداء ، وتلك الوديان القاحلة ، وكذلك تلك

---

(١) يبلغ متوسط عرضه حوالى ثلاثة فراسخ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ألسهول الرملية التى تضغط على مصر من كل الجهات ، والتى تبدو وكأنها تتحفز للوثوب حتى لينتهى بها الأمر أن تغطى أرضها الخصبة ، هى برغم ذلك كله مناطق آهلة ، يسكنها رجال ضخام أشداء يسمون بالعربان البدو (٢) ، وهؤلاء يتجولون بينما هم ينقسمون الى عائلات — مع قطعانهم فى هذا الخلاء الموحش . والمدن عند هؤلاء هى المخيمات ، وبيوتهم هى الخيام ، أما المراعى الوحيدة لقطعانهم فهى نبات العليق وبعض النباتات الشوكية المبعثرة هنا وهناك ، وبامكان هذه القطعان أن تفى بكل احتياجات هؤلاء العربان ، لكن الحرب والسلب يقدمان لهم مصادر ووسائل أخرى للمعيشة ، ويشاهدهم المرء يحومون حول مصر ، كما لو كانوا ذئابا جائعة تحومحول فريسة دسمة ، وان كان العربانيسعون فى بعض الأحيان وعن طريق معاهدات يعقدونها مع حكام مصر أن يحصلوا على الاذن بالاقامة فى مناطق خصيبة ، وفى أحيان أخرى يقتحمون عنوة هذه المناطق ، والسلاح مشهر فى أيديهم لينتزعوا القطعان والمحاصيل ، ثم ينسلونفجأة ليلوذوا بصحاريهم ، فاذا ماجاء من يلاحقهم فان عادتهم فى تحمل العطش لوقت طويل ، والصبر على المتاعب بالغة الشدة ، تمنعانهم عن عدو غير معتاد الا على حياة أقل خشونة ، . فالصحراء بالنسبة لهم ، حصن منيع يعز اقتحامه ، يلوذون بها فى أوقات الأخطار الكبرى .

اننا نحن فى أوربا ، نستولى على حقول العدو ومدنه عندما يهرب ، ونثرى أنفسنا بأمواله وكنوزه وسائر مصادر دخله ، ذلك أنه يخلف وراءه أهلا وأصدقاء وممتلكات يأسى عليها ، أما البدوى فلا يخلف وراءه الا رمالا قاحلة .. أما اذا أرغمته الظروف على أن يترك أى شىء فسرعان ماسيعوضه بأسلاب جديدة ، فلسوف يعود هؤلاء البدو — بعد أن تكون قد ظننت انك قد دفعتهم بعيدا عن مصر — ليشنوا هجمات مضادة . ولهؤلاء البدو حفر سرية يخفون فيها البلح بل وعلف قطعانهم، ويسهل عليهم الأفق الواسع المحيط بهم ، وكذا بياض الرمال التى يبدو الرجال والحيوانات عليها مجرد بقع سوداء ، أن يكتشفوا العدو على

---

(٢) تعنى هذه الكلمة « رجل الصحراء » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفس المسافة التى يمكن فيها الرؤية عندما يكون الانسان فوق سطح البحر . وليس ثمة ما على هؤلاء أن يخشوه سوى المفاجآت الليلية ، لكنهم ، فى كلمة ، « أساتذه » يعرفون متى يقبلون المعركة ومتى يرفضونها ، فاذا رأوا أنفسهم فى المركز الأقوى فلابد أن ينتظرهم نصر مؤزر . أما اذا كانوا فى المركز الأضعف فسيفرون ولن يجنى العدو شيئا من فرارهم .. لذلك فكل الحروب التى يشنونها على مصر تنتهى فى العادة لصالحهم .. وينتهى الأمر بحكام هذا البلد فى معظم الأحيان بأن يتركوا لهم بعض الأراضى الخصبة على تخوم الصحراء ، ويتعهد البدو من جانبهم الا ينهبوا الريف بعد ذلك ، بل وفى معظم الأحيان بأن يدفعوا ضريبة عن الأراضى التى تركت لهم ، ومع ذلك فحيث أن السلاح فى أيديهم على الدوام ، وحيث أنهم يحطون رحالهم على الدوام عند حافة الصحراء فانهم لا يحرصون على احترام معاهدة أملاها عليهم التعب والخوف ، وتظل تتحين الخيانة المطبوعة الفرصة لتمزيقها .

ومع ذلك فهناك بعض القبائل ، التى لانت طبائعها بفعل سلام طويل .. قد انتهى بها الأمر أن هجرت الصحراء وانتشرت داخل مصر وانتقلت بشكل تدريجى من حالة البداوة الى حالة الزراعة ، وكان فقدانها لحريتها المطلقة هو على الدوام النتيجة التى ترتبت على ذلك ، ويقدم الصعيد مثالا قريبا على مانقول ، فقد كانت قبيلة الهوارة ، وهى التى جاءت الى مصر من المناطق المجاورة لمدينة تونس بعد وقت قصير من هزيمة مصر على يد السلطان سليم ، كانت هذه القبيلة قد استقرت فى الصعيد ، وفى البداية أقامت على مشارف الصحراء ، ثم استولت فيما بعد بواسطة القوة والمهارة الحربية على جزء كبير من مصر العليا، ودعمت وضعها هذا بدفع اتاوة الى حكومة القاهرة ، وحين أصبح الهوارة من ثراة الملاك ، كانوا قد فقدوا تدريجيا عاداتهم الرعوية فاستبدلت بالخيام بيوتا وتحول الحب الطاغى للحرية الى حب للوطن.. وظل هؤلاء العربان فى رخائهم يبدون أسعد حالا من قومهم بالصحراء ، حتى أعلن عليهم على بك الحرب بعد أن أثارت حفيظته قوتهم وطمع هو فى ثرواتهم ، وكان أن هزمهم فى لقاءات عدة . هكذا لم يعد بامكان هؤلاء العربان بعد أن فقدوا القدرة على احتمال الرمال الحارقة وعلى مكابدة

صنوف الحرمان التى كانوا يعـــانون منها فى صحرائهم ـــ لم يعد بامكانهم أن يفلتوا من سطوة المماليك .

وعدد القبـــائل الطليقـــة فى صحراوات مصر كبير واليكم أسماء تلك القبائل التى تعرفت عليها أثناء اقامتى فى هذه البلاد :

طرابين الـــكبرى ، الطميلات ، النفـــاحات ، العبـــابدة ، بلى ، الهوارة ، طرابين الصغرى ، الجوابى ، الهنادى ، الزهرات ، محاز ، بنى واصل ، السمالو ، الفرجان ، الترافع ، العزيزى ، بن وافى (٣) .

ويفترض أن هذه القبائل تستطيع اذا ما تجمعت أن تضع تحت السلاح مايقرب من ٣٠ ـــ ٤٠ الف فارس .

ويرتبط بكل من هذه القبـــائل عادة ثلاث فئـــات من الرجال شديدى الاختـــلاف : الأسرى الذين حصـــلوا عليهم أثنـــاء الحروب ، والعبيـــد المشترون ، والفـــلاحون ، والفئتـــان الأوليان قليلتا العدد لحد كبير ، أما الفئـــة الأخيرة فيتفـــاوت عددها قلة أو كثرة تبعا لســـكان الأراضى الخصيبة التى احتلوها وكذلك بحسب عـــدد البؤساء من الفلاحين الذين هربوا الى مخيماتهم بحثا عن ملاذ من طغيان الأتراك والمماليك .

وعلى الرغم من الحروب العديدة ، والأحقـــاد المتوارثة التى تقسم هذه العصب ، فان علينا أن ننظر اليهم باعتبارهم يشكلون أمة واحدة ، فأصلهم المشترك ولغتهم وعاداتهم توضح ذلك بجلاء .

ولن آخـــذ على عاتقى هنـــا أن اقـــدم حكايات حروبهم وهزائمهم ومعاهداتهم ، ولن ادخل فى تفاصيل تاريخية عن الأحـــداث والشخصيات الشهيرة ، وانما سأكتفى بأن أبين بعض الملامح التى قد تكون بذات نفع فى التعرف على تقاليدهم وحالتهم السياسية .

---

(٣) حيث أن للعبابدة واكلة الأسماك فى سواحل البحر الأحمر أصلا وعادات مختلفة عن القبـــائل الرعوية الأخرى ، فاننى لم اتناولهم بالحديث هنـــا ـــ راجع ماذكرته عنهم فى مقالتى عن مدينة القصير (الفصل السابع من هذا الـــكتاب) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تنتمى كل القبائل الرحل التى استقرت فى مصر الى أصل عربى فيما عدا العبابدة (٤) واذا كان ثمة قبائل قد جاءت من جهة الغرب لتبدو وكأنها قد حطمت هذه القاعدة فلابد أن نتذكر أن هذه القبائل عربية وانها ذهبت الى المغرب فى عهد الخلفاء الأول . وأغلب مزارعى مصر الذين يشار اليهم باسم : فلاحين ينتمون لأصل مشابه ، وهم قد استقروا هناك كمنتصرين عندما أصبحت مصر جزءا من امبراطورية العرب وكونوا الجنس المسيطر ، حتى اليوم الذى انتقلت فيه مقاليد البلاد الى أيدى المماليك الأتراك . وبينما استطاع العرب الذين ظلوا حتى هذه الحقبة يحتفظون بالعادات الرعوية التى ورثوها عن آبائهم ، أن يتملصوا من قانون المنتصر ، فان أولئك الذين كانوا قد انغمسوا منهم فى زراعة الأرض أو احتراف الحرف والفنون ، وسكنوا القرى والمدن قد كانوا مضطرين للخضوع للسادة الجدد ، وتضاءلوا شيئا فشيئا حتى بلغوا اليوم حالة لا تختلف فى كثير عن حالة العبودية .

ولقد سبق للعرب البدو فى زمن سابق أن يهزموا مصر ، ذلك أن المرء لايمكنه أن يشك فى أن ليس هؤلاء العرب سوى أولئك الذين أراد المؤلفون القدامى أن يشيروا اليهم عند الحديث عن هذه الشعوب الرعوية التى أخضعت مصر واحتفظت بها قرونا طويلة ، ثم طردوا منها قبل عهد سيزوستريس بحوالى ثلاثمائة عام (٥)

---

(٤) أنظر الهامش السابق .

(٥) حول هذا الموضوع اليكم هذه النبذة شديدة الأهمية نقلا عن مانيثون ولابد أن يتذكر المرء أن هذا المؤرخ المولود فى مصر داخل الطبقة الدينية قد استطاع افضل من اى شخص آخر أن يستفيد من الحوليات والكتب المقدسة فى امته : فى عهد « تيماؤوس » . أحد ملوكنا ، سمح الرب وكان غاضبا علينا دون أن نفهم لذلك سببا ، بأن يأتى من جهة الشرق جيش ينتمى لشعب ليست له أية شهرة وأن يسيطر بسهولة على بلادنا وأن يقتل بعضا من امرائنا ويضع السلاسل فى أيدى آخرين ، وبأن يحرق مدننا ويدمر معابدنا وأن يعامل السكان بغلظة شديدة ويقتل عددا كبيرا منهم وأن يسبى النساء والأطفال وأن ينصب ملكا علينا واحدا من أمته يسمى سالاتيس .

=

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثمة اعتقـــاد راسخ لدى العرب ، ودعمه القرآن ، يجعل هـــؤلاء العرب ينحدرون من صلب اسماعيل ، ابن ابراهام (ابراهيم) الذى قال عنه الرب « سيكون رجلا فخورا . ورعويا وحشيا ، ســـيرفع يده فى وجه الجميع وسيرفع الجميع ايديهم ضـــده ، وســـيرفع أغلامه امام كل اخوته ، سأباركه وأمنحه ذرية كبيرة وعديدة » (٦) وفى هذه اللوحة عن

= وقد جاء هذا الحاكم الجديد الى ممفيس وفرض ضريبة علىالمقاطعات العليا والسفلى على السواء وأقام فيها حاميات قوية ، وبخاصة فى جهة الشرق لأنه كان يرى أن الأشوريين ما أن يحسوا بأنهم قد اصبحوا أقوياء، سيسعون لهزيمة هذه المملكة ، وعنـــدما بدا له أن مدينة أفاريس فى اقليم سايت الى الشرق من بوباسطة ذات موقع مناسب ، فقد قامبتحصينها تحصينا قويا ، ووضع فيها وفيما حولها كثيرا من المحاربين بلغ عـــددهم حوالى ٢٤٠ الف جندى . وكان يأتى الى هنـــاك فى أوقات الحصاد كى يبـــاشر جمع المحصول ولـــكى يســـتعرض قـــواته ليحافظ على مستوى تدريبهم وانضباطهم لحد لا يجرؤ معـــه الأجانب على بدء التحرش به بغية امتلاك دولته . وقـــد سيطر هذا الحاكم لمدة تسعة عشر عاما ، ثم أعقبه بيون وقـــد مكث فى الحكم ٤٤ سنة ثم أبخناس وحكم ٣٦ عاما وســـبعة أشـــهر ، أما أبوفيس الذى أعقبه فقد حكم لمـــدة ٦١ عاما ، وحكم جانياس الذى اعتلى العرش بعده لمدة خمسين عاما وشهرا واحدا ثم أعقبه أسيس الذى حكم لمدة ٤٩ عاما وشهرين .. ولم توجد وسيلة للقضاء على الجنس المصرى الا ولجـــأ اليها هؤلاء الملوك الستة ، وكان هؤلاء جميعا يسمون الهكسوس أى الملوك الرعاة ، لأن كلمة هك فى اللغة المقدسة تعنى : ملك وسوس باللغة الدارجة تعنى : رعاة . ويقـــول البعض انهم كانوا عـــربا » .

ويضيف فلافيوس جوزيف Falvius Joseph (Réponsa à Appidon, trad d'Arnauld d'Antilly, liv. I. Chap. 5) الذى نقل الينا هذا النص من مانيتون بأن هذا المؤرخ يقرر أن "ملوك الصعيد ، اذ لم يكن قـــد تم اخضاعهم كلية ، قـــد خاضوا حروبا طويلة ضـــد هؤلاء الرعاة وهزموهم وطردوهم فى النهاية من مصر التى كانوا قـــد احتلوها مدة ٥١١ سنة ، وأن هؤلاء الرعاه قد انسحبوا الى الصحراء وانقضوا على سوريا وانتهى بهم الأمر أن استولوا على اقليم يسمى يهوذا حيث أسسوا مدينة أورشليم .

(٦) سفر التكوين ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ١٢ والاصحاح السابع عشر الآية ٢٠ . وما ورد فى المتن ترجمة للاقتبـــاس كما جاء فى النص الفرنسى ، واليكم نص هاتين الآيتين كما جاءتا فى التوراة :

« وانه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحـــد عليه ، وأمام جميع اخوته يسكن » « وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه واثمره وأنجحه كثيرا جدا . اثنى عشر رئيسا يلد واجعله أمة كبيرة » . (المترجم)

اسماعيل يتعـــرف المرء على البـــدو ، فالأبنـــاء لا يمكن لهم أن يشبهوا آباءهم بأكثر مما بشبه العرب أباهم اسماعيل .

أن المرء مدفوع على أن يقر بأن هـــذا الاعتقـــاد ليس خادعا على الاطلاق ، ولـــكن الشيء الذى لا يمكن أن يتطرق اليه الشك ، هـــو أن للعرب والعبريين أصلا مشتركا ، فلنقرأ التوراة بانتباه ، وسوف يدهشنا هذا التشابه فى التقاليـــد بين قـــدماء البطاركة وبين تقاليد العرب البدو، وستكون هذه القراءة بالغة الفـــائدة اذا أمكن احد أن يقراها كما قرأتهـــا أنا فى أرض جاسان على شواطىء البحر الأحمر ، وفى عيون موسى أو فى الصحراوات التى يحدها عند الأفق جبال حوريب وسيناء (٧) .

كل هذا يؤدى بنـــا أن ننسب الى العرب أصلا من أقدم الأصول ، وربما لا يوجد شعب يستطيع أن يتبـــاهى بأنه قـــد أمكنـــه أن يحتفظ

(٧) تستحق التوراة التى تنـــال من البعض ازدراء أكثر مما ينبغى، وتنـــال من الآخرين ، وهم الذين ينظرون اليها باعتبارها أساسا لمعتقداتنا الدينيـــة ، تقديسا أكثر من اللازم، وتستحق أن تنـــال اهتمام الجميع من زاوية تاريخية محضة ، ذلك لأنه اذا كانت صروف الطبيعة تبدو فيها غير قابلة للفهم ، واذا كان التـــاريخ فيها غير مؤكد واذا كانت الوقائع التى ترويها مشكوكا فى صحتها ، فسوف نتفق على الأقل بأنه كان من المستحيل أن ترسم لوحة للحياة الخاصـــة للعائلات الهائمة فى الصحراء بمثل هذه الدرجة من الحقيقة : اذ نحن ما نزال نجد بينهـــا نفس العـــادات ونفس الطريقة فى الحبـــادة بل ونفس مبادىء القـــانون العـــام ونفس الفنون ونفس الآنية ، بل نكاد نقول نفس اللغة .

فقـــانون القصـــاص وحق الانتقـــام الذى يؤول للأهل الأقربين . وحتى شراء الدم (الدية) وسطوة الشيوخ وعقاب المجدفين ، والختان، وتقـــديم الأضحيات فوق أماكن مرتفعة ، والالحـــاح فى طلب امارة على بكارة الفتيـــات يوم زواجهن والعقم الذى ينظر اليه كلعنة من السماء ، والرغبة فى انجاب ذرية كبيرة العدد ، وحقوق الملكية والميراث ، واعداد الأطعمة ، والفزع من لحم الخنزير ، والمجوهرات والملابس ، وطريقـــة شن الحروب ، واقتسام الأسلاب المنزوعة من العـــدو ، وعادة السكنى تحت الخيـــام حتى فى البـــلاد الخصيبة والملبئة بالمـــدن ، وعادة القـــاء التراب فى الهواء فى أوقات الأخطار الكبيرة ، وفى أيام الأحزان الفظيعة . . كل هـــذه أمور مشـــتركة عنـــد كلا الشـــعبين ، وفى زمن محمـــد كان يوجد عدد كبير من القبائل الطليقة فى الصحراوات تتبع ديانة موسى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بملامحه القـــديمة بأكثر مما أمكن لهؤلاء العرب أن يفعلوا (٨) منذ العصور

---

(٨) واليـــكم ما نقـــله الينـــا ديودور الصـــقلى عن العـــربان فى الصحراوات . وهو ما كتبه منذ ١٨ قرنا « أنهم يسكنون فى الخـــلاء ، دون أن يظلهم أى سقف ، وهم يتخذون من العزلة علما عليهم ووطنا لهم، وهم لا يختارون مطلقا لاقامتهم الأماكن القريبـــة من الأنهـــار وينابيع المياه خوفا من أن يجـــذب ذلك الأعداء الى مجاورتهم . ولا يسمح لهم قانونهم أو عرفهم أن يبذروا الحب ولا أن يزرعوا أشجار الفاكهة ولا أن يشربوا الخمر ولا أن يعيشوا تحت ســـقف ، ومن ضـــبط من بينهم مخالفا لهذه العادات يعاقب بالموت لا محالة ، اعتقادا منهم بأن هؤلاء الذين يخضعون لمثل هـــذه العـــادات سيخضعون عما قريب لحكام يستعبدونهم . وبعض هؤلاء يرعون الجمـــال وبعضهم يرعى الماعز فى الخلاء . وليس ثمة أغنى من هؤلاء الآخرين بين العـــرب ، لأنهم . على الرغم من كونهم ليســـوا الوحيدين الذين يمتلكون قطعـــانا فى **الخلاء** ، يقومون فى نفس الوقت — وعددهم لا يتجاوز ١٠ آلاف — ببيع البخور والمر وعقاقير أخرى ثمينة حصلوا عليها من سكان اليمن ليبيعوها على شواطىء البحر ، وفضلا عن ذلك فهم شديدو الغيرة على حريتهم ، وعندما يبلغهم خبر مفاده أن جيشا يقترب منهم فانهم يلجأون الى أعمـــاق الصحراء التى تعتبر حوافها بفعل امتدادها بمثـــابة متاريس لهم ، لأن الأعداء حيث لا يعرفون فيهـــا موطن المـــاء ، لن يجرءوا على اجتيـــازها ، فى الوقت الذى يكون فيه العرب فى أمان من هذه الحاجة — الحاجة الى الماء — حيث قـــد سبق لهم أن أعدوا لأنفسهم آنيـــة ضخمة خبـــأوها تحت الأرض ، ولا يعرف سواهم العـــلامات الدالة على هذه الآنية . وحيث ان الأرض كلها لا تكون الا من أرض طفلية رخوة فانهم يجدون الوسيلة كى يحفروا فيها مغارات عميقـــة وواسعة على شكل مربع يبلغ طول كل ضلع منها ذراعا ، وفتحتها بالغة الضيق ، وعنـــدما يمتلىء هـــذا الـــكهف (الجب) بمياه المطر يقفلون مدخله ويسوونه بسطح الأرض التى تحيط به ويتركون عليه بعض علامات لا يمكن أن يتعرف عليها ســـواهم . وهم يعودون القطعان التى يخطفونها الا تشرب الا كل ثلاثة أيام وذلك حتى تعتاد فى تلك الحالة التى سيكون عليهم أن يحيوها عنـــدما يهربون بعيـــدا بعض الشىء عبر سهول قاحلة على أن تقـــاوم العطش بعض الوقت ، وهم يعيشون على اللحوم واللبن والفواكه الشائعة والعـــادية وتوجد فى أراضيهم أشـــجار الفلفل وكذلك كثير من ذلك العسل الذى يسمى العسل الوحشى وهم يشربونه مع الماء، وثمة أجنـــاس أخرى من العرب يعملون فى فلاحة الأرض ، وهم يخضعون لحكومات مثل السوريين ، وهم يتشابهون فى أمور كثيرة فيما عـــدا أن السوريين يسكنون فى منازل .

ديودور الصقلى ، الـــكتاب التاسع عشر ، ترجمة الأب Terrason

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الضاربة فى القدم . وهؤلاء العرب - منقسمين الى قبائل ، وخاضعين لشيخ العائلة ، وساكنين تحت الخيام — يهيمون مع قطعانهم من من ضفاف الفرات الى ضفاف النيل ومن شواطىء المتوسط حتى الخليج الفارسى وبحر الهند ، لم يغز أرضهم أجنبى ولم يغير من لغتهم أو تقاليدهم غاز ، ولكم أرادت أمتان أكبر قوة وأكثر شهرة بسبب فتوحاتهما وهما الفرس والرومان ، أن تخضعا العرب لسيطرتهما ، بلا جدوى ولكن ما أن أصبح هؤلاء العرب فاتحين فى عهد الخلفاء ، حتى غطوا بجيوشهم شمال افريقيا ، وأسبانيا ، ووسط فرنسا ، وسوريا ، وفارس ، وآسيا الصغرى ، وعندما حدث أن طردوا وتمت هزيمة فقد كانوا يعرفون على الأقل ، ودائما ، كيف يحتفظون بوطنهم القديم . وينظر البدو ، وهم الفخورون بنقاء عنصرهم ، وبأنهم يستطيعون الدفاع دوما عن حريتهم ، ينظرون باحتقار الى أمم العبيد التى تحيط بهم .

وقد حدد الحب الأبوى والاحترام البنوى شكل حكومتهم ، كما أن هاتين الرابطتين هما اللتان تربطان بين مجتمعهم ، فكل أسرة تطيع من بينها هذا الشخص من أفرادها الذى جذب لنفسه أكبر قدر من الاهتمام بفضل حكمته وقدراته وثروته ، ويكون هذا الشخص فى العادة رجلا مسنا ويتخذ لقب شيخ ومعنى هذه الكلمة : العجوز أو المسن (٩) .

وعندما لا تكون الأسرة كبيرة العدد لحد تستطيع معه حماية نفسها بنفسها ، فانها تنضم الى أسرة أخرى ، ويعطى أكبر الشيوخ نفوذا اسمه للقبيلة التى تشكلها هذه الأسر المتحدة ، ويمارس عليها جميعا السلطة التى لم تكن له فى البداية الا على أهله ، وسلطة هذا الشيخ جد محددة فيما يختص بالأفراد ، لكن نفوذه كبير فى الأمور المتصلة بالصالح العام: فهو الذى يقرر السلام كما يقرر الحرب، وهو حق خطر مالم يمنعه صالحه الخاص — وهو مرتبط بشكل حميمى بصالح قبيلته — من اساءة استعماله . وهو لا يتقاضى أى راتب عن وظيفته ، ويتكون دخله — شأنه شأن بقية العربان — من منتجات قطعانه ، ومن الزراعة الوقتية لبعض

---

(٩) كلمة شيخ معناها عجوز ، ومع ذلك فيمكن اطلاقها على شاب مثل كلمة Senior عند اللاتين التى جعلنا منها كلمة Seigneur

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأراضى ، ومن نصيبه من الأسلاب وضريبة المكوس التى تدفعها القوافل التى تمر من أرض قبيلته . وتنظم سلطته طبقا للعادة ، وليست ثمة قوانين تحددها بشكل قاطع ، ولكن اذا ما دفعته نزواته ، وكثرة أصدقائه وخدمه على اساءة استخدام هذه السلطة وجعلته فى نفس الوقت بمنأى عن الانتقام ، وهو الأمر الذى تجلعه حياة الصحراء ميسورا على الذين وقع الحيف عليهم ، فاننا نرى على الفور جمهرة من العائلات تنفصل عنه لتنضم الى قبائل أخرى . وبهذه الطريقة ، اندثرت فى بعض الأحيان قبائل كانت كبيرة العدد ، وانتهى بها الأمر أن اختفت بشكل نهائى ، بينما تضاعف عدد قبائل أخرى فى وقت سريع وهى التى لم تكن تحظى بأى نصيب من الشهرة .

وكلما أطلنا التفكير ، كلما تبينت لنا قلة وسائل القهر فى حكومة المشايخ ، حيث لا توجد فى مخيماتهم سجون يمكن أن يزج اليها بالبراءة الطليقة لتجاور الجريمة البشعة ، كما أنه ليست ثمة سراى يستطيع الحاكم فيها أن يخفى أفعاله عن كل الأنظار ، ويمضى الشيخ العربى حياته فى الهواء الطلق دون حرس ودون موكب ، ويشهد على كل أحاديثه ، وكل فعاله جميع رجال القبيلة ، فهو اذن لايستطيع أن يخفى شيئا عن رقابة الرأى العام ، كما لايستطيع أن يغطى على سوءة من مساوىء سلطته تحت قناع الصالح العام . كما أن رعاياه ليسوا عديدين لحد يستطيع معه عن طريق لعبة اقتسام المصالح أن يضرب البعض بالبعض الآخر .

ولا تختلف الحياة الخاصة للشيخ عن حياة بقية العربان الا فى غذاء أوفر لحد ضئيل ، وفى ملابس أفضل وأسلحة أكثر انتقاء : ومهما يكن له من خدم فانك لتراه ينظف سلاحه ، ويقدم الطعام لخيله ويسرجها بنفسه ، وتعد له زوجاته وبناته وجبات طعامه ، وهن يغزلن ملابسه ويغسلنها وسط المخيم ، ويذهبن حاملات الجرار ليجلبن المياه من العين المجاورة ، أو ليجلبن لبن القطيع . تلك كانت تقاليدهم القديمة التى لم يهمل هوميروس تصويرها باخلاص ، وتلك حتى اليوم هى حياتهم الأبوية التى لا يزال سفر التكوين يحتفظ لنا بلوحاتها البسيطة والشيقة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قلنا ان كل قبيله تحمل اسم شيخها ، لكن تسميتها بهذا الاسم تعود الى وقت تكوينها ، أو تعود الى احدى الفترات الهامة التى مرت بها . لأن هذا الاسم لا يتغير مطلقا من جيل لآخر ، فالاسم يبقى هو نفس الاسم ، حتى يأتى شيخ يستطيع أن يصنع لنفسه ، بفضل حكمته ومواهبه العسكرية ، شهرة تمحو شهرة أسلافه ، ويصبح رعاياه تحت حكومته أكثر ثراء وأكثر عددا وأكثر هيبة ، ويجعل منهم على نحو ما شعبا جديدا .. هنا يأخذ أتباعه يتعودون شيئا فشيئا أن يشيروا الى انفسهم باسم ذلك الرجل الذى أخرجهم من الظلام ، وسرعان ما ينتهى الأمر بهذا الاسم أن يحل كلية محل الاسم الذى كان لهم فيما سبق .

ويوضع عادة أمام اسم كل قبيلة كلمة بنى وهى تعنى ابناء . وهكذا فبدلا من أن تقول قبيلة واصل تقول قبيلة بنى واصل . واسم الابن هذا الذى يتخذه كل العرب بلا تمييز ، هو فى نفس الوقت سلسلة فى حكومة أبوية يخضعون لها : ياله من بون شاسع بين هذا الاسم ، وبين اسم العبد الذى تستخدمه غالبية الشعوب !

وتقدم الخلافات من كل نوع الى محكمة الشيخ ، لكن سلطة الشيخ هى بالأحرى سلطة حكم أكثر منها سلطة قاض . ومهما كانت الجريمة خطيرة ، فانه نادرا ما يصدر حكما بالموت .

واليكم الصيغة المتبعة فى هذه الأحوال : يتوجه امرؤ الى الشيخ طالبا اليه القصاص . ويجلس الشيخ على عقبيه على طريقة أهل البلد ، وأمامه يجلس المتقاضون على نفس طريقته ، ويطلب الشيخ اليهم نزع الحجر الذى يحملونه عادة فى حزامهم ويضعه على الأرض ، ثم ينصت الى ادعاءات كل منهم ، فاذا مارفض التدبير الذى أشار به فانه يستدعى اليه شخصية أو شخصيتين تحظيان بالاحترام بحكم سنهما وأخلاقهما ، ويعرض القضية ثم يدعوهما الى ابداء الرأى ويستطيع الشيخ أن يستشير مسنين آخرين اذا اقتضى الأمر ، لكن من النادر أن يتسع الأمر لهذا الحد ، وعادة ما ينبرى الحضور الذين جذبهم الفضول الى مكان المناقشات للطرف العنيد ويصحبونه معهم وهم يقولون : هيا ، أنت مخطىء ، فقد جانبك الصواب ، انصرف ، انصرف .. ويبدون وهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقولون له ذلك بمظهر الأصدقاء الملاطفين الذين يريدون أن يحصلوا عن طريق اللباقة والرقة على ما قررته حكمة الشيخوخة ، ولكن اذا ما ظل هذا سادرا فى تمرده ، واذا مارفض الاستجابة للراى العام ، وهو عندهم بمثابة الحكم الأعلى ، فانه يطرد من القبيلة وتصادر ممتلكاته .

هذا بخصوص القضايا ذات الصبغة المدنية البحتة . أما اذا اختص الأمر بالسرقة أو بأية جنحة اخرى غير اراقة الدم ، اى من نوع تلك الجنح التى تعكر صفو الأمن العام فيما عدا القتل ، فان نفس الاجراءات سوف تتبع ، مع هذا الفارق الوحيد ، وهو انه ما أن يثبت الاتهام حتى ينفذ العقاب على الفور ، ويعاقب المدان عادة بدفع غرامة أو بتلقى عدد معين من ضربات العصا . وهو أمر لا يأنف الشيخ من القيام به أحيانا بنفسه ، ويسارع كل المشاهدين الى معونته ، فيرقدون الرجل المدان على بطنه ، ويعلقون قدميه فى حلقتين من الحديد مثبتتين عند منتصفهما بعصاة ، ويمسك رجلان بطرفى هذه العصا ، ويرفعان ساقى المذنب ، وتلمس ركبتاه الأرض ، ويظهر باطن قدميه فى الهواء بشكل افقى وفى وضع ثابت . وعلى هذا الجزء يتم الضرب بعصا مرنة لحد ما ، أو بنوع من السياط يسمى كرباج مصنوع من جلد الفيل او جلد فرس النهر .

وتعد المشروبات الكحولية والمواد المسكرة مصدرا لعدد كبير من الجرائم عند الشعوب التى اعتادت عليها ، لكنها عند العرب « حيث هم لا يشربونها » ليست مصدرا لأى جرم ، ويساهم هذا فى الحفاظ على الهدوء فى معسكراتهم .

واذا ما رايت الحدة التى يتناقشون بها لأتفه الأمور ، فانك ستدهش من أن الضربات لا تعقب هذه الكلمات الحادة ، وتكاد مناقشاتهم كلها تمضى فى تبادل الصرخات ، ولعل السبب فى ذلك هو أن رجالا كهؤلاء ، مسلحين على الدوام ، لا يمكنهم الاندفاع فى الشجار دون تقدير منهم لعواقبه ، فنتائج القتل على الدوام خطيرة اذ يكون لأهل القتيل أن ينتقموا له ، وفى هذه الحالة يباح الاغتيال . وهكذا يصبح القصاص قانونا مقدسا لا يستطيع الشيخ نفسه أن يتملص منه . لكن الأمر البشع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى كل المسألة هو ان القاتل هنا لا يلاحق وحده ، بل يلاحق معه أهله الأقربون . وعندما يكون لأسرة ما ثارات عليها القيام بها تجاه أسرة اخرى ، فانه يقال حينئذ ان بين هاتين العائلتين دما ، ويكون عليهما أن تنفصلا وان تعيشا فى حالة حرب تستمر فى بعض الأحيان لعدة أجيال، ذلك ان الثأر يوجب ثارات اخرى وهكذا ، بل أن موت القاتل نفسه لايأتى مطلقا بالهدوء ، واذا ماهلك أحد من آله بسببه فان الأحقاد تتزايد بدلا من أن تقل . وهذه المعارك الباطنية لا تنتهى ، خاصة اذا ما كانت العائلات المتمادية تنتمى الى قبائل مختلفة لأن القبائل المعنية تتخذ عادة موقف الدفاع بالنسبة لأبنائها ، وتنتج عن ذلك حرب عامة . وثمة حروب من هذا النوع بدأت منذ زمان لا تعيه الذاكرة . ومع ذلك فيمكن — فى بعض الأحيان ، وقبل أن تتعقد الفتنة لأكثر مما يجب — تهدئة العائلة المكلومة بواسطة تقديم هدايا اليها ، تتكون بدرجة اساسية من الماشية ، ويسمى الاتفاق الذى يتم على هذا النحو بالدية او اعادة شراء الدم . ونرى فى التوراة أن شراء الدم هذا كان معروفا منذ زمن موسى بين القبائل الرحل التى كان هو مشرعا لها . أما عندما تكون العائلتان المتعاديتان تنتميان الى نفس القبيلة فان عقد اتفاق الدية يصبح أقرب منالا . وفى هذه الحالة يستخدم الشيخ وكل مسنى القبيلة كافة نفوذهم .

ويحدث القصاص والدية ايضا بالنسبة للجروح، وللآباء على ابنائهم حق الموت ، ويطبق الرجال هذا العقاب على أى من زوجاتهم او بناتهم او اخواتهم تخرج عن سبيل الرشاد .

وليست المبارزة معروفة عند العرب ، وهم يستعيضون عن ذلك كما قلنا للتو بالاغتيالات ، ويلاحظ الأمر نفسه عند غالبية الشعوب ، قديمها وحديثها على حد السواء ، ذلك أن هذه العادة النبيلة ، عادة تحدى الخصم ومبارزته بسلاح مماثل ، وهى العادة التى تجعل من هذا الحقد الشائك والانتقام البشع نوعا من النزاهة والشجاعة لا تحدث الا عند أمم شمال اوربا . ومع ذلك ، فاننا نجد فى الواقع ونحن نتصفح التاريخ العربى مثل هذه المبارزات الفريدة التى حدثت عند كل الشعوب — سواء كانت هذه المبارزات بين عدد ضئيل من المحاربين

الذين اوكلت اليهم باتفـــاق مشترك ، مهمة ان يتولوا وحدهم الدفاع عن مصـــالح قريتهم ، او ســـواء بين شخصين شـــجاعين عنـــد استعراض الجيوش المتعـــادية لمجرد تبـــاه بالشجاعة . لـــكن مثل هذه الأمور من قعقعة السلاح لا ينبغى أن تختلط بالمبـــارزة بالشكل الذى نعرفه نحن فى اوربا منذ زمان ضارب فى القدم كرد على الاهانات الشخصية .

وتقتضى مصالح امن هؤلاء العرب أن يقوم شيوخهم بدراسة أخلاق وطباع حكام الدول المجاورة، وكنا على الدوام ندهش من صوب أحكامهم. وهم يتفاوضـون بقدر من الشرف ، ويستطيعون ويعرفون كيف يدافعـــون عن حقوقهم بمهارة ورقة ودبلوماسية لا يمكن لدبلوماسيينا أن ينكروها . ولـــكم اتهمناهم بسوء الطوية ولـــكن هل دريـنـــا ما أن كان قـــد حدث من جانبنـــا تصرف معاد نحو تلك القبائل الصـــديقة والتى كان يصعب علينا على الدوام ان نميزها عن تلك القبـــائل التى كانت ماتزال فى حالة حرب معنا ، وما ان كان مثل هـــذا التصرف من جانبنـــا هو الذى هيـــأ لهم اسبابا عادلة لمعـــاودة حمل السلاح ضـــدنا ؟ ولقد كنت لمرات عدة شاهدا على مثل هذهالاساءات غير السارة ، واتذكر وسط ذكريات أخرى، انه حدث عند عبورنا وادى الطميلات مع فصـــيلة مدفعيـــة : ان قابلت مقدمتنا عند حوالى آخر النهار ، عربيا بدويا يجلس على الأرض معاثنتين من السيدات ، وبالقرب منه كان حصانه وسلاحه ، وغير بعيـــد من ذلك كانت تبـــدو بعض البقرات وبعض الخراف ، ولو أن العربى كان قد أخذته المفاجأة ،لـــكانت ما تزال لديه الفرصـــة كى يقفز فوق حصـــانه وينجو بنفسه ، لـــكنه لم يفعل ، وانما ســـارع برسم علامة الصـــداقة لجنودنا وهى عبـــارة عن تقريب ابهـــامى كلتا يديه وهو يلفظ : سوا ، سوا ، « معا ، معا » . ولـــكن هـــذا من جانبه كان بلا جدوى ، ذلك ان جنودنا — وقد حرضهم على ذلك انكشارى تركى كان يعمل مرشدا لنـــا — قـــد شتموه وشتموا نساءه وجروا خلف ماشيته . واضطرته طلقة بندقيـــة صوبت اليـــه ان يقرر الهرب ، فاندفع بهمة الى داخل الصحراء وهـــو يذود عن نفسه بسلاحه ضـــد أولئك الذين يحدقون به ، واطلقت عليـــه طلقـــات عديدة من البنـــادق لـــكنه لم يصب بأذى . واسرع صـــوت البنادق هـــذا من خطو بقيـــة الفرقة ، وكنت على حصـــانى وتقدمت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجميع ، وسرعان ما وصلت الى المقدمة . وبينما انا استعلم عما حدث ، أشار خادمى المصرى بيده الى المرأتين ثم قال لهما :

« توجها الى هذا الرجل وهو كفيل بحمايتكما » فهرعتا على التو نحوى وقبلتا طرف ردائى ، فطمأنتهما وتوصلت مع بقية الضباط الذين وصلوا معى الى تسوية الأمر ، وحيث أن الانكشارى الذى تحدثت عنه قد أكد أن البدوى الذى فر ينتمى الى قبيلة معادية فقد استولينا على قطيعه . وصحبنا السيدتين لنسليمهما الى شيخ أول قرية سنعبرها. وفى أثناء ماتبقى من طريقنا لاحظت أن انكشارينا يحرض الجنود على عدم استخدام الرحمة مع أسيرتينا ، وكان يريد أن ينتزع من هاتين البائستين الأشياء القليلة التى كانت معهما . واضطررت أن أتوعده بعقاب قاس كى أجعله يكف عن اضطهاده الجبان لهما . وعندما حل الليل توقفنا ، وبينما نحن نوشك على أن نغادر خيامنا ، شاهدنا مشايخ الطميلات قادمين ، وكانت هذه القبيلة فى ذلك الوقت فى سلم معنا . وكان معهم ذلك البدوى الذى هاجمناه البارحة ، وشكوا الينا فى لهجة معتدلة اعتداءنا الظالم على رجل لم يكن يحق لنا أن نعتدى عليه . واسرعنا نوجه اليهم كل الترضيات الواجبة واعيدت الى المرأتين معظم مجوهراتهما التى كان الانكشارى قد سلبهما اياها ، وتلقى هو على الفور ، وفى حضرة البدو عددا محددا من الضربات بالعصا ، واعيدت الماشية أو دفع تعويض عنها ، وبعد أن تناول الشيوخ العرب بعض أقداح القهوة معنا عادوا بالغى السرور . لكننى هنا اتساءل: لو أن هؤلاء البدو كانوا قد ذبحوا أفراد جنودنا الذين كان من الممكن أن يقابلوهم منعزلين ، بدلا من أن يأتوا الينا ليبثونا صراحه شكواهم .. الم نكن سنتهمهم عندئذ بالخيانة ، بينما هم لم يفعلوا سوى أن انتقموا منا؟

وعندما يتم السلام بين قبيلتين يتبادل الشيوخ الهدايا ، ولهذه الرسميات سطوتها . وعندما يتعامل حكام أجانب مع العرب فانهم يعنون بالامتثال لهذا الأمر . ومن المعتاد كذلك فى مناسبة مماثلة أن يأكلوا معا وهو مايسمى بتحالف أو اتفاق الخبز والملح وهو أمارة على صداقة لن تهدر . وأيا كانت مكانة الشخص الذى تلقى من عربى أقل طعام فانه سيكون واثقا أنه سينال احترام كل القبيلة .

ولدينا على ذلك الوف الأمثلة من الأسرى الذين اخذوهم منا اذ كانت تتوقف اساءة معاملتهم اياهم منذ اللحظة التى يأكلون فيها معهم ، وأقرر فى هذا الخصوص واقعة سجلها المسيو دينون فى مؤلفه ، وقد سمعت من يتحدثون عنها بعد قليل من حدوثها . منذ عدة أشهر طويلة كان لدى بعض العربان أسير هو ضابط فرنسى .. وفجأة ظهرت احدى وحداتنا على مقربة من مخيمانهم .. وتفرق العربان على الفور داخل الصحراء وقد أخذهم الفزع وأصبح كل مايمتلكونه فريسة للمنتصر ، ووجد شيخهم نفسه — بعد أن هام على وجهه — وحيدا مع اسيره وسط الصحراء ولم يعد معه سوى قطعة خبز هى كل طعامه، ولابد أن قلبه كان مفعما بالنقمة على الفرنسيين ، الذين تسببوا فى كل ما أصابه من آلام ، ومع ذلك فقد اقتسم مع ذلك الفرنسى الذى كان فى حوزته ، قطعة الخبز الوحيدة التى بقيت له ، وقال له : ربما سأحتاج اليها غدا ، لكنى لا أتحمل لوم نفسى لنفسى لو تركتك تموت من الجوع لأضمن أنا وجودى .

ان مثل هذه الأخلاق والطباع لتشرف الانسانية بأسرها ، ولا ينبغى علينا بالمثل أن نسىء القول فى حق أمة تضم رجالا بمثل هذا الكرم بين أبنائها . لكن السوءات هى التى تسترعى انتباهنا بشدة بينما تفوتنا الفضائل ! وفضلا عن ذلك فان الفضائل لا يمكن أن تكون هى نفسها عند كل الشعوب ! فالحدث الفاضل هو ذلك الحدث الذى يكون مفيدا بشكل مباشر أو غير مباشر للمجتمع الذى يطريه . وليس هناك من هذه الفضائل الا عدد ضئيل يمكنه أن ينال امتداح كل الناس بدون تمييز .

فعندنا على سبيل المثال ، لا يتعرض المسافر المولود فى بلد هو فى حالة حرب معنا لأن يقتل أو يسلب ، ذلك ان مصالحنا تحملنا على استقبال الأجانب وحمايتهم وأن نبسط علاقتنا معهم . لكن العكس من ذلك هو ما يصدق على الصحراء فان أى رجل ليس حليفا للقبيلة سوف يجرد من أمتعته ، بل ويقتل أحيانا على يد العربان الذين يقابلونه، والعربى الذى يحظى بتقدير أكبر هو الذى يستطيع أن ينتزع أكبر قدر من الأسلاب لأن السلب بشكل واحدا من أهم دخول قومهم . ومع ذلك،

فحيث انهم بدورهم يتعرضون لنفس المخاطر ، ويجدون انفسهم فى بعض الأحيـان فى حاجة الى مأوى عنـد أعدائهم أنفسهم ، فان البـدو قـد جعلوا من كرم الضـيافة أول واجبـاتهم ، ولابد أن نقر بأنهم يمارسونها بسخاء لا يعرف فى مكان آخر : فالأجنبى الذى استطاع أن يصـل الى خيـامهم أو حتى يلمس عتبـة خيمتهم لن ينـاله فقط أى أذى ـ بل انه ـ وكما كان يحـدث فى زمن ابراهام ـ سيحصل دون اجر على طعامه بل أن القبيلة بأكملها قـد تتحمل مخاطر حرب خطيرة دون أن تسلمه الى أعدائه . وقـد حدث لى ، كما حدث لـكثيرين غيرى من أعضاء الحملة، أن سافرنا وحدنا مع عربان وبقينـا بينهم شـهورا عـدة دون أن يكون لدينـا على الاطلاق ما نندم منه على ثقتنا بهم .

وبخلاف التحالف الخاص بين قبيلة وأخرى ، توجـد تلك العصـب الـكبيرة التى تعترف بواحد من مشايخ هـذا التجمع على أنه شـيخها الأوحد ، وتأخذ هذه العصب اسما مميزا ، مثال ذلك ما يحدث فى مصر السفلى حيث توجد اثنتان : الأولى تسمى : سعد والثانية تسمى : حرام.

وقلما يقـاتل العربى البـدوى الا وهو يمتطى حصانه ، وهو مسلح عادة بسيف بالغ القصر وخنجر وحربة طويلة كمـا يكون فى غالب الأمر مسلحا برمح وكمية من الأسلحة التى يعلقها فى قوس سرجه ، وفى بعض الأحيـان يستعيض عن رمحه ببنـدقية كبيرة يستخدمها بمهارة حتى عندما يعدو به حصـانه ، رافعـا يده دون أن يترك عنان فرنـه بطريقـة يستطيع بها أن يثبت سـلاحه وأن يصـوبه كما لو كان راجلا ، وبالرغم من أنه مدرب على القـاء حربتـه لأبعد مدى وبدقـة شـديدة فانه من النـادر مع ذلك أن يتخلى عنها فى المعركة ، فهو يمسـك بهـا عادة بالقرب من سهمها ، ويرمى بهـا بقوة تاركا اياها تنزلق من يده دون أن يتخلص منهـا كلية وبحركة معاكسة يستعيدها سريعـا الى وضعها الأول وحيث أن كفاءته كفارس أكبر منهـا عن درجـة تبـاهيه بسلاحه ، فانه يحرص على اتخاذ الجـانب الأيسر من خصمه ، وهو يحوم حوله ويتفادى ضرباته هاربا بحصـانه الذى تخـدمه مرونتـه المذهلة بشكل رائع فى تلك المعارك التى يلتحم فيها المقاتلون .

ويصنع البـدو بأنفسهم البـارود الذى يستخدمونه وهو ردىء ، وتزيد فيـه على الدوام نسبة الفحم بدرجـة أكبر مما ينبغى . وليسـت لديهم مدفعيـة ، فالمـدفعية حسب أسلوبهم فى القتـال ليست مفيـدة بالنسبة لهم ، واذا ما اضطروا للتجمع فانهم سهـاجمون كرماة ، ويتم هذا دون أدنى نظام ، فكل منهم يتخذ مكانه حسب هواه . وليست معاركهم الا تلاحمات ، اذ يبـادر أكثرهم شجاعة بالاندفاع نحو الخصم ، ويثير بذلك حميـة رفاقه . هـذا هو واجب القـائد عندهم ، وهو الوحيـد الذى تسمع أوامـره ، وسرعان ماينم احـراز النصر ، ويتفرق المهزومون فى الصحراء ، ويحميهم الليل من ملاحقة أعدائهم .

واذا ما دارت معركة على متسهد من المخيم ، أو اذا كانت مع الفريقين أسرهم ، فانك ترى النساء والفتيات ، جماعات جماعات ، يدققن طبولهن ويثرن بصرخاتهن وأغنيـاتهن حميـة المقاتلين : ووسط كل هذه الضجة، لا يكون عليهن أن يخشين بأسا . فالجميع يحترمون ضعفهن .

ولا يهاجم العربان مطلقا أثنـاء الليل ، ويتلخص تاكتيكهم فى مفاجأة العدو بانقضاضات سريعـة وهجمات غير متوقعة ، وفى نصب الـكمائن له ومناوشته لانهاكه عنـدما يكون هو الأقوى ، وهم فى هـذه الحـالة لا يتحرجون من أن يفروا ، ليعيدوا حشـد سلاحهم وهم يجـرون بأقصى سرعة ثم يعودون الى المعركة حيث لا يكون ذلك متوقعا . والويل لأولئك الذين يبتعـدون من أعـدائهم عن فرقتهم ! لـكم شـاهدت فرنسـيين يختطفون وهم على مدى مرمى بنـادق زملائهم ، ثم جردوا وذبحوا أمام فرقتنا قبل أن يكون لدى زملائهم الوقت لنجدتهم .

وكم دهشنا ، ونحن نراهم يهربون أمامنـا على الرغم من تفـوقهم العددى علينـا فى حين أننـا شاهدناهم فى مرات أخرى وعلى العكس من ذلك يهاجموننـا بشراسة برغم أنهم كانوا فى موقف أضعف بالنسبة لنـا ، وتفسير ذلك أنه لم يكن مع جنودنا فى الحالات الأولى أى أمتعة يمكن لها أن تغرى عدوا لا يقاتل الا للحصـول على مغانم ، بينما كنا فى الحالات الأخرى نصحب قوافل تثير لعـاب شهيتهم التى لا تشبع ، ذلك أنه لا ينبغى علينـا أن ننظر للعربان مثلما ننظر للأمم الأوروبيـة ! فالدول الأوروبيـة تسمى منتصرا من سـاد ميدان القتـال ، بينما من الممكن عند

العرب أن يعد نصرا ان تلوذ بالفرار بشرط الا تفقد من الرجال الا اقل مما فقد العدو ، وبشرط ان نحصل على بعض الأسلاب . وكثيرا ماخدعنا فيهم ، فقد كنا نظن جبانا ذلك الذى يهرب منا بينما هم ينظرون اليه فى معسكرهم — ربما — على انه بطل .

وحيث ليست لديهم لا مدفعية ولا مشاة فان اقل سور كفيل بايقاف زحفهم ، لذلك فان معظم المدن فى مصر ، قد احاطت نفسها — حتى تحمى من غاراتهم — بسور عال يبلغ سمكه طوبة واحدة ، ويكفى ذلك كى يجعل من الأمر فى نظر العربان حصنا لا يمكن الاستيلاء عليه الا باستخدام القوة المسلحة ، عندئذ يضطرون للقيام بحصار المكان ، وهو نوع من المعارك لايتفق مع تلهفهم وعجلتهم، لذلك فانهم سرعان مايوافقون على الابتعاد فى مقابل الحصول على بعض الهدايا .

ولنفس هذا الغرض يقيم الفلاحون فى هذه البلاد ، هنا وهناك، وسط الحقول المزروعة احواضا من الطين على شكل ابراج يعلوها سطح مزود بمتراس . ويزرع هؤلاء البؤساء وعيونهم يقظة : وهم لا يتركون سلاحهم مطلقا ، ويزرعون وهم يرتجفون تلك الأرض التى عليها ان تطعمهم ، وما أن يلمحوا البدو قادمين حتى يسوقوا — على وجه السرعة — حيواناتهم إلى اكثر الأبراج قربا ، ويتسلقونه على درجات صغيرة محفورة فى جسمه الخارجى ، ومن سطح هذا البرج يذودون عن ممتلكاتهم ويبعدون عدوهم بطلقات البنادق .

وعندما تقوم حرب بين قبيلة وأخرى فان العرب لا يتخذون مطلقا من اسراهم عبيدا ، فهم يطلقون سراحهم بعد أن يسلبوهم أمتعتهم ، واذا ما استبقوا بعضهم فانما ليتخذوا منهم رهائن ، لكنهم لا يسلكون نفس المسالك مع الأجناس الأخرى وانما هم فى هذه الحالة كذلك — يحتفظون بعدد قليل من الأسرى ، لكن هؤلاء الأسرى يكونون بمثابة عبيد ، يستخدمون فى أعمال البيت وبخاصة فى طحن الحبوب ، وهذا النوع من العمل يضعهم مباشرة تحت امرة النساء فى القبيلة : ونستطيع أن نميزهم عن العبيد المشترين ، وهم كذلك قليلو العدد — فهؤلاء الأخيرون زنوج فى غالب الأحيان ، يشترون وهم صغار ؛ ويعاملون بقدر من الرأفة كما لو كانت تربطهم بالقبيلة روابط الدم . وعندما يصبحون

كبارا ، يتبعون سادتهم الى الحروب ويحصلون فى الغالب على حريتهم مكافاة لهم على شجاعتهم ، ويحصلون كذلك على عطاء من الامتعة الضرورية لحالتهم الجديدة ، بل انهم فى بعض الأحيان يقتسمون تركة سيدهم مع أبنائه ، وفى معظم الأحوال يعترف بهم كورثة وحيدين لسادتهم اذا لم يكن (١٠) لهؤلاء الأخيرين أبناء ، حتى ولو كان لهم أهل عديدون وعندما يصبحون أفرادا فى القبيلة ، يكون بمقدورهم أن يتوصلوا هم وأحفادهم الى مرتبة الشيخ . وبهذا يكون الأمر هنا أقرب الى التبنى منه الى العبودية .

وأخيرا فان البدو لا يرغمون الأسرى الذين يحصلون عليهم فى الحروب على اعتناق الاسلام لكنهم يرغمون على ذلك العبيد الذين يشترونهم . ولا يعنى الأمر انهم شديدو التدقيق فى مسألة الدين ، فقلما يكون هؤلاء مسلمين الا بالاسم ، وتنظر اليهم بقية الشعوب التى تدين بهذه الديانة على أنهم غير مؤمنين . والختان ، هو الممارسة الدينية الوحيدة التى تحظى بالاحترام بينهم ، ومن المعروف أنها كانت تمارس قبل مولد محمد « صلى الله عليه وسلم » بزمن طويل . أما الوضوء الذى أمر به هذا النبى فلا يمكن المواظبة عليه فى الصحراوات حيث المياه نادرة وثمينة لحد كبير . وعلى الرغم من أن القرآن قد فرض الصلاة خمس مرات فى اليوم الواحد ، فان هؤلاء لا يؤدون الصلاة فى معظم الأحيان الا مرة عند شروق الشمس ومرة أخرى عند الغروب . بل وربما كانوا يخلطون بين ذلك وبين التقديس الذى يولونه لكل النجوم، ولعل ذلك شيء قد بقى من ديانتهم القديمة تلك التى كانت بسيطة بقدر ما كانت طبيعية . وهم يعبدون كائنا ساميا ، وينظرون الى الأجسام السماوية كوسطاء بينهم وبينه وهى التى تبدو وسط سماء بهذا الجمال وعلى هذه الدرجة من الصفاء وكأنها تدل على عظمة الله التى تتبدى هنا بقدر من الروعة أكبر مما تبدو به فى بقية مظاهر الطبيعة (١١) .

---

(١٠) نجد فى التوراة عادات مشابهة ، فقد كان ابراهام ينظر الى ابن خادمه كوارثه الوحيد قبل أن تجعل منه هاجر أبا (سفر التكوين ، الاصحاح الخامس ، الآية ٣٧) على الرغم من أن ابراهام كان ينتمى الى أسرة كبيرة العدد .

(11) Voltaire, Essai sur les moeurs.

ولا يرى مطلقا في معسكرات العربان مكان مخصص للصلاة . فكل امرىء يؤديها حيث شاء . ويسلك في هذا الأمر على النحو الذي سمع به ، اذ ليس ثمة رجال دين أو أئمة على الاطلاق ، ولكن ثمة قاضيا ، وان كان هذا الفقيه الذي ينبغي أن يحفظ القرآن ويعرف القوانين والتفاسير لا يعرف حتى القراءة . يقول شيخ القبيلة لأحد العربان : أنت قاض . فيكون كذلك . ولقد أخذوا بهذه الاجراءات بدافع سياسي ولارضاء جيرانهم ، لكن ما يميزهم على وجه الخصوص عن بقية المسلمين هو أنهم لا يكنون لا حقدا ولا احتقارا للأديان الأخرى ، بل ويقال انه لا تزال توجد داخل الجزيرة العربية قبائل يهودية ينظر إليها أبناء البدو المسلمين ، على أنهم اخوة لهم .

وفي بعض الأحيان ، ومن المستحسن أن يحدث ذلك فوق الأماكن المرتفعة ، يذبح العربان خروفا أو جملا صغيرا ، ويذكر اسم الله ، ويوزعون على الفقراء جزءا من لحم الضحية (١٢) .

وتوقير المسلمين للحيتهم امر شائع ، ولا يستطيع العبيد أن يطلقوا لحاهم . وحلاقة ذقن رجل حر أمر مهين لكرامته : لذلك يقسم البدو بلحاهم وهم ممسكون بها بأيديهم ، وفي احيان أخرى يقسمون براسهم، لكن اكثر الايمان تقديسا وأكثرها قوة ، هو القسم الذي لا يلجأون اليه الا في الحالات ذات الأهمية القصوى ، ويلفظ به مع رفع طرف الرداء والامساك بعضو التذكير ، وعادة القسم بالأعضاء التناسلية يعود الى زمن جد بعيد فلقد قال ابراهام لخادمه « ضع يدك تحت فخذي، واقسم أن تذهب الى بلاد ما بين النهرين لتتخذ زوجة لاسحاق ابني » ※

---

(١٢) ذبح الأضحيات فوق الأماكن المرتفعة تقليد شائع عند العرب منذ الأزمنة الضاربة في القدم ، فعلى أحد الجبال قاد أحد شيوخهم ابنه، لكي يذبحه قربانا الى الله (سفر التكوين ، الاصحاح الـ ٢٢) وتقدم التوراة العديد من الأمثلة المشابهة .

※ هذه ترجمة للنص الفرنسي واليكم النص كما جاء في التوراة :

« وقال ابراهيم لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له ، ضع يدك تحت فخذي ، فأستحلفك بالرب اله السماء واله الأرض الا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين انا ساكن بينهم ، بل الى أرضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني اسحاق » — وهكذا تزوج اسحاق من رفقة بنت بتوئيل ابن أخي ابراهيم — سفر التكوين — الاصحاح الرابع والعشرون .

(المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وللتعاويذ والتمائم نفوذها الكبير على العقلية الساذجة لهؤلاء القوم البسطاء ، حيث يحمل الكثيرون منهم كيسا صغيرا من الجلد ، مدلى فى رقبته أو تحت ابطه ، ويحتوى على قطعة من الورق كتبت عليها كلمات غامضة على يد درويش بل وفى كثير من الأحيان على يد مسيحيين أو يهود وهم الذين ينظر اليهم البدو على انهم أكثر علما من المسلمين فى تلك الأمور التى تتصل بالتمائم والرقى . وقد شاهدت بعضا منهم يحملون كذلك بعض أحجار عليها نقوش بحروف كوفية لايفهمونها على الاطلاق بل وكذلك بعض التعاويذ المصرية القديمة ، وفى النهاية فانهم يولون ثقتهم الكبيرة فى التميمة التى عملت خصيصا لمرض أصابهم أكثر مما يولون هذه الثقة لكل فنون الطب وأسراره . ويحرصون على وضعها فوق الجزء المصاب من الجسم ، وقد ينير الأمر ضحك البعض، وانا مقر بذلك ، ولكن ، هل ينبغى لمثل هذه الأمور أن تثير سخريتنا بينما نحن برغم كل حضارتنا مازلنا أسرى لخرافات مشابهة .

وعندما تنمو شجرة بالقرب من مقبرة ، أو فى اية ظروف قد تضفى عليها نوعا من مظهر المعجزة ، فانها قد تحمل البدو على الاعتقاد بأن بها روح جنى ، وتصبح منذ ذلك الوقت أمرا مقدسا ، بحيث لا يمكن انتهاك حرمتها بقطع فرع منها أو حتى بقذفها بحجر ، ويعلقون بها شعر الرأس وشعر الجسم ومزقا من القماش ،وقطعا من الورق خطت عليها حروف غريبة وكلمات سحرية ، ويأملون من وراء الطقوس التى يصحبون بها هذا الفعل أن يسخروا القدر لصالحهم وأن يوقعوا الضرر والأذى بأعدائهم ، وقد شاهدت وسط الصحراء ، بين القاهرة والسويس، شجرة ضخمة من أشجار الأكاسيا مغطاة بمزق من القماش ، ويعسكر بالقرب من هذه الشجرة عادة القافلة الكبيرة التى تتوجه كل عام الى مكة « للحج » ويقوم العرب بهذا الأمر فى تقديس كبير ، وقلما يفوت الحجاج أن ينذروا هناك نذورهم اذا ما كتبت لهم النجاة من أخطار السفر ، وذلك بأن يعلقوا فى فروعها جزءا من ملابسهم .

كنت أود لو أستطيع أن أقدم هنا تفاصيل الحفلات الدينية التى تصاحب عند كل الشعوب بعض المناسبات الهامة فى حياة الناس ، لكنى لن أتحدث هنا ــ حيث أنى سأقتصر فى هذه الدراسة على الوقائع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى لمستها وتلك التى تحققت منها بنفسى — عن حفلات الزواج والميلاد، وتحت بند الأخلاقيات والعـادات المدنية .

يتزوج العربان فى سن جد مبكرة ، وهم شديدو الغيرة على نسائهم، فالخنجر مشرع عند اقل هفوة خيـانة ، وهم لا يخفون على الاطلاق نيتهم فى استعادة اى من نسـائهم يقعن سـبايا فى الحرب لتضمهن أحضان المنتصر ، وتستطيع الفتاة التى مرت بهذه المحنة أن تعثر على زوج وكأن شـيئا لم يحدث لها ، ومع ذلك فان هذه الفتـاة فى حالات اخرى ، اذا لم تبن بكارتها ليـلة زفافها — ستطرد الى اهلها مجللة بالخزى ، وينتظر هؤلاء الأهل بفـارغ الصبر فى خيمة الزوج قطعـة القمـاش المخضـبة بالدم والتى تشهد بتعقل ابنتهم واسـتقامتها ، بل ويعرضونها أحيانا خارج الخيمة لأنظار الجمهور ، ثم تطويها الزوجة الشابة بعنـاية وتحتفظ بهـا طيلة حياتها .

ولا يعرف شباب العربان هـذه السوءة شـديدة الانتشـار لسوء الحظ فى أوربا والتى تحطم قوىالاخصاب عند أبنائها، وتقضى على البهجة التى ينبغى أن تقرب بين البشر وتحيل الحيـاة الى كآبة منفرة ، تصـيب صـاحبها بالانطواء ، وقتـامة المزاج وتجعل منه انانيـا فظا وتتسبب له فى أمراض الوهن والعجز القاسية بل والى موت مؤس مالم يؤد حب النساء الى علاج سريع له ، لـكن هـذه السوءة تحل محلها هنا سوءة أخرى عرفت فى المـاضى عند اليونان ، وكانت شـائعة فى كـل الأمم الرعوية ، تلك هى عادة أن يتبادلوا الحب فيما بينهم .ويحدث هـذا على وجه الخصوص اثنـاء مسيراتهم الطويلة حيث ليس ثمة من مجتمع يحيط بهم سوى قطعانهم . . وهناك ، ينغمسون فى امور تبعث على الخجل .

ويؤدى الزواج الى اختفاء أو على الأقل الى التخفيف من هذه الملاذ الآثمة . والعربان كما سبق القول يتزوجون فى سن جد مبكرة ، وليس ثمة ما يأملونه اكثر من الحصـول على الـكثير من الأطفـال فتلك هى الوسيلة الاكيـدة للنفوذ والثروة . ومولد طفـل ، هو حـدث يملؤهم بالفرح الطـاغى ، وبسبب هـذا الحب الأبوى الـكبير فانهم يضيفون الى اسمهم اسم مولودهم : فاذا كان الأب يسمى محمـدا وابنـه يسمى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علما فان اسم الأول يصــبح هكذا : محمد ابو على ، او ابو على فقط ، وهو ما يعنى والد على .

ويحمل الشبان من جانبهم اعظم احترام لواهبيهم الحيـاة ، كمـا يحترمون كل الشيوخ على وجه العموم ، فينهضون عند قدومهم ، وينصتون اليهم باحترام شديد ، بل ويكفون عن التدخين فى حضرتهم الا اذا طلب اليهم ان يواصلوا التــدخين . وهكذا تتــأسس حكومة القبيلة على هذا الخضوع التلقــائى لحكمــة السنن وخــبرة الأيام ، وعلى حب الآباء لأبنــائهم .. وهذا هو ما سبق أن لاحظنا من قبل حول هذا الموضوع .

والعربان رشيقو الاجسام ، خفيفوا الحركة اكثر من كونهم اشداء ، تتميز اجسامهم بالنحافة ، لــكنها نحافة الصــحة ، وثمة نوع من التشابه الــكبير فى شكل قامتهم ، اذ قلما تشذ عن طول يتراوح من خمسة اقدام وبوصتين الى خمســة اقــدام واربع بوصــات ، ولا نرى بينهم مطلقــا — كما نرى عندما — اقزاما الى جوار عمالقــة ، او مقعدين الى جانب اشــداء مفتولى العضل كما لا يرى بينهم على الاطلاق من هو كسيح منذ مولده .. فهنــاك تتقارب القوى الفيزيقيــة ، كما تتقــارب الصــفات الأخلاقية والعــادات الاجتماعية بقــدر من المساواة لا مثيل له فى مكان آخر من العالم .

والعربان بيض الوجوه : لــكن الشمس لوحت بشرتهم لحد كبير ، حيث يشتد أثرها اذ تنعكس اشعتها بفعل الرمال : ولون لحيتهم وشعرهم وعيونهم أسود ، اما اسنانهم فناصعة البيــاض متناسقة ، فى العادة ، وجميلة وملحمهم روحانى ورقابهم كثيرة العضــل ، واكتافهم وصــدورهم عريضــة ، لــكن الركبة كبيرة بعض الشيء ، ولعل هــذا قد نتج عن طريقتهم فى الجلوس على الأرض حيث تشابك سيقانهم من تحتهم .

وعيون النسـاء اكثر اتساعا من عيون الرجال لــكنها سوداء بالمثل ، كذلك فان اســنانهن بيضاء متناسقة . وقامتهن هيفاء مرنة ، اما اذرعهن وايديهن وسيقانهن واقــدامهن فعلى درجة من الجمــال تصلح معها اية واحدة منهن ان تعد انموذجا « موديل » ؛ لــكن ملامحهن فيما عدا عيونهن قليلة التعبير ، تنقصها الحيوية ، وهو أمر ينبغى أن نعود به دون جدال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى عادة اخفـــاء الوجه تحت النقاب بمنـــابة لا يولينها لأى جزء آخر من جسمهن ، وأنفهن كبير ، وفمهن واسع ، وتصبح الـــكثيرات منهن قبيحات بالفعل عندما يغطين وجوههن بوشم يجعلهن قريبات الشبه بهنود امريكا.

وسرعان ما تتهدل صــدورهن ، وهو الذى كان ناضــجا وجميـــلا عنـــدما كانت المرأة ما تزال فتـــاة فى سن العـــاشرة أو الثانية عشرة، وما ان تنجب الواحـــدة منهن طفـــلا حتى يســـتطيل صـــدرها بدرجـــة كبيرة ، ومما يساعد فى تشويهه اكثر فأكثر أنهن لا يبـــذلن اية عنـــاية لحمله أو اخفـــائه ، لذلك فالجميـــلات من نسائهن فى حكم النادرات ، ومع ذلك فهنـــاك بعض الجميلات يمكن لك أن تلمحهـــن وبخاصـــة بين صغيرات السن منهن .

وتتميز هؤلاء النسوة جميعـــا بخصوبة هائلة ، وعنـــدما لا تنجب سيدة متزوجة فانهـــا تلقى الاحتقـــار ولا يتردد زوجها فى تطليقها ، أو على الأقل ، فى اتخاذ زوجة أخرى ، ذلك أن الطلاق وتعـــدد الزوجات أمران مسموح بهما .

ومن اصـــعب الأمور عليـــك ان تستطيع تمييز شـــيوخ العرب من شبانهم عن طريق ملابسهم ، فهم يرتدون بصـــفة اساســـية اقل هـــذه الملابس خشونة وتنفيرا ، اضف الى ذلك أن رداء العربان لا يتغير ، على الاطلاق ، اذ يظل هو نفس ما كانه فى الأزمنة الخوالى ، وينبغي أن يقود هذا الى الاعتقاد بأن الأمر انما هـــو نوع من التقـــدير الذى تحظى به الشيخوخة ، أما عندنا ، فعلى العكس من ذلك ، فأهواء الموضـــة تتغير كل يوم .. ومن ثم تأتى سن معينة يجد المرء نفســـه فيها لايسيغ اهواء « موضـــات » جـــديدة ، فيثبت على بذلة لا تعود تتغير طيـــلة السنوات الأخيرة من عمره ، لذلك فسرعان ما تعد ملابسه مضـــحكة حيث يكون الشباب وهو الذى يبعث البهجة فى كل شىء ، قـــد كف عن استخدامها. ومن جهة أخرى فان الموضـــة فى اوربا لا تؤدى فقط الى تنويع الملابس، بل انهـــا تبسط سطوتها على كل ضروب الحيـــاة ، وينتج عن ذلك فى غالب الأحيـــان تنـــاقض قاس بين الشباب وبين الشيخوخة ! فملابس الآباء تبـــدو فى عين الأبناء مضحكة ، بينما لا يكف الآباء عن انتقاد الزمن الحـــاضر ولا يملون من الأسف على الزمن الذى فات ، ويتبـــادلون فيما

بينهم المرارة فيقولون : فيما مضى كنا نفعل كذا .. وهذه الكلمات التى قد يلفظها البعض بسخريه وقد يلفظها الآخرون بأسى ، تبدو كما لو كانت تعيد الى الاذهان ذكرى زمن سابق على الوقت الحاضر بقرون عدة ، بينما هى فى اغلب الأحيان لا تتعلق الا بفترة مضت منذ حوالى العشرين عاما . لكن الأمر ليس نفس الأمر عند أمم الشرق ، فالعادات ثابتة لا تحول . يقول العرب هكذا كان يفعل آباؤنا وعلينا أن نحذوا حذوهم . ومع ذلك فلابد أن نتفق على انه اذا كان مثل هذا الأمر فى معظم الأحيان ، افضل من ذلك التغيير الذى يحدث بلا انقطاع فان له أيضا عيوبه ! ذلك ان شيئا لن يتطور بمرور الوقت .

ويرتدى العربان جلبابا بالغ الاتساع من القماش أو من الصوف، وهم يشدونه حول وسطهم بواسطة حزام عريض . ويرتدون تحته كملابس داخلية سروالا من التيل . وهم يحلقون رءوسهم بالموسى ويغطونها بعمامة ، ويطلقون لحيهم ، وتظل عارية رقابهم وأذرعهم وسيقانهم . وفى معظم الأحيان يرتدى العربان الذين يقطنون صحراء مصر الغربية فوق ملابسهم معطفا أبيض اللون « عباءة » من قماش صوفى شديد الرقة . وقد شاهدت عربانا آخرين فى مناطق تحيط بمدينة السويس يلقون فوق ظهورهم أثناء الشتاء جلدا ثقيلا من جلود الخراف يعقدون قدميه الأماميتين فوق الصدر ويدلى الذيل الى الأرض وهو الأمر الذى يشبه تمام الشبه تلك الطريقة التى يبدو لنا هرقل بها وهو يرتدى جلد أسد ، ويبدو هذا المعطف البدائى على درجة من الجاذبية والروعة ، أما ملابس السيدات فتكون عادة من رداء طويل يستخدم فى نفس الوقت فستانا ، ومن سروال وعمامة وحجابين ، أولهما وهو الأوسع يوضع فوق الراس أما الآخر وهو اقل اتساعا فيوضع فوق الوجه أسفل العينين مباشرة ، ويثبت بقصاصتى قماش تعقدان خلف الراس . وثمة أطواق من الفضة — وهى فى أغلب الأحيان من الزجاج الأزرق — تحيط بالذراعين والساقين أما الحلى التى يتزين بها، فهى الخواتم والأقراط المصنوعة من النحاس أو الفضة ونادرا ما تكون من الذهب ، وبعضهن يثقبن احدى فتحتى الأنف لتتدلى منها حلقة فوق الفم .

ونظن النسوة من كافة الفئات انهن يتزين عندما يصبغن بالأصفر باطن القدمين واليدين « بالحناء » وهو أمر بدا لى على الدوام بالغ القبح ، لكننى سأقول عكس هذا الرأى بخصوص عادتهن فى احاطة جفونهن بخط أسود يمتد قليلا عند ركن الجفنين فقد كان تأثير ذلك على الدوام طيبا بالنسبة لى ، فالعين تكتسب بذلك حيوية وتبدو نجلاء وأكثر اتساعا ، ويمكن أن نستنتج من الخطوط التى نراها محفورة حول عيون التماثيل المصرية ان هذه كانت نفس عادة النسوة فى مصر القديمة.

ومنقولات البدوى كما لابد ان يتخيل المرء تتضاءل الى حد الضرورة المباشرة : رحاة ، رقيقة من الحديد لتحميص حبوب القمح أو لانضاج الخبز ، اناء لصنع القهوة « كنكة » ، دلو من الجلد لصب المياه ، بعض القرب ، قصعات من الخشب فناجين صغيرة لشرب البن ، قدر ، حصيرة تستعمل سجادة وفراشا ، وفى بعض الأحيان نول لنسج الأقمشة الخشنة، الأسلحة التى سبق أن تحدثنا عنها ، ماسورة طولها من ٤ — ٥ أقدام ، قليل من الملابس ، نوع من الماندولين (١٣) طبلة وهى عبارة عن اناء من الفخار المحروق لا قاع له ويغطى من احدى فتحتيه بجلد مشدود بقوة .. هذا هو كل ما نضعه على وجه التقريب خيمة البدوى ، وهذه الخيمة ترتفع الى ٥ — ٦ أقدام ، وهى مربعة الشكل ومصنوعة من قماش غامق خشن يصنعه العربان بأنفسهم من وبر الجمال . أما الجزء الخارجى من الخيمة ، وهو الذى يصنع سقفها ، فهو قليل الانحدار ويتخذ فى غالب الأحيان شكلا أفقيا ، وثمة فاصل من نفس القماش يفصل داخل الخيمة حجرة الحريم عن حجرة الرجال .

---

(١٣) استخدمت كلمتا ماندولين وكمان ، على الرغم من أن هذه الآلات تختلف كثيرا عن تلك التى تطلق عليها هذه الأسماء فى فرنسا . وقد أطلقت كلمة ماندولين على تلك الآلة التى تهتز أوتارها بواسطة قطعة صغيرة من قرن أو من خشب ، وكلمة كمان على تلك الآلة التى يعزف على أوتارها بواسطة قوس ، وبامكان من يرغب فى معرفة هذه الأشياء ، بتفصيل أكثر دقة ، أن يعود الى الدراسات التى نشرها المسيو فيوتو Villoteau عن الموسيقى ، فى نفس هذا المجلد (من الطبعة الأولى الفرنسية والسابع فى الترجمة العربية) .

وتتناثر كل خيـــام العرب بلا نظام الواحدة بعد الأخرى ، ولكن فى نفس الوقت بطريقة تجعلها تحوى فيما بينها فراغا فسيحا يستخدم كميدان عام وكمربط للقطعـــان ، واذا ما شاءوا أن يرحلوا فان كل عائلة تعبىء منقولاتها الخفيفـــة فى قمـــاش خيمتها وتحملها فوق جملها ونساق القطعان فى مقدمة الركب ، يتبعها النسوة والأطفـــال والشيوخ ، ويســـير بعض هؤلاء على قـــدميه ويمتطى البعض الآخر الجمـــال أو الحمير ، وهنـــاك بعض الرجال ، على صهوات جيادهم ، يرشدون ويقودون المسيرة ولا شىء يبقى فى المؤخرة ، وسرعان ما تأتى الرياح لتمحو آخر أثر لهـــذه المـــدينة المؤقتـــة .

والعربان قوم بالغو القنـــاعة اذ تكفيهم بضع بلحـــات وحفنـــة من القمح أو الشعير المحمص غذاء ليوم كامل : بل لقـــد رأيت البعض منهم فى أعمـــاق الصحراء يكتفون ببعض من الفول النيىء كانوا يأخـــذونه من طعـــام جمالهم ، ويأكلونه دون أية تجهيزات سوى أن يكسروه الى قطع صغيرة بواسطة حجر حتى يتمكنوا من مضغه بسهولة أكبر ، وهكذا ، فست أوقيات من الطعـــام أو سبع هى كل مايستهلكه البدوى من طعـــام طيلة اليوم فى الصحراء ، وهم يأكلون أكثر من ذلك بقليل عنـــدما يحلون بأرض خصبة ، ومع ذلك فان زهادنا ، وهم المعتـــادون على فترات الصيام الطويل ، لا يستطيعون بحال أن يقتربوا من بساطة هؤلاء وقنـــاعتهم ، فهؤلاء يشربون أقل من القليل ، ويتحملون العطش لأيام بأكملهـــا ، وبلا جدال فانه نتيجة لهذه القناعة المستمرة فان افرازاتهم ، نتيجة لهذه القناعة الدائمة ، جد قليلة (١٤) .

---

(١٤) يمكن أن يعد انعدام العرق عنـــدهم بشكل مطلق فيما أعتقـــد واحدا من الأســـباب وفى نفس الوقت واحـــدا من النتـــائج لقنـــاعتهم، فاذا كانوا لا يعرقون مطلقـــا فان الأمر لا يعود فقط لأنهم يأكلون قليـــلا وانما لأن جلدهم يجف بسبب تعرضهم لشمس حارقة ، وهم لا يرتدون الا ملابس شـــديدة الخفـــة ، وبسبب جفـــاف جلودهم وخشونتها تضـــيق مسامهم وتسد بشـــكل تام . وحيث انهم يتعرضون لقدر قليل من الفقد من طريق العرق فان حاجتهم للطعـــام لاستعادة قواهم تقل تبعا لذلك ، لكننى أمسك عن الخوض فى الأمر أكثر من ذلك مفضـــلا أن أترك الأمر ليحسمه الفسيولوجيون .

واليكم ما يأكله العربان عادة : فطائر صغيرة من الذرة أو القمح لم تنضج لحد كاف ، ارز ، بلح ، عدس ، فول ، لحم ولكن فى أضيق الحدود، لبن طازج أو رائب ، زبد ، جبن شـديد الجفـاف ، مالح ولاذع الطعم يصنعونه دوما من لبن الفرس والبقر والجاموس والحمـير والمـاعز بلا تفرقة ، ولا يشربون سـوى المـاء والبن بدون سـكر ، وهم يحولون القمح الى دقيق بواسطة رحى شـقاها من حجارة أو يسحقونه ببساطة فى حجر مقعر على شكل مدقـة (هاون) ، بنفس الطريقة التى يصنع بها الرسامون الوانهم .

وبعد عجن الدقيق ، يبسط العجين على سطح من الحـديد المحمى من قبـل فـوق النـار داخل حفرة فى الرمال ويغطى الجميـع بالرماد الساخن ، ويجذب الخبز قبل أن يبلغ بكثير درجة النضوج التى نعطيها له فى فرنسا . وهذه عادة استمرت فى الصحراء منـذ زمن لا يمكن تذكره « انضجوا الخبز تحت الرماد » هكذا كان يقول ابراهام لسارة .

ويستخدم نفس هذا اللوح الحـديدى الذى ينضج فوقه الخبز فى تحميص حبوب القمح والشعير التى يأكلها العرب عادة بدلا من الخبز .

أما روث الماشية المجفف فى الشمس ، فهو على وجـه التقريب ، الوقود الوحيد الذى يستخدمونه ، ومن العسير عليهم فى الصحـراء أن يتزودوا بوقود غيره .

وفى وجبة الاحتفالات يقدم عادة خروف بأكمله .

وقد تناولت العشاء ذات يوم مع بعض البدو ، ولقد استخدم هؤلاء لحثى على الطعـام وسائل قد لا تقع موقع الاستنكار من أكثرنا تأدبا نحن الأوربيين وهأنذا أقص هـذه الحكاية التى سـوف تسهم فى تعريفنـا بمضيفى من زوايا عدة :

كنت مكلفا أثناء شتاء العـام السابع (١٧٩٩) بعبور وادى التيه، الذى لم يكن قـد سبق لأى من جنودنا أن اجتـازه من قبل .ورحلت من القاهرة مع سرية تتكون من خمسة وعشرين رجلا من المشاة ، وكان مع كل جندى من الخبز مايكفيه لمدة اربعة ايام ، وكان معنـا جملان يحملان

المياه التى قدرنا اننا سنحتاج اليها . وعندما وصلنا عند غروب الشمس قرب مدخل الوادى ، على مشارف الأرض المنزرعة ، قررت أن نمضى الليل فى هذا المكان ، وتمدد الجنود على الرمال ، وبينما هم يأكلون خبزهم ، مغموسا فى قليل من الماء ، كان خيالهم الذى استثاره اسم الوادى ، قد جعلهم يتخيلون آلاف المخاطر الخرافية وأردت أن أتبين — يتوجهى الى قرية كنا غير بعيدين عنها ، ما ان كان بمقدورى أن أتزود من هناك بمرشد يدلنا على الطريق : أخذت بندقيتى وسرت وحيدا ، ولكن سرعان مادفعتنى الرغبة فى التعرف على مدخل الوادى الى القيام بدورة كبيرة ، ابتعدت معها دون ادراك منى عن سريتى ، وما أن تسلقت بعض التلال التى حجبتنى كلية عن الأنظار . حتى وجدت نفسى فجأة أمام مخيم عربى : فكرت فى الانسحاب لكننى تبينت أن بعض البدو من راكبى الخيول قد قطعوا على كل خط رجعة ، فقررت أن أجعلهم يدفعون ثمن حياتى غاليا . كنت مسلحا بشكل جيد ، اذ كان معى بخلاف بندقيتى المحشوة وسونكيها ، مسدسان ممتازان ، ونادرا ما يحدث أن أخطىء هدفى عند التصويب. شهرت بندقيتى ، لكننى أردت فى نفس الوقت أن أجرب — وأنا رجل جرىء صاحب حيلة — ما ان كنت بمستطيع أن اتفادى معركة غير متكافئة لحد كبير ، فأعطيت اشارة للعربان الذين كانوا يحدقون فى أن يقتربوا منى ، وتوجهت فى نفس الوقت اليهم ، بادى الثقة ، وما أن أصبحت على مسافة تكفى كى يسمعوا خلالها صوتى ، حتى طلبت اليهم أن يصحبونى الى شيخ قبيلتهم لأتحدث اليه . بدأ عليهم أنهم دهشوا لطلبى ، وتبادلوا النظرات فيما بينهم ، فكررت اليهم **بلهجة** حازمة طلبى، فأشاروا الى أن أتبعهم ، وسرعان ما أصبحنا فى داخل المخيم ، ونبحت الكلاب عند اقترابنا .

كنت أرى هنا وهناك عديدا من الخيول المسرجة ، مربوطة بالقرب من الخيام ، ولاحظت فى دهشة أن العديد من النسوة كن يغطين وجوههن بعناية تماثل ما كان يمكن أن تصنعه زوجات الفلاحين فى موقف كهذا . توقفنا أمام خيمة الشيخ التى لم تكن تختلف فى كثير عن بقية الخيام الا فى كونها أكثر اتساعا بعض الشىء . دخلت فى شىء من التوجس ، فوجدت الشيخ ومعه اثنان من العربان ، وهم منهمكون جميعا فى التدخين وشرب البن . كانوا جالسين على الأرض حول قليل

من النــار اســتقر فوقها الفلاى ، وكان دخان هــذا الموقد ، وكــذلك دخان **النارجيلات** ، بالاضــافة الى السحنة الجادة والمهيبــة لهؤلاء الرجال الثلاثة ، وكذا المسدسات والخنــاجر التى كانوا يتسلحون بهــا .. كان كل هــذا يتطابق مع الفكرة التى كانت لدينا عن مغارات اللصــوص .. القيت عليهم بتحية الاســلام : السلام عليكم ، فردوا الســلام دون أن يخرجوا عمــا فى أيديهم ، ثم اضــافوا وهم يقدمون الى قدحا من القهوة « اجلس واشرب » استجبت على الفور ، فقــد كنت أعرف أنه نوع من الحماية لك أن تشرب أو تأكل معهم ، وقلت للشيخ : « عرفت أنك تعسكر هنــا فتركت قافلتى على مسافة واتيت وحدى بثقة ، طالبا اليك دليــلا ليقودنى حتى البحر الأحمر عن طريق وادى النيه ، ويمكنك أن تثق بأنه سينال أجرا طيبــا » واضــفت : « ليست معى الآن نقود لكننى سأدفع اليه مقدما نصــف الأجر الذى سنتفق عليه ما أن أعود الى سريتى » ، فأجابنى « ستحصل على دليل فأنا فى سلم مع الفرنسيين » واخبرنى بعد ذلك أن الفرنسيين قد تركوا له أراضى وقرية البسـاتين التى كان يعسكر بالقرب منها وأن قبيلته هى قبيلة طرابين .

وبينما نحن نتحدث ، لاحظت أن نساء الشيخ كن يزحن قليــلا حتى يريننى فاصل القمــاش الذى يفصل حجرتهن عن حجرتنــا ، ولابد أنه كان أمرا مثيرا لفضولهن أن يرين واحــدا من الفرنسيين الذين قص عليهن بالضرورة محاربوهن مئات الحكايات الخرافية عنهم والذين كانت ملابسهم ولغتهم وأسلحتهم تختلف اختلافا بينا عما تعودن .

استأذنت فى الانصراف ، بعد أن تيقنت أن دليلا سيأتى فى الغــد ليلحق بى فى المــكان الذى أوضحته لهم ، وعدت الى معسكرى مغتبطــا أننى قد توصلت الى هذه النتيجة السارة .

وعندما عدت الى القاهرة ، بعد ذلك بشهر . قصصت مغامرتى على كثير من زملائى ، واتفقنا معا على تنظيم رحلة لرؤية هــذا المخيم . وفى يوم الرحلة ، كنا اثنى عشر رجلا جيدى التسليح ، نركب جيادا ممتازة ، ويسبقنا سياسنا (سايس)[١٥] الذين كانوا حسب عادة أهل البلاد يجرون

---

(١٥) السياس (سايس) خدم مصريون . وهم فى الوقت نفسه معنــون بأمر الخيل ويجرون بجوار سادتهم وهم لا يعرفون التعب ويحملون معهم فى معظم الأحيان وبخلاف عصاهم بندقية مخدومهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على اقـــدامهم ، وبأيديهم عصى طويلة . سرت وحـــدى فى المقـــدمة كى أنزع كل شك من الطوابين حول مشروع زيارتنـــا .. وعلى الفور ، تعرفوا على ، وعندما وصل زملائى بعد ذلك بقليل ، لقوا ترحيبا طيبا .

وبعد ان استرحنا وتجولنا خـــلال مخيمهم ، وشربنـــا معهم بعض اقـــداح البن ، شرعنا فى الرحيل على الرغم من الحاح كبار القبيلة الذين ارادوا استبقاءنا كى نشاركهم الطعـــام من الخروف الذى ذبحوه عنـــد وصولنا ، لكننا ، بتصنعنا الأوربى ، شكرناهم مدعين أن لدينـــا أعمـــالا لا تمكننا أن نبقى لأكثر من ذلك ، ولاحظت أنهم لم يســـتريحوا لرفضنا ، ومع ذلك ، فبعد أن تبـــادلوا بعض الكلمات فيما بينهم بصوت خفيض ، استعادوا ملمحهم البشوش الذى كان لهم حتى ذلك الوقت ، وقال لنـــا الشيخ وهو يمتطى حصـــانه مع بعض العربان ، انه ذاهب معنا ليدلنـــا على طريق افضل من ذلك الذى نعرفه . وما أن خرجنـــا من المخيم حتى افتعل مناوشة ، وقضينا نحن بعض وقت فى ملاحظة المهارة التى يوجهون بها خيولهم وينقاذفون بها الجريد (١٦) .. كنت قد شاهدت هـــذا الأمر مرات عديدة ، وحيث أننى شـــغوف بهذا النوع من الألعـــاب ، فاننى لم أستطع أن أمنع نفسى من المشاركة فيها ، فدخلت بينهم ، واستمر اللعب طيلة مسيرتنا .. وفى النهاية وصلنا الى شـــواطىء النيل ، حيث غابة صغيرة من النخيل ، وهنـــاك فوجئنـــا بوجود وجبة معدة ببذخ على حصير مبسوطة على الأرض ، فقال الشيخ :

---

(١٦) والجريد . عصـــا يبلغ طولها ٤ ــ ٥ اقـــدام وتســـتخدم كرمح ، ويفصل العرب عادة الفروع الخضراء من النخيل لأنها جد ثقيلة . ويستطيع الرجل وهو واقف أن يرمى الجريد على بعـــد أكثر من ٥٠ قـــدما ، أما اذا كان ممتطيا حصانه ويعـــدو بأقصى سرعته فانه يستطيع أن يلقى بها لأبعد من ذلك بكثير ، وهنـــاك من بينهم من يستطيع أن يقـــذف بها بقوة لدرجة يمكن لهذه العصـــا معها أن تتسبب فى حدوث جرح خطير ، بل وفى قتل من لايستطيع تفاديها . وقـــد حدث لى ذات مرة أن وقعت على الأرض دون أن أعرف واحدا ممن كنت ألعب معهم ، وفى نفس اليوم تلقيت ضربة بالجريد منعتنى لشهر كامل من أن استخدم ذراعى .

« ها نحن نجد وجبة فى طريقنا .. بامكاننا أن نتناولها معا دون أن نضيع عليكم مزيدا من الوقت » فترجلنا ، وبدأنا فرنسيين وعربا ، ونحن جالسين على الأرض نأكل بشهية طيبة .. كان ثمة لبن فى آنية كبيرة ، ودجاج ، وجبن ابيض ، وعسل ، وبعض الفطائر وخبز ، ووسط كل ذلك خروف بأكمله فوق تل من الأرز لم يكد ينضج ، وبدون شوك ولا ملاعق ، وباستخدام أيدينا مثل العربان ، كنا ننزع قطع اللحم ، ونأكل كيفما اتفق من نفس الأطباق . واذا كان قد سبق لنا أن تندرنا على عدم مهارة العرب فى استخدام الشوكة فى طعامهم فقد كان بامكانهم فى ذلك اليوم أن يتندروا من الطريقة المبتسرة التى كنا نقلدهم بها ، وكان بعضهم يغمس اللحم بالعسل فحاولنا أن نفعل نفس الشىء ولكننا وجدنا الطعم غير مستساغ لنا ، وشربنا مياه النيل الرائعة وقد بردوها بالقلل (١٧) .. كانت وجبة بالغة المرح على الرغم من أن نصف المدعوين كانوا يجدون مشقة فى فهم النصف الآخر .

ولقد انتهى مضيفونا من الطعام قبلنا ، وعندما كان يشبع أحدهم كان ينهض قائلا :شبعت والحمد لله .

وعندما نهضنا جميعا اتخذ خدمنا وكذلك خدم العرب أماكنهم ، وقال الشيخ بصوت عال حسب عادة العرب « يا أبناء البلاد ، تقدموا وكلوا » وعندئذ اتخذ بعض فقراء الفلاحين الذين جذبهم الجوع أو الفضول أماكنهم حول الحصير ، ولاحظت أن أقل شىء يشبعهم وأنهم يفسحون بسرعة أماكنهم لآخرين وسرعان ما اختفى كل شىء . ركبنا الجياد من جديد مع البدو وتفرقنا كأصدقاء قدامى بعد أن تبادلنا التحية العربية علامة على المودة ، وهى عبارة عن التلامس عدة مرات باليد اليمنى ووضعها عدة مرات فوق الصدر مع قول . خذ بالك من نفسك ، حماك الله ؟ وهى مجاملة لا يمل المرء مطلقا من ترديدها .

منذ ذلك اليوم وأنا أعود على الدوام لرؤية الطرابين ، ولقد أخذت عنهم معظم الأفكار التى أدونها اليوم . وعندما كلفت بعد ذلك بعمليات

---

(١٧) القلل آنية فخارية ، غير مطلية ، تنسغ المياه من خلال مسامها ، وتوضع فى الظل فى تيار الهواء ، ويؤدى البخر الذى يحدث فوق جسمها الخارجى الى تبريد المياه التى تحويها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كثيرة جعلتنى اجتاز صحراوات مصر السفلى أو العليا واتتنى الفرصة أن اتعرف على قبائل أخرى ولاحظت فى كل مكان نفس العادات ونفس السمات والموارد والاحتياجات المتشابهة ، ومع أن هذه الجولات كانت مرهقة بالنسبة لى ، فإن رغبتى فى التعرف جيدا على هذه الشعوب المفردة — كانت تجعلنى اقوم بها بسرور ، واضيف بأننى كنت على الدوام أتوغل فى الصحراء رغم أنه كان ينقصنى تقريبا كل شىء ، اذ لم أكن احمل معى الا قليلا من البسكويت وبعض البلح وقدرا من الماء يكفى لكى لا أهلك من العطش ، وكنت افضل ذلك على أن أبقى فى مدن مصر وسط الوفرة والرخاء فجو الصحراء صحى لدرجة قصوى ، ونادرا ما يبلغها الطاعون ، اما أمراض العيون فقليلة هناك ، ويكاد يكون الجدرى هو المرض الوحيد الذى ينبغى على المرء أن يخشاه فى الصحراء. وبالرغم من هذا الجو الصحى ، الذى لا يقدر بثمن بالنسبة لأحوال المناطق المجاورة فانه من العسير علينا أن نقتنع أن رمالا قاحلة كهذه يمكن أن تقتسم الى ملكيات مميزة ! ومع ذلك فلقد اقتسمت القبائل العربية هذه الرمال ، كما انها تكن لهذه المناطق الموحشة لحد الرعب نفس مايكنه المواطن الفرنسى من الحب للحقول اليانعة ، والظلال الوارفة فى وطنه، وهم ينافحون ويذودون عنها ضد العدو بنفس القدر من الجدارة التى تدافع بها الأمم الأخرى عن أراضيها شديدة الخصوبة . وامتلاك بئر هو على وجه الخصوص كما كان فى زمن البطاركة العبريين أمر بالغ الأهمية ولابد أن ندرك بأن الحدود فى بلد ليست مزروعة ولا تقطعها الأنهار أو مجارى المياه ، كما لا تغطيها المبانى والمنشآت ستكون بالضرورة عسيرة التحديد . لذلك تتولد على الدوام الاحن ، بين القبائل من أجل المراعى ومن أجل المكوس التى تفرض على القوافل ..

وتبرق السماء اللازوردية بالضوء خلال النهار ، كما أنها شديدة الصفاء خلال هداة الليل ، ومع ذلك فالأمطار تسقط على المناطق الجبلية بقدر أكبر قليلا من القدر الذى تسقط به فى بقية أنحاء مصر — وهو قدر ضئيل — كما أن رياح السموم تعكر فى بعض الأحيان صفاء الجو .

وتهب السموم أو الرياح المسممة من الجنوب الغربى ، وسرعتها ليست ثابتة ، فهى تسرع وتبطىء من لحظة لأخرى ، وترفع معها الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسافة جد عالية دوامات الرمال التى تردم ــ كما حدث أكثر من مرة ــ قوافل ، بل جيوشا بأكملها ، وينسب الى هذه العواصف الهوج سبب ضياع الجيش الذى ارسله قمبيز لتأديب سكان واحة آمون «سيوة» وهذه الدوامات الضخمة ، وهى نادرة لحسن الحظ ، اقل حدوثا فى صحراوات مصر الشرقية عنها فى صحراواتها الغربية حيث الرمال هنا اكثر حركة ولكن السموم ، حتى عندما لا تثير أية دوامات أمامها تعد كارثة رهيبة ، اذ هى محملة على الدوام بالرمال الدقيقة والساخنة، وهى تحجب ضوء الشمس ، وتعطى للجو لونا كابيا ، وتصل بالحرارة الى درجة غير محتملة ، وتجفف النباتات بل وتقتل الانسان والحيوان مالم يتجنبوا فى لحظة هبوب الزوابع أن يتنشقوها وهم يغطون وجوههم أو يستديرون عنها برءوسهم .. وهذه الخواص الضارة والشريرة لهذه الرياح هى التى جعلت الناس يطلقون فى الصحراء عليها اسم السموم، وهى تسمى داخل مصر ــ حيث هى اقل خطورة ــ الخماسين ذلك أن الناس يشعرون بهبوبها لمدة الخمسين يوما التى تواكب الربيع .

وهناك ظاهرة أخرى تقدمها الصحراء ، وهى تلك التى وصفها وشرحها المسيو مونج بذلك الوضوح الذى هو صفة مميزة لكل انتاج هذا العالم الشهير .فهناك يظن المرء انه يرى على بعد حوالى الفرسخ مساحة هائلة من المياه . بل ان الأجسام التى ترى على هذا البعد ترى صورا معكوسة لها فى أسفلها ، انه السراب كاملا ، وكم من المرات هلك مسافرون بؤساء استدرجهم هذا المظهر الخادع ، فهلكوا فى ميتة قاسية وهم يسعون الى الارتواء من عطشهم من هذه البحيرة ــ الوهم التى تتراجع امامهم على الدوام ، فى حين يظن زملاؤهم فى مؤخرة الركب أن هؤلاء قد وصلوا الى تحقيق بغيتهم ، ويغبطونهم على ما يظنونهم قد وصلوا اليه . وتعود هذه الظاهرة الى انكسار الضوء عند اختراقه للطبقات السفلى من الهواء الذى تتخلخل كثافته على سطح الأرض بفعل حرارة الرمال .

وتستخدم الغزالة الرشيقة ، ذات الخفر ، والحياء والعيون السود اليقظة ، فى معظم الأحيان كصورة يرسمها العاشق العربى لمحبوبته الجميلة ، أما النعامة السريعة ؛ والحرباء البطيئة ، فهما الحيوانان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوحيدان اللذان رأيتهما فى الصحراء (١٨) ، وفى معظم الأحيـــان ، كنا نرى حول الخيـــام كلابا قوية البنية ، كستنائية الشعر ، لا يملكها فرد بعينه ، وانما تعيش فىحالة شبه وحشية وهذه لاتصاب مطلقا بالسعار، على الرغم من الحراره الشديدة والحرمان شبه التـــام من المياه ، وهى تعيش على جثث الحيوانات الميتـــة والقاذورات الدنسة .. الأمر الـــذى يساهم فى الحفـــاظ على صحية الجو من حول المخيمات ، وبالاضـــافة الى ذلك فان هذه الكلاب التى تستطيع أن تميز الأغراب من أبناء القبيلة تعد حراسا أماميين تسارع عن طريق نباحها بتقديم الانذار عندما يلوح اى خطر ، وتوجد كذلك عند بعض جماعات من العربان كلاب سلوقية « كلاب صيد » من سلالة جميلة .. لـــكنها لا تعيش طليقة مثل الأولين ، فلهـــا سادة يمسكون بها مقيدة فى معظم الأحيان ويستخدمونها فى مطاردةالنعام والغزلان .

وتضطر القوافل التى تعبر الصحراء الى دفع المـــكوس للقبـــــائل المالـــكة للأراضى التى تمر بها خوفا من أن تهاجم وتسلب أمتعتها ويؤخذ افرادها عبيدا وســـبايا او يشتتون فى الصـــحراء ، ومع أننـــا كنا على الدوام نستنكر هذه العـــادة ، الا أنها فى حقيقة الأمر تتفق كثيرا معنظام الضرائب عند بقية الأمم ، أليست لنا نحن أيضا قوانين صارمة بخصوص جوازات السفر وتحصيل الجمـــارك على البضائع الأجنبيـــة التى تعبر اراضينا ؟ ألسنا نعـــاقب بالمصـــادرة والسجن والسلاســـل بل وبالموت نفسه أولئك الذين يلجأون الى الخديعة أو الى القوة للتملص منها ؟

وأرض القبيـــلة ملك مشاع لـــكل الأفراد الذين يكونونهـــا . واذا كانت هذه الأرض جرداء ، فان كل واحد يقود قطعانه الى حيث يشاء ، أما اذا كانت خصبية فانهم يستزرعونها بواسطة الفلاحين أو يستزرعونها فى غيبة هؤلاء بواسطة أسراهم وعبيدهم وخدمهم ، ويقسم العائد بعدالة شديدة بين الأسر المختلفة .

---

(١٨) توجد فى الصحراوات حيوانات مفترسة أخرى مثل ابن آوى والذئب الأفريقى والضبع ... الخ ، لـــكننى لا أتحدث هنـــا الا عمـــا شاهدته بعينى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبخلاف الصحراء التى هى ملك كامل لهم ، ينظر البدو لأنفسهم كحكام شرعيين لمصر ، وينظرون الى الأتراك والمماليك باعتبارهم غاصبين ونتيجة لذلك فقد اقتسموا هذه المنطقة ، واخذت كل قبيلة تحصل فى المنطقة التى آلت اليها بعض الضرائب العينية ، وبذلك يتخذ الفلاحون التعساء لأنفسهم حماة يدافعون عنهم ضد القبائل الأخرى التى ترغب فى انتهابهم ، بل ويشترون كذلك فى معظم الأحيان ملاذا يلجأون اليه عند الحاجة للاحتماء من طغيان الحكومة ومن الجشع النهم لسادتهم .

اما الملكيات الخاصة عند العربان فهى الأثاث والآنية والقطعان ومنتجات بعض المهن ، مثل صناعة بعض الأنسجة الخشنة والزبد والجبن وبيع الجياد والجمال واكراء الجمال للقوافل — كما تتمثل هذه المهن ايضا حسب المكان فى تجارة بعض البضائع مثل الفحم ، والسنامكى ، والملح البحرى والأسماك المقددة والنطرون والصودا والشبة والجدائل المستخدمة فى صناعة الحصر .

ويقتنى العرب كثيرا من الجمال ، وهذا الحيوان ذو نفع كبير لهم ولولاه ما استطاعوا سكنى الصحراوات ولاستسلموا « لحياة الخضوع » لذلك يقال فى معظم الأحيان ان الله — او الطبيعة — قد خلقه خصيصا كى يجعل الصحراوات قابلة لسكنى البشر . وهو قول لا يعادل خطأه الا الغرور البادى فيه (١٩) .

---

(١٩) تعيش الجمال على نحو طيب فى الصحراء لأن تكوينها يجعلها لا تحس بحاجة لا تستطيع الوفاء بها ، لكن القول بأنها خلقت خصيصا من أجل الصحراء ، بل ولكى تجعل الصحراء آهلة بالانسان ، انما هى فكرة تصدر عن غرور كبير . ومع ذلك فهذه الطريقة فى التعبير والشروح قد تبناها فلاسفة وعلماء طبيعة يتميزون عن أولئك الذين تركوا أنفسهم ينساقون بفعل مشاعرهم الى تجاوز الحقيقة الباردة . وعندما يتأملون فى تفاصيل تطابق مدهش لحيوان أو نبات فانهم يقولون لأنفسهم : ان الطبيعة الخيرة قد منحته هذا العنصر كى يؤدى هذه الوظيفة الأساسية للحياة أو لقد أعطته هذه الوسيلة للدفاع كى تمنعه من الانقراض على يد أعدائه ! الا يكون من الأبسط أن نقول : انه يعيش لأن له هذا العضو أو لأن له هذه الوسيلة للدفاع فقد استطاع أن يقاوم أعداءه ، ولولا ذلك لما ظهر مطلقا على ظهر الأرض أو لكان سرعان ما اختفى منها ، فأين كانت هذه الجودة الخيرة المزعومة للطبيعة بخصوص الأنواع التى انقرضت بشكل تام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما يجد العربى نفســه بلا ماء ولا حب ولا غطاء ، طريدا فى الصحراء ، وعندما يرى جيــاده وابقاره وخرافه تنفق من التعب أو الجوع فلسوف تبقى له جماله ولسوف تكفيه . فهى تحمله على ظهورها ، وتطعمه من لبنها وتتحمل الجوع والعطش وتواجه هذه العزلة الشاسعة لتحميه شر أعدائه .

وتكاد الجمال لا تحتاج الى الراحة ، وهى تقرض فى طريقها بعض النباتات الشوكية التى قــد يعافها اى حيــوان آخر ، ويطعمها العربان عادة بالقش المهروس « التبن » والفول ونوى البلح . وفى أثنــاء رحلة قمت بها فى عرض الصحراء لم تشرب الجمــال التى كانت معى الا فى اليوم السابع .

وليس للجمال الكبيرة سوى ســنام واحد ، ومشيتها المعتــادة هى : الخطو ، ووقع عدوها ثقيل ولا يمكنها أن تستمر فيه لوقت طويل ، ويقودها العربان بواسطة زمام « مقود » وعندما تسير الجمال فى شكل قافلة فانهم يربطونها الواحد بالآخر من ذيولها ، ويستطيع شخص واحد فى العــادة أن يعنى بستة جمــال ، وتحمل الجمــال على ظهورها كل الأحمال ، لأن الانسان لا يعرف فى الصحراء لا العربات ولا الزلاجات ، وينقسم الحمل على جنبى الجمل بواسطة برذعة مزودة بالحبــال ، ومن النادر أن يبلغ وزن الحمولة أكثر من مائتى كيلوجرام الا اذا كانت المسافة التى على الجمل أن يقطعها بالغة القصر .

ومتوسط السرعة لقافلة تتكون من مائة جمل محملة على هذا النحو ، وتسير بخطو معتاد ، حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة متر فى الساعة ، وقد يقطع الجمل اذا سار بمفرده أكثر من ربع هذه المسافة زيادة على ذلك فى هذه المدة نفسها .

وثمة نوع أكثر ضــعفا وأكثر رشاقة وأكثر خفة عند الجرى يسميه العرب ، الهجين ، ولا يستخدم هذا الحيوان الا للركوب ، ويقوده العرب بواسطة حبل مربوط فى حلقــة مدلاة من منخاره ، وليس له الا ســنام واحد كالجمل ، يوضع عليه السرج ، وعدوه فى العادة أكثر رقــة ويكاد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبلغ عدو الحصان ، ومهما كان عدو الحصـان بالغ السرعة فان الهجين سيلحق به اذا ما طال الطريق .

وعندما يراد تحميل جمل أو ركوبه فان الانسان يضطر بسبب ارتفاعه الى جعله ينيخ ، ومن اجل ذلك يعودونه على طاعـة بعض الأوامر التى يبلغونها اليه عن طريق اطلاق أصوات خشنة من الحلق تكاد تشبه صوت الانسان عندما يتغرغر ، ويبدأ الحيوان أولا بأن يطوى الركبتين ، ويمد ساقيه الأماميتين تحته ثم بدع الساقين الخلفيتين تنزلقان الى الامام لتحبدا بعد ذلك مكانهما الى جانبيه ؛ وتلامس بطنه الارض .

وعلى المرء عندما يركبه أن يتخذ مكانه بمهارة على السرج وأن ينحنى الى الخلف والى الأمام ، لأن الجمل ينهض — ما أن تضـع قـدمك فى الركاب — بشكل فجائى على قدميه الخلفيتين ثم على قـدميه الأماميتين بطريقة تجعلك تميل أولا ناحيـة رأسه ، الى الأمام ، ثم تلقى بك بعـد ذلك الى الخلف . وعلى المرء أن يعرف كيف يسيطر على هاتين الحركتين المتعارضتين ، وهمـا شديدتان . وتتتابعان بسرعة . ولحم الجمال طيب المذاق ، ويكاد يكون له نفس مذاق لحم البقر ، وهو مفضل بشكل خاص على لحم الحصان .

وتتمتع الخيول العربية الأصيلة بسمعة طيبـة ، وهى تنقسم الى جنسين متميزين : العبـادية والنبيلة ، وتسمى الأخيرة : حيل ، وهى اكثر قـدرة فى صحراوات مصر منها فى صحراوات الحجاز وسوريا . ولا يمكن لحصان أن يعرف بأنه نبيل الا اذا كان أبوه وامه كذلك فى وقت معـا ، وقول مثل هـذا الرأى فى حصان ما سيكون له أثره الـكبير فى تقـدير سعره فان النـاس يحرصون عنـدما يراد اتصال فرس نبيلة بحصـان من نفس النوع أن يسجلوا بذلك حجة فى حضرة شهود ، وتصحب هـذه الحجة على الدوام حركة بيع الخيول ، ويعلقها النـاس فى رقاب الخيل داخل جراب صـغير من الجلد ، وهى تحتوى عادة على كتابة غامضـة مخصصة لجلب السعادة للحصان وفارسه . والعرب غير معتـادين على الاطلاق أن يخصوا خيولهم ، أو أن يقطعوا ذيولها أو آذانها ، اذ لا يلجأ النـاس الى تشويه هـذا الحيوان النبيل على هـذا النحو الا فى اوروبا ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالأسلوب الذى سيطر بشكل مستبد فوق هذا الجزء من العالم قد أخضع الحيوانات نفسها لهفوات شاذة .

وابتداء من سن الـ ١٨ شهرا ، يأخذ العرب فى تعويد خيولهم حمل الركاب ، وعندما تبلغ هذه سن العامين يدعون أطفالهم يركبونها ، ولا تستطيع الخيل فى هذه السن الا أن تخطو أو أن تعدو ، وهى تأكل فى النهار القش المهروس وعند غروب الشمس تأكل من ٥ــ٦ أرطال من الشعير ، ولا يقدم لها العشب مطلقا ، وهى لا تشرب فى اليوم الا مرة واحدة ، ويقل هذا بثلاث مرات عما يشربه الحصان الفرنسى .

وتضعف ساقا الخيول العربية الأماميتان وهى فى سن مبكرة . ويعود ذلك لسببين رئيسيين : الأول ، هو الوضع المتقدم للغاية للسرج ، والثانى هو الطريقة التى يوقفبها العرب خيلهم وهى تجرى بأقصى سرعة، اذ يجذبون اللجام بقوة ، فيرفع الحصان ساقيه الأماميتين ، ويزحف على قدميه الخلفيتين فتصطدما بالأماميتين . وهكذا يتوقف فجأة وهو فى أقصى سرعته .

ويستخدم العربان شكائم جافة لحد كبير ، ولذلك فانهم يضطرون عندما يدفعون خيولهم بأقصى سرعة أن يطلقوا أيديهم كلية ، وعندما يستحثونها على مواصلة السرعة فانهم يضايقونها لحد كبير .

ولسرج العربان ، وهو نفس الحال فى السرج الذى يستخدمه المماليك ، مسند يبلغ ارتفاعه من ٨ ــ ١٠ بوصات ، وهو يشبه ظهر الأريكة الى حد كبير ولهذا السرج فى مقدمته قربوس فى سمك الذراع ، يرتفع رأسيا من ٥ ــ ٦ بوصات ، أما الركاب فيتكون من لوح من النحاس ، مقوس من الجانبين بطريقة تجعل منه متكأ للقدم . مسطح الشكل ، وأكثر طولا وعرضا من القدم نفسها وهو محدب بعض الشىء وشكله رباعى ، وزواياه التى تجاور خصرى الحصان مقواه بالصلب ، وتغنى هذه عن استخدام المهاميز .

وهذا النوع من السروج مناسب للغاية . فعندما تكون ساقا الفارس فى ركابين قصيرين على هذا النحو ، فانه يستطيع أن ينهض واقفا عندما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يجرى بأقصى سرعة أو عندما يقاتل . وحيث أنه يستطيع أن يستند الى مسند سرجه فانه يجد نفسه مهما يكن مقاتلا غير كفء ، طليق الحركة ، مسيطرا على كل حركاته (٢٠) .

وعندما ينتهى العربان من سباق عملوه فانهم يحرصون قبل ربط خيولهم على أن يسيروا بها فى خطو بطىء لمدة نصف ساعة حتى ولو لم تكن هذه الخيول تشعر بالحر من جراء الجرى ، ثم يدعونها مدة نصف ساعة بلا طعام .

ولا يرى المرء عند العربان لا جيادا كبيرة الحجم ولا جيادا صغيرة . اذ تكاد تبلغ قامة كل منها ٤ اقدام و٩ بوصات ، ويقابل المرء بعضا منها — كما يحدث فى كل مكان — وقد نز ع عنها السن والمرض كل حيوية ، لكنه لن يقابل مطلقا كما هو الحال عندنا حصانا شائها أو رخوا لا يستطيع برغم عافيته وقوته ان يعدو ، اذ هو ثقيل لا يفيد الا فى جر العربات أو حمل الأثقال . جرب وضع سرج على ظهر حصان عربى عجوز يدور بالطاحونة منذ سنوات عدة ، عندئذ ستراه ينهض ليعدو الى حلبةالسباق ، ويضع نفسه فى خدمة سيد جديد ، يمكنه أن يظل يستخدمه — مادام به رمق من حياة — كحصان عظيم .

والحصان العربى ، فى معظم الأحيان ، بالغ الرقة ، وأعتقد أن وداعته تعود جزئيا الى القيود الكثيرة التى تحمل بها سيقانه منذ سنه الباكرة ، وقد كنت فى كثير من الأحيان أرى عربيا متعبا أمام حصانه ممسكا اياه من رسغه ، ويدخن بهدوء **نارجيلته** ، بينما يظل الحصان ، الذى أهاجه القرب من بعض الفرسات .. بلا حراك ، يعبر فقط بصهيله عن نفاد صبره .

وتعرف الخيول العربية بدقة سيقانها ، وصغر حوافرها وخفة

---

(٢٠) يدين المماليك بجزء كبير من هذا التفوق الملحوظ ، الذى كان لفرسانهم على فرساننا فى بداية اقامتنا فى مصر ، لشكل سروجهم ، فقد كنا على نحو ما نقاتل ونحن جالسون، وكانوا هميقاتلون وهم واقفون، فكانت المعركة بذلك غير متكافئة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رأسها وبقلة سرعتها عن سرعة خيولنـــا التى تستخدم فى السباق ، ومع ذلك فالخيول العربية أكثر مرونة بشكل لا يمكن المقارنة معه ، فهى تعدو فجاة وبأقصى سرعة اذ بامكان المرء أن يضعها على مبعدة ٦ ـــ ٧ خطوات من حاجز ما ثم يجعلها نعبر عـــدوا هـــذا الحاجز بعـــد هـــذه المسافة الصغرى، كما أن بامكانه أن يجعلها تدور حول نفسها وفى كافة الاتجاهات بأيسر من اليسر وأن يضيق من الدوائر التى ندور فيهـــا لحـــد يبعث على الدهشة دون أن يقلل ذلك من سرعتها، وهذهالمرونة المذهلة وكذا السهولة القصوى التى يوقفونها بها فجاة عندما تندفع حتى ليلامس بطنها الأرض، تجعلانها ثمينة لحـــد لا يقـــدر بثمن فى حالات القتـــال جسدا لجسد ، ولذلك فهى مرغوبة بشكل كبير من الأمم المجاورة ، وهكذا فتجارة الخيل واحدة من أهمتجارات العرب ، ولهذا السببيفضلون الاحتفاظ بالفرسات، ويقال انهم يفضلون ركوبها عن ركوب الجياد لأنها اقل صـــهيلا ، كما أن أسفارها الليلية أقل صخبا ، وهذه ميزة لا يمكن اهمالها عند شعب تعتمد حروبه على المفاجاة الشديدة لعدوه .

والبدو قليلو التعليم، ويكاد لايقابل المرء من بينهم سوى بعضالشيوخ الذين قد يعرفون القراءة ، ومع ذلك فان لديهم الكثير من تلك المعـــارف التى يعطيها طول الملاحظة، فهم يعرفون على سبيل المثال كيف يسترشدون بالنجوم وهم يسيرون فى الليل وســـط أراضيهم الجرداء والمتشابهة والتى لم يشق بها طريق واحد ، وهم يحددون الوقت الذى تبلغ فيـــه الشمس درجة الزوال ، ويقسمون النهار بواسطة قياسهم لطول الظل ، وتتطابق القاعدة التى يستخدمونها بحسب الفصول المختلفة لحد كبير مع خط طول البلد الذى يسكنونه ،ولهم بعض الممارسات فى مجال الطب ، كما لايمكن على الاطلاق الاستهانة بفن البيطار عندهم ، وهم يعرفون عادات حيوانات الصحراء والنباتات التى تمتاز ببعض الخاصـــيات النافعة ، وقبل أن يكتشف علماء النبـــات عنـــدنا بوقت طويـــل اجنـــاس النبـــاتات ، كان العرب يستخدمون تسميات مذكرة ومؤننة لتمييز اشجار النخيل التىلاتنتج ســـوى الزهور من تلك التى تنتج الزهور والثمار ، وكانوا يعـــرفون أن ذرات الأوليات اللازمة لاخصاب الأخريات ، وعندما يريدون أثنـــاء حملاتهم السريعة ايقاع الأذى بأعدائهم فانهم يكتفون بقطع النخلات الذكور وهذه على الدوام قليلة العدد .

والعرب البدو ذوو خيال مطبوع ، متوهج وحاد ، وهم يتحدثون على الدوام بأسلوب مليء بالكنايات والاستعارات ، فهذه اللغة هى لغة طفولة الشعوب ، كما انها لغة طفولة الرجال : قليل من التجـريد وكثـير من الصور . وعند الشعوب التى نسميها **نحن** شعوبا متوحشة فان الانسان لا تضايقه الا الأحداث ، اذ ليس هنـاك هذا الحشد من القوانين والقواعد والقيود من كل نوع ، تلك التى تعوقه على الاطلاق عن استخدام ملكاته، بل انه هناك ليس مضطرا للرضوخ للأغلبية ، فحيث أن احتياجاته قليلة ، فانه يهرب اذا ما كدره أمره ، وبامكانه أن يجد لنفسه مأوى فى اى مكان وفى كل مكان ، كما أن مشاعره لا يصيبها ذلك الانهـاك ، الذى يصيب مشاعرنا ، بفعل هـذا التوافق والتطابق فى الحيـاة التى ، وان كانت لا تخلو من قلاقل ومضـايقات ، فانها على الأقل خالية من تلك الأخطار الـكبرى التى نجتازها دون اختيار منا لأفعالنا . اما عنـدنا نحن ، فان البعض منا تشغلهم شئون الدفاع المشترك ، بينما يقوم الآخرون بالزراعة، ويقوم فريق ثالث باعداد الخبز الذى يطعمنـا والأقمشـة التى تكسونا، فنحن باقتسامنا العمل على هذا النحو نزود انفسنا دون شـك بمبـاهج اكثر ، لـكننا فى نفس الوقت نستعبد أنفسنا . وعلى العكس من ذلك فالانسـان فى المجتمع البدائى قليلا ما يعتمد على رفاقه . وحيث انه يشعر فى كل لحظة باحتيـاجات كبيرة وبأخطـار كثيرة ، فان روحه أكثر قلقـا وعواطفـه اشـد جموحا فلماذا اذن لاتعكس لغتـه أسلوبه فى الحياة. انه نادرا مايستخدم الكلمة بمعناها الأصلى ، الكلمة المجردة ، انما هـو يكدس الصـور والتشبيهات ، لأنه انما يعبر عن عواطفـه هكـذا .. وهكذا أيضـا فهو غير معتـاد على قمع عواطفه هو .. انه لن يقول « أن هذه السيدة جميلة ، وهى تتصف بهذه الميزة أو تلك ، وسـأحميها ضـد أعدائها » لـكنه سيقول لنفسه : « انها جميلة كأول ضوء نهار ، كالقمر عندما تنعكس صـورته على سطح البحار ، لها رقة النسيم العليل فى قيظ الصيف ، يتدلى شعرها على كتفيها العـاجيتين فى تموجات ماء رقراق ، ان هـذا الشعر ليشبه اغصـان نخلة غضة ، وتشبه عينـاها عيون الغزلان ، أما صـدرها فيشبه يحمورين « نوع من الأيائل » توأمين يرعيان بين الزنابق : سأظل بجوارها كلبؤة غضوب تدافع عن صغارها ،

وسأرعاها بسيفي ، وسأجعل منه بمثابة حصن لها يعز اقتحامه .. الخ .. الخ » .

وهذه اللغة ، التي ليست عند الشعوب المتحضرة سوى لغة عدد صغير من الأشخاص الموهوبين بخيال متقد ، هي لغة الغالبية عند العرب الذين لا يزالون برغم أصلهم الضارب في القدم في طور طفولة الحضارة، والذين تشبه حياتهم حياة الشعوب الأولى .

وقد يجادلني البعض دون شك بأن الأسلوب المجازي لا يزال هو أسلوب كل أمم الشرق التي وصلت الى مرحلة انهارت فيها حضارتها وخضعت للاستبداد المطلق ، هذا صحيح ، لكن هذه ليست المرة الأولى التي تتشابه فيها الشيخوخة مع الطفولة مع الاختلافات الملازمة لكلا الطورين من الحياة ، فكلا الحالتين يسهل تحديدها ، انها نفس الموجة من الأفكار التي تتدافع في الصدور لكنها في الحالة الأولى «الطفولة» حية مبهجة ، بينما هي في الحالة الثانية متهدجة وحزينة ، ونفس الشيء يمكن أن يقال بالنسبة للاندفاع غير المنتظم للخيال عند الانسان الحر والذي نلاحظه بسهولة بين تلك اللغة المليئة بالتكلف ، وتلك التي تمالىء المخاوف . ففي الحالة الأولى ، تعبر اللغة في محسناتها عن تلك الرغبة التي يريد المرء أن يبلغها ، بينما تظل اللغة في الحالة الثانية تحوم وتدور دون أن تجرؤ على الاقتراب مباشرة من أهدافها .

وحب البدو للشعر هو نتيجة طبيعية لكل ما انتهينا اليه الآن ، ويتمتع شعراؤهم بهذا الاحترام والتقديس الذي كنا نكنه في الماضي لشعراء البطولة عندنا ، ذلك أن شعراء العرب اليوم هم ما كانه أولئك في الماضي ، أي موزعو الأمجاد .. وأي امرىء هذا الذي لن يكون مولعا ببلوغ المجد ؟ وفي بعض الأحيان تخصص اشعارهم للحب ، وغالبا ما يجلس الواحد منهم أمام خيمته وقت الغسق ونسيم المساء ينعش النفوس ، يدعوها للمباهج السهلة ، ويغريها بالترويح بعد نهار شاق، وعلى النغمات المنبعثة من أوتار ربابته يهرع العربان جماعات ويجلسون من حوله على الرمال ، متشابكي السيقان ، يعيرونه آذانا صاغية ، أما هو ، فبعد أن يجرب ببعض النغمات آلته لبضع لحظات ، يبدأ ، وعيناه

شاخصتان نحو السماء ، أو خفيضتان الى الأرض ، وفى هيئة من يحاول أن يتذكر وقائع الأزمنة الخوالى ، يبدأ يغنى انتصارات قبيلته ، وللمفاخر التى صنعها شجاع شنهم ، أو لتلك المآسى التى حاقت بعاشقين (٢١) ، وكم من مرة لم الاحظ فيها وانا جالس بينهم ان الشمس قد اختفت وراء الأفق فى الصحراء ! كانت اشعة الغسق تضىء الوجه المتقد للشاعر المغنى وتضع فى دائرة الضوء حركاته المعبرة ، بينما كان المستمعون يمدون اجسامهم الى الأمام ، ويصغون فى صمت ، وبداوا جميعا وقد استغرقتهم الرواية التى يقصها يتركون دون ان يدروا نارجيلتهم الطويلة ، واخذت ترتسم على وجوههم البرونزية أمارات الرقة والاعجاب والفخار ، ولنتخيل كل هؤلاء الرجال المتدثرين فى خيلاء على أفضل نحو يستطيعون تتدلى منهم لحيتهم السوداء وتفتر شفاههم عن اسنانهم العاجية البيضاء وتمتلىء عيونهم السوداء بحيوية دافقة ، يهز شالهم وعباءتهم وأرديتهم الطويلة نسيم الليل ، وبالقرب منهم تربض أسلحتهم ، وتحيط بهم من كل جانب تلك الصحراء الصموت ، بينما لايقطع صمت الطبيعة الا صوت ذلك الرجل الملهم .. وبعيدا بعيدا ، يأتى صوت صهيل الخيول المسرجة استعدادا للمعارك ، وهى تضرب الأرض بقدمها ، معبرة عن ضجرها بقيودها ، بينما تنيخ الجمال الصبورة على ركبتيها وتمضغ فى وقار بعض النباتات الشوكية تحاول أن تصل الى الأسماع شكاياتها الحزينة . ولنرسم وسط هذه اللوحة ، رجلا فرنسيا بملابس بلاده ، مقبولا بكل ثقة ، وعلى الرحب والسعة ، من كل رجال القبيلة .. عندئذ ستتكون لدينا صورة لمشهد صحراوى كان على الدوام مثار فضولى .. وعندما كانت تتوقف الأغنيات ، كانوا يشعلون من جديد نارجيلاتهم من الموقد الموضوع وسط الدائرة ، وهناك فى غلاى كبير كانت تعد القهوة ، وتدور اقداح مليئة بهذا المشروب من يد ليد

---

(٢١) وهكذا فعن طريق اغنيات تنتقل من عصر لعصر ، نقلت الشعوب تاريخها ، من قبل أن يخترع الانسان هذا الفن الدءوب ، فن تجسيد الكلمات بالرسم ، ومخاطبة العين بالكتابة ، لذلك فقد كانت الكتابات الأولى شعرية ، لأنه كان على الانسان أن يبدأ بنقل ما كان يعرفه من الذاكرة ! ولأن الكلمات — التى كانت تغنى على الدوام — قياسا على ذلك كانت كلها منظومة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لتعيد الى المرء قوته المنهكة ، وتزوده بخدر لذيذ دون أن نغيب عن وعينا كما تفعل بنا مشروباتنا القوية .. وهكذا يعود النشاط ، وتتنبه الحواس، ويلتهب الخيال ، وتمتد السهرة أوقاتا اخرى ، ثم يتفرق الناس وفي مخيلتهم تجول ذكريات المجد ، وذكريات الحب التى تبهج الأحلام ..

ولدى العرب عدد هائل من الحكايات على نمط الف ليلة وليلة (٢٢)، يلعب فيها العمالقة والجنيات دورا كبيرا ولا ينبغى على الاطلاق ان ندهش من ذلك فحياة المقاتلين مليئة بالمغامرات ، وهذا هو الأمر الذى يحدد ميلهم نحو الحكايات الرائعة ، أليست لدى الجنود الفرنسيين ، كذلك ، حكايات من هذا النوع ، لا يغيب في واحدة منها ذكر الشيطان أو السحرة (٢٣) .

---

(٢٢) اذا كانت الحكايات التى جمعت تحت هذا العنوان تبهج القارىء العادى ، فانها مثار اهتمام أكبر ، لأولئك الذين زاروا الشرق ، فالتقاليد والعادات ، والأثاثات ، بل والبلد نفسه ، كل ذلك قد وصف بأكبر قدر من الدقة والصدق .

(٢٣) فى معسكراتنا ، وبعد أن يختار كل امرىء المكان الذى سيهجع فيه وبعد أن تصف الحقائب والأمتعة على الأرض لتستخدم كمخدات ، يرقد الجميع ثم تصدر عن احد الجنود صيحة عالية ، كما لو كان ليقول .. هل تريدون أن تصغوا الى ؟. فاذا ما سمع من كل الأركان الصيحات التى تعلن الموافقة يبدأ ، كان ياما كان فى سالف الأزمان .. وفى هذا النوع من الحكايات ، يدور الأمر حول أميرة شابة جميلة كانت تحتقر كل السادة الشبان المتأنقين فى بلاطها وكذلك كل رجال الطبقة الحاكمة ذوى النفوذ ، وتصبح عاشقة لجندى بسيط وتتزوجه وتغدق عليه الشرف والجاه والثروة ، ويتوسع الراوى فى امتداح الشجاعة والميزات الأخرى ، فيجعله يصارع ويهزم الشيطان نفسه، ويشرب براميل من الخمر دون أن يغيب وعيه ويصل به لمرتبة هيرقل فى غرامياته ، ويتفنن فى وصف مفاتن محبوبته بأسلوب حسى لايخفى منها شيئا ، ويصحب ذلك كله بايمان مغلظة ، وهذا ما يعجب الجنود، ذلك أن خيالهم سوف يمنيهم للحظات بمصير مشابه لمصير رجل يشبههم، ولكن النعاس سرعان ما يتغلب على مباهج الرواية بسبب تعبهم ،ولهذا السبب يعنى الراوى بأن يتأكد أنهم يصغون اليه بأن يطلق من لحظة لأخرى نفس صيحته الأولى ، وتطمئنه صيحات المستمعين ، وعندما تصبح الصيحات التى ترد عليه قليلة أو عندما لا تعود تسمع فانه سرعان مايستغرق فى النوم مثلهم .

وقد يدهش المرء للوهلة الأولى من تلك اللوعة والرقة اللتين يبثهما الشعراء العرب فى تعبيراتهم عندما يتغنون للحب ، ولكن لماذا ؟ هل نريد ان نقول بأن مثل هذه العاطفة المحمودة لا ينبغى أن تسود عند ابناء أمة لا تختلف فيها حياة النساء عن حياة العبيد ؟ اتساءل هل يمكن للرجل والمراة هكذا خاضعة لمشيئته أن يجعل منها مالكة لمصيره .؟ قد يبدو أن مثل هذه الأسئلة تقوم على أسس قوية لكن انعام الفكر سرعان ما يجعلها فى حكم العدم ، حقا ان النساء عند أمم الشرق يحيين فى عزلة تامة حيث يحرم عليهن مجتمع الرجال ، وعندما يخرجن فثمة حجاب صفيق يخفيهن عن كل النظرات . لهذا كان من المفترض أن تكون مغامرات الحب هنا شديدة الندرة ، لكن كثرة وزيادة التحفظ والاحتياطات القوية ضد اقوى العواطف وابعدها عن الخضوع والسيطرة .. كل هذا يجعلها اكثر قوة وحدة ، فاذا ما لمح شاب اثناء لقاء عابر ملامح سيدة جميلة أو صورها له خياله على هذا النحو ، فان الصعاب ستؤجج رغباته وتبدأ التعبيرات الملتهبة ترسم كل مايشعر به .

وفى واقع الأمر ، فماذا يهم أن تكون النساء اكثر أو اقل ارتباطا بأزواجهن ، ينلن احتراما اكبر أو أقل فى محيط الأسرة ، ذلك أن الأمر ليس أمر من يمتلك ، ولكن أمر من يغتبط بالتملك ، ويبالغ فى قدرة المملوك ويتحدث عنه بحماسة مشبوبة .

أما عندنا ، فحيث أننا نرى اكبر عدد من النساء ونعيش معهن فى مجتمعهن فلابد أننا قد تحصنا ضد مفاتنهن ، ان لنا بالقطع رغباتنا لكنها أكثر غموضا ، واذا ما تسلطت هذه الرغبات على المرء منا لبعض الوقت وهو بمفرده فنادرا ما يطول به الأمر ، اذ سرعان ماتجذب عواطفنا مفاتن اخرى لسيدات أخريات .. وهكذا فسوف نغنى لمذاق الحب فى فرنسا ، وللواعجه عند العرب : حيث أن لتطرفات الأنين والشكوى مباهجها ..

وزيادة على ذلك فالنساء عند عربان الصحراوات عادة اكثر اعتبارا منهن عند بقية أمم الشرق ، بل لقد رأينا زوجات الشيخ يحكمن القبيلة بعد موت زوجهن ، وهناك حادثة كنا شهودا عليها تبرهن بشكل طيب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن قـدر النساء العربيات ليس مطلقا على هذه الدرجة من العسف التى كنا نظنهن عادة عليها . فقد حدث أن فاجأ بعض البدو المنصورة وذبحوا حوالى المـائة من جنود الخيـالة الذين كانوا يحرسـون هـذا الموقع واصطحبوا معهم سـيدة ايطالية كانت زوجة العريف الذى لقى حتفه فى هذه المعركة. وعندما حل السلام ، اشترطنا ضرورة ان نستعيد هذه المرأة فوافق البدو على ذلك لكنها هى التى لم تشأ أن تفيد من هذه المـادة من بنود المعاهدة وفضلت أن تبقى بينهم . وراودنا الشك فى أن الشيخ الذى تزوجها كان قـد لمحها فى شوارع المنصورة عندما دخلها ذات يوم متخفيا فى زى فلاح فهام بها حبـا حتى انه عندما عاد الى مخيمه جمع أعوانه ، واستثار حماستهم ممنيا اياهم بالمغانم والأسلاب .

وأختتم مذكرتى هـذه بأن آمل أن تكون الوقائع التى تحتويها بذات نفع ولو ضئيل ، وسيكون هذا هو الجزاء الأوحد الذى سيعود على بفضل سماحة قرائى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراســـة التـــاسعة

كيف خرج اليهود من مصر القديمة

تأليف : دى بوا - إيميه

« العنوان الأصلى للدراسة : مذكرة موجزة عن اقامة العبرانيين فى مصر ، وعن هروبهم الى الصحراء (١) ، تأليف دى بوا — ايميه مراسل المجمع العلمى الفرنسى ، وعضو شعبة العلوم والفنون بمصر ، وعضو أكاديميـــة العلوم فى تورينو ، والفارس الحائز على وسلم الشرف »

---

(١) قدمت هذه الدراسة الى شعبة مصر فى أول أكتوبر عام ١٨١٠ باعتبارها مكملة لدراسة أخرى للمؤلف حول القبائل العربية فى صحراوات مصر ، ثم سحبها المؤلف بعد ذلك ليدخل عليها بعض التعديلات ، وأرسلها الى اللجنة فى أكتوبر ١٨١٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

مقدمة

اشتهر المصريون ، فى عهد بعض ملوكهم ، بمهارتهم فى فنون القتال ؛ كما حازوا شهرة أكبر من ذلك بكثير بفضل حكمة قوانينهم ، واتساع معارفهم ، فلقد ولدت غالبية العلوم والفنون بين أيديهم ، وحين قاموا — هم — بتحضير اليونان ، فقد غدوا أساتذة لأوربا .

ولقد اختفت هذه الأمة الشهيرة ، كما اختفت مئات الأمم غيرها ،فى حين يظل يعيش حتى اليوم شعب كان عبدا للفراعنة ؛ ومع أنه قد بات مشتتا فوق الكرة الأرضية كلها ، خاضعا لكل صنوف الحكومات ، فقد احتفظ بكل عاداته وشرائعه ، ولغته وملامحه ؛ وفى الوقت الذى تجد اقوى الأمم فى أوربا نفسها غير واثقة من أصلها ، وفى حين يجهل الفرنسى الذى انتزع النصر من فونتنوى وفينا وبرلين وموسكو وروما أن كانت الدماء التى تتدفق فى عروقه هى نفسها التى تتدفق فى عروق أعدائه ، وفى حين لايعرف أكان أجداده من الفرنج أو من الغاليين ، أكانوا يقطنون ضفاف السين أو التبر او الدانوب ، فان أبسط يهودى يحوز ذلك الشىء ، الذى قد يكون مدعاة فخار للمتحكمين فيه ، أى أنه يمتلك أصلا ينتمى لجنس قديم ؛ ان بامكانه أن يقول ، سواء كان قد ولد فى بولونيا أو فى أسبانيا ، لقد كان أجدادى يقطنون حقول سوريا وصحراوات مصر فى وقت لم تكن قد وجدت فيه بعد روما ولا أثينا ولا أسبرطة ولا أى من تلك المدن التى تشكل مباهج العصور القديمة وأمجادها .

وتعود هذه الظاهرة السياسية الى قوة تلك الشرائع والمؤسسات التى أقامها موسى فانه بعزله شعبه هكذا ، وبشكل تام ، عن بقية البشر ، قد جعل من تشتته أمرا سهلا ، لكنه فى الوقت نفسه جعل فناءه كذلك

مستحيلا ؛ ان اليهود ــ منتصرين ــ لم يستطيعوا (بفعل هذه الأنظمة) أن يجعلوا من قوتهم أقوى من قوى الأمم التى أخضعوها ، أما عندما كانت تحيق بهم الهزيمة فلم يكن بمقدورهم أن يختلطوا بالمنتصرين .

وتعود غالبية النقائص التى تعاب عليهم اليوم الى حالة الاذلال التى انتهوا اليها فى كل مكان ؛ وحيث أنه لا دور لهم فى ادارة شئون الدولة، كما أنه ليس بمقدورهم أن يتملكوا الأراضى ولا أن يتمتعوا بحرية العمل الحقلى ، تلك التى تربى الروح والوجدان ، بل ولأنهم ــ فوق ذلك ــ يضطرون لأن يقيموا فى أحياء منفصلة فى داخل المدن ، تغلق عليهم بواباتها كل مساء ، وأن يعيشوا فيها مكدسين بعضهم فوق بعضهم الآخر ، والا ينخرطوا فى اى فن شريف ، فلم يعد يتبقى لهم من عمل يقومون به الا أن يشتروا وان يبيعوا ؛ أما الذهب ، ذلك الذى يمنحهم الوسائل لاذلال قاهريهم ، الذهب الذى لا يزال يعطيهم بعض ضروب المتعة ، فقد بات هو الهدف الوحيد لطموحهم ، وليست هناك شهوة تستطيع أن تتلف الانسان فى جسده وروحه أكثر من هذه .

وقد يكون من غير المجدى أن نحاول أن نثبت أن عيوبهم هذه تعود الى شرائعهم وتنظيماتهم ؛ ولنتأمل للحظة المسيحيين الخاضعين لسيطرة الأتراك ؛ فنفس الأسباب قد سربت الى هؤلاء نفس المساوىء ؛ فالانسان، ولو كان حرا مليئا بالشجاعة ، ربما يصبح ، مهما تكن الدماء التى تتدفق فى عروقه ، مخاتلا ورعديدا حين يصير عبدا مهانا .

وفى البلدان التى تحسن فيها الأفكار والفلسفات ، والديانة السمحة من قدر اليهود ، ينهض من بينهم ــ هناك ــ رجال فضلاء وأدباء متميزون ولقد رأينا فى أيامنا هذه اسرائيليين يقاتلون بعظمة تحت راية فرنسا .

اذن فعلينا الا نحط من قدر امة لاتحتاج ، كى تصبح جديرة بالاحترام، الا لأن نحترم ؛ ودينها فضلا عن ذلك ، هو قاعدة لديننا ؛ وعلينا الا ننسى بصفة خاصة أنها اظهرت وسط المحن والآلام خاصية عظيمة ، وانه اذا كان العفو يعد شرفا للقوة فان المشاعر الرقيقة تكون شرفا للضعف ؛ ونسوق مثالا على ذلك لا ينسى ، لقد تجرأت أورشليم على قتال روما التى كان يرتعد امامها أعتى ملوك الأرض ؛ ثم اقام اليهود المهزومون ، فى روما ،

بأيديهم المكبلة بالقيود الحديدية النصب الضخم وقوس تيتوس * Titus الذى تخلد نقوشه البارزة ذكرى سقوط المدينة المقدسة ، حسن ، لقد انقضت حتى اليوم سبعة عشر قرنا لم يمر خلالها مطلقا ، من تحت هذا القوس الذى يكرس هزيمتهم ، احد من أحفادهم أولئك الذين ظلوا على الدوام يحفظون ذكرى هذه الاهانة ؛ وعن طريق منفذ ضيق شقوه لأنفسهم قريبا من هذا المبنى، كان اليهود يخرجون من الفورم ** Forum قبل أن تؤدى عمليات الهدم والتنقيب التى تمت هناك الى فتح منافذ اتصال أخرى .

وذات يوم ، كنت اتأمل فى هذه النقوش البارزة لهذا القوس، شمعدانا ذا سبعة شعب يزين المسيرة الظافرة للامبراطور ، ومر بالقرب منى رجل عبرانى ؛ تعرفت عليه من تلك الملامح التى لم يستطع أى طقس ان ينال منها ، واظننى قرأت فى نظرته التى القى بها على هذا المبنى، أبيات الشعر هذه ، التى وضعها شاعر كبير :

اى صهيون ، يامن يستحق الرثاء ؛
ماذا صنعت بمجدك ؟
فالعالم كله مأخوذ بعظمتك ؛
اما انت : فلم تعد سوى غبار ؛
ولم يعد يبقى لنا من هذا المجد ،
الا الذكريات الحزينة .

« استير ، الفصل الأول ، المشهد الثانى ».

وقلت لنفسى : كم من الأسئلة يمكن ان يلقيها هذا العبرانى على ، لو عرف اننى اقمت بمصر ، واننى اقمت خيمتى فى أرض جاسان ، وعبرت البحر الأحمر سيرا على قدمى ، وتجولت هنا وهناك ؛ وسرت على غير هدى فى الصحراوات التى يحيط بها جبلا حوريب وسيناء !

---

* امبراطور روما من ٧٩ الى ٨١ ، وكان يطلق عليه اسم « ملاذ البشر » ، وكان واحدا من الحكام الذين يسعون باخلاص شديد لتخفيف آلام شعبهم ، وحين لم تواته الفرصة فى أحد الأيام لتقديم الخير صاح لقد ضاع يوم من حياتى ، وفى عهده حدثت كارثة بركان فيزوف (عام ٧٩) (المترجم)

(**) ميدان عام فى روما حيث كان الشعب يتجمع ليناقش المسائل العامة . (المترجم) .

ومع ذلك فأى انسان هو ، مهما تكن معتقداته ، ذلك الذى لن ينهمر بأسئلته على رحالة وطئت أقدامه أرض المعجزات والأمجاد هذه ؟ وهـــل هنـــاك ملاحظة ، ولتكن اصطناعية لأى مدى ، يكون من شأنها أن تعود بنـــا الى التقليب فى تاريخ الاسرائيليين .. دون أن يستمع اليها الانسان بشغف ؟ وعلى هذا ،فمع يقينى بأن من شأن هذا أن يسترعى كل انتباه، فسأحكى ما أملته على عملية التنقيب فى المواقع ، حول اقامة العبرانيين فى أرض جاسان ، وحول هروبهم الى الصحراء ، وستتواثب الفـــائدة من وراء هذا الموضوع من ثنايا ما أحكيه .

عن الأســــفار

أســـفار موسى هى مجموعة الـــكتب الخمســـة التى خطها موسى ، سفر التكوين ، سفر الخروج ، سفر اللاويين ، سفر العـــدد ، وسفر التثنيـــة .

وعلى الرغم من التناقضات التى يعتقد بعض النقاد أنهم قد وجدوها فى هذه الأسفار (٢) ، وعلى الرغم من اختلاف آرائهم حول زمن نشرها، فان الجميع مضـــطرون للاعتراف بأنها أقـــدم أثر مكتوب قد وصل الينا ، كما أنهم لا يستطيعون ، مهما تكن طبيعة آرائهم الدينية ، أن يرفضـــوا ماتجده فى هذه الـــكتب من فائدة كبيرة ترتبط بالتأريخ لشعب كان رعويا جوابا ، ثم زراعيا ، ثم جماعة من العبيد ، ثم عاد مرة أخرى الى حالة التجوال ليصبح بعد ذلك غازيا . ان تغييرات شبيهة تستخدم عند التعريف بالجنس البشرى ، لأنها تشكل تاريخه ، فى الوقت الذى تكون فيه تاريخا لشعب بعينه .

---

(٢) وفضلا عن ذلك فما هى غالبية هذه التناقضات التى تم اكتشافها بكثير من الطنطنة والتقعر ؟ بعض أخطاء من الناسخين ، وعدة تفسيرات عارضة هى من اجتهاد المترجمين ، ثم لا شىء أكثر ، أليس من الأسهل على سبيل المثال أن نتقبل فكرة أن رجلا ينسخ فى ســـوريا ، فى غرب الأردن ، نصوص الأسفار ، قد أمكنه أن يضع عبارة فيما أمام هذا النهر فى موضع ما كان مذكورا فى الأصل على أنه الى ماوراء ، وأن يشير الى مقاطعات قديمة بأسمائها الحديثة ، وأن يذكر كذلك أسماء المدن التى أنشئت فيها بعد ذلك ؟

وفى الوقت نفسه ، فاننا عند تصدينا لمادة من هذا النوع ، نحاذر ان نجرح اى راى : فليقرانا المسيحى واليهودى والمسلم والربانى دون ان يستشعر اى حرج او اهانة ؛ فلسنا هنا بصدد كتاب دينى ، ولكننا ننظر اليه كوقائع تاريخية ، وجغرافية ، ومبادىء اخلاقية وروحية .

ومع ذلك فلماذا لا يتقبل اولئك الذين يرون أنهم ليسوا فى حاجة الا لعقيدتهم الدينية حتى أنهم يؤمنون ايمانا مطلقا بكل ماجاء فى الأسفار ، لماذا لايتقبلون عن طيب خاطر أن هناك بعض الوقائع (التى ترويها هـــذه الـــكتب) تعز على التصديق حين تستخدم طرق أخرى للتفكير ؟ أما هؤلاء الذين تدفعهم شكوكهم الى تنحية كل عمل يكتشفون فيه بعضا من الخطأ ووضعه فى مرتبة الأســاطير ، والى النظر الى وقائع بالغــة البساطة باعتبارها أمورا مبهمة تكتنفها الشكوك لمجرد أنها تختلط ــ فى نظرهم ــ بظواهر تنتمى الى ماوراء الطبيعة ــ لماذا نراهم غاضبين حين يحاول بعض تبديد شىء من شكوكهم ؟ واما اولئك الذين يتعرفون على الله فى نظــام الطبيعة الرائع فلماذا ــ هم بدورهم فى النهــاية ــ يكابرون ، عن غير حق ، فيعتقدوا أن أسبابا روحية يمكنها أن تمارس تاثيرها على المادة ، وان الصلوات وان الدموع تستطيع أن تغير شيئا ما من نواميس العــالم الفيزيقى ؛ ولماذا يسعى هؤلاء الذين لايمكنهم ان يتقبلوا أن يكون اله الكون شبيها بآلهة هوميروس ليصارع بدوره فى سبيل اشخاص زائلين او امور فانية ، لالقاء الملامة على ابحاثنا ، اذا ماسمعت هذه الأبحاث الى أن تجلو أمامهم تاريخ شعب فريد . وذلك بأن نتقدم لهم بعضا من المعجزات التى ترفضــها وتتأباها عقولهم باعتبارها شيئا من المصادفات السعيدة التى تجود بها ظواهر الطبيعة ؟

عن الرعاة الرحل

لم يجد الانسان ، فى اكثر مناطق العالم بدائية يمكن ان تصل اليها قدماه ، اشباهه منعزلين ، بشكل تام ، كل منهم عن الآخرين ؛ لكنه وجدهم متجمعين فى شكل قبائل تتفاوت احجامها ؛ واذا لم يكن لدينــا فى هــذا الصدد من زعم اجماعى مثل ما لدى الرحالة فان فكرة التماثل قــد تقودنا فى قضيتنا هذه اذا مالاحظنا بعناية مايدور فى عالم الحيوان ، واذا ماقارنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التنظيم عند هذه الحيوانات بتنظيمنا ، وعاداتنا الطبيعية وخصالنا الروحية والجسدية بمثيلاتها التى سوف نجدها عند الحيوان .

وتحمل هــذه الاعتبارات نفسها ، اذا ما أضـيفت الى الشهادات التاريخية ، على الظن بأن الانسان كان صيادا وراعيا قبل أن يكون مزارعا ، وأنه قد ساح فى الأرض قبل أن يكون لنفسه فيها مقار ثابتة ، وان الناس فى كل مكان خصيب التربة ، رقيق الطقس ، صحى الهواء لدرجة كبيرة ، قد تزايدوا بسرعة هائلة ، بعد أن مروا ، من باب أولى ، من الحــالتين الأوليين (الصيد والرعى) الى الثالثة (الزراعة) .

وفى هذه الحالة الجديدة خلق الانسان لنفسه ، وقــد أصبح أقل انشغالا بأمور غذائه والدفاع عن نفسه ، احتياجات جديدة ؛ اصطناعية بلا جدال ، لــكنه يلذ له أن يفى بها ، فارتقى بالفنون ، وزاد من عددها ، واخترع العلوم ؛ وعندما داخله الزهو من تسامى معارفه بدأ يحتقر جهل المتوحشين (البدائيين) ، ورد الأخير على الاحتقار باحتقــار مماثل فاذاق الأول ، لأكثر من مرة ، ماتستطيعه القوة والشجاعة ، وليدتى الاستقلال والفقر .

وبسبب هاتين الحالتين بالغتى التعــارض تولدت أحقــاد واضــحة وحروب دائمة بين الشعوب الرعوية والشعوب المزارعة . وفوق ذلك ، فلقد ساهم هذا الأمر نفسه فى تناقص الأولين لأنهم ــ فى حالة انتصارهم ــ يأخذون عادات المهزومين ، ويرغمون ــ فى حالة هزيمتهم ــ على هجر أنماط حياتهم ؛ وكان يمكن أن يندثر هؤلاء الرعاة ــ على المدى الطويل ــ كلية لو لم تكن توجد على ظهر الأرض أقاليم تحول قحولتها ، أو عدم صحيتها ، دون تقدم أحوال سكانها ، وحيث لايستطيع الانسان أن يعيش الا بمعونة القطعان ، مع تغييره المستمر لمكانه ، ولو لم توجد فى النهاية أماكن يجد فيها هذا الانسان المأوى الأمين ضد جيوش الأمم بالغة القوة . أما هذه الأماكن ، فلقد كانت ، من بين مناطق أخرى ، صحراوات مصر والجزيرة العربيــة وســوريا وبلاد مابين النهــرين التى سكنتها فيما مضى قبائل العبرانيين ، والتى لا تزال تقطنها حتى اليوم قبائل الرعاة الرحل .

ان الحالة الطبيعيــة لهذه البلاد لاتقدم جاذبية من أى نوع لقــدوم غزوات أجنبية ، كما أنها لاتدع فرصة للاختيار بين عدد كبير من الأنماط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا فى طرق المعيشة ولا فى العادات أو العلاقات السياسية لسكانها ؛ اذن فعلى المرء أن يعتر هنـــا على عادات وتقاليد تاريخ ضارب فى القـــدم؛ ان هذا فى الواقع هو ماحدث ، اذ يبدو تاريخ الأسباط القدماء هو نفسه تاريخ شيوخ العرب فى أيامنا هذه (٣) .

ابراهـــام

فى تلك الصحراوات القاحلة التى انتهينا من الحديث عنها تطلعت عشـــائر بأسرها الى تلك الفكرة الســـامية التى تتحدث عن وجـــود اله واحد (٤) . وهنـــاك نشأت هذه الديانة التى انتشرت وسادت فى أكبر جزء من هذا العالم حاملة اسم اليهودية أو المسيحية أو الاســـلام بحسب التعديلات التى تناولتها .

أما فى أقاليم اليونان الزاهية ، على ضفاف نهرى روفيا وسيفيزا * فقد اســـتطاع الانسان أن يعبد ، تحت أسماء فلورا وخيريس وبومونا ، الطبيعة وقد جملتها الورود والمحاصيل والثمار ، كما أمكنه ، متمتعا بمباهج الفنون الجميلة ، أن يتضرع اليها باسم منيرفا أو ابوللو ، أما فى قبرص المعطرة وأيونيا الرخوة ، وسط أجواء تحمل النفس الى الدعة فقد يعبـــد

---

(٣) أنظر دراستى عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٧٧ (الدراسة السابقة من هذا المجلد)؛ لكننى أكتفى بأن أضيف هنـــا الى القائمة التى قدمتها عن بعض العادات الشائعة عند الشعبين ، عادة تمزيق هـــؤلاء وأولئـــك لملابسهم واهالة التراب على وجوههم علامة على الحزن الشديد .

(٤) تقدم لنـــا القبائل العربيـــة التى أخذت على عاتقها ، بعد أن تجمعت فى شكل دولة تحمل اسم الوهابيين ، أن تقوم وأن تنقى الدين الاسلامى (من الشوائب التى شابته) ، برهانا جديدا لمـــا نقوله الآن ؛ فلقد توصل هؤلاء الرجال الخشنون ، فى بساطتهم هذه ، الى نفس نقطة المعتقد الدينى الذى توصل اليه غالبيـــة الرجال المتحضرين فى أرقى أمم الأرض ، أى الألوهية الخالصة ؛ فالوهابيون لا يدعون لله شريكا قط ، ولا يبتهلون الا اليه ؛ أما محمد وموسى والمسيح فليسوا بالنسبة لهم سوى حكماء (أنبياء) ، أما الأمجاد الدينية التى يردها النـــاس الى هـــؤلاء (وقـــد يعنى هنـــا التوسل بهم مثلا ، أو تعظيمهم — المترجم) فليست فى نظر هؤلاء الوهابيين سوى وثنية .

* فى البلوبونيز (المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى قسمات وملامح اجمل النساء اللذة التى تجر الىجنس يسحر الألباب، وحيث كان يحصل على مباهجه بمئات الطرق فقد كان يجد فى كل بهجة الها محسنا مختلفا .

وتحت سماء أقل حظا أمكن أهالى تراقيا ، كما استطاع الجرمانيون، الذين كانوا هؤلاء واولئك قد تعودوا فى صيدهم وحروبهم الدائمة على سفح دماء فرائسهم أو نظرائهم ، كل يوم ، أن يجدوا مقر رب الحرب فى هذه الغابات المعتمة التى تبدو همهمة الريح فيها كما لو كانت صيحات شاكية تتوجع من الآلام .

لكن ، أكان شعب رعوى ، يضرب فى سهول فسيحة من الرمال ، بمستطيع أن يعبد الأرض مع خواصه العديدة وأحداثه المتنوعة فى حين كانت تبدو الأرض بالنسبة له شحيحة للغاية وأحادية الشكل ؟ أكان بوسعه ، وهو يجهل ترف الفنون أن يؤله خالقيها (أى مظاهر الطبيعة التى تؤدى الى نشأتها) ؟ وفى الوقت نفسه الذى نجده فيه انسانيا ورقيقا ، يعيش على لبن قطعانه ، أكان فى مقدوره أن يعبد اله الحرب شأنه شأن المتوحش الذى لا يلجأ الا لقوته عندما تجابهه مخاطر الأيام ، والذى يتغذى على لحم ينبض (بالحياة) ويروى غلته بالدماء ؟ كلا ، وانما النجوم وحدها هى التى تبعث على اعجابه : فالشمس التى تحيى وتوقظ المخلوقات هى التى تعطى القوة لأجسامهم كما تنشط أفكارهم ؛ هكذا تأله القمر وتألهت النجوم التى تضىء ليالى الصحراء ، تلكالليالى الممتعة للغاية بعد حرارة النهار الملتهبة ؛ وديانة كهذه كانت اقرب بكثير من أية ديانةاخرى لكى تسمو بالانسان حتى يدرك الكائن الأسمى .

وفى واقع الأمر ، فكل شىء فى السماء لا نهائى ، يشمله نظام يدعو الى الاعجاب ويبدو بوضوح للوهلة الأولى ؛ أما هنا على الأرض فكل شىء محدود ، يبدو وكأنه متروك لقدر أعمى ، فما البحر ، والأرض ، والهواء ، والظواهر التى تصدر عنها والتى لا يمكن للمرء أن يتنبأ بها؛ و ضروب الجمال فى الريف ، وفنون المدن ، والشهوات الانسانية فهذه كلها أمور محددة ومتميزة لحد يكون من العسير معه عليها أن تولد فكرة السبب الأوحد ، محرك الكون : وعلى العكس من ذلك ، فان مراقبة النجومتكشف

التشابه القائم بينها على أوسع نطاق ، وسرعان ماتبدو حركتها المنتظمة التي تخلع النقاب عن مواضعها نتيجة لارادة عليا ، ودائمة .

اذن فقد كانت الآلهة التي اصطنعها الانسان لنفسه حين ثبت عينيه على الأرض اما طيبة واما شريرة ، تدعو الى المحبة أو تبعث على الأسى، لكنها كانت على الدوام متعددة كذلك كانت سلطتها محددة ، أما حين رفع الانسان بصره نحو السماء ، فقد اهتدى الى اله واحد ، لا نهــاية لقوته وحكمته : فكرة سامية ، وهى حين تضع كل البشر على مسافة متساوية من الكائن الأسمى ، فانما تجعل من العبد المــكبل بالأغلال حــرا ، مالم تكن الخرافة والعبودية قد امتهنتا بعد ، وبالدرجة الكافية ، روحه حتى ليرى فى أولئك الذين يزعمون لأنفسهم انهم سادته ، صورة من الرب .

أما ابرام ، ابراهام أو ابراهيم ، كما شاء الناس أن يسموه ، فيبدو انه هو الذى بشر ، بأكبر قدر من الحماسة عرفتــه العرب ، بوجود اله واحد ، ليجعل عبادته تحل محل عبادة النجوم (٥)، ولقد كان المجد الخالد هو جزاء هذا الصنيع الطيب ؛ ففى حين لاتكاد تعــرف اليوم ، اللهم الا لأشخاص معدودين ، أسماء مثل أتيلا * وجنكيز خان ، وكل أولئك الملوك الذين ظنوا انهم قــد ملئوا العالم بأسمائهم ، فان راعيا صحراويا بسيطا ظل موضع تقديس من كل شعوب الأرض برغم كل القــرون التى انقضت منذ تحول جسده الى رماد ؛ فالطفل الذى يبدأ فى تعلم القراءة يتأتىء بالفعل اسمه ، كما أن المسيحى واليهودى والمسلم يطلقون على الاله الذى يعبدونه اسم **رب ابراهيم** ، صحيح ان بعض العلماء النابهين يعتقدون أن غالبيــة

---

(٥) كانت بعض القبائل بالفعل تعبد « العلى » ومن بينها شعب شاليم (سفر التكوين ، الاصحاح ١٤) ، وان كان ابراهام قــد أعطى روعة خاصة لهذه العقيدة ، عندما خلصها من كل ما كان من شأنه أن يشوه بساطتها .

* اتيلا ملك الهون الذى انتصر فى عام ٤١٥ على أباطرة المشرق والمغرب ودمر بلاد الغال (وهى المنطقة المحيطة بجبــال الألب وتشمل شمال ايطاليا والبلاد الواقعة بين جبال الألب والبرانس وبين المحيط ونهر الرين ، وكانت تسكنها شعوب كثيرة مقاتلة) ولــكنه لقى الهزيمة فى سهول قطالونيا عام ٤٥١ بالقرب من شالون ومات على ضفاف الدانوب عام ٤٥٣ (المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشخصيات الشهيرة فى الأزمنة البطولية ؛ الألسيد والجازون * وحتى ابراهيم وموسى والمسيح نفسه هم كائنات مجازية ، لا يرون فى تاريخها الا تاريخ الأجرام السماوية ، ومهما يكن حظ افتراضاتهم هذه من الحذق فليس بمقدورنا أن نقبلها لأنها تبدو لنا متعارضة مع مسيرة العقل الانسانى، ومع مانلمسه نحن كل يوم ، لقد كانت للانسان أساطيره قبل أن تكون له علاقة بعلم الفلك . بل ان ماحدث ، فى معظم الأحيان ، هو أن النجوم ومجموعات النجوم كانت تسمى ، ولا تزال ، بأسماء تذكر بأحداث تمت على الأرض ، وفى النهاية ، فان الانسان حين يؤله كائنات بسيطة فانية، ويغطى فعالها بقناع من الرمز ، حين ينسب اليها أعمالا لايمكنها أن تتحقق الا على يد الطبيعة ذاتها وتلك نتيجة للمصداقية الدينية (مايؤدى اليه الدين من قابلية خاصة للتصديق أو الايمان) ، تلك التى تسهب أو تضخم من افعال البشر الذين تجعل منهم آلهة أو أولياء أو أنبياء وتنسب الى مقدرتهم أو الى وساطتهم عددا كبيرا من الأحداث المتخيلة أو الحقيقية.

لقد اختلطت الخرافات بالتاريخ فى كل مكان ، فلقد راقت الأعجوبة للبشر على الدوام ، ولسوف تظل تغريهم الى الأبد ، ولدينا كل يوم الوف الأمثلة على ذلك . فلنتعلم كيف ننحيها بحكمة عن كل رواية ، ولكن لنحذر فى الوقت نفسه من أن نقع فى تطرف آخر ، مقابل ، بأن ننكر فى رعونة بالغة الوقائع التى تختلط بأحداث خارقة ، وماذا نقول فى هذا الذى يخلص من رفضه أن يصدق أن راية الصليب قد ظهرت فى الأجواء عندما زحف قسطنطين ضد ماكزانس ** ان هذين الحاكمين لم يوجدا على

---

* Les Alcides ، أحفاد هيرقل ، و Les Jasons هم أبناء جازون ابن ايزون ملك يولكوس Iolcos ؛ وكان جازون قد قاد أبطال الأغريق (الارجوتوت) للحصول على جزات الذهب من كولشيد، وهناك أحبته ميديا ابنة ملك كولشيد الساحرة وهربت معه وتزوجها، لكنه هجرها ليتزوج من خريوس ابنة سيزيف ، وانتقمت ميديا لنفسها بأن عملت على دمار سيزيف وخريوس وطفليها . (المترجم)

** ماكزانس هو امبراطور روما من عام ٣٠٦ الى ٣١٢ وقد غرق فى نهر التيبر بعد أن منى بالهزيمة عند أسوار روما على يد قوات قسطنطين الأول امبراطور روما من ٣٠٦ الى ٣٣٧ ؛ وادى انتصار الأخير الى اقتناعه بضرورة جعل المسيحية دينا رسميا للامبراطورية ، ثم أصدر فى عام ٣١٣ مراسيم ميلانو التى تنص على حرية العقيدة الدينية، ثم نقل عاصمته الي بيزنطة (القسطنطينية) . (المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاطلاق؟ اما عن ابراهام، فان مايحول بصفة خاصة دون أن ننظر اليه باعتباره مخلوقا رمزيا يمكن أن يرمز حسب فكرة قديمة عن نشأة الكون الى بعض خواص المادة أو بعض خصوصيات الذكاء الأسمى ، هو انه لم يحدث أن اتخذ منه أحد فى أى مكان على الاطلاق الها او واحدا من سلالة اله، برغم ان زهو كثير من الشعوب كان شغوفا بذلك ، وبرغم ان عبادة الأوثان التى انغمسوا فيها كانت تحبذ مثل هذه الفكرة ؛ وأخيرا فان اسم ابراهام قد جذب الى مكة ، منذ زمان ضارب فى القدم ، شعوب الجزيرة العربية ، فقبر محمد نفسه فى المدينة ليس بالنسبة للمسلمين انفسهم سوى شىء ثانوى فى طقوس الحج بالمقارنة مع الكعبة ، فهذا (المعبد) ، فى رأى العرب ، هو أول بيت رفع للناس لعبادة الاله الحق ، وهم ينسبون بناءه الى ابراهيم واسماعيل ، ويبدو أن ديودور الصقلى كان على معرفة به عندما يذكر انه « يوجد على شاطىء البحر الأحمر معبد شهير يقدسه كل العرب » (٦) وحين أبطل محمد عبادة النجوم، وازال الأوثان (٧)

---

(6) Biblioth. hist. lib III.

(٧) كان الحجر الأسود ، وينتظمه اليوم جدار فى احدى زوايا الكعبة ، هو الوثن الوحيد (كذا !) من أوثان الكعبة الذى حظى باحترام محمد ، وسبب ذلك بلا ريب هو أن هذا الحجر لم يكن يجسد اى شكل انسانى أو حيوانى ، ومن المحتمل أن يكون هذا الحجر الخام أو غير المصقول كان مخصصا — قبل مجىء العقيدة الاسلامية — لعبادة الشمس ومن المعروف أن الشمس كانت تعبد فى سوريا على هذه الصورة ، وان روما قد شهدت فى عصر هليوجابال حجرا أسود بسيطا يتصدر آلهة ايطاليا واليونان التى كانت تجسد فى اعظم اعمال النحت ، فوق جبال بالاتان . وقد يكون من المثير أن نبحث عن الدافع الذى قد يكون وراء عبادة اروع النجوم واكثرها بريقا ولمعانا فى اكثر الأشكال خشونة واكثر الألوان قتامة ؛ فلعل هذه الأحجار كانت نيازك سماوية ، وبهذا يكون الناس قد تصوروا ان كرة ملتهبة تهبط من السماء تصحبها ضجة مفزعة لابد ان تكون قطعة من الشمس ولابد كذلك ان تنال الاحترام والولاء من البشر الفانين ؛ وبالمثل فانهم قد رمزوا بها فى كثير من الأديان الى الأشياء بالغة الحقارة والدناءة عندما يظنون ان هذه الأشياء تنتمى الى اله أو قديس .

التى اقامها الناس لها بين جدران الكعبة المقدسة ، فقد احترم الأثر القديم الخاص بهذين الأبوين ؛ كما كرس القرآن عملية الحج القـديم الى مكة تخليدا لاسميهما القديمين والمقدسين ، ولعله قد تم كذلك بقصد سياسى يهدف الى ربط الأمم التى ستدين للاسلام عن طريق هذه التجمعات المهيبة؛ فجعل القرآن من الحج فريضة دينية على كل مسلم .

كذلك كان العبرانيون ينظرون لابراهام باعتبـاره زعيما لجنسهم ، وهو مايتطابق مع شهادة العرب الذين يشكل العبرانيون ، فى رأينـا ، واحدة من أقدم قبائلهم (٨) . وتتباهى أمم كثيرة فى الشرق ، فى الحقيقة،

= ولا يزال حجر الـكعبة (الأسود) حتى اليوم موضع تقـديس من جانب المتعبدين المسلمين ، فعلى الحجاج ان يطوفوا به سبع مرات ؛ أما أولئك الذين لا يستطيعون أن يقبلوه فيجاهـدون كى يلمسوه باليـد على الأقل ؛ وهو من بين كل « الأحجار » المعروفة أكثرها قدما أكثرها حظا من التبجيل والاحترام .

تعقيب : ينهار زعم المؤلف من أساسه اذا مااستعدنا قصة اعادة بنـاء الـكعبة فى حياة الرسـول صلى الله عليه وسلم ، فقد تم ذلك قبل بعثه بالرسالة ، وعلى يد قبائل قريش مجتمعة وبادر الرسول الكريم بوضع الحجر فى مكانه حسما للخلاف بين هذه القبائل .. الى آخر القصة المعروفة ، أما ازالة الأوثان فلم يتيسر للرسول (ص) الا فى العام الثامن من الهجرة . عند فتحه لمكة ، ولم يكن الحجر الأسود أحد هذه الأوثان كما يزعم المؤلف الذى تبدو معلوماته عن الاسلام وتاريخه بالغة القصور. والقيمـة الحقيقيـة للحجر الأسـود ، كما فسر لى أحد العلماء الاجلاء، هو أنه حجر أسود بين أحجار بيضاء . وانه يحدد بدء الطواف بالـكعبة وييسر بالتـالى تعـداد مرات الطواف بدقـة ، وهـذا شرط أساسى فى مناسك الحج . (المترجم)

٨-نجد فى التوراة ان غالبية العشـائر الرحل التى كانت تقطن صحراوات سوريا والجزيرة العربية سواء كانت تنتمى الى اسماعيل أو الى عيسو ، كانت تشترك فى أصلها مع العبريين أو كانت تتحـد معهم برباط الدم ،ولا تزال تشهد شطآن الفرات ، كما شهدت شواطىء النيل والأردن ، حتى يومنا هذا قبائل من الرحل يعرفون بهذا الاسم النوعى : العرب البدو ، ويحيون على وجه الدقة نفس حياة الأسباط أو العشائر الأول ؛ ومع ولأن العبرانيين قـد سكنوا جزءا من أرض الـكلدانيين يعدون من الـكلدان كما أن البدو الذين أشرنا اليهم للتو ليسو فرسا ولا مصريين ولا سوريين ؛ وفضلا عن ذلك ، فلا يهمنا كثـيرا أن نعـرف ما ان كان العبرانيين هم من نسل العرب أو كان العرب هم الذين جاءوا من أصلاب اليهود ؛ ويكفينا ان نعرف أن لهم أصـلا مشـتركا ، وتقاليـد وعادات متشابهة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بان ابراهيم هو واحد من اجدادها ؛ واذا نحينا جانبا الرأى القائل بأن هذه الشخصية ، لهذا السبب ، لم توجد قط ، كما عبر عن ذلك بعض المؤلفين ، فاننا نرى فيه ، على العكس من ذلك ، شهادة على شهرة لم تكن لتنتشر قط عند الكثير من الأمم لو لم يكن لها من أساس واقعى ؛ فلقد تنازعت مدن كثيرة على شرف انتساب هوميروس بمولده اليها ، فهل يمكن القول بأن هذا الشاعر ، لهذا السبب ، لم يكن موجودا قط ؟ من ذا الذى لايعرف زهو وخيلاء البشر ؟ والشعوب ، مثلها مثل الأفراد بصفة خاصة ، يهتبلون بنهم واضح اقل الشواهد احتمالا لبلوغ أصل قديم ضارب فى القدم ، وبعد أن ينجحوا فى خداع الغير ينتهى بهم الأمر أن يخدعوا انفسهم ؛ والخطأ الذى يحظى بالاعجاب سرعان مالا يعد بعد خطأ .

ويتطابق تاريخ ابراهيم كما قرأناه فى كتب العبرانيين ، فى نقاطه الأساسية ، مع كتابات المؤلفين العرب والفرس . ومع ذلك ففى حين يقدم سفر التكوين لوحة ساذجة وأمينة عن حياة أحد مشايخ الصحراء ، فان هؤلاء المؤلفين قد خلطوا ذلك بأساطير تجافى العقل ؛ وهكذا نجد ابراهيم ، طبقا لأقوالهم ، قد رفض حين جاء الى الدنيا صدر امه ووجد فى أصابعه هو غذاء ربانيا . فمن أحد اصابعه كان يتدفق اللبن ومن أصبع آخر تدفق العسل ؛ وعندما بلغ شهره الخامس عشر كانت له قامة رجل يبلغ من العمر خمسة عشر عاما ، وحكمة ومعرفة رجل ناضج ؛ وحين أصبح ملاذا للفقراء واستنفد مخازن حبوبه بفعل الصدقات الكثيرة التى كان يقدمها تحول الرمل من أجله الى دقيق ؛ وقد أمره الله ان يأخذ أربعة من الطير وأن يمزقها اربا وأن يوزع هذه الأشلاء فوق اربعة جبال وأن يناديها فتجمعت أشلاء الطيور على صوته وطارت نحوه ؛ وحين القى به فى لهيب متقد فقد لاطفته النار بدلا من أن تلتهمه * .

ومع ذلك فوسط هذه الحكايات الطفلية ، الصبيانية بخيالها الفاسد لدى الشرقيين ، فهناك نص يتميز بنبل بساطته وسمو العقيدة التى يكرسها جاء فيه : « وبينما كان ابراهيم يمشى مع أبيه أثناء الليل ، وهو بعد طفل ،

---

* يلاحظ القارىء ولابد أننا بازاء كاتب يرفض فكرة المعجزة تماما ، وهو على هذا الأساس يرفض الأخذ بكثير مما نعده نحن من المسلمات . (المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رأى فى السماء نجوما من بينها ، مع نجوم أخرى كوكب الزهرة الذى كان يعبده كثيرون ، وتفكر ! قد يكون هذا هو الرب سيد العالم ، ولـكن بعد بعض من الوقت والروية قال لنفسه : أرى هذا النجم يغرب ويختفى ، فلا يكون هذا اذن هو مدبر الكون ، ونظر كذلك للقمر فى تمامه ثم قال : لعل هـذا هو خالق كل شىء وهو نتيجة لذلك ربى ، ولـكنه عندما رآه ينزل عند الأفق مثل الكواكب الأخرى أصدر عليه الحكم نفسه . وبعد أن عكف على التأمل والتفكير بقية الليل بطوله ، وجد نفسه بالقرب من بابل عند شروق الشمس ، ووجد أعدادا لا حصر لها من الناس كانوا يعبدون هذا النجم ويسجدون له مما جعله يقول : هذا كائن يبعث ولابـد على الاعجاب وسأتخذ منه خالقا وسيدا لـكل الـكون ؛ ولـكننى تبينت أنه ينحدر ويتخذ طريق الغروب كما تفعل النجوم الأخرى ، ليسـت الشمس اذن خالقى ولا الهى ولا ربى . وبعد ذلك رأى ابراهيم النمرود جالسا على عرش بالغ الارتفاع وحوله يصطف ، وفقا لمراكزهم ، فرقـة من العبيد رائعى الشكل من هذا الجنس وذاك ، وسأل ابراهام على الفور : من هذا الشخص الذى يعلو الآخرين على هذا النحو ، فأجابه والده : هـذا هو رب كل الذين تراهم محيطين به وكل هؤلاء القوم يرون فيـه ربهم . وعندئذ تأمل ابراهيم النمرود ، وكان بالغ القبح وقال لهم : كيف يمكن أن يكون هذا الذى تدعونه ربكم قد صنع مخلوقات تفوقه فى جمالها ؟ وكانت هذه هى المرة الأولى التى بدأ فيها ابراهيم يسعى كى يحرر أباه من أوهام الوثنية ، ويدعوه الى وحدانية الله خالق كل شىء » . ٨

---

(8) D'Herbelot, Bibliothèque Orientale.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

عن العبرانيين حتى عصر دخولهم مصر (١٠)

كان العبرانيون فى أقدم مراحل تاريخهم ، يشكلون جزءا من هذه الشعوب الجوابة التى ـ على الرغم من كونها ذات أسماء مختلفة ، ومع عادات وتقاليد متشابهة ـ لم تكن تكف عن الاستحواذ على بعض مناطق فيما بين الفرات والنيل .

وهم يستمدون اسمهم من عابر ، وهو اسم أحد أجداد ابراهيم ؛ وقد ظلت عادة اتخاذ اسم أحد رؤساء القوم القدامى وخلعه على الأبناء شائعة لدى العرب المحدثين .

وحيث كان هؤلاء العبرانيون قد انغمسوا ، شأنهم شأن البدو ، فى الحياة الرعوية ، وكونوا مثلهم منشآت زراعية قليلة الدوام ، فقد تركوا أرض كلدان كى يمضوا الى منطقة من ارض مابين النهرين تابعة لسوريا ؛ وكانوا فى ذلك الوقت وثنيين ؛ وكان تارح ، والد ابراهيم ، من ناحور وآران ، على رأس قبائلهم . وعند موته انقسم القوم : فظل بعض فيما بين النهرين تحت حكم ناحور ، وواصل الآخرون مسيرتهم الى ما وراء الفرات ، ابراهيم ولوط ، ولدا أران ، وتكرر حدوث انقسامات مماثلة عند الشعوب الرحل ؛ ونستطيع هنا أن نلحق بالأسباب التى حتمت حدوث الانقسامات هناك تلك الديانة الجديدة التى كان قد بشر بها ابراهيم . وهى ديانة لم يتبنها فى الواقع أولئك العبرانيون الذين ظلوا فى

---

(١٠) نرجو من الذين سيقراوننا الا يغيب عن ناظرهم مطلقا أننا لسنا هنا بصدد أن نبرهن على أن هذا الرجل أو ذاك قد وجد ، أو أن هذا الحدث أو ذاك قد وقع فى حقيقة الأمر ، ولكننا نريد أن نقول فقط انه من المحتمل ، أو على الأقل ، من الممكن أن تكون الأمور قد جاءت على هذا النحو الذى نسوقه نحن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بلاد مابين النهرين . وقد أشار سفر التكوين الى هذا الدافع الذى يكمن وراء الانقسام ، اذ نرى فى هذا السفر أن ابراهيم قد انفصل عن أخيه(١١) حتى يستجيب لوحى مقدس. وفى هذا تتطابق التقاليد العربية والفارسية، وطبقا لذلك فقد حدث أن أبراهيم ، كى يحافظ على عقيدته وينأى بها عن اضطهادات الوثنيين ، قد انسحب الى جوف الصحراء . ومع ذلك فقد ظل يسيطر هذا الوفاق الأفضل بين القبائل التى انقسمت على هذا النحو ، ويكفى للتدليل على ذلك زواج ابن ابراهيم (اسحاق) من (رفقة) بنت بتوئيل بن ناحور ، وزواج يعقوب من بنات لابان بن بتوئيل (١٢) .

وتقدم ابراهيم فى البداية نحو الجنوب عبر أرض السوريين ، وبعد ذلك دخل مصر ثم عاد الى سوريا. وهناك انفصل عن (لوط) ابن أخيه ، وبعد مرور وقت قصير انتزعه من أيدى أعدائه (أعداءلوط) ، وينظر بعض الكتاب الى المعركة التى شنها ابراهيم فى هذه المناسبة باعتبارها عارية من أى ترجيح ، وبرغم ذلك فليس فى هذا الأمر مايمكن أن يعد خارقا بالنسبة لشخص عبر صحراوات سوريا وعرف تقاليد الشعوب التى تقطنها . وفى واقع الأمر فان ماهو أكثر من ذلك طبيعة — أى انه أمر عادى للغاية — أن نرى رؤساء أو ملوكا أمثال ملوك ورؤساء شنعار وعيلام والاسار (بشده على اللام) وجوييم يشنون الحرب على ملوك سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم وبالع (أو صوغر) . وهذه الأسماء الأخيرة هى أسماء مدن ذائعة الشهرة ويمكن الظن بأن الأسماء الأخرى تشير الى بعض فصائل من الفرق الآشورية تقيم بين أربعة شعوب تخضع على الدوام لهذه الأمبراطورية (الآشورية) ، كان شيوخ المدن والقرى والقبائل يتحاربون فيما بينهم ؛ وكان شيخ فريق ما من البدو يعيش لأكثر من مرة فى حياته فى حالة حرب مع سلطان امبراطورية الترك القوية ، ومع

---

(١١) « وقال الرب لابرام اذهب من ارضك وعشيرتك ، ومن بيت أبيك الى الأرض التى اريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة وابارك مباركيك ولاعنك ألعنه » سفر التكوين الاصحاح الثانى عشر .

(١٢) توجد عند العرب البدو هذه العادة نفسها ، عادة تفضيل الأصهار على أشخاص من العائلة نفسها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك ، فمهما تكن قوة الأمراء الذين أخضعوا البنتابول الأردنى (١٣) ، فقد استطاع ابراهيم ، باتحاده مع ثلاثة من مشايخ الصحراء هم عاثر واشكول وممرا الأمورى أن يفاجىء وأن يلحق الهزيمة بالمنتصرين . ويقدم لنا التاريخ عددا لا حصر له من أحداث مشابهة ؛ فقد استطاع خالد ، على رأس ثلاثة آلاف عربى أن يحطم ويشتت فى عصر هرقل وبعد معركة من أشد معارك التاريخ بأسا وعنادا جيشا يتكون من عشرين الفا من الرجال من خيرة جيوش الامبراطورية (الرومانية) ؛ واستطاع على بك ضاهر فى عصر أقرب ، بخمسمائة من البدو أن يلحق الهزيمة بخمسة وعشرين ألفا من الدروز ؛ وعلى ضفاف الأردن ، عند سفح تل طابور ، شتت ١٥٠٠ جندى فرنسى بقيادة كليبر Kleber ، أمامهم جيشا « **ينتمى الى مائة شعب مختلف** » كما يقول أهل البلاد « **ويساوى فى عدده نجوم السماء ورمال البحر** » (١٤) .

وفى الحقيقة فان اسم **ملك** الذى تمنحه التوراة لرئيس مدينة بمفردها أو شيخ قبيلة واحدة قد أمكنه أن يتوج قصة انتصار ابراهام بهالة مبهرة ، فنحن ننسب لهذه الكلمة معنى المقدرة العظيمة (والملك الشاسع)، لكن الكلمات نفسها لاتعنى فى كل الأحوال الأشياء نفسها ، وتظل معانيها تتغير فى مختلف البلدان ؛ فشيخ بضعة الوف من الرجال فى الشرق قد يتسمى باسم أمير الأمراء (أو ملك الملوك) ؛ وفى حين أن لقب ملك هو مانطلقه نحن على لويس الرابع عشر أو بطل ترموفيل Thermophyles *

---

(١٣) منطقة خماسية المدن (أى بها خمس مدن) ، ويطلق اسم البنتابول على العديد من تجمعات مدن مماثلة ، ويتكون البنتابول الأردنى من مدن : سدوم ، عمورة ، ادمة ، صبوييم ، بالع (التى هى صوغر كما تذكر التوراة) .

(١٤) تقدر هذا الجيش بنحو خمسين الف رجل أكثرهم من الفرسان .

* أو الأبواب الحارة ، ممر شهير فى تساليا ، حاول عنده ليونيداس الأسبرطى ومعه ثلاثمائة من الاسبرطيين أن يوقف جيش الفرس بقيادة كسركسيس ؛ وحيث لم يتخيل الأخير أن هذه الحفنة من الرجال تعتزم حقا أن تقطع عليه الطريق فقد كتب الى ليونيداس رسالة لاتضم الا هاتين الكلمتين : « سلم اسلحتك » فكتب اليه الأسبرطى تحت كلماته « تعال خذها » ؛ ولكن احد الخونة ارشد الفرس الى ممر وسط الأحراش يسمح لهم بالاحاطة بالجبل الذى كان يتحصن فيه ليونيداس ؛ وحين تبين الأخير أن من المستحيل عليه أن يتفادى الموت ، دعا رفاقه الى وجبة طعام متقشفة ثم قال لهم « فى هذه الليلة سنتعشى عند بلوتون اله الموتى » . (المترجم)

فانه يخلع فى الساحل الأفريقى على رئيس بضع ضـــياع صـــغيرة من ضيعات الزنوج ؛ وبالمثل فقد تلقى شيشرون التحية من الفرق العسكرية التى أطلقت عليه لقب امبراطور بعد حملته على صقلية ، ومع ذلك فليس هنـــاك من يخلط بين سطوة هـــذا المواطن الفاضل وبين القوة الغاشمة لأولئك الطغاة الذين رفعوا عروشهم عالية فوق أنقاض جمهورية روما .

وبعد أن خلص ابراهام لوطا ، عاد الى بلوطات ممرا الأمورى ؛ وقد حدث بعد سنوات عديدة من الوقت الذى حـــددته التوراة لدمار ســـدوم وعمورة الذى ربما قـــد تسبب فى حدوثه صـــاعقة رعد أو ثورة بركان.

وتتطابق الرواية التى تحكى اقامة ابراهيم بعد ذلك فى أرض أبيمالك ملك الفلسطينيين وما قدمه اليه هذا الزعيم العبرانى من ثيران وماعز ، مع مايحدث فى أيامنا هذه عندما تريد قبـــائل جـــوابة ان تقيم فى أرض لا تملـــكها .

وقد خلف ابراهيم أبنـــاء عديدين أشهرهم اسماعيل واسحق . وقد اصبح الأول بفعل جسارته زعيما لقبائل عديدة تشكل اليوم الأمة العربية، وحملت فى ذلك الوقت طبقا لتقاليد الصحراوات اسمه وتنـــادوا باعتبارهم أبنـــاءه (١٥) ، أما الثـــانى فقد أعقب والده ، وترجع جـــولانه وحروبه وتحالفاته واخيرا سيرة حياته الى الوجود الخاص والسياسى لزعيم من زعماء البـــدو .

وبعد موت أسحق، انفصل ولداه يعقوب وعيسو، وتسمت القبائل التى اتبعت الأخير بعد ذلك (أو نسله كما تذكر التوراة) اسم الأدويين ؛ أما يعقوب فقد استحوذ على الجزء الأكبر من ميراث أبيـــه ، وتسمى الرعاة الذين ظلوا محيطين به ، وبشكل نهائى، باسم العبرانيين أو الاسرائيليين. وتجىء التسمية الأخيرة من اسرائيـــل ، وهى الـــكنية التى كان يحملهـــا يعقوب منذ عودته من بلاد مابين النهرين .

---

(١٥) انظر دراستنا عن القبائل العربيـــة فى صـــحراوات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٨٠ (وهى الدراسة السابقة من هذا المجـــلد) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا ، أشهرهم يوسف ، ولن استعيد هنا قصته المؤثرة ، فكل الناس يعرفونها ، ويعرفون أنها تعبر بشكل تام عن تقاليد وعادات شعوب الشرق . وفيما بعد أصبحت أسماء ولديه واخوته تشير الى اسباط بنى اسرائيل .

كان يعقوب قد أصبح شيخا كبيرا حين الجأته المجاعة الى ترك ضواحى بير سبع والذهاب الى مصر حيث حصل من فرعون على اذن بأن يستقر فى أرض جاسان .

وكانت أسرة ملوك الرعاة تشغل فى ذلك الوقت عرش مصر ؛ ونعتقد أننا نجد الدليل على تجافى الحنق والتطير اللذين كان يمكن أن يستشعرهما الحكام من العنصر المصرى بالنسبة لرعاة القطعان — فى الترحيب الذى لقيه ابراهام من قبل، وفى تنشئة يوسف - وبالسماح ليعقوب وابنائه بالاقامة فى مصر . ١٦

---

(١٦) مانيتون ؛ يوسيفوس ، رد على ابيون ، الكتاب الأول ، الفصل الخامس .

وقد كان مانيتون مصريا من طبقة الكهان ، وكان يشغل منصب كبير كهنة هليوبوليس والحافظ للأرشيف المقدس ، عندما كتب تاريخ مصر ، ويبدو لنا مؤلف كهذا أنه يستحق على أقل تقدير نفس القدر من الثقة التى تحظى به مؤلفات هيرودت وديودور ، برغم قدمها ؛ فمهما تكن المجاملة التى أبداها الكهان المصريون نحو هيرودت كبيرة ، فان المعلومات التى جمعها منهم عن تاريخ مصر لا يمكنها أن تقارن بمؤلف مستمد مباشرة من المخطوطات الأصلية عن طريق رجل يستطيع ، حيث هو موكل بحفظها ، أن يقارن بينها وان يرجع اليها وأن يدرسها بعناية دون أن يكون فى عجلة من أمره ، شأن مسافر متسرع يريد أن يعرف كل شىء عن البلد الذى يجتازه ، تاريخه ، فلسفته ، عاداته ، جغرافيته ، تاريخه الطبيعى . . الخ .

ويتهم المسيو لارشيه Larchet المترجم الضليع لهيرودوت ، مدفوعا بشعور من عاطفة تشيع عند رجل يتجاوز دوره كمترجم ، يتهم مانيتون بالجهل فى كل مرة لا يكون فيها هذا المؤرخ على وفاق مع هيرودت ؛ دون أن يسترعى انتباهه أن مانيتون كان يعرف مؤلفات هذا الأخير ، وانه اكتشف فيها أخطاء عديدة ، وأنه بهذه الطريقة على الأقل لم يبتعد عما جاء بها بسبب جهله . وأخيرا فان المسيو لارشيه ينسب معرفة اللغة المصرية القديمة لمواطن من هاليكارناس وينكرها على كبير كهان هليوبوليس ؛ ويعطى هذا الحق للأول لأن هذا الرحالة يقرر أن الكهنة

وسوف تساعدنا هذه الملاحظة على تعويض النقص الخطير الذى نجده فى الكتب المقدسة منذ موت يوسف وحتى مولد موسى ؛ وان كان لابد لنا أن نحاول فى هذه اللمحة السريعة حول نشأة وسقوط أسرة الملوك الرعاة فى مصر ، أن نلقى بصيصا من الضوء على هذا الجزء القديم من تاريخ العبرانيين .

عن فتح مصر على يد الرعاة ، وعن العبرانيين منذ وفاة يوسف حتى هروبهم الى الصحراء

تتم هجرات الشعوب فى معظم الأحيان فرارا من عدو يحمل اليها معه القيود ، اكثر مما تتم سعيا وراء مناخ أفضل ؛ وفى معظم الأحيان كذلك ، يقوم هؤلاء الفارون ، حين يصبحون غزاة بالضرورة ، بتأسيس امبراطوريات قوية .

ولكن عندما يدفع حب السيطرة والمجد والثروة ، وحده ، أمة ما بأن تحمل السلاح ، فانها قد تستطيع أن توسع أملاكها بشكل هائل ، لكنها لا تغادر وطنها ، فالارتباط بمسقط الرأس أمر أكيد فى كل زمان ومكان ، وعندما تشكل الأقاليم المغلوبة والمستعمرات البعيدة دولا مستقلة فانها تحتفظ بعلاقات من المودة والاحترام مع الوطن الأم ، تستطيع المصالح أن تعكرها فى بعض الأحيان لكنها لا تقدر أن تنهيها بشكل تام الا بعد قرون طويلة .

=

المصريين قد قرءوا له حوليات بلادهم كما لو لم يكن بمقدور هؤلاء الكهان أن يشرحوا له باليونانية النصوص بالغة الأهمية من المخطوطات التى أتاحوا له رؤيتها ، ثم ينكرها على مانيتون بسبب العصر الذى كان يعيش فيه ومعنى ذلك فان أثر رشيد (حجر رشيد.) يبرهن على أن اللغة القديمة فى عصر البطالمة ، بل حتى الكتابة الهيروغليفية نفسها ، كانت لاتزال معروفة من كهان مصر .

وأخيرا فان هذا الاعتراض الذى تكرر مرات كثيرة من أن مانيتون لم يستطع أن يرجع الى الحوليات المقدسة التى انتزعها ارتكسركسيس — أوخوس حين ضرب هذا الأمير مصر فى الأولمبياد السابع والخمسين يسقط من تلقاء نفسه اذا التفتنا الى أن ديودور ، الذى يقص علينا هذه الواقعة ، يضيف بأن باجواس ، المقرب من ارتكسركسيس قد رد الى الكهان المصريين وثائقهم ، فى مقابل مبلغ كبير من المال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحين يخبرنا التاريخ بأن مصر قد غزاها جيش من الرعاة قادم من جهة الشرق . فانه لا يحيطنا علما بما ان كانت هى روح الغـزو أو هى ضرورة دفع عدو قوى هى التى حملت هـذا الشعب الرعوى على غزو الأراضى الخصيبة التى يرويها النيل ؛ وان كان المرء يستطيع طبقا للمبادىء السابقة أن يستخلص أن فتوحات الأشوريين ، بامتدادها الى جنـوب الفرات ، كان لابد لها أن تدفع الى مصر بالقبائل العربية البدوية ، التى تشغل جزءا من سوريا والجزيرة العربية . ويتطابق هذا الرأى مع شهادة مانيتون ، حين يقرر أن أول ملك من ملوك الرعاة حكم مصر قـد وضع الجزء الأكبر من جيشـه على الجبهـة السـورية لأنه كان يخشى قـوة الآشوريين .

وقـد تبنى الرعاة العرب ، دون جـدوى ، خلال امتلاكهم الطويل لمصر ، غالبية طقوس الديانة المصرية ، لكن احتفاظهم ببعض عقائدهم ، وبصفة خاصـة تحالفهم مع قبـائل الصحراء الذين واصلوا التضـحية لآلهتهم بحيوانات يقدسها المصريون ، جعل المواطنين من اهل البلاد ينظرون اليهم بكراهية وازدراء .

وقـد أدى انتشار احد الأمراض ، هو البرص أو الجـذام ، الذى أصبح أكثر شيوعا فى مصر لأن المنتصرين كانوا — ربما — يجهلون مبادىء الصحة التى تدعو اليها الديانة المصرية للتقليل من عمل طقس غير صحى — ادى بالقدامى من اهل البلاد أن يطلقوا عليه اسم مرض الرعاة ، وهو الشىء نفسه الذى فعله اهالى نابولى عنـدما أطلقوا اسم أمتنـا ، فى القرن الخامس عشر على مرض وافد ، وذلك بفعل ماكانوا يكنونه لنـا من احقاد . وقد أوقع اسما « المجذومون أو الأنجـاس » ، اللذان كان المصريون يستخدمونهما سرا للاشارة الى المنتصرين عليهم ، المؤرخين فى اخطاء خطيرة حين اعتقد هؤلاء أن الأمر هنـا يشـير بالفعل الى اناس اصيبوا بالجذام ، كما لو كان باستطاعة ذوى العاهات والمرضى أن يكونوا هيكل أمة وينشئوا جيوشا قوية !

أما ملوك مصر الشرعيين ، الذين لاذوا بالصعيد ، فقد كونوا هناك دولة مستقلة ؛ ثم نزل احدهم ويدعى اليسفراجمو توفيس ، ولعل ذلك قد تم بمعونة من الأثيوبيين وبدعوة من الساخطين ، نزل نحو ممفيس ،

وأحرز انتصارات هائلة على العرب واضطرهم الى أن يركزوا قواهم فى أفاريس ، وهى مدينة بالغة القوة تقع فى أقصى الشرق من مصر السفلى ✻

وباختصار ، فيمكن القول بأنه منذ هذه الفترة قد انتهى عهد ملوك الرعاة فى مصر ، بعد مرور نحو خمسة قرون من تأسيس أسرتهم وتربعها فوق عرش الفراعنة ، واذا كان كهنة ممفيس وهليوبوليس أو طيبة قد لزموا الصمت بشكل تام عن هؤلاء الملوك عند حديثهم الى هيرودوت فقد كان ذلك دون ريب لأنهم كانوا يضعون فى عداد ملوك مصر أولئك الأمراء من الجنس المصرى الذين حكموا مصر خلال الفترة نفسها من الزمن ، اذ كانوا يعتبرون هؤلاء الذين صمتوا عنهم ملوكا غاصبين .

اما تحيموسيس (أحمس) ، ابن وخليفة اليسفراجمو توفيس ، فقد حاصر فى أفاريس بقايا جيش الرعاة ، وعندما لم يتمكن من الاستيلاء عليها ، وافق أن تخرج الحامية من أرض مصر مع كل ماكانت تملكه .

وقد عبر هؤلاء الرعاة صحراء سوريا ، ولما كانوا يخشون بأس الآشوريين — وكان هؤلاء بالغى القوة فى آسيا — فقد استقروا فى جبال الجودية حيث أسسوا مدينة جيروزاليم (أو : أورشليم) (١٧) ؛ وان كان هذا الفريق من الأمة التى أدى استحواذها على مصر لفترة طويلة ، الى تبعثرها بالضرورة فى كل البلدان ، قد اضطر للخضوع وأن يستسلم بدوره لما يمليه عليه قانون المنتصر .

✻ يقول الأستاذ محمد رمزى فى قاموسه الجغرافى للبلدان المصرية ، الجزء الأول الخاص بالمدن المندرسة ، من مدينة افاريس : أواريس مدينة أنشأها الهكسوس جنوبى بيلوز (الفرما) ، وأسموها هات أورات Hat Awrat ، ومنها اسمها أواريس ، وقد اتخذها رمسيس الثانى سكنا ومعسكرا له ، وسماها برمسيس أو مدينة رعمسيس . وقد اندثرت الآن وحل محلها تل الحبر أو الهير ؛ وظن بعض الباحثين انها هى مدينة تيكو التى أسماها الرومان هيروبوليس ومكانها الآن تل المسخوطة .
(المترجم)

(١٧) كانت هذه المدينة فى واقع الأمر موجودة حين دخل الاسرائيليون ، بعد وفاة موسى ، أرض كنعان ، لكنهم لم يستحوذوا عليها بشكل مطلق الا فى عهد داود .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما العبرانيون ، الذين كانوا قد وجدوا قبل ذلك فى مصر ، مأوى وحماية ، بسبب أصلهم المشترك وتطابق عاداتهم وتقاليدهم مع عادات وتقاليد الرعاة (العرب) فقد واصلوا سكنى هذه المنطقة ، وجرت عليهم نفس أقدار المهزومين ، وانسحب عليهم ما كان يكنه الوطنيون من أحقاد نحو هؤلاء الرعاة ، وأخذ الوطنيون يشيرون الى هؤلاء وأولئك ، دون مواربة ، باسم الأنجاس أو المجذومين .

وقد ظل الأنجاس ، وهى تسمية كان يندرج تحتها كذلك المصريون الذين تمثلوا بعض ممارسات الرعاة الدينية ، يتمتعون فى مصر ، مع ذلك ، بقدر محدود من الحرية حتى عصر أمينوفيس ، والد سيزوستريس الشهير ؛ بل لعل القوم قد تركوا كذلك لعدد من القبائل مقاطعات صغيرة، ضئيلة الأهمية ، على تخوم صحراء ، أو فى مستنقعات مصر السفلى ، وهو امر لا يزال يتم حتى اليوم مع البدو . وقد آمن أمينوفيس ، يدفعه فى ذلك الكهان ، انه سوف يتقرب الى الآلهة ، باضطهاده للرعاة ، وكل المصريين الذين لم تعد عقيدتهم — فى رأيه — خالصة نقية ، فجمع عددا كبيرا منهم ، أستخدمهم فى قطع الأحجار من جبل المقطم .

وبعد ذلك ، دفعت بعض المخاوف الأسطورية، والمتطيرة ، امينوفيس لأن يسمح لكل هؤلاء البؤساء بالانسحاب الى أرض جاسان ؛ وهناك اختاروا رئيسا لهم ، واحدا من كهنة هليوبوليس اسمه أوزرسيف ، كان قد نفى معهم بسبب آرائه الدينية دون شك ؛ ولحق به وانضم اليه كهان مصريون آخرون كانوا يشاطرونه معتقداته ، وتبع هؤلاء كل الأشخاص الذين يريدون الفرار من اضطهادات واقعة أو يخشون من حدوث اضطهادات جديدة ، لأنهم يفكرون بالطريقة نفسها ، وقد أعطى أوزرسيف لهذه الألوف من المنشقين المصريين ، وللقوم من جنس الرعاة ، ديانة خاصة كانت بالضرورة خليطا من ديانتى هذين الشعبين ، وامر هؤلاء الا يتصاهروا الا فيما بينهم ، ولكى يحول دون حدوث أى صلح بين هؤلاء وبين المصريين ، أباح لأتباعه أن يأكلوا حيوانات كانت تعد مقدسة عند هذا الشعب وأصدر تعليماته لهم بهدم تماثيل آلهة مصر .

وقد كانت النتيجة الحتمية للاضطهادات الدينية من جانب امينوفيس، والحروب والثورات ونوبات الغزو الأجنبي التي نبحث عنها ان اضطر

عدد كبير من العائلات أن تبحث لأنفسها ، ومعها آلهتها عن وطن جديد. وعلى هذا ، يكون هذا الوقت هو الفترة المحتملة التى نشأت خلالها مستعمرات عديدة فى بلاد الاغريق ؛ فان رأى البعض أن هذه الديانة لم تكن هى ، على وجه الدقة ، نفس الديانة المصرية القديمة فاننا نضطر الى الظن بأن مؤسسيها كانوا من هؤلاء الرعاة القدماء الذين لم يقتفوا جميعا — وهذا مرجح — معتقدات أوزرسيف ، والذين كانت لهم ، بالضرورة ، فى عاداتهم أوجه شبه مع الفينيقيين والمصريين (١٨) ، باعتبارهم

---

(١٨) فى واقع الأمر فان الاحتمال ضئيل فى أن يكون المصريون قد أسسوا المستعمرات العديدة التى تنسب اليهم عادة ، فهم الذين أغلقوا لوقت طويل للغاية أبوابهم فى وجه تجارة البحر الأبيض المتوسط اذ كانوا ينفرون من هذا البحر ويكنون له الكراهية ، كما أنهم أخيرا كانوا يرتبطون بروابط كثيرة بمسقط رأسهم ، لأنهم أثرياء ، تجمعهم دولة وحكومة ، وتتحكم فيهم الأساطير الدينية ؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة للرعاة ، فأمة تتكون من قبائل متفرقة يصعب عليها أن تظل متحدة ؛ فالرؤساء القلقون أو الساخطون ينعزلون بأنفسهم ، ويسعون لأن ينشئوا لأنفسهم مؤسسات أو أنظمة خاصة بهم ، ولم يكن الرعاة الذين فتحوا مصر يتعلقون ببلد أكثر مما يتعلقون بآخر ، لقد كانوا رحلا ومقاتلين ، وسرعان ما قدر عليهم أن يعملوا بالملاحة ، على طريقة هؤلاء العرب — وهم من نفس جنسهم ، وقدموا من نفس صحراواتهم — الذين حملوا معهم الى أسبانيا ، فى القرن الثامن (الميلادى) ، الفنون والعلوم التى أرادوا هم أنفسهم قبل ذلك بوقت قصير أن يمحوا كل أثر لها ، حين حرقوا مكتبة البطالمة [سبق لنا أن دحضنا هذا الافتراء عندما نقلنا رأى جاستون فييت بهذا الخصوص عندما ورد مثل هذا الزعم فى دراسة جراتيان لوبير عن مدينة الاسكندرية ؛ انظر المجلد الثالث من الترجمة العربية — المترجم] .

اذن فيبدو مما لا ريب فيه أن هؤلاء الذين نقلوا الى اليونان فنون مصر ، هم هؤلاء الرعاة الذين أدى بهم استحواذهم الطويل على مصر لأن يتمثلوا هذه الفنون . وهذا الرأى هو نفس رأى فريريه Fréret وهو لا يسلب قط عن مصر العليمة مجد أنها أمدت اليونان بالبذور الأولى لحضارتهم ، وهى بذور ثمينة دون شك ، لكنها قد تطورت وتقدمت بسرعة بالغة تحت سماء اليونان الناضرة ، موطن ربات الفن والجمال حيث ارتقى الجنس البشرى لأسمى درجات النبل والحرية والسعادة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينتمون أصلا الى الشرق ، وتطبعوا بهذه الخصال على ضفاف النيل بفعل سلسلة طويلة من الأجيال ، واذا لم يكن كتاب آريوس ، ملك لاسيديمونيا الى أونياس كبير أحبار اليهود ، مزيفا قط ، فانه يأتي ليدعم هذا الرأى ، الذى يعطى العبرانيين وبعض أمم الأغريق ، أصلا مشتركا (١٩) .

واخيرا فان علينا أن نجعل مولد موسى يتم فى عهد امينوفيس هذا ، وأن نضع فيه أيضا أول الاضطهادات التى لحقت بالعبرانيين ، والذى تشير اليه التوراة .

وقد دفع الخوف من سطوة فرعون ، وكذلك ، ودون جدال، الرغبة فى الانتقام ، أوزرسيف لأن يطلب من رعاة الجودية أن يلحقوا به ، ليزحفوا معا لفتح مصر ؛ وذكرهم بأنهم كانوا من قبل قد تملكوا هذه البلدان الثرية، وبأن قد لحقت بهم (هناك) اهانات ينبغى الاقتصاص فيها ، وهرع اهالى أورشليم الى أفاريس استجابة لنداء اخوتهم ، وانضموا اليهم ، وحملوا على مصر « فلم يكن ثمة ضرب من ضروب القسوة لم يرتكبوه ، كما يقول مانيتون ، ولم يكتفوا باحراق المدن والكفور وتحطيم صور الآلهة ، وانما قتلوا حتى الحيوانات المقدسة ، وأرغموا الكهان المصريين والعرافين بأن يكونوا هم ذابحيها ، ثم أطلقوهم بعد ذلك عراة كما ولدتهم أمهاتهم » .

وانسحب امينوفيس الى ماوراء الشلالات على حدود مملكته ، وثبت هناك بدعم من الأثيوبيين مدة ثلاثة عشر عاما يناوىء الرعاة ؛ وفى

---

(١٩) واليكم ترجمة هذا الكتاب كما أورده المؤرخ يوسفوس « من ملك الاسبطيين (أصل لاكيدايمونيا) اريوس أويناى — تحية وسلاما . حدث أن وجدت فى بعض النقوش أن اليهود وأهل لاكيدايمونيا ينتمون لجنس واحد وان الأخيرين ليسوا بغرباء عن نسل ابراهام . لذلك فمن الأوفق — مادمنا اخوة — أن تطلعونا على كل ماترغبون فيه ، ونحن من جانبنا سنفعل الشىء ذاته ، ولسوف نعتبر شئونكم مثل شئوننا سواء بسواء ؛ وبالمثل سوف تكون بيننا وبينكم علاقات مشتركة ؛ وان ديموتيليس الذى يحمل هذه الرسالة هو الذى سيقوم بحمل رسائلنا ؛ وهذه الرسالة مدونة فى صفحة مربعة الشكل وتحمل خاتما هو عبارة عن نسر يصارع ثعبانا » .

نهاية هذه المــدة جمع قوات كبيرة ، ونزل الى مصر الســفلى وهــزم أوزرسيف ، وطارده ، ودفع نحو سوريا شتات جيشه .

واذا ماصــدقنا رواية مانيتون ، فلابد ان يكون أوزرسيف هو موسى نفسه ، ولابد أن يعترف المرء ان التشابه بينهما شــديد ، بل قــد يكفى الافتراض بأن الجودية كانت قــد تم غزوها على يد قبــائل اخرى ،فى الوقت ألذى كان سكانها فيــه يخربون مصر كى نفسر أقامة الاسرائيليين الطويلة (تيههم) فى الصحراء ، وكذا الحروب التى كان عليهم انيخوضوها كى يعودوا الى سوريا بعد أن تم طردهم من أرض جاســان . ومع ذلك، ناذا ماقبلنا ، فيما يتصل بالوقائع الأساسية ، أن يكون هذا الراى محددا للاطار العــام لذلك الذى جاء فى أسفار موسى الخمســة ، فينبغى القول ايضا بأنه سيظل يوجد فى قصــة موسى ، اذا ماتبنينا هــذا الراى ،عدد هائل من الأحداث لابد ان نلقى بها جنبا الى جنب مع الأساطير . وفضلا عن ذلك ، فمن السهل أن نوائم بشكل افضل بين ما جاء بكتب العبرانيين وبين ما جاءت به كتب التاريخ الدنيوية ؛ وهكذا نستطيع، على سبيل المثال، القول ، مرتكزين على أسس كافية بأن جزءا من الرعاة الذين هــزمهم امينوفيس قــد ظلوا أسرى فى مصر ، حيث فرضت عليهم اقسى درجات العبــودية ، وان القبــائل الاسرائيلية ، قــد تلفتت فاذا بهــا ضــمن هؤلاء العبيد .

فلنقبل اذن الفكرة القائلة بأن العبريين كانوا لا يزالون يقطنون مصر حين اعتلى سيزوستريس العرش .

ومع ذلك فان المباهج التى تمتع بها المصريون فى عهد هــذا الملك الشهير تحول دون أن ننسب لعهده تلك الكوارث التى خربت هذه المملكة وادت الى تخليص شعب الله . لقد كان سيزوستريس شــديد البأس ، لحد لايستطيع معه ان يخشى من هؤلاء العبد البؤساء ، الذين عرف كيف يفيد منهم حين استخدمهم فى اقامة الجسور وحفر الترع وبناء المدن ، وهى أعمال خلدته بأكثر مما خلدته فتوحاته .

وقد خلفه ابنه الذى يسميه هيرودوت فيرون فى حين يسميه ديودور سيزوستريس الثــانى ؛ لــكن الابن لم يرث لا فضائل ولا مواهب والده،

ويصوره التاريخ اميرا ضعيفا ، متطيرا ، يؤمن بالخرافات ، وقاسيا . ويبدو أن يد الرب ، على حد قول المؤرخين الدنيويين انفسهم ، قــد ثقلت عليه، ففاض النهر بدرجة غير مألوفة ودمر القرى والحقول وافزعت العواصف والأعاصير والسيول الشعب ، واصيب الأمير بعمى البصـــيرة حتى غمت عليه هذه العلامات التى تنذر بغضب السماء (٢٠) .

ونعتقد نحن من جانبا أن فى عهد هذا الأمير ــ ولابد ــ تمت عملية هروب العبرانيين الى الصحراء .

هروب العبرانيين الى الصحراء

بعد الهزيمة الماحقة التى حاقت بالرعاة ، أرغم العبريون على ترك الحياة الرعوية ، وبعد أن كانوا بدوا تحولوا الى فـــلاحين (٢١) وأرهقوا بالأعمال ، ولكنهم لم يستطيعوا طيلة العهد الطويل والمجيد لسيزوستريس أن يتملصوا من العبودية ، ومع ذلك ، فحين لقوا بعض المعاملة الانسانية بلا ريب ، تضاعفت أعدادهم وحيث قد بداوا يستوعبون حالتهم الجديدة، فقد كان كل يوم يمر ، يجعل من العسير عليهم اكثر من ذى قبل أن يخرجوا (من مصر) ، ثم ارتقى فيرون العرش وأثقل كاهــل العبرانيين بنير من حديد (٢٢) ، فلم يجد هؤلاء البؤساء الذين كانوا يئنون فى صمت أية نهاية لآلامهم الى أن ظهر بينهم واحد من أولئك الرجال غير العاديين الذين يبدون وكأنما قــد جاءوا خصيصا لتغيير أقدار أمتهم ، وكان موسى عند طفولته قــد جرفه الماء ، وكان هذا فى عصر امينوفيس ، وانقذت ابنته حيــاة الطفل العبرانى ، لــكنها لم تكتف بما قدمته اليــه من رعاية واحسان ، وانما امرت بتعليمه كل حكمة المصريين وعلومهم ، ومن المعروف أن العلوم والفنون فى مصر كانت فى ذلك الوقت فى أوج ازدهارها ؛ واذ اضــطر

(٢٠) هيرودوت ، الــكتاب الثانى ؛ ديودور ، الــكتاب الأول .

(٢١) لاتزال تغييرات مماثلة تحدث فى بعض الأحيــان فى مصر ، بين القبائل العربية التى استقرت فيها ، انظر دراستى عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٧٩ . [وانظر كذلك دراسة جومار عن العرب والعربان فى مصر الوسطى ، من هذا المجلد ــ المترجم] .

(٢٢) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث ، الآية ٧ .

موسى بعد موت تلك التى احسنت اليه لان ينجو بنفسه لائذا بالصحراء لقتله احد المصريين فقد فر الى البحر الأحمر ليقيم بين عرب مديان (مدين)؛ وذكره نمط حيـــاة هذه القبيلة بلا ريب بالزمن الذى كان ابراهام فيـــه يتجول فى عزلة بقطعانه ؛ وبدت له الحرية والاســـتقلال ، برغم ضروب المخاطر وصنوف الحرمان أفضل كثيرا من العبودية مع الوفرة والسكينة؛ وصمم مشروعه النبيل لقطع أغلال العبرانيين .

وعند قمـــة جبل حوريب ، وســـط البروق والرعود ، وعلى مشهد البحر الهـــائج والصحراء الصموت ، تأمل طويلا ، فى عزلته بعيدا عن البشر ، مشروعاته الواسعة (٢٣) ؛ وفى النهاية رجع الى اخوانه ودعاهم للهروب ، وتذرع فى ذلك عند فرعون بأنهم سيقدمون أضحية فى الصحراء: « فدعا فرعون موسى وهارون وقال اذهبوا اذبحوا لالهكم فى هذه الأرض، فقال موسى لا يصلح أن نفعل هكذا ، لاننـــا انمـــا نذبح رجس المصريين للرب الهنا ، أن ذبحنا رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرجموننا ؟ » (٢٤) .

وتردد الملك : هل يعطى الاذن المطلوب منه أم يرفضه ، هل يخفف من شقاوات العبرانيين أم يضاعف منها ، ويتأرجح الملك بين هذا الموقف وذاك تبعا لدرجة الفزع الذى ينتابه كلما توالت الكوارث التى كانت تفكك وتدمر دولته * وعلى الدوام فان افكار الانسان المسبقة وخرافاته تربط أقداره بنظام الســكون .

ولقد وردت فى ذلك الجزء من الكتب المقدسة الذى تناول هذه الفترة وقائع كثيرة ، لـــكنها برغم خروجها عن كل مألوف ، تتوافق مع روايات المؤرخين الدنيويين (٢٥) ومع الحالة الراهنة لهذه البلاد ؛ فلا يزال الحواة

---

(٢٣) نجد فى حياة محمد [ص] خصوصية مماثلة ، فقد كان ينشد العزلة فى غار فى جبل حراء ، ويمضى هناك خمسة عشر يوما (كذا!) فى حياة العزلة قبل أن يعلن نبوته . وليست هذه وحـــدها فقط هى نقطة التشابه التى نجدها بين هذين المشرعين (كذا!).

(٢٤) سفر الخروج ، الاصحاح الثامن ، الآيتان ٢٦و٢٧ .

* بسبب غضب الرب عليه لرفضه السماح بخروج بنى اسرائيل من مصر كما يشرح ذلك سفر الخروج . (المترجم).

(٢٥) هيرودوت ، ديودور .. الخ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هناك حتى اليوم يأتون مع الثعابين بأشياء خارقة تعد من قبيل المعجزات؛ فهم يستدعونها وينومونها ويخدرونها حتى تظن أنها قد ماتت ، ويعلمونها كذلك كيف تنهض واقفة وتتبع سيدها على هذه الحال ، ثم يخبئونها فى ثنايا ثيابهم ويتلفعون بها حول رقابهم دون أن يخشوا أن تلدغهم ؛ولعل جراح مصر التى لا تندمل تتمثل فى مياه النيل ، الصفراء والخضراء ، المعكرة والضارة فى بعض الأوقات ، والتى يمكنها على نحو يكاد يكون ثابتا ، وحين تتغير أحوالها بغتة عاما ما ، أن تروع الشعب ، كما تتمثل فى الحشرات من كل نوع ✻ تلك التى تكثر بوفرة فى بعض الأحيان فى مصر وبطريقة مفزعة فى كل مكان تشتد فيه الحرارة والرطوبة(٢٦) ؛

✻ يتحدث سفر الخروج عن أن الرب قد ابتلى مصر بالضفادع التى كثرت حتى ملأت البيوت والأنهار ثم ابتلاها بعد ذلك بالبعوض .. الخ . (المترجم)

(٢٦) يمكننى أن أذكر هنا ، نقلا عن المؤرخين العرب ، سنوات كثيرة كانت فيها الضفادع والثعابين وفيرة حتى ظن الناس أنها تتساقط من السماء ، واكتفى بأن أورد هنا واقعة كان المقريزى نفسه شاهدا عليها ، وقد كتب فى هذا الخصوص : أنه فى العام ٧٩١ والأعوام التالية تزايد الدود الذى كان يهاجم الكتب والأقمشة الصوفية بشكل كبير فى المنطقة المحيطة بمرعى الزيات الواقع خارج القاهرة بين المطرية وسرياقوس ؛ وقد أكد له رجل أهل للثقة أن هذه الحشرات قد قرضت له ١٥٠٠ قطعة قماش تشكل حمولة اكثر من خمسة عشر جملا ، وحين دهش المقريزى من حادثة شاذة لهذا الحد فقد اتخذ طبقا لعادته كل الاحتياطات اللازمة كى يتأكد من الحقيقة . فشاهد بعينى رأسه أن الخسارة التى سببتها الديدان لم يكن (تقديرها) مبالغا فيه ، وأنها دمرت فى الجهات التى نحدث عنها كمية كبيرة من الخشب والأقمشة ، وقد شاهد بالقرب من المطرية جدران حديثة بها صدوع وتشققات طويلة وعميقة أحدثتها هذه « الحيوانات » الصغيرة . وفى نحو العام ٨٢١ تكررت هذه الكارثة فى حى الحسينية الواقع خارج القاهرة ؛ فبعد أن أتت الديدان على كل مايؤكل وما يلبس الخ ، وهو ماسبب للسكان خسائر لا يمكن حسابها ، هاجمت البيوت وقرضت العوارض التى تصنع السقوف حتى أصبحت هذه العوارض جوفاء تماما ، وأسرع الملاك بهدم البيوت التى غزتها الديدان حتى كاد الحى أن يكون قد دمر دمارا تاما . ثم مدت هذه الحشرات نطاق دمارها حتى بلغت البيوت التى تجاور بابى النصر والفتوح . ولم تكن تلفياتها هناك أقل عنها فى المدينة ومكة حيث قرضت الديدان سقف الكعبة — عن ترجمة ايتان كارتمير .

وفى الطاعون الذى يخرب هذه البلاد من وقت لآخر ، ويبدو فى معظم الأحيان وكأنما يصر على افناء جنس دون آخر ، وفى الرعود والبرد (بفتحة على الراء) ، نادرى الحدوث حتى أنه لايسمع بحدوثهما هناك ، وقد لايحدثان سوى مرة واحدة على مدار قرن بأكمله ، فهما اذا حدثا لن يسببا سوى الفزع الشديد ؛ وأخيرا فى أسراب الجراد التى تأتى من جوف الصحراوات ثم فى الظلام المؤقت الذى تسببه الدوامات الترابية التى ترفعها وتحملها رياح الخماسين ، وفى هذه الريح المؤذية نفسها والتى لايحس بها الناس فى كل أنحاء مصر ، دفعة واحدة (٢٧) .

فلنجنب اذن من وصف النكبات التى حلت بمصر تلك المبالغات الشاعرية المسموح بها ، لشخص يحلو له أن يسترسل فى وصف الظواهر التى استخدمها لتخليص شعبه وسوف ترى كل سطوة لها قد خبت ، ومع ذلك فان تتابع أحداث كثيرة غير مألوفة ، برغم كونها مع ذلك ظواهر طبيعية ، مع مالها من نتائج على قلب فرعون القاسى ، يمكنه أن يعد برهانا قويا على حماية الرب .

فهذا الحاكم فى الواقع لم يستطع أن يقاوم شكاوى رعيته التى كانت تنسب آلامها ومصائبها ، بعد أن أصابها طاعون فتاك ، الى رقيات « الأنجاس » المؤذية فاعتقدت الرعية أن ابعاد هؤلاء ، سيجعل الآلهة اكثر لطفا بها : « فدعا — أى فرعون — موسى وهارون ليلا ، وقال قوموا اخرجوا من بين شعبى أنتما وبنو اسرائيل جميعا » (٢٨) .

---

(٢٧) عندما تهب الخماسين ، تصبح الشمس ذات صفرة كابية ، وتنحبس أشعتها ، وتزيد العتمة فى بعض الأحيان حتى يظن المرء أننا قد بتنا فى ليل شديد الحلكة ، على النحو الذى رأينا بأنفسنا عند منتصف النهار ، فى قنا ، احدى مدن الصعيد ، ويورد بعض المؤرخين العرب ، أنه عندما غزا السلطان سليم مصر ، فان السماء قد وهبته نفس « الخدمة » التى قدمتها لموسى ، فقد حجبت سحابات كبيرة سوداء ، مسيرة جيشه ، عن عدوه طومان باى .

(٢٨) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى عشر ، الآية ٣١ .

مسيرة العبرانيين فى الصحراء

حتى المنطقة التى عبروا عندها البحر الأحمر

رحل الاسرائيليون من أرض جاسان ، ولا يمكن أن تكون هذه المنطقة سوى منطقة السبع أبيار الممتدة الى الشرق من مصر نحو سوريا ، لأننا نقرأ فى سفر التكوين (الاصحاح السادس والأربعين) انه عندما غادر يعقوب ضواحى غزة كى يذهب الى مصر ، أرسل يقول ليوسف الذى كان يقيم فى ممفيس أن يأتى للقائه « فأرسل يهوذا أمامه الى يوسف ليرى الطريق أمامه الى جاسان ثم جاءوا الى أرض جاسان » ؛ وقد ترجم النص على هذا النحو فى التوراة اللاتينية * « وأرسل يعقوب يهوذا أمامه الى يوسف لينبئه بمجيئه لكى يأتى هو أمامه فى أرض جاسان » ؛ فقد كانت أرض جاسان اذن تقع على الطريق بين ممفيس وغزة ، وقد منحت للاسرائيليين بالطريقة نفسها التى منحناها بها ، أثناء اقامتنا فى مصر ، لثلاث قبائل عربية(٢٩) ، جاءت ، كما جاء العبرانيون ، من سوريا .

أما وقد عرفنا نقطة البدء ، فسوف يكون من السهل علينا أن نتتبع مسيرة الاسرائيليين ؛ كان موسى يريد أن يقودهم الى ضواحى جبل سيناء ، وكان واثقا أنه سيقابل بالترحاب من عرب مدين ، لأنه عاش طويلا بينهم ، وتزوج من (صفورة) ابنة كاهنهم يثرون ، وكان طريقه المباشر يقتضى المرور شمال البحر الأحمر ، لكنه خشى ان هو اقترب أكثر مما ينبغى من بلاد الفلسطينيين أن ننهض ضد الاسرائيليين حروب تجعلهم يأسفون لفراقهم مصر ويعتزمون العودة اليها (٣٠) ؛ ولذلك فقد

---

* الـ Vulgate هى الترجمة اللاتينية للتوراة ، وهى المستعملة فى الكنيسة الكاثوليكية ؛ وقام بالجزء الأكبر من هذه الترجمة سان جيروم ، وقد قرر مجمع الثلاثين فى العام ١٥٤٦ أن يعد هذا النص المرجع الأوحد للتوراة . (المترجم)

(٢٩) وهذه القبائل الثلاث هى : ترابين (أو طرابين) الكبرى . عرب طحا (أو عرب طه ؟) ، والأناجير ، وكان هؤلاء فى ذلك الوقت فى حرب مع باشا غزة الذى كان قد دبر لاغتيال كبار شيوخهم .

(٣٠) سفر الخروج : الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٧ [وهذا هو نصها : « وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة ، لأن الله قال لئلا يندم الشعب اذا رأوا حربا ويرجعوا الى مصر »] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آثر موسى أن يسير بحذاء الساحل الغربى للخليج العربى * ، وتجنب بذلك ، فى الوقت نفسه ، أن يثير ، لأكثر من اللازم ، وفى وقت مبكر ، الريبة فى عزمه على الهروب ، لدى فرعون ، الذى أعطاه الاذن بأن يقود شعب الله فى الصحراء لتقديم الأضحيات ، ولهذا فان موسى ، كما جاء فى سفر الخروج نفسه قد أمر بأن يقوم العبرانيون فى مسيرتهم بلفة طويلة ، وصحبهم ، متخذين طريق الصحراء التى تقع بالقرب من البحر الأحمر (٣١) .

لكن الوضع الحالى للخليج العربى سوف يحول فى الواقع دون تصور كيف وجد الاسرائيليون أنفسهم على الفور على شواطئه عندخروجهم من أرض جاسان ، ان لم يكن المرء على بينة من أن الخليج ، فى الفترة المتأخرة التى نحن بصددها ، كان يمتد الى مسافة قريبة من منطقة السبع ابيار : وتأتى طبيعة الأرض بين هذه النقطة وبين مدينة السويس ، مع ترسيبات القواقع البحرية ، وعدد لا حصر له من ملاحظات جغرافية أخرى ، تضاف اليها شهادات القدماء — لتعطى لهذا الرأى ، على أقل تقدير ، أكبر قدر من الترجيح (٣٢) وهكذا يمكننا أن نتصور كيف

---

* البحر الأحمر .

(٣١) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٨ [وهذا نصها : « فادار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف »] .

(٣٢) وهذا دليل جديد على صحة رأيى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر . أنظر دراستى حول هذا الموضوع ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ١٨٧ [المجلد الثالث من الترجمة العربية] ولكننى اكتفى هنا بنقل هذه الفكرة عن نيبور Niebuhr ، والتى لم أكن أعرفها فى حينها ، والتى تتفق مع أفكارى : « ويقول الرحالة دانوا Danois : ان شاطىء البحر قد تغير هنا كما حدث له فى أماكن أخرى ؛ ويقابل المرء على كل ساحل الجزيرة العربية آثار انحسار البحر ، فعلى سبيل المثال مخا التى يقول عنها كل القدماء بأنها كانت ميناء العربية السعيدة (اليمن) تقع اليوم بعيدا عن البحر بفراسخ عدة ، ونرى اليوم بالقرب من الوجة وجدة تلالا كبيرة تمتلىء بالمرجان والقواقع من الأنواع نفسها التى نراها حية فى الخليج العربى (البحر الأحمر) ، وتوجد بالقرب من السويس تكلسات من كل هذه الأشياء . وقد رأيت على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ نحو الغرب من هذه المدينة أكمة من القواقع الحية فوق صخرة لاتغطيها المياه الا بفعل حركة المد والجزر . وهى عالية لحد لاتبلغها معه مياه هذه الحركة ، اذن فمنذ الوفعدة من السنين كان الخليج العربى أكبر اتساعا ، كما كان يمتد لأكثر من ذلك تجاه الشمال ، وبصفة خاصة ذراعه القريبة من السويس ؛ لأن الشط عند هذا الطرف من الخليج بالغ الانخفاض » .

سار الاسرائيليون ، فى ذلك الوقت ثلاثة ايام بالقرب من البحر الأحمر لكى يصلوا الى النقطة التى يحدد عندها الأثر طريقهم الذى شقته لهم المعجزة بين الأمواج .

كان محطهم الأول يسمى سكوت ، وهى كلمة تعنى الخيمة ، ويمكنها ان تدفع الى الظن بأن هــذا الاسم لاينطبق أبداً علىٰ مدينة قديمة وانما على مجرد معسكر . وزيادة على ذلك ، فهناك خرائب عديدة على حواف الأرض التى هجرها البحر ، وهذه أو تلك يمكنها أن تنتمى الى ســكوت وفى اليوم التالى عسكروا فى ايثام عند طرف « البرية » (٣٣) .

ويدفعنى هذا الموقع لأن اجزم انه بير السويس (٣٤) ، الذى يقع فى الحقيقة ، وكما يبدو ، عند طرف الصحراء اذا كنت قادما من جهة السبع ابيـــار ، لأن البحر ، باتخاذه شكل مرفق يتجه الى الغرب ، يبدو ،عند اتصاله بسلسلة جبل عتاقة العالية ، وكأنه يشكل النهـــاية الجنوبيـــة للصحراء : وفضلا عن ذلك ، فان المياه العذبة بالغة الندرة فى كل هذه المنطقة ، كما أن الآبار ، ولابد ، هى التى تحدد النقاط التى تحط عندها القوافل .

وبعد ذلك تحدث الرب الى موسى قائلا : « كلم بنى اسرائيـــل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون » (٣٥)

---

(٣٣) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ٢٠ .

(٣٤) بير السويس تعنى البئر الموجودة بمدينة السويس ؛ ويقع هذا المكان على مسافة نحو الفرسخ الى الشمال الغربى من السويس :وهو يشتمل على سورين صغيرين متلاصقين ، ومهشمين جزئيـــا ، وينســـب بنـــاؤهما الى السلطان سليم الأول . ووسط واحد من هذين السورين توجد بئر لمياهها مذاق غير مستساغ تفوح منها رائحة هيدروجين كبريتى . ولا تستخدمها فى العسادة الا الحيوانات ، ولـــكننى شربت منها دون أن اشعر بقرف ، وكذلك فعلت السرية التى صحبتها معى . فقد وصلنا الى هنـــا بالغى الظمأ وبعد نهار شديد القيظ ومسيرة مرهقة على الأقدام ، وقضينا منه الثمانية عشرة ساعة الأخيرة دون أن نشرب . ويلمح المرء خارج السور بقايا مجرى مائى كان يستخدم فيما مضى فى توصيل ميـــاه البئر الى السويس .

(٣٥) سفر الخروج ، الاصحاح الرابع عشر ، الآية ٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن السهل أن نتبين سبب هذا الارتداد الى الخلف ، فلعل فم الحيروث ان يكون مكانا حصينا به حامية مصرية . وفى الواقع فان المرء يرى أن الاسرائيليين لم يدخلوه قط ، وانما عسكروا تجاهه على شاطىء البحر ، وهناك كان عليهم أن يعبروا ، وأمكنت حاجتهم للماء العذب أن تدفعهم إلى اجتياز هذه النقطة فى اليوم التالى ؛ وبمعنى آخر ، فعلى بعد نحو ثلاثه فراسخ من بير السويس ، مع الارتداد نحو وادى السبع أبيار ، نجد قصرا قديما وحصينا يسمى الها جيروث (العجرود) ؛ وفى النص العبرى نجد أن المقطع Phi (فى) ينفصل بصفة دائمة عنكلمة الحيروث، بل لقد حذف تماما فى الآية الثامنة من الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد ✻ . ويعتقد أن كلمة Phi أو Pi (فى أو بى) كانت هى أداة التعريف فى اللغة المصرية ثم ظلت كذلك فى اللغة القبطية . اذن فقد كان المحط الثالث يسمى هاهيروث ؛ وهذا التشابه مع كلمة هاجيروث (العجرود) لابد فى رأيى أن يسترعى الانتباه .

عبور البحر الأحمر

تجاه الهاجيروث ، على وجه التقريب ، تكونت نحو الجنوب الشرقى، كتلة الرمال التى اقتطعت من البحر الأحمر هذا الحوض الواسع الذى نجده اليوم الى الشمال من هذا البحر . والذى لاتزال تربته ، وهى أدنى بكثير من أدنى حركات المد والجزر ، تحمل كل الخواص الدالة على اثر المياه ، ومع ذلك فقد كان من الضرورى ، قبل أن تكون هذه الكتلة من الرمال قد ارتفعت لحد يكفى لصنع بحيرة من الطرف الشمالى للخليج العربى ، أن يتبقى فى هذا المكان مستنقع ظل الخوض فيه مستحيلا ، لوقت طويل ، حتى عند حدوث نوبات المد الواطئة .

ومن المحتمل أن يكون الاسرائيليون قد اتبعوا موسى عند هذه المخاضة ؛ فهذا الرجل الشهير ، الذى تربى على حكمة وعلوم المصريين، والذى لاذ لوقت طويل بشواطىء البحر الأحمر ، كان يعرف امكانيةعبورها

✻ وتقول هذه الآية : « ثم ارتحلوا من أمام الحيروث وعبروا وسط البحر الى البرية .. الخ » .

وهنا نلاحظ غياب كلمة فم التى يشير اليها المؤلف بالمقطع فى أو بى الوارد فى الآية الأولى منالاصحاح الرابع عشر منسفر التكوين (المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سيرا على الأقدام من عند هذه النقطه ، فى حين كان على عبيد بؤساء، غارقين فى أحط درجات الجهالة ، والذين لم يخرجوا قط من مصر من قبل، أن يعتقدوا ، عند ظهور الجيش المعادي من جانب ، ووجود البحر من الجانب الآخر ، ان خط الرجعة قد قطع عليهم (٣٦) ؛ ويورد فلافيوس جوزيف (٣٧) أن الاسرائيليين كانوا محصورين بين الجيش المصرى والبحر وصخور وعرة ؛ ويتفق هذا الوصف تماما مع الوضع الذى أنسبه للجيش الاسرائيلى ، اذ أن سلسلة الجبال التى يلمحها المرء الى الجنوب تتوغل فيما يبدو حتى الشط .

ولقد كان مع فرعون ، فى جيشه ، دون ريب ، أشخاص كثيرون، لم يكونوا ليجهلوا النقاط التى يمكن اجتياز البحر عندها ، ومع ذلك ،فاذا اكتفى فرعون بأنه قد أصبح على مرأى من الاسرائيليين ، فقد كان من الطبيعى للغاية أن ينشد الراحة للفرق العسكرية التى أرهقتها مسيرة لابد انها كانت بالغة التعجل دون أن يخشى ، مجرد خشية ، أن يتمكن هؤلاء البؤساء الشاردون ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ، من الافلات منه؛ أما موسى ، فقد أفاد من الضباب أو دوامات الرمال التى يتحدث عنها الكتاب المقدس ويسميها « غبارا » ليخفى مسيرته عن العدو ، كما أمكنه ان يستغل نوبة المد الوطيئة لكي يخوض البحر على رأس العبرانيين. وقد اعترض بعض بأن عدد هؤلاء كان كبيرا لحد لا يمكنهم من اجتياز البحر فى تلك المسافة من الزمن ، التى تفصل بين حركة مد وأخرى ؛ ومع ذلك فلابد ان نتوخى الحذر عند وقوفنا على روايات المؤرخين ، عندما يحتمل أن تكون هذه قد جاءت متأثرة بفعل الكبرياء القومى (٣٨) . وفى هذا الصدد ، على سبيل المثال ، فان مانعرفه عن طبيعة الصحراء والقبائل التى تسكنها ، يحملنا على الاعتقاد أن بعض اليهود ، من أولئك المتحمسين للغاية لمجد أمتهم، سوف يستبيحون لأنفسهم، فى الأصحاح الأول

(٣٦) كذلك توجد فى البحر الأحمر ، تجاه السويس ، مخاضة يتردد عليها البدو ، وتجهلها غالبية سكان مصر .

(37) Antiquités Judaïques, liv. II Ch, 6.

(٣٨) فلنستبدل ، على سبيل المثال بكلمة ملك كلمة شيخ ، عندئذ سوف يمكننا أن نتصور كيف يستطيع يشوع أن يهزم فى معركة واحدة ٣١ ملكا (أنظر سفر يشوع) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من سفر العدد واحدة من هذه التحريفات التى يعترف الكرادلة والمجامع المقدسة بامكانية وجودها فى الأسفار الخمسة. (٣٩) ؛ وتكفى ظروف نشر هذه الأسفار نفسها لتوليد الشكوك ، ان لم يكن بخصوص الوقائع الأساسية ، فعلى الأقل بخصوص التفاصيل ، لاسيما عندما يتعلق الأمر، كما هو الحال هنا ، بدقة العدد ؛ فمن المعروف فى واقع الأمر أن كتاب الشريعة قد نشر لأول مرة فى أرض مواب « فى عبر الأردن، فى أرض مواب ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة » (٤٠) . اى بعد اربعين عاما من خروج العبرانيين من ارض مصر (٤١) ، ولم يكن قد ظل على قيد الحياة ، عندئذ ، فى كل اسرائيل ، ممن شهدوا الوقائع التى وردت بالأسفار (الخمسة) سوى اثنين هما : يشوع بن نون وكالب بن يفنة (٤٢) ، اللذان كانا متعاونين على الدوام مع موسى (٤٣) الذى باركهما وجعل منهما وارثى سلطته ، لقد كان الأبناء الذين لم يكونوا بعد يعرفون كيف يميزون أن يتبصروا الخير والشر ، حين كان آباؤهم يعسكرون فى صحراء فاران ، كانوا — وحدهم — الذين نالوا من الرب الاذن بدخول

---

(٣٩) عندما كان مصلحو القرن السادس عشر يسعون لاحراج بلاط روما بأن يجابهوه على الدوام بالكتب المقدسة ، كان رجال الكنيسة ، من حائزى ثقة البابا والمقربين اليه يقولون بصوت عال : ان هذه النصوص تستمد قداستها من تبنى الكنيسة لها ؛ ولم يقتصر التشيع لهذه الفكرة على رجال خاملى الذكر، بل ان قاصدا رسوليا فى مجمع الثلاثين ، هو الكاردينال وارمى Warmie لم يخش من مغبة أن يعلن فى مؤلف مطبوع انه لو لم تكن الكنيسة قد احتضنت الكتاب المقدس وبشرت به كمشروع كنسى لما استحق هذا الكتاب الكثير من الاعتبار أو طبقا لنص كلماته : « ذلك انه من المؤكد أن مؤلفنا (الكتب المقدسة) هذا كان سيغدو عملا ضئيل الأهمية ، لولا أن سلطة الكنيسة قد علمتنا أن هذه الكتب المقدسة كتب أصيلة » ؛ وفى النهاية ، فان أكثر آباء الكنيسة علما من امثال اوريجين وسان أوغسطين لا يأخذون بالمعنى الحرفى للتوراة على اطلاقه ، ويرون فيما ورد فيها رموزا واستعارات .

(٤٠) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٥ ؛ والاصحاح ٢٩ الآية الأولى ، الاصحاح ٣١ ، الآيتان ٩ ، ٢٤ .

(٤١) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٣ .

(٤٢) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآيات ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ .

(٤٣) سفر العدد ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأرض الموعودة (٤٤) ، فهل كان بمقدور هؤلاء ، وقد أصبحوا رجالا ، أن يعرفوا حقيقة اعداد قبائلهم عندما غادرت مصر ، وأن ينحو جانبا شهادة رجل كان هو نبيهم ، وفى الوقت نفسه مشرعهم وحاكمهم المطلق المرهوب (؟) أولسنا نعرف بأية سهولة يتبنى الرجل المتمدين ، كما يفعل الرجل المتوحش ، اكثر المبالغات بعدا عن العقل اذا كان الأمر يتعلق بقوة أمته وعدد من هزمتهم من الأعداء ؟ وأخيرا ، فان شريعة موسى فى أورشليم كما فى السامرة قد هجرت فى غالبية الأوقات من أجل عبادة آلهة مزيفة ، ولقد ضاعت الكتب المقدسة الأولى ثم عثر عليها من جديد ، واستوجب الأمر مرات عديدة تجديد الشعب اليهودى عهده مع الرب .لذلك فلا ينبغى أن يخالجنا الشك فى أن بعض تغييرات طفيفة قد حدثت للأسفار، وان بعض الأخطاء فى الأرقام على وجه الخصوص تتسرب اليها حين يكون للكبرياء القومى بعض المنفعة من وراء الترويج لها (٤٥) .

وبمجرد أن علم الفرعون أن العبرانيين قد اجتازوا البحر ، أخذ فى ملاحقتهم ، واقتفت قواته ، مدفوعة بالحماسة التى تؤججها خطواتهم دون أن تلقى بالا لمد البحر الذى لن يدع لها الوقت الكافى لبلوغ الشط المقابل ، فانتقذ المد بعضا منهم وابتلع آخرين . وعلينا أن نضع فى الاعتبار تلك

---

(٤٤) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٣٩ .

(٤٥) حين تعبر الأعداد عن نفسها بالأرقام فمن الممكن أن تقترف اكبر الأخطاء من مجرد جرة قلم ، وخصوصا اذا كان لهذه الأرقام تشابه كبير فيما بينها ولها فى الوقت نفسه قيم شديدة الاختلاف . ويضاف الى أخطاء النساخ هذه خطأ من نوع آخر ؛ واذا شئنا على سبيل المثال أن نبين الى أى حد يمكن أن يؤدى سهو مترجم ما ، أو سعيه وراء كل ماهو عجيب أو غير مألوف ، الى تحريف مؤلف ما ، فلنفتح التوراة اللاتينية ، سفر الخروج ، الاصحاح الثانى والثلاثين ، وسنجد فيه أن موسى بعد حادثة عبادة العجل الذهبى قد أمر بقتل ٢٣ (ثلاثة وعشرين) الفا من الاسرائيليين، فى حين نجد الأمر فى النص العبرى ، وفى الترجمة السبعينية يتناول ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، وهو تقدير كبير مع ذلك ، وهناك خطأ آخر اكبر ، وهو الذى اقترفه المترجم نفسه حين قدر بـ ٥٠٠٧٠ (خمسين الفا وسبعين) عدد سكان بيشان المضروبين بالموت عند عودة التابوت فى حين كان عليه أن يقول ان من بين هؤلاء الآلاف الخمسين هلك سبعون ، وقد نقلت هذه الأرقام (ثلاثة وعشرين الفا ، وخمسين الفا وسبعين) الى ترجمات أخرى نقلت عن التوراة اللاتينية ، ولعلها قد تذكر ذات يوم ، دليلا على دقة الأعداد ؛ وهذا مثال يوضح كيف يتخذ الخطأ بتكراره ، شكل الحقيقة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرياح القوية التى كانت تهب فى ذلك الوقت (٤٦) . وبذلك لن تعترينـــا الدهشـة [illegible]لان جزءا من المصريين قد ابتلعتهم الأمواج (٤٧) .

يبلغ المد عند السويس نحو المترين ؛ وفى أوقات العواصف ، حين تهب بشـدة رياح الجنوب ترتفع لمدى يبلغ فى بعض الأحيان ستة وعشرين ديسيمترا ؛ وهــذا اكثر من كاف لــكى يغرق المد جيشا كبيرا ؛ فاذا كان جيش المصريين لم يهلك قط بأجمعه ، وهومايوضحه فيما يبــدو صـــمت المؤرخين الدنيويين ، فيمكن افتراض ان هذا الجيش ، وقــد افزعه حجم الخسائر التى لحقت به ، ولأنه قــد بدأ يخشى فى ذات الوقت أن يكشف نفسه فى صحراء لايعرفها بالقدر الكافى ، لم يحاول قط ان يخوض البحر الأحمر عند نوبة المد المنخفض (الجزر) التالية .

وهكذا امكن الاسرائيليين ان يترنموا بهذا النشيد :

١ ــ « ارنم للرب فقد تعظم ، الفرس وراكبه طرحهما فى البحر ؛

٢ ــ « الرب قوتى ونشيدى ، وقد صار خلاصى ، هذا الهى فأمجده ، اله ابى فارفعه ؛

٣ ــ « الرب رجل الحرب ، الرب اسمه ؛

٤ ــ « مركبات فرعون وجيشه القاهما فى البحر ، فغرق أفضــل جنوده المركبية فى بحر سوف ؛

٥ ــ « تغطيهم اللجج ، قد هبطوا فى الأعماق كحجر ؛

٦ ــ « يمينك يا رب معتزة بالقدرة ، يمينك يا رب تحطم العدو ؛

٧ ــ « وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك ، ترسل سخطك فيأكلهم كالقش ؛ .

---

(٤٦) سفر الخروج ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٢١ .

(٤٧) فى العام السابع من نشأة الجمهورية الفرنسية ، شـــاهدنا الجنرال بونابرت ، وهو عائد من عيون موسى ، يريد أن يعبر البحر عند المخاضة الواقعة قريبا من السويس بدلا من تلمس الخطوط الـكنتورية لقمة الخليج ؛ وهو الأمر الذى يختصر طريقه لمسافة تزيد على الفرسخين؛ حدث هذا فى أول الليل ، وكان المد يعلو ، ثم ازدادت سرعة نوبار المد لدرجة لم يعد الانتظار معها ممكنا ؛ وتعرض الجنرال ومن معه لأشـــد الأخطار ؛ فى وقت كان معهم أدلاء من أهل البلاد .

٨ — « وبريح انفك تراكمت الميـــاه ، انتصبت المجارى كرابية ، تجمدت اللجج فى قلب البحر ؛

٩ — « قال العدو اتبع ادرك أقسم غنيمة ، تمتلىء منهم نفسى ، أجرد سيفى، تفنيهم يدى ؛

١٠— « انفخت بريحك فغطاهم البحر ، غاصوا كالرصـــاص فى ميــاه غامـــرة ؛

١١— « من مثلك بين الآلهة يا رب ، من مثلك معتزا فى القداسة ،مخوفا بالتسابيح ، صانعا عجائب ،

١٢— « تمد يمينك فتبتلعهم الأرض ؛

١٣– ترشد برأفتك الشعب الذى فديته، تهديه بقوتك إلى مسكن قدسك ؛

١٤— « يسمع الشعب فيرتعدون ، تأخذ الرعدة سكان فلسطين ؛

١٥— « حينئذ يندهش أمراء أدوم ، أقوياء موآب تأخذهم الرجفة ،يذوب جميع سكان كنعان ؛

١٦— « تقع عليهم الهيبة والرعب ، بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر حتى يعبر شعبك يا رب ، حتى يعبر الشعب الذى اقتنيته ؛

١٧— « تجىء بهم وتغرسهم فى جبل ميراثك ، المكان الذى صنعته يا رب لسكنك المقدس الذى هيأته يداك يا رب ؛

١٨— « الرب يملك الى الدهر والى الأبد ؛

١٩— « فان خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه الى البحر ، ورد الرب عليهم ماء البحر ، أما بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر ، (٤٨)

هكذا كانوا يشكرون السماء على خلاصـــهم ، كانت مريم النبيـــة (أخت هارون) ، وكانت نساء اسرائيـــل ، وقد انقسمن الى جوقات ، يكررن على صوت دفوفهن :

« رنموا للرب فانه قد تعظم ، الفرس وراكبه طرحهما فى البحر » .

---

(٤٨) سفر الخروج ، الاصحاح ١٥ ، الآيات من ١ الى ١٩ .

فلو شاءت بعض العقول المدققة ان تتبين معنى هــذا التعبير الذى جاء فى التوراة : « فدخل بنو اسرائيل فى وسط البحر على اليـابسة ، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم » (٤٩) لجاءها الرد بأن الأمر لايعدو ان يكون اسلوبا مجازيا للتعبير عن أنهم كانوا يعبرون النهر عند مخاضة، ولمـا لم يكن ينبغى لهم ان يبتعدوا لا ذات اليمين ولا ذات الشمال ، فقد كانوا محصورين بفعل المياه فى مساحة بعينها كما لو كانوا بين بحرين . هكذا . ان ترانيم شاعر ما لا يصح أن تفسر بقدر أكبر من الصرامة ، كما أن الآية الخامسة من الاصحاح ١٥ والتى أوردناها من قبل ، تبين لنا كيف أن المصريين قــد سقطوا فى قاع البحر ، وليسـت المياه هى التى عاودت سقوطها فوقهم (أو انطباقها عليهم) (٥٠) .

وقد احتفظ الأثر لدى العربان البدو بذكرى عبور البحـــر الأحمر ، فنجد على شاطئه الشرقى – على بعد ثمانية عشر الف متر الى الجنوب من النقطة التى افترض أن الاسرائيليين قد عبروها – عيون ميــاه تسمى حتى اليوم عيون موسى .

ويعتقد بوكوك Pococke أن العبرانيين قــد خاضوا البحر تجــاه هذه العيون ، ولا يعطى سندا لقولته هذه الا أن هناك اثرا عن ذلك لايزال موجودا لدى البدو ؛ ومع ذلك فلو كان علينا أن نصدق فى هذا الصــدد ما يقول سكان الصحراء .

لتحدد المسلك المؤدى إلى موقع العيون الذى نسالهم عنه .

ويرجع الدكتور شو Shaw بنقطة العبور هذه الى الجنوب بدرجة ابعد ، ويجعلها محددة تجاه وادى التيه ، وهناك من المؤلفين من يعتقدون أن بحرا واسعا وعميقا هو الذى تتجلى فيه اكثر من غيره قدرة الاله .

(٤٩) سفر الخروج ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٢٢ .

(٥٠) يترتب على أخذنا تعبيرات الشعراء الأقدمين بمعنـاها الحرفى ان يختلط بالتاريخ كثير من الخرافات البعيــدة عن كــل عقل؛ ومع ذلك فليست هذه هى غلطة الشعراء بقدر ماهو خطأ تفكيرنا ؛ فعبارات مثل : امفيون الذى بنى طيبة على انغام قيثارته ، وأريحا التى انهدمت على صوت قرع دفوف بنى اسرائيل ، انما هى عبارات من السهل أن نعطيها المعنى الصحيح لها بقدر ماهو سهل ان نشرح هذا البيت من الشعر للشـاعر الفرنسى بوالو Boileau : كونديه ، هذا الذى يكفى مجرد ذكر اسمه ، لاسقاط الحصون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى مقابل ذلك ، فهناك آخرون يظنون ان بنى اسرائيل لم يعبروا البحر من شاطىء لآخر ، وانما هم — بعد ان دخلوا سريره (مجراه) فى حالة المد المنخفض ، انسحبوا نحو الأرض مع بدء ارتفاع نوبة المد ، مواصلين مسيرتهم فوق منحنى بيضاوى الشكل ، من جهة المياه ؛ وهذا رأى لاينهض على أساس ، وانما يبرهن فقط كيف يصبح المرء عرضة للخطأ حين يعمل محض خياله ، وفى جهل تام بالمواقع .

وهناك آخرون كثيرون كانوا اكثر توفيقا فى شرحهم عبور البحر الأحمر عن طريق المستنقعات ؛ فيتحدث أوزيب (٥١) Eusèbe ✻ عن شخص يدعى ارتابانوس Artapanus قد أورد هذا الرأى ناسبا اياه لكهان ممفيس ؛ وعندما خشى المؤرخ يوسيفوس أن تبدو روايته عن عبور البحر الأحمر بعيدة عن التصديق لدرجة كبيرة فقد قرر ان الشىء نفسه قد حدث للمقدونيين عندما عبروا بحر بامفيلى Pamphylie ✻✻ تحت قيادة الاسكندر ، واضاف « ومع ذلك فاننى أترك لكل امرىء أن يحكم على الأمر كما يشاء » . وهذا الاعتراف من جانب احد الأحبار ، وواحد من اكثر اعضاء الاكليروس اليهودى علما ، انما هو اعتراف ثمين للغاية لأنه يبين لنا ما كان عليه عندئذ رأى هذه الهيئة الدينية ؛ ولذلك فان لوما شديدا قد وجه الى يوسيفوس بسبب صراحته هذه ، من جانب اناس ظنوا ، برغم كونهم مسيحيين ، أن عليهم أن يبدوا اكثر منه فى يهوديته ، وهو مايستحيل على المرء ان ياخذ به عند قراءته لهذا المؤرخ، ومن بين المحدثين ، نجد نيبور Niebuhr ولوكليرك le Clerc يحددان السويس موقعا لهذا الحدث بسبب المخاضة التى تقع امام هذه المدينة ، ولم يك بمقدور هذين الرجلين أن يعتقدا ، مثلى ، أن العبور قد تم لابعد من ذلك ، قليلا ، نحو الشمال ، وعند نقطة لايشغلها البحر اليوم ، لأن

---

(51) Proepar, evang. lib IV, Cap. 17.

✻ أما أوزيب فهو مطران قيسارية ، وله مؤلف ضخم عن التاريخ الكنسى ، (٢٦٥ الى ٣٤٠ م) (المترجم)

✻✻ احدى مقاطعات آسيا الصغرى قديما وهى اليوم مقاطعة أضاليا ، وهو هنا يشير الى خليج يحمل نفس الاسم . (المترجم)

الحدود القديمة للبحر الأحمر لم تكن معروفة لهما ، ولأنه لم تكن قد حدثت بعد أية عمليات تفدين فى هذا الجزء من البرزخ ؛ وفوق ذلك فهذان الرايان لا يختلفان فيما بينهما الا بقدر طفيف للغاية حتى ليمكن للمرء أن يتبنى ، دون تفرقة، هذا الراى أو ذلك، فلقد كان موقع حصن هاجيروت أو الحيروث الذى ضرب أمامه الاسرائيليون خيامهم ، بالاضافة الى أن البحر فى الفترة المتأخرة كان فى الأرجح أكثر عمقا تجاه السويس مما هو عليه اليوم ـ كان هذا كله هو الذى قد حسم اختيارى (٥٢) .

وهكذا رأينا ، ماهو ، فى نظرى، التفسير الأكثر طبيعية لعملية عبور البحر الأحمر ، فأما أولئك الذين يضعون الحدث فى صف الخرافات فسوف يتفقون معنا ، على أقل تقدير ، أن يحتمل أن يكون الأمر قد حدث على هذا النحو ، وأما أولئك الذين يعتقدون بصحة وقوعه فلا تثريب عليهم ، دون ريب ، ان لم يجدوا من الضرورى أن ينقلب نظام الكون كى نتعرف على قدرة الله فى تخليص العبرانيين ، وفى الحاق الخسارة بالمصريين .

المياه المرة تصبح مياها عذبة

« ثم ارتحل موسى باسرائيل من بحر سوف وخرجوا الى برية شور، فساروا ثلاثة أيام فى البرية ولم يجدوا ماء ، فجاءوا الى مارة ، ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر ، لذلك دعى اسمها مارة ، فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب ، فصرخ الى الرب فأراه الرب شجرة فطرحها فى الماء فصار الماء عذبا » (٥٣) .

لو أن موسى قد كان يعلم خاصية هذا الشجر أثناء هربه الأول الى الصحراء لظل هذا السر محفوظا لديه (أو معروفا منه) ، ولوجدناه

---

(٥٢) لابد أن البحر قد كان فى ذلك الوقت ، أمام السويس ، أكثر عمقا مما هو عليه الآن ، مادامت كتلة الرمال التى تحول دون امتداده نحو الشمال بحوالى خمسين الف متر لم تكن بعد عالية بالقدر الذى يكفى لابقائه داخل حدوده الحالية . أنظر دراستى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر ، الدولة الحيثة ، المجلد الأول ، ص ١٨٧ . (المجلد الثالث من الترجمة العربية) .

(٥٣) سفر الخروج ، الاصحاح ١٥ ، الآيات ٢٢ الى ٢٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عند البدو الذين لهم بلا جدال مصلحة كبيرة فى جعل الماء صالحا فى صحراء تنقصها المياه الصالحة بدرجة كبيرة ؛ اذن فعلينا فى هذا الصدد أن ننقل ماقاله المؤرخ يوسف* واليكم نص ماقاله حول هذه القضية (٥٤) ؛ وبعد أن مشى الاسرائيليون طويلا ، وصلوا عند حلول المساء الى مكان يسمى مارا ، وسمى كذلك بسبب مرارة ميناهه ، وحيث كانوا منهكين للغاية فقد وقع اختيارهم على التوقف هنالك فى الوقت الذى كانت تنقصهم فيه المؤن ، ذلك لأنهم وجدوا هناك بئرا جعلتهم يأملون ، برغم انها لم تكن لتستطيع أن تفى بحاجة مثل هذه الألوف العديدة ، فى بعض الانفراج فى احتياجاتهم ، كما أن هذه البئر قد واستهم ، لاسيما وقد قيل لهم انه لا توجد آبار مطلقا على طول طريقهم. لكن هذه المياه جاءت مرة حتى انه لا البشر ، ولا الخيول ، ولا الحيوانات الأخرى ، أمكنها أن تشرب منها . يالها من مفارقة تدعو للاسى ، قد جعلت الشعب كله فى حالة من اليأس ووضعت موسى أمام صعوبة اليمة وعجيبة ، فالأعداء الذين عليه أن يهزمهم هذه المرة ليسوا من أولئك الذين يمكن دفعهم بفعل بذل سخى ؛ انهم الجوع والعطش اللذان قد جعلا ، وحدهما ، هذه الألوف كبيرة العدد من الرجال والنساء والأطفال يشرفون على الهلاك ؛ وفى الوقت نفسه لم يكن موسى ليعرف نصيحة ما يأخذ بها ، واستشعر هو آلام الآخرين جميعا باعتبارها آلامه الخاصة اذ كان الجميع يلتجئون اليه ، فالأمهات يستعطفنه أن يكون شفوقا بأطفالهن ، والأزواج يلتمسون منه أن يحنو على زوجاتهم ، وكل امرىء يتضرع اليه كى يبحث عن بعض علاج لهذا الالم العظيم . وبينما هو فى مثل هذه الحاجة الماسة اتجه الى الله يطلب عفوه ورحمته وأن يحيل بقدرته وفضله هذه المياه المرة الى مياه حلوة ، فأنبأه الله انه قد منحه هذا الفضل ؛ عندئذ اخذ موسى قطعة من الخشب ، وشقها الى اثنتين ، وبعد أن القى بها فى البئر قال للشعب ؛ ان الرب قد استجاب لدعواته ، وانه سينزع عن هذه المياه كل مافيها من مرارة أو طعم غير مستساغ ، شريطة أن ينفذوا ما يأمرهم به . ثم طلب اليهم ماينبغى أن يعملوه فأمر أشدهم قوة وأمتنهم بنية بأن يسحبوا جزءا كبيرا من ماء البئر مؤكدا لهم أن الماء الذى

(54) Antiquités Judaïques, liv. III, Chap. 1.

* يوسف أو جوزيف أو يوسيفوس ، وهى طرق ثلاث لكتابة اسم واحد يشير الى المؤرخ نفسه (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سيتبقى سيكون صـــالحا للشرب . فأطاعوه ، فجنوا بعد ذلك ثمرة الوعد الذى أعطاه لهم » — عن ترجمة المسيو أرنو دانديى Arnaud d Andilly

هذا اذن هو تفسير المعجزة ؛ فمن المعروف انه بافراغ احدى الآبار، صبح الميـــاه التى تتبقى عادة أفضـــل بكثير ؛ وتتطابق هذه الملاحظة مع قوانين الطبيعة ، وفضلا عن ذلك فقد وأتتنا الفرصة أن نكررها مـــرات عدة فى مصر ؛ ففى المناطق الصحراوية التى اقمنا فيها بعض التحصينات، اصبحت الميـــاه المائلة للملوحة ، والنتنة فى معظم الأحيان ، افضل على الدوام بعد مرور بعض الوقت على اغترافها .

عن السحاب وعمود النار
وعن بعض الظواهر الأخرى المثيرة للانتبـــاه

هنـــاك معجزة اخرى اخذت تتبدى للعبرانيين منذ خروجهم من مصر، وظلوا يحظون برؤيتها بعـــد عبورهم البحر الأحمر ؛ لقـــد بدا الرب لهم نهارا فى صورة سحاب وليلا فى شكل عمود نار ؛ وعلى هذا النحو سار فى مقدمتهم ليرشدهم الى طريقهم . . ثم يجلس فوق مظلة حين يعسكرون. اليس ثمة احتمال فى وجود بعض اخطاء ، او سوء فهم ، من جانب الشراح المتبحرين فى التوراة ؟ وهل يمكن أن يستدعى موسى مثل هذه الشواهد عند مسيرة العبرانيين ، ليقدمها كمعجزة ؟ الأمر المؤكد هنا هو أن القوافل تستخدم فى بعض الأحيان ، اثناء سيرها الليلى ، شعلات ضخمة يحملها الأدلاء يسبقون بها الموكب ، واليكم حول هذا الموضوع ، نصى ننقله عن العـــدد ٢٤ من بريد مصر Courrier de l'Egypte ، وهى الصـــحيفة التى كانت تطبع فى القاهرة (أثناء الحملة الفرنسية) :

« فى العاشر من نيفوز ، رحلنا من السويس ، واتجه الجزء الأكبر من القافلة نحو الجرود ، ومضى القائد العام وفى صحبته الجنرالات برتييه Berthier ، ودمارتان Dommartin ، وكافاريللى Cafarelli ، والمواطنان مونج Monge وبرتولليه Berthollet — الى الطرف الشمالى الأقصى للخليج ، كى يتبينوا على الطبيعة ما ان كانت توجد أى آثار لتلك الترعة التى ترسمها الخرائط باعتبـــارها كانت تقيم اتصـــالا بين النيـــل والبحر الأحمر ، وفى الواقع ، فقـــد تم العثور على مثل هذه الآثار ، وكان اول.

من تبينها هو الجنرال بونابرت نفسه . ثم سارت الفرقة لمسافة أربعة فراسخ فى مجرى الترعة نفسها ؛ وفى الوقت نفسه ، فمع السير فى هذا الاتجاه ، ابتعدت هذه الفرقة كثيرا عن المجرود ، حيث كان عليها ان تعود لتلحق ببقية القافلة حيث الماء والمؤن والأطعمة ، كان الليل يقترب ، وكان موقع المجرود بالنسبة لها غير معروف ؛ وتعرض من فى الفرقة لخطر أن يضلوا الطريق .

وصحب كل من الجنرالين بونابرت وبرتييه رجلا فوق حصانه ، وسارا فى المقدمة ، واتجها باقصى سرعتيهما نحو النقطة التى كانت تغيب عندها الشمس ، وساقهم هذا الاتجاه لحسن الحظ الى المجرود ، وأمر القائد العام باطلاق تذيفة مدفع ، وباشتعال النار فوق أبراج القصر ، وبأن توضع فوق بعض النقاط العالية من الطريق الذى انتهى هو من اجتيازه مشاعل (أو فوانيس) من تلك التى تتزود بها القوافل على الدوام لتكون علامات على الطريق اثناء الليل ؛ وهذه الشعلات بالغة البساطة، فالشعلة منها اسطوانية الشكل ، توضع بها نار قوية ولامعة ، اذ توقد بها قطع بالغة الجفاف من خشب السنط ؛ وهذه المشاعل مثبتة فى الجزء العلوى منها بعصا يصل طولها خمسة الى ستة اقدام، وتغرس فى الأرض حين يراد التوقف ؛ فاذا شاءت القافلة ان تسير خلال الليل ، يمشى فى مقدمتها رجال عديدون يحملون شعلات مماثلة ، ويحرصون على بقائها عالية ليلمح كل مسافر نارها .

وعند المساء ، التأم شمل الجميع (٥٥) .

سيقال ، بلا جدال ، ان ليست هذه قط شعلات تماثل تلك التى تكون السحاب وعمود النار اللذين تشير اليهما التوراة ، ذلك اننا نقرأ فى التوراة ، فى الآية ٢١ من الاصحاح الثالث عشر من سفر الخروج أن الرب كان يسير امام العبرانيين . ومع ذلك فهل يتحتم علينا ان نأخذ هذا التعبير بمعناه الحرفى فى حين يعرف المرء أن شعبا شديد التدين

---

(55) Cowrrier de l'Egypte, No. 24, le 27 nivòse an 7. de la Republique Française.

يجعل كل شيء من صنع الرب ، وأن الاسرائيليين ، بشـكل خاص كانوا يتقبلون فى الشعر ، وفى النثر ذاته ، كل المبالغات التى تتجاوز كل حد؟ ولدينا نحن ، حيث تضع اللغة الـكثير من التحفظ والتعقل او القيود ، السنا نجد أناسا يتسمون ملائكة أو كائنات مقدسة أو مخلوقات سماوية؟ لنضع انفسنا لحظة فى مكان العبرانيين ؛ اجنبى يسير على رأسنا ليهدينا السبيل فى صحراء مجهولة منا ، الشعلة التى يحملها فى الهواء تلقى خلال النهار دخانا ، وخلال الليل لهيبا يهتدى على ضـوئه رجالنا . الأمر المؤكد أن لن يكون ثمة ماهو ابسط ولا أيسر من أن نقص ذلك بأسلوب يخلو من الشاعرية . ومع ذلك فعلينا الا نواجه الأمر فى ذاته ، ولنتدبر نتائجه ، وعندئذ سوف نغير من لغتنـا ، ولسوف نقول : كيف هبط علينا هذا الرجل فى الوقت نفسه الذىنحتاج اليه فيه اشد الاحتياج؟ كم نحن محظوظون أن وهبنا اياه ! **انه رجل مبارك ، انه ملاك ، انه اله !**

وحيث يتعاظم كل شيء ، بالنسبة نفسها فى لغة الحماسة ، تتحول الشعلة الى عمود من النـار ، الى عمود من السـحاب ، الى مجـد الرب (٥٦) .

ومما يدل على أن موسى لم يكن يريد أن يقدم هذه الواقعة باعتبارها امرا خارقا للطبيعـة انه يخبرنا بأن حماه ، هذا العربى من مديان (مدين)* ، هو الذى قاد الاسرائيليين ، واليكم مانقرؤه حول هذا الموضوع فى سـفر العدد ، الاصحاح العاشر :

آية ٢٩ : « وقال موسى لحوباب بن رعوئيل المديانى ، حمى موسى ، اننـا راحلون الى المكان الذى قال الرب أعطيكم اياه ، اذهب معنا فنحن نحسن اليك ، لأن الرب قد تكلم عن اسرائيل بالاحسان ؛

آية ٣٠ : « فقال له لا اذهب ، بل الى ارضى والى عشيرتى امضى ؛

آية ٣١ : « فقال لا تتركنا **لأنه بما انك تعرف منازلنا فى البرية تكون لنـا كعيون ؛**

---

(٥٦) أطلق القديس يوحنا على مطارنة الكنائس الآسيوية السبعة اسم ملائكة هذه الكنائس : « وقال ابن الـرب اكتب الى ملاك كنيسـة أيفيزوس » .

* وهى احدى المدن الآيونية على بحر ايجه . (المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آية ٣٢ : « وان ذهبت معنـــا فبنفس الاحسان الذى يحسن الرب الينا نحسن نحن اليك ؛

آية ٣٣ : « فارتحلوا من جبل الرب مسيرة ثلاثة ايام وتابوت عهـــد الرب راحل أمامهم مسيرة ثلاثة أيام ليلتمس لهم منزلا » .

وبالتـــأكيد ، فلو أن ملاك الرب كان حقيقة هـــو الذى يمشى أمام العبرانيين لـــكان موسى فى غير حاجة الى حميه ليكون مرشدا لهم ولـــا كان وعده بالـــكثير من « الاحسان » ـــ أى الثروات ـــ ليحمله على البقاء بالقرب منه .

أما هذه العبارات : **ان الرب أو ملائكته كانوا يقودون جيش اسرائيل فى شكل دخان أو لهيب** فيقتصر معناها على أن تابوت العهد كان محمولا فى مقدمة المسيرة (٥٧) .

أما هذه الوسيلة فى ارشاد الفرق أو الجيوش ، عن طريق اشـارات نارية توضع أثنـــاء نوبات الراحـــة فوق خيمـــة القـــائد ، فأمر لايخص العبرانيين وحدهم . فمن المعروف أنها كانت مستعملة عند الفرس ، كما اننـــا سـوف نقرأ هنـــا باهتمام النص التـــالى عنـــد كينت ـ كورس Quinte - Curce ✽ بسبب تشابهه الشديد مع ما جاء بالاصحاحين التاسع والعاشر من سفر العدد . يقول كينت كورس عنـــد حديثـــه عن

---

(٥٧) التابوت عبارة عن صندوق من خشب السنط تكسوه صـــفائح من ذهب ، ويبلغ طوله ذراعين ونصف الذراع ، وعرضه ذراعا واحـــدا ونصف الذراع وبارتفاع يماثل عرضه ؛ وقد حفظت فيه ألواح الشريعة؛ ويسمى غطاء التابوت **المـائدة** ، ويعلوه اكليل من الذهب ، يشكل جناحاه المبسوطتان مايشبه مقعـــدين يفـــترض أن تجلس عليهما ذات الرب غير المرئية ، سفر العدد ، الاصحاح السابع ، الآية ٨٩ . وكان جانبا التابوت، من ناحية الطول ، مزودين بحلقتين كانت تدخل فيهما العصوان اللتـــان تستخدمان فى حمله فوق الأكتاف ، ويمكننا أن نرى فى أطلس العصور القديمة ، اللوحة الثانية ، المجلد الأول ، الشكل ٤ ، رسما بارزا فى جزيرة فيله يماثل التابوت لدرجة كبيرة ، وهو ماسبق أن لاحظه من قبل المسيو لانكريه Lancret فى دراسته عن وصف جزيرة فيله ، ص ٢٧ .

✽ مؤرخ لاتيني عاش في القرن الميلادى الأول وله مؤلف كبير عن تاريخ الاسكندر . (المترجم)

الاسكندر : « وعندما كان يريد أن يفض معسكرا ، كانت الطبـــول تعطى الاشارة ، ومع ذلك ، فحيث كانت الضجة فى معظم الأحيان تحول دون سماع دقات الطبول ، فقـــد كان الاسكندر يأمر بأن توضع على خيمتـــه عصـــا يستطيع أن يلمحهـــا الجميع وأن ترفع فوقهـــا شـــارة الرحيل : **وكانت هذه نارا اثناء الليل ودخانا اثناء النهار** » (٥٨) .

ونقرأ فى الاصحاح التاسع من سفر العدد :

آية ١٥ : « وفى يوم اقامة المسكن غطت السحابة المسكن خيمـــة الشهادة ، وفى المساء كان على المسكن كمنظر نار الى الصباح ؛

آية ١٦ : « هكذا كان دائما ، السحابة تغطيه ، ومنظر النار ليلا ؛

آية ١٧ : « ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة كان بعـــد ذلك بنو اسرائيل يرتحلون ؛ وفى المـــكان حيث حلت الســحابة هنـــاك كان بنو اسرائيل ينزلون » .

وفى الاصحاح العاشر :

آية ١ : « وكلم الرب موسى قائلا ؛

آية ٢ : « اصنع لك بوقين من فضـــة ، مسحولين تعملهما فيكونان لك لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات ؛

آية ٣ : « فاذا ضربوا بهما يجتمع اليك كل الجماعة الى باب خيمة الاجتماع » .

ولا يمكن المرء بالتأكيد أن يجد تشابها اكبر بين عادات الأمتين فيمـــا يتصل بمسيرة فرقتهما .

معجزات اخرى كثيرة يمكن تفسيرها بشكل طبيعى مماثل لمـــا تم مع المعجزات السابقة . كذلك فان السمان ، الـــذى يكون منهكا بعد رحلة طويلة يتساقط الـــكثيرون منه فى الأيدى عند شاطىء البحر ، فى الفصول

(58) De Rebus Gestis Alex, Lib, V. Cap. 7.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسها التى كان العبرانيون يستخدمونه خلالها طعاما لهم . ونقرأ عند ديودور الصقلى أن مصريين منفيين لادانتهم بالسرقة فى عهد أكتيزانيس، فى صحراء برزخ السويس ، كانوا يتغذون بالطريقة نفسها ، أما المن ، فما برح يحصد من شجرات لعلها كانت فى الماضى وفيرة العدد فى المناطق المحيطة بجبل سيناء ، أما النار اليونانية ، فهى مثال على أن الشرقيين قد عرفوا ، فى فترات سابقة ، كيف يشعلون النار ، وكيف يستخدمونها على هذا النحو المخيف .

ومع ذلك فان كل هذه التفسيرات لا تتعارض فى شىء مع الرأى القائل بأن من المستطاع أن يكون الرب قد جاء لمساعدة شعبه ؛ فهذا الاتفاق العارض أو الفجائى لأحداث مواتية ، والتى ليس بمقدور أحد ان يكررها ، يمكن أن ينظر اليه باعتباره (فى حد ذاته) معجزة ، وفضلا عن ذلك فلا ينبغىأن نتوقف عند هذا الأمر اكثر من ذلك ، ولنصل مباشرة الى تلك اللحظة التى أقام فيها الاسرائيليون ، دون جلبة ، فى الصحراء، بعد أن هزموا العماليق فى رافيديم .

الشريعة تتنزل على جبل سيناء (٥٩)

كانت كل الشعوب القاطنة فى ضواحى جبل سيناء على يقين من أن الرب يقيم هناك ؛ ذلك انه يكاد ينظر الى الجبال العالية فى كل مكان ، باعتبارها المقر الاعتيادى للآلهة ؛ وهذا أمر طبيعى ، فليس هناك واحد منا لم يستشعر عند سفح هذه الكتل الصخرية العظيمة ضعفه ، وهو أمر ينتج عنه خشوع وتأمل يهيئان لانبعاث روح الأفكار الدينية ، وفضلا عن ذلك فان الجبال تكون مسرحا لعدد كبير من الظواهر المفزعة ، التى تبدو كما لو كانت جهازا هائلا فى ايدى آلهة جبارة ؛ ولقد ملح الخوف ، بأكثر مما فعلته المعرفة ، البشر اولى افكارهم عن الالوهية، فمن قممها تندفع السيول المدمرة ، كما تتكون فى باطنها وعلى ضجيج الانفجارات التى تزلزل وتقلب باطن الأرض ، الأحجار الملتهبة ، والمعادن المنصهرة التى تبتلع المدن وتدمرها حين تخرج فى شكل شواظ من نار

---

(٥٩) يسمى العرب هذا الجبل باسم جبل موسى .

وأنهـــار من حمم ؛ كذلك ، على ذراها ، تزمجر الرياح العاتيات ، وتتراكم السحب التى تتخذ من الأشكال مايبعث على الرهبـــة ، وتتفجر الرعود الهـــائلة وسط البروق التى تبدو وكأنها ستصعق الوديان (٦٠) .

على مشهد عاصفة مماثلة ، أراد موسى أن يصدم خيال الاسرائيليين حتى ينتهى باقتنـــاعهم بصحة تلك العـــلاقة القـــائمة بينه وبين الرب ، لم تكن سماء مصر قد قدمت لهم من قبل ، شيئا شبيها بذلك ، فهى تتوهج بالضوء البـــاهر اثناء النهار ، وبأجمل لون لازوردى اثناء الليالى الهادئة، ولا تحجبها قط اية ســـحب معتمة ؛ وفى الربيع فقـــط نرى بعضـــا من سحب بالغة الارتفـــاع تدفعها بسرعة ريح الشمال ، لتمضى سريعـــا كى تتراكم فوق جبال الحبشة العالية ، حيث تتحول الى أمطار ينشأبسقوطها مدد لا حصر لـه من الأخوار التى تصب فى النيل مكونة فيضان هذا النهر. اما الخماسين أو الريح المسممة (ريح السموم) ، بدواماتهـــا الترابيـــة الملتهبة واعمدتها الرملية فتعكر وحدها صفو الجو ، ومع ذلك ، وبخلاف انها لا تهب على مصر الا مرة أو مرتين على مدار العـــام فانها هناك ضارة أو مؤذية اكثر منها مفزعة ، فهى تمارس على الحيوانات والنباتات آثارها الضـــارة ، وتسبب امراضها ، بل قد تقتلها احيـــانا ، فان ذلك يحدث فى معظم الأحيان بالطريقة التى تحدث بها آثار السموم ، تلك التى تعمل دون جلبة ، دون عنف ظاهرى ؛ وبالاضافة الى ذلك ، فبامكاننـــا ، أن نحكم عليها بدواماتها تلك بأنها بنت الأرض أكثر منها وليدة للسماء ، لذلك

---

(٦٠) عندما قرأت فى المجمع العلمى بالقاهرة ، فى السادس عشر من برومير من العـــام التاسع ، مذكرتى هـــذه عن عبور الاسرائيليين للبحـــر الأحمر ، وعن اقامتهم عند سفح جبل سيناء ، اعلنت ان هذا الجبل يمكن أن يكون بركانا خامدا ؛ فالاحجار البركانية الضخام التى كنت رأيتهـــا فى صنابورات السفن (الصابورة : ثقل يوضع فى سفينة لحفظ توازنها) عند مدينـــة الطور تلك التى كانت تصل الى السويس والقصير ؛ كما أن الوصف الذى يعطيه موسى للحظة تجلى الرب فوق جبل سيناء قد رجحت عندى هذا الرأى ؛ وبعد وقت من قراءة دراستى توجه اثنان من رفاق رحلتنـــا همـــا السيدان كوتل Coutelle وروزيير Rozière الى كهف فى جبل سيناء ، وتبين لهما ان الجبل جرانيتى وليس به أى اثر لبركان ، ومع ذلك فان الأعاصير أو العواصف ، تتفق بنفس القدر مع مايمكن أن تحدثه ثورة بركانية كتلك التى جاءت فى رواية موسى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فنحن نعتقد أن قدماء المصريين قد اتخذوا منها رمزا للقدوة السيئة . وعلى هذا يكون من السهل علينا أن نتصور كيف كان العبرانيون مأخوذين بفعل رعب دينى عند أول مرة يرون فيها البروق تشق ظلمات السحب ، ويسمعون فيها هزيم الصواعق فوق الجبال العالية ، تتزايد أصداؤه وتمتد لأبعد مدى قعقعاته (٦١) . وفى الواقع فان السحب تقدم لمن يرصدها أشكال شياطين بالغة الغرابة ، كما أن حركتها ، واشكال المسخ التى تقدمها قد أفزعت فى معظم الأحيان والهبت خيال الضعفاء من الرجال أو جهالهم ، فقد رأى بعض فيها علامة على غضب السماء ورأى آخرون فيها آلهتهم ذاتها أو أرواح أجدادهم الهائمة ، أما الرعد ، فقد جعلت منه كل الشعوب سيد الكون ، وها نحن نرى ، برغم تقدم العلوم والفنون الذى يهيئه التعلم ، ان كثيرا من الناس بابرحوا يخافونه بأكثر مما يخافون الأخطار الوشيكة أو الداهمة ، والسبب فى ذلك بالغ البساطة : أن من الممكن لنا أن نصارع ضد هذه الأخطار فى الوقت الذى لانملك فيه وسيلة ما لدرء أخطار الرعد . وزيادة على ذلك ، فكل ضجة هائلة تولد الاحساس بوجود قوة عظيمة ، كما يجعل منها الخيال صرخة غضب هائلة تصدر عن كائن عظيم وقادر فى حالة غضب وهياج .

لقد ظل موسى لوقت طويل يرعى قطعان حميه فوق جبل سيناء ، وهناك كان شاهدا على ظواهر وأشكال سامية شكلتها الرعود والعواصف فوق هذا الجبل الشامخ : وبلا ريب فان ذكرى ما كان هذا الرجل الماهر قد استشعره منها هى التى دفعته الى استغلالها فى تحقيق مآربه .

وننقل هنا نصا حرفيا من جزء من الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

آية ١ ، ٢ « فى الشهر الثالث بعد خروج بنى اسرائيل من ارض

---

(٦١) اثناء قرابة نحو أربع سنوات قضيتها فى مصر ، لم اسمع سوى مرة واحدة صوت الرعد ؛ ومع ذلك فقد كان هذا الصوت ضعيفا حتى أن كثيرا من الاشخاص ، ممن كانوا معى ، لم يلحظوه قط .

مصر ، فى ذلك اليوم جاءوا الى برية سيناء ؛ ارتحلوا من رفيديم وجاءوا الى برية سيناء فنزلوا فى البرية . هناك نزل اسرائيل مقابل الجبل ؛

آية ٣ : « واما موسى فصعد الى الله ، فناداه الرب من الجبل قائلا : هكذا تقول لبيت يعقوب ، وتخبر بنى اسرائيل ؛

آية ٧ : « فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب ووضع قدامهم كل هذه الكلمات التى أوصاه بها الرب ؛

الآيات من ٨ الى ١٢ : « فاجاب جميع الشعب معا وقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل ، فرد موسى كلام الشعب الى الرب ؛ فقال الرب لموسى ها انا آت اليك فى ظلام السحاب لكى يسمع الشعب حينما اتكلم معك فيؤمنوا بك أيضا الى الأبد ، واخبر موسى الرب بكلام الشعب فقال الرب لموسى اذهب الى الشعب وقدسهم اليوم وغدا وليغسلوا ثيابهم ؛ ويكونوا مستعدين لليوم الثالث . لأنه فى اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء ؛ وتقيم للشعب حدودا من كل ناحية قائلا احترزوا من أن تصعدوا الى الجبل أن تمسوا طرفه . كل من يمس الجبل يقتل قتلا » .

وفى واقع الأمر ، فليس من العسير أن يتنبأ بحدوث الرعد قبل موعده ببضع ساعات (٦٢) ؛ فالبحارة وسكان الجبال العالية يبرهنون لنا كل يوم على صحة ذلك اذ تحملهم غريزة البقاء على أن يلاحظوا بعناية كل نذر الظواهر الجوية التى يخشونها ، وقد تطلب الأمر من موسى — وقد عمل لمدة طويلة راعيا فوق جبل سيناء — أن يقوم هناك بتاملات

---

(٦٢) تتضح نذر الثورات البركانية كذلك ، وبطريقة تكاد تكون شبه مؤكدة ، عن طريق توهج المستنقعات والأبخرة التى تحمل روائح كبريتية وكذلك عن طريق الهواء الثقيل والحار ، والأصوات تحت الأرضية وجفاف الآبار ، ونقص — وفى بعض الأحيان التوقف التام — للدخان الذى يتصاعد عادة من فوهات البراكين القديمة ، وكذلك عن طريق الفزع الذى يتملك الحيوانات فتعبر عن قلقها بصرخاتها وسيرها المتخبط والقلق ، وتفعل الطيور نفس الشىء فتطير هنا وهناك — هذه كلها علامات على قرب حدوث العواصف أو الأعاصير أو الزوابع ، كما انها فى الوقت نفسه نذر بحدوث هذه الكارثة الرهيبة (ثورة البراكين) .

وملاحظات مماثلة . اما عن الفترة المحددة والتى تبتعد قليلا عن الأيام الثلاثة التى حددها موسى فى الآيات من ١١ الى ١٥ فان علينا أن نعتقد أن موسى ، عند حديثه الى العبرانيين ، كان يعطى لكلماته غموض الوحى القائم بالوساطة بين النـاس وبين الرب ، والـذى يكرر ذلك دون أن يصيبه الفشل ، وان كان يدون نبوءاته (الغامضة تلك) ـــ ما أن تمضى الحوادث ، بطريقة واضحة محددة (٦٣) .

ونواصل مرة اخرى النقل عن الاصحاح التـاسع عشر من سـفر الخروج :

آية ١٦ : « وحدث فى اليوم الثالث لمـا كان الصباح أن صـارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة ؛

آية ١٧ : « واخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله ، فوقفوا فى أسفل الجبل ؛

آية ١٨ : « وكان جبل سيناء كله يدخن من اجل ان الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون ، وارتجف كل الجبل جدا » .

الآيتان ٢٠ ، ٢١ : « ونزل الرب على جبل سيناء الى راس الجبل، ودعا الله موسى الى راس الجبل فصعد موسى ؛ فقال الرب لموسى انحدر حذر الشعب لئلا يقتحموا الى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون » .

السنا نضع أيدينا الآن على وصف بالغ الدقة للرعد ؟ السنا نرى كم كان موسى يخشى أن يأتى أحد أبنـاء شعبه ليجده وسط السحب التى تغطى قمة الجبل ، لـكنه لن يجد هنـاك الرب المقـدس الذى اصطنع له ذكاء موسى وحكمته ، وقابلية هؤلاء للايمان والتصديق مكانا هنـاك . **واما موسى فقد اقترب الى الضباب حيث كان الله** ، هكذا تخبرنا الآية ٢١ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج .

---

(٦٣) انظر بالاضافة الى ذلك ماسبق أن ذكرناه فى الجزء الخـاص بعبور البحر الأحمر عن نشر الاسفار .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويتعرف المرء كذلك — ولا يزال — فى هذا الاصحاح نفسه على الدوافع التى حدت بموسى أن يقود الاسرائيليين الى جبل سيناء، اذ يقول لهم : « انه الله انما جاء لكى يمتحنكم ولكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا » .

« أنتم رأيتم اننى — أى أنا الرب — من السماء قد تكلمت معكم »*

وبعد ذلك ، وبعد أن منع موسى أن يتبعه أحد ، ذهب فوق الجبل، وأمضى هناك أربعين يوما ، وخط خلال هذه العزلة لوحى الوصايا وقدمهما الى الشعب باعتبارهما حسب قوله « المكتوبين باصبع الرب »**

وبهذه الطريقة نفسها فرض غالبية المشرعين الاحترام الكبير لشرائعهم ؛ نوما Numa يستلهم حورية الماء والغاب ايجريا ، والملك جبريل يملى القرآن على محمد ، ومانكو كاباكا Manco Capac يتحدث باسم الشمس ، وليكورج ، نفسه ، حتى ليكورج Lycrgue الحكيم يبحث عن دعم لشرائعه فى وحى معبد دلفى ، ان هؤلاء الرجال العظام ، الأكبر مهارة والأكثر علما من عامة الناس*** يفيدون من ظواهر الطبيعة المعروفة لهم جيدا كى يحيطوا انفسهم بالمهابة والقداسة . السنا نرى كريستوف كولمبوس ، فى زمن اكثر حداثة ، وحين كاد يهلك جوعا ، ينذر البسطاء، سكان جمايكا ، بأنهم ، ان لم يجلبوا الأطعمة الى معسكر الأسبان ، فسوف تعاقبهم يد الله ، ثم حدث كسوف الشمس الذي كان يتوقعه فخر القوم سجدا من الرعب ، وأطاعوه .

---

* اقتباس من الآيتين ٢٠ ، ٢٢ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج . (المترجم)

** سفر التثنية ، الاصحاح التاسع ، الآية ١٠ (المترجم) .

*** ينظر المؤلف الى الجميع بلا استثناء باعتبارهم مشرعين وبذلك يطبق فكرته على المشرع الحقيقى والمشرع المفترض وجوده وكذلك الأنبياء. وفكرته هنا تعميمية لاتصى حد ، قد تصلح دليلا على حذقه هو ولكنها لاتعد دليلا على صدق مايذهب اليه . وقد وضح من سياق مقاله قلة معرفته — ويكاد يكون جهله — بالاسلام ونبيه العظيم . اما الذين يشير اليهم هنا فهم :

=

حقا ! ان طفولة الشعوب تمتلىء على الدوام بالمعجزات (٦٤) .

= نوما Numa : ثانى ملوك روما كمـا تحكى الأسـاطير (٧١٤ — ٦٧١ ق.م) وكانت السلطة فى ذلك الوقت فى يد الرؤساء أو السيناتوريين، اما الملك فكان يقوم بدور الكاهن الأكبر . ولكى يلزم شعبه وقومه الهمجى فى ذلك الوقت بالأخلاق القويمة وجد أن من الضرورى له أن يبدو فى صورة من يستلهم كلماته من غير حكمة البشر فادعى أنه يلتقى فى الليل بايجريا، الحورية المقدسة التى تلهمه الرشد والنصيحة ، وأفلح بذلك فى توحيـد دين قبائل روما وقويت وحدة الدولة وزاد استقرارها .

مانكو كاباكا Manco Capac : مؤسس امبراطورية بيرو وأول ملوك الأنكا ؛ عاش فى القرن العاشر الميلادى .

ليكورج Lycurgue يقول عنه هيرودوت انه أبن عم الملك كاريلوس ملك اسبرطة ، تلقى من الوحى فى دلفى بعض مراسيم يراهـا البعض قوانين ليكورج نفسها ويراها آخرون تصديقا ربانيا على قوانين ليكورج . وقد وجد باعتباره مشرعا أن افضـل طريقة لتغيير عادات الناس القائمة ولادخال عادات جديدة ان يقدم قوانينه باعتبارها أوامر من عند السماء . وفى حين يجـزم بعض المؤرخـين بأنه واضـع قوانين اسـبرطة يرى كثيرون انه شخصية خيالية ، ولعل هذه الشرائع لم تكن من وضـع رجل واحد بعينه ، ولكنها طائفة من العادات تحولت الى قوانين وسميت باسم الشخص الذى قام بجمعها وتدوينها . (المترجم) .

(٦٤) ليس هناك ماهو اسهل من خداع الطبقة الدنيا من الشعب عن طريق معجزات مزعومة حتى عند الشعوب المتحضرة . الم يهرع القوم فى ايطاليا ، فى ايامنا هذه ، ليحيطوا بصورة العذراء المقدسـة التى كانوا « يرونها » وهى تحرك عينيها ؛ ولهذا السبب لم يكن القساوسة يكلفون انفسهم عنـاء تحريك اى جهاز لاتمام « المعجزة » ؛ كانوا يكتفون بالقول : هل ترون ؟ ويجيب الجميع . نعم . نحن نرى .

وكم يكون الخيال قادرا على الخلق !

موت موسى

بعد ان سار الاسرائيليون لبعض الوقت على غير هدى ، وعلى طريقة العربان ، فى المناطق المحيطة بجبل سيناء ، حاولوا التوغل فى أراضى سوريا الى الغرب من البحر الميت .

كان موسى قد استنهض عزيمتهم مخبرا اياهم ان الرب قد اعطى لنسل ابراهيم أرض كنعان . ومع ذلك فقد رفضوا عند وصولهم الىحدود هذه الدولة أن يمضوا لأبعد من ذلك فقد أفزعتهم تقارير جواسيسهم ، ثم عادوا فطلبوا أن يدخلوا المعركة بعد أن استنفرتهم ملامات موسى ،وحدس هذا الرجل الذى كان شاهدا على ما ابدوه من فزع منذ وقت قصير أنهم سيهزمون لو تجاسروا على الهجوم برغم منعه اياهم من ذلك ؛ ولميستمعوا اليه ، وحاقت بهم الهزيمة التامة (٦٥) . وادرك موسى من هزيمتهم تلك ، ومن عصيانهم الذى تفجر قبل ذلك بقليل ، ان الاسرائيليين ، لم يصبحوا بعد ، مضرسين بالقتال ولا منظمين بالقدر الكافى حتى يمكنهم ان يستقروا بالقوة القاهرة فى أرض السوريين ؛ فانتظر فى الصحراء ثمانية وثلاثين عاما حتى مات غالبية العبرانيين الذين ولدوا بمصر . ولقد سمعهم مرات عديدة يأسفون على قيودهم ، وشعر كم هو عسير أن يولد روحا قومية لدى رجال ربما كانوا ينتمون لأجناس متفرقة ، وولدوا فوق ذلك فى اغلال العبودية . واستغل من جانبه كل هذا الوقت فى تطويعهم لشرائع تتناسب مع أوضاعهم وما يهدف هو اليه . ولقد نجح فى ذلك . وحين يتخيل المرء صعوبة هذه المحاولة من جانب موسى ، فانه يجد مايغريه على أن يضع هذا المشرع فى مقدمة كل المشرعين الآخرين ، ليس فقط لانه انتزع عبيدا من سادتهم وانما ـ كذلك ـ لانه جعل منهم امة شهيرة غير قابلة للفناء ، واذا كانت فتوحاته وفتوحات من خلفوه لا يمكنها من ناحية الاتساع والأهمية أن تقارن بفتوحات محمد وخلفائه ، فى ظروف تكاد تكون متشابهة ، فقد تم الأمر على هذا النحو لأن موسى كان يجابه فى زمنه أمما قوية وشعوبا مضرسة بالقتال تشغل أرض سوريا وفارس

---

(٦٥) سفر العدد ، الاصحاح الرابع عشر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومصر وبلاد العرب ، أما عند ظهور محمد ، فقد كانت امبراطورية الرومان العملاقة وكذلك امبراطورية الفرس قد بليتا من القـدم بعد ان اقتسمتا العالم ، وكانت الشعوب التي أخضعها هؤلاء والتي سئمت أغلالها تظن أنها تحطم اغلالها بانتقالها من سيطرة سيد قديم الى أيدى سادة جدد * ؛كذلك فان موسى كي يخلق من عبيد دولة متماسكة قد اضطر أن يوحى اليهم بالهلع من الأجانب وهو شعور ظلوا يحملونه بين جوانحهم حتى أنهم يفضلون أن يستأصلوا شأفة عـدوهم عن أن يهزموه ، بل انهم يزدرون المعتنقين الجدد لدينهم حتى فى ذراريهم ، فلا يعطون الا للجيل العاشر من هؤلاء الحق فى دخول جمـاعة الرب . فى حين أن محمدا ، بعد أن أخضع للاسلام كل العرب ـــ وكان لدى هؤلاء شعور قومى بالغ الوضوح منذ زمان بعيد ، قد أمكنه أن يستخدم القوة والاقتنـاع لحشد أنصار جدد مانحا اياهم كل الحقوق المقررة للمؤمنين القـدامى ، وبهذه الطريقة ضاعف قواته الظافرة بجنود من الأمم التى فتحها **

وقد عكف موسى ، كما سبق لنـا القول ، لأكثر من ثمانية وثلاثين عاما منذ انتصـار الـكنعانيين (٦٦) ، على تطويع العبرانيين لشرائعه، وفى النهاية حاول من جديد أن يستقر فى سـوريا ، وزحف نحو الشرق من البحر الميت ، متخذا هذه المرة ، طريقـا مختلفا عن الطريق الذى كان قـد اتبعه عند حملته الأولى ، متجنبا فى كل الأحوال أن يمر بأرض ملك أدوم الذى كان يخشى بأسه (٦٧) ؛ وضمن موسى لنفسه ، من هذه الناحية دعم أو على الأقل حيدة كثير من العشائر حين أذاع أن العبرانيين يشتركون معهم فى أصل واحد ، وحين وعد باحترام أملاكهم وبأن يدفع حتى ثمن المـاء الذى سيشربه هو وقومه عند عبورهم بلادهم (٦٨) .

* لا يمكن أى منصف أن يقبل هذه الأفكار على اطلاقها ، بالاضافة الى أن الكثير مما جاء فى كلامه مردود عليه ولا يمكن تفسيره الا بالتحامل أو تجاهل معطيات التاريخ ، وهو أمر يؤسف له من جانب رجل يتسـم بروح متحررة ، وباطلاع واسع . (المترجم) .

** وهكذا تتحول الميزات والفضـائل الى عيوب ومآخـذ عند من يريدون التحامل على الاسلام بأية وسيلة (المترجم) .

(٦٦) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٤٦ ؛ والاصحاح الثانى ، الآية ١٤ .

(٦٧) سفر العدد ، الاصحاح العشرون .

(٦٨) سفر التثنية ، الاصحاح الثانى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما شنت عليه معـــارك اثنـــاء مسيرته ، فقد انتزع انتصارات عديدة لا بأس بها ، واستولى على منطقة خصيبة تقع الى الشمال من نهر الأردن ؛ وهنـــاك ، حيث شعر بقواه تخور ، شاء أن يجعل من موته أمرا مفيدا فى تحقيق مآربه ، فأعلن للشـــعب أن الرب قـــد رفض أن يدخله الأرض الموعودة لأنه قـــد شك مرة واحـــدة ، واحدة فقط ، فى قدرته ✻ وأعلن باسم الرب الخالد أن يشوع بن نون قد صـــار خليفة له ؛ وبعد أن صعد موسى جبـــال عباريم ونبو اشـــار بيده للعبرانيين الى الأرض التى سيكافئهم بها الرب جزاء فضائلهم ولا سيما عقيدتهم الدينية .

✻ ✻ ✻

وهأنذا استحضر صورة هذا الرجل المسن ، الجدير باحترامه ، فى ملامح موسى الذى رسمه ميكل انجلو فى كنيسة القـــديس بطرس ، فى روما ؛ جبهته التى جعـــدتها السنون لا تنم الا عن الهـــدوء ، أما عيناه فتحتفظان ببريقهما مع القدر الاكبر من الرقة والحنو ؛ ولقـــد احترمت يد الزمن عظمة تقاطيعه ، أما أســـنانه البيضاء كالعـــاج (٦٩) فتظلها لحيـــة كثيفة تتـــدلى فوق صـــدره ، هذا هو يمشى ببطء ولـــكن فى ثقة ، أما شحوب لونه ونظراته الشاخصة الى السماء فتنبىء وحدها أنه تارك الأرض كى يذهب الى مقام أكثر قداسة ، يحيط به المقـــاتلون والنساء والأطفال، بل والعبيد ، كلهم قلقون ، لـــكنه بصوته الملهم يتنبـــأ لهم بأقدارهم التى يحملها لهم المستقبل ، ويباركهم ؛ ويجثو الشعب على ركبتيه ، وحين يعلن لهم عن موته الوشيك يتفجر النحيب وتنساب الـــدموع ، فى كل مكان ، ويقول لهم كلمة الوداع الأخير ثم يبتعد ؛ يندفع النـــاس ليتبعوه ، لـــكنه بحركة واحدة من يده الخائرة يلزمهم ، أماكنهم ؛ من يتجاسر على عصيان

✻ تقرأ فى التوراة : « فقال الرب لموسى وهارون ، من اجل انكما لم تؤمنا بى حتى تقدسانى امام اعين بنى اسرائيل ، لذلك لاتدخلان هـــذه الجمـــاعة الى الأرض التى اعطيتهم اياها » ســـفر العـــدد ، الاصـــحاح ٢٠ ، الآية ١٢ .

وكذلك :"لأنكما خنتمانى فى وسط بنى اسرائيل عند ماء مريبة قادش فى برية صين إذ لم تقدســـانى فى وســـط بنى اسرائيل فانك تنظر الأرض من قبالتها ولكنك لا تدخل الى هناك ، الى الأرض التى اعطيتهـــا لبنى اسرائيل » .
سفر التثنية ، الاصحاح ٣٢ ، الآية ٥٢ . (المترجم)

(٦٩) « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته » سفر التثنية . الاصحاح الرابع والثلاثون ، الآية ٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الرجل الذى اصطفته السماء فى اللحظة نفسها التى يذهب فيها كى يتحد بالذات الخالدة ؟ ولم يره أحد بعد ذلك يعاود الظهور ، أما يوشع المخلص الوحيد لما كان يهدف اليه ، وكذلك بلا ريب لقراره الأخير ، فيقود الاسرائيليين من جديد فى عربات موآب حيث يظلون يبكونه ثلاثين يوما ؛ مشرعا ونبيا وأبا .

ومع ذلك فلن أمضى لأبعد من ذلك فى بحثى ، فالجيل الذى عبر الأردن كان غريبا عن مصر ، وقد لا يتصل تاريخه بقدر كاف بخطة هذا المؤلف * لكننى أختتم بهذه الفكرة ؛ ان كل ماانتهينا الى استخلاصه من الأسفار الخمسة انما هو احتمال وقريب كذلك من الصحة ، ويتطابق أو يتفق بشكل تام مع روايات المؤرخين الدنيويين لدرجة يستحيل معها أن تكون هذه الأحداث اسطورة ،كما شاء بعض ان يزعم ذلك بفعل خيال عزرا أو حلقيا ** اللذين كانا يعملان خيالهما لمقاصد سياسية ودينية . وفضلا عن ذلك فلعل هذين الجدين اليهوديين قد اصطنعا — مع ذلك — للعبرانيين اجدادا أثرياء واقوياء ، ولعلهما قد قصرا حديثهما على الانتصارات وليس عن الهزائم ؛ فحين يخترع انسان ما تاريخ أمة ، فان الكبرياء القومى هنا هو الذى يملى عليه كل جملة يقولها .

---

* وصف مصر .

** Esdras أو Helcias ونلمس هنا خلطا فى الأسماء وقع فيه المؤلف ، فنحن فى الواقع بصدد رجل واحد هو عزرا بن سرايا بن عزريا بن حلقيا ، أحد مصلحى وباعثى القومية اليهودية عند نهاية الأسر البابلى ، وهو كما تصفه التوراة « كاتب ماهر فى شريعة موسى » ، عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد وهو حفيد الكاهن الأكبر الذى كان نبوخذ نصر قد أمر باعدامه بعد استيلائه على أورشليم، وبعد عودة اليهود من الأسر ،بعد أن سمح لهم بذلك الملك كورش أصبح حاكما للجودية ، وظل صاحب نفوذ قوى على قومه ، وقد أمرهم بالتخلص من زوجاتهم غير اليهوديات باعتبارهن « من شعوب الرجاسات » وأن عليهم ألا يتزوجوا أبدا بأجنبية كى لايزيدوا « على اثم اسرائيل » .ويرى بعض المؤرخين انه هو واضع « أخبار الأيام الأول » و « أخبار الأيام الثانى » المتممين لسفر الملوك الذى قام هو كذلك بوضعه ، كما يقال انه قد غير الكتابة العبرية القديمة واستبدل بها الحروف العبرية الحديثة وهى نفسها الحروف الكلدانية (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراسة العاشرة :

حصر للقبائل العربية التي تقطن بين مصر وفلسطين

أنسيديه جوبير

العنوان الأصلى للدراسة هو :

حصر شامل للقبائل العربية التى تقطن بين مصر وفلسطين ابتداء من خان يونس وغزة حتى نهر العاصى ، والجزء الشمالى من الصحراء التى تفصل مكة عن سوريا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اصبحت اليوم تقاليد وعادات العرب الذين يهيمون منذ زمان لاتعيه الذاكرة فى صنجراوات مصر وسوريا ، معروفة بشكل كاف ، ولقد نقل الينا مؤرخو وفلاسفة وجغرافيو العصور القديمة ، فى هذا الخصوص، تفاصيل لاتختلف فى كثير عن تلك التى نقرؤها فى مؤلفات الرحالة المحدثين، لكن الأسماء الحالية للقبائل وقوتها العسكرية المفترضة ، والأماكن التى تقطنها ، لا توجد فى اى مؤلف من هذه المؤلفات ، بكل التحديد والدقة المرغوبين .

واذا لم نول بالا الا للظلام الدامس الذى يبدو وكأنه مقدر على هذه العشائر نصف المتوحشة ، وانعدام اتصالاتنا بهم ، فقد يبدو أمرا ضئيل الأهمية فى الواقع أن نتعرف على كل الخصوصيات الماسة بهم ، اللهم الا اذا كان من شأن هذه الخصوصيات أن تلقى بصيصا من الضوء على جغرافية صحراواتهم بحيث تصبح بذات فائدة للرحالة الذين يأتون من بعدنا ، ذلك أن العرب ، وهم بطبيعتهم متعجرفون ومتغطرسون ، لايرحبون الا بأولئك الذين يقدرونهم ويحترمونهم ، خاصة ، أولئك الذين يعرفونهم ، لذلك فقد ظننت أن حصرا لهذه القبائل العربية ، أى لهذه الجماعات الرحل التى تقطن البلاد الواقعة بين نهر النيل ونهر العاصى، لن يكون أمرا عديم الجدوى . ولكى يكون لهذا العمل ، ذلك النوع الوحيد من التقدير الذى نرجو أن يناله ، فقد قارنا بعناية فائقة هذه المعلومات التى هيأها لنا رجال من أهل البلاد لاجئين الى فرنسا بتلك المعلومات التى جمعت فى نفس أماكن حدوثها أثناء الرحلتين المختلفتين (اللتين قمنا بهما) ، وقد دونا أسماء الأعلام بالحروف العربية والفرنسية ، وتفادينا بشكل خاص أن ندرج ، سواء فى العمود الخاص بالأسماء ، أو بالعمود الخاص بالملاحظات كل ما قد يكون عرضة لعدم الدقة وكل ماقد يكون مدعاة للتشكك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيـــــان بالقبـــائل العربيـــــة

فى مصر السفلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الترابين أو ترابين	وادى التيه ؛ ضواحى غزة وبخاصة المنطقة المسماة دير التين	٥٠٠ فارس
عرب السواركة	نفس الصحراوات حتى جبل الطور	مجهول
عرب الطور	تسكن هذه القبيلة كما يوحى بذلك اسمها ضواحى جبل الطور	٤٠٠ فارس
عرب محارب أو نفعيات	ضواحى بلبيس والقرين	أكثر من ٤٠٠ فارس
عرب التهاينة عرب الطرابنس عرب بن البرانق	تسكن هذه القبائل الثلاث الضواحى الرملية والقاحلة لخان يونس	من ٢٠٠ الى ٣٠٠ فارس
عرب الحناجرة	الصحراء الى جنوب خان يونس	العدد مجهول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملاحظات	المصادر والمراجع
كانت هـــذه القبيلة التى يعرفها كل من زاروا مصر فى الأزمنـــة الأخيرة ، أكبر عـــددا فيما مضى عما هى عليه الآن . فهى واحدة من تلك القبـــائل التى عانت من غضبة على بك عندما عزم هـــذا الزعيم المملوكى على تخليص مصر من العربان .	استخلصت هذه المعلومات بمعرفتنا ومن نفس الأمـــاكن التى توجـــد بها القبيلة .
هذه القبيلة فى تحالف مع القبيـــلة السابقة ، وكان اسم شيخها فى عام ١٧٩٩ يسمى ابن معوى .	هذه المعلومات مستخلصة من مذكرات فى حوزتنا وصلت الينا عن طريق المرحوم ميخائيل صباغ النـــاسخ العربى بالمكتبة الملكية .
ينقل عرب الطور الى القاهرة الفحم وفواكه هذا الجبل وكذلك بعض سلع الهنـــد القـــادمة عن طريق السويس .	من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنهـــا ومذكـــرات د. روفائيل أعدت حديثا ونشرها مايو Mayeux
لا ينبغى أن نخلط بين هـــذه القبيلة وقبيلة أخرى تحمل نفس الاسم وسنتناولها فيما بعد .	من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنهـــا ومن مذكرات ميخائيل صباغ .
على الرغم من أن هذه القبائل تابعة لحكومة غزة الا انها تعتبر قبائل مصرية بسبب رحلاتها العديدة الى القـــاهرة . وفى عام ١٧٩٩ لم يكن لها سوى شيخ واحد يسمى أبو شكال وحيدى .	من مذكرات فى حوزتنا نقلها الينـــا السورى خليل مسعد .
. . . . .	شرحه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب القطاب	ضواحى القاهرة ، الى مسيرة يوم من شرق الجنوب من هذه المدينة	٦٠٠ فارس على الأقل
عرب البساطين	على بعد ثلاثة فراسخ من القاهرة	قليلو العدد
« الحويطات	تجاور القبيلة السابقة	٤٠٠ فارس
« الصوالحة	ضواحى العريش والى الشمال منهـا	٤٠٠ فارس
« نصف حرام	شواطىء بحيرة صغيرة تسمى بركـة الحج بالقـرب من القاهرة	٥٠٠ فارس
« البيصـار	ضواحى مصر العتيقة	٣٠٠ فارس
« العـايدى	ضواحى القاهرة ، على مسيرة يوم الى الشرق من المدينة	١٠٠٠ فارس
« الحبايبة	على مسيرة يوم ونصـف من القاهرة فى الصحراء	٦٠٠ فارس
« نصف سعد	نفس المـكان	٣٠٠ فارس
« بلى	شرحه	٣٠٠ فارس
« الزناتى	شرحه	٢٠٠ فارس
« الطميلات	واد يحمل نفس الاسم كانت تمر به فيما مضى ترعـة السويس المسماة خليج أمير المؤمنين	٥٠٠ فارس

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	من مذكرات المرحوم ميخائيل صباغ .
. . . . .	شرحه ، وكذلك من مذكرات الدكتور روفائيل .
كانت لهذه القبيلة علاقات كثيرة ودية مع الفرنسيين	من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها .
الصوالحة متحالفون مع القبيلة السابقة . وكان شيخها الذى تعرفنا به شخصيا فى عام ١٧٩٩ يسمى الشيخ محمد بن صالح .	شرحه
. . . . .	شرحه
يجد المرء بالمثل عربانا يحملون نفس الاسم بالقرب من أهرام الجيزة.	شرحه ، ومن مؤلف المسيو مايو Mayeux
تنقسم هذه القبيلة الكبيرة العددالى فروع كثيرة أسماؤها مجهولة لنا.	من مذكرات ميخائيل صباغ
كانت هذه القبائل الأربع وبخاصة القبيلتين الأخيرتين فى حالة حرب ضد الفرنسيين .	شرحه، ومن معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها .
. . . . .	من مذكرات ميخائيل صباغ ، ومن معلومات استخلصناها بمعرفتنا.

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب العايد « قلازين « الجبارات « العمارين	مناطق التل ، وعراق المنشية	مجهولة العدد
« بكير	بين غزة وجبل الخليل وهـو مقر القبيلة القديمة يهوذا وتعد الخليل مدينة مقدسة منذ زمان طويل باعتبارها مكان قبر ابراهيم	. . .
« الوحيدات	بين العريش وغزة وفى الصحراء الواقعة الى الجنوب الشرقى من هذه المدينة الأخيرة	٣٠٠٠ فارس على الأقل
« الأمارة	ضواحى الرملة واللد (ديوسبوليس القديمة)	٢٠٠ــ٣٠٠ فارس
« أبو كشك	شواطىء النهر الذى يجرى الى الشمال من يافا والمرتفعات التى تطل على هذه المدينة	٢٠٠ فارس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملاحظات	المصادر والمراجع
كان شيخ القبــائل فى عام ١٧٧٩ يسمى ابنحسين الدايمى وحيدى	مستخلصــة من مذكرات السورى خليل مسعد
. . . . .	شبرحه
تسيطر هذه القبيلة القوية على كل البلاد الواقعة اسفل خط عرض ٣١بين البحرالمتوسط والبحرالميت وينتمى اليها على الدوام شــيوخ القبائل المجاورة وتنقسم الى عدة فروعاشهرها عادة عرب عايشة أو عايشية الذين يقطنون بالقرب من غزة .	من معلومات استخلصناها من نفس اماكنهــا ، وكذلك من مذكرات د. روفائيل .
يقــوم الأمارة عــادة بحراســة الأشــخاص الذاهبين للحج الى بيت المقــدس وفى عام ١٧٩٩ كان شيخهم يسمى سلامة الأمير.	من معلومات استخلصناها من نفس أماكنهــا وكــذلك من مذكــرات السورى خليل مسعد .
كان شيخ هذه القبيلة فىعام ١٧٩٩ يسمى أحمد بكير .	مستخلصة من معلومات نقلها الينا يعقوب حبيب شيخ الشيفا عمر فى سوريا .

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الملاح (أو باعة الملح)	نفس المناطق	قليلو العدد
عرب عدوان	ضواحى القدس الشريف	« «
« المسعودى	تجاور القبيلة السابقة وتعيش كذلك على شواطىء نهر الأردن	« «
« النفعيات	يعيش هؤلاء العرب فى القوافل التىنقابلها بالقرب من قيساريةفلسطين ويرون على الدوام يتجولون فى أطلال هذا المقر القديم للصليبيين	« «
« السعدية	نفس المناطق	قليلو العدد لحد كبير
« الحوارث	« «	« «
« النعيمات	المناطق الواقعة بين قيسارية وروحة وشواطىء البحر حتى طنطورة	« «
« براريش	البلاد الواقعة بين المرج وروحة اى سهل جبرائيل القديم أو سهل ازدريلون المشهور بخصوبته ومراعيه	٢٠٠ فارس
« المساعيد	جبل الكرمل	٢٠٠ فارس
« زبيدات	المناطق الخلفية الجبلية من بلدة نابلس ، وهى شكيم القديمة فى بلاد السامرة	٢٠٠ فارس
« السناقرة	البلاد الواقعة بينيافا ونابلس التى كانت تسكنها قديما قبيلة أفرايم	قليلو العدد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	من مؤلف المسيو مايو
. . . . .	من مذكرات الشيخ يعقوب حبيب
. . . . .	» » » »
كان شيخهم فى عام ١٧٩٩ يسمى عبد الله السراب .	شرحه وكذلك من معلومات حصلنا عليها بأنفسنا .
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	»
نستخلص ان هذه القبيلة هى نفس القبيلة التى يشير اليها روفائيل باسم باراريش فى مذكراته .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الغابة	المناطق التى تشكل ممتلكات قبيلة منسى	شرحه
« الصقر	الصحراء الواسعة التى تمتد من شرق البحر الميت والتى كانت فيما مضى موطنا للرعاة المؤابيين .	٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ فارس
« الحلف	ضواحى صفد	قليلو العدد
« العوج	مكان يسمى العوجة	شرحه
« التركمان	من قاقون حتى جسر ابن عامر	شرحه
« الصقر بادية	ابتداء من هذا الجسر حتى بيسان وهى مدينة بيتشان القديمة فى نابلس	العدد مجهول
« السمكية	بين جسر بنات يعقوب والقنيطرة	كثرة العدد
« السميرات	نفس المناطق	شرحه
« الجماثين	شرحه	«
« تركمات الثلجية	ضواحى القنيطرة من جهة الشرق وهى بلدة كثيرة الاشجار .	العدد مجهول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملاحظات	المصادر والمراجع
وكما يدل عليها اسمها فان البلاد التى تقطنها كثيرة الأشجار .	شرحه ، وكذلك مذكرة الدكتور روفائيل .
تقوم هذه القبيلة القوية الشكيمة بجولات متعددة فى بلاد صفدالتى كانت قديما جزءا من ممتلكات قبيلة نفتالى وحتى اسوار نابلس وعكا وصور .	معلومات استخلصناها فى نفس أماكنها ومن معلومات تقدمها يعقوب حبيب وكذلك من خريطة المسيو بولتر Poultre
. . . . .	من معلومات الشيخ يعقوب.
كان شيخ هؤلاء العربان فى عام ١٧٩٩ يسمى ابو كشك شأنها شأن القبيلة التى تحمل نفس الاسم والتى ذكرناها آنفا :	شرحه ، وكذلك من معلومات السورى خليل مسعد
لا يشترك هؤلاء التركمان الا فى الاسم مع القبائل التى تسكن سهل انطاكية وضواحى الجنوب الغربى لدمشق وبلدة عنيبة .	شرحه
يسكن هؤلاء العرب البلاد التى كانت فيما مضى تشكل جزءا من قبيلتى يساكر وزبولون ، وقد حاربوا وكذلك العرب الذين سنذكرهم بعد ذلك الفرنسيين فوق تل طابور .	يعقوب حبيب ومن معلومات استخلصناها فى نفس أماكنها . ومن الجغرافى القديم دانفل d'Anville جـ٢ ، ص١٧٧
. . . . .	يعقوب حبيب
. . . . .	د. روفائيل
يتحدث هؤلاء العربية والتركية	د. روفائيل والشيخ يعقوب .
. . . . .	شرحه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب نعيمات الشرقية	ابتداء من القنيطرة حتى منطقة تسمى الجيدور	كبيرة العدد
« خيط بوادى	جنوب بحيرة طبرية بين صفد وجسر بنات يعقوب	١٠٠٠ فارس
« مساعيد امارة) وعرب الوهايب)	ضواحى أريحا أو جيركو القديمة	العدد مجهول
عرب كاظم أمارة	الشواطىء الغربية للبحر الميت والجبال الواقعة الى شمال القدس الشريف	شرحه
« التمابية	من القدس الشريف حتى نهر الأردن	«
« الفهيدات	شواطىء نهر الأردن حتى بيسان	«
« الشمالبة	نفس الأماكن	العدد مجهول
« البشاتوه	الجبل الذى يشرف على بحيرة طبرية الى الشرق	قليلو العدد
« المشاليخة	نفس المناطق حتى نهر الأردن	« «
« الغور	شواطىء البحيرة الصغيرة المسماة الحولة	٣٠٠ فارس
«صخور الغور	شواطىء بحيرة طبرية الى الشمال حتى البلاد التى يشغلها العرب السابقون (الغور) وهى بلاد صخرية	٣٠٠ فارس
«الغوارنة	نفس الأماكن	العدد مجهول
« الصبيح	ابتداء من شفا الغور حتى الجزء الأوسط من تل طابور	شرحه
« الدكاشرات	الى الغرب من القبيلة السابقة	«

ملاحظات	المصادر والمراجع
هؤلاء العرب أثرياء فى مواشيهم	معلومات استخلصناها فى نفس أماكنها وكذلك الشيخ يعقوب .
. . . . .	شرحه ، وبخصوص العدد ، من مذكرة د. روفائيل .
المناطق التى تتجول فيها هذه القبائل العربية تشكل جزءا من أملاك قبيلة بنيامين	يعقوب حبيب
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
كان هذا السهل يشكل جزءا من ممتلكات قبيلة منسى .	»
. . . . .	شرحه وكذلك د. روفائيل .
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	الشيخ يعقوب
. . . . .	خليل مسعود
. . . . .	شرحه

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب النميرات وعرب محمدات	ضواحى حاصبيا وظهر الهضبة السورية التى تناخم بلاد المتاوله	العدد مجهول
« العباد	ضواحى البلقاء والسلط	كثيرو العدد
« اهتيم أو « العدوان	صحراء بلقة وضواحى شفا الغور والسلط والزرقا	العدد مجهول
« الغنيمات	البلاد المعروفة باسم عمان وجرش الى الشرق من القبيلة السابقة	شرحه
« المهداوى	نفس المناطق	«
« بنى حسن	شرحه	«
« بنى كلاب	ضواحى ملكه	
« الموالى	البلاد الواقعه بين حمص وحماه وحلب	٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ فارس
« الحدايد	سهل يسمى الغوطة ويمتد بين لبنان والهضبة السورية	كثيرو العدد
« بنى سعيد	ابتداء من البقاع بالقرب من بعلبك حتى جبل الدروز	قليلو العدد
« الرشوان	يقضون الصيف فى سوريا والشتاء فى قونية	الف خيمة

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	الشيخ يعقوب حبيب
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	شرحه وكذلك د. روفائيل .
. . . . .	شرحه ، أما بخصوص موضع الفوطة ، فعن المكتبة الشرقيةفى Herbelot
. . . . .	شرحه
يتحدثون العربية والتركية لكن اسم قبيلتهم عربى بلا شك .	الشيخ يعقوب ، ومن مؤلف نشر حديثا وعنوانه : Itinéraire d'une partie de l'Asie Mineur

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب القتلية	شواطىء النهير المسمى النهر الكبير الذى يصب فى البحر بالقرب من اللاذقية	العدد مجهول
عرب القدامسة	ضواحى اللاذقية	كثيرو العدد
« قره حجلة	شواطىء نهر العاصى	« «
« عنزة	الصحراء الواسعة الواقعة بين مكة والفرات واللجاة	« «
« الهوارى	الصحراء الممتدة الى الجنوب من دمشق	قليلة العدد
« عرب السردية	الصحراء التى اشتهرت باسم اللجاة	شرحه
« الدمالجة	الصحراء الواسعة التى تعرف اليوم كما كانت تعرف قديما باسم جبل حوران	«

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصادر والمراجع	ملاحظات
يعقوب حبيب ، د. روفائيل ، والمؤلف السابق ذكره	تنبع هاتان القبيلتان مذهب النزاريين
الشيخ يعقوب حبيب	. . . . .
شرحه، د. روفائيل ، خريطة بولتر Poultre الخ الخ .	عنزة هو الاسم الأصلي لهذه القبيلة القوية التي تنقسم الى عدد لا حصر له من الفروع أشهرها في سوريا بنى صخرة .
الشيخ يعقوب ؛ خريطة بولتر .	هذه القبيلة ، البالغة الشهرة في سوريا تشغل البلاد التي كان يقطنها فيما مضى العمونيون أو بنو عمون .
شرحه	. . . . .
»	. . . . .

ملحــق

على الرغم من أنه لا يدخل فى موضوعنا أن نعرف القارىء بالقبائل العربية التى تعسكر فى مصر العليـا والوسطى والسفلى ، وكذلك بتلك القبائل التى تتجول فى ضواحى الاسكندرية ، وعلى الرغم من ان المعلومات

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الهوارة	بين اسوان وجرجا	٢٠٠٠ فارس على الأقل
« العبـــابدة واللبابدة	ولاية جرجا	كثيرو العدد
« زناتى	طهطـــا	٤٠٠ فارس
« هنادى أو الهنـــادوة	ولاية جرجا	كثيرو العدد
« العطايات	منفلوط	قليلو العـــدد
« ابن وافى والطحيوى	الى الشمال من منفلوط	شرحه
« أبو كرايم ومنهم :	ملوى	»
« الجهمة	نواحى بحر يوسف حتى المنيا	»
« التراهونة	تـــلة	»
« الخوين	ضواحى سمالوط	»
« الفوايد	ولاية بنى سويف	٣٠٠ فارس
« العدايد	شرحه	العدد مجهول
« السحارات	»	شرحه
« المحاز		»

التى تزودنا بها بهذا الخصوص ليست بالغة الاتساع وليست كذلك دقيقة للحد الذى كنا نتمناه ، ومع هذا ، فحيث انه كانت لهؤلاء العربان علاقات عديدة مع الفرنسيين ، وحيث أنه قد ورد ذكرهم كثيرا فى الدراسات التى عالجت الحالة الحديثة لمصر ، فاننا نعتقد ان من المفيد للقارىء ان نقدم اليه هنا أسماء القبائل الرئيسية .

ملاحظات	المصادر والمراجع
يتم اختيار شيخ هذه القبيله بالانتخاب وهو يقيم فى فرشوط.	من معلومات جمعت فى مصر ، ومن مذكرات ميخائيل صباغ
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	من دراسة دى بوا — ايميه
كان شيخهم يسمى الشيخ عبد الله ابن محمود	شرحه
كان شيخهم يسمى الشيخ عبد الله ابن على	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب محارب	ولاية المنيـــا	شرحه
« بنى واصل	. . . .	»
ومنهم :		
« السمالو	. . . .	»
« الفرجان	. . . .	»
« الترانع	. . . .	»
« العزايزى	. . . .	العدد مجهول
« بنى وائل	ضواحى المنيـــا	شرحه
« بنى حرام	ضواحى الأطفيحية	٤٠٠ فارس
« الضـمفا	ضواحى شمال بنى سويف	٢٠٠ فارس
« الخويلد	ولاية البهنسا	٤٠٠ فارس
« نجمـــا	نفس الأماكن	٢٠٠ فارس
« غـــزالة أو خبيرى	ضـــواحى الجيزة والمنـــاطق القاحلة بجوار الأهرام	العدد مجهول
« الزيدية	مكان يسمى أوسيم بالقـــرب من الجيزة	٣٠٠ فارس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
كان شيخها فى عام ١٧٩٩ يسمى ابو بكر	مستخلصة من ميخائيل صباغ
. . . . .	شرحه
على الرغم من قلة عدد هذه القبيلة فهم مرهبون تماما فى البهنسا.	»
. . . . .	»
. . . . .	»
كان شيخهم فى سنة ١٧٩٩ يسمى أحمد	»
يقال انهم من نسل المماليك الذين طردهم السلطان سليم من مصر عام ١٥١٧	»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الجويلى	ولاية البحيرة	٥٠٠ ، ٦٠٠ فارس
« ابن بغداد	ولاية المنوفيــة	٤٠٠ ، ٥٠٠ فارس
	ضواحى الاسكندرية	
« الجوابى	نواحى بحيرات النطرون	٦٠٠ فارس
« السمالو	نفس الأماكن	٢٠٠ فارس
« مسينيد	المكان المسمى الميمون	٥٠٠ فارس
« اولاد على او بنى على	ضــواحى الجنوب الغربى من الاسكندرية	١٠٠٠ الى ١٢٠٠ فارس
« مطيرد	وادى الميمون عــلى مســيرة يومين الى الفــــرب من الاسكندرية	

السفلى

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	ميخائيل صباغ
. . . . .	شرحه
وبحيرات النطرون	
يبدو أن عرب الجوابى من اصل افريقى ، وهم يقومون بنقل ملح النطرون من البحيرات حتى الاسكندرية والطرانة وبنقل البضائع الخاصة بواحة آمون (سيوه)	شرحه، ومن معلومات استخلصناها فى نفس اماكنها
. . . . .	ميخائيل صباغ
. . . . .	شرحه
هذه القبيلة قوية بنفسها وبحلفائها ويسكن شيخها قرية تسمى القتلية بناها أجداده الى جوار الدير المحرق	شرحه، ومن معلومات استخلصناها من نفس أماكنها
. . . . .	شرحه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفهرس

الاهـــــداء ٣

المقـــــدمة ٥

الدراســـة الأولى : جولة فى اقليم المريوطيـــة ، تأليف
جراتيـــان لوبير . . . . ١٧ — ٤٠

الدراسة الثانيـــة : رحلة الى وادى النطـــرون ، تأليف
الجنرال أنـــدريوسى . . . . ٤١ — ٧٨

الفصل الأول : عن وادى النطرون ٤٥

الفصل الثانى : طبوغرافية البحر الفـــارغ . . . ٥٥

الفصل الثالث : عن الأديرة القبطيـــة ٦٣

الفصل الرابع : عن عرب الجوابى وعن البـــدو . ٦٨

الدراسة الثالثة : دراسة موجزة عن عيون موسى ،تأليف
ج . مونج . . . . ٧٩ — ٨٦

الدراسة الرابعة : ثمانية وعشرون يوما فى سيناء ، تأليف
ج. كـــوتل . . . . ٨٧ — ١٣٤

الدراسة الخامسة : رحلة الى بنى سويف والفيوم، تأليف
ب.م. مارتان . . . . ١٣٥ — ١٩٢

القسم الأول : ولاية بنى ســـويف ١٤١

القسم الثـــانى : ولاية الفيوم ١٥٢

الدراسة السادسة : العرب والعربان فى مصر الوسطى
تأليف ا. جومار . . . . ١٩٣ — ٢٤٤
الفصل الأول : العرب المزارعون ١٩٧
١ — القبائل التى استقرت فى مصر منذ زمن بعيد . ١٩٧
٢ — القبائل التى استقرت حديثا ٢٠٨
الفصل الثانى : العرب المحاربون أو العربان الرعاة
أو الرحل ٢٢٨

الدراسة السابعة : القصير والعبابدة ، تأليف دى بوا —
ايميه . . . . ٢٤٥ — ٢٦٠

الدراسة الثامنة : القبائل العربية فى صحراوات مصر ،
تأليف دى بوا — ايميه . . . . ٢٦١ — ٣١٠

الدراسة التاسعة : كيف خرج اليهود من مصر القديمة ،
تأليف دى بوا — أيميه . . . . ٣١١ — ٣٧٢
الفصل الأول : ٣١٣
— مقدمة : ٣١٣
— عن الأسفار ٣١٦
— عن الرعاة الرحل ٣١٧
— ابراهام ٣١٩
الفصل الثانى : . . . .
— عن العبرانيين حتى عصر دخولهم مصر ٣٢٧
— عن فتح مصر على يد الرعاة وعن العبرانيين منذ وفاة
يوسف حتى هروبهم الى الصحراء ٣٣٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— هروب العبرانيين الى الصحراء ٣٣٩

— مسيرة العبرانيين فى الصحراء حتى المنطقة التى عبروا
عندها البحر الأحمر ٣٤٣

— عبور البحر الأحمر ٣٤٦

— المياه المرة تصبح مياها عذبة ٣٥٤

— عن السحاب وعمود النار وعن بعض الظواهر الأخرى
المثيرة للانتباه ٣٥٦

— الشريعة تتنزل على جبل سيناء ٣٦١

— موت موسى ٣٦٨

الدراسة العاشرة : حصر للقبائل العربية التى تقطن بين
مصر وفلسطين ، تأليف اميديه جوبير . . . ٣٧٣ — ٤٠٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Bibliotheca Alexandrina
0235116

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الترجمة الكاملة
(٤)

وصف مصر

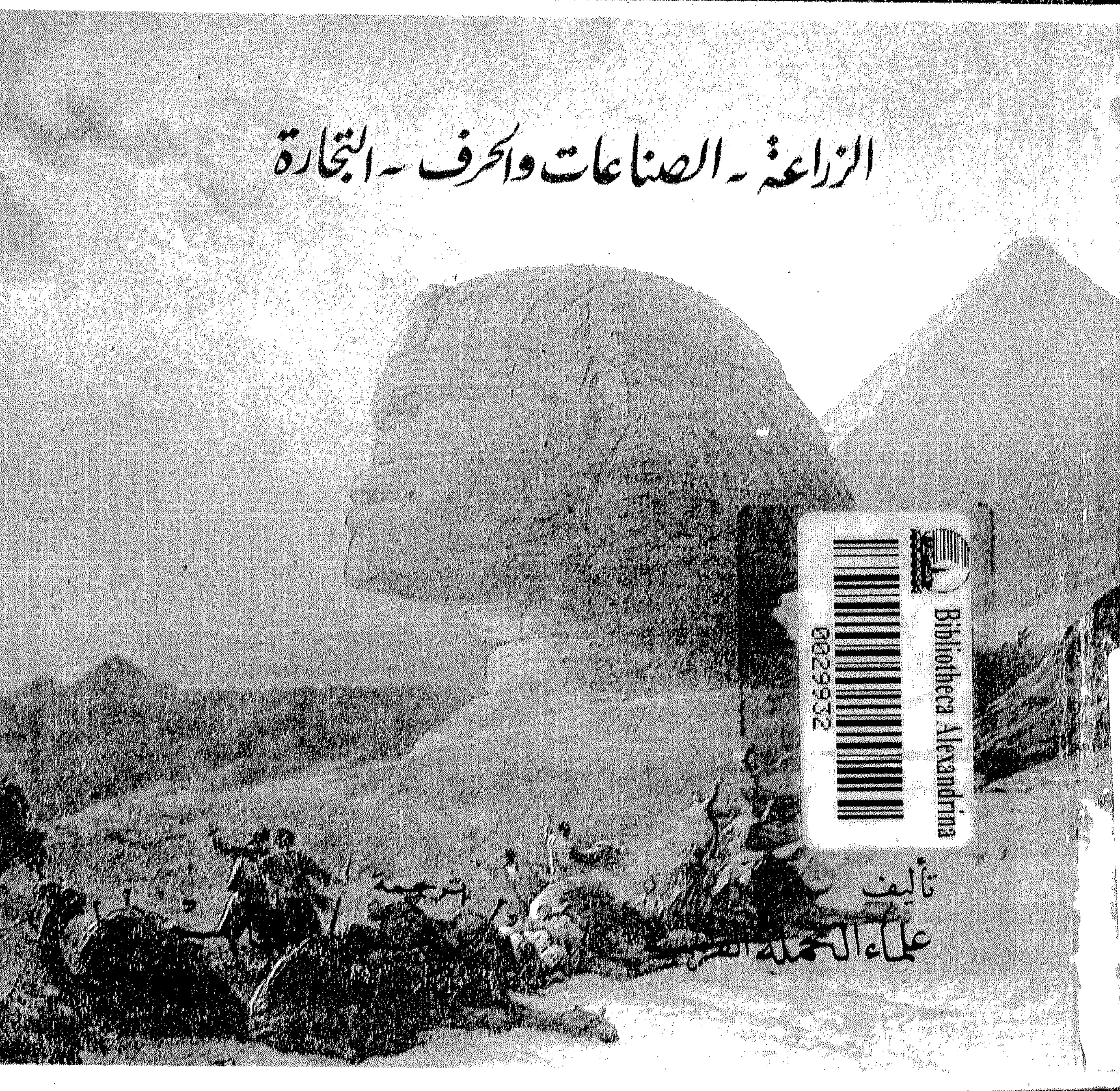

الزراعة - الصناعات والحرف - التجارة

Bibliotheca Alexandrina
0029932

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤
وصف مصر
الترجمة الكاملة

وصف مصر

موسوعة

الحياة الاقتصادية فى مصر
فى القرن الثامن عشر

الجزء الأول

الزراعة - الصناعات والحرف - التجارة

تأليف
ب. س. جيرار

ترجمة
زهير الشايب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يعد هذا المجلد الرابع من الترجمة العربية الكاملة لكتاب وصف مصر الجزء الأول من موسوعة الأحوال الاقتصادية لمصر عند مجئ الحملة الفرنسية . ويعنى هذا القول من جانبنا أننا سنوالى إصدار الدراسات التى تناولت ظروف مصر الاقتصادية فى كتاب وصف مصر ، بغض النظر عن أنها لم ترد مرتبة على هذا النحو فى وصف مصر

ويتضمن هذا المجلد دراسة واحدة من وضع بير سيمون جيرار ، مهندس الطرق والكبارى ، وعضو الأكاديمية الملكية للعلوم ، وعضو المجمع المصرى والفارسى الحائز على وسام الشرف من الطبقة الملكية . وقد ولد فى Caen عام ١٧٦٤ وتوفى عام ١٨٣٦ وترك مؤلفاً فى ثلاثة مجلدات عن نظم الرى .

وتعد هذه الدراسة من ناحية المنهج واحدة من أكمل الدراسات التى جاءت بوصف مصر ، ففيها من الدقة والإحاطة والشمول ما يلمسه القارئ من مجرد تصفح الكتاب أو من مجرد إلقاء نظرة عابرة على فهرسه ، أما الجهد الذى بذله المؤلف والتفانى الذى أبداه فيه فإننا نمسك عن الحديث عنه خشية ألا نستطيع أن نوفيه فى ذلك حقه ، فلقد بلغ من تفانيه وحرصه فى عمله أن كان زملاؤه من علماء الحملة يتندرون عليه ويصفونه بالفلاح .

وقد كنت أود أن ألحق بهذه الدراسة دراسة أخرى للمؤلف عن المقاييس المصرية القديمة وهى التى كانت لا تزال تستعمل فى مصر حتى وقت مجئ الحملة الفرنسية لولا أننى خشيت أن أخرج عن حدود المنهج الذى أتبعه وهو تقديم دراسات الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر بالشكل الذى بينته فى مقدمات المجلدات الثلاثة السابقة كما كنت أود أن أقدم دراسات قصيرة أخرى تناولت بعض الحرف والصناعات التى أشار إليها المؤلف فى الباب الثانى ولم يوفها حقها اكتفاء منه بما جاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى هذه الدراسات التى وصفها غيره ، مثل دراسة بوديه عن دبغ الجلود ، ودراسة روزير وروييه عن معامل التفريخ ودراسة ديكوتيل عن ملح النوشادر لكن ذلك كان من شأنه أن يزيد من حجم هذا المجلد لحد قد لا يكون مناسباً .

ويبقى لكى تكتمل هذه الموسوعة عن الاقتصاد المصرى عند مجئ الحملة الفرنسية أن نقدم دراسات لانكريه عن الريف المصرى تحت حكم المماليك ، وإستيف عن مالية مصر وصامويل برنار عن النقود والموازين العربية بالإضافة إلى الدراسات القصيرة التى أشرت إليها فى الفقرة السابقة ، وستكون هذه الدراسات كلها هى موضوعات المجلدين الخامس والسادس بإذن الله .

ولا يبقى علىّ فى هذه العجالة إلا أن أكرر شكرى لكل من قدم لى عوناً أو تشجيعاً من أى نوع وهؤلاء كثيرون بحيث لا يتسع المقام لحصرهم على أن واجب الوفاء يحتم تخصيص الشكر لنفس الأسماء التى ذكرناها بالتفصيل فى مقدمات المجلدات الثلاثة السابقة وبالذات الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة والأستاذ رينيه خورى .

والله أسأل أن يكون فى هذا الجهد ما ينفع بلادى مصر وإخوتى المصريين وسيكون هذا لو تحقق هو أفضل ما أنتظر من جزاء .

زهير الشايب

القاهرة فى نوفمبر ١٩٧٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥

بعد احتلال الجيش الفرنسى لمختلف أقاليم مصر ، كلفت بالتوجه إلى أعالى النيل حتي الشلال الأول ، للتعرف على تأثير هذا النهر فى خصوبة هذه البلاد ، وبأن أجمع المعلومات الضرورية لوضع خطة عامة لنظام الرى بها .

رحلت من القاهرة فى التاسع والعشرين من فنتوز من العام السابع (١٩ مارس ١٧٩٩) مع كثير من أعضاء لجنة الفنون ، واهتم كل منا أثناء الرحلة بالأبحاث التى تجره إليها ميوله الطبيعية ، ولما كانت البحوث التى أخذتها على عاتقى ، تتصل بشكل خاص بتطوير وإصلاح أحوال هذه البلاد ، فقد كان من الضرورى قبل كل شئ أن أحصل على المعرفة الضرورية عن أحوالها الحالية ، وعن الإمكانيات التى تهيؤها لها الزراعة والتجارة والصناعة . وهكذا كان مجال المعلومات التى على أن أجمعها بالغ التحديد ، وقد رصدتها بكثير من التفصيل ، لدرجة يمكننى معها القول بأننى قد تمكنت من معرفتها بشكل تام .

بدأت منذ رحيلنا نفسه أدون فى يوميات رحلتى المعلومات التى بدأت أجمعها ، وكنت أحصل على هذه المعلومات عن طريق مشايخ القرى الذين كنت أستدعيهم كما كنت أحصل عليها فى بعض الأحيان من فلاحين بسطاء ممن كنت أصادفهم ، وحصلت عليها من جهة ثالثة ، وفى أغلب الأحيان عن طريق مسافرين من أبناء البلاد كنا نستضيفهم فى قاربنا . وحيث لم يكن على المترجم الذى كان يصحبنا إلا أن يكرر بشكل دائم تقريباً نفس الأسئلة إلى كل من كنت أسألهم ، فإنه سرعان ما توصل إلى روح إجاباتهم ، وإذا حدث أن كان ثمة نوع من الاختلافات فى هذه الأجوبة فإننى واثق أنها قد نقلت إلى بأمانة تامة .

كان الجزء الأعلى من الصعيد لم يتم احتلاله نهائياً على يد قوات الجنرال ديزيه Desaix عندما وصلنا إلى سيوط (أسيوط) . وقد اضطرتنا هذه الظروف إلى البقاء فى هذه المدينة من ٢٨ مارس حتى ١٨ مايو الذى يليه .

وكنت فى أثناء هذه الفترة شاهداً على جزء من أعمال الحصاد ، وقد تابعتها باهتمام شديد ، ومنحتنى هذه الأعمال الفرصة لكى أعرف من أفواه الفلاحين أنفسهم الأعمال الزراعية التى يقومون بها فى فصول السنة الأخرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد ذلك ، توجهنا براً ، وفى جولات صغيرة محاذية الشط الأيسر للنيل ، من سيوط إلى قنا التى وصلنا إليها فى ٢٥ من مايو ، وقد وجدنا هناك الجنرال بليار Belliard الذى كان يتولى القيادة فى هذا الإقليم ، وكان قد انتهى لتوه من إعداد حملة برياسته كان الهدف منها الاستيلاء على ميناء القصير ، وغداة وصولنا كانت الحملة مستعدة وكانت هذه فرصة كبيرة قد واتتنا لكى نتعرف على أعماق الصحراء التى تفصل وادى النيل عن البحر الأحمر ، ولكى أحصل على المعلومات التى كنت أحتاج إليها عن التجارة التى تتم بين مصر والجزيرة العربية عن هذا الطريق . رحلت إذن إلى القصير مع هذه الحملة ، وقد اكتفت الحملة بوضع حامية فرنسية فى هذا الميناء وعدنا من هناك فى الرابع عشر من يونية .

أقمنا فى قنا حتى السادس والعشرين ، وهناك كما حدث فى سيوط ، أتيح لى الوقت أن أطابق وأعدل ما سبق أن عرفته عن أعمال ومحاصيل الزراعة . وقد عرفت ما هو خاص بهذا الإقليم من أقاليم مصر وما هى أنواع الحرف المختلفة التى يعمل بها سكانها .

حاذينا الشط الأيمن للنيل كى نتوجه إلى إسنا حيث وصلناها فى الثلاثين من يونية ، وحصلت فى هذه المدينة – فيما يختص بأبحاثى – على نفس المعلومات التى حصلت عليها فى سيوط وقنا . وبعد أن مكثنا هناك تسعة أيام رحلنا من هناك فى التاسع من يولية لكى نبحر جنوباً حتى الشلال الأول . وفى الثانى عشر منه وجدنا أنفسنا فى اسوان،وقد امتدت إقامتنا فى هذه المدينة حتى السادس والعشرين من نفس الشهر،وفى الثلاثين منه كنا قد عدنا إليها مرة أخرى لنمضى فيها عشرة أيام ، بدأنا فى نهايتها زيارتنا لسهل طيبة وصلنا إلى هناك فى الحادى عشر من أغسطس ، وقد أقمنا فى البداية على الشاطئ الأيسر للنيل ، فى قرية الأقالتة التى تقع على مسافة قصيرة من معبد Mamnonium ومن مدينة (كوم امبو) . وانتقلنا فى ١٩ أغسطس إلى الشاطئ المقابل ومكثنا فى الأقصر حتى ٢٩ وأخيراً اتجهنا جنوباً نحو إسنا حيث مكثنا لثالث مرة حتى ١٤ سبتمبر . وهكذا قضينا ٢٥ يوماً فى هذه المدينة على ثلاث مرات منفصلة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم أكن بحاجة للتوقف فى قنا حيث كانت إقامتنا فيها قد امتدت لمدة تقرب من شهر عندما كنا ذاهبين إلى أعالى النيل ، لكننى كنت وقتها قد عبرت دون توقف ولاية جرجا إحدى أهم ولايات الصعيد ، ولما كنت أود أن أجمع من هناك بعض المعلومات فقد مكثت بها من ١٢ إلى ٢٠ سبتمبر ، وقضيت بعد ذلك ثلاثة أيام فى أخميم على الشاطئ الأيمن للنيل ، وأخيراً أبحرنا شمالا فوصلنا سيوط فى ٣ فندميير من العام الرابع (٢٥ سبتمبر ١٧٩٩) .

كانت مياه الفيضان التى سبق أن غطت أرض الريف قد بدأت تنحسر . وكنت شاهداً على عملية البذر الذى كان موسمه قد بدأ . وكان الجنرال ديزيه قد اتخذ منذ بعض الوقت من سيوط مقراً لقيادته ، ومن هناك كان يراقب تحركات مراد بك ، ورحل من هناك فى الأول من أكتوبر لكى يشرع فى مطاردته وليتوغل فى الصحراء فيما وراء الفيوم مغطياً الشاطئ الأيسر لبحر يوسف ، وقد صحبته فى هذه الجولة ، ولكن بعد عشرة أيام تلقى الجنرال ديزيه نبأ رحيل القائد العام (بونابرت) إلى فرنسا وتلقى فى الوقت نفسه أمراً بالعودة إلى القاهرة ، لذلك استوجب الأمر أن أعدل هذه المرة عن زيارة ولاية الفيوم . اتجهنا نحو المنيا ومن هناك أبحرنا فوق النيل فى ٤ أكتوبر ووصلت إلى القاهرة فى السادس عشر منه بعد غيبة استمرت سبعة أشهر .

وقد غير الجنرال كليبر الذى أصبح على رأس الجيش نظام أعمال المجمع العلمى المصرى ولجنة الفنون ، فكون لجاناً عديدة وكلفها بجمع مختلف الوثائق التى رأى أنها أكثر فائدة . وقد ألحقت أنا بلجنة الزراعة والتجارة . وقد أنفقت جزءاً من شهرى نوفمبر وديسمبر سواء فى تبويب المعلومات التى حصلت عليها من الصعيد أو فى التزود بمعلومات جديدة للقيام بنصيبى فى عمل اللجان التى كنت عضواً فيها . وقد زرت خلال هذين الشهرين سهول هليوبوليس والأهرام وسقارة حيث أمضيت أياماً كثيرة . وفى أثناء هذه الفترة أقمت علاقات متينة مع أبرز تجار القاهرة من مسيحيين وأتراك ، وهى العلاقات التى جعلتنى فى وضع يسمح لى بالحصول على

معلومات حول التجارة المصرية الحالية وهى التى سأعرضها فيما بعد فى هذه الدراسة .

وقد انتهزت فى يوم ٢٤ ديسمبر ١٧٩٩ الفرصة التى لاحت لى للتعرف على الطريق المؤدى من القاهرة إلى السويس عبر وادى التيه . وقد وصلنا إلى هذا الميناء (السويس) فى الثامن والعشرين بعد مسيرة أربعة أيام . وقد أقمنا هناك حتى ٢٢ يناير ١٨٠٠ مما أتاح لى أن أضيف معلومات جديدة إلى تلك التى سبق لى أن حصلت عليها عن التجارة المصرية مع الجزيرة العربية . وعند عودتنا إلى القاهرة اتخذنا الطريق الأقصر وهو الذى يصل بين المقطم وبركة الحج . وعدنا فى ٢٤ يناير إلى القاهرة .

فى هذه الأثناء كانت مصر مهددة ، وسرعان ما غزتها القوات التركية واستوجب الأمر إيقاع هزيمة ثانية بالأتراك وهو ما انتهت إليه معركة هليوبوليس ، وقمت من جهتى باستغلال هذه الفترة فى مراجعة المعلومات التى سبق أن حصلت عليها عن الزراعة فى ضواحى القاهرة .

ولم ترحل الحاميات الجديدة التى خصصت لصعيد مصر إلا فى ١٠ مايو ، وقد صحبت الجنرال زايونشيك Zayonchek الذى أوكلت إليه قيادة أقاليم بنى سويف والفيوم . وقد سرنا مع قوات المشاة وحاذينا الشاطئ الأيسر للنيل ووصلنا إلى بنى سويف فى الثالث عشر .

وقد هيأ لى الزحف لمسافات قصيرة (أى مع التوقف بين مسافة وأخرى) ومع جزء من القوات القوية لحد كاف – الوقت للحصول على معلومات جديدة عن زراعات البلاد التى كنا نعبرها .

وبعد أن قضيت ثلاثة أيام بالقرب من الجنرال زايونشيك رحلت لزيارة إقليم الفيوم . وقد اجتزت الإقليم فى كل جهاته مع قائد الفرق الذى كان يحصل الضرائب من هناك . وقد مكثت فى هذه المنطقة من ١٧ مايو حتى ٢٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يونية ، وفى هذا اليوم نفسه رحلت من بنى سويف فى صحبة ستة من الانكشارية الذين صحبونى حتى القاهرة ، وقد وصلت إليها بعد مغادرتى لبنى سويف بثلاثة أيام .

كان القائد العام ، الجنرال كليبر ، قد اغتيل فى ١٤ يونية وانتقلت القيادة إلى أيد أخرى ، وأقمت فى القاهرة لمدة حوالى الخمسة أشهر فى انتظار اللحظة المناسبة لعبور مصر السفلى ، وكان فيضان هذا العام شديد الوفرة ، وكان لابد من الانتظار حتى تنحسر مياه الفيضان التى تغطى الأرض حتى يمكن زيارة الدلتا بطريقة مناسبة . وأخيراً رحلت فى العاشر من ديسمبر فاجتزت أولا ولاية المنوفية من الوسط إلى الشمال ، ثم أقمت فى طنطا ووصلت إلى فرع النيل الذى يتجه إلى رشيد عند الموقع المقابل للرحمانية ، ومن هناك توجهت إلى الشرق فوصلت إلى سمنود على فرع دمياط مروراً بالمحلة الكبيرة (الكبرى) .

غادرت سمنود فى ٣١ ديسمبر ، وأبحرت فى ترعة التبانية التى تصب فى بحيرة البرلس ، وعبرت هذه البحيرة ليلا فوصلت إلى قرية بلطيم ، وهى أهم تلك القرى التى يراها المرء قائمة فوق لسان الأرض الذى يفصل البحيرة عن البحر ورحلت من هناك فى ٢ يناير ١٨٠١ وتوجهت بمحاذاة البحيرة إلى قرية الروس الواقعة إلى يمين النيل تجاه رشيد .

كان الجنرال زايونشيك يتولى القيادة فى هذه المدينة . وقد بقيت بالقرب منه حتى اليوم التاسع من يناير ، وهناك ، كما حدث فى الفيوم ، زودنى بترحاب كبير بكل الوسائل التى من شأنها أن تسهل مهمة أبحاثى .

عبرت النيل مرة أخرى عند مصبه وسرت بحذاء شاطئ البحر لمدة يومين مشياً على الأقدام حتى بوغاز البرلس ، وتلك هى الفتحة الرئيسية التى تصب عن طريقها مياه البحيرة فى البحر . وكان على أن أمشى ثلاثة أيام أخرى حتى أصل من هناك إلى دمياط التى وصلت إليها فى ١٣ يناير .

كانت تلك هى المرة الثانية التى أزور فيها هذه المدينة ؛ فقد سبق أن أقمت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيها منذ عامين إقامة اضطرارية لمدة تقرب من شهرين ، وهناك انتهيت من استكمال المعلومات التى كنت بدأت فى الحصول عليها حول التجارة مع سوريا ، وحول الزراعة فى هذه المنطقة من أرض مصر . ومكثت هناك حتى ١٨ من نفس الشهر ، ثم توجهت إلى المنزلة وهى قرية كبيرة أعطت إسمها للبحيرة التى تغطى الجزء الشرقى من الدلتا ، وبعد ذلك زرت منشآت الصيد فى المطرية ، ثم اتخذت طريقى فى ٢٣ يناير نحو المنصورة متجهاً إلى الجنوب عن طريق ترعة أشمون ، وامتدت إقامتى فى المنصورة من ٢٥ إلى ٢٧ ، ومن هناك اتجهت شمالا إلى صان عن طريق بحر مويس ، ومن صان توجهت إلى الصالحية فوصلتها فى ٣٠ ثم رحلت فى أول فبراير إلى بلبيس ، وفى النهاية وجدت نفسى يوم ٤ فبراير فى القاهرة من جديد .

وبعد وقت قصير من عودتى أوقفت أحداث الحرب التى أخذت تتلاحق بسرعة كل الأسفار ، واستوجب الأمر الالتحاق بفرقة من فرق الجيش كان يقودها الجنرال بليار Belliard وبقيت فيها حتى تم إبحارنا من أبى قير إلى فرنسا فى بداية شهر أغسطس من نفس العام .

ويرى المرء من تتبع المسار الذى انتهيت من رسمه أن الأبحاث التى أخذت على عاتقى الاضطلاع بها قد شملت كل أقاليم مصر ، ولابد أن المثابرة والدأب والعناية التى راعيتها فى جمع هذه المعلومات ستعطى لنتائج أبحاثى الدرجة من الدقة التى يمكن لعمل مماثل أن يحصل عليها . وقد كان موضوع أبحاثى كما سبق أن قلت هو التعرف على أحوال الزراعة والصناعة والتجارة فى مصر فى الوقت الراهن . وسيجد القارئ هذا التقسيم موجوداً بشكل طبيعى وموضح تحت كل من هذه العناوين .

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول

عن الحالة الراهنة للزراعة فى مصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول
حالة ومساحة الأراضى القابلة للزراعة
أعمال الرى - الوسائل الصناعية للرى

يجرى النيل ابتداء من أسوان حتى القاهرة ، كما هو معروف ، لمسافة تبلغ مائة ميريامتر من الجنوب إلى الشمال ، فى واد يبلغ عرضه ثلاثة فراسخ ، ومحصور بين سلسلتين من الجبال ، تمتد إحداهما جهة الشرق حتى البحر الأحمر وتنتهى الأخرى جهة الغرب بالصحراء الليبية .

وعلى مسافة قصيرة شمال القاهرة يتباعد هذان الجبلان كل منهما عن الآخر ، فيستدير الأول نحو البحر الأحمر ويمتد الثانى إلى الشمال الغربى حتى شاطئ المتوسط أما الفراغ المتكون بين هاتين السلسلتين وبرزخ السويس فهو أرض غرينية كونها النيل واخترقها على فترات عديدة متبعاً مسارات متعددة ، ويشكل هذا الترسيب العظيم وقاع الوادى الضيق الذى تحدثنا عنه من قبل بالإضافة إلى ولاية الفيوم التى يربطها بالنيل ترعة كبيرة - يشكل كل ذلك الأرض القابلة للزراعة فى مصر ، والتى تبلغ مساحتها الكلية حوالى المليونين ومائة ألف هكتار .

وتتكون تربة هذه المساحة من طمى مائل للسواد ترسب فوق طبقات من الرمل الناعم تتفاوت درجة سمكه ، وتتسرب من خلاله مياه النيل كما تتسرب من خلاله أيضاً تلك المياه التى تغطى الأرض أثناء الفيضان .

إن منطقة كهذه ، تقع بين خطى عرض ٢٤° و٣١° ، تكاد لا تسقط فيها أمطار على الإطلاق ، لا يمكن أن تخصب إلا بفيض النهر الذى يخترقها أو بواسطة الرى الصناعى .

يبدأ النيل فى الزيادة مع بداية الانقلاب الصيفى ويبلغ أقصى فيضانه فى اعتدال الخريف ، ثم يبدأ فى الانخفاض تدريجياً حتى انقلاب الصيف من العام التالى ، وهكذا يفيض النيل لمدة ثلاثة أشهر ثم ينخفض لمدة تسعة أشهر ، الأمر الذى يعطينا فكرة عن نظامه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما تكون مياه النيل فى أقصى انخفاض لها ، تكون أرض الوادى تعلوها بثمانية إلى عشرة أمتار فى الجزء المدارى من أرض الصعيد ، ومن ٤ إلى ٥ أمتار بالقرب من القاهرة وبمتر واحد فقط عند فتحتى فرعى دمياط ورشيد .

وبعد شهرين من بدء النيل فى الزيادة ، أى فى الفترة من ٢٠ – ٢٥ أغسطس تقطع السدود التى كانت قد أقيمت قبل ذلك ببعض الوقت على رأس ترع الرى المحفورة من مسافة لأخرى على شاطئ النهر ، وتتجه هذه الترع فى مصر العليا – مع تفاوت فى درجات ميل كل منها – نحو سلسلتى الجبال اللتين تحيطان بالنيل ، وعندما تصل هذه الترع إلى سفحهما فإنها تمتد بشكل مواز لهاتين السلسلتين فى الصحراء ، لكن سدوداً عرضية تسد مجراها بحيث ترتفع المياه التى توقفها هذه السدود فتغرق جزءا من الأراضى التى تحيط بها ، ونستنتج من ذلك أنه كلما كان الفيضان عالياً كلما ارتفعت المياه لتعلو السدود التى تحدثنا للتو عنها ، وكلما زادت بالتالى مساحة الأرض التى تغمرها .

وعندما يبلغ غمر المياه أقصى ارتفاع له ، يقطع السد الذى يحجز المياه ، فتسيل عندئذ إلى ما وراء السد ، متبعة نفس مسار الترعة التى تستطيل من تلقاء نفسها على حدود الصحراء حتى يصطرها سد ثان أن تتوقف وأن تتكدس وأن تنتشر فوق جزء من المساحة المحصورة بين الجسرين العرضيين المتعاقبين

ويقطع السد الثانى كما سبق أن قطع السد الأول ، وتنزل المياه بنفس الطريقة لنواجه سداً ثالثاً يحدث بدوره فيضا للمياه يغمر مساحة محدودة من الأرض ، ويستمر الأمر هكذا حتى تغرق ضفتا الوادى المقسمتان إلى طوابق متعاقبة بفعل السدود التى انتهينا من بيان أوضاعها ، وبواسطة المياه المتفرعة عن النيل .

وتتحدد منابع المياه المتفرعة عن هذا النهر من مسافة لأخرى بواسطة ترع خاصة ، تصلح من تلفيات التفريعات العليا (الجنوبية) وتزيد من مساحة الأراضى المعمورة ، عن طريق الكميات الجديدة من المياه التى تفيض عنها هناك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكى تظل مياه الفيضان فوق الأرض دون أن تنحسر من جديد نحو النهر من فوق السدود التى تتكدس (المياه) من خلفها ، تحاط شواطئ النيل بجسور تتفاوت درجة ارتفاعها ، وتستخدم هذه كطرق أثناء الفيضان ، بحيث تصبح المياه الداخلية المحجوزة عن طريق هذه الجسور فى أماكن كثيرة فى هذه الفترة من العام ، أكثر ارتفاعا عن مستوى النهر .

وهكذا يشتمل نظام الرى الذى انتهينا من وصفه على تكوين سلسلة من البرك على ضفتى النيل أثناء الفيضان ، وتتدرج هذه البرك فى الارتفاع فوق بعضها البعض ، وفى الوقت الذى يستمر فيه انحدار النهر حسب نسق معين من التواصل بطول مجراه من الشلال الأول حتى البحر المتوسط ، فإننا نجد نفس هذا الانحدار يستمر على درجات بطول الترع التى تخترق بالتتابع مختلف الأراضى التى تحيط بها .

ومن الميسور أن نستنتج مما سبق أن تطوير نظام الرى فى مصر ، لا يعتمد على العمق الذى حفرت عليه الترع بقدر ما يعتمد على العناية بالجسور التى تقطع الوادى بشكل عرضى . وهذه الجسور التى تتجه عادة من قرية إلى أخرى تستخدم كطرق فيما بين هذه القرى أثناء الفيضان ، ويولى السكان عنايتهم بها ، وحيث أنها مبنية بالطين ، فإنها معرضة للقطع عندما تهتز المياه التى تحجزها بفعل الرياح ، لذلك تكسى هذه الجسور بصف أو عدة صفوف من الحصر المصنوعة من السمار تدعمها أوتاد عمودية .

ويتبع هذا الأسلوب فى الرى فى داخل الدلتا وعلى حافتى النيل فى صعيد مصر على حد سواء ، وفى رأينا أن مساحة الأرض التى تغمرها مياه الفيضان ترتبط باعتبارين ؛ أولا : ارتفاع الفيضان ؛ وثانياً : طول المدة التى تترك خلالها المياه تتكدس خلف الجسور التى تحجزها ، ولكن ؛ فحيث أن الأراضى التى تقع أسفل هذه الجسور مباشرة تظل جافة حتى تطلق فيها المياه العالية بفتح الجسور ، فإن من السهل أن نستنتج أن القرى الدنيا يمكنها أن تفقد بفعل التراخى فى فتح هذه الجسور كل المزايا التى تتمتع بها البلاد العليا وحدها والتى يظل الفيضان غامراً لأراضيها ، وهذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاختلاف فى المصالح فى إعداد مياه الرى يؤدى فى غالب الأحيان إلى حدوث مشاجرات دامية فى المنطقة الواحدة ، وتؤدى غيبة الشرطة إلى تعميق وتوسيع هذه الأحقاد التى تنتج عنها ، ولذلك فثمة بعض قرى متجاورة قد دبت بينها عداوة لا يمكن علاجها ، منذ زمان لا تعيه الذاكرة .

ومن جهة أخرى فإننا لن نأخذ على عاتقنا هنا أن نشير إلى كل الترع المتفرعة عن النيل لغمر الأراضى الملاصقة لها بالمياه ، وذلك أن بإمكاننا أن نحصل على فكرة دقيقة عن النظام العام الذى تكونه هذه الترع بإلقاء نظرة عابرة على خريطة مصر ، لكننا هنا نكتفى بالقول بأن الوادى الذى يجرى فيه النيل ، بعد أن يأخذ فى الاتساع جنوب جرجا ، تبدأ تتفرع عنه ، من الشاطئ الأيسر لهذا النهر ، ترعة يطلق عليها اسم بحر يوسف وتمتد هذه الترعة متبعة على الدوام مشارف الصحراء الغربية حتى تبلغ إقليم الفيوم الذى ينفصل عن باقى أرض مصر والذى يمكن أن يتحول إلى أراض جرداء قاحلة إذا لم تصب فيه هذه الترعة (بحر يوسف) جزءاً من مياهها .

وتنفذ المياه إلى هناك مارة تحت قناطر أقيمت فوق الجسر الذى يسد بداية ترعة اللاهون وتجرى من هناك حتى وسط الهضبة الأكثر ارتفاعاً فى الاقليم ثم يستقبلها حوض منتظم يقع بين مدينة الفيوم وخرائب أرسينويه القديمة Arsinoé ومن هذا الخزان الكبير تتوزع المياه بين القرى المختلفة ، وتغلق الترع التى تنقل هذه المياه إلى القرى ومن بدايتها جسور صغيرة مبنية بالطوب الأحمر ، ينبغى على المياه أن تجتازها فى نفس الوقت الذى تبلغ فيه إرتفاعاً معيناً ، وتجرى المياه فى البداية بملء الترعة ، وعندما ينخفض منسوب النيل تهبط إلى مستوى الخزانات ، ويضطر الناس لعمل فجوات بقصد إطالة مجراها لكن هذه العملية من جانبهم تتم على غير قاعدة ، وبشكل سرى على الدوام مما يؤدى إلى حدوث قلاقل كبيرة بين المزارعين فى بعض الأحيان ، حيث ترى قرى بأكملها مهجورة ، لأن جيراناً لها أشد بأساً قد استولوا بقوة قاهرة على المياه التى كانت مخصصة لها .

ويعهد بنظام الرى فى الفيوم إلى أفندى الولاية ، وهو الذى تودع عنده الحجج

التى يدون بها عدد القرى وكمية المياه التى ينبغى أن توزع على كل منها ، وتوضح هذه الحجج مبلغ المال الذى يبغى على كل قرية أن تدفعه سنويا نظير تنظيم صيانة المشروعات ذات الصالح الخاص ، حيث أن صيانة المشروعات دات الصالح العام مثل بحر يوسف وتغطية المنشآت المنية فى بعض الأماكن بقصد تقوية الضفاف ، أمر تأخذه الحكومة على عاتقها .

وتكاد تجرى المياه ابتداء من حوض التوزيع الذى انتهينا من الحديث عنه ، فى نفس مسوب الأرض حتى الحافة العربية للهضبة التى تكون أكثر مناطق الإقليم ارتفاعا ، وهناك تجرى المياه فى أخوار يبلغ عمقها من ٨ إلى ١٠ أمتار حتى تصل بحيرة قارون وهى كانت تعرف فيما مضى باسم بحيرة موريس Moeris .

إن سهولة توزيع المياه مں خزان ، عندما يكون هذا الخزان أعلى من مستوى الأرض المتاخمة له ، قد جعلت ظروف الرى فى ولاية الفيوم أفضل بكثير من بقية أقاليم مصر ، لحد جعلها صالحة لإنتاج أكبر عدد من المحاصيل . وفوق ذلك فعن طريق القناطر التى تتفاوت درجة قربها من بعضها البعض ، تظل المياه تغمر الأرض لحد يكفى لإخصابها .

وتقطع غالبية الجسور التى تخترق مصر العليا وأعماق الدلتا عن طريق قنطرة أو عدة قناطر مبنية عادة من الطوب الأحمر ، ويبلغ اتساع أقواسها حوالى الثلاثة أمتار ، ويشغل المسافة بين عمود وآخر مصرف أو مصب مبنى بالمثل بالطوب الأحمر تجرى فيه المياه بعد أن تكون قد مكثت مدة كافية فى الأراضى التى تقع فى أعلى هذه القناطر .

وتخصص كل الأراضى التى تغرقها مياه النيل منذ لحظة فتح الترع حتى قطع الجسور لزراعات بعينها ، هى التى يطلق عليها فى مجملها اسم البياضى ، وهذه لا تحتاج لرى منذ زراعتها حتى حصادها . أما المحاصيل التى تزرع أثناء الفصل نفسه فى الأرض التى لم يغمرها النيل مطلقا ، أو تلك التى لم تغطها المياه لفترة كافية ، فتتطلب ريات صناعية ، ويطلق على هذه المحاصيل اسم « الشتوى » أى المحاصيل التى تزرع فى الشتاء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد حصاد محاصيل البياضي والشتوى تبدأ زراعة المحاصيل المسماة النيلي أو « الصيفي » أى تلك التى تزرع فى فصل الصيف ، وهذه تزرع فى أثناء الفترة التى تكون فيها مياه النيل فى أقصى انخفاض لها ، وهى تحتاج دوما للرى ، الأمر الذى يزداد مشقة يوماً بعد يوم .

وتتلو زراعات الصيف ، أخيراً ، وعندما يبدأ النيل فى التزايد ، تلك المحاصيل التى يشار إليها باسم الدميرى عندما تزرع فى أراض واطئة ، أو النبارى عندما تزرع فى أراض عالية يبغى ريها . وتجدر الإشارة إلى أن الرى الصناعى أثناء هذا الفصل يصبح يوما بعد يوم أكثر سهولة بسبب زيادة منسوب النيل ودخول مياهه إلى ترع الرى .

وهذا التتابع فى الزراعة يقسم فى مصر، بشكل طبيعى، السنة الزراعية إلى ثلاثة مواسم يبلغ كل موسم منها أربعة أشهر . ويتفق الموسم الأول مع مدة الزراعات الشتوية، البياضى والشتوى ، ويتفق الثانى مع فترة المحاصيل الصيفية : القيظى أو الصيفى ، أما الثالث فيتفق مع محاصيل الخريف : الدميرى والنبارى . وعندما تكون الأراضى المزروعة أثناء الموسمين الثانى والثالث واقعة بطول النيل أو على شواطئ الترع المتفرعة عنه ، فإنها تروى بذراع الإنسان وذلك برفع مياه من الترع بواسطة دلاء من الجلد تسمى : دلو أو شادوف ، وعند محاصيل القيظى أو الصيفى تروى حقول مصر العليا عن طريق ثلاثة طوابق من الدلاء يستخدم فى كل طابق منها عاملان ينهضان بالتبادل ، أما أثناء المحاصيل النبارى فلا يوجد سوى طابق واحد من هذه الماكينات التى لا تستوجب إلا استخدام أجيرين .

وعندما تكون الأراضى واقعة على بعد معين من ضفاف النيل أو الترعة ، تنزح المياه المخصصة للرى من قاع البئر بواسطة حبل دائرى ، مزود بقواديس من الفخار ، يلتف حول ترس صغير يديره ثوران معلقان بالمدار (الساقية) .

وفى مصر السفلى وبخاصة فى الجزء الشمالى من الدلتا ، حيث الآبار التى تحفر للرى غير عميقة ، تستخدم عجلات مسننة لرفع المياه منها ، وتقوم الثقوب التى يمتلئ بها محيط هذه العجلات بنزح المياه من الخزان ورفعه إلى مستوى الأرض وتتحرك هذه العجلة بواسطة مدار تجره ثيران من الجاموس أو البقر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحيث قد سبق لنا أن نشرنا وصفا لكل هذه الماكينات [١] ، فنحن نعفى أنفسنا من الدخول فى تفاصيل كثيرة حول تكوينها ، لكننا نلفت الأنظار فقط إلى أنها بالغة البساطة ، بالإضافة إلى أنها أكثر الأدوات التى يمكن استخدامها ملاءمة فى بلد أجر الأيدى العاملة فيه شديد الانخفاض .

ويتكون الدلو أو الشادوف من رافعة معلقة عند حوالى ثلثها فوق عارضة أفقية يدعمها ارتفاعان رأسيان أقيما عند حافة النهر أو الترعة التى تنزح منها المياه ، ويحمل الذراع الأقصر لهذه الرافعة ثقلا للمقاومة من الطين الجاف ، ويحمل ذراعها الأطول قضيباً خشبياً مربوطاً بمحل ناقل للحركة بطريقة يظل معها هذا القضيب الخشبى أثناء حركة تعاقب الرافعة فى وضع عمودى ، أما فى الطرف الأدنى فيتدلى الدلو الجلدى ، ويقوم عامل يتخذ مكانه على مرتفع ناتئ من الأرض أو فوق منصة من الخشب بعب الماء بالدلو ثم يرفع الدلو إلى مستوى صدره ، ليصبه بعد ذلك فى جدول يؤدى بها - إن كان الأمر ضروريا - إلى خزان صغير ، حيث يعاد نزحها مرة أخرى بواسطة ماكينة مشابهة تنقله إلى ماكينة ثالثة وهكذا حتى تبلغ مستوى ارتفاع الأرض المطلوب ريها .

ويقوم كل دلو برفع الماء لارتفاع ثلاثة أمتار ، ويوضع ثلاثة أو أربعة دلاء كل منها فوق الآخر حسب وقت ومكان الرى .

ونرى نحن من هذا الوصف الموجز للدلو أن الرجل المكلف بتحريكه ليس له من عمل إلا توجيه القضيب الخشبى العمودى ،الذى يتدلى منه الدلو ، وصب المياه التى رفعت بواسطة المقاومة فى الجدول الذى يقوم بتوزيعها على الأرض .

وقد دلت تجربة أجريت على واحدة من هذه الماكينات أخبرنى بنتيجتها المسيو دوشانوى Duchanoy على أن العامل المصرى يمكنه أن يرفع بواسطة الدلو ٤٩ لتراً من الماء فى كل $\frac{٢٧}{١٠٠}$ من الدقيقة ومن ارتفاع يبلغ ٢,٨٨ من الأمتار ، وهو ما ينقص

---

(١) الفنون والحرف ، اللوحات ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ الدولة الحديثة ، المجلد ١٢

بكثير عن القوة الاعتيادية للرجل كما تعودنا أن نحسبها فى طقسنا الأوربى [١] .

وقد أجرى نفس المهندس تجربتين أخريين لمعرفة نتاج ماكينة ذات قواديس (ساقية) يبلغ طول قطر العجلة التى يجرها ثور بقر معلق فى مدارها ٢,٦٠ من الأمتار ، وتبلغ عدد أسنانها أربعين سنة ، أما العجلة الرأسية التى تحرك العجلة السابقة فيبلغ طول قطرها ١,٦٨ م ولها ٢٦ سنة وكانت هذه الماكينة ترفع المياه إلى إرتفاع رأسى يبلغ ٦,٧٥ م .

أما العجلة التى يدور حولها الحبل الذى يحمل القواديس فتبلغ متراً دائريا ، وهذا الحبل مزود بـ ٢٢ قادوساً يصعد منها ١١ قادوساً وهى مليئة بالمياه بينما تهبط الـ ١١ قادوساً الأخرى فارغة .

وقد أعطت التجربة الأولى فى ١٥ دقيقة نتاجا بلغ ١,٥٩٣٢٤ م^{٣} من المياه ، ثم أعطت الثانية نتاجا بلغ ١,٨٠٥٦٦ م^{٣} فى ١٧ دقيقة ، ومن هاتين التجربتين نحصل على متوسط يبلغ ٠,١٠٦٢ م^{٣} أو ١٠٦ لتر مرفوعة إلى علو يبلغ ٦,٧٥ م فى الدقيقة الواحدة ، وهو الأمر نفسه ؛ ٧١٧ ك . ج ترفع على علو يبلغ المتر فى نفس الزمن [٢] .

---

(١) إنتاج الماكينة هو كما نعرف محصلة وزن المياه التى رفعت رأسيا ، أى أنه هنا $\frac{٢٧}{١٠٠}$ ٤٩ ك ج × ٢,٨٨ م = ١٤٢٨٩ ك . ج مرفوعة إلى ارتفاع متر واحد فى الدقيقة . وقد استخدمت نفس الماكينة فى بعض عمليات نزح أجريت مؤخرا عند ترعة سان دينيس S . Denis وقد وجد أن الرجل يرفع فى الدقيقة ٥٥ لترا أو ك.ج إلى ارتفاع يبلغ أربعة أمتار أى ٢٢٠ ك . ج إلى ارتفاع يبلغ المتر الواحد إذن فهناك فرق يبلغ ٧٧١١ بين محصلة هذا الدلو ومحصلة الدلو فى مصر ، وهذا ما يعود إلى الفرق فى القوة بين العاملين هنا وهناك . وزيادة على ذلك فإن التجربة التى قام بها كبير المهندسين ديفيليه Devilliers عن الدلو المستخدم فى ترعة سان دينيس قد أكدت ما سبق أن عرفناه . وفى واقع الأمر فإن الحركة الديناميكية لرجل متوسط القوة يعمل بنفس الطريقة تبلغ فى الدقيقة ١٨ ك ج × ٠,٢ م = ٣,٦ ك . ج أى أنها تبلغ فى الدقيقة ٢١٦ ك . ج .

Architecture hydraulique de Bèlidor, edition de M . N avier, p. 396 .

(٢) تبلغ محصلة هذه العجلة ذات القواديس التى يجرها ثور واحد $\frac{٢١}{١٠٠}$ ١٠٦ ك . ج × =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد بينت تجربة أخرى بالتفصيل قام بها المسيو جولوا Jollois[١] عن العجلات ذات القواديس أن الماكينة التي تتكون مسبحتها من ٥٦ قادوساً قد رفعت ٠,٠٦٧٦٦ م³ إلى ارتفاع ١٠,٣٩ م فى الدقيقة الواحدة . أى أن محصلة هذه الماكينة نتيجة لذلك تبلغ ٧٠٣ ك . ج ترفع لعلو يبلغ متراً واحداً خلال هذه الوحدة الزمنية ، أى أنها تساوى بوضوح نفس النتيجة التى توصل إليها عن طريق التجربتين الأوليين اللتين نقلنا نتيجتهما .

وحيث أن إنتاج الماكينات فى نفس الوحدة الزمنية يتناسب مع قوة المحركين اللذين يقومان بتحريكها ، وحيث كان إنتاج الدلو (الشادوف) والعجلة ذات القواديس (الساقية) يبلغان بالنسبة لبعضهما نسبة ١٤٢ : ٧١٧ أى ١ : ٥ تقريباً فإنه ينتج عن ذلك أن خمسة رجال فقط فى مصر يمكنهم أداء نفس العمل الذى يقوم به ثور واحد .

وعندما ترتفع المياه أو تنخفض فى المجرورات التي تقوم عليها مدارات السواق ذات القواديس ، يقرب الناس أو يباعدون القواديس بعضها من بعضها الآخر حتى يتيسر للثيران التي تدير هذه السواق أن تؤدى نفس الحركة التى عليها القيام بها .

وتروى كل الحدائق (الجناين) ذات الأسوار الموجودة فى ضواحى المدن والتى يملكها الخاصة بالغو الثراء بواسطة هذه السواقى ذات القواديس .

= ٦,٧٩ م فى الدقيقة أى = ٧١٧ ك . ح مرفوعة إلى علو يبلغ المتر الواحد . وتقدر القوة الديناميكية لحصان معلق فى مدار بـ ٤٥ ك . ح × ٠,٩ م فى الثانية (المصدر السابق ص ٣٦٩) وتبلغ فى الدقيقة ٢٤٣٠ ك . ج ترفع إلى علو متر وإذا أخذنا ثلثى هذا التقدير فقط فى احتكاك ومقاومة الماكينة فإن محصلة العمل الديناميكى لحصان معلق فى مدار ويسير الخطى تبلغ ١٦١٠ ك . ح مرفوعة لعلو متر فى الدقيقة ، وهى كمية تزيد على ضعف الكمية التى توصلنا إليها بخصوص العجلات ذات القواديس فى مصر . وهذا الفرق الباهظ ناتج بصفة خاصة عن عدم صلاحية هذه الماكينات حيث المركز الذى تدور حوله العجلات غير دقيق كما أنها تسننها غير منتظم .

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحات ، الدولة الحديثة . المجلد ١٢ ، ص ٤١٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى
عن المحراث – النورج – الأدوات الزراعية الأخرى
وعن الحيوانات التى تستخدم فى جرها

تبدو الأدوات الزراعية التى يستخدمها المصريون فى أبسط شكل يمكن للإنسان أن يتصوره . وإذا ما حكمنا على هذه الأدوات من ناحية ما لدى هذا الشعب من استعدادات ضئيلة للتطور ، فلابد أن نستنتج أن هذه الأدوات إنما تعود إلى عصور ضاربة فى القدم .

ويتكون محراث المصريين (الذى وصفناه فى المجلد السابع من الفنون والحرف ، ص ٤٢٢ ، الدولة الحديثة) من قطعتين من الخشب ، تلتقيان عند طرفيهما بزاوية ٥٠° أو ٦٠° ، ويمكن توسيع أو تضييق هذه الزاوية عن طريق وتد مثبت فى القطعة السفلى أو المتحركة والتى تنفذ فى ثقب أحدث فى القطعة العلوية . ويثبت هذا الوتد فى الوضع المناسب بواسطة مسمار من الحديد . وعلى هذا النحو يمكن توسيع وتضييق قطعتى المحراث الرئيسيتين بحسب درجة العمق التى نريد أن يصل إليها المحراث . وتستخدم القطعة الطولى والتى تمتد منحنية بشكل أفقى كعريش ، وتحمل النير الذى تعلق به الثيران بالعرض ؛ أما القطعة القصرى ، والتى تختص بتخطيط الأرض فتنتهى بسلاح من الحديد على شكل فأس ، هو الذى يستخدم فى شق الخطوط فيقلب الأرض بالتساوى على الجانبين .

وفى هذه القطعة السفلية قائمتان رأسيتان - تتصل كل منهما بالأخرى- وهما ترتفعان إلى أكثر من المتر طولا ، وعلى مسافة تقترب من الديسيمتر (١٠ سم) ، عند أسفل طرف كل منهما - عن طريق عارضة يمسك بها الفلاح بيده بينما هو يسوق باليد الأخرى الثيران المعلقة بالمحراث . وتربط هذه الثيران بنيرها أحبال مجدولة ، مصنوعة من سعف النخيل . ويتم التقاء النير بالعريش على بعد ٢٥٠ سم من قمة الزاوية التى تتكون من هذا العريش ومن القطعة المتحركة التى تنتهى بالسلاح . ويبلغ طول النير نحو المترين . وتغنى اللوحة الثامنة عن إيراد الكثير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من التفاصيل حول أطوال مختلف القطع الخشبية التى يتكون منها المحراث ، لكننا نقتصر هنا على القول بأن المحراث المرسوم فى اللوحة ، يستخدم بصفة خاصة فى مصر السفلى وفى ضواحى القاهرة ؛ أما المحراث المستخدم فى المنطقة المدارية بالصعيد ، فهو أكثر خفة ومصنوع بشكل أكثر خشونة وبدائية .

ولكى نكون فكرة عن المحراث الأخير ، يكفى أن نتصور قطعتين من الخشب بارتفاع المتر ، متصلتين على شكل مرفق ، وبشكل طبيعى ، عند طرفهما الأدنى بزاوية تبلغ نحو ١٠٠° . وهاتان القطعتان المتماثلتان مشدودتان بثبات إلى بعضهما البعض على مسافة ديسيمتر واحد (١٠ سم) كل منهما إلى الأخرى ، بواسطة عارضتين : يبلغ طول الأولى ٤٠ سم وطول الثانية ١٠٠ سم فوق هذا المرفق . وتخترق هذه العارضة الأخيرة كلا القطعتين ، وتشكل بعيداً عنهما قبضتين يمكن إمساكها بواسطتهما .

وفى المسافة التى تتركها هاتان القطعتان فيما بينهما يمر العريش ، وهو موضوع بشكل رأسى فوق عارضة أفقية تخترقه ، كما تخترقه رافعتان تحتضنانه . وتوضع هذه العارضة عند مرفق (زاوية التقاء) هذه الروافع ، وتندمج بمتانة بقطعة الخشب التى تمسك بالسلاح عند الأجزاء المتحركة منها ، تبعاً للطول المطلوب . وحيث أن القطعة التى تشكل العريش تتحرك حول عارضة أفقية ، فمن الممكن صنع الزاوية التى تشكلها مع العارضة الأولى ، وبحسب الحاجة ، ليكون المحراث أكثر أو أقل عمقاً ، ويمكن تثبيت جوانب الزاوية فى وضع محدد عن طريق لسان عمودى من الخشب ، مثبت فى القطعة الخشبية التى تحمل السلاح وتنفذ فى العريش وتثبت فيه بواسطة وتد صغير .

أما السلاح فعبارة عن حديدة فأس ، يبلغ طولها ٢٠ سم بعرض يبلغ ١٣ سم ، أما العريش فمجرد عصن شجرة يبلغ طوله المترين ويثبت فى طرفه وصلة يبلغ طولها المتر ، وفى منتصف قطعة الوصل هذه يعلق النير بشكل أفقى ، وهكذا نجده على بعد $\frac{1}{2}$ ١ متر من المرفق (الكوع) الذى تكونه الرافعتان ، ويبلغ

طول هذا البر نحو ثلاثة أمتار (انظر الشكل MM فى مجموعة الأثاثات والأدوات) .

ويدير الفلاح المحرات ، بأن يمسك بكلتا يديه ، أو بيد واحدة ، العارضة العلوية التى تخترق قائمتى دراع المحرات . وهذا المحراث ، الذى انتهينا من وصفه ، هو ما نراه مقوشاً على مبانى مصر العليا .

ولا يعرف المصريون مطلقاً عادة استخدام الشوكة (أداة مسننة تجر فوق الأرض المحروثة لتسوية الأرض وطمر الحبوب) وعندما تحرث الأرض ، ويلزم تسوية سطحها ، يمرر المصريون فوقها جذع نخلة موضوع بالعرض ، ويجره وهو على هذا النحو ثور أو ثوران . وتربط هذه العارصة الخشبية من طرفيها بحبل رخو ، يشكل نصفاه عند جذبه راوية حادة تتفاوت درجتها ؛ ويعلق فى قمة هذه الزاوية حبل آخر تربط به الثيران . وعندما يراد فى بعض الأحيان زيادة ثقل هذا الجذع ، لتفتيت كتل الطين التى تغطى بها الأرض (بعد حرثها) ، يجلس الرجل الذى يتولى قيادة الثيران فوق هذه الخشبة الأسطوانية الشكل .

وعندما يبغى الناس تقسيم أرض تروى بشكل صناعى إلى أحواض ، أو عندما يلزم تمهيد سطحها ، تستخدم المسوجة ، وهذه عبارة عن لوح خشبى يبلغ طوله ٨٠ سم وتحمل فى أحد جانبيها ذراعاً يبلغ طوله ١٤٠ سم ، وتحمل من الجانب الآخر حبلا من الليف يجره رجل أو رجلان ، بينما تتحرك هذه الأداة من الجانب الآخر بواسطة شخص يمسك بذراعها .

وتستخدم هذه الأدوات قبل البذر . وبعد أن تتم هذه الأعمال ، لا يكون على الفلاحين سوى أن يذهبوا إلى الحقول لمجرد إلقاء نظرة عابرة ، وإلى أن يحين وقت الحصاد . وتحصد بواسطة الشرشرة تلك أعواد المحاصيل التى لا يتم اقتلاعها . وهذه الشرشرة ، فى العادة ، أصغر وأقل تقوساً من مثيلتها التى نستخدمها نحن فى المناطق الشمالية من فرنسا .

وحين يتم الحصاد ، توضع المحاصيل ، وعموما كل النباتات التى تشكل موضوعاً لزراعات واسعة ، فى شكل حزم أو ربطات ، وتنقل إلى مكان معد لهذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغرض ، سواء فى نفس الحقل الذى تم حصاده أو فى مكان تم اختياره على مسافة قريبة . وفى بلد تكاد تكون درجة الحرارة فيه ثابتة ، ولا يتعرض طقسها لأية تقلبات ضارة تجعل حالة السماء غير مأمونة لعدة مرات خلال فترة قصيرة من نفس النهار ، كما يحدث فى الطقس عندنا ، فإن الناس هناك ليسوا بحاجة لجراحات تحمى محاصيلهم من الأمطار ومن الصقيع ، لذا تظل المحاصيل فى الهواء الطلق إلى أن يحصلوا على منتجاتها .

ولا تعرف فى مصر مطلقاً طريقة استخدام المدقات لدرس الحبوب . وفى المنطقة الأكثر مدارية من الصعيد ، يبسط القمح ، على الحالة التى حصد عليها ، على مدار لتدوسه أقدام الثيران ؛ وبهذه الطريقة لا يتم إخراج الحب من السنابل وحسب ، بل يهرس القش كذلك وهو بالغ الجفاف وهش للغاية . وبعد أن يتم تجهيزه على هذا النحو فإنه يستخدم كعليق .

أما فى بقية أنحاء مصر ، فتتم هاتان العمليتان بواسطة آلة تسمى النورج ، يمكن أن نرى رسماً لها فى اللوحة الثامنة من الفنون والحرف .

وتتكون هذه الماكينة من قاعدة أفقية ، تتكون بدورها من أربع قطع تتجمع فيما بينها فى زوايا قائمة ، وتلتقى اثنتان من هذه القطع ، وهما تواريان الأخريين بمحورين من الخشب تثبت فيهما عند المركز ثلاث أو أربع عجلات من الحديد المسطح ، يبلغ سمكه ٢ مم وقطره نحو ٤٠ سم . ويتحرك جسم النورج أفقياً على هذا النحو ، فوق هذه العجلات وهى تتخذ الوضع المشار إليه ، بشكل تتحرك معه العجلات التى يخترقها محورهما فى منتصف منطقة الفراغ الموجود بينها وبين العجلات التى يخترقها المحور الثانى (بحيث تتداخل عجلات المحورين فى هذا الفراغ) . ويعلو هذه القاعدة مقعد مصنوع من خشب ، بشكل خشن ، ويجلس على هذا المقعد قائد الثيران المعلقة بالنورج ، وهناك طوق حديدى مثبت بالعارضة الداخلية للقاعدة التى ترتبط بالعريش المتحرك بواسطة حبل ، ويوضع فى طرف هذا العريش ، وبشكل عرضى ، نير أفقى يمر فوق رقاب هذه الحيوانات .

وتفك وتبسط حزم النباتات التى تحتوى الحبوب والتى يراد درسها بواسطة هده الماكينة ، فوق أرض جرن يبلغ قطره من ١٥ إلى ٢٠ متراً ، ويحدد مركزه أحياناً بواسطة كومة من هذه الحبوب ؛ وبعد ذلك تدور الماكينة فى هدا الجرن بشكل دائرى . وبهذه الطريقة تدوس أقدام الماشية هده الحزم التى انفرطت ، الأمر الذى يؤدى إلى خروج الحب من السنابل ، بينما يهرس القش أثناء نفس العملية بواسطة العجلات الحديدية التى يتسلح بها النورج ، والتى تدور فوقه (أى فوق هذا القش) .

ويحمل قش محاصيل الحبوب والأعلاف الجافة ، بعد مروره بهذه العملية ، (أى بعد أن يهرس) إلى المدار الخارجى للجرن على يد رجال يستخدمون مذراة خشبية طويلة ذات أسنان .

ويتكون النورج المستخدم فى مصر السفلى والقاهرة عادة من قطع أكثر ثقلا كما يصنع بعناية أكبر من تلك التى يصنع بها فى الصعيد ؛ أما النورج المستخدم فى درس الأرز فى دمياط ورشيد فيصنع بأحجام أكبر من ذلك بكثير .

وهناك بعض المحاصيل التى تفصل عنها حبوبها عن طريق ضربها بعصى غليظة فى مكان أعد لهذا الغرض ؛ هى هذه المحاصيل التى لا يمكن أن تستخدم أعوادها الجافة غذاء للماشية ، وإنما ينبغى لها أن تستخدم فى شكل وقود .

ومهما تكن الوسيلة التى تستخدم فى فصل الحبوب عن سنابلها أو البذور عن كبسولاتها ، فلابد أن يتم تنقيتها من الشوائب التى يمكن أن توجد مختلطة بها . وتذرى الحبوب لهذا العرض بشكل بدائى خشن ، وذلك بتعريضها للهواء بكميات قليلة بواسطة مذراة من الخشب ذات أسنان متقاربة ، ثم تغربل بعد ذلك لعدة مرات .

ويتم الحرث عادة بواسطة الثيران ، وإن كان يحدث عادة أن تعلق بالمحراث بقرات . وقد شاهدت فى بعض القرى من صعيد مصر عمليات حرث تتم بواسطة الحمير ، وأخرى فى الدلتا تتم بواسطة الجمال . وإن كانت هذه الأمور بالغة الندرة .

وتتم كل الحمولات اللازمة لأعمال الزراعة على ظهور الجمال أو بواسطة الحمير ، التى تلفت النظر فى مصر بقوتها وجلدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

عن المقاييس الزراعية – المكاييل – الموازين – النقود

آليت على نفسى عندما تصديت لموضوع الزراعة عند المصريين أن أقدم بشكل خاص مقارنة إنتاجها بإنتاج أوربا فى نفس المجال ، ولهذا السبب فينبغى علينا أن نقيم المقاييس المستخدمة فى مصر بمقاييس معروفة لنا (فى أوربا) مادمنا سنستخدم المقاييس (المصرية) فى التعبير عن نتائج أبحاثنا

وفى مكان آخر ، عالجنا بإفاضة المقاييس الزراعية فى هذه البلاد [1] ، ونكتفى هنا بأن نستعيد ما سبق أن قلناه عن تلك الأنواع من المقاييس التى لا تزال تستخدم حتى اليوم .

تحمل وحدة القياس الزراعى عادة اسم : فدان ، وهو مربع يبلغ طول ضلعه ٢٠ قصبة وبذلك تبلغ مساحته ٤٠٠ قصبة مربعة .

والقصبة مقياس طولى يبلغ طوله $\frac{٢}{٣}$ ٦ ذراع بلدى فى المعاملات التى يمارسها الأفراد فيما بينهم ، أما فى المقاييس التى تتم بقصد تحديد الوعاء الضريبى على الأراضى المنزرعة فتقدر القصبة $\frac{١}{٣}$ ٦ ذراع فقط أى أنها أقصر بـ $\frac{١}{٣}$ ذراع بلدى عن قصبة الفدان الكبير .

وينقسم الذراع الذى يشار إليه باسم الذراع البلدى إلى ٢٤ قيراطا ويبلغ طوله ٠,٥٧٧٥ من المتر [2]

وعلى هذا النحو فإن طول قصبة الفدان عند المزارعين يبلغ ٣,٨٥ م ويبلغ طول ضلع الفدان ٧٧ م أما مساحته فتبلغ ٥٩٢٩ متراً مربعاً .

---

(١) دراسة عن المقاييس الزراعية عند قدماء المصريين (الصوت والحرف)

(٢) حولية العام الثامن محسوبة بالنسبة إلى خط زوال القاهرة ، ص ٥٦ ، دراسة عن المقاييس الزراعية عند قدماء المصريين (الصوت والحرف) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما طول قصبة الفدان الذى يتخذ أساساً لتقدير الضريبة فيبلغ ٣,٦٥٨م ، وبذلك يبلغ طول ضلع الفدان ٧٣,١٦ م ويبلغ مساحته حوالى ٥٣٥٣ متراً مربعاً أى أكثر بقليل من ١/٢ هكتار . وينقسم الفدان ذو ال ٤٠٠ قصبة - مهما يكن طول القصبة - إلى ٢٤.جزءاً يسمى الجزء منها قيراط . وقد استقر هذا التقسيم فى كل مصر العليا حتى القاهرة ، لكن تعديلات معينة تعتوره فى الدلتا وفى كل المناطق الشمالية .

فالفدان فى هذه المناطق لا ينقسم على الدوام إلى ٢٤ قيراطاً كما فى الصعيد ، بل هو ينكمش فى بعض الولايات إلى ١٢، ١٥، ١٨، ٢٠ قيراطاً أى إلى ١/٢ أو ٥/٨ أو ٣/٤ أو ٥/٦ الفدان الأصلى . ويرتبط الأمر بمشيئة ملاك القرى وبالسلطة التى يمارسونها .

وقد لاحظت فى ضواحى دمياط وجود نوع خاص من الأفدنة . فالفدان هناك مستطيل يبلغ أحد طوليه ٢٤ قصبة ويبلغ الآخر ١٨ قصبة فقط ، وبذلك تبلغ مساحته ٤٣٢ قصبة مربعة ، وفضلا عن ذلك فإن طول القصبة هناك يبلغ ٣,٤٩ م وهذا ما يجعل مساحة الفدان تبلغ ٦٨٧٧,٤٨ متراً مربعاً أى ما يقرب من ٧/١٠ من مساحة الهكتار عندنا .

لكننا فى كل ما سنورده فيما بعد ، سنقصر حديثنا على فدان الصعيد ذى الـ ٤٠٠ قصبة مربعة والـ ٢٤ قيراطاً التى تبلغ مساحة كل منها ٢/٣ ١٦ قصبة مربعة .

ويسمى المكيال المستخدم فى كيل الحبوب والمواد الجافة بالأردب ويتفاوت حجمه بشكل طفيف فى مختلف أقاليم مصر ، لكن أردب القاهرة معروف فى كل مكان ، وسوف نتخذ من أردب القاهرة هذا وحدة قياسية تقدر بها كل كميات البذور والمحاصيل التى ستواتينا الفرصة للحديث عنها .

ويحتوى أردب القاهرة كما ذكرنا فى مكان آخر [1] على ٢٠ مكيالا رومانياً قديماً يبلغ حجم كل منها كما هو معروف ١/٣ قدم مكعب . فإذا ما افترضنا أن طول القدم الرومانى - فى رقم دائرى - يبلغ ٠,٣ م وهو أقل بقليل من طول أكبر

(١) دراسة عن المقاييس الزراعية عند قدماء المصريين (الفنون والحرف)

الأقدام الرومانية كما قاسها الأب بارتيليمى Barthélémy فإن المكيال الرومانى سيبلغ ٠،٠٩ م^{٣} أى تسعة ألتار (لتر) وبهذا يبلغ حجم ال ٢٠ مكيالا التى تكون الأردب ١٨٠ لتراً .

وقد أظهرت نتيجة تجربة أجريت فى أسواق القاهرة ومحلات القمح الموجودة فى جزيرة الروضة أن أردب القاهرة يعادل $\frac{١}{٦}$ ١٤ مكيالا باريسياً مع ملاحظة أن المكيال الباريسى يحتوى على ١٣ لتراً ، وحسب هذه التجربة فإن أردب القاهرة قد يساوى ١٨٤ لتراً [١] .

وقد تبلغ نسبة أردب سيوط إلى أردب القاهرة ١١ إلى ١٢ .

أما أردب رشيد ، وهو الذى يستخدم فى كيل الأرز ، فتبلغ نسبته إلى أردب القاهرة ٣ إلى ٢ .

وتوجد فى دمياط وحدة أخرى للكيل تخصص لكيل الأرز الشعير تسمى (ضريبة) وتبلغ نسبة ٣٦ إلى ١٣ بالنسبة لأردب القاهرة ، وينقسم الأردب وكذلك كل المقاييس التى تحدثنا عنها للتو إلى ٢٤ جزءاً أو ربعاً (ربع) .

وفضلا عن ذلك ، فعندما لا يكون الأمر يتعلق بكميات صغيرة ، فإن غالبية الحبوب الجافة تقدر عن طريق الوزن شأنها شأن كل المواد التموينية وكذلك خشب الوقود .

والدرهم هو وحدة القياس الوزنى الوحيدة التى لا تقبل التغيير دلك أن قيمته قد حددت بأكبر قدر من الدقة فى نقود القاهرة وتبلغ $\frac{٨٨٤}{١٠٠٠}$ ٣ جرام أو ٥٨ حبة و $\frac{٣}{١٦}$ من زنة المارك (وزن قديم يساوى $\frac{٣}{٤}$ ٢٤٤ جرام) .

وعلى أساس الدرهم ، تتكون ثلاث وحدات من المثاقيل المستخدمة :

الوحدة الأولى هى الأقة وتزن ٤٠٠ درهم أى ما يساوى ١ ك ج و $\frac{٣٦}{١٠٠}$ ٢٣٥ جرام .

---

(١) أنظر فى ذيل هده الدراسة الجداول الموثقة رقم (١) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والوحدة الثانية هى الرطل ويزن ١٤٤ درهما أو ٤ هكتوجرام و٤٤جرام و ٧٣/١٠٠ من الجرام .

أما الوحدة الثالثة فهى الرطل الدى يزن ١٦٨ درهما أو ٥ هكتوجرام و ٨٥/١٠٠ ١٨ جراماً .

وتستخدم الأقة على وجه الخصوص فى دمياط والإسكندرية ورشيد وكل مصر السفلى بيما يستحدم الرطل فى داخل البلاد .

ووحدة الورن ذات الأهمية الكبيرة هى القنطار ، وهو يزن من ١٠٠ ، ١١٠ ، ١٥٠ وأحياناً ٢٧٥ رطلا حسب نوع المادة الغذائية التى يستخدم فى قياسها . وستواتينا الفرصة أن نقدم فى ثنايا هذه الدراسة تفاصيل أكبر حول هذا الموضوع .

وسنقدم التقييمات الضرورية بعملة هذه البلاد .

وهذه النقود هى البارة والمدينى والبوطاقة .

والبارة أو المدينى هى قطعة صغيرة من الفضة المخلوطة بالنحاس ، وهى تتداول فى كل بلاد الشرق ، وتساوى كل ٢٨ منها فرنكا فرنسياً واحداً .

والبوطاقة قطعة وهمية (افتراضية) تبلغ ٩٠ مدينى ، وتبلغ نسبتها إلى قطعة نقدنا ذات الخمسة فرنكات نسبة ٤٥ إلى ٧١ أى أنها تساوى ٣ فرنكات و٢١ ستيما . وهناك وحدات نقدية أخرى ، لكن المعاملات الخاصة والحسابات العامة تستبعد هذه العملات ليقتصر الأمر على الوحدات التى انتهينا من بيانها .

ويتنوع الأجر اليومى للعامل المستخدم فى مجال الزراعة فى مختلف أقاليم مصر فيبلغ فى الصعيد ٥ — ٨ مدينى ، ويرتفع فى ولاية الفيوم وضواحى القاهرة وفى بلاد الدلتا إلى ٨ — ١٩ مدينى .

ويعمل هؤلاء العمال منذ شروق الشمس حتى غروبها ، ويتناولون فى اليوم وجبتين ، الأولى عند حوالى الحادية عشرة صباحاً والأخرى يتناولونها فى المساء وهم يعيشون على خبز الذرة والأرز والبصل غير المطبوخ والخيار والجبن والفول والعدس ... الخ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهؤلاء نادراً ما يتناولون اللحم إلا فى شهر رمضان فيأكلون عندئذ عنزة مسلوقة أو لحم الجاموس ... إلخ . ويمكن تقدير الطعام اليومى لفلاح الصعيد بـ ٣ مدينى . ولا يرتدى هؤلاء الفلاحون كملابس إلا أروابا (جلاليب) غامقة اللون فى العادة تسمى حبة ، وهى تصنع من قماش صوفى مأخود من حراف البلاد وبلونه الطبيعى . ويدخل فى صناعة الجبة الواحدة حوالى أربعة أرطال من الصوف المغزول .

ويبلغ ثمن الرطل من هذا الصوف المغزول ٦٥ مدينى ويتكلف من أجل نسجه ٣٠ مدينى كما يتكلف تفصيل الجبة ١٥ مدينى مما يجعل تكاليفها تبلغ حوالى ٣٠٠ مدينى أو أربع بوطاقات على الأكثر . ويعمر هذا الرداء لمدة عام أو نحو أربعة عشر شهراً .

ويعطى الفلاحون أكتافهم كذلك بقطعة من القماش الصوف على شكل شال يبلغ ثمنه ٢ بوطاقة . وهم يستخدمون هذا الشال لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر ، ونفس الأمر بالنسبة لذلك الشال الدى يغطون به رأسهم والذى يساوى عادة مائة مدينى ، وفوق ذلك فإنهم يستهلكون كل عام ثلاثة أزواج من الأحذية من النوع المسمى نابوش يبلغ سعر الزوج منه ٣٠ مدينى .

تلك هى كل المصاريف التى ينبغى على الفلاح البسيط أن ينفقها فى العام ، وهكذا فإن إنفاقاته على احتياجاته الشخصية تبلغ سنوياً حسب هذه القائمة ٥٣٠ مدينى أو حوالى ٦ بوطاقات ، وحيث قد قدرنا طعامه اليومى بـ ٣ مدينى فإن الطعام وحده يكلفه سنوياً ١٠٩٥ مدينى أى أقل بقليل من ١٢ بوطاقة . وهكذا يبلغ الإنفاق السنوى لفلاح مصر على غذائه واحتياجاته الشخصية حوالى ١٨ بوطاقة ينبغى أن نضيف إليها أربعاً أخرى لاستهلاكه العرضى للحم والبن . إذن فمن الممكن أن نحسب إجمالى إنفاقاته السنوية على أساس ٢٢ بوطاقة أى ما يتجاوز بحد طفيف ٧٠ فرنكاً فرنسياً .

وينطبق ما انتهينا إليه فى هذا الصدد بشكل خاص على فلاحى الصعيد ، أما استهلاك فلاحى الدلتا فيمكن أن يقدر بأكثر من ذلك بقدر بالغ الضآلة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان يمكن لكمية العمل التى ينجزها هؤلاء الفلاحون أن تزيد عما يحزونه بالضرورة لو أن طعامهم كان أكثر تغذية ، ولو أنهم كانوا يعوضون عن طريق طعام أكثر رياً (يمتلئ بعصارة أكثر) الفقد الغزير الذى يحدثه فى قواهم هذا العرق المستمر ، وإليكم فى النهاية بعض المعطيات التى يمكن أن تساهم فى تقديم هذه الكمية من العمل .

يستطيع الرجل الذى يقود محراثاً معلقاً به توران أن يحرث فداناً واحداً من الأرض فى يومين أو فى يومين ونصف اليوم على أكثر تقدير .

وقد سبق لنا القول بأن الفلاح الذى يقوم بالرى بواسطة الشادوف برفع فى الدقيقة الواحدة ٤٩ ٢٧/١٠٠ لتراً من المياه إلى ارتفاع ٢,٨٨ م ، ونسوق الآن تجربة أخرى تبين كمية الردم (أو رفع الأنقاض) التى يمكن لفلاح أن ينجزها أو ينقلها فى يوم واحد .

حفر ثلاثة رجال عملوا لمدة ثلاثة أيام ونصف فى سهل سيوط بئراً رأسية يبلغ عمقها ٥,٥٢٢ م وقطرها ١,٥ م ورفعوا ردمها إلى إرتفاع ١,٥ م فوق سطح التربة ، ويكاد يكون شكل البئر دائرياً .

وقد بلغ حجم الردم حوالى ٩ ١٣٨/١٠٠٠ من الأمتار المكعبة وقد رفعت إلى علو يبلغ متوسطه ٣,٢٦ م .

وكان الحفر يتم بواسطة معول صغير يده بالغة القصر وتتخذ حديدته شكل المجرفة ، ويمكن القول بأن عمل العمال قد تضاءل لحد أنهم كانوا يخدشون سطح التربة مجرد خدش ثم يعبئونها بعد تجهيزها فى شكل أجزاء صغيرة بمعولهم هذا فى قفة أو سلة مرنة من خوص النخيل يمسكون بها مفتوحة بين ساقيهم بينما هم منحنون ويقومون بالحفر .

وعندما تمتلئ هذه السلة بقطع الطين ويقتضى الأمر رفعها فإنهم يرفعونها بشكل رأسى من قاع البئر ويعلقونها من مقبض من حبل الليف (أذن القفة) مثبت بها فى سنارة معقوفة من الخشب معلقة هى نفسها فى حبل ليفى يمسك به ويجذبه العمال المتخذون أماكن لهم على حافة البئر .

وعندما نكون بصدد نقل الردم أو الأنقاض فى مجال أفقى أو فى مطلع أو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منحدر، وهو ما يحدث كثيراً فى مصر عند بناء أو ترميم الجسور ، يضع العمال المستخدمون فى القيام بهذا العمل ، رجالا ونساءً وأطفالا ، فوق رءوسهم قففاً مليئة بالردم يسندونها بيد ويذهبون سائرين الخطى ليلقوا بما فيها فوق المكان المقصود .

وتتم النقلات البعيدة على ظهور الجمال أو الحمير ، ولا تتجاور حمولة الحمل أردبين من القمح يبلغ وزنهما الإجمالى ٢٥٠ ك . ج عندما يكون عليه السير لمسافة طويلة بعض الشئ ، ويستطيع الجمل وهو يحمل هذه الحمولة ويسير الخطى أن يقطع ألفى متر فى خمس وعشرين دقيقة كما تأكدت من ذلك بنفسى بواسطة تجارب عديدة .

ويحمل الجمل بخلاف حمولته العادية من المواد الغذائية قائده فى بعض الأحيان . ويقدر طعام الحمل فى اليوم بـ ٧ مدينى . ولا تتجاور حمولة الحمار أردباً واحداً .

ولا يستحدم فى أعمال الزراعة سوى الثيران (الجاموس) ، ويقدر طعام الثور بـ ٨ - ١٢ مدينى فى اليوم . وفى مصر العليا لا تقتنى قطعان الحاموس إلا من أجل ألبانها ، ولا يحاول الناس مطلقاً استخدامها فى تشغيل ماكينات الرى (السواقى) لأن هذه الماكينات ليست فى حمى من الشمس التى لا تستطيع هذه الحيوانات أن تتحمل لهيبها . ولكن فى الدلتا ، تستخدم دكور الجاموس فى هذا العمل حيث الطقس هناك أكثر اعتدالا ، وفى نفس الوقت ، فقلما تكون السواقى ذات القوادبس غير مظللة بشجرة أو أكثر من أشجار الجميز .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع
عن حالة الفلاحين المصريين
نبذة موجزة عن إدارة القرى

تكفى التفاصيل التى انتهينا من إيرادها حول احتياجات وغذاء وأسلوب حياة الفلاحين ، لتوضيح أن خصوبة مصر لا تساهم فى كثير فى رفاهية أبنائها ، وأن الزراعة لم تلق هناك تشجيعاً كبيراً . ويعود ذلك إلى أن الفلاحين ليسوا هم المالكين لأرضهم ، وإلى أن الأرض فى ظل حكومة المماليك كانت تئن تحت وطأة كل أنواع الضرائب التى يمكنها أن تتحملها ، وحيث كان المماليك أقل استعداداً للإفادة من تجارب الماضى بنفس الدرجة التى يهملون فيها التطلع إلى المستقبل ، فإن هؤلاء المماليك لم يكونوا يواجهون إلا اللحظة الحاضرة ، وحيث كانوا واثقين من أنهم سيحصلون عن طريق القوة القاهرة على كل ما يريدون ، فقلما كانوا يقلقون أنفسهم بتحسين حالة الأرض التى يمكن القول بأنهم لم يكونوا يستخدمونها إلا كطريق للمرور عليها ، وبمعنى آخر ، فإن الشكل الغريب لنظام حكمهم كان يقصى كل نظام متبع لإصلاح الأرض ، بينما يحتم إصلاح هذه الأرض درجة كبيرة من التقدم ، حتى يمكن أن تقرر القيام به مثل هذه المجموعة من الناس العارين من كل معرفة والذين لا يعرفون إلا الملذات والرفاهية .

وفى هذه الحالة من التدهور ، فقد تحسنت برغم كل ذلك ، تلك المنطقة الواقعة ما بين سيوط وقنا عند نحو منتصف القرن الأخير (الثامن عشر) ، وقد يبدو أنه قد بذلت هناك عناية كبيرة بصيانة الجسور والترع اللازمة للرى ، ومع ذلك فقد كان الأمر بالضبط على نحو مخالف لما هو منتظر ، لأن المماليك فى هذه الفترة لم يكونوا يحكمونها .

يسكن حواف النيل من جهة الشرق قبائل العربان القادمة مباشرة من اليمن ، ويسكنها من جهة الغرب قبائل عربية أخرى جاءت ، بعد أن كانت قد انتشرت فى كل شمال أفريقيا والأجزاء الغربية من أوربا ، على فترات مختلفة ، لتقترب من تلك البلاد التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت فى الماضى الوطن الأصلى لها ، وواصل البعض من هؤلاء العربان حياة التجوال والسكنى مع قطعانهم على تخوم الصحراء أما الآخرون فقد اقتربوا أكثر من هؤلاء من النيل وأصبحوا مزارعين .

وقد استقرت واحدة من تلك القبائل القادمة من ضواحى تونس منذ حوالى مائتين وخمسين عاماً فيما بين جرجا وفرشوط ، واستقرت فى البداية فى أراض لم تكن مزروعة على الإطلاق ، وقامت بتملك بعض القرى ثم استولت بالقوه على قرى أخرى. وانتهى الأمر بها أن احتلت كل الأرض الواقعة بين الهوارة والشيخ سليم وأصبح معظم أبناء هذه القبيلة المعروفة باسم الهوارة ملاكاً أثرياء وكانوا تحت إمرة شيخ كبير منهم يقيم فى فرشوط ، أما آخر هؤلاء المشايخ واسمه همام ، فقد حكم الصعيد ابتداء من سيوط حتى أسوان ، وكان يحصل الضرائب لحسابه الخاص ، مقدراً إتاوة سنوية تبلغ ١٥٠,٠٠٠ أردب من القمح كان يدفعها إلى بكوات وباشوات القاهرة .

وكان يمكن لنفوذ الشيخ همام ، الذى كان يسبب القلق منذ وقت طويل لحكومة القاهرة ، أن يزيد لغير ما حد بسبب شقاقات المماليك وانقساماتهم ، لو لم يستول على بك على السلطة المطلقة ؛ فما أن شعر على بك أنه قد حاز كل مقاليد السلطة بين يديه حتى سير ضد الشيخ همام جيشاً عهد بقيادته إلى محمد أبى الدهب رجله المفضل ، وتقدم الشيخ همام على رأس ٣٥,٠٠٠ فارس يقيمون فوق أرضه لإيقاف جيش أبى الذهب ، لكنه هزم مرتين بالقرب من سيوط ، وعندما تفرق فرسانه ، هرب إلى إسنا حيث مات فى عام ١٧٦٩ .

وكان أبناؤه أكثر من سعداء لأنهم استطاعوا أن يشتروا السلام بثمن دفعوه من ثروات آبائهم ، فقد جردوا من الجزء الأعظم من عقاراتهم ، ونكاد نحس أن سياسة البكوات منذ ذلك الوقت لم تعد تسمح بتعاظم شأن عائلة هدد نفوذها نفوذهم .

وإذا كان لنا أن نحكم على إدارة الشيخ همام من واقع السمعة التى تركها فى خلفه ، فيمكننا القول بأن مصر العليا كانت تنعم بالسعادة فى عهد حكومته ، فجميع السكان المصريين ، أثرياؤهم هناك ، وفقراؤهم ، مسلموهم وأقباطهم ،

يقدسون ذكراه ، وليس هناك من لا يتحدثون عنه ، مع تعبير بالأسف على الأمن الذى أقامه والعناية التى بذلها لصيانة الترع والجسور ، وعلى إزدهار الزراعة فى عهده ، وإذا كانت تشوب هذه القصص بعض المبالغات ، فإن هذه الشهادات المتحمسة تبرهن على الأقل أن الشيخ همام قد صنع بعض الخير للبلد الذى حكمه ، ومن هذه الزاوية فإن ذكرى اسمه ستظل باقية هناك لوقت طويل .

وقد أصبح الصعيد بعد موته ملاذا للبكوات الذين بدأوا يلاحقون بعضهم البعض بلا انقطاع ، وكان طموح كل هؤلاء الفارين يتركز كما هو معروف فى العودة إلى حكم القاهرة ، ولكن كان ينبغى لاكتساب الوسائل لتحقيق هذا الغرض أن تحمل الأرض بضرائب باهظة .. هكذا ارتبط تاريخ هؤلاء المنفيين بتاريخ تدهور الزراعة فى أرض الصعيد .

كان محمد أبو الذهب بعد أن طرده على بك هو أول مملوك يلجأ إلى الصعيد مع زميله إسماعيل ، وبعد ذلك عاد كلاهما إلى القاهرة ، وأرغما على بك على ترك العاصمة ثم أسراه بالقرب من العريش وأرسلاه إلى مصر حيث مات فيما يبدو مسموما . وفى نفس الوقت تقدم محمد أبو الذهب إلى سوريا واستولى على يافا ومات أمام عكا فارتد جيشه بلا نظام إلى القاهرة ، ونصب مراد وإبراهيم كاشفا بيته (بيت المملوك هو كل رجاله ومماليكه) بكوين ، وبدا عندئذ أن الحكومة قد انقسمت إلى عصبتين : العصبة الأولى هى عصبة بيت على بك وكان على رأسها حسن وإسماعيل ، والأخرى هى عصبة بيت محمد بك وكان يقودها إبراهيم ومراد . وما أن حلت الهزيمة بالأخيرة حتى انسحب أميراها إلى الصعيد فى عام ١٧٧٥ وكانا قد سيطرا على مجرى النيل ابتداء من بنى سويف إلى ما وراء أسوان عندما زحف إسماعيل ضدهما ، ولكن فجأة هجره رجاله ، وبخاصة رفيقه حسن فى لحظة التقاء الفريقين جنوب فرشوط . لذا فقد اضطر للهروب فانسحب إلى سوريا أولا ومن هناك مضى إلى القسطنطينية ثم اتجه بعد ذلك إلى درنة على الساحل البربرى (المغربى) .

وهرع مراد وإبراهيم إلى القاهرة ، ومن هناك حكما مصر كلها لمدة عام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالتنسيق مع حسن بك ، لكن الوئام لم يستمر طويلا بين هؤلاء الثلاثة ، فاتجه حسن بعد أن اضطر لإخلاء الميدان إلى السويس وأبحر من هناك مع بعض أصدقائه ورسا فى القصير ثم ذهب ليقيم فى قنا . وعندما بلغ إسماعيل نبأ هذا الانشقاق الجديد أسرع إلى اللحاق بزميله (حسن) عابرا الصحراء المحيطة بالشاطئ الأيسر (الغربى) للنيل وجدد الأميران ارتباطاتهما القديمة ، وجمعا وسائلهما واتفقا على حماية البلاد الواقعة بين قنا وأسوان واقتسام دخولها .

كانت الأمور تسير على هذا النحو عندما كتب سافارى Savary وفولنى Volney رحلتيهما . ومنذ هذا التاريخ بدأت أقدار البكوات تعانى من تقلبات أكبر ؛ فما أن نزل قبطان باشا إلى مصر فى عام ١٧٨٥ حتى طرد إبراهيم ومراد من القاهرة ودعا إليه أميرى الصعيد (حسن وإسماعيل) وترك تحت إمرتهما جزءا من جيشه استخدماه فى مطاردة خصميهما القديمين واللدودين اللذين عادا أدراجهما إلى بنى سويف وقد انتهزا فرصة رحيل الجيش إلى القسطنطينية ليثبتا من جديد حدود حكومتهما دون أن يستطيع أحد أن يدفع بهما إلى ما وراء ذلك (إلى الجنوب) .

وأقام إبراهيم ومراد لمدة خمسة أعوام ، أولهما فى منفلوط والآخر فى جرجا حتى مات إسماعيل وبعض البكوات الآخرين وكثير من المماليك المرتبطين به ، ماتوا فى القاهرة بالطاعون ، وحدس الأمير حسن الانتقام الذى سيحل به على يد إبراهيم ومراد ، فهرب إلى الصعيد مرة ثانية بعد أن خانه وانفض من حوله العدد الكبير ممن أفلتوا من الطاعون ، وعاد إبراهيم ومراد حاكمين للقاهرة بدون قتال ، وسارا على الفور لمطاردة عدوهما . ودفعا به إلى ما وراء الشلال الأول ، وعندما أرهقتهما الحرب فى النهاية ، وعندما يئسا من هزيمته فى النوبة عقدا معه معاهدة صلح وحصل بموجبها حسن بك ، وعثمان وصالح اللذان تبعاه ، لكى يحافظا على بيتهما ، على دخول الأرض الواقعة بين أسوان حتى جبلين بشرط ألا ينزلوا مطلقا شمال هذه النقطة الأخيرة ، ومن أجل ضمان هذه المعاهدة ، سلموا اثنين من بكوات حزبهم (رهينتين) كان أحدهما لايزال يعيش بالقاهرة عندما إستولى الفرنسيون على مصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا ، فإن الصعيد الذى تعاقب على حكمه منذ وفاة الشيخ همام بكوات هاربون كان يشغلهم أمر تدبير أمورهم ، لم يلق أى إصلاح على يد هؤلاء ، وهكذا أيضاً ظل أبناء الريف هناك يعيشون فى أقصى حالة من الضنك ، فالقرى مكونة من أكواخ من الطين ، تحيط بأعلها (القرى) خرائب تعلن تناقص عدد السكان ، ويعيش هؤلاء كما سبق القول وهم الدين يعملون لجزء من العام فى أعمال الرى الشاقة على خبز الذرة وبعض الخضروات ، وليس لهم من أثاث إلا عدد ضئيل من الآنية الفخارية وبعض الأوانى المقيرة ، ولا يجدون إلا بشق الأنفس وسيلة لتحديدها من حاصل عملهم هذا إن تبق لهم شئ منه بعد دفع الضرائب .

ومن جهة أخرى ، فقد كان النفوذ الذى مارسه الشيخ همام على المناطق الأكثر مدارية (الصعيد الأقصى) من مصر قد شحب من كل القبائل العربية التى تحتل الطرف الأقصى من وادى النيل ، تلك السطوة التى كانت لها على الفلاحين فى أجزاء أخرى من مصر ، بفضل تأثير النظام الذى أقامته حكومته هناك ، وكان البكوات المنفيون من القاهرة يجدون هناك مصادر للدخل لم يكن لمناطق مصر الأخرى أن تهيئها لهم .

ويشغل شاطئ بحر يوسف على شمال (أى غرب) النيل وكذا ولاية أطفيح فى الجانب المقابل عرب أصبحوا مزارعين ويسيطرون على قرى عديدة . وعلى الرغم من تبنى هؤلاء العربان لنمط جديد من الحياة ، فإنهم مع ذلك لم يعدلوا عن عادتهم القديمة ، وعلى وجه الخصوص عادتهم فى الحصول عن طريق القوة القاهرة على الشئ الذى لا يريدون الحصول عليه عن طريق العمل ؛ فهم يستولون عنوة على أجود الأراضى ، ويوجهون مجارى المياه (الترع) أثناء الفيضان ويقطعون الجسور فى أفضل الأوقات التى تناسبهم دون أن يشغلوا بالهم بخصوص مصالح جيرانهم إذا ما اعتقدوا أن هؤلاء ليسوا فى حالة تمكنهم من المقاومة . وهذا النمط من المزارعين الذين يمكن القول بأنهم يمسكون بالمحراث بيد ويمسكون الحربة (الحراب) باليد الأخرى ، يمارس نوعا من السيادة الاقطاعية على الفلاحين ، وحيث أنه من المستحيل دفعهم إلى سداد

الضرائب التى تتحملها الأرض المنزرعة بالنظر إلى ما يحوزون من صنوف المقاومة التى تدعم رفضهم ، فإن هذه الميزة التى انتحلوها لأنفسهم تتم على حساب السكان القدامى ، الذين يتزايد ما ينبغى أن يدفعوه بقدر ما يقل ما يدفعه أولئك (*) .

ويبلغ بهؤلاء العربان فى اغتصابهم للحقوق بدون أدنى مراعاة لعرف أو لأية قاعدة ولو كانت شكلية أنهم يستولون على محاصيل القرى الواقعة فى متناول أيديهم إذا كان المحصول الذى حصدوه من أراضيهم هم لا يكفى لمئونتهم ، وإن كانوا فى الواقع يتعهدون فى مقابل ذلك بتقديم نوع من الحماية إلى هذه القرى التى يصبح سكانها بهذه الطريقة بمثابة أتباع لهم (دافعى جزية) ومع ذلك فإن هذه الحماية ليست لها فاعلية على الدوام ، ذلك أن كل قرية تقع بين قبائل متعادية تسلب المرة بعد المرة وبالتبادل على يد كل من هذه القبائل المتشاحنة .

وإذا كانت مجاورة العربان الذين أصبحوا فلاحين خطرة لهذا الحد بالنسبة للفلاحين ، فيمكن القول بأن على هؤلاء الأخيرين أن يخشوا وبدرجة أكبر أولئك العربان الذين لا يزالون يعيشون تحت الخيام ، والذين يأتون ليستقروا فى هذه النقطة مرة ، وفى تلك مرة أخرى ذلك انهم على الدوام مستعدون للاستيلاء على ما يرونه مفيدا لهم ، والهرب مع قطعانهم عندما تمكن هزيمتهم بواسطة قوات أكبر من تلك التى يملكونها .

وباختصار ، فليس هناك واحد من هؤلاء البدو لا يضع نفسه فى مرتبة فوق مرتبة الفلاح ، ويستشعر هؤلاء البدو نوعا من العار من القيام بنفس عمل الفلاح ، وحيث أن هؤلاء لا يعرفون حقاً أكثر مشروعية من حق القوة ، وأنهم لا يهاجمون فى العادة إلا الذين لا يمتلكون القدرة على الدفاع عن أنفسهم فإن المكاسب التى يحصلون عليها تجعلهم بشكل طبيعى فى وضع ينظرون معه لأنفسهم باعتبارهم الملاك الحقيقيين .

(*) انظر العرب والعربان فى مصر الوسطى ، وصف مصر ، تأليف جومار – المجلد الثانى فى الترجمة العربية . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى نفس الوقت ، فليس فلاحو مصر الوسطى وحدهم هم الذين يقاسون من مجاورة العربان ! فبعض أجزاء ولاية الفيوم تتعرض بالمثل للانتهابات التى تأتى القبائل الجوالة تمارسها هناك من وقت لآخر .

وفى الحقيقة ، فإن هذه القبائل التى تنتمى فى أصولها جميعاً إلى بلاد البربر (المغرب) متعادية فيما بينها ، ولربما كانوا ليدمروا بعضهم البعض لو أن ماشية الفلاحين ومحاصيلهم لم تكن بالنسبة لهم سلبا غير مضمون ، وهم يوحون بدرجة من الرعب حتى أن الناس يفرون عن كل شئ عند اقترابهم ، وفضلا عن ذلك فإنهم يتبادلون فيما بينهم الريبة والحذر الشديد .

وعندما عبرت ولاية الفيوم وجدت ثمة قبيلتين كانتا قد استقرتا هناك ، هما قبيلة الفرجان فى الشمال والسمالو فى الجنوب ، وتتكون كلتاهما من عربان ظل البعض منهم يحتفظ بعاداته الرعوية فى حين انتشر البعض الآخر فى القرى وتعودوا عادات الفلاحين . وفيما يبدو على الأقل ، فإن هذه القرى التى تتلقى الدعم من القبيلة التى ينحدر منها سكانها لم تكن تتعرض للسلب إلا على يد العصبة المناوئة ، أما تلك القرى التى لا تتلقى حماية من هذا النوع فيعيش أهلوها كيفما اتفق ، وهم يخشون على الدوام أن يدب الرعب بينهم فى أية لحظة إما على يد هؤلاء ، وإما على أيدى أولئك من هؤلاء الجيران الخطرين .

وتعد ضواحى المدن الكبرى التى تحتفظ فيها الحكومة ببعض القوات فى مأمن أكبر من غارات العربان ، لكن أغلب ريف مصر السفلى يتعرض كما هو الحال فى ولاية الفيوم للخراب والنهب على يد القبائل العديدة التى تجوب صحراوات قلزم السويس أو حواف بحيرة ماريوتيس (مريوط) ، إذ ، فجأة ، يجتار فرسان هذه القبائل نهر النيل ، ويحدقون بالقرى وينتزعون الدواب والأغذية التى يجدونها هناك .

وثمة ظرف خاص يستخدم ذريعة لتغطية هذه الانتهابات :

فأغلب سكان الدلتا ينقسمون فيما بينهم إلى حزبين متعاديين تحت اسم سعد وحرام ، ويسعى كل فريق إلى مضايقة الفريق الآخر بشتى الوسائل . وعندما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سئلوا عن أصل هذا الانقسام قصوا حكايات مضحكة أكدت عن يقين أنهم يجهلونه ، وبمعنى آخر فإن هذا الأصل لا يهمهم فى كثير . وحيث أن الأعمال العدائية بين الفريقين لم تتوقف مطلقاً فقد ظل لدى كل حزب على الدوام إهانات حديثة لابد من الانتقام منها .

وعلى الرغم من أن وجود هذين الحزبين أمر شائع بدرجة عامة فإن شيوخ (علماء) القاهرة الذين ينظر إليهم باعتبارهم يعرفون أكثر من غيرهم تاريخ بلادهم ليسوا على اتفاق حول الوقائع التى أدت إلى نشأة هذين الحزبين . وأكثر الأمور معقولية فيما سمعت ينحصر فيما يأتى :

فى أثناء الحرب الأهلية التى روعت الجزيرة العربية فى عهد الخليفة يزيد بن معاوية فى حوالى العام ٦٥ من الهجرة ، اتخذ الجيشان المتحاربان ككلمة يعتصمون تحت لوائها أثناء إحدى المعارك الليلية اسمى سعد وحرام اللذين كانت تعرف بهما عائلات رؤساء الجيشين ، وتشبث المحاربون من ذريتهم بهذين الاسمين وظلوا يطلقونهما على أنفسهم فيما بعد مما أدى إلى استمرار الشقاق ووضع عقبة كأداء فى سبيل تقاربهم ، أما العرب الذين جاءوا ليستقروا فى مصر على فترات مختلفة ، فقد حملوا معهم أحقادهم المتأصلة ضد بعضهم البعض ، عندما حملوا معهم اسم الحزب الذى كان ينتمى إليه أجدادهم ، واستمر هذا الحقد من جيل إلى جيل حتى اليوم .

وإلى هذه الانقسامات الداخلية ينبغى أن ننسب سطوة العرب البدو وكذلك الرعب الذى يحدثونه فى أعماق الدلتا ؛ فكيف نفسر أن عددا محدوداً من الفرسان يستولى بلا أدنى مقاومة فى العادة على قطعان كبيرة دون أن يكون بمقدور شعب كبير العدد أن يذود عنها بالقوة المسلحة ؟ علينا أن ندرك إذن أن هؤلاء العربان يثقون على الدوام أنهم سيتلقون النجدة والحماية على يد قرى الحزب المناوئ للحزب الذى ينهبونه ، وحيث أن هؤلاء العربان لا يحتفظون لهم بعلاقة مع أى فريق من هذين الفريقين إلا بقدر ما تمليه مصالحهم الوقتية ، فإنه يظل بمقدور هؤلاء أن يمارسوا سرقاتهم فى ربوع البلاد دون أن يلقوا عقاباً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما عن الإدارة الداخلية للقرى ، فينهض بها – بدرجة تتفاوت فى فاعليتها – شيخ واحد أو أكثر من شيخ يقومون بجباية الضرائب مع المحصلين الأقباط ، وتهيئ لهم هذه الوظائف نفوذاً أكيدا يسيئون استخدامه فى بعض الأحيان . وباختصار فإن هؤلاء المشايخ المنقسمين على أنفسهم من قرية لأخرى يسلحون فلاحى البعض ضد البعض الآخر عند أبسط الذرائع ، ولا يتوانى المماليك فى دعم هذه الانقسامات التى يتأكد بفعلها نفوذهم وسلطتهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس
عن المحاصيل الزراعية فى مصر

تخصص المحاصيل التى تزرع فى مصر لتغذية الإنسان ، أو تستخدم كعلف للماشية ، أو تستعمل فى صناعات متنوعة .

ونصف هنا طريقة زراعة كل من هذه المحاصيل على حدة .

١ – زراعة القمح

يزرع القمح (triticum) فى كل أنحاء مصر إبتداء من أدفو ، على بعد حوالى ثمانية عشر فرسخا إلى الشمال من أسوان ، حتى الطرف الشمالى من الدلتا ومع ذلك فليست كل مناطق مصر متساوية فى قابليتها لهذه الزراعة ، كما أن طرق الزراعة تتنوع حسبما إذا كانت الأراضى تروى من مياه النيل بشكل طبيعى ، أو أنها تروى بطريقة صناعية ، سواء بسواعد الإنسان ، أو بمعاونة الدواليب ذات القواديس التى يطلق عليها كذلك اسم ساقية .

أما أكثر مناطق مصر التى تجود فيها زراعة القمح ، هابطين من الجنوب إلى الشمال فهى ولايات طيبة ، وجرجا ، وسيوط ، والمنيا ، والقاهرة ، والمنوفية ، والمنصورة .

ويبدأ البذر بعد انحسار مياه الفيضان مباشرة ، أى عند بداية شهر أكتوبر ، وذلك فى مصر العليا ، أما فى الدلتا ، فيتم الأمر بعد هذا الوقت بخمسة عشر يوماً ، وتحرث الأرض حرثة أولى بواسطة محراث خفيف للغاية [١] ، ويجر هذا المحراث ثوران يقودهما رجل واحد . ويلزم يومان من العمل لحرث فدان واحد .

وعندما تكون الأرض قد ظلت لوقت طويل غارقة بالمياه ، كما يحدث مع تلك

---

(١) نجد رسما لهذا المحراث بين رسوم الأثاثات والأدوات : الفنون والحرف ، اللوحة التاسعة ، الصورة الأولى ، وكذلك اللوحة M M

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأراضى الواقعة بين الحسور العرضية التى تقطع وادى مصر العليا ، فإنها لا تحتاج إلى هذه الحرثة الأولى . ويتم البذر بينما الأرض لا تزال موحلة فتبذر البذور « على الطائر » كما يحدث فى أوربا .

وتبلغ كمية البذور المستخدمة فى الصعيد ½ أردب فى العادة لكل فدان ، ويستطيع شخص واحد بمفرده وبسهولة ، أن يتم بذر الفدان فى يوم واحد .

وعندما تبلغ الأرض درجة معينة من التماسك ، بعد انحسار المياه ، يقوم الفلاح بتغطية البذور بحرثة ثانية ، وإذا ما كانت الأرض قد غمرت بالمياه لوقت طويل ، وإذا ظلت ، بعد البذر ، رطبة وموحلة ؛ فإن البذور تغطى بواسطة زحافة ، هى عبارة عن جذع نخلة ، يجرها بالعرض ثوران .

وفى مختلف ولايات مصر العليا ، لا تتطلب زراعة القمح الذى يبذر فى أرض تروى بشكل طبيعى ، أى عمل ابتداء من وقت البذر حتى وقت الحصاد ، أى خلال خمسة إلى ستة أشهر .

ويتم الحصاد عند نهاية شهر مارس أو بداية شهر إبريل . وتسمح حالة الجفاف التى تكون عليها الأرض ، وكذا الشقوق التى تقطعها ، باقتلاع المحصول بجذوره بسهولة بالغة ، ويقسم المحصول إلى حزم صغيرة ، تزن الواحدة ١٠ إلى ١٢ رطلا . وتكفى أربعة أيام عمل لرجل واحد لحصاد فدان من القمح ، ويحصل الحاصدون على أجورهم حبوباً : ويقدر أجر العامل عن اليوم الواحد بربعة أو ١/٢٤ من الأردب .

وتنقل حزم القمح على ظهور الجمال إلى جرن ممهد على مسافة ضئيلة من الحقل ، وتحتوى حمولة الحمل الواحد عادة على ٣٠ حزمة . وتوضع بعضها فوق بعض ، بطريقة تشكل دائرة يبلغ قطرها حوالى عشر خطوات فى وسط الجرن ، ويبسط حول المدار ، الذى يبلغ قطره حوالى ٢٠ إلى ٢٥ خطوة، طبقة من حزم تم فكها ، ويمرر فوقها نوع من عربة أو كرسى متحرك يسمى : نورج ، وقد سبق أن قدمنا وصفاً له ، وحين ينفصل الحب عن سنابله ، بهذه الطريقة ، وحين يتم هرس القش بالدرجة الكافية ، فإنه يمر بواسطة أمشاط كبيرة من الخشب (مذراة) إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خارج مسار النورج ، الذى توضع فيه ما بين كل نصف ساعة وآخر حزم جديدة من القمح . أما الثيران التى تجر النورج فيتم تغييرها كل ساعة . ويبلغ أجر الثور الواحد فى اليوم ، مثله مثل أجر العامل ١/٢٤ من الأردب قمحاً ويلزم يوما عمل ، أو يومان ونصف اليوم ، لدرس محصول فدان واحد ، يستخدم خلالها أربعة من الثيران وعاملان . وفى العادة ، تنتج كل ٧٢ حزمة من القمح اردبا من الحبوب ، يزن حوالى ٢٧٥ رطلا أى ما يعادل ١٢٥ كيلو جراما .

وفى إدفو ، وهى كما سبق القول أكثر منطقة مدارية يزرع فيها القمح فى مصر ، يكتفى بهرس حزم القمح المبسوطة فى الجرن تحت أقدام الثيران . وقش هذه المنطقة فى العادة بالغ الجفاف والنعومة حتى أنه يتحول بعد أن يتعرض لهذه العملية لوقت قصير ، إلى تبن بنفس الدرجة التى كان يمكن أن يتحول إليها لو أنه كان قد درس بواسطة النورج .

وحين ينتهى درس القمح فإنه يذرى ، وذلك بتعريضه للهواء بواسطة شوكة خشبية متقاربة الأسنان (المذراة) ، وبهذه العملية تنتهى عادة كل مراحل الحصاد ، ويسدد عيناً أجر كل هذه الأعمال ، بما فيها التذرية ؛ أى بقمح تم درسه ، ويبلغ إنتاج الأرض ، بعد استبعاد هذه المصاريف ١٢ إلى ١٤ مثلا (من كمية البذور) ، وتكاد تحصل كل الضريبة المفروضة على هذه الأراضى عينا ، وتشكل هذه الجزء الأكبر من القمح الذى يصدر خارج مصر .

وثمة اختلافات تتناول زراعة وإنتاج هذه الحنطة فى الفيوم وولايات الدلتا . وهكذا تتراوح كمية البذر لفدان واحد فى هذه المناطق ما بين ١/٢ إلى ٣/٤ الأردب ، وبذلك يتضح أنها أكبر قليلا من كمية البذر المستخدمة فى الصعيد لنفس المساحة من الأرض .

أما أراضى الدلتا ، فتحرث كلها بشكل عام قبل البذر . وفى بعض الأحيان يعلق فى المحراث جاموس بدلا من البقر كما أنه لا تروى مطلقا بعض الأراضى بعد بذرها ، وإن كانت هذه الأراضى لا تمثل إلا أقل القليل من تلك المساحة من الأرض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى خصصت لزراعة هذا المحصول ؛ أما بقية هذه الأرض ، فإنها على الرغم من أن المياه تغمرها بشكل طبيعى ، تروى مرتين : مرة بعد انتهاء البذار بستين يوماً ، وأخرى بعد البذر بتسعين يوماً .

ويتم الرى عن طريق دواليب ذات قواديس (سواق) ولرى فدان واحد يلزم يومان ونصف اليوم تعمل خلالها واحدة من هذه الماكينات (السواق) بشكل دائم .

وتكون سيقان نبات القمح فى مصر السفلى أعلى منها فى الصعيد ؛ مما يسمح بحصدها بواسطة المنجل .

ويستطيع ثمانية أو عشرة رجال أن يحصدوا فداناً من القمح خلال يوم واحد ، وحيث تكون البذرة أقل جفافا عنها فى مصر العليا ، وحيث أنها (هنا) أكثر التحاما بسنبلتها فإنه يلزم ثلاثة أيام عادة لدرس محصول فدان واحد ودرس تبنه . ويتطلب عمل النورج ، كما هو الحال فى الصعيد، رجلين وأربعة ثيران .

ويحصل عمال الحصاد فى الدلتا كذلك على أجورهم عينا ، وإن كان هذا الأجر يقدم لكل منهم هنا فى شكل حزم من القمح بدلا من القمح المدروس .

وعندما يبذر القمح فى تلك الأراضى التى لا تغمرها مياه الفيضان ، وإن كانت تقع بجوار النيل أو الترع ، فإن الأمر يستوجب ريها أربع مرات أو ست بواسطة الدلو أو الشادوف .

وتنتج أفضل أراضى الدلتا محصولا من القمح أقل مما تنتجه مثيلاتها فى مصر العليا ، إذ يبلغ إنتاجها نسبة ١٠ : ١ (*) ، بل إن بعضها لا ينتج سوى ستة أو سبعة (إلى واحد) . وعموما فإن قش (سيقان) القمح ، الذى يروى بطريقة صناعية ، يكون أطول من قش القمح الذى لا يروى مطلقاً بهذه الوسائل . وفى الحقيقة فإن محصول القمح الذى يشار إليه باسم شتوى (أى الذى يزرع شتاء) يفوق إنتاج محصول القمح البياضى، وإن كانت مصاريف الرى تجعل منه (أى من الشتوى) أكثر

(*) بالنسبة لكمية البذور (المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكلفة . ويتم حصاد القمح فى كل من مصر العليا ومصر السفلى بواسطة المنجل .

وتوجد فيما بين سقارة وبنى سويف أراض مرتفعة ، يضطر الناس لحرثها بواسطة المجرفة ، ويتطلب حرث الفدان عشرين يوم عمل ، وحيث أن مثل هذا العمل شاق للغاية ، فإن أجر يومية العامل يصل عادة إلى ١٥ مدينى أى ما يزيد بمقدار الثلث عن يومية العامل الذى يقوم بأعمال الرى .

وقش القمح المهروس (التبن) هو الغذاء المعتاد للخيول ولكل الحيوانات التى تستخدم فى أعمال الزراعة ، وعلى العموم فإن أراضى الصعيد تنتج عدداً من حمولات الجمل من القش المهروس يساوى عدد أرادب القمح التى تغلها ؛ ولكن إنتاج التبن من القمح المزروع فى الدلتا يزيد عن ذلك زيادة طفيفة .

وتحصل أسواق القاهرة على مئونتها من القمح من غلال الصعيد ومصر السفلى ، وتبلغ زنة الأردب من النوع الأول ٢٦٤ رطلا ، فى حين يزن الأردب من النوع الثانى ٢٩٢ رطلا من زنة مارك [١] .

ثانيا : زراعة الذرة والذرة الشامية

يزرع الذرة (holcus sorghum) فى كل أقاليم مصر بدءاً من جزيرة الفانتين حتى القاهرة ؛ فهى الحبوب التى تشكل الغذاء العادى للفلاحين ، ويبذر الذرة على فترتين ، الأولى عند حوالى منتصف مايو ، والثانية عند نهاية شهر أغسطس .

ويسبق هذان البدران ، كما نرى ، غرق الأراضى بفيضان النيل : وهكذا تتطلب زراعة الذرة على الدوام رياً صناعياً ؛ وعلى ذلك فإن الأراضى التى تصلح أكثر من غيرها لهذه الزراعة هى التى تكون أكثر اقترابا من النهر أو من الترع التى تحتفظ بالمياه طيلة العام .

---

(١) انظر فى نهاية هذه الدراسة ، الجداول الموثقة (رقم ١) ، وكذلك التقرير الذى أعد للقائد العام حول صناعة الخبز .

(Dècade egyptienne , tom III, Pag . 129)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهبوطاً من جزيرة الفانتين حتى إدفو (أى مع الاتجاه شمالا) ، يزرع هذا المحصول مرتين فى العام ، لكنه لا يزرع تحت (شمال) إدفو ، وفى بقية أنحاء مصر إلا فى الصيف ، خلال تلك الفترة من العام التى تسمى القيظى .

وينمو فى معظم الأراضى التى ترتفع بعض الشئ ، وبشكل تلقائى نوعان من النباتات ، يسمى أحدهما حلفا (Poa multiflora) ، وهو يستخدم فى صنع الحصر ، أما الثانى ، ويطلق عليه اسم عاقول (hedysarum alhagi) فيستخدم مرعى للجمال . وحين يراد زراعة هذه الأراضى بالذرة فإن الناس يبدأون ذلك بإحراق هذه النباتات وهى واقفة (أى بدون انتزاعها) ثم يقومون بعد ذلك بحرث الأرض ، وبعدها يقسمونها إلى مربعات (أحواض) عن طريق جسور صغيرة تتقاطع بزوايا مستقيمة ، تحفر فى قمتها جداول تقوم بنقل المياه إلى كل واحد من هذه الأحواض . وهذه الجسور الصغيرة ، التى ترتفع إلى ٢ – ٣ ديسيمترات (٢٠ – ٣٠ سم) ، تقام بشكل بالغ العجلة بواسطة نوع من المكشطة تسمى مسوجة التى تستخدم فى وقت معاً فى تحديد (تجهيز) الأرض وفى إقامة الجسور فيما حول الأحواض ، ويقام منها عادة فى الفدان الواحد إذا كان يقع بالقرب من النيل نحو المائتين ، وإن كان هذا العدد يزيد حسب درجة ابتعادنا عن المصدر الذى يبغى أن يمدنا بالمياه اللازمة للرى .

ويتطلب تجهيز الأرض على هذا النحو يومى عمل وبعد ذلك يقوم الفلاح بواسطة الفأس بحفر حوالى ٦٠ أو ٨٠ حفرة صغيرة (نقرة) عمق كل منها أربعة قراريط ، وذلك فى كل واحد من هذه الأحواض ، ثم تبذر فى كل حفرة من هذه الحفر بعض بذور الذرة .

وتبلغ كمية البذار (للفدان الواحد) من $\frac{١}{٢٤}$ إلى $\frac{١}{١٢}$ من الأردب ، ويستطيع القيام بذلك ثمانية إلى عشرة رجال يعملون لمدة يوم واحد ؛ يحصل كل منهم مقابل ذلك على ٨ – ١٠ مديني .

ويبدأ الرى بمجرد أن تغطى البذور ، ويستمر هذا الرى بلا إنقطاع خلال الأيام العشرة الأولى ، بهدف تأكيد إنباتها واسرع نموها .

ويتم هذا الرى فى جزيرة الفانتين بواسطة الدولاب ذى القواديس (الساقية) وتستطيع كل ساقية أن تروى من ٥ – ٦ فدادين ؛ وفى الجهات الأخرى يتم الرى بيد الإنسان وبواسطة الدلو .

وخلال الفصل المسمى القيظى ، الذى يتفق حلوله كما سبق لنا القول مع أكبر انخفاض لمياه النيل ومع أقصى درجات الحر فى الصيف ، يتم الرى كل أسبوع ، على ثمانى مرات متفرقة ، ويلزم استخدام أربعة أو ستة رجال لرى فدان واحد ، فى مدة يومين .

وفى بعض قرى الفيوم ، لا تحرث الأراضى المخصصة لزراعة الذرة مطلقا قبل عملية البذور : فتصنع الحفر (الجورة) التى ستوضع فيها البذور بالفأس (المنقرة) ، وبعد أن تتم تغطيتها ، تعطى ريتين متتاليتين . وبعد ذلك يشق المحراث بين صفوف البذور خطوطاً يبلغ عمقها من ٢ إلى ٣ ديسيمترات ، تستبقى فيها المياه بارتفاع معين يكفى لغمر جدور هده النباتات بالقدر المناسب ؛ وينمو المحصول بسرعة ويبلغ درجة النضوج بعد ثلاثة أشهر من البذر . وخلال هذه المدة تقتلع الحشائش بعناية من حقول الذرة ؛ كما تقتلع السيقان الضعيفة أو التى تأخر نموها والتى يمكنها ، ما أن تصل إلى نفس الأرومة أن توقف نمو السيقان الأساسية (المحصول الأساسى) ، وتستخدم هذه كعلف للماشية .

وعندما تقترب الذرة من نضوجها ، يعنى الفلاحون عناية كبيرة بمنع الطيور من أن تحط على سيقانها حتى لا تأكل حبوب الذرة وهى فى سنبلتها . وحيث أن هذه السيقان ترتفع عادة ليبلغ طولها نحو المترين ، فإن الناس يقيمون من مسافة لأخرى فى حقول الذرة أكمات من الأتربة يصعد فوقها الرجال الذين « يهشون » الطيور بصيحاتهم .

وعلى الرغم من أن زراعة الذرة القيظى أمر بالغ المشقة فى مصر العليا ، إذ تتطلب فى بعض الأحيان ما يقرب من مائة يوم عمل لرى كل فدان ، فإن الناس هناك مضطرون للجوء إليها كغذاء للسكان الذين لا يزرعون القمح أو الشعير إلا من أجل تسديد الضريبة أو لإرساله إلى أسواق المدن الرئيسية التى يصدر منها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما يصل الذرة إلى مرحلة نضوجه ، فإنه يقطع عند ارتفاع حوالى ٢ ديسيمتر من سطح الأرض بواسطة نوع من المنجل أصغر حجما وأقل تقوسا من النوع المستخدم فى فرنسا . ويلزم عشرة من الحاصدين لقطع محصول الفدان فى يوم واحد، وفى بعض الأحيان تعرض رءوس النباتات (شواشيه) للشمس وبعد ذلك توضع فى حرن حيث تطؤها أقدام الثيران . ويمكن لثورين إذا عملا لمدة خمسة أيام أن يدرسا إنتاج فدان . وتنظف الحبوب عن طريق تعريضها للهواء (تذريتها) بواسطة مذراة خشبية ؛ وأخيراً توضع فى أكوام تغطى بالحصر ، أو تحفظ فى قفف مصنوعة من سعف النخيل .

قلنا إن المحصول الأول من الذرة القيظى يتم فى أغسطس فى المنطقة الأكثر مدارية من مصر ، وبعد ذلك مباشرة يبدأ إعداد نفس الأراضى من جديد لاستقبال الذرة الانبارى ؛ وهنا تتبع نفس الأساليب السابق ذكرها سواء عند الزراعة أو عند الحصاد ؛ ومع ذلك ، فحيث يكون النيل فى هذه الفترة من العام فى أقصى ارتفاع له ، فإن عملية الرى تتطلب جهداً أقل بكثير ، بل إن هناك مناطق فى جرجا وسيوط يرتفع فيها الفيضان فى بعض الأحيان لحد يكفى لتغطية الأراضى التى بذرت فيها الذرة بعلو يبلغ عدة سنتيمترات . وتسمح هذه الظروف بإيقاف عمليات الرى الصناعى لمدة تقرب من شهر ؛ وبعد ذلك يستأنف الزراع عمليات الرى هذه ، ويجددونها بواقع مرة كل عشرة أيام ، إلى أن يحين موعد الحصاد .

ويبلغ محصول الفدان من الذرة القيظى عادة ستة أرادب ، فى حين يزيد عن ذلك بكثير محصول الفدان من الذرة الأنبارى ، إذ يبلغ فى بعض الأحيان ١٠ إلى ١٢ أردبا ؛ ويبلغ متوسط ثمن الأردب ١٣٠ مدينى ، ولا يزرع فى مناطق مصر الواقعة إلى الشمال من جرجا سوى الذرة الانبارى ، فمع الاتجاه شمالا بطول النيل يتطلب الذرة وقتاً أطول للنضوج ، كما يتطلب مجهودات أقل بكثير فى عملية ريه .

ويبذر الذرة فى الفيوم وفى ولايتى بنى سويف والجيزة مع بداية شهر يولية ،

ويظل فى الأرض مدة أربعة شهور ، ولا يروى إلا بواقع مرة كل عشرين يوما ، ويحصد فى بداية نوفمبر

ولا تفصل الحبوب عن سنابلها عن طريق وطء هذه الكيزان بأقدام التيران كما يحدث فى مصر العليا : وإنما بتعريض هذه الكيزان للتشمس لمدة خمسة عشر أو عشرين يوماً ، ثم تضرب بالعصى ؛ ويلزم لعامل واحد أن يشتغل لمدة عشرة أيام كى يدرس محصول فدان واحد ، وحيث أن حبوب هذا المحصول نادراً ما تصدر من المناطق التى زرع فيها ؛ وحيث قد لا تجد الحكومة وسيلة للعمل على بيعه فى أسواق المدن ، فإن الضريبة التى تفرض على الأرض التى تبذر فيه تحصل نقداً ، وعادة ما تدفع الأراضى التى تزرع محصول الذرة القيظى الضريبة بواقع ٣ بوطاقات للفدان ؛ أما التى تزرع بالمحصول الابارى فتدفع ٥ بوطاقات عن نفس المساحة : مما يوضح بشكل تقريبى النسبة بين إنتاجى المحصولين ، وتدفع مصاريف بذر الذرة وريه نقداً بصفة عامة ، بواقع ٨ إلى ١٠ مدينى مقابل يوم العمل ؛ وعلى العكس من ذلك أعمال الحصاد إذ تدفع مقابلها عينا فى شكل حزم وأحياناً فى شكل حب مدروس .

وفى العادة ، فإن الفدان ينتج عدداً من حمولات الحمل من سيقان الذرة يساوى ما ينتجه من أرادب من الحبوب ؛ وتباع حمولة الحمل من هذه السيقان بـ ٨ إلى ١٢ بارة ، وتستخدم هذه وقوداً وذلك بعد تجفيفها ؛ ويكاد يكون هو الوقود الوحيد المستخدم فى مصر العليا لانضاج الطوب الأحمر والفخاريات وفى صناعه الجير وفى الأغراض المنزلية الأخرى .

ويستخدم قش الذرة كذلك فى تغطية (عمل سقوف) الأكواخ .

وأخيرا فإن العربان والمزارعين فى ضواحى أسوان وطيبة يشكلون من هذا القش حزماً يضعونها تحت صدورهم ليستطيعوا العوم بأقل جهد حين يعبرون النيل .

ويطلق المصريون اسم الذرة الشامية على ما نسميه نحن بالقمح التركى ؛ وهو يزرع بكميات ضئيلة فى ضواحى قنا ؛ ولزراعته تعد الأرض على نفس النحو الذى تعد به لزراعة الذرة البلدية ؛ وتبذر بذوره فى شهر أغسطس ، ويروى لمدة ثلاثة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شهور ، ثم يحصد بعد الشهر الرابع . ويقطع النبات ، وتنزع السنابل عن سيقانه وتحفظ للحصول على حبوبها بقدر الحاجة ، ويبلغ محصول الفدان فى بعض الأحيان ١٠ إلى ١٢ أردبا ؛ ويخلط دقيق هذه الحبوب بدقيق القمح ؛ وفى بعض الأحيان يستخدم الدرة وحده فى صنع خبز الفلاح .

وفى بعض مناطق الدلتا يحل محصول الدرة الشامية ، وهو الذى لا يعد فى الصعيد سوى محصول مساعد ، محل الدرة الصعيدية ، التى تعد فى هذه المناطق غريبة تماماً .

وتخصص بعض الأراضى فى ضواحى طنطا وسمنود بالذات لزراعة الذرة الشامية ، وتبدأ عمليات الزراعة بتغطية هذه الأراضى بطبقة رقيقة من الرماد أو من الأنقاض التى توجد حول القرى . ولتغطية أرض فدان واحد تلزم عادة ٢٠ أو ٢٤ حمولة حمار . وتبذر البذور فى خطوط خططها المحراث ، ثم تسوى أرض الحقل بتمرير جذع نخلة تجرها الثيران فوقها بشكل أفقى ، ثم تقسم فى النهاية إلى مربعات (أحواض) لريها .

وتبذر الذرة الشامية فى انقلاب الصيف ؛ ولبذر فدان واحد يلزم عادة $\frac{٦}{٢٤}$ من الأردب من بذره ، ويبدأ النبات فى الظهور على سطح الأرض بعد ستة أيام من البذار ؛ ويروى مرة كل خمسة عشر يوما حتى وقت الحصاد وهو يتم قرب اعتدال الخريف ؛ ويتم رى الذرة الشامية بيد الإنسان ؛ ويستطيع خمسة رجال أن يرووا الفدان الواحد فى طرف يومين ، ويحصل كل منهم (مقابل ذلك) على ١٢ مدينى .

ويكفى خمسة أو ستة حاصدين لكى يتموا حصاد محصول فدان من الذرة الشامية فى يوم واحد ؛ وهم يستعملون المناجل (فى ذلك الغرض) . أما عن أجورهم ، فإنهم يحصلون عليها عينا ، ويعطون من حزم الذرة ما يستطيعون حمله .

وفى العادة يعطى الفدان ذو الـ ٢٤ قيراطاً أربعة أو خمسة أرادب من الحبوب متوسط ثمنها ٢ بوطاقة : وهكذا يبلغ إجمالى إنتاج هذا المحصول ما نسبته حوالى ١٨ إلى ١ (بالنسبة لكمية البذور) ؛ دون أن ندخل فى ذلك قيمة القش الذى لا يستخدم إلا باعتباره وقوداً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتنقل الذرة الشامية على ظهور الجمال إلى مكان يقع على مشارف القرية ، وهناك تقوم النسوة والأطفال بفصل السنبلة عن الساق ، وبعد ذلك تجرد هذه السنابل من الأوراق الكبيرة التى تغلفها . ويستطيع خمسة عشر أو ستة عشر من هؤلاء العمال أن يجهزوا على هذا النحو خلال يوم عمل واحد محصول فدان ؛ ولكى تجف السنابل على نحو تام فإنها تعرض للشمس لمدة ١٢ إلى ١٥ يوماً ، وبعدها تخزن ، ويدرس منها على قدر الحاجة بغرض فصل الحبوب عن السنابل ، وبعد ذلك مباشرة ، وقبل تحويل هذه الحبوب إلى دقيق ، فإنها تتعرض داخل أحد الأفران لنوع من « التحميص » ، أما سنابل الذرة الشامية التى لا تزال خضراء ، فتجمع فى شكل حزم تتكون من خمس أو ست سنابل ، ثم تشوى ، فتشكل بهذا الإعداد نوعاً من الغذاء يقبل عليه الأطفال بنهم شديد . وعلى هذا النحو وحده ، يستعمل فى صعيد مصر هذا القدر الضئيل من الذرة الشامية التى تزرع هناك .

ثالثا : محصول الأرز

لا يزرع الأرز (Oryza Sativa) إلا فى الجزء الشمالى من مصر السفلى الواقع بين البحيرات التى تحيط بساحلها وبين خط مستقيم يقتسم الدلتا من الرحمانية على الفرع الغربى للنيل حتى المنصورة على الفرع الشرقى لهذا النهر . وهذه الأراضى مخصصة لزراعة هذا المحصول، حيث قلما يهبط مستوى منسوب النيل هناك بالقرب من مصبه ، فى موسم المياه الواطئة ، إلى أكثر من متر أو متر ونصف المتر عن مستوى المنسوب العالى الذى يبلغه خلال فترة فيضانه ، بحيث يكون ميسوراً هناك بأفضل مما هو فى أى مكان آخر أن تعطى لحقول الأرز نوبات الرى الدائمة التى تحتاج إليها .

وتتم نوبات الرى بواسطة الدواليب ذات الأسنان (الساقية) والتى تقام على محرور (خزان مياه) مستطيل الشكل تصل إليه مياه النيل أو الترع بواسطة إحدى الحفرات .

وفى ضواحى دمياط ، تلزم فى العادة ثلاثة من هذه الدواليب لرى مساحة تبلغ عشرة فدادين وحيث أن مستوى (سطح) منطقة رشيد أقل (من أراضى دمياط) ارتفاعا عن مستوى مياه النهر ، فإنه تكفى واحدة من هذه الماكينات لرى نفس العدد من الأفدنة والتى تبلغ (مساحتها) بالنسبة لمساحة مثيلاتها فى دمياط ، فضلا عن ذلك ، نسبة حوالى ٦٠ إلى ٧٠ ، وتبعاً لصغر أو كبر قطر هذه السواقى ذات الأسنان ، فإنه يستخدم ثور أو ثوران لتشغيلها ، وتحتاج السواقى الصغيرة إلى أربعة ثيران ، أما الأخرى فتحتاج إلى ستة من الثيران لخدمتها اليومية

وحيث أدى أحد الأوبئة التى اجتاحت الماشية عام ١٧٨٤ إلى تقليل عدد هذه الثيران بشكل كبير ، فقد بدأ الناس فى هذه الفترة ، يحلون الجاموس محل الثيران فى أعمال الرى ، ومنذ ذلك الوقت ظلت الجاموس تستخدم فى هذا الغرض .

ويراقب حركة ماكينات الرى ، رجلان يتناوبان العمل ، كما يعنيان فى نفس الوقت بالثيران أو الجاموس التى تعمل فيها .

ويقوم الزراع الذين يقيم عندهم هؤلاء الأجراء بإطعامهم ، ويعطونهم زيادة على ذلك ٥ أو ٦ بوطاقات ، مكافآت سنوية .

ويبذر الأرز عند بداية شهر أبريل ؛ وقبل وضعه فى الأرض ، تملأ قفف منه وتغمر لمدة خمسة أو ستة أيام فى النيل أو فى واحدة من الترع المتفرعة عنه ؛ وبعد أن تتشرب البذور القدر الكافى من المياه ، تبسط على حصر ، وتشكل منها أكوام يغطونها بالعتب ؛ وتسرع الحرارة المتولدة عن ذلك بعملية الانبات ؛ وبعد أن يكون الجنين (القمة النامية) قد نما بشكل كاف ، يوضع الأرز فى الأرض (يبذر) .

أما الأرض المخصصة لاستقبال البذور ، فتظل فى البداية مغطاة بالمياه لعدة أيام ، وتحرث بعد ذلك فى اتجاهين مختلفين ، يتقاطع أحدهما مع الآخر بشكل عمودى ؛ ثم تحرث للمرة الثانية وتغمر بعدها بالمياه ، ثم يمرر فوقها ، بقصد تسوية سطحها ، جذع من النخيل ، يجر بشكل أفقى ؛ وتنظف الأرض بعد ذلك بواسطة ما يشبه الشوكة ؛ وفى هذه الحالة تكون الأرض بعد موحلة ، ويبذر فيها الأرز وهى لا تزال على هذه الحال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الأردب المستخدم فى كيل الأرز فليس على الاطلاق هو نفس أردب القاهرة ؛ بل إن أردبى رشيد ودمياط يختلفان فيما بينهما فى التسمية وفى السعة.

وتبلغ نسبة أردب رشيد إلى أردب القاهرة ما قيمته ١٣ إلى ١٢ ؛ فى حين أن أردب دمياط والمنزلة ، وهو الذى يسمى ضريبة ، يبلغ ما قيمته ٣٦ إلى ١٣ بالنسبة لأردب القاهرة .

وفى دمياط وضواحيها ، يبذر $\frac{٣}{٨}$ من الأردب من الأرز لكل فدان مساحته ٦٨٧٧ متراً مسطحاً ؛ وعلى هذا فإنه يستخدم فى مساحة معطاة (بعينها) كمية من البذور تعادل ضعف كمية بذور القمح التى تستخدم فى نفس هذه المساحة . وإن كان جزء من أعواد الأرز التى تنتج عن هذا البذر ينبغى لها أن تستزرع مرة أخرى فى مكان آخر ، كما سنذكر بعد قليل .

وبعد ثمانية وأربعين ساعة من البذر ، تغمر الأرض بمياه يبلغ علوها نحو خمسة سنتيمترات وتترك المياه فيها لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، تصرف بعدها لتستبدل بها مياه جديدة ، تظل هناك لنفس المدة ، وتتكرر هذه العملية حتى الحصاد . وبعد حوالى عشرين أو ثلاثين يوماً من البذر ، تبعاً لما إذا كان نمو النبات أكثر أو أقل سرعة ، يبدأ الناس فى عزق حقول الأرز ، ويعنون بتنظيفها على هذا النحو كلما تكاثرت فيها أعشاب غريبة .

وتتم عملية نقل شتلات الأرز عند نهاية شهر يولية . وتحدث هذه العملية فى العادة بالنسبة للأراضى التى سبق أن كانت مزروعة بالقمح ، والتى لم يكن قد سبق حصادها بعد وقت بذر الأرز .

وتحرث الأرض التى ينبغى أن تنقل إليها شتلات الأرز بواسطة المحراث أو تعزق بالفأس ، وتروى بعد ذلك ثم تسوى بواسطة جذع نخلة ، مثلها مثل الأراضى التى تعد لبذر الأرز . وبعد ذلك ينقل حوالى نصف السيقان التى ينتجها الحقل المبذور بالأرز إلى حقل بنفس المساحة أعد لهذا النحو . وهذا هو السبب فى أن كمية بذور هذا النبات ، التى تبذر فى الفدان الواحد تبلغ حوالى ضعف كمية القمح التى كان يمكن أن تبذر فيه .

وفى معظم المناطق التى يزرع فيها الأرز ، تكون الحقول التى ينقل إليها الأرز غير بعيد عن الحقول التى توفر شتلاته ؛ وإن كان الأرز الذى يزرع فى المنزلة يأتى عادة من فارسكور ، وهى قرية تقع على شاطئ النيل ، على بعد فرسخ واحد إلى الجنوب من دمياط . وتحمل شتلات الأرز على قوارب تنقله عبر البحيرة حتى المنزلة ؛ وتكفى حمولة القارب لتغطية فدان واحد ، وفى العادة يبلغ ثمن النبات تسليم المنزلة ٢٠ إلى ٢١ بوطاقة ؛ وبعد ذلك ينقل نبات الأرز على ظهور الحمال ابتداء من نقطة نزوله من القارب إلى الحقل الذى سيزرع فيه .

ويدفع مقابل عملية زرع الشتلات فى كل فدان بوطاقة ونصف بوطاقة . ويتم اقتلاع وشتل الأرز فى ولايتى المنصورة ودمياط بواسطة عمال من أبناء البلاد ، لكن عمالا من ولاية بلبيس هم الذين يذهبون فى هذا الفصل للقيام بهذا العمل فى الدلتا وولاية رشيد ؛ وهؤلاء لا يحصلون على أجورهم باليومية ، وإنما يأخذون على عاتقهم اقتلاع وشتل الفدان الواحد بالمقاولة مقابل (أجر) ٥ بوطاقات .

ويحصد الأرز عند حوالى منتصف نوفمبر : وعلى هذا النحو فإن هذا المحصول يمكث بالأرض لمدة ستة شهور ، ويروى خلال الأشهر الأربعة منها ريا صناعياً ؛ ويروى خلال الشهور الثلاثة الباقية عن طريق رى يسهله فيضان النيل (بالراحة) ؛ وهو يحصد كما يحصد القمح ويربط فى حزم صغيرة وينقل إلى جرن حيث تفصل حبوبه عن سنابله بواسطة النورج ، ويستطيع ١٠ إلى ١٢ رجلا أن يحصدوا فى يوم واحد إنتاج فدان ، وحين يقوم بهذا العمل أناس من أبناء البلاد تدفع لهم أجورهم فى شكل حبوب ، فيحصلون على $\frac{٢}{١٦}$ من الضريبة .

أما عمال المنصورة وبلبيس الذين يذهبون إلى رشيد وإلى الدلتا لحصاد الأرز فتدفع أجورهم نقداً : ويعطون ٤ بوطاقات مقابل حصد محصول الفدان وربطه فى حزم ونقله إلى الجرن .

ويمكن أن يدرس محصول الفدان الواحد تحت النورج فى ظرف يوم وليلة بواسطة ثمانية رجال و أربعة ثيران ؛ ويدفع أجر هذا الدرس على الدوام عينا ، أحيانا فى

شكل حزم أرز كما فى رشيد ، وأحياناً فى شكل حبوب كما فى دمياط . ويعطى لكل عامل أربع حزم من الأرز أو $\frac{١}{٣٢}$ من الضريبة من الحبوب .

وتتم تذرية الأرز بنفس الطريقة التى يدرى بها القمح أى بتعريضه للهواء بواسطة ما يشبه مضربا خشبيا ، وإن كان الهواء لا يفصل إلا الأجزاء بالغة الخفة ، ويظل الأرز ، كى يصبح نظيفا على نحو تام ، فى حاجة لأن يمرر فى غربال لعدة مرات ، الأمر الذى يتم فى الطواحين حيث تنزع عن الأرز قشرته .

ويدفع فى مقابل تذرية الأرز $\frac{١}{١٠٠}$ من كمية الأرز المذرى .

ويبلغ متوسط المحصول السنوى للفدان فى دمياط والمنصورة $\frac{١}{٢}$ ٣ ضريبة ، ويلزم $\frac{٣}{٤}$ من الضريبة لبذر وإنبات فدانين ؛ وهكذا يبلغ متوسط نسبة البذار إلى المحصول الناتج فى حقول أرز هاتين الولايتين حوالى ١ إلى ١٨ .

أما فى الدلتا وفى رشيد فيبلغ المتوسط السنوى لإنتاج الفدان ٧ إلى ٨ أرادب ؛ وحيث يتلقى كل فدان بذوراً تساوى $\frac{١}{٢}$ الأردب فإن النسبة بين البذار وبين الحصاد تعادل نسبة ١ إلى ١٦ . وهكذا يمكن النظر إلى كل أراضى مصر الصالحة لزراعة الأرز باعتبارها على نحو ما خصيبة .

ومع ذلك فليس ثمة على الإطلاق محصول يتغير ناتجه على مثل هذا النحو ، فقد أكد المزارعون فى ضواحى دمياط أن ناتج محصوله فى بعض الأحيان لا يزيد على نسبة ٥ إلى ١ (بالنسبة لكمية البذور) فى حين يرتفع فى بعض الأحيان إلى نسبة ٣٢ (إلى ١) .

ولا يهرس قش الأرز مطلقا كما هو الحال بالنسبة لقش القمح ، فهو أكثر سمكا وأكثر صلابة من هذا الأخير ، ولكنه يكسر فقط تحت النورج ، ولا يستخدم إلا وقوداً ، وقبل أن يتداول الأرز فى التجارة ويعرض للاستهلاك ، فإنه يحتاج — وهو لا يزال شعيراً — لأن يبيض : أى أن تنزع عنه قشرته وإليكم بعض التفاصيل حول هذه العملية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعرض الحبوب أولا للشمس لمدة ١٠ إلى ١٥ يوماً ، ثم تمرر بعد ذلك أسفل مدقات أسطوانية الشكل من الحديد الأجوف ، يبلغ علوها ٣ ديسيمترات ويبلغ قطرها ديسيمتراً واحداً ؛ وتثبت كل واحدة من هذه المدقات بشكل عمودى على هيئة مطرقة ذات مقبض يتحرك فى خط رأسى فوق محور حديدى يوضع على مسافة متر من المدق ومدعوم بقوة فوق مرتكزات مبنية . وتنتج الحركة القلابة التى تقوم بها المدقات ، شأنها فى ذلك شأن مطارق الحداد ، نتيجة للضغط الذى تمارسه فوق طرف مطرقتها ، عند الجانب الآخر من المحور ، أربع حدبات تخترق بشكل عمودى شجرة أفقية تستخدم كمحور أو مدار إلى عجلة مسننة تتشابك عموديا بعجلة مسننة أخرى أكبر حجما . ويثبت فى محور هذه العجلة الكبيرة رافعة يعلق بها ثور واحد أو عدة ثيران حسبما إذا كان ينبغى للماكينة أن تحرك مدقين أو كان عليها أن تحرك أربعة مدقات [١] .

وتوجد أسفل هذه المدقات ثقوب أسطوانية عملت فى الأرض على شكل هاونات ، يحتوى كل واحد منها على $\frac{١}{١٠}$ ضريبة من الأرز . ويبعد كل هاون عن الآخر بحوالى المتر ، بحيث يستخدم الجدار الوسيط الذى يتكئ عليه محور دوران المدقات كمسند لظهر العامل الجالس الذى يكون شغلة الدائم هو أن يعيد بيده إلى تحت المدقات حبوب الأرز التى تتباعد عند كل دورة .

وتمر الحبوب فى البداية بهذه العملية لمدة ساعتين ، تكفيان لنزع جزء من القشور عن الحبوب ؛ ولكن حيث تصبح عملية الدوران والطرق ، مع مواصلة هذه العملية على نفس الكومة من الحبوب ، أمراً لا جدوى منه على الإطلاق بسبب هذا الجزء من القشر الذى تم فصله بالفعل عن الحبوب ، فإن الأرز يسحب لتنظيفه للمرة الأولى ، ثم يعاد وضعه تحت المدقات لتمارس الدق عليه لمدة ساعتين ؛ ثم ينظف الأرز من جديد ليتم نفس العمل للمرة الثالثة ؛ وينتهى الأمر بتبييض الأرز وذلك بوضعه للمرة الرابعة أسفل المدقات مع كمية محددة من الملح ، وبعد ذلك يتداول فى الأسواق بالحالة التى نراه عليها .

---

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة التاسعة ، وكذلك وصف الأشكال ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ من هذه اللوحة ، والذى قدمه المسيو جولوا Jollois.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويلزم على الأقل ثلاثون ساعة ليتم تنظيف ضريبة الأرز الشعير بشكل تام وتنتج هذه الكمية ، حين يكون الأرز من صنف جيد ، $\frac{٢}{٣}$ ١ أردب من الأرز الأبيض ، أما إذا كان من صنف أدنى ، فإنها تنتج فقط أردباً ونصف الأردب ، وهكذا نستطيع أن نقدر أن متوسط إنتاج الأردب (*) هو أردب و$\frac{٧}{١٢}$ من الأردب ؛ وعادة ما يقدر إنتاج كل خمسة أرادب من الأرز الشعير بأربعة أرادب من الأرز الأبيض .

ويتطلب استغلال طاحونة (مضرب) ذات مدقين ، وتعمل ليلا ونهاراً ، تشغيل تسعة من الثيران وسبعة من العمال يتبادلون نوبات العمل . وتصل المصاريف اللازمة لإطعام الثيران ولدفع أجور هؤلاء العمال ، وفائدة (ربح) السلفيات الأولية ، وصيانة الماكينة ومنشآتها ، تصل بثمن تبييض ضريبة الأرز إلى ٥ بوطاقات ، أما بالنسبة للأردب فتصل إلى ٣ بوطاقات و ١٥ مديني فإذا أضفنا إلى هذا المبلغ ربح التاجر ، محسوباً على أساس ٢٠٪ فإن ثمن أردب الأرز في السنة العادية ، تسلم مخازن دمياط سيساوى ٢٢ بوطاقة ، وأخيراً ، فحيث أن الجزء الأكبر من الأرز الذى تنتجه مصر مخصص للتصدير ، فإننا نستخلص أن ثمن هذه السلعة الغذائية يزيد أو ينقص تبعاً لنشاط التجارة أو كسادها ، وفى أثناء احتلال الجيش الفرنسى لهذه البلاد ، انخفض سعر أردب الأرز فى رشيد إلى ١٢ بوطاقة .

رابعاً : زراعة الشعير

يعتبر الشعير (hordeum hexastichum) هو أكثر النباتات التى تشيع زراعتها فى مصر ، فهو يزرع فى واقع الأمر ابتداء من جزيرة فيله والفانتين حتى لسان الأرض الذى يفصل بحيرة البرلس عن البحر الأبيض المتوسط .

ومع ذلك فإن الاختلافات فى درجة الحرارة ، فى مثل هذه المسافة الشاسعة ، تؤدى إلى وجود اختلافات بالغة تتناول هذا المحصول سواء فى زراعته أو فى غلته .

(*) كذا فى النص وصحتها الضريبة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى جزر النيل الكبرى ، وعلى شواطئه هبوطا من إسنا إلى إدفو يبذر الشعير عند نهاية نوفمبر ، بعد الزراعة الثانية للذرة : ويبدأ الأمر بحرث الأرض حرثة أولى ؛ وحيث أن هذه الأرض عالية بالقدر الذى لا يسمح بغمرها بشكل طبيعى بمياه النيل ، فإنهم يقسمونها إلى أحواض تغمر بالمياه عن طريق الدلاء (دلو) أو بواسطة الماكينات ذات القواديس (السواق) ، وبعد أن تبلل الأرض بالقدر الكافى تتم عملية البذر : وهناك يستخدم للفدان الواحد نصف أردب من الحبوب .

وفى هذا الجزء من مصر ، حيث تعطى الأرض نفسها بواسطة الرى الدائم ثلاثة محاصيل فى العام ، فإن نفس العمال هم الذين يقومون بكل أعمال الزراعة فى عدد بعينه من الفدادين وفى العادة يتعهد ثمانية رجال ، وعدد مماثل من الأولاد خمسة إلى ستة من الأفدنة .

وتبلغ غلة فدان الشعير فى جزيرة إلفانتين ، وإلى الشمال من إسنا حوالى ٥ إلى ٦ أرادب ، ويمكن أن يرتفع المحصول إلى ثمانية أو تسعة حين تكون السنة مواتية ، وينتج المحصول كذلك عدداً مماثلا من حمولات الجمل من القش المهروس ، ويتراوح ثمن أردب الشعير من ١ إلى ٢ بوطاقة ؛ كما تباع حمولة الجمل من القش المهروس بـ ١٥ إلى ٢٠ مدينى .

ولا يبدأ الناس فى بذر بذور هذا المحصول فى الحقول التى تغمرها بشكل طبيعى مياه الترع المتفرعة عن النيل إلا فى شمال إسنا ؛ ومع ذلك فليس ثمة إلا جزء من أراضى هذه المنطقة هو الذى يتقبل مثل هذا النمط من الزراعة ، فى حين أن هذا المحصول لا يبذر ، وعلى نفس طريقة القمح ، إلا فى الأراضى التى يغطيها الفيضان وذلك إلى الشمال من سهل طيبة وكذلك فى ولايات جرجا وسيوط والمنيا .

وعندما لا تحرث الأرض على الإطلاق قبل عملية البذار – تبلغ كمية البذور المطلوبة للفدان الواحد $\frac{2}{3}$ الأردب وأحياناً الأردب بأكمله . وحين تعد الأرض بحرثة تمهيدية فلا تبذر سوى نصف هذه الكمية . وتتراوح غلة الفدان بين ٦ إلى ١٠ أرادب تبعاً (لظروف)السنين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا تشبه زراعة الشعير البياضى هذه وبشكل تام ، زراعة القمح ؛ ويلزم أربعة رجال كى يحصدوا فى يوم واحد محصول الفدان . ويحصل هؤلاء الحاصدون على أجورهم عيناً ، ويحصل كل منهم على $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب . ويبلغ ثمن الأردب من الشعير عادة بوطاقة واحدة فى ولايتى جرجا وسيوط . وعلى العموم فإن ثمن الشعير فى مصر يعادل نصف ثمن القمح .

ومن جهة أخرى فإننا نجد الرى الصناعى الذى يبدو أمراً لا فائدة منه فى وادى النيل ابتداء من جرجا حتى القاهرة ، نجده شيئاً ضرورياً للغاية فى ولاية الفيوم حيث لا تبقى مياه الفيضان على سطح الأرض إلا لوقت قصير .

وهناك يبذر $\frac{٢}{٣}$ الأردب من الشعير لكل فدان ؛ ويروى المحصول ثلاث مرات أثناء مكوثه فى الأرض ، ويعطى الفدان ٥ أو ٦ أرادب ومثل هذا العدد من حمولات الجمل من القش المهروس .

ويروى الشعير الذى يزرع فى مناطق الدلتا المختلفة ، كما يروى القمح مرتين أو ثلاث مرات ابتداء من بذره حتى حصاده . وتتراوح كمية البذور التى تستخدم لفدان واحد مساحته ٢٤ قيراطاً بين $\frac{١}{٢}$ و$\frac{٣}{٤}$ من الأردب ؛ كما يتراوح إنتاجه كذلك تبعا لظروف المكان إذ لا يبلغ سوى ٣ أرادب فى ضواحى منوف ، وإن كان يصل إلى سبعة بالقرب من طنطا ، وفى بعض الأحيان يرتفع إلى ٨ أو إلى ١٠ أرادب فى ولايتى رشيد والمنصورة . وقش (ساق) الشعير فى الدلتا أقصر من قش القمح . لذلك لا ينتج منه من حمولات الجمل من القش إلا عددا يساوى $\frac{١}{٢}$ عدد أرادب الحبوب التى تغلها مساحة بعينها . وفضلا عن ذلك ، فهو عليق أقل قيمة من قش القمح . كما أنه يستهلك بشكل شبه دائم فى نفس مناطق إنتاجه .

وتنتج بعض أجزاء من اللسان الضيق الذى يفصل بحيرة البرلس عن البحر القليل من الشعير ، وتبذر بذوره فى خطوط خططت بالفأس ، ثم يسوى سطح الأرض بعد ذلك بواسطة جذع نخلة تعمل عمل المشط والأسطوانة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتحل الخاصية الشعرية (القدرة على الامتصاص) التى تتمتع بها الأرض هناك ، التى تجرى تحتها على الدوام المياه العذبة للبحيرة طيلة الفيضان على عمق ضئيل للغاية بالإضافة إلى الأمطار التى يكثر هطولها فوق هذا الساحل - تحل محل الفيضان ومحل الرى الصناعى معاً . وتتطلب زراعة الشعير هذه فى قرية بلطيم ، كما رأينا ، مصاريف ضئيلة للغاية . لكنها كذلك قليلة الإنتاج ، إذ لا تنتج فى العادة إلا ٣ أو ٤ إلى ١ (نسبة المحصول إلى كمية البذور) .

ولا يستخدم الشعير عادة فى مصر إلا لتغذية الخيول . وهو فى ذلك يقوم مقام الشوفان الذى يقدم لها فى بعض أجزاء من أوربا .

ويحصل جزء من الضريبة التى تخضع لها أراضى مصر العليا فى شكل شعير يباع فى أسواق القاهرة ؛ كما يمثل الشعير صادراً بالغ الأهمية فى موانى القصير ودمياط ورشيد .

خامساً : زراعة العدس والحمص والترمس

يعتبر العدس (ervum lens) إنتاجاً خاصاً بتلك المنطقة من مصر ، التى تمتد من إدفو حتى مرتفعات الجيزة ، بما فى ذلك الفيوم ؛ ولا تمارس زراعته لا فى أطراف المنطقة المدارية فى الصعيد ولا فى الدلتا .

ولا تصلح لزراعة العدس سوى الأراضى التى تغمرها مياه ترع الرى بشكل طبيعى ، ولذلك فمساحة هذه الأرض هى نفس مساحة تلك الأرض التى يطلق عليها اسم البياضى ، ولا تتطلب هذه الزراعة إلا قدراً ضئيلا من المجهود .

وفى بعض الأحيان تعطى الأرض حرثة أولية عقب انحسار المياه ؛ ومع ذلك ، فإذا كان الفيضان وفيراً ، وإذا لم تكن الأرض قد جفت بشكل تام عندما يحل وقت البذر ، فإنه يكتفى ببذر الحبوب على الأرض وهى لا تزال بعد موحلة ؛ ويبذر فى كل فدان من $\frac{1}{2}$ إلى $\frac{2}{3}$ الأردب . وتغطى البذور ، وذلك بأن تمرر فوقها قطعة من الخشب يجرها أربعة أو خمسة رجال أو عن طريق إعطاء حرثة ثانية للأرض . ويظل العدس فى

الأرض حوالى أربعة شهور أى أقل من المدة التى يمكثها القمح بثلاثين أو خمسة وثلاثين يوماً ، ويحصد العدس باقتلاع سيقانه وذلك حتى يبذر فى الأرض مع محاصيل أخرى كما يحدث فى الصعيد ؛ أو يحصد (بحش سيقانه) عندما يكون قد بذر وحده كما يحدث فى الفيوم وضواحى القاهرة .

ويلزم تسعة أو عشرة أيام من العمل كى يستطيع عامل واحد أن يقتلع محصول فدان من العدس . ويحزم المحصول فى حزم ، تنقل على ظهور الجمال إلى الجرن حيث تدرس تحت النورج ، كما يحدث للقمح .

ويدرس إنتاج الفدان أربعة رجال وأربعة ثيران يعملون جميعاً لمدة يوم واحد وتتم تذرية وتنظيف العدس بنفس الطريقة التى تتم بخصوص الحبوب الأخرى . وتتطلب هذه العمليات كلها تسعة أو عشرة أيام عمل ، يدفع مقابل كل يوم منها $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب من العدس .

ويستخدم قش العدس الذى يهرس تحت النورج عليقاً للجمال والماعز . ويستخرج منه عادة عدد من حمولات الحمل (من التبن) يعادل عدد ما ينتجه المحصول من أرادب من الحبوب . وتباع الحمولة من هذه السيقان المهروسة بـ ٣٠ إلى ٤٠ مدينى .

ويتغير إنتاج الفدان تبعاً (لظروف) السنين ؛ ويبلغ (عادة) ٦ إلى ٧ من الأرادب ويصل أحياناً إلى ٣ أو ٤ فقط .

وعادة يبلغ ثمن أردب العدس ١٠٠ مدينى وذلك فى مصر العليا ، فى حين أنه يبلغ فى القاهرة وولاية الجيزة ١٥٠ مدينى .

وفى ولايتى سيوط والمنيا تكون هذه الزراعة مجزية أكثر منها فى أى منطقة أخرى ، وبعد ذلك يقل عائدها صعوداً تجاه الصعيد أو هبوطاً باتجاه القاهرة .

وتخضع حقول مصر العليا التى تبذر بالعدس لضريبة تدفع عينا ، ويخزن العدس الذى يحصل فى مخازن بمصر القديمة ، حيث يسحب لتغذية أسواق مصر السفلى أو ليتم تصديره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما العدس الذى يخصص للاستهلك فتنزع عنه قشرته فى العادة ؛ ولا تباع فى أسواق المدن إلا الفلقتان (المصان) من هذه البقول : وهذه الفلقات ذات لون برتقالى بالغ الجمال ، ويكفى لتنقية أو تنظيف العدس على هذا النحو أن يدعك أو يفرك بين رحوين صغيرتين من الصلصال المجفف فى الشمس يبلغ نصف قطرها ٢٥ سم أو ٣٠ سم وتكون الرحاة السفلى ثابتة فى حين تكون العليا وحدها هى المتحركة ، وتدور حول مركزها بواسطة عامل واحد مثل طواحين الخردل . ويبلغ ثقل هذه الرحى المتحركة ، المصنوعة من الصلصال الجاف نحو ٢٠ أو ٢٥ كيلو جراماً .

ويبذر الحمص (Cicer arietinum) ، كالعدس فى أراض عمرتها المياه ، وتتلقى الأرض نفس التجهيزات قبل وبعد البذر الذى يتم مباشرة عقب انحسار المياه .

ويبذر فى الفدان الواحد من $\frac{١٤}{٢٤}$ إلى $\frac{١٦}{٢٤}$ من الأردب من الحمص ، وهو ما يتطلب عادة ثلاثة أيام عمل ، ويبقى الحمص بالأرض لمدة سبعة أشهر ؛ ويقتلع المحصول ثم يدرس تحت النورج ؛ ويمكن لأربعة رجال مع أربعة ثيران أن يدرسوا فى يوم واحد إنتاج أحد الأفدنة ؛ ويحصلون معاً كأجر على $\frac{١٨}{٢٤}$ من الأردب من العدس بما فى ذلك إيجار النورج .

ويتغير إنتاج الفدان المزروع بالحمص تبعاً (لظروف) السنين ؛ وفى مناطق الصعيد التى تكثر بها زراعته ، يتراوح هذا المحصول من ٤ إلى ٨ أرادب ، كما يتراوح ثمن الأردب من ٥٠ إلى ١٣٠ مدينى .

وبالإضافة إلى الاستخدامات اليومية للحمص فى غذاء الفلاحين ، فقد جرت العادة فى القاهرة ورشيد ودمياط وفى مدن أخرى من مدن الدلتا على تحميص حبوبه فوق نار موقدة فى مستوقد واسع ، ويؤكل بعد أن يحمص على هذا النحو .

وينطبق ما سبق أن انتهينا من قوله ، وبلا تحفظ على زراعة الترمس (Lupinus Termis) . ويبذر فى الفدان الواحد منه $\frac{١}{٢}$ أو $\frac{٢}{٣}$ الأردب تبعاً لما إن كان سيوضع فى جورات تحفر باليد أو إن كان سيبذر « على الطاير » على الأرض التى لا تزال بعد موحلة ؛ ويحصد بجزه بعد مرور خمسة شهور . ويلزم عشرة أو اثنا عشر يوماً لحصاد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فدان . وحيث لا يمكن استخدام سيقانه ، التى تكاد تكون ليفية فى تغذية الماشية ، فإنها تستخدم وقوداً ، أو بصفة خاصة فى صنع نوع من الكربون يدخل فى صناعة بارود البنادق فى هذه البلاد ، وتستخلص الحبوب بضرب سيقانه ، بعد أن تكون هذه قد جفت بشكل تام ، بالعصى ؛ وهى ممارسة تعود فى الشرق إلى عصور ضاربة فى القدم ، وتحل فى مصر محل استخدام المدقات .

وتدفع مصاريف زراعة ودرس الترمس عيناً بواقع ١/٢٤ من الأردب لكل حاصد .

سادساً : زراعة الفول

يزرع الفول (Vicia fala equina) بوفرة فى ولايات جرجا وسيوط والمنيا فى أراض تروى بشكل طبيعى .

ويبذر الفول فى بداية شهر نوفمبر دون حرثة تمهيدية ؛ ويلزم أردب واحد ، أو ١ ٣/٢٤ أردب (من البذور) لكل فدان تبعاً لما إن كانت الأرض أكثر أو أقل وحولة . وبعد البذر يقوم خمسة رجال بتغطية البذور وذلك بجر قطعة من الخشب فوق الأرض . ويحصل هؤلاء على أجورهم عيناً بواقع ١/٢٤ من الأردب من الفول لكل منهم .

ويبقى الفول فى الأرض لمدة ثلاثة أشهر ونصف ، ويحصد عند نحو منتصف شهر فبراير ، وتقطع سيقانه ثم تدرس تحت النورج ويلزم أربعة ثيران وأربعة رجال يعملون لمدة يومين لدرس محصول فدان واحد ويحصل كل منهم على ١/٢٤ من الأردب .

وبعد أن تسدد مصاريف الحصاد والدرس على هذا النحو ، يعطى محصول الفدان فى السنوات الطيبة ٧ أرادب من الفول ، فى حين يعطى فى السنوات غير المواتية ٢ إلى ٣ أرادب فقط ؛ ويتراوح ثمن الأردب من ٥٠ إلى ١٠٠ بارة ، ويرتفع إلى ٢ بوطاقة فى الأماكن التى يسهل فيها تصدير هذا المحصول .

وتستخدم سيقان الفول ، التى تهرس تحت النورج ، كعليق للجمال والثيران والماعز . وينتج الفدان عادة ثلاث أو أربع حمولات جمل من السيقان المهروسة (التبن) ، تباع الحمولة الواحدة منها بـ ٤٠ مدينى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى الفيوم وضواحيها ، تعطى الأرض المخصصة لزراعة الفول فى بعض الأحيان حرثة أولية ؛ وحين يبدأ النبات فى الجفاف ، تقتلع سيقانه بدلا من قطعها بالمنجل . وعادة ما يكون محصول الفول أكبر على نحو طفيف منه حين يبذر بينما تكون الأرض لا تزال موحلة .

وبمجرد أن يهبط الدلتا ، تصبح زراعة الفول أقل عطاء ، وتكون نتيجة لذلك أقل انتشاراً . وهو يبذر هناك على الدوام فى خطوط خطتها المحاريث ، وتعلو سيقانه بقدر يفوق ارتفاع سيقان الفول فى الصعيد . ويدفع ٤٠ بارة مقابل اقتلاع محصول فدان واحد ، ثم يترك المحصول ليجف فى نفس مكانه أو يعرض للشمس ، وأخيراً يوضع تحت النورج . ويبلغ إنتاج الفدان ٥ أو ٦ أرادب .

ونادراً ما تمتد زراعة الفول فى مصر العليا إلى ما وراء قوص ، كما لا تمتد فى الدلتا إلى ما تحت (شمال) سمنود . وتصدر منه كميات هائلة إلى الجزيرة العربية عن طريق القصير . كما يصدر كذلك إلى المشرق عن طريق موانى البحر الأبيض المتوسط . وتمون أسواق القاهرة ومعظم مدن مصر السفلى بالفول الناتج عن حصيلة الضريبة العينية التى تحصل من الصعيد .

وفى بعض الأحيان تنزع قشرة الفول الذى يباع فى هذه الأسواق ، كما يحدث للعدس ، بواسطة رحوين صغيرين من الصلصال المجفف يجرش بينهما الفول .

سابعاً : زراعة البصل – البطيخ – الشمام والخضروات الأخرى

يشكل البصل (allium cepa) موضوعاً لزراعة كبيرة فى كل أنحاء مصر على وجه التقريب ، فيما عدا المنطقة المدارية فى ولاية طيبة ، وكذلك فيما عدا الأجزاء الدنيا من الدلتا .

وفى البداية تحرث الأرض ثم تسوى بجذع نخلة ، وبعد ذلك تقسم إلى أحواض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بواسطة **المسوجة** (*) ، وتبلغ تكاليف العمليات المتتالية لإعداد فدان الأرض ٢٠٠ مدينى .

ويبذر البصل بعد القمح والبرسيم وبقية الحبوب التى تبذر فى الأراضى التى تروى بشكل طبيعى . ومن أحل ذلك تشكل ، باستخدام معول صغير ، خطوط صغيرة تلقى فيها البذور . ويمكن لعشرة رجال أن يقوموا بهذا العمل خلال يوم واحد على مساحة قدرها فدان . ويستخدم للبذر $\frac{1}{24}$ من الأردب من البذور يبلغ ثمنها فى العادة ٩٠ إلى ١٢٠ بارة . وفى أثناء نمو النبات يزاد أو يقلل عدد الريات تبعاً لكون الأرض أكثر ارتفاعاً أو أكثر انخفاضاً ، ففى حالة ارتفاع الأرض تكرر الرية كل أسبوع . وتصل مصاريف رى الفدان ، الذى يتم بواقع ست أو ثمانى مرات إلى نحو ٣٠٠ مدينى .

وبعد خمسين أو ستين يوماً من البذر يشتل البصل فى حقل آخر حرث من قبل ثلاث مرات . ويكفى البذر الذى تم فى مساحة بعينها لتغطية مساحة تصل إلى ما يعادلها بـ ١٢ ضعفاً .

ويحصد البصل وهو أخضر كى يستخدم مباشرة كغذاء ، أو يترك ليجف على ساقه (فى الحقل) كى يباع فى الأسواق ، وهو يبلغ درجة النضوج عادة بعد ثمانين أو تسعين يوماً من شتله ، ويلزم ١٥ إلى ٢٠ يوم عمل لكى يتمكن عامل واحد من حصاد محصول فدان ، ويدفع مقابل كل يوم عمل ٦ بارات فى ولاية سيوط .

وينتج الفدان من ٢٠ إلى ٣٠ أردباً من البصل ، يباع الأردب الواحد منها عادة مقابل بوطاقة (واحدة) فى ولاية سيوط والمنيا ، ويصل إلى ٢ بوطاقة فى ضواحى قنا . ولا ينتج هذا التفاوت فى الثمن فقط لأن مصاريف الزراعة فى قنا تزيد عن نظيراتها هناك ، بل كذلك لأن هذا البصل يصدر من هناك بكميات ضخمة إلى الجزيرة العربية عن طريق القصير .

(*) لعلها هى التانة التى تصنع الحدود بين الأحواص والتى يطلق على الواحد من هذه الحدود اسم التن (المترجم) .

وعلى الرغم من أن البصل المصرى قد فقد بعض شهرته فإنه أكبر حجما من البصل الذى تنتجه أوربا ؛ كما أنه حلو المذاق لدرجة يؤكل معها نيئا دون أى تتبيل . وهو يستخدم ، كما كان يستخدم فى الماضى ، فى غذاء سكان الريف ، الذين يحتمل أنهم كانوا سيزرعونه بكمية أكبر لو أن زراعته كانت تتطلب سلفيات أقل .

وتدفع الضريبة العقارية المفروضة على الحقول المزروعة بالبصل ، نقداً ، وتصل إلى ٦ أو ٧ بوطاقات (ريالات) للفدان الواحد .

وهناك محصول غذائى آخر بالغ الوفرة فى كل أنحاء مصر ، هو البطيخ أو شمام الماء (Cucurbita Citrullus) .

ويزرع هذا المحصول فى الجزر أو على حواف النيل التى تظل مكشوفه خلال فصل المياه الواطئة أو التى تغرقها المياه أثناء الفيضان . وتتشكل هذه الحواف منحنيات بالغة الانحدار ، يتكون سطحها من رمل ناعم للغاية . وتعمل فيه حفرات مثلثة الشكل يبلغ طولها المتر بعرض يبلغ ٢ ديسيمتر (٢٠ سم) ، وبعمق يكفى لتمكين المياه الآتية من باطن الأرض أو تلك القادمة من النيل من أن تبقى على الرطوبة اللازمة فى هذه الحفرات . وتوزع هذه الحفرات فى خطوط موازية لمجرى النيل ، وتبعد كل منها عن الأخرى بنحو المتر . وحيث يكون بمقدور الريح أن تنقل بسهولة هذا النوع من التربة ، وحيث من الممكن لهذه الرمال المتحركة أن تردم نباتات البطيخ وهى بعد صغيرة ، فإن الزراع يوقفون هذه الرمال بواسطة سياج صغيرة من جذوع حافة توضع بشكل اعتراضى (بالعرض) بالنسبة لخطوط البذور ؛ ويشكل الرمل الذى يتكدس بظهر هذا السياج نوعاً من الوجاء يحتمى خلفه ساق النبات من لهيب الشمس .

وينتج كل نبات فى العادة ثلاث أو أربع ثمرات ، تباع الواحدة منها بـ ٤ إلى ٥ مدينى .

وفى بعض الأحيان يبذر البطيخ فى الأراضى الواطئة التى تحف بالترع الداخلية عوضاً عن بذره على حواف النيل ، فتصنع فى هذه الأرض عند نحو بداية فبراير

جورات تبعد كل منها عن الأخرى بمتر ، ويبلغ عمقها حوالى ٢ ديسيمتر (٢٠ سم) ، ويوضع فيها ملء اليدين من زبل الحمام ، الذى يترك مكشوفاً لمدة ثمانية أو عشرة أيام ، يتم البذر فى نهايتها . ويلزم لبذر الفدان $\frac{١}{٤٨}$ من الأردب من البذور مما يكلف نحو ٢٠ بارة . ويستطيع عشرة رجال أن يتموا هذا العمل فى ظرف يوم واحد . ويمكن أن تصل قيمة إنتاج الفدان الواحد إلى ٣٠ بوطاقة ؛ وإن كانت لا تبلغ فى بعض الأحيان سوى ١٢ أو ١٥ بوطاقة .

ولعل زراعة البطيخ ، التى تدخل على الدوام فى عداد تلك الزراعات التى يطلق عليها اسم **الدميرى** ، هى الوحيدة التى تناسب لسان الأرض الذى يفصل بحيرة البرلس عن البحر . ويصنع سكان قرية بلطيم ، المبنية على مثل هذه الأرض ، جورات صغيرة يبلغ عمقها نحو ٢٠ إلى ٢٥ سم ؛ الأمر الذى يسمح بالوصول إلى مستوى منسوب المياه العذبة التى تجرى خلال الشتاء من البحيرة إلى البحر مارة تحت سطح هذه الأراضى الرملية ؛ ويضع الناس فى قاع هذه الجورات ، كما يحدث فى مصر العليا ، زبل الحمام ويبذرون بذور البطيخ ، وحين تصل الثمار إلى درجة النضوج ، تنقل إلى الاسكندرية ورشيد ودمياط ، بواسطة صنادل تأتى إلى بوغاز البرلس للحصول على حمولات منها ، أو ينقل البطيخ بواسطة قوارب أصغر إلى سمنود والمحلة الكبيرة والمنصورة ، وإلى أماكن أخرى فى الدلتا . وتصل هذه القوارب عادة من داخل البحيرة إلى الفرع الشرقى للنيل صاعدة الفرع السبنيتى القديم .

وقد يكون علينا الآن أن نتحدث عن بعض النباتات الأخرى ، التى توفر للسكان فى كل أنحاء مصر ، وفى كل فصول العام طعاماً يتفاوت مقدار الطلب عليه ، مثل البامية (Hibiscus Esculentus) ، والخيار (Cucumis Olitorius) واللذين يبذران مرتين فى العام ، مرة فى شهر مارس وأخرى فى شهر يولية ، والملوخية (Corclrorus Olitorius) ، التى تزرع بالمثل فى فترات مختلفة ، لو لم تكن تعد مثل هذه الزراعات منتجات بساتين أكثر منها محاصيل زراعية ، وسنكتفى هنا بالقول بأن الأراضى المخصصة لهذه الزراعات الصغيرة التى تتطلب أعمال رى متواصلة ، تقسم إلى أحواض بواسطة جسور صغيرة ، تعمل فى قممها الجداول التى توصل المياه إلى كل واحد من هذه الأحواض .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويتج فدان السامية فى ضواحى قنا ما يقدر نقداً بـ ٩٠ إلى ١٢٠ مديى فى اليوم الواحد لمدة ثلاثة شهور . وعندما تنضج الملوخية ، تستمر الحشات التى تؤخد من نفس الحقل وتتحدد لمدة شهر ونصف الشهر . وفى خلال هذه الفترة الزمنية يمكن أن يصل الإنتاج اليومى للفدان الواحد إلى ٩٠ أو ١٠٠ مديى .

وفى العادة ، تحاط الحقول المزروعة بمحاصيل الخضار بصفوف من القصب ، والقرطم أو بأسوار صغيرة من سيقان الذرة الجافة .

ويدفع الفدان الذى يستغل على هذا النحو ضريبة تصل إلى ٥ أو ٦ بوطاقات (ريالات) فى العام .

ثامناً : زراعات البرسيم – والحلبة – والجلبان – والبسلة

البرسيم (Trifolium alexendrinum) هو العليق المفضل ، والذى تنتشر زراعته عموماً فى مصر ، حيث لا توجد ، كما هو معروف ، مراع طبيعية ، وقلما تمتد هذه الزراعة ، التى تخصص لها مساحات كبيرة من أراضى الدلتا ، إلى ما وراء فرشوط فى الصعيد ، إذ أن الأراضى التى تغرقها مياه النيل هناك تجف بسرعة شديدة حالما تنحسر المياه عنها ، ولأن الرى الصناعى الذى لابد منه لضمان نبات المحصول ، يصبح هناك باهظ التكاليف .

ويبذر البرسيم على الدوام بدون أية حرثة تمهيدية ، فى أراض تغمرها المياه بشكل طبيعى . ويتطلب هذا البذر ، الذى يتم بينما لا تزال الأرض بعد موحلة ، $\frac{1}{3}$ أردب من هذه البذور لكل فدان . وتغطى هذه البذور عادة بواسطة جذع شجرة يجرها الثيران أو الرجال .

وتتم الحشة الأولى من البرسيم بعد البذر بنحو أربعين أو خمسة وأربعين يوماً ، ومبكراً عن ذلك بقليل فى جرجا وفرشوط ، إذ يتم نموه هناك بشكل أسرع . وتباع هذه الحشة الأولى من البرسيم عادة بـ ٨ بوطاقات لمحصول الفدان الواحد فى ولايتى سيوط والمنيا .

وبعد ثلاثين يوماً تتم الحشة الثانية ، وتباع بـ ٤ أو ٥ بوطاقات .

وعندما يراد حصاد بذور البرسيم ، لا تتم سوى حشة وحيدة من هذا العليق ليتم استهلاكها وهى خضراء ، وتترك الحشة الثانية لتتم على ساقها . ثم تنقل هذه إلى حرن حيث تطؤها أقدام الثيران . ويتكلف حصاد الفدان ودرسه ٧٥ مدينى ، ويستخلص منه أردبان من البذور ، يتراوح ثمنها بين ٢٠٠ إلى ٣٦٠ مدينى .

وحيث يكون الرى الصناعى أكثر سهولة فى الفيوم عنه فى بقية مناطق مصر ، فإن حقول الذرة تبذر بالبرسيم قبل حصاد الذرة بشهر . ولا يبذر سوى $\frac{1}{4}$ أردب للفدان ، الأمر الذى لا يتطلب سوى $\frac{1}{2}$ يوم عمل يقوم به واحد من العمال المستخدمين فى الرى ، ويكون نبت البرسيم سريعاً لحد تتم معه الحشة الأولى بعد قطع الذرة مباشرة . وإذا تم استهلاك البرسيم وهو قائم (أى دون حشة من الأرض) ، فإن بمقدور فدان من البرسيم أن يغذى ثورين لمدة شهر .

وبعد الحشة الأولى ، يروى البرسيم خلال فترة عشرين إلى خمسة وعشرين يوماً ، على مرتين متباعدتين . ويكفى هذا الوقت لحلول موعد الحشة الثانية التى تكون على الدوام أقل عطاء من الأولى . وفى بعض الأحيان تستخلص البذور من الحشة الثالثة ؛ وعندئذ يرتفع إنتاج الفدان إلى $\frac{1}{2}$ ٢ – ٣ أرادب من البذور ؛ ولكن عندما يكون الفيضان مواتياً ، فإن الحشة الثالثة تستهلك هى الأخرى وهى خضراء ، وتستخلص البذور من الحشة الرابعة التى لا توفر بالنسبة لكل فدان سوى $\frac{1}{2}$ ١ أردب .

ويبيع المزارع البرسيم الذى يغطى أرضه قائماً وذلك حين لا تستهلك ماشيته هذا البرسيم . ويتراوح ثمن القيراط أو $\frac{1}{24}$ من الفدان بين ٣٠ إلى ٣٥ مدينى .

وتنتشر زراعة البرسيم كثيراً فى ولاية الجيزة ، على مشارف القاهرة . ولا يشكل إعداد الأرض هناك أية خصوصية ملحوظة ، وإن كانت كمية البذور التى تبذر هناك فى مساحة بعينها تصبح أكبر منها بكثير فى مساحة مماثلة فى الصعيد والفيوم ، إذ يبذر هنا أردب لكل فدان واحد ، ويبلغ ثمن الأردب ٦ بوطاقات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتتم الحشة الأولى للبرسيم بعد ستين يوماً من البذر ، وتتم الثانية بعد ثلاثين يوماً من إتمام الأولى ، ثم الثالثة أخيراً بعد الثانية بأربعين يوماً . وعلى ذلك فإن إنتاج البرسيم يتم حصاده فى مسافة زمنية تبلغ نحو أربعة شهور ونصف ، وتباع الحشتان الأوليان لفدان واحد بـ ٢٤ بوطاقة .

وإذا كان الفيضان ضعيفاً ، فلا يحش البرسيم إلا مرتين ؛ ويحتفظ بالحشة الثانية لإنتاج البذور . ويستخلص عادة ٤ أرادب من البذور من الفدان الواحد وذلك إما بدرس المحصول وهو جاف تحت النورج ، أو بضربه بعصى طويلة (مساوق – مسوقة) .

وحيث تستهلك فى القاهرة كميات كبيرة من هذا العلف فى تغذية الخيول والحمير ، فإن الجزء الأكبر من المحصول الذى يزرع فى ضواحى القاهرة ينقل إليها وهو أخضر على ظهور الجمال ليستهلك يوماً بيوم خلال الموسم ، وفى بعض الأحيان تجفف الحشات الثلاث المتوالية من حقل البرسيم ، وتخزن ليتم استهلاكها وهى على هذه الحال خلال الصيف .

وفى الدلتا ، حيث يخصص البرسيم لغذاء الثيران من البقر والجاموس فإنه يؤكل وهو فى حقله (دون حشه) . وتدخل المواشى الحقل بعد ستين يوماً من عملية البذر . ويؤجر الفدان من هذا المرعى بواقع ٥ إلى ٦ بوطاقات ؛ ويمكن أن يبدأ فى استهلاك الحشة الثانية بعد ذلك بثلاثين أو أربعين يوماً ، وفى الفترة التى تفصل بين الحشة الأولى والحشة الثانية ، يقوم أولئك الذين يرعون ماشيتهم فى هذه الحقول بريها . وفى ولاية منوف ، يقدر أن ثورين يمكنهما أن يأكلا فى اليوم الواحد $\frac{1}{24}$ من الفدان .

وهنا ، تكون كمية البذور المستعملة أقل منها فى أى مكان آخر ، حيث لا تبلغ سوى $\frac{1}{6}$ أردب للفدان الواحد ، وحين يراد الحصول على بذور هذا العليق لا يرعى الحقل إلا مرة واحدة ، وبالإضافة إلى ذلك فإن البرسيم لا يرعى إلا بعد البذر بشهرين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قلنا إن البرسيم يبذر فى بعض الأحيان فى مصر العليا مع الذرة ؛ وهو كذلك يبذر فى مصر السفلى مع الذرة الشامية وقبل نضوجها بشهر ، وينمو نبات البرسيم الصغير فى ظل السيقان الطويلة للذرة الشامية ، ويستفيد من الريات الأخيرة التى تعطى لها . ويؤجر فدان بذر على هذا النحو ، ولمدة أربعة شهور بـ ٥ إلى ٨ بوطاقات . ويقدر فى طنطا أن روحاً من الثيران يمكنه أن يعيش على محصول فدان ونصف الفدان طيلة هذه المدة ، بواقع ¾ فدان لكل رأس ؛ كما يقدر بأنه يلزم فدان كامل من هذا العلف لإطعام ثور الجاموس (خلال نفس المدة) .

ومع النزول (الاتجاه شمالا) نحو مصبات النيل . تكون عمليات الرى أيسر وأكثر وفرة ، ويسرع معدل نمو البرسيم فى نفس الفترة ، وهكذا يمكن القيام بأربع حشات فى مزارع أرز رشيد ودمياط ، حيث يبذر هذا العليق بعد حصاد الأرز مباشرة ، بدون أى إعداد ، اللهم إلا الإبقاء على الأرض مغطاة ببضعة سنتيمترات من المياه خلال يومين أو ثلاثة أيام . وتتم الحشة الأولى بعد البذر بشهرين ، وتلى ذلك الحشة الثانية بعد مرور ثلاثين يوماً . أما الثالثة والرابعة فتأتى كل مهمابعد مرور عشرين يوماً من سابقتها على التوالى .

وفى العادة ، يلزم ستة من الثيران لرى عشرة أفدنة من البرسيم ؛ ويخصص لإطعامها ثلاثة فدادين تستهلك وهى خضراء ، ويجفف محصول السبعة أفدنة الآخرين ، ويخزن لإطعام البقر والجاموس خلال جزء من العام .

ويستهلك ثلثا البرسيم الذى تنتجه حقول الأرز فى الدلتا وهو أخضر كطعام للماشية من كل نوع والتى يضطر المزارع للاحتفاظ بها ؛ أما الثلث الأخير فيستهلك وهو جاف .

ويبدو البرسيم الذى ينمو فى مزارع الأرز أقل من حيث مادته الغذائية من برسيم المناطق العليا (الجنوبية) من الدلتا وضواحى القاهرة بسبب سرعة نموه ، الأمر الذى يعود إلى الريات الصناعية التى يفيد منها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الحلبة (Trigonella Fenum Jroecum) فهى عليق خاص بمصر الوسطى ، ولا تزرع لا فى المناطق المدارية من الصعيد ، ولا فى الدلتا . وهى تزرع فى نفس الموسم وبنفس الطريقة التى يزرع بها البرسيم . وتختلف طريقة حصادها إذ أنها تقتلع بدلا من أن تحش ، وذلك بعد ستين أو سبعين يوماً من البذر ؛ وبعد ذلك تعطى طعاماً لكافة أنواع الماشية . أما بذورها ، التى يضعونها فى الماء بقصد استنباتها ، فتستخدم كغذاء .

ويبذر $\frac{١٤}{٢٤}$ من الأردب لكل فدان ، ويباع إنتاجه من العليق بـ ٨ إلى ١٠ بوطاقات .

وعندما تترك الحلبة لتبلغ درجة النضوج ولتجف وهى قائمة ، يستطيع خمسة عشر رجلا ، يحصل كل منهم على ستة مدينى ، أن يقتلعوا فى يوم واحد إنتاج فدان . ويستخلص من هذا المحصول ٢ إلى ٥ أرادب من البذور تبعاً لظروف السنين . ويدرس النبات وهو جاف تحت النورج . وتستخدم السيقان التى تهرس عن طريق هذه العملية كغذاء للجمال .

ويزرع فى الفيوم وفى كل أنحاء مصر العليا علفاً آخر يسمى جلبان (Lathyrus Sativrus) وهو يبذر على طريقة البرسيم والحلبة ، فوق أرض غمرها الفيضان ؛ وتجهز الأرض بنفس الطريقة التى تتبع عند بذر العدس ؛ ويلزم $\frac{٢}{٣}$ أردب من البذور لكل فدان .

ويقتلع هذا العليق بعد ستين يوماً ، ويستهلك وهو أخضر . وينتج الفدان الواحد فى العادة من ١٠ إلى ١٥ حمولة جمل ، تباع ككل بـ ٦ إلى ٨ بوطاقات . أما النبات الذى يراد الحصول على البذرة منه ، فيبقى مائة يوم على ساقه ، ويعطى الفدان منه عادة ٥ أرادب . ويدرس هذا العلف وهو جاف تحت النورج . وتستخدم السيقان المهروسة (التبن) غذاء للجمال وحدها .

ويدفع بواقع $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب لكل من العمال الأربعة والثيران الأربعة الذين يستخدمون فى درس محصول فدان واحد ؛ ويدفع بالمثل $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب إيجاراً للنورج . ويباع أردب الجلبان بـ ٩٠ إلى ١٥٠ مدينى .

ومع صعود النيل (الاتجاه جنوباً) يلاحظ أن سعر هذا العلف يزيد ؛ ويعود ذلك إلى صعوبة زراعة الجلبان بكميات كافية ، إذ يزرع عوضاً عنه فى ولايتى طيبة وقنا ، أى فى الطرف المدارى للصعيد نبات البازلاء (Pisum arvense) ، ويسمى فى مصر البسلة وهى تسمية نلمح فيها الاسم الذى نطلقه نحن عليها Bisaille أو Piselli D'IEalie . ويبذر هذا العليق ويحمع فى نفس أوقات الجلبان ، كما ينتج على وحه التقريب نفس القدر الذى ينتجه محصول الجلبان ، وعندما يبدأ المحصول فى الجفاف ، يبدأ استهلاكه بأن يقدم للجمال ، والثيران من الأبقار والجاموس ، والماعز ، والخراف .. الخ ؛ ولا تستخدم البسلة مطلقا فى تغذية الخيول . ويخصص حوالى $\frac{1}{10}$ مساحة الأرض التى يزرع بها الجلبان والبسلة لتوفير البذور . الأمر الدى يدعو إلى الافتراض بأن ما ينتجه هذان المحصولان من محاصيل العلف من الحبوب يبلغ ما يقرب من نسبة ١٠ إلى ١ (بالنسبة لكمية البذور) .

وفى الفيوم حيث لا تبقى مياه الفيضان فوق الأراضى إلا لوقت قصير ، تبذر الحلبة والجلبان والبسلة فى حقول الذرة ، وقبل أن تنضج الذرة بأربعين يوماً . وتفيد محاصيل الأعلاف هذه ، على هذا النحو ، من الريات الأخيرة التى تعطى للذرة ، ولا تروى مطلقاً بعد حصادها . ويستخدم أهالى هذه الولاية البسلة كمحصول غذائى .

تاسعاً : زراعة السلجم - الخس - السمسم

يزرع فى ولايتى سيوط وجرجا نوع من اللفت يسمى السلجم (Brassica arvensis) تستخدم بذوره فى إنتاج الزيت . ويبذر السلجم فى الأراضى التى تغرقها مياه الفيضان بشكل طبيعى عقب انحسار المياه مباشرة . ويتم هذا البذ ر الذى يستعمل فيه $\frac{1}{24}$ من الأردب للفدان ، على الطائر خلال يوم واحد وعلى يد عامل واحد .

ويبقى السلجم فى الأرض ثلاثة شهور ؛ ويبلغ نضجه بعد هذه المدة ويتم حصاده باقتلاع النبات ، ويتطلب ذلك عشرة أيام عمل للفدان ، يدفع عن كل يوم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منها ٧ مديني ، وهو كذلك نفس الأجر الذى يعطى للعمال الذين يدرسون السلجم ليستخلصوا منه البذور ، ويتم هذا الدرس باستخدام عصى طويلة فوق جرن أعد لهذا الغرض . ويلزم عشرة رجال لكى يدرسوا فى يوم واحد محصول الفدان .

ويتم تذرية البذور وتنظيفها على نحو ما يتم بالنسبة لبقية الحبوب ، ويدفع فى مقابل هذه العملية بواقع ٢/٢٤ من الأردب للفدان .

ويتراوح محصول الفدان من البذور من ٤ إلى ٦ أرادب تبعاً لظروف السنين ، كما يتراوح ثمن الاردب بين ٩٠ إلى ١٥٠ مدينى .

وتستخدم السيقان الجافة لهذا النبات كوقود ؛ وإن كان المزارعون عادة يتركونه فى الجرن كى يأتى الفلاحون الأكثر فقراً ليأخذوه لاستعمالهم .

وفوق قنا (إلى الجنوب منها) ، وكذلك فى الجزء المدارى من ولاية طيبة ، تحل زراعة الخس (Lactuca sativa) محل السلجم . وتبذر بذوره إما مع العدس أو مع الشعير فى الأراضى التى تغمرها مياه الفيضان بشكل طبيعى ، وإما كذلك فى الأراضى التى تزرع بالذرة باستخدام الرى الصناعى . وفى الحالة الأولى يخلط ٢/٢٤ من الأردب من بذور الخس مع ٨/٢٤ من الأردب من العدس أو الشعير ؛ وفى الحالة الثانية يبذر ٤/٢٤ من الأردب من الخس فى حقول الذرة قبل حصاد هذا المحصول بنحو عشرين أو خمسة وعشرين يوماً أى فى فترة لا يحتاج خلالها للرى .

ويبقى الخس ، وهو لا يحتاج لأى رى خلال نموه ، ستة أشهر فى الأرض . وحين ينضج المحصول ، تقطع قممه المحملة بالبذور ، ويحمل إلى جرن حيث يبقى النبات معرضاً للشمس لمدة ستة أيام ، يدرس بعدها بنفس الطريقة التى يدرس بها السلجم .

وينتج فدان الأرض الذى تبذر فيه بذور الخس مع العدس أو الذرة أو الشعير من ٢ إلى ٦ أرادب من البذور . ويبلغ ثمن الأردب فى قنا حوالى ٢ بوطاقة .

ويزرع الخس بكثرة فى ضواحى إدفو ، ويبذر فى الفدان الواحد ١/٢٤ من الأردب

من بذور الخس تعطى فى السنوات العادية عائداً يبلغ $\frac{١}{٢}$ ١ أو $\frac{٣}{٤}$ ١ أردب . ويدخل هذا المحصول فى عداد تلك المحاصيل التى يطلق عليها اسم النبارى . ويباع الأردب من بذور الخس فى هذه المنطقة عادة بـ ١٤٠ مدينى .

وفى غالب الأحيان ، يستهلك جزء من سيقان هذا المحصول وهو لا يزال أخضر كعليق ، ويؤدى ذلك إلى إنقاص إنتاجه من البذور بدرجة كبيرة . وفى بعض الأحيان تتغذى الثيران كذلك على الخس الجاف ، وإن كان هذا النبات لا يفضل كثيراً كعليق .

أما السمسم (Sesamum Orientale) ، الذى تستخدم بذوره فى إنتاج زيت الطعام ، فيزرع فى ضواحى قنا ، فى مصر العليا ، وفى كل أنحاء الدلتا على وجه التقريب ، وهو محصول صيفى ، تتم زراعته فى نفس وقت زراعة الذرة والدرة الشامية بعد حصاد الحنطة (القمح) . ويؤدى اختلاف الطقس واختلاف أنماط الرى إلى تنوع أساليب زراعة المحصول فى الصعيد عنها فى مصر السفلى .

وقد حصلت على المعلومات التى أوردها هنا قريباً من قنا . ويبدأ الناس بإعطاء الأرض عدة حرثات تتكلف نحو ١٤٠ بارة (لكل فدان) . وبعد ذلك تقسم الأرض إلى أحواض على النحو الذى يتم به ذلك عند زراعة الذرة ، ثم يبذر $\frac{٢}{٤٨}$ أو $\frac{٣}{٤٨}$ من الأردب من البذور للفدان الواحد ، ويروى الحقل خلال ثلاثة أشهر بواسطة الدلو ، ويقوم نفس الرجال الذين يعهد إليهم بالرى بتنقية الحقل من الأعشاب ، وفى النهاية يقومون هم أنفسهم بحصاد المحصول حين يبلغ درجة النضوج ، وتلزم خمسة أيام لحصاد محصول فدان واحد .

وبعد حصد سيقان السمسم ، توضع فى حزم تعرض للشمس لمدة عشرين يوماً مع إبقائها واقفة وهى مستندة إلى حد متدود إلى دعامات عديدة ، وبعد هذه الفترة ، تهز حزمة السيقان فوق الجرن الذى عرضت للشمس فيه ، فتخرج البذور من السنابل البالغة الجفاف ، ثم توضع الحزم فى الشمس من جديد لينتهى الأمر بجفافها ، وبعد يومين أو ثلاثة أيام ، تهز من جديد لتتساقط منها البذور التى كانت لا تزال فى سنابلها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبلغ متوسط محصول الفدان نحو ٦ أرادب من البذور ، يباع الأردب منها عادة بـ ٥ إلى ٧ بوطاقات . وتستخدم سيقان السمسم ، بعد أن تستخلص البذور منها كوقود .

وإليكم الآن المعلومات التى أعطيت لى عند ضواحى سمنود عن زراعة السمسم فى مصر السفلى .

حيث ينبغى أن تبذر البذور فى الأرض فى أوقات الفصل بالغ الجفاف ، وحيث تتطلب هذه الزراعة مضاعفة الريات الصناعية ، فإنه يتم اختيار المناطق شديدة الاقتراب من السواق . وتبدأ مراحل الزراعة برى الأرض رية كبيرة تستغرق عدة أيام بواسطة هذه الماكينات . وبعد أن تبتل الأرض بالقدر الكافى ، تبذر بذور السمسم « على الطائر » ثم تغطى بواسطة القيام بحرث الأرض . وتبلغ كمية البذور اللازمة للفدان نحو $\frac{1}{24}$ من الأردب .

وبعد البذ ر بعشرين يوماً ، يروى المحصول ريته الأولى . ويتجدد الرى مرة كل عشرة أيام حتى فيضان النيل ؛ وعندئذ يحاط حقل السمسم بجسر صغير تنفذ فيه حسب الحاجة فتحات تدخل منها المياه إلى الأرض المزروعة .

ويبقى السمسم بالأرض لمدة خمسة شهور ، أى حتى نهاية أكتوبر ويتم حصاد محصول الفدان فى يوم واحد بواسطة عشرة عمال يحصل كل منهم على ٨ إلى ١٠ مدينى . وبعد ذلك ينقل هذا المحصول إلى جرن يعد لهذا الغرض ، وهناك يبسط النبات ويعرض للشمس لمدة شهر ، ويعهد إلى ثلاثة رجال بتقليب السمسم على أرض الجرن كل يوم وذلك بقصد تجفيف المحصول من كل جانب ؛ وفى النهاية تستخلص البذور من النبات عن طريق ضرب السيقان الجافة بعصى طويلة ، ويدفع مقابل حراسة السمسم خلال كل فترة تجفيفه فى الهواء الطلق ٧٠ مدينى . ويكلف حصاد وغربلة محصول فدان من السمسم نحو ١٤٠ مدينى ويتراوح ما يغله من البذور من ٤ إلى ٥ أرادب ؛ يباع الواحد منها عادة بـ ٧ إلى ٨ بوطاقات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عاشراً : زراعة القرطم

يشكل القرطم موضوعاً لزراعة منتشرة لحد كبير فى وادى مصر ؛ ابتداء من إسنا حتى القاهرة ، ولا تمتد هذه الزراعة مطلقاً لما وراء إسنا ، كما لا يعمل بها أحد لا فى الفيوم ، ولا فى الدلتا . ولهذه الزراعة غرضان أساسيان : جنى وروده التى تستخدم فى الصباغة ، وجمع بذوره التى تستخدم فى صناعة نوع من الزيت .

ويزرع القرطم بصفة أساسية ، وعلى وجه الخصوص فى ولاية سيوط . وفى بعض الأحيان لا تلقى الأرض المخصصة لزراعته أى إعداد وفى هذه الحالة تبذر بذور القرطم « على الطائر » وفى أحيان أخرى تحرث الأرض حرثة أولى ثم تبذر البذور فى خطوط حددها المحراث ، وبهذه الطريقة يزيد إنتاج المحصول بمقدار طفيف . ويبذر فى الفدان الواحد من ٥ إلى ٧ أرباع « ربع » أو $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب ، من البذور التى ينبغى على الدوام أن تغطى بحرث الأرض « بعد بذرها » . ومع ذلك فإن المزارعين الفقراء يبذرون القرطم كما يبذرون الذرة ، فى حفر صغيرة ، يحرثوها ويغطونها « بالتراب » بأيديهم . ويتطلب بذر الفدان الواحد فى هذه الحالة خمسة عشر يوماً . ويتم هذا العمل فى نفس فترة بذر القمح . ويبدأ جنى زهوره بعد ثلاثة أشهر ، ويمتد موسم الحصاد من أول إبريل حتى ٢٤ منه ، وفى بعض القرى فى ضواحى طهطا يمتد هذا الموسم حتى بداية شهر مايو ؛ ويتم الأمر على يد نساء وأطفال يقطفون كل صباح طوال فترة تفتح الزهور وعند شروق الشمس بتلات « تويجات » الورود التى تفتحت للحد الكافى . ويستخدم عادة لجنى الفدان الواحد من ١٢ إلى ١٥ من هؤلاء العمال ، يعطى لكل واحد منهم من ٢ إلى ٣ مدينى حيث لا يعملون إلا لبضع ساعات . وتبسط البتلات التى جنيت على هذا النحو فوق الحصر لمدة يوم كامل فى الظل . ويتكلف إعداد محصول فدان كامل على هذا النحو أربعين بارة عن كل الوقت الذى يستغرقه الجنى . وعند منتصف موسمه يكون محصول الجنى أكثر وفرة .

وبعد ذلك تدق بتلات ورد القرطم بعصا طويلة فى هاون من الخشب حتى ينتهى بها الأمر أن تصبح نوعاً من العجين ، تشكل منه أقراص صغيرة مسطحة يبلغ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قطر الواحد منها من ١٠ إلى ١٢ سم . وهذا التحويل إلى أقراص والذى يتم يوماً بيوم ، يتطلب عمل رجل لمدة ساعة أو ساعتين . وبعد ذلك توضع أقراص القرطم فى الظل لمدة خمسة عشر يوماً كى تجف ، مما يجعلها تفقد حوالى نصف وزنها . ويبلغ وزن العشرة أو الخمسة عشر من هذه الأقراص بعد أن تصبح يابسة رطلا واحداً . ويتداول تجارياً على هذا النحو باسم : زعفران وعندما يبذر القرطم وحده ، وتكون السنة مواتية ، يبلغ إنتاج الفدان حوالى ثلاثة قناطير من هذه الأقراص ، ويتراوح ثمن القنطار من ٨ إلى ١٥ بوطاقة حسب قلة أو كثرة الطلب عليه من قبل التجار .

ولزيادة وزن أقراص الزعفران ولإعطائها مزيداً من التماسك ، تصحن أحياناً بعض زهور القرطم مع كمية محددة من مسحوق الترمس ويخلط الاثنان بنسبة رطل واحد من هذا المسحوق إلى ١٠ أرطال من الزهور . وهذا الغش الذى يقلل من ثمن الزعفران يمارس عادة فى ولاية جرجا . أما القرطم البالغ النقاء فهو قرطم طهطا الذى ينال لهذا السبب التقدير الأكبر ، ويأتى بعد ذلك قرطم سيوط ، وأخيراً القرطم الذى تنتجه ضواحى القاهرة ، ويباع الأخير بـ ١٨ إلى ٢٠ بوطاقة للقنطار .

وفى حين يبذر القرطم فى إقليمى سيوط والقاهرة غير مخلوط ببذور أخرى ، فإنه يبذر مخلوطاً بالعدس فى إقليمى طيبة وجرجا ، ولا يبذر فى هذه الحالة إلا بواقع ٢/٢٤ من الأردب للفدان الواحد . وهكذا يزرع هذان المحصولان زراعة مشتركة . لكن محصول العدس يتم حصاده قبل جنى القرطم بأربعين يوماً . وفى هذه الحالة يكون إنتاج القرطم أقل منه حين يبذر وحده . فلا يدر الفدان الواحد سوى قنطار أو قنطار ونصف قنطار من الزعفران ، أو على الأكثر يدر قنطارين عندما تكون السنة مواتية لحد ممتاز .

ومدينة سيوط هى المستودع العمومى لكل الزعفران المصنع فى الصعيد ، ويبيعه المزارعون إلى تجار من أبناء هذه المدينة ، يتعاملون فيه بدورهم مع تجار من القاهرة ، ويصدر جزء منه كذلك إلى بلاد العرب عن طريق ميناء القصير .

وزراعة القرطم هى واحدة من أكبر الزراعات إدراراً للربح فى مصر ، ومع ذلك

فحيث يتطلب جنى وروده بعض المصاريف ، وحيث ينبغى تصريفه فى الوقت المناسب فى حين يمكن أن تأتى الطلبيات عليه متأخرة ، فإن فقراء المزارعين لا يزرعونه إلا بقدر ضئيل للغاية ، وهؤلاء يحيطون به حقول البطيخ والخضروات كنوع من الحدود .

وبعد أن تجنى ورود القرطم ، يترك النبات ليجف على ساقه لمدة ١٠ إلى ١٢ يوماً ثم تقتلع بعد ذلك سيقانه التى تستخلص منها البذور بضربها بالعصى ، ويستطيع ١٠ إلى ١٢ عاملا أن يقتلعوا سيقان فدان من القرطم فى يوم واحد ، ويلزم مثل هذا العدد من الأيام لدرسه ولتنظيف بذوره

ويعطى فدان القرطم الذى حنيت وروده فى السنة الاعتيادية من ٢ إلى ٣ أرادب من البذور ، ويرتفع هذا الإنتاج فى بعض الأحيان إلى ستة أرادب عندما يزرع القرطم خصيصا من أجل البذور ، كما يحدث فى ذلك الجزء من مصر العليا الذى يمتد من منتصف فرشوط حتى اسنا . وعلى العكس من ذلك : فعندما يزرع القرطم مع العدس فإنه لا ينتج من نفس المساحة من الأرض سوى أردب واحد أو أردب ونصف الأردب من البذور ، يتراوح سعره تبعاً للجهات التى يزرع بها ، فما يساوى ٢ بوطاقة فى سيوط قد يباع فى أسواق القاهرة بـ ٨ إلى ١٠ بوطاقات .

حادى عشر : زراعة الكتان

حيث لا يكون سطح كل الأراضى التى تغمرها مياه الفيضان بشكل طبيعى على نفس المستوى ، فإنه تخصص أكثر هذه الأراضى انخفاضاً ، والتى تبقى المياه فوقها لمدة أكثر مما تبقى فوق غيرها ، لزراعة الكتان (Linum usitatissimum) . وهو واحد من أهم محاصيل ولايات سيوط والمنيا والفيوم وأعماق الدلتا ؛ وإن كانت تتناول زراعته اختلافات كبيرة تبعاً لظروف الأماكن التى يزرع بها .

ويبذر الكتان فى أولى هذه الولايات فى انقلاب الشتاء . ولا تتلقى الأرض التى تغرقها المياه بشكل طبيعى أية إعدادات ، وأفضل هذه الأراضى (بالنسبة لهذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحصول) هي تلك التي ظلت مغمورة بالمياه لفترة طويلة ؛ وحيث تكون الأرض لا تزال موحلة فإن البذور تغوص فيها لحد لا تكون معه بحاجة لتغطيتها . ويستخدم أردب (من البذور) لكل واحد .

ولا تتطلب الحقول المبذورة بالكتان أية عناية حتى يحين حصاده ، ويتم هذا الحصاد عند بداية أبريل ، أى بعد ثلاثة أشهر ونصف من بذره . وعندما يبلغ النبات مرحلة نضوجه ، فإنه يقتلع باليد ويقسم إلى حزم . ويصل محصول الفدان عادة إلى ٤٠٠ حزمة تشكل حمولة خمسة جمال . ويتطلب اقتلاع محصول فدان من الكتان ثمانية أو عشرة أيام عمل ، يدفع عن كل منها ٧ مدينى .

وتنقل حزم الكتان إلى المكان الذى تفصل فيه بذور الكتان . وتتم هذه العملية عن طريق ضرب الطرف العلوى للحزمة من نبات الكتان بالجانب السفلى لجرة من الطين المحروق تسمى بلاص ، وترقد فوق حزم من الكتان تعلو بنحو متر عن الأرض . وتوضع هذه الجرة وسط سور دائرى صغير ، يتكون من حزم من الكتان ، موضوعة بعضها فوق بعض ، لكى تمنع الحبوب عند خروجها من قمة السيقان من أن تتناثر فى كل اتجاه . ويتكلف استخلاص البذور من محصول فدان واحد ، وبهذه الطريقة ، ٦٠ مدينى . وبمجرد إتمام هذه العملية ، يحزم الكتان من جديد ، ويحمل إلى أحواض على شكل متوازى أضلاع ، يبلغ طول كل جانب منه ١٥ – ٢٠ قدماً ، بعمق يبلغ متراً ونصف المتر ، ومكسو بجدار مبنية من القرميد ، ويقع عادة بالقرب من ماكينة لرفع المياه (ساقية) . وهناك توضع حزم الكتان بشكل عمودى (أى واقفة) ، الواحدة إلى جوار الأخرى ، مع ضمها إلى بعضها بقوة كى لا تحملها المياه التى تدخل إلى هذه الأحواض وهو الأمر الذى يحرص الناس على تجنبه عن طريق تحميل هذه الحزم ببعض الأحجار ، ويخرج الكتان من الماء بعد أن يظل مغموراً به لمدة خمسة عشر أو عشرين يوماً ثم يعرض للشمس حتى يجف بدرجة كافية . وعندئذ تكسر سيقانه عن طريق ضربها بالعصى بعد وضعها فوق حجر ، وبعد هذا يمررونها بين أسنان مشط من الحديد يفصل الشعيرات عن شظايا الساق (المتكسرة) والتى تختلط بها . وبعد هذه العمليات يطرح الكتان للتداول .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتباع الحزم الأربعمائة من الكتان عادة ، والناتجة من محصول فدان واحد ، بـ ١٠٠٠ إلى ١١٠٠ مدينى . ويمكن أن نستخلص منه ، بعد التجهيزات التى انتهينا من وصفها ، نحو ٦٠٠ رطل من الكتان الجاهز للغزل . ويبلغ ثمن الرطل من الكتان فى سيوط وصواحيها نحو ٤ بوطاقات (٥) ، مما يصل بعائد محصول الفدان الواحد إلى ٢٦ بوطاقة و٦٠ مدينى .

ويبدو فى رراعة هذا النبات فى الفيوم بعض الاختلافات ، لأن أراضى هذه المنطقة تحصل على أقل بكثير مما تحصل عليه الولايات والمناطق الأخرى من مصر من مياه الفيضان الطبيعى .

ويبدأ الناس هناك بإعطاء الأرض التى ينبغى أن يزرع فيها الكتان حرثتين وأحياناً ثلاث حرثات باتجاهات متقاطعة ؛ وتسوى الأرض بعد ذلك بتمرير جذع نخلة فوق سطحها . ويبذر الكتان « على الطائر » ولا تغطى البذور على الإطلاق ولكن الحقل يروى على الفور بعد البذر الذى يتم عند انقلاب الشتاء ، وتتكرر عمليات الرى التى تتم بالدلو أو الشادوف كل خمسة عشر يوماً ؛ ويستخدم عادة لرى الفدان الواحد ماكينتان من هذا النوع تعملان عند كل رية لمدة يومين . ومع ذلك فحين يكون الندى أو الطل وفيراً ، فإنه يستغنى عن الرى الصناعى . ولا تحتاج حقول الكتان لأن تغرق وأن تنقى من الأعشاب الضارة خلال المائة يوم التى يبقاها هذا النبات فى الأرض .

ويقتلع الكتان عند نهاية شهر مارس ، وحيث يكون المحصول فى هذه الفترة أقل جفافاً من محصول الصعيد ، فإنه يعرض لمدة اثنى عشر أو خمسة عشر يوماً للشمس بعد حصاده ويعنى الناس بتقليبه لكى يتم جفافه من كافة الجهات بدرجة واحدة ، وتكون منه بعد ذلك حزم تنقل على ظهور الجمال إلى الجرن الذى ينبغى أن

---

(٥) كذلك فى النص وصحتها ٤ مدينى إذ تساوى البوطاقة ٩٠ مدينى ، وبذلك تكون قيمة المحصول على النحو التالى $\frac{٤ \times ٦٠٠}{٩٠}$ = ٢٦ بوطاقة و ٦٠ مدينى . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تستخلص البذور فيه . ويتم ذلك ، كما سبق لنا القول ، بطرق قمة النبات ، الذى يمسكون به باليدين من ناحية جذره ، بجرة من الطين المحروق ترقد بشكل أفقى . ولا تؤدى مطلقاً هذه الطرقات ، التى تفصل السنابل التى تحوى البذور عن السيقان ، إلى إخراج البذور من سنابلها ، وإنما تسحق هذه السنابل بتمريرها بين شقى رحى صغيرة من الصلصال الجاف ، تشبه تلك التى تستخدم عند جرش العدس والفول (لتخليصهما من قشرتهما) .

ويلزم اثنا عشر يوماً كى يتمكن عامل واحد من حصد فدان من الكتان ، وتتكلف عملية الحصاد ٩٠ مدينى ؛ ويكفى رجلان أو ثلاثة رجال لتجفيف وتحزيم محصول الفدان ، ويحصلون مقابل ذلك على $\frac{١}{١٥}$ من هذه الحزم . وبعد ذلك تتكون ربطات تضم كل واحدة منها وتسمى « كرته » ١٢ حزمة تدفع بارة واحدة مقابل تكسير كل واحدة منها . ويبلغ ناتج كل فدان ٤٠ إلى ٥٠ كرته ، تباع معاً بنحو ٢٠٠٠ مدينى . ويتراوح متوسط ثمن الأردب من بذور الكتان بين ٢ إلى ٦ بوطاقات . ويبلغ محصول الفدان منها ثلاثة أو أربعة أرادب .

وبعد تكسير سيقان الكتان وإعادة وضعه فى حزم ، ينقل لكى ينقع ، فى إحدى البرك ، حيث يغمر بالمياه تحت ثقالات من الأحجار يغطى بها ؛ ويبقى الكتان هناك اثنى عشر أو خمسة عشر يوماً تبعاً لما إن كان من المستطاع أو من غير المستطاع تغيير مياهه . وبعد أن تنتهى عملية النقع يجفف الكتان فى الشمس على مرتين مدة كل منهما أربع وعشرون ساعة ؛ وأخيراً ينقل إلى المزارع ، وتكسر سيقانه بضربها فوق حجر وبواسطة مطرقة خشبية ذات رأسين ؛ وبعد ذلك تفصل من شعر الكتان شظايا الساق التى توجد متداخلة بها ، وذلك بضرب هذا الشعر فى الهواء بواسطة عصا كبيرة من الخشب ؛ وأخيراً فلكى يتم تنظيف الكتان بشكل تام ، فإنه يمرر بين أسنان مشط من الحديد ، وفى العادة ، تقوم النساء بهذه العملية الأخيرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعند ضواحي القاهرة يقوم زراع الكتان ببيعه قائماً (وهو فى الحقل) إلى أولئك الذين يجهزونه للغزل . ويصل ثمن محصول الفدان حين يباع على هذا النحو إلى ٤٠ بوطاقة . ويتمثل الاختلاف الوحيد فى وسائل حصاد الكتان فى طريقة حلجه (أى تكسير السيقان) ، إذ يطرق هنا بعصى طويلة قبل نقله إلى المستنقع .

وتخضع زراعة الكتان فى الدلتا لتغييرات عامة يسببها اختلاف الطقس وشدة انخفاض الأرض للزراعات الأخرى .

فقبل البذر ، تحرث الأرض مرتين أو ثلاث مرات فى خطوط متعامدة . وتكلف كل حرثة ١٢٠ بارة ، وبعد ذلك تسوى الأرض وتقسم إلى أحواض لريها ، ويبذر الكتان على الدوام بنسبة $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب لكل قيراط ، أى أردب واحد لكل فدان . ويتم ذلك فى الخمسة عشر يوماً الأولى من ديسمبر ، ويتم الحصاد بعد ذلك بأربعة شهور ، وخلال هذه المدة يروى المحصول ثلاث مرات بواسطة الدلو ، وتستغرق كل واحدة من هذه الريات ثلاثة أيام ، وحيث يكون وقت نمو الكتان هو نفس الوقت الذى تنخفض فيه مياه النيل ، فإن الرية الأولى لا تتطلب سوى ستة عمال ، فى حين تتطلب الرية الثانية ثمانية ؛ والثالثة عشرة رجال . ويبلغ إنتاج الفدان الواحد من البذور فى العادة ثلاثة أو أربعة أرادب ، و١٦ إلى ١٨ ربطة ، تتكون الربطة الواحدة من ٢٤ حزمة .

ويتراوح ثمن الأردب من البذور من ٢ إلى ٧ بوطاقات ، ويبلغ ثمن الربطة المكونة من ٢٤ حزمة ١٣٠ مدينى فى العادة فى زمن السلم . ويصل صافى حصيلة زراعة فدان واحد ما بين ٤٢ إلى ٤٥ بوطاقة .

وفى ضواحى شبين (الكوم) ومنوف ، تنثر على الأرض المخصصة لزراعة الكتان ، بعد أن تحصل على الحرثات اللازمة ، طبقة من السباخ ، وهو سماد يتكون من الأتربة ، ورماد الأفران والأنقاض المكدسة حول القرى . ويستخدم للفدان الواحد ست أو سبع حمولات جمل من هذا السباخ ، تتكلف الحمولة الواحدة ٣ مدينى . ويتراوح الإيجار اليومى للجمل بين ٣٠ إلى ٤٠ مدينى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويصنّع جزء من الكتان الذى تنتجه مصر على يد نساجين من أهل البلاد ، يوجدون بكثرة فى مدن وقرى مناطق سيوط والفيوم والدلتا .

ويصدر جزء آخر فى شكل شعر إلى جزر الأرخبيل . ويتجه إلى هذه الوجهة الكتان الذى تنتجه مصر السفلى بصفة خاصة : وهذا هو السبب فى أن صافى حصيلة هذا المحصول ، والذى قدرناه بـ ٤٢ إلى ٤٥ بوطاقة ، يتناقص فى أوقات الحرب ، وتستخدم بذور الكتان فى إنتاج زيت يستخدم فى الإضاءة .

ولا يشكل القنب موضوعاً لزراعة واسعة فى مصر ، ولا يعتاد الناس هناك على هذا النبات باعتباره صالحاً للنسج ، وتبذر منه كميات بالغة الضآلة على حواف بعض الحقول ليكونوا من أوراقه نوعاً من مستحضر مخدر يقوم مقام الأفيون .

ثانى عشر : زراعة القطن

على الرغم من أننا نجد فى كل أنحاء مصر بعض حقول مزروعة بالقطن ، . فإن بإمكاننا القول إن هذه الزراعة تختص بالمنطقة الأكثر مدارية من مصر لأقصى الجنوب ، وبالدلتا كلها . وتختلف طريقة زراعة هذا المحصول وكذلك ناتجه تبعاً للمناطق التى يزرع فيها .

ففى منطقة طيبة ، يبذر القطن (Gossypium arborescens) على فترتين من العام : الأولى فى بداية شهر أبريل أما الثانية فتتم فى يولية .

وتمهد الأرض أولا بحرثة أو بحرثتين ، ثم تقسم بعد ذلك إلى مربعات (أحواض) يبلغ عددها المائتين فى كل فدان ، ولا يبذر القطن مطلقاً فى داخل هذه المربعات ، التى تزرع عادة بالبامية والملوخية ، ولكن فوق الحدود الصغيرة التى تشكل محيط هذه المربعات ، وتحفر فى هذه الحدود حفرات صغيرة تبعد الواحدة منها عن الأخرى بحوالى المتر ، ويبلغ عمق كل منها ثلاثة أو أربعة أصابع « قراريط » ويوضع فى كل منها أربع أو خمس بذور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما يزرع القطن فى شهر أبريل ، تكون نوبات الرى اللازمة لإنباته أكثر تكلفة ، إذ تكون المياه أكثر انخفاضاً فى هذا الفصل ، الأمر الذى يتطلب وجود ثلاث أو أربع طبقات من الدلو « الشادوف » وتتم هذه الريات لمدة خمسة أيام كل ١٧ يوماً ، ويستخدم لإدارة الدلو رجلان ، وتبلغ يومية الواحد منهما ٨ بارات . ويبدأ جنى القطن المبذور فى أبريل فى شهر أغسطس .

أما إذا زرع القطن فى موسم تزايد مياه النيل ، فلابد أن نستنتج أن ما يلزم من عمل لرى هذا المحصول يكون أقل وإن كان نضجه يتأخر بفعل برد الشتاء . ولا تتم الجنية الأولى إلا فى بداية شهر مارس من العام التالى . وعموماً فقليلة هى الحقول التى تبذر بالقطن فى طيبة فى هذه الفترة .

وفى بعض الأحيان ، يبذر القطن على رؤوس عدد محدود من الخطوط التى تكونت بالفأس داخل هذه المربعات « الأحواض » نفسها ، ويتم البذر بشكل خماسى « أى أربع جورات على الأطراف واحدة فى الوسط » مع ترك مسافة تبلغ المتر بين كل من هذه الجورات .

وينبت القطن بعد أربعة أو خمسة أيام من وضع البذور فى الأرض ، وتتفتح زهور المحصول «بالنوار » بعد مضى خمسة أو ستة شهور ، وبعد تفتح الزهور بتسعين يوماً تتم الجنية الأولى من هذا النوع من النوى « اللوزة » التى تحتوى على القطن الشعر . وهذا الجنى الذى يمتد لمدة ثلاثة أشهر يتم كل يوم بواسطة النساء والأطفال ، وتوضع لوزات القطن لتجف فى الشمس ، وتنزع قشرتها باليد ، ثم تستخرج البذور بعد ذلك من القطن الشعر أو الوبر الذى يحيط بها بواسطة آلة بالغة البساطة ، سنتحدث عنها فيما بعد . وتتطلب زراعة القطن ريات دائمة لا تتوقف إلا خلال أشهر الشتاء الأربعة . وتبعا لما قلناه سابقاً فإنه يلزم ثلاثة أو أربعة طوابق من الدلو « الشادوف » أثناء فترة المحاصيل القيظية وطابق واحد فقط أثناء فترة المحاصيل الدميرى .

وتبلغ تكاليف تجهيزات الأرض قبل زراعة القطن خمس أو ست بوطاقات للفدان الواحد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويزرع القطن فى حقول لا تتجاوز مساحة الحقل منها على الإطلاق ثلاثة أفدنة وفى معظم الأحوال تكون مساحة الحقل فدانا واحدا أو فدانا ونصف الفدان .

وتستمر زرعة القطن الواحدة ثمانى أو عشر سنوات ، وفى أثناء السنتين أو الثلاث سنوات الأولى تزرع البامية والخضروات الأخرى فى المسافات التى توجد بين سيقان القطن . وفى أثناء الست أو السبع سنوات الأخيرة يبقى القطن وحده . ولا يقوم الفلاحون مطلقا بتقليم شجيراته ، بل يكتفون بتجريدها من فروعها الجافة وذلك بتكسيرها باليد حتى تصبح الفروع الجديدة أكثر إنتاجا .

وعلى الرغم من أن شجيرات القطن فى الصعيد تكون قوية ومعمرة وأن زرعة واحدة يمكن لها أن تستمر لمدة عشر سنوات ، فانه مع ذلك تغل أكبر إنتاج لها حتى العام الثالث ثم تبدأ إنتاجيتها بعد ذلك فى التدهور

ويعطى الفدان الواحد فى حالة أقصى غلة له ثلاثمائة رطل من القطن ، ويبلغ ثمن الرطل من ١٠ إلى ١٢ بارة ، ويستخدم قطن مصر العليا فى مصانع منسوجات البلاد ، وينال تقديراً أكبر مما يناله قطن سوريا .

ولا يزرع القطن فى الدلتا إلا كمحصول سنوى ، ولا يبذر إلا فى فترة واحدة من العام ، فى بداية شهر أبريل ، بعد حصاد القمح .

فبعد أن تجف الأرض تماما فى هذه الفترة من السنة ، يغمر الناس الأرض بالماء وبعد ذلك تحرث هذه الأرض ، وتحفر بالفأس حفر صغيرة تترك بين كل واحدة وأخرى مسافة ٢٠ — ٣٠ سم وتبذر البذور فى هذه الحفر . ويتم هذا العمل فى خلال عشرة أيام ويدفع عن اليوم الواحد ١٠ مدينى ، ويبلغ ثمن البذور التى تبذر فى الفدان الواحد ٤٥ بارة .

ويروى نبات القطن ثلاث مرات خلال مدة خمسة شهور ، وتتم الريتان الأوليان بواسطة العجلات ذات القواديس أو ذات الأسنان واللتين تسميان بلا تمييز : « ساقية » وتتم الرية الثالثة بغمر هذا المحصول بمياه الفيضان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبدأ الناس فى جنى القطن فى الأيام الأولى من شهر سبتمبر . ويقتلع النبات بأكمله مليئا بلوزاته ويوضع فى جرن لكى يجف . ويكفى لهذا الأمر عمل أربعة أيام لرجل واحد . وبعد ثلاثين يوماً من التجفيف ينزع القطن من اللوزات التى تحتويه ، وتستطيع ستون امرأة أو طفلا أن يتموا هذا العمل فى ظرف يوم واحد ويدفع لكل منهم – أو منهن – خمسة مدينى ، ويترك لهم بالإضافة إلى ذلك سيقان النبات الجافة .

ويبلغ إنتاج فدان القطن بالقرب من سمنود قنطارا ونصف القنطار ، أو قنطارين ، زنة القنطار ١٢٠ رطلا . ويبلغ ثمن القنطار ١٦ بوطاقة عندما يكون السحر حراً ، ويبلغ ٩ بوطاقات فقط فى أوقات الحرب .

ويتجدد القطن الذى يزرع كل عام فى ولاية المنصورة ، ولكن ، فبدلا من اقتلاع كل سيقان القطن دفعة واحدة وتجفيفها بتركها معرضة للشمس لمدة شهر ، يتم جنى لورات القطن بمجرد نضوجها ، ويستخدم الأطفال فى هذا العمل منذ أول ضوء نهار وحتى بعد شروق الشمس بثلاث ساعات .

ويفصل عن القطن الشعر البذور التى تكون بداخله بواسطة آلة بالغة البساطة وتتكون هذه من اسطوانتين من الخشب المتين يبلغ طولها ٤ ديسيمتر وسمكها من ١٢ – ١٥ ملليمترا ، وتدخل هاتان الاسطوانتان ، وهما متوازيتان فيما بينهما ، وبينهما مسافة فاصلة تبلغ ٢ – ٣ ملليمترات – تدخلان بين رافعتين رأسيتين يبلغ ارتفاعهما $2\frac{1}{2}$ ديسيمتر « ٢٥ سم » ، وهاتان الرافعتان مثبتتان بزاوية قائمة فى لوح يبلغ سمكه حوالى ديسيمتر واحد « ١٠ سم » وتحمل كل واحدة من هاتين الاسطوانتين الصغيرتين فى أحد طرفيها بين الجهة المقابلة مقبضاً صغيرا ، وتدور الاسطوانتان فى اتجاهين مغايرين مثل سلندرات آلة صقل الورق ، وعندئذ تتراجع بذور القطن إلى الخلف ويذهب القطن الوبر إلى الأمام . وإذا ما رأيت هذه الآلة وهى تعمل فلابد أن تتعرف فيها على الفور على أول نمط للاسطوانات التى كان يمرر بينها القطن فى آلات الغزل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثالث عشر : زراعة النيلة

لا ينهض بزراعة النيلة (indigofera tinctoria) عادة إلا ملاك ميسورون أو فلاحون يكونون فيما بينهم جمعية يعملون من خلالها بأنفسهم فى استغلال حقولهم ، وفى صناعة خامة لب صبغة النيلة التى تتداول فى التجارة .

ويبدو أن المناطق المدارية من الصعيد هى أكثر المناطق صلاحية لزراعة هذا النبات ، ذلك أنه على الأقل ، يزرع فى هذه المناطق من أرض مصر بأكثر مما يزرع فى المناطق الأخرى ، وفى نفس الوقت فإن المناطق التى تجود فيها زراعة القمح وتنتجه بوفرة ، مثل ولايتى سيوط والمنيا حيث يغطى فيض المياه الطبيعى مساحات واسعة ، لا توفر من هذا النبات سوى كميات ضئيلة ، شأنها فى ذلك شأن الفيوم . وقد شاهدنا حقول هذا المحصول تتقارب بعضها إلى بعض على نحو كاف وذلك على الشاطئ الأيسر للنيل ، وهبوطا من بنى سويف إلى الجيزة ، ثم تنقطع هذه الزراعة بشكل تام شمال القاهرة وفى مصر السفلى .

وتشكل بداية شهر يونيه الفترة التى تبذر فيها النيلة فى ولايتى جرجا وطيبة ، فتعد الأرض بحرثها مرتين فى اتجاهين متقاطعين . وتكسر قطع الطين التى توجد متماسكة فوق سطح الحقل بعد حرثه على هذا النحو ، وذلك بطرقها بعصى طويلة . وتقسم الأرض بعد إعدادها بهذه الطريقة إلى أحواض مربعة الشكل ، يبلغ طول ضلعها ثلاثة أو أربعة أمتار ، وتفصل كل منها عن الأخرى جسور صغيرة يصل ارتفاع الواحد منها إلى ٢ - ٣ ديسيمتر (٢٠ - ٣٠ سم) .

وتعمل فى داخل هذه الأحواض ، جورات صغيرة ، عمق كل منها نحو أربعة قراريط ، وتبعد كل منها عن الأخرى بـ ١٥ إلى ١٦ سم ، ويوضع فى كل حورة ثلاث أو أربع بذور من بات النيلة ثم تغطى هذه البذور بالتراب ، وبعد ذلك يسوى كل حوض أفقيا بقدر الإمكان بواسطة المسوجة (البتانة) كى تحصل الأحواض على قدر متماثل من مياه الرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتأتى بذور النيلة فى العادة من سوريا ، ذلك أن البذور التى تنتجها مصر أقل قيمة .

وتتكلف الحرثتان اللتان تعطيان للأرض قبل البذر ٢٤٠ مدينى .

وتتطلب زراعة فدان من النيلة عملا متصلا لتسعة رجال ، يستخدمون فى رى الحقل وعزقه (وتخليصه من الأعشاب) ، وبعد أن تتم هاتان العمليتان بالعناية المناسبة يصبح من الممكن عندئذ القيام بالحشة الأولى من نبات النيلة ، وذلك بعد ثلاثة أشهر من البذر ، أى عند بداية سبتمبر .

ويقطع النبات على ارتفاع قيراطين من الأرض ، ويبدأ الناس فى استخلاص اللباب بمجرد إتمام الحصاد . وعلى الرغم من أنه يمكن – عند الاقتضاء – النظر إلى هذا الاستخلاص باعتباره ضرباً خاصاً من ضروب الصناعة ، وأن من المستطاع نتيجة لذلك أن ندخل وصفه ضمن وصف فنون الصناعة ، فإننا نعتقد أن علينا أن نتناوله بالحديث فى هذه الفقرة ، سواء بسبب بساطته ، أو بسبب أنه يتم على يد نفس الرجال الذين يزرعون النبات ويحصدونه .

ينقل هذا النبات بعد أن يقطع على النحو الذى انتهينا من بيانه إلى مستودع صغير مسقوف ، يبلغ طوله خمسة أمتار وعرضه أربعة أمتار ، ثم يخرط ويقطع إلى قطع بواسطة سكينة كبيرة ، ويوضع وهو مقطع على هذا النحو فى جرار كبيرة من الطين المحروق ، يبلغ ارتفاعها ٨ ديسيمترات (٨٠ سم) ويبلغ قطرها ٦ ديسيمترات ، وتغرس هذه الجرار فى الأرض حتى بداية رقبتها ، ويصب على النبات المقطع ماء فاتر حتى ثلثى ارتفاع هذا النوع من الدلاء . . ثم تسد بغطاء يتكون من نسيج من سعف النخل ، أحدث به ثقبان يستخدمان فى إدخال عصوين يحركهما عاملان لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات ، لتحريك قطع النبات واستخلاص المادة الملونة منها .

وتحتوى الورشة عادة على أربع جرار متشابهة تستخدم منها اثنتان فى نفس الوقت للعمل الذى انتهينا من الإشارة إليه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد أن ينتهى العمل ، تنقل المياه المحملة باللباب من هذه الجرار الأول إلى جرار أخرى أصغر حجما ، وموضوعة فوق الأرض ، وتبلغ سعة الجرة منها حوالى ½ سعة الجرة من النوع الأول ، ثم تصفى الأوراق المنقوعة فى دلاء وذلك بأن توضع هذه الأوراق فى أطباق مصنوعة من سعف النخيل موضوعة بدورها فوق هذه الدلاء .

تترك المياه الملونة ساكنة فى هذه الدلاء ، فيترسب اللباب فى القاع . ولكى تتم تصفية المياه (التخلص منها) بمجرد أن تفقد المادة الملونة ، وأن يكتسب اللباب المترسب قدراً من التماسك ، تصنع ثلاثة ثقوب فى جدار الجرة بشكل أفقى ابتداء من حافتها العليا ، يبعد كل منها عن الآخر بـ ١٦ إلى ١٧ سم ؛ وبعد مضى ست ساعات من عملية نقل المياه إلى الجرار الصغرى والتى تحدثنا عنها ، تفتح الفتحة العليا أو الثقب الأعلى لتنسكب كمية محدودة من المياه ، ثم تفتح الفتحتان الأخريان على التوالى ، وبعد ذلك لا يبقى فى قاع الجرة سوى اللباب الذى يكون قد اكتسب قدراً كبيراً أو قليلا من التماسك .

وفى بعض الأحيان لا يثقب جدار الجرة إلا ثقباً واحداً ، على مسافة ٥٠ سم أسفل حافتها العليا ؛ ويترك الإناء ليتم ترسب اللباب أثناء الليل ، ويفتح هذا الثقب فى اليوم التالى لتصفية المياه التى كانت تغطى هذا اللباب المترسب .

وتتطلب أعمال الورشة الواحدة اثنتى عشرة من هذه الجرار المصنوعة من الطين المحروق .

ويجمع فى جرة واحدة اللباب المترسب من ثمانى أو تسع جرار أخرى ، ويترك فيها لمدة أربع وعشرين ساعة ، وفى خلال هذه المدة ، يضغط اللباب بدرجة أكبر ، وفى النهاية تصفى لآخر مرة تلك المياه التى كانت طافية فوق هذا اللباب . وعندئذ تحفر حفرة صغيرة فى الأرض ، وبعد أن يفرش قاعها وجدراها بالرمال ، يصب فيها اللباب الذى تم الحصول عليه ، ويصفى هناك لمدة ساعتين ، وأخيراً وبينما هو لا يزال متماسكاً كالعجين ، فإنه يوضع فى قوالب حيث يجف بشكل تام ، ويتداول فى التجارة فى شكل قوالب جافة يزن الواحد منها رطلا ونصف الرطل أو رطلين ، لكى يستخدمها الصباغون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد الحشة الأولى للنيلة بخمسة وثلاثين يوماً ، تتم الحشة الثانية ؛ وبعد ذلك تأتى الثالثة ، والتى تعقبها هى الأخرى فى بعض الأحيان حشة رابعة ؛ وتتم هذه الحشات المتعاقبة كل منها وراء الأخرى بمسافات زمنية متساوية ، بحيث أنه تمضى منذ بذر نبات النيلة حتى الحشة الأخيرة منها نحو ثمانية أشهر .

ومع ذلك فإن ناتج هذه الحشات ليس متساوياً ، إذ تعود الحشة الأولى عادة بما قيمته ٥٠ بوطاقة عن كل فدان ، وتعود الثانية بـ ٣٨ ؛ والثالثة بـ ٢٥ ؛ والرابعة إذا ما حدثت بـ ١٢ أو ١٥ بوطاقة فقط ؛ وهكذا نرى أن الإنتاج يتناقص على نحو ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ .

ويصل متوسط ثمن رطل صبغة النيلة ، التى صنعت على هذا النحو بيد الفلاحين : ١٦ أو ١٨ مدينى .

وتعطى الحشة الأولى من الفدان عادة نحو ٢٥٠ رطلا من النيلة ، وتستمر هذه الحشة لمدة ١٥ أو ٢٠ يوماً وكذلك الأمر بالنسبة لصنع قوالب اللباب الناتجة عنها . ويكاد يكون الأمر على هذا النحو بالنسبة للحشات التالية .

ويستمر حقل (زرعة) النيلة فى مصر العليا لمدة ثلاث أو أربع سنوات ، لكن أوفر إنتاج لهذا الحقل هو ما تغله السنة الأولى .

وتصل الضريبة التى تفرض على فدان النيلة بشكل عام من ٦ إلى ٨ بوطاقات .

وتبذر النيلة فى ولايتى بنى سويف والجيزة حيث تنتشر بشكل كاف هذه الزراعة ، عند بداية شهر مارس ؛ ولهذا الغرض ، تشق خطوط متوازية ، تبعد كل منها عن الأخرى بـ ٢٥ إلى ٤٠ سم . وخطوات استخراج اللباب هى نفس الخطوات المتبعة فى الصعيد ، ولكن لا تؤخذ من حقل هذا النبات سوى ثلاث حشات فى العام ، كما لا يمكث المحصول فى الحقل سوى سنتين ؛ وهنا تكون الحشة الثانية هى التى تدر العائد الأكبر ، فتوفر بالنسبة للفدان الواحد ١٦٠ رطلا من النيلة يتراوح ثمنها بين ١٢ إلى ١٨ بوطاقة تبعاً لاحتياجات الاستهلاك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا كانت الأراضى التى تزرع فيها النيلة واطئة بقدر يكفى لريها بمياه النيل ، وغمرها بفيضانه ، فإن المحصول يتلف : ذلك أنه ينبغى أن يتم رى هذا المحصول بقدر كبير من العناية والانتظام .

وعلى الرغم من أن الأراضى تصبح ملائمة بدرجة أقل لزراعة النيلة مع اتجاهنا نحو الشمال ، وبمجرد أن يصبح الطقس أكثر اعتدالا ، فقد لاحظت مع ذلك وجود بعض حقول منها فى الدلتا ، على الشاطئ الأيمن للفرع الغربى للنيل .

رابع عشر : زراعة قصب السكر

تصلح كل أراضى مصر لزراعة قصب السكر Saccharum Officinarum ولكن التكاليف الباهظة التى تتطلبها هذه الزراعة لا تسمح إلا لعدد محدود من الأهالى بالانخراط فيها ، وتتركز – كما يمكن القول – فى ولاية جرجا فى أراضى فرشوط وأخميم . أما ما يزرع من قصب فى بقية أنحاء البلاد فلا يستخدم فى صناعة السكر ، ولكن تجمع أعواده فى شكل قطع وتعرض للبيع فى أسواق المدن ، لكى تؤكل أو بمعنى أدق تمص ، كنوع من الفاكهة دون أية تجهيزات .

وتعد الأرض المخصصة لزراعته فى حوالى نهاية مارس وذلك بحرثها أربع أو خمس مرات فى اتجاهات متقاطعة . وعندما تصبح الأرض معدة بشكل كاف عن طريق مرات الحرث هذه ، تخط فيها خطوط متوازية ، وتوضع فيها بشكل أفقى قطع القصب الطازجة ، ثم تغطى هذه بالتراب لارتفاع يبلغ قيراطين أو ثلاثة قراريط ، وبعد ذلك يبدأ الناس على الفور فى رى المحصول بواسطة الماكينات ذات القواديس والسواق .. وتستطيع الواحدة من هذه الماكينات أن تروى ستة أفدنة من القصب إذا عمل عليها اثنا عشر ثوراً ، إذ ينبغى أن يخصص لكل فدان ثوران ، ولابد أن يستمر عمل الرى بلا انقطاع حتى فترة الحصاد الذى يتم بعد الزراعة بأحد عشر شهراً . وينحصر عمل الحصاد فى قطع الأعواد التى بلغت مرحلة النضج من فوق الجذر بقليل ، ويستطيع عاملان « فلاحان » يستخدمان لهذا العمل أن ينتهيا من حصاد فدان فى مسافة زمنية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تصل لمدة خمسة عشر يوماً . إذ يقطعان فى اليوم الواحد ست أو سبع حمولات جمل من القصب .

ولا تبقى قصبات الزراعة فى كل غلتها إلا لمدة عام واحد ، أما أجزاء القصب التى تترك بجذورها فتنتج قمما نامية جديدة تستخدم فى تجديد الشتلات فى العام القادم .

وحيث أن صنع السكر فى مصر يمثل فناً صناعياً فإننا نرجئ الحديث عنه إلى مكان آخر ، ويكفينا أن نقول إن فدان الأرض المخصص لهذه الزراعة ينتج فى العادة عشرين قنطاراً من السكر واثنى عشر قنطاراً من الثفل ويتراوح ثمن القنطار من السكر زنة ١٠٥ أرطال ما بين عشر واثنتى عشرة بوطاقة ، أما قنطار الثفل فيبلغ ثمنه ثلاث بوطاقات فقط .

خامس عشر : زراعة التبغ

أما التبغ nicotina tabacnm فيزرع بشكل خاص فى كل ولايات مصر العليا .

وتبذر بذور هذا المحصول مباشرة بعد انحسار مياه الفيضان . وعندئذ لا تكون الأرض فى حاجة لأية تجهيزات ، وتبذر البذور أحياناً فى الربيع فى نفس موسم الذرة النبارى . وعندئذ يتطلب الأمر حرث الأرض مرة أو مرتين .

ويستخدم لبذر $\frac{1}{12}$ من الفدان « أى مساحة قيراطين » $\frac{1}{24}$ من الأردب من بذور التبغ وبعد أربعين أو خمسين يوماً يصبح النبات قوياً لحد يكفى لشتله « أى زرعه فى حقل آخر » .

وتختار أجود الأراضى لشتل النبات ، وتجهز هذه بحرثتين متقاطعتين وبعد ذلك يمرر جذع نخلة « كزحافة » فوق هذه الأراضى لتسوية سطحها .

وتكلف هذه التجهيزات الأولية ما يصل إلى ٢٥٠ مدينى ، وتبلغ المسافة بين الحفر المخصصة لاستقبال بذور النبات حوالى ثمانية قراريط وهو نفس ما يبلغه عمق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الواحدة منها . ويتطلب الأمر عملا يستمر لمدة ٢٥ – ٣٠ يوماً لتغطية مساحة فدان من التبغ المشتول على هذا النحو .

ويبدأ الحصاد بعد ذلك بشهرين ونصف الشهر وذلك بقطع النبات بشرشرة ويترك جزء صغير من ساقه فوق الجذور . وبعد هذه الحشة الأولى تنمو من نفس الساق فروع جديدة « فسائل » تحش بالمثل بعد مضى ثلاثين يوماً .

وبعد أن يقطع النبات وفسائله على هذا النحو ، تنزع السويقات « الذنيبات » وجوانب أوراق التبغ ، وتعرض بعد ذلك فى الشمس لمدة ثمانية أيام . وبعد أن تجف الأوراق على هذا النحو تحفظ داخل حصر « حصيرة » وأخيراً تشكل منها حزم اسطوانية الشكل تتداول فى التجارة . وتبغ هذه البلاد ، وهو ذو لون ضارب إلى الخضرة ، هو الوحيد الذى يستهلك فى أرياف مصر العليا .

وتتطلب الحشة الأولى لفدان واحد من التبغ من ١٠ – ١٢ يوم عمل ويسدد أجر هذا العمل بأوراق تبغ يمكن أن تساوى من ٨ إلى ١٠ مدينى .

وتنتج الحشة الأولى كذلك عشرين حزمة من الورق المجفف تزن الواحدة منها ٤٠ رطلا . أما الثانية فلا تنتج سوى ست حزم من ذات الوزن وهذا ما يصل بإجمالى إنتاج الفدان إلى حوالى حمولة ثلاثة جمال .

وهناك فى مجال التجارة فرق بين إنتاج الحشتين ، إذ يكون ثمن ما تنتجه الحشة الثانية عادة ، أدنى بمقدار الثلث بالنسبة لثمن إنتاج الحشة الأولى ، تلك التى يباع القنطار منها بنحو ٢٥٠ إلى ٣٠٠ مدينى .

سادس عشر : زراعة أشجار الورد

تأتى ورود كل مياه الورد التى تصنع فى مصر من ولاية الفيوم ، فهى الولاية الوحيدة التى تشكل أشجار الورد فيها موضوعاً لزراعة كبرى .

وفى البداية تنظف الأرض وتجهز بحرثها خمس مرات متوالية ، وبعد ذلك تشق

فيها جداول تقسمها إلى مربعات « أحواض » صغيرة تزرع فى داخلها شجيرات ورد صغيرة تبعد الواحدة منها عن الأخرى بحوالى ٥٠ سم . ولا يكلف ثمن كمية الشتلات اللازمة لزراعة فدان واحد أكثر من ١٠٠ – ١٥٠ مدينى . وتتم هذه الزراعة عادة عند الانقلاب الشتوى وتتطلب أربعين يوماً من العمل . وما أن تنتهى حتى يبدأون فى ريها . وتجدد الرية كل خمسة عشر يوماً على مدار العام كله إلا فى الفصل الذى تكون الأرض خلاله مغمورة بمياه الفيضان .

وتتطلب زراعة أشجار الورد عملا مستمراً لأربعة رجال ، يشتغلون حسب الحاجة ، فى أعمال الرى ، وعزق الحقل وتنقيته من الأعشاب ، أو فى جنى الورود .

ويتم الجنى طوال شهر أبريل وبداية مايو ، ففى كل صباح خلال هذه المدة تقطف نوارات الورد المتفتحة وتستخدم على الفور فى مصانع مياه الزهر . وحيث لا توجد هذه المصانع إلا فى عاصمة الولاية « الفيوم » فإن أشجار الورد لا تزرع إلا فى ضواحى هذه المدينة ، الوحيدة فى الولاية كلها .

ولا تنتج شجرة الورد عادة إلا فى السنة الثانية من زرعها ، ويصل إنتاجها إلى ذروته فى السنة الثالثة وحتى الخامسة وهى السنة التى اعتاد الناس على تجديد شجيرات الورد بعد انتهائها .

ويباع القنطار من نوارات الورود بـ ٦ إلى ٧ بوطاقات ، وأحياناً يصل ثمن القنطار زنة مائة رطل إلى ١٠٠٠ مدينى . ويبلغ متوسط إنتاج الفدان ٨ قناطير من الورد .

سابع عشر : زراعة النخيل والكروم وبعض الأشجار الأخرى

أما شجرة النخيل Phoenix dactylifera فهى الشجرة التى تنتشر بشكل عام فى كافة أنحاء مصر ، وتغطى هذه الأشجار سهولا بأكملها فى الأقاليم المختلفة ابتداء من أسوان حتى البحر المتوسط . وقد تحولت ضواحى مدينة

منفيس القديمة اليوم إلى غابة من النخيل ، كما أن الجزء الشرقى من إقليم بلبيس حيث تقع قرية الصالحية الكبيرة لا يحصد سوى البلح . ويكاد يكون هذا المحصول هو الوحيد للسان الأرض الذى يفصل المتوسط عن بحيرة البرلس ، وأخيراً فإن كل قرى مصر محاطة بأشجار النخيل التى تغطى مرتفعات الأنقاض التى بنيت هذه القرى فوقها . وحيث تحتفظ هذه الأشجار بأوراقها طيلة العام فإن كل قرية ، وبخاصة قرى الدلتا ، تبدو عن بعد كما لو كانت أيكة واسعة .

وفى أثناء إقامتنا فى القاهرة نشرت مقالة مفصلة للغاية فى العشرية المصرية (١) Décade Egyptienne عن زراعة أشجار النخيل ، ولسنا نهدف هنا سوى أن نبين الوسائل العامة المختلفة لمختلف طرق زراعتها وأن نقدم لمحة عن إنتاجها ، ونحن نحيل إلى هذه المقالة للحصول على كل التفاصيل التى ليس من طبيعتها أن تدخل فى مقالنا هذا .

تنمو نخلة البلح عن طريق البذر أو عن طريق شتل الأغصان . وللحصول عليها بالوسيلة الأولى يوضع نوى البلح عادة فى حفر صغيرة يبلغ عمقها ١٥ – ٢٦ سم ، تنفذ فى منتصف أحواض الرى التى قلنا إن الملوخية والخضروات الأخرى تزرع فيها .. وهكذا تستفيد بذور النخيل من الرى الذى يعطى لهذه النباتات . وعندما تبدأ النخلة الوليدة فى الظهور من الأرض بعد مضى ٤٠ – ٥٠ يوماً فإنها تواصل نموها فى حمى الظل والرطوبة التى تهيئها هذه النباتات لها .

وبعد خمس سنوات من وضع نوى البلح فى الأرض تقطع الأوراق السفلى التى تغطى ساق الشجيرة الصغيرة ، وهكذا يبدأ جذعها يتحدد ، ويظل يزيد نمواً وارتفاعاً إما عن طريق سقوط الأغصان القديمة بشكل تلقائى وإما عن طريق القطع السنوى « التقضيب » الذى يتم عند انقلاب الشتاء . وفى نهاية عشر سنوات تعطى شجرة النخيل أولى ثمارها .

---

(١) ملاحظات حول شجرة نخيل البلح بقلم المسيو لوى رينييه .
Louis Reynier D . E Tome III p . 179 .

وعندما تنمو النخلة عن طريق شتل الأغصان ، تبدأ فى إعطاء ثمارها فى ظرف ست إلى ثمانى سنوات .. وتكون طريقة زراعتها فضلا عن ذلك هى نفس الطريقة المتبعة فى حالة استنباتها عن طريق البذور ، وهذه الطريقة تتطلب بالمثل رياً متكرراً وبخاصة أثناء السنوات الأولى .

ومن المعروف أن هناك أشجاراً مذكرة وأخرى أنثى .. لذلك يمارس إخصاب الأنثى على الدوام تقريباً بوضع باقة من زهور الذكر وسط مجموعة زهور الأنثى . وهذه العملية هى الطريقة الصناعية الوحيدة التى يعرف المصريون استخدامها لزيادة محاصيل زراعتهم وأشجار فاكهتهم .

ويهتم سكان قرية بلطيم الواقعة فى أراضى البرلس كثيراً بزراعة أشجار النخيل ، وهؤلاء يضاعفونها أيضاً بشتل أغصانها التى يغرسونها فى شعاب كثيرة كونتها كثبان الرمل التى تغطى هذا اللسان من الأرض . وهم يضعون قبل غرسها فى قاع الحفرة المخصصة لاستقبال الشتلة حوالى نصف أردب من « زبل » الحمام كنوع من السماد يحرصون على أن يضعوه من وقت لآخر حول هذه الأشجار . وعلى الرغم من أن هذه الأشجار تكون مغروسة فى رمال قاحلة ظاهرياً فإن خضرتها تكون شديدة النضرة كما تبدو بالغة الرسوخ لأن جذورها تمتد حتى تبلغ المياه الحلوة التى تجرى بلا انقطاع من بحيرة البرلس إلى البحر من تحت التربة .

وأصناف البلح هنا كثيرة العدد لحد كبير . وبلح مصر العليا عادة أصغر حجما من بلح مصر السفلى وهو كذلك أكثر تبكيراً ، ولبابه أكثر جفافاً بكثير . ويستهلك جزء من بلح الصعيد فى مناطق إنتاجه ، ويرسل الجزء الآخر إلى أسواق المدن وبخاصة القاهرة مركز الاستهلاك البالغ الأهمية فى كل أنحاء مصر .

وسواء كان الأمر نتيجة لاعتياد طويل ، أو كان لأن حكومة البلاد قد هزتها كثرة مصادر الرزق التى توفرها زراعة النخيل لسكانها فإن هذه الزراعة هى الوحيدة التى تحظى بالتشجيع حيث لا يخضع محصول النخيل لأية ضريبة . وأشجار النخيل التى نراها من حول القرى هى ممتلكات خاصة ؛ أما تلك التى يغرسها الفلاح فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أراض ليس له فيها سوى حق الانتفاع فهى تعود إليه بالمثل وله كل الحق فى أن يتصرف فيها حسب إرادته .

ويقدر الإنتاج السنوى لنخلة فى حالة ازدهارها الأقصى فى صعيد مصر ب ١٢٠ إلى ١٨٠ مدينى .

وحسب المعلومات التى أعطيت لى ، فإن مدة بقاء الشجرة تبلغ ثمانين عاماً ، بل وقد تبلغ قرناً بأكمله .. ومع ذلك فكيف تمكن الثقة فى دقة هذه المعلومات إذا كان أولئك الذين يقدمونها يجهلون فى معظم الأحيان تاريخ مولدهم هم أنفسهم ؟

ويؤكل البلح طازجاً بعد جنيه بوقت قليل ، أو يؤكل جافاً ، أو يؤكل بعد بداية تخمر سكرى يحدثونه عن طريق تجهيزات خاصة ، ويخضع لهذه التجهيزات على وجه الخصوص البلح المسمى برلسى ويزرع منه فى بلطيم ثلاثة أنواع مختلفة .

ويجنى البلح الأحمر الذى يشكل النوع الأول قبل أن ينضج بقليل ، وينتهى به الأمر أن ينضج وهو معرض للشمس فوق الحصير ، ويضغط بعد ذلك بين الأصابع ثم يترك مدة أخرى فى الشمس لمدة ثلاثة أيام وأخيراً يكبس فى قفف من سعف النخيل ، ويباع هذا العجين « العجوة » بسعر ٥ بوطاقات للقنطار زنة ١٠٨ أقة .

أما النوعان : الثانى ويسمى ركوده ، والثالث ويسمى العامرى فهما بلح أصفر ، يجنى قبل نضجه تماماً ، ويضغط بعد جنيه ويكبس فى قفف بعد أن يترك معرضاً فى الشمس لمدة ١٢ يوماً بالنسبة للنوع الثانى ولمدة خمسة وعشرين يوماً للنوع الثالث . ويباع القنطار المعد على هذا النحو بـ ٧ بوطاقات . ويقدر ما يمكن أن تعطيه النخلة الواحدة من البلح فى العام بحوالى ٢٧ أقة .

ويرسل هذا البلح المعجون « العجوة » كله تقريباً إلى الإسكندرية ورشيد .

وهكذا نرى أن نخلة البلح هنا تنتج كل عام ، مثلها فى ذلك على وجه التقريب مثل نخلة الصعيد ، ما قيمته حوالى ١٥٠ مديبى . وتستخدم ثمرتها كذلك فى صنع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نوع من الخل ونوع من الخمور تحدثنا عنهما فى مكان آخر (١)

ومن بين كل الأشجار التى تنمو فى مصر ، فإن النخلة هى الشجرة التى يحصل المصريون منها على أكبر النفع فى عمليات البناء وفى الاقتصاد المنزلى . فجذوع هذه الأشجار تستخدم عوارض وكمرات لسقيفات مختلف البيوت ، ويصنع من مختلف أجزاء سعفها الأقفاص والسلال والقفف وباختصار معظم الأثاثات والآنية التى يستخدمها سكان الريف ، وأخيراً يستخدم هذا النوع من الضفائر من الألياف الغامقة التى تغطى بداية أغصان السعف فى صنع الحبال .

* * *

وتعتبر أشجار الكروم ، الثانية بعد النخيل ، والتى يولى لها أكبر القدر من العناية .

وعلى الرغم من أننا نجد بعض تكعيبات منها فى كل حدائق مصر فإن العنب يزرع بشكل خاص ، وبالذات ، فى ولاية الفيوم ، وفوق لسان الأرض فى البرلس ، وتزرع كرومه منفصلة متباعدة ، وهم يغرسونها فى شكل ترقيدات ، كما أنهم يسندونها – كما يحدث فى إيطاليا – فوق قطع أفقية من الخشب تحملها قوائم عمودية .

وفى البرلس تحفر الحفرات المخصصة لاستقبال فسلات الكروم حتى تصل إلى الماء ، ويوضع فى قاع هذه الحفرات كمية محددة من « زبل » الحمام وفى بعض الأحيان تغرس الكروم فى قسطل اسطوانى كان أرومة لنخلة عجوز ماتت واقفة وقطعت من فوق جذرها ببضع ديسيمترات ؛ والهدف من ذلك هو تأمين الكرمة الشابة من شمس شديدة الحرارة وتأمين حصول جذورها على الرطوبة اللازمة ، ويسمدها الزراع كل عام بزبل الحمام الذى يجلبونه من الدلتا ومن ولاية الشرقية ، ويباع الأردب من هذا السماد بـ ٩٠ إلى ١١٠ مدينى .

---

(١) انظر الفنون والحرف ، اللوحة الحادية عشرة .

وتنقل أعماب البرلس عن طريق البحر إلى دمياط ورشيد والإسكندرية . أما تلك التى تغذى أسواق القاهرة فى أثناء موسم هذا المحصول فتأتى من ولاية الفيوم . ويوجد فى هذه المنطقة من البساتين أكثر مما يوجد فى مناطق مصر الأخرى ؛ فنرى فيها بعض أشجار الخوخ وبعض أشجار المشمش فى بساتين مغلقة . أما أشجار الزيتون والتين فتنمو فى عرض الحقول . وينبغى أن نضيف إلى هذه الأنواع المختلفة من الأشجار شجرة الصبار Cactus opuntia التى تصنع منها أسوار يصعب اختراقها ، والتى تصلح بدرجة كبيرة لإيقاف تيارات الرمال (الزاحفة) وأن تثبت عند منحنى التلال تلك الأراضى الهشة التى يمكن للمياه أن تجرفها معها .

ويزرع فى مصر بالمثل أشجار الرمان والبرتقال والليمون فى حدائق يملكها الأثرياء ، وتقع هذه الحدائق عادة خارج المدن وعلى مسافة شديدة القرب منها ؛ وأهم هذه الحدائق هى تلك التى توجد بالاسكندرية ورشيد والقاهرة والجيزة كما أنها متنوعة فى فواكهها على نحو أكبر ، وفى النهاية ، فمن المقبول أن يكون لدى المرء ما يقوله حول زراعة أشجار الفاكهة فى بلاد تجهل أساليب التطعيم والتقليم .

يطلق اليوم على جزيرة فاروس القديمة ، والتى تغطى مينائى الاسكندرية اسم جزيرة التين ، إذ تزرع هذه الأشجار هناك بأكبر قدر من النجاح ، وتحاط كل شجرة من هذه الأشجار بسور دائرى مصنوع من الغاب والبوص وسعف النخيل ؛ ويرتفع هذا السور إلى ٢ أو ٣ أمتار مع ابتعاده لمسافة خمسة أو ستة أمتار عن جذر الشجرة ؛ وبهذه الطريقة تكون الشجرة فى حمى من رياح الشتاء ومن لهيب الشمس دون أن تحرم لا من أمطار الشتاء ، ولا من ندى الصيف الوفير .

ويلاحظ أن عدد أصناف الأشجار التى تنتج فاكهة ضئيل للغاية ، فليس ثمة أشجار حراجية (تنتمى إلى الغابة) بهذا المعنى . ومن هذه الناحية نجد مصر اليوم هى ما كانته منذ أيام Columbelle ، وبالكاد يعد المرء فى الريف أربعة أو خمسة أنواع مختلفة منها ، وهذه تغرس عادة حول القرى التى يراها المرء عن بعد ، حتى فى أوقات الجفاف الشديد ، وهى تحتفظ بمظهر جذاب يبعث على الانتعاش حيث تظل الأشجار التى تشكل سوراً من حولها محتفظة بأوراقها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما أكثر الأشجار شيوعاً فهو شجرة الجميز (ficus sycomorus) التي تنهض تحت ظلها في معظم الأحيان الماكينات المستخدمة في رفع المياه (السواقي) لري الأراضي ؛ وتستخدم أخشاب هذه الشجرة في بناء القوارب التي تعمل في النيل ، كما يصنع منها كذلك ألواح الخشب السميكة الشبيهة بألواح البلوط والسنديان .

وتصنع العجلات (الدواليب) المسننة للسواقي من أخشاب أشجار النبق rhamnus napeca وكذلك من أشجار السنط mimosa nilotica ؛ وتحل بذور الشجرة الأخيرة في مصر محل لحاء البلوط في دبغ الجلود .

وتنتج شجرة من السنط في كامل نموها نصف أردب من هذه البذور ، يبلغ ثمنه نحو ٢٤٠ مديني .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

عن الحيوانات التي يربيها الفلاحون

تتم أعمال الحرث ، وكل الأعمال اللازمة لإعداد الأرض ، وكذلك عمليات رفع مياه الرى ، ودرس الحبوب ، وبشكل عام كل العمليات الزراعية ، يتم كل ذلك فى الجزء العلوى من مصر بواسطة الأبقار ذلك أن الحرارة هناك تكون أشد مما ينبغى بالنسبة لتربية الجاموس .

وفى جزيرة الفانتين ، تتغذى الأبقار بسيقان الذرة الخضراء وبالتبن ؛ ومع النزول من هذه المدينة إلى إسنا يبدأ الناس فى زراعة الجلبان والبازلاء التى يستخدمونها علفاً لهذه الأبقار بالإضافة إلى سيقان العدس والترمس ، إلخ . ولا يكلف شراء زوج من هذه الأبقار ، فى هذه المنطقة من مصر ، أكثر من ٥٠ إلى ٦٠ بوطاقة ، وفى بعض الأحيان يهبط السعر إلى أدنى من ٤٥ بوطاقة .

ويرتفع هذا الثمن مع هبوط النيل (الإتجاه شمالا) ، إما لأن النقود تصبح أكثر وفرة ؛ وإما لأن الأبقار تكون أكثر قوة ، ويبلغ ثمن زوج الأبقار ، ذكوراً أو إناثاً ، نحو ١٠٠ بوطاقة فى العادة .

وفى ضواحى قنا وسهل طيبة ، حيث يستخدم الجلبان والبازلاء عليقاً للأبقار لمدة تبلغ نحو أربعة شهور تقدر الجراية اليومية للواحدة من هذه الحيوانات بـ ١٢ — ١٥ مدينى ، وأما فى بقية العام فإن الأبقار تعيش على القش المهروس (التبن) والفول وتصل تكلفة الجراية اليومية لواحدة من هذه الأبقار إلى ١٠ مدينى فقط : فهى تستهلك فى الشهر الواحد خمس حمولات جمل من القش وأردبا من الفول .

وقد سبق لنا القول بأن الناس ابتداء من فرشوط يأخذون فى زراعة البرسيم ، إذ تعيش عليه الأبقار خلال ثلث العام ؛ ويستهلك اثنان من هذه الحيوانات خلال هذه الفترة حشتين متتاليتين لفدان من البرسيم . وتستخدم إناث الأبقار كذلك فى أعمال الزراعة ، وهى تعطى اللبن خلال الشهور الأربعة من بداية حملها لكنها تتوقف عن ذلك كلية خلال الثمانية شهور الباقية ، ويباع العجل البالغ ثلاثة أشهر بـ ٥ إلى ١٠ بوطاقات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى الدلتا يرتفع ثمن زوج من ثيران البقر فى العادة إلى ١٢٠ بوطاقة وتتغذى خلال أربعة شهور بالتبن والفول ، وخلال خمسة شهور أخرى بالبرسيم الأخضر ، أما فى الشهور الثلاثة الباقية من السنة فتأكل البرسيم الجاف ويتكلف غذاء ثور ، يسير على هذا النحو ، عشر بارات فى اليوم .

وعندما يحل وباء حيوانى ، وهو الأمر الذى يحدث بين وقت وآخر فى الدلتا ، يضطر الناس لأن يجلبوا من سوريا أو من جزر الأرخبيل أبقارا أخرى تحل محل الأبقار التى انتزعتها الجائحة .

أما قطعان الجاموس التى نلقاها فى مصر العليا ، فإنها لا تربى إلا من أجل الألبان التى توفرها ، وهى تتغذى على نفس ما تعيش عليه الأبقار ؛ وزيادة على ذلك فإنهم يتركونها لترعى أعشاباً تسمى الحلفا تغطى عادة كل الأراضى التى لا تزرع بسبب نقص المياه ، والتى يشار إليها باسم « شراق » ، ويبلغ ثمن الجاموسة فى ضواحى قنا ٢٠ أو ٣٠ بوطاقة .

ويبدو الجاموس أقل فظاظة مع الهبوط نحو الشمال ؛ ويرى بعض منها فى ولاية الفيوم وهى تستخدم فى إدارة ماكينات الرى (السواقى) ؛ وتباع فى هذه المنطقة بثمن يصل إلى ٥٠ أو ٦٠ بوطاقة ؛ ولا يقدم لها طعام سوى القش ، وتستهلك الجاموسة منه حمولة جمل كل خمسة أو ستة أيام ، ولا يقدم لها الفول على الإطلاق ، ولا يقوم بعبء العمل منها فى الفيوم وفى الدلتا سوى الذكور ، ولهذا السبب فهى ترهق من يقودها كثيراً بسبب قلة قابليتها للطاعة .

ومن جهة أخرى فإننا نجد على شواطىء ترعة التبانية ، إلى الجنوب من قرية بيلا ، فى الدلتا ، مستنقعاً يمتد حتى بحيرة البرلس ، وتستخدم أعشاب هذا المستنقع مرعى لقطعان الجاموس نصف المتوحش والتى تبقى فيه طوال العام ، وهناك يأتى بعض سكان القرى الواقعة على مشارف المستنقع وعلى حدود الأرض القابلة للزراعة ويقيمون فى أخصاص يصنعون فيها الزبد والجبن من لبن أى من هذه الجواميس يكون أكثر قابليه لاستئناس الناس .

ويفضل قصابو المدن التزود بلحوم هذه الحيوانات ؛ ويبلغ متوسط ثمن جلد الجاموسة ٢ أو ٣ بوطاقات .

أما الجمال التى تقوم بمهمة نقل كل المواد الغذائية عندما يتعذر نقلها نهراً عن طريق النيل أو الترع التى تقطع البلاد فيما بينها ، فإننا نراها فى الصعيد أقل حجما وقوة عنها فى مصر السفلى ، وتعد تربية هذه الحيوانات واحدة من الاهتمامات الرئيسية للقبائل العربية التى تقيم على حواف وادى مصر ، وهذه القبائل هى التى تغذى أسواق مختلف الولايات بالجمال ، ويتراوح ثمن الجمل من ٣٠ إلى ٦٠ بوطاقة تبعاً لسنه وسقامته ، وتعيش الجمال على الفول والتبن وسيقان الجلبان والبازلاء وكل أصناف العلف أخضر كان أو جافا : ويتكلف غذاؤها اليومى ٧ بارات ، ويؤجرونها بواقع ٢٥ إلى ٣٠ مدينى فى اليوم ؛ ويستطيع الجمل أن يعمل لمدة عشر سنوات .

ولا تكون الجمال التى تستخدم فى نقل المحاصيل مملوكة على الدوام للمزارعين ، فهم يستأجرونها تبعاً للحاجة التى يستشعرونها ، أما نقل المواد الغذائية التى يتصادف القيام بها بقية العام فيتم على ظهور الحمير ؛ وليس ثمة مزارع على الإطلاق لا يمتلك بعض الحمير ؛ فهذه الحيوانات هى التى تستخدم ركوبة معتادة له ولأسرته : ويجعل منها صبرها وقناعتها ، كما يحدث فى كل مكان ، بالغة النفع ؛ لكن حمير مصر قد وهبت قوة غير عادية وقلما يصل ثمن غذائها اليومى إلى ما يزيد عن ٤ أو ٥ مدينى ، كما لا يتجاوز ثمن شرائها ١٠ - ١٢ بوطاقة .

وإلى جانب الأبقار اللازمة لاستغلال الأراضى ، يمتلك المزارعون فى مصر العليا عادة قطيعاً صغيراً من الماعز والضأن ؛ وتوفر الماعز قدراً من الألبان التى تستهلكها القرى ، ولابد أن يصل عددها فى العادة نصف عدد الفدادين التى يتم استغلالها (فى قرية ما) ويصل ثمن العنزة الناضجة نحو ١٥٠ مدينى .

وخلال الفيضان ، وحين تكون المحاصيل لا تزال قائمة (أى لم تحصد بعد) أى خلال ثمانية أشهر فى العام ، تتغذى الماعز بالبرسيم الأخضر أو الجاف ، ويقدر طعامها ، تبعاً للفصول وظروف المكان ، بمدينى واحد أو بمدينى ونصف فى اليوم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخلال الشهور الأربعة الأخرى يعاد القطيع إلى المرعى حتى يقرض ما يتبقى بها من عشب ، ويقوم بحراسة قطيع مكون من ١٠ أو ١٢ عنزة صبى واحد فى العادة ، يعطى ٣ مدينى أجراً يوميا ، وتكفى ثلاثة تيوس (تيس) لقطيع يتكون من ١٠٠ عنزة ؛ وتحمل العنزات من النوع الجيد مرتين خلال العام ، وتضع فى العادة عنزتين ترضعان لمدة أربعين يوماً ، وتباع العنزة الصغيرة من سن سنة واحدة بـ ٩٠ إلى ١٠٠ بارة ، وفى كل أنحاء مصر ، تصنع القرب التى تستخدم فى نقل المياه على ظهور الرجال أو الحمير من جلود الماعز والتيوس .

وتكاد تكون كل خراف الصعيد داكنة اللون ، ويجز صوفها مرة واحدة فى العام عند نهاية مايو أو فى بداية يونية . وتزن جزة الخروف الواحد من ٢ إلى ٤ أرطال ، وتباع فى ضواحى سيوط بـ ٦٠ إلى ٩٠ مدينى . وبعد ذلك يغسل الصوف ، ويضرب ، ثم يغسل للمرة الثانية ، وبعد أن يعد للغزل على هذا النحو يباع بسعر الرطل ٤٠ إلى ٥٠ بارة .

والفيوم هى المنطقة التى يربى فيها أكبر عدد من الخراف فى كل أنحاء مصر ، كما أن صوف هذه المنطقة أكثر قيمة من سواه ؛ والخراف هناك بالغة الجمال ، وبها عدد كبير من الخراف بيضاء اللون ، فى حين نجد خراف الصعيد داكنة اللون كما سبق لنا القول .

ويتم جز خراف الفيوم على فترتين مختلفتين خلال العام : إذ تتم الأولى فى منتصف شهر يونيه وتتم الثانية فى الشتاء . ويمتاز صوف هذه الخراف بأنه طويل وناعم لحد كاف ، وتغطى الخراف بعد جزها بغطاء منسوج من سعف النخيل يقيها من لهيب الشمس . وتزن جزة خروف منتقى من بين أشد الخراف قوة من ٤ إلى ٥ أرطال فى العادة .

وهنا تغسل الخراف قبل جزها بدلا من غسل الصوف نفسه بعد أن ينفصل عن جسم الحيوان ، وبعد ذلك يبسط الصوف على اليد ويندف بعناية ، الأمر الذى يقوم مقام حلجه ، وبعد هذه العمليات البدائية يتم غزله فى قرى هذه الولاية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبلغ ثمن الخروف عادة ٢ أو ٣ بوطاقات ، ويربى حوالى ثمانمائة خروف فى القرية التى تبلغ مساحة ما يزرع بها ألفى فدان .

ولا تسمح حالة الفقر التى يعيش فيها الفلاحون فى مصر لهم بأن يطعموا حيوانات مستأنسة أخرى بخلاف تلك الحيوانات التى لا غنى لهم عن استخدامها فى زراعة الأراضى ، أو تلك التى يمكنها أن توفر جزءاً من المأكل أو الملبس لعائلاتهم : لذلك لا نجد فى كل قرى مصر إلا عدداً محدداً من الأبقار والجمال والماعز والخراف . أما الخيول ، فيبدو أن المصريين يقدرونها لحد لا يسمح لهم باستخدامها فى أعمال الزراعة ، فهذا الحيوان فى ناظرهم ليس سوى شئ يرتبط بالبذخ والرفاهية ؛ وحيث يكاد يعتمد النجاح على الدوام فى تلك الحروب التى تنشب بين القرى على زيادة عدد الفرسان الذين يكون بمقدور أحد الفرقاء أن يجندهم ، فقد جرت العادة على قياس قوة رجل ما ومدى نفوذه والاعتبار الذى يولى له بعدد الخيول التى يقتنيها ؛ ويبلغ ثمن الحصان العادى نحو ٤٠ إلى ٦٠ بوطاقة .

وأخيراً فإن تربية الخيول لا تزال أمراً موقوفاً على العرب الذين أصبحوا مزارعين أو أولئك الذين لا يزالون من بينهم يقيمون تحت الخيام عند مداخل الصحراوات .

وتشكل حصيلة ما يبيعونه من هذه الحيوانات التى يربونها جزءاً من ثرواتهم ، وهؤلاء العرب أيضاً هم كذلك الذين يمونون بالمواشى الأسواق فى مختلف مدن وقرى مصر ؛ سواء كانت الحيوانات التى يعرضونها للبيع ناتجة من قطعانهم الخاصة ، أو كانت آتية من أسلاب انتزعوها عنوة وبقوة السلاح من القرى التى انتهبوها تحت ادعاء من أى نوع .

ويربى الفلاحون وعائلاتهم كذلك كميات كبيرة من الحمام ، والدجاج ، ويحصلون من بيعها على مكاسب ضئيلة : وقد قدمنا فى مكان آخر وصفاً مفصلاً لتلك الأنواع من المعامل التى يتم فيها افراخ الكتاكيت ؛ لكننا لن نعود هنا مطلقاً إلى هذا الموضوع (١) .

---

(١) انظر دراسة السيدين روزيير Rozière ورونييه Ronyer عن فن إفراخ الكتاكيت ، الدولة الحديثة ، المجلد ١١ ص ٤٠١ ، وكذلك اللوحة الثانية من الفنون والحرف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبقى علينا أن نتحدث عن النحل وعن طريقة جمع العسل ، وعلى الرغم من أن الناس يهتمون بتربية النحل فى مختلف مناطق مصر ، فإن ما سنقوله الآن هو ملخص لما شاهدناه فى ضواحى سيوط وينطبق بشكل خاص على هذه المنطقة . هناك خلايا نحل بكميات متفاوتة فى كل القرى على وجه التقريب وهذه توضع أحياناً فى حدائق ، وتوضع أحياناً أخرى فوق شرفات المنازل . وهذه الخلايا عبارة عن أسطوانات مجوفة من الطين المجفف فى الشمس مثل الطوب اللبن . ويبلغ طول الأسطوانة نحو ١٢ ديسيمتر (١٢٠ سم) ويبلغ قطرها نحو ٢ ديسيمتر (٢٠ سم) ، وتوضع الأسطوانات بشكل أفقى فوق بعضها البعض ، بحيث تتخذ الخلايا فى مجموعها شكل قطع مكدسة من الخشب . وتباع الواحدة من هذه الأسطوانات ، التى تشبه فى شكلها شكل طرف أنبوبة أو خرطوم ، بثلاثة مدينى .

وتشترى الخلايا (جماعات النحل) بعد بذ ر البرسيم بسعر يبلغ فى المتوسط ٦٠ بارة .

وفى السنة العادية تنتج كل ست خلايا خمسين رطلا من العسل ورطلين من الشمع ، ويباع قنطار العسل ، زنة مائة رطل ، بـ ٥ إلى ٨ بوطاقات ؛ أما الشمع فيباع بواقع ٤٠ بارة للرطل الواحد ، وعسل سيوط بالغ اللذة ؛ وتبقيه حرارة الجو الطبيعية فى حالة سائلة على الدوام وتنقل كميات معينة منه داخل جرار لتباع فى أسواق القاهرة . ولا تنتقل الخلايا فى الصعيد بطريق النيل كما يحدث للخلايا فى مصر السفلى .

وتوجد الأقراص التى يصنعها النحل داخل الاسطوانات المجوفة التى تشكل الخلية على هيئة أرغفة صغيرة من الخبز يبلغ سمكها ٤ سنتيمترات ، ومصفوفة فى نظام رأسى خلف بعضها البعض ، ويسمح هذا الوضع بانتزاع أقراص الشمع والعسل بدون قتل النحل . ولهذا الغرض توقد نار عند مدخل الخلية بروث الجاموس أو الجمال المجفف ، ويؤدى الدخان إلى تراجع النحل الذى يشغل هذا الجزء من الخلية الشديد القرب من مدخلها ، وتفتح الخلية عن طريق انتزاع قرص الطين الذى يستخدم فى إقفالها ؛ وبعد ذلك وبواسطة ملعقة حديدية يتم تحريكها بشكل دائرى بين جدار

الأسطوانة الداخلى وبين أقراص الشمع ، تفصل الأقراص عن الاسطوانة ، ويتم إحراجها ؛ ويستمر تدخين الخلية ، وانتزاع الأقراص واحداً بعد الآخر ، حتى لا يعود النحل الذى يتراجع إلى آخر الخلية ، يشغل سوى نحو ثلث الاسطوانة فيترك له العسل الباق ، ولا تتم هذه العملية إلا مرة كل سنة ، وحين يراد شغل خلية جديدة بالنحل ، توضع فيها أقراص النخاريب مع النحل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع
عن إعداد الحقول فى مناطق مصر المختلفة

تعد جزيرة الفانتين أول أرض مزروعة يقابلها المرء إلى الشمال من شلال النيل الأخير ، كما أنها ، ويبدو أنه قد وجب علينا أن تقدم لنا فكرة عن خصوبة مصر – هى أفضل أجزاء هذه المنطقة زراعة ، كما أنها المنطقة التى تستريح فيها الأرض على نحو أقل (أى أنها تجهد من كثرة زراعتها) .

وقد سبق أن قلنا إن السنة الزراعية عند المصريين تنقسم إلى ثلاث فترات ، تتمثل فى كل واحدة منها نفس الأحوال التى تقدمها السنة الزراعية ذات الاثنى عشر شهراً فى المناطق ذات الأجواء المختلفة ؛ ويتكرر كل من حرث الأرض والبذ ر والحصاد فى جزيرة الفانتين ثلاث مرات فى العام .

وقبل انقلاب الصيف ، تبدأ زراعة المحاصيل التى يشار إليها باسم : القيظى ، وخلال هذه الفترة يزر ع الذرة للمرة الأولى (الزراعة الأولى) وتؤدى حرارة الموسم وكذا الرى الوفير الذى يحصل عليه النبات إلى التعجيل بنضجه ، فيتم حصاده ، بعد ثلاثة أشهر من بذ ره .

عندئذ تبدأ الفترة الثانية (الموسم الثانى) ، أى فترة المحاصيل النبارى والتى يزر ع خلالها الذرة للمرة الثانية ، ويبقى محصول الذرة الخريفى هذا فى الأرض لمدة تبلغ نحو مائة يوم .

وأخيراً ، فمع قرب قدوم انقلاب الشتاء ، تبدأ فترة المحاصيل الشتوية ؛ والشعير . هو المحصول الوحيد الذى يزر ع خلال هذه الفترة ، ويتم حصاده بعد زراعته بأربعة شهور .

وبخلاف هذه المحاصيل الثلاثة المتعاقبة ، يحصل أهالى جزيرة الفانتين من بعض أجزاء صغيرة من جزيرتهم على إنتاج بعض الخضروات التى يزرعونها لاحتياجاتهم اليومية ؛ وزيادة على ذلك ، فهناك نحو أربعمائة وأربعين نخلة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويمكن أن يصل تعداد شعب هذه الجزيرة إلى مائتى رجل ، يعمل منهم خمسون رجلا فقط بشكل دائم فى أعمال الزراعة ، أما الآخرون فيعملون بحارة (مراكبية) على قوارب النيل ، ولا يعود هؤلاء إلى الجزيرة إلا أثناء أشهر الشتاء الثلاثة .

ولا تزيد مساحة الأرض القابلة للزراعة فى جزيرة الفانتين عن أربعين فدانا ؛ وتروى هذه بواسطة ست ماكينات ذات قواديس تعمل بشكل دائم لأن الأرض هناك ، حيث ظلت ترتفع بشكل دائم منذ قرون طويلة عن طريق ترسيبات المياه حاملة الغرين ، والتى تصب فيها ، قد أصبحت اليوم أعلى من منسوب أعلى فيض للنيل .

ويتطلب تشغيل كل ماكينة (ساقية) عمل ١٢ إلى ١٤ من الأبقار ، أى نحو ثمانين ثوراً للسواق الست ، ويوجد فى الجزيرة فوق ذلك نحو مائة أو مائة وخمسين عنزة وخروفا .

وقلما يختلف إنتاج كل واحد من هذه المحاصيل الثلاثة التى اختصت بها جزيرة إلفانتين من سنة لأخرى : فالذرة القيظى ، أو الصيفى يعطى أردبين للفدان الواحد ، أما الذرة النبارى أو ذرة الخريف فيعطى الفدان منها أربعة أرادب ، وأخيراً فإن الفدان من الشعير الشتوى يعطى خمسة أو ستة أرادب .

ومن أسوان إلى ادفو ، يزرع الناس الأرض على نفس الفترات الثلاث من السنة الزراعية والتى انتهينا من تسميتها ؛ ومع ذلك فثمة اختلاف بين إعداد هذه الأراضى وبين إعداد أراضى الفانتين ، حيث لا تزرع نفس القطعة من الأرض بشكل متوال .

وهكذا ، ففى أراضى إدفو البالغة عشرة آلاف فدان قابلة للزراعة ، لا يستغل سوى ٨٠ إلى ١٠٠ فدان فقط خلال موسم القيظى ، وتختص كلها بزراعة الذرة بشكل خاص ؛ وتشكل الأراضى التى تزرع على هذا النحو ، شاطئ النهر .

وعندما تصبح المياه عالية لحد يكفى لإدخالها إلى الترع ، فإن شواطئ هذه الترع تزرع بالمثل بالذرة أثناء موسم النبارى ، وتمتد هذه الزراعة لتغطى نحو ٦٠٠ فدان .

وتزرع بقية الأراضى خلال الموسم الثالث وليكن البياضى إذا ما غمرت المياه الأرض بشكل طبيعى ، أو ليكن الشتوى ، وذلك عندما لا تصعد المياه فوق الأرض وعندما تروى هذه الأراضى بواسطة الدلو . وينبغى أن نلاحظ فى النهاية أن البذور (المحاصيل) التى تبذر أثناء الشتاء فى الأراضى التى تغمرها المياه بشكل طبيعى ليست هى نفسها التى تبذر فى تلك التى تحتاج إلى رى صناعى .

وتبذر فى الأراضى التى تغمرها المياه بشكل طبيعى محاصيل : القمح ، الشعير ، العدس ، الحمص ، الترمس ، الخس ، الجلبان ، والبازلاء ؛ ولكن ليس ثمة ما يروى خلال الشتاء سوى محاصيل القمح والشعير والقطن .

والقمح هو أكثر المحاصيل التى انتهينا من بيانها ربحا ، ويأتى بعده الشعير والعدس والذرة الخ .

وحين تروى الأرض بشكل طبيعى لعدة سنوات متوالية ، يصبح من الممكن أن يبذر فيها القمح ، ومع ذلك ، فحين يكون الفيضان أقل ملاءمة ، يتم تناوب المحاصيل بإبقاء محاصيل الشعير والعدس والأعلاف للسنوات التى يكون فيضانها أقل وفرة .

وبشكل عام ، فمن بين كل ٣٠ فداناً تزرع بالبياضى هناك ١٠ أفدنة تبذر قمحاً ، ومثلها تبذر بالشعير ، وتتوزع العشرة الأخيرة بين العدس والجلبان ومحاصيل أخرى ضئيلة العائد .

أما السهل الذى ترى فيه اليوم أطلال طيبة ، فلا تزرع منه سوى نصف مساحته : ليس لأنه تنقصه وسائل الرى الطبيعى ، ولكن لأن الفلاحين هناك ليسوا فى حالة تمكنهم من الحصول على القروض اللازمة لزراعته كله . وقد بدا لى أن الشط الأيسر لهذا السهل مزروع على نحو أقل جودة من الشط الأيمن ، وهذا هو التوزيع المعتاد فى معظم الأحيان لمحاصيل مواسم السنة الزراعية الثلاثة .

من بين ٤٠٠٠ فدان ، يزرع ألفان بياضى وألف قيظى ، و٧٠٠ نبارى وأخيراً ٣٠٠ شتوى : وعلى هذا النحو يمكن إعداد أراضى قريتى الكرنك والأقصر والتى تضم نحو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٢٠٠ فدان ، ولكن وفى حالة الإهمال الحالية حيث أهملت الترع العمومية المخصصة لتسهيل عمليات الرى ، فإن الحبوب الناتجة من سهل طيبة تستخدم فى تموين أسواق قوص وقنا ، حيث تصدر من هناك إلى الجزيرة العربية عن طريق القصير ، وفى هذه المنطقة يكون محصول القمح هو أكثر المحاصيل إدراراً للربح . وحيث أن ظروف الأرض هى التى تحدد الموسم الذى ينبغى أن تزرع خلاله ، فإن الأراضى المجاورة للنيل هى التى تخصص لزراعة المحاصيل النبارى ، وحيث أنها لا تثمر سوى مرة واحدة فى العام فإنها تظل ثمانية أشهر فى العام بدون أن تزرع ، ويتكاثر هناك خلال هذه الفترة وبشكل تلقائى نباتا الحلفا والعاقول [1] اللذان يستخدمان مراعى للجمال والجاموس .

ثم يبدأ الناس فى تنظيف الحقول التى ينبغى أن تزرع فيها الذرة من هذين النباتين ، وتمتد جذور النبات الأول إلى عمق كبير ، ولذلك ، فمن أجل تسهيل عملية الاقتلاع ، يتم إحراق الحلفا وهى قائمة (دون انتزاعها) . وبعد أن يتم اقتلاع النبات الثانى بواسطة الفئوس يوضع فى شكل أكوام يجرى حرقها بالمثل ، ويترك الرماد فوق الأرض لتحرث بعد ذلك مرة ثانية .

وتزرع ضواحى قنا فى المواسم الثلاثة للعام الزراعى ، وهناك تبدأ زراعة الفول البياضى وتعد هذه الزراعة أكثر الزراعات انتشاراً بعد الحنطة التى تحتل وحدها حوالى ثلث الأراضى المستغلة ؛ وابتداء من قنا كذلك ، ومع الاتجاه شمالا مع النيل ، تأخذ زراعة السلجم أو اللفت فى الظهور .

ولا تروى مطلقاً أراضى هذه المنطقة من مصر ، والتى تبذر بالمحاصيل الشتوى بواسطة الماكينات ذات القواديس أو السواقى ، كما يحدث فى جزيرة الفانتين ، ولكنها تروى فقط بواسطة الدلو .

وقد أدت إقامة الشيخ همام فى فرشوط ، بالإضافة إلى الحكمة التى اتسمت بها إدارته والتى جعلت الناس فى هذه المنطقة أكثر ثراء من سكان بقية الإقليم ، أدى

---

(١) الحلفا Poa multiflora والعاقول Hedysarum Alhagi

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك كله إلى أن أصبح بمقدور الأهالى هناك أن يتصدوا لزراعة المحاصيل التى تتطلب تكاليف باهظة ، وأن يحصلوا كذلك على أكبر قدر من النفع من الأراضى القابلة للرى .

وتتوزع محاصيل ١٠٠ فدان من البياضى على هذا النحو ، بشكل تقريبى :

الحنطة	٤٧ فدانا
الفول	٢٠ »
العدس	١٥ »
الشعير	٦ أفدنة
الجلبان	٩ »
البرسيم	٣ »
	١٠٠ فدان

ومن هنا نرى أن زراعة القمح ، وهو أكثر المحاصيل إدراراً للكسب بشكل عام ، تشغل حوالى نصف مساحة الأراضى التى تروى بشكل طبيعى .

أما عن الأراضى المستغلة فى المحاصيل النبارى والقيظى ، والتى تشكل حوالى $\frac{1}{10}$ من الأراضى المزروعة بالشتوى . فمن الممكن القول بأنه بين كل عشرة أفدنة ، يزرع ستة بقصب السكر وأربعة بالذرة ؛ ويتطلب هذان المحصولان استخدام ثلاث سواقى وثمانية ثيران ، وهذا ما يكفى لإعطائنا فكرة عامة عن تجهيز الأرض فى هذه المنطقة .

وكلما كان الرى يسيراً كلما قل انشغال الناس بأعمال رزاعة الصيف الشاقة ، فتتركز كل عمليات الزراعة عندئذ فى الموسمين الآخرين : وهذا على الأقل هو ما يتم فى شمال فرشوط ، فى جرجا وطهطا .

وفى هذه المنطقة من ولاية جرجا يزرع النبارى خلال الخريف فى شكل محاصيل الذرة والبطيخ وبعض الخضروات .

ويزرع الشتوى خلال فصل الشتاء بمساعدة وسائل الرى الصناعية ، فتزرع بعض الحقول بالشعير والقمح .

وأخيراً فإن زراعات البياضى تشتمل على محاصيل القمح والشعير والفول والعدس والحمص والبرسيم والجلبان والحلبة والقرطم . وإليكم توزيع هذه المحاصيل على مساحة ٧٣ فداناً :

القمح	٣٠ فدانا
الفول	١٥ «
العدس	١٠ أفدنة
البرسيم	١٠ «
الشعير	٥ «
الجلبان	١/٢ ٢ «
الحلبة	١/٢ ٢ «
	٧٣

وإعداد الأرض فى جرجا يتم بشكل تقريبى على نفس هذا النمط فيما عدا أن زراعة البرسيم تغطى مساحة من الأرض أكبر : ويأتى ذلك من أنه يربى فى هذه المنطقة عدد أكبر من الخيول منه فى المناطق الأخرى من مصر العليا ، حيث تقع غالبية القرى فى حوزة شيوخ عرب ، ففى واحدة من هذه القرى ، تصل مساحة أرضها المزروعة من ١٠٠٠ إلى ١٢٠٠ فدان ، يمكن أن نجد نحو أربعين أو خمسين فارساً . ومن جهة أخرى ، فإن زراعات النبارى ، التى تتم بمساعدة الماكينات ذوات القواديس (السواقى) ، تتطلب عدداً أكبر من الثيران لإدارة هذه الماكينات .

وتكاد تكون العادة قد جرت هناك على مناوبة الزراعات وعلى بذ ر نفس الأرض بالقمح مرة كل سنتين : إذ تبذر الأراضى التى يحصد فيها هذا المحصول فى السنة الأولى بالبرسيم والفول والعدس الخ فى السنة الثانية .

وتشغل زراعتا قصب السكر والذرة ، اللتان تزرعان كمحاصيل نبارى فى ضواحى أخميم ، حوالى $\frac{1}{7}$ مساحة الأرض هناك .

وزيادة على ذلك فإن زراعة قصب السكر بمساحة كبيرة تتوقف على الشاطئ الأيسر للنيل عند مـر تـسعات جرجا على وجه التقريب ، ولا تعود على الشاطئ المقابل إلا فى ولاية أطفيح . وتحل محلها فى ضواحى طهطا زراعتا القرطم والكتان .

وينظر لهذه الزراعة الأخيرة كواحدة من أكثر الزراعات إدرارا للكسب عند ضواحى سيوط ، أما الأرض التى تناسبها بشكل أفضل فهى تلك التى تبقى لأطول مدة مغمورة بالمياه فى أثناء الفيضان .

وعلى الدوام تصلح نفس الأراضى الواقعة على شواطئ ترع الرى لنفس المحاصيل البياضى ويبدو أنه فى ضواحى سيوط فقط ، حيث سمحت لى إقامتى الطويلة هناك بالحصول على معلومات أكثر تفصيلا ، تتم مناوبة المحاصيل بالنظام الآتى :

فى السنة الأولى تزرع الأرض بالبرسيم الذى تأكل المواشى الحشة الثانية منه والمحصول بالأرض ، ويجعل السماد الذى تتركه المواشى ، الأرض صالحة بقدر أكبر لاستقبال الحنطة التى ينبغى لها أن تبذر فى السنة التالية .

فى السنتين الثانية والثالثة تزرع الأرض بالقمح .

وفى السنة الرابعة تبذر بالفول والعدس .

وفى الخامسة والسادسة بالقمح .

وفى السابعة يعاود الناس زراعة البرسيم ، وهكذا تبدأ الدورة من جديد .

وكذلك يبذر الكتان فى أرض حصد للتو ما كان بها من برسيم ، ويتبع بزراعة الفول أو العدس ثم بزراعة القمح ثم تعود بعد ذلك زراعات البرسيم والكتان.. الخ مع مواصلة الأمر بهذا النوع من التتابع المنتظم ، ولا يعطى الفلاحون ، الذين اعتادوا تجهيز الأرض على هذا النحو ، لذلك الأمر من سبب ، سوى أنه عادة استمرت منذ زمان لا تعيه الذاكرة . وإليكم مثالان لاعداد الأرض ، مأخوذان من ولاية سيوط ، وينطبق الأول على استغلال مساحة ١١٤ فداناً :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحنطة	٥٠ فداناً
الفول	٢٤ «
العدس	٢٢ «
البرسيم	١٠ أفدنة
الحمص	٦ «
الشعير	٢ فدانان
	١١٤

ونلاحظ فى هذا الإعداد للأرض أن الحنطة تشغل نحو نصف مساحة هذه الأراضى ، ويعلف المزارع (من إنتاج هذه المساحة) عشرين ثوراً أو بقرة واثنى عشر خروفا .

أما المثال الثانى فينطبق على ٥٨٢ فداناً تقسم على هذا النحو :

الفول	٤٠٠ فدان
الحنطة	١٢٠ فداناً
العدس	٢٠ «
الشعير	١٢ «
الجلبان	١٠ أفدنة
الكتان	١٠ «
الحمص	١٠ «
	٥٨٢ فداناً

وقد أدت ظروف خاصة إلى ضرورة انتشار زراعة الفول الذى يخصص إنتاجه للتصدير . وفى مصر ، كما فى كل مكان آخر ، يسعى الناس لإنتاج ما يعد بيعه مضموناً ، وتبعاً لارتفاع السعر الذى تبلغه هذه السلعة الغذائية أو تلك ، تنتشر زراعة محصول وتتقلص زراعة محصول آخر ، إلى أن يشتد الطلب على سلعة غذائية أخرى ، فتحظى بالأفضلية لدى المزارعين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأخيراً فإننا لسنا بحاجة للقول بأنه لا يمكن لتجهيز الأرض على النحو الذى انتهينا من بيانه للتو ، أننا لا نورد هنا إلا أمثلة بالغة الخصوصية ما دامت الأرض التى تروى بشكل طبيعى تعد صالحة لاستقبال بذر معين أحياناً ، وبذر آخر فى أحيان أخرى دون حاجة إلى إستخدام الأسمدة .

وتزرع أراضى الفيوم كل عام بسبب السهولة التى يجدها الناس فى إمكانية الحصول على مياه الرى لهذه الولاية وإن كانت لا تزرع سوى مرة واحدة (فى السنة) فيما عدا الأراضى التى تزرع بها الذرة الخريفى .

وأكثر الزراعات شيوعا هى محاصيل القمح ، والفول ، والشعير ، والبرسيم والحلبة ، والكتان ؛ وتزرع هذه المحاصيل بالأراضى التى تغطيها مياه الفيضان بشكل طبيعى .

وإليكم اعداد الأرض وتوزيعها الأكثر شيوعا وذلك بخصوص مساحة تبلغ ٦٢ فدانا .

القمح	٢٠ فدانا
الفول	٢٠ «
الشعير	٥ أفدنة
البرسيم	١٠ «
الحلبة	٤ «
الكتان	٣ «
	٦٢فدانا

وقد اعتاد الناس (هناك أيضاً) على زراعة الحنطة عامين متتالين فى نفس الحقل .

أما عن المحاصيل النبارى ، أى تلك التى تتطلب عمليات رى صناعية ، فهى الذرة ، والنيلة ، وقصب السكر ، وأشجار الورد ، وأول هذه المحاصيل هو فى العادة أكثرها انتشاراً ، إذ تؤدى سهولة رى الحقول إلى سرعة نمو الذرة وزيادة محصولها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا يزرع العدس فى الفيوم إلا بكميات قليلة ، وينتج فى أفضل السنوات ملاءمة محصولا ضئيلا لا يكفى لاستهلاك البلاد (المنطقة) .

ولا تتم رراعات الحلبة والجلبان والبارلاء ، فى الفيوم ، وعلى نحو ما ، إلا بطريق الصدفة ، ويلجأ الناس إلى رراعتها فى سنوات الجفاف ، أو فى الأراضى التى لا تروى على نحو طيب يكفى لإنتاج البرسيم ، ويوجد فى هذه المنطقة من مصر من البساتين والحدائق أكثر مما يوجد فى أية منطقة أخرى . وتتكون أسوار هذه البساتين ، كما سبق القول ، من أشجار الصبار أو التين الشوكى Cactus opuntia وتغرس فى هذه الحدائق أشجار النخيل والكروم والتين والزيتون وهى الأشجار التى تصدر ثمارها .

وتنتج ولايتا بنى سويف والجيزة ، اللتان يلقاهما المرء عند الاتجاه شمالا مع النيل ، نفس المحاصيل التى تنتجها الفيوم ، ويزرع فيهما فوق ذلك القرطم والبصل والنيلة والتبغ ، وهذه المنطقة من مصر هى أقل المناطق حظا من مياه الرى ، ويزرع قصب السكر هناك بكمية كبيرة بعض الشئ على الشط الأيسر للنيل فى ولاية أطفيح .

وتؤدى متطلبات الاستهلاك فى القاهرة ، وما تحتاجه أسواقها من مواد تموينية إلى تغيير فى زراعةبالأرض فى ضواحى هذه العاصمة : إذ توجد بها نسبياً مساحة أكبر من الأرض مخصصة لزراعة الخضر ؛ ويجلب الناس هذه الخضر من جناين مصر القديمة والجيزة وجزيرة الروضة وبولاق ، وتروى جميعها بواسطة السواقى ، ويأتى الزبد والجبن الطازجان اللذان تمون بهما أسواق القاهرة من القرى المجاورة ، وبشكل خاص من قرية امبابة الواقعة تجاه بولاق : وتربى هناك لهذا الغرض قطعان كثيرة من الأبقار والجاموس ، مما يتطلب زراعة أكبر جزء من مساحة أراضى هذه القرية بمحاصيل العليق .

ويبدى توزيع وإعداد الأرض فى داخل الدلتا بعضا من التغييرات الطفيفة ؛ ونجد هناك ، كما نجد فى الصعيد ، زراعات للشتاء وزراعات للصيف .

ويدخل فى عداد الزراعات الأولى : القمح ، والشعير ، والفول ، والبرسيم ، والكتان .

وعندما تزرع الأرض (فى سنة ما) بالقمح والشعير ، فإنها تبذر بصفة عامة بالبرسيم والفول فى العام التالى ، وهكذا بالتناوب .

والبرسيم هو محصول العليق الوحيد الذى يزرع فى مصر السفلى ؛ فلا يزرع هناك لا الجلبان ولا البازلاء ، ولا أية محاصيل أخرى مما تتغذى عليها الماشية فى مصر العليا .

ومن بين كل مائة فدان ، يزرع خمسون منها بالقمح أو الشعير ، وتزرع الخمسون الأخرى بالفول والبرسيم والكتان .

ومن المعروف أن المحاصيل فى الصعيد تنقسم إلى رراعات بياضى وهى التى تتم فى الشتاء فى الأراضى التى غمرت بالمياه بشكل طبيعى ، وإلى زراعات شتوى تتم فى نفس الفترة بواسطة عمليات الرى الصناعى ، ولا توجد فى الدلتا على الإطلاق محاصيل بياضى بمعنى الكلمة :إذ تحصل المزروعات التى تبذر عقب الفيضان ، دائماً ، على بعض ريات صناعية حتى يحين وقت حصادها .

وفى أوقات السلم ، حين يكون من المستطاع تصدير الكتان أو الأقمشة التى تصنع منه ، تعد زراعة هذا النبات هى أكثر المحاصيل إدراراً للكسب ، وحين لا تسمح الظروف مطلقا بهذا التصدير ، تحل زراعة البرسيم محل هذا النبات (الكتان) ، وذلك ليتسى إطعام العدد الأكبر من الماشية .

وفى العادة ، يزرع من كل مائة فدان :

بالبرسيم	٢٥ فدانا
بالقمح	٣٠ «
بالشعير	١٠ أفدنة
بالقمح والشعير مخلوطين معاً	٣٥ فداناً
	١٠٠ فدان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويستخدم الشعير غذاء للخيل ، ويطحن القمح والشعير المخلوطان معاً ويصنع من دقيقهما خبز الفلاحين .

ومن بين هذه المائة فدان ، يزرع ٢٥ منها فقط خلال الصيف :

بالذرة الشامية (أو القمح التركى)	١٣ فداناً
بالسمسم	٦ أفدنة
بالقطن	٦ «
	٢٥ فداناً

ويرش فوق كل الأراضى المخصصة لزراعات الصيف ، قبل بذرها ، نوع من السماد يسمى : سباخ ، يتكون ، كما هو معروف ، من أتربة ورماد القرى ويستخدم كذلك لكل الأراضى التى لا تتلقى أية ترسيبات من (طمى) النيل ، والتى تسمى لهذا السبب « أراض ضعيفة » .

ويتطلب استغلال مائة فدان من أراضى الدلتا موزعة ومعدة على النحو الذى انتهينا من بيانه ، عمل عشرين ثوراً أو بقرة لأشغال الحرث والرى ودرس الحبوب ، وست من الجاموس تستخدم ألبانها ، بعد تجهيزات معينة ، فى صنع جزء من طعام المزارعين ، وأربعة من الجمال تستخدم فى نقل المواد الغذائية ، وتترك بعض الخراف لترعى فى الحقول ؛ ويربى منها حوالى الخمسين على مساحة تبلغ المائة فدان .

أما الخمسة والعشرون فداناً التى تزرع خلال الصيف فتتطلب عمل ست من السواقى .

أما بخصوص عدد عمال اليومية والخدم الذين يحتاجهم هذا الاستغلال (للأرض) ، فإنه يتكون من حمال ، وكلاف للعناية بالجاموس ، وكلافين آخرين للثيران والبقرات ، ورحلين لصيانة وإدارة ماكينات الرى ، وكذلك أربعة آخرين للحرث .

وفى ولاية المنصورة ، نجد المحاصيل أقل من ذلك تنوعا ، وإليكم توزيع وإعداد مساحة ١٠٠ فدان :

الحنطة	٣٣ فدانا
البرسيم	٣٣ »
الشعير	٢٣ »
الكتان	١١ »
	ـــ
	١٠٠ فدان

والقطن ، هو المحصول الوحيد الذى تتم زراعته فى فصل الصيف فى هذه الولاية نفسها .

ويبقى علينا أن نتكلم عن حقول الأرز فى ولايتى دمياط ورشيد ، إذ تنتج هذه الأراضى التى تقع فى الشمال الأقصى لمصر ، والتى تعد أكثرها انخفاضا فى نفس الوقت ، مرتين كل عام ، وحيث يتم بذر الأرز عند بداية شهر أبريل ، فمن الممكن أن ندخل زراعة هذه الحبوب (الأرز) ضمن المزروعات الصيفية . وبعد حصاده مباشرة ، وهو الأمر الذى يتم عقب فيض النيل ، تبذر نفس الأراضى بالبرسيم أو بالقمح ؛ وتخصص الأراضى ذات المستوى الأعلى لزراعة الشعير ، وتزرع فيها كذلك خلال الصيف كمية ضئيلة من الذرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثامن

عن مكاسب الزراعة ، وعن الاستخدام الأفضل للأرض فى مصر

حين قدمنا وصفاً للزراعات المختلفة الخاصة بمصر ، فإننا قد بينا المصاريف التى تتطلبها وكذا الأرباح التى تعود بها . لذلك يجد القارئ فى كل فقرة من الفصل الخامس من مؤلفنا هذا ، المعطيات اللازمة لتقدير مكاسب كل واحدة من هذه الزراعات . لكننا ، بقصد التسهيل على الباحث الذى قد يريد التصدى لهذا الموضوع نقدم هنا فى شكل جداول مصاريف وعوائد الاستغلال الزراعي ، الذى يعمل به عادة العدد الأكبر من الأيدى العاملة ؛ وحيث كان من المناسب أن نقدر الثروة التى تدرها أرض مصر فى كل فصول العام ، فقد أخذنا الأمثلة التى سنقدمها هنا على التوالى من بين الزراعات **البياضى** والنبارى والشتوى .

وهكذا فسوف نختار من بين الزراعات الأولى محاصيل القمح والفول والبرسيم والقرطم فى ولاية سيوط .

ومن بين الزراعات الثانية : الذرة والنيلة ؛ ومن الثالثة : القمح فى ولاية طيبة ؛ والكتان فى الفيوم والدلتا . وأخيراً فإننا سنقدم بالتفصيل مصاريف استغلال وإيرادات مزارع الأرز التى تحف بالجزء الشمالى من مصر السفلى .

وتنطبق النتائج التى سنقدمها على مساحة ١٠ أفدنة (أى أن المؤلف افترض مساحة موحدة قدرها عشرة أفدنة لكل محصول) ، يشتمل كل منها على ٥٩٢٩ مترا مسطحا ، وهكذا فإن عشرة أفدنة تعادل ٥ هكتارات و $\frac{٩٢٩}{١٠٠٠}$ من الهكتار أى نحو ٦ هكتارات على وجة التقريب .

أولا : زراعة القمح البياضى

مصاريف الزراعة

لايتم حرث أراضى سيوط ، التى يغرقها الفيضان بشكل طبيعى ، وذلك قبل بذرها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
١ – البذار : يبذر نصف أردب من الحنطة لكل فدان . ومتوسط ثمن أردب الحنطة فى ولاية سيوط حوالى ٢ بوطاقة و ٣٠ مدينى ؛ ٥ أرادب لبذر ١٠ أفدنة تساوى حسب هذا السعر ...	٦٠	١١
٢ – البذر : يمكن لرجل واحد أن يبذر فداناً كل يوم . ويحصل على أجر يبلغ ١٠ مدينى ، فتبلغ تكاليف بذار ١٠ أفدنة	١٠	١
٣ – حرث الأرض لتغطية البذور بعد بذرها : عشرون يوم عمل لزوج واحد من الثيران وسائقهما ويدفع عن اليوم الواحد ٤٥ مدينى	–	١٠
٤ – مصاريف الحصاد : يحصل الرجال القائمون بالحصاد على أجورهم عيناً فى شكل حبوب : ويحصل كل منهم على ١/٢٤ من الأردب من الحنطة عن كل يوم . ويساوى أربعون يوماً لازمة لحصاد ١٠ أفدنة ، بهذا السعر ، أردباً واحدا و ١٦/٢٤ ، تعادل نقداً ما قيمته	٨٠	٣
٥ – الدرس : يلزم يومان لدرس إنتاج فدان واحد ، يستخدم خلال كل منهما أربعة رجال وأربعة ثيران ، ويحصل الجميع على أجورهم عيناً بواقع ١/٢٤ من الأردب لكل منهم . وبذلك يساوى ٦٠ يوم (عمل) بهذا السعر ٦ أرادب و ١٦/٢٤ من الأردب ، تعادل ما قيمته نقداً	٥٠	١٥
ويدفع للنورج أو العربة المستخدمة فى درس القمح كإيجار ١/٢٤ من الأردب فى اليوم ، ويحصل فى مقابل ٢٠ يوم عمل على أردب واحد و ٤/٢٤ من الأردب (*) ، تساوى نقداً	٨٠	١

(*) كذا فى النص : وصحتها إذا كان التقدير سليما ٢٠/٢٤ من الأردب (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البيان	مدينى	بوطاقة
٦ – نقل المحصول إلى بيت المزارع أو إلى المخازن : يحمل الجمل ثلاثين حزمة من الحنطة ، وتلزم عادة حمولتان و $\frac{٢}{٥}$ الحمولة أى ٧٢ حزمة ، لإنتاج أردب واحد من الحبوب . ويقطع الجمل فى خطوه العادى ٢,٠٠٠ متر كل ٢٥ دقيقة فإذا افترضنا أن المسافة بين الجرن الذى يتم فيه الدرس وبين المكان الذى يخزن فيه (التبن) والحبوب تصل إلى ١,٠٠٠ – ١,٥٠٠ متر ، وأن جملا واحداً ، يعمل ثمانى ساعات فى اليوم يقطع رحلتين كل ساعة ، فإن الجمل سوف ينقل فى تسعة أيام ، سبعين حمولة من التبن . وحيث تبلغ أجرة يوم الجمل وكلافه ٧٠ مدينى ، فإن عملية النقل سوف تكلف	–	٣
٧ – انتقالات أخرى مختلفة ، صيانة الأدوات ، نثريات ، مقدرة بـ $\frac{١}{١٠}$ من المصاريف الموضحة أعلاه	٦٤	٤
إجمالى المصاريف	٧٤	٥١

الانتاج

وهذا هو ما تنتجه الأرض المبذورة بالقمح البياضى فى ولاية سيوط :

البيان	مدينى	بوطاقة
١ – عدد مكاييل الحبوب المستخدمة فى تسديد مصاريف الحصاد والدرس عيناً . وتبعا للبند السابق ، تصل هذه الكمية من القمح بالنسبة لعشرة أفدنة إلى ٩ أرادب و $\frac{١٢}{٢٤}$ من الأردب ، بسعر الأردب الواحد ٢ بوطاقة و ٣٠ مدينى ، فتساوى فى مجملها	٣٠	٢١
٢ – عدد مكاييل الحبوب التى تبقى تحت تصرف المزارع بعد تسديد مصاريف الحصاد والدرس ، وينتج فدان الأرض فى السنة العادية ٧ أرادب من القمح ، أى ٧٠ أردبا لكل عشرة أفدنة ، تساوى نقدا	٣٠	١٦٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
٣ – القش المهروس تحت النورج (التبن) : ٧٠ حمولة جمل من القش المهروس ، بواقع ٢٠ مدينى لكل حمولة	٥٠	١٥
إجمالى الانتاج	٢٠	٢٠٠
الفرق بين الانتاج ومصاريف الاستغلال (أى صافى الربح)	٣٦	١٤٨

ثانياً : زراعة الفول البياضى

مصاريف الزراعة

لا تحرث الأرض مطلقا قبل البذر :

	مدينى	بوطاقة
١ – البذور . يبذر أردب لكل فدان . متوسط ثمن الأردب نحو بوطاقة ونصف ، فتساوى بذور ١٠ أفدنة	–	١٥
٢ – عملية البذر : يمكن لرجل واحد أن يبذر فدانين فى اليوم . أجرة العمل ليوم واحد نحو ٨ مدينى ، فيبلغ أجر بذر عشرة أفدنة نحو	٤٠	–
٣ – تغطية البذور بعد إتمام البذر : لا يغطى الفول المبذور مطلقاً بواسطة عملية حرث ، وإنما تجر قطعة من الخشب بشكل أفقى فوق الحقل المبذور . ويستطيع خمسة رجال يقومون بهذه العملية أن ينتهوا من تغطية مساحة فدان واحد على هذا النحو فى ظرف يوم ؛ ويحصلون على أجورهم عينا ، ويحصل كل منهم على $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب ، وتبلغ جملة الأجور بالنسبة لعشرة أفدنة $\frac{٢}{٢٤}$ ٢ أردبا ، ثمن الأردب الواحد بوطاقة واحدة ونصف ، فيبلغ الثمن الإجمالى	١٢	٣

٤ – مصاريف الحصاد : تقطع أعواد الفول بالمنجل ويلزم رجلان لكى يحصدا فى يوم واحد محصول فدان . ويحصل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
هؤلاء العمال الذين يتقاضون أجورهم عينا على ١/٢٤ من الأردب ، فيلزم للعشرة أفدنة ٤ أرادب و ٤/٢٤ من الأردب (إجمالى الأجر) تساوى ما قيمته نقداً	٢٧	٦
٥ - درس المحصول تحت النورج وتنظيف الفول . ويمكن لأربعة رجال وأربعة ثيران ، يعملون جميعاً لمدة يوم واحد أن يدرسوا وينظفوا إنتاج فدان واحد .		
٩٠ يوم عمل ، بواقع ١/٢٤ من الأردب (لليوم) ، بما فى ذلك إيجار النورج ، تساوى بحسب هذا الأجر ٣ أرادب و ١/٢ الأردب ، تبلغ قيمتها نقداً	٤٥	٤
٦ - نقل الحبوب والقش المهروس (التبن) . يلزم لإنجاز عملية نقل المحصول إلى بيت المزارع أو إلى المخازن، تسعة أيام عمل لجمل واحد مع كلافه مقابل ٣٠ بارة لليوم	-	٣
٧ - تنقلات مختلفة ، توزيع وصيانة الآنية إلخ . ويقدر ذلك بـ ١/١٠ المصاريف الموضحة أعلاه	٢١	٣
إجمالى المصاريف	٥٥	٣٥

الانتاج

منتجات الأرض المزروعة بالفول البياضى هى :

	مدينى	بوطاقة
١ - عدد مكاييل الفول التى تستخدم فى تسديد جزء من مصاريف البذر والحصاد والدرس . ويعطى عن كل هذه الأعمال بالنسبة لعشرة أفدنة ٩ أرادب و ١٤/٢٤ من الأردب من الفول ، ثمن الأردب الواحد ١/٢ ١ بوطاقة . فيبلغ إجمالى ثمنها	٥٦	١٤
٢ - عدد مكاييل الفول التى تبقى فى حوزة المزارع : يعطى فدان الفول ، بعد استبعاد المصاريف التى تسدد عيناً ٩ أرادب من الفول ، أى ٩٠ أردبا من العشرة أفدنة ، ثمن الأردب الواحد ١/٢ ١ بوطاقة ، فيكون إجمالى الثمن	-	١٣٥

	مدينى	بوطاقة
٣ – سيقان الفول المهروسة تحت النورج (تبن الفول) يستخرج من محصول ١٠ أفدنة ٤٥ حمولة جمل من تبن الفول تستخدم فى تغذية الماشية ، بسعر ٢٥ مدينى للحمولة	٤٥	١٢
إجمالى الانتاج	١١	١٦٢
وبذلك يكون الفرق بين إجمالى مصاريف الزراعة وإجمالى الانتاج (أى صافى الربح)	٤٦	١٢٦

ثالثا : زراعة البرسيم البياضى

مصاريف الزراعة

لا تحرث الأرض مطلقاً قبل بذر البرسيم

	مدينى	بوطاقة
١ – البذور : يبذر $\frac{1}{2}$ من الأردب لكل فدان ؛ ولكل عشرة أفدنة $\frac{1}{2}$ ٣ أرادب ، ثمن الأردب الواحد ٣ بوطاقات ، فيصل إجمالى ثمنها إلى	–	١٠
٢ – عملية البذر : يبذر رجل واحد مساحة فدانين فى اليوم ، ويحصل مقابل ذلك على ٨ مدينى . خمسة أيام عمل بهذا الأجر لإتمام بذر عشرة أفدنة ، تساوى	٤٠	–
٣ – تغطية البذور : خمسون يوم عمل لرجل واحد بواقع ٦ مدينى عن اليوم	٣٠	٣
٤ – حصاد فدانين مخصصين للبذور ؛ ويتم هذا الحصاد بالمنجل ؛ ويحصد ثمانية رجال يعملون خلال يوم واحد ، إنتاج الفدان ، ويحصلون على ٨ مدينى (عن يوم العمل الواحد)	٣٨	١
٥ – الدرس : لا يدرس البرسيم الجاف مطلقا تحت النورج لكنه يهرس تحت أقدام الثيران . وتتكلف هذه العملية بالنسبة لمحصول فدان واحد ٧٥ مدينى ، مما يجعل تكاليف درس محصول فدانين	٦٠	

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
٦ – نقل البرسيم الجاف إلى بيت المزارع ؛ ويتطلب هذا النقل يوم عمل لجمل واحد مع كلافه	٣٠	—
٧ – صيانة أدوات ونثريات أخرى	٦٤	١
مجموع المصاريف	٨٢	١٨

الإنتاج

منتجات الأرض المزروعة بالبرسيم البياضى هى :

	مدينى	بوطاقة
١ – الحشة الأولى وتُستهلك خضراء : تباع هذه الحشة التى تتم بعد البذر بثلاثين يوماً واقفة بواقع ٨ بوطاقات للفدان ، فيكون عائد عشرة أفدنة	—	٨٠
٢ – الحشة الثانية وتستهلك خضراء : تباع هذه الحشة التى تتم عقب الحشة الأولى بنحو عشرين أو خمسة وعشرين يوما ، واقفة ، بواقع ٥ بوطاقات للفدان ، فيكون إجمالى عائد الأفدنة الثمانية حيث يخصص الفدانان الآخران لإنتاج البذور ...	—	٤٠
٣ – بذور البرسيم التى تستخلص من فدانين : ينتج فدان البرسيم الذى يترك ليجف واقفا أردبين من البذور ، وتساوى الأرادب الأربعة الناتجة من محصول فدانين ، والتى يبلغ سعر الواحد منها ٣ بوطاقات	—	١٢
٤ – برسيم جاف بعد درسه (تبن البرسيم) . يستخدم البرسيم الجاف الذى تستخلص البذور منه غذاء للجمال والماعز . وينتج الفدانان المخصصان لهذا الغرض ١٢ حمولة جمل ، ثمن الواحدة منها ٣٥ بارة ، فيكون إجمالى ثمنها	٦٠	٤
قيمة إجمالى الإنتاج	٦٠	١٣٦
الفرق بين مصاريف الزراعة وقيمة إجمالى الإنتاج	٨٨	١١٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رابعاً : زراعة القرطم البياضى

مصاريف الزراعة

لا تحرث الأرض مطلقاً قبل البذر :

البيان	مدينى	بوطاقة
١ – البذور : يبذر لكل فدان $\frac{١}{٤}$ أردب من بذور القرطم بسعر ١٣٥ مدينى للأردب . وبهذا السعر ، يبلغ إجمالى ثمن $\frac{١}{٢}$ ٢ أردب لازمة لبذر عشرة أفدنة	٦٧	٣
٢ – عملية البذر : تلزم عشرة أيام ليقوم عامل واحد ببذر ١٠ أفدنة ، يحصل مقابل كل يوم منها على ٨ بارات	٨٠	–
٣ – عملية حرث بقصد تغطية بذور القرطم بعد بذرها . عشرون يوم عمل لزوج من الثيران مع سائقهما ، بواقع ٤٥ مدينى (ليوم العمل الواحد)	–	١٠
٤ – جنى الورود : يستخدم فى اليوم الواحد من ١٢ إلى ١٥ امرأة وطفلا ، يدفع لكل منهم بواقع ٣ مدينى لكل رطلين من الورود . وينتج الفدان عادة ٣٩٠ رطلا ، مما يصل بتكاليف حصاد فدان واحد إلى ٥٨٥ مدينى وبذلك تكون تكاليف حصاد ١٠ أفدنة	–	٦٥
٥ – تحويل ورود القرطم إلى زعفران : يلزم ٤٥ يوم عمل لرجل واحد ليتم تحويل إنتاج محصول الفدان إلى زعفران . ويبلغ أجر يوم العمل الواحد نحو ١٠ مدينى . وبهذا السعر تبلغ تكاليف أربعمائة وخمسين يوم عمل (اللازمة لتحويل محصول ١٠ أفدنة)	–	٥٠
٦ – حصد البذور : يعمل رجل واحد لمدة خمسة عشر يوما لاقتلاع سيقان (محصول) فدان واحد . وتتكلف المائة والخمسون يوما (اللازمة) والتى يبلغ أجر اليوم منها ٨ بارات ...	٣٠	١٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
٧ – درس السيقان وتنظيف البذور : لمحصول ١٠ أفدنة تلزم مائة يوم عمل ، بواقع ٨ بارات عن اليوم ، فتكون جملة تكاليف هذه العملية	٨٠	٨
٨ – نقل السيقان الجافة وبذور القرطم : أربعة أيام عمل لجمل واحد مع سائقه ، بواقع ٣٠ مدينى ليوم العمل الواحد.....	٣٠	١
٩ – نثريات ومصروفات إضافية ، تقدر بـ ٤٥ مدينى لكل فدان	–	٥
إجمالى المصاريف	١٧	١٥٨

الإنتاج

منتجات الأرض المزروعة بالقرطم هى :

	مدينى	بوطاقة
١ – نشا أو لباب الزعفران اللازم للصباغة : ينتج الفدان الواحد فى السنة العادية ½ ٢ قنطار من الزعفران ، وبذلك تنتج ١٠ فدادين ٢٥ قنطاراً تساوى ، بواقع القنطار الواحد ١٢ بوطاقة	–	٣٠٠
٢ – بذور القرطم ، يستخلص ½ ٢ أردب من البذور من كل فدان ، ومن ١٠ أفدنة ٢٥ أردباً ، تساوى بواقع الأردب الواحد ٢٣٥ مدينى	٤٥	٣٧
٣ – سيقان النبات الجافة : تنتج العشرة أفدنة ثلاثين حمولة جمل من سيقان القرطم ، التى تستخدم وقوداً بعد تجفيفها ؛ وتساوى الحمولة ٣٠ مدينى وبذلك تبلغ قيمة الثلاثين حمولة	–	١٠
قيمة إجمالى الناتج	٤٥	٣٤٧
الفرق بين المصاريف وبين الناتج من محصول القرطم	٢٨	١٨٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خامسا : زراعة الذرة النبارى

مصاريف الزراعة

	مدينى	بوطاقة
١ – حرث وإعداد الأرض : تحرث الأرض المخصصة لزراعة محصول الذرة قبل البذر . وتتطلب الحرثة الأولى لكل فدان ثلاثة أيام عمل لزوج من الثيران مع سائقهما ، وبذا يلزم للفدادين العشرة ثلاثون يوم عمل بواقع ٣٢ بارة عن يوم العمل الواحد	٦٠	١٠
٢ – البذور : يبذر عادة لكل فدان $\frac{٥}{١٢}$ من الأردب مما يتطلب لعشرة أفدنة $\frac{١}{٦}$ ٤ أردب ، ثمن الأردب الواحد منها ١٢٠ مدينى ، وبذلك تساوى البذور اللازمة	٥٠	٥
٣ – عملية البذر : يلزم لعشرة أفدنة مائة يوم عمل لرجل واحد ، بواقع ٨ مدينى كأجر عن اليوم الواحد	٨٠	٨
٤ – الرية الأولى عقب البذر : يروى الذرة مباشرة عقب البذار ، العمل الذى يتطلب من أجل عشرة فدادين مائة وعشرون يوم عمل بواقع ٧ مدينى عن كل يوم	٣٠	٩
٥ – رى النبات أثناء نموه : عندما تكون السنة مواتية يمكن إدخال مياه الفيضان إلى حقول الذرة ، وتوجه المياه لهذا الغرض بواسطة جداول (مسقى) . ويمكن الإفادة من هذه الميزة (ميزة الرى الطبيعى) لمدة شهرين . ويستغنى الناس خلالها عن الرى باليد وهو الأمر الذى يصبح ضرورياً عندما لا تكون السنة مواتية . ونفترض ، للحصول على نتيجة متوسطة ، أن أعمال الرى تبقى متوقفة لمدة شهر بسبب حدوث الفيضان . وأنه تكفى عندئذ متابعتها أثناء خمسة وأربعين أو ستين يوماً ، فيلزم خلال هذه المدة ، ليتم رى وعزق (وتنقية المحصول من الأعشاب		

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
الضارة) ١٠ فدادين ، خمسمائة يوم عمل ، تساوى بواقع اليوم الواحد ٧ مدينى	٨٠	٣٨
٦ – مصاريف الحصاد : يقطع عشرة رجال (محصول) فدان من الذرة فى يوم واحد ، ويحصلون على أجورهم عيناً ، ويتلقى الواحد منهم $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب من الحبوب ، وهى كمية تحتسب دائماً خارج (أى تستبعد) من إنتاج المحصول . وبهذا السعر (الأجر) فإن مائة يوم (عمل) تكلف ٤ $\frac{١}{٦}$ أرادب ، ثمن الأردب الواحد ١٢٠ مدينى ، وبذلك (يساوى مقدار ما يدفع عيناً كأجر)	٥٠	٥
٧ – درس شواشى نبات الذرة ، وتنظيف الحبوب : تهرس رؤوس نبات الذرة بعد أن تتعرض للشمس تحت أقدام الثيران . فيتكلف هذا العمل بوطاقة واحدة عن (محصول) الفدان ، ويتكلف بالنسبة للفدادين العشرة	–	١٠
٨ – نقل الحبوب والتبن إلى بيت المزارع : اثناعشر يوم (عمل) لجمل واحد مع سائقه ، بواقع ٣٠ مدينى (عن يوم العمل الواحد)	–	٤
٩ – توزيع الأدوات وصيانتها ومصاريف متفرقة ، ويقدر ذلك كله بـ $\frac{١}{١٠}$ من المصروفات الأخرى	١٨	٩
إجمالى المصروفات	٨	١٠٢

الإنتاج

منتجات الأرض المزروعة بالدرة النبارى هى :

١ – كمية الحبوب المستخدمة فى تسديد مصاريف الحصاد عيناً : يعطى للحاصدين مقابل حصد ١٠ أفدنة ، ٤ $\frac{١}{٦}$

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
أرادب ثمن الأردب الواحد ١٢٠ مدينى ، فتساوى الكمية كلها ..	٥٠	٥
٢ – كمية الحبوب التى تبقى للمزارع بعد تسديد مصاريف الحصاد : يبلغ هذا القدر من الإنتاج عادة عشرة أرادب للفدان ، و ١٠٠ أردب للعشرة أفدنة ، ثمن الأردب منها ١٢٠ مدينى ، فيساوى إجمالى المحصول	٣٠	١٣٣
٣ – أعواد الذرة الجافة وهى تستخدم كوقود : ينتج الفدان عادة ١٠ حمولات جمل من الأعواد الجافة ، وتنتج العشرة أفدنة ١٠٠ حمولة ، ثمن الحمولة الواحدة ١٥ بارة فيبلغ ثمن المجموع	٣٠	١٣
قيمة إجمالى الإنتاج	٢٠	١٥٢
الفرق بين مصاريف الزراعة وعائد الاستغلال (*)	١٢	٥٠

سادسا : زراعة النيلة

مصاريف الزراعة

يزرع نفس الحقل بمحصول النيلة فى مصر العليا لمدة ثلاث وأحياناً أربع سنوات متوالية ؛ وتختلف مصاريف ومنتجات الاستغلال من سنة لأخرى بنسبة تبلغ ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ على وجه التقريب .

خلال السنة الأولى

	مدينى	بوطاقة
١ – حرث الأرض ثلاث مرات مختلفة ، وتقسيم الأرض إلى أحواض من أجل الرى ، وتتكلف هذه العملية التمهيدية ٢٤٠ مدينى للفدان ، وتتكلف بالنسبة للعشرة فدادين	٦٠	٢٦

(*) هذا هو المعنى المقصود فى حين أن ما ورد فى النص يتحدث عن مصاريف الاستغلال ، والخطأ فى هذا واضح (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
٢ – البذور : يبذر لكل فدان $\frac{٥}{٢٤}$ من الأردب من بذور النيلة السورية ، سعر الأردب منها ٤٨ بوطاقة ، ويلزم لعشرة أفدنة ٢ $\frac{٢}{٢٤}$ أردب ، تساوى حسب هذا السعر	–	١٠٠
٣ – البذر : تلزم عشرة أيام ليبذر عامل واحد مساحة فدان ، وتلزم مائة يوم (عمل) لبذر ١٠ أفدنة ، أجرة اليوم منها ٨ مدينى	٨٠	٨
٤ – الرى وعزق النبات (لتخليصه من الأعشاب الضارة) وصناعة النشا (اللباب) المستخدم فى الصباغة : يستخدم تسعة رجال فى العام للقيام بالرى وعزق نبات النيلة وصناعة النشا ؛ متوسط أجر يوم (العمل) ٧ مدينى : وبافتراض ٢٥ يوم عمل لكل شهر ، تبلغ مصاريف استغلال فدان واحد نحو ١٤٠ بوطاقة ، وتبلغ بالنسبة لمساحة ١٠ فدادين .	–	١٤٠٠
٥ – مشتريات الأوانى اللازمة لصناعة الصبغة . مائة وستون إناء من الطين المحروق ، ثمن الواحدة ١٥ بارة	٦٠	٢٦
٦ – صيانة وتوزيع الآنية ومصاريف نثرية أخرى بتقدير يبلغ $\frac{١}{٢٠}$ (من المصاريف السابقة)	١١	٧٨
إجمالى المصاريف خلال السنة الأولى	٣١	١٦٤٠
خلال السنة الثانية :		
الرى والعزق والتصنيع ، الخ	–	١١٠٢
خلال السنة الثالثة :		
الرى والعزق الخ	–	٧٣٥
خلال السنة الأخيرة ، الرى وخلافه	–	٣٦٧
إجمالى مصاريف الزراعة بالنسبة للسنوات الأربع	٣١	٣٨٤٤
متوسط مصاريف الزراعة عن السنة الواحدة	٨	٩٦١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنتـاج

تتم خلال السنة الأولى من زراعة النيلة أربع حشات متوالية من النبات . ويختلف ثمن الرطل من النيلة تبعا لدرجة جودته ولكمية الطلب عليه ؛ وإن كان إنتاج الحشات الأربع فى السنة نفسها يتعرض للتناقص .

وتنتج الحشة الأولى من فدان النيلة عادة	٤٢٠ رطلا
« « الثانية منه	٣٧٠ «
« « الثالثة	٢٨٠ «
« « الرابعة	٢٢٥ «
مجموع إنتاج فدان واحد فى السنة الأولى	١٢٩٥ رطلا
مجموع إنتاج عشرة أفدنة	١٢٩٥٠رطلا

	مدينى	بوطاقة
متوسط ثمن رطل النيلة ٢٠ مدينى ، وتساوى		
١٢٩٥٠رطلا بهذا السعر	–	٢٤٤٦
ويبلغ ثمن إنتاج السنة الثانية	–	١٨٣٥
ويبلغ ثمن إنتاج السنة الثالثة	–	١٢٢٣
وثمن إنتاج السنة الرابعة........................	–	٦١٢
ثمن إجمالى إنتاج السنوات الأربع	–	٦١١٦
متوسط ثمن إنتاج السنة الواحدة	–	١٥٠٤
الفرق بين متوسط مصاريف الزراعة ومتوسط ثمن الانتاج فى سنة واحدة	٨٢	٥٤٢

سابعا : زراعة القمح الشتوى فى الفيوم

مصاريف الزراعة

١ – حرث الأرض قبل البذر : يلزم عموماً يومان عمل من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
ثورين مع راعيهما لحرث فدان واحد ، وتبلغ أجرة اليوم للحميع نحو ٣٦ مدينى ، فتبلغ بالنسبة للحرثة الأولى للعشرة أفدنة	–	٨
٢ - البدور : يبذر فى كل فدان $\frac{٢}{٣}$ الأردب وفى العشرة أفدنة $\frac{١}{٣}$ ٦ أرادب . ثمن الواحد منها ٢ بوطاقة و ٤٥ مدينى فتساوى كلها ..	٧٥	١٥
٣ – البذر : عشرة أيام عمل لرجل واحد ، بواقع ١٠ بارات عن اليوم	١٠	١
٤ – الحرثة الثانية لتغطية الحبوب بعد البذر : كالسابق .	–	٨
٥ – الرى بواسطة يد الإنسان : يتم الرى بواسطة الشادوف ويتكرر لأربع مرات منذ البذر حتى الحصاد . ويروى أربعة رجال يعملون لمدة أربعة أيام فداناً واحداً ، مما يتطلب على هذا النحو ٦٤ يوم عمل لتمام رى فدان واحد مما يتطلب بالنسبة لعشرة أفدنة ٦٤٠ يوم عمل ، تساوى بواقع أجرة يوم العمل الواحد ٨ مدينى	٨٠	٥٦
٦ – الحصاد : لا يقتلع القمح الشتوى مطلقاً كما يقتلع القمح البياضى وإنما تقطع أعواده بواسطة المنجل . ويلزم عشرة رجال لحصد فدان واحد . ويبلغ أجر يوم العمل الواحد $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب وتساوى الفدادين العشرة المحصودة على هذا النحو ٤ أرادب و $\frac{٤}{٢٤}$ من الأردب ، ثمن الأردب ٢ بوطاقة و ٤٥ مدينى ، فيبلغ إجمالى التكاليف	٣٣	١٠
٧ – الدرس تحت النورج : ثمانون يوم عمل من رجل واحد وثمانون مثلها للثيران ، وعشرون يوما للنورج ، بواقع $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب لليوم الواحد . وتساوى الـ $\frac{١}{٢}$ ٧ أرادب (إجمالى أجر ما سبق) نقدا ..	٦٨	١٨
٨ – نقل المحصول إلى بيت المزارع : تسعة أيام عمل لجمل واحد ، بواقع ٢٥ بارة عن اليوم	٤٥	٢
٩ – صيانة وإصلاح السواق ، ويقدر ذلك بـ $\frac{١}{١٠}$ المصاريف السابقة	١٣	١٢
إجمالى المصاريف	٥٤	١٣٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنتاج

البيان	مدينى	بوطاقة
منتجات الأرض المزروعة بالقمح الشتوى فى ولاية الفيوم هى : ١ – كمية الحبوب المقدمة باعتبارها أجرا لمصاريف الحصاد والدرس إلخ ، تبلغ هده المصاريف المسددة عيناً حسب التفاصيل الواردة بالفقرة السابقة ١١ ١٦/٢٤ أردباً ، ثمن الأردب الواحد ٢ بوطاقة و ٤٥ مدينى ، فتساوى (كلها)	٤٥	٢٨
٢ – كمية الحبوب التى تبقى تحت تصرف المزارع بعد الحصاد : ينتج القمح الشتوى ، حيث يحظى على الدوام بعناية شديدة ، كمية كبيرة للغاية من الحبوب والقش (التبن) بالنسبه لما ينتجه القمح البياضى ويمكننا أن نقدر متوسط إنتاج الفدان بـ ٨ أرادب ، و بـ ٨٠ أردباً بالنسبة للعشرة أفدنة ، ثمن الأردب منها ٢ بوطاقة و ٤٥ مدينى ، فيساوى المحصول	–	٢٠٠
٣ – القش المهروس تحت النورج (التبن) : ثمانون حمولة جمل ، ثمن الواحدة ١٥ بارة	٣٠	١٣
إجمالى الإنتاج	٧٥	٢٤١
الفرق بين إجمالى الإنتاج وبين مصاريف الزراعة	٢١	١٠٨

ثامناً : زراعة الكتان فى الدلتا

مصاريف الزراعة

البيان	مدينى	بوطاقة
١ – حرث الأرض : تحصل الأرض التى ينبغى أن تزرع بالكتان على حرثتين متتاليتين ، ومتقاطعتين بشكل عرضى وتتكلف كل حرثة من هاتين الحرثتين ، بالنسبة لفدان واحد ، ٦٠ بارة ، مما يجعل تكاليف حرث عشرة أفدنة..............	٣٠	١٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
٢ – تسوية الأرض وتقسيمها إلى أحواض : ويتكلف ذلك بالنسبة لفدان واحد ٤٥ مدينى ، وبالنسبة للفدادين العشرة	–	٥
٣ – البذور : يبذر بالفدان أردب واحد من بذور الكتان ثمنه ٤ بوطاقات ، أى ما يساوى بالنسبة لعشرة فدادين	–	٤٠
٤ – عملية البذر : يوما عمل لكل فدان ، بواقع ٨ بارات عن اليوم ، وبالنسبة لعشرة فدادين	٧٠	١
٥ – الرى : يروى الكتان أثناء الشهور الأربعة التى يقضيها فى الأرض ، ثلاث مرات مختلفة ، وتتطلب كل واحدة من هذه الريات ، والتى تستمر ثلاثة أيام متعاقبة ، عملا أكبر كلما ازداد انخفاض المياه . وينبغى استخدام ستة عمال لكل فدان عن الرية الأولى ، وثمانية عن الرية الثانية ، وعشرة عن الثالثة ، أى أن كل فدان يتطلب ٧٢ يوم عمل للريات الثلاث ، أى أن الفدادين العشرة تتطلب ٧٢٠ يوم عمل ، بواقع ٨ بارات لكل يوم عمل ، وبذا تبلغ جملة تكاليف الرى	–	٦٤
٦ – حصاد الكتان : يتطلب اقتلاع محصول الفدان الواحد تسعة أيام عمل ، بواقع ٧ بارات عن اليوم ، وبذا تبلغ جملة التكاليف للعشرة أفدنة	–	٧
٧ – تجفيف المحصول فى الشمس وربطه فى شكل حزم : ثلاثون يوما لمحصول الفدادين العشرة ، بواقع ٧ مدينى لليوم الواحد	٣٠	٢
٨ – درس الكتان لاستخلاص البذور : تتكلف هذه العملية بوطاقة لمحصول الفدان الواحد ، أى تتكلف بالنسبة لمحصول عشرة أفدنة	–	١٠
٩ – إعادة وضع الكتان فى شكل حزم لنقله إلى الأحواض	١٥	١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
١٠ – نقل الكتان من داخل هذه الأحواض : تلزم خمسة أيام كى يقوم جمل واحد بنقل محصول ١٠ أفدنة ، بواقع ٣٠ بارة عن اليوم	٦٠	١
١١ – تنظيم الكتان فى الأحواض ، إخراجه من هذه الأحواض ، تعريضه للشمس ، إعادة وضعه فى شكل حزم للبيع : تتكلف كل هذه العمليات ½ بوطاقة بالنسبة لإنتاج الفدان الواحد ، فتبلغ جملة التكاليف بالنسبة لإنتاج عشرة أفدنة	–	٥
١٢ – صيانة وتوزيع أدوات ، ومصاريف نثرية أخرى تقدر كلها بـ	١١	١٥
إجمالى مصاريف الزراعة	٣٦	١٦٦

الإنتاج

	مدينى	بوطاقة
١ – أعواد الكتان بعد إعدادها للبيع : ينتج الفدان الواحد عادة ١٨ ربطة ، تتكون الواحدة من ٢٤ حزمة ؛ ثمن الربطة بوطاقة و ٤٠ مدينى ، مما يجعل عائد الفدان الواحد ٢٦ بوطاقة ، وعائد العشرة أفدنة	–	٢٦٠
٢ – بذور الكتان : ينتج الفدان ½ ٣ أرادب من البذور ثمن الأردب منها ٤ بوطاقات ، فيبلغ إنتاج الفدان ١٤ بوطاقة ويبلغ بذلك ثمن إنتاج العشرة أفدنة	–	١٤٠
إجمالى الإنتاج	–	٤٠٠
الفرق بين المصاريف وناتج الاستغلال	٥٤	٢٣٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاسعا : زراعة الأرز

مصاريف الزراعة

تررع الأرض ، فى نفس السنة التى تخصص فيها لزراعة الأرز ، بالقمح أو البرسيم ؛ وعلى هذا ، فلابد لكى نقيم عائد الإنتاج أن نقارن إجمالى المصروفات التى تنفق على التوالى لكل زراعة ، بالعائد المتتالى لهذه الزراعة ولتلك .

كذلك فإن الرى المستمر الذى تتطلبه حقول الأرز ، يضطر المزارعين لاقتناء عدد أكبر من الثيران مما يتطلبه رى المحاصيل الأخرى . وينبغى أن تضاعف لنفس السبب عدد ماكينات الرى ، ومشتروات الماشية وحالات الوفيات التى تسببها . وتؤدى إقامة هذه الماكينات وصيانتها اليومية إلى إنفاق مصاريف بالغة الضخامة ينبغى أن تعد فوائدها السنوية (فوائد هذه المصاريف باعتبارها رأس مال يقدر له نسبة مس الربح) جزءاً من التكاليف .

ومما يميز استغلال حقول الأرز ، على نحو خاص ، أن المزارع بدلا من أن يستخدم عمال يومية بحسب حاجته ، يعطى راتباً سنوياً لرجال يستخدمهم . وبسبب هذه الظروف المختلفة ، يقترب استغلال حقول الأرر بدرجات متفاوتة من استغلال مزارعنا فى أوربا .

وتتضمن المصاريف اللازمة لزراعة الأرز فوائد المبالغ المدفوعة مقدما بهدف اقتناء الماشية وماكينات الرى والأدوات الزراعية ؛ وينبغى أن نضيف إلى ذلك حالات الوفيات التى تتعرض لها المواشى عادة كل عام ، ومصاريف تجديد الماكينات وأدوات الرى بعد وقت معين من استخدامها ؛ ولابد أن نضيف كذلك مصاريف غذاء المواشى ، وأجور ومكافآت العمال الذين يجرى استخدامهم ، وثمن البذور ، ومصاريف الزراعة والحصاد بالمعنى المحدد للكلمتين .

ويبلغ سعر فائدة الأموال فى مصر عادة ١٠ بالمائة ؛ وكما يحدث فى كل مكان ، فإن ادعاءات وأطماع المرابين لا تعرف لنفسها من حد ، اللهم إلا ما تحدده درجة إلحاح حاجة أولئك الذين يضطرون للاقتراض . ومع ذلك وبصفة عامة ، فإن فائدة المال ينظر إليها فى هذه البلاد باعتبارها ربا إذا ما تجاوز سعرها السنوى عن ذلك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بوطاقة مدينى

١ – فوائد القروض المستخدمة فى شراء الثيران :
يستخدم عادة لزراعة عشرة أفدنة ، اثنا عشر ثورا ، يبلغ متوسط ثمنها ٧٢٠ بوطاقة وبذلك تكون الفوائد المقدرة على ذلك هى .... ٧٢ —

وإذا افترضنا أن حالات المرض أو الوفاة التى تصيب الماشية لن تعوض مطلقا عن طريق المنافع التى يمكن أن تتحقق من تربيتها ، فسوف تقدر الخسائر المحققة التى يتعرض لها المزارع فى هذه الماشية بمقدار $\frac{١}{١٠}$ من إجمالى عددها ، ويقدر ذلك بـ .... ٦٠ —

٢ – ماكينات الرى ، والأدوات الزراعية : تلزم ثلاث سواق لرى عشرة أفدنة ، تساوى كل واحدة منها ، فى المتوسط ٣٠ بوطاقة وتساوى الماكينات الثلاث ٩٠ بوطاقة ، وتساوى الفائدة السنوية لهذا المبلغ .... ٩ —

وبسبب رداءة بناء هذه السواقى ، يضطر المزارعون لتجديدها مرة كل خمس سنوات . وبتقسيم قيمة هذه الماكينات على كل واحدة من هذه السنوات ، نجد أن المصاريف السنوية (لهذا الغرض) تبلغ .... ١٨ —

أما الأدوات الزراعية الأساسية فتشتمل على محراثين وماكينة لدرس الأرز . وتبلغ قيمة الجميع ٣٠ بوطاقة ، تساوى الفائدة المقدرة عليها .... ٣ —

تجديد ، وصيانة هذه الماكينات وتوزيعها .... ٣ —

٣ – تغذية الثيران : تعيش الثيران لمدة أربعة شهور على الفول والتبن .

ويبلغ ثمن التبن فى السنة العادية .... ٧٥ —

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
ويبلغ ثمن الفول	–	١٠٠
وفى خلال خمسة شهور أخرى تعيش الثيران على البرسيم الأخضر ، ويقدر ثمنه بـ	–	٢٠٠
وأخيراً ففى خلال الشهور الثلاثة الباقية ، تغذى الماشية بالبرسيم الجاف ، بحصيلة حش تسعة فدادين من الأرض ، بواقع ١٢ بوطاقة لمحصول الفدان الواحد ، فتكون جملة المصاريف هنا .	–	١٠٨
٤ – أجور العمال المستخدمين طول العام : رجلان يوكل إليهما العناية بالماشية ، يحصل كل منهما على ٣٠ مدينى فى الشهر ، فتساوى الأجور فى عام	–	٨٠
خمسة رجال آخرون ، يستخدمون بالمثل طول العام ، ويكلفون بالعناية بماكينات رفع المياه ، وبأعمال يومية أخرى ويحصلون على ٩ مدينى فى اليوم (لكل منهم) ، مما يتكلف فى العام	–	١٨٠(*)
كما يستخدم المزارعون كذلك رئيساً أو ملاحظاً للعمال يدفعون له سنويا عادة	–	٧٢

٥ – الحرث : يقوم العمال الذين انتهينا من الإشارة إليهم والذين يعيشون على نفقة المزارعين بالحرثات اللازمة ....

٦ – البذور : يبذر فى الفدان الواحد $\frac{٣}{٨}$ أردب من الأرز ، وإن كان لا يبذر سوى نصف الأرض المستغلة ، أما النصف الآخر فيخصص لكى تشتل به أعواد النبات الزائدة عن الحاجة والتى تقتلع من الأرض التى بذرت بها فى البداية .

(*) هذا هو التقدير الصحيح فى حين جاء بالنص أنه ١٠٨ . (المترجم) .

مديني بوطاقة

ولهذا فيلزم لعشرة أفدنة ١٥/٨ من الأردب ، تساوى بواقع ٢٤ بوطاقة للأردب .... — ٤٥

٧ – أيام العمل اللازمة لشتل الأرز وعزقه وتنقية النبات من الأعشاب ، إلخ بخلاف العمال الموكلة إليهم أعمال الاستغلال طيلة العام ، فإن المزارعين يضطرون لاستخدام عمال يومية غرباء إما لشتل الأرز أو عزقه وتنقية النبات من الأعشاب الضارة ، وكذلك لتطهير ترع وقنوات الرى ، ويمكن أن يصل عدد أيام عملهم إلى ٤٥ يوماً للفدان الواحد ، وإلى ٤٥٠ يوماً للأفدنة العشرة ، أجرة اليوم منها ١٠ مدينى ، وبذلك يبلغ إجمالى المصاريف .... — ٥٠

٨ – مصاريف حصد ودرس الأرز : يحصد الحاصدون الأرز ويضعونه فى حزم وينقلونه إلى جرن حيث يدرس ، ويحصل هؤلاء على أجرهم عينا ، ويبلغ أجرهم عن ١٠ أفدنة أردباً من الأرز .... — ٢٤

أما الدين يقودون الثيران المعلقة بالنورج ، فيحصلون مقابل درس محصول ١٠ أفدنة على ٥/١٦ من الأردب ٤٥ ٧

وبعد أن يحصد الأرز مباشرة ، تغمر الأرض بالمياه لمدة بضعة أيام ، وتبذر من جديد ، دون أى إعداد مبدئى بالبرسيم . وهو محصول العلف الوحيد المعروف فى ولايات الدلتا ورشيد .

٩ – بذور البرسيم : يبذر لكل فدان ثلاثة مكاييل من بذور البرسيم ، يباع المكيال منها بـ ٣٠ مدينى ؛ مما يجعل تكاليف بذور الفدان بوطاقة واحده، وتكاليف ١٠ أفدنة .... — ١٠

١٠ – حشات البرسيم المتعاقبة : لا يتكلف حصد هذا العليق ، الذى تحش منه ثلاث حشات ، ابتداء من شهر نوفمبر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
حتى الربيع ، إلا عشر بوطاقات ، إذ يتم جزء من هذا العمل على يد العمال المستخدمين خلال العام والذين حسبت أجورهم فيما سبق	–	١٠
إجمالى مصاريف الزراعة	٤٥	١٠٥٤

الإنتاج

هذه هى منتجات الأرض المزروعة بالأرز والبرسيم على التوالى :

	مدينى	بوطاقة
١ – كمية الأرز المعطاة بمثابة أجور لمصاريف الحصاد والدرس : تبعا للفقرة السابقة ، تبلغ هذه الكمية بالنسبة لعشرة أفدنة ١ ٥/١٦ أردب ؛ وبواقع ٢٤ بوطاقة للأردب ، فإن هذه الكمية تساوى	٤٥	٣١
٢ – كمية الأرز التى تبقى فى حوزة المزارع بعد تسديد مصاريف الزراعة : فى أفضل السنوات ، تنتج الأراضى المحيطة بدمياط ورشيد ما يصل إلى ٦ أرادب من الأرز للفدان الواحد ؛ لكنها فى السنوات السيئة لا تنتج سوى أردبين (للفدان) . متوسط الإنتاج ٤ أرادب فيكون ثمن الإنتاج لعشرة فدادين ، بواقع ٢٤ بوطاقة للأردب	–	٩٦٠
٣ – قش الأرز المهروس تحت النورج (التبن) . ولا يستخدم هذا القش إلا فى الوقود . وتبلغ قيمة القش المحصود من مساحة ١٠ أفدنة	–	١٢
٤ – البرسيم الأخضر : تباع الحشة من البرسيم الأخضر للفدان الواحد بواقع ١٥ بوطاقة ، والحشات الثلاث المتعاقبة بـ ٤٥ بوطاقة ، فيبلغ إجمالى إنتاج ستة أفدنة	–	٢٧٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مديني	بوطاقة
٥ – البرسيم الجاف : تباع حشة فدان واحد من البرسيم المخصص للتجفيف لفصل الشتاء بـ ١٢ بوطاقة ، فتساوى الحشات الثلاث لمساحة أربعة أفدنة	–	١٤٤
قيمة إجمالى منتجات الأرز والبرسيم	٤٥	١٤١٧
قيمة الفرق بين مصاريف الزراعة وعائد الإنتاج	–	٣٦٣

ويبقى علينا أن نوضح مقدار الكسب الذى كان سيتحقق لو أن العشرة أفدنة التى ينطبق عليها بحثنا ، قد زرعت بالقمح بدلا من البرسيم ، عقب حصاد الأرز .

مصاريف الزراعة

	مديني	بوطاقة
مصاريف زراعة الأرز كما توضحت سابقاً	٤٥	١٠٥٤
يقوم بالحرث ، وبالتجهيزات الأخرى للأرض التى ينبغى أن تبذر فيها الحنطة الرجال التابعون للمزارع . وحيث تدخل أجورهم ضمن المصاريف العامة للاستغلال ، وكذلك الحال بالنسبة لتغذية الثيران المستخدمة فى هذه الأعمال ، فليس ثمة ما ينبغى أن نضيفه هنا إلا قيمة البذور ، ومصاريف الحصاد .		
١ – البذور : يبذر فى الفدان الواحد عادة ½ أردب من الحنطة ؛ فتبلغ تكاليف بذور العشرة أفدنة ، بواقع ثمن الأردب أربع بوطاقات	–	٢٠
٢ – مصاريف حصد ودرس القمح ، مقدرة على نفس أسس محصول الأرز ، بواقع ٢ بوطاقة للفدان	–	٢٠
وعلى هذا النحو ، تبلغ المصاريف السنوية التى تقتضيها زراعة عشرة أفدنة تبذر على التوالى بالأرز والحنطة	٤٥	١٠٩٤

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنتاج

	مدينى	بوطاقة
إجمالى قيمة ناتج محصول الأرز كما توضح سابقاً........	٤٥	١٠٠٣
أما إجمالى ناتج رراعة الحنطة فى نفس الأرض فهى :		
١ – كمية الحبوب التى تستخدم فى سداد مصاريف الحصاد : تبلغ هذه الكمية ½ أردب للفدان ، وخمسة أرادب للعشرة أفدنة ، بواقع ٦ بوطاقات للأردب ، فيبلغ إجمالى الثمن..	–	٣٠
٢ – كمية البذور التى تبقى فى حوزة المزارع بعد سداد مصاريف الحصاد : تنتج الأرض المزروعة بالحنطة فى السنة العادية ½ ٧ أرادب للفدان ، بواقع ٤ بوطاقات للأردب فيبلغ ثمن إنتاج عشرة أفدنة	–	٣٠٠
٣ – القش المهروس تحت النورج (التبن) : يباع إنتاج فدان الأرض من القش المهروس بـ ٦ بوطاقات فى العادة ، وبالنسبة لعشرة أفدنة	–	٦٠
قيمة إجمالى الإنتاج من الأرز والحنطة	٤٥	١٣٩٣
قيمة إجمالى الفرق بين مصاريف الزراعة وعائد الاستغلال	–	٢٩٩

وقبل أن نمضى لأبعد من ذلك ، فقد نلاحظ أن العشرة أفدنة التى نطبق عليها مصاريف وعوائد زراعة الأرز ، كما بينا للتو بالتفصيل ، تقع ضمن أراضى دمياط ، حيث المقاييس أكبر مساحة من بقية أراضى مصر بنسبة ٦٨٧٧ إلى ٥٩٢٧ ؛ لذلك ينبغى أن نضغط بنفس النسبة مصاريف وعوائد زراعة الأرز ، بهدف وضعها فى شكل قابل للمقارنة مع مصاريف ومنتجات الزراعات الأخرى فى مصر .

وإذا أخذنا هذه الملاحظة فى الاعتبار ، فسنجد أن مصاريف زراعة الأرز فى مساحة ١٠ أفدنة عادية (أى بالمساحة المعتادة فى بقية أنحاء مصر) :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدينى بوطاقة

١ – عندما تزرع هذه الأرض نفسها بالبرسيم فى نفس السنة .... – ٩٠٨

٢ – عندما تزرع نفس الأرض بالحنطة .... – ٩٤٢

وكذلك ، نجد إجمالى عائد الإنتاج :

١ – أرز وبرسيم .... – ١٢٢٢

٢ – أرز وحنطة .... – ١٢٠٢

ونستطيع الآن أن نوجز فى الجدول التالى مصاريف ومنتجات المحاصيل المختلفة التى اتخذناها أمثلة .

الزراعات	المصاريف		الإنتاج		صافى الأرباح	
	مدينى	بوطاقة	مدينى	بوطاقة	مدينى	بوطاقة
القمح البياضى	٧٤	٥١	٢٠	٢٠٠	٣٦	١٤٨
الفول البياضى	٥٥	٣٥	١١	١٦٢	٤٦	١٢٦
البرسيم البياضى	٧٢	١٨	٦٠	١٣٦	٧٨	١١٧
القرطم البياضى	٨٠	١٥٧	٤٥	٣٤٧	٥٥	١٨٩
الذرة البارى	٣	١٠٢	٢٠	١٥٢	١٧	٥٠
النيلة	١٢	٩٦١	–	١٥٠٤	٧٨	٥٤٢
القمح الشتوى	٥٤	١٣٣	٧٥	٢٤١	٢١	١٠٨
الكتان	٣٦	١٦٦	–	٤١٧	٥٤	٢٥٠
أرز مع برسيم	–	٩٠٨	–	١٢٢٢	–	٣١٤
أرز مع قمح	–	٩٤١	–	١٢٠٢	–	٢٦٠

وقد يكون من نافلة القول أن نضيف إلى التفاصيل التى قدمناها حول مصاريف ومنتجات الزراعات الرئيسية فى مصر ، التى تتماثل مصاريفها وعوائدها مع الزراعات الأخرى ، التى وصفناها فى الفقرات السابقة ؛ وسوف نكتفى بأن نقدم فى

الجدول الآتى ، موجزاً للأبحاث التى كانت هذه الزراعات بالمثل موضوعاتها [١] .

الزراعات	المصاريف		الإنتاج		صافى الأرباح	
	مدينى	بوطاقة	مدينى	بوطاقة	مدينى	بوطاقة
الشعير البياضى	١٤	٢٨	٤٩	٨٥	٣٥	٥٧
الشعير الشتوى	٥١	٩٤	٤٢	١٣٩	٨١	٤٤
العدس البياضى	٢٥	١٨	٧٥	٨٠	٥٠	٦٢
الحمص	٦٣	٢٧	٣٨	٧٥	٥٥	٤٧
الترمس	٨٠	٢٧	٣٠	٨١	٦٠	٥٣
البصل	٢	٦٨	٣٠	٢٣٥	٢٨	١٦٧
الحلبة	٢٣	٢٣	٧٤	٩٣	٥١	٦٩
الجلبان	٨٧	٣٠	٨٧	٩٠	—	٦٠
البازلاء	٤	٤٢	٦٠	١١١	٥٦	٦٩
السلجم	٦٥	١٦	٦٠	١٠١	٨٥	٨٤
الخس	٤	٣٩	٧٥	١١٩	٧١	٨٠
القطن	١٠	٣٧٤	—	٥٣٤	٨٠	١٥٩
السكر (قصب)	٤	٨٣٩	—	٢٠١٠	٨٦	١١٧٠
التبغ	٣٠	٦٩	٨٠	٢٨٨	٥٠	٢١٩

وبإلقاء نظرة على هذين الجدولين لمختلف الزراعات فى مصر ، يجد المرء أن عائد الإنتاج ، نقداً ، يتعرض لاختلافات شاذة ؛ ومع ذلك فلابد أن ننظر للأرباح التى تتحقق من هذه الزراعات ، من خلال وجهتى نظر مختلفتين .

إننا ، فى الواقع ، ينبغى أن نميز ، عند تقديرنا للأرباح التى تعود بها الزراعة ، بين الربح الناتج عن الاستخدام الأفضل للمال ، وبين ذلك الربح الناتج عن الاستخدام الأمثل للأرض ، ذلك أن هذا الربح أو ذاك من بين ضروب الربح التى يسعى الناس

(١) انظر تكملة هذه الدراسة فى الجزء التوثيقى ، رقم ٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عادة للحصول عليها تبعاً لحالة ما إذا كانت الأموال أو كانت الأرض هى الأكثر ندرة ، فيكون لها بالتالى قيمة نسبية أكبر .

ولكى نجعل مما نقول أمراً ملموساً ، فإنى أفترض أننا خصصنا لزراعة معينة مساحة محددة من الأرض ؛ وأن مصاريف الاستغلال هى على سبيل المثال ١٠ بوطاقات ، وأن الناتج ٣٠ بوطاقة ، فإن عائد الربح فى هذه الحالة هو ٢٠ بوطاقة أى ضعف المبالغ التى دفعت مقدماً (فى عملية الاستغلال هذه) .

ثم لأفترض الآن أننى لكى أنشئ زراعة أخرى على نفس هذه المساحة من الأرض ، أنفقت ١٠٠٠ بوطاقة (مقدم إنتاج) وأن الإنتاج هو ١٥٠٠ ، عندئذ سيكون عائد الربح هو ٥٠٠ بوطاقة أى نصف مصاريف الاستغلال .

ففى المثال الأولى ، يمكننا أن نعتبر أن المال كان مودعاً مقابل ربح يعادل ٢٠٠٪ ، ذلك أنه ، عن طريق مساحة محددة من الأرض ، زاد رأس مال المزارع بواقع ٢٠ بوطاقة . وفى الحالة الثانية لم يودع المال إلا بواقع ٥٠٪ (نسبة ربح) ، ذلك أن استغلال نفس المساحة قد أضاف لرأس مال المزارع ٥٠٠ بوطاقة .

هكذا رأينا فى الافتراض الأول أن المال قد استغل بطريقة أفضل عن الطريقة التى استغل بها فى الافتراض الثانى ، ذلك أنه (فى الافتراض الأول) قد عاد بنسبة ربح أكبر ، على الرغم من أن الأرض قد استغلت بشكل أفضل فى الافتراض الثانى عنه فى الافتراض الأول ، حيث أن استغلال نفس المساحة من الأرض قد أضاف لرأس مال المزارع ٥٠٠ بوطاقة بدلا من ٢٠ بوطاقة فقط (فى الافتراض الأول) .

وكما رأينا ، يقوم الربح المتحقق عن طريق الاستخدام الأفضل لرأس المال على العلاقة بين إجمالى عائد الزراعة وبين المصاريف التى تتطلبها ؛ فى حين أن الاستخدام الأفضل للأرض ليس سوى الفرق بين ما تنتجه مساحة بعينها من الأرض وبين مصاريف استغلالها .

وللتفرقة بين هذين النوعين من الربح ، فسوف أطلق على النوع الأول اسم الربح النسبى ، وعلى النوع الثانى اسم الربح المطلق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحين نجرى على مصر تطبيقاً مباشراً لهذا التمييز بين هذين الضربين من ضروب الربح ، فإننى أفترض فى البداية أننا نتخذ من الرقم ١٠٠ تقديراً للمصاريف الدائمة لاستغلال مساحة الأرض ، تتسع مساحتها أو تقل ، مخصصة لكل واحدة من الزراعات التى انتهينا من ذكرها . وسوف تمثل الأرباح النسبية بالأرقام الواردة على التوالى فى العمود الثالث من الجدول الآتى :

رقم مسلسل	اسم المحصول	بيان الربح النسبى
١	البرسيم البياضى	٦٢١
٢	السلجم	٥٠٠
٣	الفول البياضى	٣٥٣
٤	العدس البياضى	٣٥٠
٥	التبغ	٣١٨
٦	الحلبة	٣٠٤
٧	القمح البياضى	٢٨٥
٨	البصل	٢٤٧
٩	الخس	٢٠٣
١٠	الشعير البياضى	٢٠٨
١١	الترمس	١٩٣
١٢	الجلبان	١٩٣
١٣	الحمص	١٧٥
١٤	البازلاء	١٦٦
١٥	الكتان	١٥٠
١٦	السكر	١٣٩
١٧	القرطم البياضى	١٢٠
١٨	القمح الشتوى	٨١
١٩	النيلة	٥٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رقم مسلسل	اسم المحصول	بيان الربح النسبى
٢٠	الذرة النبارى	٥٠
٢١	الشعير الشتوى	٤٨
٢٢	القطن	٤٣
٢٣	الأرز مع البرسيم	٣٥
٢٤	الأرز مع القمح	٢٨

وفى الحالة الثانية سأفترض أن مساحة ثابتة من الأرض قد خصصت على التوالى لهذه الزراعات المختلفة ؛ ولكى تكون المقارنة محسوسة لإنتاج هذه الزراعات ، فإننى أمثل بالرقم ١٠٠ الربح المطلق الناتج عن زراعة القمح ؛ عندئذ نجد ما يلى :

رقم مسلسل	المحصول	بيان الربح المطلق
١	السكر	٧٩٦
٢	النيلة	٣٦٩
٣	الأرز مع البرسيم	٢١٣
٤	الأرز مع القمح	١٧٧
٥	الكتان	١٧٠
٦	التبغ	١٥٠
٧	القرطم البياضى	١٢٩
٨	البصل	١١٤
٩	القطن	١٠٩
١٠	القمح البياضى	١٠٠
١١	الفول البياضى	٨٦
١٢	البرسيم البياضى	٨٠
١٣	القمح الشتوى	٧٤
١٤	السلجم	٥٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رقم مسلسل	المحصول	بيان الربح المطلق
١٥	الخس	٥٥
١٦	البازلاء	٤٨
١٧	الحلبة	٤٨
١٨	العدس البياضى	٤٣
١٩	الجلبان	٤١
٢٠	الشعير البياضى	٣٩
٢١	الترمس	٣٧
٢٢	الذرة النبارى	٣٥
٢٣	الحمص	٣٣
٢٤	الشعير الشتوى	٣١

وبمقارنة هذين الجدولين ، نرى أن نفس المحاصيل لا تشغل فى كل منهما نفس الترتيب ؛ وفى الواقع فإن التماثل أو التطابق المطلوب لا يمكن أن يتحقق إلا إذا أمكن قيام نوع من التوازن بين إنتاج الأرض وإنتاج المال ، وهو التوازن الذى لا تزال مصر بعيدة عن الوصول إليه .

وفى الواقع ، فإنه من الميسور أن نتقبل تبعاً للتعريفات التى قدمناها للنوعين الربح النسبى والربح المطلق ، فكرة أن علينا أن نبحث عن هذا الضرب أو ذاك من ضروب الربح تبعاً لما إذا كانت للمال قيمة أكبر مما للأرض أو لما إذا كانت للأرض قيمة أكبر مما للمال .

وهكذا ، فهناك حيث الأراضى أقل قيمة والمال أكثر ندرة يهتم الناس بشكل خاص بالزراعات التى تتطلب قروضاً (أو مصاريف) أقل فتعطى بذلك ربحاً نسبياً أكبر ، فى حين أن الناس فى البلدان التى تتوفر فيها النقود وترتفع قيمة الأرض ، يفضلون الاستغلال المكلف (أى الذى يتطلب نقوداً أكثر) لأنه يعود عادة بربح مطلق بدرجة أكبر بكثير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتفسر لنا حالة العوز التى نجد عليها غالبية المزارعين المصريين لماذا يزرع السكر هناك فى مساحات قليلة على الرغم من أنه يعود بربح مطلق أكبر بكثير (مما يعطى غيره من الزراعات) . ولأسباب مناقضة ، قد تشكل هذه الزراعة وكذلك زراعة النيلة والقطن أعمدة رأسمالية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل التاسع
عن حق الملكية وعن رسم تحصيل الضريبة

كان من الضرورى لكى أكمل العمل الذى أخذته على عاتقى ، أن أحدد الرابطة بين إنتاج الأرض وبين الإيجار الذى يحصل عليه المالك من المزارع . وقد بحثت من هذه الزاوية ، وبأكبر قدر من العناية ، فى طبيعة وأصل الملكيات العقارية ؛ وقد سألت فى أماكن عديدة أفراداً من كل الطبقات . وعلى الرغم من أنه كان من حقى أن آمل فى الحصول على توضيحات محددة بسبب الشهرة التى يحوزها بعض من سألتهم وبسبب المكانة التى يشغلونها ، فإننى لم أحصل منهم إلا على معلومات غامضة .

ومع ذلك ، ففى انتظار أن يتمكن آخرون من الحصول على أفكار كافية بدرجة أكبر حول هذا الموضوع ، أرجو أن يؤذن لى بأن أجازف بتقديم هذا الفرض البسيط هنا .

منذ أول احتلال لمصر ، كان حق الغزو هو السند الوحيد الذى ترتكز عليه حكومتنا . وقد مارس هذا الحق على التوالى كل من الفرس والإغريق والرومان والعرب والمماليك ، دون أن يحد من هذه الممارسة أى قانون على الاطلاق . وإذا كان الانتفاع ببعض أجزاء من الأرض الزراعية قد ترك فى بعض الأحيان للشعب المهزوم ، فلم يكن ثمة مايلزم ، لايقاف هذا الانتفاع الهزيل سوى صدور فعل يعبر عن إرادة آخر الغزاة . ولاتزال هذه هى حالة مايطلق عليه اسم الملكيات الخاصة ؛ نعم تظل هذه الملكيات فى نطاق نفس العائلة . ليس بسند من حق الإرث بقدر ماهو دليل على حسن صنيع الحكومة التى تظل تحتفظ لنفسها بحق التصرف فى هذه الأراضى حسب مشيئتها . وكما رأينا ، فليست هذه الملكيات سوى إقطاعيات قابلة للنقل (إلى آخرين) ، ولهذا السبب نفسه غير قابلة للبيع أو للتنازل .

ولهذا السبب فلا ينبغى علينا هنا أن نلصق بتعبير « بيع عقار من الأرض » فكرة تخويل متبادل ومطلق ، ولكن فقط فكرة الرهن المؤقت مقابل مبلغ من المال يأخذ فى شكل سلفة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويمتلك المقرض الأرض بنفس هذا التشكل من الملكية إلى وقت تحصيله لقروضه ، وفى هذه الفترة يقوم المنتفع أو الذى آل إليه حق الانتفاع خلالها بالانتفاع بالأرض التى ارتهنها .

ويمكن أن يرهن فدان الأرض إذا كانت من أرض بالغة الجودة أو ثمينة الموقع على أساس ٥٠ ، ٤٠ ، ٣٠ بوطاقة . وحيث أن سعر الربح العادى للنقود يبلغ ١٠ بالمائة ، فإنه يترتب على ذلك أن يكون الإيجار السنوى للفدان ٥ و ٤ و ٣ بوطاقات حيث ينبغى أن تغل الأرض ، وهى فى يد الشخص الذى ينتفع بها بشكل مؤقت ، ربح المال المقترض على أقل تقدير .

وهذا مايتطابق من جهة أخرى مع سعر الإيجارات البسيطة . وتحصل الضريبة عن طريق الملتزم .

وحين يسدد الالتزام المقرر على الأراضى عينا ، يتم فى البداية استبعاد الضرائب من إجمالى إنتاج المحصول . ويقسم الباق بالتساوى بين المالك والمزارع إذا كانت المصاريف قد سددت مناصفة ، لكن المزارع يحتفظ لنفسه بالثلثين (من باقى المحصول بعد تسديد الضرائب) إذا كان قد تكفل وحده بمصاريف الزراعة .

ويدير بعض المماليك لحسابهم الخاص العديد من مصانع السكر فى ولاية جرجا ، فيوفرون الأرض ، ويتكفلون بإنشاء وصيانة المبانى ويشترون الماشية ، ويدفعون ثمن غذائها . وبعد ذلك يقتسمون عائد الاستغلال بالتساوى مع الصانع الذى تتمثل المصاريف التى ينفقها فى توفير الأيدى العاملة .

وعلى الرغم من أن كل أرض الصعيد ملك للحكومة ، فإنها مع ذلك مقسمة بين القرى المختلفة ، ويحق لسكان هذه القرى أن يزرعوا مساحة محدودة من أطيانها . ويوزع المشايخ هذه الأطيان بين الفلاحين ، ويحرصون على أن تبذر فى الوقت المناسب ، كما أنهم مسئولون عن تحصيل الضرائب ، وهى مسئولية عهد إليهم من أجلها باستقطاعات يتفاوت قدرها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتفرض الضريبة فى مختلف المناطق إما نقداً وإما عيناً ، وتسدد فى بعض المناطق نقداً فى جزء منها وعيناً فى جزئها الآخر . وتفرض هذه الضرائب بشكل عام على قدر نسبة جودة الأراضى ؛ ومع ذلك ، فحيث أنها لا تتأسس على أية قاعدة ثابتة ، فإنها تختلف من ولاية لأخرى تبعاً لإرادة حاكمها . وهكذا نجد أن الطرف الأقصى لولاية طيبة ، الذى ترك تحت حكم حسن بك كان مثقلا بالضرائب عن بقية أرض الصعيد على الرغم من أن درجة خصوبته أقل .

ويتم تحصيل الضرائب وتقدير وعائها ، كما هو معروف ، على يد المسيحيين الأقباط ؛ فبعد أن دخل العرب مصر منتصرين ، تركوا لهؤلاء الأقباط شئون المساحة ، وظل العرب بهذه الطريقة فى حاجة لخدماتهم على الدوام ، فى كل العمليات التى تتصل بفرض الضرائب .

وقد أدرك الأقباط من جانبهم ، وقد استبعدوا بسبب الديانة التى يعتنقونها من الوظائف الإدارية الأخرى ، ولأنهم لا يستطيعون أن يتطلعوا إلى أية مكانة عالية لدى شعب لا يبدى التقدير إلا لكل ما هو إسلامى — أدركوا أية فائدة تعود عليهم حين يظلون نافعين بشكل تام لهؤلاء الحائزين على السلطة المطلقة ؛ ونتيجة لذلك فقد أخفوا كل ما يمكن أن يساعد على نقل الوظائف التى يشغلونها إلى أيد أخرى ، ولقد توصلوا بمعونة من المبادئ الأولية للحساب ، وبأسلوب الكتابة الدارجة ، وبحروف لغتهم القديمة التى يستخدمونها فى كتابة العربية ، توصلوا إلى عمل مسح غير دقيق ، وجعلوا من توزيع تزيد درجة استبداده أو اعتباطه أو تنقص ، فناً غامضا وملغزا هم وحدهم المتمرسون به .

ويتبين المرء بوضوح أن أمثال هؤلاء القوم لابد أن يكونوا أقل استعداداً لتقديم المعلومات حول الوسائل التى يحرصون على إحاطتها بالغموض . ولقد تبين لهم بوضوح أن إقامة الفرنسيين بمصر قد تضع نهاية لهذا النوع من الامتياز الذى استأثروا به حتى الآن ، وتجعل منهم أناسا لا نفع من ورائهم . وهذا ما يفسر بقدر كاف سر القلق الذى كان ينتابهم من الأسئلة التى كنت أوجهها لهم وكذلك سوء نيتهم حين كانوا يضطرون للإجابة .

ومع ذلك فلابد لى من أن أعترف بأننى قد وجدت بعضا منهم على درجة من الإخلاص أشعرتنى بالرضاء عنهم . وحيث قد تطابقت المعلومات التى قدموها إلى مع تلك التى استخلصتها من مصادر أخرى ، فإننى أعتقد أن بإمكانى أن أثق فى دقة ما ذكروه لى .

يوجد بين أعضاء هذه الطائفة نوع من الهيرارشية (السلمية) قد يكون من المناسب منذ البداية أن نتعرف عليه .

لكل بك (مملوك) وكيل قبطى (مباشر) مرتبط بشخصه ، يقيم معه فترة من العام فى عاصمة الولاية التى أوكل إليه أن يحكمها .

وتقسم هذه الولاية عادة إلى عدد محدود من الدوائر ، تتكون كل دائرة منها من أربع عشرة أو خمس عشرة قرية ، يحكمها كاشف أو قائمقام البك .

ويوجد إلى جوار الكاشف قبطى يعمل نائب وكيل ، ومرءوس أو عدة مرءوسين يعملون فى وظيفة كاتب فى كل قرية من القرى التى تتكون منها الكاشفليك .

وهؤلاء الأخيرون (الكتبة) مكلفون بجمع الميرى بمجرد أن يكون الفلاحون فى حالة تمكنهم من تسديده ، الأمر الذى لا يقومون به عادة إلا على دفعات صغيرة . ويسلم الكتبة حصيلتهم إلى كتبة أو محصلى الكاشف ، وهؤلاء يسلمونها إلى الوكيل الرئيسى الذى يقوم بعدها بنفسه لخازن البك ويحصل منه على مخالصة .

ولا يحصل أى من هؤلاء الموظفين الأقباط على راتب ثابت . فقد كان يقرر للكتبة الأول مبلغ ست بارات فى اليوم ليقوم مقام ما نطلق عليه نحن مصاريف مكتب .

وكانت رواتبهم عبارة عن استقطاعات من حصيلة الضريبة . وتبلغ هذه الاستقطاعات ٥ بارات عن كل بوطاقة بالنسبة للوكيل الرئيسى ولأولئك المقيمين فى الكاشفليك أو مقر الدائرة . أما الاستقطاع الذى يتم لصالح الكتبة المرءوسين فلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبلغ سوى ٢ بارة ؛ وإن كان هؤلاء يتناولون طعامهم عند سكان القرى التى يجمعون الضرائب منها .

ولابد أن نلاحظ أن هذا الاستقطاع الذى يبلغ فى مجمله ٧ بارات لكل بوطاقة كان يفرض على المزارعين زيادة على الضريبة (المقررة) .

وحين يدفع ذلك عيناً فإنه يبلغ خمسة أو ستة أرادب عن كل مائة أردب ، ويفرض بالمثل زيادة على الضريبة .

وهذا الاستقطاع ، وهو الوحيد الذى تعترف به الحكومة ، هو أقل جزء من المنافع التى يجنيها الأقباط ، فلقد وجدوا من الوسائل ، مستغلين جهل الفلاحين ، مع إشراكهم العدد الأكبر من مشايخ القرى فى الأرباح الضمنية التى يحصلون عليها ، وكذلك فى معظم الأحيان بالحصول على أتاوات من الفلاحين فى مقابل تمكينهم من الإفلات من عقوبات مقررة — مما جعلهم يرفعون مصاريف التحصيل (التى يحتفظون بها لأنفسهم) إلى ربع الحصيلة التى يجمعونها من الضرائب ، وهذا باعتراف عدد كبير منهم أنفسهم . وسنرى كيف استطاعوا عن طريق النظام المستقر للأمور أن يقتطعوا لصالحهم الخاص أكثر من ثلث الضرائب المفروضة على مصر .

وحيث تختلف غلة الأراضى باختلاف حالات فيضان النيل ، وحيث يزرع أكثر من محصول (فى الأرض نفسها) فى نفس العام ، فلقد كان من اللازم حصر مساحة الأرض المنزرعة فى المواسم المختلفة . ولقد كان واحد من الأقباط ، يختاره الوكيل الرئيسى أو كتبة الكاشف ، يشار إليه باسم المساح ، هو الذى يقوم بمسح هذه الأراضى ، وكان يصحبه واحد من أهالى القرية مهمته أن يدل على أسماء المزارعين . وكانت أسماء هؤلاء مدونة فى سجل مع مساحة الأرض التى يستغلونها . وكان المساح يحصل منهم فى مقابل هذه العملية على أتاوة تترواح بين ١٨ إلى ٣٠ بارة ، تبعاً للمناطق المختلفة .

وكانت حالة الأراضى التى تم مسحها تبلغ فى كل دائرة إلى الكتبة الأول ، وهؤلاء ينقلونها إلى وكيل البك ، وبعد أن يلقى الأخير نظرة عليها ، يقوم بتقدير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الضريبة المقررة على الفدان ، ذلك أن مبلغ الضريبة لم يكن ثابتاً على الإطلاق ، إذ كان يزيد أو ينقص تبعاً لوفرة أو نقص الفيضان ؛ وهذه عادة قد تأسست على ارتفاع أسعار المواد الغذائية حين تنتج هذه بكميات قليلة ، ويشكل ذلك للحكومة دخلا شبه مستمر مستقلا عن فيضان النيل .

وبعد ذلك تحصل الضريبة فى القرى ، إما بعد البذر ، وإما قبل الحصاد مباشرة ، لكن حصيلة هذه الضريبة لا تصل مطلقاً لما كان ينبغى أن تصل إليه ، لأن حالة (مساحة) الأرض كما قدرها المساح لا تكون صحيحة على الإطلاق . وفى الواقع ، ففى هذه العملية (مسح الأرض) يتجلى أكبر عمليات الخداع التى يقوم بها الأقباط والتى تعود عليهم بالأرباح الطائلة ، كما أنها أسهل ما يمكن ارتكابه من عمليات الغش وأكثرها فى نفس الوقت صعوبة فى إمكانية اكتشافها .

وعندما تقاس قطعة من الأرض ، يقوم المساح بحساب مساحتها وهو فى الحقل ، ويعلن ذلك بصوت عال ، فى حضور سكان القرية . ويمكن أن تكون هذه العلانية، لو كانت عند شعب أقل جهالة ، حماية لمصالح الجميع ، لكنها هنا ليست سوى ضرب من الوهم ، لا يستخدم إلا لدعم الأحوال الفاضحة التى تتناول مسح الأرض ، وبطريقة بالغة الإتقان وذلك بتزييف هذه العملية بزيادة أو بنقصان عدد الفدادين التى سيتم استغلالها فى الواقع .

وفى الحالة الأولى يقوم الشخص الذى يرى نفسه مكلفاً بعدد من الفدادين أعلى من العدد الذى يعتقد أنه قد زرعه بمساومة المساح كى يحصل منه ، بعد تقديم مبلغ من المال على خفض بضعة أفدنة ، فإن تقبل ذلك منه ، فإنه لا يدون فى السجلات إلا المساحة التى تساوى على نحو التقريب تلك التى يستغلها بالفعل ؛ أما إذا حدث العكس ، فإنه لا يقوم بأية شكوى أو احتجاج ، ولا يتخذ أية ترتيبات خاصة ، وإنما يدفع على الفور وفى نفس المكان ، أتاوة تتجاوز بقدر متفاوت تلك الضريبة التى كان عليه أن يدفعها فى الحقيقة ، والتى يظل مقدارها رهن مشيئة المحصلين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما فى الحالة الثانية فيتفق الشخص الذى زرع مساحة محددة من الأرض ، لكنه يريد أن لا يدفع الضريبة إلا على جزء منها فقط ، يتفق مع الأقباط الذين يحصلون منه على ثمن هذا التخفيض .

وتشكل الضريبة التى تحصل عيناً مادة لغش أكثر إدراراً للربح ، يرتكب بشكل علنى ؛ فعندما يقوم الأقباط بجمع الحبوب ، فإنهم يستخدمون مكاييل أكبر حجماً بكثير من تلك التى يستعملونها عندما يودعونها فى المخازن العمومية . ويصل الفرق بين هذه المكاييل ، وهو بأكمله ربح خاص لهم ، إلى نحو ٢٥ و ٣٥ أردباً من كل مائة أردب فى بعض الأحيان .

وتقتسم هذه الأرباح الخفية ، بالإضافة إلى مكاسب أخرى أقل أهمية ، بين كل أبناء هذه الطائفة ابتداء من آخر كاتب حتى كتبة الكشاف . أما عن وكيل البك ، وهو عادة شخصية لها اعتبارها ، ويقوم بتعيين شاغلى الوظائف الأولى ، فإنه لم يكن ليدخل مطلقا فى تفاصيل هذه القسمة ، ولكنه كان يفرض أتاوة سنوية تبلغ ألفين إلى ثلاثة آلاف بوطاقة على كل واحد من الكتبة الرئيسيين ، وهؤلاء يتكسبون بدورهم من توزيع المساحين والكتبة المرءوسة لهم .

وقد سبق أن قلنا أنه يوجد على الأقل واحد من هؤلاء الكتبة فى كل قرية ؛ ويبلغ عددهم ثلاثة أو أربعة فى بعض المناطق ، ومع كل منهم أسرة يرعاها وخدم يعيشون فى كنفه . لذلك فلا أظننى قد جانبت الصواب عندما قدرت بثلاثين ألفاً ، عدد أولئك الذين يعيشون على جمع ضرائب الميزانية فى مصر ، وحين أوضحت أن الإحباط المطلق للزراعة وكذلك تخلخل الكثافة السكانية فى الريف ، يعودان إلى أساليب المخاتلة والغش التى يمارسها هذا النوع من جباة الضرائب ، أكثر مما يعودان إلى استبدال البكوات المماليك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثانى

عن الحالة الراهنة للصناعة فى مصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد

تكفى المعلومات التى قدمت فى دراسات عدة من هذا المؤلف (وصف مصر) حول حكومة مصر وعادات سكانها ، للدلالة على أن صناعة هؤلاء السكان ، لابد لها أن تنحصر داخل حدود بالغة الضيق . وفى واقع الأمر ، فإن هذه الصناعات تنحصر ، فى أقاليم مصر فى الحرف التى تفى بالضرورات الأولى ، وفى الأعمال اليدوية التى تتناول بعض المنتجات الزراعية التى تفى بإشباع حاجات الاستهلاك اليومى ، والتى قد تكون موضوع تبادل محدود للغاية . أما فى المدن ، فيعمل عدد صغير من العمال فى بعض الورش التى تصنع الأقمشة والسجاد ومعدات الحرب . أما سلع الترف اللازمة للأسر الميسورة وصاحبة النفوذ ، فتنهض بعبء توفيرها التجارة الخارجية .

وسنتبع فى هذا الجزء الثانى من دراستنا (عن الاقتصاد المصرى) نفس النهج الذى اتبعناه فى الجزء الأول ، فلسوف نوضح الوضع الراهن للصناعات عند المصريين المحدثين ، هابطين مع النيل من أسوان حتى شواطئ البحر المتوسط .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

صناعة الآنية الفخارية وغيرها من الآنية
وصناعة لبنات البناء النيئة والمحروقة

لعل الآنية الفخارية التى من شأنها احتواء ونقل الأغذية ، كانت واحدة من أوائل الاحتياجات التى كان على الصناعة أن توليها جل اهتمامها . ولقد استلزم الأمر أن تكون المادة المستخدمة فى صنع هذه الآنية هى المفضلة على الدوام فى هذا الغرض ، حيث أنها بحكم طبيعتها تقترب من درجة الصلابة المطلوبة ، كما أنها تمتاز بطبيعتها المسمطة (أى عدم قابليتها لنفاذ السوائل منها) ؛ فهى ، والحالة هذه ، لن تكون بحاجة لأن تكتسب عن طريق الإحراق خواص ، لابد أنها بالفعل تتمتع بها . ولهذا السبب فهناك حيث أقامت الطبيعة محاجر الطلق (أو حجر الدهن) (وهى أحجار سهلة النحت) ظلت هذه المادة تستخدم من زمان لا تعيه الذاكرة ، فى نفس الاستخدامات والأعراض التى تقوم بها منذ ذلك الزمان ، وهى صناعة الآنية الصلصالية التى يشتد عليها الطلب .

يصنع عند الطرف المدارى لمصر ، فى تلك الصحروات المجاورة لشلال الفانتين آنية من فخار سهل التشكيل ؛ وتعرف هذه الآنية هناك باسم « برام » على اسم المكان الذى تقع فيه المحاجر التى تهيئ المادة التى تصنع منها . فهذه الآنية ليست سوى كتل من هذه المادة ، جوفت من الداخل بشكل دائرى ، ودورت من الخارج بطريقة تجعل لجدرانها سمكاً يبلغ من ٣ إلى ٤ سنتيمترات . وفضلا عن ذلك ، فإن هذه الآنية تصنع يدويا بشكل منفر بالغ الخشونة وهى تستخدم فى طهو الأطعمة باعتبارها نوعا من القدور أو المراجل . ويقوم العرب المقيمون فى ضواحى أسوان ببيع هذه الآنية فى هذه المدينة ، كما يحملونها إلى سوق إسنا . وهؤلاء العرب ينتمون إلى قبيلة العبابدة ، وهم يقيمون فى الرديسية ؛ وقلما نقابل واحداً منهم إلى الجنوب من هذه البلدة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن أجل تقليل سمك جدران هذه الآنية من حجر الطلق ، فإنهم يقومون — عن طريق الإحراق — بصنع آنية أكثر دقة وأكثر خفة . ولهذا الغرض ، يحولون حجر برام إلى مسحوق ، يخلطونه بكمية مماثلة من الصلصال ، يحصلون عليه من سفح جبل أسوان ، ثم يضربون هذا المخلوط لمدة ثلاث أو أربع ساعات ؛ وتصنع من هذا المخلوط آنية تقوم النسوة بتدويرها باليد . وقلما يبلغ ما تصنعه إحداهن خمسة أو ستة آنية فى اليوم الواحد . وتجفف هذه الآنية فى الشمس لمدة ثمان وأربعين ساعة . وتنتهى هذه العملية بعد ذلك بإعطاء الآنية درجة الصلابة اللازمة وذلك بإحراقها على نحو خفيف ؛ ولا يتم ذلك مطلقاً فى فرن خاص ، وإنما يتم الأمر فى جرن أقيم لهذا الغرض فوق سطح الأرض ، توضع فيه ١٠ — ١٢ قطعة من هذه الآنية ، ثم تحاط هذه القطع بالوقود ، وتستمر النار مشتعلة لمدة حوالى ١٠ ساعات . ويتكون هذا الوقود من أقراص جافة من روث الثيران والجمال . ولا تتجاوز قيمة ما يلزم من الوقود لهذه العملية ست أو سبع بارات .

ولقد ظلت صناعة الفخار على تخوم مصر فى حالة طفولتها الأولى ، فهناك نراها ربما على نفس حالتها التى كانت عليها قبل أن يستخدم الناس المخارط لصناعة الفخار ، تلك التى يرجع اختراعها إلى زمان سحيق .

وتوجد فى كل مدن مصر العليا التى يمر بها المرء وهو يهبط النيل (يتجه شمالا) ، مصانع للفخار تتفاوت درجة خشونة منتجاتها . وطمى النيل هو أساس صناعة الفخار فى هذه البلاد . ولا تطلى الآنية التى تصنع من الطمى بأى نوع من الطلاء . وتسمح هذه الآنية بسبب انخفاض درجة احتراقها بأن ينسغ الماء من مسامها بدرجات متفاوتة ؛ كما تتراوح أحجامها ابتداء من آنية وحرار المطبخ حتى القدور والدنان المخصصة لصنع النيلة والسكر إلخ . وهذه الفخاريات الخشنة الصنع ، حمراء اللون مثل لبنات الطوب الأحمر . ولقد زرنا مصنع الفخاريات الهائل فى مدينة إدفو . وهناك تصنع هذه الآنية الكبيرة من الفخاريات دائرية الشكل ، والتى تقوم مقام الدست والدلو فى المصانع المختلفة ، كما أنها فى هذه البلاد تحل محل صناعة الآنية المعدنية الضخمة والبراميل ؛ لكنها لا تتحمل فعل النار ، وإن كانت تحتفظ بالسوائل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى تملأ بها على نحو طيب ، وهو ما ينبغى أن ننسبه إلى سمك جدرانها أكثر منه إلى درجة نضجها .

ويستخرج من قاع ترعة تقع إلى الشمال الشرق من مدينة قنا ، عند الحد الفاصل بين الصحراء والأرض القابلة للزراعة ، فى بداية شعب ضيق يصل بين وادى النيل والبحر الأحمر ، نوع من الصلصال ، يضرب لونه إلى البياض ؛ وتصنع منه آنية تسمى « بردق » وهذه تدين لمسامها بخاصية تسوع المياه التى تحويها . وتتبخر هذه المياه الناسفة بمجرد أن ترطب جدران البردق ، ويؤدى هذا البخر إلى خفض درجة حرارته فتبرد المياه التى بحويها بدورها . وخاصية التبريد هذه ، تجعل برادق قنا مطلوبة فى كل مكان فى مصر ؛ ويبدو أن صناعتها تتركز فى هذه المدينة منذ زمان ضارب فى القدم .

وهذا النوع من الصناعة ، على درجة كبيرة من الأهمية كافية كى تجعلنا نتوقف بعض الوقت لوصف العمليات التى تمر بها .

يخلط الصلصال الضارب إلى البياض ، والذى تحدثنا عنه للتو بحوالى ما يعادل ثلث حجمه من رماد الأفران التى يتم حرق هذه الآنية فيها . ويضرب المخلوط لعدة ساعات ، وتتشكل منه قوالب متفاوتة الحجم ، ثم تسوى بعد ذلك الواحد بعد الآخر ، لمدة تبلغ الساعة ، ثم تنزع عن هذه القوالب قطع أقل حجما ، تحمل إلى المخرطة حيث تأخذ الشكل والاتساع المطلوبين .

وحيث أن حرفة صناعة الفخار فى مصر قد ظلت على بساطتها الأولى ، وحيث لا يتناولها سوى تغييرات طفيفة من مكان لآخر ، فسوف نحيل إلى الوصف الذى قدمه المسيو بوديه Boudet فى اللوحة رقم ٢٢ من الدولة الحديثة ، المجلد الثانى عشر ، ص ٤٧٠ ، وهى تمثل مصنعاً للفخار من الداخل ، ونحيل كذلك إلى اللوحة الثانية من نفس المجلد حيث رسمت مخرطة الفخار وفرنه ؛ دون أن تكون بنا حاجة لأن نتوقف لتكرار ما تضمنته هذه الأوصاف ، وسنمضى إلى التفاصيل التى تنطبق بشكل خاص على إعداد البردق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يستطيع العامل الذى يعد خليط الطمى والرماد أن يجهز فى اليوم الواحد ما يكفى لصنع مائتين من هذه الآنية ، فى مقابل أجر يصل إلى ٨ بارات . وتمر قوالب الصلصال بعد خروجها من يده إلى يدى مقولب (عامل القولبة) ، لصبها فوق المخرطة ، ويعد هذا العامل على نحو ما رئيس المصنع ، ويعمل العمال الآخرون لحسابه ، وهو يستطيع أن يقولب من ٥٠ إلى ٧٥ بردقا فى اليوم الواحد (انظر الأشكال المختلفة لهذه الآنية ، فى اللوحة FF من المجلد الثانى ، (الدولة الحديثة) .

وبمجرد أن يتشكل واحد من هذه الآنية ، فإنه ينتقل إلى أحد الأجران حيث يجف فى الشمس مدة يومين ؛ وليس ثمة خوف من أن تلتصق هذه الآنية بالأرض فتتصدع إذا ما كانت هذه الأرض قد أعدت بعناية .

وعندما تكتسب البرادق الموضوعة فى الجرن درجة الجفاف اللازمة ، يقوم المقولب نفسه بجمعها وإدخالها فى الفرن الذى ينبغى أن تنضج فيه ؛ ويقوم بهذه المهمة الأخيرة عامل آخر ، يتولى إحضار أعواد الذرة التى تستخدم وقوداً ، كما يتولى رعاية النار ، ويحصل مقابل ذلك على أجر يبلغ ٩٠ بارة فى مقابل كل ألف بردق ، وهو الرقم الذى يكون عادة كل « طرحة » فرن .

وبعد أن يقوم المقولب بإخراج الآنية من الفرن ، يتم بيعها فى مقابل ٥٠٠ بارة لكل ألف منها إلى تجار من قنا ، لديهم مخازن لتخزينها ، أو لأصحاب مراكب تعمل فى النيل ، ويأتى هؤلاء بغرض شراء حمولات كاملة ، أو أجزاء من حمولات لنقلها إلى سيوط والمنيا وبنى سويف والقاهرة ومصر السفلى . ويبلغ سعر كل ألف بردق تسليم مخازن قنا من ٥٥٠ إلى ٥٦٠ بارة .

ولا تضم الورشة عادة إلا فرناً واحداً ومخرطتين ، ولذلك فهى لا تحتاج لإدارتها إلا لمقولبين اثنين ومساعديهما .

وتشتعل النار فى الفرن طيلة عشرة أيام ، لكن صناعة البرادق لا تتم على مدار العام كله ، وإنما خلال تسعة أشهر فقط ، تخرج أثناءها من ورش قنا من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ ألف بردق . وهناك تباع هذه الآنية بالقطاعى بواقع بارة للإناء الواحد ؛ لكنه فى مدن مصر الأخرى يساوى ٢ إلى ٣ بارات تبعاً لبعد المسافة وظروف النقل ، وهى الأمور التى تساعد على زيادة أثمانها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويوجد فى ملوى ومنفلوط ، وهما مدينتان فى مصر الوسطى ، مصانع للجرار الكبيرة ، ولآنية تشبه تلك التى تصنع فى إدفو ، والتى تستخدم فى تجهيز صبغة النيلة والسكر ، والتى يستخدمها الصباغون والدباغون .. الخ . وعلى الرغم من سمك هذه الآنية الكبير فإنها لا تصبح مع ذلك مسمطة إلا بعد استخدامها لبعض الوقت .

أما الجرار المسماة « بلاص » (الشكل ٢١ ، اللوحة EE المجلد الثانى ، الدولة الحديثة) والتى تخصص لاحتواء الزيت والسمن ، فلها شكل خاص ، وتحصل على درجة أكبر من الإنضاج (الإحراق) ، كما أنها تصنع بصفة خاصة فى إحدى القرى ، ومنها جاءها هذا الاسم .

ومن جهة أخرى فإن الآنية التى يتركز فيها أكبر قدر من الاستهلاك كل عام ، وفى كافة أنحاء مصر ، هى القواديس التى تتعلق بالأحبال الدائرية والتى تدور مع دولاب بغرض رفع المياه المستخدمة فى الرى من الآبار والترع (السواقى ذات القواديس) (الأشكال أرقام ٣ ، ٩ ، ٢٠ ، اللوحة EE ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة) : وتوجد مصانع لهذه الآنية فى كل مكان ، وتشكل شقفاتها المتراكمة الجزء الأكبر من أكوام الأنقاض التى تلفت نظر المرء حول المدن والأماكن الآهلة بالسكان .

وفى مدينة القاهرة وحدها ، يتم تصنيع نوع من الخزف الخشن ، تصنع منه أوانى الحلوى وفناجين القهوة . ومن نافلة القول أن نذكر أن هذا الفرع من فروع الصناعة قد لا يستحق مجرد الذكر ، سواء بسبب رداءته ، أو بسبب الكمية القليلة المنتجة منه .

وتتميز بعض الفخاريات التى تصنع فى منوف أو ضواحيها بطلاء أزرق ؛ ويتكون هذا الطلاء من النطرون ونترات الصودا وأكسيد النحاس . ويستخرج هذا الأكسيد المسمى (طوبان) من المراجل التى يبيضونها بالقصدير ؛ فهو ليس سوى القشور الرقيقة التى تنفصل عن هذه المراجل ، حيث تغمس فى الماء بعد أن تكون قد جففت بشكل تام .

وتكاد تكون كل المبانى الخاصة فى مصر ، قد بنيت بالطوب المحروق أو بالطوب النيئ . وقلما يتعدى استخدام اللبنات من النوع الأول حدود المدن .

أما النوع الثانى ، فهو المادة الوحيدة التى تصنع منها مساكن الفلاحين ، ما لم تكن هذه قد تقلصت إلى مجرد أكواخ طينية يغطيها البوص وحطب الذرة ؛ فبعد أن يمر طمى النيل بنفس التجهيزات التى يمر بها الطين الصلصال فى أوربا لصنع اللبنات المستخدمة فى البناء ، فإنه يستعمل فى نفس الغرض فى مصر . ويبلغ طول اللبنة التى تصنع من الطمى ٢ ديسيمتر ، فى حين يبلغ عرضها ديسيمتراً واحداً ، بسمك يبلغ خمسة سنتيمترات . ويلزم تجفيف اللبنات التى تستخدم نيئة تحت أشعة الشمس طوال أربعة أو خمسة أيام قبل أن يبدأ استعمالها . وتباع فى هذه الحالة بواقع ١٥ إلى ٢٥ بارة مقابل كل ألف لبنة منها .

وتستوعب الأفران الخاصة بإحراق هذه اللبنات عادة أربعة إلى خمسة آلاف لبنة ، وتشتعل فيها النار لمدة أربع وعشرين ساعة ، وتستخدم فى ذلك أعواد الذرة المجففة وسيقان الفول وأوراق اللفت . أما فى مصر السفلى فيحل قش الأرز محل هذه الأصناف المختلفة من الوقود . ولا تبرد الأفران بشكل تام إلا بعد أن تخمد نيرانها بيومين . وتباع اللبنات المحترقة بواقع ٦٠ إلى ١٠٠ بارة لكل ألف منها . ومن جهة أخرى فلا يلزم لإحراق فرن من هذه اللبنات إلا حمولتان من سيقان الفول أو أوراق اللفت أو أى نبات آخر لا يستخدم علفاً للحيوانات .

وينظر إلى حطب الذرة باعتباره أفضل أنواع الوقود ، ولذلك يباع بمعدل ٢٠ إلى ٢٥ بارة للحمولة الواحدة منه ، فى حين لا تساوى الحمولة من أى وقود آخر سوى ١٤ أو ١٥ بارة .

وتقام أفران الطوب بطريقة يمكنها معها أن تضم بخلاف الأربعة آلاف لبنة التى تتكون منها « الطريحة » المعتادة ، من ١٢ إلى ١٥ جرة كبيرة ، يبلغ ثمنها من أربع إلى خمس بارات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتعتبر صناعة الجير لأغراض البناء ولتبييض غزل الكتان فرعاً من فروع الصناعة ، يمارس فى كافة أنحاء مصر العليا ، إذ تقدم الجبال الجيرية التى تحف بالوادى ، المادة المطلوبة لإنتاجه . وقد وصف المسيو جومار أفران الجير (الجيارات) ، ويمكن أن نراها فى الأشكال أرقام ٤ ، ٥ ، ٦ من اللوحة الثانية ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة . وقد أقيم عدد كبير من أفران أصغر من هذه فى ولاية أطفيح ، إذ لا يبلغ إنتاج الواحد منها أكثر من ١٥ إلى ١٨ قفة من الجير ، فلما يتجاوز إجمالى ثمنها ٢٠٠ إلى ٣٠٠ بارة . وهنا ، يستخدم كذلك حطب الذرة المجفف وقوداً لإنضاج الجير . ويمكننا أن نذكر من بين الأسباب التى أدت إلى دمار آثار مصر السفلى المبنية بالحجر الجيرى بسرعة أكبر من دمار سواها من الآثار المبنية بالحجر الرملى أو الجرانيت ، أن الأهالى قد لمسوا سهولة أكبر فى استغلال هذه الخرائب ، بدلا من التماس المواد التى يحتاجون إليها لتصنيع الجير من الجبال القريبة . وحيث لا يدخل ضمن موضوعنا أن نتناول أية تفصيلات حول مختلف عمليات البناء المتبعة فى مصر ، فإننا نمضى الآن إلى صناعة نسج الأقمشة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى
صناعة المنسوجات القطنية والكتانية
ومختلف أنواع الأقمشة

لا تتوفر المواد التى تنهض عليها حرفة النسيج فى مصر ، بنفس الدرجة من الوفرة ، فى كافة أنحاء البلاد هناك ، ويقوم الناس تبعاً لظروفهم المحلية تلك بتصنيع القطن أو الكتان أو الحرير ، ولهذا السبب نجد أن المنسوجات القطنية هى النوع الوحيد من الأقمشة التى ينتجها الناس فيما بين أسوان وجرجا ، فى حين تغلب صناعة الأقمشة الكتانية فيما بين جرجا والساحل الشمالى ، وبشكل خاص فى الفيوم والدلتا ، وقد أدى القرب من سوريا ، التى يرد منها الحرير المستخدم فى دمياط والمحلة الكبيرة والقاهرة ، إلى أن تتركز فى هذه المدن صناعة الأقمشة الحريرية ، وفضلا عن دلك فإن هذا الضرب من النشاط يكاد يقتصر على صنع بعض أقمشة الزينة التى تخصص لتأثيث البيوت ، وسوف نتحدث هنا بشكل مركز عن هذه الأنواع المختلفة من الأقمشة . أما بخصوص تلك الأقمشة الصوفية التى « يتلفع » بها كل الفلاحين ، فهى تصنع فى كافة القرى من الصوف الناتج عن جز الخراف التى تربى هناك .

وقد سبق لنا القول فى الباب السابق أن القطن المزروع حول إسنا هو أفضل أصناف القطن فى مصر ، كما سبق لنا أن شرحنا كيف يستخلص القطن الشعر من البذور التى يحيط بها .

وبعد أن ينظف القطن بهذه العملية الأولية (عملية ندف القطن) يدخل فى محلج نجد رسماً له فى اللوحة رقم ١٥ ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة . وبعد تجهيزه على هذا النحو تغزله النساء بمغازل ثم يقدم إلى النساجين ، وقد أعطى المسيو كوتل Coutelle وصفا للنول الذى يستخدمه النساجون ، ونجد رسما له فى اللوحة الثالثة ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة .

وتنتج الأنوال الموجودة فى إسنا وضواحيها كل الأقمشة اللازمة ، ليس فقط

لسكان هذه المدينة والقرى التى تجاورها ، وإنما أيضا للقبائل العربية التى تتردد على أسواقها .

وتمارس نفس الحرفة ، وعلى نحو أوسع ، فى مدينتى قوص وقنا ؛ إذ يوجد فى هاتين المدينتين ما يزيد على ١٥٠ نولا ، حيث يجلب القطن من سوريا ومن الدلتا ، ذلك أن القطن الذى تنتجه هذه المنطقة لا يكفى لعمل هذه الأنوال .

ويقوم تجار من القاهرة بجلب القطن من سوريا إلى مصر العليا ، وهم يبيعونه عادة بسعر الرطل زنة قنا ٧٥ بارة ، ويساوى هذا الرطل ثلاثة أرطال ونصف الرطل حسب وزن القاهرة . ويتكلف حلج هذا الرطل من القطن ست بارات ، ويسلم النساج رطلا ونصف الرطل إلى الغازلات اللاتى يعدن إليه بعد مضى شهر فى العادة رطلا واحداً من الغزل ؛ وهكذا تسبب عملية الغزل تالفا يبلغ أكثر من ٣٠٪ ، وينبغى الملاحظة أن النسوة لا يقمن بالغزل إلا حين يفرغن من عمل البيت . ويسلم الغزل إلى النساج بدرجات متفاوتة السمك ، ويعنى النساج بالمواءمة بين خيوط الغزل (بأن يضع السميك مع السميك والرفيع مع الرفيع) كى يصنع منسوجات موحدة الصنف ، وتبلغ طول قطعة القماش من القطن الأبيض ستة من الأذرع البلدية ، بعرض يبلغ ذراعا ونصف الذراع ، وتلزم مدة يومين لإنجازها .

ويباع الذراع من هذا المنسوج بالقطاعى بـ ٧ إلى ٨ بارات مما يصل بثمن القطعة كلها (التوب) إلى ٤٥ بارة فى المتوسط .

وبخلاف الأقمشة من القطن الأبيض التى تستخدم فى الأمور العادية والمنزلية ، تصنع فى قنا شيلان القطن المخططة بالأزرق والتى تغطى أكتاف الفلاحين وأكتاف الغالبية العظمى من سكان البلاد .

وتصنع هذه الشيلان فى شكل قطع ، تتكون كل قطعة منها عادة من شالين وتتكلف الواحدة من هذه القطع ٤٥ بارة كأجرة يد ؛ ويبلغ طولها ١٢ ذراعا بعرض $\frac{1}{2}$ ١ ذراع ، وتلزم أربعة أيام لصنعها ، ويبلغ وزنها فى العادة رطلا واحدا زنة قنا ، وقد سبق أن ذكرنا أنه يساوى $\frac{1}{2}$ ٣ من الأرطال زنة القاهرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبلغ ثمن الزوج من هذه الشيلان فى الجملة حوالى ٣ بوطاقات أى ٢٧٠ بارة ، ويبلغ ثمنه بالقطاعى ٣٠٠ بارة أو قرشين أسبانيين ، ويباع جزء من هذه الشيلان داخل البلاد ، أما الجزء الآخر فيباع لقوافل سنار ودارفور ، ولمناطق أخرى فى أواسط أفريقيا .

ويقوم نفس نساجى الأقمشة القطنية ، السادة والمخططة ، بصناعة أقمشة خشنة من الصوف الغامق يشيع استعمالها فى الأرياف ، وقد رسم نول نسج الصوف فى اللوحة رقم ١٤ ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة .

ويقوم بغزل الصوف رجال ونساء ، فى نفس الوقت الذى يرعون فيه قطعانهم ، أو فى أوقات فراغهم بين أنشطتهم المعتادة ، ونرى فى اللوحة رقم ١٥ ، المجلد الثانى ، الدولة الحديثة ، رسما لغازل بجلس القرفصاء ، ويعمل هؤلاء الغازلون أيضاً وهم سائرون .

ويباع الرطل من غزل الصوف بـ ٨ إلى ١٠ بارات .

ويدخل فى صناعة قطعة من القماش طولها ١٦ ذراعا بلديا ، وعرضها ذراعاً واحداً ، من أربعة إلى خمسة أرطال من الصوف ، ويلزم للنساج أربعة أيام لنسجها يحصل عنها أجراً يبلغ ٢٥ – ٣٠ مدينى ، ويستخدم هذا النوع من الأقمشة على وجه الخصوص ، وكما سبق أن ذكرنا ، لصنع ملابس الفلاحين ؛ أما لون الشيلان التى يصنع منها الفلاحون عماماتهم فتكون أقل قتامة . وتزن كل قطعة قماش تتكون من شالين حوالى ٥ أرطال زنة القاهرة ، وتبلغ تكاليف صنعها (أجرة يد) ٣٥ مدينى ، وتباع بـ ١٨٠ مدينى .

وبخلاف هذه الأقمشة الصوفية القاتمة ، تصنع فى قنا شيلان العمائم من صوف يضرب إلى البياض ، ولا يمر بأية تجهيزات سوى ندفه بعد غسله ، ويباع الرطل من غزل هذا الصوف بـ ٥٠ بارة ، ويلزم رطل واحد ونصف الرطل لصنع شال طوله ستة أذرع ، وتبلغ أجرة نسج هذا الشال ٣٠ بارة ، أما سعره الاعتيادى فيبلغ فى معظم الأحيان حوالى ١٢٠ بارة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويصنع كذلك فى قنا ، كما يصنع فى جرجا وفرشوط ، أقمشة قطنية وشيلان من نسيج مضمومة خيوطه على نحو أكبر بكثير ، وتكون هذه فى العادة مخططة بالأحمر والأزرق وتتغطى بها النسوة من أقدامهن حتى رءوسهن ، فهى الرداء الوحيد الظاهر منهن ، كما أنها تشكل فى الوقت نفسه نوعا من الزينة لشيوخ القرى الميسورين ، فيغطون بها أكتافهم وصدورهم .

ويجلب القطن الذى يصنع فى هذه المدن الثلاث من سوريا ومن الدلتا ، إذ قلما يستخدم القطن الذى تنتجه هذه المدن نفسها إلا فى إسنا ، ومع ذلك ، فهناك فى إسنا ، تصنع منه كما سبق القول أجمل الأقمشة القطنية التى تنتجها مصر العليا .

وعند سيوط وضواحيها تصبح الأقمشة الكتانية أكثر استعمالا ، إذ يكاد يرتديها خلال الصيف كل سكان هذه المنطقة . ويصبغ هذا القماش منذ البداية باللون الأزرق باستخدام صبغة النيلة ؛ وهو اللون الغالب فى صباغة الكتان والقطن .

وقد أمكننى أن أجمع فى بنى سويف حيث أقمت هناك عدة مرات ، معلومات أوسع حول صناعة الأقمشة ، وقد تأكد لى هناك أن نسج القطن القادم من سوريا ومصر السفلى قد حل بشكل تام محل صناعة نسج الكتان . ويرد فى السنة الاعتيادية إلى هذه المدينة ، وكذلك إلى ولاية الفيوم من ٦٠٠ إلى ألف طن من القاهرة ، يزن الطن منها ١٢٠ رطلاً .

ويبلغ ثمن الرطل منها ، زنة ١٤ أوقية ، من ٢٨ إلى ٣٠ بارة ، وتدفع ٣ بارات فقط فى حلجه وندفه ، و١٠ بارات فى مقابل غزله .

ويدخل فى صناعة القطعة الواحدة من الأقمشة القطنية حوالى رطلين من الغزل ، ويبلغ طولها حوالى ١٩ ذراعا بلديا كما يبلغ عرضها ٢٢ قيراطاً أى $\frac{١١}{١٢}$ من الذراع .

ويمكن للعامل أن ينتج خمساً من هذه القطع فى ثمانية أيام يحصل كأجرة يد عن كل واحدةمنها ١٥ بارة . ويبلغ عدد النساجين فى بنى سويف خمسمائة إلى ستمائة نساج ، أما عدد الحلاجين فيبلغ الثلاثين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا ترسل الأقمشة القطنية من إنتاج بنى سويف مطلقاً لا إلى القاهرة ولا إلى مصر السفلى ، إذ تبقى هناك لاستهلاك سكانها ولاستهلاك القبائل العربية فى مصر الوسطى ؛ وفضلا عن ذلك فالناس هناك مضطرون لاستجلاب الأقمشة الصوفية والكتانية اللازمة لهم من خارج الولاية ، إذ تبين أن عدد الأنوال المخصصة لصنع هذا النوع من الأقمشة فى هذه المدينة قد تقلص إلى ثمانية أو عشرة أنوال على الأكثر .

وإذا كانت ولاية بنى سويف قد اقتصرت على استخدام القطن فى صناعة الأقمشة ، فإن ولاية الفيوم المتاخمة لها قد توسعت فى ذلك حيث استخدمت كل المواد التى يمكن نسجها ؛ ولذا نجد فى مدينة الفيوم ، عاصمة هذه الولاية ، عدداً كبيرا من العمال يقومون بصناعة المنسوجات القطنية والكتانية وكذلك الصوفية .

ويجلب القطن الذى يصنعونه هناك من القاهرة عن طريق النيل حتى قرية بوش أو مدينة بنى سويف ، ومن هناك ينقل براً إلى داخل الفيوم .

ويبلغ عدد الأنوال التى تقوم بنسج الأقمشة القطنية فى مدينة الفيوم وحدها ثمانين أو مائة نول . وتبلغ تكاليف ندف القطن وحلجه ، وهما العمليتان اللتان تجعلان القطن قابلا للغزل ، $\frac{1}{4}$ ٢ بارة لكل رطل . وبعد ذلك تشتريه الغازلات ، وهن فى العادة زوجات الفلاحين .

وتستخدم خيوط القطن ، تبعاً لدرجة سمكها وخواصها الأخرى ، فى صنع نوعين من الأقمشة يتميزان عن بعضهما البعض، كذلك تبعاً لعرض القطع (الأتواب) التى تصنع منهما . ويبلغ طول القطعة من كلا النوعين عشرين ذراعا بلدياً ، ولكن عرض القطعة من الصنف الثمين يبلغ ذراعا بلدياً كاملا ؛ وتبلغ أجرة صنعها ٣٥ بارة ، وتتطلب ثلاثة أيام عمل ، ويبلغ ثمنها فى تجارة القطاعى حوالى ١٦٠ بارة . ولا يبلغ عرض قطع القطن من الصنف الأدنى سوى $\frac{3}{4}$ ذراع ، ويتم صنع هذه فى مدة يومين ويبلغ أجر صنعها ١٥ بارة ، وتباع بمائة بارة فقط .

أما الكتان الذى يزرع فى مساحات واسعة بعض الشئ فى الفيوم ، فيقوم بتصنيعه عدد كبير من النساجين المنتشرين فى مختلف قرى الولاية ، ونجد منهم ما بين ١٠٠ إلى ١٣٠ فى مدينة الفيوم وحدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويفصل الكتان عن مشاقته عن طريق تمريره ، كما يحدث عندنا فى أوربا ، بين أسنان مشط من الحديد . ويوضع الكتان الممشط فى حزم ، يتراوح ثمن الواحدة منها بين ٧ و ٨ بارات . وبعد تجهيز الكتان على هذا النحو ، تأتى العازلات ليحصلن عليه من سوق المدينة أو من أسواق القرى الكبيرة .

ويبيض الغزل الذى تقوم هؤلاء النسوة بإعداده وذلك بغليه فى غسول من النطرون والجير الحى ، ويغسل بعد ذلك فى ماء بارد ، ثم يجفف ويقدم للنساج .

وتنقسم الأقمشة التى تصنع من الكتان إلى ثلاث درجات ، وتباع القطعة منه بـ ٩٠ ، ١٢٠ ، ١٦٠ ، ٢٠٠ مدينى بحسب درجة نعومتها وعرضها ؛ ويتراوح هذا العرض بين $\frac{٣}{٤}$ ذراع و$\frac{١}{٢}$ ذراع ؛ أما الطول فيبلغ بالنسبة لها جميعاً حوالى ثلاثين ذراعا .

ولا تصدر من هذه الأقمشة الكتانية المصنوعة فى الفيوم إلا كمية بالغة الضآلة ؛ لكن هذه الولاية تصدر إلى القاهرة وإلى مدن مصر السفلى معظم الأقمشة المستخدمة فى التعليب والتغليف — وهذه تصنع من غزل مصنوع من مشاقة الكتان تتفاوت درجات سمك خيوطه . وأقمشة التعليب والتغليف هذه ، والمسماة بالخيش لا تصنع مطلقاً فى شكل قطع (أتواب) ، وإنما فى شكل قطع قصيرة يبلغ عرض الواحدة منها ذراعين ، ويبلغ طولها أربعة أذرع . وهى تباع بالزوج . وفى زمن السلم ، حين يكون البحر حراً ، تصدر الفيوم ما يصل إلى ٢٠ ألف زوج من قطع الخيش إلى سوريا وإلى مناطق مختلفة فى أوربا .

وللنساجين فى مدينة الفيوم ، كما لطوائف الحرف الأخرى ، شيخ خاص موكل إليه تحصيل الضريبة المفروضة على الطائفة ، وفض المنازعات التى قد تنشأ بين أعضائها . ووظائف هذا الشيخ وراثية فى نفس الأسرة ، إذا ما ظل الورثة يحترفون نفس الحرفة ، أما إذا تركوا هذه الحرفة ، أو إذا مات الشيخ دون ابن يخلفه ، فإن النساجين يقومون بانتخاب شيخ آخر .

وتبلغ الضريبة المقررة على طائفة النساجين حوالى ٢٠ ألف بارة وهى توزع على كل منهم بنسبة حجم العمل الذى يفترض أنه حصل على دخله منه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتفرض ضريبة مماثلة ، وبنفس القيمة ، على الجير المستخدم فى خيوط الكتان .

وقد سبق أن قلنا عند حديثنا عن تربية الخراف فى الفيوم ، بأن صوفها من نوع أرق من صوف الخراف التى تربى فى بقية أنحاء مصر ، وفى نفس الوقت فإننا نجد فى الفيوم صوفا أكثر بياضاً مما نجد من الصوف فى أى مكان آخر . وقد أدت هذه الظروف إلى نشأة عدد كبير إلى حد ما ، من الأنوال المستخدمة فى صنع الشيلان البيضاء التى يستعملها الناس فى هذه الولاية ، وفى الولايات الأخرى .

وبعد أن يغسل الصوف وبعد أن ينظف ويندف باليد ، يغزل فى القرى ، ويبيع الفلاح صوفه مغزولا على هذا النحو ؛ وخيط الصوف البالغ النعومة والشديد البياض هو فى نفس الوقت الأعلى قيمة ، ويباع الرطل منه ، زنة ١٢ أوقية ، فى مقابل ٦٠ بارة .

أما خيوط الصوف من الدرجة الثانية فتباع بـ ٤٥ بارة للرطل ، ويباع الرطل من الدرجة الثالثة مقابل ٣٠ بارة فقط .

وتكاد تتركز صناعة الشيلان البيضاء التى تنتجها ولاية الفيوم فى مدينة الفيوم ذاتها . وقد بلغ انتشار هذه الصناعة هناك درجة أن القوافل التى كانت تسافر كل أسبوع من هذه المدينة إلى القاهرة ، كانت – قبل مجئ الحملة الفرنسية – تنقل معها فى بعض الأحيان ما يبلغ ألفين (٢,٠٠٠) من هذه الشيلان .

وكانت هذه القوافل تتجه براً إلى غايتها ، عابرة الصحراء حتى الجيزة ، أو كانت تتوجه إلى قرية بوش حيث تشحن السلع التى تحملها على مراكب تعمل فى النيل .

وكانت الضريبة المقررة على صناعة شيلان الصوف ، تحصل بواقع ٢ مدينى فى الأسبوع عن كل نول .

وكانت صناعة الأقمشة الصوفية ، الرمادية أو غامقة اللون ، تنتشر فى كل قرى الولاية ؛ أما الأقمشة الأكثر خشونة ، والتى تصنع من وبر الماعز أو الجمل ، والتى يصنع منها العربان خيامهم ، فقد كانت نسوة هؤلاء العربان ، هن اللائى ينسجنها بأنفسهن داخل الخيام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتصنع الأقمشة الكتانية بشكل خاص فى مناطق الدلتا ، حيث يزرع هذا المحصول بكميات أكبر بكثير مما يزرع بها فى مناطق مصر الأخرى .

وتشتغل كل نساء الفلاحين فى معظم ولاية منوف ، وبشكل عام فى كل أنحاء الدلتا ، فى غزل الكتان ، الذى يشترينه من الأسواق حيث يعرض للبيع بعد أن يمر بكل التجهيزات اللازمة . ويبيع هؤلاء النسوة غزلهن بواقع ٤ بارات لكل ربطة خيط (*) . وفى العادة ، تنفق الغازلة ٢٠ يوماً كى تتم صنع ٢٥ ربطة خيط .

ويتم تبييض غزل الكتان قبل تسليمه إلى النساج ؛ ويتم ذلك فى محلول ماء مغلى أذيب فيه على نحو متساو كل من النطرون والجير الحى . ويجلب النطرون من الطرانة ، ويباع بواقع ٤ بارات للرطل الواحد ، أما الجير فيأتى من طره بالقرب من القاهرة . وهذه الطريقة فى التبييض هى المتبعة فى كل أنحاء مصر السفلى .

ويدفع عادة ٢٥ بارة أجرة يد لصنع قطعة واحدة من الكتان ، طولها ٢٨ ذراعاً بلدياً .

وتصنع فى منوف أقمشة كتانية من أصناف مختلفة :

١ – أقمشة بيضاء ، نسيجها ضيقة خيوط لحمته ، وإن كانت الخيوط التى تستخدم فى صنع هذه الأقمشة تتفاوت فى درجة سمكها ؛ ويبلغ ثمن أغلى قطع هذا الصنف ١٨٠ بارة للقطعة الواحدة ؛ وهناك قطع منه يبلغ ثمنها ١٦٠ ، ١٤٠ ، ٩٠ بارة .

٢ – أقمشة ناصعة البياض ، يحيط بها عند حافتيها شريط خيوط نسيجه أكثر ضيقاً (البرسل) ؛ وتستخدم هذه الأقمشة فى صنع قمصان نساء الريف ، وتباع القطعة من هذا الصنف ، والتى يبلغ طولها ٢٦ ذراعا ، فى مقابل ٩٠ – ١١٠ بارة ويسمى هذا الصنف : « مقطع بحواشى » .

(*) يبلغ طول الربطة عادة حوالى ١,٠٠٠ متر . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ – وأخيراً هناك نوع من الأقمشة بالغ الخشونة ، يستخدم فى صنع أغطية الفراش وفى صنع الخيام . وتباع القطع البيضاء من هذا الصنف ، والتى يبلغ طولها عشرة أذرع مقابل ٧٥ بارة ؛ أما القطع الزرقاء فقد صبغت خيوط نسيجها ، ويصنع منها نوعان من الأقمشة : تساوى القطعة من النوع الأول ١١٠ بارة ؛ وتساوى القطعة من النوع الثانى ٨٠ بارة ، ويبلغ طول أى منهما ٢٣ ذراعا .

ويزيد عدد صناع الأقمشة الكتانية فى شبين (الكوم) عنه فى منوف ، حيث يبلغ عدد الأنوال فى شبين من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ نول . وتصنع فى كل من هاتين المدينتين ، وبكميات ضئيلة أقمشة صوفية تسمى : صوف .

أما مدينة طنطا ، وهى التى يزيد عدد النساجين بها عنه فى شبين ، بدرجة كبيرة ، فلا تصنع سوى الأقمشة الكتانية .

وتنتج مصانع طنطا أقمشة سادة من نسيج ضيقة خيوط لحمته ، يبلغ طول القطعة منها ثلاثين ذراعا ؛ ويتراوح ثمنها من ١٠٥ إلى ١٥٠ مدينى .

وبخلاف ذلك ، توجد بعض الأنوال التى تقوم بصنع قماش ذى مربعات زرقاء ، يستخدم فى بعض المناطق ملابس للرجال والنساء . ويبلغ طول القطعة من هذا المنسوج ١٦ ذراعا ، وتباع بواقع ٤٥ إلى ٦٠ بارة ؛ وكذلك يصنع نوع من النسيج الأزرق ، بالغ الضيق (أى عرضه ضيق) ، يسمى كركة (أو كركا) ، ويبلغ طول القطعة من هذا النوع (أى الثوب) ١٨ ذراعاً ، وهو لا يستعمل داخل البلاد ، وإنما يصدر إلى سوريا عن طريق دمياط ؛ وفى النهاية فإنه يصنع فى طنطا قماش للتغليف ، تباع القطعة منه بـ ٤٥ بارة ، ويبلغ طولها ٢٠ ذراعاً .

وتنتشر صناعة هذه الأصناف المختلفة من المنسوجات فى كل القرى المجاورة لطنطا ، وبشكل جزئى فى محلة مرحوم ، وبرما ، وإبيار ، وبسيون الخ . ويأتى النساجون فى هذه البلاد ليبيعوا منتجاتهم فى سوق طنطا ، الذى يقام يوم الأحد من كل أسبوع .

وبالإضافة إلى مختلف أصناف الأقمشة التى انتهينا من الحديث عنها ، وإلى الأقمشة الصوفية التى يشار إليها عادة باسم « صوف » تقوم بعض قرى الدلتا ، وعلى وجه الخصوص قرية قلين ، بإنتاج نوع من الشيلان تخصص لاستهلاك البلاد . وهذه تكون من أقمشة « شد » تصنع من خليط من الخيوط من الصوف والتيل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الأقمشة الفاتحة ، « بحواشى » والتى تحمل على حافتيها أربعة أو خمسة خطوط منسوحة على نحو أكثر ضيقاً (الرسل) ، والتى تستخدم فى صنع الملابس البيضاء والزرقاء ، فهى الأقمشة الكتانية الوحيدة التى تصنع بكميات كبيرة فى سمنود ، حيث يدور ما يقرب من ٣٠٠ نول . وإن كان عدد الأنوال التى تعمل فى ضواحى هذه المدينة أكبر من ذلك بكثير . ويبلغ طول « التوب » من هذا القماش ٢٦ ذراعاً بلدياً ، كما يبلغ عرضه ٢٠ قيراطاً من نفس الذراع . وتقدر الأطوال هنا تبعاً للمقاييس المستخدمة فى القاهرة ، وليس تبعاً لتلك المقاييس المستخدمة فى منوف وطنطا وإبيار الخ ، والتى يزيد الذراع فيها بمقدار ٤ قراريط أى أنها تبلغ ما نسبته ٢٨ إلى ٢٤ من الذراع البلدى المستخدم فى القاهرة .

وتتطلب صناعة القطعة (التوب) الواحدة من هذا المنسوج أربعة أيام عمل ، يحصل النساج مقابلها على أجر يبلغ ٢٤ بارة . ويتراوح ثمن القطعة الواحدة من هذا الصنف ما بين ١٠٥ إلى ١٦٠ مديني ، تبعاً لدرجة نعومتها وسمكها .

وتقوم فى سمنود كل أربعاء سوق تغص بالأقمشة الكتانية من كل نوع ، صنعت فى الدلتا وبشكل خاص فى المحلة الكبيرة ، ويشترى تجار المدن جزءاً من هذه الأقمشة ، يصدرونه إلى سوريا عن طريق دمياط ، كما يرسلون جزءاً منه كذلك إلى القسطنطينية عن طريق ثغرى رشيد والاسكندرية .

وتقدم الخراف التى تربى فى ولايتى الغربية والشرقية الصوف الذى تصنع منه فى الدلتا تلك الأقمشة التى يطلق عليها اسم « صوف » ، والتى تستخدم كما سبق القول فى صنع « الروب » أو الثوب الخارجى للفلاحين (البشت) ، وقد يحتفظ هذا الثوب باللون الأصلى الداكن الذى للصوف ، وقد يصبغ باللون الأزرق الغامق . ويبلغ عرض هذه الأقمشة نفس العرض الذى للقطع الكتانية ، وإن كان طولها لا يزيد عن ١٨ ذراعا . ويلزم النساج ثمانية عشر يوماً لصنع واحدة من هذه القطع ، يحصل عنها من ٩٠ إلى ١٠٠ بارة أجرة يد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتباع هذه الأقمشة تبعاً لنوعها بسعر يتراوح من ٣ إلى ٥ بوطاقات (ريالات) . وتدير صناعة هذه الأقمشة الصوفية حوالى الخمسين نولا فى سمنود ، وهناك عدد أكبر من الأنوال فى القرى التى تحيط بها تستخدم فى صنع أقمشة من الصوف الأسود ، بنفس الأطوال ، يشتد الطلب عليها من جانب الأثرياء ، وتباع بثمن يصل إلى ١,٠٠٠ مديني للقطعة الواحدة ، كما أنها تمثل نوعاً من الصادرات الهامة على نحو ما إلى سوريا .

وتكاد تستحوذ مدينة المحلة الكبيرة فى كل الدلتا على صناعة الأقمشة الحريرية ، إذ يعمل بهذه الحرفة بشكل دائم ما يصل إلى ٩٠٠ عامل .

وتستخدم هذه الأقمشة ، من إنتاج المحلة الكبيرة ، فى صنع ستائر النوافذ وأغطية الديوان والمخدات ومفارش المائدة المطرزة بالذهب والفضة ، والأحزمة ، واليشمك (البرقع) الأسود للسيدات ، ومناديل من نفس اللون يستخدمنها فى تغطية رءوسهن ، وفى صنع نوع من ملابس النساء يسمى شلست .

وتستهلك هذه السلع المختلفة التى تصنع فى المحلة الكبيرة فى كل مدن مصر ، أو تصدر إلى كافة أملاك الدولة العثمانية .

وقد استقرت فى هذه المدينة كذلك مصانع لصباغة الحرير ؛ وتتم الصباغة بالألوان : الأصفر ، الأسود ، الأخضر ، البرتقالى ، والأزرق السماوى ، والأزرق الغامق ؛ ولا تتم الصباغة باللون الوردى إلا فى القاهرة ، كما يجلب من هذه المدينة أيضاً الخيوط الذهبية والفضية التى تدخل فى صناعة المنسوجات المطرزة فى المحلة الكبيرة .

وتتم التجارة بين المحلة الكبيرة وسوريا عن طريق تجار من دمياط ، يقومون باستجلاب الحرير من سوريا ، ثم يعيدون إليها جزءا من هذا الحرير بعد أن يتم تصنيعه فى مصر .

وكان يعمل فى نسج الأقمشة القطنية فى المحلة الكبيرة ما يصل إلى ألف عامل ، لكن هذا العدد قد تقلص إلى ٥٠٠ فقط أثناء إقامتنا فى هذه البلاد . ويأتى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القطن الذى تصنعه المحلة من ولاية المنصورة ، ومن سوريا التى كان يجلب منها قطن من أرق الأصناف ويبلغ طول القطعة من الأقمشة القطنية (التوب) التى تنتجها هذه المصانع ١٦ ذراعا ، ولا تختلف عن بعضها البعض إلا فى العرض أو الدرجة ، ولهذا يتراوح ثمنها ما بين ٤٥ إلى ١٥٠ مديني .

وقد كان يصنع فى المحلة الكبيرة كذلك كمية ضئيلة من الأقمشة الكتانية وإن كانت هذه أدنى درجة بكثير مما تنتجه القرى التى تجاورها .

وتحوز مدينة رشيد مصانع عديدة لصنع الأقمشة الكتانية والقطنية ، وكذلك لصنع أقمشة من نوع خاص يختلط فيها الكتان مع القطن ، كما تصنع رشيد كذلك نوعا من أقمشة كتانية بها خطوط من الحرير الأبيض ، تستخدم بصفة خاصة فى صنع قمصان النساء .

ويستجلب صناع رشيد الكتان من ضواحى هذه المدينة ، ومن ولايتى الغربية والمنوفية ، كما يستجلبون القطن من ولايتى دمهور والمنصورة ، كما أنهم يستوردون من سوريا الحرير الذى يصنعونه .

وتمارس فى دمياط نفس حرفة تصنيع الكتان والقطن والحرير ؛ وتستجلب هذه الخامات من نفس المناطق (التى سبق ذكرها) ، وإن كانت هذه المدينة ، بصفة خاصة ، تقوم بصنع أقمشة كتانية ، لها حواف من الحرير الملون كنوع من الزينة .

ولهذا السبب توجد هناك مصانع للصباغة يتم تشغيلها بشكل دائم . وأكثر الألوان التى تخصص لهذا الغرض هى الأصفر والأخضر والأزرق والأحمر والبرتقالى والقرمزى والبنفسجى .

ويصدر هذا الصنف من الأقمشة الكتانية ذات الحواف الحريرية الملونة إلى سوريا ، وتصنع منه الشيلان والعمائم . وهناك نحو ثمانى إلى عشر درجات مختلفة من هذا القماش تبعاً لنعومة المنسوج ولأطوال القطع (الأتواب) ، وعرض حوافها الحريرية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبلغ طول القطعة من هذا المنسوج عادة ثلاثة أذرع بلدية ويبلغ عرضها ثلاثة أرباع الذراع ، ويباع المنسوج من الدرجة الأولى بـ ١٨٠ مدينى ، فى حين يبلغ ثمن القطعة من الدرجة الأخيرة بـ ٣٥ إلى ٤٥ مدينى ، ويتراوح ثمن القطعة من الدرجات المختلفة فيما بين هذين الحدين .

ولا يلزم النساج سوى يوم واحد لصنع قطعة من هذا النسيج ، تلك التى لا تعد فى الواقع سوى فوطة أو منشفة ، يضاف إليها نوع من الحلية أو البدخ وذلك بطلائها بالورنيش ودعكها بحجر مشذب .

ويوجد فى دمياط وفى قرية المنية المجاورة حوالى ٣٠٠ نول تعمل جميعها فى صنع التيلان الكتانية ، وهناك أيضا ما يقرب من خمسين نولا لصناعة النوع من الأقمشة الناصعة المسمى « بحواشى » ، وتدفع أجرة يد قدرها ١٨ — ٢٠ مدينى مقابل شغل كل قطعة منه ، طولها ١٨ ذراعاً ، وهى تتطلب من يومين إلى ثلاثة أيام عمل .

وبخلاف هذه الأصناف من المنسوجات ، يصنع فى دمياط كذلك ، ويكاد الأمر هنا يكون قاصراً على هذه المدينة ، نوع من الأقمشة الحريرية المسماة : « خيش » ، ومنه تتخذ خمارات النساء (البرقع) التى تكون سوداء أو قرمزية اللون .

ويبلغ عرض قطعة الخيش ، وهى التى يتطلب صنعها أربعة أو خمسة أيام من العمل ، يدفع مقابلها من ٥٠ إلى ٥٥ مدينى أجرة يد ، نصف الذراع ، كما يبلغ طولها ٤٣ ذراعاً ، تنكمش إلى ٤٠ ذراعاً فقط بعد الصباغة .

وتنتشر هذه الخمارات المصنوعة فى دمياط فى كل أنحاء مصر ، وخاصة فى ولايتى الغربية والمنصورة .

وفى نفس الوقت ، تمتلك عاصمة الولاية الأخيرة ، الواقعة على الفرع الشرقى للنيل ، إلى الجنوب من دمياط ، بعض مصانع لإنتاج الأقمشة الكتانية ، وخاصة أقمشة القلوع المخططة بالأزرق والأبيض ، والتى تستخدمها المراكب التى تعمل فى النيل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهناك نوعان من تلك الأقمشة المستخدمة فى صناعة القلوع : الأول ويصنع من الكتان الصرف ويباع بـ ٩٠ مدينى ، والتانى ويصنع من خليط من الكتان والقطن ، ولا يتجاوز طوله ١٢ دراعاً ، ولا يتجاوز ثمنه ٦٠ مدينى .

ولا يقتصر صنع هذه القلوع على المنصورة وحدها ، إد تصنع القلوع كذلك فى المنزلة ودمياط والبرلس ورشيد والإسكندرية ، وكذلك فى قرية إمبابة بالقرب من القاهرة ؛ وأفضلها جميعاً هو ما يصنع فى رشيد .

ولا تتطلب القطعة من قماش القلوع ، التى تصنع كلية من الكتان ، سوى يومى عمل ، أما تلك التى تصنع من خليط من القطن والكتان فلا تتطلب سوى يوم عمل واحد . ويدفع أجر صنع هذه وتلك بواقع مديى واحد فى مقابل كل ذراع . وهذه القطع من قماش القلوع ليست سوى أشرعة عرضها بالغ الضيق .

ولا تدير صناعة الأقمشة الكتانية السادة فى المصورة سوى ٢٠ نولا ، فى حين يدير القماش المسمى « بحواشى » مائة نول ، بل يرتفع الرقم إلى ثلاثمائة نول فى أوقات السلم .

أما الكتان الذى يغذى حاجة هذه الأنوال ، فيزرع فى ولاية المنصورة ، ويصدر جزء من الأقمشة التى تصنع هناك إلى سوريا وجزر الأرخبيل . إلخ .

وتعد حرفة النسيج واحدة من أقدم الحرف التى مارستها مصر ، وكل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن الطرق المستخدمة فى هذه الصناعة قد ظلت على وجه التقريب على نفس ما كانت عليه منذ العصور الضاربة فى القدم ، فلقد ظلت على نفس الدرجة من البساطة ، ولا تتطلب ممارستها على الاطلاق أى تدريب (أو تلمذة) ، ومدة التدريب عليها غير محددة بزمن ، فحين يريد أى عامل أن يمارس لحسابه حرفة النسيج ، فإنه يصنع قطعة من القماش ، ويتفنن فى إتقانها ، ليضعها — كأفضل ما يستطيع إنجازه — تحت فحص « أسطوات » الطائفة ، الذين يجتمعون لهذا الغرض ، وحين يحكمون بأن هذا العامل ماهر للحد الكافى فإنهم يقبلونه بينهم بعد تناول وجبة خاصة يعدها لهم ، ويصبح بذلك مقبولا فى اقتسام ميزات وعمل وواجبات الطائفة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويدبر شئون طائفة النساجين ، ويسهر على رعايتهم فى كل المدن واحد من كبار « أسطواتها » ، ويحتفظ هذا الشيخ المنتخب بوظائفه عادة طيلة حياته ، إذا لم يبد منه خلال ممارسته لمهامه ما يسبب الكثير من الضجر أو السخط . وتشتمل وظائفه بشكل خاص على توزيع الضريبة أو الميرى المفروض على الطائفة ، على مختلف أفرادها ، وعلى تحصيل هذه الضريبة ، وعلى التوفيق والحكم فى الخلافات التى يمكن أن تنشأ بين أصحاب العمل وبين العمال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

صناعة الحصر

يمكن على نحو ما ، إدخال صناعة الحصر ضمن حرفة النسيج ، (انظر الشكل رقم ١ من اللوحة العشرين ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، وكذا الوصف الذى قدمه لها المسيو جومار) . وتمثل الحصر فى مصر نوعين من الاحتياجات الأولية باعتبارها أثاثات ضرورية ؛ وهى فى القرى ، لا تقوم فقط مقام الأسرة الأوربية ، وإنما تقوم أيضاً مقام الديوان والمخدات التى يضطجع عليها سكان المدن فى كل بلاد الشرق ، كما تقوم مقام المفارش التى تغطى موائدهم . وفى واقع الأمر ، فإن المصريين من سكان سيوط وإسنا وقنا يقضون ليالى الصيف مفترشين حصراً مبسوطة أمام أبوابهم أو فى أواسط دورهم ؛ وتجد على هذه الحصر المبسوطة على الأرض ، أطباقا مكدسة باللحم والأرز والخضر التى يتغذون عليها ؛ وحين يتجمع هؤلاء للمشاركة فى وليمة عامة ، فإن المدعوين يجلسون القرفصاء فوق الحصر كذلك ؛ وهذه عادات مشتركة بين الفلاحين فى مصر العليا وبين العرب المتناثرين فى الصحراوين اللتين تحفان بهذه البلاد : ولهذا السبب لا توجد قرية واحدة ليس بها نساجون عديدون لصناعة الحصر ، وأكثر هذه الحصر خشونة وأكثرها شيوعا فى الصعيد ، هى تلك التى تصنع من الحلفا Poa multiflora وهو يتكاثر فى الأراضى البور ؛ كما تصنع الحصر فى كل مكان من سعف النخيل ، تلك الشجرة التى يعود كل جزء من أجزائها على الناس بالنفع ؛ ونجد هذا النوع من الحصير فى كل المناطق الآهلة إبتداء من أسوان حتى الاسكندرية ، ويحصل عليها الناس بثمن يجعلها فى متناول البائس الفقير ؛ ويصنع من هذه الحصر كذلك نوع من الأكواخ يحتمى الناس فى داخلها من الشمس ؛ وتقيم البغايا عادة وهن اللاتى يعشن حياة عامة فى بعض المناطق على شاطىء النيل ، تحت خيام تسد فتحتها حصر من سعف النخيل .

أما أغلى أنواع الحصر ، والتى يشيع استعمالها فى المدن الكبرى ، فيصنع من سمار تنتجه فى الفيوم حواف بحيرة قارون ؛ كما ينمو فى منطقة الطرانة على شواطىء بحيرات النطرون .

وهناك قرية كبيرة فى الفيوم تسمى طامية ، هى مقر هذا الضرب من ضروب الصناعة ، وهى تقع بالقرب من بحيرة قارون عند بداية شعب يصل ما بين هذه البحيرة وبين أهرام الجيزة ، عبر الصحراء التى تحد وادى النيل من جهة الغرب . ويعمل فى هذه الحرفة ، فى بعض القرى المجاورة لطامية وخصوصا فى قريتى المعصرة وسنورس ، عدد من العمال ، ويوجد فى طامية ما يقرب من مائة صانع ، يستخدم كل منهم اثنين إلى خمسة من العمال ، يتراوح الأجر اليومى لكل منهم من ٥ إلى ١٠ بارات ، أى ما يقل قليلا عن الأجر اليومى الذى يتقاضاه عامل الزراعة ، إذ يبلغ هذا الأجر عادة ، فى هذه المنطقة ، ١٠ بارات .

ويستجلب السمار الذى تستخدمه أنوال طامية لصنع الحصر من قرية الروضة الواقعة على شواطىء البحيرة . ويكاد يعمل كل سكان طامية فى صنع الحصر ويعيشون على إنتاجه .

ويمكننا اعتبار الإنتاج الزراعى فى هذه القرية فى حكم العدم ؛ فالأرض هناك ، ابتداء من الشعب الذى يؤدى إلى الأهرام ، مغطاة بصلصال مائل إلى اللون الأبيض ، وهو على وجه اليقين من نفس نوع الصلصال الذى تصنع منه البرادق ، والذى يوجد فى قنا ، عند بداية الشعب المؤدى إلى مدينة القصير ، على البحر الأحمر .

وتمتاز مدينة منوف ، بين كل مدن الدلتا ، بجمال الحصر التى تصنع فيها ؛ ويشتد الطلب على هذه الحصر فى كل أنحاء مصر . ولا يمارس الأهالى هذا الضرب من ضروب الصناعة فى هذه المدينة وحدها ، إذ تنتشر هذه الصناعة كذلك فى عدد من القرى المحيطة بها .

ويأتى السمار المستخدم فى صناعة هذه الحصر ، كما سبق لنا القول ، من منطقة الطرانة ومن الصحراء المجاورة لبحيرات النطرون ، ويكاد يقتصر جمع هذا السمار على قبيلة عرب الجوابى الذين يستحوذون على هذه الصحراوات ، وهؤلاء يقومون بنقل السمار إلى قرية تسمى قصر داود ، تقع على الشاطىء الأيمن من الفرع الغربى للنيل ؛ وهناك يحفظ السمار فى مخازن يأتى إليها أصحاب المصانع فى منوف للحصول على حاجتهم منه .

ولا يعمل هؤلاء الصناع ، والعمال الذين يعملون لديهم ، فى إنتاج الحصر ، إلا خلال بضعة أشهر من العام ، أما فى بقية العام فيقومون بزراعة مساحة ضئيلة من الأرض .

ويستخدم صناع منوف العمال من كافة الأعمار . ويدفع للأطفال أجراً يومياً يصل من ٥ إلى ٦ مدينى ، أما يومية الرجال البالغين فتصل إلى ١٠ - ١٢ مدينى ، ويبلغ أجر العمال المهرة ٨٠ مدينى فى الأسبوع .

ويمكن لأربعة عمال يشتغلون معاً لمدة يوم واحد أن يصنعوا حصيرة مربعة الشكل ، طول ضلعها أربعة أمتار .

ويرسل الجزء الأكبر من حصر ولاية منوف إلى القاهرة وبولاق ، إما لاستهلاك هاتين المدينتين ، وإما لتخزينها لحين تصديرها .

ويقوم بشراء هذه الحصر إمّا تجار أتراك يبيعونها بعد ذلك فى القسطنطينية وأزمير وجزر الأرخبيل ، وإما تجار سوريون ينقلونها إلى عكا وأورشليم (القدس) ودمشق. إلخ .

وفى أوقات السلم يصل عدد عمال نسج الحصر فى ولاية منوف إلى ستمائة أو سبعمائة عامل ، وكان ثمن السمار الذى يستخدمونه ، يقدر قبل مجىء الحملة الفرنسية بواقع ٤ بوطاقات (ريالات) مقابل كل حمولة جمل . وقد ارتفع هذا السعر إلى ست أو سبع بوطاقات أثناء إقامتنا فى مصر ، على الرغم من أنه لم تكن هناك أية تجارة خارجية (أى على الرغم من توقفها) ، وقد نتج هذا الارتفاع فى الأسعار من أن العربان الذين كانوا يقومون بجمع السمار من صحراء الطرانة ، كانوا يتعرضون للمطاردة والملاحقة على يد الفرنسيين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

الزيوت المختلفة وطريقة صنعها

تستخدم مختلف أنواع الزيوت التى تصنع فى مصر فى تتبيل بعض المأكولات ، أو لإنارة الشوارع أو للإضاءة داخل البيوت .

ويستخدم فى صنع الزيوت بذور الخس والقرطم واللفت والكتان والسمسم . ويتفاوت استهلاك الزيوت المصنوعة زيادة ونقصاً فى مناطق مصر المختلفة ، تبعاً للتفاوت الذى يوجد بين قابلية أراضى هذه المناطق لإنتاج النباتات الزيتية التى انتهينا من ذكرها .

ولهذا السبب ، فإن الناس فى المنطقة المدارية لمصر لا يستخدمون فى حياتهم سوى زيوت الخس والقرطم ؛ أما فى مصر الوسطى فإنهم يستهلكون بشكل خاص زيوت اللفت والكتان والسمسم ، وفى مصر السفلى يستهلك الناس زيوت الكتان والسمسم .

وزيت الخس ، هو زيت الطعام الوحيد الذى يستهلكه الناس فى إسنا وولاية طيبة ؛ وقد وصفنا طريقة زراعة هذا النبات ، وبينا إنتاجه من الحبوب الذى يصل عادة إلى نسبة ٣٦ : ١ (نسبة المحصول إلى البذور) . وهكذا ، فإن أردباً من البذور ، يبلغ متوسط ثمنه ١٥٠ مدينى ، يعود بإنتاج مكيالين من الزيت ، من النوع المسمى : بلاص ، يزن كل بلاص منهما حوالى ٣٥ رطلا من زنة القاهرة ؛ ويبلغ ثمن الرطل من هذا الزيت ٧ – ٨ بارات .

ولا يزرع القرطم فى هذه المنطقة إلا من أجل ما ينتجه من بذور ؛ فهناك يهمل إنتاج هذا المحصول من الزهور ، التى تعود بنفع كبير للغاية ، كما رأينا ، فى ولاية سيوط .

وعندما تكون البذور هى الإنتاج الوحيد الذى يراد الحصول عليه من هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحصول ، فإنه يبذر على الدوام كما هو الحال فى الخس ، ولكن بنسبة أكبر ، مع العدس والحمص والذرة . وهكذا ، ففى حين تبلغ كمية بذور الخس المبذورة فى الفدان الواحد ٢/٤٨ من الأردب ، فإن بذور القرطم (فى نفس المساحة من الأرض) تبلغ ٣/٤٨ ، وتنتج عادة أردبين (من البذور) ، أى ما نسبته ٣٢ : ١ ؛ ويبلغ ثمن الأردب حوالى ١٥٠ بارة ، ويزيد السعر مع هبوط النيل (الاتجاه شمالا) حيث يزيد عدد سكان هذه المناطق بالنسبة لمساحة الأرض المزروعة ؛ وبذلك يصبح استهلاك كافة المواد الغذائية بالمثل أكبر ؛ ففى قنا على سبيل المثال ، تباع بذور الخس والقرطم بواقع ٢٠٠ بارة أى بزيادة قدرها ٢٥ ٪ عن نفس ثمنها فى إسنا . وثمة سبب آخر لهذه الزيادة ، وهو أن جزءاً من الزيت الذى يستخرج من هذه البذور (هناك) ، يصدر إلى الجزيرة العربية عن طريق القصير ؛ وتستخدم مدينة القصير مستودعاً لهذه التجارة .

وينتج الأردب من بذور القرطم بلاصاً ونصف البلاص من الزيت ، أى ما زنته ٥٢ رطلا ، مما يصل بإجمالى إنتاج الأردب إلى ٣١٢ بارة ، بواقع ٦ بارات للرطل الواحد ، ولا يستخدم هذا الزيت إلا فى الإنارة .

ويبلغ ثمن بذور السلجم أو اللفت ، وهو الذى يصبح مع الاتجاه نحو الشمال ابتداء من قنا ، موضوعاً لزراعة واسعة ، حوالى ١٨٠ بارة للأردب . وينتج هذا القدر من البذور بلاصين من الزيت ، يزن الواحد منهما ٣٥ رطلا ، بثمن قدره ٥ بارات للرطل الواحد ، مما يصل بإجمالى عائد أردب البذور ٣٥٠ بارة نقداً ؛ ونفس الحال فيما يختص بالبذور التى تستخلص من بذرة الكتان ، إذ يباع الأردب من هذه البذور بواقع ١٨٠ بارة حين تخصص البذور لإنتاج الزيت ؛ وينتج الأردب منها بلاصاً وثلاثة أرباع البلاص فى العادة ، أى ٦٠ رطلا من الزيت ، ثمن الرطل الواحد منها ٧ بارات ، مما يصل بعائد الأردب من بذور الكتان ، بعد أن يتحول إلى زيت ، إلى ٤٠٠ — ٤٢٠ مدينى .

وتبعاً لأحوال المناطق المختلفة ، تستعمل مختلف أصناف الزيوت التى انتهينا من الحديث عنها استعمالا مزدوجاً : للطعام وللوقود . وهى تصنع كلها بنفس الطريقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(انظر الصناعات والحرف ، اللوحة ١ ؛ الأشكال ١ ، ٢ ، ٣ ؛ الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى ؛ وكذا شرح هذه اللوحة كما قدمه المسيو ديفلييه Deviliers – وانظر كذلك : معصرة الزيت من الداخل ، وهى مرسومة باللوحة ١٢ ؛ الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى) .

وتتحول بذور النباتات الزيتية فى البداية إلى نوع من البرغل (جريش) تحت رحوين تشبهان الطواحين العادية ؛ وينقل هذا البرغل إلى رحوين من الجرانيت على شكل مخروط مبتور ، تدوران حول جذع شجرة عمودى ؛ وتبسط العجينة التى يحصل عليها من العملية الثانية بين حصر من سعف النخيل ، يبلغ قطرها حوالى ٥٠ سم ، تسمى أبراش (برش) ؛ وتوضع هذه الأبراش فوق بعضها البعض ؛ ويبلغ عدد هذه الأبراش من ٨٠ إلى ٨٥ برشاً ، وهو ما يشكل عموداً أسطوانياً يصل ارتفاعه حوالى المترين ، ويكفى أن نمارس فوقه ضغطاً خفيفاً لكى ينفصل الزيت عن هذه الشطائر من عجينة البذور الموجودة بين الأبراش . ويتم هذا الضغط بواسطة رافعة من الدرجة الثانية (انظر الصناعات والحرف ؛ اللوحة الأولى ؛ الشكل الأول ؛ الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى) ، تتحرك حول نقطة ارتكاز قوية فى أحد جدران المصنع ؛ وتحمل هذه الرافعة فى طرفها الثانى ، حلزونا ثابتا يمر من خلاله لولب رأسى ، ينتهى بكتلة من الحجر تعلق به وتستخدم بمثابة مقاومة ، وترتفع حسب الحاجة بواسطة هذا اللولب بشكل تنخفض معه الرافعة . ويسيل الزيت المعصور بهذه الطريقة حول العمود لينتهى إلى حفرة توجد أسفل هذا العمود ، وينزح من هناك بعد ذلك لكى يحفظ فى جرار فخارية تسمى : بلاص .

وتمثل الأشكال من ١ إلى ١٠ هذه الطريقة فى عصر الزيوت (الصناعات والحرف ؛ اللوحة الأولى ؛ الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى) . ويعفينا وصف هذه اللوحة من الدخول فى تفاصيل واسعة حول هذه الصناعة ؛ لكننا نكتفى بالقول بأن رواسب أو ثفل هذه البذور الزيتية المختلفة ، والتى يستخرج منها الزيت ، تستخدم فى تغذية الثيران التى تعمل فى جر الرحوات التى تتحول تحتها البذور إلى عجين ، ويشرف على هذه العملية فى العادة رجلان ، مهمتهما تعليق وفك الثيران التى تقوم بهذا العمل ،

مرة كل ساعتين ، وأن يعيدا بلا انقطاع تحت الرحوات عجينة البذور التى تنزلق من هناك بشكل دائم . وهم يستخدمون لهذا العرض حاروفاً صغيراً أو « شوكة » من الخشب .

ومعصرة الزيت ، بالشكل الذى وصفناه للتو ، هى أكثر الماكينات التى أتيح لنا أن نراها فى مصر تكلفة ؛ ويرتفع ثمنها فى بعض الأحيان إلى ٤٠٠ بوطاقة .

وبواسطة هذه الآلة ، يصنع فى اليوم الواحد بلاصان من الزيت من أى من الحبوب التى يستخرج منها ، لذلك فالفرق طفيف للغاية بين تكاليف صناعة هذه الأصناف المختلفة من الزيوت . وحيث أن هذه السلعة تشكل احتياجاً ضرورياً ، فإننا نجد المعاصر بأعداد متفاوتة فى كافة أنحاء مصر ؛ فيصل عددها إلى نحو عشر فى مدينة سيوط وحدها ؛ كما يبلغ عددها ١٤ – ١٥ معصرة فى منوف ، وهذه المعاصر الأخيرة تستخدم كلها فى صناعة زيت الكتان .

ومن جهة أخرى فإن تصنيع زيت السمسم يمر بعمليات خاصة به ؛ إذ يبدأ الناس بغسل بذور السمسم ، وبعد تركه مغموراً بالمياه لبعض الوقت ، يحمص بشكل خفيف فى فرن خاص ، (نجد رسماً له فى الأشكال ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ من اللوحة الأولى ؛ من الصناعات والحرف ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى) . وتوضع بذور السمسم التى مرت بعملية التحميص هذه تحت رحوات من الحجر تجلب من سوريا ، وتتحول البذور تحتها إلى ما يشبه العجين ؛ ويوضع العجين بعد ذلك فى دن مبنى على هيئة جزء من كرة يبلغ قطره من أعلى متراً ونصف المتر ؛ ويقوم رجل يقف فى هذا الدن ، ممسكاً بيده حبلا يتدلى من فوق رأسه ، بالدوس فوق هذا العجين ، لينفصل عنه الزيت ، الذى يخرج من حواف كتلة السمسم التى يطؤها معجونة على هذا النحو ؛ ويستقبل الزيت فى إناء من النحاس ، يحتفظ بها العامل عن طريق إحدى قدميه ، مائلة بشكل مناسب باتجاه النقطة التى يسيل منها الزيت ؛ وحين يمتلىء هذا الإناء ، فإنه يقوم بصب الزيت الذى يحتويه هذا الإناء فى بلاص .

ويعطى الأردب من بذور السمسم فى العادة قنطاراً من الزيت ، يبلغ ثمنه فى المتوسط ما يقرب من ١١ بوطاقة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتصنع كميات قليلة من ريت السمسم فى مصر العليا ، وخاصة فى مدينة قنا ، فى حين تنتشر هذه الصناعة بشكل خاص فى القاهرة والدلتا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

صناعة النبيذ ، وأنواع الخل المختلفة والمياه الروحية

لعل الفيوم هى الولاية الوحيدة التى يصنع بها النبيذ ، وفوق ذلك فهو يصنع هناك بطريقة قاصرة .

فبعد أن يهرس العنب لمدة ساعة ، فى إناء فخارى ، أسطوانى الشكل ، على هيئة دن صغير ، يوضع فى جوال كبير ، مصنوع من قماش صوف بالغ السمك ، ثم يعتصر الجوال بشدة ، ويستقبل عصير العنب الذى يسيل من الجوال على هذا النحو ، فى إناء فخارى شبيه بالإناء الأول لتتم فيه عملية التخمير ، التى تستغرق مدة تبلغ من ٨ إلى ١٥ يوماً . وبعد ذلك يصب السائل فى قوارير (أممورات) كبيرة ، تستخدم فى مصر فى نقل زيوت بلاد البربر (المغرب) . وتدفن هذه القوارير فى الأرض حتى رقبتها ، وتعلق فتحتها بسدادة خشبية ، يحكم إقفالها بالجبس . وعلى الرغم من هذا الاحتياط ، فإن النبيذ لا يظل على حاله لأكثر من بضعة شهور ، نجده بعد مرورها عادة فى حالة خل .

وقد يكون من الصعب أن نتعرف فى تلك الطرق التى تتبع لصناعة نبيذ الفيوم ، الذى لا يستهلكه فى العادة سوى الأقباط ، على تلك الأساليب التى كانت تتبع فى الماضى فى صنع نبيذ إقليم المريوطية الشهير . ومع ذلك فإن أعناب مصر بالغة الجودة ، فالأرض هناك صالحة للغاية لزراعة الكروم . ولا جدال فى أنه لا يزال بإمكان هذه البلاد أن تنتج كروماً قيمته تماثل كروم الأرخبيل ، لو كان يسكنها أناس غير أولئك المسلمين ، الذين يحرم عليهم دينهم ، كما هو معروف ، تناول هذه المشروبات الروحية .

وبخلاف خل النبيذ (العرق) ، يصنع فى مصر كذلك نوعان من الخل (العرق) أحدهما من العنب المجفف ، والثانى من البلح .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتأتى الأعناب المخففة هذه (الزبيب) من قبرص وجزر اليونان ؛ ويقبل الناس على الخل الذى يستخرج منها ، ويباع بواقع المكيال ١٢ بارة ، وتبلغ سعة هذا المكيال حوالى اللتر . وإن كان الخل الذى يستمد من البلح أقل جودة ، ويباع نفس المكيال منه بواقع ٦ إلى ٨ مدينى .

وتعفينا التفاصيل التى أوردها المسيو روزيير Rozière حول صناعة تقطير الخل ، فى ذلك الوصف الذى قدمه (الصناعات والحرف ، اللوحة الحادية عشرة ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى) من أن نتوسع فى الحديث عن هذا الفرع من فروع الصناعة . ونحن من جانبنا نحيل القارىء بالمثل ، ولنفس السبب ، إلى الشكل رقم ٢ من نفس اللوحة ، وإلى وصف فن التقطير ، وهو ما ندين به للمسيو جومار Jomard ؛ إذ أننا نجد به كل ما له صلة بتصنيع المشروبات الروحية من البلح ، والذى تباع البونصة من أفضل أنواعه مقابل ٩٠ إلى ١٠٠ مدينى ، ويعادل هذا المكيال حوالى البنتة (*) وحيث لا يستهلك هذا المشروب سوى الأقباط ، فإن عدد مصانع التقطير فى القاهرة لا يتجاوز ١٠ - ١٢ مصنعاً .

(*) ٠,٥٦٨ من اللتر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

تقطير ماء الورد

سبق أن قلنا فى الباب الأول من هذه الدراسة إن الفيوم هى المنطقة الوحيدة التى يصنع بها ماء الورد ؛ فحين تكون السنة وفيرة يقام فى مدينة الفيوم ، وهى قاعدة هذه الصناعة ، عدد من أجهزة التقطير يصل إلى نحو الثلاثين .

ويتكون هذا الجهاز بالغ البساطة من مرجل من النحاس ، يبلغ قطره من ٧٠ إلى ٩٠ سم ، ويحيط به ، بطول ارتفاعه ، فرن صغير مبنى من القرميد . وتغطى هذا المرجل قمة نصف كروية على وجه التقريب . وتحمل هذه القمة فى داخلها قصبة دائرية تعمل كميزاب ، إذ تستقبل الماء المقطر وتحمله عن طريق خرطوم مائل ، إلى إناء مخصص لاستقباله .

وتتكاثف الأبخرة على الجدار الداخلى لهذه القمة ، التى تغطى لهذا الغرض بكمية محدودة من الماء البارد ، يحتفظ بها داخل غلاف مزدوج من نفس معدن القمة (نصف الكروية) ، ومثبت بها .

وليست هناك حاجة للقول بأن المرجل والقمة التى تغطيه ، يتماسكان معاً بواسطة قطعة من الطين ، وأن من الضرورى أن نلفت النظر إلى حقيقة أنه يستخدم فى صنع هذا الطين ، أو هذا النوع من العجين ، رواسب بتلات أو تويجات الزهر ، بعد تقطيرها .

وفى العادة ، ينتج كل خمسين رطلا من هذه التويجات ، مضاف إليها خمسون رطلا من الماء ، خمسة وعشرين رطلا من ماء الورد العادى .

وكان البكوات (المماليك) ، والشخصيات الأخرى ذات النفوذ فى القاهرة تستصنع لنفسها فى مدينة الفيوم ، ولاستخدامهم الخاص ، ماء ورد من صنف أرق بكثير من ذلك الصنف الذى تتداوله التجارة . فكانت تستخلص كمية معينة من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماء الورد ، من قنطار من تويجات الزهور ، ويصب ماء الورد هذا على قنطار آخر من الورود ، ويعاد التقطير من جديد ، وبذلك يتم الحصول على ماء ورد مركز ، يصب بدوره على قنطار من التويجات للحصول على إنتاج ثالث أكثر تركيزاً .

ويباع القنطار من تويجات الزهر بخمس أو ست بوطاقات (ريالات) ، ويبلغ ثمنه فى بعض الأحيان ١٠٠٠ بارة . ولا تزرع شجيرات الورد إلا حول مدينه الفيوم ، وكذلك فى بعض القرى المحيطة بها ، إذ لا يقطر ماء الورد ، كما سبق القول ، إلا فى هذه المدينة ، كما أن تويجات هذه الورود لابد أن تستخدم طازجة (عند تقطيرها) .

وللمقطرين المقيمين هناك وكلاء فى القاهرة ، يبعثون إليهم العربون مقدماً ، ويتعهدون ببيع ماء الورد فى بقية أنحاء مصر وكذلك فى سوريا ، وهى البلد الأجنبى الوحيد الذى ترسل إليه طلبيات من ماء الورد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع

صناعة السكر

نشأت مصانع السكر فى أراضى مدينتى فرشوط وأخميم بشكل خاص . (انظر الفنون والحرف ، اللوحة السابعة ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ؛ وانظر كذلك وصف هذه اللوحة ، الذى قدمه المسيو سيسيل Cécile ، المجلد السابع ، ص ٤١٩ ، الدولة الحديثة) . .

ويجلب قصب السكر على ظهور الحمال من الحقول إلى المصنع ، الذى يبنى عادة على هيئة مستطيل طوله أربعون مترا ، وعرضه عشرون متراً ، وتوجد خلف جدرانه ، التى تبنى عادة بالطوب ، مختلف أجزاء المصنع .

وعند أحد أطراف هذا الفناء يوجد الباب الخارجى ، ويدخل منه إلى فناء صغير ، وفى قبالة هذا الباب ، وعند نهاية الفماء ، نجد فى العادة مخزنا تودع به أعواد القصب بمجرد أن تصل من الحقول . وهناك تجرد الأعواد من أوراقها بواسطة نساء وأطفال .

وبعد أن تجرد الأعواد من أوراقها تنقل إلى مبنى آخر ينقسم إلى قسمين متساويين بواسطة جدار (قطوع) . ويضم كل قسم من هذين القسمين آلة أو معصرة تستخدم فى إخراج العصير من الأعواد .

وهذه الآلة عبارة عن أسطوانتين من الخشب ، مثبتتين بشكل أفقى ، على شاكلة المصفحة أو صقالة الورق ، وتدور هاتان الأسطوانتان فى اتجاهين متضادين عن طريق ترس . يحركه هو نفسه مدار يعلق به ثور . وتدخل أعواد القصب فيما بين الأسطوانتين الخشبيتين ، ويتفاوت مقدار الضغط أو العصر الذى تتعرض له الأعواد ، تبعاً لتفاوت درجة اقتراب هاتين الأسطوانتين إحداهما من الأخرى . ويستقبل العصير الناتج عن هذه العملية فى جرة كبيرة من الفخار ، مدفونة أسفل هذه المعصرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وينقل العصير بعد الحصول عليه بهذه الطريقة إلى قسم آخر من أقسام المصنع ، مقام إلى ظهر جدار طولى من ناحية باب الدخول . وهناك يصب أولا فى جرار فخارية ، ثم يمضى إلى مراجل من النحاس تتفاوت أحجامها ، وتقام فوق مواقد عادية مبنية بالطوب ، أما باب المستوقد فيقع خارج المبنى : ويشعل به قش الذرة أو حزم من قش الحنطة المهروس . وبواسطة هذا الوقود تظل النار مشتعلة تحت المرجل ، وهناك يغلى العصير غليته الأولى ، التى تستمر لمدة تقرب من الساعة . وبعد أن يزال الزبد ، ينقل العصير إلى جرار أخرى ، وفى النهاية ، يصب العصير فى قوالب مخروطية ، ليتبلور فى شكل أقماع من السكر .

وبعد أن تمتلىء القوالب على هذا النحو ، توضع فوق متكآت ، بحيث تكون قمتهاإلى أسفل ؛ ويتم ذلك فى ممر مسقوف ، حيث تترك لتصفى لبعض الوقت ، ثم تمضى من هناك إلى محمى (أو مكمر) لتكتسب الدرجة اللازمة من الصلابة ثم ينقل إلى حيث يبدأ تداوله ؛ ويوضع فوق قاعدة هذه القوالب المخروطية ، بعض من الصلصال أو من طمى النيل الرطب ، فتمر المياه التى يحتويها الطمى أو الصلصال خلال السكر وتنقيه ، ومن هنا يحدث أن تكون قاعدة أقماع السكر المتداولة فى التجارة ، أكثر بياضاً على الدوام من قمتها . التى تتراكم بها كل الشوائب التى تشوب نقاءها .

وننتقل الآن إلى الحديث عن عدد وتوزيع العمال المستخدمين فى مصانع السكر فى فرشوط وأخميم .

يعمل عاملان بشكل دائم أثناء وقت تصنيع السكر ؛ إذ يقودان ويرعيان الجملين اللذين ينقلان إلى المصنع أعواد القصب التى ينتجها فدان واحد من الأرض ، ويقوم عاملان آخران بنزع أوراقها بمجرد وصولها ، ويعدانها للعصر ؛ كما يعمل عاملان لإدارة المعصرة ، وجمع العصير الناتج عن أعواد القصب ، يحل كل منهما محل الآخر بالتناوب ، أما الثيران التى تقوم بجر الترس فتعمل هى الأخرى بالتناوب ، إذ يحل اثنان منها محل اثنين آخرين مرة كل ساعتين . ويقود هذه الثيران ويعنى بها عاملان ؛ ويقوم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اثنان آخران برعاية النار تحت المرجل ، كما يسهر عاملان داخل المصنع على عمليات إنضاج السكر وتحويله إلى أقماع . ويدير كل هذه الأعمال رئيس المصنع ، ويحصل (كل) من الاثنى عشر عاملا الذين يديرهم على ٦ بارات فى اليوم إذا هم حصلوا على أجورهم نقداً ، أو على رطلين من العسل الأسود إذا حصلوا على أجورهم عيناً .

أما متوسط يومية الثور الواحد فتصل إلى ٢٠ – ٢٢ بارة ؛ كما يلزم من ٢٠ إلى ٢٥ يوم عمل لتحويل إنتاج فدان من قصب السكر ، إلى سكر .

ويزيد عدد العاملين المستخدمين فى مصنع ما من مصانع السكر بنسبة مساحة الأرض التى أقيم هذا المصنع لتصنيع إنتاجها من القصب .

وفى السنوات المواتية للغاية ، ينتج الفدان من القصب نحو ١٥ إلى ٢٥ قنطاراً من أقماع السكر ؛ ومن ١٠ إلى ١٢ قنطاراً من العسل الأسود ، ويزن قنطار السكر ١٥٠ رطلا ، زنة الرطل ١٢ أوقية .

ويبلغ ثمن قنطار السكر فى السنة العادية حوالى ١٠ بوطاقات ، وبهذا يبلغ صافى إنتاج فدان الأرض المزروعة بقصب السكر إلى ٢٠٠ بوطاقة .

ويشكل القصب فى ولاية أطفيح – وهى أقرب ولايات مصر العليا إلى القاهرة – موضوعاً لاستغلال هائل . ويكاد يتفرغ الناس لصنعه هناك ، فى بعض القرى التى يقطنها عربان تحولوا إلى مزارعين .

ويزرع قصب السكر كذلك فى الدلتا ، ولكن بقصد بيع أعواده فى أسواق المدن ، باعتباره نوعاً من الفاكهة ، كما سبق لنا أن بينا فى مكان آخر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثامن
صناعة ملح النوشادر

على الرغم من أن إنتاج ملح النوشادر قد ظل لزمن طويل ، قاصراً على الصباغة المصرية ، وعلى الرغم من أن المرء يستطيع العثور على المواد اللازمة لتصنيعه فى كافة أنحاء مصر ، فإن المصانع التى تقوم بذلك لم تنشأ إلا فى القاهرة .

وتحتوى الدراسة الهامة التى أعدها المسيو كوليه - ديكوتيل Collet-Descotils ، والتى نشرت فى ثنايا هذا المؤلف (وصف مصر) حول صناعة ملح النوشادر ، على التفاصيل الكثيرة التى عالجها هذا الكيميائى الماهر ، بدرجة تفوق ما تستطيع مقدرتنا أن تفعله ، وبدرجة كبيرة ، ونحن نحيل إلى هذه الدراسة المنشورة بالمجلد الثامن* ، الصفحة الأولى ، وصف مصر ، ونحيل كذلك إلى الفنون والحرف ، اللوحة الثانية ، الأشكال ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ؛ الدولة الحديثة ، المجلد الثانى - وذلك للحصول على المعلومات التى لا يمكن أن تشتمل عليها هذه اللمحة البسيطة ، التى كان علينا أن نلتزم بها هنا ، حتى لا نقع فى تكرارات لا جدوى منها .

يتم الحصول على ملح النوشادر من السناج الناتج عن إحراق الأقراص الجافة من روث الماشية ، والتى تستخدم باعتبارها وقوداً .

ويقوم بجمع هذا السناج من القرى رجال حصلوا من شيخ البلد ، على كامل الحق فى جمع هذه المادة (الالتزام) مقابل ١٠ - ١٢ بوطاقة فى العام .

ويتم جمع حصيلة هذه المادة بعد انتهاء الشتاء ، ويتم تصنيعها خلال الصيف ، لأن الطلاء الصلصالى الذى لابد أن تطلى به الكرات الزجاجية التى تتم بها عملية التصعيد (أو التحويل) sublimation ، يجف خلال هذا الفصل بسرعة بالغة ، بفعل حرارة الشمس .

وتتكون مصانع ملح النوشاد من ورشتين متمايزتين للغاية : تتخصص الأولى

---

* المجلد ٥ من الترجمة العربية . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى صنع الكرات الزجاجية التى تحدثنا عنها للتو ، وتتخصص الأخرى فى صنع الملح .

ويتكون فرن الزجاج المرسوم فى الفنون والحرف ، اللوحة الثانية ؛ الأشكال ١٧ ، ١٨ ١٩ ، الدولة الحديثة ، من طابقين ، يوجد بالجزء الأدنى منهما المادة فى حالة انصهارها ، وذلك فى تجويف هذا الجزء أو حوضه ؛ ويأخذ النافخ من هذه المادة ، فى طرف أنبوبته ، كمية تكفى لصنع الكرة (الزجاجية) ، وبعد أن تنفخ الكرة نصف نفخة ، يدخلها النافخ فى الطابق الأعلى للفرن ، وهو الذى يستخدم للإنضاج ، ويتم ذلك عن طريق فتحة موجودة فى سقفه ، وتأخذ الكرة شكلها النهائى فى فرن الانضاج ، ومع ذلك فحيث أن الحجم الذى تكتسبه ، والذى يبلغ ٤٥ إلى ٥٠سم ، بالنفاذ من نفس الفتحة التى تعمل حلقة اتصال بين فرن الصهر وفرن الانضاج ، فإن هذه الكرة يتم سحبها من الفرن الأخير عن طريق قناة أكثر اتساعاً ، موجودة فى أحد جوانب الفرن . ولصنع هذه الكرات ، تستخدم شقفات من الزجاج ، يتم شراؤها من القاهرة والمدن الأخرى ، بواقع ٤ بوطاقات للقنطار زنة ١٠٠ رطل : وتختلط هذه القطع الزجاجية ببقايا الكرات (الزجاجية) التى سبق استخدامها (كقنينات لاحتواء السناج) .

وتوقد النار فى الأفران بواسطة حزم من قش الأرز أو قش الذرة أو مشاقات الكتان . وعلاوة على ذلك فإن الوقود ، يختلف تبعاً لمناطق التصنيع ولكن تظل سيقان هذه النباتات الجافة على الدوام هى التى توفر الوقود القوى والنظيف .

وتغطى هذه الكرات قبل ملئها بالسناج الذى يستخرج منه ملح النوشادر بطلاء من الطين المختلط بالصوف المندوف ، ويبلغ سمك الطلاء ٣ إلى ٤ سم ، ويتكون من أربع طبقات متتالية ، تجفف كل منها بتعريضها للشمس لمدة يومين . ويقدر ثمن الكرة الزجاجية المطلية على هذا النحو بـ ٢٢ مدينى .

ويمكن للكرة الواحدة أن تستوعب نحو ٥٠ رطلا من السناج ، وتملأ الكرة إلى ما تحت رقبتها بنحو قيراطين . وتساوى هذه الـ ٥٠ رطلا نحو ٤٢ بارة . ولا يقفل حلق الكرة مطلقاً عند وضعها فى فرن التصعيد أو التحويل ، المرسوم فى الفنون والحرف ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللوحة الثانية ، الأشكال ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ الدولة الحديثة ، المجلد الثانى . وفى البداية تعطى دفعة قوية من النيران الشديدة ليتم بشكل نهائى تبخير أية رطوبة يمكن أن تكون بالسناح ولكى ينتهى فى الوقت نفسه تحويل الأجزاء الأولى (من السناح) التى تسد حلق الكرة إلى ملح . وتظل النار مشتعلة بصفة دائمة تحت الكرات لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال .

وبعد إتمام عملية التصعيد أو التحويل تكسر الكرة بعد تبريدها ، وتؤخذ من جزئها العلوى شريحة من ملح النوشادر تزن من ٤ إلى ٦ أرطال .

ويبلغ ثمن الرطل من هذا الملح وقت السلم ، حين يكون تصديره آمناً ، ٥٠ إلى ٦٠ بارة ، وإن كان هذا القدر قد هبط إلى ٤٠ فقط أثناء وجودنا بمصر .

ولقد كان بمقدور مصنع ملح النوشادر فى المنصورة ، الذى حصلنا منه على هذه المعلومات ، أن يوفر سنوياً مائة قنطار من هذا الملح .

ويزن القنطار منه مائتى رطل وثمانية أرطال ، مما يعطى إجمالى إنتاج قدره ٢٠,٨٠٠ رطل ، ثمن الرطل الواحد منها ٥٠ بارة ، أى أن الإنتاج فى مجمله يساوى ١٢ ألف بوطاقة ؛ ومن المحتمل أن يكون قد أدرج ضمن هذا التقدير إنتاج الأفران الأخرى فى نفس الولاية .

ومن المنصورة يعمل بإنتاج النوشادر ، ثلاثون عاملا بشكل دائم ، ويحصلون على أجورهم بواقع ٢ ½ بوطاقة فى الشهر (الواحد) . كما يتناولون طعامهم على حساب صاحب العمل . وتشتعل النار فى أفران التحويل بواسطة أقراص مصنوعة من روث الماشية ، وتساوى هذه خلال الأيام الثلاثة والليالى الثلاث التى تستغرقها العملية ٣ ½ بوطاقات (ريالات) ، ويتسع الفرن الواحد لعشرين أو اثنتين وعشرين كرة .

ولا يوجد بالمنصورة سوى مصنع واحد لملح النوشادر . ويصل عدد مصانعه إلى ستة فى قرية من قرى الغربية تسمى دميرة ، كما يوجد مصنع واحد فى قرية فارسكور القريبة من دمياط ، كما يوجد مصنع واحد كذلك فى كل من صفط وكفر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلا ، وهما تتميان لنفس الولاية . وقد نشأت مصانع أخرى فى دمنهور وبرنبال بالقرب من رشيد على الفرع العربى للنيل . وكذلك يوجد مصنع آخر فى ولاية منوف ؛ وأخيراً فإننا نجد مصنعين فى القاهرة وبولاق مما يصل بعدد مصانع ملح النوشادر فى كل أنحاء مصر إلى ١٦ مصنعاً ، أمكنها ، فى وقت ما ، أن تغذى أوربا بحاجتها من هذا الملح .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل التاسع

صناعة إفراخ البيض
(أو معامل التفريخ)

هناك ضرب من ضروب الصناعة أكثر قدما عند المصريين من صناعة ملح النوشادر ، وهو افراخ البيض فى مكامير خاصة بذلك تسمى معامل التفريخ . وقد وصف هذه الصناعة بالتفصيل رميلاى السيدان روزير Rezière وروييه Rouyer . لذلك فسوف يقتصر ما نقوله بخصوصها هنا على بعض الملحوظات العامة .

توجد فى كل أنحاء مصر مكامير أو مفرخات صناعية ، وإن كانت هذه المنشآت أكثر انتشاراً فى الدلتا عنها فى الصعيد ، ومع ذلك فقد حصلنا على المعلومات الأولية التى نقدمها هنا من الأقصر ، وهى واحدة من القرى التى تقوم اليوم فى نفس موقع طيبة القديمة . (انظر الفنون والحرف اللوحة الأولى ؛ الأشكال : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ؛ واللوحة الثانية ؛ الأشكال : ١ ، ٢ ، ٣ الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى) .

ومعمل التفريخ عبارة عن مبنى مستطيل الشكل ، مبنى من الطوب اللبن على شكل دهليز مستطيل ، تنهض فى كل جهة من جهاته مكمرة تتكون من طابقين ، وتنقسم إلى ١٢ أو ١٦ غرفة بواسطة جدران اعتراضية (قاطوعات) وتغطى هذه الغرف قباب نصف أسطوانية ، تنفذ من وسطها فتحتان ، الأولى ، لكى توصل ما بين الطابق الأرضى والطابق الذى يعلوه ، أما الأخرى ، فبقصد تسريب الدخان ، وإدخال الهواء الخارجى إلى الدهليز عند الحاجة .

أما الجدران العرضية التى تشكل فاصلا بين الحجرات فتخترقها هى نفسها -فى الطابق الأرضى وحده – نوع من النوافذ الضيقة ، يمكن للعامل عن طريقها أن يمر من حجرة لأخرى وأن يتجول بالمبنى بطوله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولابد أن يوضع البيض المراد إفراخه فى الطابق الأرضى ؛ ويصف على طبقتين ، وتوقد النيران اللازمة للإفراخ فى الطابق العلوى .

وتستوعب كل حجرة من حجرات الطابق الأرضى للمكمرة نحو خمسة آلاف بيضة . ويدفأ الطابق العلوى عن طريق إحراق أقراص من روث الماشية أو تس القش إلخ ، ويقوم برعاية النار ليلا ونهارا ثلاثة من العمال توكل إليهم كذلك مهمة المرور على البيض وتغيير مكانه ، والعمل على نقل الكتاكيت بمجرد خروجها من بيضها إلى حجرة علوية ، وهو ما يتم عادة بعد عشرين أو اثنين وعشرين يوماً من هذا التفريخ الصناعى ؛ وسوف يكون تزيداً لا داعى له من جانبنا أن نكرر هنا ما سبق أن قدمه السيدان روزيير ورويبه عن مدة الحضان وعن درجة الحرارة اللازمة للإفراخ ، أو بشكل عام عن ظروف هذه العملية .

والشتاء ، هو الفصل الذى تتم خلاله هذه العملية التى تتكرر أثناءه مرتين أو ثلاث مرات ، مما يصل بعدد البيض الذى يتم إفراخه فى السنة ، فى معمل واحد ، إلى نحو مائتى ألف بيضة . ومن بين كل ١٢ بيضة تخصب عادة تسع بيضات ، ويجلب البيض من القرى المجاورة (للمعمل) . ويرد القائم على أمره ، فى مقابل كل ١٦ بيضة يحصل عليها ، أربعة من الكتاكيت .

وبشكل عام ، فإن حاكم الولاية هو الذى يتملك معامل التفريخ ، ويقوم بالتزامها أحد أتباعه ، وقد أوكل معمل التفريخ فى الأقصر إلى كاتب القرية فى مقابل ٣٠ بوطاقة ، ويقوم هو باستلام البيض الذى يجمع له ، كما يحتفظ لنفسه بثلثى الكتاكيت التى تتبقى بعد أن يكون باعة البيض قد حصلوا على $\frac{1}{4}$ عدد البيض الذى وردوه (فى شكل كتاكيت) وهو يعطى $\frac{1}{3}$ هذا الباق إلى عماله ، وعلى هذا فسوف يحصل موردو البيض على $\frac{1}{4}$ عدد البيض الذى وردوه فى شكل كتاكيت ، ويحصل ملتزم المعمل على النصف ويحصل العمال على الربع الأخير ، وذلك فى حالة أن يكون البيض مخصباً ، ولكن ، فحيث أن $\frac{1}{4}$ عدد البيض لا يخصب فى العادة ، فإن الملتزم والعمال لا يقتسمون – كما أوضحنا – إلا نصف عدد البيض الذى ورد إليهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبلغ ثمن كل مائة من البيض من ثمانية إلى عشرة بارات ، فى حين يبلغ ثمن كل مائة كتكوت خرجت للتو من بيضها ، مائة بارة ، أى عشرة أمثال ثمن البيض .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل العاشر

عن الصيد

يشتغل بعض أبناء القرى الساحلية بصيد الطيور البحرية على سواحل البحر المتوسط ، والبحيرات التى تغطى الساحل الشمالى لمصر . وفى أثناء فصل الشتاء ، تتوفر بكثرة فى أسواق : دمياط ورشيد والاسكندرية وكذلك فى أسواق المدن الرئيسية فى الدلتا طيور البط وأبو الروس ، تلك التى يصيدها الصيادون فى شباك . ويشكل السمان ، الذى يكثر بوفرة على الشواطىء الرملية لمصر فى شهرى سبتمبر وأكتوبر من كل عام مصدراً لنوع من الصيد يتفاوت فى درجة وفرته : إذ تصل هذه إلى الشاطىء بالغة التعب وتحلق وهى شديدة الاقتراب من سطح الأرض حتى أنها تظل تتخبط داخل الشباك التى ينصبونها لهذا الغرض على الساحل . ولا يزيد طول هذه الشباك عن المتر أو المتر ونصف المتر ، وتنصب بشكل رأسى على أطراف من البوص معروسة فى الرمال ، وفى بعض الأحيان يكون السمان ، الذى يحصل عليه الصيادون بهذه الطريقة ، وفيراً وبكميات هائلة ، فى فترة بعينها ، عند ضواحى الاسكندرية ، حتى أن سكان المدينة فى مثل هذا الموسم يجعلون منه طعامهم الوحيد .

وعلى الرغم من أن النيل سخى بأسماكه ، وأنه يوجد فى كل المدن والقرى الواقعة على ضفافه رجال يجعلون من صيد الأسماك حرفتهم الوحيدة ، فليس ثمة منشآت لصيد الأسماك ، تستحق هذا الاسم ، إلا على شواطىء بحيرتى البرلس والمنزلة .

وتعد قرية بلطيم أهم موقع لمصايد الأسماك على بحيرة البرلس ؛ ومن بين الأربع عشرة من القرى أو الكفور الأخرى ، والتى نشأت على ذلك اللسان الرملى الذى يفصل البحيرة عن البحر ، توجد أربع قرى يسكنها كلية صيادون ، فى حين أن ربع أبناء القرى العشر الأخرى فقط هم الذين يعملون ، خلال جزء من العام ، بصيد نوع

من الأسماك ، يشكل بيضه بعد أن يجفف فى الشمس نوعا من الفطائر تسمى بطارخ ، على كل سواحل البحر المتوسط ، ويبدأ صيد هذه الأسماك عادة عند منتصف الربيع أى قبل زيادة مياه النيل بنحو شهرين .

وكان التزام حق الصيد فى هذه القرية من حق واحد من كبار البكوات (المماليك) ، وقد علمت من الرجل الذى كان يشترى حق الالتزام هذا ، أنه كان يدفع أتاوة سنوية قدرها ٣٣٠٠ بوطاقة ، كما أخبرنى أن عدد الصيادين الذين يعملون لحسابه هو ، يصل إلى أربعمائة صياد .

وتتكون قريتا المطرية من المنشآت الرئيسية لمصايد الأسماك التى يلقاها المرء على شواطىء بحيرة المنزلة ، وتمتلك هاتان القريتان على الأقل ½ عدد القوارب الثلاثمائة التى تغطى فى بعض الأحيان سطح البحيرة خلال موسم صيد البورى ، وترسل طازجة إلى المنصورة تلك الأسماك التى تأتى من المطرية ، ويرسل إلى دمياط الجزء المخصص للتمليح (من هذه الأسماك) ، ففى هذه المدينة يتم تمليح السمك وتصديره إلى القاهرة وسوريا وبقية اسكاليهات (ثغور) المشرق ، ويستهلكه المسيحيون خلال نوبات الصيام الكثيرة التى يمتثلون لها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الحادى عشر

عن صناعة الملح البحرى وملح البارود

ينتج الملح الذى يستخدمه الناس فى تمليح السمك ، وفى مختلف الاستعمالات المنزلية ، عن طريق البخر الطبيعى للمياه المالحة التى يستقبلونها فى ملاحات صغيرة على شاطىء البحر . ويوجد بعض من هذه الملاحات فى جزيرة الفنار أمام الإسكندرية ؛ كما يلتقط الملح كذلك ، بعد أن يكون قد بلغ شكله النهائى ، على طول الساحل ، من المستنقعات التى تقطع الساحل الرملى الذى يغطى بحيرة المنزلة ، إلى الشمال وإلى الشرق ، كما يجمعه الناس من داخل قلزم السويس ، لكن هذا النوع من الملح الطبيعى ، الذى يتزود به الناس دون أى جهد يبذلونه ، سوى جهد التقاطه ، لا يمكن أن يدخل فى عداد المنتجات الصناعية .

وليس الأمر على هذا النحو فيما يختص بالملح الذى تنتجه ملاحات الفيوم : فهذه الملاحات تزود من عيون مياه مالحة ، موجودة بالوادى ، وعلى الشواطىء الغربية لبحيرة قارون . وتنبثق عيون المياه هذه من آبار تصل إلى عمق يبلغ ١,٣ م تحت سطح الأرض ، وإن كان منسوب هذه الآبار يعلو لأكثر من ذلك أثناء الفيضان ، حينئذ تكون المياه التى تعطيها هذه الآبار أقل ملوحة .

وتصب هذه المياه فى حفرات يصل عمقها إلى ٢٠ أو ٢٥ سم . وحيث لا تكون هذه المياه مشبعة بالملح ، بالقدر الكافى ، فإنه تلقى فيها كمية محدودة من الأتربة يتم الحصول عليها من المناطق المجاورة . ويستخدم الملح العادى الذى تنتجه هذه الملاحات فى كل من ولاية الفيوم ، وبوش ، وبنى سويف ، وكذلك فى ولاية أطفيح .

وتوجد كذلك عشرون حفرة مماثلة يملكها مستغل واحد ، تنتج كل يوم جوالين من الملح ؛ وتعادل كل ثلاثة من هذه الأجولة أردبين اثنين سعة القاهرة . ويباع الجوال بسعر ٤٠ بارة . ويستخدم مالك هذه الحفرات المنتجة للملح ، فى اليوم الواحد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غلامين أو ثلاثة غلمان يعطى كلا منهم ٤ بارات . وبالإضافة لذلك ، يدفع كل ملاح ضريبة ملح سنوية تبلغ ٥٠ بارة إلى شيخ قرية ترسا التى توجد بالقرب منها تلك الحفرات التى نشير إليها هنا ، والتى يتجمع بها نحو ثلاثين من صناع الملح . ويوجد عدد مماثل من هؤلاء على وجه التقريب ، فى قرية سنورس ، التى تقع إلى شمالها كذلك ملاحات مشابهة .

وفى نفس هذه الولاية ، تستغل كذلك طبقة من الملح البحرى ، يبلغ سمكها بضعة قراريط ، تتكون وتتجدد بعمق عدة سنتيمترات تحت التربة الرملية والهشة التى يمر بها المرء بطول الصحراء ، عندما يتجه من مدينة الفيوم إلى قرية هوارة .

وعلى وجه العموم ، فإن الملح الذى يستهلكه الناس فى مصر العليا يستخرج من الصحراء الليبية حيث يكاد يوجد هذا الملح هناك ، تحت سطح التربة مباشرة ، فى طبقة ضئيلة السمك ، حتى أن المرء أثناء سيره ، يسمع صوت الملح وهو يتكسر تحت وطء أقدامه . وسوف تواتينا الفرصة بعد ذلك ، لنفسر تكوين هذه الطبقة الملحية .

ومن جهة أخرى ، فإن كل الآبار التى تحفر فى وادى مصر ، على مشارف الصحراء ، تعطى مياهاً تتفاوت درجة ملوحتها ، وقد يكون بمقدور البخر أن يستخلص منها الملح اللازم لاستهلاك البلاد ، هذا إن لم يجده الناس جاهز التكوين بشكل تام ، كما أوضحنا ذلك من قبل ، وعلى سطح الصحراء تقريباً .

وكذلك فإن صناعة ملح البارود ، تبلغ درجة كبيرة من الأهمية بسبب استخدام هذا الملح فى صنع بارود البنادق : ومن الممكن استخلاصه عن طريق غسيل المواد التى تتكون منها أكوام الأنقاض التى تحيط بقرى ومدن مصر . ومع ذلك فليس ثمة مصانع للبارود تعمل بشكل دائم إلا فى عدة أماكن ، وأهم هذه المصانع ما يوجد فى الدهاشنة بالقرب من قنا ، وتلك التى تقع فى مصر العتيقة ، وهى التى تناولها الجنرال أندر يوسى بالحديث ، فى التقرير الذى أعده عن بارود المدافع [1] ، وفضلا عن ذلك فإن الطرق المتبعة فى صنع البارود هى نفس الطرق المتبعة فى أوربا .

---

(١) Decade Egyptienne, tom Ier, Pag. 15.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى عشر

عن الصناعات والحرف ، وعن الصناعة فى المدن بشكل عام

تمارس ضروب الصناعة المختلفة التى انتهينا من الحديث عنها حتى الآن فى مدن مصر وقراها على حد سواء ، وتنهض الصناعة فى هذه البلاد على ما تنتجه أرضها ، ومع ذلك فإن المدن على الدوام ، وبشكل خاص ، وشأنها فى ذلك هو نفس شأنها فى كل مكان ، تظل هى مقرا لصناعة أكثر تقدما ، كما أنها تشتغل بتحويل الخامات المستوردة من الخارج إلى سلع للاستهلاك ، ويستوى الأمر فى ذلك أن تنتشر هذه السلع على نطاق واسع أو كانت تنحصر فى مجال ضيق .

وتوضح لنا لوحات الفنون والحرف الواردة فى هذا المؤلف (وصف مصر) ، والتى تمثل الطحان والخبار والحلوانى والفطاطرى ، كما تفسر لنا الشروح التى صحبت هذه اللوحات ، وبشكل كاف ، الوسائل والطرق المتبعة فى العمل بهذه الحرف ، كما تعفينا – هنا – من الحديث عنها .

وبالإضافة إلى المصانع التى تنتج فيها الأقمشة الكتانية والقطنية والصوفية والحريرية ، تنتشر فى كل أنحاء مصر ، مصانع أخرى ، تمتلك منها المدن الرئيسية ، والقاهرة بشكل خاص ، عدداً تتفاوت أحجامه وتصنع به أشغال الزركشة والخيوط الحريرية (القيطان) الممزوجة بخيوط الذهب والفضة ، كما تصنع به الشرابات والأهداب ، وبصفة عامة ، كل ما يمكن استخدامه لدندشة وتطرير الملابس الشرقية . ولقد ذهب فن السروجية هناك إلى مدى بعيد ، كما يصنع الناس فى هذه البلاد على وجه العموم ، وبدرجة عالية من الجودة ، كل ما له صلة بإعداد الخيول . أما النقش على الجلود ، وبخاصة الجلود الفاسية التى تستخدم حلية لهذه الأشغال المختلفة فتبلغ درجة لافتة للنظر . وتمثل اللوحة السابعة عشرة (الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى) منظر

مصنع تطريز من الداخل، في حين تمثل اللوحة الرابعة عشرة (الدولة الحديثة ؛ المجلد الثاني) عاملا يشتغل بصنع الأحزمة التي ينتشر استخدامها .

ويعمل القصارون (أى صناع السقالات) والنحارون وصانعو الأقفال فى ورشهم وهم جالسون ، ولا ينهضون واقفين إلا لكى يضعوا الأشياء التى أتموا صنعها فى المكان المخصص لها ، وترينا اللوحة الثامنة عشرة (الدولة الحديثة ؛ المجلد الثانى) هؤلاء العمال فى أثناء العمل . وتستورد معظم الخامات التى يشتغلونها من خارج مصر ، ففى بلد يكاد يسمح جمال طقسه بقضاء النهار والليل فى الهواء الطلق ، نستطيع أن نتفهم لماذا لا تنتشر فخامة البنيان ورفاهية الأثاث بين الطبقة الوسطى من أبنائه .

أما النحاسون والحدادون ، فهم – على نحو ما – الذين يصنعون وحدهم النحاس والحديد . ويعد فن الأولين متقدما للحد الكافى ، إذ أن كل أوانى الطهى مصنوعة من نحاس يطلى بالقصدير ، وإننا لندين للمسيو كوتل Coutelle بوصف هذه المهنة ، وكذلك بشرحه اللوحة الحادية والعشرين ، (الدولة الحديثة ، المجلد الثانى) وبها شكل يمثل النحاس . أما طرق الطلاء بالقصدير فهى نفس الطرق التى نتبعها نحن فى أوربا . وإذا علمنا أن ملح النوشادر وهو أحد العناصر الرئيسية فى فن الطلاء بالقصدير – هو كما يمكن القول انتاج خاص بمصر ، فلابد أن يصبح من الأرجح لحد كبير أن تكون هذه العملية المعدنية واحدة من أقدم العمليات المعدنية التى مارستها مصر .

ويصنع الحداد معظم الأدوات التى يستخدمها الآخرون .

وقد قام المسيو كوتل بوصف كير الحدادة والأفران . ونجد ذلك ماثلا فى اللوحة الحادية والعشرين (الدولة الحديثة ، المجلد الثانى) . ومن المحتمل أن تكون أشكالها تعود إلى زمن بالغ القدم . وفى الواقع فإنه يستفاد من معلومات حصلت عليها من تجار قادمين مع قوافل دارفور، أن شعوب أواسط أفريقيا تستخدم منافخ من نفس الشكل . ومن جهة أخرى فإن ما انتهينا من قوله عن الحداد ينطبق تمام الانطباق على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صانعى الأدوات الحديدية ، والذين يصنعون بصفة خاصة أدوات الزراعة والحدائق ، وكذلك أدوات البنائين والقصارين والنجارين ، إلخ .

وقد كان إعداد الجلود موضوعاً لوصف خاص ندين به للمسيو بوديه Boudet ونحن نحيل إليه فى هذا الخصوص . ويمثل الشكل رقم ٤ من اللوحة السادسة والعشرين (الدولة الحديثة ، المجلد الثانى) بعض وسائل صناعة الجلود الفاسية .

وفى القاهرة ، وكذلك فى المدن الرئيسية الأخرى ، يتركز كل ضرب من ضروب الصناعة فى حى خاص ، وهو نفس ما كان يحدث فى الماضى فى مدننا الأوربية . وهكذا نجد شوارع بأكملها لا يعيش بها سوى نحاسين ، وأخرى لا نصادف بها سوى الفطاطرية وباعة الحلوى الآخرين ، وهناك نوع ثالث من الشوارع التى يشغلها السروجيون وصناع مهمات الخيل ، وكذلك نجد أحياء خاصة بالصاغة وتجار الجوهرات ونقاشيها ، وتوجد بها مصانعهم ، ويحرس ويقفل هذا الحى بحرص وعناية بأكثر مما يحدث فى الأحياء الأخرى .

ويكاد يكون كل هؤلاء الصناع الأخيرين الذين يشتغلون فى خامات ثمينة ، ويتطلب العمل بها معرفة أكبر ومهارة أفضل ، من المسيحيين السوريين أو من الأرمن ؛ كما يجدر بالملاحظة أن معظم النساجين فى مصر العليا ، وكذلك معظم الحدادين والنجارين هم من أقباط مصر ، فهناك ، كما فى كل مكان آخر ، تصبح الحرف اليدوية قسمة بين أولئك الذين تستبعد الحكومة دينهم (أى يحرمون من وظائف الحكومة بسبب ديانتهم) (*) ، وبذلك تنحصر الوسيلة التى يستطيعونها فى الواقع لاكتساب نوع من الاستقلال ، فى التخصص فى هذا الضرب من ضروب الصناعة ، إذ يستطيعون بذلك أن ينقلوا فنونه معهم فى كل مكان .

ويوضح ما سبق أن قلناه عن مختلف الحرف التى يمارسها المصريون المحدثون ، وبشكل كاف ، تلك الحالة من البدائية التى تردوا إليها : فإنتاج المواد الضرورية اللازمة

(*) راجع ما سبق أن ذكره نفس المؤلف بخصوص الضرائب وإدارة القرى ؛ الباب السابق ؛ الفصل الأخير . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للغذاء أو الكساء أو سكنى البشر ، هذا هو الحد الذى انتهوا إليه . وزيادة على ذلك ، فلسوف يتفهم المرء دون عناء كم سيكون من المستحيل فى هذه المنطقة من العالم ، حيث يضطر الناس لاستيراد الأخشاب والمعادن من الخارج ، وحيث يلقى نظام الحكم المطلق الشكوك فى مقدرة الناس على التمتع بثرواتهم الخاصة – كم سيكون من المستحيل أن يتوسع الناس فى ممارستهم لأية واحدة من هذه الحرف التى لا يتعهدها إلا جو الرفاهية ، حيث يستطيع المرء أن ينفق عن سعة وبشكل آمن ما يفيض عنه .

ومن جهة أخرى فإن عمل الإنسان وعمل الحيوان أقل تكلفة مما قد يتكلفه استخدام معظم آلاتنا . وفى الحقيقة ، فإن هناك عدداً كبيراً من الآلات لكنها لا تعمل إلا فى شىء واحد ، هو رفع المياه لرى الأراضى ولتغذية الآبار والأسبلة بالمياه ، وقد قدمنا لهذه الماكينات أوصافا تحت اسم الدواليب ذات الثقوب ، والدواليب ذات القواديس . وعلى الرغم من خشونة مبنى هذه الماكينات فإنها تعطى فكرة مبدئية عن كيف تدور التروس التى تتحرك بشكل عمودى ، نتيجة تحرك وتعاقب تروس أخرى بشكل أفقى ، تحدثه الماشية وهى تدور حول مدارها ، حيث تستخدم محركا (لهذه التروس الأفقية) .

ويجد المرء كذلك كيف تنتقل الحركة فى طواحين الدقيق ، وفى الأشكال الأسطوانية المستخدمة فى عصر القصب ؛ ومن اليسير أن يعرف المرء فى هذه الأسطوانات ، وفى تلك التى تصغرها على نحو أكبر بكثير ، والتى بواسطتها تفصل بذور القطن عن شعره الذى يغلفه ، فكرة السلندر المستخدم فى سحب المعادن ؛ ومع ذلك فإن المصريين لم يقوموا بتطبيق هذه الفكرة فى هذه الحالة الأخيرة ، فشرائح المعادن التى تصنع منها النقود لا تنسحب إلى السمك الذى ينبغى أن تبلغه إلا بواسطة مطرقة . ألا يدفع ذلك إلى الاعتقاد بأن فن صناعة السكر ، الذى دخل إلى مصر مع زراعة قصب السكر لم يعرف هناك إلا منذ قرون قليلة ، فى حين أن الطرق المستخدمة فى سك النقود ، وهو فن ضارب فى القدم فى هذه البلاد ، قد ظلت على حالها دون أن يطرأ عليها أى من التطورات التى تناولتها فى أماكن أخرى نتيجة للتقدم الحضارى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك ، فإن الرحوات التى تطحن تحتها الحبوب الزيتية تدار كما سبق لنا القول ، بواسطة حيوانات تعلق بمدارها ، وهو نفس ما يحدث بخصوص الرحوات التى يسحق تحتها الجبس .

وسوف نلاحظ بخصوص الوسيلة الأخيرة أنه قد تناولتها فيما يبدو درجة من التحسن لم تصل إليها مطلقاً تلك التى تستخدم فى فرنسا فى سحق هذه المادة ، ذلك أن الرحال هنا (فى فرنسا) هم الذين يدقون فى جرن بأذرعهم ، وهذا بالتأكيد أقل انجازاً بكثير ، من تعريض الجبس المتكلس لضغط أسطوانة حجرية عمودية تدور بواسطة مدار .

ومن جهة أخرى ، ففى بلد تتوفر فيه بكثرة أغذية الإنسان والحيوان ، ونتيجة لذلك لا ترتفع أجور الأيدى العاملة لحد كبير ، يكون من الأسهل استخدام قوى الإنسان والحيوان فى العمل مع تفضيل ذلك على أى وسيط آخر ، كذلك فلابد أن نأخذ فى اعتبارنا أن هذه البلاد لا توفر أى مجرى طبيعى يمكن استغلاله كقوة محركة ، كما أن الفروع التى قد يمكن إرفادها عن النيل ، لكى تقام عليها دواليب هيدروليكية لن تفى بهذا العرض بشكل تام ، إذ سيكون متاحا أن تجف بالضرورة خلال فترة من العام .

ومع ذلك ، فإذا لم يكن بمقدور الصناعة أن تجد فى مصر محركات نافعة على مجارى المياه ، فلابد أنها قد تجدها فى انتظام الرياح وقوتها ، فمن المعروف أن الرياح الغربية ، والشمالية الغربية ، والشمالية تكاد تهب هناك فى الواقع طيلة العام ، كما أن المرتفعات المصطنعة التى بنيت فوقها القرى ، توفر بالإضافة إلى ذلك أماكن مناسبة لإقامة طواحين الهواء . ولهذا السبب ، فقد تكون هذه الطواحين ، أولى الآلات التى ستقام فى هذه البلاد ، وذلك إذا ما ازدهرت التجارة والزراعة بشكل مضاعف ، وإذا ما ارتفعت أجور عمل الإنسان والحيوان ، لدرجة يصبح من المفيد معها أن تحل محل قوتهم البدنية محركات غير حيوانية ؛ نقول أولى الآلات التى سوف تقام هناك ، لأنه لا ينبغى لنا أن ندخل فى الحسبان طواحين الهواء السبع أو الثمانى ، التى يجدها المرء فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسكندرية وجزيرة الفنار ، فمع أنها قد أنشئت هناك منذ زمان قديم فـإن استخدامها لم يمتد إلى داخل البلاد . ولا نجد منها إلا ما هو على هذا الساحل ، حيث جلبها الأوربيون ، حسبما تشير كل ظواهر الأمور . ويبرهن ذلك ، وهو أمر نقوله بشكل عابر ، على أن قدماء المصريين لم يعرفوا مطلقاً هذه الآلة البارعة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثالث

عن الحالة الراهنة للتجارة عند المصريين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(تمهيد)

يتم تبادل منتجات أقاليم مصر بين مدينة ومدينة ، وبين قرية وأخرى فى أسواق عامة تقام فى يوم محدد من أيام الأسبوع ، حيث يتوجه إلى هناك من كل مكان البائعون والمشترون ، أما ما يزيد عن حاجة الاستهلاك من هذه المنتجات ، بالإضافة إلى بعض المنتجات الصناعية للمصريين المحدثين على الرغم من رداءتها ، فيعرض فى أعماق أفريقيا وبعض مناطق من آسيا وأوربا حيث تحصل مصر فى مقابلها إما على نقود أو على بضائع تحتاج إليها . وقد بقيت مصر ، وسوف تظل ، بفضل موقعها الجغرافى ، المكان الملائم للتجارة الخارجية حيث تتخذ منها هذه التجارة مستودعاً لمنتجات العالم القديم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول
عن التجارة الداخلية فى مصر

لا يسمح ضيق الوادى فيما بين جزيرة إلفانتين وإسنا بأن يصدر جزء من المحاصيل التى تزرع هناك لتستهلك فى مكان آخر ، إذ هى تكفى بالكاد لسداد الضريبة وكذلك لإطعام عدد ضئيل من السكان الذين يظلون طيلة العام قائمين بأعمال الحقل ، فى حين يمارس الجزء الأكبر من هؤلاء السكان مهنة الملاحة فى القوارب والصنادل التى تعمل فوق النيل .

ومنذ عدة سنوات من قبل مجئ الفرنسيين ، كانت مدينة إسنا مقراً لكثير من الكوات المطاردين ، وأصبحت لهذا السبب نفسه منطقة للاستهلاك الكبير لحد ما ، بالإضافة إلى كونها مركزاً لتجارة مصر مع القبيلتين العربيتين : العبابدة والبشارية اللتين تمتلكان الصحراء المتاخمة ، إذ يأتى هؤلاء العربان إلى سوق إسنا ليحصلوا على الحبوب وبخاصة الأرز ، وكذلك الحديد والمعادن الأخرى التى يحتاجون إليها . ويقوم هذا السوق كل أسبوع حيث تباع كذلك منسوجات قطنية وكتانية وآنية منفرة خشنة وبعض الملابس المصنوعة من الجوخ .. إلخ . ويبيع العربان فى مقابل ذلك الجمال والعبيد السود الذين يختطفونهم من القوافل التى تعبر صحراءهم أو الذين حصلوا عليهم هم بأنفسهم من أعماق أفريقيا ، ويجلب هؤلاء إلى سوق إسنا أيضاً الصمغ الذى يجمعونه من أشجار الأكاسيا (السنط) التى تنمو فى الصحراء ، كما أنهم يحولون خشب هذه الأشجار إلى فحم ينقلونه إلى قرية الرديسية ، حيث يشتريه تجار إسنا ويقومون بنقله عن طريق النيل إلى القاهرة وإلى مدن أخرى من مدن مصر .

ويجلب فلاحو المناطق المجاورة إلى هذه السوق الزبد والجبن والحبوب ، والدجاج والحمام والخضروات والأصواف والقطن الوبر والقطن المغزول ، كما يعرضون هناك للبيع الأبقار والجاموس والجمال والخراف والماعز وبصفة عامة فإن سكان هذه المنطقة الأكثر مدارية من مصر يأتون إلى إسنا بكل البضائع التى ترسل إلى هناك من القاهرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتشتمل هذه بالدرجة الأولى على الحديد والرصاص والنحاس والصابون والأرز ... إلخ وعلى الأجواخ الواردة من أوربا من أنواع مختلفة وعلى الأقمشة الواردة من سوريا . وتستخدم هذه المدينة أيضاً كمستودع لبعض البضائع الواردة من قوافل سنار مثل ريش النعام والعاج والأبنوس والعبيد الصغار من الجنسين ، وإن كان هؤلاء لا يتوقفون هناك إلا للوقت الضرورى للراحة والانتعاش ثم يسارع التجار بإرسالهم عن طريق النيل إلى القاهرة .

ويرسل من هناك إلى القاهرة كذلك وبنفس الطريقة زيت الخس بكميات كبيرة لحد كاف وكذلك كمية قليلة من زيت القرطم والقمح والحبوب الأخرى وكذلك البلح والفحم والسنامكى والشبة .

وتبلغ زنة قنطار الزيت ١٢٢ رطلا ، ويدفع عنه كمصاريف شحن ٤٠ بارة من إسنا حتى القاهرة ، وتبلغ المسافة بين هاتين المدينتين ٧٠ ميريامتر (٧٠٠ ك . م) .

ويطلق اسم مد على وحدة الكيل الخاصة المستخدمة فى تجارة البلح المجفف الذى تنتجه أسوان والنوبة . ويبلغ وزن هذا المكيال من البلح ٢٠ رطلا ويباع فى أسوان بسعر ٤٠ — ٥٠ بارة . وتبلغ زنة القنطار ٢٥٠ رطلا وتصل تكاليف نقله إلى القاهرة إلى ٨٠ بارة . وتجارة البلح فى أسوان بالغة الأهمية . وهناك تجار يرسلون من هذا البلح ، لحسابهم الخاص ، ما يبلغ أربعة أو خمسة آلاف قنطار فى العام .

ويعد السنامكى بعد البلح أهم الأشياء فى تجارة أسوان . وهذا النبات ينمو بكثرة وتلقائياً فى الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر بالاتجاه إلى الجنوب ابتداء من إسنا .

ويقوم عربان قبيلة العبابدة الذين يجنون هذا المحصول بتقليم النبات بطول بضعة ديسمترات فوق سطح الأرض عندما يكون قد أثمر حبوبه ، ثم يجففون هذا النبات فى الشمس لمدة يومين ، ثم يضعونه فى ركائب أو قفف كبيرة تصنع من سعف النخيل ، وينقلونه على ظهور الجمال حتى أسوان ، حيث يشتريه خمسة أو ستة من التجار الذين لهم صلة بهؤلاء العرب .

ويبلغ ثمن حمولة الجمل من السنامكى فى أسوان تبعاً لمبيعات العربان ٥ — ٦ زر محبوب يبلغ قيمة الواحد منها ١٨٠ مدينى .

ولم تكن تجارة السامكى فى مصر حرة على الإطلاق ، فقد سيطر عليها البكوات واحتفظوا لأنفسهم بالحق فى إدارتها . ويبلغ الثمن السنوى لهذا الالتزام ستين كيساً ، ووقت مجىء الحملة الفرنسية كان الملتزم هو المسيو كارلو روزيتى قنصل البندقية والنمسا وكان يقيم بالقاهرة .

وكان هذا الملتزم قد نقل صلاحياته إلى وكيل له مقيم فى أسوان . وكان الأخير يشترى السنامكى من التجار الأتراك الذين قاموا بشرائه من العربان مع إعطائهم $\frac{1}{5}$ أو $\frac{1}{6}$ الربح ثم يقوم بنقله إلى الملتزم على أساس ١٥ بوطاقة لحمولة الجمل الواحد .

ويرسل السنامكى الخام ، وبالحالة التى جمعه عليها العرب من أسوان إلى القاهرة عن طريق النيل على قوارب نيلية كبيرة ، وتدفع ٣٠ بارة كمصاريف نقل عن الحمولة الواحدة منه .

وتبلغ الكمية التى كانت ترسل منه عن هذا الطريق من ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ قنطار . وفى القاهرة يتم السحب من هذه البضاعة فى المحلات تبعاً لنوعها وتحت رقابة الملتزم . وبعد إتمام هذه العملية يبلغ متوسط سعر السنامكى الذى يسمى سنامكى الالتزام ٣٠ بوطاقة للقنطار زنة ١٠٠ رطل .

قلنا فيما سبق إن كمية كبيرة من فحم الخشب المستهلك فى مصر الوسطى والقاهرة ، يتم صنعهاعلى يد العربان الذين يسكنون الصحراء الواقعة على الشط الأيمن للنيل وعلى مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام من النهر . ويقوم مساعدو بعض تجار إسنا الذين ينحصر معظم نشاطهم فى هذه التجارة بشراء هذا الفحم من العربان الذين يحضرونه إلى الرديسية .

ويباع الفحم فى هذه المنطقة بسعر ٩٠ — ١٢٠ بارة لحمولة الجمل الواحد ، وتدفع مصاريف نقله بواقع ٣٠ بارة للقنطار من هناك حتى القاهرة التى يرسل إليها كل

عام ٣ – ٤ آلاف قنطار ، ويباع القنطار الواحد عادة فى أسواق هذه المدينة بـ ٢ زر محبوب أو ٣٦٠ بارة .

أما الشبة فهى موضوع تجارة قرية الجوبانية الواقعة على الشط الأيسر للنيل على مسيرة أربع ساعات ونصف إلى الشمال من أسوان . ويقوم سكان هذه القرية وسكان بعض القرى المجاورة ، مضافاً إليهم بعض عرب العبابدة ، بتشكيل قافلة تذهب مرة كل عام للحصول على الشبه فى الصحراء على مسيرة عشرة أيام باستخدام طريق الجوبانية . وتتكون هذه القافلة من ٣٠ – ٤٠ رجلا وحوالى الخمسين جملا ، وتتجه إلى الجنوب الغربى ، وتمشى لمدة عشرة أيام وسط حبال رملية ثم تجد وراء ذلك سهلا رملياً فسيحاً يمتد خلاله الطريق هابطاً على شكل منحدر سهل نحو المكان الذى توجد به الشبة . ويوجد هذا الملح فى طبقة وحيدة يتراوح سمكها من ٢ إلى ١٥ بوصة تغطيها طبقة خفيفة من الرمال تكون بنفس سطح التربة ويبلغ ارتفاعها من ٦ إلى ٨ بوصات ، وهذا الرمل جاف وهش ، وترقد طبقة الشبة فوق فراش آخر من الرمل الرطب له نفس مذاق الشبة لكنه يتفاوت فى سمكه .

وتكون الشبة رطبة لحظة استخراجها ، ويقوم الناس بتقطيعها إلى قطع ويجففونها فى الشمس لمدة ١٠ إلى ١٢ ساعة ، وبعد ذلك يضعونها فى قفف كبيرة مصنوعة من سعف النخيل ، وتنقل على ظهور الجمال حتى الجوبانية ، حيث يأتى الناس لشرائها من قنا وسيوط والقاهرة والمحلة الكبيرة ومناطق أخرى من مصر .

ويستغرق استخراج الشبة مدة يومين ، بعدها تبدأ القافلة فى طريقها للعودة إلى الجوبانية . وتتطلب هذه الرحلة بالنسبة للذهاب والعودة كما رأينا من ٢٢ إلى ٢٥ يوماً (١) . ويتكون تموين القافلة من الخبز والعدس والزبد والدقيق . وتوجد فى الطريق

---

(١) إليكم تفاصيل مسار هذه القافلة . على مسيرة فرسخين من الجوبانية توجد بئر فى سفح جبل فى مكان يسمى كركر وبعد مسيرة ثلاثة أيام توجد أيضاً بعض عيون مياه فى واد يسمى دنحل ، وعلى بعد مسيرة ثلاثة أيام من هذه العيون توجد عيون أخرى تسمى الألمى . وأخيراً ، فبعد مسيرة أربع وعشرين ساعة توجد بئر محفورة فى الأرض يشار إليها باسم البصاقة . ومياه هذه البئر بالغة العذوبة ، لكن مياه الآبار الأخرى ليست على هذه الدرجة من العذوبة ، وإن كانت أكثر صلاحية من مياه بئر الجيتة ، وهى محطة تقع على طريق القصير. وقد حصلت على هذه التفاصيل حول استخراج الشبة والمكان الذى توجد به ، فى أسوان ، عن طريق أحد سكان =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أدغال أشجار يستخدم خشبها كوقود ، وتحمل القوافل معها كذلك الذرة والشعير لإطعام الجمال .

وتباع الشبة التى تجلب إلى الحوبانية إلى التجار الذين يأتون لشرائها من هناك بسعر المد ٥٠ – ٦٠ بارة ، والمد هو مكيال يساوى بالنسبة لهذه البضاعة $\frac{١}{١٠}$ أردب من القاهرة .

ويدفع مقابل جزء من منتجات المنطقة الأكثر مدارية من مصر والتى انتهينا من إيضاحها فى شكل بضائع قادمة من القاهرة . وتشتمل هذه بالدرجة الأولى على المنسوجات الكتانية والجوخ والأقمشة السورية والصابون والأرز والحديد والنحاس والرصاص والملح .

(=) الحوبانية ، وهو يذهب كل عام فى هذه القافلة للبحث عن هذا الملح فى الصحراء . وقد واتتنى الفرصة لملاحظة واقعة تقدم فيما أعتقد ، وعن طريق التماثل ، وسيلة لتفسير كيف نشأت هذة الطبقة من سلفات الألميوم وسط الرمال .

يشكل ذلك الجزء من أطلال طيبة الذى تقوم فوقه اليوم قرية الكرنك سلسلة من المرتفعات الأرضية بالغة الضعف والرخاوة ، نتجت من تهدم الطوب النيئ الذى كانت منشآت هذه المدينة فيما يبدو مبنية به ، وكذلك من الأنقاض من كل نوع والتى تكدست هناك على فترات مختلفة . وتوجد على حواف هذه المرتفعات طبقة صغيرة من النطرون ومن نترات الصودا يبلغ سمكها من ٣ – ٤ سم وتوجد على عمق ١٥ – ٢٠ سم تحت سطح التربة التى تتبع انحناءاتها من كل اتجاه حتى تبلغ ارتفاعاً معيناً ينتهى عنده وجود هذين الملحين فى شكل طبقة دائمة ، هذا على الرغم من أن الكتلة من هذه الأنقاض فى مجموعها تحتوى على شئ منهما فى كل مكان بدرجة متفاوتة ويمكن الحصول عليه عن طريق غسلها .

ولكى نتصور تكون هذه الطبقة الملحية ، ينبغى أن نلاحظ أن مرتفعات الأنقاض التى نحن بصددها تقوم فوق سهل تغمره عادة المياه أثناء الفيضان ، وعندئذ فإن المياه التى تعرق السطح تخترقه فى جزئه الأدنى ثم بارتفاعها فوق مستوى منسوبها كما فى الأوعية الشعرية ، يتحلل الملح الذى تحتويه الأنقاض وتتشبع به لدرجة أنه يصعد ، لكن لصعوده حداً ، ويحدث أن يبدأ الملح فى لتكلس عندما يكون سطح الأنقاض قد جففته الشمس لدرجة كبيرة ، وعندما تصل المياه التى كانت مشبعة به قريباً من هذا السطح لدرجة تبخرها معها الحرارة الخارجية حيث ينفذ إشعاعها من خلال التربة . وهكذا تتكون طبقة من الملح يزيد سمكها كل عام بقدر ما يبقى السهل مغموراً بالمياه . ويبدو لى أنه من الممكن أن نفسر بنفس الطريقة تكوين طبقة الشبة التى يستغلها سكان الحوبانية فى الصحراء . فالمياه التى تحمل هذا الملح متحللا تتسرب من خلال الرمال من تحت إلى فوق وكان يمكن لها أن تسيل على سطح التربة لو أن الرمل على بعد ٨ – ١٠ بوصة تحت هذا السطح قد جف بالفعل لدرجة تكفى بفعل حرارة الشمس لكى تبخر هذه المياه بمجرد وصولها إلى السطح .

ولم تكن هناك على الإطلاق رسوم مقررة للدخول مختلف الأشياء إلى إسنا التى كانت تعد بمثابة مستودع لهذه البضائع ، وتبلغ نسبة ربح تجار هذه المدينة عادة من ١٠ إلى ٢٠ ٪ ، وهى نفس النسبة لسعر النقود التى تقرض فى أسوان إذ تبلغ سعر الفائدة من ١٠ إلى ١١ ٪ .

ويهىء النيل طريقاً حد مناسب للانتقال من جنوب مصر إلى شمالها ، بحيث لن يدهشنا أن نعرف أن التجارة الداخلية لهذه البلاد قد اتبعت هذا الطريق منذ زمان لاتعيه الذاكرة ، لذلك فالنهر ملىء بالقوارب الكبيرة والصغيرة التى تعبره بلا انقطاع . ويعمل فوق معظم قوارب مصر العليا ، كما سبق القول ، ملاحون من ضواحى أسوان ومن فيله ، بل ومن النوبيين الذين لا يجدون ما يتعيشون عليه فى بلادهم ، فيعملون بالملاحة فوق النيل لجزء من العام ، ويجلبون لمعيشة أسرهم عوائد أجورهم ، سواء كان ذلك فى شكل نقود أو فى شكل بضائع لها صفات الضرورات الأولية .

وبالإضافة إلى أن هذا الطريق المستخدم فى نقل بضائع التجارة الداخلية لمصر طريق اقتصادى لحد كبير ، فلابد من أن نذكر أن هذا الطريق النهرى أكثر ضماناً وأمناً من الطريق البرى ، فالغيبة شبه التامة للشرطة ، بالإضافة إلى قلة اتساع الوادى وعادات العربان المحيطين به ، تعرض المواد التى تنقل براً للتسلب والنهب فى حين أن الصنادل الضخمة التى تحمل هذه البضائع ، وتحمل معها بخلاف الملاحين والنوتية ، عدداً لا بأس به من المسافرين ، هذه الصنادل هى أكثر أمناً من السلب والنهب ولو إلى حد ضئيل .

وتعد كل المدن الواقعة على النيل وكذلك بعض القرى محطات تتوقف فيها القوارب التى تأخذ منها أو تفرغ فيها حمولتها أثناء موسم الفيضان . وعندما تصبح الترع المتفرعة من النهر صالحة للملاحة فإنها تستخدم فى نقل بضائع القرى الداخلية إلى هذه الموانى بواسطة صنادل أصغر حجما . أما فى بقية العام ، فيتم ذلك على ظهور الجمال والحمير .

وعند التوجه شمالا من إسنا عن طريق النيل ، تكون مدينة قوص أو قفط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القديمة هى أهم مدينة تقابلنا ، فهى مستودع للقمح وبقية الغلال المخصصة للتصدير بحراً إلى الجزيرة العربية عن طريق ميناء القصير الواقع على البحر الأحمر ، وترسل من قوص إلى القاهرة أيضاً كمية ضخمة من الشيلان الصوف بيضاء اللون من نوع تلك التى تصنع فى قنا . ويتردد الناس على سوق هذه المدينة الأخيرة الذى يقام مرة كل أسبوع ليتزودوا منه ، ومن المحلات التى أقيمت فيه بمواد البلاد وبالبضائع الأوربية التى تنقلها القوافل إلى القصير . وترسل من قنا إلى القاهرة الأقمشة القطنية وزيت الخس والقمح وحبوب أخرى وأخيراً كمية ضخمة من الآنية الفخارية المبردة التى تعرف باسم البردق ، وتحظى هذه بتقدير أكبر من كل الآنية من نفس النوع والتى تصنع فى مصر .

وفى غالب الأحيان ، فإنه تنهض كل ثمانية أيام فى كل مدينة من مدن مصر العليا سوق يأتى إليها سكان القرى المجاورة ليبيعوا المواد والأقمشة التى يصنعونها . وينقل ما يفيض عن الاستهلاك إلى مناطق أخرى عن طريق التجار الذين يتجرون فى هذا النوع من البضائع . وهكذا يصدر إلى القاهرة سكر فرشوط وأخميم وجرجا ، وزعفران طنطا ، والأقمشة الكتانية من صنع سيوط ، وكذلك الغلال والفول والعدس وزيوت بذر الكتان والقرطم واللفت . وتستبدل بكل المنتجات الزراعية وكذلك مختلف الأشياء المصنعة التى تناولناها عند معالجتنا للزراعة والصناعة فى مصر العليا بضائع تأتى من القاهرة . وما لم تكن ثمة ظروف خاصة تتناول هذه البضائع فإن هذا التبادل لا تتناوله إلا تغييرات طفيفة فى المواد التى تكون موضوعاً له .

وتقام فى مدينة الفيوم ، عاصمة ولاية الفيوم ، سوق هائلة يأتى إليها العرب الذين استقروا على تخوم هذا الإقليم ليتزودوا بما يحتاجون إليه فى نوع الحياة التى يحيونها ، وهناك يبيعون الجمال التى يربونها والبلح الذى جمعوه من الواحات . ويتميز هؤلاء العرب عن بقية السكان الذين يترددون على الأسواق بنوع الملابس التى يرتدونها وبالحربة التى يتسلحون بها على الدوام حتى وهم سائرون على الأقدام . أما الفلاحون فيأتون إلى هناك ليس فقط ليبيعوا فواكههم وخضرواتهم ولكن أيضاً ليبيعوا شيلان (شال) الصوف التى يصنعونها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويدفع أولئك الذين يمونون أسواق المدن المصرية بالبضائع رسماً فى مقابل التصريح لهم بعرض بضائعهم للبيع هناك . وكانت رسوم الأسواق تحصل لصالح الكوات أو الكشاف الحاكمين الذين كانوا يعهدون بها إلى محصلين . وقد بلغ ثمن التزام ضرائب الأسواق فى المدينة ١٤٠,٠٠٠ مدينى وكان الملتزم يحصل على الأقل ١٧٠,٠٠٠ مدينى بحسب تعريفة كانت تنظمها ضريبة النصاب بحسب نوع وطبيعة البضاعة ؛ وهكذا فقد تقررت كرسوم ١٠ مدينى لكل أردب من القمح فى مقابل لا شيء بالنسبة للقطن المغزول أو للأقمشة القطنية والكتانية ، ذلك أن الضريبة التى كانت تسددها طائفة النساجين كانت تعفى كلية الإنتاج الذى يصنعه أبناؤها ويعرضونه للبيع من كل رسم تقرره الخزينة . وتبلغ فائدة المال فى الفيوم ١٠٪ .

وتتلقى مدينة القاهرة ، التى يمكن أن ننظر إليها على اعتبارها أهم مركز للاستهلاك فى مصر ، المواد الغذائية من كل أقاليم البلاد وتدفع ثمنها كما قلنا إما بالنقد وإما فى شكل بضائع واردة من أوربا . ويتم بيع هذه البضائع فى أسواق عامة تقام بشكل منتظم فى أيام محددة من الأسبوع أو فى أسواق مخصصة لكل واحدة منها . وسيكون بيان هذه الأسواق المتخصصة والكثيرة لحد كاف جزءاً من وصف طبوغرافية القاهرة .

ولكننا نكتفى هنا بالقول بأن الخضروات وكل أنواع الوقود عادة كالفحم وخشب الوقود تباع بالوزن وكذلك اللحوم والخبز . وهذه الطريقة التى اتبعت بلا جدال لتفادى ما يمكن أن يقع فيه المشترون من غش لو أن الباعة قد استخدموا وسائل أخرى لتقدير كمية البضاعة موضوع التعامل ، هذه الطريقة لم تكن تحقق على الدوام الهدف المرجو منها . فالبيع بأوزان غير صحيحة أمر شائع لحد كبير بين تجار الوقود وتجار بقية القائمة السابق بيانها . لذلك فقد كان قمع هذه المخالفة واحداً من أهم صلاحيات أحد الأغوات (أغا) المكلفين بأعمال الشرطة فى المدينة . وكان هذا الأغا يقوم بجولات فجائية فى مختلف الأسواق ، وكان يسبقه ، وهو يسير ممتطياً ظهر حصانه ، أحد موظفيه حاملا معه ميزاناً كبيراً من الموازين المعتمدة ، ويتبعه حشد كبير من الخدم المسلحين بالعصى ، فإذا قابله أحد المشترين وأظهر شكه حول دقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وزن البضاعة التى يحملها ، فإن الأغا يسترشد عن محل البائع ويتوجه إليه على الفور ويقوم حامل الميزان فى نفس مكان الواقعة وعلى الملأ بالتحقق من وزن الشىء المبيع ، فإذا ما وجد أن الوزن أقل مما بيعت البضاعة عليه ، فإن التاجر يتلقى على الفور وأمام دكانه هو ، الضرب بالعصا ، وبعد تلقيه هذه العقوبة يرفه جيرانه الذين يجدون فى ذلك فائدة كبيرة لهم إما لأنهم قد سبق وحصلوا منه على نفس « الخدمة » ، وإما لأنهم كانوا سيحصلون عليها بين لحظة وأخرى .

وتتم الرقابة على الأسواق عادة وبنفس **الطريقة** فى بقية مدن مصر الكبرى ، ولكن بحزم أقل مما يحدث فى القاهرة .

وإلى سوق منوف الذى يقام مرة كل أسبوع ، يحمل نساجو الأرياف أقمشتهم ، وهناك يشتريها تجار هذه المدينة الذين يقومون بنقلها إلى القاهرة والاسكندرية ، وكان يبلغ ما يصدر من الأقمشة من منوف ما يقرب من ١٥٠ ألف قطعة ، وكذلك كان تجار أشمون والقاهرة يجوبون قرى ولاية المنوفية ويشترون جزءاً كبيراً من الأقمشة التى تصنع فيها

ويمتلىء سوق منوف بخلاف الأقمشة ، بكميات كبيرة من الصوف والكتان والوبر وغزل الكتان والفخاريات من كل نوع ، والحبوب والخضروات الجافة والطازجة وبخاصة درنات القلقاس التى تزرع بشكل خاص فى شبين (الكوم) وضواحيها .

وتعد مدينة طنطا ، التى نادراً ما زارها الرحالة الأوربيون قبل الحملة الفرنسية ، أهم مدينة تجارية فى أعماق الدلتا . وهذه المدينة ، بالإضافة إلى وقوعها فى منطقة بالغة الخصوبة وإلى أن سكانها يمارسون صناعة أقمشة الكتان الذى يزرع هناك بوفرة ، هذه المدينة هى كذلك مقر لأسواق بالغة الشهرة . وتدين هذه الأسواق بأصلها شأن كل أسواق الشرق إلى الورع الروحى عند المسلمين ، فهم هناك يقدسون مقبرة أحد الأولياء المشهورين، ويسمى سيدى أحمد البدوى، وتوجد هذه المقبرة فى المسجد الرئيسى لمدينة طنطا .

ويذهب الناس إلى هناك فى شكل حجيج (مزار) فى فترتين من العام ، مرة فى اعتدال الربيع ومرة أخرى عند انقلاب الصيف . وإليكم ما يذكر بشكل خاص عن أحمد البدوى :

ولد أحمد البدوى فى فاس فى بلاد البربر (المغرب) فى سنة ٥٩٦ هجرية وجاء إلى مصر أثناء توجهه مع أسرته إلى مكة وكان يبلغ عمدئذ الحادية عشرة من عمره . وعند عودته من مكة توقف فى طنطا حيث عاش حتى سن التانية والسبعين ، وحصل هناك نفعل سلوكه على شهرة واسعة كولى ، وبعد موته شيد نناء صغير حول قبره وبدأ المسلمون يزوروبه بدافع من الورع والتقديس . وفى حوالى العام ٦٦٠ من الهحرة أمر السلطان بيبرس بناء المسجد الذى نراه اليوم فى طنطا ، ثم قام اسماعيل بن إيواظ بتجميل هذا المسجد منذ حوالى قرن وتم تجميله مرة أخيرة على يد على بك منذ حوالى خمسين عاماً .

ولهذا الحامع عوائد كبيرة ، فهو يمتلك قرية تبلغ مساحتها خمسمائة فدان وتسمى قحافة ، كما يمتلك زيادة على ذلك فى مدينة طنطا وكالة وحماماً والمكان الذى يطحن فيه البن ، ويتلقى فوق ذلك كثيراً من النذور من سكان مختلف أقاليم مصر .

وتعفى الأسواق التى تقام فى طنطا أثناء عيد (مولد) الولى من كل رسوم تحصل لصالح الحكومة ، ويقوم بمهمة الشرطة هناك كاشفان (كاشف) ، واحد من ولاية المنوفية وآحر من ولاية الغربية . ويعلن عن يوم المولد عن طريق رسائل (بريد) تحمل فرماناً من الباشا إلى أقاليم مصر السبعة وتشتمل على الصعيد ، وولايات : الجيزة ، البحيرة ، المنوفية ، الغربية ، والشرقيين .

ويبلغ عدد الوكالات فى طنطا ١٠ — ١٢ وكالة وهى مخصصة لأبناء مختلف مدن مصر ولمختلف الأمم المحمدية ، ويوجد بخلاف هذه الوكالات وفى شوارع متعددة مساكن كانت تؤجر إلى التجار المتنقلين ، كما كانت كل الحقول المحيطة بالمدينة مغطاة بالخيام .

أما الأشياء التى تقوم عليها التجارة فى طنطا فتشتمل على المواشى من كل نوع والأقمشة الكتانية والقطنية ، ويجلب تجار القاهرة والاسكندرية إلى هناك بضائع واردة من أوربا والهند .

كذلك كان يقام فى مدينة تحظى ببعض الأهمية فى أعماق الدلتا وتسمى محلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرحوم ، سوق يتردد عليه الكثيرون بسبب المنسوجات التى تصنع فى هذه المدينة وضواحيها .

ولابد أن نعلم فوق ذلك أن الأسواق التى تقام فى مدن وقرى الدلتا لم تكن على الدوام مأمونة لحد كبير ، لأن السكان الذين يترددون عليها وكذلك عرب الولايات المجاورة ، ينقسمون كما سبق أن قلنا إلى عصبتين متعاديتين (سعد وحرام) وكانا يتبادلان أشد ما يستطيعان من أذى يحمله أساؤهما على أيديهم فى أى مكان يلتقون فيه معاً .

ولابد أن نذكر بعد الأماكن المختلفة التى انتهينا من ذكرها باعتبارها أهم أسواق الدلتا : مدينة سمنود التى جعل منها موقعها على الفرع الشرق للنيل ، مستودعاً طبيعياً للبضائع الأجنبية التى ترد إلى مصر عن طريق دمياط ، مثل الحديد والخردة والفحم ، بالإضافة إلى أنها نقطة الاتصال بين ولايات الشاطىء الأيمن وولايات الشاطىء الأيسر .

وليست لمدينتى رشيد ودمياط على الإطلاق أسواق بمعنى الكلمة لشئون التجارة الداخلية ، لكنهما مستودعان لتجارة دول أوربا وشعوب سوريا ، وستواتينا الفرصة للعودة إليهما فيما بعد .

وتقع على الشط الشرق للنيل وعلى مسافة قصيرة إلى الشمال من سمنود مدينة المنصورة ، وهى مستودع للبضائع ينقل منها إلى القاهرة ودمياط ورشيد جزء من قطن الولاية (الدقهلية) وكذلك الزبد والجبن والكتان وزيت السمسم وكل هذه المواد من منتجات الولاية التى تخزن فى حوالى ٣٠ وكالة مخصصة لاستقبال البضائع من الخارج .

وتقوم تجارة تهريب على حدود مصر من جهة سوريا على يد العربان الذين استقروا هناك ، تتم فيها مقايضة الأشياء التى يكون دخولها إلى مصر وتلك التى يكون خروجها منها محظوراً ، أو تلك التى ينبغى أن تدفع رسوما باهظة لحد كبير لجمارك القاهرة ودمياط .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان يمكن لنشاط التجارة الداخلية فى مصر أن يتضاعف لو أن مختلف طرق المواصلات كانت آمنة وكان استخدامها ممكنا من مكان لآخر ، لكن نشاط الشرطة لا يمتد لأبعد من أسواق المدن ، كما أن تقاليد العربان وجهل الفلاحين لا يقدمان أية ضمانات لتأمين البضائع التى تعبر بلادهم ، وينبغى لكى نحصل على هذه الضمانة ، أن يتجمع التجار عندما يسافرون براً فى قوافل صغيرة وعندما يسمح موسم الفيضان بالملاحة فإن التجار يتعرضون بالمثل لمخاطر أن ينهبوا على يد سكان بعض القرى التى تقع على ضفاف النيل ، والذين لا يتعيشون إلا على السرقات وقطع الطريق التى يمارسونها على الصنادل المحملة بالبضائع والتى تمر قريباً منهم . إن إقامة نظام أفضل للأمور لتأمين الطرق لن يساهم فقط فى ازدهار التجارة الداخلية ، وإنما سوف يساهم أيضاً ، بتسهيل تموين موانى مصر بمنتجات البلاد ، فى اتساع نطاق تجارتها الخارجية التى حان الوقت لكى نتحدث عنها . وسنتناول فى عدد من الفصول المستقلة العلاقات التجاريه لمصر مع أعماق أفريقيا ومع آسيا وأوربا .

ولكنا قبل أن ندخل فى الموضوع نرى من المناسب أن نلاحظ أن البوطاقة ذات الـ ٩٠ مدينى لا تستخدم كوحدة نقدية كما يحدث فى الأسواق التى يتعامل فيها المصريون مع بعضهم البعض ، ذلك أن تقييم معاملاتهم مع أسواق الخارج يتم أحياناً بوحدات نقدية مخالفة ، بحسب طبيعة البضاعة موضوع التعامل ، وبحسب البلاد التى قدمت منها أو أرسلت إليها . وأهم الوحدات النقدية المستخدمة فى التجارة الخارجية لمصر الحديثة هى :

السكين (العملة الذهبية) زر محبوب **القاهرة** ذات الـ ١٢٠ مدينى (القيمة الاسمية) أو ذات الـ ١٨٠ مدينى حسب التعريفة التى نظمت قيمة مختلف القطع النقدية أثناء الحملة .

سكين القسطنطينية ذو الـ ٢٠٠ مدينى .

الفندقلى ذو الـ ١٤٦ مدينى .

البوطاقة الذهبى أو الـ ½ زر محبوب ذو الستين مدينى (حسب القيمة الاسمية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرش التركى ذو الـ ٤٠ مديى .

القرش الأسبانى ذو الـ ١٥٠ مدينى .

التالو أو التالارى وهو يساوى كذلك ١٥٠ مدينى .

وأخيراً السكين البندق ويساوى ٣٤٠ مدينى .

الفصل الثانى

عن العلاقات التجارية لمصر مع أعماق أفريقيا

يذهب العرب الذين يسكنون الصحراء الليبية ابتداء من سيوط حتى الفيوم ، كل عام إلى الواحات ، كى يحصلوا على محصول البلح ، ثم يأتون ليستبدلوا به فى الأسواق المختلفة الأشياء والملابس التى يستخدمونها ، وتذهب قبيلة معينة فى البحيرة للحصول على النطرون من بحيرات هذه الصحراء ، وأخيراً فقد قلنا من قبل إن هناك قبيلة عربية تقوم بجمع محصول السنامكى إلى الغرب من أسوان ثم تجلبه إلى هذه المدينة ، ومع ذلك ، فعلى الرغم من أن هذه الأشياء المختلفة تنتج فى مناطق مختلفة تتفاوت مسافة بعدها عن وادى النيل ، وحيث أن العرب الذين يقومون بتجارة التبادل هذه ، هم – على نحو ما – مستقرون على الحدود التى تفصل مصر عن الصحراء ، فقد نظرنا إلى هذه التجارة على اعتبار أنها فرع من التجارة التى تتم بين مدينة وأخرى أو بين قرية وقرية .

لكن الأمر لن يكون على هذا النحو بالنسبة للتجارة التى تقوم بها القوافل التى تأتى من مناطق مختلفة من داخل أفريقيا ، وفى أوقات محددة من العام ، والتى تقضى عدة أسابيع ، وأحيانا عدة أشهر ، وهى فى طريقها إلى مصر ؛ وأهم هذه القوافل هى قوافل دارفور ، وسنار ، وفزان ، وسندخل باضطراد فى بعض التفاصيل المتعلقة بكل منها .

١ – قافلة دارفور

الواردات

وفى أثناء إقامتى بمدينة سيوط - ام ١٧٩٩ مرت ذه المدينة قافلة دارفور وقد حصلت من واحد من أهم تجارها على المعلومات الآت :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تجلب هذه القافلة إلى مصر العاج ، والتمر هندى ، والقرب المصنوعة من جلد الجمال ، وبعض جلود النمور ، والصمغ ...الخ ، لكن تجارتها الرئيسية تتمثل فى العبيد السود : وهؤلاء هم أطفال من الجنسين اختطف بعضهم من قرى مملكة دارفور عن طريق أناس يحترفون هذا النوع من الاختطاف ، أما الآخرون فينتمون إلى أسرى الحرب الذين أصبحوا عبيدا ؛ ويباع الطفل من هؤلاء فى القاهرة بـ ٤٠ إلى ٦٠ قرشاً أسبانياً . ويذكر تجار هذه القافلة الذين سألتهم أن مدينة دارفور تبعد عن سيوط بمسيرة اربعين يوماً خلال صحراء توجد بها بعض المياه بين مسافة وأخرى ، ويؤكد هؤلاء أن الناس هناك يزرعون القمح فى أراضيهم وأن الأمطار تهطل من وقت لآخر وأنهم يحتفظون بمياهها فى خزانات . وأضيفت إلى ذلك معلومات أخرى أكثر اتساعاً حصلت عليها فى القاهرة من ذلك الشخص الذى كان مكلفاً ببيع عبيد دارفور باعتباره العميل الأكبر للجلابة ، وهى التسمية التى يشار بها إلى تجار هذه المهنة .

تجلب القافلة إلى مصر ، بخلاف العبيد الصغار من الجنسين ، سن الفيل ، والتمر هندى أو عجينا مكونا من ثمار التمر هندى بعد سحقها وتجفيفها ، الصمغ العربى ، الشِّشم [١] ، وهو بذور صغيرة ، مائلة للون الأسود ،تحولت إلى دقيق يستخدم ظاهرياً فى حالات الرمد ؛ والكرابيج (كرباج) أو سيرا من جلد فرس النهر يستخدمه الفرسان كسوط ؛ ريش النعام ؛ قربا مصنوعة من جلد الجاموس أو الجمال ، وكذلك ملح النطرون والشبة .

والمعلومات المتوفرة حتى اليوم عن طريق دارفور قليلة ، ويرجع الفضل فيها إلى هؤلاء التجار – ويقول هؤلاء ، ومن المحتمل أنهم يقولون ذلك بنوع من مبالغة طبيعية فيهم – ان هذه المدينة تماثل القاهرة فى حجمها وعدد سكانها ويضيفون أن سكان جزء كبير من داخل أفريقيا يأتون إلى هناك ليبيعوا أو يتبادلوا مختلف المواد التى انتهينا من ذكرها ، لكن سكان دارفور وحدهم هم الذين يقومون بالسفر إلى مصر .

---

(١) Cassia absus, Lin انظر مذكرة عن العقاقير التى يستخدمها المصريون ، تأليف روييه Rouyer ، الدولة الحديثة ، المجلد ١١ ، ص ٤٢٩ [من الطبعة الثانية] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والبضاعة الرئيسية فى هذه التجارة هى العبيد ، وهؤلاء وكما سبق القول عبارة عن أسرى تم أسرهم أثناء الحروب المستمرة التى تمرق أمم وسط أفريقيا المجاورة لدارفور ، وفى بعض الأحيان يتم احتطاف أسر بأكملها فى حالات السلم من القرى التى تسكنها ، ويساق هؤلاء العبيد من الجنسين ومن مختلف الأعمار إلى سوق دارفور ، ويختص ملك هذه المملكة لنفسه بخمس هؤلاء ، ويعطى خمساً ثانياً لرئيس شرطته ، ولا يتبقى فى أيدى الآسرين إلا ثلاثة **الأخماس** الأخيرة .

ويباع الرجال البالغون فى دارفور ، إلى أناس يستخدمونهم فى الأعمال المنزلية ، أما أولئك الذين كانوا من نصيب ملك دارفور فإنهم يرسلون إلى مكان فى داخل أفريقيا يسمى كاركتين دار السعيد ويقع على مسيرة عشرين يوماً على طريق دارفور ، ويعد نوعا من مستعمرة ، وهنا يزوجونهم من زوجات إماء ويخصص $\frac{1}{10}$ أطفالهم و $\frac{1}{10}$ إنتاج محاصيلهم التى هى عبارة عن الذرة الشامية والذرة للملك ، الذى يرسل كل عام واحدا من ضباطه لتحصيل الأتاوه (١) .

وتبعاً لما يذكر الحلاية فإن الناس فى دار فور لا يستخدمون النقود المعدنية ، إذ تقيم الأشياء التى يتعاملون فيها بالعبيد ، ويقدر العبد من هؤلاء عادة بأربع أو **خمس** قطع من قماش الكتان من صنع سيوط أو من قماش القطن صنع المحلة الكبيرة .

وحيث أن طريق دارفور – مصر يتم خلال صحراء تصطرد فيها ندرة المياة فإن القافلة التى تأتى إلى القاهرة كل عام تنقسم إلى فريقين ، يبدأ أحدهما الطريق قبل الآخر بعدة أيام ، وهكذا تستطيع الآبار التى نضبت مباشرة بعد مرور الفريق الأول أن تمتلئ من جديد فى خلال المدة التى ستنقضى حتى يحين مرور الفريق الثانى .

وتتكون كل قافلة من حوالى خمسة آلاف جمل ، وتستغرق عادة ما بين أربعين وخمسين يوماً حتى تصل إلى سيوط ، وهى تتوقف فى الصحراء فى كل مكان تجد فيه الماء ، لكن نقاط التوقف هذه تتباعد حتى أن المسيرة تبلغ بين كل نقطة وأخرى أربعة أو

---

(١) جاء إلى القاهرة منذ حوالى خمسة وعشرين عاما (كتب هذا عام ١٨٠٠) أحد أبناء ملك دارفور ، وكان يصحب معه كما يقول تجار القافلة ١٢,٠٠٠ رجل و ٢٤,٠٠٠ جمل بقى جزء كبير منها فى مصر العليا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خمسة أيام ، بل وفى بعض الأحيان ، عشرة أيام . وعندما تضطر هذه القوافل للتوقف فى أماكن ليست بها آبار ، فإنها تحصل على حاجتها من الماء من مؤونة المياه التى تحملها الجمال .

ويخصص ثلث العدد الإجمالى للجمال التى تتكون منها القافلة لحمل مياه التموين اليومى هذه ، كما يخصص ربع العدد الإجمالى أيضاً لحمل الطعام ، ولا يستخدم لحمل البضائع – بمعنى الكلمة – سوى $\frac{1}{8}$ العدد الإجمالى فقط ، ويخصص العدد الباقى لحمل المرضى أو لحمل تلك الحمولة التى كانت تحملها الجمال التى جرحت أو تلك التى نفقت أثناء الطريق .

وكانت قافلة دارفور تتوقف فى الصحراء فى مكان يسمى بيريس ، وهى قرية هامة تقع على مسيرة اثنى عشر يوماً من مدينة سيوط . وكانت القافلة تضطر للتوقف هناك انتظاراً للكاشف الذى يرسله البكوات فى القاهرة للتفتيش عليها . وكان شيخ بيريس مسئولا عن القافلة حتى تحصل على الإذن بمواصلة طريقها نحو مصر .

وكذلك كانت القافلة تتوقف على مسيرة ستة أيام من سيوط مرة أخرى فى قرية تسمى الخارجة . وهناك يقوم الكاشف بتقدير الرسوم التى ينبغى عليها أن تسددها ، بينما يقوم قائد القافلة بتقدير نصيب كل تاجر من تجار القافلة من هذه الرسوم ، لكن الرسوم لم تكن تسدد إلا بعد مسيرة نصف فرسخ من سيوط فى مكان تتوقف فيه القافلة لآخر مرة ، حيث تقوم ببيع كمية من بضائعها تكفى للحصول على الرصيد اللازم لسداد هذه الرسوم .

ولم يكن يسمح للقافلة بالتقدم إلى شمال سيوط إلا بعد أن تكون قد سددت بالفعل الرسوم المطلوبة منها بالكامل .

وتبعاً لعادة الشرق الشائعة ، عادة ألا يبدأ الناس ممارسة تبادلاتهم التجارية إلا بعد تبادل تقديم الهدايا ، فقد كانت القافلة تقدم باسم ملك دارفور إلى الكاشف الذى يأتى للتفتيش على قافلة دارفور فى بيريس عبدين وجملين ، كما كانت تقدم فى الخارجة – فى نفس لحظة تقدير الرسوم الجمركية – هدية مضاعفة ، أى أربعة عبيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأربعة جمال . وعند العودة ، يتلقى رئيس القافلة من الكاشف ، من قبل البك الحاكم لولاية سيوط « طقما » كاملا من الملابس .

وكانت الرسوم التي تحصل من قافلة دارفور عند دخولها إلى مصر تقدر على النحو التالي : ٤ زر محبوب عن كل رأس عبد ؛ و ٢ سكين لكل رأس جمل ؛ وكان الكاشف يحصل كذلك رسما قدره ٩ مديني عن كل عبد و٤ مديني عن كل جمل .

ويأتي سنوياً من دارفور إلى مصر من خمسة إلى ستة آلاف من العبيد أربعة أخماسهم نساء ، تتراوح أعمارهن بين خمسة أو سبعة أعوام حتى ثلاثين أو أربعين عاماً ، وإن كانت أعمار غالبيتهن تتراوح بين عشرة وخمسة عشر عاماً .

وتسير كل قافلة تحت إمرة رجل تابع للملك دارفور ومرتبط ببيته . ويتلقى هذا القائد من كل واحد من تجار القافلة الذين يكونونها ٢٣ بارة عن كل رأس جمل و٤٥ بارة عن كل رأس رجي ، كأجر له .

ويبلغ عدد التجار ومن يعملون في خدمتهم كالجمالين وبقية الخدم أربعمائة أو خمسمائة شخص في العادة .

وقبل أن تأتي قوافل دارفور إلى القاهرة ، فإنها تستريح لبعض الوقت في سيوط وبني عدى ومنفلوط والمناطق المحيطة بها حيث تبيع جزءاً من بضاعتها .

ويبلغ الثمن المخفض للعبد في السنوات العادية حوالي ٣٥ زر محبوب .

ويبلغ ثمن العبيد الذين تحولوا إلى طواشين (طواشي) ضعف أو ثلاثة أمثال هذا الثمن في العادة . وهذا هو السبب في أن قادة قوافل دارفور كانوا يتوقفون في أبي تيج ، وهي مدينة صغيرة في مصر العليا ، حيث ثمة حلاقون يقومون ببتر العضو الجنسي للأطفال ؛ وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه العملية لا تمارس إلا لأطفال لم يتجاوزوا سن الثامنة أو العاشرة . ويمكن أن تقرأ المزيد حول هذا الموضوع فيما كتبه د . فرانك Frank في المقالة التي عالج فيها تجارة العبيد السود في مصر [1] .

---

(١) Collection de mèmoires sur l'Egypte, Tom. IV, èdition de P. Didot, an XI.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتحمل قافلة دارفور عادة إلى القاهرة حمولة ١٥٠ جملا من سن الفيل ، تبلغ زنة الحمولة منها ثلاثة قناطير زنة القنطار ١١٠ رطل . ويباع القنطار الواحد ما بين ثلاثين وستين فندقلى حسب جمال العاج والبلد الذى قدم منه .

وتجلب القافلة بخلاف ذلك حوالى ٦٠٠ قنطار من التمر هندى Tamardindus India ، ويباع القنطار زنة ١١٠ رطل بـ ١٥ — ٣٠ بوطاقة .

وتجلب كذلك من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ قنطار من الصمغ العربى زنة القنطار ١٥٠ رطلا ويباع القنطار بسعر ٢٠ فندقلى .

وحوالى ٦٠٠ قنطار من الششم ، سعر القنطار زنة ١١٠ رطل ٢٠ بوطاقة .

كما تجلب مائتى أو ثلاثمائة كرباج ، يباع الواحد منها عادة بـ ٤٥ — ٦٠ مدينى .

ويباع ريش النعام الوارد إلى مصر عن طريق قافلة دارفور بالوزن ، ويمكن أن تبلغ الكمية المستوردة منه ما بين ٢٥ إلى ٣٠ قنطاراً ؛ وأغلى أنواعه هو الريش الأبيض ويبلغ ثمن القنطار من أجود أنواعه ١٥٠٠ بوطاقة فى حين أنه قلما يبلغ ثمن القنطار من الصنف الأدنى قيمة وهو الريش الأسود ٢٠٠ بوطاقة . وينتقل هذا الصنف من البضائع من دارفور إلى القاهرة فى حقائب من الجلد ، ولا يشتريه فى القاهرة إلا اليهود أو المسيحيون الذين يصدرونه كله على وجه التقريب إلى أوربا .

وفى مصر ، تستخدم قرون الكركدن فى صنع مقابض السيوف أو الخناجر ، ويعتقد الأتراك والمماليك بصفة خاصة فكرة مسبقة مؤداها أن سلاحاً معداً على هذا النحو يمنح حامله الشجاعة والاقدام ؛ وتتحكم ندرة هذه البضاعة أو وفرتها فى رفع أو خفض سعرها ، ويصل منها سنوياً ألفا قرن يباع الواحد منها بـ ٥ — ٧ بوطاقات . وقد ارتفع سعره إلى ١٥ بوطاقة أثناء الحملة الفرنسية .

وتدخل قافلة دارفور إلى مصر حوالى أربعة آلاف زوج من القرب المصنوعة من جلود الثيران أو الجمال ، ويباع الزوج الواحد من القرب بـ ١٠ — ١٢ بوطاقة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولابد أن نضيف إلى هذه الواردات المتنوعة ١٠٠٠ قنطار من النطرون ، يباع القنطار منه زنة ١٢٠ رطلا بـ ١٤ – ١٥ بوطاقة (١) .

وتحصل قافلة دارفور وهى فى طريقها إلى القاهرة من الصحراوات التى تجتازها وهى متوجهة إلى القاهرة على كمية محدودة من الشبة تجلبها من هناك إلى القاهرة . ويبدو ، تبعاً للمعلومات التى قدمها إلى الحاج سلطان ، شيخ الحلابة ، أنهم يستخرجونها – كما يحدث للنطرون – من قاع بعض البحيرات التى ترسبت فيها ، وفى العام التالى يجدونها فى نفس مكان العام السابق وهكذا .. ويبلغ وزن الشبة التى ترد إلى مصر عادة عن هذا الطريق مائتى قنطار ، زنة القنطار ١٥٠ رطلا ، يبلغ سعره من ٣ – ٤ بوطاقات .

وبعد وصول القافلة مباشرة إلى مصر ، حيث تكون كل البضائع التى انتهينا من حصرها قد شحنت عن طريق النيل ، تحاول قافلة دارفور التخلص من الجمال التى تصبح بالنسبة لها عديمة الفائدة فتبيع $\frac{١٦}{٢٠}$ أو $\frac{١٧}{٢٠}$ من إجمالى عدد الجمال التى صحبتها معها ، ويبلغ ثمن الواحد من هذه الجمال ، تبعاً **لعمره وقوته** ، ما بين ١٨ و ٢٠ زر محبوب .

وحيث يشكل العبيد الجزء الرئيسى من واردات هذه القافلة ، فلابد أن نستنتج أنه يلزم لنقل المياه ومؤن الطعام الأخرى التى تلزم لغذائهم أثناء الرحلة إلى مصر عدد من الجمال أكبر بكثير من ذلك العدد الذى تحتاجه القافلة عند عودتها .

وبمجرد وصول القافلة إلى سيوط فإنها تدفع للبك أو السنجق المقيم هناك رسماً يبلغ ٤ زر محبوب عن كل رأس عبد و $\frac{١}{٢}$ ٢ زر محبوب على كل رأس جمل **محملا** كان أو غير محمل ؛ كما يحصل فى مصر القديمة رسم يبلغ $\frac{١}{٢}$ ١ بوطاقة عن كل جمل .

---

(١) انظر الحالة العامة للبضائع الواردة إلى مصر بواسطة قوافل دارفور أثناء الحملة الفرنسية من وضع الأستاذ مركور – جوزيف لابانوز Mercure - Joseph Lapanouse المنشورة فى :
Mèmoires sur L'Egypte, tom. IV. p. 88, èdition de Pierre Didot, an XI.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى النهاية ، فإن القافلة تدفع إلى الجمارك عند دخولها القاهرة واحد زر محبوب عن كل رأس عبد و ½ زر محبوب للإقامة فى الوكالة ولاستخدام السوق الذى ستعرض بضائعها فيه للبيع .

الصادرات

تضطر قوافل دارفور بسبب أعمال التجارة التى تمارسها مع مصر عادة أن تمد فى فترة إقامتها هناك لفترة تبلغ ستة أو ثمانية أشهر ؛ ولذلك يحدث كثيراً أن تصل قافلة قبل أن ترحل القافلة التى سبقتها .

وتشترى هذه القوافل عند عودتها أشياء تختلف عما توردها إلى مصر ، سواء كان ذلك من منتجات هذه البلاد أو كان من البضائع الأوربية .. الخ .

فمن بين أشياء الشرق ، تشترى القافلة المنسوجات الحريرية والقطنية المصرية والسورية وأقمشة الكتان والقطن من صنع مدن الدلتا وسيوط ، وأقمشة أخرى تسمى « ألاحة » ، وكذلك الموسيلين والشيلان البيضاء وارد الهند ، ومعدات الخيول ، وملابس الفرسان ، والبن والسكر ، وقليلا من الأرز ، وفى بعض الأحيان عدداً صغيراً من الخيول . ومن البضائع الأوربية التى تتزود بها قوافل دارفور من مصر ، ينبغى أن نضع فى المقام الأول الحلى الزجاجية وارد البندقية وبخاصة الحمراء والبيضاء والسوداء ، والحلقات الزجاجية من مختلف الألوان والتى تستخدم كأساور ، وحبوب الكهرمان والمرجان ونوعاً خاصاً من الجلجل تستخدمه النساء حلية وزينة ؛ وكذلك الجوخ والقطيفة والأمواس ، والنصال والقصدير والرصاص والنحاس والبنادق والمسدسات والسيوف وبارود البنادق ، وأخيراً نوعاً من الأصداف يسمى الغورى (Cupera - Moneta) ، وكان يستخدم كقطع نقد صغيرة فى داخل أفريقيا .

ونستطيع أن نستنتج أن كميات وقيمة البضائع التى تحملها قوافل دارفور عند عودتها تختلف تبعاً للظروف ، لذلك ينبغى أن نقتصر على التفاصيل التى لدينا والتى تعد متوسطاً لمعاملات سنوات عديدة :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبلغ عدد قطع المنسوجات الحريرية والقطنية المسماة « قطنى » وهى التى تحتل المقام الأول فى الصادرات التى تحملها معها قوافل دارفور حوالى ١٠٠٠ قطعة ، يبلغ طول كل قطعة منها ١٢ ذراعاً وتساوى ١٠ — ١٥ بوطاقة .

أما ثانى أشياء هذه الصادرات فهو عبارة عن ٢٠ أو ٢٥ ألف قطعة من تيل المحلة الكبيرة ، يبلغ طول القطعة منها ١٨ دراعا وتساوى ١٣٥ بارة .

وثالث هذه الأشياء هو صناعات (مانيفاتورة) محلية عبارة عن ١٠٠ إلى ٢٠٠ قطعة من القماش المسمى ألاجة ويبلغ ثمن القطعة ٥ بوطاقات .

وينبغى أن نضيف إلى ذلك ٥ إلى ٦ آلاف قطعة من أقمشة كتان سيوط يبلغ طول الواحدة منها ٢٧ ذراعاً ويبلغ ثمنها حوالى ١/٢ ١ بوطاقة .

وهناك صنف آخر يتكون من ألفى قنطار من الشيبة أو سيقان أو وريقات الأسلت Artemisia Judaica الذى يستخدم كعقاقير طبية أو كعطر وذلك بغليه مع خشب الصبر ، ويبلغ ثمن قنطار الشيبة حوالى ٢ بوطاقة .

ومن المعروف أن المصريين والعرب يصعون سرج خيولهم على قطعة من اللباد الصوفى متفاوتة السمك ومطوية عدة طيات ؛ وتحمل قافلة دارفور حوالى ثلاثمائة من هذا اللباد تباع الواحدة منها بـ ٩٠ مدينى .

كما تحمل منها أيضاً ١٠٠ — ١٥٠ من ملابس الفرسان (دروع) يبلغ ثمن الواحد منها ٥٠ زر محبوب . ويبدو أن المحاربين فى هذه المنطقة من أفريقيا يستخدمون اليوم هذا الملبس كسلاح دفاعى .

أما بضائع الهند وآسيا ، التى كانت تصدر من مصر عن طريق قافلة دارفور فهى :

من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ قطعة قماش حريرى ثمن الواحدة ٦ — ٨ بوطاقات ؛

حوالى ٨٠٠ قطعة من الموسيلين سعر القطعة ٧ — ١٠ بوطاقات ؛

٢٠٠٠ شال ثمن الشال الواحد ٥ — ٨ بوطاقات ؛

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥٠ قنطارا من بن اليمن زنة القنطار ١٠٠ رطل ويساوى ٢٠ – ٢٥ قرشا ؛ وأخيراً ١٠٠ قنطار من السكر المصرى .

ولا تحمل القافلة معها أرزاً إلا ما يكفى احتياجاتها أثناء الطريق .

وفى السنوات العادية ، تصحب القافلة معها مائة جمل محملة بالحلى الزجاجية من صنع البندقية ، تزن حمولة الجمل من هذه الحلى خمسة قناطير ، زنة القنطار منها ١٠٥ أرطال ، ويبلغ ثمنه حوالى ١٢ زر محبوب .

كما تصحب خمسين جملا محملة بالسمبال أو اللاونده ، ويأتى هذا النبات الجاف من تريستا ويستخدم بين استخدامات أخرى فى صنع أدوات التجميل وتثبيت الشعر وذلك بخلطة بالزيت . وتزن الحمولة ½ ٢ قنطار زنةالقنطار ١٥٠ رطلا ويبلغ ثمنه ٣٠ أو ٣٢ بوطاقة .

ويصدر من مصر أيضاً البضائع الأوربية الآتية :

١ – قنطار واحد من حبوب الكهرمان زنة القنطار ١٠٠ رطل وثمن الرطل ٧ – ٨ بوطاقات .

٢ – ٤ قناطير من حبوب المرجان يباع الرطل منه بـ ١٥ – ٢٠ زر محبوب .

٣ – من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ مكيال من نوع من الجلجل . الذى يستخدم شأنه شأن الصنفين السابقين كزينة للنساء فى داخل أفريقيا . ويشترى عادة بسعر بوطاقة للمكيال الواحد .

ولا تحمل قافلة دارفور مطلقا أصوافاً على هيئة أقمشة ، لكنها تحمل حوالى ١٠٠٠ بنيش جاهز ، ويدخل فى صنع هذا الملبس أربعة إلى خمسة أذرع من الجوخ ويبلغ ثمن الذراع من خمس إلى ست بوطاقات وبذلك تبلغ تكاليف البنيش الواحد عادة ٣٠ بوطاقة . ويشتد الطلب على الألوان : الوردى ، الأخضر ، الأحمر ، الأصفر وكذلك كل الألوان الزاهية ، ذلك أن كل الألوان المعتمة أو القاتمة لا تناسب فى العادة أذواق الأفريقيين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبغى أن نضيف إلى هذه الأحوال المتوسطة الجودة والتى تكون هذه الصناعة ٥٠٠ ذراع من القطيفة يبلغ ثمن الذراع منها ٥ – ٦ زر محبوب ، وتستخدم هذه القطيفة فى صنع ملابس أعيان البلاد وفى تعطية سروج بعض الخيول .

أما الحدايد التى تتزود بها قوافل دارفور من مصر فهى عبارة عن :

١ – عشرين صندوقا من الأمواس تحتوى على أربعة آلاف حزمة ، تساوى الحزمة الواحدة ١ زر محبوب .

٢ – حوالى ألف لفة من النصال تتكون اللفة الواحدة من أربعة نصال وتباع بـ ٩٠ مدينى .

وتحمل القافلة معها أيضاً ٢٠٠ – ٥٠٠ قنطار من سلفور الرصاص أو الرصاص الممزوج بالكبريت ، ويزن القنطار من هذه المادة ١٤٠ رطلا ويباع بـ ٦ – ١٠ بوطاقات .

أما المعادن التى تزودها بها القاهرة فتنحصر فى القصدير والرصاص والنحاس القديم (المستعمل) ، ويبلغ المقدار السوى من هذه البضائع ٥٠٠ قنطار من القصدير ، سعر القنطار ٣٠ بوطاقة ، و ٥٠٠ قنطار من الرصاص ثمن القنطار ٢٠ – ٢٢ بوطاقة ، وأخيراً ألف قنطار من النحاس المستعمل بسعر القنطار ٢٠ – ٢٥ بوطاقة . ويعاد تصنيع المعدن الأخير فى دارفور لتصنع منه حلى النساء .

أما عن الأسلحة فإن القافلة تشترى فقط نحو عشرين أو ثلاثين بندقية من صنع أوربا بسعر القطعة ٥ – ٦ زر محبوب ، وحوالى عشرين مسدساً ، وكذلك مائة نصل من سيوف الفرسان من صنع ألمانيا ، ويباع النصل الواحد عادة بـ ٢ بوطاقة ، وتجهز فى مصر .

وأخيراً فهى تحمل معها ٥٠ قنطاراً من بارود البنادق من صنع القاهرة على هيئة خرطوشات جاهزة يبلغ ثمن القنطار منها ١٠٠٠ بارة .

ويدفع عن الجمل المحمل بالبضائع ، عند بدء رحلته من بولاق للعودة إلى دارفور ، ٣٨ بارة كرسوم جمارك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى غالب الأحيان فإن مختلف الأشياء الواردة من دارفور إلى مصر تستبدل بها بضائع أخرى ؛ ومن بين كل ١٠٠٠ قرش يأتى فى شكل أشياء مستوردة يستخدم ٩٠٠ قرش فى هذا التبادل التجارى ، أما المائة الباقية فتصدر فى شكل بضائع عينية لكى تحول إلى أساور أو زينات أخرى من الفضة .

٢ - قافلة سنار

الواردات

يسلك التجار الذين يكونون هذه القافلة عدة طرق باتباع ومحاذاة شاطىء النيل عند مدينة فى النوبة تسمى أبريم . وابتداء من نقطة التلاقى هذه فإنها تسير خلال الصحراء موازية الشط الأيمن للنيل ، داخل أراضى عرب البشارية الذين يقطنون ما بين النيل والبحر الأحمر ؛ وحيث يحدث أن تقوم هذه القبيلة بنهب القافلة ، فإن الأخيرة تزود نفسها بحرس من عربان العبابدة يسيرون أمامها حتى أبريم ، ثم يقودونها حتى قرية دراو ، حيث تتخذ طريقها بعد أن تترك الصحراء إلى وادى مصر .

ويحصل العبابدة فى مقابل هذه الحماية التى يخلعونها على قوافل سنار٣سكين زر محبوب عن كل رأس عبد ، وسكينا ونصف سكين عن كل جمل ، محملا كان أو غير محمل .

ونستنتج من مسار لقافلة سنار قام بنشره المسيو لابانوز Lapanouse فى الجزء الرابع من مقالات عن مصر Memoires sur l 'Egypte (١) أنه يلزم للتوجه من سنار إلى أبريم ١٨ يوما وه١٥ يوماً للذهاب من أبريم إلى دراو .

وعند مرور قافلة سنار بالأرض التى تشغلها القبيلة العربية « العبابدة » فإنها تعطى هدية إلى كل واحد من عربان هذه القبيلة عبارة عن مكيال صغير من البلح أو من دقيق الذرة .

---

(١) قام بطبعها فى العام الحادى عشر P. Didot,

وعند وصولها إلى إسنا تدفع إلى الجمرك الذى تحصل الحكومة عوائده : ٤ زر محبوب عن كل رأس عبد و ٢ زر محبوب عن كل جمل فيما عدا الجمال المحملة بريش النعام وسن الفيل إذ تدفع القافلة عن كل واحد من هذه الجمال رسما غير اعتيادى يبلغ ½ ٥ زر محبوب .

وبعد أن تسدد القافلة فى إسنا كل هذه الرسوم المختلفة وبعد أن تبقى فى هذه المدينة للمدة التى تلزمها لكى تبيع جزءاً من جمالها فإنها تبحر عن طريق النيل مع بضائعها ، وما إن تبحر هذه البضائع حتى تصبح فى حراسة رئيسها وعشرين من أهم تجارها هم الذين يذهبون معها إلى القاهرة ، أما التجار والجمالة الآخرون فيتوقفون فى دراو أو إسنا فى انتظار عودة رفاقهم .

وعند مرور هؤلاء التجار (القافلة) بمنفلوط فإنهم يسددون عن كل رأس عبد من الخنسين رسم مرور يبلغ ٢٢ مدينى ثم يدفعون فى المنيا رسما يبلغ ١٢ مدينى فقط ، وأخيراً فإنهم يدفعون عند وصولهم إلى بولاق رسما مشابها يبلغ ١٠ مدينى .

وتعتبر قافلة سنار أقل أهمية من قافلة دارفور ، ومع ذلك فإنه تصل منها فى بعض الأحيان عدة قوافل على مدار العام . أما الأشياء التى توردها إلى مصر فهى على وجه التقريب نفس ما تجلبه إلى هناك قافلة دارفور : عبيد من الذكور والإناث (اماء) ؛ الصمغ العربى ، ريش النعام ، سن الفيل ، تراب الذهب ، الكرابيج ، القرب المصنوعة من جلد الثيران والجمال ، والشبة .

وقلما يتجاوز عدد العبيد المائة والخمسين ثلثاهم من النساء ، نجد من بينهم عادة ثمانية أو عشرة من الأحباش .

ويباع هؤلاء العبيد فى بلدة سنار على يد الجنود الذين أسروهم فى الحرب ، وليست للحروب التى يشنها ملك هذا البلد من غاية سوى الحصول على هذا النوع من الأسلاب . ويخصص نصف العبيد للملك أما النصف الآخر فهو من نصيب الجنود الذين قاموا بالحملة ، ويرسل الأولون إلى الجزيرة العربية ، أما الآخرون فيشتريهم تجار القافلة التى تذهب إلى مصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى أثناء الطريق تخفى القافلة عن الأنظار ما معها من عبيد أحباش ، ذلك أن هؤلاء على الرغم من لونهم الأسود فإنهم يتمتعون بالشعر الطويل والتقاطيع الأوربية .

والعبيد الذين تجلبهم قافلة سنار أعلى سعراً من أولئك الذين تجلبهم قافلة دارفور ، إذ يبلغ ثمن الواحد من أولئك ٦٠ زر محبوب .

ويشكل الصمغ العربى المادة الأكثر أهمية فى بضائع هذه القافلة ، وتقدر كمية الوارد منه حمولة ألف جمل، يبلغ وزن الحمولة الواحدة ثلاثة قناطير زنة القنطار ١٥٠ رطلا ، ويباع قنطار الصمغ بـ ٨ إلى ١٠ فندقلى . وهو يجمع من كل أنحاء البلاد ويخزن فى المدن حتى تحين لحظة رحيل القافلة .

وتجلب القافلة إلى مصر كذلك ٨ إلى ١٠ قناطير من ريش النعام (والريش الأبيض كما سبق القول هو الأعلى سعراً والأكثر تقديراً ، ويباع فى القاهرة بنفس الأسعار التى تبيعه بها قافلة دارفور) ؛

وكذلك حمولتين أو ثلاث حمولات من الكرابيج (تحتوى الحمولة الواحدة على ٥٠٠ كرباج ويباع الكرباج الواحد بـ ٦٠ – ١٠٠مدينى) ؛

وكذلك ١٥ – ٢٠ حمولة جمل من سن الفيل ، تزن الحمولة ثلاثة قناطير زنة القنطار ١١٠ رطل (ويبلغ ثمن القنطار حوالى ٦٠ فندقلى) ؛

وتجمع الكمية القليلة من تراب الذهب التى تدخل إلى مصر عن طريق قافلة سنار بعد نوبات الأمطار الكبرى فى مجرى الأخوار . ويباع فى حالته الطبيعية أى فى شكل شذرات وحبيبات أو فى هيئة سبائك صغيرة مستديرة بعد صهره ، وتتداول هذه السبائك فى التجارة كالنقود ، ويبلغ سعر الأوقية المصرية منه فى أسواق القاهرة ٩ سكين بندقى .

وكما تفعل قافلة دارفور فإن قافلة سنار تترك على الدوام فى مصر جزءاً من الجمال التى تصحبها معها إلى هناك ، ويبلغ سعر الجمل من جمال هذه القافلة ١٥ – ٣٦ زر محبوب ؛ كما تترك هناك أيضاً حوالى مائة زوج من القرب المصنوعة من جلد الثيران أو الجمال ، بسعر الزوج منها ٧ بوطاقات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأخيراً فإن بعض التجار يجلبون معهم بقصد البيع الثوم القصبى (بقول تشبه البصل فى الطعم والشكل) وعدداً من إناث الببغاء ، ويتم ذلك بكميات قليلة لا تكفى لكى نعدها ببساطة بين الواردات التى نحن بصدد الحديث عنها ، ولم نتناولها نحن إلا بدافع من الفضول .

الصادرات

تحمل قافلة سنار معها فى مقابل البضائع التى بيناها السمبال أو اللاوندة والصابون والمحلب [1] والقرنفل ، والأقمشة القطنية المصبوغة باللون الأحمر، ونوعا آخر من القطن المصنع فى القاهرة ، وسلفور الرصاص ، وحليا زجاجية واردة من البندقية ، ومرايا صغيرة ، وخشب الصندل ، والمسك ، والملابس المصنوعة من الجوخ ..الخ .

وإليكم تفصيلا وافياً لهذه الصادرات :

حوالى حمولة ثمانين جملا من اللاوندة تساوى فى مجموعها ٦٠٠٠ بوطاقة ؛

ونفس الكمية من المحلب وبنفس الثمن تقريباً ؛

مائة حمولة جمل من الصابون ، وزن الحمولة ٥ قناطير ، زنة القنطار ١١٥ رطلا ويساوى ٢٠ بوطاقة ؛

١٠ أو ١٢ قنطاراً من القرنفل زنة القنطار ١١٠ أرطال ، وثمن الرطل ٣٠٠ بارة

ثلاثون بالة من قماش القطن المصبوغ باللون الأحمر ، تحتوى الواحدة على ٢٠ قطعة من القماش وتساوى ١٢ زر محبوب ؛

ألفا قطعة من قماش القطن المصنع فى القاهرة يبلغ ثمن القطعة ١٢٠ بوطاقة ؛

٥٠ أو ٦٠ قنطاراً من سلفور الرصاص (زنة القنطار ١١٠ أرطال وثمنه من ٦ إلى ٧ بوطاقات) ؛

---

(١) نوع من الكرير البحرى Prumus mahaleb Lin . انظر مقالة عن العقاقير ، الدولة الحديثة ، المجلد ١١ ص ٤٤٢ (الطبعة الثانية) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حوالى مائة قنطار من الحلى الزجاجية صناعة البندقية (زنة القنطار ١٠٥ أرطال ويشترى من القاهرة بثمن ١٠ – ١٢ رر محبوب ، وتشتمل هذه البضاعة على حبات من الزجاج الأبيض والأصفر والأزرق والأحمر والأخضر وهى الألوان التى تفضل بشكل أساسى) ؛

١٠ حمولات جمل من المرايا الصغيرة ذات الأيدى ، تشكل فى مجموعها ثلاثة آلاف حزمة ، تضم الحزمة الواحدة ست مرايا (ويبلغ ثمن الحزمة ٨٠ بارة) ؛

قنطاران من خشب الصندل وخمسون رطلا من المسك ؛

وأخيراً مائة بنيش من الجوخ من ألوان مختلفة ، ويبلغ ثمن الذراع من الجوخ ٥ بوطاقات مما يجعل تكلفة البنيش الواحد تبلغ ٣٠ – ٤٠ بوطاقة من ذات الـ ٩٠ مدينى .

وينبغى أن نضيف إلى هذه الأجواخ الصوفية مائة قطعة من القماش الحريرى الخفيف وارد القسطنطينية ، ويبلغ ثمن القطعة الواحدة ١٠ – ١٢ بوطاقة .

ومن هذا نتبين أن كل الأشياء التى تصدرها مصر عن طريق قافلة سنار ، فيما عدا بعض الأقمشة القطنية ، إنما هى من منتجات الهند أو من البضائع الأوربية . وتشحن البضائع فى النيل من بولاق وتتجه جنوباً حتى دراو ، ومن هناك تحمل فوق الجمال التى تركتها القافلة وديعة عند عربان العبابدة عند وصولها إلى مصر ، حتى تستعيدها عند مغادرتها لها . ولذلك فقلما يتجاوز عدد الجمال التى تعود معهم العدد الإجمالى للجمال التى سبق أن صحبوها معهم .

وتدفع قافلة سنار عند مرورها من أرض عرب البشارية التى تضطر القافلة لاجتيازها أثناء عودتها ، قطعتين من القماش عن كل رأس جمل وتسدد نفس الرسوم عند عبورها أبريم ، وعند وصولها إلى سنار فإنها تعبر عن ولائها ومحبتها لملك هذا البلد بتقديم طاقم كامل من الملابس إليه .

٣ – قافلة فزان

تقع بلدة فزان فى أعماق بلاد البربر (المغرب) على مسيرة عشرين يوماً من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طرابلس وأربعين يوماً من القاهرة . وتخضع هذه المدينة لولاية طرابلس التى ترسل إليها حاكما لتحصيل الضرائب من هناك ، وتسدد هذه الضرائب عيناً وتشتمل على القمح والشعير ، وتشكل حوالى ١/٣ من إنتاج الأراضى .

ويحصل الحاكم بالإضافة إلى ذلك ضريبة عن أشجار النخيل عن إنتاجها من البلح . ويسكن شعب فزان فى حوالى ١٢ قرية تبعد كل واحدة منها عن الأخرى بمسيرة نصف يوم على الأقل أو مسيرة ثلاثة أيام على الأكثر . وتفصل هذه القرى عن بعضها البعض مساحات صحراوية . والأمطار هناك نادرة مما يضطر الناس لزراعة الأرض باللجوء إلى الرى الصناعى عن طريق رفع مياه الآبار بواسطة الدلاء (دلو) .

ولعرب هذه المنطقة طباع مسالمة ، وهم يرعون الماعز والجمال والحمير وليست لديهم لا خراف ولا خيول .

وكان شيخ قافلة فزان الذى جاء إلى القاهرة فى شهر يولية سنة ١٨٠٠ والذى حصلت منه على هذه التفاصيل ، قد أحضر معه ٢٥ جملا ، وكان بصحبته سبعة أو ثمانية تجار مثله ومعهم نفس العدد من الجمالة . ويسافر هؤلاء العربان غير حاملين سلاحاً وليس عليهم أن يخشوا من أن ينهبوا إلا عند اقترابهم من مصر ، أى عندما لا يكونون على مبعدة منها إلا بمسيرة أربعة أو خمسة أيام .

أما ما سبق من الطريق فيخلو من المخاطر بشكل تام ؛ ويجد هؤلاء فى طريقهم المياه كل يوم ، أو على الأقل مرة كل يومين ، وفى كل مكان توجد به مياه توجد أيضاً أشجار نخيل ، وحيث أن عربان هذه الصحراوات يأتون إلى هناك ليجنوا ثمار هذه الأشجار فى موسم نضجها فإن هذا الموسم من العام هو الوقت الأقل أماناً بالنسبة لهم . وتبلغ المسافة بين درنة وسيوة مسيرة ثلاثة أيام على هذا الطريق .

وتجلب قافلة فزان إلى مصر البلح المكبوس (العجوة) ، وكذلك قبعات أو طواقى من الصوف الأحمر تسمى طرابيش ، ومعاطف أو ملابس من الصوف الأبيض تسمى برنس ، وأغطية من نفس القماش . وهى تجلب هذه الأشياء المختلفة فيما عدا البلح من طرابلس . ومن بين الخمسة والعشرين جملا التى كانت مع التجار الذين

قابلت شيخهم ، كانت هناك ستة جمال محملة بالبضائع ، و ١٠ - ١٢ محملة بالبلح ، أما الجمال الأخرى فكانت تستخدم فى حمل المؤن وهى عبارة عن الدقيق والمياة ؛ وفى طريقها تجد القافلة فى كل مكان الخشب اللازم لطهو الأطعمة .

أما القافلتان اللتان سبقتا هذه التى انتهينا من تناولها هنا بالحديث فقد تعرضتا للسلب على يد عربان أولاد على الذين يسكنون حواف ولاية البحيرة (١) .

ويحمل عرب فزان معهم إلى بلادهم من مصر ، أقمشة كتانية وقليلا من الأرز ، ويحملون من طرابلس الحديد وبقية البضائع الأخرى التى يحتاجون إليها .

ونرى مما سبق أن عرضناه عن قلة اتساع بلاد فزان وعن قحولتها أن من طبيعة الأمور أن تكون علاقاتها التجارية مع مصر على نطاق ضيق ؛ وليس من النادر أن تكون القوافل الصغيرة التى تأتى من هناك مكونة من حجاج ذاهبين إلى مكة ، ويريدون عن طريق بعض مكاسب بسيطة تعود عليهم من تجارتهم أن يعوضوا المصروفات التى ينفقونها .

٤ - عن تجارة مصر مع دول البربر

الواردات

تتم تجارة مصر مع الساحل الشمالى لأفريقيا إما بواسطة القوافل التى تذهب إلى مكة وإما عن طريق السفن التى تأتى مباشرة من نقاط متفرقة على هذا الساحل أو من بعض الموانى الأوربية الواقعة على البحر المتوسط .

ويأتى من بلاد البربر ، وبخاصة من تونس : زيت الزيتون ، الطرابيش ، الشيلان الصوفية البيضاء ، النعال المصنوعة من جلد السختيان الأصفر ، معاطف مزودة بغطاء للرأس تسمى : برنس ، أغطية من الصوف ، العسل ، الزبد ، والشمع .

---

(١) تعرف من بلاد فزان فى أواسط أفريقيا مدينة تمكتو . وفى بعض الأحيان يمر بمصر بعض أبناء هذه المدينة الذين يعتنقون الإسلام وهم فى طريقهم إلى مكة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتستقبل الإسكندرية من فاس وسوز بواسطة السفن الأوربية التى تقوم بعمليات النقل البحرى من ميناء لآخر من موانى الشرق : الزيت والطرابيش ، ويبلغ عدد السفن التى تجلب هذه السلع فى السنوات العادية من سبع إلى ثمانى سفن . وينقل زيت البربر فى جرار كبيرة من الفخار ، تميل إلى اللون الأبيض من الخارج ومطلية من الداخل بطبقة من أكسيد الرصاص . ويبلغ عدد الجرار التى تزن الواحدة منها فى حالة امتلائها من ٤ إلى ٥٠٠ رطل وقد ترتفع من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ وفى العادة ، يبلغ ثمن قنطار الزيت زنة ١٥٠ رطلا من ١٥ إلى ٢٠ بوطاقة .

ويصل سنوياً عن نفس الطريق :

٣٠٠ صندوق من الطرابيش ، يحتوى كل صندوق على ٥٠ — ١٠٠ دستة ، ويتراوح ثمن الدستة من ١٠ إلى ٢٥ بوطاقة حسب النوع ؛

٣٠ — ٤٠ بالة من الشيلان الصوفية البيضاء للعمامة وتضم كل بالة من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ قطعة ، متوسط ثمن القطعة ٢ بوطاقة ؛

حوالى ثلاثين ألف زوج من النعال المغربية الصفراء المصنوعة فى مراكش وطرابلس وتونس .. الخ ؛

٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ برنس أو معطف أبيض ، بعضها من الصوف وبعضها من الحرير (وتصنع الأولى فى تونس ويباع الواحد منها بـ ٣ إلى ١٠ بوطاقات ؛ ويصنع النوع الآخر فى مدينة الجزائر ويتراوح ثمن الواحد من ٢٠ إلى ١٠٠ بوطاقة) ؛

حوالى ستة آلاف من الأغطية الكبيرة أو قطع من الأقمشة الصوفية البيضاء تسمى الواحدة منها : حرام ، ويمكن أن نعد من هذه الكمية ألفين من نوع راق ثمن الواحدة منها ٢٠ بوطاقة ، وأربعة آلاف من نوع ردىء تباع الواحدة منها بـ ٥ — ١٥ بوطاقة ؛

ثلاثة إلى أربعة آلاف أقة من الشمع تجهزه مدن : تونس ، الجزائر ، طرابلس ، ويتراوح ثمن الأقة من ١٠٠ إلى ٢٠٠ مدينى ؛

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خمسة إلى ستة آلاف من القرب أو الحقائب الجلدية المليئة بالعسل ، وتحتوى الواحدة على ٤٠ – ٥٠ أقة ويبلغ ثمن القربة الواحدة ٢٥ بارة ؛

وأخيراً ألف جرة من الزبد تزن الواحدة ٣٠٠ – ٣٥٠ رطلا ، ويبلغ ثمن القنطار زنة ١٠٠ رطل ، ألف بارة .

وهذه السلع الأخيرة ، أى الشمع والعسل والزبد ، والتى يمكن أن تتحول إلى سائل بفعل حرارة الشمس إذا ما نقلت براً من خلال الصحراء ، تأتى إلى مصر عن طريق البحر ، وعن هذا الطريق أيضاً تأتى زيوت بلاد البربر ؛ وهذه تأتى فى شحنات مجانية باعتبارها من أمتعة الحجاج الداهبين إلى مكة .

أما أولئك الحجاج الذين يسافرون عن طريق البر فى قوافل فيحلبون معهم سلعاً خافة وأقل إرباكا مثل البرانس والطرابيش والأغطية الصوفية ..إلخ .

وتعفى كل السلع التى يعترف بأنها تابعة لحجاج مكة من كل رسم عند دخولها إلى مصر ولا تخضع لأى تفتيش جمركى .

وترسل مدينة درنة إلى مصر عن طريق الحجاج كذلك الزبد والعسل وبعض الفاكهة .

وتسمح العلاقات التجارية التى ينظمها الحج بصفة منتظمة بين دول البربر وبين مصر ، لتجار هذه البلاد أن يتعاملوا فيما بينهم فى بيع سلعهم سواء بالنقد أو بالأجل لمدة عام ، وفى الحالة الأولى يتراوح سعر الخصم من ٧ – ١٢ فى المائة .

الصادرات

تعتبر صادرات مصر إلى الدول البربرية أكثر أهمية بكثير من الواردات التى انتهينا من بيانها . أما المدن الرئيسية التى تستورد البضائع من الاسكندرية والقاهرة فهى كما سبق لنا القول : تونس ، الجزائر ، طرابلس ، فاس ، مراكش وتطوان التى تقع تجاه جبل طارق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتنقل القافلة إلى تونس بصفة أساسية أقمشة الكتان من صنع سيوط ومنفلوط وأبو تيج والقاهرة . وتصدر إليها إيضاً أقمشة من القطن من إنتاج مصانع المدينة الأخيرة وكذلك الفلفل ، والبن ، وورود الزهر الجافة ، وحبة النيلة ، وملح النوشادر ، وخشب المر ، والقرفة ، ومواد العطارة الأخرى .

وترحل كل عام من الاسكندرية إلى تونس ١٠ إلى ١٢ سفينة يحمل على ظهر كل منها ٥٠ – ٢٠٠ بالة من أقمشة الكتان أو القطن ، وتحتوى كل بالة على ٣٠٠ – ٤٠٠ قطعة ، سعر الواحدة ٦٠ – ٢٠٠ بارة .

وتحصل مدينة تونس على احتياجاتها من الفلفل بشكل أساسى من ليفورنيو ، ولا يحدث أن تصدر إليها الاسكندرية هذه السلعة إلا عندما لا يكون فى الإمكان التزود بها من هناك .

ويصدر كل عام من هذا الميناء (الاسكندرية) إلى تونس :

٢٠ – ٥٠ فرداً (بالة تزن ١٨٠ ك ج) من البن ؛

٢٠ – ٣٠ بالة من ورود الزهر **الجافة** تزن البالة الواحدة من ثلاثمائة إلى أربعمائة رطل ، يباع القنطار زنة ١٠٠ رطل فى مقابل ٢٠ فندقلى ؛

٢٠٠ مكيال من حبوب النيلة ، يساوى المكيال الواحد ٤/٢٤ من الأردب ، ويباع فى مصر مقابل ١٠ بوطاقات ؛

١٠ – ١٢ صندوقاً من ملح النوشادر ، يزن الصندوق الواحد قنطارين ، زنة القنطار ٢٠٤ أرطال ؛

وأخيراً يرسل من الاسكندرية إلى تونس البخور من أجود الأنواع ، ويبلغ ما يرسل عن هذا الطريق ٢٠ قفصاً أو سلة كبيرة ، تزن الواحدة ٥ قناطير ، ويبلغ ثمن القنطار زنة ١٥٠ رطلا من ٢٥ إلى ٣٠ بوطاقة ذهبية ؛

وعندما لا يصدر الهولنديون القرفة بشكل مباشر إلى دول البربر فإن هذه البلاد تقوم باستيرادها من مصر ، ولكن قلما تتجاوز الكمية المصدرة فى هذه الحالة ٤ إلى ٥ صناديق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما طيب الزباد فسلعة قليلة الأهمية ، وقلما يتجاوز الصادر منها مائة أوقية فى العام ، ثمن الأوقية الواحدة ٥ – ٦ بوطاقات .

وتعد الجزائر المدينة الثانية بعد تونس التى تستورد من مصر أكبر كمية من البضائع . وترسل مصر إلى هناك أقمشة كتانية من صنع سيوط ومنفلوط ، وأقمشة قطنية من صنع القاهرة ، وأقمشة حريرية يطلق عليها اسم قطنى ، وأقمشة الألاجة القطنية وارد دمشق ونابلس ، والحرير وارد بيروت ، والكتان الشعر والمغزول والبن ، وكمية ضئيلة من الفلفل ، وملح النوشادر ، والسكر ، والحور ، وطيب الزباد ، وصمغ الصنوبر ، ولبان جاوة (البخور الحاوى) اللذين يستخدمان كعطور عن طريق احتراقهما . ويورد الهولنديون إلى هناك مباشرة مواد التوابل .

وتشغل هذه التجارة سنوياً ثلاث أو أربع سفن ، هى التى يتوجه عليها إلى الاسكندرية حجاج الجزائر الذاهبين إلى مكة ، وهذه البواخر هى من بين تلك التى تقوم بقافلة اسكليهات (موانى) الشرق ، وهى تتبع على الدوام بعض الدول الأوربية . ويرسل فى السنوات العادية على ظهر هذه البواخر حوالى ٣٠٠ إلى ٤٠٠ بالة من الأقمشة الكتانية والقطنية تماثل تلك التى ترسل إلى تونس والتى بينا للتو مقاديرها وإليكم بياناً بما يصدر منها إلى الجزائر :

٣٠٠ إلى ٥٠٠ قطعة من تلك الأقمشة الحريرية المصنوعة فى القاهرة والمسماة قطنى ، وتباع القطعة الواحدة بـ ٦ إلى ٧ بوطاقات ؛

٢٠ أو ٣٠ بالة من حراير بيروت من اللونين الأبيض والأصفر ، وإن كان الجزء الأكبر منها من اللون الأبيض ، ومتوسط ثمن البالة ٥٠٠ بوطاقة ؛

٤٠ – ٥٠ فرداً (بالة زنة ١٨٠ ك ج) من بن اليمن ؛

حوالى عشرين بالة من غزل الكتان ، تزن البالة من ٥ إلى ٦ قناطير وتبلغ زنة القنطار من هذه السلعة ٣٠ أقة ، ثمن الأقة من ٣٠ – ٥٠ بارة ؛

٢٠ قنطاراً من ملح النوشادر ؛ ٤ أو ٥ أقفاص من البخور ؛ كمية قليلة من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السكر لا تستحق أن ندخلها فى الاعتبار ، إذ أن السكر الذى تستهلكه مدينة الجزائر يكاد يأتى كله عن طريق التجارة مع أوربا ؛

١٠ – ١٥ قنطاراً من البخور الجاوى ، زنة القنطار ١١٢ ½ رطلا ، ويتراوح سعر القنطار من ٦٠ إلى ١٢٠ بوطاقة .

وتصل كل عام من طرابلس إلى الاسكندرية باخرتان أو ثلاث بواخر تحمل الحجاج وما يصحبونه معهم من بضائع . ويأخد هؤلاء الحجاج عند عودتهم أقمشة كتانية وقطنية من صنع مصر ، بالإضافة إلى المنتجات الهندية التى يشترونها أثناء رحلتهم . وهؤلاء الحجاج ليسوا سوى أفراد عاديين لا يحترفون التجارة ، ولكنهم يريدون أن يحصلوا عن طريق الأرباح التى يحققونها من تبادل سلعهم بمنتجات مصر والهند على تعويض عن مصاريف الحج إلى مكة .

ويتوجه مسلمو تونس والجزائر وطرابلس الذين يؤدون الحج إلى مصر عن طريق البحر كما سبق لنا القول ويمرون عادة بليفورنيو ، ويعودون إلى بلادهم من نفس الطريق ، أما حجاج مراكش وفاس فإنهم يتجمعون فى قافلة كبيرة العدد ، تعبر الصحراء حتى الاسكندرية ، ويحملون معهم عند عودتهم من ٣٠٠ إلى ٦٠٠ بالة من الحرير السورى ثمن البالة الواحدة ٥٠٠ بوطاقة ، وأقمشة قطنية مصبوغة باللون الأحمر ، وخيوط غزل من نفس اللون بكميات كبيرة للنوعين تكفى لحمولة ٥٠٠ إلى ٦٠٠ جمل ، وتزن حمولة الجمل خمسة قناطير زنة القنطار ١٠٠ رطل ، ويحتوى القنطار عادة على ٩٠ إلى ١٠٠ قطعة من القماش ، يتراوح سعر القطعة منه بين ٦٠ إلى ١٠٠ بارة ؛ .

ويحمل هؤلاء معهم بخلاف ذلك حوالى مائة جمل محملة بالأقمشة القطنية السورية وأقمشة الألاجة والقطنى ، ويمكن على وجه العموم أن نقدر ثمن كل حمولة جمل بـ ٥٠٠ إلى ٦٠٠ بوطاقة ؛

وبإمكاننا كذلك أن نقدر بـ ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ بوطاقة قيمة البخور الجاوى والمسك وطيب الزباد التى تجلبها قوافل فاس ومراكش من مصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث
علاقات مصر التجارية مع آسيا

قل أن تكون للمصريين المحدثين علاقات تجارية مع آسيا إلا عن طريق القوافل التى تذهب إلى مكة والتى تعود منها ، وهذا هو السبب فى أن هذه العلاقات قد انحصرت فى هذه المبادلات التى تقوم مباشرة بين البلدين المتاخمين لمصر وهما سوريا وبلاد العرب . وإذا كانت بعض أشياء هذه التجارة تنقل عن طريق البحر فإن سفناً أوربية هى التى تقوم عادة بهذا النقل فى البحر المتوسط كما أن سفناً عربية هى التى تقوم بذلك فى البحر الأحمر .

١ – التجارة مع سوريا
الواردات

توفر سوريا لمصر ، بالإضافة إلى بعض المنتجات من أرضها وصناعة سكانها ، بضائع مختلفة واردة من الهند ، تأتى إلى دمشق عن طريق بغداد والبصرة أو تجلبها إليها قافلة مكة .

وترسل مدن يافا وغزة ونابلس وعكا والقدس إلى مصر: الصابون، وزيت الزيتون ، والقطن الوبر ، وبذور النيلة ، والسمسم ، والأقمشة القطنية من نابلس ، والعفصة وكمية قليلة من الشمع .

ويشحن جزء من هذه السلع بحرا فى موانىء يافا وعكا وتأتى إلى دمياط ، وينقل جزء آخر صغير عن طريق قوافل صغيرة من عربان القبائل المجاورة للقاهرة والعريش .

ويستورد فى السنوات العادية عن طريق هذه السبل المختلفة من ١٠٠٠ إلى ١٢٠٠ صندوق من الصابون ، يزن كل واحد منها من ٧٠٠ إلى ٨٠٠ رطل زنة الرطل ١٤٤ درهما ، ويحسب كل ١١ ½ رطلا بـ ١٠ أرطال فقط كفرق وزن (طبة الميزان) ويساوى الصابون فى سوريا ٩٥ مدينى للرطل . لكن هذا الرطل يبلغ ستة أمثال من زنة الرطل بالقاهرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وينقل زيت الزيتون فى جرار فخارية كبيرة تحتوى كل واحدة على $\frac{١}{٢}$ ٣ قناطير أو أربعة قناطير ، زنة القنطار مائة رطل . ويصل الاستهلاك السنوى من هذه المادة الغذائية إلى ثلاثمائة جرة . ويبلغ ثمن الرطل من هذا الزيت فى أسواق القاهرة ١٠ — ١٢ مدينى .

وتتراوح كمية القطن الذى تستورده مصر من سوريا بحسب ما تنتجه مصر منه ، فعندما لا يغل المحصول إنتاجاً كافيا فى مصر فى سنة ما ، فإن الإستيراد يرتفع إلى ألفين أو ثلاثة آلاف بالة ، تزن البالة $\frac{١}{٢}$ ٣ قناطير ، زنة القنطار ١٢٥ رطلا . ويباع قنطار القطن فى عكا بـ ١٤٠ — ٢٠٠ قرش ، يساوى القرش الواحد ٤٠ مدينى ، وهذا القرش هو وحدة نقدية يستخدم عادة فى تسوية الحسابات فى المعاملات التجارية التى تقوم بين مصر وسوريا ، وتساوى زنة قنطار عكا أربعة أمثال من زنة قنطار القاهرة .

ويباع مكيال حبوب النيلة الذى يبلغ $\frac{٤}{٢٤}$ من الأردب بمتوسط سعر قدره ثمانى بوطاقات . وتنتج ضواحى نابلس أجود أصناف هذه الصبغة التى يشتد الطلب عليها ، ويرد منها إلى مصر فى السنة الاعتيادية حوالى ٦٠٠ أردب من سوريا ، وهو الأردب الذى يساوى بالنسبة إلى مكيال القاهرة ما نسبته ١٣ : ١٢ . وفوق ذلك فإن هذه البذور تتراوح كميتها بحسب الطلبات التى تتم عليها .

ويجلب من سوريا أيضاً بذور السمسم ، وتصل منها سنوياً ألفا قفة سعة كل منها $\frac{١}{٢}$ أردب ، ويباع هذا المكيال فى القاهرة بحوالى ٤ بوطاقات .

ويسمى قماش القطن الذى يصنع فى نابلس باسم أتكى (أو عاتكى) ، ويستورد منه سنوياً حوالى ٦٠٠ بالة ، تحتوى الواحدة منها على ٩٠ — ١٠٠ قطعة ، طول القطعة ١٨ ذراعا ويبلغ ثمنها ١٨٠ مدينى .

أما العفصة من إنتاج حلب والتى تستخدم فى مصر فى الصباغة باللون الأسود فتمثل صادرا بالغ الأهمية ، يصل منه سنويا حوالى مائة حقيبة (صندوق) تزن الواحدة من ٣ إلى ٤ قناطير زنة القنطار ١٣٠ رطلا .

أما شمع فلسطين فلا يورد منه إلى مصر إلا كميات بالغة الضآلة كما سبق أن قلنا فى مناسبة سابقة .

وتقوم بين مدينة دمشق ومصر تجارة خاصة : فيجلب من هناك أقمشة حريرية من النوع المسمى : قطنى من إنتاج مصانع هذه المدينة ؛ ويجلب منها كذلك أقمشة من الحرير والقطن من صنفين : الأول يسمى ألاجة شامى ؛ والثانى ويسمى ألاجة هندى ؛ وكذلك أقمشة من القطن تسمى أتكى (أو عاتكى) شامى ؛ ثم المشمش المجفف ؛ وعجين المشمش المسمى قمر الدين ؛ وأخيرا صبغة حمراء تسمى فوه شامية .

وبالإضافة إلى ذلك فإنه تأتى عن طريق دمشق شيلان من الكشمير من خمسة أصناف مختلفة يطلق عليها نفس العدد من التسميات ، كما يصل الموسلين الهندى (وارد الهند) ؛ وأقمشة من القطن أكثر خشونة تأتى من نفس البلاد (الهند) ؛ وعقار (عقاقير) يسمى مغات ؛ وشيلان من الصوف ، والحرير الفارسى ، والفضة واللآلئ . وهذه السلع المختلفة تأتى إلى دمشق من بغداد عن طريق القوافل التى تصل إلى هناك ثلاث أو أربع مرات فى العام ، ويبلغ عدد جمال كل قافلة ألفين أو ثلاثة آلاف من الجمال ؛ ولكن ينبغى أن نلاحظ أن كمية ضئيلة جداً من البضائع التى تحملها هذه القوافل تخصص لمصر إذ تستهلك كلها على وجه التقريب فى الأجزاء الأخرى من الامبراطورية العثمانية .

ويبلغ الوارد السنوى من الأقمشة الحريرية المسماة قطنى عشرة آلاف قطعة يتراوح ثمن القطعة فى دمشق ، تبعاً لصنفها ، ما بين ١٥ و ٢٠ قرشاً تركياً يساوى القرش الواحد ٤٠ مدينى .

وزيادة على ذلك يأتى من دمشق مباشرة من ١٥ إلى ٢٠ ألف قطعة من الألاجة ثمن القطعة الواحدة ٩ — ١٥ قرشا ، وتستهلك مصر حوالى ألف بالة من صنف القماش المسمى أتكى (عاتكى) شامى وتحتوى كل واحدة من هذه البالات على ٥٥ قطعة طول الواحدة ٢٤ ذراعا وعرضها ذراع وربع ذراع ؛ ويبلغ ثمن القطعة من سبعة إلى تسعة قروش .

ويصل كل عام من دمشق ٥٠٠ صندوق من المشمش الجاف ، يزن كل صندوق ½ ٢ قنطار ، زنة القنطار ١٠٠ رطل وتباع بسعر ٣٠ - ٣٥ قرشا للقنطار السورى الذى يساوى ١٨٠ أقة .

وعادة ما تبلغ كمية قمر الدين ، أو عجينة المشمش المستورد من سوريا ٥٠٠ أو ٦٠٠ صندوق زنة الصندوق ١٥٠ رطلا والسعر المعتاد للرطل الواحد ثلاث بارات .

ويرسل ايضا من دمشق إلى مصر نوع من الأقمشة من الحرير الأحمر والأسود الزاهى للغاية ، وتصنع النساء منه قمصاناً وأقنعة ، ويسمى كريشة ويصل منه فى العام حوالى ٢٠ صندوقا يمكن أن تحتوى على ألف قطعة ، ويبلغ ثمن القطعة من ١٨ إلى ٢٠ قرشا . وتصدر هذه السلعة عادة من بيروت إلى دمياط .

وبخلاف الأقمشة الحريرية الأخرى التى انتهينا من بيانها ، يصدر كذلك إلى مصر عن طريق موانىء اللاذقية وبيروت وطرابلس وصور وصيدا كمية محددة من الحرير على هيئة لفات . وتشترى هذه السلعة بالوزن فى كل سوريا ، ووحدة الوزن المستخدمة فى تجارة هذا الصنف والتى تسمى الرطل تساوى ٢٢٩ درهما من وزن القاهرة .

وحرير اللاذقية أبيض اللون ويساوى الرطل منه ٣ ــ ٤ بوطاقات ، ويصل منه سنويا مائتا (٢٠٠) بالة صغيرة تزن الواحدة ١٣٥ رطلا .

وغالبا مايكون حرير بيروت أصفر اللون ويباع فى المتوسط بـ ٦ بوطاقات للرطل وهو كما نرى أكثر جودة من حرير اللاذقية ؛ ذو الدرجة متوسطة الصنع فى دمياط و المحلة الكبيرة والقاهرة . ويقدر مايستورد منه سنويا بألفى بالة زنة ١٣٥ رطلاً .

ويصدر من طرابلس فى سوريا إلى مصر من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ بالة صغيرة من الحرير ، زنة البالة الواحدة منها ١٣٥ رطلا ، ويستعمل هذا الحرير فى مدن مصر التى أشرنا إليها للتو ، وهو أبيض اللون وله ثلاث مراتب ، يباع الصنف من المرتبة الأولى بـ ٥ بوطاقات للرطل ، ومن المرتبة الثانية بـ ٤ إلى ½ ٤ بوطاقات وأخيراً يباع الرطل من المرتبة الثالثة بـ ½ ٣ إلى ٤ بوطاقات .

ولا يصل من صور إلا ٤٠ أو ٥٠ بالة صغيرة من الحرير ، تزن الواحدة من ١٢٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى ١٢٤ رطلا ويباع الرطل بـ ٤ بوطاقات .

ويجلب من صيدا كذلك مائتان أو مائتان وخمسون بالة صغيرة من الحرير الأبيض بنفس زنة البالة من الحرير القادم من بيروت ، ويفضل حرير بيروت عادة على الحرير القادم من صيدا .

ويشكل تبغ اللاذقية سلعة استيراد بالغة الأهمية فى مصر ، ويقدر ما يصل منه إلى مصر كل عام أربعة آلاف بالة ، زنة كل منها حوالى ٤٠٠ رطل . ويباع تبغ اللاذقية فى القاهرة بـ ٦٠ إلى ١٨٠ بارة للأقة زنة ٤٠٠درهم . ويصل كذلك من صور ٤٠٠ أو ٥٠٠ بالة من التبغ تزن البالة الواحدة ½ ٤ قناطير ، ويساوى القنطار من هذا التبغ هناك بسعر شراء ، من ٧٠ إلى ٢٠٠ قرش ؛ ويجلب أخيراً من هذا الميناء ٥٠٠ أو ٦٠٠ قفة من التين المجفف ويبلغ ثمن القنطار من ٢٠ إلى ٤٠ قرشاً .

ولم يكن يصل عن طريق البر من هذه البضائع المختلفة سوى كميات ضئيلة فهى تشحن كلها على وجه التقريب من موانى بيروت وعكا وصيدا وصور فوق مراكب شحن يونانية أو تركية ، أو فوق مراكب أوزبية تقوم بقافلة الشرق .

وتبلغ مصاريف الشحن عادة ٥ قروش لكل حمولة تزن ½ ٢ قنطار من زنة القاهرة . وتتراوح أرباح التجار من مختلف أنواع السلع الواردة من سوريا من ١٠ إلى ٣٠ فى المائة ، وفى عهد حكومة المماليك ، كانت تجارة المنسوجات الحريرية هى التى تعود بأكبر الأرباح .

الصادرات

يسدد جزء من ثمن المأكولات والسلع المرسلة من سوريا إلى مصر عن طريق صادرات تشتمل بالدرجة الأولى على الأرز ، والقمح ، والعدس ، والحمص ، والكمون ، والزعفران ، والكتان وكل ما تنتجه زراعة البلاد ، وتصدر كذلك من مصر جلود السختيان الأحمر ، والبن ، وبذور النيلة وعقاقير من أنواع مختلفة ، والتمر هندى ، والسمسم ، وصدف الأحجار الكريمة ، وحبوب المسابح المصنوعة من نواة ثمرة الدوم ؛ والفلفل والزنجبيل والعبيد السود .. الخ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويتم إرسال الجزء الأكبر من هذه الصادرات عن طريق ميناء دمياط كما يتم تصدير بعضها كذلك عن طريق رشيد .

ويرسل فى السنة العادية عن طريق ميناء دمياط وحده ٣٠ ألف أردب من الأرز بسعر ٢٠ إلى ٢٢ بوطاقة للأردب .

ولا يرسل القمح من مصر إلى سوريا إلا فى حالة حدوث قحط فى البلد الأخير ، وإن كان يرسل فى العادة نحو ألف أردب من الفول ومن ألفين إلى ثلاثة آلاف أردب من العدس ومائة أردب من الكمون .

ويباع أردب الفول بـ ١٤٠ — ١٦٠ بارة ، وأردب العدس بـ ١٨٠ ، وتبلغ ثمن أردب الكمون عادة ٥ بوطاقات .

وتبلغ كمية ما يصدر إلى سوريا كل عام من الزعفران ٥٠٠ قنطار يتراوح ثمنها تبعاً للظروف من ٨ إلى ٢٠ بوطاقة للقنطار الواحد .

أما كمية ما يصدر من السنامكى فتبلغ أكثر من مائة بالة ثمن البالة الواحدة ١٨٠ بوطاقة .

ويصدر حوالى ٢٠٠٠ من الجلود بسعر يصل ٣ إلى ٦ بوطاقات للجلد الواحد تبعاً للنوع والجودة .

وتحصل سوريا من مصر سنوياً على حوالى ١٠٠٠ قنطار من السكر تخصص منها ١٠٠ قنطار فقط لاستهلاك دمشق ، إذ تحصل هذه المدينة من الهند عن طريق بغداد على بقية تموينها من السكر . ويساوى القنطار من سكر مصر درجة أولى ٢٥ بوطاقة ، أما السكر العادى فيساوى من ١٢ إلى ١٥ بوطاقة . ويتم التصدير عن طريق دمياط فى أقفاص يحتوى كل منها على ٣ قناطير زنة القنطار ١٠٥ أرطال ؛

كما يصدر حوالى ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ بالة من قماش الكتان من إنتاج مصانع القاهرة وضواحيها ، وتحتوى كل واحدة من هذه البالات على ١٠٠ إلى ٢٠٠ قطعة ويشتد الطلب على الأقمشة المصنوعة فى ميت غمر وبلبيس ، وتباع البالة بـ ٢٠٠ إلى ٣٠٠ بوطاقة ؛ وعادة ما تسرب الطرابيش تهريبا داخل هذه البالات من الأقمشة .

ويقل الطلب فى سوريا على الأقمشة الحريرية المصنوعة فى مصر ؛ أما الأقمشة التى ترسل إلى هناك من هذا النوع فتخصص لصناعة الأثاث وتأتى هذه من مصانع المحلة الكبيرة .

أما النيلة المستخدمة فى محلات الصباغة فى دمشق فتأتى من الهند ؛ أما تلك التى تستخدم فى بقية أنحاء سوريا فتأتى إلى هناك من مصر ، ويمكن أن يبلغ حجم الصادر من هذه المادة الصابغه فى العام ٥٠٠ قنطار ، زنة القنطار ٢٠٠ رطل ، ويبلغ ثمن القنطار من ٤٠ إلى ٤٥ بوطاقة . والنيلة المصرية التى يشتد الطلب عليها فى سوريا هى تلك التى ينتجها إقليم بلبيس .

ويبلغ التصدير السنوى من ملح النوشادر إلى دمشق ٣٠ قنطاراً ، أما ما يصدر إلى بقية المدن السورية فيبلغ ٧٠ قنطاراً ، ويزن القنطار من هذا الملح ٢٥٠ رطلا ، ويباع القنطار من الصنف الممتاز منه بـ ١٠٠ إلى ١٢٠ بوطاقة ، أما الصنف الردىء فيباع بـ ٨٠ إلى ٩٠ بوطاقة للقنطار .

ولا يذهب من مصر إلى سوريا إلا حوالى ١٠٠ قنطار من التمر هندى زنة القنطار ١١٠ رطل ، ويبلغ سعره من ١٥ إلى ٣٠ بوطاقة ؛ كما لا يرسل البن من مصر إلى سوريا إلا فى السنوات التى لا تجلب فيها قوافل دمشق وبغداد منه كمية تكفى استهلاك هذه البلاد .

ويبلغ إجمالى وزن الششم الذى يصدر إلى هناك ١٠ قناطير ، زنة القنطار ١١٠ رطل ويبلغ ثمنه ١٠ — ١٢ بوطاقة .

وتحصل سوريا من بغداد عادة على العقاقير الأخرى المستخدمة فى الصيدلة .

وتباع أصداف الزينة بالألف ؛ ويباع الألف من الحجم الكبير بـ ٥٠ بوطاقة ، ومن الحجم الصغير بـ ١٠ إلى ٣٠ بوطاقة . ويصدر سنوياً من ١٠٠ إلى ٢٠٠ ألف من هذه الأصداف التى تصنع بشكل خاص فى بيت المقدس وفى أماكن متفرقة من فلسطين ، حيث تعمل منها المسابح وأشياء أخرى من هذا القبيل يشتريها الحجاج من العالم المسيحى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وترسل من مصر إلى القدس كذلك حبة تسمى بذريات (؟) تستخدم فى نفس هذه المصنوعات . ويبلغ ما يصدر من هذه السلعة ٥٠٠ قنطار ، زنة القنطار ١٥٠ رطلا .

وتباع الأقة زنة ٤٠٠ درهم من هذه السلعة بـ ٢٠ إلى ٤٠ بارة .

ويباع الألف من نوى الدوم الذى يستخدم كذلك فى صنع المسابح بـ ٥ إلى ٧ بوطاقات ، وتقدر كمية الصادر السنوى منه بـ ٢٠٠ ألف .

وتأتى كل التوابل على وجه التقريب المستهلكه فى سوريا عن طريق البصرة وقلما يبلغ ما يصدر من مصر من هذه السلع فى العام الواحد مائتى بالة ، ويبلغ وزن الفلفل وحده ¼ هذه الكمية . ويساوى القنطار من هذه العطارة من ٦٠ إلى ٧٠ بوطاقة .

أما بخصوص العبيد السود من الجنسين والذين تجلبهم إلى مصر قوافل وسط أفريقيا فيرسل منهم إلى سوريا كل عام حوالى المائة ، لكن هذه الإرساليات لا تتم إلا بموجب طلبات خاصة .

ويتراوح المجرى المعتاد للربح عن السلع المصدرة من مصر إلى سوريا من ١٠ إلى ٣٠ فى المائة . وتحدد رسوم الخروج عن طريق ميناء دمياط بـ ٦٠ مدينى كسعر ثابت للقنطار من أية سلعة كانت . ومع ذلك فيستثنى من هذا الأقمشة التى يراد تشجيع تصديرها والتى يشملها اتفاق خاص ، وتسدد كل قطعة رسماً يبلغ فقط بارة ونصف البارة . وتدفع مصاريف شحن نهرى من القاهرة حتى دمياط للصندوق أو البالة الصغيرة زنة خمسة قناطير مقدارها ٢٠ إلى ٢٠٠ مدينى حسب نوع السلعة ، أما إذا اتبع الطريق البرى فإن أجر نقل نفس الوزن على ظهر الجمال يصل إلى ٨ — ١٠ بوطاقات .

وتقل أو تزيد مصاريف الشحن من دمياط إلى موانىء سوريا المختلفة بحسب وفرة أو قلة السفن التى تقوم بالنقل ، وتتراوح هذه المصاريف بين ٢٥٠ إلى ٤٠٠ مدينى لكل بالة بضائع زنتها ٥ قناطير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويتم كذلك نقل بعض البضائع من مصر إلى سوريا عن طريق ... لكن الأمر يختص هنا بتجارة التهريب .

وليس لتجار سوريا المقيمين فى مصر ، شأنهم فى ذلك شأن كل ... قناصل فى القاهرة . وعندما تثور بينهم خلافات حول موضوع تجارة ما فإنهم ... التوفيق فيما بينهم فى البداية عن طريق التحكيم ، فإذا تعذرت محاولات التوفيق ... تلجأ الأطراف المعنية إلى القضاء التركى الذى ينهى المنازعات على الفور .

وتسوى حالات الإفلاس – كما هو الحال فى أوربا – تبعاً لإرادة الدائنين ، وحسب إمكانيات المدين ، أو حسب كثرة أو قلة الثقة التى يوحى بها .

وكانت المظالم التى يتعرض لها التجار السوريون فى ظل حكومات المماليك تتمثل فى الحصول على سلع لا يسدد ثمنها على الإطلاق ، أو فى اقتراض أموال لا يبالون (أى المماليك المقترضون) بردها . كما كان يزج بهؤلاء التجار فى بعض الأحيان فى السجن ، لإرغامهم على شراء حريتهم بدفع مبلغ من المال يتفاوت مقداره للخروج من هذا السجن .

أما عن أنواع القطع المعدنية المستخدمة فى تسديد جزء من المبادلات التى انتهينا من بيان أهم أشيائها ، فإنه تذهب من مصر إلى سوريا قطع المدينى وسكين القاهرة (قطع نقد ذهبية قد تكون هى الزر محبوب) ، بينما تأتى من سوريا إلى مصر القروش الأسبانية وسكين القسطنطينية وسكين البندقية . وفى العادة ، وإن ما كانت تحصل عليه سوريا سنوياً من النقد أكبر قيمة بكثير مما كانت تدفعه ، إذ كان يدفع نقداً على الدوام ثمن كل الحرير الذى كان يأتى من هذه المنطقة لكى يصنع فى مصر .

وكان من الطبيعى أن تتوقف التجارة بين هذين البلدين فى أثناء احتلال الجيش الفرنسى لمصر ؛ وحينئذ كان التعامل يتم مع ملتزمى الصيد فى بحيرة المنزلة . وكانت السلع التى تخزن فى ميناء دمياط تنقل عبر هذه البحيرة إلى ... والطينة حيث كانت تأتى لتأخذها قوافل من العرب السوريين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكذلك كان ثمة عرب آخرون يقومون بمهمة نقل البضائع المودعة فى مدن القاهرة وبلبيس ورفتى وميت غمر إلى سوريا ، وكانوا يسلكون الطريق المعتادة للقوافل ، ويمرون بالصالحية ، إذ كانت رسوم البضائع التى يحملونها قد سددت ، أما أولئك العرب الذين كانوا يخاطرون بتمرير هذه البضائع بطريق التهريب فقد كانوا يبتعدون عن طريق الصالحية ويطوفون حول وادى السبعة أبيار .

وفى بعض الأحيان كان يشارك شيوخ هذه القوافل تجار من القاهرة أو من أية مدينة أخرى ، وفى هذه الحالة كان شيوخ القوافل هؤلاء يأتون ليأخذوا من هذه المحلات السلع التى تعهدوا بنقلها إلى سوريا ، ثم يعودون بعد ذلك ليخزنوا فى هذه المحلات السلع التى جلبوها عند عودتهم . وفى بعض الأحيان كان الشيوخ يمارسون التجارة لحسابهم الخاص ، وفى هذه الحالة كانوا يخزنون بضائعهم فى مخيماتهم حيث كان يأتى تجار المدن المصرية ليختاروا ويشتروا من هذه البضائع .

وفيما مضى لم يكن هؤلاء العربان يمارسون التجارة بأنفسهم مطلقاً ، ولم يكونوا ليأخذوا على عاتقهم سوى استخدام الجمال فى نقل البضائع خلال صحراواتهم الأمر الذى لم يكن يعود عليهم إلا بربح بالغ الضآلة ، ولكن عندما أغلق الطريق البحرى جهة دمياط فقد استوجب الأمر بحكم الضرورة اللجوء إلى هؤلاء ، وهكذا تحكموا فى أسعار الشحن ثم استخدموا جزءاً من الأرباح غير الاعتيادية التى هيأتها لهم هذه الظروف ، فى ممارسة التجارة لحسابهم الخاص مما سيؤدى إن عاجلا وإن آجلا إلى إحداث ثورة فى تقاليدهم .

وزيادة على ذلك ، ينبغى على الداوم الحذر الشديد فى اختيار هذا النوع من الشاحنين ، إذ يحدث فى بعض الأحيان أن يتعرض العربان الذين أوكل إليهم نقل بضائع ليست ملكا لهم للسلب فى الطريق على أيدى قبائل يدعون أنها معادية لهم ، ويكونون هم على تفاهم معها ، وبعد ذلك يقتسمون مع هؤلاء الأشياء التى سلبت .

٢ – تجارة مصر مع الجزيرة العربية والهند

الواردات

كان من الطبيعى أن تؤدى خصوبة مصر وقحولة الجزيرة العربية إلى قيام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علاقات تجارية واسعة للغاية بين هذين البلدين المتجاورين ؛ كذلك فإن مصر تبادل عن طريق الجزيرة العربية جزءاً هائلا من منتجات أرضها بالأقمشة والتوابل من الهند التى يذهب إليها التجار العرب للحصول على هذه السلع ويخزنونها فى موانيهم .

وتتم التجارة بين مصر والجزيرة العربية بحراً بواسطة سفن صغيرة تأتى من مينائى جدة وينبع لترسو فى مصر عند القصير أو السويس ، أو تتم براً بواسطة قوافل تعبر الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر .

ويقع ميناء القصير داخل خليج صغير مفتوح من جهة الجنوب الشرق ، وتقفله من الشمال صخرة تتجه نحو شرق الجنوب الشرق ، وتتوغل فى البحر لمسافة مائتين وستين متراً بدءاً من الشاطئ . وهذه الصخرة التى تبدو ذات سطح شبه مستو تنكشف فى حالة المد المنخفض ، وتنتهى بشكل رأسى فى داخل الميناء بالعرض حيث تمتد من الجنوب إلى الشمال موازية للساحل .

أما الشاطئ من جهة الجنوب ، فمحاط بالمثل بسلسلة من صخور الشاطئ تشكل منحنى ذا شكل بيضاوى يبلغ قطره حوالى ثلاثة أرباع الفرسخ .

وهذا الموقع يجعل ميناء القصير فى حمى من رياح الشمال والجنوب التى تهب بشكل شبه دائم على البحر الأحمر ، كما تحمى المرتفعات هذا الميناء من رياح الغرب التى تهب عليه بعرضه .

ويقع المرفأ عند قمة الصخرة الشمالية ، وقد وجدت أن عمق المرفأ هناك فى حالة المد المنخفض يبلغ ستة أذرع ، ويقل هذا العمق أكثر فأكثر مع الاقتراب من الساحل ، بحيث لا يعود يبلغ على بعد خمسين متراً من هذا الساحل أكثر من نصف ذراع .

وقاع هذا المرفأ من الرمل الناعم ومستو لحد كبير ، ولكن حيث أن السفن العربية تكون عادة سيئة التجهيز فقد يحدث فى بعض الأحيان أن تنقطع كابلاتها حين تهب رياح الشرق بعنف ، وهى الرياح الوحيدة التى لا يستطيع الميناء أن يكون فى منأى عنها ، ومع ذلك فهى نادراً ما تهب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا تستطيع السفن الاقتراب من المدينة لغيبة الأرصفة . ويضطر الناس لتحميلها أو تفريغها باستخدام زوارق لا تستطيع بدورها أن تلامس الشاطئ ، بل ينبغي أن تنقل منها البضائع ، وأن يحملها رجال يخوضون فى الماء حتى منطقة وجود هذه الزوارق . ويبلغ علو المد فى حالاته الوسطى فى القصير نحو المتر .

وأكبر السفن التى ترسو هناك ليست مجسرة على الإطلاق ، ولا تحمل سوى أربعمائة مكيال من القمح أى ما يعادل حوالى التسعين طناً .

وتكاد رياح الشمال تسود طيلة العام . أما الرياح التى تهب من جهة الجنوب فتستمر أثناء شهور الشتاء الثلاثة .

ومدينة القصير ، إذا كان بالإمكان أن نمنحها اسم مدينة ، مكونة من أخصاص متناثرة أو مكدسة على ساحل مهجور ، محرومة من المياه العذبة ، وهى تمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى لمائتين وخمسين متراً ، ويبلغ أقصى اتساع لها ١٦٠ متراً ؛ ويخترقها فى هذه الاتجاهات شارعان رئيسيان يبدءان من شاطئ البحر حتى ميدان صغير أمام القصر .

وقد أقيم هذا القصر فوق ربوة صغيرة من الزلط المستدير تمر من خلف المدينة وتمتد على الساحل من الشمال إلى الجنوب . وهو عبارة عن سور من الجدران الكبيرة على شكل معين طول ضلعه سبعون متراً ، وتعلوها أربعة أبراج . وهذا المبنى هو الوحيد الذى يبدى بعض مظهر من تماسك ، أما أسس هذه الجدران فمن الحجارة . ويضم هذا السور بعض المبانى ، بالإضافة إلى بئر من المياه المائلة للملوحة .

ويسكن ميناء القصير تجار عرب يجدون فى أرباح التجارة التى يقومون بها هناك التعويض الكافى عن صنوف الحرمان التى يرغمهم المكان عليها ، ويتلقى هؤلاء التجار ، **الوافدون** فى معظمهم من ينبع وجدة من عملائهم فى هاتين المدينتين سلع الجزيرة العربية والهند ، ويمررونها إلى مصر عن طريق قوافل يصحبونها عادة بأنفسهم .

ويكاد يكون بن اليمن هو السلعة الوحيدة التى يتم استيرادها إلى مصر عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طريق ميناء القصير . ويرسل إلى هناك عن طريق مينائى ينبع وجدة . ويباع القنطار زنة القاهرة فى المدينة الأولى بـ ١٢ – ١٥ قرشاً أسبانيا ، ويدفع عنه ١٥ مدينى كمصاريف و ٢٠ مدينى كرسوم خروج . وتتم الرحلة إلى القصير عادة فى ثلاثة أيام .

وينقص سعر قنطار البن القادم من جدة بمقدار قرشين عن سعر مثيله القادم من ينبع ، ولكن يعوض هذا الانخفاض فى السعر برسم يبلغ ٣٠ مدينى يحصل لحساب شريف مكة . وتتكلف المصاريف من جدة إلى القصير ٣٦ – ٤٠ بارة للقنطار الواحد .

ويتراوح عدد السفن القادمة من ينبع وجدة والتى ترسو كل شهر بالقصير بين ١٠ إلى ٢٠ سفينة بحسب الفصول ، وتحمل السفن القادمة من جدة على الدوام كميات أكبر بكثير من تلك التى تحملها السفن القادمة من ينبع .

وعندما ينزل بن ينبع إلى القصير فإنه يدفع عينا رسماً قدره $\frac{1}{2}$ ٤ أرطال عن القنطار الواحد ، ويدفع زيادة على ذلك ٤٧ مدينى نقداً ، تشتمل على أجر المحصل .

وعندما تسدد هذه الرسوم ينقل البن إلى قنا على جمال حملت من هذه المدينة القمح والمنتجات المصرية الأخرى التى تحملها السفن عند عودتها . وتبلغ حمولة الجمل أربعة قناطير من البن .

ويبلغ ثمن إكراء الجمل قرشين أسبانيين ، وينبغى أن يدفع بالإضافة لذلك ٢٥ بارة عن كل جمل مقابل حرس الحماية الذى يوفره عرب العبابدة للقوافل أو بالأحرى كضمان ضد السلب الذى كان يمكن أن يمارسه هم أنفسهم .

أما الرسوم الجمركية بمعنى الكلمة فتحصل فى قنا ، وتبلغ ثلاثة قروش ونصف القرش عن القنطار ، وهكذا فإذا ما أضفنا معاً كل الرسوم التى يتحملها القنطار من البن حتى خروجه من قنا ، فسنجد أن المجموع يصل إلى أربعة قروش و ٨٥ مدينى أى ما يوازى تقريباً ثلث ثمن شراء هذه السلعة من موانى الجزيرة العربية .

ويتم نقل البن من قنا إلى القاهرة عن طريق النيل كما سبق أن ذكرنا فى مناسبة

سابقة . وتدفع مصاريف للقنطار الواحد ما بين ١٢ إلى ٤٥ بارة حسب الظروف . ويباع القنطار فى القاهرة بـ ٢٥ إلى ٣٠ قرشاً .

أما بضائع الهند التى تشكل عادة جزءا من حمولة سفن ينبع وجدة فتجلب إلى هاتين المدينتين بواسطة قوافل الهنود الذين يأتون إلى مكة للحج أو عن طريق سفن الهند التى يركبها فى بعض الأحيان أبناء هذه البلاد . وإن كان يركبها فى الغالب الانجليز . وحيث ليس لهؤلاء الانجليز من قناصل فى موانى البحر الأحمر فإنهم نادرا ما يرسون سفنهم هناك ويذهب التجار مع موظف الجمرك إلى ظهر سفنهم حيث تتم المعاملات . وهم فى العادة يحرصون على أن يبيعوا الأشياء المختلفة فى حمولتهم بسعر أقل من نفس سعر الأشياء حين تجلبها القوافل أو السفن الهندية . ويسدد لهم الثمن بالقروش الأسبانية ، ومن النادر للغاية أن يأخذ الانجليز بضائع عند عودتهم .

وفى القصير تسدد الرسوم عن أقمشة الهند والتوابل والبخور والصمغ ، وعادة عن كل البضائع التى تشكل حمولة سفن جدة وينبع فيما عدا البن . وتبلغ هذه الرسوم ١٠ ٪ عينا وهذه هى الرسوم الوحيدة التى تتحملها هذه البضائع حتى تصل إلى القاهرة .

وبخلاف الأقمشة والموسلين التى تنقل من الهند إلى القصير ، يوجد أيضاً الحرير المصنع فى انجلترا والذى يعانى من الكساد فى مناطق أخرى .

وتباع شيلان الكشمير فى ينبع وجدة بسعر ٣٠ إلى ٥٠ قرشاً ، لكن هذه من نوع ردىء . وهذه السلع ، وكذلك كل بضائع الهند التى تجلب إلى مصر توضع داخل بالات صغيرة تكفى اثنتان منها حمولة لجمل ؛ ويدفع ٦٠ إلى ٨٠ مدينى لنقل الواحدة من هذه البالات ، عن طريق النيل ، من قنا حتى القاهرة .

أما مدينة السويس ، وهى أكبر حجما من مدينة القصير ، فقد شيدت عند الطرف الشمالى وعلى شاطىء البحر الأحمر . ولا ترسو فيها السفن مطلقاً إلا بعد أن تفرغ حمولتها ، وتظل فى الخليج على بعد حوالى خمسة أرباع ($1\frac{1}{4}$) فرسخ إلى الجنوب من المدينة . وينحصر هذا الخليج بين ساحلين تغطيهما المياه وقت نوبات المد العالية ، وقاعه من الرمل الناعم ، ويبلغ عمق المياه به فى حالة المد المنخفض من ١٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى ٦٠ قدماً . وفضلا عن ذلك فهو فى حمى من الرياح التى تهب من المنطقة الشمالية من الشرق حتى الجنوب الغربى . ورياح الجنوب هى وحدها التى يكون بمقدورها أن تسبب به بعض الاضطرابات ومع ذلك فلن يكون ثمة خطر يخشى فى هذه الحالة إذا ما كانت الكابلات التى تمسك بالعكس قوية لحد كاف ، وإذا ما كانت السفن مجهزة على نحو طيب .

أما الحزام الشرقى للمدينة ، فتقفله بعض بقايا جدران رصيف مبنى بحجارة دبش . وهناك ترسو قوارب صيادى الأسماك وكذلك قوارب السفن التى توجد فى الخليج . ويتصل بهذا النوع من رصيف الركوب أو الشحن الموجود داخل الخليج ممر مائى يتجه جنوباً موازياً الشاطئ لمسافة خمسمائة أو ستمائة متر إلى داخل الخليج . وفى حالات المد المنخفض يبلغ عمق المياه فى هذا الممر ٦ إلى ٨ أقدام ، لكنه مسدود عند فتحته بواسطة ذراع من الرمال لا يبلغ عمق المياه فوقه أكثر من أربعة إلى خمسة أقدام . وتدين هذه الذراع بنشأتها للتوازن القائم فى هذه المنطقة بين تيار المد الصاعد وتيار المياه التى تنقل على الدوام عند هبوطها من أعماق البحر الأحمر كمية ضئيلة من الرمال .

وترى إلى الشمال الشرقى من السويس ربوة صغيرة يطلق عليها اسم القلزم ، وتبعاً لحكايات البلاد فقد كان هذا الموضع مكاناً لمدينة قديمة . وقد اجتزت هذه المنطقة بانتباه ، لكننى لم أجدها سوى مرتفع يشبه تلك المرتفعات التى تحيط بكل مدن مصر والتى تتكون من الحصى والأنقاض والقاذورات التى يلقى بها الناس عليها .

ولا يجد المرء مطلقاً فى ضواحى السويس مياهاً عذبة ، ونتيجة لذلك فليس ثمة أية خضرة ، وتجلب إليها الحبوب والخضروات وبقية الأشياء الضرورية من داخل مصر وبأسعار باهظة . ويذهب الناس الآن ليجلبوا المياه الضرورية لاحتياجات السكان من الساحل الشرقى للخليج على بعد فرسخين ونصف الفرسخ من المدينة . وتسمى العين التى تخرج منها هذه المياه : النبع ، وهذه ليست سوى ثقب يبلغ عمقه من ثمانية إلى تسعة أقدام ومحفورة وسط كومة من الزلط الدائرى تكدست عند سفح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلسلة الجبال العربية . وتميل هذه المياه بدرجة خفيفة نحو الملوحة . ولا نزال نجد حتى اليوم آثار مجرى علوى كان يبدأ من هذه العين نفسها ويتجه نحو السويس . وكان قاع هذا المجرى وكذا جدرانه قد تكون من نوع الخرسانه المكونة من الجير والرمل الحجرى والحصى والأصداف ، إذ من السهل التعرف على ذلك من بعض أنقاضه المتناثرة على الأرض .

ولم تكن العين هى وحدها التى تحصل منها المدينة على المياه اللازمة لها ، فقد كان الناس فيما مضى يذهبون إلى عيون موسى الواقعة على بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب الشرقى من ساحل الجزيرة العربية. ويبلغ عدد هذه العيون سبع عيون أو ثمانى ، محفورة فى الرمال على بعد ثمانمائة أو تسعمائة قامة من ساحل البحر . وتقدم بعض هذه العيون مياهاً مائلة للملوحة بينما تقدم اثنتان أو ثلاث منها مياهاً عذبة لحد كاف . ويرى المرء بقايا لمجرى علوى كان يحمل المياه من واحدة من هذه العيون إلى ما يشبه خزاناً يبعد لمسافة قليلة عن الشاطئ الحالى . ويلاحظ المرء أيضاً حول هذه العيون أكواماً من الأنقاض وقطع الفخار وقطع المواد البنائية مما ينبئ عن وجود مدينة قديمة فى هذا المكان . وفوق ذلك كله ، فإن من المدهش ألا يجد المرء خرائب أكثر أهمية فى منطقة من هذا الساحل توجد بها مياه عذبة ، وهى ميزة ثمينة كان بوسعها أن تسمح بأن يزرع هناك ، وبنجاح ، بعض المحاصيل النافعة ، وهو حكم يستطيع المرء أن يصدره مستنداً إلى وجود تلك الخضرة اليانعة المتمثلة فى هذا النخيل الكثيف الذى يحيط بهذه العيون .

وليس ما تبقى من أعمال أقيمت لكى تجلب المياه إلى السويس ، أو إلى تلك المدينة القديمة التى خلفتها هذه المدينة الحديثة ، هو البرهان الوحيد على أهمية هذه المدينة وعلى حالة الازدهار التى كانت تتمتع بها فيما مضى ؛ فنوع البناء فى أغلب المبانى التى تحيط بأرصفتها وأماكنها المختلفة ، كل ذلك يقدم براهين أخرى .

ويحصى فى السويس كذلك ثمانى عشرة أو عشرون وكالة مخصصة لسكنى التجار الأعراب ولكى يستخدمها هؤلاء كمخازن . وتبنى الوكالات على نمط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موحد الشكل ، إذ هى عبارة عن أسوار مستطيلة الشكل يبلغ طول ضلعها أربعين إلى خمسين متراً ، وحيث تشكل هذه مبنى منعزلا فإن فناءها الداخلى الذى أقيمت المساكن من حوله ، له عادة منفذان أو ثلاثة منافذ . والجزء الأدنى من جدران سور هذه المنشآت تكسوه الأحجار .

وشوارع السويس مصفوفة (أى منتظمة المبانى) ويبلغ عدد الميادين العامة هناك ثلاثة ميادين أو أربعة ، وهى لا تخلو من نوع من الانتظام ، بل إن البيوت الخاصة بالمدينة تحمل نوعاً من المسحة الأوربية لا نجدها فى أى مكان آخر من مصر .

وعلى الرغم من الميزات التى تقدمها هذه المدينة للتجارة ، فقد انهارت بشكل بالغ الغرابة منذ نحو أربعين عاماً . فقد كان عدد سكانها عندئذ يبلغ أكثر من ألف نسمة من بينهم عدد من التجار الأروام ؛ ويكاد لا يجد المرء فيها اليوم مائتى شخص . أما فترة ازدهارها العظيم فربما تعود إلى زمن دمار الاسكندرية على يد العرب المسلمين فحيث قد أصبحت القاهرة (كذا) مقراً للحكومة ، وحيث قد أصبحت هذه العاصمة مركزاً لكافة الأعمال والمعاملات فقد استوجب الأمر أن يكون ميناء البحر الأحمر ، وهو الأقرب إليها ، هو الذى تمارس عن طريقه علاقات مصر التجارية مع الهند والجزيرة العربية .

ولربما كان السبب الأوحد فى بقاء السويس بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح هو ذلك العبور السنوى لقافلة مصر (موكب الحج) الذى يبحر جزء منها من هذا الميناء عند السفر إلى مكة ، كما ينزل فيه عند عودته .

وعلى وجه التقريب ، تتم اليوم كل التجارة بين مصر والهند بوساطة هذه القافلة ، وكذا عن طريق ذلك الرباط القائم بين مينائى السويس وجدة .

وقد بنيت معظم السفن العربية التى تقوم بالملاحة فى البحر الأحمر ، فى الهند ، وتباع الواحدة هناك بسعر أربعة أو خمسة آلاف قرش أسبانى وتبلغ حمولتها ٧٥ إلى ٨٠ طناً . وفى نفس الوقت توجد فى جدة ترسانة لبناء السفن يزودها الإنجليز بالخامات .

وتسود رياح الجنوب عادة البحر الأحمر منذ بداية ديسمبر وحتى منتصف فبراير ، وفى أثناء الشهرين اللذين يليان اعتدال الربيع . وهذان الفصلان اللذان يسمى أولهما الحربانية ، ويسمى الثانى النجم هما موسما إرسال السفن من جدة وينبع إلى السويس ، وفى أثناء بقية العام تهب الرياح من المنطقة الشمالية . وعندئذ يصبح فى الامكان إرسال السفن من السويس إلى الجزيرة العربية . وعندما تكون الرياح مواتية تصل السفينة من جدة إلى السويس فى خمسة عشر أو ستة عشر يوماً،فى حين أن المدة التى تستغرقها الرحلة الاعتيادية تبلغ عشرين أو اثنين وعشرين يوماً ، تزيد بمقدار ثلاثة أو أربعة أيام بالنسبة للسفن القادمة من ينبع .

ولا ينبغى أن ينسب إلى صعوبات الملاحة فى البحر الأحمر هذا البطء فى اجتياز البحر ، ذلك أن الأمر يعود بالأحرى إلى جهل البحارة العرب ، وإلى عادتهم فى إلقاء مراسيهم كل ليلة فى الخلجان الصغيرة التى يقابلونها على الساحل الشرقى للبحر ، ولهذا السبب فإنهم يتبعون حافته دون أن يغيبوا عن البصر مطلقاً .

ويصل إلى السويس سنوياً خمسون أو ستون باخرة قادمة من جدة ، وتشتمل حمولتها بشكل رئيسى على البن والصمغ العربى والبخور والتوابل والعقاقير من أنواع مختلفة ؛ أما بخصوص الموسلين وأقمشة الهند الأخرى ، فإنها تجلب عادة عن طريق حجاج مكة .

وينبغى أن نضيف إلى هذه السلع المتنوعة مائة قنطار من السنامكى تأتى من ضواحى هذه المدينة ، وهذه السلعة تدخل شأنها شأن السنامكى المزروع فى أسوان فى الاحتكار (الالتزام) الذى منحه مراد بك لقنصل البندقية المسيو س . روزتى .

وأخيراً فإنه يجلب سنوياً من الجزيرة العربية إلى مصر من ٢٠ إلى ٣٠ عبداً أسود ، ويحظى هؤلاء بتقدير أكبر مما ينال عبيد أفريقيا .

وقبل الخمسة عشر عاماً الأخيرة التى سبقت حملتنا على مصر كان يأتى إلى السويس من عشرين إلى ثلاثين ألف حمولة من البن ، تزن الواحدة ثلاثة قناطير وثلث القنطار ، زنة الواحدة منها ١٠٥ من الأرطال . ومنذ هذه الفترة تدهورت تجارة البن عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طريق السويس ، فلم يعد يصل إليها سوى ١٥ إلى ١٧ ألفاً من الحمولات عن هذا الطريق ، ويرسل الباقى عن طريق القصير . وفى نفس الوقت فإن القيمة الإجمالية لهذه السلعة هى الآن أقل مما كانت عليه فيما مضى .

وتتفق المعلومات التى حصلت عليها من السويس عن سعر طن البن فى جدة وينبع ، وعن الرسوم التى تخضع لها هذه السلعة ، تتفق تماما مع تلك التى سبق أن حصلت عليها فى القصير : فيسدد ٦٠ إلى ٨٠ مدينى لنقل القنطار من البن من جدة إلى السويس .

أما القنطار والرطل المستخدمان فى موانئ الجزيرة العربية فهما نفساهما المستخدمان فى مصر ، وقد سبق أن لاحظ بروس Bruce أن هذه الأوزان هى نفسها أوزان البندقية مما يبرهن – ونحن فى هذا نتفق مع رحالتنا – أنهما (أى القنطار والرطل) أدخلا إلى الشرق عندما كان البنادقة يكادون يحتكرون ممارسة التجارة هناك .

أما التوابل وبقية سلع الأرخبيل الهندى فتجلبها كل عام إلى جدة خمس عشرة أو عشرون سفينة صغيرة ماليزية أو عربية ، وبواسطة ثلاث أو أربع سفن انجليزية .

أما السلع الهندية التى تأتى إلى السويس ، فكانت تشتمل بدرجة أساسية على الأقمشة الحريرية والأقمشة القطنية ، وصوف الكشمير .

وقبل مجئ الحملة على مصر بحوالى العشرين عاماً كانت تتم هناك واردات بواسطة قافلة مكة أكبر بكثير من تلك الواردات التى كانت تأتى عن طريق السويس والقصير ؛ لكن العدد الكبير من القبائل الجوابة التى كانت تقطع الطريق الذى كانت القافلة (المحمل) مضطرة لاتباعه ، قد جعلت من الأفضل فى الآونة الأخيرة استخدام طريق البحر . ومهما يكن من أمر فإن قيمة الأشياء المستوردة بواسطة القافلة كان لا يزال يبلغ سنويا ٢٥٠ إلى ٣٠٠ ألف قرش أسبانى ، وتجارة الواردات هذه (أى التى يقوم بها الحجاج) كانت معفية من كل الرسوم الجمركية .

وكان يوجد بالقاهرة فيما مضى ١٥ إلى ٢٠ بيتا للتجار الأتراك الذين يمارسون تجارة الهند ، لكن هذا العدد تضاءل اليوم إلى ثلاثة أو أربعة : ويوجد عدد مماثل على وجه التقريب من السماسرة الأتراك مستقرين بجدة .

وتحتكر أربعة قبائل بشكل شبه تام عملية نقل البضائع الواردة بحراً من السويس إلى القاهرة ، وهذه القبائل ، التى تسلك كل واحدة منها طريقاً مختلفا هى قبائل : طرابين ، الحويطات ، عرب الطور ، العايدى .

ويسكن الأولون ضواحى مصر القديمة وقرية البساتين ، ولهم كذلك مخيمات فى بعض منافذ وادى التيه .

أما الحويطات فيستقرون فى ولاية القليوبية .

ويشغل عرب الطور ساحل الجزيرة العربية حتى رأس محمد وضواحى جبل سيناء (جبل الطور) وكل شبه الجزيرة المحصورة بين بحر القلزم (خليج السويس) وخليج العقبة .

وأخير فإن عرب العايدى يسكنون ضواحى المطرية وبركة الحج .

ويقدم هؤلاء العرب الجمال بجمالها وعدداً مناسباً من قائدى الجمال الذين يخضعون هم أنفسهم لأوامر بعض الشيوخ .

ويحمل الجمل الواحد من السويس إلى القاهرة من ٥ إلى ٦ قناطير من البن ، يدفع عن كل واحد منها ٩٠ مدينى .

وكانت عوائد جمرك السويس تقسم بين مراد بك وإبراهيم بك ، لكن إبراهيم كان يتمتع بها وحده عندما وصل الفرنسيون إلى مصر ، وفى نفس الوقت كان يحصل رسم مقداره مدينى واحد عن كل رطل بن لصالح باشا القاهرة ، ورسم قدره ١٤٦ مدينى عن كل حمولة لصالح أمير الحج .

ولابد أن تجارة الهند عن طريق البحر الأحمر كانت تدر مكاسب كبيرة لدرجة جعلت القوم يفكرون فى تكوين منشآت فوق شواطئ رملية بقدر ما هى قاحلة مثل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تلك التى أنشئت فوقها مدينتا السويس والقصير ، ولهذا السبب ، فإنه أملا فى الاستمتاع بهذه المزايا فقد بذلت قرب نهاية القرن الأخير بعض محاولات لكى يفتح من جديد أمام تجارة الهند ، ذلك الطريق الذى كانت تتبعه هذه التجارة قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح .

ومن المعروف أن على بك الذى حكم مصر فى الفترة من ١٧٦٣ إلى ١٧٧١ كان قد أعد مشروعاً يهدف إلى استقلاله عن الباب العثمانى ، وقد بين له قنصل البندقية الذى كان يوليه – أى على بك – ثقة كبيرة ، الفائدة التى يمكن أن تعود بها عليه تجارة الهند مع أوربا ، لو أنه استطاع أن يتوصل إلى جعلها تمر بمصر باعتبار ذلك الوسيلة الأكيدة لتنمية ثرواته ، ولتأكيد استقلاله .

كان الأمر يقتضى أولا السيطرة على موانى البحر الأحمر التى تحتفظ بأوسع العلاقات مع الهند ، وكذلك على السوق التى تتجمع بها القوافل التى تقوم بالتجارة معها براً ، ونتيجة لذلك فقد احتل جدة ومكة بواسطة بكوين من بيته هما حسن الجداوى ومحمد أبو الدهب .

ولكى يجذب على بك الأوربيين إلى جدة فقد ارتضى أن يكون لهم فيها مندوب معتمد ، كما أنقص رسوم الجمارك التى ينبغى أن تحصل هناك إلى ٣ ٪ فقط من قيمة السلع .

لكن الظروف لم تسمح مطلقاً بأن توضع هذه المشاريع موضع التنفيذ، **إلا أن** النية التى أبداها على بك فى جعل الملاحة فى البحر الأحمر حرة ما لبثت أن وجدت من يتفهمها ، وبنفس القدر ، فى الهند .

لقد أعد بعض التجار فى ذلك الوقت مشروعا ليرسلوا إلى الشرق عن هذا الطريق البضائع المختلفة التى تتداول هناك ، وجاءت إلى السويس سفن عديدة كانت تدفع عند وصولها ٥ ٪ من قيمة حمولتها ، واكتفى بأن يفرض فوق ذلك رسماً إضافياً قدره ٦ ٪ من نفس هذه القيمة ، عندما يقوم تجار القاهرة بشراء هذه السلع .

ولقد شجع محمد أبو الدهب خليفة على بك ، مثله فى ذلك مثل سلفه ، التجارة مع الهند ، فلم يكتف فقط بأن يسمح للمراكب الإنجليزية التى يحرسها حرس خاص بها بأن تفرغ حمولاتها فى السويس ، بل ألزم تجار القاهرة الذين يتعاملون معها بأن يسددوا ثمن البضائع التى يحصلون عليها منها فى خلال ثلاثين يوماً . وقد أوحت المنافع والمكاسب التى أدت إلى وجودها هذه الحماية من جانب حكومة مصر ، وكذلك تلك الشهرة التى لم تتوان فى تصحيم الأمور - أوحت إلى أصحاب سفن آخرين أن يحاولوا الإفادة منها بدورهم ، ومع ذلك فإن شركة الشرق الإنجليزية التى تبيع فى كافة أنحاء الامبراطورية العثمانية أقمشة البنغال الواردة من محلات شركة الهند قد خشيت أن يؤدى الطريق الجديد الذى فتحته مصر إلى الإضرار بمصالحها ، ونتيجة لذلك فقد التمست من ديوان الآستانة ، عن طريق سفير انجلترا هناك ، صدور فرمان يحرم على الأوربيين الملاحة فى البحر الأحمر جنوب جدة .

لقد انقضى وقت طويل بعض الشئ حتى حصل هؤلاء على هذا الفرمان وفى أثناء هذه الفترة استمرت التجارة بين مصر والهند محققة مكاسب هائلة ، ولكن فى النهاية ، أرسل إلى باشا القاهرة ذلك الفرمان الذى التمسه عملاء الحكومة الإنجليزية من القسطنطينية .

وكان حاكم البنغال من جانبه قد منع التوريد المباشر لسلع الهند إلى مصر على مراكب إنجليزية .

ولكن ، وعلى الرغم من هذا المنع ، ومن فرمان السلطان ، فقد وصلت إلى السويس فى عام ١٧٧٨ سفن عديدة سرت الأنباء بأن قنصل فرنسا يهمه أمر حمولتها ، ويحكى فى هذا الصدد أن هذا القنصل لكى يعمل على وصول هذه السلع إلى القاهرة بأكبر قدر من السلامة ، قد حرص على أن يتم نقلها بواسطة جمال مملوكة لواحد من كبار البكوات ، وبلا جدوى ، ظل عرب الطور الذين يدعون لأنفسهم حق القيام بعمليات النقل يطلبون أن توكل إليهم هذه المهمة كما هو متبع منذ القدم ، وعندما رفض هذا الطلب ، فقد أنقصوا مطالبهم إلى طلب واحد هو الحصول على تعويض نقدى عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخسارة التى أدعوا أنها لحقت بهم من جراء هذا الخرق ، وقد أثارهم ذلك الرفض الجديد الذى منى به مطلبهم : فنصبوا كميناً ، وانتهبوا القافلة ، وهو أمر كان ميسوراً للغاية بالنسبة لهم بقدر يماثل قدر اعتماد المسافرين من كافة الجنسيات ، والذين كانوا يصاحبون القافلة ، على الحماية التى سبق أن تمتعوا بها من قبل أثناء الرحلات السابقة ، فلم يتخذوا لذلك الاحتياطات اللازمة من أى نوع ، ليدافعوا عن أنفسهم هذه المرة

وبعد ذلك أصبحت السفن التى تصل إلى السويس تصادر بواسطة باشا القاهرة بما تحمله من بضائع ، وفى نفس الوقت كان هناك أناس آخرون من أهل البلاد يشترون بثمن بخس تلك السلع التى سلبت من القافلة .

وتكاد تكون كل السفن التى ترسل مباشرة من الهند إلى ميناء السويس محملة لحساب ضباط عسكريين ، أو لحساب مدنيين يعملون فى خدمة الشركة الإنجليزية .

وبعد هذا النجاح المشئوم الذى لاقته هذه الحمولات ، فإن السفن ما لبثت أن توقفت تماماً عن استخدام هذا الطريق ، وبالإضافة إلى ذلك ، فبدءاً من هذا التاريخ ، أصبح للانجليز نائب قنصل فى الاسكندرية ، وحتى ذلك الوقت ، لم تكن شركة الهند قد اعتمدت فى القاهرة سوى عميل أوكل إليه العمل تمرير البرقيات براً ، سواء فى ذلك البرقيات القادمة من أوربا إلى البنغال ، أو تلك القادمة من البنغال إلى أوربا .

الصادرات

فى مقابل البن وعقاقير الجزيرة العربية وسلع الهند التى تصل إلى الطريق بواسطة السفن العربية ، تقوم هذه السفن عند عودتها بحمل القمح والدقيق والفول والعدس والسكر والزبدة وزيت الخس وزهور القرطم ونسيج الكتان .

ويرسل جزء من هذه السلع إلى ينبع وجدة مباشرة أو بواسطة سماسرة مستقرين فى القصير أو قنا ، ويعهد بهذه السلع إلى قباطنة السفن التى تنقلها فوق ظهرانيها ،

أو يحملها معهم كأمتعة سفر ، عدد من المسافرين ، جميعهم من سكان الصعيد وأواسط أفريقيا الذاهبين لأداء الحج إلى مكة ، وعادة ما تتم هذه الصادرات أثناء شهرى أبريل ومايو وبأكبر قدر من النشاط .

ويكيل القمح ، وكذلك كافة الحبوب المصدرة عن طريق القصير ، ليس بأردب القاهرة ، وإنما بالتلليسة ، وهى وحدة للكيل تبلغ قيمتها بالنسبة لأردب القاهرة ١٦ : ٩

وتباع تلليسة الحنطة فى قنا بـ ٣ - ½ ٤ بوطاقات .

وتباع حمولة الجمل تزن حوالى ١٧٠ ك ح بـ ٣ تلليسة ، وتنفق قوافل الجمال المحملة على هذا النحو أربعة أيام للذهاب من قنا إلى القصير . وتتكلف مصاريف شحن تلليسة القمح من ٢٠٠ إلى ٣٨٠ بارة وهو مبلغ يعادل القيمة الأصلية للقمح كما يباع فى أسواق قنا وقوص وأبنود حيث تباع عادة الحبوب المخصصة للتصدير إلى الجزيرة العربية .

وفى نفس هذه الأسواق ، تباع تلليسة الشعير وتلليسة الفول بثمن يبلغ فى المتوسط ٢ بوطاقة و ٦٠ مدينى .

وتباع تلليسة العدس بـ ٤ بوطاقات و ٤٠ مدينى أى بنفس سعر تلليسة القمح تقريباً .

وكل جمل فى قافلة ما ، بخلاف حمولته من القمح والعدس ، يحمل كذلك كمية من الفول اللازم لغذائه أثناء الرحلة !

وعلى الدوام ، يدخل فى سعر اكتراء الجمل ، وهو الذى يتراوح بين ٣ - ٤ بوطاقات ، حسب احتياجات التجارة ، أجر الجمال المكلف بقيادة ستة جمال مع العناية بهم .

وكان من الممكن تحويل كل القمح المرسل إلى الجزيرة العربية إلى دقيق لولا غيبة الطواحين هناك (فى مصر) ؛ ولو تحقق ذلك لكان المصريون سيكسبون من وراء هذه العملية أجور الأيدى العاملة اللازمة لتشغيل الطواحين والتى تحسب بواقع ٤٨ بارة عن طحن كل أردب (مكيال القاهرة) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وينتج قنطار القمح عادة ٩٠ رطلا من الدقيق ، وتبلغ مصاريف نقلها من قنا إلى القصير ١٠٠ مدينى للقنطار . وتشكل الزبد موضوعاً هاماً لحد ما فى تجارة الصادرات ، وتجلب هذه من قرى مصر العليا الواقعة بين المنيا وإسنا ، وتباع بسعر ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ مدينى للقنطار ، وتنقل فى قرب من جلد الجاموس ، ويستطيع الجمل أن يحمل منها أربعة قناطير ؛ وهو نفس ما يحدث بالنسبة للزيوت التى تستخلص من مختلف البذور الزيتية .

وتحتوى الجرة من الفخار ، والتى تسمى « بلاص » والتى تستخدم فى كيل الزيت على ٢٣ أو ٢٤ رطلا ، زنة القاهرة ، من الزيوت ، وتباع فى قنا بـ ٢٠٠ إلى ٢٤٠ بارة ؛ وعند نقل الزيت على ظهور الجمال ، يوضع فى قرب كبيرة ، ويستطيع الجمل أن يحمل ثلاثة قناطير أو أربعة .

ويباع قنطار السكر فى قنا بـ ٩ إلى ١٠ بوطاقات .

أما قنطار الزعفران أو زهرة القرطم فيباع بـ ٨ إلى ١٢ بوطاقة .

وأخيرا، فإن قطع قماش الكتان التى يبلغ طول القطعة الواحدة منها ٢٧ – ٢٨ ذراعاً ، والتى تصدر من مصر إلى الجزيرة العربية عن طريق القصير تباع بـ ١٢٠ بارة للقطعة ، ويستطيع الجمل أن يحمل مائتى قطعة .

وتكال الحبوب المصرية عندما تصل إلى القصير بواسطة مكاييل تختلف عن تلك التى تستخدم فى قنا ؛ ويبلغ أردب القصير بالنسبة إلى أردب قنا نسبة ٣ : ٥ ، وأول هذه المكاييل يساوى بالنسبة لأردب القاهرة نسبة ٤٤ : ١٠٠ ، وتبلغ تكاليف إرسال الأردب من كافة أنواع الحبوب ، من القصير إلى ينبع أو جدة ١٦٠ مدينى .

ويباع القمح فى ينبع بستة قروش إسبانية لأردب القصير ، ويرتفع الثمن إلى سبعة قروش فى سنوات القحط .

ويباع قنطار السكر المصرى فى جدة وينبع بـ ٢٥٠٠ بارة فى حين يباع قنطار الزبد هناك بـ ١٢ – ١٥ قرشاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويلاحظ ، أنه قلما يصدر عن طريق القصير سوى منتجات زراعية مصرية وكذلك الأقمشة وبعض المنتجات الأخرى من صناعات مصر البدائية .

وتحتل حافة الطريق التى يتبعها الناس خلال الصحراء للذهاب إلى هذا الميناء عربان من قبيلة العبابدة ، ولا يقوم هؤلاء بدور الشاحنين المعتادين فى هذا الطريق فقط ، بل إنهم مكلفون أيضاً بحراسة القوافل مقابل أتاوة تبلغ ٢٣ بارة ، تقدم لهم مقابل كل واحد من الجمال التى تتكون منها القافلة .

ولسوء الحظ ، فحيث ليس لدى هؤلاء العربان سوى ممتلكات قليلة يمكن المساس بها فإن من العسير إلزامهم بالمسئولية عن أحداث السلب التى قد ترتكب ضد القوافل وهى تحت حراستهم ؛ ولهذا السبب فإنهم لا يقومون بالتزاماتهم على الدوام بالأمانة الواجبة ؛ وبالإضافة إلى ذلك ، فإنهم لا يعرفون سوى الحياة الرعوية ، ومن هنا فهم أكثر نهما للأشياء التى تفى بالضرورات الأولية ، فى الوقت الذى تقل رغبتهم فيه فى أشياء الرفاهية والترف : وهذا هو السبب فى أنهم يطلبون بخلاف أتاوة الـ ٢٣ بارة التى تحدثت للتو عنها ، $\frac{١}{٢٤}$ من أردب القمح ودقيق الشعير أو من الفول عن كل واحد من الجمال التى تحمل بهذه السلع ، فى حين أنهم لا يطالبون بأى مقابل عينى فيما يختص بحمولات السكر والزعفران والبن على الرغم من قيمتها الكبيرة .

وعندما تؤدى الحروب التى تتقاتل فيها القبائل العربية فيما بينها إلى جعل طريق القوافل أقل أمناً ، فإن القوافل تتجمع بانتظار أن تصبح كبيرة العدد لحد يكفيها أن تقوم بالدفاع عن نفسها ضد العصب التى قد تتمكن من مهاجمتها ؛ وفى هذه الحالة تسير القوافل فى حراسة مماليك يحصلون نظير حمايتهم تلك على ٦٠ بارة مقابل كل جمل .

ويتلقى ميناء السويس من القاهرة ، وهو أقرب الموانى إليها ، بخلاف كمية معينة من مواد ومنتجات مصر ، معظم البضائع الأوربية المخصصة للجزيرة العربية والهند .

وحيث لا تدفع هذه الصادرات أية رسوم جمركية عند خروجها ، وحيث لا تسجل حالتها مطلقا ، فإن من المستحيل أن نعرف على وجه الدقة كمية كل واحدة من هذه الصادرات : لذلك لا ينبغى أن ننظر للاشارات التى سنقدمها هنا ، إلا على أنها لمحات بسيطة ، حصلنا عليها تبعاً للمعلومات التى تلقيناها من موظفى جمارك السويس ، وبعض تجار القاهرة الذين يمارسون هذه التجارة .

وتقدر كمية الحبوب : القمح والفول والعدس ، التى ترسل سنويا من مصر عن طريق مينائى القصير والسويس إلى مينائى جدة وينبع بـ ٤٠ أو ٥٠ ألف أردب .

وتجلب الجزيرة العربية مباشرة من الهند الأرز الذى تستهلكه ، أما الأرز القليل الذى يصدر إلى هناك من مصر فقلما يتجاوز خمسمائة أردب فى العام .

ويتكلف شحن أردبين من القمح ، وهما يشكلان كما قلنا حمولة جمل واحد ، أربع بوطاقات ، كما يصل ثمن الأردب مجلوبا إلى هذا الميناء لنقله بحراً إلى ستة بوطاقات .

أما عن البضائع الأوربية التى تصدر عن هذا الطريق ، فهى تحتوى بشكل رئيسى على : الحلى الزجاجية وارد البندقية ، المرجان ، القرمزية (حشرة للصباغة) ، الزعفران ، الحديد ، الصلب ، النحاس والورق .

وتشكل الحلى الزجاجية وارد البندقية وكذا المرجان سلعة تقدر سنويا بـ ١٠٠ إلى ١٥٠ ألف بوطاقة ؛ وتقدر كمية القرمزية التى ترسل كل عام إلى الهند عن طريق ميناء السويس بثلاثين إلى أربعين برميلا ، وترتفع هذه الكمية فى بعض الأحيان لتصل إلى ثمانين برميلا ثمن كل واحد ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ بوطاقة .

وكان يصدر سنويا ٢ – ٣ قناطير من الزعفران ، يساوى القنطار الواحد منها ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ بوطاقة .

وتقدر قيمة الحديد والرصاص والنحاس المرسلة من السويس إلى جدة بخمسين ألف بوطاقة ، أما قيمة الورق فتقدر هى الأخرى بخمسين ألف بوطاقة ، وأخيراً فقد كان يصل ثمن أسلاك النحاس المذهبة أو الفضية وكذلك بعض الخردوات وجميعها مخصصة للجزيرة العربية والهند ، إلى ٣٠,٠٠٠ بوطاقة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا ما قارنا الصادرات التى انتهينا من بيانها بالواردات من الجزيرة العربية والهند إلى مصر ، فإننا نرى أن هذه الواردات كان ينبغى أن تسدد كلها على وجه التقريب نقداً ، وهذا ما كان يتم فى الواقع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

عن العلاقات التجارية بين مصر وأوربا

كانت الأمم الأوربية التى تقتسم فيما بينها ، بشكل شبه تام ، تجارة مصر قبل الحملة الفرنسية هى ؛ البندقية ، توسكانيا ، وفرنسا . وكانت سفن هذه الدول وكذلك سفن جمهورية راجوزة تقوم بالتنقل بين الموانئ فى بحار الشرق ، متمتعة بكثير من الامتيازات ، حتى أن رسوم الدخول والخروج المفروضة على حمولات هذه السفن داخل موانئ الأمبراطورية العثمانية كانت أقل مما تخضع له حمولات السفن الوطنية . وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت المعاهدات التجارية التى التمست الامتيازات لكل الأمم المسيحية تراعى بصرامة . وحيث كان القناصل الأوربيون المقيمون فى الموانى المختلفة مكلفين بشكل خاص بالسهر على وضع هذه المعاهدات موضع التنفيذ ، فقد كانوا يلحون فى طلب مثل هذه المعاهدة عند الحاجة ؛ وبذلك فقد حرروا تجارة أممهم من الأعباء الهمجية التى كان من الممكن أن تنوء بها على يد حكام الولايات ، أو غيرهم من أصحاب السلطة المطلقة .

ولم يكن الأمر على هذا النحو مطلقاً بخصوص رعايا الدولة العثمانية ، إذ لم تكن لتجارتهم من حماية ، من أى نوع ، داخل موانئ بلادهم هم ، لذلك فقد تحملت تجارتهم وحدها كل الضرائب التى كان يحلو للسلطة أن تحملها إياها حسبما تهوى ، كما لم تكن لهذه الأتاوات التى تفرضها النزوات حدود تقف عندها ، اللهم إلا حدود جشع فارضيها .ولهذا السبب ، فقد كانت كل التجارة البحرية ، على وجه التقريب ، التى لهذه البلدان ، وعلى الرغم من كل المميزات التى يهيؤها الموقع الطبيعى لجزر اليونان ولكل سواحل تركيا ، تتم على أيدى أمم أجنبية .

ومع ذلك ، فلا ينبغى أن نستنتج من هذا أنه لم تكن هناك علاقات تجارية مباشرة بين مصر وبقية ممتلكات الباب العالى ، فلقد تضاعفت هذه العلاقات لحد سهل معه علينا أن نجمع عنها معلومات واسعة ؛ لكننا لم نتسرع ، اعتماداً منا على هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السهولة ، فى تحصيلنا لهذه المعلومات ، لكن العمليات العسكرية التى تمت فيما بعد ، والتى سبقت جلاءنا عن مصر ، لم تسمح لنا على الإطلاق بمواصلة العمل الذى كنا قد أخذناه على عاتقنا .

١ - تجارة مصر مع البندقية وتريستا

ترجع تجارة البندقية مع مصر إلى القرون الأولى من تأسيس هذه الجمهورية ؛ ولقد ظلت الأمم الأوربية لوقت طويل تحصل عن طريق هذه التجارة على بضائع الشرق . ومنذ أصبح ميناء تريستا نفسه مستودعاً ، كف البادقة عن ممارسة سيادتهم على البحر الأدرياتيكى ، واقتسمت تريستا والبندقية فيما بينهما تجارة الواردات والصادرات التى كانت تتخذ موضوعاً لها ، نفس هذه البضائع .

وكانت حمولات المراكب التى تتوجه من البندقية إلى الاسكندرية مقسمة عادة بين القبطان ، وهو مالك لحصة من هذا المركب ، وبين مجهزى السفينة الذين كانوا يسعون على الدوام لامتلاك أكبر حصة فيها . وبخلاف هؤلاء ، فقد كان يوجد فوق ظهر السفينة أشخاص ممن يطلق عليهم بازار يوتى Bazariotti أى صغار التجار الذين يعملون بحارة على ظهر السفينة ؛ وكانوا بهذه الصفة ينقلون بحراً ولحسابهم ، شحنات مجانية تتفاوت فى أحجامها وقيمتها .

وكان أصحاب السفن قد اقتنعوا باصطحاب هؤلاء البازار يوتى معهم لعدة أسباب : أولا ؛ لأنهم يقومون بالعمل بحارة أثناء الرحلة ؛ وثانيا : لأن مصاريف الشحن من البندقية إلى الاسكندرية كانت قليلة الارتفاع ؛ وأخيراً ؛ لأن هؤلاء البازار يوتى كانوا يضطرون لأن يغيروا وهم على ظهر السفينة بحمولاتهم المجانية ببضائع تحملها نفس السفينة ويدفعون عنها مصاريف شحن عالية .

وكانت البضائع التى تدخل فى حصة القبطان ومجهزى السفينة تودع فى الاسكندرية فى محلات القومسيونجية أو ترسل بعد ذلك إلى القاهرة إلى التجار الذين وجهت السفينة إليهم .

وكانت الشحنات المجانية للبازار يوتى تباع عادة على ظهر السفينة وقبل نزولها على الأرض .

ويأتى من البندقية إلى مصر أجواخ حفيفة هى تقليد لأجواح فرنسا بالإضافة إلى أجواح حمراء اللون بالغة السمك تسمى ساى Saies ، وكذلك ساتان سادة ومقصب متعدد الأصناف ، وقطيفة سادة ومنقوشة بورود ، وورق كتابة أبيض اللون ، وورق لف رمادى اللون ، وأخيراً حبات زينة رحاجية من أشكال وألوان مختلفة ، لصنع العقود وأساور النساء .. الخ .

وفضلا عن ذلك يصدر عن طريق ميانى البندقية وتريستا السلع القادمة من ألمانيا : النحاس الأصفر ، الزنك ، الصلب ، رقائق النحاس ، المرايا ، المسامير من محتلف الأحجام ، النصال ، أسلاك النحاس المذهبة أو الفضية ، الأبر ، الشصوص (شص) ، الحدايد من مختلف الأنواع ، الزئبق ، المغنسيوم ، كبريتور الزئبق ، الزرنيخ ، أجواخ ليبزح ، وأخيراً كمية محددة من اللاوندة .

ومنذ أن أغلقت الحرب أمام تجارتنا معظم موانئ الشرق ، كان يأتى سنوياً من البندقية إلى مصر مائتا بالة من الجوح « موضة » فرنسا ، فى حين كانت هده الواردات لا تشكل فيما مضى سوى أكثر من ٢٠ إلى ٣٠ بالة وتحتوى كل بالة على ١٢ قطعة ، طول القطعة ٣٠ إلى ٣٥ ذراعاً [1] وعرضها ذراعان . وكان يباع هذا الجوح بسعر ١٨٠ – ٢٠٠ بارة للذراع . وكان أعلى هذه الأحواخ قيمة يساوى ٤ بوطاقات .

وكان يأتى من ساى (الحوخ السميك) البندقية خمسة أو ستة أصناف ؛ وكانت هذه الأجواخ مصبوغة باللون الأحمر بدرجاته المتفاوتة ، وكان الاستيراد السنوى منه يبلغ حوالى ٤٠٠ قطعة ، طول القطعة الواحدة خمسون ذراعاً ويبلغ عرضها أكثر من

(١) من المناسب أن نذكر هنا أنهم يستخدمون فى أسواق القاهرة نوعين مختلفين من الدراع . الأول ويبلغ طوله ٥٧٧٥,٠ من المتر وهو الدراع البلدى ، وهو يستخدم فى قياس المنسوجات الكتانية والقطنية المصنوعة فى البلاد ؛ أما الثانى ، ويبلغ طوله ٦٧٧, من المتر فهو الذراع الاستانبولى أو ذراع القسطنطينية ، ويستخدم لقياس الأقمشة الحريرية والأحواح الأوربية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذراعين بقليل . وكان الذراع من القماش يباع بسعر يصل إلى ٨ قروش أسبانية فى عهد حكومة المماليك الذين كانوا يستهلكون منه كميات كبيرة ، لكنه لم يعد يساوى أكثر من ٤ إلى ٥ بوطاقات أثناء إقامة الفرنسيين فى مصر .

وكان يرد إلى مصر فى السنة العادية مائة قطعة من ساتان البندقية درجة أولى بسعر الذراع ١٣٠ مديبى ؛ وأربعون إلى خمسين قطعة درجة ثانية بسعر الذراع ٨٠ إلى ٩٠ بارة وأخيرا مائة قطعة درجة ثالثة يباع الذراع منها بسعر ٧٥ بارة . ويبلغ طول القطعة ٨٠ إلى ١٠٠ ذراع من مقياس البندقية التى يبلغ طولها ٦٣٣٦,. من المتر ؛ وكانت الألوان المرغوبة أكثر من غيرها هى الأحمر والأخضر والأزرق .

وكان يصل حوالى ٤٠ قطعة من الساتان المطرز بالقصب بسعر الذراع ١٠٠ إلى ١٢٠ بارة ؛ ويبلغ طول القطعة الواحدة منها نفس طول القطعة من الساتان السادة ، وينبغى أن نضيف إلى هذه السلع أربعمائة أو خمسمائة قطعة من القماش المحلى بالقصب الذهبى أو الفضى وهو يستخدم ملابس للنساء وفى صنع الأثاث ، وكان يباع عادة بسعر ٦ بوطاقات للمازورة ؛ وزيادة على ذلك ٤٠ إلى ٥٠ قطعة من القطيفة طول الواحدة ٦٠ إلى ٧٠ ذراعاً ، ثمن الذراع الواحد ٢٤٠ مدينى .

وكانت الواردات من ورق الكتابة المسمى ذا الثلاث هلالات تبلغ ٢٠ ألف رزمة ، يستهلك جزء منها فى مصر ، وجزء آخر فى الجزيرة العربية وفى داخل أفريقيا ؛ وكان سعر الرزمة يصل إلى ٢٦٠ — ٤٠٠ بارة .

أما الواردات من الورق الرمادى الخاص بالتغليف فتبلغ حوالى ١٥ ألف رزمة بسعر الرزمة ١٤٠ — ١٥٠ مدينى .

وكانت الحلى الزجاجية من صنع البندقية ترسل فى براميل ؛ وكان يصل من هناك حوالى ٤٠٠ برميل من صنفين : الأولى ويسمى Conteria Ferraria والثانى ويسمى Conteria Mezza Libra . ويشكل النوع الثانى ثلثى الكمية الإجمالية التى تمر بمصر ، وهذه كما هو معروف حبوب من الزجاج المطلى بألوان مختلفة ؛ وكان يأتى من هناك صنف ثالث لاستعمال قوافل دارفور والحبشة ويسمى Conteria Transparente وهى تتكون

من حبوب من اللوبيا الأخضر أو الأصفر الأحاد . وكان يصل منها حوالى العشرين برميلا ، يزن البرميل الواحد من ١٠ إلى ١١ قنطاراً ، زنة القنطار ١٠٢ من الأرطال .

وكان القنطار من الصنف المسمى Mezza Libra يساوى من ٥٠ إلى ٥٥ حبيها سدقياً ، يساوى الواحد منها ٥٣ سنتيما من العملة الفرنسية .

وكان سعر النوع الثالث أكثر ارتفاعاً بقدر طفيف .

وكانت أقيم الحلى الزجاجية الواردة من البندقية إلى القاهرة هى تلك التى تسمى كارنيولى Carniole ، وكان يصل منها ٣٠٠ صندوق يحتوى الواحد منها على ١٥٠ طرداً ، ويباع الطرد الذى يحتوى على ٦٠ مسبحة بـ ٣ إلى ٥ بوطاقات . وكان يوجد زيادة على ذلك عدد كبير للغاية من أنواع مختلفة من حلى البندقية الزجاجية ؛ وقد ارتفع استيراد هذه السلعة فى بضع سنوات إلى مليون ونصف مليون من الفرنكات .

وعندما نضيف إلى هذه السلع التى انتهينا من بيانها حوالى المائتين من المرايا المصقولة تمس يصل إلى ١٠٠٠ بوطاقة ، وهذه لم تكن ترسل إلا حسب الطلبات التى تتم عليها ، فإننا نحصل على الحالة التقريبية للواردات الناتجة من مصانع البندقية .

وإليكم السلع الناتجة من مصانع ألمانيا والتى كانت ترسل من هذا الميناء أو من ميناء تريستا :

ثلاثون برميلا من النحاس الأصفر فى شكل رقائق أو أسلاك مختلفة السمك ، ويزن البرميل الواحد ستة قناطير ، زنة القنطار ١٠٥ أرطال ، ويبلغ ثمنه ٥٠ فندقلى ؛

٣٠٠ صندوق من الصلب يزن الواحد من ٥ إلى ٦ قناطير بسعر ٦٠ بوطاقة ذهبى ، تساوى البوطاقة الواحدة منها ٦٠٠ مدينى ؛

حوالى ألف حزمة من صفائح النحاس والقصدير (سعر الحزمة من ٩٠ إلى ١٠٠ مدينى) ؛

٤٠٠ إلى ٥٠٠ صندوق من المرايا الألمانية الصغيرة ، تجهز بعد ذلك فى مصر حسب ذوق البلاد (ويبلغ ثمن الصندوق من ٣٦ إلى ٤٠ بوطاقة) ؛

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤٠٠ برميل من المسامير (يزن البرميل من ٤٠ إلى ٦٠ أقة ، وتباع المسامير من أصغر الأنواع بسعر الأقة ٦٥ بارة ، ومن أكبر الأنواع بسعر الأقة من ٤٠ إلى ٦٠ بارة) ؛

عشرة صناديق تضم كل منها من ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ حزمة من النصال (تباع الحزمة من أربعة نصال بـ ٥٠ مدينى) ؛

حوالى أربعة آلاف ربطة من أسلاك النحاس المذهب أو الفضى (يباع الصنف الأول بـ ١٥٠ بارة للربطة ، والثانى بـ ٩٥ إلى ١١٠ بارة للربطة ؛ وهذه الأسلاك النحاسية تستخدم فى مصر لتزيين خراطيم النارجيلات التى تغطى كما هو معروف بنوع من الأقمشة الحريرية) ؛

١٠٠ برميل من الحدايد تشتمل على السكاكين من مدينة ستيرى (بالنمسا) ، مقصات ، أمواس ، إبر ، شصات الخ (ويمكن أن تصل هذه السلعة فى السنوات العادية إلى ٢٥ ألف أو ٣٠ ألف قرش) ؛

١٠ إلى ١٥ برميلا صغيراً من الزئبق فى حالته المعدنية ، يزن البرميل ١٩٠ رطلا (يباع القنطار زنة ١٠٠ رطل بـ ٧٠ قرشاً أسبانياً) ؛ وكان يصل أيضاً حوالى ألف أقة من كبريتور الزئبق الأحمر (بسعر الأقة ٥ إلى ½ ٥ بوطاقات) ؛

٢٠ إلى ٣٠ برميلا من أكسيد الرصاص الأحمر زنة البرميل ٦٠٠ إلى ٧٠٠ رطل (يباع القنطار زنة ١٠٥ أرطال بـ ٨ إلى ١٠ فندقلى) ؛

١٥ — ٢٠ برميلا من الزرنيخ ؛

٢٥ — ٣٠ بالة من أجواخ ليبزج ، تحتوى كل منها على ١٢ — ١٥ قطعة ، طول القطعة الواحدة ٣٠ ذراعاً (ويباع الذراع من هذا الجوخ بـ ٣ إلى ½ ٣ بوطاقات) ؛

٤٠٠ برميل من اللاوندة (وسبق أن قلنا أن هذا النبات المجفف يأتى من تريستا وأن القوافل القادمة من دارفور وسنار هى التى تشتريه أو يرسل إلى جدة) ؛

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أربع أو خمس حمولات صغيرة من جذور العرقسوس التى تأتى من الجزر التابعة للبندقية ، وهى جزر: زانتى ، شيفانولى ، كورفو . ويتراوح ثمن الحمولة بما فى ذلك مصاريف الشحن ، بين ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ قرش تركى (يساوى القرش ٤٠ مديني) ؛

وبخلاف هذه البضائع المتنوعة ، كان يشحن كذلك من البندقية إلى مصر حوالى عشرة آلاف لوح من خشب الصنوبر المشكل من أحجام مختلفة ، تباع بمتوسط سعر للوح الواحد ٥٠ مديني .

وكان يشحن كذلك من تريستا كمرات وعوارض من نفس هذا الخشب ، ولم يكن ثمنها ليصل إلا ل ١٠٫٠٠٠ بوطاقة .

وكانت أكبر الأرباح التى تتحقق عن البضائع الموردة من البندقية تعود من الورق الأبيض ، والورق الرمادى ، والحراير ، والصلب ، والحديد ، والحدايد ؛ فكانت تبلغ ٥٠ ٪ بالنسبة للورق ؛ وحوالى ٣٠ ٪ بالنسبة للحراير ؛ ومن ٢٠ إلى ٢٥ ٪ بالنسبة لبقية البضائع .

وكانت ترسو فى الأعوام العادية فى ميناء الاسكندرية ٦ إلى ٧ سفن تابعة للبندقية تبلغ حمولتها حوالى ٤٠٠ إلى ٥٠٠ طن ؛ وكانت هذه هى أكبر السفن التى ترسو فى الاسكندرية ؛ أما السفن القادمة من تريستا فلم تكن تحمل إلا حوالى مائتى طن ، ولم تبدأ التجارة بين مصر وهذه المدينة الأخيرة فى الاستقرار إلا فى عام ١٧٨٥ وهى الفترة التى ذهبت فيها بعض العائلات الشرقية للإقامة فيها .

وكانت الحمولات المرسلة من البندقية وتريستا توجه إلى أربع عائلات بندقية وأربع عائلات يهودية تقيم فى الاسكندرية والقاهرة .

وكان تجار البندقية تحت الحماية والرعاية المباشرة للقنصل العام لأمتهم ، وكان يقيم فى القاهرة ، كما كان يوجد بالإضافة إلى ذلك نائب قنصل فى الاسكندرية ، وكان كلاهما يتلقى رواتب ثابتة من حكومة البندقية . وكانت الامتيازات التى تحصل عليها هذه الجمهورية من قبل الباب العالى هى على وجه التقريب نفس الامتيازات التى تحققها الاتفاقيات التى تربط الباب (العالى) بفرنسا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما عن أسعار الشحن على مراكب البندقية التى تأتى إلى الاسكندرية فقد كان يدفع ٤ إلى ٥ قروش (قيمة القرش ٤٠ مدينى) عن شحن بالة الجوخ وكذلك عن بقية البضائع التى تماثلها فى الوزن . وكانت قيمة الشحنات تسدد على الدوام تقريباً فى شكل كمبيالات أو فى شكل نقود معدنية تسوى بواسطتها أثمان القطن والخمور والحرير التى تذهب السفينة للحصول عليها من قبرص وسوريا .

الصادرات

كانت المنتجات المصرية التى ترسل سنويا إلى البندقية وتريستا تشتمل على الزعفران ، وجلود الأبقار ، وملح النوشادر ، والنطرون ، ولب السنط المسهل ، والسنامكى بمختلف أنواعه ، وكمية ضئيلة من السكر . وكانت الأشياء القادمة من أواسط أفريقيا والتى ترسل إلى الأدرياتيكى من ميناء الاسكندرية تشتمل على الصمغ من دارفور وسنار ، والعاج والتمر هندى وريش النعام .

وأخيراً ، فقد كان يصدر من منتجات الهند والجزيرة العربية عن نفس الطريق : البن ، والصمغ العربى ، والمر ، والبوصير (ثمرة سم السمك وهى مسهل) والكركم أو زعفران الهند ، وراتنج الطلاء ، والحلتيت ، والصبر الكبدى ونوع آخر من الصبر .

ويرسل سنوياً إلى البندقية وتريستا كمنتجات ومواد غذائية مصرية من ١٥٠ إلى ٤٠٠ بالة من الزعفران ، وهذه السلعة تكون بالغة الخفة بقدر ما تكون بالغة النقاء ؛ وتزن البالة من الزعفران درجة أولى ٨٠٠ رطل ، أما البالة من النوع الأدنى فتزن حوالى ٩٠٠ رطل . ويباع القنطار زنة ١١٠ أرطال بـ ١٥ إلى ١٨ بوطاقة .

وقبل الوباء الحيوانى الذى ظهر بمصر قبل الحملة الفرنسية بسنوات قليلة ، كان يصدر فى السنة العادية ما يصل إلى ٢٠ ألف جلد بقر لم يكن يساوى الجلد منها إلا ٦٠ مدينى ، وبعد ذلك أصبح الصادر منها أقل ، فى حين تضاعف سعره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وترسل إلى تريستا اربعة أوخمسة صناديق من ملح النوشادر ، يزن الصندوق الواحد ٥٠٠ إلى ٦٠٠ رطل ، ويباع القنطار زنة ٢٠٤ أرطال بـ ٨٠ إلى ١٢٠ بوطاقة .

ولم يكن يرسل نطرون مصر إلى البندقية وتريستا إلا عند نقص ملح الصودا الوارد من صقلية . وكان التصدير العادى يرتفع فى هذه الحالة إلى ٥٠٠ ألف أقة ثمن الأقة الواحدة ٣ بارات .

أما التصدير السنوى للسنامكى إلى البندقية وتريستا فكان يبلغ ٣٠٠ قنطار ، زنة القنطار ١١٠ أرطال ، ويبلغ ثمن القنطار من ٣٥ إلى ٥٠ بوطاقة . أما الصادرات من السنامكى من النوع المسمى بوصير فتبلغ ٢٠ قفصاً ، يزن القفص الواحد ٤٥٠ إلى ٥٠٠ رطل . ويباع القنطار منه ، وهو أيضاً يزن ١١٠ أرطال ، بـ ١٠ إلى ٢٠ بوطاقة .

ولا تستورد البندقية وتريستا السكر من مصر إلا فى حالة الحرب ، وفى هذه الحالة يتم الأمر على الدوام بكميات قليلة للغاية .

وينبغى أن نضيف إلى هذه السلع المصرية المختلفة حوالى العشرين بالة من الأقمشة الخشنة المسماة دمياطى وتصنع هذه فى رشيد وداخل الدلتا .

ومن الأشياء الواردة من داخل أفريقيا كان يصدر من مصر إلى البندقية وتريستا :

٥٠ قفصاً من الصمغ العربى من دارفور وسنار ، ويستخدم خصيصاً فى تجهيز الساتان والأقمشة الحريرية الأخرى (ويزن القفص ٩ إلى ١٠ قناطير ويساوى القنطار ٢٥ فندقلى) ؛

١٠ بالات من التمر هندى تقسم بالتساوى تقريباً بين البندقية وتريستا (تزن كل بالة من التمر هندى ٩ إلى ١٠ قناطير بسعر يبلغ ١٦ إلى ٢٠ بوطاقة للقنطار ، وأكثرها امتيازاً هو التمر هندى القادم من دارفور) ؛

صندوقان من ريش النعام إلى تريستا : يزن كل صندوق ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رطل ، ومتوسط ثمن الرطل حوالى ١٠ بوطاقات ، وإن كان هذا السعر يتنوع حسب صنف ولون الريش ؛ فيباع الصنف درجة أولى من الريش الأبيض بـ ٤٠ بوطاقة للرطل ، ومن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصنف درجة ثانية بـ ٣٠ بوطاقة ، ودرجة ثالثة بـ ١٥ بوطاقة ، ودرجة رابعة بـ ٨ بوطاقات ؛ ويباع الريش الأسود بـ ٩٠ إلى ١٤٠ مدينى للرطل .

وأخيراً ، فقد كان يأتى إلى البندقية وتريستا من سلع الجزيرة العربية والهند ، عن طريق الاسكندرية :

٢٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ فردة من البن اليمنى (زنة الفردة كما هو معروف ½ ٣ قناطير ويصل ثمن القنطار إلى ٣٠ قرشاً أسبانياً ؛ وكانت الصادرات من هذه السلعة فيما مضى أكبر من ذلك بكثير ، إذ كانت تصل إلى ثمانية آلاف فردة) ؛

٢٠ إلى ٣٠ قفصا من الصمغ العربى من جدة (يزن كل قفص من ١٠٠٠ إلى ١١٠٠ رطل تساوى ال ١٣٠ رطلا منها قنطاراً سعره من ١٥ إلى ١٨ فندقلى) ؛

٤٠ إلى ٥٠ قفصا من البخور زنة القفص من ٦ إلى ٧ قناطير (قنطار البخور مثله فى ذلك مثل القنطار من كل العقاقير القادمة من الجزيرة العربية يزن ١٥٠ رطلا ويباع بـ ٢٠ إلى ٣٠ بوطاقة ذهبى ، وتنقص ال ١٥٠ رطلا بعد تنظيفها واستخلاص البخور بالحالة التى يصل بها من الجزيرة العربية إلى ١٠٠ رطل ؛ وهكذا فإنه يفقد عن طريق التنظيف ما بين الثلث والربع من وزنه) ؛

٥ أو ٦ أقفاص من المر ، يزن القفص الواحد ٩٠٠ إلى ١٠٠٠ رطل (زنة القنطار ١٥٠ رطلا ويباع بـ ٢٥ إلى ٥٠ بوطاقة ذات ال ٩٠ مدينى) ؛

١٢ إلى ١٤ بالة من البوصير (ثمرة سم السمك) زنة البالة ٩٠٠ إلى ١٠٠٠ رطل ، ويذهب هذا النوع من العقاقير كله تقريباً من البندقية وتريستا إلى انجلترا) ؛

٤ أو ٥ بالات من الكركم تزن ٩٠٠ إلى ٩٥٠ قنطاراً، يصل ثمنها ١٥ إلى ٢٠ فندقلى (وتشحن هذه السلعة بشكل خاص إلى تريستا) ؛

حوالى ٢٥ بالة من الحلتيت (صمغ كريه الرائحة والمذاق ، يستخدم لتسكين التشنجات) تتكون كل منها من فردتين ، تزن الواحدة منهما ٣٥٠ إلى ٣٦٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رطلا (ويساوى القنطار زنة ١٥٠ رطلا وزنه خام من ٢٠ إلى ٣٠ بوطاقة ، ولا يرسل منها إلى البندقية إلا خمس أو ست فردات ، أما العشرون فردة الأخرى فتمر بتريستا حيث تصدر إلى ألمانيا) ؛

وأخيراً ٢٠ فردة من الصبر تقسم بالتساوى تقريباً بين البندقية وتريستا : وتزن الفردة ½ ٢ قنطار ، زنة كل منها ٥٢٥ رطلا ، ويباع بـ ١٨ إلى ٢٠ فندقلى .

٢ – تجارة مصر مع توسكانيا

الواردات

يصدر من ليفورنيو إلى مصر القرمزية (حشرة تستخدم فى الصباغة) ، الساتان ، التفتاز ، الفلورنس ، التفتار الأسود ، أقمشة حريرية مطرزة ، القطيفة السادة والمنقوشة ، الأجواخ والطرابيش ، العنبر وحبات المسابح من خامات مختلفة وأصداف مختلفة ، المرجان ، ورق الكتابة ، سلفور الرصاص (للصباغة) ، الفساغ ، القرنفل ، الفلفل ، الفلفل الحلو ، الرصاص ، القصدير ، الحديد ، الزنك ، الأسلحة من صنع انجلترا ، الحدايد ، المغنسيوم ، الزرنيخ ، الأسلاك الحديدية ، مربعات الرخام ، الأعمدة الرخامية ، القروش الأسبانية ، التالير (نقد ألمانى) سكين البندقية (عملة ذهبية) .

وفى السنة العادية ، يأتى إلى الاسكندرية أربعون أو خمسون برميلا من القرمزية تباع اللبرة منها تسليم ليفورنيو بـ ٣ إلى ٥ قروش أسبانية ؛

وخمسون صندوقاً يحتوى كل منها على عدد من قطع الساتان يصل إلى نحو خمس وعشرين قطعة ، وتساوى هذه الصناديق ، تبعاً لعدد القطع التى تحتوى عليها من ٢٠٠ إلى ١٠٠٠ écus توسكانى ، وقيمة الواحد من هذه القطع النقدية بالنسبة إلى القرش الأسبانى تصل إلى نسبة ٢٥ : ٢٨ ؛

حوالى ثلاثين صندوقاً من التفتاز الفلورنسى (يضم الصندوق الواحد عادة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من ١٠ إلى ٢٠ قطعة من التفتاز ، يصل طول القطعة منها إلى نحو ٥٠ إلى ٦٠ ذراعاً ، بل يبلغ فى بعض الأحيان ١٠٠ إلى ١١٠ أذرع ، ويباع الذراع الواحد فى العادة بـ ٧٠ إلى ٨٠ مديني ؛

حوالى العشرين صندوقا من التفتاز الأسود ، يضم كل منها من ١٠ إلى ٢٠ قطعة ، ويبلغ طول القطعة من ٥٠ إلى ١٠٠ ذراع ، ويباع الذراع بـ ١٠٠ إلى ١٣٠ بارة ؛

من ٩ إلى ١٠ صناديق تضم أقمشة من الحرير المقصب بالذهب أو الفضة ، ويحتوى كل واحد من هذه الصناديق على أكثر من عشر قطع من الحرير ، طول القطعة منها ٣٠ إلى ٥٠ ذراعاً ؛ ويباع الذراع من هذا القماش عادة بـ ٥ إلى ٧ بوطاقات ؛ وتستخدم هذه الأقمشة فى صنع ملابس النساء وفى أعمال التأثيث .

وزيادة على ذلك كان يصل إلى مصر من ٥ إلى ١٠ صناديق من أقمشة الحرير المطرز ، ويضم كل صندوق من ٥ إلى ٢٠ قطعة ، طول الواحدة من ٣٠ إلى ٥٠ ذراعاً ، ويتراوح ثمن الذراع من ١٠٠ إلى ٢٠٠ بارة ؛

دستة واحدة من صناديق القطيفة ، يضم كل صندوق منها ١٢ قطعة ، طول الواحدة منها ٥٠ ذراعاً ، ويصل ثمن الذراع من هذه القطيفة عادة إلى نحو ٣ بوطاقات ؛

١٠ صناديق من الكريب ، يحتوى كل منها على ٢٠ إلى ٤٠ قطعة ؛ طول القطعة ٣٦ ذراعاً ، ثمن الذراع ٥٠ بارة ؛

١٦ — ١٨ صندوقا من الطرابيش المصنوعة فى فرنسا ، ويضم الصندوق من ١٠٠ إلى ١٢٠ دستة ، ثمن الدستة الواحدة من ١٠ — ١٢ بوطاقة ؛

٢٠٠ بالة من الجوخ الفرنسى ، تضم كل واحدة ١٢ قطعة ، طول القطعة الواحدة منها من ٣٠ إلى ٣٢ ذراعاً ؛ ويبلغ عرضها ذراعين . ولم يحدث أن استوردت هذه السلع عن طريق ليفورنيو إلا منذ حرب التحرير .

ويأتى من ليفورنيو إلى الاسكندرية ، لصنع العقود والأساور ، حبوب العنبر

الأصفر من عشرين حجما مختلفاً . وهذه الواردات عبارة عن ٤٠ صندوقا من هذه السلعة ، يضم كل صندوق منها ١٠٠ كيس من الحبوب ، ويزن من ٣٠ إلى ٣٦ أقة ؛ ويبلغ متوسط سعر الأقة نحو ١٧ فندقلى ؛

عشرون صندوقاً من حبوب المرجان تزن من ١٠٠ إلى ١٥٠ رطلا ؛ ويتراوح ثمن الرطل من ١٥ إلى ٣٠ بوطاقة ، بحسب حجم هذه الحبات ؛

٣٠٠ بالة من الورق ، وتحتوى البالة الواحدة على ١٢ إلى ١٥ رزمة ثمنها من ٤ إلى ١٥ بوطاقة . ويرد منها ثلاثة أصناف . ويشكل الصنف الثالث منها ، وهو أصغرها حجما ، ثلاثة أرباع إجمالى الوارد ؛

نحو ألف برميل من أكسيدالرصاص الأحمر ، زنة البرميل الواحد نحو ٥٠٠ رطل ، ويباع القنطار زنة ١٥٠ رطلا من هذه الخامة بـ ٨ أو ٩ بوطاقات ؛ وقد ارتفع ثمنه إلى ٣٠ بوطاقة منذ الحرب ؛

نحو ٥٠ بالة من الفساغ تزن الواحدة ٤ او ٥ قنطار ، ويتراوح ثمن القنطار من ٥٠ الى ٨٠ فندقلى .

١٢ برميلا من القرنفل ، يزن البرميل الواحد من ٢ إلى ٦ قناطير ، زنة القنطار من هذه العطارة ١٠٠ رطل ، ثمن الرطل أربع بوطاقات ؛

٢٠ أو ٣٠ طنا من الفلفل الرفيع ، ويزن الطن نحو خمسمائة أقة ؛ وتباع الأقة بـ ٥٠ إلى ٦٠ بارة ؛

٥٠ إلى ٦٠ جوالا من الفلفل يزن الجوال الواحد أربعة قناطير ، زنة القنطار الواحد ١٠٢ رطل ، ويباع بـ ٦٠ بوطاقة ذهبى .

٦٠٠ إلى ٧٠٠ قنطار من القصدير ، زنة القنطار ٢٠٠ رطل ، وثمنه حوالى ٧٠ بوطاقة ؛

حوالى عشرة آلاف قنطار من الحديد ، ثمن القنطار ١٥ بوطاقة فى المتوسط ؛

٢٠٠ صندوق من الزنك ، ثمن الصندوق الواحد من ٦٠ إلى ٧٠ بوطاقة ذهبى ؛

٣٠ أو ٤٠ صندوقاً من الحدايد المختلفة : مثل السكاكين ، والمقصات ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والملاعق ، والنحاس الأصفر.. أخ – وكان يتراوح ثمن الصندوق بحسب أصناف البضائع التى يحتوى عليها ، من ٢٠٠ إلى ١٠٠٠ بوطاقة ؛

ثلاثة أو أربعة براميل من أسلاك الحديد ، يزن كل واحد منها نحو ثمانية قناطير ، ويبلغ متوسط ثمن القنطار ٤٠ بوطاقة ؛

ما يساوى نحو خمسين ألف بوطاقة من الأسلحة والسلع الانجليزية الأخرى المرسلة إلى مصر عن طريق ليفورنيو ؛

١٨ أو ٢٠ برميلا من المغنسيوم ، ويزن البرميل الواحد عشرة قناطير ، ثمن القنطار الواحد من ١٠ إلى ١٢ بوطاقة ؛

من ٥٠ إلى ١٠٠ برميل من الزرنيخ ، ويزن البرميل الواحد منها ٥ قناطير ، ثمن القنطار الواحد منها ٥٠ بوطاقة ذهبى ؛

نحو عشرة آلاف مربع رخام ، ثمن المربع من ٩٠ إلى ١٠٠ بارة ؛ وحوالى عشرين عموداً من الرخام تامة التجهيز ، تساوى تبعاً لأحجامها ٤٠ – ٥٠ بوطاقة إلى ٤٠٠ – ٥٠٠ بوطاقة .

وأخيراً ، فيقدر النقد المعدنى الذى كان يتدفق سنويا إلى مصر بـ ٣٠٠ ألف أو ٤٠٠ ألف من القروش الأسبانية والتاليرى ، وبـ ١٥ ألف سكين بندق ، وذلك لتخليص سداد السلع التى كانت تصدر منها إلى ليفورنيو .

الصادرات

يصدر من الاسكندرية إلى ليمورنيو ، فى شكل منتجات وسلع مصرية : القمح ، الأرز ، الفول ، الزعفران ، الكتان ، عزل القطن ، ملح النوشادر ، ملح البارود ، المنسوجات القطنية والكتانية ، السنامكى ، لباب سنط العنبر (مسهل) ، جلود الجاموس والأبقار والخراف والجمال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويصدر كذلك من الاسكندرية إلى توسكانيا ، كمنتجات وسلع قادمة من أواسط أفريقيا ومن آسيا : العاج ، التمر هندى ، صمغ سنار ، ريش النعام ، البن ، صمغ حدة وينبع ، البخور ، الكركم ، الألوة أو الصبر ، المر ، البوصير (ثمرة سم السمك) صمغ الطلاء والورنيش ، الحلتيت (صمغ كريه الرائحة يستخدم فى تسكين التشنجات) .

وعندما كانت أوربا تعانى من نقص فى الحبوب ، كانت ليفورنيو تستورد من مصر كميات محددة من هذه الحبوب ، كما حدث على سبيل المثال خلال العامين اللذين سبقا حملتنا على مصر ، حين جاءت إليها من دمياط والاسكندرية نحو عشرين حمولة تشتمل على القمح والأرز والفول . وفيما مضى كانت صادرات الأرز وحدها كبيرة الحجم ، إذ وصلت إلى ما يزيد على ثلاثة آلاف أردب .

وتقدر كمية الزعفران التى تصدر سنويا إلى ليفورنيو بحوالى ألف قفص ، وتحتوى هذه الأقفاص ، أو هذه السلال المنشورية الشكل ، على ثمانية قناطير ، زنة القنطار ١١٢ رطلا ، ويبلغ ثمنه ٩ إلى ١٠ بوطاقات .

كما يقدر ما يصدر إليها من الكتان بستة آلاف إلى ٦٫٥٠٠ بالة ويتراوح ثمن البالة التى تزن مائتى أقة بـ ٢٥ إلى ٥٠ بوطاقة ، حسب الصنف .

أما غزل القطن ، الذى يصدر إلى توسكانيا ، فكان يأتى من القاهرة وضواحيها ؛ وكان يصدر منه كل عام من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ بالة ، تزن البالة الواحدة منها سبعة قناطير ، زنة القنطار ١٢٥ رطلا . ويتراوح ثمن رطل القطن المغزول ما بين ٢٥ إلى ٤٠ بارة .

وقلما يتجاوز مقدار الصادر سنوياً من ملح النوشادر العشرة أقفاص يزن القفص الواحد منها خمسة قناطير . ويباع القنطار من هذا الملح ، زنة ٢٠٤ من الأرطال بـ ٩٠ إلى ١٤٠ بوطاقة .

وقد استوردت توسكانيا منذ حروب الثورة كمية ضئيلة من ملح البارود من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر . وكانت كمية الصادر منه سنوياً تصل إلى أربعة أو خمسة آلاف قنطار ، ثمن الواحد منها من ٣ إلى ٥ بوطاقات .

أما منسوجات القطن المصرى التى ترسل سنوياً إلى ليفورنيو فكانت تسمى دمياطى ، وكانت تصنع عادة فى رشيد ، حيث كان يصدر منها كل عام ما بين ٣٠ — ٤٠ بالة ، تشتمل كل بالة منها على ٢٠٠ إلى ٤٠٠ قطعة ، طول القطعة الواحدة ثمانية أذرع ، ويتراوح ثمن القطعة بين ٦٠ إلى ١٢٠ مدينى .

وكان يصدر كذلك عشرون بالة من الأقمشة الكتانية من الصنف المسمى منوفية لأنه كان يصنع فى ولاية منوف . وكانت البالة تضم ١٥٠ قطعة ، طول الواحدة منها نحو ٢٥ ذراعاً ، وتساوى من ٨٠ إلى ١١٠ بارة .

وفى الماضى ، كان لابد أن تشتمل هذه الصادرات من الأقمشة الكتانية المصرية على جزء كبير من تلك الأقمشة المسماة أسيوطى . ولكن هذه الأقمشة لم تعد تشكل جزءاً من هذه الصادرات منذ ما يزيد على عشرين عاماً .

كذلك كانت تحصل ليفورنيو من مصر سنوياً على نحو ٥٠٠ قنطار من السنامكى ، ويباع القنطار زنة ١١٠ رطل بـ ٣٠ إلى ٤٠ بوطاقة ؛

وتحصل بالإضافة إلى ذلك على عشرين قفصاً من لباب سنط العنبر ، يزن القفص منها من أربعة إلى خمسة قناطير ، ثمن القنطار الواحد من ١٢ إلى ١٥ بوطاقة .

ومنذ الوباء الذى حل بالماشية فى عام ١٧٩٠ ، لم يعد بإمكان مصر أن تصدر الجلود إلى ليفورنيو ، وكانت تصدر منها قبل هذا التاريخ من ٢٠ إلى ٣٠ ألفا كل عام ، ثمن الجلد الواحد منها من ٤٥ بارة ($\frac{1}{2}$ بوطاقة) إلى ٤ بوطاقات ، تبعاً للصنف .

أما السلع الواردة إلى مصر عن طريق قوافل دارفور وسنار ، فقد كان يرسل منها إلى ليفورنيو ، عن طريق الاسكندرية ، ما يقرب من ٣٠٠ طن من العاج ، ثمن الطن الواحد منها من ٦٠ إلى ٨٠ فندقلى ؛

وكذلك ٢٠ إلى ٣٠ قفصاً من التمر هندى ، زنة الواحد منها خمسة قناطير ، ويباع القنطار زنة ١١٠ أرطال بـ ٣٠ بوطاقة ؛

ومائتا قفص من الصمغ العربى وارد سنار ، يزن القفص من ١٠ إلى ١١ قنطاراً ، زنة القنطار ١٢٠ إلى ١٢٥ رطلا ؛ وحين يكون الصمغ خالياً من الشوائب ، يباع بسعر ٢٠ إلى ٢٢ فندقلى ، ويساوى الفندقلى ١٤٠ بارة ؛

٢٠ صندوقا من ريش النعام ، يزن كل صندوق منها من ٥٠ إلى ٢٠٠ رطل ، ويباع الرطل من أجمل أنواع الريش الأبيض بـ ٤٠ بوطاقة ؛ ويصل سعره أحياناً إلى ١٠٠ ريال محبوب ؛ أما رطل الريش الأبيض من الصنف العادى فلا يتعدى ثمنه ١٥ بوطاقة ؛ أما ثمن الرطل من النوع الأسود من نفس الصنف (العادى) فلا يزيد على بوطاقتين .

أما السلع الواردة من الجزيرة العربية فيصدر منها سنوياً إلى ليفورنيو ١٢٠ فردة من البن موحا ، تزن الفردة من ثلاثة قناطير إلى ثلاثة قناطير ونصف القنطار ، ويبلغ ثمن القنطار ٣٠ بوطاقة ؛

مائة قفص من الصمغ العربى القادم من جدة وينبع ، ويحتوى كل واحد من هذه الأقفاص على ١٠ إلى ١١ قنطاراً . ويزن قنطار الصمغ العربى بعد تخليصه من الشوائب ١٢٠ رطلا ، ويباع بـ ١٨ فندقلى إذا كان قادماً من جدة ، وبـ ١٤ فندقلى فقط إذا كان من الصنف القادم من ينبع .

وعندما كانت الحرب بين الباب العالى وبين روسيا لا تسمح للروس مطلقاً بالحصول على البخور من القسطنطينية ، كانت ترسل منه من الاسكندرية إلى ليفورنيو كمية أكبر حجما (من المعتاد) ، تصل فى بعض الأحيان إلى ٣٠٠ قفص ، يزن القفص الواحد منها من ٨ إلى ٩ قناطير ، زنة القنطار الواحد ١٥٠ رطلا ، ويبلغ سعره من ١٥ إلى ٢٥ بوطاقة دهبية .

كما كان يرسل سنوياً ١٠ بالات من الكركم ، تزن البالة الواحدة ٧ قناطير ، ويساوى القنطار زنة ١٥٠ رطلا ٢٠ فندقلى .

ويرسل كذلك كل عام إلى ليفورنيو خمسة أقفاص على الأكثر من المر ، زنة القفص من ٦ إلى ٧ قناطير ، ويتراوح ثمن القنطار زنة ١٥٠ رطلا من ٣٠ إلى ٥٠ بوطاقة ؛

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومائة بالة من الوصير (تمرة سم السمك) ، تزن البالة الواحدة من ٦ إلى ٧ قناطير ، زنة القنطار ١٥٠ رطلا ، ويباع بـ ١٥ فندقلى ؛

من ١٠ إلى ٢٠ قفصاً من صمغ الطلاء ، يبلغ وزن القفص من ستة إلى سبعة قناطير ، زنة القنطار ١٥٠ رطلا ؛

خمس أو ست بالات من الحلتيت تزن البالة من سبعة إلى عشرة قناطير ، زنة القنطار ١٥٠ رطلا ويباع بـ ٢٥ بوطاقة .

وتتم التجارة بين مصر وتوسكانيا عن طريق بيوت تجارية أوربية مستقرة فى مصر ، أو عن طريق تجار شرقيين استقروا فى ليفورنيو ، ويتعاملون مع مسيحيين من دمشق وحلب .

ولم يستقر فى الاسكندرية سوى بيتين تجاريين تابعين لتوسكانيا ولم يستقر من هذه البيوت فى القاهرة سوى ثلاثة بيوت ؛ وفى نفس الوقت كان يوجد فى هاتين المدينتين خمسة عشر أو عشرون تاجرا سوريا ، واثنان أو ثلاثة من التجار اليهود ، كانوا يقومون مباشرة بممارسة هذه التجارة .

وكانت تصل فى السنوات العادية من ١٢ إلى ١٥ سفينة قادمة من ليفورنيو إلى الاسكندرية ، تنتمى إلى مختلف الأمم الأوربية .

وكان يدفع بمثابة سمسرة أو عمولة لوسطاء الاسكندرية ٤٠ بارة عن الصندوق الواحد ، أو البالة الواحدة مهما يكن حجم أو وزن أى منهما .

٣ — تجارة مصر مع فرنسا

الواردات

كان يصدر من فرنسا إلى القاهرة سلع مختلفة تنتجها المصانع الوطنية ، بالإضافة إلى بضائع متنوعة ، قادمة من بلاد أجنبية ، وخزنت فى مارسيليا .

وكانت أهم البضائع الفرنسية تشتمل على أجواخ لانجدوق المعروفة باسم لندران درجة أولى وثانية ، وكذلك على أجواخ من سيدان ومن لوفييه وآب فيل ، بالإضافة إلى الفلانل من مونلييه ، ومنسوجات من ليون محلاة بجالونات ذهبية وفضية ، وأغطية رءوس حمراء تسمى طربوش صنعت فى بروفانس ؛ وحدايد وأسلحة من مصنع سانت إتيان ؛ وإبر وحمور من موبلبيه وورق تعليف وخزف من ضواحى مارسيليا ، ومشروبات روحية من أصناف مختلفة ؛ وورود الخزامى ، أو اللاوندة ؛ وصابون وعطور ، ومشروبات وحلوى ، وأخيراً على حلى وماسات غير مصنعة .

أما السلع التى جلبت من الخارج بقصد تصديرها إلى مصر عن طريق مارسيليا فهى : الأسلحة من ألمانيا وبشكل خاص نصال السيوف سواء للجلابة أى لقوافل أواسط أفريقيا أو لعرب جدة ؛ والرصاص والحديد من السويد وموسكوفيا ؛ والقصدير ، وسلفور الرصاص ، والزنك ، والجلود والفراء ، والفستاغ ،والقرمزية ، والقرفة ، والفلفل ، والمستكة ، والفلفل الأسود ، والزنجبيل ، والأخشاب التى تدخل فى الصناعة .

وتشكل أجواخ لانجدوق الجزء الأكبر والأهم من صادرات فرنسا إلى مصر ، إذ كانت مصر تستهلك من هذه الأجواخ فى العام الواحد من ١٠٠٠ إلى ١١٠٠ بالة ، تضم كل بالة ١٢ قطعة ، تشتمل فى مجموعها على مائتى ذراع فرنسى ، ويبلغ عرض هذه الأجواخ $\frac{1}{4}$ ٢ دراع فرنسى .

ويتراوح سعر أجواخ لانجدوق تبعاً للصنف من ٧ فرنكات و ٥٠ سنتيما إلى ١٠ و ١٤ فرنكا للذراع الواحد .

ونادراً ما كان يبلغ الوارد السنوى من أجواخ سيدان ولوفييه وآب فيل الفاخرة ثمانى أو عشر بالات .

ويمكننا أن نقدر إجمالى ثمن منسوجات وحلى ليون التى تصدر كل سنة إلى مصر بنصف مليون من الفرنكات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد أقيمت فى كل من مارسيليا وإكس مصانع للطرابيش على النمط التونسى ، وبدأت تصدر من هذه السلعة إرساليات كبيرة بعض الشيء ؛ وعلى الرغم من أن هذه المصانع لم تصل بعد ، فى صناعة هذه السلعة ، لنفس الدرجة من الجودة التى بلغتها مصانع الدول البربرية (دول المغرب) فإن صادراتها كانت تبلغ مع ذلك نحو العشرين صندوقاً ، يضم كل صندوق منها ثمانين دستة من الطرابيش ؛ ويبلغ ثمن الصندوق الواحد فى العادة من ألفين إلى ألفين وأربعمائة فرنك .

أما الحدايد القادمة من مارسيليا فكانت تشتمل على السكاكين ، والمرايا ، والشمعدانات ، والمقصات ، والأقفال ، والأمشاط ، والدبابيس ، والإبر .. الخ . وكان يبلغ ثمن كل هذه السلع سنوياً من ثلاثين إلى خمسين ألف فرنك .

وكانت أسلحة سانت إتيان التى ترسل إلى مصر عبارة عن البنادق والقرابينات والطبنجات والمسدسات المحلاة بالفضة أو المزدانة بطرق مختلفة .

كذلك كانت الإبر ترد من سانت إتيان ، وكانت هذه السلعة التى تخصص للتصدير تشتمل على ١٢ — ١٥ برميلا ، يمكن تقدير ثمن الواحد منها بـ ٢٥٠٠ فرنك .

أما الجزار السائل المصنوع فى مونبلييه فكان يستخدم فى طلاء أعمال النجارة ، وكان يورد منها إلى مصر ٨ — ١٠ براميل فى العام الواحد .

وكان الورق الوارد من فرنسا ينقسم إلى نوعين : الأول وتحتوى البالة منه على ٢٤ ررمة ؛ والثانى وتضم البالة منه ١٤ رزمة فقط .

وكان النوع الأول يرسل عن طريق السويس إلى جدة ؛ أما الثانى فكان يستهلك فى مصر ، وكان الاستهلاك السنوى من هذين النوعين يبلغ ستمائة أو ثمانمائة بالة ، يبلغ متوسط ثمن الواحدة منها بحسب ثمن بيعها فى مارسيليا ٤٠ إلى ٥٠ فرنكا .

أما حرف هذه المدينة وضواحيها فلم يكن موضوعاً لتعامل تجارى كبير بالنسبة للبيوت التجارية التى تتجر مع الشرق ؛ لكنه كان يشكل شحنات مجانية خاصة بقباطنة وضباط السفن ، وكان يجلب منها نحو ٥٠٠ صندوق فى العام الواحد ، ويبلغ ثمن الصندوق ٢٥ إلى ٣٠ فرنكا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك كانت مشروبات مارسيليا الروحية ، شأنها شأن الخزف ، مجرد سلع بسيطة تنقل مجاناً لحساب القباطنة وبحارة السفن ؛ فكان يصل منها إلى الاسكندرية مائتان أو ثلاثمائة صندوق كل سنة ، حيث تستهلك الكمية الأكبر من هذه الصناديق . وكان متوسط ثمن الواحد من هذه الصناديق الصغيرة يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ فرنكا ؛ أما ورود الخزامى أو اللاوندة ، التى كان يورد منها فى السنة العادية من ٦٠ إلى ٨٠ بالة ، وكذلك الصابون والشربات والحلوى ، فقد كانت كلها بالمثل ، مجرد سلع تنقل مجاناً لحساب القباطنة والبحارة .

أما المجوهرات الواردة من فرنسا فتشتمل على ساعات من جيف ، وحلقان من باريس ، وماسات خام تصنع فى القاهرة تبعاً للذوق الشرقى .

وحيث لم تكن هذه السلع لتعلن مطلقا للجمارك ، فإننا لا نستطيع أن نحصل على أى بيان بقيمة هذا الفرع من فروع التجارة .

ويشكل الحديد والصلب الواردان من السويد ، وكذا الرصاص والقصدير والزنك الواردة من إنجلترا ، وهى السلع التى توردها تجارة مارسيليا كل عام إلى مصر ، ما قيمته ٦٠٠ ألف فرنك . ولم تكن هذه المعادن تخص مصر وحدها ، فقد كان يذهب جزء كبير منها إلى الجزيرة العربية عن طريق السويس .

ويصدر من مارسيليا ثلاثمائة أو أربعمائة برميل من سلفور الرصاص ، يبلغ سعر البرميل الواحد منها ١٥٠ فرنكا ، وكانت هذه السلعة ترد من إكوس Ecosse أو سردينيا .

أما استيراد الفشاغ (دواء يسبب حدوث العرق) ، الذى يستخدمه المصريون بكثرة ، فيصل فى العام الواحد إلى عشرين أو ثلاثين برميلا ، يزن كل منها من ثلاثة إلى أربعة قناطير وعادة تساوى اللبرة منه ، زنة مارسيليا ، وهى التى تبلغ بالنسبة للبرة من زنة مارك ما يساوى ١٦ : ٢٠ ، ثلاثة فرنكات .

وتعد القرمزية واحدة من أهم السلع المستوردة من الخارج على ظهر مراكب فرنسية ؛ وتحظى القرمزية القادمة عن طريق مارسيليا بتقدير خاص عن تلك التى ترد عن طريق أماكن أخرى ، إذ كانت الأولى تنقى بعناية من كل الشوائب التى قد تقلل من جودتها قبل أن تبحر السفن بها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويصدر منها إلى مصر سنوياً مائة برميل ، يزن الواحد منها ٧٥ إلى ٨٠ أقة . وتساوى اللبرة منها فى مارسيليا ١٦ — ١٨ فرنكا ؛ وتستهلك مصر من ٥٠ إلى ٦٠ برميلا من هذه السلعة تستخدمها فى صبغ الحرير الذى تنتجه مصانع مختلفة فى داخل البلاد ؛ أما الجزء الباقى فيرسل إلى الهند عن طريق السويس وجدة .

أما التوابل ومواد العطارة مثل القرنفل والفلفل والمستكة ، الخ ، والتى ترسل من فرنسا إلى مصر ، فكانت ترد من أسواق هولندا ؛ ذلك أن الهولنديين يستحوذون بشكل تام على تجارة التوابل التى يجمعونها من جزرهم ، هناك فى الأرخبيل الهندى ، وحيث كانت كمية هذه السلع القادمة عن طريق البحر الأحمر لا تفى باحتياجات مصر ، فقد كانت مصر تستورد منها ، عن طريق الاسكندرية ، ما يبلغ إجمالى ثمنه نحو مائتى ألف إلى ثلاثمائة ألف فرنك .

أما أخشاب فرناموك ، التى تشحن من مارسيليا إلى مصر ، فقد كانت تأتى من البرتغال ، وكان يصدر منها عن هذا الطريق نحو ٤٠٠ قنطار ، يبلغ ثمن الواحد منها فى مارسيليا ٢٠ — ٣٠ فرنكا .

وقد حصل الفرنسيون على أفضلية على كل أمم أوربا التى كانت تتجر مع مصر إذ حرص الفرنسيون ألا يرسلوا إلى موانى المشرق إلا السلع جيدة الصنف .

كما كان يوجد بمارسيليا ، لمراقبة شحنات السلع المحرة بمنتجات مصانعنا ، وبخاصة الأجواخ والورق ، مكتب أو أكثر للتفتيش . ولم تكن هذه المكاتب لتسمح بشحن أية سلعة إلا بعد التأكد من جودة نوعها ، وهو ما تؤكده بأن تلصق بالبالات أو بالبراميل الخاصة بهذه البضائع علامة مميزة ، وترفق هذا بمنح هذه البضائع شهادة بالجودة . وكانت هذه السلع تفحص من جديد بالاسكندرية بواسطة قنصل فرنسا ، الذى لم يكن مخولا له أن يمارس التجارة لحسابه الخاص ، وكان لهذا الوكيل العام ، الذى تحددت اختصاصاته بموجب المرسوم الصادر فى ١٧٨١ سلطة أن يرفض ، وأن يعيد على نفقة المصدر ، تلك السلع التى يجد فى تصنيعها بعض العيوب .

وفى الأزمنة الأخيرة كان ثمة أربع أو خمس بيوت تجارية فرنسيه مستقرة فى القاهرة ؛ وكانت هذه تمتلك عشر سفن نقل ، تبلغ حمولتها مائتين إلى ثلاثمائة طن ، وتقوم هذه السفن كل سنة برحلتين من مارسيليا إلى الاسكندرية ، ذهابا وإيابا .

وبالإضافة إلى هذه السفن العشر ، كان هناك ما يقرب من المائة سفينة ، تصل من موانينا المختلفة والمطلة على البحر الأبيض المتوسط لتشارك فى قوافل الشرق ، أو لتقوم بالمساحلة بين مرافئه ، وكانت هذه السفن تصل مرة على الأقل إلى الاسكندرية خلال مدة هذه القوافل ، والتى كانت تبلغ عامين على أقل تقدير ، وكثيراً ما كانت تمتد إلى أربعة أعوام .

وكانت النسبة المعتادة للأرباح التى يحققها التجار الفرنسيون من مختلف السلع الواردة إلى مصر ، والتى انتهينا من بيانها ، تصل إلى ٢٠ ٪ أو ٣٠ ٪ ؛ وهذه النسبة مؤكدة على الدوام بالنسبة للأجواخ بصفة خاصة .

وكانت تحصل نسبة ٣٪ كعمولة على دخول وخروج البضائع التى يستوردونها أو يصدرونها ؛ أما مصاريف النقل من مارسيليا إلى الاسكندرية فكانت تختلف تبعاً للظروف ، على الرغم من التعريفة التى وضعتها الغرفة التجارية فى مارسيليا .

أما المصاريف التى تتحملها السلع الفرنسية ابتداء من إفراغها فى الاسكندرية حتى وصولها إلى القاهرة ، فتصل إلى ١٠ ٪ أو ١٥٪ من أصل قيمتها . وهذه تشتمل على الرسوم الجمركية ومصاريف النقل والسمسرة .

الصادرات

تصدر مصر إلى فرنسا : الأرز ، القمح ، الزعفران ، ملح النوشادر ، النطرون ، الصودا ، القطن المغزول ، الأقمشة القطنية والكتانية من مختلف الأصناف ، السنامكى ، جلود الجاموس والأبقار والجمال .

وبخلاف هذه السلع المنتجة أو المصنوعة فى مصر ، كانت الأخيرة تصدر إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فرنسا أيضاً السلع الآتية والتى كانت تعد مستودعاً لها ، وهى تشتمل على السلع القادمة من أواسط أفريقيا ، عن طريق دارفور وسنار : الصمغ ، التمر هندى ، العاج ، ريش النعام ، وكمية ضئيلة من تراب الذهب (التبر) .

ويشتمل الجزء الأكبر من هذه السلع ، وهو الذى كان يأتى من الجزيرة العربية والهند عن طريق جدة — السويس ، على بن موخا (إحدى بلاد اليمن) وصمغ الطلاء ، والصمغ العربى وارد جدة وينبع والطور ، والحتليت ، والبخور ، والمر ، والألوة (أو الصبر) ، والبوصير (أو ثمرة سم السمك) ، والكركم ، جوز القئ ، وعقاقير أخرى نجدها مبينة بالتفصيل فى تعريفة جمرك السويس .

وكان الأرز يصدر فى العادة عن طريق دمياط ، ولم يكن لهذه التجارة نفس النشاط على الدوام ، إذ كانت تعتمد على وفرة أو ندرة الحبوب فى أوربا ، فلقد وصلت إلى أوربا فى سنوات بعينها ما يبلغ العشرين حمولة من الأرز ، ويبلغ صادر مصر من الأرز إلى فرنسا سنويا خمسة آلاف أردب .

أما القمح الذى يصدر إلى فرنسا فكان يخزن أولا فى رشيد ؛ ومن هناك يرسل فى مراكب إلى أبى قير والاسكندرية ، ومنها يبحر القمح فوق السفن التى تشكل قافلة المشرق ، وكان تصدير القمح شأنه شأن تصدير الأرز ، يتعرض لتقلبات كبيرة ، وعلى نحو شاذ ، وكانت السفن اليونانية على وجه الخصوص ، ومن مختلف جزر الأرخبيل ، هى التى تستخدم فى نقل القمح من فرنسا حين عانت إيطاليا من نقص الغلال وكذلك الولايات المتحدة الوسطى ، من نقص الغلال فى منتصف القرن الماضى ، وتقدر الكمية التى صدرت من القمح خلال سنوات القحط الثلاث ، والتى أصابت هذه المناطق ، بنحو ثمانين ألف أردب ، وفرض مراد بك ، وهو الذى كان يحصل على عائد جمرك رشيد ، رسم خروج قدره ١٨٠ مدينى عن كل أردب من القمح .

ويصدر فى السنة العادية إلى مارسيليا من ثلاثمائة إلى أربعمائة قفص من الزعفران ، يزن القفص منها من ٨ إلى ٩ قناطير ، ويتراوح ثمن القنطار بين ١٠ و ١٨ بوطاقة ، وكان أجود أصناف الزعفران ، الذى يجد فى الحصول عليه تجار فرنسا ، هو النوع الذى يزرع فى ضواحى القاهرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتبلغ الكمية السنوية التى ترسل إلى فرنسا من ملح النوشادر مائة قفص ، يزن القفص منها من ٥ إلى ٦ قناطير زنة مارسيليا ، وتنتج هذا الملح بصفة شبه كاملة مصانع وسط الدلتا ؛ ويباع القنطار زنة ٢٥٠ رطلا بنحو ٦٥ إلى ٨٠ بوطاقة .

أما النطرون ، والذى سبق أن ذكرنا أن تجارته موضوع احتكار ، فلم يشق طريقه إلى فرنسا إلا منذ نحو عشر سنوات ؛ ويمكننا أن نقدر الكمية المرسلة منه كل عام بـ ١٥ ألف قنطار زنة مارسيليا ، وتباع الأقة من النطرون على ظهر المركب بـ ٣ ١/٤ إلى ٤ مدينى .

وكان العربان يحصلون على الصودا المصرية ، أو رماد الاسكندرية ، من ضواحى هذه المدينة ؛ وهى تنتج عن إحراق بعض النباتات التى تنمو هناك بكثرة على شواطئ البحر . ولم تطلب فرنسا هذا النوع من الصودا إلا بسبب افتقارها إلى صودا إليكانتى . وقد بلغ ما صدر إليها فى بعض الأحيان من هذه الصودا ١٢ إلى ١٥ شحنة ، تزن الواحدة ٣ – ٤ آلاف قنطار ؛ ومع ذلك فقد مرت فى أحيان أخرى مدة عشر سنوات دون أن يصدر إليها شئ منها . ويبلغ متوسط ثمن الأقة من هذه الصودا ٢ ٣/٤ مدينى .

ويأتى القطن المغزول من الاسكندرية ، ورشيد ، والمحلة الكبيرة ، والقاهرة . ويستخدم هذا الغزل فى بروفانس . ويتراوح ثمن الرطل منه زنة ١٤٤ درهماً من ٢٠ إلى ٣٠ مدينى تبعاً لنوع الخيط ، كذلك كان يتراوح الصادر السنوى من هذه الخيوط من ٥٠ إلى ١٥٠ بالة ، تزن الواحدة من ٩ إلى ١٠ قناطير .

وتنقسم الأقمشة القطنية تبعاً لأصنافها إلى :

١ – عجمى : ويصنع فى القاهرة وضواحيها .

٢ – أمان : ولا يختلف هذا الصنف عن سابقه إلا فى طول (التوب) وعرضه .

٣ – محلاوى : ويصنع فى المحلة الكبرى .

٤ – قماش : وهو تقليد للأقمشة الغينية والمنسوجات الهندية .

٥ – منسوجات رشيد المسماة دمياطى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان يصدر من ستمائة إلى ثمانمائة بالة من هذه الأصناف المختلفة من المنسوجات ؛ وتساوى البالة التى تحتوى على ١٢٠ إلى ١٥٠ قطعة (توب) من القماش ، من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ قرش ، ويساوى القرش ٤٠ مديني .

أما الأقمشة الكتانية التى يشار إليها باسم المنوف ، والشبيبى ، والفصلة ، والبتانونى ، والمغربين والسيوطى فكانت تصنع فى الدلتا ، وكان يصدر منها فى السنة العادية من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ بالة ، تساوى الواحدة منها ٤٥٠ قرشاً ، قيمة القرش ٤٠ مدينى .

ويصدر إلى فرنسا نحو ٥٠٠ قنطار من السامكى ؛ ويباع القنطار الواحد ، زنة مارسيليا ، فى القاهرة بـ ٤٠ إلى ٥٠ بوطاقة .

وتنقل كل واحدة من السفن العشر التى تأتى كل عام من مارسيليا إلى الاسكندرية نحو ألف من جلد الجاموس ، وتحمل معها كذلك بعض أنواع أخرى من الجلود ، يمكن أن يبلغ ثمنها فى المتوسط من ٤ إلى ٦ بوطاقات للجلد الواحد .

وإليكم الآن بياناً بالسلع الأجنبية عن مصر والتى تصدر عن طريق موانيها إلى فرنسا :

ثلاثمائة قفص من الصمغ العربى تنقلها إلى القاهرة قوافل دارفور وسنار ، ويزن القفص الواحد ١٠ إلى ١١ قنطاراً ، ويباع بـ ٥٠٠ قرش ، قيمة القرش ٤٠ مدينى .

ويصدر التمر هندى الذى تجلبه هذه القوافل نفسها فى أقفاص ، يزن القفص منها من ٨ إلى ٩ قناطير ، وكان يصدر منها سنوياً من ٢٥ إلى ٣٠ قفصاً .

ويباع سن الفيل تبعاً لصنف العاج ، بسعر ٤٠ أو ٥٠ فندقلى للقنطار الواحد ، ولم يكن يورد عادة منه سوى ٨ إلى ٩ بالات ، تزن البالة ٤ أو ٥ قناطير .

ويصدر كذلك ٨ أو ١٠ أقفاص من ريش النعام الأبيض والأسود ويتراوح سعره تبعاً لمقدار الطلب عليه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما عن تراب الذهب ، فإن الكمية الضئيلة للغاية التى ترسل منه إلى فرنسا ، لا تستحق مجرد الذكر هنا .

وتبلغ كمية الصادر السنوى من بن موخا مائة بالة ، تشتمل كل بالة منها على فردتين ، وتزن الفردة الواحدة كما هو معروف حوالى ½ ٣ قناطير ، ثمن القنطار منها فى القاهرة من ٢٥ إلى ٣٠ قرشاً أسبانياً .

ويقدر الصادر من صمغ الطلاء بـ ٤٠ إلى ٥٠ قفصاً ، يزن القفص منها ٧ إلى ٨ قناطير ، ويباع بـ ٧٥٠ قرشاً ، قيمة القرش ٤٠ مدينى .

ويصدر كذلك حوالى ١٥٠ قفصاً من صمغ جدة ، وخمسين قفصاً أخرى من صمغ ينبع ، ويزن كل قفص من هذه الأقفاص ٨ – ١٠ قناطير ؛ ويباع القنطار من الصمغ العربى من النوع الأول بـ ١٢ – ١٤ فندقلى ؛ أما القنطار من النوع الثانى فيباع بثمن أقل قليلا من ذلك .

وإلى هذين الصنفين من الصمغ ، ينبغى أن نضيف ٤٠ أو ٥٠ قفصاً من الصمغ الذى يجمع ويرسل إلى القاهرة بمعرفة عرب الطور ، ويساوى القفص منها حوالى ٤٠٠ قرش ، قيمة القرش ٤٠ مدينى .

وتبلغ كمية الحلتيت المصدرة إلى مارسيليا سنوياً ١٠ إلى ١٥ بالة ، تزن الواحدة ٦ – ٧ قناطير ، وتساوى ٥٠٠ قرش تركى .

أما عن الصادرات من البخور ، فإن كميتها تتوقف على حالة السلم والحرب بين الروسيا والباب العالى العثمانى ؛ ففى حالة الحرب تحصل روسيا من فرنسا على جزء من البخور اللازم لاستهلاكها . وفى هذه الحالة يشحن إلى مارسيليا ما يصل إلى ٥٠٠ قفص ، يزن الواحد منها ٨ – ٩ قناطير ، ويزن القنطار ١٠٠ رطل ، ويساوى ٣٠٠ إلى ٣٥٠ قرشاً . وتقل هذه الكمية فى زمن السلم بين الروسيا والباب العثمانى لتصل إلى ٥٠ قفصاً فقط .

ولا يرسل إلى فرنسا إلا حوالى ٤٠ قفصاً من المر ، ومثلها من الألوة أو الصبر ، ويساوى القفص من هذين النوعين ، فى القاهرة ، ٥٠٠ قرش .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويرسل سنوياً حوالى الثلاثين بالة من البوصير ، تزن البالة الواحدة ١٢ قنطاراً ، وتساوى من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ قرش ؛ وأخيراً ٨ – ١٠ بالات من الكركم ، ومثلها من سيقان الزعفران ؛ وحوالى العشرين بالة من الأصناف الأخرى من العقاقير ، تحسب كلها بسعر واحد ، يقرب من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ قرش وتبلغ مصاريف خروج هذه السلع نحو ١٢٪ من قيمتها .

وقلما توفر تجارة الصادر لكل السلع التى انتهينا من بيانها أية أرباح ؛ إذ لا تتحقق هذه الأرباح إلا فيما ندر ، وبالنسبة للسلع التى تتضاعف كمية الصادر منها فى الظروف الاستثنائية مثل الأرز والقمح ، وبشكل عام كل السلع التى تمثل ضرورات أولية . وفوق ذلك فإن الخسارة التى يمكن أن تتحقق بالنسبة للسلع التى تصدر بشكل اعتيادى ، مثل الزعفران ، والقطن المغزول ، والأقمشة ، والصمغ ، الخ ، كانت على الدوام أقل كثيراً بالنسبة للأرباح التى تحققها صادراتنا إلى مصر .

وكان الأمر ينتهى بتسديد أثمان صادراتنا هذه بنقود معدنية ، سواء كان ذلك بالقروش الأسبانية أو بالتالارى الألمانى ، أو كان ذلك بالنقود التركية قبل أن تتعرض هذه النقود للتزييف ، إذ أن هذه النقود ، منذ حوادث التزييف المتتالية ، التى تعرضت لها ، لم تعد تتداول فى فرنسا .

وكانت رواتب قناصلنا فى اسكاليهات (مرافىء) الشرق ، تحصل لفترة من الزمن من عائد رسم قنصلية يبلغ ٢٪ من ثمن السلع المرسلة إلى تجار الأمة ؛ ولكن حين أصبح هذا الرسم يحصل فيما بعد لغرض مختلف ، بدأت تدفع رواتب القناصل عن طريق غرفة التجارة فى مارسيليا . وكان مرتب القنصل الفرنسى فى مصر يبلغ ١٦ – ١٨ ألف فرنك (سنوياً) .

وكانت المغارم التى يتعرض لها التجار الأوربيون فى مصر ، من جانب نظام الحكم المطلق للمماليك ، تشتمل على تقديم سلفيات اجبارية ، أو معدات أو سلع لا يسدد ثمنها على الإطلاق . وفيما مضى ، وافقت الحكومة الفرنسية على تعويض هذه الخسائر ، وعلى أن تقدم مساعدات للتجار الذين يتعرضون لمثل هذه المظالم ؛ وعندما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

توقفت الحكومة عن دفع هذه التعويضات ، خولت الغرف التجارية مارسيليا ، لهؤلاء التجار الفرنسيين المستقرين بالقاهرة ، أن يفرضوا ، بمعرفتهم ، ولتعويض هذه الخسائر ، رسماً يسمى رسم حماية ، يبلغ ٢٪ من قيمة البضائع الواردة من فرنسا ، و ١٪ عن المواد أو السلع التى يصدرونها من مصر .

وقد اتخذت أحداث الثورة الفرنسية ذريعة لمظالم ظل تجارنا يتعرضون لها ، بأكثر بكثير مما يتعرض له تجار الأمم الأخرى من مظالم ومغارم على يد حكومة البكوات . وعندما كان المسيو دى كورش M . Descorches قائماً بأعمالنا فى القسطنطينية ، تلقى قنصلنا العام ، المسيو ماجالون M . Magallon الذى كان مقيما بالقاهرة ، الأمر بالذهاب إلى الاسكندرية ، وبدعوة كل التجار الفرنسيين بأن يتبعوه إلى هناك ؛ وظل الجميع بالاسكندرية نحو ثمانية أشهر ، أى إلى الوقت الذى أرسل فيه المسيو فرنيناك M . Verninac سفيرنا لدى الباب العالى ، إلى القاهرة ، فى عام ١٧٩٦ المسيو تانفيل M . Tainville الذى كان واحداً من موظفيه . وكان هذا المبعوث الدبلوماسى مخولا فى أن يضع اتفاقية جديدة تتناول مصالحنا التجارية ، وأن يذكر بضرورة مراعاة التطبيق المباشر للاتفاقيات والامتيازات .

وقد حصل على وعد بتسديد الديون التى كانت مستحقة لتجارنا ؛ كما حصل على وعد آخر بإزالة أسباب الشكاوى الأخرى ، وبأن يتمتع هؤلاء التجار بحرية كاملة فى العمل فى المستقبل ؛ لكن هذه الوعود ، بعد رحيله ، قد تنوسيت ، وعادت الأمور تسير فى مجراها المعتاد ، ومن جديد عادت المظالم والمغارم ، وتلقى قنصلنا ، مرة أخرى ، أمراً بالعودة إلى الإسكندرية ، واضطر أن يعود من هناك ، وبشكل نهائى ، إلى فرنسا . ولقد أدت هذه الحال التى سارت عليها الأمور ، إلى قطع كل العلاقات الودية التى أمكنها أن تظل قائمة ، حتى ذلك الوقت ، بين الحكومات الفرنسية وحكومة المماليك ؛ كما قد رجحت هذه القطيعة ، ولو بشكل ظاهرى ، أسباب قيام حملتنا على مصر.

الفصل الخامس

بيانات عن التجارة كما تقدمها سجلات الجمارك

إذا افترضنا جدلا أن الأمانة كانت تراعى بالنزاهة الواجبة فى عملية تحصيل مختلف الرسوم المفروضة على دخول وخروج كل أنواع السلع ، التى كانت تتداولها التجارة فى مصر ، فإن سجلات مكاتب الجمارك التى أنشئت فى مصر ، تستطيع أن تقدم لنا معلومات بالغة الدقة حول حجم الواردات والصادرات السنوية التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ، ولقد سمح لنا وضعنا أن نلزم رجال الجمارك بشيء لم يستطع أى أوربى من قبلنا أن يتجاسر على طلبه منهم باسم الصداقة أو الصالح العام . ولقد انتهزنا نحن هذه الظروف المواتية ، فأعطى الجنرال كليبر – وكان كما سبق لنا القول قد كلف لجنة خاصة بتجميع المعلومات حول تجارة هذه البلاد – أعطى أوامره بأن يضع رجال جمارك الاسكندرية ودمياط والسويس وبولاق ، ومصر العتيقة تحت أيدينا مستخلصات من سجلاتهم عن عدة سنوات متعاقبة لكى نستنتج منها ، بأكبر ترجيح ممكن ، فكرة مفصلة عن المتوسط السنوى للواردات والصادرات .

وسوف نضع هذه المستخلصات تحت نظر القارىء ، مع ملاحظة أن الهدف الذى نبتغيه ليس مجرد أن نقيم الموارد التى كان يحصل عليها البكوات أو ملتزموهم من الرسوم التى كانت تحصلها مختلف جمارك مصر ، ولكن أن نبين نوع وصنف السلع التى كانت تخضع لهذه الرسوم .

وقد يكون من المناسب هنا أن نبدأ بتقديم فكرة موجزة عن إدارة الجمارك فى مصر فى أثناء حملتنا .

هناك مكاتب للجمارك منشأة فى موانىء : القصير ، مصر العتيقة ، بولاق ، السويس ، دمياط ، رشيد ، الاسكندرية .

وقد بدأ إبراهيم ومراد – بعد أن امتلكا مقاليد الأمور فى القاهرة – باقتسام

دخول كل الجمارك فيما بينهما بالتساوى فيما عدا جمرك القصير الذى ترك لبكوات مصر العليا .

ولكى يتفادى هذان البكوان الحيرة التى تسببها القسمة ، والجدل الذى يمكن لها أن تجره ، فقد وضعا على الفور ترتيباً جديداً احتفظ مراد بك بموجبه لنفسه بديوان القاهرة المكون من مكتبى مصر العتيقة وبولاق ، وكذلك بجمارك دمياط ورشيد والاسكندرية ، لكى يديرها على هواه ولكى يحصل بشكل كامل على عوائدها ، فى حين لم يحتفظ إبراهيم بك لنفسه إلا بجمرك السويس .

ولقد أنشأ البك الأول التزامات للجمارك المختلفة التى آلت إليه فى هذه القسمة ، فى حين كان البك الثانى يدير ميناءه لحسابه الخاص .

وكان الملتزم العام أو المدير العام لجمارك مراد بك ، يختار ويضع تحت إمرته ، مأمورى الجمارك الرئيسيين ، لمكاتب بولاق ودمياط ورشيد والاسكندرية ؛ وكان كل واحد من هؤلاء يترأس عدداً من الموظفين يتناسب مع حجم السلع التى تصل إلى كل من هذه الأماكن ، والتى يتحتم المرور عليها هناك .

وهكذا ، فبالإضافة إلى مدير الجمارك ، كنا نجد فى بولاق ستة من الكتبة ، ونحو أربعين من صغار الموظفين أو من غيرهم من التابعين ، يعملون جميعاً تحت إمرة هذا المدير ؛ وكانت مهمتهم تنحصر فى التعرف على مختلف السلع الخاضعة لرسوم الدخول والخروج ، وتحصيل هذه الرسوم .

وكان يوجد فى دمياط ، عند مصب النيل ، ثمانية كتبة وخمسون موظفاً مرءوساً ، وفى رشيد ثلاثة من الكتبة وعشرون مرءوساً ؛ وأخيراً كان بالاسكندرية اثنا عشر كاتباً وستون مرءوساً .

إذن فلقد كان الجهاز الإدارى للجمارك الأربعة التى يمتلكها مراد بك يتكون من أربعة من مأمورى الجمارك وتسعة وعشرين من الكتبة ، ومائة وسبعين من التابعين أو المرءوسين ، يعملون جميعاً تحت إمرة الملتزم العام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذه هى الرواتب التى كانوا يتقاضونها :

كان المأمور العام لجمرك بولاق يحصل سنوياً على	٢٤٠٠ بوطاقة
« « « دمياط « « «	٤٠٠٠ «
« « « رشيد « « «	١٠٠٠ «
« « « الاسكندرية « « «	٤٠٠٠ «
وكان الواحد من الكتبة يحصل على ٦٠ إلى ٣٠ بارة فى اليوم ، مما يصل براتبه السنوى إلى ٧٣٠ بوطاقة ؛ أى ما يصل بهذا البند من الانفاق السنوى بالنسبة لجميع الكتبة إلى	٢١,١٧٠ «
ويحصل كل من الموظفين المرءوسين عادة على ٤٥ بارة فى اليوم ، أى $\frac{1}{2}$ ١٨٢ بوطاقة فى العام ، وبهذا يحصل الـ ١٧٠ مرءوساً على	٣١,٠٢٥ «
وتبعاً لذلك ، تصل مصاريف الإدارة والرواتب إلى	٦٣,٥٩٥ «
وكان الملتزم العام للجمارك يدفع إلى مراد بك نحو ٢١,٠٠٠ بوطاقة كل شهر ، وبذلك يبلغ جملة ما يدفعه فى العام	٢٥٢,٠٠٠ «
فيكون المجموع الكلى للنفقات	٣١٥,٥٩٥ «

ولم يكن مأمورو الجمارك أو أى من تابعيهم ، يحصلون على مكافآت عن الحصيلة التى يجمعونها ، ومع ذلك فلم يكن من النادر أن يحصلوا على بعض الهدايا البسيطة من جانب التجار ؛ أما بالنسبة للملتزم ، فإنه بالإضافة إلى الديون المستحقة له والتى تضيع عليه ، وهو أمر يحدث بصفة دائمة ، وبالإضافة كذلك إلى بعض الترتيبات والتسويات الخصوصية التى تتم بين المتعاملين مع الجمارك ، وبين مأمورى هذه الجمارك ، فقد كان يقوم هو نفسه ، من وقت لآخر ، بتقديم هدايا تتفاوت قيمتها ، إلى مراد بك ، وإلى المقربين إليه .

وكان لابد أن يفيد هذا الملتزم ، حسب الأحوال ، من كل المنافع التى تنتج عن ذلك ، ومع هذا ، فحين تصل هذه المنافع إلى حد مبالغ فيه ، يفوق ما هو معتاد من هذه الأمور ، يتعرض هذا الملتزم لمظلمة تنزع عنه ما حقق من كسب ؛ وبهذه الطريقة حطم مراد بك كثيراً من رجال جماركه ، واحدا بعد الآخر . ويقدر أحد هؤلاء ، وهو الذى حصلت منه على هذه التفاصيل ، حصيلة جمارك بولاق ودمياط ورشيد والاسكندرية بـ ٤٠,٠٠٠ بوطاقة فى الشهر الواحد ، أى ٤٨٠,٠٠٠ بوطاقة فى السنة ، وقد سبق أن رأينا أن مصاريف التحصيل تبلغ $\frac{1}{8}$ هذا المبلغ ، فإذا قدرنا بنحو الثمن كذلك ، الأكراميات والهدايا التى كان لابد أن يقدمها الملتزم إلى المماليك وإلى رجال آخرين من رجالات السلطة ، فسوف نجد أن المصاريف التى كان على الملتزم أن

	بوطاقة
ينفقها تبلغ حوالى	١٢٤,٠٠٠
ثمن التزامه	٢٥٢,٠٠٠
مجموع المصاريف	٣٧٦,٠٠٠
فى حين تبلغ حصيلة الرسوم	٤٨٠,٠٠٠
وبذلك يكون صافى أرباح الملتزم	١٠٤,٠٠٠

وتعتبر هذه الـ ١٠٤,٠٠٠ من البوطاقات ذات الـ ٩٠ مدينى ، والتى تساوى ٣٣٤,٠٠٠ فرنك ، مبلغاً شديد الضخامة ولدرجة أكبر مما ينبغى ، الأمر الذى يثير لعاب جشع البكوات ونهمهم ، فيجلب الكثير من المغارم والمظالم ، التى كانت تقع على الملتزمين العاملين للجمارك .

وكانت كل الرسوم التى تحصل عن مختلف السلع الواردة إلى مصر تنظم تبعاً لتعريفات لم تتناولها سوى تعديلات طفيفة منذ وضعها ؛ ومع ذلك فقد كان البن الذى يصل عن طريق السويس مثقلا برسوم كانت ترتفع بصفة مستمرة حتى بلغت ٢٢ بوطاقة عن الفردة الواحدة . وتبعاً للمعلومات التى قدمها إلى رجل الجمرك فى هذا الميناء ، فقد كان الوارد من هذه السلعة يصل إلى ٢٢ ألف فردة فى عهد إسماعيل بك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت الرسوم التى تحصل فى جمرك السويس ، تبلغ فى السنة الاعتيادية وتبعاً للأحوال التى حددها المسيو إستيف إلى ٤٠٩,٣٦٥ بوطاقات [(١)] ؛ أى أنها كانت تعادل حصيلة الجمارك الأربعة فى القاهرة ودمياط ورشيد والاسكندرية ، فى حين كانت مصاريف التحصيل (فى جمرك السويس) ، أقل بكثير (منها فى هذه الجمارك) ، وهذا هو ما يفسر لنا لماذا اكتفى إبراهيم بك ، وهو الذى كان يقتسم السلطة مع مراد بك بعائد جمرك السويس وحده ، تاركا لزميله عوائد الجمارك الأربعة الأخرى .

وتبعاً لهذه المعلومات المتنوعة ، يمكننا أن نقدر عوائد كل جمارك مصر على النحو التالى :

جمارك القاهرة ودمياط ورشيد والاسكندرية	٤٨٠,٠٠٠ بوطاقة
جمرك السويس	٤٠٩,٣٦٥ «
جمرك القصير	١١٠,٦٣٥ «
المجموع	١,٠٠٠,٠٠٠ «

أى ما يساوى خمسة ملايين فرنك ، تخصم منها المصاريف الإدارية وأرباح الملتزمين .

وإليكم الآن الجداول التى استخلصناها من سجلات الجمارك بمصر ، كما شاء أن يترجمها زميلنا المسيو أميديه جوبير :

(١) ٣٦,٨٤٠,٨٧٦ مدينى . دراسة عن مالية مصر ؛ الدولة الحديثة ، المجلد السابع ، ص ٤١ — الطبعة الثانية . (وهى إحدى دراسات المجلد الخامس من الطبعة العربية . المترجم .)

الحالة العامة للسلع التى سددت عنها الرسوم لجمرك مصر العتيقة خلال السنوات ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ هجرية الموافقة للسنوات ١٧٩٠ ، ١٧٩١ ، ١٧٩٢ ميلادية (*)

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال السنوات الثلاث	المتوسط السنوى
الجير	الصعيد	بالمركب	١٤٦	٤٩
خشب الوقود	»	»	٢٤	٨
فحم الخشب	الرديسية	»	٣٦	١٢
زبل الحمام	الصعيد	»	٣١٩	١٠٦
قصب السكر	»	»	٥٦٠	١٨٦ ٢/٣
البخور	الجزيرة العربية	بالجمل	٢٢	٧ ١/٣
عنب طازج	الفيوم	»	٣٢٦	١٠٨ ٢/٣
الكمثرى	الواحات	»	٤	١ ١/٣
السفرجل	»	»	١٣	٤ ١/٣
جذور العرقسوس	»	»	١٠٦	٣٥ ١/٣
أعواد الكتان	الصعيد	»	٣٤٠٧	١١٣٥ ٢/٣

(*) كان هذا الجدول الموحد ينقسم فى النص الفرنسى إلى عدة جداول ، يختص كل جدول فيها ببيان الوحدة القياسية التى تقاس بها السلعة (بالمراكب ، بالجمل ، بالقفص .. الخ) :

وتيسيراً على القارئ أدمجنا كل هذه الجداول فى جدول واحد مع إنشاء عمود إضافى توضح به الوحدة القياسية . (المترجم) .

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال السنوات الثلاث	المتوسط السنوى
كتان فى شكل كرات	الصعيد	بالجمل	١٥٩١	٥٣٠ ١/٣
سمار لصنع الحصير	الفيوم	»	٢٧	٩
العاج	سنار ودارفور	»	١٧٥	٥٨ ١/٣
الصمغ	سنار	»	١٣٩٧	٤٦٥ ٢/٣
عنب طازج	الفيوم	بالقفص	٥٨	١٩ ١/٣
تين	الفيوم	»	١٨٤٢	٦١٤
دجاج	الصعيد	»	٢٦٨٣	٨٩٤ ١/٣
أنثى الببغاء (دُرَّة)	سنار	»	١	—
الزعفران	الصعيد	بالنالة أو بالنالة الصغيرة	٣٣٣٣	١١١١
الصوف	الفيوم	»	٢٩٨	٩٩ ١/٣
بذور السنط	الصعيد	»	٨٢٢	٢٧٤
التبغ	»	»	١١٣١	٣٧٧
رصاص البنادق	»	»	٣٠١	١٠٠ ١/٣
نحاس قديم	»	»	٤٢٢	١٤٠ ٢/٣
ملح النوشادر	ضواحى القاهرة	»	٢	٢/٣
بذور الخيار	الصعيد	»	١١	٣ ١/٢
الثوم	»	»	٣٢	١٠ ٢/٣
الكراث الأندلسى (القفلوط)	»	»	١٣٥	٤٥
السنامكى	صحراء أسوان	»	١٠٤	٣٤ ٢/٣
بن وارد القصير	الجزيرة العربية	»	٢٣٣٠	٧٧٦ ٢/٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال السنوات الثلاث	المتوسط السنوى
حدور العرقسوس	الواحات	بالبالة أو بالبالة الصغيرة	٧٨	٢٦
الصعد (عشب طبى)	»	»	١٦	٥ ١/٣
الشنشم	سنار ودارفور	بالقربة	١٦٨	٥٦
العسل الأسود	الصعيد	»	١٠٨٤	٣٦١ ١/٣
الملح	»	بالقفة	١٣٤٣	٤٤٧ ٢/٣
العجوة	»	»	٦٦٣٨	٢٢١٢ ٢/٥
البلح	الواحات	»	٥١٣٣	١٧١١
البلح الجاف (التمر)	النوبة	»	١١٨٠٩	٣٩٣٦ ١/٣
الصمغ	الصعيد	»	١٠٢	٣٤
الصوف	الفيوم	»	٦٩	٢٣
التبغ	الصعيد	»	٩٢٣	٣٠٧ ٢/٣
النطرون	دارفور وسنار	»	١٧٤	٥٨
مشمش جاف	الواحات	بالأردب	٥	١ ٢/٥
بذور السنط	الصعيد	»	٤٥٨٧	١٥٢٩
» الكمون	»	»	٦١٢	٢٠٤
» اليانسون	»	»	١١٦	٣٨ ٢/٣
» اللفت	»	»	٤٦٠	١٤٦ ٢/٣
» الكزبرة	»	»	٢١٦	٧٢
» النيلة	»	بالقفة	٢١٥	٧١ ٢/٣
» الملوخية	»	»	٨٨	٢٩ ١/٣
بذور حبة البركة	الصعيد	»	٣٢	١٠ ٢/٣
» اليانسون الأخضر	»	بالقطعة	٧٠	٢٣ ٢/٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال السنوات الثلاث	المتوسط السنوى
جلود جاموس	الصعيد	بالواحدة	١٩٥١١	٦٥٠٣ ٢/٣
« ماعز	«	«	٤٢٤	١٤١ ١/٣
« ضأن بصوفها	«	«	٥٥	١٨ ١/٣
أقمشة صوفية غامقة وسوداء	«	«	٢٠٩١٣	٦٩٧١
قطع من هذه الأقمشة (توب)	«	بالقطعة	٢٤٢٣٣	٨٠٧٧ ٢/٣
أغطية للخيول	«	«	٢٨٧	٩٥ ٢/٣
أكلمة صوفية	الفيوم	«	٦٢٨	٢٠٩ ١/٣
شيلان كبيرة بيضاء	«	«	١١٤٥٧٧	٣٨١٩٢ ٢/٣
« صغيرة «	«	«	٥٨٢٠٢	١٩٤٠٠ ٢/٣
أقمشة للتعليف	«	«	٢٢٩٥٢	٧٦٥٠ ٢/٣
شيلان زرقاء وبيضاء	الصعيد	«	٧٥٩٤٨	٢٥٣١٦
أقمشة كتانية	«	«	٣٠٤٩٨٨	١٠١٦٦٢ ٢/٣

ولابد أن نلاحظ أن كل هذه السلع ، التى يشتمل عليها هذا الجدول هى التى سددت الرسوم الجمركية ، أما السلع التى كانت تأتى باسم البكوات فكانت معفاة من هذه الرسوم ، مما كان يقلل لحد كبير عوائد التحصيل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جدول بالسلع التى سددت رسوم الجمارك
فى بولاق خلال السنوات ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ هجرية
الموافقة للسنوات ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ميلادية

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
الصلب	بلاد النصارى	بالصندوق	٢١٠	١٠٥
النحاس الأصفر	»	»	١٠	٥
الزئبق	»	»	٣٢	١٦
الزرنيخ	»	»	٧	٣ ١/٢
النيلة	»	»	٦	٣
برق لماع (لتزيين الملابس)	»	»	٩٢	٤٦
ذهب مورق	»	»	١٠	٥
نصال	»	»	٢٣	١١ ١/٢
حدايد	»	»	٥٤	٢٧
بلاتين للأسلحة النارية	»	»	٤٨	٢٤
بنادق وطبنجات	»	»	١٩٢	٩٦
مواسير بنادق	»	»	٣٥	١٧ ١/٢
زنك	»	»	١٦١	٨٠ ١/٢
سلفات الحديد	»	»	١٣	٦ ١/٢
زجاج	»	»	٨٧	٤٣ ١/٢
مرايا	»	»	١٨٤	٩٢
حلى زجاجية صنع فينسيا	»	»	٦١٣	٣٠٦ ١/٢
خزف	»	»	٣٥٣	١٧٦ ١/٢
مرجان	»	»	٢٣	١١ ١/٢
كهرمان	»	»	٣٦	١٨

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
قرفة	بلاد النصارى	بالصندوق	١٢٥	٦٢ ½
قرنفل	»	»	٤٣	٢١ ½
فلفل	»	»	٨٢	٤١
ملبس مشكل	»	»	١٩٠	٩٥
سوائل مختلفة	»	»	٨١	٤٠ ½
رورليو (شراب)	»	»	٢٥٥	١٢٧ ½
قطيفة	»	»	٢١	١٠ ½
ساتان	»	»	١٤٦	٧٨ (كذا)
تافتار أسود	»	»	٣٠	١٥
كريب	»	»	١٧	٨ ½
أقمشة متنوعة	»	»	١٢٢	٦١
فوانيس زجاجية	»	»	٨٤	٤٢
أمشاط وملاعق خشبية	الدولة العثمانية	»	١١٨	٥٩
مستكة أقراص	»	»	٣٤	١٧
مستكة على شكل صمغ	»	»	٣٣٠	١٦٥
بوتقات	بلاد النصارى	بالقفص	٦٠	٣٠
عجين مشمش (قمر الدين)	الدولة العثمانية	»	١٦٢	٨١
جبن وارد المنصورة	مصر	»	٢٠٣٠	١٠١٥
أقمشة كتانية سوداء	»	»	٣٧٠	١٨٥
عنب أسود مجفف (زبيب)	جزر اليونان	»	١١٨٧٦	٥٩٣٨
تين وعنب مجفف	»	»	١٢١٥٠	٦٠٧٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال ستين	المتوسط السنوى
فحم	الدولة العثمانية	بالقفص	١٤٥٦	٧٢٨
بذور خضراء	»	»	٨	٤
كربونات الرصاص	بلاد النصارى	بالقنطار	٥٠٠	٢٥٠
زئبق	»	»	٢٨	١٤
مغرة (للصباغة بالأحمر)	»	»	١٥٠	٧٥
كبريت عادى	»	»	٥١٠	٢٥٥
قشاع	»	»	٨١	٤٠ ½
ورود الحرامى	»	»	٢٤٤	١٢٢
خشب لصباغة الأثاث	»	»	٧٩٠٠	٣٩٥٠
قرنفل	»	»	٢٩٠	١٤٥
قصدير	»	»	٤٤٩	٢٢٤ ½
ورق (لرينة الملابس)	»	»	١٠٩٩	٥٤٥ (كذا)
فلفل	»	»	٢٦٧	١٣٣ ½
سلفور الرصاص	»	»	٨١٤	٤٠٧
صلب	»	»	٧٦٥	٣٨٢ ½
زنجبيل	»	»	٣٨	١٩
محالب	»	»	١٦٤٠	٨٢٠
زجاج عادى	»	»	٧٤	٣٧
نحاس أصفر	»	»	٥٥	٢٧ ½
كبريت	الدولة العثمانية	»	٢	١
خروب	»	»	٢٣٨٣٣	١١٩١٦ ½
ماء نار صنع قبرص	»	»	١٥٨	٧٩
عفصة	»	»	٥١٨	٢٥٩
ستيرين (لصنع المطاط)	»	»	١٥٥	٧٧ ½

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
زهور من دمشق	سوريا	بالقنطار	٨٠	٤٠
فوة (للصباغة بالأحمر)	»	»	١٨٧٥	٩٣٧ ½
نحاس قديم صنع محلى	مصر	»	٦٢٠	٣١٠
تين وارد غزة	سوريا	»	٧١	٣٥ ½
قصل (للصباغة)	مصر	»	٧٠٨	٣٥٤
مونات	الهند والجزيرة العربية	»	١٣١	٦٥ ½
صمغ طبى	سوريا	»	٣١٧	١٥٨ ½
كربونات الرصاص	بلاد النصارى	بالبالة	٣٨	١٩
مغرة (للصباغة بالأحمر)	»	»	٦٧	٣٣ ½
مسامير	»	»	٢٠٠	١٠٠
شطة	»	»	٥٢	٢٦
أكسيد الرصاص	»	»	١٣	٦ ½
مغنسيوم	بلاد النصارى	بالبالة	١٤	٧
ودنة (نبات زينة)	»	»	١٣٠	٦٥
قصدير	»	»	١٠٢	٥١
سلفور الرصاص	»	»	١٥٣	٧٦ ½
صمغ طبى	»	»	١٣٤	٦٧
كبريت على شكل أنابيب	»	»	٥٩٢	٢٩٦
شبة	»	»	٥٣	٢٦ ½
أول أكسيد الرصاص (مذهب)	»	»	١٢	٦
زيتون	الدولة العثمانية	»	٥٠	٢٥
عنب مغمور بالخل	»	»	٥٧٥	٢٨٧ ½

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
قطران	الدولة العثمانية	بالبالة	٤٩٧	٢٤٨ ١/٢
توتيا	«	«	١٢	٦
قلفونية	«	«	١٤٩	٧٤ ١/٢
بودق (مسحوق أبيض متبلور)	«	«	٣	١ ١/٢
زنبرة	......	«	٥	٢ ١/٢
بيصورة	.....	«	٥	٢ ١/٢
تبغ مصحون	بلاد النصارى	بالزجاجة	٨٣	٤١ ١/٢
نبيذ	الدولة العثمانية	«	٦١٧	٣٠٨ ١/٢
عسل	مصر	«	٢١٦٢	١٠٨١
حلويات مشكلة	الدولة العثمانية	«	٩١٣٥	٤٥٦٧ ١/٢
سبائك رصاص	بلاد النصارى	بالقطعة	٢٨٤١	١٤٢٠ ١/٢
بوتقات	«	«	١٠٢١٨٠	٥١٠٩٠
مربعات رخام	«	«	١٨١٤٠	٩٠٧٠
بنادق	«	«	٢٩٧٨	١٤٨٩
مصابيح زجاجية	«	«	٤٣٥٦٠	٢١٧٨٠
آنية خزفية	«	«	٢٨٩٠٠	١٤٤٥٠
كراسات مذهبة الأوراق	«	«	٤٤٤٠	٢٢٢٠
آنية خزفية	«	«	١٤٥٢٧	٧٢٦٣ ١/٢
قضبان حديدية	«	«	٣٤٣٩٢	١٧١٩٦
ألواح من خشب الصنوبر	الدولة العثمانية	«	٤٨٠٠	٢٤٠٠
لعب أطفال	«	«	١٨٧٠	٩٣٥
دواسات	«	«	١٦١٢	٨٠٦

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
عصى	الدولة العثمانية	بالقطعة	٢٢٠٠٠٠	١١٠٠٠٠
مجاديف ودفات	«	«	١٥٨٤٠	٧٩٢٠
قروانات خشبية	«	«	٢٦٧٧٧	١٣٣٨٨ ½
أمشاط وملاعق	«	«	٣٣٦٠٠٠	١٦٨٠٠٠
قرب	«	«	٢٥٠٨٣	١٢٥٤١ ½
أيدى حراب	«	«	١٠٩٠٠	٥٤٥٠
بغرى	«	«	٦٨١٦٠	٣٤٠٨٠
ملابس حريمى	«	«	٨٥٤	٤٢٧
أحذية حريمى قديمة	«	«	٨٤٢٠٠	٤٢١٠٠
أغطية رأس بيضاء	«	«	٢٦٩٠١	١٣٤٥٠ ½
مكانس	«	«	٦٢٠٠٠	٣١٠٠٠
رحى طاحون	«	«	٢٠٤	١٠٢
حراطيم مواسير	«	«	١٨٧٠٠٠	٩٣٥٠٠
جلود لصنع الأحذية الفاسية	«	«	٢٣٨٩٠	١١٩٤٥
أغطية صنع تركيا	«	«	٢٨٨٨	١٤٤٤
أكلمة	«	«	١٤٠١٩	٧٠٠٩ ½
أغطية صنع تونس	بلاد البربر (المغرب)	«	١٥٢٣٩	٧٦١٩ ½
شيلان صنع تونس	«	«	١٣٧٢٢	٦٨٦١
أزواج صنادل (بابوش)	«	«	١٠٢٤٩	٥١٢٤ ½
فناجين قهوة صنع محلى	مصر	«	١٢٨٠٠٠	٦٤٠٠٠
مرجان	بلاد النصارى	بالحزمة	٦٣٨	٣١٩
نصال	«	«	١٠٣٠٠	٥١٥٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
بوص للأقلام	سوريا	بالحزمة	١٠٠٠	٥٠٠
أجواخ صوفية	بلاد النصارى	بالذراع	٥٥٢٠٠	٢٧٦٠٠
ستان صنع خيو	الدولة العثمانية	»	٦٠٦٨	٣٠٣٤
كريب	بلاد النصارى	»	٢٢٥٠٠	١١٢٥٠
تفتاز أسود	»	»	٤٦٣٨	٢٣١٩
قطيفة سوداء	»	»	٣٢١٠	١٦٠٥
ساتان	»	»	١٣٠٦٠٠	٦٥٣٠٠
سمسم	مصر	بالأردب	٣٠٦٣	١٥٣١ ½
أرز	»	»	٢٩٠١٣	١٤٥٠٦ ½
موسيلين تركى	الدولة العثمانية	بالمقطع	٢٣٨٥٠	١١٩٢٥
أقمشة حريرية وكتانية	»	»	٣٣٥٧٠	١٦٧٨٥
أقمشة قطنية فتلة مزدوجة	مصر السفلى	»	٨٨٧٨٥	٤٤٣٩٢ ½
أقمشة قطنية ناعمة	»	»	١٨٠٧٣٩	٩٠٣٦٩ ½
قماش خز	»	»	٢١٢٢٥	١٠٦١٢ ½
أقمشة حريرية	»	»	٤٠٠٦٠	٢٠٠٣٠
« صنع منوف	»	»	١٩١١٣	٩٥٥٦ ½
« حسانى	»	»	٧١٣	٣٥٦ ½
أغطية فراش من الحرير	»	»	٢٢٨	١١٤
أقمشة نمرة ١ للقمصان	»	»	٤٨٥٩٥	٢٤٢٩٧ ½
« نمرة ١ كريب	»	»	٢٩٨١٠	١٤٩٠٥
مناديل حريرية	»	»	٣٢٥٢	١٦٢٦
تفتاز أسود (للخمارات)	»	»	٢٨٦٥	١٤٣٢ ½
شيلان	»	»	٩٠٠	٤٥٥ (كذا)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
قمـــاش نمرة ١ للقمصان ، نبراتى	مصر السفلى	بالمقطع	٧٢٩٩	٣٦٤٩ ١/٢
مناشف (فوط)	»	»	١٦٠	٨٠
كريب حرير	»	»	٤٦٨	٢٣٤
أقمشة قطنية	سوريا – دمشق	»	٤٥٥٢٥	٢٢٧٦٢ ١/٢
ألاجة	»	»	٤٤٠٤٩	٢٢٠٢٤ ١/٢
قماش حرير على قطن (قطنى)	سوريا – دمشق	بالمقطع	٢٥٩٣	١٢٩٦ ١/٢
شرحة مطبوع	»	»	٣٢٤٥	١٦٢٢ ١/٢
شرحة مموج	»	»	١٧٧٠	٨٨٥
أقمشة قطنية مرسومة	»	»	١٣٣٣	٦٦٦ ١/٢
قماش حرير على قطن (للعمائم)	»	»	٩٦٦	٤٨٣
شيلان فارسية	»	»	١٥٧	٧٨ ١/٢
شيلان صبغ بغداد	»	»	١٢٥	٦٢ ١/٢
شيلان من الموسيلين	»	»	١١٣٣	٥٦٦ ١/٢
موسيلين	»	»	٨١٨٧	٤٠٩٣ ١/٢
أقمشة حشنة	»	»	٥٠٧	٢٥٣ ١/٢
» متنوعة	»	»	١٢٥	٦٢ ١/٢
مسامير	بلاد النصارى	بالأقة	٢٤٢٨٠	١٢١٤٠
فلفل	»	»	٢٢٨٠	١١٤٠
مواسير بنادق	»	»	٣٧٣١	١٨٦٥ ١/٢
أوكسيد النحاس	»	»	١٥٧٥	٧٨٧ ١/٢
سلفات الحديد	»	»	٧٩٠	٣٩٥
رزنيخ	»	»	١٠٢	٥١
صبغة النيلة	»	»	٢٥٠	١٢٥

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
ترفة	بلاد النصارى	بالأقة	٨١٦٠	٤٠٨٠
كهرمان	»	»	٩٨٦	٤٩٣
ورنيش طلاء	الدولة العثمانية	»	٨٢٠	٤١٠
مستكة على شكل صمغ	»	»	١٦١٠٠	٨٠٥٠
مستكة عادية	»	»	٢٦٤٠	١٣٢٠
ستيرين سائل	»	»	٤٧٠٠	٢٣٥٠
حلتيت	»	»	٣٠٤٣	١٥٢١ ١/٢
صلصال لصنع الغليون	»	»	٦٥٠	٣٢٥
حال	»	»	١٤٢٨	٧١٤
قراصيا	»	»	٧١٧٠	٣٨٥
جبن من اليونان	»	»	٤٩٧٠	٢٤٨٥
سحلب	»	»	٢٢٩٠	١١٤٥
فستق	»	»	٣١٦٠	١٥٨٠
حلوى جافة	»	»	٣٢٠	١٦٠
نحاس قديم	»	»	٤٧٧٣٨	٢٣٨٦٩
أوانى نحاسية	»	»	٤٨٤٣٠	٢٤٢١٥
حبوب صفراء (للصباغة)	»	»	١٢٣٥	٦١٧ ١/٢
بودرة صمغ (غراء)	»	»	٤١٤٠	٢٠٧٠
قلمونية	»	»	٧٦٠٠	٣٨٠٠
عجينة مشمش (قمر الدين)	سوريا	»	٢٢٦٧٤	١١٣٣٧

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
مشمش مجفف	سوريا	بالأقة	١١٦٤٥	٥٨٢٢ ١/٢
عنب مجفف (زبيب)	الدولة العثمانية	»	٦٠٨٣	٣٠٤١ ١/٢
فاصوليا جافة	»	»	٣٤١٠	١٧٠٥
قراصيا	»	»	٤٥٤٠	٢٢٧٠
حرير للحياطة	»	»	٤٩١٤	٢٤٥٧
أفيون	»	»	٨٠٠	٤٠٠
زيتون	»	»	٤٠٩٠	٢٠٤٥
سحق شرق	»	»	٢٧١٥	١٣٥٧ ١/٢
عنب مجفف	»	»	١٦٢٠	٨١٠
توتيا	»	»	١٤٤٠	٧٢٠
نحاس أصفر	»	»	٣٧٢٧٠	١٨٦٣٥
كريز برى	»	»	٨٠٠	٤٠٠
حديد قديم (خردة)	مصر	»	٥٢٠٠	٢٦٠٠
رنبرة	...	»	٥٤٠	٢٧٠
بيصورة	...	»	٤٧٠	٢٣٥
حلبة مرة	...	»	١٠٧٠	٥٣٥
بودرة صمغ	الدولة العثمانية	»	٤١٤٠	٢٠٧٠
...	سوريا	»	٩٣٠	٤٦٥
بوريك	الدولة العثمانية	»	٣٧٠	١٨٥
جدور العرقسوس	بلاد النصارى	»	٦٤٠	٣٢٠
حبوب خضراء	الدولة العثمانية	»	١٥٠	٧٥

السلع	المناطق التي جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
أجواخ صوفية	بلاد النصارى	بالبالة أو بالبالة الصغيرة	٤٦	٢٣
فشاغ	»	»	٣٦	١٨
ورود الخزامى	»	»	٤٣	٢١ ½
الفراء	»	»	٨٤	٤٢
أجواح	»	»	١٤٧٦	٧٣٨
روزوليو	»	»	١٠٨٢	٥٤١
جذور العرقسوس	»	»	١٥٨٢	٩٢٦
محالب	»	»	٢٥٦	١٢٨
ورنيش للطلاء	الدولة العثمانية	»	١٢	٦
زنجبيل	»	»	٤٤	٢٢
حرير خام	»	»	٢٩٨٥	١٤٩٢ ½
بودرة قصل (للصباغة)	»	»	١٢٣	٦١ ½
تبغ تركى	»	»	٣٠٦٧٣	١٥٣٣٦ ½
عفصة	»	»	١٧٩	٨٩ ½
حتليت	»	»	٤٨	٢٤
أحذية فاسية قديمة	»	»	٤٢	٤١
ألاجة من تركيا	»	»	١٣٢٥٠	٦٦٧٥
سحاجيد كبيرة	»	»	٧٧٨	٣٨٩
مكسرات (جوز ولوز ..)	»	»	٤٦٢٧	٢٣١٣ ½

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
صوفان (أسفنج للجراحة	الدولة العثمانية	بالبالة أو البالة الصغيرة	١١٤	٥٧
ستيرين سائل	»	»	٥٢	٢٦
أوراق القنب	»	»	٤٢٥	٢١٢ ١/٢
أسست	»	»	١٢٧٢	٦٣٦
زعفران	»	»	١٦	٨
قطران أبيض	»	»	١٤٨٧	٧٤٣ ١/٢
تبغ من دمشق	سوريا	»	٩٤١٣	٤٧٠٦ ١/٢
نبات الفوة (للصباغة بالأحمر)	»	»	٧٨٠	٣٩٠
صابون من الإسكندرونة	»	»	٢١٢٥	١٠٦٢ ١/٢
صابون من دمشق	»	»	٨٣١	٤١٥ ١/٢
شعر ماعز	»	»	٢٢	١١
خردوات صنع استانبول	الدولة العثمانية	»	٧٤٧	٣٧٣ ١/٢
أقمشة حريرية عادية	»	»	١٨٤	٩٢
حديد قديم (خردة)	مصر	»	٨٥	٤٢ ١/٢
زهور من دمشق	سوريا	»	٤٩	٢٤ ١/٢
أصواف	مصر	»	١٧٧	٨٨ ١/٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال سنتين	المتوسط السنوى
مونات	الجزيرة العربية	بالبالة أو البالة الصغيرة	٥٣	٢٦ ١/٢
...	سوريا	«	٨	٤
بهيبة مرة	...	«	٢٤	١٢
فلفل من الحبشة	سنار	«	١٧	٨ ١/٢
حدرى (أو حدارى – كذا)	...	«	٣٠٤	١٥٢
جذور العرقسوس	بلاد النصارى	«	١٨	٩
ورق	«	«	١٠٨٢	٥٤١

(*) وضعنا فى هذا الجدول كما فعلنا فى الجداول السابقة ، مختلف السلع تبعاً للوحدات التى اتبعتها الجمارك لقياس كمياتها . وحين يتكرر وجود السلعة فى الجدول ، فإن السبب فى ذلك يعود إلى أن الكمية قد جلبت بوحدتى وزن مختلفتين : وعلى سبيل المثال فإن الـ ٥٠٠ قنطار وال ٣٨ برميلا من أكسيد الرصاص ، لا يشكلان سوى سلعة واحدة ، مما نستنتج منه أن وزن البرميل من هذه السلعة يقدر بنحو ١٣ قنطاراً .

جدول بالسلع الواردة من سوريا

والتى سددت رسوم الجمارك فى دمياط
خلال السنوات ١٢٠٥ ، ١٢٦ – ١٢١٢
هجرية ، الموافقة للسنوات ١٧٩١ ،
١٧٩٢ – ١٧٩٨ ميلادية

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال ثمانى سنوات	المتوسط السنوى
تبغ من صور وبيروت	سوريا	بالبالة أو البالة الصغيرة	٦٨١٣٠	٨٥١٦ ¼
تبغ من اللاذقية	«	«	٢٣٦٣٠	٢٩٥٤
شرانق وخيوط دودة القز	«	«	٦٣٤	٧٩ ¼
حرير من دمشق	«	«	١٧٩٤٨	٢٢٤٣ ½
أقمشة من دمشق	«	بالقطعة (المقطع)	٥٨٧٢٣٥	٧٣٤٠٤ ¾
ألاجة من دمشق	«	«	١٠٥٦٢٠	١٣٢٠٢ ¼

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحالة العامة للسلع التى سددت رسومها

إلى جمرك السويس خلال السنوات ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢
من الهجرة الموافقة للسنوات ١٧٩٥ ، ١٧٩٦ ، ١٧٩٧ ، ١٧٩٨ ميلادية

السلع	المناطق التى جاءت منها	الوحدة القياسية	عددها خلال أربع سنوات	المتوسط السنوى
بن	الجزيرة العربية	بالبالة أو البالة الصغيرة	٥٦٥٧٦	١٤١٤٤
بخور	»	»	٨٣٢٩	٢٠٨٢
فلفل	الهند	»	٩٢٥	٢٣١
بوصيرة	»	»	٢٠٠	٥٠
لبان جاوة	»	»	٧٥	١٨ ٣/٤
الألوة (الصبر)	الجزيرة العربية	»	٤٥٠	١١٢ ١/٢
قاقلة (بذور تنتج دهون عطرية)	الهند	»	٧٥	١٨ ٣/٤
صمغ	الجزيرة العربية	»	٥٨	١٤ ١/٢
بن	»	»	٨٩	٢٢ ١/٤
كركم	الهند	»	٣٩٦	٩٩
خشب الصندل	»	»	٣٠	٧ ١/٢
حلبة طبية	...	»	٣٨٨	٩٧
كارى (بهار هندى)	الهند	»	١٤٦	٣٦ ١/٢
ششم	الجزيرة العربية	»	١	١/٤
جذور الزعفران	الهند	»	٢٣٢	٥٨
مر شرق	الجزيرة العربية	»	١٠٢	٢٥ ١/٢
جذور القلنجة	»	»	٣٩	٩ ٣/٤
ثمار جور الهند	الهند	»	٩٤٨	٢٣٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عطور (لإزالة تجاعيد الشعر)	الهند	»	٤	١
زنجبيل	»	»	١٤٩	٣٧ ١/٤
صمغ للصباغة	»	»	٩٨	٢٤ ١/٢
كاشو (عقار مستط للمعدة أو ماده مستخرجة من السنط الهندى للصباغة)	»	بالبالة أو البالة الصغيرة	١	١/٤
قرفة	»	»	٣٧	٩ ١/٤
تربول (عقار طبى)	»	»	١	١/٤
حب الملوك (»)	»	»	٥	١ ١/٤
كحل	»	»	٦	١ ١/٢
تحيوى (عقار طبى)	»	»	١٦	٤
زاهيبول (»)	»	»	١١٧	٢٩ ١/٤
إتمدية (»)	»	»	١٩	٤ ٣/٤
كبيلة (»)	»	»	٣٦	٩
سكوين	»	»	٢	١/٢
تار (عقار طبى)	»	»	١	١/٤
قفل(حتب عطرى)	»	»	١	١/٤

ولا يشتمل الجدول الأخير ، الخاص بالسلع الواردة عن طريق السويس ، من الجزيرة العربية ومن الهند ، إلا على جزء من السلع التى ترد عن هذه المناطق فلقد قلنا فى مناسبة سابقة إن السلع الواردة عن طريق قوافل الحج من مكة ، لم تكن لتدفع أية رسوم جمركية .

وينقصنا ، لكى نستكمل معلوماتنا حول التجارة كما تقدمها سجلات الجمارك ، تلك المعلومات التى تتصل بمكاتب القصير ورشيد والاسكندرية .

وقد كانت رسوم القصير تحصل لصالح كاشف قنا ، ومع ذلك فلم تواتنى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفرصة أثناء إقامتى فى قنا لكى أتزود بجداول تشبه تلك التى أوردتها فيما سبق ؛ كما كان جمرك رشيد قليل الأهمية ، ولم تكن أهميته لتزيد إلا عندما تعانى بعض بلدان أوربا من القحط ، عندئذ كانت الحبوب ، وبخاصة الأرز ، تصبح موضوعاً لشحنات ضخمة بعض الشئ ؛ وكانت هذه الشحنات تبحر من رشيد على صنادل تنقلها إلى الاسكندرية ، حيث تنقلها من هناك سفن أوربية .

ويستخلص من قوائم جمرك دمياط عن السنوات من ١٧٩١ إلى ١٧٩٨ أن كمية الأرز التى كانت تصدر عن طريق هذا الميناء قد بلغت خلال هذه السنوات الثمانى إلى ٢٢٨,٣٥٧ أردباً ، بمتوسط يصل إلى ٢٨,٥٤٤ أردباً فى العام الواحد .

أما جمارك الاسكندرية ، فإننا لم نستطع الوقوف على أحوالها لأن مديرها كان قد مات بالطاعون أثناء إقامتنا فى مصر ، وقام مراقبو الشئون الصحية بإحراق كل أوراقه وسجلات إدارته ؛ وإن كان قد سلم إلينا بيان بحصيلة الرسوم المختلفة التى جمعت هناك منذ عام ١٢٠١ حتى ١٢١٠ من الهجرة ؛ ونستخلص من هذا البيان أن الحصيلة العامة لهذا المكتب قد بلغت خلال هذه السنوات العشر ١,٣٧٦,٠٩٨ بوطاقة فى حين بلغت مصاريف التحصيل ٣٤٠,٤٠٤ ، وبذلك يكون صافى الحصيلة خلال هذه السنوات العشر هو ١,٠٣٥,٦٩٤ بوطاقة ، أى بمتوسط سنوى يعادل ٣٢٢,٨٧٢ فرنكا من العملات التى نتداولها نحن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موجز وملاحظات عامة

رفعت ظاهرة الفيض السنوى لنهر النيل ، وكذا التتابع المنتظم لفصول العام ، عن كاهل سكان مصر ، عبء القيام بمعظم الأعمال التى تتطلبها الأرض من زراعها عادة فى مناطق أخرى ، وحيث لا يتطلب الأمر هناك – كى تعطى هذه الأرض محاصيلها الوفيرة والمتنوعة – سوى القيام بأدنى الجهود الممكنة ، فمن طبيعة الأمور إذن أن تظل الأساليب الزراعية هناك على نفس حالها ، وهكذا نتعرف هناك اليوم على ما سبق أن عرفه القدماء من نظم للرى وللبذر وللحصاد ! وإذا نحينا جانباً بعض الاستثناءات ، فسوف نجد القوم هناك لا يزالون يزرعون نفس الحبوب ، ونفس الخضروات ، ونفس المحاصيل التى تستخدم فى صنع المنسوجات . ولقد أوردنا من قبل أنهم لا يزالون فى مصر يحتفظون بنفس المقاييس الزراعية التى كانت تستخدم منذ الأزمنة السحيقة ، وأنه تبذر فى الأرض نفس الكمية التى كانت تبذر فى تلك الأزمنة البعيدة (لنفس المساحة) ، أما إذا لاحظ المرء وجود بعض فروق بين ما نورده اليوم ، وبين ما كان يحدث فى الماضى حسبما ترويه حكايات القدماء ، فلابد أن ننسب ذلك إلى مبالغات وقع فيها هؤلاء الذين حملوا الأمر على معايير أخرى حين أدهشتهم تلك الخصوبة الهائلة لأرض مصر ، والتى لا تتطلب كى تؤتى ثمارها إلاّ أقل جهد .

وفى واقع الأمر ؛ فلماذا لا يحق لهؤلاء أن يدهشوا من خصوبة أرض لا تحتاج فى معظم الأحيان حتى لأن تروى قبل أن تودع فى أحشائها البذور ، وتظل حتى فترة الحصاد وكأنها لا تقبل أن ينبت فيها محصول آخر ، وبذلك لا تحتاج لا للأسمدة ولا لتنقيتها من الأعشاب الضارة .

إن المزارعين هناك فى هذه الأرض ليس عليهم من مشقة يتحملونها سوى رى الأرض حين لا تغمرها المياه بشكل طبيعى ، أو حين يسعى هؤلاء إلى الحصول منها على زرعات عدة على مدار العام الواحد . ولقد أمكننا عن طريق قياس هذا العمل أن نقدر قوة الفرد العادى من رجال مصر . وسواء كان السبب يعود إلى العرق المستمر الذى ينهكهم تحت أشعة شمس حارقة ، أم كان يرجع إلى عدم كفاية الأطعمة التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتفقون عليها أو ربما إلى حقيقة أن رغبتهم فى تحسين أقدارهم ليست بالقدر الذى يمكنه أن يستثير همتهم فى ظل نظام للحياة لا يتيح للإنسان أن يأمل فى مستقبل أفضل – فإن الجهود التى يبذلونها فى الرى ، لا تمثل ، مع الاستخدام الأمثل لقواهم ، سوى ثلثى الجهد الذى يبذله فى أجوائنا رجال لهم نفس القامة ، ويعملون لنفس المدة من الوقت . صحيح أن هذا الفرق يلاحظ بنفس القدر فى الجهد الذى تبذله الماشية ؛ فالبقرة ، فى مصر التى تعلق فى ماكينة لرفع المياه من الخزانات لا تنتج إلا فيما ندر أكثر من ثلثى ما تنتجه جاموسة لها نفس القامة ، تعلق فى آلة مماثلة فى أوربا .

وحين نمتد بهذه المقارنة إلى أعمال الحرث ، ومع استخدام مقاييسنا الفرنسية ، فسوف نجد أن جاموستين مع سائقهما فى مصر ، يحرثون هكتاراً واحداً فى مدة ثلاثة أيام وثلث اليوم ، بافتراض أن يوم العمل يشتمل على عشر ساعات فى حين تلزم ، فى مناطق فرنسا التى تستخدم الأبقار فى الحرث ، أربعة أيام لإتمام نفس العمل فى نفس المساحة . وقد تبدو هذه النتيجة ، لأول وهلة ، متعارضة مع ما سبق لنا أن قررناه ، لكننا ، ببساطة ، نجد تفسيراً للأمر فى تلك الخفة المتناهية التى للمحراث المصرى مع قلة عمق الخطوط التى يشقها ، إذ لا يفعل المحراث المصرى فى واقع الأمر ، وعلى نحو ما ، سوى أن يخدش وجه الأرض .

ويبلغ متوسط أجر العامل فى اليوم فى صعيد مصر ٣٥ سنتيما ، وينخفض هذا الأجر بالنسبة لأعمال الرى إلى أدنى من ٢٢ سنتيما ، وقلما تزيد نفقات إطعام الواحد من هؤلاء العمال عن ١٢ سنتيما فى اليوم ، ويتكون هذا الطعام من خبز الذرة ، والخس ، والخضروات ، (ويحدث هذا طوال العام) ، فيما عدا شهر رمضان .

ونستطيع بصفة عامة أن نقدر ثمن طعام ومعيشة رجل يشتغل بالزراعة بـ ١٢٠ فرنكا فى العام .

وسوف نستخدم التفاصيل التى أوردناها عن أثمان الشراء ، وعن الطعام اليومى ، وعن رعاية الماشية التى يربيها المزارعون فى مصر ، أسسا للمقارنة بين تلك وبين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكاليف تربية الماشية فى فرنسا ، لكننا نضيف هنا أن المصريين لا يعرفون تسمين الماشية ولا أيا من الطيور الداجنة ؛ فهل يعود ذلك إلى الجهل المطبق من جانبهم ، أم تراه يعود إلى قناعتهم التامة التى تجعلهم لا يعلقون كبير أهمية على كمية اللحوم التى يتغذون عليها ، أم ترانا نستطيع أن ننسبه إلى غيبة المراعى الطبيعية فى مصر ؟ إن هذا الظرف الأخير يكفى وحده كى يضطرهم إلى أن يقتصروا فى عدد الحيوانات الأليفة التى يربونها ، على ما يفى بضروراتهم المباشرة . وهم فى الواقع لا يستطيعون أن يزيدوا من قطعانهم ، اللهم إلا إذا خصصوا مساحة للمراعى أكبر مما هو حادث الآن . وهذا يعنى أنهم سيحدون بدرجة كبيرة من محاصيل الحبوب التى تقتضى حاجتهم إليها التوسع فى زراعتها لأكبر حد ممكن ، ذلك أنه ينبغى عليهم ، بالإضافة إلى مالا مندوحة عنه لاستهلاك السكان ، أن يوفروا ، فضلا عن ذلك ، الحبوب اللازمة لتسديد الضرائب التى تحمل بها أرضهم – إذ لابد أن تسدد هذه الضرائب عينا ، كى تستطيع البلاد أن تسدد بها ثمن جزء من البضائع الأجنبية اللازمة لاستهلاكها .

وقد استوجب الأمر أن تصل المساحة المخصصة للمراعى فى صعيد مصر إلى سدس الأراضى المزروعة ، فى حين تصل هذه النسبة فى الدلتا إلى الثلث . ومن الإقليم الأخير تأتى جلود الأبقار والجاموس التى تستخدم فى فرنسا وإيطاليا .

ولا يستريح من الأراضى فى مصر (أى لا تزرع) إلا تلك التى لا تغمرها مياه الفيضان بشكل طبيعى ، والتى لا يمكنها كذلك أن تروى بوسائل صناعية .

أما عن خصوبة الأرض ، فإنها تبذر بواقع ١٥٥ لترا لكل هكتار ، ويبلغ الحصاد الناتج عن ذلك فى السنة الاعتيادية ٢٣٢٥ لترا . أما فى فرنسا ، فإننا نبذر فى أخصب أراضيها ٢ هكتولتر لكل هكتار لنحصل من ذلك على ٢٠ هكتولترا . وبذلك تنتج الأرض (فى مصر) ١٤ أو ١٥ مثلا من كمية البذور ، فى حين لا تنتج الأرض فى أخصب مقاطعاتنا سوى عشرة أمثال هذه الكمية ، ويصل الانتاج إلى ٣ أمثال فقط فى أردأ أراضى المقاطعات غير الخصيبة .

وهكذا ، فإن اتخذنا النسبة بين المحاصيل وبين كمية البذور فى مساحة معطاة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أساساً لتقدير خصوبة الأرض ، فإننا نقدر خصوبة أرض مصر بـ ١٥ ، مقابل متوسط خصوبة لأرض فرنسا يبلغ ½ ٦ ، وفضلا عن ذلك ، فلابد لنا أن نلاحظ أن من المحتم علينا أن نسمد أراضيا بوسائل صناعية ، فى حين لا تحتاج الأراضى المحيطة بضفاف النيل إلى شئ أكثر من أن تغمرها المياه بشكل طبيعى .

ويبلغ متوسط ثمن الهكتولتر من القمح فى مصر ٤ فرنكات و ٣٠ سنتيما ، فى حين أنه يبلغ اليوم [1] فى فرنسا نحو ١٤ فرنكا و٥٩ سنتيما : وبذلك تبلغ النسبة بين السعرين فى المتوسط ١٠٠ إلى ٣٣ .

وتتفق الفكرة التى قدمناها الان عن خصوبة مصر ، مع تلك التى تركها لنا الأقدمون عن نفس الشئ ، ولنضف إلى ذلك أنه من العسير أن نتبين سبيلا لإمكانية حدوث تغييرات محسوسة فى هذا الأمر ، فأية تحسينات يمكن أن ننتظر حدوثها فى الواقع من إدخال أساليب جديدة على الزراعة ، فى بلد تغنى فيه الطبيعة عن السماد ، بل وفى بعض الأحيان ، عن مجرد حرث الحقول ؟ فكلما كان العمل أكثر يسراً ، كلما قلت محاولات تطوير أساليبه .

ومع دلك ، فإذا كان علينا ألا نأمل فى جعل هذه الأرض أكثر خصوبة فسوف يظل بالإمكان أن نزيد مساحة الأراضى الخصيبة بمصر بشكل كبير ، فقد لا يتطلب الأمر إلاّ تهيئة النهر على نحو مناسب ، وذلك بحفر ترع جديدة وبإنشاء جسور جديدة ، أى باختصار ، بإقامة نظام للرى يتيح لأكبر مساحة من الأرض أن تفيد من الفيضان ، لأطول وقت ممكن من السنة .

وفى هذه الحالة ، يمكن لكل الأراضى أن تنتج محصولين أو ثلاثة محاصيل فى العام الواحد ، وهو الأمر الذى لا يحدث اليوم إلا فى بعض مناطق محظوظة ، وإن كانت هذه حالة محدودة للغاية .

وإذا ما تضاعفت هذه المحاصيل ، فسوف تحتاج حقيقة ، وبشكل دائم إلى

---

(١) نهاية أبريل ١٨٢٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رى صناعى يحتاج نمطه المتبع (الآن) إلى تحسينات جذرية ، إذ تستهلك الحيوانات والرجال الذين يديرون ماكينات الرى الحالية ، بسبب خشونتها وبدائيتها قدراً هائلا من قواهم للتغلب على العقبات الناتجة عن بناء هذه الماكينات بشكل ردىء ؛ ويمكن لهذه الآلات أن يتضاعف حجم إنتاجها النافع لو أن العمال الذين ينفذونها قد أصبحوا أكثر مهارة — ولسنا نقول لو أنه كانت لديهم نماذج أو تصميمات أفضل ، إذ أن الدلاء والماكينات ذات القواديس أو ذات الثقوب ، هى أكثر وسائل الرى سهولة عندما لا تكون فى حوزة الناس محركات آلية . وتدفع كل الشواهد على الاعتقاد بأن هذه الوسائل المستخدمة فى مصر منذ زمان سحيق ، كانت تصنع فيما مضى على نحو أفضل بكثير ، بل إننا على ثقة بأنهم كانوا يستخدمون فى عصرهم ، لولب الاغتراف الذى يحمل اسم أرشميدس ، والذى لا نعثر له اليوم على أثر ، إذ أن الناس — وقد تدهورت الحضارة — قد بدأوا يكفون شيئاً فشيئاً عن استخدام الوسائل المختلفة التى يقتضى صنعها درجة معينة من المهارة .

وإذا نحن أقمنا نظاماً أفضل للرى ولآلاته ، فسوف نزيد بلا جدال كمية ما تغله أراضى مصر ، ومع ذلك فان ما سوف يزيد غلة الأرض بدرجة فريدة هو بالأحرى وجود نظام يجعل الفلاح مساهما فى امتلاك الأرض ، فهو لا يزرعها اليوم إلا لكى يقتات ولكى يسدد الضرائب ، ولو أن ما نقول قد حدث ، فلسوف يزرعها ليحيا بشكل أفضل وأيسر ؛ وحين يثق الفلاحون فى أنهم سيفيدون من جهودهم الشاقة فسوف نجد فى متناولهم حصاداً أكثر وفرة .

ولقد شغلت الجنرال ديزيه Desaix كثيراً ، فكرة تقسيم جزء من أرض الصعيد على الفلاحين ، وكان هو ينظر إلى تنفيذ هذه الفكرة باعتبارها الوسيلة الأكيدة للإسراع بخطى الحضارة فى هذه البلاد ، ولجعلها تتمتع على وجه السرعة بثمرة التطورات الأساسية التى ستصاحبها .

ومع ذلك فلا يمكن أن يتعهد بمحاصيل باهظة التكاليف مثل السكر والنيلة ، جريا وراء الأرباح الهائلة التى لا يحصل عليها سوى الملاك (وليس الأجراء أو المزارعين) . .

وهذا هو السبب فى أن أرباح هذه المحاصيل كانت قسمة بين البكوات والكشاف ، فلقد كان هؤلاء يمتلكون بعض قرى خصصت أراضيها لهذا النوع من الاستغلال .

وعلى الرغم من أن فن إنشاء وإقامة ماكينات رفع مياه الرى قد تدهور فى مصر مع إنطفاء ضوء آخر أشعة الحضارة هناك ، فإن الضرورة لم تسمح لهذا الفن أن يبيد على نحو تام ، فى حين أن ممارسة عدد كبير من الفنون الأخرى – وهى التى كانت تمارس هناك فيما مضى بدرجة معينة من الجودة – قد ذهبت بدداً .

فلنقارن إذن أكبر منشآت مصر الحديثة بمبانيها القديمة التى لا تزال تنتشر فوق أرض البلاد ، ولسوف نكتشف أى عمارة عالية تلك التى هوت . إن الإنسان لتصدمه الدهشة حين يشاهد هذه المعابد والقصور بأحجامها الهائلة . ومن يرى التماثيل بنقوشها الغائرة أو البارزة التى تزينها ، لابد له أن يبدى إعجابه ببراعة ومهارة العمال الذين نفذوها ، ومن جهة أخرى فلابد أن عدد هؤلاء كان كبيراً للغاية ، إذ تركوا فوق جزء من أرض البلاد شيئاً من إنتاجهم ، تلك البلاد التى قد لا نجد بها اليوم ، رجلا واحداً يستطيع مجرد أن يرسم وجها أو يجسم شكلا فى بساطة .

لكن الظلمات التى ترين على العصور القديمة تحجب عنا العصور التاريخية المختلفة التى أقيمت فيها معظم هذه المنشآت . وفى الوقت نفسه ، فكم من قرون لابد وقد انقضت قبل أن يأخذ الإنسان على عاتقه عبء استغلال المحاجر للحصول على كتل الجرانيت التى صنعت منها المسلات ، وكم من القرون قد انقضت قبل أن يتخيل الوسائل اللازمة لتحريك هذه الكتل الضخمة ونقلها إلى مسافات كبيرة ، وقبل أن يستخرج المعادن من مناجمها كى يصنع منها الأدوات الضرورية والخاصة بقطع هذه المسلات وتشذيبها ، وحفر النقوش الهيروغليفية الغائرة ، والتى تزدان بها أسطحها ، بدقة وجودة ملحوظتين .

ومن الواضح أن كانت لدى قدماء المصريين فنون أخرى نافعة للحياة ، أو التى كان من شأنها على الأقل أن تزيد من مباهجها ، متقدمة بنفس القدر الذى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصلت إليه العمارة والنحت ؛ كما كانت رسومهم ، وورق البردى الذى يستخدمونه ، ونوع الكرتون الذى يستعملونه فى صنع صناديق مومياواتهم ، ناهيك عن فن التحنيط .. كان كل ذلك يتطلب – بلا جدال – استعدادات ومهارات لا يمكن لها إلا أن تكون نتاجاً لجهودات كثيرة ولخبرات طويلة . ويمكننا أن نطنب فى الحديث عن منسوجاتهم التى وصلت إلينا مزق منها . وأخيراً فان الآلات الموسيقية ، والأسلحة ، والعجلات الحربية ، والاستعدادات التى نراها فى مقابر الملوك فى طيبة هى بالمثل أدلة على حضارة متقدمة ، وفن صناعى كان يغطى مجالات كثيرة ؛ وتقدم كتب موسى فى هذا الصدد شهادات لا يتطرق إليها شك ، إذ أن التوجيهات التى تقدمها لبنى إسرائيل لبناء المظلة وذبح الأضحيات ، وإنشاء أفنية المعابد ، والمباخر ، بالإضافة إلى الأوصاف التى تقدمها عن شكل وخامة ملابس رجال الدين ، إن هذا كله ليس سوى معطيات من الفنون المصرية ؛ ولابد أن يلفت نظرنا من بين كل هذه الفنون ، فن استخدام المعادن المختلفة ، وهو الذى يفترض وجود خبرة موغلة فى القدم فى استغلال المناجم ، كما ينبغى أن نولى التفاتاً لفن صقل الأحجار الكريمة بالغة الصلابة ، ورسم النقوش عليها ، وكذلك نسج الأقمشة الفاخرة ، وإعداد الجلود وصباغتها بالألوان المختلفة ، كما يوضح لنا كل ما سبق تلك السرعة المفترضة فى مسيرة الحضارة ، فى عصور العالم الأولى ، وكذلك حالة المعارف الإنسانية فى مصر فى زمن موسى ، مما يعطى أدلة لا يمكن دحضها على أن المصريين فى ذلك العهد كانوا يمثلون شعبا ضاربا فى القدم . ومع ذلك فانهم يظهرون اليوم فى مظهر شعب يبدو وكأنما قد خرج لتوه من طور التوحش ، كما يمكن القول كذلك بأنه لا يمارس إلا فنوناً بدائية خشنة من النوع الذى يكفى لسد الاحتياجات الأولى للانسان : فصناعة الحصر والأقمشة الكتانية والصوفية ظلت قائمة بالريف إذ هى ترتبط بالحياة الزراعية ، ولذلك فقد كان من المحتم على الدوام أن تهيىء مثل هذه الصناعات عملا طبيعياً للمزارعين خلال وقت الفيضان .

وليست معظم المدن ، فى ظل العلاقات الصناعية (علاقات الإنتاج) التى تمارس هناك ، سوى قرى كبيرة ، وهناك يعمل بعض الأقباط بالمعادن النفيسة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهناك كذلك يمارس بعض اليهود والأرمن مهنة الصاغة ، وهذا هو ما انتهت إليه حال فنون الترف فى مصر ، فإذا كانت لا تزال هناك بعض بيوت تزينها أعمدة من الرخام والجرانيت المشذب ، فليست هذه العمد سوى أنقاض انتزعت من بقايا منشآت قديمة ، وعبثاً يعثر المرء بدءا من الفانتين حتى الاسكندرية ، على عامل واحد ، بمقدوره أن ينجز عمدا مشابهة .

ولسوف تخرج هذه البلاد بالتأكيد من حالة التدهور التى تردت إليها . ولسوف تنشأ هناك ذات يوم ضروب جديدة من الصناعة ، لكننا ، منذ الآن ، نستطيع أن نحدد تلك الدائرة الضيقة التى سوف تنحصر هذه الصناعة فى إسارها ، فليست هناك فى الواقع مجارى مياه ولا وقود يمكنه أن يحرك العجلات الهيدروليكية أو الآلات البخارية ، تلك المحركات غير الحيوانية التى تدين لها الصناعة الحديثة بتطورها المذهل . ومع ذلك ، فقد تشكل قوة الرياح وانتظامها وسيلة تقوم مقام عمل الإنسان والحيوان فى أعمال الرى وطحن الحبوب ، وصناعة الزيوت ، وتبييض الأرز ، ورغم ذلك فلابد قبل إقامة طواحين الهواء أن نطور بناء السواقى ذات القواديس وذات الثقوب ، والدلاء ، وبشكل عام كل الماكينات المخصصة لجلب المياه إلى الأرض ، تلك التى ستظل زراعتها على الدوام أكثر الأعمال إنتاجية فى مصر ، وهذا هو السبب فى أن تجهيز القرطم ، وصناعة صبغة النيلة ، والسكر ، ستكون هى المجالات التى ستعمل بها أول المصانع التى ستزدهر فى هذه البلاد ، وتأتى بعد ذلك مصانع ملح النوشادر ، ونترات البوتاسيوم التى توجد مادتها الخام بوفرة ، بل ونستطيع القول ، بدون نفقات يمكن أن يتكلفها أولئك الرجال الأذكياء الذين سينقلون إلى مصر الوسائل التى تستخدمها أوربا اليوم للحصول على نفس المنتجات .

وفى نفس الوقت ، فلسوف تستمر صناعة الأقمشة الكتانية والقطنية اللازمة لتغذية احتياجات البلاد ، دون أن يمكننا ، على الأقل بشكل منطقى أن نأمل فى وصول هذه الصناعة هناك إلى هذه الدرجة من الجودة التى بلغتها فى الأزمنة الأخيرة فى أوربا ، فلن تستطيع مصر مطلقاً ، فى هذا المجال ، أن تدخل منافسة لأمم الغرب ، ولعل كل ما تبقى لها من الأمر هو أن تصدر إلينا الكتان والقطن اللذين تنتجهما ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وذلك بعد أن تستوفى منهما احتياجات شعبها ـ فسوف تظل هذه السلع على الدوام ، وهى التى نعدها نحن من المواد الخام ، منتجات أفضل مصانعها على الاطلاق وأكثرها ربحاً ، ونعنى بذلك . ونكرر ، أراضيها . (أى أن الأرض الزراعية هى أفضل مصانع مصر إن صح هذا التعبير) .

ويمكن إدخال تحسينات جديدة على فن تجهيز الجلود الفاسية، وهذه صناعة عريقة فى الشرق . وإذا ما أدخلنا – أخيراً – فى اعتبارنا أن الناس يجمعون النطرون من فوق سطح الأرض فى صحراوات مصر ، وأن الكثير من النباتات الزيتية يزدهر على ضفاف النيل ، وأن اليد العاملة من جهة أخرى ، أقل تكلفة بكثير عنها فى أوربا ، فإن من الميسور لنا أن نتنبأ بأن المصريين سوف ينتهى بهم الأمر بأن يأخذوا على عاتقهم ، وبأنفسهم صناعة الصابون بكميات كبيرة ، كى يزيدوا من حجم صادراتهم .

ولا يحتاج العمال كى يقوموا بأعمالهم المجهدة والبالغة المشقة لأن يتلقوا تدريباً على يد عمال أكثر مهارة ، لكن العلاقات التى لا يمكن لها أن تغيب أو تتوقف بين الأمم الأوربية وبين مصر سوف ترفع هنا من ممارسة هذه المهن إلى مستوى قريب من ذلك الذى بلغته عندنا . ولقد كانت تلك واحدة من أهم النتائج التى نجمت بالضرورة عن الحملة الفرنسية ، وأول نجاح أمكن لهذه الحملة أن تحققه .

وليست بمصر مناجم على الإطلاق ، مع أن الفنون التى انهمكت فى ممارستها منذ العصور القديمة ، بل بالغة القدم ، كانت تتطلب استخدام أدوات من الحديد والصلب والبرونز . ولقد كان من الضرورى لذلك أن تحصل مصر عن طريق التجارة على المواد اللازمة لصنع هذه الأدوات . فهل كانت تجلب إليها هذه المواد من أفريقيا عن طريق قوافل الحبشة ، أم من أواسط آسيا بواسطة السفن الفينيقية التى كانت تمخر عباب البحرين الأحمر والأبيض المتوسط ؟ ومع ذلك فلا يمكن أن يكون هذا هو المجال المناسب لدراسة مثل هذه القضية على أهميتها الفائقة وإن كنا نكتفى بملاحظة أن العلاقات التجارية القائمة بين شعب وآخر عن طريق الملاحة ، تفترض على الدوام وجود حالة من حضارة أكثر تقدماً عما تتطلبه العلاقات التى تستقر عن طريق الصلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأرضية بين الشعوب المتجاورة . ويقودنا ذلك إلى تقبل فكرة أن المصريين كانوا قد حصلوا على معادن من أواسط أفريقيا منذ وقت طويل وقبل أن تمدهم التجارة البحرية بهذه المواد ، ويدفع كل شئ على الاعتقاد ، فى واقع الأمر بأن المصريين قد صعدوا إلى الحبشة متبعين مجرى النيل ، وأسسوا على ضفافه ، وعلى التتابع ، المدن الكبرى التى كانت قواعد لامبراطوريتهم ؛ ومن ناحية أخرى ، فقد كان من السهل عليهم أن يجلبوا معهم – مع ما نقلوه – فنونا نشأت أصلا فى هذه البلاد وكذا الأدوات اللازمة لممارسة هذه الفنون نفسها أو على الأقل أن يواصلوا اجتلاب المادة التى تصنع منها هذه الأدوات من مناطق كانوا يجلبونها منها حتى هذا الوقت . وتتفق تلك الفكرة مع ما هو معروف من أن الحديد كان يصنع فى مملكة سنار وبلاد دارفور ، وفن معاملة المعادن لا يمكن له هناك أن يتبدد حيث توجد مناجمه ، وكلما كانت الوسائل المعدنية فى مكان ما لاتزال فى طور الطفولة كلما كان الاحتمال كبيراً فى أن الفن نفسه يعود إلى عصور بالغة القدم ، وفى الحقيقة ، فمن الواضح أنه حين تكتشف مناجم فى بلد جديد فلابد أن ينتقل إلى هذا البلد فن استغلال هذه المناجم بكل ما بلغه من تطور ، وتأسيساً على ذلك فإننا نستطيع أن ننتهى إلى حقيقة أن مصر قد بدأت تجارتها أولا مع أواسط أفريقيا ، وأنها لم تمارس أية علاقات تجارية أخرى حتى عصر سيزوستريس ، أول ملك من ملوكها يكون الأساطيل كما يقال ، ثم حذا خلفاؤه حذوه ، وواصلوا إرسال قوافل السفن التجارية إلى الهند . وكانت هذه التجارة (التى تمر بهذا الطريق) هى التى أدت بلا جدال إلى تراكم الثروات الكبيرة فى طيبة ، تلك الثروات التى أدت لبلوغ هذه المدينة درجة كبيرة من المدنية . وخلال هذه الفترة ، كانت الأساطيل التى أشرنا للتو إليها ترسو فى واحدة من النقاط على الخليج العربى (*) ، شديدة القرب من هذه المدينة العالمية القديمة التى كانت عاصمة المملكة المصرية .

وبعد تأسيس ممفيس كانت بضائع الهند تفرغ فى موقع آخر على البحر الأحمر أكثر اقتراباً من العاصمة الجديدة . وفى هذه الأوقات كان الفينيقيون هم سادة

(*) البحر الأحمر . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التجارة التى تتخذ طريقها فى هذا البحر ، وكذلك فى البحر الأبيض المتوسط ؛ وهكذا كانوا يجلبون إلى مصر منتجات الشرق والغرب .

وقد أدى تأسيس مدينة نقراطيس (٥) فى عهد أمازيس ، وقبول اليونانيين فى مصر فى عهد أبسماتيك إلى مد آفاق علاقات مصر لتتصل بأوربا ، وبدءاً من هذه الفترة ، أخذت هذه البلاد تصبح معروفة للأجانب على نحو أفضل مما كانت معروفة عليه حتى ذلك الحين ، كما بدأ هؤلاء الأجانب ينهلون منها المعارف التى ازدهرت هناك ، قبل أن تخرج الشعوب الأخرى من طور الهمجية بوقت طويل .

وكانت مصر تقدم فى مقابل السلع التى يوردها إليها الفينيقيون والقرطاجيون والإغريق ، منتجات أرضها ومصانعها . وحين نعود إلى بعض فترات من العصور القديمة ، فسوف نجد الأثيوبيين يمدونها بالذهب ، وخشب الأبنوس ، والعاج ، والعطور ، والعقاقير الطبية المختلفة ، كما كانت الهند تمدها بالأقمشة الفاخرة والتوابل ، والأحجار الكريمة ، أما الجزيرة العربية فكانت تمد مصر بالبخور والصمغ . وكان الفلسطينيون يأتون إليها للحصول على الحبوب والأقمشة ، ومن جهة أخرى فقد كان الفينيقيون والقرطاجيون يحملون معهم من مصر — على نفس سفنهم — مقابل المعادن (التى يجلبونها لها) ، العبيد ، والأقمشة الصوفية ، التى كانت تأتى إليها بقصد البيع ، وفيما بعد كان الإغريقيون يقايضون زيوتهم هناك بالسلع الثمينة القادمة من الهند وأثيوبيا والتى كانت مصر تقتسم تخزينها مع مدينة صور . وتقدم لنا الكتب العبرية حول تجارة هذه المنطقة معلومات موضوعية : فتخبرنا بما كان يسورد منها ، وما كان يجلب إليها فى عصر يوسف ، كما تدلنا على المؤن التى أمر سليمان بشرائها من هناك ، وأخيراً فعندما أخبر حزقيال وأشعيا بنبوءتهما ضد مدينة صور الرائعة فقد كان كل ما قالاه ينطبق على مصر ، التى كانت تقتسم أرباح هذه التجارة ، ثم آلت إليها كلها بعد تأسيس الاسكندرية فكانت تشكل جزءاً كبيراً من دخول مصر . وقد أخذ فلادليف ، ثانى ملوك الأسرة البطلمية ، على عاتقه عبء القيام بأعمال هائلة لاختصار المسافات وتعبيد الطرق التى كان يحتم على التجارة أن تسلكها ؛ لقد أراد أن

---

(٥) حاليا كوم جعيف (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يجنب السفن التى كانت تستخدم فى هذا الغرض مخاطر الملاحة الكامنة فى قاع البحر الأحمر ، فأمر ببناء مدينة بيرينيس ، على الشاطئ الغربى لهذا البحر ، وفوق مرتفعات أسوان .

وكان الاتصال بين بيرينيس ومدينة قفط يتم عبر صحراء يسترشد الإنسان خلالها أثناء الليل بالنجوم ، ثم بعد ذلك يشق طريقه فى مسار حدد هذا البطليموس نفسه اتجاهه بشكل ثابت ، حين عمل على حفر اثنى عشر خزاناً بطول الطريق تتجمع فيها مياه الأمطار ، لسد حاجة المسافرين ستة أو سبعة أيام ، وكانت السلع التى تصل إلى قفط ، تنقل عن طريق النيل والترع التى تتفرع منه حتى الاسكندرية ، ومن هناك كانت تصل إلى كل سواحل البحر الأبيض المتوسط .

ويعد الازدهار الذى حظيت به الإسكندرية حين كانت عاصمة للأمراء الإغريق دليلا أكيداً على ما حصلت عليه هذه المدينة من مكاسب هذه التجارة ، ولقد ظل هذا الازدهار – مع نشاط أكبر – حين أصبحت مصر تحت سيطرة الرومان ، ويقرر سترابون ، وهو الذى زار مصر مع أليوس جالوس Aelius Galus بعد وقت قصير من موت كليوباترة ، أنه شاهد بنفسه فى ميناء ميوس هرموس Myos Hormos مائة سفينة تقلع متجهة إلى الهند ، فى حين لم يكن بهذا الميناء فى عهد البطالمة كما يقول Les Legèdes إلا عدد ضئيل من السفن كانت تنهض بالقيام بهذه الملاحة .

وقد أدت الثروات التى حققتها هذه التجارة إلى ثراء ورفاهية روما فى عهد أباطرتها الأول كما يخبرنا بلين Pline الذى نقل إلينا بيانا بعدد وقيمة السلع التى كانت ترد عن طريق الاسكندرية ، وقد أدت الحكمة التى كانت تتسم بها حكومة تراجان ، وكذا الحرية التى كانت تتمتع بها التجارة فى عهد هذه الحكومة ، إلى اتساع آفاق هذه التجارة ، وأخيراً ، فبعد أن حطم الامبراطور أورليان مدينة تدمر (بالميرا) أصبحت التجارة تتم كلية عن طريق مصر .

وبعد خراب قفط ، فى عهد دقلديانوس ، أصبحت قوص ، وهى أبوللينوبوليس بارفا Apollinopolis Parva القديمة مستودعاً لهذه التجارة ، ويذكر أبو الفداء أن هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المدينة كانت تعد فى عصره المدينة الثانية فى مصر ، وكانت تتصل فعلا بمدينة القصير التى تبعد عنها بمسيرة نحو ثلاثة أيام وحسب ، والتى كان هذا الجغرافى أول من تحدث عنها . وإننا لنجهل ما هى على وجه الدقة تلك الفترة التى أهمل فيها طريق بيرينيس ، وإن كان من الأرجح أن العرب حين أهملوا القيام بأعمال الصيانة التى كانت لازمة ، قد وجدوا أن من الأفضل لهم أن يذهبوا إلى البحر الأحمر سالكين الطريق الأقصر .

وقد حدت الهمجية التى سقطت فى براثنها مصر ، وكذا الأحقاد القوية التى تفجرت بين المسيحين والأتراك ، حدا كل ذلك بالأولين إلى سلوك طريق آخر لنقل بضائع الهند . فكانوا يلتمسونها فى بعض الفترات عند شواطئ بحر قزوين . وإن كان البنادقة ، الذين يعرفون تماماً كيف يكبحون جماح معتقداتهم الدينية أمام مصالحهم التجارية ، قد حصلوا من سلاطين مصر على الإذن لهم بالإقامة فى الاسكندرية ، وسرعان ما استحوذوا ، على الرغم من الجهود المناوئة من جانب غرمائهم من أبناء جنوة وفلورنسا ، على تجارة واسعة ، يدينون لها أن وضعتهم ، طيلة قرون عدة ، فى الصف الأول من أمم أوربا .

ولقد أثارت عليهم الأرباح الطائلة التى كانوا يجنونها من هذه التجارة حفيظة العالم كله ، وبدأ البحث المحموم للوصول إلى مصادر تجارتهم عن طريق آخر . وقد أدى البحث عن هذا الطريق الآخر إلى اكتشاف أمريكا ، وثنى على ذلك اكتشاف رأس الرجاء الصالح بعد هذا بعدة سنوات .

ولقد شعرت جمهورية البندقية بالضربة التى تتهددها ، فارتبطت بمعاهدات جديدة ، تحالفت فيها مع المماليك ، الذين مضوا بتحريض منها إلى تهديد العالم المسيحى لإرغام البرتغاليين على العدول عن التجارة مع الهند التى كانوا قد أقاموا فيها .

أما البرتغاليون — من جانبهم — فقد أخذوا على عاتقهم ، عازمين على تأكيد سيطرتهم الكاملة على هذه التجارة ، مهمة تدمير موانئ البحر الأحمر ؛ بل يذكر أن ألبوكيرك قد تطلع ، حين فشل فى تنفيذ هذا المشروع ، إلى القيام بوضع خطة لتحويل مجرى النيل فى الحبشة ، حتى يجعل من مصر صحراء خالية من السكان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد حدثت تطورات لم يكن لتوقف تداعياتها أكثر الجهود الدبلوماسية مهارة ، كما قد فشلت الدبلوماسية البندقية فى مواجهة تلك الظروف القاهرة التى بدأت تجر كل الأمم التجارية على التوالى ، إلى المحيط الهندى عن طريق رأس الرجاء الصالح ؛ وفى الوقت الذى أخذ فيه التقـدم فى فن الملاحة يؤدى إلى تسهيل هذه الرحلة أكثر فأكثر ، كان استبداد حكام مصر وجهالتهم قد أديا إلى الانهيار شبه التام لتجارة الهند ، عبر هذه البلاد .

وفى ظروف كهذى ، فإن شق قناة تربط البحرين الأبيض والأحمر لن يكون سوى عون بالغ الضآلة لرعاية هذه التجارة ، حتى ولو أمكن استخدام المعارف والتزام الدقة الواجبة فى صيانتها . ومع ذلك فهل صحيح أن عملا كهذا يمكن له أن يوجد على الاطلاق ؟ وعلى الرغم من أن الشك الذى نؤسسه هنا يبدو صدمة لكل الأفكار التى تجمعت ، فثمة بعض أفكار تبرهن على أن شكا مثل هذا ، لا ينهض على غير أساس .

وينسب مؤرخو العصور القديمة إلى سيزوستريس الذى يحدد عهده بالعام ١٤٨٥ ق . م أنه قد قام بشق قناة كانت تربط النيل ببحر أريتريا ، ويفسر لنا ما يقوله هؤلاء المؤرخون عن مقدرة هذا الملك ، وعن الانتصارات التى حققها ، والأساطيل التى بناها ، كيف أمكن للروايات المتواترة أن تنسب إليه أقدم الأعمال التى تم انجازها فى مصر (أى التى نفذت قبله بوقت طويل) كما نسبت إليه تلك الأعمال التى لم يقدر لمشروعاتها ، التى لم تجل بخاطر أحد إلا فى قرون تالية ، أن تحتفظ بأسماء أصحابها بعيداً عن زوايا النسيان .

وبعد أن جلب أسماتيك المقيم فى سايس ، الاغريق إلى مصر ، وبعد أن سمح لهم بأن ينشئوا لأنفسهم فيها المدن ، أخذ نخاو ، ابنه وخليفته ، على عاتقه أن يحفر كما ذكر هيرودوت ، ترعة تربط النيل بالبحر الأحمر . وقد حكم نخاو قبل المسيحية بـ ١٦٠٠ عام .

أما تلك القناة التى ينبغى أن يكون سيزوستريس قد فتحها قبل ذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بتسعمائة عام ؛ فإنها لم تكن قد وحدت بعد حتى عصر أبسماتيك ، فى الوقت الذى كانت مصر تتمتع خلال هذه القرون التسعة بالإزدهار والقوة ! فلقد أنشئت بها المعابد والقصور التى لا تزال بقاياها تشهد حتى اليوم بعظمة وقوة الملوك الذين أنشأوها .

ويذكر التاريخ أن نخاو بعد أن فقد مائة وعشرين ألف رجل فى أعمال حفر هذه الترعة قد اضطر للتخلى عن المشروع . ويذكر التاريخ كذلك ، أن داريوس ابن هستاسبيز ، بعد ذلك بقرنين ، وبعد أن انضوت مصر تحت السيطرة الفارسية ، قد بدأ بدوره فى تنفيذ مثل هذا المشروع ، لكنه تخلى هو الآخر عنه خشية أن تغرق مصر مياه البحر الأحمر عندما ينتهى العمل فى هذه القناة . هكذا نجد من الثابت أنه لم تكن هناك مطلقاً أية صلة بين النيل وبحر أريتريا حتى قبل مولد المسيح بنحو أربعمائة عام .

ويتفق كل من ديودور الصقلى وسترابون فى القول بأن بطليموس فيلادلف خلال العهد المقدونى ، قد أمر بحفر هذه القناة ، ووصل بها إلى ميناء يقع على البحر الأحمر ، أطلق عليه اسم أرسنويه أو كليوباتريس ، لكن القناه أقفلت عند هذه الفتحة بفعل مشروع أطلق عليه اسم أوريب Euripe ، ولم يكن بمقدور هذا المشروع ، قبل اختراع الأهوسة ذات الأبواب المزدوجة أن يكون سوى خزان بسيط ، وفضلاً عن ذلك ، فإذا ما نحينا الشك المتولد عن صمت القدماء حول شكل هذا المشروع ، فسيظل من الثابت على الأقل ، أن تلك القناة التى أشرنا إليها لم تكن بعد موجودة على الإطلاق خلال الفترة التى تولى العرش فيها بطليموس فيلادلف ، أى قبل مولد المسيح بقرنين .

وفى العام ١٣٢ من الميلاد شق الأمبراطور أدريان من بابيلون فى مصر حتى فاربونوس ، بلبيس حالياً ، ترعة اسماها قناة تراجان Trajanus Amnis وعند هذه النقطة فيما يذكر ، كانت هذه الترعة تلتقى مع قناة نخاو أو داريوس ، والتى كانت تتوغل حتى تبلغ البحر الأحمر : وهكذا لم يكن هناك فى وقت تولية أدريان أى اتصال ملاحى مستقر بين هذا البحر وبين البحر المتوسط .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد كانت قناة تراجان هذه ، هى تلك التى يذكر المؤرخون العرب أنه قد أعيد حفرها على يد عمرو ، حاكم مصر ، عام ٦٤٣ ، وإن كانت الرواية التى يقدمونها فى هذا الصدد تزخر بخرافات لا يمكن أن نوليها أية ثقة ، وفى النهاية نجدهم يذكرون أن فتحة هذه القناة قد سدت عام ٧٧٥ ، وانها ظلت منذ هذا التاريخ على نفس الحالة التى نراها عليها اليوم .

نستخلص من هذه الشهادات التاريخية ، أنه فيما بين سيزوستريس ، والخليفة جعفر المنصور ، أى خلال فترة زمنية تبلغ ستين ومائتين وألفين من الأعوام ، نستطيع أن نحدد خمسة أوقات محددة لم يوجد خلالها مطلقاً أى اتصال مباشر ، سواء بين النيل والبحر الأحمر ، أو بين البحر الأحمر والأبيض المتوسط ؛ ومن جهة أخرى فإن هذه الفترات الخمس تتوافق ، على وجه الدقة مع مجئ سلطات جديدة خضعت مصر لسيادتها الواحدة بعد الأخرى ، وفى واقع الأمر ، فحين استولى الفرس على مصر ، لم يجد داريوس هناك تلك القناة التى نسبت أولا إلى سيزوستريس ، ثم إلى نخاو . فأخذ هو على عاتقه أن يحفرها . وفعل بطليموس فيلادلف نفس الشئ فى عصر الإغريق . وقام بنفس العمل فى عصر الرومان الامبراطور أردريان ، أما الذى قام بذلك فى عهد العرب فهو الخليفة عمر بن الخطاب . ولم يحرز أى من هؤلاء كبير نجاح فى هذا العمل . وهكذا نجد أنه لا المصريين ، ولا الفرس ، ولا الإغريق ، ولا الرومان ، ولا العرب قد أتموا هذا المشروع بشكل ناجح ، وإن كان هؤلاء جميعاً قد حاولوا انجاز هذا العمل كل منهم وراء الآخر . ويبدو لأول وهلة . أن انجاز هذا المشروع أمر بالغ السهولة ، وهذا صحيح بقدر ماهو صحيح أيضاً أن الغزاة مستعدون عادة للافادة من فتوحاتهم ، ولذلك فليس مما يثير الدهشة أن نجد أولئك الذين سقطت مصر فى قبضتهم قد عزموا — على التوالى — أن يفيدوا من المكاسب التى يعد بها هذا المشروع على النحو الذى يبدو عليه . ونحن أيضاً ألم ننظر إلى هذه القناة التى يمكن أن تصل السويس بالبحر المتوسط ، ما امتلكنا هذه المنطقة ، باعتبارها أول مشروع ينبغى أن يحظى بجل اهتمامنا ؟ .

ومع ذلك فقد ثبطت من عزيمتنا فى هذا الخصوص معارف أكثر عمقاً عن طبيعة المكان ، بل إن طبيعة التجارة التى نفتح لها هذا الطريق الجديد قد تحملنا على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تأجيل تنفيذ هذا المشروع ، فبضائع الهند التى تفرغ حمولاتها فى السويس هى من تلك الأصناف خفيفة الحمل غالية الثمن ، حتى أن مصاريف نقلها براً عبر البرزخ لا يمكنها أن تزيد بشكل محسوس من أثمانها فى مختلف مناطق أوربا . ومن جانب آخر ، فما دام المسلمون يقومون بقوافل الحج إلى مكة ، فسوف تظل هذه المدينة سوقاً كبيرة ، تتورع منها ، وبنفس الطريقة إلى كافة المناطق التى تدين بالإسلام ، بضائع الشرق وبضائع الغرب التى تصل إليها على ظهور الجمال ، بالإضافة إلى أن وجود هذا الدين فى حد ذاته سوف يحافظ على الدروب الحالية التى تسلكها التجارة ، كذلك فهناك سبب آخر يجنح إلى إبقاء التجارة هناك (فى مكة) : هو صعوبة حفر القناة الملاحية التى سوف تربط بين البحرين الأحمر والأبيض ، بالعمق والاتساع الكافيين لكى تتمكن السفن من المرور من بحر لآخر عن طريقها . هكذا سوف يظل على هذه السفن أن تفرغ حمولتها فى السويس وفى الاسكندرية ، وبذلك تصبح هاتان المدينتان ، بشكل خاص ، هما الأماكن الطبيعية لإقامة مستودعات تخزن فيها منتجات الشرق والغرب ، فإذا ما روعى أن تتداول هذه السلع بسرعة أكبر وبطريقة أفضل فلابد أن ينشأ فى هاتين المدينتين شعب تجارى أكبر عدداً وأكثر ثراء .

ومن جهة أخرى . فلسوف يجد الناس تحت سماء مصر ، وعلى كل سواحلها إقامة طيبة ، فى كل بقعة من أرضها ، حيث يسهل التزود بالمياه العذبة بوفرة . وفى هذا المجال ؛ فقد صنع الأقدمون للاسكندرية كل ما تبتغيه ، ليس فقط لتوفير ضرورات الحياة ، بل أكثر من ذلك لتيسير حياة الترف التى يجد الناس فى البحث عنها ، ولا يزال جزء من هذه الأعمال قائماً حتى اليوم ويكفى مجرد ترميمها أو صيانتها ، وإن كان الأمر ليس على هذا النحو فى السويس : فقد جلبت إليها المياه فيما مضى من العيون التى تنفجر عند سفح الساحل العربى ، لكن كمية هذه المياه ضئيلة لحد لا يسمح لهذه المنشأة أن تنمو ، إذ هى لا تدين بوجودها وبقائها إلا لقوانين الضرورة التى شاءت أن تحوز مصر والجزيرة العربية فى نهاية ذراع بحر يفصل بينهما ، محطا عاماً يمكن أن يتم عن طريقه تبادل السلع بينهما . ولسوف تصبح السويس مدينة هائلة ، والميناء الثانى لمصر فى اللحظة التى تمد إليها المياه الصالحة . وقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يستوجب الأمر الحصول على هذه المياه عن طريق النيل ، وذلك بمد فرع منه عند جنوب القاهرة يغذى القناة والمجرى الذى سيصحبها بالمياه ، لأطول وقت ممكن ، خلال الفترة التى تفصل بين فيضان وآخر . وقد يكون من المستطاع كذلك أن يكون هذا الفرع بالحجم المطلوب حتى يكون صالحاً لملاحة الصنادل التى قد تحمل الحبوب إلى السويس ، وتنقل منها البن والعقاقير التى خزنت بها على مدار العام . وبعد إتمام هذا العمل الهام ، فإن المخازن الكبرى التى ستقام تحت الأرض ، وصوامع الغلال الواسعة التى ستقام فوقها ، سوف تكون حافزاً كافياً لمجئ التجار إلى هذا الميناء ، مما يجعله بعد وقت قصير مزدهرا بالقدر الذى يمكن أن يبلغه ؛ ذلك أنه لابد لنا ألا نظن أن ازدهار السويس يمكن أن يزيد لغير ما حد لمجرد القيام ببعض تحسينات تتناولها ، فلسوف تظل القاهرة ، على الدوام ، وبفضل موقعها ، هى مركز العلاقات التجارية لمصر مع الحبشة وأواسط أفريقيا ، كما ستظل هى المركز الذى تتكدس فيه رءوس الأموال الوطنية ، ونتيجة لذلك ، فسوف تبقى هى المحط الضرورى بين مينائى السويس والاسكندرية .

ونحن نعرف كيف أن اكتشاف رأس الرجاء الصالح قد أضاع على مصر مكاسب تجارة الهند ، وكيف أن قارة جديدة قد جذبت ، خلال ثلاثمائة عام ، جزءاً من سكان العالم القديم . ولقد كانت المناجم والمحاصيل الزراعية الخاصة بهذه البلاد مصدراً لثروة جذبت إليها كل من تهيأت لهم روح المغامر الجسور للبحث عن الثراء خارج أوطانهم . ولقد أصبحت أمريكا مكتشفة بشكل أكثر ومعروفة بشكل أفضل مما هو معروف عليه الساحل الشمالى لأفريقيا ، مع أنه أقرب إلينا من أمريكا بكثير .

إن نظاماً جديداً للأشياء يتهيأ للحدوث ، ومهما تكن الأقدار المقبلة والتى تنتظر القارة الأمريكية ، فسوف تظل هذه القارة لوقت طويل ، ميداناً فسيحاً لمغامرات الأوربيين ، ولكننا عندما نكون بصدد مستعمرات ينبغى أن نقيمها ، فلابد أن نفعل ذلك فى مكان آخر ، ولعله كان من الأنسب لنا أن نتجه إلى هناك فى القرن الخامس عشر ، لكن أنظار العالم المتحضر تتركز اليوم كلية على أمريكا . إن الاكتشاف الخالد الذى حققه كريستوف كولمبس – ولعله أكبر حدث يمكن له أن يتحقق على مدار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ البشر – قد أعاد إلى الوراء ، حتى أيامنا هذه ، تلك اللحظة التى يتحتم أن تنشأ فيها بين شعوب الشرق وشعوب الغرب فى أوربا ، تلك العلاقات التى ستطمس شيئاً فشيئاً الفوارق والاختلافات بين عادات وتقاليد هذه وتلك من الشعوب . وها نحن نجد أنفسنا فى القرن التاسع عشر ، فى هذا الصدد ، عند نفس النقطة التى تركنا عليها ليون العاشر (٥) : ومن هذه النقطة سوف ننطلق : إن الحضارة سوف تنفذ إلى الشرق ، ولهذا السبب وحده ، ستتمكن الدول الأوربية من أن تجعل من الشرق ، خلال فترة من الزمن ، مسرحا لحروبها . ولقد جعلت حملتنا على مصر ، سكان هذه البلاد ، يأتلفون مع عادات تختلف عن عاداتهم ولقد وسع ذلك من أفق أفكارهم وأضعف من سطوة خرافاتهم عليهم . كما قدر هؤلاء من جانبهم ، التفوق الذى يؤهلنا له عليهم ممارسة فنوننا الحديثة ، وهم اليوم أكثر استعداداً لممارسة هذه الفنون عما كانوا عليه من قبل ، وإذا ما حدث أن خضعوا لحكومة عاقلة ومستنيرة فلن ينقصهم عندئذ إلا أن يتعرفوا على ثراء أرضهم وأن يقدروا الفوائد التى يحققها موقع بلادهم ، حتى تعود هذه البلاد لتصبح مرة أخرى مستودعاً لتجارة العالم القديم .

---

(٥) هو جان دى ميديتيش بابا روما من عام ١٥١٣ إلى ١٥٢١ ، وكان راعياً للفنون والآداب والعلوم ، وإن كانت خلافته قد شهدت مولد انشقاق مارتن لوثر . (المترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مستندات ووثائق

أولا

العلاقة بين الأردب من القمح

وبين وزنه بالقنطار من زنة مارك

فى العام الثامن من نشأة الجمهورية الفرنسية ، وبالتحديد فى الثامن عشر من شهر فندميير ، انتقلنا نحن جان بابتست رينييه ، المفوض العسكرى ، عقب صدور المرسوم الخاص بلجنة المواد التموينية ، المؤرخ فى ١٦ من هذا الشهر ، والذى عين بموجبه المواطن جارسان حارساً عاماً لمخزن المقياس ، ومكسيم كوديير ، الحارس العام الحالى للمكان المذكور ، ولوى إيلى كاف ، الموظف المعين من قبل اللجنة المذكورة لبيع الحبوب ، انتقلنا إلى جزيرة الروضة ، فى مخزن المقياس ، لكى نلمس :

أولا : علاقة أردب الشعير والقمح بالنسبة للقنطار Quintal (*) زنة مارك ؛

ثانيا : علاقة أردب القاهرة بالنسبة للصاع الفرنسى ؛ وعلاقة الأردب من القمح بالقنطار ، زنة باريس .

ولكى نقوم بالعملية التى أنيطت بنا بأكبر قدر من الدقة ، توجهنا إلى السوق العامة فى مصر العتيقة ، حيث عملنا بمعرفة الكيالين والوزانين العموميين بالسوق المذكورة على قياس ووزن ثلاثة أرادب من الحنطة ، أخذت من أكوام مختلفة ، وكانت النتيجة أن بلغ وزن الأردب الأول من الحنطة ٢٩٧ رطلا قائماً ، و ٢٦٩ رطلا قائماً من زنة مارك وذلك عند وزنه بالقبان ؛ أما الأردب الثانى فقد بلغ ٢٩٧ رطلا قائماً ، وبلغ وزنه بالقبان ، حسب زنة مارك ، $\frac{1}{4}$ ٢٦٣ رطلا ؛ فى حين أن الثالث قد وزن ٢٩٠ رطلا قائماً ، و $\frac{1}{4}$ ٢٦٣ رطلا قائماً من زنة مارك عند وزنه بالقبان .

(*) Quintal وهو يساوى ١٠٠ ك . ج ، فى حين يساوى القنطار المصرى ١٠٠ رطل فقط أى أن القنطار المصرى يساوى $\frac{4}{9}$ من هذا القنطار . أما الصاع فمكيال فرنسى يساوى ١٠ لترات . (المترجم) .

ينتج عن ذلك أن متوسط وزن الأردب هو ¼ ٢٨٥ رطلا قائماً ، زنة الرطل ١٤٤ درهماً ، كما أن متوسط وزنه حسب الميزان القبان ¼ ٢٦٧ رطلا قائماً زنة مارك .

أما وزن الأجولة الثلاثة مع أحبالها فقد بلغ وزنها ¼ ٣٠ رطلا ؛ وبلغت بالميزان القبان ¼ ٢٧ رطلا من زنة مارك ، مما ينقص وزن القمح إلى ٢٧٥ رطلا قائماً ، أما باستخدام القبان فإنه يصل إلى ٢٥٠ رطلا من زنة مارك .

وعندما عدنا إلى مخازن المقياس ، قمنا بتجربة جديدة ، فطلبنا أن تكال وتوزن ثلاثة أرادب من القمح ، أخذت من ثلاثة أماكن متفرقة .

وقد نتج عن ذلك أن الأردب الأول قد بلغ وزنه ٢٧٦ رطلا قائماً من زنة مارك ، وبلغ الثانى وزناً قدره ٢٧٠ رطلا قائماً ، والثالث ٢٦٣ رطلا ؛ وبذلك يكون متوسط وزن الأردب هو ⅔ ٢٦٩ رطلا قائماً ، وبحذف وزن الجوال والحبل ، يصل متوسط وزن الأردب إلى ٢٦٠ رطلا .

وحيث لم يكن لدينا مطلقاً فى مخازن المقياس فول ولا شعير ، بل ولم يكن يتوفر ذلك حتى فى السوق العمومية لمصر العتيقة ، فقد أنهينا وأقفلنا هذا المحضر .

حرر فى المقياس من أربع نسخ فى اليوم والشهر والسنة المبينة أعلاه .

طبق الأصل

رينييه جارسان ؛ ل.إ. كاف

ماكس كوديير

* * *

علاقة وزن أردب الشعير والفول بالقنطار زنة مارك وبالصاع الفرنسى

فى العام الثامن من قيام الجمهورية الفرنسية ، وفى التاسع عشر من شهر فندمير ، انتقلنا نحن جان بابتست رينييه ، المفوض العسكرى ، عقب صدور القرار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تشكيل لجنة المواد التموينية ، المؤرخ فى ١٦ من هذا الشهر ، والذى عين بمقتضاه المواطن جارسان حارساً عاماً لمخزن حبوب المقياس ، ومكسيم كوديير الحارس الحالى للمكان المذكور ، ولوى إيلى كاف ، الموظف المعين أيضاً من قبل نفس اللجنة المذكورة لشراء الحبوب ، وأنا المفوض العسكرى المذكور سابقاً – انتقلنا إلى مخازن الأعلاف فى بولاق بغرض تلمس :

أولا : العلاقة بين أردب الشعير والفول ، والقنطار من زنة مارك ؛

ثانياً : العلاقة بين أردب القاهرة والصاع الباريسى .

ولكى نقوم بالعملية الموكلة إلينا بأقصى قدر من الدقة ، قمنا باستدعاء كيالين ووزانين عموميين ؛ وفى حضور المواطن بورجان ، حارس مخازن الأعلاف ببولاق ، تم أخذ عدة أرادب من الشعير والفول من أماكن متفرقة فى المخزن ، وجاءت أوزان هذه الأرادب على النحو التالى :

وزن الأردب الأول ٢٤٤ رطلا قائما ، ووزنه بالقبان ٢٢٠ رطلا من زنة مارك ؛ وزن الأردب الثانى ٢٤٠ رطلا قائماً ، وبالقبان ٢١٨ رطلا من زنة مارك ؛ وزن الثالث ٢٣٧ رطلا قائماً ، وبالقبان ٢١٥ رطلا من زنة مارك .

وبهذا يكون متوسط وزن الأردب من الشعير ١/٣ ٢٤٠ رطلا قائما ، وبالقبان ٢/٣ ٢١٧ رطلا قائما من زنة مارك .

ويخصم من ذلك وزن الجوال والحبل وقدره ١/٢ ٨ أرطال أو ١/٢ ٧ أرطال من زنة مارك ، مما ينقص وزن الأردب من الشعير إلى ٢٣٢ رطلا ؛ وبالتالى إلى ٢١٠ رطلا قائما من زنة مارك .

وعندما كيلت أرادب الشعير بالصاع الباريسى أعطى كل منها ١/٢ ١٤ صاعا .

وقد أجريت نفس العمليات على عدة أرادب من الفول ، فوزن كل منها ٣٠٩ رطلا ، وبالقبان ٢٨٠ رطلا قائماً من زنة مارك ، وباستبعاد فرق الوزن ، بلغ وزن الأردب من الفول ٢/٣ ٣٠٠ رطلا قائما ، وبالقبان ٢/٣ ٢٧١ رطلا من زنة مارك ، قائما كذلك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما كيلت أرادب الفول المذكورة بالصاع الباريسى ، أعطى كل منها ½ ١٤ صاعا .

تم وأقفل المحضر الحالى ، وحرر من ٤ نسخ ، فى اليوم والشهر والسنة المبينة أعلاه .

طبق الأصل

رينييه جارسان ؛ ماكس كوديير ؛

ل . إ . كاف ؛ بورجان

ثانيا

أحلنا فى النص إلى تفاصيل مصاريف زراعة ، وناتج استغلال ١٠ أفدنة بذرت بالشعير البياضى والشتوى ؛ وبالعدس ، والحمص ، والترمس ، والبصل ، والحلبة ، والجلبان ، والبازلاء ، والسلجم ، والخس ، والقطن ، وقصب السكر ، والتبغ ؛ وتكمل التفاصيل التى نقدمها الآن ، تلك التى سبق أن أوردناها فى ثنايا هذه الدراسة .

١ – زراعة الشعير البياضى

مصاريف الزراعة

لا تحرث الأرض قبل البذار:

	بوطاقة	مدينى
١ – البذار : ¼ أردب للفدان ، ويساوى الأردب بوطاقة واحدة فيكون ثمن بذار ١٠ فدادين	٧	٤٥
٢ – عملية البذر : ١٠ أيام عمل ، أجرة اليوم ٨ مدينى ،فتبلغ التكاليف	–	٨٠
٣ – الحرث بعد البذر : ٢٠ يوم عمل لزوج من الثيران ولسائقيهم ، بأجرة ٤٥ بارة لليوم الواحد فتبلغ التكاليف	١٠	–
٤ – مصاريف الحصاد : ٤ أيام عمل لرجل واحد لحصاد		

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
الفدان ، أجره فى اليوم الواحد ٨ مدينى ، فيبلغ إجمالى التكاليف	٥٠	٣
٥ – الدرس : يدفع أجره عينا بواقع $\frac{1}{24}$ من الأردب مقابل عمل يوم واحد ، فتبلغ إجمالى التكاليف	٨٩	٣
٦ – النقل إلى الجرن وإلى المخازن : عشرة أيام عمل لجمل واحد ، أجرته فى اليوم الواحد ٢٠ مدينى ، فتبلغ التكاليف	٢٠	٢
إجمالى المصاريف	١٤	٢٨

الإنتاج
أو غلة المحصول

ينتج الفدان فى السنة الاعتيادية ٧ أرادب بعد اقتطاع مصاريف الدرس التى تدفع عينا ، ويباع الأردب ببوطاقة واحدة ، وبذلك يبلغ ثمن محصول الـ ١٠ فدادين	—	٧٠
الدرس : ويحسب خارج ناتج المحصول فى المادة السابقة ، ويقدر بـ ٤ أرادب يبلغ ثمنها	٨٩	٣
القش المهروس تحت النورج (التبن) ٧٠ حمولة ، تساوى الحمولة الواحدة ١٥ بارة ويبلغ إجمالى ثمنها	٥٠	١١
إجمالى الإنتاج	٤٩	٨٥
صافى الإنتاج (أى صافى الربح)	٣٥	٥٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ – الشعير الشتوى
مصاريف الزراعة

	مدينى	بوطاقة
١ – الحرث بعد البذر : مثل القمح الشتوى ، وتبلغ مجمل التكاليف	–	٨
٢ – البذور : ½ أردب للفدان الواحد ، بسعر بوطاقة واحدة للأردب فتبلغ التكاليف لـ ١٠ فدادين	–	٥
٣– البذر : ١٠ أيام عمل بأجر ٨ مدينى للفدان الواحد فتبلغ التكاليف	٨٠	–
٤ – الحرث بعد البذر	–	٨
٥ – الرى خلال أربعة شهور مثل القمح الشتوى وتبلغ تكاليفه	٨٠	٥٦
٦ – مصاريف الحصاد وتدفع عينا ، وتقدر نقداً بـ	٨١	٦
٧ – الدرس : ويدفع بالمثل عينا ، ويقدر نقدا بـ	–	٥
٨ – مصاريف النقل إلى موقع المخزن ؛ ١٢ يوم عمل لجمل واحد مقابل ٣ مدينى فى اليوم ، فتبلغ التكاليف	–	٤
إجمالى المصاريف	٦١	٩٤

الإنتاج

١ – مصاريف الحصاد والدرس : وحسبت فيما سبق وقد خصمت من ناتج المحصول وتبلغ	٨١	١١
٢– المحصول : ١١ أردبا من الشعير لكل فدان يبلغ إجمالى ثمنها ...	–	١٢٠
٣ – التبن : ٧٠ حمولة ثمن الواحدة ١٠ مدينى	٧٠	٧
إجمالى الإنتاج	٦١	١٣٩
صافى الإنتاج	–	٤٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ – العدس البياضى

مصاريف الزراعة

البيان	مدينى	بوطاقة
١ – البدار : يبذر ١٥/٢٤ من أردب العدس لكل فدان ، ويبلغ سعر الأردب بوطاقة واحدة ، فيكون مجموع الثمن	٢٢	٦
٢ – البذر : ٥ أيام عمل مقابل ٨ مدينى لكل يوم فيكون المجموع	٤٠	—
٣ – تغطية البذور : لا تحرث الأرض مطلقا بعد البذر ، ولكن تغطى البذور وذلك بسحب قطعة من الخشب أفقيا فوق الأرض المذورة : ويتطلب هذا العمل شغل رجل واحد لمدة خمسة أيام لكل فدان ، ويسدد أجر العامل بواقع ١/٢٤ من أردب العدس . وبواقع هذا فإن ٥٠ يوم عمل للعشرة فدادين تساوى ٢/٢٤ ٢ أردباً ، أو ما يقدر نقداً بـ	٨	٢
٤ – مصاريف الحصاد : يلزم ١٠ أيام لانتزاع نبات العدس لكل فدان ، وتسدد الأجرة عيناً بواقع ١/٢٤ من الأردب لكل يوم عمل . وتساوى الـ ١٠٠ يوم عمل اللازمة لحصاد العشرة فدادين ، حسب هذا السعر ، ٤ ١/٦ أرادب أو ما يقدر نقداً بـ	١٥	٤
٥ – الدرس تحت النورج ، وتنقية الحبوب .. الخ ، ويتطلب عمل ٤ رجال وأربعة ثيران ، يعملون جميعاً لمدة يوم لدرس وتنقية غلة فدان واحد فى اليوم .		
٦ – الدرس تحت النورج : ٩٠ يوم عمل بواقع ١/٢٤ من الأردب أجراً لليوم الواحد ، بما فى ذلك أجرة النورج ، تساوى بهذا السعر ٣ ١/٢ أرادب ، أو ما يقدر نقداً بـ	٣٠	٣
٧ – نقل المحصول إلى بيت المزارع : يتم نقل ٦٠ أردباً من		

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
العدس و ٣٠ حمولة من سيقانه المهروسة (التبن) فى ستة أيام ، تساوى بحساب أجر اليوم الواحد ٣٠ مدينى	–	٢
إجمالى المصاريف	٢٥	١٨

الإنتاج

ينتج الفدان الواحد فى ولاية سيوط عادة ٦ أرادب من العدس . ويساوى إنتاج عشرة فدادين بواقع بوطاقة واحدة لكل أردب	–	٦٠
مصاريف الحصاد مسددة نقداً على أساس $\frac{1}{2}$ ٧ أرادب	٤٥	٧
٤٠ مدينى لكل حمولة تبن ، فيبلغ سعر الثلاثين حمولة الناتجة عن ١٠ فدادين	٣٠	١٣
إجمالى الإنتاج	٧٥	٨٠
صافى الإنتاج	٥٠	٦٢

٤ – الحمص
مصاريف الزراعة

١ – عندما يكون الفيضان مواتياً ، يبذر الحمص دون أن تحرث الأرض ، فهى لا تحرث إلا فى السنوات التى لا يكون الفيضان فيها وفيراً : ولتعويض السنوات ذات الفيضان الضعيف بتلك التى تتمتع بفيضانات وفيرة ، فسنحسب هنا نصف المصاريف التى يكلفها الحرث ، وعلى هذا النحو تبلغ تكاليف حرث ١٠ فدادين	٤٠	٤

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
٢ – البذور : ١٣/٢٤ من الأردب للفدان الواحد ، سعر الأردب ١٠٥ مدينى ، فى عشرة فدادين ، فتبلغ المصاريف	٢٦	٧
٣ – البذر : خمسة أيام عمل لرجل واحد ، أجرة اليوم ٦ مدينى	٣٠	
٤ – الحرث بعد البذر : أو بالأحرى تغطية البذور بزحافة بمتوسط سعر يصل إلى	٤٤	٥
٥ – مصاريف الحصاد : تلزم تسعة أيام لاقتلاع غلة الفدان الواحد ، ويدفع فى مقابل عمل اليوم الواحد ١/٢٤ من الأردب ، وبذلك تصل تكاليف اقتلاع محصول ١٠ فدادين إلى ٤ ١٨/٢٤ من الأردب أى ما يساوى نقداً	٣٤	٤
٦ – الدرس تحت النورج وتنظيف (تنقية) الحبوب ، تسعون يوم عمل كما فى البند السابق ، يدفع كل واحد منها ١/٢٤ من الأردب ، فيبلغ مجموع ما يدفع ١٨/٢٤ ٤ أرادب ، أى ما يساوى نقداً	٣٤	٤
٧ – نقل المحصول إلى بيت المزارع : يتم نقل ٥٠ أردباً من الحمص ، بالإضافة إلى ٢٥ حمولة من التبن فى مدة خمسة أيام ، يدفع مقابل كل يوم منها ٢٥ مدينى ، فتبلغ جملة التكاليف ...	٣٥	١
إجمالى المصاريف	٦٣	٢٧

الإنتاج

١ – ينتج الفدان فى ولاية جرجا خمسة أرادب من الحمص فى العادة ، وتبلغ قيمة إنتاج عشرة فدادين ، باعتبار ثمن الأردب الواحد ١٠٥ مدينى	٣٠	٥٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
٢ – مصاريف الزراعة المسددة عيناً والتى استبعدت فى البند السابق من الإنتاج وتبلغ $\frac{1}{2}$ ٧ أرادب ، يبلغ ثمنها	٦٨	٨
٣ – خمسة وعشرون حمولة جمل من التبن ، بسعر ٢٥ مدينى للحمولة الواحدة	٣٠	٨
إجمالى الإنتاج	٣٨	٧٥
صافى الإنتاج	٦٥	٤٧

٥ – الترمس

١ – الحرث : عندما يكون الفيضان كاملا ، لا تروى مطلقاً الأرض التى ستزرع بالترمس ؛ فهذه لا تزرع إلا عندما يغطيها الفيضان بشكل كاف . وبافتراض أن عدد السنوات التى يكون فيضانها وفيراً يتساوى مع عدد السنوات ذات الفيضانات الضعيفة ، فليس لنا أن نحسب إلا نصف مصاريف الحرث المطلوبة فى السنة الاعتيادية ، وتبلغ هذه	٢	٥
٢ – البذور : $\frac{1}{2}$ أردب للفدان الواحد ، ٥ أرادب للعشرة فدادين ، بسعر ١٠٥ مدينى للأردب الواحد ، فتبلغ التكاليف	٣٥	٦
٣ – البذر : يلزم ستة رجال لبذر فدان واحد ؛ وتدفع أجورهم عيناً ويحصل كل منهم على $\frac{1}{24}$ من الأردب ، وتساوى ستين يوم عمل على أساس هذا الأجر $\frac{1}{2}$ ٢ أردب ؛ وذلك لبذر ١٠ فدادين ؛ وتساوى هذه الكمية بالنقود	١٧	٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
٤ – تغطية الأرض : عندما لا تحرث الأرض مطلقاً قبل البذر ، تغطى الأرض بواسطة زحافة ، وفى الحالة الأخرى فإنها تحرث مرة ثانية وتبلغ التكاليف فى الحالة الأولى $\frac{1}{12}$ ٢ أردب ، تبلغ قيمتها نقداً	٦٠	٢
وتبلغ تكاليفها فى الحالة الثانية	٢	٥
	٦٢	٧
وبذلك تكون التكاليف فى السنة الاعتيادية (أى فى المتوسط)	٧٦	٣
٥ – مصاريف الحصاد : يستطيع ثمانية رجال أن يقتلعوا فداناً من الترمس فى يوم واحد ؛ وتدفع أجورهم عيناً ويحصلون على $\frac{1}{24}$ من الأردب : وتساوى ٨٠ يوم عمل هى ما يتطلبها حصاد ١٠ فدادين $\frac{1}{3}$ ٣ أرادب ، وهذه تساوى نقداً ...	٢٣	٤
٦ – الدرس : لا تفصل حبوب الترمس بوضع النبات تحت النورج ، ولكنه يضرب بالعصى بعد أن يترك فى الشمس عدة أيام ليجف : ويستطيع ستة رجال أن يدرسوا فى اليوم غلة فدان واحد ؛ ويحصلون على أجورهم عيناً بواقع $\frac{1}{24}$ من الأردب (ليوم العمل) : وتساوى ٦٠ يوم عمل ، وهى الزمن المطلوب لدرس ١٠ فدادين ، وعلى هذا الأساس ، $\frac{1}{2}$ ٢ أردب ، يبلغ ثمنها	١٧	٣
٧ – النقل إلى مكان المخزن : عمل جمل واحد لمدة ستة أيام ، أجرة اليوم الواحد ٣٠ مدينى ، وبذلك تبلغ التكاليف	–	٢
إجمالى المصاريف	٨٠	٢٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنتاج

١ – ينتج الفدان ٥ أرادب من الترمس ، ثمن الأردب الواحد ١١٥ مدينى ، وبذلك يبلغ ثمن إنتاج عشرة فدادين.......	٨٠	٦٣
٢ – مصاريف الحصاد التى سددت عيناً والتى تضمنها البند السابق وخصمت من الناتج هى $\frac{٥}{٦}$ ٥ أرادب ، ثمن الأردب ١١٥ مدينى ، وبذلك يبلغ مجمل ثمنها	٤٠	٧
٣ – سيقان الترمس : وهذه تستخدم كوقود ، ويباع إنتاج الفدان الواحد ، ويبلغ حمولتين أو ثلاث حمولات جمل ، فى مقابل بوطاقة واحدة ، وبذلك يكون ثمن إنتاج العشرة فدادين ..	–	١٠
إجمالى الإنتاج	٣٠	٨١
صافى الإنتاج	٤٠	٥٣

٦ – البصل

تبذر بذور البصل فى البداية فى مساحة فدان ، وبعد مضى ستين يوماً تنقل شتلات البصل إلى ١٠ فدادين معدة لاستقبالها .

١ – حرث الفدان (الذى تبذر فيه البذور)	٧٠	–
٢ – استنبات البصل وتقسيم الأرض إلى مربعات	٤٠	١
٣ – البذور : يبذر فى هذا الفدان $\frac{١}{٢٤}$ من أردب البذور ، يبلغ ثمنها فى المتوسط ١٦ مدينى	١٦	١
٤ – رى المحصول أربع مرات خلال شهرين ، تحتاج لعشرين يوم عمل ، أجرة اليوم الواحد ٦ مدينى	٣٠	١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
٥ – حرث الـ ١٠ فدادين التى ستنتقل إليها الشتلات	٧٠	٧
٦ – غرس الشتلات ، ويتطلب أربعين يوم عمل للفدان مقابل ٦ مدينى لليوم الواحد ، فتبلغ التكاليف لعشرة فدادين	٦٠	٢٦
٧ – الرى ٤ مرات للعشرة فدادين ، ويتطلب رى فدان واحد فى كل مرة عمل ستة رجال ؛ وتساوى ٢٤٠ يوم عمل ، بواقع أجر اليوم الواحد ٦ مدينى	–	١٦
٨ – مصاريف الحصاد : يستطيع ستة عشر رجلا اقتلاع بصل الفدان فى يوم واحد : وتتكلف الـ ١٦٠ يوم عمل اللازمة لحصاد ١٠ فدادين ، بواقع أجرة اليوم الواحد ٦ مدينى .	٦٠	١٠
٩ – نقل المحصول إلى المزارع : ثمانية أيام عمل بالنسبة لجمل واحد ، أجرته عن اليوم الواحد ٢٥ مدينى	١٦	٢
إجمالى المصاريف	٢	٦٨

الإنتاج

ينتج الفدان الواحد ٢٠ إردباً من البصل ، تباع فى السنة الاعتيادية بواقع ١٠٦ مدينى للأردب الواحد ، فيبلغ إجمالى الثمن للـ ٢٠٠ أردب	٣٠	٢٣٥
صافى الإنتاج أى صافى الإيراد	٢٨	١٦٧

٧ – الحلبة

لا تحرث الأرض قبل البذار .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
١ – البذور : يبذر للفدان الواحد $\frac{١٤}{٢٤}$ من الأردب ثمن الأردب ١٢٥ مدينى ، أى $\frac{٥}{٦}$ ٥ أرادب للعشرة فدادين ، يبلغ ثمنها	٩	٨
٢ – البذر : ٥ أيام عمل ، فى مقابل ٨ مدينى لليوم الواحد..	٤٠	–
٣ – تغطية البذور : ٥٠ يوم عمل فى مقابل ٦ مدينى لليوم الواحد	٣٠	٣
ومن العشرة فدادين يحتفظ بفدانين كبذور ، وتستخدم الثمانية الأخرى كعلف أخضر .		
٤ – مصاريف الحصاد : يلزم ١٥ رجلا لاقتلاع محصول فدان واحد : ويدفع لكل منهم أجر يبلغ ٦ مدينى ، فتبلغ مصاريف ١٠ فدادين	–	١٠
٥ – درس ناتج الفدانين تحت النورج : ١٢ يوم عمل يدفع أجرها بواقع $\frac{١}{٢٤}$ من الأردب لليوم ، ويقدر ثمن الـ $\frac{٣}{٤}$ أردب نقداً بـ	٤	١
٦ – نقل الحبوب إلى المخزن : يوم عمل لجمل واحد مقابل ٣٠ مدينى	٣٠	–
إجمالى المصاريف	٢٣	٢٣

الإنتاج

	مدينى	بوطاقة
١ – إنتاج ١٠ فدادين (كذا وصحتها ٨) (علف أخضر) بواقع ١٠ بوطاقات قيمة إنتاج الفدان الواحد ، وبذلك تبلغ القيمة الإجمالية	–	٨٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مديني	بوطاقة
٢ – ينتج الفدان في السنة الاعتيادية ٤ أرادب من الحبوب ، سعر الأردب ١٢٥ مديني ، فيبلغ إنتاج الفدانين	١٠	١١
٣ – مصاريف الحصاد المدفوعة عيناً وتبلغ بالنقود.....	٤	١
٤ – تبن ، ويبلغ ١٠ حمولات حمل ، ثمن الحمولة الواحدة ١٥ مديني فتبلغ	٦٠	١
إجمالي الإنتاج	٧٤	٩٣
صافي الإنتاج	٥١	٧٠

٨ – الجلبان

١ – نفس التجهيزات التي يمر بها العدس وتكلف	٤٨	٢
٢ – البذور : $\frac{١٣}{٢٤}$ من الأردب للفدان الواحد ، ويبلغ ثمن الأردب ١٩٢ مديني ، أي أن كمية البذور اللازمة للعشرة فدادين تبلغ $\frac{١}{٢}$ ٦ أردب ، يبلغ ثمنها	٣٠	١٣
٣ – البذر : عشرة أيام عمل ، يدفع مقابل اليوم الواحد ٦ مديني	٦٠	—
٤ – تغطية البذور : الحرثة النانية وتبلغ تكاليفها......	٨	٢
٥ – مصاريف الحصاد : يحتاج اقتلاع محصول الفدان الواحد إلى ١٥ رجلا وبذلك يلزم لاقتلاع محصول عشرة فدادين خمسون يوم عمل ، أجرة اليوم	—	١٠
٦ – الدرس تحت النورج..........	٢٦	٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	بوطاقة	مدينى
٧ – نقل المحصول إلى المخزن ، يوم عمل لجمل واحد مقابل ٢٥ مدينى	–	٢٥
إجمالى المصاريف	٣٠	٨٧

الإنتاج

١ – يباع فدان الجلبان الذى يحصد فى شكل علف بـ ٩ بوطاقات وبذلك يبلغ ثمن بيع ٩ فدادين	٨١	–
٢ – وينتج الفدان الذى يحصد جافاً ٤ أرادب يبلغ ثمنها	٨	٤٧
٣ – درس فدان واحد تحت النورج		–
٤ – حمولتا جمل من التبن ، ثمن الحمولة الواحدة ٢٠ مدينى	–	٤٠
إجمالى الإنتاج	٩٠	٨٧
صافى الإنتاج	٦٠	–

٩ – البسلة

مصاريف الزراعة

١ – نفس التجهيزات التى تقدم للعدس	٣	٨٠
٢ – البذور $\frac{١٨}{٢٤}$ من الأردب للفدان الواحد ، ثمن الأردب ٢٤٠ مدينى فتبلغ الكمية اللازمة لـ ١٠ فدادين $\frac{١}{٢}$ ٧ أردب ثمنها	٢٠	–
٣ – البذر : خمسة عشر يوم عمل ، مقابل ٦ مدينى اليوم الواحد	١	–

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
٤ – تغطية الأرض بعد البذر	٨٤	٤
٥ – مصاريف الحصاد : يلزم ١٥ يوما لاقتلاع محصول فدان واحد ، ويكلف يوم العمل ٦ مدينى ، وتبلغ التكاليف لحصاد محصول عشرة فدادين..........................	–	١٠
٦ – درس محصول فدانين تحت النورج $\frac{٦}{٨}$ من الأردب ، ثمنها	–	٢
٧ – نقل المحصول إلى المخزن : عمل جمل واحد لمدة يوم مقابل ٢٠ مدينى	٢٠	–
إجمالى المصاريف	٤	٤٢

الإنتاج

	مدينى	بوطاقة
١ – يباع محصول فدان البسلة الذى يحصد وهو أخضر ، فى السنة الاعتيادية ، مقابل ١١ بوطاقة ، تبلغ لـ ٨ فدادين	–	٨٨
٢ – ينتج الفدانان اللذان يحصدان بعد جفافهما ٨ أرادب من البذور ، ثمن الأردب الواحد ٢٤٠ مدينى	٣٠	٢١
٣ – درس فدانين : حسبت عينا ضمن البند السابق	–	٢
٤ – التبن : حمولة جملين ، ثمن الحمولة ١٥ مدينى ...	٣٠	–
إجمالى الإنتاج	٦٠	١١١
صافى الإنتاج	٥٦	٦٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٠ – محصول السلجم
لا يحتاج المحصول إلى أية تجهيزات

	مدينى	بوطاقة
١ – البذور : يبذر ١/٢٤ من الأردب للفدان الواحد ، ويبلغ ثمن الأردب الواحد ١٨٠ مدينى ، وبذلك تتكلف العشرة أفدنة	٧٥	–
٢ – البذر : عشرة أيام عمل لرجل واحد تكفى لبذر عشرة فدادين مقابل ١٠ مدينى لكل يوم..................	١٠	١
٣ – مصاريف الحصاد : يستطيع عشرة رجال أن يقتلعوا فى يوم واحد محصول فدان واحد . ويدفع لكل منهم ٧ مدينى لكل يوم عمل ، وبذلك تبلغ تكاليف حصاد ١٠ فدادين	٧٠	٧
٤ – الدرس : ستة رجال يدرسون فى يوم واحد إنتاج الفدان مقابل ٧ مدينى لكل منهم ، فتبلغ تكاليف الـ ٦٠ يوم عمل اللازمة	٦٠	٤
٥ – تنظيف البذور مقابل ٢/٢٤ من الأردب لمحصول الفدان الواحد ، فتبلغ تكاليف تنظيف محصول ١٠ أفدنة	٦٠	١
٦ – نقل البذور : يوما عمل لجمل واحد مقابل ٣٠ مدينى عن اليوم	٦٠	–
إجمالى المصاريف	٦٥	١٦

الإنتاج

	مدينى	بوطاقة
١ – ينتج الفدان فى السنة الاعتيادية ٥ أرادب من بذور السلجم ثمن الأردب ١٨٠ مدينى ، أى أن إنتاج عشرة فدادين يصل إلى		١٠٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	بوطاقة	مدينى
٢ – الدرس ، ويدفع ما مقابله عينا ، وقد تضمنه البند السابق ويقدر نقداً بـ	١	٦٠
إجمالى الإنتاج	١٠١	٦٠
صافى الإنتاج	٨٤	٨٥

١١ – الخس

لا يزرع الخس وحده مطلقاً ولكن مع العدس أو الشعير ويبذر فى الفدان الواحد $\frac{١}{٣}$ أردب من بذور الخس..........

١ – بذر وحصاد العدس وتبلغ	١٩	٤
٢ – البدور $\frac{٢}{٢٤}$ من الأردب من بذور الخس للفدان الواحد سعر الأردب ٢ بوطاقة ، فيبلغ ثمن بذور ١٠ فدادين.....	١	٦٠
٣ – مصاريف الحصاد : سبعة أيام عمل لرجل واحد مقابل ٧ مدينى عن اليوم ، فيبلغ تكاليف حصاد ١٠ فدادين...	٥	٤٠
٤ – الدرس : ١٦ يوم عمل لمحصول الفدان الواحد مقابل ٧ مدينى عن اليوم ، فيبلغ تكاليف درس ١٠ فدادين ..	١٢	٤٠
٥ – نقل الخس إلى مكان المخزن : عمل جمل واحد لمدة يومين فى مقابل ٢٠ مدينى عن اليوم	–	٤٠
إجمالى المصاريف	٠٣٩	٤

الإنتاج

١ – الإنتاج من الخس	٣٧	٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
٢ – ينتج الفدان فى السنة الاعتيادية ٤ أرادب من البذور ثمن الأردب ٢ بوطاقة ، فيبلغ إنتاج ١٠ فدادين	–	٨٠
٣ – ١٠ حمولات جمل من سيقان الخس ، ثمن الحمولة الواحد ٢٥ مدينى	٧٠	٢
إجمالى الإنتاج	٧٥	١١٩
صافى الإنتاج	٧١	٨٠

١٢ – القطن

مصاريف الزراعة

١ – الحرث : حرثتان فى اتجاهين متقاطعين بحيث تكون كل منهما عمودية على الحرثة الأخرى	٥٠	١٥
٢ – تجهيز الأرض للرى (تحويلها إلى أحواض)	–	٣
٣ – الغرس : يلزم عشرون يوم عمل لغرس فدان واحد ، مقابل ٧ مدينى ليوم العمل ، وبذلك تبلغ تكاليف غرس ١٠ فدادين	٥٠	١٥
٤ – الرى : يروى القطن خلال ثمانية شهور فى العام ، ويمكن الأفتراض أنه يلزم خلال هذه المرحلة عمل متواصل لرجلين للفدان : ٤٨٠٠ يوم عمل مقابل ٦ مدينى لليوم الواحد لرى ١٠ فدادين ، تبلغ تكاليفها	–	٣٢٠

٥ – مصاريف الحصاد : نفس الرجال المستخدمون فى الرى يستخدمون أيضاً فى الحصاد ، ويلحق بهم خلال شهر ونصف طفلان عن كل فدان ، يدفع لكل منهما ٢ مدينى فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
اليوم ، وهكذا تبلغ تكاليف حصاد عشرة فدادين	–	٢٠
إجمالى المصاريف	–	٣٧٤

الإنتاج

	مدينى	بوطاقة
١ – ينتج الفدان الذى زرع بشكل جيد ٢ ½ قنطار من القطن ، يباع القنطار الواحد بـ ٢٠ بوطاقة فيبلغ ثمن إنتاج ١٠ فدادين	–	٥٠٠
٢ – ويفترض أن مصاريف الحرث والبذر قد سددت فى السنة الأولى من النباتات البقلية التى تزرع داخل الأحواض (مع القطن) أى ما يساوى	–	٣٤
إجمالى الإنتاج	–	٥٣٤
صافى الإنتاج	٨٠	١٥٩

١٣ – زراعة وتصنيع السكر

مصاريف الزراعة

	مدينى	بوطاقة
١ – المحراث : يلزم لاستغلال ١٠ فدادين محراث يبلغ ثمنه فى المتوسط ٢٢٥ مدينى ، ويمكن أن يبلغ عمر المحراث ١٠ سنوات وبتوزيع هذه القيمة على كل واحدة من هذه السنوات العشر فإن التكاليف السنوية تبلغ	٢٢	–
الربح المستحق للأقساط التى دفعت مقدماً بواقع ١٠٪ .	٢٢	–

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

		مدينى	بوطاقة
٢ – الحرث : لابد أن تحرث الأرض التى تزرع بقصب السكر سبع مرات متوالية ، ويلزم يومان لحرث الفدان الواحد مرة واحدة ، وتساوى ١٤٠ يوم عمل بواقع ٨ مدينى مقابل اليوم الواحد		٤٠	١٢
ويتم الحرث بواسطة ثيران المزارع :			
٣ – الثيران : يتطلب زراعة ١٠ أفدنة بقصب السكر استخدام ٢٠ ثوراً أو بقرة ، يباع الزوج منها فى المتوسط بـ ١٠٠ بوطاقة .			
الأرباح المستحقة للأقساط التى دفعت مقدماً		–	١٠٠
ولا نحسب هنا أى مقابل لحوادث هلاك الحيوانات ، لأن هذه الحوادث العارضة يعوضها ، بل يعوض أكثر من ثمنها ، الألبان التى تنتجها والذرية التى تعقبها .			
وتتغذى الثيران خلال سبعة شهور بالتبن والفول ويأكل زوج من الثيران ، كل شهر ، خمس حمولات من تبن القمح أو الشعير ، تساوى الحمولة الواحدة منها ٢٠ مدينى ، وأردباً واحداً من الفول ثمنه ١٠٥ مدينى ، وبذلك تبلغ تكاليف غداء زوج من الماشية خلال شهر واحد ٢٠٥ مدينى ، وتتكلف العشرة أزواج خلال سبعة شهور على هذا الأساس		٤٠	١٥٩
وفى أثناء الخمسة أشهر الأخرى يأكل الزوج من الثيران حشتين من فدان برسيم تقدران بـ ١٣ بوطاقة فتبلغ تكاليف اطعام ١٠ أزواج		–	١٣٠
غرس قصب السكر : يتطلب الغرس ٢٠ يوم عمل للفدان الواحد مقابل ٧ مدينى لكل يوم عمل ، وبدلك تبلغ تكاليف غرس ١٠ فدادين		٥٠	١٥

مدينى بوطاقة

ويأتى قصب السكر الذى يغرس دائماً من حقل يملكه المزارع .

٥ — ماكينة للرى (ساقية) : يتكلف إنشاء الساقية ١٠٠ بوطاقة ، وتستمر الساقية خمسين أو ستين عاماً .

الأرباح المستحقة للأقساط المدفوعة أولا بالنسبة لساقيتين

تلرمان لرى الـ ١٠ فدادين .... — ٢٠

النصيب السنوى .... — ٨

٦ — العناية بالثيران : يلزم أربعة رجال للعناية بالثيران وتشغيل الساقيتين ، يدفع لكل منهم ٣ بوطاقات فى الشهر ، أى ٣٦ بوطاقة فى السنة ، وبذلك يبلغ إجمالى ما يدفع لهم .... — ١٤٤

٧ — العزق وانتزاع العشب الضار : يخصص رجل لكل فدان لمدة ثمانية أشهر ، يدفع له بواقع ٦ مدينى فى اليوم فتبلغ التكاليف للعشرة أفدنة .... — ١٦٠

٨ — مصاريف الحصاد : يتم حصاد محصولى فدان واحد فى ١٥ يوماً ، ويستخدم رجلان فى هذا العمل ويدفع لهما بواقع رطلين من العسل الأسود يومياً . وتساوى الـ ٦٠٠ رطل التى تقدم مقابل حصاد ١٠ فدادين على هذا الأساس وبواقع ٣ مدينى لكل رطل عسل .... — ١٨

مصاريف التصنيع

١ — انشاء المصنع : يتكلف مصنع ينشأ لصناعة السكر ، ١٠٠ بوطاقة ؛ ويلزم إنشاء مصنعين لاستغلال سكر ١٠ فدادين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
ويقدر أنهما يستطيعان الاستمرار لمدة ٢٠ عاماً ؛ وبذلك يصل نصيب السنة الواحدة إلى	—	١٠
الربح المستحق عن الأقساط التى دفعت مقدماً	—	٢٠
الأقساط السنوية	—	٨
٢ — نقل قصب السكر إلى المصنع ؛ ٧٥ يوم عمل لجمل واحد فى مقابل ٢٠ مدينى عن كل يوم عمل	٦٠	١٦
٣ — الجرار: يفترض أنه ينبغى كل عام تجديد $\frac{1}{4}$ عدد الجرار المستخدمة فى تعبئة العسل الاسود ، وتساوى الجرة الواحدة ١٠ مدينى ، وبذلك يبلغ ثمن الـ ٨٠ جرة	٢٠	٢
مشتروات سنوية لأربعمائة إناء فخارية مخروطية الشكل تستخدم كقوالب ، تساوى الواحدة $\frac{1}{2}$ مدينى ، وبذلك يبلغ مجموع ثمن القوالب	٢٠	٢
٤ — اليد العاملة اللازمة للتصنيع : يستخدم فى كل مصنع رجلان لنزع أوراق قصب السكر ، وأربعة رجال لتحريك الطواحين (العصارات) ، ورجلان للغلاية ، ورجلان آخران لملاحظة النار ، أى أنه يلزم ٢٠ عاملا للمصنعين : ويعمل هؤلاء لمدة شهرين ، ويحصل كل منهم يوميا على رطلين من العسل الأسود ، وبذلك يتكلف ١٢٠٠ يوم عمل	—	٧٢
٥ — وقود : قش الذرة وحزم من قش الشعير	—	٤٠
إجمالى المصاريف	٤	٩٣٩

الإنتاج

١ — ينتج الفدان فى السنة الاعتيادية ٢٠ قنطارا من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

	مدينى	بوطاقة
السكر المصنوع ، ثمن القنطار ٩ بوطاقات و ٤٥ مدينى . وبذلك تبلغ قيمة إنتاج ١٠ فدادين	–	١٩٠٠
٢ – وينتج الفدان أكثر من ٧ قناطير من العسل الأسود ، ثمن القنطار الواحد ٣ بوطاقات . وبذلك تبلغ قيمة إجمالى الإنتاج من العسل	–	٢١٠
إجمالى الإنتاج	–	٢١١٠
صافى الإنتاج	٨٦	١١٧٠

١٤ – التبغ

مصاريف الزراعة

	مدينى	بوطاقة
١ – البذور : يبذر الدخان فى نفس حقول الذرة وفى نفس وقت زراعتها : ويبذر ١/٤٨ من الأردب لكل فدان ، بسعر ٦ مدينى لهذه الكمية ، وبذلك تبلغ تكاليف بذور ١٠ فدادين ..	–	٢
٢ – البذر	٢٠	١
٣ – حرثتان للأرض التى تزرع بالدخان	–	٢٠
٤ – إعادة شتل الدخان : يحتاج إعادة شتل الدخان فى فدان واحد إلى ٢٥ يوم عمل ، أجرة اليوم الواحد ١٠ مدينى ...	٧٠	٢٧
٥ – مصاريف الحصاد : يلزم ١٥ رجلا للقيام بحصدتين (حصادها مرتين) لكل فدان من التبغ . يدفع لكل واحد منهم ١٠ مدينى ، وبذلك تبلغ أجور حصاد ١٠ فدادين	٦٠	١٦
نقل المحصول إلى المزارع : عمل جمل واحد لمدة خمسة أيام لمحصول الـ ١٠ فدادين	٦٠	١
إجمالى المصاريف	٣٠	٦٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنتاج

	مدينى	بوطاقة
حصدتان لكل فدان ، تنتجان ٨ قناطير من ورق التبغ . ثمن القنطار ٣٢٥ مدينى ، وبذلك يبلغ قيمة محصول ١٠ فدادين	٨٠	٢٨٨
صافى الإنتاج	٥٠	٢١٩

انتهى بعون الله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفهرس

صفحة

المقدمة ٣

الكتاب الأول
الزراعة والصناعة والتجارة
(تأليف جيرار) ٥

الباب الأول
عن الحالة الراهنة للزراعة فى مصر ١١

الفصل الأول : حالة ومساحة الأرض القابلة للزراعة – أعمال الرى – الوسائل الصناعية للرى ١٣
الفصل الثانى : عن المحراث – النورج – الأدوات الزراعية الأخرى وعن الحيوانات التى تستخدم فى جرها ٢٢
الفصل الثالث : عن المقاييس الزراعية ، المكاييل ، الموازين ، النقود .. ٢٧
الفصل الرابع : عن حالة الفلاحين المصريين ، نبذة موجزة عن إدارة القرى ٣٤
الفصل الخامس : عن المحاصيل الزراعية فى مصر :
أولا : زراعة القمح ٤٣
ثانياً : زراعة الذرة والذرة الشامية ٤٧
ثالثاً : الأرز ٥٢
رابعاً : زراعة الشعير ٥٩
خامساً : زراعة العدس والحمص والترمس ٦٢
سادساً : زراعة الفول ٦٥
سابعاً : زراعة البصل والشمام والخضروات الأخرى ٦٦
ثامناً : زراعات البرسيم والحلبة والجلبان والبسلة ٧٠
تاسعاً : زراعة السلجم والخس والسمسم ٧٥
عاشراً : زراعة القرطم ٧٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صفحة

حادى عشر : زراعة الكتان ٨١
ثانى عشر : زراعة القطن ٨٦
ثالث عشر : رراعة النيلة ٩٠
رابع عشر : زراعة قصب السكر ٩٤
خامس عشر : زراعة التبغ ٩٥
سادس عشر : زراعة أشحار الورد ٩٦
سابع عشر : زراعة النخيل والكروم وبعض الأشجار
الأخرى ٩٧
الفصل السادس : عن الحيوانات التى يربيها الفلاحون ١٠٤
الفصل السابع : عن إعداد الحقول فى مناطق مصر المختلفة ١١١
الفصل الثامن : عن مكاسب الزراعة ، وعن الاستخدام الأفضل
للأرض فى مصر ١٢٤
أولا : زراعة القمح البياضى ١٢٤
ثانياً : رراعة الفول البياضى ١٢٧
ثالثاً : زراعة البرسيم البياضى ١٢٩
رابعاً : زراعة القرطم البياضى ١٣١
خامساً : زراعة الذرة النبارى ١٣٣
سادساً : زراعة النيلة ١٣٥
سابعاً : زراعة القمح الشتوى فى الفيوم ١٣٧
ثامناً : زراعة الكتان فى الدلتا ١٣٩
تاسعاً : زراعة الأرز ١٤٢
الفصل التاسع : عن حق الملكية وعن رسم تحصيل الضريبة ١٥٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ص

الباب الثانى

عن الحالة الراهنة للصناعة فى مصر ١٦٣

تمهيد ١٦٥

الفصل الأول : صناعة الآنية الفخارية وغيرها من الآنية وصناعات لبنات البناء النيئة والمحروقة ١٦٦

الفصل الثانى : صناعة المنسوجات القطنية والكتانية ومختلف أنواع الأقمشة ١٧٣

الفصل الثالث : صناعة الحصر ١٨٨

الفصل الرابع : الزيوت المختلفة وطريقة صنعها ١٩١

الفصل الخامس : صناعة البيد وأنواع الخل المختلفة والمياه الروحية ... ١٩٦

الفصل السادس : تقطير ماء الورد ١٩٨

الفصل السابع : صناعة السكر ٢٠٠

الفصل الثامن : صناعة ملح النوشادر ٢٠٣

الفصل التاسع : صناعة إفراخ البيض أو معامل التفريخ ٢٠٧

الفصل العاشر : عن الصيد ٢١٠

الفصل الحادى عشر : عن صناعة الملح البحرى وملح البارود ٢١٢

الفصل الثانى عشر : عن الصناعات والحرف وعن الصناعة فى المدن بشكل عام ٢١٤

الباب الثالث

عن الحالة الراهنة للتجارة عن المصريين ٢٢١

تمهيد ٢٢٢

الفصل الأول : عن التجارة الداخلية فى مصر ٢٢٣

الفصل الثانى : عن علاقات مصر التجارية مع أواسط أفريقيا ٢٣٦

١ – قافلة دارفور ٢٣٦

٢ – قافلة سنار ٢٤٧

ص
٣ – قافلة فزان ٢٥١
٤ – عن تجارة مصر مع دول البربر ٢٥٣
الفصل الثالث : علاقات مصر التجارية مع آسيا ٢٥٩
١ – التجارة مع سوريا ٢٥٩
٢ – تجارة مصر مع الجزيرة العربية والهند ٢٦٨
الفصل الرابع : عن العلاقات التجارية بين مصر وأوربا ٢٨٧
١ – تجارة مصر مع البندقية وتريستا ٢٨٨
٢ – تجارة مصر مع توسكانيا ٢٩٧
٣ – تجارة مصر مع فرنسا ٣٠٤
الفصل الخامس : بيانات عن التجارة كما تقدمها سجلات الجمارك ٣١٦
موجز وملاحظات عامة ٣٤٣
مستندات ووثائق ٣٦٢

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٨/٥١٧٩
الترقيم الدولي ١ – ٥١ – ٢٢٩٢ ٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)